الجزء الثاني من السراج المنير



فهرسة الجزء الثاني من تفسير العلامة الخطيب الشربيني

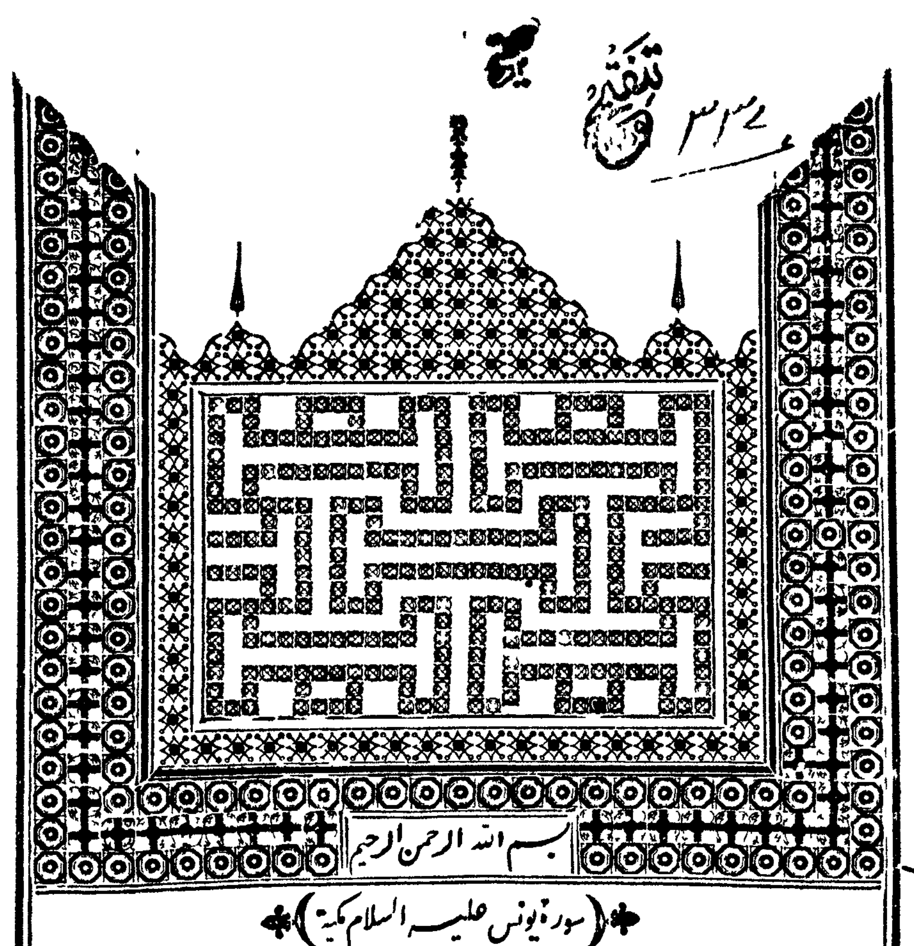


(تمت)

الجزء الثاني من السراج المنير في الاعانة على معرفة
بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير

للشيخ الامام الخطيب الشربيني
قدس الله روحه وعم
بالرحمة ضريحه
آمين

وبهامشه فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لشيخ الاسلام ومحقق
الانام الحبر الفاضل والبحر الوافر الكامل الامام أبي يحيى زكريا
الانصاري تغمده الله تعالى برحمته وأفاض علينا من سيب فضله الجاري



(سورة يونس عليه السلام مكية)

الا فان كنت فى شك الآيتين أو الثلاث أو ومنهم من يؤمن به الآية مائة وتسع أو عشر آيات وعدد كلماتها ألف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة وحروفها سبعة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون حرفا وهى أول المثين ان جعلناها براءة مع الانفال من الطوال والافبراءة أولاهن (بسم الله) جامع العباد بعد تفريقهم بماله من العظمة والامتنان (الرحمن) الذى عمهم بالايجاد وخص منهم من شاء بالايمان (الرحيم) الذى خص أولياءه بالرضوان المبهج للجنان (الر) قال ابن عباس والضحاك الر أنا الله أرى والمر أنا الله أعلم وأرى وقيل أنا الرب لارب غيرى وقال سعيد بن جبير الر وحم ون حروف اسم الرحمن وقد سبق الكلام على حروف الهجاء أول البقرة واتفقوا على ان الر وحده ليس آية واتفقوا على أن قوله طه وحده آية والفرق أن قوله تعالى الر لايشا كل مقاطع الآى التى بعده بخلاف قوله تعالى طه فانه يشا كل مقاطع الآى التى بعده وقرأ قالون وابن كثير وحفص بفتح الراء والالف بعدها وورش بين اللفظين والباقون بالامالة المحضة (تلك) اى الآيات العظيمة جدا التى اشتملت عليها هذه السورة أو السورة التى تقدمت هذه السورة أو هذه الحروف المقطعة المشيرة الى أن القرآن كلام الله تعالى قد أعجز القادرين عن التلفظ بهذه الاحرف (آيات الكتاب) اى الذكر الجامع لكل خير وهو هذا القرآن الذى وافق كل ما فيه من القصص كل ما فى التوراة والانجيل من ذلك فدل ذلك على صدق الآتى به قطعا لانه لم يكن يعرف شيأ من الكتابين ولا جالس أحدا يعلمه

(الحكيم)

•(سورة يونس عليه السلام)•

(قوله اليه مرجعكم) قال ذلك هنا وقال فى هود الى الله مرجعكم لان ما هنا خطاب للمؤمنين والكفار بقرينة ذكرهما بعد وما

(الحكيم) أى المحكم وقوله تعالى (أكان للناس) أى أهل مكة استفهام انكار للتعجب وقوله تعالى (عجبا) خبر كان والعجب تغير النفس بما لا تعرف سببه مما خرج عن العادة ثم ذكر الحامل على العجب وهو اسم كان بقوله تعالى (أن أوحينا) أى ايحاؤنا (الى رجل منهم) أى من أهل مكة ومن قريش وهو محمد صلى الله عليه وسلم يعرفون صدقه ونسبه وأمانته قيل كانوا يقولون العجب ان الله تعالى لم يجد رسولا يرسله الى الناس الا يتيم أبى طالب وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم على الامور العاجلة وجهلهم بحقيقة الوحى والنبوة وهو لم يكن صلى الله عليه وسلم يقصر عن عظمائهم فيما يعتبر فيه الا فى المال وخفة المال أهون شئ فى هذا الباب ولذلك كان أكثر الانبياء عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك وقد قال تعالى وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى (أن أنذر الناس) عامة أى أعلمهم مع التخويف ما أمامهم من البعث وغيره وأن هى المفسرة لان الايحاء فيه معنى القول (وبشر الذين آمنوا) انما عمم فى الانذار لانه قل ان يسلم أحد من كبيرة أو صغيرة أو هفوة جليلة أو حقيرة على اختلاف الرتب وتباين المقامات وخصص البشارة اذ ليس للكافر ما يصح ان يبشر به (أن) أى بان (لهم قدم) أى سلف (صدق عند ربهم) اختلفت عبارات المفسرين وأهل اللغة فى معنى قدم صدق فقال ابن عباس أجرا حسنا بما قدموا من أعمالهم وقال مجاهد الاعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم وقال الحسن عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه وقال عطاء مقام صدق لا زوال له ولا بؤس فيه وقال زيد بن أسلم هو شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وأضيف القدم الى الصدق وهو نعته كقولهم مسجد الجامع وصلاة الاولى وحب الحصيد وقال أبو عبيدة كل سابق فى خير أو شر فهو عند العرب قدم قال الشاعر

صل لذى العرش واتخذ قدما * ينجيك يوم العثار والندم

وهو مؤنث فيقال قدم حسنة وقدم صالحة وقوله تعالى (قال الكافرون ان هذا لسحر مبين) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر بكسر السين وسكون الحاء على ان الاشارة للقرآن المشتمل على ذلك والباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء على ان الاشارة للنبى صلى الله عليه وسلم (ان ربكم) الموجد لكم والمربى والمحسن هو (الله الذى خلق) أى قدر وأوجد (السموات والارض) على اتساعهما وكثرة ما فيهما من المنافع (فى ستة ايام) من أيام الدنيا أى فى قدرها لانه لم يكن ثم شمس ولو شاء لخلقهما فى لمحة والعدول عنه لتعليم خلقه التثبت (فان قيل) ان اليوم قد يراد به اليوم مع ليلته وقد يراد به النهار وحده فما المراد (أجيب) بان الغالب فى اللغة انه يراد باليوم اليوم بليلته ولما أوجد سبحانه وتعالى هذا الخلق الكبير المتباعد الاقطار الواسع الانتشار المفتقر الى عظيم التدبير ولطيف التصريف والتقدير عبر سبحانه وتعالى عن عمله فيه عمل الملوك فى ممالكهم بقوله مشيرا الى عظمته باداة التراخى (ثم استوى) أى عمل فى تدبيره واتقان ما فيه واحكامه عمل المعتنى بذلك (على العرش) المتقدم وصفه فى الاعراف بالعظمة وليست ثم للترتيب بل كناية عن علو الرتبة وبعد منازلها ثم بين ذلك الاستواء بقوله (يدبر الامر) كله فلا يخفى عليه عاقبة أمر من الامور ولان التدبير اعدل أحوال الملك فالاستواء كناية عنه وقوله تعالى (ما من شفيع الا من بعد اذنه) تقريرا لعظمته جل وعلا ورد على من

فهو خطاب للكفار فقط بقرينة قوله قبله وان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير (قوله يفصل الآيات لقوم يعلمون) خص التفصيل بالعلماء مع انه تعالى

زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله وفيه اثبات الشفاعة لمن أذن له (ذلكم الله) اى الموصوف بتلك الصفات المقتضية للالوهية والربوبية (ربكم) اى الذى يستحق العبادة منكم (فاعبدوه) اى وحدوه ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو انسان فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع فان عبادتكم مع الشرك ليست عبادة ولولا فضله لم يكن لمن زل أدنى زلة طاعة وقوله تعالى (افلا تذكرون) قرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التاء فى الاصل فى الذال اى فلا تتفكرون أدنى تفكر فينبئكم عن انه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه (اليه) تعالى (مرجعكم) اى رجوعكم بالموت والنشور رجالة كونكم (جميعا) لا يتخلف منكم احد فاستعد والقائه وقوله تعالى (وعد الله) مصدر منصوب بفعله المقدر مؤكدا نفسه لان قوله تعالى اليه مرجعكم وعد من الله وقوله تعالى (حقا) اى صدقا لا خلف فيه مصدر آخر منصوب بفعله المقدر مؤكد لغيره وهو ما دل عليه وعد الله (انه يبدأ الخلق) اى يحييهم ابتداء (ثم يعيده) اى ثم يميتهم ثم يحييهم وفى هذا دليل على الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ورد على منكرى البعث ووقوعه لان القادر على خلق هذه الاجسام المؤلفة والاعضاء المركبة على غير مثال سبق قادر على اعادتها بعد تفريقها بالموت والبلى فيركب تلك الاجزاء المتفرقة تركيبا ثانيا ويخلق الانسان الاول مرة أخرى فاذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه ايصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصى وهو قوله تعالى (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) اى بالعدل لا ينقص من اجورهم شيئا (والذين كفروا لهم شراب من حميم) وهو ماء حار قد انتهى حره (وعذاب أليم) اى بالغ فى الايلام (بما كانوا يكفرون) اى بسبب كفرهم (هو الذى جعل الشمس ضياء) اى ذات ضياء (والقمر نورا) اى ذا نور وخص الشمس بالضياء لانه أقوى وآكد من النور وخص القمر بالنور لانه أضعف من الضياء لان الشمس نيرة فى ذاتها والقمر نير بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها وقرأ قنبل بهمزة مفتوحة ممدودة بعد الضاد والباقون بياء مفتوحة والضمير فى قوله تعالى (وقدره منازل) يرجع الى الشمس والقمر اى قدر مسير كل واحد منهما منازل أو قدره ذا منازل او يرجع الى القمر فقط وتخصيصه بالذكر لسرعة مسيره ومعاينة منازله واناطة احكام الشرع به ولذلك علله بقوله تعالى (لتعلموا عدد السنين والحساب) اى حساب الاوقات من الاشهر والايام فى معاملاتكم وتصرفاتكم لان الشهور المعتبرة فى الشريعة مبنية على رؤية الاهلة والسنة المعتبرة فى الشريعة هى السنة القمرية كما قال تعالى ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله (فائدة) منازل القمر ثمانية وعشرون منزلا وأسماؤها الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعوا والسماك والغفر والزبانى والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية وفرغ الدلو المقدم وفرغ الدلو المؤخر وبطن الحوت وهذه المنازل مقسومة على البروج وهى اثنا عشر برجا الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت فلكل

فصل الآيات لجهلاء أيضا لان انتفاءهم بالتفصيل أكثر (قوله وما كانوا ليؤمنوا) قاله هنا بالواو تبعا لها فى قوله وجاءتهم رسلهم بالبينات وقاله فى مواضع أخر بالفاء

برج منزلان وثلث فينزل القمر كل ليلة منها منزلا فيستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين وان كان تسعا وعشرين فليلة واحدة فيكون انقضاء الشهر مع نزوله تلك المنازل ويكون مقام الشمس فى كل منزلة ثلاثة عشر يوما فيكون انقضاء السنة مع انقضائها وانتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر عظيم فالشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وبحركة الشمس تنفصل السنة الى هذه الفصول الاربعة وبالفصول الاربعة تنتظم مصالح هذا العالم وبسبب الحركة اليومية يحصل النهار والليل والنهار يكون زمانا للتكسب وللطلب والليل يكون زمانا للراحة (ما خلق الله ذلك) المذكور (الا بالحق) اى لم يخلق ذلك باطلا ولا عبثا تعالى الله عن ذلك اظهار القدرته ودلائل وحدانيته ونظيره قوله تعالى فى آل عمران ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا وقال تعالى فى سورة أخرى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا (يفصل) اى يبين (الآيات) اى الدلائل الباهرة واحدة فى اثر واحدة بيانا شافيا (لقوم يعلمون) فانهم المنتفعون بالتأمل فيها وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بالياء والباقون بالنون * ولما استدل سبحانه وتعالى على اثبات الالهية والتوحيد بقوله تعالى ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وثانيا باحوال الشمس والقمر استدل ثالثا بقوله تعالى (ان فى اختلاف الليل والنهار) اى بالمجىء والذهاب والزيادة والنقصان ورابعا بقوله تعالى (وما خلق الله فى السموات) من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك (و) ما خلق الله فى (الارض) من حيوان وجبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك *(فائدة)* أقسام الحوادث فى هذا العالم محصورة فى اربعة أقسام احدها الاحوال الحادثة فى العناصر الاربعة ويدخل فيها احوال الرعد والبرق والسحاب والامطار ويدخل فيها أيضا أحوال البحار والصواعق والزلازل والخسف وثانيها احوال المعادن وهى عجيبة كثيرة وثالثها اختلاف احوال النبات ورابعها اختلاف احوال الحيوانات وجملة هذه الاقسام الاربعة داخلة فى قوله تعالى وما خلق الله فى السموات والاستقصاء فى شرح هذه الاحوال لا يدخل تحت الحصر بل كل ما ذكر العقلاء فى احوال أقسام هذا العالم فهو جزء مختصر من هذا الباب (لآيات) اى دلالات على قدرته تعالى (لقوم يتقون) الله فانه يحملهم على التفكر والتذكر وخصهم بالذكر لانهم المنتفعون بها قال القفال من تدبر فى هذه الاحوال علم ان الدنيا مخلوقة لشقاء الناس فيها وان خالقها وخالقهم ما أهملهم بل جعلها لهم دار عمل واذا كان كذلك فلا بد من أمر ونهى ثم من ثواب وعقاب ليتميز المحسن عن المسىء فهذه الاحوال فى الحقيقة دالة على صحة القول باثبات المبدا واثبات المعاد * ولما أقام الله سبحانه وتعالى الدلائل القاهرة على صحة القول باثبات الاله الرحمن وعلى صحة القول باثبات الاله الرحيم الحكيم وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر شرع فى شرح احوال من يكفر بها وشرح احوال من يؤمن بها وقد ابتدأ بأولها ووصفه باربع صفات مبتدئا باولها بقوله تعالى (ان الذين لا يرجون لقاءنا) اى لا يخافونه لانكارهم البعث وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها فهم مكذبون بالثواب والعقاب والرجاء يكون بمعنى الخوف وبمعنى الطمع فمن الاول قول العرب فلان لا يرجو فلانا بمعنى لا يخافه ومنه قوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا ومنه قول أبى ذؤيب

التعقيب على أصلها (قوله قل لو شاء الله ما تلوته عليكم) (ان قلت) كيف قال النبى صلى الله عليه وسلم ذلك مع أن الله تعالى أنكر على الكفار احتجاجهم بمشيئته فى قولهم

الهدى * اذا سمته الضل لم يرج سمهاه اى لم يخفها ومن الثانى قولهم فلان يرجو فلانا أى يطمع فيه والمعنى لا يطمعون فى ثوابنا والصفة الثانية والثالثة قوله تعالى (ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأنوا بها) فيعملون لها عمل المقيم فيها مع ما يشاهدونه من سرعة زوالها منهمكين فى لذاتها وزخارفها وسكنوا اليها سكون من لا ينزعج عنها والصفة الرابعة قوله تعالى (والذين هم عن آياتنا) اى دلائل وحدانيتنا (غافلون) تاركون النظر فيها بمنزلة الغافل عن الشئ الذى لا يخطر ببالهم طول عمره ذكر ذلك الشئ وبالجملة فهذه الصفات الاربعة دالة على شدة بعدهم عن طلب الاستعداد بالسعادات الاخروية ويحتمل أن الصفة الاخيرة لفريق آخر ويكون المراد بالاولين من أنكر البعث ولم يرد الا الحياة الدنيا وبالآخر من الهاه حب العاجل عن التأمل فى الآجل والاعداد له ولما وصفهم الله تعالى بتلك الصفات قال (أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) من الشرك والمعاصى * ولما شرح أحوال المنكرين الجاحدين ذكر تعالى شرح من يؤمن بها فقال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) والاعمال الصالحة عبارة عن الاعمال التى تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة والاعمال المذمومة ما يكون بالضد من ذلك (يهديهم) اى يرشدهم (ربهم بايمانهم) اى بسبب ايمانهم الى سلوك سبيل يؤدى الى الجنة أو لما يريدونه فى الجنة أو لادراك الحقائق كما قال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم وقال مجاهد المؤمنون يكون لهم نور يمشى بهم الى الجنة وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان المؤمن اذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة حسنة فيقول أنا عملك فيكون له نورا وقائدا الى الجنة والكافر اذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة سيئة فيقول أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار ومفهوم ترتب الهداية على الايمان والعمل الصالح قد دل على أن سبب الهداية هو الايمان والعمل الصالح لكن دل منطوق قوله جل وعلا بايمانهم على استقلال الايمان بالسببية وان العمل الصالح كالتتمة والرديف * ثم انه تعالى لما وصفهم بالايمان والاعمال الصالحة ذكر بعد ذلك درجات كراماتهم ومراتب سعاداتهم وهى أربعة الاولى قوله تعالى (تجرى من تحتهم الانهار فى جنات النعيم) اى يكونون جالسين على سرر مرفوعة فى البساتين والانهار تجرى من بين أيديهم ينظرون اليها من أعالى أسرتهم وقصورهم ونظيره قوله تعالى قد جعل ربك تحتك سريا نهى ما كانت قاعدة عليه ولكن المعنى بين يديك وكذا قوله وهذه الانهار تجرى من تحتى اى بين يدى فكذا هنا الثانية قوله تعالى (دعواهم فيها) قال بعض المفسرين اى طلبهم لما يشتهون فى الجنة أن يقولوا (سبحانك) اى تنزهك من كل سوء ونقيصة (اللهم) اى يا الله فاذا ما طلبوه بين أيديهم على موائد كل مائدة ميل فى ميل على كل مائدة سبعون ألف صحفة فى كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضا فاذا فرغوا من الطعام حمدوا الله تعالى فذلك قوله تعالى وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين او أن المراد بقوله سبحانك اللهم اشتغال أهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله تعالى والثناء عليه بما هو أهله وفى هذا الذكر سرورهم وابتهاجهم وكمال لذاتهم وهذا أولى ويدل عليه ما روى عن جابر رضى الله تعالى عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون قالوا فما بال الطعام قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس اى يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقا الثالثة قوله تعالى (وتحيتهم)

لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا وامثال هذا لا ينبغى أن نفعل معصية ان يحتج لو شاء الله ما فعلنا (قلت) انما قال النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بأمر الله تعالى له فيه بقوله قل الى آخره والماصى

فيها

فيما بينهم وتحية الملائكة لهم (فيها) أي الجنة (سلام) وتأتيهم الملائكة أيضا من عند ربهم بالسلام قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم وقال تعالى سلام قولا من رب رحيم الرابعة قوله تعالى (وآخر دعواهم) أي وآخر دعائهم (أن الحمد لله رب العالمين) أي ان يقولوا ذلك وأن هي المخففة من الثقيلة وقد ذكرنا أن بعض المفسرين حمل التسبيح والتحميد على احوال اهل الجنة بسبب المأكول والمشروب فانهم اذا اشتهوا اشيأ قالوا سبحانك اللهم فيحصل ذلك الشئ فاذا فرغوا منه قالوا الحمد لله رب العالمين فترفع الموائد عند ذلك قال الرازي وهذا القائل مارق نظره في دنياه وأخراه عن المأكول والمشروب وحقيق بمثل هذا الانسان أن يعد في زمرة البهائم وأما المحققون فقد تركوا ذلك اه ولا تنبغي هذه المبالغة فقد قاله البغوي وتبعه جماعة من المفسرين وقال الزجاج أعلم الله ان أهل الجنة يفتتحون بتعظيم الله تعالى وتنزيهه ويختمون بشكره والثناء عليه قال البيضاوي المعنى انهم اذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات أو الله تعالى فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الاكرام * ولما وصف الله تعالى الكفار بانهم لا يرجون لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وكانوا عن آيات الله غافلين بين ان من غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب جهلا منهم وسفها بقوله تعالى (ولو يعجل الله للناس الشر) أي ولو يعجل الله للناس اجابة دعائهم بالشر فيما لهم فيه مضرة ومكروه (استعجالهم بالخير) أي كما يحبون أن يعجل لهم اجابتهم بالخير (لقضى اليهم اجلهم) اى لاهلكهم ولكن يمهلهم نزلت في النضر بن الحرث حين قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ويدل عليه قوله تعالى (فنذر) اى فنترك (الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم) أي في تمردهم وعتوهم (يعمهون) أي يترددون متحيرين وقال ابن عباس هذا في قول الرجل عند الغضب لاهله وولده لعنكم الله لا بارك الله فيكم وقال قتادة هو دعاء الرجل على نفسه وأهله وماله بما يكره ان يستجاب له فيه وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم انى أتخذ عندك عهدا لن تخلفنيه انما انا بشر فاى المؤمنين اذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها اليك يوم القيامة (فان قيل) قابل التعجيل في الآية بالاستعجال وكان مقتضى النظم أن يقابل التعجيل بالتعجيل والاستعجال بالاستعجال (اجيب) بان تقدير الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالا كاستعجالهم بالخير فحذف منه ما حذف لدلالة الباقي عليه وقال في الكشاف أصل هذا الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم بالخير الا انه وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم بالخير اشعارا بسرعة اجابته لهم واسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم * ولما حكى تعالى عنهم انهم يستعجلون في نزول العذاب بين انهم كاذبون في ذلك الطلب والاستعجال بقوله تعالى (واذا مس الانسان) أي الكافر (الضر) أي المرض والفقر (دعانا لجنبه) اى على جنبه مضطجعا (أو قاعدا أو قائما) وفائدة الترديد تعميم الدعاء لجميع الاحوال أو لاصناف المضار والمعنى انه لو نزل بالانسان أدنى شئ يكرهه ويؤذيه فانه يتضرع الى الله تعالى في ازالته عنه

أن يحتج بذلك اذا أمره الله به (قوله ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) فان قلت كيف نفى عن الاصنام الضر والنفع هنا وأثبتهما في قوله في الحج يدعو لمن ضره

وفى دفعه عنه وذلك يدل على انه ليس صادقا فى طلب الاستعجال (فلما كشفنا عنه ضره) اى أزلنا عنه ما نزل به (مر) اى مضى على ما كان عليه من الكفر (كأن لم يدعنا) اى كأنه فاسقط الضمير على سبيل التخفيف ونظيره قوله تعالى كأن لم يلبثوا (الى ضر مسه) قال الحسن نسى ما كان دعا الله فيه وما صنع الله به فى ازالة ذلك البلاء عنه وانما حمل الانسان فى هذه الآية على الكافر لان العمل المذكور لا يليق بالمسلم البتة وقول بعضهم كل موضع فى القران ورد فيه ذكر الانسان فالمراد هو الكافر مردود فقد قال تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه وأما المؤمن اذا ابتلى ببلية أو محنة وجب عليه رعاية أمور أولها ان يكون راضيا بقضاء الله تعالى غير معترض بالقلب واللسان عليه وانما وجب عليه ذلك لانه تعالى مالك على الاطلاق وملك بالاستحقاق فله ان يفعل فى ملكه ما شاء ولانه تعالى حكيم على الاطلاق وهو منزه عن فعل العبث فكل ما فعله فهو حكمة وصواب فيجب عليه الصبر وترك القلق فان أبقى عليه تلك المحنة فهو عدل وان أزالها عنه فهو فضل وثانيها انه فى ذلك الوقت ان اشتغل بذكر الله تعالى والثناء عليه بدلا عن الدعاء كان أفضل لقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى من شغله ذكرى عن مسئلتى اعطيته أفضل ما أعطى السائلين ولان الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظ النفس ولا شك أن الاول أفضل وثالثها انه تعالى اذا أزال عنه تلك البلية وجب عليه أن يبالغ فى الشكر وأن لا يخلو عن ذلك الشكر فى السراء والضراء وأحوال الشدة والرخاء فهذا هو الطريق الصحيح عند نزول البلاء وحينئذ يكون المؤمن على الضد من الكافر لان الكافر منهمك فى الشهوات والاعراض عن العبادات كما قال تعالى (كذلك) اى مثل ما زين لهؤلاء الكافرين هذا العمل القبيح (زين للمسرفين) اى المشركين (ما كانوا يعملون) من القبائح لاعراضهم عن الذكر واتباعهم الشهوات وانما سمى الكافر مسرفا لانه أتلف نفسه بتضييعها فى عبادة الاوثان وأتلف ماله فى البحيرة والسائبة والوصيلة والمزين هو الله تعالى لانه مالك الملك والخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف شاء وقيل هو الشيطان وذلك باقدار الله تعالى اياه على ذلك والا فهو أخس واحقر (ولقد أهلكنا القرون) اى الامم الماضية (من قبلكم) يا أهل مكة (لما ظلموا) اى حين أشركوا وقوله تعالى (وجاءتهم رسلهم بالبينات) اى بالحجج الدالة على صدقهم حال من الواو باضمار قد أو عطف على ظلموا (وما) اى والحال انهم ما (كانوا ليؤمنوا) اى وما استقام لهم ان يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية لعلمه تعالى بانهم يموتون على كفرهم واللام لتأكيد النفى (كذلك) اى مثل ذلك الجزاء العظيم وهو اهلاكهم لما كذبوا رسلهم (نجزى القوم المجرمين) اى نجزيكم يا أهل مكة بتكذيبكم محمدا صلى الله عليه وسلم فوضع المظهر موضع المضمر للدلالة على كمال جرمهم وانهم أعلام فيه (ثم جعلناكم) اى أيها المرسل اليهم أشرف رسلنا (خلائف) جمع خليفة (فى الارض من بعدهم) اى استخلفناكم فيها بعد القرون التى أهلكناها استخلاف من يختبر (لننظر) ونحن اعلم بكم من أنفسكم فى علم الشهادة لاقامة الحجة (كيف تعملون) من خير أو شر فنجازيكم به وقد مر نظائر هذا ومنه قوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا وقال صلى الله عليه وسلم ان الدنيا خضرة حلوة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون وقال قتادة صدق الله ربنا ما جعلنا

(قلت) أقرب من نفعه باعتبار الذات تضعهما عنه باعتبار واثباتهما لها باعتبار السبب (قوله فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الارض بغير الحق) ان قلت فما فائدة قوله بغير الحق

خلقاه الا لينظر الى أعمالكم فاذا روا الله من أعمالكم خيرا بالليل والنهار قال الزجاج وموضع كيف نصب بقوله تعملون اى لا معمول تنظر لانها حرف استفهام والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله لان له صدر الكلام فلا يتقدمه عامله وظاهر كلامه ان كيف معمول لتعملون وجمهور النحاة على انه حال من ضمير تعملون (واذا تتلى عليهم) اى واذا قرئ على هؤلاء المشركين (آياتنا) اى القرآن الذى أنزلناه اليك يا محمد حالة كون تلك الآيات (بينات) اى ظاهرات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوتك (قال الذين لا يرجون لقاءنا) اى لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لانهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت وكل من كان منكر البعث بعد الموت فانه لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا (ائت) اى من عندك (بقرآن) اى كلام مجموع جامع لما نريد (غير هذا) فى نظمه ومعناه (او بدله) بالفاظ أخرى والمعانى باقية وقد كانوا عالمين بانه صلى الله عليه وسلم مثلهم فى العجز عن ذلك ولكنهم قصدوا ان يأخذ فى التغيير حرصا على اجابة مطلوبهم فيبطل مدعاه أو يهلك واختلف فى هذا القائل فقال قتادة هم مشركو أهل مكة وقال مقاتل هم خمسة نفر عبد الله بن أمية الجمحى والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو ابن عبد الله بن أبى قيس العامرى والعاصى بن عامر بن هشام قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ان كنت تريد أن نؤمن بك فات بقرآن ليس فيه ترك لعبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وان لم ينزله الله فقل أنت من عند نفسك او بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة او مكان حرام حلالا او مكان حلال حراما ولما كان كانه قيل فماذا أقول لهم قال الله تعالى (قل) لهم (ما يكون) اى ما يصح (لى) ولا يتصور بوجه من الوجوه (ان ابدله من تلقاء) اى قبل (نفسى) وانما اكتفى بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع الاتيان بقرآن آخر وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون (ان) اى ما (اتبع الا ما يوحى الى) فيما آمركم به أو أنهاكم عنه اى لا آتى بشئ ولا اذر شيأ من نحو ذلك الا متبعا لوحى الله تعالى وأوامره ان نسخت آية تبعت النسخ وان بدلت آية مكان آية تبعت التبديل وليس الى تبديل ولا نسخ (انى أخاف ان عصيت ربى) اى بتبديله (عذاب يوم عظيم) فانى مؤمن به غير مكذب ولا شاك كغيرى ممن يتكلم الهذيان بما لا يخاف عاقبته فى ذلك اليوم الذى تذهل فيه كل مرضعة عما ارضعت وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو لى وانى بفتح الياء والباقون بالسكون (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله (لو شاء الله ما تلوته عليكم) اى لو شاء الله لم ينزل هذا القرآن ولم يأمرنى بقراءته عليكم (ولا أدراكم به) اى ولا اعلمكم به على لسانى وقرأ ابن كثير بخلاف عن البزى بقصر الهمزة بعد اللام جواب لو اى لأعلمكم به على لسان غيرى والباقون بالمد المنفصل وقوله تعالى (فقد لبثت) اى مكثت قراءة نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء عند التاء والباقون بالادغام (فيكم عمرا) سنين أربعين (من قبله) اى قبل ان يوحى الى هذا القرآن لا أتلوه ولا اعلمه ففى ذلك اشارة الى ان هذا القرآن معجز خارق للعادة وتقريره ان أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول عمره الى ذلك الوقت وكانوا عالمين باحواله وأنه ما طالع كتابا ولا تلمذ لاستاذ ولا تعلم من احد ثم بعد انقراض اربعين سنة على هذا الوجه جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الاصول ودقائق

قوله لانها حرف استفهام كذا فى النسخ وظاهر ان كيف اسم لا حرف اه مصححه

بعد قوله يبغون مع ان البغى وهو الفساد من قولهم بغى الجرح اى فسد لا يكون الا بغير الحق (قلت) قد يكون الفساد بحق كاستيلاء المسلمين على ارض الكفار وهدم

علم الاحكام ولطائف علم الاخلاق وأسرار قصص الاولين وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء وكل من له عقل سليم فانه يعرف أن مثل هذا لا يحصل الا بالوحى والالهام من الله تعالى (أفلا تعقلون) أى أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر لتعلموا أن مثل هذا الكتاب العظيم على من لم يتعلم ولم يتلمذ ولم يطالع كتابا ولم يمارس مجادلة أنه لا يكون الا على سبيل الوحى من الله تعالى لا من مثلى وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم ائت بقرآن غير هذا من اضافة الافتراء اليه * (تنبيه) * أقام صلى الله عليه وسلم بعد أن أوحى اليه بمكة ثلاث عشرة سنة ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة قال النووى وورد فى عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات احداها أنه توفى صلى الله عليه وسلم وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهى أصحها وأشهرها وتأولوا رواية ستين بان راويها اقتصر فيها على العقود وترك الكسر ورواية الخمس أيضا متأولة وحصل فيها اشتباه ولما أقيمت الدلائل على أن هذا القرآن من عند الله وجب ان يقال انه ليس فى الدنيا أحد أجهل ولا أظلم على نفسه من منكر ذلك كما قال تعالى (فمن) اى لا احد (أظلم ممن افترى) اى تعمد (على الله كذبا) اى اى كذب كان من شريك او ولد او غير ذلك وكان الاصل مبنى على تقدير ان لا يكون هذا القرآن من عند الله ولكنه وضع هذا الظاهر مكانه تعميما وتعليقا للحكم بالوصف (او كذب بآياته) اى دلائل توحيده فكفر بها كما فعلتم أنتم وذلك من أعظم الكذب وقوله تعالى (انه) اى الشأن (لا يفلح) بوجه من الوجوه (المجرمون) اى المشركون تأكيد لما سبق من هذين الوصفين (ويعبدون) اى هؤلاء المشركون (من دون الله) اى غيره (ما لا يضرهم) اى ان لم يعبدوه (ولا ينفعهم) أى ان عبدوه وهو الاصنام لانها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع والكافرون قادرون على التصرف فيها تارة بالاصلاح وتارة بالافساد واذا كان العابد أصلح حالا من المعبود كانت العبادة باطلة لان العبادة أعظم انواع التعظيم فلا تليق الا بمن يضر وينفع بان يثيب على الطاعة ويعاقب على المعصية وكان أهل الطائف يعبدون اللات وأهل مكة يعبدون العزى ومناة وهبل واسافا ونائلة (ويقولون هؤلاء) اى الاصنام التى نعبدها (شفعاؤنا عند الله) ونظيره قوله تعالى اخبارا عنهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وقيل انهم وضعوا هذه الاصنام والاوثان على صور أنبيائهم واكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فان أولئك الاكابر يكونون شفعاء لهم عند الله قال الرازى ونظيره فى هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الاكابر على اعتقاد أنهم اذا عظموا قبورهم فانهم يكونون شفعاء لهم عند الله اه ولكن تعظيمهم لهؤلاء ليس كتعظيم الكفار وفى هذه الشفاعة قولان أحدهما انهم يزعمون أنها تشفع لهم فيما يهمهم من أمور الدنيا فى اصلاح معايشهم قاله الحسن لانهم كانوا لا يعتقدون بعث الموتى والثانى أنهم يزعمون أنها تشفع لهم فى الآخرة ان يكن بعث قاله ابن جريج عن ابن عباس وكأنهم كانوا شاكين فيه وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة موجدهم الضار النافع الى عبادة ما لم يعلم قطعا أنه لا يضر ولا ينفع على توهم أنه ربما يشفع لهم قال النضر بن الحرث اذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى وقوله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين (أتنبئون) أى أتخبرون (الله) وهو العالم بكل شئ

دورهم واحراق زرعهم وقطع اشجارهم كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم ببنى قريظة (قوله انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) ان قلت لم شبه الحياة الدنيا بماء السماء

المحيط بكل محيط (بما لا يعلم) أى لا يوجد له به علم فى وقت من الاوقات استفهام انكار وتهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الاصنام واعلام بأن الذى انبؤا به باطل غير منطو تحت الصحة فكأنهم يخبرونه بشئ لا يتعلق به علمه وقوله تعالى (فى السموات ولا فى الارض) تأكيد لنفيه لان ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم وهذا على طريق الالزام والمقصود نفى علم الله بذلك الشفيع وانه لا وجود له البتة لانه لو كان موجودا لكان معلوما لله تعالى وحيث لم يكن معلوما لله تعالى وجب أن لا يكون معلوما وجوده وهذا مثل مشهور فى العرب فان الانسان اذا أراد نفى شئ عن نفسه يقول ما علم الله ذلك منى ومقصوده أنه ما حصل ذلك الشئ منه قط ولا وقع (سبحانه) اى تنزيها له عن كل شئ فيه شائبة نقص (وتعالى عما يشركون) ما مصدرية أو موصولة اى عن اشراكهم أو عن الشركاء الذين يشركونهم به وقرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب لقوله تعالى أتنبئون الله والباقون بالياء على الغيبة فكأنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم قل أنت سبحانه وتعالى عما يشركون ويجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى هو الذى نزه نفسه عما قالوه فقال سبحانه وتعالى عما يشركون * ولما أقام تعالى الدلالة القاهرة على فساد القول بعبادة الاصنام بين السبب فى كيفية حدوث هذا المذهب الفاسد بقوله (وما كان الناس الا امة واحدة) أى جميعا على الدين الحق وهو دين الاسلام وقيل على الضلال فى فترة الرسل واختلف القائلون بالاول أنهم متى كانوا كذلك فقال ابن عباس ومجاهد كانوا على دين الاسلام من لدن آدم الى أن قتل قابيل هابيل وقال قوم الى زمن نوح وكانوا عشرة قرون ثم اختلفوا فى عهد نوح فبعث الله تعالى اليهم نوحا وقال آخرون كانوا على دين الاسلام من زمن نوح بعد الغرق حيث لم يذر الله على الارض من الكافرين ديارا الى أن ظهر الكفر فيهم وقال آخرون من عهد ابراهيم عليه السلام الى زمن عمرو بن لحى وهذا القائل قال المراد من الناس فى قوله تعالى وما كان الناس الا أمة واحدة العرب خاصة (فاختلفوا) بأن ثبت بعض وكفر بعض (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهو تأخير الحكم الى يوم القيامة وقيل تلك الكلمة هى قوله سبحانه سبقت رحمتى غضبى فلما كانت رحمته غالبة اقتضت تلك الرحمة الغالبة اسبال الستر على الجاهل الضال وامهاله الى وقت الوجدان (لقضى بينهم) اى الناس بنزول العذاب فى الدنيا دون يوم القيامة (فيما فيه يختلفون) من الدين باهلاك المبطل وابقاء المحق وكان ذلك فصلا بينهم (ويقولون) اى كفار مكة (لولا) اى هلا (انزل عليه) اى محمد صلى الله عليه وسلم (آية من ربه) اى غير ما جاء به كما كان للانبياء من الناقة والعصا واليد (فقل) يا محمد لهؤلاء الكفرة المعاندين (انما الغيب) اى ما غاب عن العباد أمره (لله) اى هو المختص بعلمه ومنه الآيات فلا يأتى بها الا هو وانما على التبليغ (فانتظروا) اى نزول ما اقترحتموه وقيل نزول العذاب ان لم يؤمنوا (انى معكم من المنتظرين) اى لما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجحودكم الآيات وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة فى الآيات رقيقة المسلك بين المعجزات مع عجزكم عن معارضته بتبديل او غيره فاى عناد أعظم من هذا (واذا اذقنا الناس) اى كفار مكة (رحمة) اى صحة وسعة (من بعد ضراء) اى شدة وبلاء (مستهم) سلط الله تعالى القحط سبع سنين على اهل مكة حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم فانزل عليهم المطر الكثير حتى

(قلت) دون ماء الارض لان ماء السماء وهو المطر لا أثر لكسب العبد فيه بزيادة أو نقص أو لانه يستوى فيه جميع الخلائق بخلاف ماء الارض فيهما فكان تشبيهه ابلغ

اخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك فلم يتعظوا بذلك بل رجعوا الى العناد والكفر كما قال تعالى (اذا لهم مكر فى آياتنا) بالاستهزاء والتكذيب وقيل لا يقولون هذا من رزق الله انما يقولون سقينا بنوء كذا وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى ليصبح القوم بالنعمة و يمسيهم بها فيصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون مطرنا بنوء كذا والنوء عند العرب هى منازل القمر اذا طلع نجم سقط نظيره (قل الله) أى قل لهم يا محمد الله (أسرع مكرا) منكم أى أعجل عقوبة وأشد أخذا وأقدر على الجزاء ومعنى الوصف بالاسرعية أنه قضى بعقابهم قبل تدبيرهم مكايدهم والمكر اخفاء الكيد وهو من الله تعالى اما الاستدراج أو الجزاء على المكر فانهم لما قابلوا نعمة الله بالمكر قابل مكرهم باشد منه وهو امهالهم الى يوم القيامة (ان رسلنا) أى الحفظة الكرام الكاتبين (يكتبون ما تمكرون) لانهم وكلوا بكم قبل كونكم نطفا ولم يوكلوا بكم الا بعد علمهم بكل ما تفعلونه ولا يكتبون مكركم الا بعد اطلاعهم عليه واما هو سبحانه وتعالى فانه اذا قضى قضاء لا يمكن أن يطلع عليه رسله الا باطلاعه فكيف بغيرهم واذا تبين أنه عالم بامورهم وهم جاهلون باموره علم أنه لا بد منهم يدبرون كيدا الا وقد سبب له ما يجعله فى نحورهم وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون بالرفع ثم أخذ سبحانه وتعالى يبين ما يتضح به أسرعية مكره فى مثال دال على ما فى الآية قبلها لان المعنى الكلى لا يصل الى أفهام السامعين الا بذكر مثال جلى واضح يكشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلى فقال (هو الذى يسيركم) اى يحملكم على السير فى كل وقت تسيرون فيه لا تقدرون على الانفكاك عنه و يمكنكم منه (فى البر والبحر) اى يسبب لكم اسبابا توجب سيركم فيهما وقرأ ابن عامر بعد الياء الاولى بنون ساكنة بعدها شين معجمة مضمومة والباقون بسين مهملة مفتوحة بعدها ياء مكسورة مشددة ولما كان العطب بسير البحر أظهر مع أن السير فيه من أكبر الآيات وأوضح البينات بينه معرضا عن ذكر البر بقوله تعالى (حتى اذا كنتم) أى كونا الابراح لكم منه (فى الفلك) اى السفن (فان قيل) كيف جعل الكون فى الفلك غاية للتسيير فى البحر مع ان الكون فى الفلك متقدم لا محالة على التسيير فى البحر (أجيب) بانه لم يجعل الكون فى الفلك غاية للتسيير بل تقدير الكلام كانه قيل هو الذى يسيركم حتى اذا وقع فى جملة تلك التسييرات الحصول فى الفلك كان كذا وكذا ولفظ الفلك يطلق على الواحد وعلى الجمع فان اريد الواحد كان كبناء قفل أو الجمع كان كبناء حمر والمراد هنا الجمع لقوله تعالى (وجرين بهم) اى بمن فيها وعدل عن الخطاب الى الغيبة للمبالغة كانه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها و يستدعى منهم الانكار والتقبيح والالتفات فى الكلام عن الغيبة الى الحضور والعكس فى فصيح كلام العرب (بريح طيبة) اى لينة الهبوب (وفرحوا بها) اى بتلك الريح وبالفلك الجارية بها وقوله تعالى (جاءتها) جواب اذا والضمير للفلك او للريح الطيبة بمعنى تلقتها (ريح عاصف) اى شديدة الهبوب فازعجت سفنهم واماتتهم (وجاءهم الموج) اى وجاء ركاب السفينة الموج وهو ما ارتفع وعلا من ضراب الماء فى البحر وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه (من كل مكان) اى يعتاد مجىء الموج منه فارجف قلوبهم (وظنوا انهم احيط بهم) اى ظنوا ان الهلاك قد احاط بهم وسدت عليهم مسالك الخلاص كمن

أحاط

أنسب (قوله قل من يرزقكم من السماء والارض) الى قوله فسيقولون الله (ان قلت) هذا يدل على انهم معترفون بان الله هو الخالق الرازق المدبر فكيف عبدوا الاصنام (قلت) كلهم كانوا

احاط بهم العدو (دعوا الله مخلصين) اى من غير اشراك به (له الدين) اى الدعاء لانهم لا يدعون حينئذ غيره لان الانسان فى هذه الحالة لا يطمع الا فى فضل الله ورحمته ويصير منقطعا عن جميع الخلق ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرعا الى الله تعالى وقوله تعالى (لئن أنجيتنا من هذه) الشدائد التى نحن فيها وهى الريح العاصفة والامواج الشديدة (لنكونن من الشاكرين) على ارادة القول أو مفعول دعوا لانه من جملة القول أى لنكونن من الشاكرين لك بالايمان والطاعة على انعامك علينا بانجائنا مما نحن فيه من هذه الشدة (فلما انجاهم) اى هؤلاء الذين ظنوا أنهم أحيط بهم من الشدة التى كانوا فيها اجابة لدعائهم (اذا هم يبغون) اى فاجؤا الفساد وسارعوا الى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصى (فى الارض) أى جنسها (بغير الحق) * فان قيل البغى لا يكون بحق فما معنى قوله بغير (أجيب) بانه قد يكون بحق كاستيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم واحراق زروعهم وقطع أشجارهم كما فعل صلى الله عليه وسلم ببنى قريظة فان ذلك افساد بحق قال صاحب المفردات البغى على ضربين أحدهما غير محمود وهو مجاوزة الحق الى الباطل والى الشبه والآخر كفعل المسلمين ماذكر (يا أيها الناس انما بغيكم) اى ظلمكم (على انفسكم) لعود وباله عليها خاصة قال صلى الله عليه وسلم أسرع الخير ثوابا صلة الرحم وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة وروى ثنتان يعجلهما الله تعالى فى الدنيا البغى وعقوق الوالدين وعن ابن عباس لو بغى جبل على جبل لدك الباغى وكان المامون يتمثل بهذين البيتين فى أخيه

يا صاحب البغى ان البغى مصرعة * فاربع فخير فعال المرء أعدله

فلو بغى جبل يوما على جبل * لاندك منه أعاليه وأسفله

وعن محمد بن كعب ثلاث من كن فيه كن عليه البغى والنكث والمكر وعلى تقدير الانتفاع بالبغى هو عرض زائل كما قال تعالى (متاع الحيوة الدنيا) أى لا يتهيأ لكم بغى بعضكم على بعض الا اياما قليلة وهى مدة حياتكم مع قصرها وسرعة انقضائها (ثم الينا) بعد البعث (مرجعكم) فى القيامة (فننبئكم) اى فنخبركم (بما كنتم تعملون) فى الدنيا من البغى والمعاصى فنجازيكم عليها وقرأ حفص متاع بنصب العين على انه مصدر مؤكد اى تتمتعون متاع الحياة الدنيا والباقون بالرفع على أنه خبر بغيكم وعلى أنفسكم صلته أو خبر مبتدا محذوف تقديره ذلك متاع الحياة الدنيا وعلى انفسكم خبر بغيكم ولما قال تعالى يا أيها الناس انما بغيكم على انفسكم متاع الحياة الدنيا اتبعه بمثل عجيب ضربه لمن يبغى فى الارض ويغتر بالدنيا ويشتد تمسكه بها ويقوى اعراضه عن أمر الآخرة والتاهب لها بقوله تعالى (انما مثل الحيوة الدنيا) أى حالها العجيبة فى سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد اقبالها واغترار الناس بها والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثانى بالاول (كماء انزلناه) وحقق امره وبينه بقوله تعالى (من السماء فاختلط به) اى بسببه (نبات الارض) اى اشتبك بعضه ببعض والاختلاط تداخل الاشياء بعضها فى بعض (مما يأكل الناس) من الحبوب والثمار ونحو ذلك (و) مما يأكل (الانعام) من الحشيش ونحوه (حتى اذا اخذت الارض زخرفها) اى حسنها وبهجتها من النبات (وازينت) باظهار ألوان زهرها من ابيض واصفر واحمر وغير ذلك من الزهو ركالعروس اذا

يعتقدون بعبادتهم الاصنام عبادة الله تعالى والتقرب اليه لكن بطرق مختلفة ففرقة قالت ليست لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا واسطة لعظمته فعبدناها ليقربونا الى الله زلفى وفرقه

اخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من الوان الزين واصل ازينت تزينت ابدلت التاء زايا وادغمت في الزاي (وظن اهلها) اي اهل تلك الارض (انهم قادرون عليها) اي متمكنون من تحصيل جذاذها وحصادها (اتاها امرنا) اي قضاؤنا من البرد والحر المفرط اوغيره (ليلا او نهارا) اي في الليل او في النهار (فجعلناها) اي زرعها (حصيدا) اي كالمحصود بالمناجل وقوله تعالى (كان) مخففة اي كانها (لم تغن) اي لم تكن (بالامس) تلك الزروع والاشجار قائمة على ظهر الارض وحذف المضاف من فجعلناها ومن كان لم تغن للمبالغة * (تنبيه) * تشبيه الحياة الدنيا بهذا النبات يحتمل وجوها الاول ان عاقبة هذه الدنيا التي ينفقها المرء في باب الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع الياس منه لان الغالب ان المتمسك بالدنيا اذا وضع قلبه عليها واعظمت رغبته فيها ياتيه الموت وهو معنى قوله تعالى حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون اي خاسرون الدنيا وقد انفقوا اعمارهم فيها وخاسرون من الآخرة مع انهم توجهوا اليها الثاني انه تعالى بين انه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة محمودة فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة تحمد مع ان المنافع التي تحصل فيها مخلوطة بالمضار والمتاعب فان سعادة الدنيا غير خالصة من الآفات بل هي ممزوجة بالبليات والاستقراء يدل عليه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من طلب ما لم يخلق اتعب نفسه ولم يرزق فقيل يا رسول الله وما هو قال سرور يوم بتمامه الثالث ان مالك ذلك البستان لما عمره باتعاب النفس وكد الروح وعلق قلبه على الانتفاع به فاذا حصل ذلك السبب المهلك صار العناء الشديد الذي تحمله في الماضي سببا لحصول الشقاء الشديد له في المستقبل وهو ما يحصل له في قلبه من الحسرات فكذا حال من وضع قلبه على الدنيا واتعب نفسه في تحصيلها فاذا مات وفاته كل ما فات صار العناء الذي تحمله في تحصيل اسباب الدنيا سببا لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة (كذلك) اي مثل هذا التفصيل الذي ذكرناه (نفصل الآيات) اي نبينها (لقوم يتفكرون) لانهم المنتفعون بها او لما نفر تعالى الغافلين عن الميل الى الدنيا بالمثل السابق رغبهم في الآخرة بقوله تعالى (والله يدعوا) اي يعلق دعاءه على سبيل التجدد والاستمرار بالمدعوين (الى دار السلام) قال قتادة السلام هو الله وداره الجنة وسمى سبحانه وتعالى بالسلام لانه واجب الوجود لذاته فقد سلم من الفناء والتغير وسلم من احتياجه في ذاته وصفاته ومن الافتقار الى الغير وهذه الصفة ليست الا له سبحانه كما قال تعالى والله الغني وانتم الفقراء وقال تعالى يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله وقيل السلام بمعنى السلامة وقيل المراد بالسلام الجنة سميت الجنة دار السلام لان اهلها يحيي بعضهم بعضا بالسلام والملائكة تسلم عليهم قال الله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ومن كمال رحمته وجوده وكرمه على عباده ان دعاهم الى الجنة التي هي دار السلام وفيه دليل على ان فيها ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لان العظيم لا يدعو الا الى عظيم ولا يصف الا عظيما وقد وصف الله تعالى الجنة في آيات كثيرة من كتابه وعن جابر قال جاءت ملائكة الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقالوا ان لصاحبكم هذا مثلا كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مائدة وبعث داعيا فمن اجاب الداعي دخل الدار واكل من المائدة ومن لم يجب

قالت الملائكة ذو جاه ومنزلة عند الله فاتخذنا اصناما على هيئة الملائكة ليقربونا الى الله وفرقة قالت جعلت الاصنام قبلة لنا في عبادة الله تعالى كان

الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة والدار الجنة والداعي محمد صلى الله عليه وسلم (و) الله (يهدي من يشاء) من عباده بما يخلق في قلبه من الهداية (الى صراط مستقيم) وهو دين الاسلام عم سبحانه وتعالى بالدعوة أولا اظهار الحجة وخص بالهداية ثانيا اظهار القدرة لان الحكم له في خلقه وقال الجنيد الدعوة عامة والهداية خاصة بل الهداية عامة والصحبة خاصة بل الصحبة عامة والاتصال خاص وقيل يدعو بالآيات ويهدي بالحقائق والمعارف وقيل الدعوة لله والهداية من الله وقال بعضهم لا تنفع الدعوة لمن لم يسبق له من الله الهداية (للذين احسنوا) اي بالايمان (الحسنى) وهي الجنة (وزيادة) وهي النظر اليه تعالى في الآخرة كما في الحديث الصحيح اذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا اهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم الله شيأ هو احب اليهم منه والزمخشري في كشافه قال في هذا وزعمت المشبهة والمجبرة لان المعتزلة ينكرون الرؤية ويرد عليهم قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فاثبت الله لاهل الجنة امرين أحدهما النضارة وهي حسن الوجوه وذلك من نعيم الجنة والثاني النظر الى الله تعالى وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الحسنى الحسنة والزيادة عشر أمثالها وعن الحسن عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وعن مجاهد الزيادة مغفرة من الله ورضوان وعن يزيد بن شجرة الزيادة ان تمر السحابة باهل الجنة فتقول ما تريدون ان امطركم فلا يريدون شيأ الا امطرتهم ولا مانع من ان تفسر الزيادة بذلك كله اذ لا تنافي فيها والفضل واسع (ولا يرهق) اي يغشى (وجوههم قتر) اي سواد (ولا ذلة) اي كآبة وكسوف يظهر منه الانكسار والهوان (أولئك) اي هؤلاء الذين وصفهم الله هم (أصحاب الجنة) وقوله تعالى (هم فيها خالدون) اشارة الى كونها دائمة آمنة من الانقطاع ولا زوال فيها ولا انقراض بخلاف الدنيا وزخارفها ولما بين تعالى حال الفضل فيمن احسن بين حال العدل فيمن اساء بقوله تعالى (والذين كسبوا السيآت) اي الشرك (جزاء سيئة) منهم (بمثلها) بعدل الله من غير زيادة وفي ذلك اشارة الى الفرق بين السيآت والحسنات لان الحسنات يضاعف ثوابها العاملها من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى اضعاف كثيرة تفضلا منه تعالى وتكرما واما السيئة فانه يجازي عليها بمثلها عدلا منه تعالى (وترهقهم) اي تغشاهم (ذلة) عكس اهل الجنة (ما لهم من الله من عاصم) اي مانع يمنعهم من عذاب الله اذا نزل بهم (كأنما اغشيت) اي البست (وجوههم قطعا من الليل مظلما) لفرط سوادها وظلمتها وقرأ ابن كثير والكسائي بسكون الطاء اي جزأ والباقون بفتحها جمع قطعة اي اجزاء (أولئك) اي هؤلاء الاشقياء (اصحاب النار هم فيها خالدون) لا يتمكنون من مفارقتها (و) اذكر (يوم نحشرهم) اي الفريقين الناجين والهالكين العابدين منهم والمعبودين من كل جانب وناحية الى موقف الحساب حال كونهم (جميعا) لا يتخلف منهم احد وهو يوم القيامة والحشر الجمع بكره الى موقف واحد (ثم نقول للذين اشركوا مكانكم) اي الزموا مكانكم لا تبرحوا منه حتى تنظروا ما يفعل بكم وقوله تعالى (انتم) تأكيد للضمير المستتر في الفعل المقدر ليعطف عليه (وشركاؤكم) اي من كنتم تعبدونه من دون الله (فزيلنا) اي فرقنا (بينهم) اي بين المشركين وشركائهم وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا وذلك حين تبرأ كل معبود من

الكعبة قبلة في عبادته وفرقة اعتقدت ان على كل صنم شيطانا موكلا بامره فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بامر الله والا

دون الله من عبده وقيل فرقنا بينهم وبين المؤمنين كما في آية وامتازوا اليوم أيها المجرمون والاول انسب بقوله تعالى (وقال شركاؤهم) لهؤلاء المشركين (ما كنتم ايانا تعبدون) اى انما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم ان تتخذوا لله اندادا فاطعتموهم واختلفوا فى المراد بهؤلاء الشركاء فقال بعضهم الملائكة واستشهدوا بقوله تعالى ويوم يحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون ومنهم من قال هى الاصنام والدليل عليه ان هذا الخطاب مشتمل على الوعيد والتهديد وذلك لا يليق بالملائكة المقربين وسموا شركاء لانهم جعلوا انصيبا من أموالهم لتلك الاصنام فصيروهم شركاء لانفسهم فى تلك الاموال ثم اختلفوا فى هذه الاصنام كيف ذكرت هذا الكلام فقال بعضهم ان الله تعالى خلق الحياة والعقل والنطق فيها فقدرت على ذكر هذا الكلام وقال آخرون ان الله تعالى خلق فيها الكلام من غير ان يخلق فيها الحياة حتى سمع منها ذلك الكلام والاول أظهر لان ظاهر قوله تعالى وقال شركاؤهم يقتضى ان يكون فاعل ذلك القول هو الشركاء (فان قيل) اذا أحياها الله تعالى هل يبقيها او يفنيها (أجيب) بان الكل محتمل فان الله تعالى يفعل فى خلقه ما يشاء واحوال القيامة غير معلومة الا القليل الذى أخبر الله تعالى عنه فى القرآن وعلى لسان أنبيائه وقال بعضهم المراد بهؤلاء الشركاء كل من عبد من دون الله من انس وملك وجن وشمس وقمر وصنم وهذا أظهر وعلى هذا والاول سموا شركاء لان الله تعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله تعالى مكانكم صاروا شركاء فى هذا الخطاب * ولما قال لهم شركاؤهم ذلك قالوا بل كنا نعبدكم فقال شركاؤهم (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) فانه تعالى العالم بكنه الحال (ان كنا عن عبادتكم لغافلين) اى لم نامر بها ولم نعلم بها وعلى القول بانها الاصنام فتقول ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل فانها جمادات لا حس لها بشئ ولا شعور البتة * (تنبيه) * ان هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة بين المخففة والنافية (هنالك) اى فى ذلك الموقف من المكان العظيم الاهوال المتوالى الزلزال (تبلوا) اى تختبر (كل نفس) طائعة وعاصية (ما اسلفت) اى ماقدمت من عمل فتعاين نفعه وضره يؤدى الى سعادة او شقاوة وقرأ حمزة والكسائى بتاءين من التلاوة اى تقرأ ذكر ما قدمت او من التلو فيتبع كل شخص عمله فيقوده الى الجنة او الى النار والباقون بعد التاء باء موحدة من البلوى وهو الاختبار (وردوا الى الله) اى الى جزائه اياهم عما أسلفوا فلم يكن لهم قدرة على قصد غيره (مولاهم الحق) اى ربهم ومتولى امرهم على الحقيقة ولا التفات الى سواه من تلك الاباطيل بل انقطع رجاؤهم من كل ما يدعونه فى الدنيا وهو المراد بقوله تعالى (وضل عنهم) اى ذهب وبطل وضاع (ما كانوا يفترون) اى يتعمدون كذبه من ان معبوداتهم شركاء وتيقنوا فى ذلك المقام أن توليهم لغير الله كان باطلا غير حق * ولما بين فضائح عبدة الاوثان اتبعها بذكر الدلائل على فساد هذا المذهب بحجج الحجة الاولى قوله تعالى (قل) اى قل يا محمد لهؤلاء المشركين (من يرزقكم من السماء) بالمطر (والارض) بالنبات فانحصر الرزق فى ذلك أما من السماء فبتنزل الامطار وأما من الارض فلان الغذاء اما ان يكون نباتا أو حيوانا اما النبات فلا ينبت الا من الارض واما الحيوان فهو يحتاج ايضا الى الغذاء ولا يمكن ان يكون غذاء

اصابه الشيطان بنكبة بأمر الله (قوله قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده) ان قلت كيف قال ذلك مع انهم غير معترفين بوجود

كل حيوان حيوانا آخر والالزم الذهاب الى مالا نهاية له وذلك محال فثبت ان أغذية الحيوانات يجب انتهاؤها الى النبات وثبت ان تولد النبات من الارض فثبت القطع بأن الارزاق لا تحصل الا من السماء والارض (أمن يملك السمع) أى الاسماع (والابصار) أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سويا عليه من الفطرة العجيبة * عن على رضى الله تعالى عنه كان يقول سبحان من بصر بشحم وأسمع بعظم وأنطق بلحم أو جعلهما وحفظهما من الآفات مع كثرتها فى المدد الطوال وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شئ بكلاءته وحفظه (ومن يخرج الحى من الميت) كأن يخرج الانسان من النطفة والطائر من البيضة (ويخرج الميت من الحى) كأن يخرج النطفة من الانسان والبيضة من الطائر وقيل المراد أن يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى ميت فى الموضعين بعد الميم بكسر الياء المشددة والباقون بعد الميم بسكون الياء (ومن يدبر الامر) أى ومن يلى تدبير أمر الخلائق وهو تعميم بعد تخصيص وذلك لان أقسام تدبير الله تعالى فى العالم السفلى وفى العالم العلوى وفى عالم الارواح والاجساد أمور لا نهاية لها وذكرها كالمتعذر فلما ذكر بعض تلك التفاصيل عقبها بالكلام الكلى ليدل على الباقى ثم بين تعالى أن الرسول صلى الله عليه وسلم اذا سألهم عن مدبر هذه الاحوال (فسيقولون الله) اذ لا يقدرون على المكابرة والعناد فى ذلك لفرط وضوحه واذا كانوا يقرون بذلك (فقل) لهم يا محمد (أفلا تتقون) الشرك مع اعترافكم بأن كل الخيرات فى الدنيا والآخرة انما تحصل بفضل الله تعالى واحسانه (فذلكم الله ربكم الحق) أى الثابت ربوبيته ثباتا لا ريب فيه واذا ثبت أن هذا هو الحق وجب أن يكون ما سواه ضلالا لان النقيضين يمتنع أن يكونا حقين وأن يكونا باطلين فاذا كان أحدهما حقا وجب أن يكون ما سواه باطلا كما قال تعالى (فماذا بعد الحق الا الضلال) اذ لا واسطة بينهما وهو استفهام تقرير أى ليس بعده غيره فمن أخطأ الحق وهو عبادة الله تعالى وقع فى الضلال ولذلك تسبب عنه قوله تعالى (فأنى) أى فكيف ومن أى جهة (تصرفون) أى تعدلون عن عبادته وأنتم تقرون بأن الله هو الحق (كذلك) أى كما حقت الربوبية لله تعالى أو ان الحق بعده الضلال أو انهم مصروفون عن الحق (حقت كلمة ربك) فى الازل (على الذين فسقوا) أى تمردوا فى كفرهم وخرجوا عن حد الاستصلاح وقوله تعالى (أنهم لا يؤمنون) بدل من الكلمة أى حق عليهم انتفاء الايمان وعلم الله منهم ذلك والمراد بكلمة الله العدة بالعذاب وهو لأملأن جهنم الآية وأنهم لا يؤمنون تعليل بمعنى لانهم لا يؤمنون أو ذلك تفسير الكلمة التى حقت وقرأ نافع وابن عامر كلمات بالالف بعد الميم على الجمع والباقون بغير الالف بعد الميم على الافراد الحجة الثانية قوله تعالى (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء (هل من شركائكم) الذين زعمتموهم شركاء وأشركتموهم فى أموالكم من أنعامكم وزروعكم (من يبدأ الخلق) كما بدأه ليصح لكم ما ادعيتم من الشركة (ثم يعيده) كما كان (فان قيل) هم غير معترفين بالاعادة فكيف احتج عليهم تعالى بها كالابتداء فى الالزام بها (أجيب) بأنها لظهور برهانها وان لم يقروا بها وضعت موضع ما ان دفعه دافع كان مكابرا ردا الظاهر البين الذى لا مدخل للشبهة فيه دلالة على أنهم فى انكارهم لها منكرون أمرا مسلما معترفا بصحته عند العقلاء ولذلك أمر رسول الله صلى الله

الاعادة أصلا (قلت) لما كانت الاعادة ظاهرة الوجود لظهور برهانها وهو القدرة على اعدام الخلق والاعادة أهون بالنسبة الينا لزمهم الاعتراف بها فكأنهم

عليه وسلم أن ينوب عنهم في الجواب بقوله تعالى (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) لان لجاجهم لا يدعهم أن يعترفوا بها (فأنى) اى فكيف (تؤفكون) عن عبادته مع قيام الدلائل (فان قيل) ما الفائدة في ذكر هذه الحجة على سبيل السؤال والاستفهام (أجيب) بأن الكلام اذا كان ظاهرا جليا ثم ذكر على سبيل الاستفهام كان ذلك أبلغ وأوقع في القلب ٭ الحجة الثالثة قوله تعالى (قل) اى قل يا محمد لهم (هل من شركائكم من يهدى الى الحق) بنصب الحجج وخلق الاهتداء وارسال الرسل ولما كانوا اجابهم بالجواب الحق في ذلك أو معاندين امر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب بقوله تعالى (قل الله) اى الذى له الاحاطة الكاملة (يهدى للحق) من يشاء لا أحد ممن زعمتم من شركائه فالاشتغال بشئ منها بعبادة أو غيرها جهل محض قال الزجاج يقال هديت الى الحق وهديت للحق بمعنى واحد فالله تعالى ذكر هاتين اللغتين في قوله تعالى من يهدى الى الحق وفي قوله تعالى قل الله يهدى للحق وقوله تعالى (أفمن يهدى الى الحق) اى وهو الله تعالى (أحق أن يتبع أمن لا يهدى) اى يهتدى (الا أن يهدى) أحق أن يتبع استفهام تقرير وتوبيخ اى الاول أحق (فما لكم كيف تحكمون) هذا الحكم الفاسد من اتباع من لا يستحق الاتباع وقوله تعالى (وما يتبع أكثرهم) في تفسيره وجهان الاول وما يتبع أكثرهم في اقرارهم بالله تعالى (الا ظنا) لانه قول غير مستند الى برهان عندهم بل هو من أسلافهم الثاني وما يتبع أكثرهم الا ظنا في قولهم للاصنام آلهة وانها شفعاء عند الله تعالى الا الظن حيث قلدوا فيه آباءهم قال الرازى والقول الاول أقوى لانا في القول الثاني نحتاج الى تفسير الاكثر بالكل (ان الظن لا يغنى من الحق) فيما المطلوب فيه العلم (شيأ) من الاغناء ودلت هذه الآية على أن كل من كان ظانا في مسائل الاصول وما كان قاطعا لا يكون مؤمنا (فان قيل) قول أهل السنة أنا مؤمن ان شاء الله يمنع من القطع فوجب أن يلزمهم الكفر (أجاب) الرازى بان هذا ضعيف من وجوه الاول أن مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه أن الايمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والاقرار والعمل فالشك حاصل في أن هذه الاعمال هل هي موافقة لامر الله تعالى والشك في أحد أجزاء الماهية لا يوجب الشك في تمام الماهية الثاني ان الغرض من قوله ان شاء الله تعالى بقاء الايمان عند الخاتمة الثالث الغرض هضم النفس وكسرها (ان الله عليم) اى بالغ العلم (بما يفعلون) اى من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين فيجازيهم عليه وقوله تعالى (وما كان) عطف على قوله ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى الخ وحينئذ مقول القول اى قل لهم ذلك الكلام (هذا القرآن) اى الجامع لكل خير مع التأدية بأساليب الحكمة المعجزة لجميع الخلق (أن يفترى) اى افتراء (من دون الله) اى غيره لان المفترى هو الذى تأتى به البشر وكفار مكة زعموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم أتى بهذا من عند نفسه فاخبر الله تعالى ان هذا القرآن وحى انزله عليه وانه مبرأ عن الافتراء والكذب وانه لا يقدر عليه أحد الا الله ثم ذكر ما يؤكد هذا بقوله تعالى (ولكن) أنزل (تصديق الذى بين يديه) اى قبله من الكتب التى أنزلها على أنبيائه كالتوراة والانجيل فثبت بذلك انه وحى من الله انزله على نبيه صلى الله عليه وسلم وانه معجزة له فانه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يجتمع بأحد من العلماء ثم انه صلى الله عليه وسلم أتى بهذا

القرآن

متلون وجودها من حيث ظهور الحجة ووضوحها (قوله فالينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون) رتب شهادته على فعلهم على وجوههم السبق في القيامة مع انه شهيد عليهم

القرآن العظيم المعجز وفيه اخبار الاولين وقصص الماضين وقيل تصديق الذي القرآن بين
يديه من القيامة والبعث (وتفصيل الكتاب) اى تبيين ما كتب الله من الاحكام وغيرها
(لا ريب) اى لا شك (فيه) وقوله تعالى (من رب العالمين) متعلق بتصديق أو بانزل المحذوف
(أم) اى بل (يقولون افتراه) اى اختلقه محمد ومعنى الهمزة فيه للانكار (قل) اى قل لهم
يا محمد ان كان الامر كما تقولون (فأتوا بسورة مثله) فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فانتم
عرب مثله فى البلاغة والفطنة (فان قيل) هل يتناول ذلك جميع السور الصغار والكبار أو
يختص بالسور الكبار (أجيب) بان هذه الآية فى سورة يونس وهى مكية فيكون المراد مثل
هذه السورة لانها اقرب ما يمكن أن يشار اليه هكذا أجاب الرازى والاولى التناول لجميع
السور فانهم لا يقدرون أن يأتوا باقصر سورة (فان قيل) لم قال فى البقرة بسورة من مثله وهنا
بسورة مثله (أجيب) بانه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ ولم يكتب ولم يتلمذ لاحد فقيل فى سورة
البقرة فأتوا بسورة من مثله بناء على أن الضمير يرجع للنبى صلى الله عليه وسلم اى فليأت انسان
يساوى محمدا صلى الله عليه وسلم فى عدم مطالعة الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة
تساوى هذه السورة وحيث ظهر العجز ظهر المعجز فهذا لا يدل على ان السورة فى نفسها معجزة
ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من انسان مثل محمد صلى الله عليه وسلم فى عدم
التعلم والتتلمذ معجز ثم بين تعالى فى هذه السورة ان تلك السورة فى نفسها معجزة فان الخلق وان
تتلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا لا يمكنهم الاتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور
وهو المراد من قوله تعالى (وادعوا من استطعتم) اى فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا
به (من دون الله) اى غيره فانه تعالى وحده قادر على ذلك (ان كنتم صادقين) اى فى انى أتيت به
من عندى لان العاقل لا يجزم بشئ الا اذا كان عنده منه مخرج وذلك لا يكون الا عن دليل
ظاهر وسلطان قاهر باهر * (تنبيه) * مراتب تحدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن
ستة أولها انه تحداهم بكل القرآن كما قال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل
هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ثانيها انه تحداهم بعشر سور فقال
تعالى فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ثالثها انه تحداهم بسورة واحدة كما قال تعالى فأتوا بسورة
من مثله رابعها انه تحداهم بحديث مثله خامسها ان فى تلك المراتب الاربعة كان يطلب منهم
ان يأتى بالمعارضة رجل يساوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدم التلمذ والتعلم ثم فى هذه
السورة طلب منهم معارضة سورة واحدة من اى انسان سواء تعلم العلوم أم لم يتعلمها سادسها
ان فى المراتب المتقدمة تحدى واحدا من الخلق وفى هذه المرتبة تحدى جميعهم وجوز ان
يستعين البعض بالبعض فى الاتيان بهذه المعارضة كما قال تعالى وادعوا من استطعتم من
دون الله وههنا آخر المراتب فهذا مجموع الدلائل التى ذكرها الله تعالى فى اثبات ان القرآن
معجز ثم ان الله تعالى ذكر السبب الذى لاجله كذبوا بالقرآن فقال تعالى (بل كذبوا) اى
أوقعوا التكذيب الذى لا تكذيب اشنع منه مسرعين فى ذلك (بما لم يحيطوا بعلمه) اى
القرآن أول ما سمعوه قبل ان يتدبروا آياته من غير شبهة أصلا بل عنادا وطغيانا ونفورا عما
يخالف دينهم فهو من باب من جهل شيئا عاداه والاحاطة ادراك ما هو كالحائط حول الشئ

فى الدنيا أيضا الا ان المراد
بيان ذكر تعجيبه وهو
العذاب والجزاء كانه قال
ثم الله معاقب أو مجاز
على ما يفعلون (قوله بياتا
أو نهارا) ان قلت لم قال
بياتا ولم يقل ليلا مع انه

واحاطة العلم بالشئ العلم به من جميع وجوهه (ولما يأتهم) اى الى زمن تكذيبهم (تأويله) اى تأويل ما فيه من الاخبار بالغيوب وعاقبة ما فيه من الوعيد حتى تبين لهم انه صدق ام كذب ومعنى التوقع فى لما انه قد ظهر لهم بالآخرة اعجازه لما كرر عليهم التحدى فجربوا عقولهم فى معارضته فصغرت وضعفت دونه اوسمعه فذ لم يقلعوا عن التكذيب تمردا وعنادا (كذلك) اى مثل تكذيبهم هذا التكذيب العظيم فى الشناعة قبل تدبر المعجزة (كذب الذين من قبلهم) اى من كفار الامم الماضية فظلموا فاهلكناهم بظلمهم (فانظر) يا محمد (كيف كان عاقبة الظالمين) بتكذيب الرسل اى آخر أمرهم من الهلاك فكذلك يهلك من كذبك من قومك وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ويحتمل ان يكون الخطاب لكل فرد من الناس والمعنى فانظر أيها الانسان كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر أن تفعل مثل فعله (ومنهم) اى من قومك يا محمد (من يؤمن به) اى القرآن اى يصدق به فى نفسه ويعلم انه حق ولكنه يعاند بالتكذيب (ومنهم من لا يؤمن به) فى نفسه لغباوته وقلة تدبره أو منهم من يؤمن به فى المستقبل بان يتوب عن الكفر ويبدله بالايمان ومنهم من يصر ويستمر على الكفر وانما فسرت هذه الآية بهذين التأويلين لان كلمة يؤمن تصلح للحال والاستقبال (وربك أعلم بالمفسدين) اى المعاندين على التفسير الاول والمصرين على التفسير الثانى وفى ذلك تهديد لهم (وان كذبوك) اى وان يكذبوك يا محمد بعد الزام الحجة (فقل) لهم (لى عملى) من الطاعة وجزاء ثوابها (ولكم عملكم) من الشرك وجزاء عقابه اى فتبرأ منهم فقد أعذرت والمعنى لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم حقا كان أو باطلا (أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون) لا تؤاخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم واختلف فى معنى ذلك فقيل معنى الآية الزجر والردع وقيل بل معناه استمالة قلوبهم وقال مقاتل والكلبى هذه الآية منسوخة بآية السيف قال الرازى وهذا بعيد لان شرط الناسخ ان يكون رافعا لحكم المنسوخ ومدلول هذه الآية اختصاص كل واحد بافعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وذلك لا يقتضى حرمة القتال وآية القتال مارفعت شيأ من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلا انتهى ولا تنبغى هذه المبالغة مع مثل من ذكر وقد تبعهما جماعة من المفسرين ولما قسم تعالى الكفار قسمين منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به قسم من لا يؤمن به قسمين منهم من يكون فى نهاية البغض له والعداوة له ونهاية النفرة عن قبول دينه ومنهم من لا يكون كذلك فوصف القسم الاول فى قوله تعالى (ومنهم) أى من هؤلاء المشركين (من يستمعون اليك) اذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع باسماعهم الظاهرة ولا ينفعهم لشدة عداوتهم وبغضهم لك فان الانسان اذا قوى بغضه لآخر وعظمت نفرته منه صارت نفسه معرضة عن جميع جهات محاسن كلامه (أفأنت تسمع الصم) أى أتقدر على اسماعهم (ولو كانوا) مع الصمم (لا يعقلون) أى لان الاصم العاقل ربما تفرس واستدل اذا وقع فى صماخه دوى الصوت فاذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الامر فكما أنك لا تقدر على اسماع الاصم الذى لا يعقل لا تقدر على اسماع من أصم الله تعالى قلبه فان الله تعالى صرف قلوبهم من الانتفاع بما يسمعون ولم يوثقهم الثلاثة شبههم بالصم فى عدم الانتفاع بما يتلى عليهم ثم وصف القسم الثانى فى قوله تعالى (ومنهم من ينظر اليك)

أكثر استعمالا وأظهر مطابقة مع النهار قلت لان المقصود فى الاستعمال عند ذكر الاهلاك والتهديد ذكر البيات وان قرن به ذكر النهار (قوله الا ان لله ما فى السموات والارض) تماله

اليك) أى وما يرون دلائل نبوّتك ولا يصدقونك (أفأنت تهدى العمى) اى أتقدر على هدايتهم (ولو كانوا) مع العمى (لا يبصرون) اى لا بصيرة لهم لان الاعمى الذى فى قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن فأما العمى مع الحمق فجهد البلاء فلا تقدر على هداية من أعمى الله تعالى بصيرته فهؤلاء فى اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والعمى الذين لا عقول لهم ولا بصائر فلا يقدر على اسماعهم وهدايتهم الا الله تعالى ٭ (تنبيه) ٭ اختلف فى أن السمع أفضل أو البصر فمنهم من قال السمع واحتج على ذلك بأمور منها تقدمه فى الآية ومنها أن القوة السامعة تدرك المسموع من جميع الجوانب والقوة الباصرة لا تدرك المرئى الا من جهة واحدة وهى المقابل ومنها أن الانسان انما يستفيد العلم من التعلم من الاستاذ وذلك لا يكون الا بقوة السمع فاستكمال النفس بالكمالات العلمية لا يحصل الا بقوة السمع ومنها أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام يراهم الناس ويسمعون كلامهم فنبوتهم ما حصلت بسبب ما معهم من الصفات المرئية وانما حصلت بسبب ما معهم من الاحوال المسموعة وهو الكلام وتبليغ الشرائع وبيان الاحكام ومنها أن المعنى الذى يمتاز به الانسان من سائر الحيوانات هو النطق بالكلام وانما ينتفع بذلك بالقوة السامعة فمتعلق السمع النطق الذى يحصل به شرف الانسان ومتعلق البصر ادراك الالوان والاشكال وذلك أمر مشترك فيه بين الناس وبين سائر الحيوانات ومنهم من قال البصر واحتج بأمور منها ان آلة القوة الباصرة هى النور وآلة القوة السامعة هى الهواء والنور أشرف من الهواء ومنها أن جمال الوجه يحصل بالبصر وبذهابه عيبه وذهاب السمع لا يورث الانسان عيبا فى جمال وجهه والعرب تسمى العينين الكريمتين ولا تصف السمع بمثل هذا وفى الحديث يقول الله تعالى من أذهبت كريمتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابا دون الجنة ومنها أنهم قالوا فى المثل المشهور ليس وراء العيان بيان وذلك يدل على أن أكمل وجوه الادراكات هو الابصار ومنها أن كثيرا من الانبياء سمع الله واختلفوا فى أنه هل رآه منهم أحد أم لا وأيضا فان موسى عليه السلام أسمعه الله تعالى كلامه من غير سبق سؤال والتماس فلما طلب الرؤية قال لن ترانى وذلك يدل على أن حال الرؤية أعلى من حال السماع وهذا هو الظاهر ولما حكم تعالى على أهل الشقاوة بالشقاوة بقضائه وقدره السابق فيهم أخبر تعالى أن تقدير الشقوة عليهم ما كان ظلما منه بقوله تعالى (ان الله لا يظلم الناس شيأ) اى لانه تعالى فى جميع أفعاله متفضل وعادل فيتصرف فى ملكه كيف يشاء والخلق كلهم عبيده وكل من تصرف فى ملكه بالفضل والعدل لا يكون ظالما وانما قال تعالى (ولكن الناس انفسهم يظلمون) لان فعلهم منسوب اليهم بسبب الكسب وان كان قد سبق قضاء الله تعالى وقدره فيهم ففى ذلك دليل على أن للعبد كسبا وأنه ليس مسلوب الاختيار كما زعمت المجبرة وقرأ حمزة والكسائى بكسر النون مخففة ورفع السين والباقون بنصب النون مشددة ونصب السين ولما وصف تعالى هؤلاء الكفار بقلة الاصغاء وترك التدبر أتبعه بالوعيد بقوله تعالى (ويوم يحشرهم) اى واذكر يا محمد يوم يحشر هؤلاء المشركين لموقف الحساب وأصل الحشر اخراج الجماعة وازعاجهم عن مكانهم (كأن) اى كأنهم (لم يلبثوا) فى الدنيا وقيل فى القبور

هذا اللفظ ما ولم يكرره وقاله بعد بلفظ من وكرره لان ما الفصحاء له فعلا وهو فى الاول المال المأخوذ من قوله لا تستحدث به ولم يكرر ما كنا به فنبدله ولوان

ضمير نحشرهم والجار أى مشبهين بمن لم يلبثوا (إلا ساعة) حقيرة (من النهار) أى يستقصرون مدة مكثهم فى الدنيا وفى القبور لهول ما يرون (يتعارفون بينهم) أى يعرف بعضهم بعضا إذا بعثوا ثم ينقطع التعارف لشدة الأهوال والجملة حال مقدرة متعلق الظرف والتقدير يتعارفون يوم نحشرهم وقوله تعالى (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) أى بالبعث يحتمل وجهين الأول أن يكون على إرادة القول أى يتعارفون بينهم قائلين ذلك الثانى أن يكون كلام الله تعالى فيكون شهادة من الله تعالى عليهم بالخسران والمعنى أن من باع آخرته بالدنيا فقد خسر لأنه أعطى الكثير الشريف الباقى وأخذ القليل الخسيس الفانى (وما كانوا مهتدين) أى إلى رعاية مصالح التجارة وذلك لأنهم اغتروا بالظاهر وغفلوا عن الحقيقة فصاروا كمن رأى زجاجة خسيسة وظنها جوهرة شريفة فاشتراها بكل ما ملكه فإذا عرضها على الناقدين خاب سعيه وفات أمله ووقع فى حرقة الروع وعذاب القلب وقوله تعالى (وإما) فيه إدغام إن الشرطية فى ما الزائدة (نرينك) يا محمد (بعض الذى نعدهم) به من العذاب فى حياتك وجواب الشرط محذوف أى فذاك (أو نتوفينك) قبل أن نريك ذلك الوعد فى الدنيا فإنك ستراه فى الآخرة وهو قوله تعالى (فإلينا) بعد البعث (مرجعهم) فنريك هنالك ما هو أقر لعينك وأسر لقلبك وقوله تعالى (ثم الله شهيد على ما يفعلون) فيه وعيد وتهديد لهم أى أنه تعالى شهيد على أفعالهم التى فعلوها فى الدنيا فيجازيهم عليها يوم القيامة ولما بين تعالى حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه بين أن حال كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم كذلك بقوله تعالى (ولكل أمة) أى من الأمم التى خلت من قبلك (رسول) يدعوهم إلى الله تعالى وقوله تعالى (فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط) فيه إضمار تقديره فإذا جاء رسولهم وبلغهم ما أرسل به إليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون قضى أى حكم وفصل بينهم بالقسط أى بالعدل وفى وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان أحدهما أنه فى الدنيا بأن يهلك الكافرين وينجى رسوله والمؤمنين لقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا والثانى فى الآخرة وذلك أن الله تعالى إذا جمع الأمم يوم القيامة للحساب والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصى جىء بالرسل لتشهد عليهم لقوله تعالى وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم والمراد منه المبالغة فى إظهار العدل وهو قوله تعالى (وهم لا يظلمون) فى جزاء أعمالهم شيأ بل يجازى كل واحد على قدر عمله فكذلك يفعل بهؤلاء (ويقولون متى هذا الوعد) الذى تعدنا به يا محمد من نزول العذاب ومن قيام الساعة وإنما قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد (إن كنتم صادقين) أى فيما تعدونا به وإنما قالوا بلفظ الجمع على سبيل التعظيم أو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وإن كان كل أمة قالوا لرسولها مثل ذلك وهو الموافق لقوله تعالى ولكل أمة رسول قال الله تعالى (قل) أى قل لهم يا محمد (لا أملك لنفسى ضرا) من مرض أو فقر أدفعه (ولا نفعا) من صحة أو غنى أجلبه (إلا ما شاء الله) أن يقدرنى عليه فكيف أملك لكم حلول العذاب أو قيام الساعة ولا يقدر على ذلك أحد إلا الله تعالى (لكل أمة أجل) أى مدة مضروبة (إذا جاء أجلهم) أى انقضت مدة أعمارهم (فلا يستأخرون) أى لا يتأخرون (عنه ساعة) ثم عطف على الجملة الشرطية بكمالها (ولا يستقدمون) أى ولا يتقدمون أى ولا

يستعجلون

لكل نفس ظلمت ما فى الارض ومن للعقلاء وهم فى الثانى قوم آذوا النبى صلى الله عليه وسلم فنزل فيهم ولا يحزنك قولهم وكرر من لان المراد من فى

يستعجلون فان الوفاء بالوعد لابد منه والسين فيهما بمعنى الوجدان اى لا يوجد لهم المعنى الذى منع منه الفعل ويجوز ان يكون المعنى لا يجدون التأخر ولا التقدم وان اجتهدوا فى الطلب فيكون فى السين معنى الطلب وتدل الآية على ان أحدا لا يموت الا بانقضاء أجله وكذا المقتول لا يقتل الا على هذا الوجه وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى وسهل ورش وقنبل الثانية وابدلها أيضا حرف مد والباقون بالتحقيق قال الله تعالى (قل) اى قل لهم يا محمد أيضا (أرأيتم ان أتاكم عذابه) الذى تستعجلون به (بياتا) اى فى الليل بغتة كما يفعل العدو (أو نهارا) اى وقت أنتم فيه تشتغلون بطلب المعاش والكسب (ماذا) اى اى شئ (يستعجل منه) اى من عذابه وعذاب كل مكروه ولا يحتمل شئ منه (المجرمون) اى المشركون وضع المجرمون . وضع المضمر للدلالة على انهم لجرمهم ينبغى ان يفزعوا من مجئ الوعيد لا أن يستعجلوا وجملة الاستفهام متعلقة بأرأيتم وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه (أثم اذا ما وقع) اى حل بكم (آمنتم) اى آمنتم بالله أو العذاب وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس والهمزة لانكار التأخير فلا يقبل منكم وقوله تعالى (الآن) على ارادة القول اى قيل لهم اذا آمنوا وقت نزول العذاب آلآن (وقد كنتم به تستعجلون) تكذيبا واستهزاء (تنبيه) اتفق قالون مع ورش على النقل هنا واتفق القراء كلهم على همزة الوصل التى بعد همزة الاستفهام ان فيها وجهين وهما البدل والتسهيل وقوله تعالى (ثم قيل للذين ظلموا) عطف على قيل المقدر اى من اى قائل كان استهانة بهم وقرأ هشام والكسائى باشمام القاف وهو ان تضم القاف قبل الياء والباقون بالكسر (ذوقوا عذاب الخلد) اى الذى تخلدون فيه والاتيان بثم اشارة الى تراخى ذلك عن الاهلاك فى الدنيا بالمكث فى البرزخ أو الى ان عذابه أدنى من عذاب يوم الدين (هل) اى ما (تجزون الا بما كنتم تكسبون) فى الدنيا من الكفر والمعاصى (ويستنبؤنك) اى يستخبرونك يا محمد (أحق هو) اى ما وعدتنا به من نزول العذاب وقيام الساعة وهو استفهام على جهة الانكار والاستهزاء قاله حيى بن أخطب لما قدم مكة (قل) لهم فى جوابهم (اى وربى انه لحق) اى كائن ثابت لابد من نزوله بكم * (تنبيه) اى بمعنى نعم وهو من لوازم القسم ولذلك توصل بواو القسم فى التصديق فيقال اى والله ولا ينطقون به وحده (وما أنتم بمعجزين) اى بفائتين العذاب لان من عجز عن شئ فقد فاته (ولو ان لكل نفس ظلمت) اى أشركت (ما فى الارض) من الاموال (لافتدت به) من عذاب يوم القيامة ولم ينفعها الفداء لقوله تعالى ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) اى حين عاينوه وأبصروه وصاروا مبهوتين متحيرين لم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا سوى اسرار الندم كالحال فيمن ذهب به ليصلب فانه يبقى مبهوتا متحيرا لا ينطق بكلمة وقيل انهم أخلصوا لله فى تلك الندامة ومن أخلص فى الدعاء أسره وفيه تهكم بهم وباخلاصهم لانهم انما أتوا بهذا الاخلاص فى غير وقته بل كان من الواجب عليهم ان يأتوا به فى دار الدنيا وقت التكليف وقيل المراد بالاسرار الاظهار وهو من الاضداد لانهم انما أخفوا الندامة على الكفر والفسق فى الدنيا لاجل حفظ

الارض وهم القوم المذكورون وانما قدم عليهم من فى السماء لما قدمها ولموافقته سائر الآيات سوى ما قدمته فى آل عمران وذكره بعده ما فى السموات وما فى

الرياسة وفى القيامة يبطل هذا فوجب الاظهار وليس هناك تغاير (فان قيل) أسروا جاء على لفظ الماضى والقيامة من الامور المستقبلة (أجيب) بانها لما كانت واجبة الوقوع جعل الله مستقبلها كالماضى (وقضى بينهم) اى بين الخلائق (بالقسط) اى بالعدل (وهم لا يظلمون) (فان قيل) هذه الآية مكررة (أجيب) بان الاولى فى القضاء بين الانبياء وتكذيبهم وهذه عامة وقيل بين المؤمنين والكفار وقيل بين الرؤساء والاتباع فان الكفار وان اشتركوا فى العذاب فلا بد ان يقضى الله تعالى بينهم لانه لا يمتنع ان يكون قد ظلم بعضهم بعضا فى الدنيا وخانه فيكون فى ذلك القضاء تخفيف عذاب بعضهم وتثقيل لعذاب الباقين لان العدل يقتضى ان ينصف المظلومين من الظالمين ولا سبيل اليه الا ان يخفف من عذاب المظلومين ويثقل فى عذاب الظالمين وقوله تعالى (ألا ان لله ما فى السموات والارض) تقرير لقدرته تعالى على الاثابة والعقاب (ألا ان وعد الله) اى ما وعد به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من البعث للجزاء ومن ثواب الطائع وعقاب العاصى (حق) لا شك فيه (ولكن أكثرهم) أى الناس (لا يعلمون) اى جاهلون عن حقيقة ذلك فهم باقون على الجهل معدودون مع البهائم لقصور عقلهم الا ظاهرا من الحياة الدنيا (هو) اى الذى يملك ما فى السموات والارض (يحيى ويميت) اى قادر على الاحياء والاماتة لا يتعذر عليه شئ مما أراد (واليه ترجعون) بعد الموت للجزاء وقوله تعالى (يا أيها الناس) خطاب عام وقيل لاهل مكة (قد جاءتكم موعظة من ربكم) اى كتاب فيه ما لكم وعليكم وهو القرآن (وشفاء) اى دواء (لما فى الصدور) اى القلوب من داء الجهل لان داء الجهل أضر للقلب من المرض للبدن وأمراض القلب هى الاخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة والقرآن مزيل لهذه الامراض كلها لان فيه المواعظ والزواجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الشفاء لهذه الامراض القلبية وانما خص تعالى الصدر بالذكر لانه موضع القلب وغيره وهو أعز موضع فى الانسان لمكان القلب فيه (وهدى) من الضلالة (ورحمة) اى اكرام عظيم (للمؤمنين) لانهم هم الذين انتفعوا به دون غيرهم واختلف فى تفسير قوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته) فقال مجاهد وقتادة فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله وقال ابن عباس والحسن فضل الله الاسلام ورحمته القرآن وعن أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قل بفضل الله وبرحمته فقال بكتاب الله والاسلام وقال ابن عمر فضل الله الاسلام ورحمته تزيينه فى قلوبنا وقيل فضل الله الاسلام ورحمته الجنة وقيل فضل الله القرآن ورحمته السنن ولا مانع من ان تفسر الآية بجميع ذلك اذ لا تنافى بين هذه الاقوال والباء فى بفضل الله وبرحمته متعلقة بمحذوف يفسره ما بعده تقديره قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته (فبذلك فليفرحوا) والتكرير للتأكيد والتقرير وايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل ان فرحوا بشئ فليفرحوا بهما فانه لا مفروح به أحق منهما (هو) أى المحدث عنه من الفضل والرحمة (خير مما يجمعون) أى من حطام الدنيا ولذاتها الفانية وقرأ ابن عامر بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة (قل) يا محمد لكفار

الارض بالغا ما وكرر لان بعض الكفار قالوا اتخذ الله ولدا فقال تعالى له ما فى السموات وما فى الارض أى اتخاذ الولد انما يكون لدفع أذى أو جذب منفعة والممالك ما فى

مكة (أرأيتم) اى أخبرونى (ما أنزل) أى خلق (الله لكم من رزق) وانه تعالى جعل الرزق منزلا لانه مقدر فى السماء يحصل بأسباب منها (فجعلتم منه) أى من ذلك الرزق (حراما وحلالا) وهو مثل ما ذكروه من تحريم السائبة والوصيلة والحام ومثل قولهم هذه أنعام وحرث حجر ومثل قولهم هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ومثل قولهم ثمانية أزواج من الضأن اثنين (قل) لهم يا محمد (آلله أذن لكم) فى هذا التحريم والتحليل (أم) اى بل (على الله تفترون) اى تكذبون على الله بنسبة ذلك اليه (وما ظن الذين يفترون) اى يتعمدون (على الله الكذب) اى اى شئ ظنهم به (يوم القيامة) أيحسبون أن لا يؤاخذهم ولا يجازيهم على أعمالهم فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والتهديد والوعيد العظيم لمن يفترى على الله الكذب (ان الله لذو فضل على الناس) بنعم كثيرة لا تحصى منها انزال الكتب مفصلا فيها ما يرضيه وما يسخطه ومنها ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام لبيانها بما يحتمله عقول الخلق منها ومنها طول امهالهم على سوء أفعالهم ومنها انعامه عليهم بالعقل فكان شكره واجبا عليهم (ولكن أكثرهم) اى الناس (لا يشكرون) هذه النعم ولا يستعملون العقل فى دلائل الله تعالى ولا يقبلون دعوة أنبيائه ولا ينتفعون باستماع كتب الله وقوله تعالى (وما تكون) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم (فى شأن) أى عمل من الاعمال وجمعه شؤن والضمير فى قوله تعالى (وما تتلو منه) اما للشأن لان تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو معظم شأنه واما للتنزيل كانه قيل وما تتلو من التنزيل (من قرآن) لان كل جزء منه قرآن والاضمار قبل الذكر تفخيم له واما لله تعالى والمعنى وما تتلو من الله من قرآن نازل عليك وقوله تعالى (ولا تعملون من عمل) اى اى عمل كان تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رئيسهم وهو النبى صلى الله عليه وسلم ولذلك ذكر حيث خص بما فيه فخامة وهو الشأن وذكر حيث عم بقوله تعالى من عمل بما يتناول الجليل والحقير وقيل ان الكل داخلون فى الخطابين الاولين أيضا لانه من المعلوم انه اذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين فى ذلك الخطاب كما فى قوله تعالى يا أيها النبى اذا طلقتم النساء (الا كنا عليكم شهودا) اى رقباء نحصى عليكم أعمالكم لان الله تعالى رقيب على كل شئ وعالم بكل شئ اذ لا محدث ولا خالق ولا موجد الا الله تعالى فكل ما يدخل فى الوجود من أحوال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة داخل فى علمه وشاهد عليه (اذ تفيضون) اى الله شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون (فيه) اى ذلك العمل وقيل الافاضة الدفع بكثرة وقال الزجاج اذ تنتشرون فيه يقال افاض القوم فى الحديث اذا انتشروا فيه (وما يعزب) اى يغيب (عن ربك) يا محمد (من مثقال) اى وزن (ذرة) وهى النملة الحمراء الصغيرة خفيفة الوزن جدا وقيل المراد بها الهباء وهو الشئ المنبث الذى تراه فى البيت فى ضوء الشمس وقرأ الكسائى بكسر الزاى والباقون بالضم ومن صلة على القراءتين وانما قيد بقوله تعالى (فى الارض ولا فى السماء) تقريبا للعقول العامة (فان قيل) لم قدم ذكر الارض على السماء وقدم ذكر السماء على الارض فى سورة سبأ حيث قال تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى

السموات ومافى الارض فكان الحمل محل ما وحمل التكرار للتعميم والتوكيد (فان قلت) لم خص مافى السموات ومافى الارض بالذكر مع أنه تعالى مالك أيضا السموات والارض

الارض فما فائدة ذلك (أجيب) بان الكلام هنا فى حال أهلها والمقصود منه هو البرهان على احاطة علمه على ان العطف بالواو حكمه حكم التثنية (ولا اصغر من ذلك) اى الذرة (ولا أكبر) اى منها (الا فى كتاب مبين) اى بين وهو اللوح المحفوظ وقرأ حمزة برفع الراء من أصغر وأكبر على الابتداء والخبر والباقون بالنصب على ان ذلك اسم لا وفى كتاب خبرها (الا ان اولياء الله) أى الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة (لا خوف عليهم) من لحوق مكروه (ولا هم يحزنون) بفوات مأمول وفسرهم بقوله تعالى (الذين آمنوا وكانوا يتقون) الله بامتثال أمره ونهيه وهذا الذى فسر الله تعالى به الاولياء لا مزيد عليه وعن على رضى الله عنه هم قوم صفر الوجوه من السهر عمش العيون من العبر خمص البطون من الخوى وعن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أولياء الله تعالى فقال هم الذين يذكر الله برؤيتهم يعنى السمت والهيئة وعن ابن عباس الاخبات والسكينة وعن عمر رضى الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان من عباد الله عبادا ماهم بانبياء ولا شهداء تغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى قالوا يارسول الله أخبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا فى الله بغير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس ثم قرأ الآية ونقل النووى فى مقدمة شرح المهذب عن الامامين الشافعى وأبى حنيفة رضى الله تعالى عنهما ان كلا منهما قال اذا لم تكن العلماء أولياء الله فليس لله ولى وذلك فى الامام العامل بعلمه وقال القشيرى من شرط الولى أن يكون محفوظا كما أن من شرط النبى أن يكون معصوما فكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور ومخادع فالولى هو الذى توالت أفعاله على الموافقة ولما نفى الله عنهم الخوف والحزن زادهم فقال تعالى مبينا لتوليته لهم بعد أن شرع بتوليتهم له (لهم البشرى) أى الكاملة (فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة) اما البشرى فى الدنيا ففسرت باشياء منها الرؤيا الصالحة فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال البشرى هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن او ترى له وقال صلى الله عليه وسلم ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وقال الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا حلم احدكم حلما يخافه فليتعوذ منه وليبصق عن شماله ثلاث مرات فانه لا يضره وقال الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة ومنها محبة الناس له وذكرهم اياه فى الثناء الحسن وعن أبى ذر قال قلت يارسول الله ان الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال تلك عاجل بشرى المؤمن ومنها البشرى لهم عند الموت قال تعالى تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة اياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وما يرونه من بياض وجوههم واعطاء الصحائف بايمانهم وما يقرؤن منها وسلام الله تعالى عليهم كما قال تعالى سلام قولا من رب رحيم وغير ذلك من المبشرات بما بشر الله تعالى به عباده المتقين فى كتابه وعلى ألسنة أنبيائه من جنته وكريم ثوابه فان لفظ البشارة مشتق من خبر سار يظهر اثره فى بشرة الوجه فكل ما كان كذلك دخل فى هذه الآية ثم انه تعالى لما ذكر صفة أوليائه وشرح أحوالهم قال تعالى (لا تبديل) اى بوجه من الوجوه (لكلمات الله) اى لا تغيير لاقواله ولا اخلاف

(قلت) لان ما وماورائهما فى السموات والارض الانبياء والملائكة والعلماء والاولياء ومن يعقل فيهم أحق بالذكر مع ان غيرهم مفهوم بالاولى (قوله وما ظن الذين يفترون على الله

لمواعيده والكلمة والقول سواء ونظيره قوله تعالى ما يبدل القول لدي وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى كونهم مبشرين فى الدارين (هو الفوز العظيم) هذه الجملة والتى قبلها اعتراض لتحقق المبشر به وتعظيم شأنه وليس من شرطه ان يقع بعده كلام يتصل بما قبله (ولا يحزنك) يا محمد (قولهم) اى هؤلاء المشركين اى لا يغمك تكذيبهم وتهديدهم وتشويرهم فى تدبير هلاكك وابطال أمرك وسائر ما يتكلمون به فى شأنك وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى من أحزنه والباقون بفتح الياء وضم الزاى وكلاهما بمعنى وقوله تعالى (ان العزة) اى القوة (لله جميعا) استئناف بمعنى التعليل كأنه قيل مالى لا أحزن فقيل ان العزة لله جميعا اى ان الغلبة والقهر فى مملكة الله لله جميعا لا يملك أحد شيئا منها لا هم ولا غيرهم فهو يغلبهم وينصرك عليهم قال تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلى وقال تعالى انا لننصر رسلنا وقيل ان المشركين كانوا يتعززون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم فاخبر الله تعالى ان جميع ذلك فى ملكه فهو قادر على ان يسلب جميع ذلك ويذلهم بعد العز (هو السميع) أى البليغ السمع لاقوالهم (العليم) اى المحيط العلم بضمائرهم وجميع أحوالهم فهو البالغ القدرة على كل شئ فيجازيهم وهو تعليل لتفرده بالعزة لانه تفرد بهذين الوصفين فانتفيا عن غيره ومن انتفيا عنه كان دون الحيوانات العجم فانى يكون له عزة (فان قيل) قوله تعالى ان العزة لله جميعا يضاد قوله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (أجيب) بالمنع لان عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله فهى لله (ألا ان لله من فى السموات ومن فى الارض) ملكا وخلقا (فان قيل) لقد ذكر الله تعالى فى الآية المتقدمة ألا ان لله ما فى السموات والارض بلفظ ما وقال هنا بلفظ من فما فائدة ذلك (أجيب) بانه تعالى غلب فى الآية الاولى ما لا يعقل على من يعقل لكثرته وفى هذه غلب العاقل على غيره لشرفه وقيل مجموع الآيتين دال على ان الكل خلقه وملكه وقيل ان المراد من فى السموات الملائكة ومن فى الارض الثقلان وانما خصهم بالذكر لشرفهم واذا كان هؤلاء فى ملكه وتحت قهره فما لا يعقل منها أحق أن لا يكون له ندا او شريكا فهو كالدليل على قوله تعالى (وما يتبع الذين يدعون) اى يعبدون (من دون الله) أى غيره اصناما (شركاء) على الحقيقة وان كانوا يسمونها شركاء تعالى الله عن ذلك (ان) اى ما (يتبعون) فى ذلك (الا الظن) اى ظنهم انها آلهة تشفع لهم وانها تقربهم الى الله تعالى ثم بين تعالى ان هذا الظن لا حكم له بقوله تعالى (وان) أى ما (هم الا يخرصون) أى يكذبون فى ذلك ويجوز ان يكون وما يتبع فى معنى الاستفهام أى وأى شئ يتبعون وشركاء على هذا نصب بيدعون وعلى الاول بيتبع وكان حقه وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فاقتصر على أحدهما للدلالة وقوله تعالى (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) اى ليزول عنكم التعب والكلال فيه بما تقاسون فى نهاركم من تعب التردد فى المعاش (والنهار مبصرا) اى مضيئا تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم تنبيه على كمال قدرته وعظيم نعمته المتوحد هو بهما ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة واضافة الابصار الى النهار مع أنه يبصر فيه على طريق نقل الاسم من المسبب الى السبب كقولهم ليل نائم لان الليل سبب السكون قال قطرب تقول العرب أظلم الليل اى صار ذا ظلمة وأضاء النهار اى صار ذا ضياء (ان فى ذلك) المذكور

الكذب يوم القيامة) ان قلت هذا تهديد فكيف ناسبه قوله بعد ان الله لذو فضل على الناس (قلت) هو مناسب لان معناه ان الله لذو فضل على الناس حيث تفضلا على الناس حيث أنعم عليهم بالعقل وارسال

(لآيات) أي دلالات على وحدانيته تعالى (لقوم يسمعون) سماع اعتبار وتدبر فيعلمون
بذلك أن الذي خلق الأشياء كلها هو الإله المعبود المتفرد بالوحدانية في الوجود * ثم ذكر الله
تعالى نوعا من أباطيل الكفار بقوله تعالى (قالوا) أي اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة
بنات الله (اتخذ الله ولدا) قال الله تعالى (سبحانه) أي تنزيها له عن الولد (هو الغني) عن كل
أحد وإنما يطلب الولد من يحتاج إليه ثم بين تعالى غناه بقوله تعالى (له ما في السموات وما في
الأرض) من ناطق وصامت ملكا وخلقا ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما أضافوا
إليه عطف بالإنكار والتوبيخ فقال (إن) أي ما (عندكم من سلطان) أي حجة (بهذا) أي الذي
تقولونه ثم بالغ تعالى في ذلك الإنكار عليهم بقوله تعالى (أتقولون على الله ما لا تعلمون)
حقيقته وصحته وتضيفون إليه ما لا يجوز إضافته إليه تعالى جهلا منكم والاستفهام للتوبيخ
(قل) يا محمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون عليه الباطل ويزعمون أن له ولدا
(إن الذين يفترون) أي يتعمدون (على الله الكذب لا يفلحون) أي لا ينجحون في سعيهم ولا
يفوزون بمطالبهم بل خابوا وخسروا فإنهم لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة ومن الناس
من إذا فاز بشيء من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة ظن أنه قد فاز بالمقصود والله سبحانه
وتعالى أزال هذا الخيال بأن قال (متاع في الدنيا) وفيه إضمار تقديره لهم متاع في الدنيا على
أنه مبتدأ خبره محذوف ويصح أن يكون خبر المبتدأ المحذوف تقديره افتراؤهم متاع في الدنيا
يقيمون به رياستهم في الكفر أو حياتهم أو تقلبهم متاع في الدنيا وهو أيام يسيرة بالنسبة إلى
طول بقائهم في العذاب (ثم إلينا مرجعهم) بعد الموت (ثم نذيقهم العذاب الشديد) بعد الموت
(بما) أي بسبب ما (كانوا يكفرون) * ولما ذكر سبحانه وتعالى في هذه السورة من أحوال كفار
قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد شرع بعد ذلك في قصص الأنبياء وما جرى لهم مع
أممهم وذكر الله تعالى منهم في هذه السورة ثلاث قصص * القصة الأولى قصة نوح عليه السلام
المذكورة بقوله تعالى (واتل) يا محمد (عليهم) أي كفار قريش (نبأ) أي خبر (نوح) وذلك
ليكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه أسوة بمن سلف من الأنبياء فإنه كان صلى الله
عليه وسلم إذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كان إلا على هذا الوجه خف ذلك
على قلبه كما يقال المصيبة إذا عمت خفت ولأن الكفار إذا سمعوا هذه القصص وعلموا أن
الجهال وإن بالغوا في إيذاء الأنبياء المتقدمين إلا أن الله تعالى أعانهم بالآخرة ونصرهم
وأيدهم وقهر أعداءهم كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سببا لانكسار
قلوبهم ووقوع الخوف والوجل في صدورهم ولأن الكلام إذا طال تقريرا في نوع من أنواع
العلوم فربما حصل نوع من أنواع الملالة فإذا انتقل الإنسان من ذلك الفن من العلم إلى فن
آخر انشرح صدره وطاب قلبه ووجد في نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلا قويا ولأنه صلى
الله عليه وسلم لما لم يتعلم علما ولم يطالع كتابا ثم ذكر هذه القصص من غير تفاوت ومن غير زيادة
ومن غير نقصان دل ذلك على أنه صلى الله عليه وسلم إنما عرفها بالوحي والتنزيل ويبدل من
نبأ نوح (إذ قال لقومه) وهم بنو قابيل (يا قوم إن كان كبر) أي شق وعظم (عليكم مقامي)
أي لبثي فيكم ألف سنة إلا خمسين عاما (وتذكيري) أي وعظي إياكم (بآيات الله) أي بحججه

وبيناته

الرسل وتأخير العذاب ووقع
باب التوبة أي كيف
تفترون على الله الكذب
مع تظاهر نعمه عليكم
(قوله ولأنه صلى الله عليه وسلم لما لم يتعلم علما ولم يطالع كتابا ثم ذكر هذه القصص من غير تفاوت ومن غير زيادة ومن غير نقصان دل)
إن قلت كيف جمع الضمير
مع أنه أفرد قبل في قوله وما

وبيانه فعزمتم على قتلي وطردي (فعلى الله توكلت) أي فهو حسبي وثقتي أو قيامي على الدعوة لانهم كانوا اذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بينا وكلامهم مسموعا كما يحكى عن عيسى عليه السلام انه كان يعظ الحواريين قائما وهم قعود (فأجمعوا أمركم) اى فاعزموا على أمر تفعلونه في أذاي بالاهلاك أو غيره (وشركاءكم) اى وادعوا شركاءكم أو الواو بمعنى مع اى مع شركائكم وهي الاصنام وانما حثهم على الاستعانة بها بناء على مذهبهم الفاسد واعتقادهم أنها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لا تضر ولا تنفع تبكيتا وتوبيخا لهم (ثم لا يكن أمركم) اى الذي تقصدونني به (عليكم غمة) اى مستورا من غمه اذا ستره بل اظهروه وجاهروني بجاهرة فانه لا معارضة لي بغير الله الذي يستوي عنده السر والجهر (ثم اقضوا الي) أي أمضوا ما في أنفسكم وافرغوا منه يقال قضى فلان اذا مات ومضى وقضى دينه اذا فرغ منه وقيل معناه توجهوا الى بالقتل والمكروه وقيل فاقضوا ما أنتم قاضون وهذا مثل قول السحرة لفرعون فاقض ما أنت قاض أي اعمل ما أنت عامل (ولا تنظرون) أي ولا تؤخرون بعد اعلامكم اياي ما أنتم عليه وانما قال ذلك اظهارا لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته وانهم لن يجدوا اليه سبيلا (فان توليتم) أي أعرضتم عن تذكيري (فما سألتكم من أجر) أي من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فينفركم عني وتتهموني لاجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظتكم ومتى كان الانسان فارغا عن الطمع كان قوله أقوى تأثيرا في القلب (ان أجري الا على الله) وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة أي ما نصحتكم الا لوجه الله تعالى لا لغرض من أغراض الدنيا وهكذا ينبغي لكل من ينفع الناس بعلم أو ارشاد الى طريق الله تعالى (وأمرت أن أكون من المسلمين) اى اني مأمور بالاستسلام لكل مكروه يصل الي منكم لاجل هذه الدعوة وقيل بدين الاسلام وانا ماض فيه غير تارك له قبلتموه أو لم تقبلوه (فكذبوه) اى اصروا على تكذيبه بعدما لزمتهم الحجة وبين أن توليتهم ليست الا لعنادهم وتمردهم لا جرم حقت عليهم كلمة العذاب (فنجيناه) من الغرق (ومن معه في الفلك) أي السفينة وكانوا ثمانين (وجعلناهم) أي الذين أنجيناهم معه في الفلك (خلائف) في الارض يخلفون الهالكين بالغرق (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) بالطوفان وقوله تعالى (فانظر) أي أيها الانسان أو يا محمد (كيف كان عاقبة المنذرين) تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله وتسلية له وهذه القصة اذا سمعها من صدق النبي صلى الله عليه وسلم ومن كذب به كان زجرا للمكذبين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الايمان ليصلوا الى مثل ما وصل اليه قوم نوح وهذه الطريقة في الترغيب والتحذير اذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ ولهذا الوجه أكثر الله تعالى ذكر أقاصيص الانبياء عليهم السلام (ثم بعثنا من بعده) أي نوح (رسلا الى قومهم) لم يسم هنا تعالى من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعده هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم (فجاؤهم بالبينات) أي بالمعجزات الواضحات التي تدل على صدقهم (فما كانوا ليؤمنوا) أي فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة عنادهم وخذلان الله تعالى اياهم (بما) أي بسبب ما (كذبوا به من قبل)

تكون في شأن (وما تتلوا منه من قرآن) والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم (ولا تعملون من عمل) جمع ليدل على ان الامة داخلون مع النبي صلى الله عليه وسلم فيما خوطب به بل أوجع

أى أنهم كانوا قبل بعثة الرسل اليهم أهل جاهلية مكذبين بالحق فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها كأن لم يبعث اليهم أحد (كذلك) أى مثل ما طبعنا على هؤلاء بسبب تكذيبهم الرسل (نطبع) أى نختم (على قلوب المعتدين) فى كل زمن لكل من تعمد العدول فيما لا يحل له فلا يقبل الايمان لانهماكهم فى الضلال واتباعهم المألوف وفى أمثال ذلك دليل على ان الافعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد * القصة الثانية قصة موسى عليه السلام المذكورة بقوله تعالى (ثم بعثنا من بعدهم) اى هؤلاء الرسل (موسى وهرون الى فرعون وملئه) اى اشراف قومه وغيرهم تبع لهم فهو مرسل الى الجميع (بآياتنا) التسع (فاستكبروا) عن اتباعها والايمان بها وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن قبولها (وكانوا قوما مجرمين) اى كفارا ذوى آثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترؤا على ردها (فلما جاءهم الحق) اى جاء فرعون وقومه (من عندنا) اى الذى جاء به موسى من عند ربه وعرفوا أنه ليس من عند موسى وهرون لتظاهر المعجزات الظاهرات المزيحة للشك (قالوا) اى غير متأملين له ولا ناظرين فى أمره لفرط تمردهم (ان هذا لسحر مبين) اى بين ظاهر يعرفه كل أحد وهم يعلمون أن الحق أبعد شئ من السحر الذى لا يظهر الا على يد كافر أو فاسق وقوله تعالى (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) فيه حذف تقديره أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر أسحر هذا فحذف السحر الاول اكتفاء بدلالة الكلام عليه ثم قال أسحر هذا وهو استفهام على سبيل الانكار بمعنى انه ليس بسحر ثم احتج على صحة قوله تعالى فقال (ولا يفلح الساحرون) فانه لو كان سحرا لاضمحل ولم يبطل سحر السحرة فقلب العصا حية وفلق البحر معلوم بالضرورة انه ليس من باب التمويه والتخييل فثبت انه ليس بسحر (قالوا) أى قوم فرعون لموسى (أجئتنا لتلفتنا) أى لتردنا وتصرفنا واللفت والفتل أخوان (عما وجدنا عليه آباءنا) أى من الدين وعبادة الاصنام ثم قالوا لموسى وهرون (وتكون لكما الكبرياء) أى الملك والعز (فى الارض) أى أرض مصر قال الزجاج سمى الملك كبرياء لانه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا وأيضا الملوك موصوفون بالكبر ولهذا وصف ابن الرقيات مصعبا فى قوله

ملكه ملك رأفة ليس فيه * جبروت منه ولا كبرياء

ينفى ما عليه الملوك من ذلك ويجوز أن يقصدوا بذلك ذمهما وأنهما ان ملكا أرض مصر تجبرا وتكبرا كما قال القبطى لموسى عليه السلام ان تريد الا أن تكون جبارا فى الارض (وما نحن لكما بمؤمنين) أى بمصدقين فيما جئتما به (وقال فرعون) لقومه ارادة للمناظرة لما أتى به موسى عليه السلام (ائتونى بكل ساحر عليم) أى بالغ فى علم السحر لا يفوته شئ من السحر يتأخر البعض وقرأ حمزة والكسائى بغير ألف بين السين والحاء وتشديد الحاء مفتوحة وألف بعدها بصيغة فعال دال على زيادة فاق فرعون والباقون بألف بعد السين وتخفيف الحاء مكسورة ولا ألف بعدها (فلما جاء السحرة) أى كل من فى أرض مصر منهم قالوا لموسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين (قال لهم موسى ألقوا) جميع (ما أنتم ملقون) (فان قيل)

تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم كما فى قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات (قوله ولا يحزنك قولهم) أى لانك لست مرسلا فالقول محذوف كنظيره فى يس والوقف على قولهم فيهما

كيف أمرهم بالكفر والسحر والامر بالكفر كفر (أجيب) بانه انما أمرهم بالقاء ما معهم من الحبال والعصي التي معهم ليظهر للخلق أن ما أتوا به عمل فاسد وسعي باطل لا على طريق أنه عليه السلام أمرهم بالسحر (فلما ألقوا) ما معهم من الحبال والعصي وخيلوا بسحرهم أعين الناس أنها تسعى (قال موسى) منكرا عليهم (ما جئتم به السحر) قرأ أبو عمرو بهمزتين الاولى همزة الاستفهام فهي مفتوحة والثانية همزة وصل وله فيها وجهان التسهيل والبدل فما استفهامية مبتدأ وجئتم به خبر وآلسحر بدل منه وقرأ الباقون بهمزة وصل فتسقط في الوصل اي الذي جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه سحرا ثم أخبر موسى عليه السلام بقوله (ان الله سيبطله) اي يهلكه ويظهر فضيحة صاحبه (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) أي لا يثبته ولا يقويه وقول البيضاوي وفيه دليل على أن السحر افساد وتمويه لا حقيقة له محمول على ما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والادوية والا فله حقيقة عند أهل السنة وهو علم بكيفية استعدادات تقتدر بها النفوس البشرية على ظهور التأثير في عالم العناصر (ويحق) اي يثبت ويظهر (الله الحق بكلماته) اي بقضائه ووعده الصادق لموسى عليه السلام وقد أخبر الله تعالى في غير هذه السورة انه كيف أبطل ذلك السحر وذلك بسبب أن ذلك الثعبان قد تلقف تلك الحبال والعصي (ولو كره المجرمون) ذلك ✱ ولما بين تعالى أن قوم موسى شاهدوا هذه المعجزات ومع ذلك لم يؤمن منهم الا القليل كما قال تعالى (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه) وانما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه كان يغتم بسبب اعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر فبين تعالى أن له في هذا الباب بسائر الانبياء اسوة لان الذي ظهر من موسى عليه السلام من المعجزات كان أمرا عظيما ومع ذلك فما آمن له الا ذرية من قومه والذرية اسم يقع على القليل من القوم قال ابن عباس الذرية القليل والهاء التي في قومه راجعة الى موسى أي فما آمن من قومه الا طائفة من ذراري بني اسرائيل كانه قيل الا أولاد من أولاد قومه وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون واجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف وقيل راجعة الى فرعون والذرية امرأته آسية ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وماشطته (على خوف من فرعون وملئهم) أي خوف منه لانه كان شديد البطش وكان قد أظهر العداوة مع موسى واذا علم ميل القوم الى موسى كان يبالغ في ايذائهم فلهذا السبب كانوا خائفين منه ومن أشراف قومه والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظمة لانه ذو أصحاب يأتمرون به وقيل المراد بفرعون آله كما يقال ربيعة ومضر (أن يفتنهم) أي يصرفهم ويصدهم عن الايمان (وان فرعون لعال) أي متكبر قاهر (في الارض) أي أرض مصر (وانه لمن المسرفين) أي المجاوزين الحد فانه كان من أخس العبيد وادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب لبني اسرائيل (وقال موسى) لقومه (يا قوم ان كنتم آمنتم بالله) أي صدقتم به وبآياته (فعليه توكلوا) أي ثقوا به واعتمدوا عليه فانه ناصر أوليائه ومهلك أعدائه (ان كنتم مسلمين) أي مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له وقيل ان كنتم آمنتم بالقلب وأسلمتم بالظاهر (فقالوا) مجيبين له (على الله توكلنا) أي عليه اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا ربهم فقالوا (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) أي لا تسلطهم

لانه لازم ويمتنع الوصل صلى الله عليه وسلم منزه عن ان يخاطب بذلك (قوله ان العزة لله جميعا) قال ذلك هنا وقال في سورة المنافقين ولله العزة ولرسوله والمؤمنين لان المراد هنا

عليناانفتنوتنا (ونجنا) أى خلصنا (برحمتك من القوم الكافرين) اى من أيدى قوم فرعون لانهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم فى الاعمال الشاقة واتماقالوا ذلك لانهم كانوا مخلصين لاجرم ان الله تعالى قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء فى الارض وفى تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على ان الداعى ينبغى ان يتوكل أولا لاجابة دعوته ولما شرح الله تعالى خوف المؤمنين من الكافرين وماظهر فيهم من التوكل على الله تعالى أتبعه بان أمر موسى وهرون عليهما السلام باتخاذ البيوت بقوله تعالى (وأوحينا الى موسى وأخيه) اى الذى طلب موازرته ومعاضدته (ان تبوآ) اى اتخذا (لقومكما بمصر بيوتا) تمكثون فيها او ترجعون اليها للعبادة (واجعلوا) أنتما وقومكما (بيوتكم) اى تلك البيوت (قبلة) مصلى أومساجد كما فى قوله تعالى فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه موجهة نحو القبلة أى الكعبة وكان موسى عليه السلام يصلى اليها وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بيوتا وبيوتكم برفع الباء والباقون بالخفض (وأقيموا الصلوة) فيها ذكر المفسرون فى كيفية هذه الواقعة وجوها ثلاثة الاول أن موسى عليه السلام ومن معه كانوا فى أول أمرهم مأمورين بان يصلوا فى بيوتهم خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم ويؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون على هذه الحالة فى أول الاسلام بمكة الثانى انه قيل انه تعالى لما أرسل موسى اليهم أمر فرعون بتخريب مساجد بنى اسرائيل ومنعهم من الصلاة فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا مساجد فى بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون الثالث أنه تعالى لما أرسل موسى اليهم وأظهر فرعون تلك العداوة الشديدة أمر الله تعالى موسى وهرون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الاعداء وتكفل الله تعالى بأن يصونهم من شر الاعداء وقد خص الله تعالى موسى وهرون فى أول هذه الآية بالخطاب بقوله تعالى أن تبوآ لقومكما لان التبوّء للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤس القوم للتشاور ثم عمم هذا الخطاب فقال واجعلوا بيوتكم قبلة لان جعل البيوت مساجد واقامة الصلاة مما ينبغى أن يفعله كل أحد ثم خص موسى عليه السلام فى آخر الكلام بالخطاب فقال تعالى (وبشر المؤمنين) أى بالنصر فى الدنيا والجنة فى العقبى لان الغرض الاصلى من جميع العبادات حصول هذه البشارة فخص الله تعالى موسى بها ليدل بذلك على أن الاصل فى الرسالة هو موسى عليه السلام وان هرون عليه السلام تبع له ثم ان موسى عليه السلام لما بالغ فى اظهار المعجزات القاهرة الظاهرة ورأى القوم مصرين على الجحود والعناد والانكار أخذ يدعو عليهم ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولا سبب اقدامه على الجرائم وكان جرمهم هو لاجل حبهم الدنيا فلذلك (و) لهذا السبب (قال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه) أى أشراف قومه على ماهم عليه من الكفر والكبر (زينة) أى عظيمة يتزينون بها من الحلية واللباس وغيرهما من الدواب والغلمان وأثاث البيت الفاخر ونحو ذلك (وأموالا) أى كثيرة من الذهب والفضة وغيرهما (فى الحيوة الدنيا) روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كان لهم من فسطاط مصر الى أرض الحبشة جبال فيها معادن

العزة الخاصة بالله وهى عزة الالهية والخلق والاماتة والاحياء والبقاء الدائم وشبه ما هنالك العزة المشتركة وهى فى حق الله تعالى القدرة والغلبة وفى حق رسوله صلى الله عليه

من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت ثم بين غايتها لهم فقال مفتتحا بالنداء باسم الرب ليعيذه وأتباعه من مثل حالهم (ربنا) أي يا ربنا آتيتهم ذلك (ليضلوا) أي في خاصة أنفسهم ويضلوا غيرهم (عن سبيلك) أي دينك واللام للعاقبة وهي متعلقة بآتيت كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقيل لام كي أي آتيتهم كي تفتنهم وقيل هو دعاء عليهم بما علم من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غير ذلك وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بضم الياء والباقون بالفتح (ربنا اطمس على أموالهم) أي امسخها وغيرها عن هيئتها قال قتادة صارت أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم حجارة وقال محمد بن كعب جعل سكرهم حجارة وقال ابن عباس بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا وأرباعا ودعا عمر بن عبد العزيز بخريطة فيها أشياء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وانها كالحجر قال السدي مسخ الله تعالى أموالهم حجارة والنخيل والثمار والدقيق والأطعمة فكانت إحدى الآيات التسع (واشدد على قلوبهم) أي اطبع عليها واستوثق حتى لا تنشرح للإيمان وقوله (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) جواب للدعاء أو دعاء بلفظ النهي أو عطف على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض وقوله تعالى (قال قد أجيبت دعوتكما) فيه وجهان الأول قال ابن عباس ان موسى كان يدعو وهرون كان يؤمن فلذلك قال دعوتكما وذلك أن من يقول عند دعاء الداعي آمين فهو أيضا داع لان قوله آمين تأويله استجب فهو سائل كما ان الداعي سائل أيضا الثاني أن يكون كل منهما ذكر هذا غاية ما في الباب أن يقال انه تعالى حكى هذا الدعاء عن موسى بقوله تعالى وقال موسى ربنا وهذا لا ينافي أن يكون هرون قد ذكر الدعاء أيضا وأما قوله تعالى (فاستقيما) فمعناه اثبتا على الدعوة والرسالة والزيادة في إلزام الحجة فقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما فلا تستعجلا قال ابن جريج ان فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) أي الجاهلين الذين يظنون انه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا في الحال فربما أجاب الله تعالى دعاء الانسان في مطلوبه إلا انه ربما يوصله اليه في وقته المقدور والاستعجال لا يصدر إلا من الجهال وهذا كما قال تعالى لنوح عليه الصلاة والسلام اني أعظك أن تكون من الجاهلين وهذا النهي لا يدل على ان ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما أن قوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن ذكوان بتخفيف النون والباقون بتشديدها لأن نون التوكيد تثقل وتخفف ولما أجاب الله تعالى دعاءهما أمر بني اسرائيل وكانوا ستمائة ألف بالخروج من مصر في الوقت المعلوم ويسر لهم أسبابه وفرعون كان غافلا عن ذلك فلما سمع أنهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته خرج في عقبهم كما قال تعالى (وجاوزنا) أي قطعنا (ببني اسرائيل) أي عبدنا المخلص لنا (البحر) حتى بلغوا الشط حافظين لهم (فأتبعهم فرعون وجنوده) أي لحقهم وأدركهم يقال تبعه وأتبعه اذا أدركه ولحقه (بغيا وعدوا) أي ظلما وعدوانا وقيل بغيا في القول وعدوا في الفعل فلما أدركهم فرعون قالوا لموسى أين المخلص والمخرج البحر أمامنا وفرعون وراءنا قد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم فأوحى الله تعالى الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضرب به فانفلق لموسى وقومه فكان كل فرق كالطود العظيم وكشف عن وجه

وسلم علاو كتبه والطهارة به وفي حق المؤمنين نصرتهم على الاعداء (قوله أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) ان قلت كيف قال موسى عنهم انهم قالوا أسحر هذا بطريق الاستفهام مع

الارض وانتشر لهم البحر فلما وصل فرعون الى البحر هابوا دخوله وكان فرعون على حصان أدهم وكان معه فى عسكره ثمانمائة ألف حصان على لون حصانه وميكائيل يسوقهم حتى لم يشذ منهم أحد فلما خرج آخر بنى اسرائيل من البحر تقدمهم جبريل على فرس وخاض البحر فلما وجد الحصان ريح الانثى لم يملك فرعون من أمره شيأ فنزل البحر واتبعه جنوده حتى اذا كملوا جميعا فى البحر وهم أولهم بالخروج التطم البحر عليهم فلما أتاه الغرق أتى بكلمة الاخلاص كما قال تعالى (حتى اذا أدركه الغرق) أى لحقه (قال آمنت أنه) أى بأنه (لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين) • (فان قيل) انه آمن ثلاث مرات أولها قوله آمنت وثانيها قوله لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وثالثها قوله وأنا من المسلمين فما السبب فى عدم القبول (اجاب) العلماء عن ذلك بأجوبة منها انه انما آمن عند نزول العذاب والايمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبول ويدل عليه قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ودس جبريل فى فيه من حال البحر مخافة أن تناله الرحمة وقال له (آلآن) تؤمن (وقد عصيت قبل) وضيعت التوبة فى وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية (وكنت من المفسدين) بضلالك واضلالك عن الايمان والتوبة حتى أغلق بابها بحضور الموت ومعاينة الملائكة وانما قال له وكنت من المفسدين فى مقابلة قوله وأنا من المسلمين ومنها ان فرعون انما قال هذه الكلمة ليتوصل بها الى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة ولم يكن قصده الاقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية فلم ينفعه ما قال فى ذلك الوقت ومنها ان فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى ولذلك قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل فلم ينفعه ذلك لحصول الشك فى ايمانه ومثل هذا الاعتقاد الفاسد لا تزول ظلمته الا بنور الحجة القطعية والدلائل اليقينية ومنها ما روى فى بعض الكتب أن بعض أقوام بنى اسرائيل لما جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل فلما قال فرعون آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل انصرف ذلك الى العجل الذى آمنوا بعبادته فى ذلك الوقت فكانت هذه الكلمة فى حقه سببا لزيادة الكفر ومنها أن الايمان انما كان يتم بالاقرار بوحدانية الله تعالى وبالاقرار بنبوة موسى عليه السلام وفرعون لم يقر بالنبوة فلم يصح ايمانه ونظيره ان الواحد من الكفار لو قال ألف مرة أشهد أن لا اله الا الله فانه لا يصح ايمانه الا اذا قال معه وأشهد أن محمدا رسول الله فكذا هنا ومنها أن جبريل عليه السلام أتى فرعون بفتوى ما قول الامير فى عبد نشأ فى مال مولاه ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب فرعون فيه يقول أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج عن سيده الكافر بنعمته أن يغرق فى البحر ثم ان فرعون لما غرق رفع جبريل عليه السلام اليه خطه (فان قيل) فما فائدة دس جبريل فى فم فرعون ذلك لانه فى تلك الحالة اما أن يكون التكليف ثابتا أم لا فان كان فكيف يمنعه من التوبة وان كان غير مكلف فلا فائدة فى ذلك (أجيب) بأن التكليف كان ثابتا وجبريل عليه السلام لم يفعل ذلك من قبل نفسه فانه عبد مأمور والله تعالى يفعل ما يشاء كما قال تعالى فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وقال تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة وهكذا فعل بفرعون منعه من الايمان عند الموت جزاء على تركه الايمان أولا فدس الحال فى فم فرعون

انهم انما قالوه بطريق الاخبار المؤكد فى قوله تعالى فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا السحر مبين (قال) فيه اضمار تقديره أتقولون للحق لما جاءكم ان هذا لسحر مبين

من جنس الختم والطبع على القلب ومن الناس من قال قائل هذا القول هو الله تعالى لانه ذكر بعده (فاليوم ننجيك) أى نخرجك من البحر (ببدنك) أى جسدك الذى لا روح فيه كاملا سويا لم يتغير أو نخرجك من البحر عريانا من غير لباس أو ان المراد بالبدن الدرع قال الليث البدن هو الدرع الذى يكون قصير الكمين وهذا منقول عن ابن عباس قال كان عليه درع من ذهب يعرف به فأخرجه الله تعالى من الماء مع ذلك الدرع ليعرف (لتكون لمن خلفك) أى بعدك (آية) أى عبرة فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك وعن ابن عباس أن بعض بنى اسرائيل شكوا فى موته فأخرج لهم ليروه ويشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ما سمعوا منه قوله أنا ربكم الاعلى ليعلموا ان دعواه كانت باطلة وان ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره الى ما يرون لعصيانه ربه (وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) أى لا يعتبرون بها وهذا الكلام ليس الا كلام الله تعالى ولكن القول الاول أشهر (ولقد بوأنا) أى أنزلنا (بنى اسرائيل مبوأ صدق) أى منزلا صالحا مرضيا وهو مصر والشام وانما وصف المكان بالصدق لان عادة العرب اذا مدحت شيأ أضافته الى الصدق تقول العرب هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه أن الشئ اذا كان كاملا صالحا لا بد أن يصدق الظن فيه وقيل أرض الشأم والقدس والاردن لانها بلاد الخصب والخير والبركة (ورزقناهم من الطيبات) أى الحلالات المستلذات من الفواكه والحبوب والالبان والاعسال وغيرها فاورث تعالى بنى اسرائيل جميع ما كان تحت أيدى فرعون وقومه من الناطق والصامت والحرث والنسل كما قال تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها (فما اختلفوا) أى هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بنى اسرائيل فى أمر دينهم (حتى جاءهم العلم) أى جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك أنهم كانوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوبا عندهم وكانوا يخبرون بمبعثه وصفته ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين فلما بعث صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وكفر به بعضهم بغيا وحسدا وايثارا لبقاء الرياسة وانهم ما اختلفوا فى دينهم الا من بعد ما قرؤا التوراة وعلموا أحكامها (ان ربك) يا محمد (يقضى بينهم يوم القيامة) أى الذى هو أعظم الايام (فيما كانوا) أى بأفعالهم الجبلية (فيه يختلفون) أى فيميز الحق من الباطل والصديق من الزنديق ويسكن كلا داره واختلف المفسرون فى من المخاطب بقوله تعالى (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب) أى التوراة (من قبلك) أى فانه ثابت عندهم يخبرونك بصدقه وقيل هو النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر والمراد أمته كقوله تعالى يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين وقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك وقوله تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ومن الامثلة المشهورة اياك أعنى واسمعى يا جارة والذى يدل على صحة هذا الوجوه الاول قوله تعالى فى آخر السورة يا أيها الناس فبين أن ذلك المذكور فى أول الآية على سبيل الرمز هم المذكورون فى هذه الآية على سبيل التصريح الثانى أنه صلى الله عليه وسلم لو كان شاكا فى نبوة نفسه لكان شك غيره فى نبوته أولى وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية الثالث اذا قدر أن يكون شاكا

ثم قال لهم أسحر هذا انكارا لما قالوه فالاستفهام للانكار من قول موسى لا من قولهم (قوله من فرعون وملائهم) قاله هنا بضمير الجمع لعوده الى الذرية أو القوم لتقدمهما عليه بخلاف

في نبوة نفسه فكيف يزول ذلك الشك باخبار أهل الكتاب عن نبوته مع أنهم في الأكثر كفار فثبت أن الخطاب وان كان في الظاهر معه صلى الله عليه وسلم الا أن المراد هو الامة ومثل هذا معتاد فان السلطان اذا كان له أمير وتحت راية ذلك الامير جمع فاذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فانه لا يوجه خطابه عليهم بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك الامير الذي جعله أميرا عليهم ليكون ذلك أشد تأثيرا في قلوبهم وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم على حقيقته ولكن الله تعالى علم أنه صلى الله عليه وسلم لا يشك في ذلك الا أن المقصود أنه متى سمع هذا الكلام فانه يصرح ويقول يارب لا أشك ولا أطلب الحجة من قول أهل الكتاب بل أكتفي بما أنزلته على من الدلائل الظاهرة ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لا أشك ولا أسأل أحدا منهم ونظيره قوله للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن وكما قال تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين والمقصود منه أن يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة من ذلك فكذلك هنا وقرأ ابن كثير والكسائي بنقل حركة الهمزة الى السين والباقون بالهمزة وسكون السين وقيل الخطاب لكل من يسمع أي ان كنت أيها السامع في شك مما أنزلنا على لسان نبينا اليك وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع الى حلها بالرجوع الى أهل العلم وأظهر هذه الاقوال أولها وهذه الاقوال تجري في قوله تعالى (لقد جاءك الحق من ربك) أي الآيات القاطعة لا مدخل للمرية فيه (فلا تكونن من الممترين) أي الشاكين فيه وفي قوله تعالى (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) أي الذين خسروا أنفسهم (ان الذين حقت عليهم كلمت ربك) أي ثبت عليهم قوله تعالى الذي كتبه في اللوح المحفوظ وأخبر به الملائكة أنهم (لا يؤمنون) أي يموتون كفارا فلا يكون غيره اذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه (ولو جاءتهم كل آية) فان السبب الاصلي لايمانهم وهو تعلق ارادة الله تعالى به مفقود فان الدليل لا يهدي الا باعانة الله تعالى واذا لم تحصل تلك الاعانة ضاعت تلك الدلائل (حتى يروا العذاب الاليم) فحينئذ لا ينفعهم الايمان كما لم ينفع فرعون وقرأ نافع وابن عامر كلمات بالف بعد الميم على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد

القصة الثالثة قصة يونس عليه السلام المذكورة بقوله تعالى (فلولا) أي فهلا (كانت قرية) واحدة من قرى الامم الماضية التي أهلكناها (آمنت) أي آمن أهلها عند اتيان الآيات أو عند رؤية أسباب العذاب (فنفعها) أي فتسبب عن ايمانها ذلك أنه نفعها (ايمانها) بأن تقبله الله تعالى منها وكشف العذاب عنها وقوله تعالى (الا قوم يونس) استثناء منقطع بمعنى لكن قوم يونس (لما آمنوا) أي لما أخلصوا الايمان أول ما رأوا آية العذاب ولم يؤخروه الى حلوله (كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحيوة الدنيا) ويجوز أن يكون متصلا والجملة في معنى النفي لتضمن حرف التحضيض معناه كأنه قيل ما آمن أهل قرية من القرى الهالكة فنفعهم ايمانهم الا قوم يونس (ومتعناهم الى حين) أي الى انقضاء آجالهم روي عن ابن مسعود وغيره ان قوم يونس كانوا بأرض نينوى من أرض الموصل فأرسل الله تعالى اليهم يونس عليه السلام يدعوهم الى الايمان فدعاهم فأبوا فقيل له ان العذاب مصبحهم الى ثلاثة أيام فأخبرهم بذلك فقالوا انا لم

بقية الآيات فانه بضمير المفرد لعوده الى فرعون (قوله وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ) الآية ثنى ضمير الأمر ونزع العوده الى موسى وأخيه بالتصريح بهما أو جمعه ثانيا لعوده

نجرب عليك كذبا فانظروا فان بات فيكم تلك الليلة فليس بشئ وان لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم فلما كان فى جوف تلك الليلة خرج يونس عليه السلام من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤسهم قدر ميل وقال وهب غامت السماء غيما عظيما أسود هائلا يدخن دخانا عظيما فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت سطوحهم فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك فطلبوا يونس بينهم فلم يجدوه وقذف الله تعالى فى قلوبهم التوبة فخرجوا الى الصعيد بانفسهم ونسائهم وأولادهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الايمان والتوبة وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب فحن بعضها الى بعض وعلت أصواتها واختلطت بأصواتهم وعجوا وتضرعوا الى الله تعالى وقالوا آمنا بما جاء به يونس عليه السلام فرحمهم الله تعالى واستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب بعدما أظلهم وكل ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه بلغ من توبتهم ان ترادوا المظالم حتى ان الرجل كان يقلع الحجر وكان قد وضع عليه أساس بنيانه فيرده وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا ياحى حين لا حى ويا حى محيى الموتى ويا حى لا اله الا أنت فقالوها فكشف عنهم وعن الفضيل بن عياض اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله وسيأتى بقية القصة ان شاء الله تعالى فى سورة والصافات (فان قيل) قد حكى الله تعالى عن فرعون انه تاب فى آخر الامر ولم يقبل توبته وحكى عن قوم يونس أنهم آمنوا وقبل توبتهم فما الفرق بين الحالين (أجيب) بأن فرعون انما تاب بعد أن شاهد العذاب وهو وقت اليأس من الحياة وأما قوم يونس فانهم تابوا قبل ذلك فانهم لما ظهرت أمارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل أن ينزل بهم ولم يباشرهم فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية وان الله تعالى قد علم صدق نياتهم فى التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فانه لم يصدق فى ايمانه ولا أخلص فلم يقبل منه قال الله تعالى (ولو شاء ربك) يا محمد (لآمن) بك وصدقك (من فى الارض كلهم) بحيث لم يشذ منهم أحد (جميعا) أى مجتمعين على ذلك فى آن واحد لا يختلفون فى شئ منه ولكن لم يشأ أن يصدقك ويؤمن بك الا من سبقت له السعادة فى الازل وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فانه كان حريصا على ايمانهم كلهم فأخبر الله تعالى أنه لا يؤمن به الا من سبقت له السعادة الازلية فلا تتعب نفسك على ايمانهم وهو قوله تعالى (أفأنت تكره الناس) أى الذين لم يرد الله ايمانهم (حتى يكونوا مؤمنين) أى ليس ايمانهم اليك حتى تكرههم عليه وتحرص عليه انما ايمان المؤمن واضلال الكافر بمشيئة الله تعالى وقضائه وليس لاحد ذلك سواه كما قال تعالى (وما كان) أى وما ينبغى وما يتأتى (لنفس) أى واحدة فما فوقها (أن تؤمن) أى يقع منها ايمان فى وقت ما (الا باذن الله) أى بارادته لها بالايمان فان هدايتها الى الله فهو الهادى والمضل وقال ابن عباس بأمر الله وقال عطاء بمشيئة الله (ويجعل) الله (الرجس) أى العذاب والخذلان فانه سببه وقرأ شعبة وحده بالنون (على الذين لا يعقلون) أى لا يتدبرون فى آيات الله تعالى فينتفعوا بها وهم يدعون انهم أعقل الناس ويتساقطون فى مساوى الاخلاق وهم يدعون أنهم أبعد الناس عنها فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ولما بين الله تعالى فى الآيات السابقة أن الايمان

قوله نجرب عليك الخ كذا فى النسخ والذى فى الجمل عليه اه مصححه

الى سامع قوم هما الان كلامه ... مامور بيوم ... يتيه قبله يصلى الى اخوها من ظهورها ان فرعون وأفرده ثالثا لعوده الى موسى لانه الاصل المناسب لتخصيصه بالبشارة اشرفها

لايحصل الا بتضايق الله تعالى ومشيئته أمر بالنظر والاستدلال فى الدلائل بقوله تعالى (قل انظروا) أى قل يامحمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات (ماذا) أى الذى (فى السموات والارض) من الآيات وواضح الدلالات من عجائب صنعه ليدلكم على وحدته وكمال قدرته ففى العالم العلوى الشمس والقمر وهما دليلان على الليل والنهار والنجوم وحركات الافلاك ومقاديرها وأوضاعها والكواكب ومايختص بذلك من المنافع وفى العالم السفلى الجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان وأخصها حال الانسان كل ذلك من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وأنه خالقها كما قال القائل

وفى كل شئ له آية * تدل على أنه واحد

وقرأ عاصم وحمزة فى الوصل بكسر اللام والباقون بضمها وأما الهمزة من انظروا فكل القراء يبتدؤن بالضم (وماتغنى الآيات) أى وان كانت فى غاية الوضوح (والنذر) جمع نذير أى الرسل (عن قوم لايؤمنون) فى علم الله تعالى وحكمه * (تنبيه) * قال النحويون ماههنا تحتمل وجهين الاول أن تكون نفيا بمعنى ان هذه الآيات والنذر لاتفيد الفائدة فى حق من حكم الله تعالى عليه بأنه لايؤمن كقولك لايغنى عنك المال اذا لم تنفق والثانى أن تكون استفهاما كقولك أى شئ يغنى عنهم وهو استفهام بمعنى الانكار (فهل) أى ما (ينتظرون) أى أهل مكة بتكذيبك (الا) أياما أى وقائع (مثل أيام) أى وقائع (الذين خلوا من قبلهم) أى من مكذبى الامم كالقبط وقوم نوح وماانطوى بينهما من الامم أى مثل وقائعهم من العذاب (قل) أى قل لهم يامحمد (فانتظروا) أى العذاب (انى معكم من المنتظرين) أى لنزول العذاب بكم وقوله تعالى (ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا) عطف على محذوف دل عليه قوله تعالى الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم كأنه قيل نهلك الامم ثم ننجى رسلنا ومن آمن بهم على حكاية الاحوال الماضية وقرأ أبوعمرو وحده بسكون السين (كذلك) أى كما نجينا رسلنا والذين آمنوا معهم من الهلاك (حقا علينا ننج المؤمنين) أى ننجيك يامحمد ومن آمن معك وصدقك من الهلاك والعذاب (فان قيل) قوله تعالى حقا يقتضى الوجوب والله تعالى لايجب عليه شئ (أجيب) بان ذلك حق بحسب الوعد والحكم لالأنه حق بحسب الاستحقاق لما ثبت أن العبد لايستحق على خالقه شيأ وهو اعتراض بين المشبه والمشبه به ونصب بفعله المقدر وقيل بدل من ذلك وقرأ حفص والكسائى بسكون النون الثانية والباقون بفتحها وأما الوقف عليها فجميع القراء يقفون على الجيم لانها مرسومة فى المصحف بالجيم بلا ياء فهى فى القرآن وقفا ووصلا بلا ياء لجميع القراء ولما ذكر تعالى الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات أمر رسوله صلى الله عليه وسلم باظهار دينه فقال (قل) يامحمد (ياأيها الناس) أى الذين أرسلت اليهم فشكوا فى أمرك ولم يؤمنوا بك (ان كنتم فى شك من دينى) أى الذى أدعوكم اليه انه حق وأصررتم على ذلك وعبدتم الاصنام التى لاتضر ولاتنفع (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) أى غيره وهو الاصنام التى لاقدرة لها على شئ (ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) بقبض أرواحكم التى لاشئ عندكم يعدلها فانه الذى يستحق العبادة وانما خص الله تعالى هذه الصفة للتهديد وقيل انهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذى هو قادر على اهلاككم ونصرى عليكم

(قوله قد أجيبت دعوتكما)
(ان قلت) لم أضاف الدعوة
لهما مع أنها انما صدرت
من موسى عليه السلام
فى قوله ربنا
انك آتيت فرعون وملأه
الآية

(وامرت

(وأمرت أن) أى بأن (أكون من المؤمنين) أى المصدقين بما جاء من عند الله وقيل انه لما ذكر العبادة وهى من أعمال الجوارح أتبعها بذكر الايمان لانه من أعمال القلوب (فان قيل) كيف قال فى شك وهم كفار يعتقدون بطلان ما جاء به (أجيب) بانه كان فيهم شاكون أو أنهم لما رأوا الآيات اضطربوا وشكوا فى أمره صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (وأن أقم وجهك للدين) عطف على أن أكون غير أن صلة أن محكية بصيغة الامر ولا فرق بينهما فى الغرض لان المقصود وصلها بما تضمن معنى المصدر ليدل معه عليه وصيغ الافعال كلها كذلك سواء الخبر منها والطلب والمعنى وأمرت بالاستقامة فى الدين والاستبداد فيه بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح أو فى الصلاة باستقبال القبلة وقوله (حنيفا) حال من فاعل أقم أو من الدين أو من الوجه ومعناه مائلا عن الدين غير معوج عنه الى دين آخر وقوله تعالى (ولا تكونن من المشركين) أى ممن يشرك بالله فى عبادته غيره فتهلك خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته أى ولا تكونن أيها الانسان وكذا قوله تعالى (ولا تدع) أى تعبد (من دون الله) أى غيره (مالا ينفعك) أى ان عبدته (ولا يضرك) ان لم تعبده (فان فعلت) ذلك (فانك اذا من الظالمين) لنفسك لانك وضعت العبادة فى غير موضعها والظلم وضع الشئ فى غير محله فاذا كان ماسوى الحق معزولا عن التصرف كان اضافة التصرف الى ماسوى الحق وضعا للشئ فى غير موضعه فيكون ظلما ولما ذكر تعالى الاوثان وبين أنها لا تقدر على ضر ولا نفع بين تعالى أنه هو القادر على كل شئ وأنه ذو الجود والكرم والرحمة بقوله تعالى (وان يمسسك) أى يصبك (الله بضر) كفقر ومرض (فلا كاشف) أى لا دافع (له الا هو) لانه الذى أنزله بك (وان يردك بخير) كرخاء وصحة (فلا راد) أى دافع (لفضله) أى الذى أرادك به (يصيب به) أى بالخير (من يشاء من عباده وهو الغفور) أى البليغ الستر للذنوب (الرحيم) أى البالغ فى الاكرام وقرأ أبو عمرو وقالون والكسائى بسكون الهاء والباقون بالضم فرجح سبحانه وتعالى جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه الاول أنه تعالى لما ذكر امساس الضر بين أنه لا كاشف له الا هو وذلك يدل على انه تعالى يزيل المضار لان الاستثناء من النفى اثبات ولما ذكر الخير لم يقل بأنه يدفعه بل قال انه لا راد لفضله وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات وأن الشر مطلوب بالعرض كما قال صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى انه قال سبقت رحمتى غضبى الثانى أنه سبحانه وتعالى قال فى صفة الخير يصيب به من يشاء من عباده وذلك يدل على أن جانب الخير أقوى وأغلب الثالث أنه تعالى قال وهو الغفور الرحيم وهذا أيضا يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام فى هذه الآية أنه سبحانه وتعالى بين أنه منفرد بالخلق والايجاد والتكوين والابداع وأنه لا موجد سواه ولا معبود الا اياه وأن جميع الممكنات مستندة اليه وجميع الكائنات محتاجة فالايدى مرفوعة اليه والحاجات منتهية اليه والعقول والهة فيه والرحمة والجود فائض منه * ولما قرر تعالى الدلائل المذكورة فى التوحيد والنبوة والمعاد وزين أمر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مبتدئا بالخلق والابداع والتكوين والاختراع ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية التى لا يليق لاحد عذر بقوله تعالى (قل) يا محمد (يا أيها الناس) أى الذين أرسلت اليهم (قد جاءكم الحق من ربكم) هو رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالحق من الله تعالى والقرآن لم يبق

زينة (قلت) أضافها اليهما لان هرون كان يؤمن على دعاء موسى والتأمين دعاء فى المعنى أو لان هرون دعا أيضا مع موسى الا أنه تعالى خص موسى بالذكر لانه

لكم عذر (فمن اهتدى) أى آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم وعمل بما فى الكتاب (فانما يهتدى لنفسه) لانه اتبع الحق الثابت وترك الباطل الزائل فانقذ نفسه من النار وأوجب لها الجنة ثواب اهتدائه له (ومن ضل) أى كفر بهما أو بشئ منهما (فانما يضل عليها) أى على نفسه لان وبال ضلاله عليها لان من ترك الباقى وتمسك بما ليس فى يده منه شئ فقد غر نفسه ثم قال صلى الله عليه وسلم (وما أنا عليكم بوكيل) أى حفيظ أى موكول الى أمركم وانما أنا بشير ونذير قال ابن عباس وهذه الآية منسوخة بآية السيف قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (واتبع) يا محمد (ما يوحى اليك) بالامتثال والتبليغ (واصبر) أى على دعوتهم وتحمل أذيتهم (حتى يحكم الله) أى بنصرك عليهم واظهار دينك أو بالامر بالقتال (وهو خير الحاكمين) اذ لا يمكن الخطأ فى حكمه تعالى لاطلاعه على السرائر كاطلاعه على الظواهر فحكم بقتل المشركين والجزية على أهل الكتاب يعطونها عن يد وهم صاغرون وأنشد بعضهم فى الصبر

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى * وأصبر حتى يحكم الله فى أمرى

سأصبر حتى يعلم الصبر أننى * صبرت على شئ أمر من الجمر ٣

وروى أن أبا قتادة تخلف عن تلقى معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الانصار ثم دخل المدينة فقال له مالك لم تتلقنا قال لم يكن عندنا دواب قال فأين النواضح قال اقطعناها فى طلبك وطلب أبيك يوم بدر وقد قال صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار انكم ستلقون بعدى أثرة قال معاوية فما قال قال فاصبروا حتى تلقونى قال فاصبر قال اذا نصبر فقال عبد الرحمن بن حسان

ألا أبلغ معاوية بن حرب * أمير الظالمين نثا كلامى

بأنا صابرون فنظروكم * الى يوم التغابن والخصام

وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يونس أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق يونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون حديث موضوع

(سورة هود عليه السلام مكية)

الا وأقم الصلاة الآية والا فلعلك تارك الآية وأولئك يؤمنون به الآية مائة وثنتان أو ثلاث وعشرون اية وكلماتها ألف وسبعمائة وخمس عشرة وحروفها سبعة آلاف وستمائة وخمسة أحرف وعن أبى بكر رضى الله تعالى عنه قال قلت يا رسول الله عجل اليك الشيب قال شيبتنى هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعم يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية (بسم الله) أى الذى له تمام العلم وكمال الحكمة وجميع القدرة (الرحمن) لجميع خلقه بعموم البشارة والنذارة (الرحيم) لاهل ولايته بالحفظ فى سلوك سبيله وقوله تعالى (الر كتاب) مبتدأ وخبر أو كتاب خبر مبتدأ محذوف وتقدم الكلام على أوائل السور أول سورة البقرة وقرأ أبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائى بالامالة والباقون بالفتح وقوله تعالى (أحكمت اياته) صفة للكتاب وفسر الاحكام بوجوه الاول أحكمت آياته أى نظمت نظما محكما لا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم المرصف ولا يعتريه اخلال من جهة اللفظ والمعنى ولا يستطيع أحد

كان أسبق بالدعوة أو أحرص عليها (قوله فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك) ان قلت ان الشك والشك فى القرآن منتف عنه صلى الله عليه وسلم

٣ قوله أمر من الجمر هكذا فى الاصول التى بايدينا ولعل المناسب أمر من الصبر أو أحر من الجمر اه مصححه

تقض شيء منه ولا الطعن في شيء من بلاغته أو فصاحته الثاني ان الاحكام عبارة عن منع الفساد من الشيء فقوله أحكمت آياته أي لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع به كما قال ابن عباس الثالث أنها أحكمت بالحجج والدلائل أو جعلت حكيمة منقول من حكم بالضم اذا صار حكيما لانه اشتملت على أمهات الحكم النظرية والعملية وقوله تعالى (ثم فصلت) صفة أخرى للكتاب أي بينت بالاحكام والقصص والمواعظ والاخبار وبالانزال نجما نجما أو فصل فيها ولخص مايحتاج اليه أو جعلها سورا وقال الحسن أحكمت بالامر والنهي ثم فصلت بالوعد والوعيد * (تنبيه) * معنى ثم في قوله تعالى ثم فصلت ليس للتراخي في الوقت لكن في الحال كما تقول هي محكمة أحسن الاحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل وفلان كريم الاصل ثم كريم الفعل وقوله تعالى (من لدن حكيم خبير) أي الله تعالى صفة أخرى للكتاب والتقدير الر كتاب من حكيم خبير أو خبر بعد خبر والتقدير الر من لدن حكيم خبير أو صلة لاحكمت وفصلت أي أحكمت وفصلت من لدن حكيم خبير وعلى هذا التقدير قد حصل بين أوائل هذه السورة وبين اخرها مناسبة لطيفة كأنه يقول تعالى أحكمت آياته من لدن حكيم وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الامور وقوله تعالى (أن لا تعبدوا الا الله) يحتمل وجوها الاول أن تكون مفعولا له والتقدير كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لاجل أن لا تعبدوا الا الله الثاني أن تكون مفسرة لان في تفصيل الآيات معنى القول قال الرازي والحمل على هذا أولى لان قوله تعالى وأن استغفروا معطوف على قوله تعالى أن لا تعبدوا فيجب أن يكون معناه أي لا تعبدوا ليكون الامر معطوفا على النهي فان كونه بمعنى لان لا تعبدوا يمنع عطف الامر عليه الثالث أن يكون كلاما مبتدأ منقطعا عما قبله على لسان النبي صلى الله عليه وسلم اغراء منه على اختصاص الله تعالى بالعبادة ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم (انني لكم منه) أي الله (نذير) بالعقاب على الشرك (وبشير) بالثواب على التوحيد كأنه قيل ترك عبادة غير الله تعالى بمعنى اتركوها انني لكم منه نذير وبشير كقوله تعالى فضرب الرقاب * (تنبيه) * هذه الآية الكريمة مشتملة على أشياء مترتبة الاول أنه تعالى أمر أن لا تعبدوا الا الله لان ماسواه محدث مخلوق مربوب وانما حصل بتكوين الله وايجاده والعبادة عبارة عن اظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل وذلك لا يليق الا بالخالق المدبر الرحيم المحسن فثبت ان عبادة غير الله تعالى منكرة المرتبة الثانية قوله تعالى (وأن استغفروا ربكم) المرتبة الثالثة قوله تعالى (ثم توبوا اليه) واختلفوا في بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه الاول أن معنى قوله وأن استغفروا أي اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم بين الشيء الذي يطلب به ذلك وهو التوبة فقال ثم توبوا اليه لان الداعي الى التوبة والمحرك عليها هو الاستغفار الذي هو عبارة عن طلب المغفرة فالاستغفار مطلوب بالذات والتوبة مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار وما كان آخرا في الحصول كان أولا في الطلب فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة الثاني وأن استغفروا من الشرك والمعاصي ثم توبوا أي ارجعوا اليه بالطاعة الثالث الاستغفار طلب من الله تعالى لازالة مالا ينبغي والتوبة سعي من الانسان في ازالة مالا ينبغي فقدم الاستغفار ليدل على ان المؤمن يجب عليه أن لا يطلب الشيء

قطعا فكيف قال الله ذلك له (قلت) لم يقله بل لمن كان شاكا في القرآن وفي نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولا ينافيه قوله مما أنزلنا اليك لوروده في قوله وأنزلنا اليكم نورا مبينا

الا من مولاه فانه هو الذي يقدر على تحصيله ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لانها عمل يأتي به الانسان ويتوسل به الى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى تتقدم على الاستعانة بسعي النفس ثم انه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاثة ذكر بعدها ما رتب عليها من الآثار المطلوبة ومن المعلوم ان المطالب محصورة في نوعين لانه انما يكون حصولها في الدنيا أو في الآخرة أما المنافع الدنيوية فهي المرادة من قوله تعالى (يمتعكم متاعا حسنا) أي بطيب عيش وسعة رزق (الى اجل مسمى) وهو الموت (فان قيل) ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقال أيضا خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وقال تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة فهذه النصوص دالة على أن نصيب المشتغل بالطاعات في الدنيا هو الشدة والبلية ومقتضى هذه الآية أن نصيب المشتغل بالطاعات الراحة في الدنيا فكيف الجمع بينهما (أجيب) بأن المشتغل بعبادة الله ومحبته مشتغل بحب شيء يمتنع تغيره وزواله وفناؤه فكلما كان امعانه في ذلك الطريق أكثر وتوغله فيه أتم كان انقطاعه عن الخلق أتم وأكمل وكلما كان الكمال في هذا الباب أكثر كان الابتهاج والسرور أكمل لانه أمن من تغير مطلوبه وأمن من زوال محبوبه وأما من كان مشتغلا بحب غير الله كان أبدا في ألم الخوف من فوات المحبوب وزواله وكان عيشه منغصا وقلبه مضطربا ولذلك قال تعالى في صفة المشتغلين بخدمته فلنحيينه حياة طيبة وقيل المراد بالمتاع الحسن عدم العذاب بعذاب الاستئصال كما استأصل أهل القرى الذين كفروا وسمى سبحانه وتعالى منافع الدنيا بالمتاع لاجل التنبيه على حقارتها وقلتها ونبه تعالى على كونها منقضية بقوله تعالى الى أجل مسمى فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية وأما المنافع الاخروية فقد ذكرها تعالى بقوله تعالى (ويؤت) أي في الآخرة (كل ذي فضل) أي في العمل (فضله) أي جزاءه لان مراتب السعادة في الآخرة مختلفة لانها مقدرة بمقدار الدرجات الحاصلة في الدنيا فلما كان الاعراض عن غير الحق والاقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية فكذلك مراتب السعادات الاخروية غير متناهية فلهذا السبب قال تعالى ويؤت كل ذي فضل فضله وقال أبو العالية من كثرت طاعاته في الدنيا زادت درجاته في الآخرة وقال ابن عباس من زادت حسناته على سيآته دخل الجنة ومن زادت سيآته على حسناته دخل النار ومن استوت سيآته وحسناته كان من أهل الاعراف ثم يدخلون الجنة وقال ابن مسعود من عمل سيئة كتبت له سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فان عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من حسناته العشر واحدة وبقي له تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود هلك من غلب آحاده أعشاره وقوله تعالى (وان تولوا) فيه حذف احدى التاءين أي وان تعرضوا عما جئتكم به من الهدى (فاني) أي فقل لهم اني (أخاف عليكم عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بالقحط حتى أكلوا الجيف (الى الله مرجعكم) أي رجوعكم في ذلك اليوم فيثيب المحسن على احسانه ويعاقب المسيء على اساءته (وهو على كل شيء قدير) أي قادر على جميع المقدورات لا دافع

لقضائه

وقوله يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره كما في قوله تعالى يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين أو المراد الالزام

لقضائه ولا مانع لمشيئته ومنه الثواب والعقاب وفي ذلك دلالة على قدرة عالية وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف لهذا العبد والملك القاهر العالي اذا رأى عاجزا مشرفا على الهلاك فانه يخلصه من الهلاك ومنه المثل المشهور ملكت فاسجح أى فاعف يقول مصنف هذا الكتاب قد أفنيت عمري في خدمة العلم ومطالعة الكتب ولا رجاء لي في شئ الا أني في غاية الذلة والقصور والكريم اذا قدر عفا فأسألك يا أكرم الاكرمين وأرحم الراحمين وساتر عيوب المعيوبين أن تفيض سجال رحمتك علي وعلى والدي وأولادي واخواني واحبابي وأن تخصني واياهم بالفضل والتجاوز والجود والكرم واختلفوا في سبب نزول قوله تعالى (ألا انهم يثنون صدورهم) فقال ابن عباس نزلت في الاخنس بن شريق وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوي بقلبه على ما يكره فمعنى قوله تعالى يثنون صدورهم يخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة وقال عبد الله بن شداد نزلت في بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كي لا يراه النبي صلى الله عليه وسلم وقال قتادة كانوا يحنون ظهورهم كي لا يسمعوا كلام الله تعالى ولا ذكره وروى البخاري عن ابن عباس أنها نزلت فيمن كان يستحي أن يتخلى أو يجامع فيفضي الى السماء وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما في قلبي وقال السدي يثنون صدورهم أي يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عناني (ليستخفوا منه) أي من الله تعالى بسرهم فلا يطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عليه وقيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قيل انها نزلت في طائفة من المشركين قالوا ان أرخينا علينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم (ألا حين يستغشون ثيابهم) أي يأوون الى فراشهم ويتغطون بثيابهم (يعلم) تعالى (ما يسرون) في قلوبهم (وما يعلنون) بأفواههم أي أنه لا تفاوت في علمه تعالى بين اسرارهم واعلانهم فلا وجه لتوصلهم الى ما يريدون من الاخفاء (انه) تعالى (عليم بذات الصدور) أي بالقلوب وأحوالها ولما أعلم تعالى أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون أردفه بما يدل على كونه عالما بجميع المعلومات بقوله تعالى (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها) فذكر تعالى ان رزق كل حيوان انما يصل اليه من الله تعالى فلو لم يكن عالما بجميع المعلومات لما حصلت هذه المهمات والدابة اسم لكل حيوان دب على وجه الارض ولا شك ان أقسام الحيوانات وأنواعها كثيرة وهي الاجناس التي تكون في البر والبحر والجبال والله تعالى عالم بكيفية طبائعها وأعضائها وأحوالها وأغذيتها وما كنها ومأواها ومضارها فالاله المدبر لاطباق السموات والارض وطبائع الحيوانات والنبات كيف لا يكون عالما بأحوالها روى أن موسى عليه السلام عند نزول الوحي عليه تعلق قلبه بأحوال أهله فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه على صخرة فانشقت وخرج منها صخرة ثانية ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرج منها صخرة ثالثة ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت فخرجت منها دودة كالذرة وفي فيها شئ يجري مجرى الغذاء لها ورفع الله تعالى الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة كانت تقول سبحان من يراني ويسمع كلامي ويعرف مكاني

الحجة على الشاكين الكافرين كما يقول لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله وهو عالم بانتفاء هذا القول منه لالزام الحجة على

ويذكرني ولا ينساني (فان قيل) ان كلمة على للوجوب فيدل على ان ايصال الرزق الى الدابه واجب على الله تعالى (أجيب) بأنه تعالى انما أتى بذلك تحقيقا لوصوله بحسب الوعد والفضل والاحسان وحملا على التوكل فيه وفي هذه الآية دليل على ان الرزق قد يكون حراما لانه ثبت ان ايصال الرزق الى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد والله تعالى لا يخلف ثم قد نرى ان انسانا لا يأكل من الحلال طول عمره فلو لم يكن الحرام رزقا لكان الله تعالى ما أوصل رزقه اليه فيكون الله تعالى قد أخل بالواجب وذلك محال فعلمنا ان الحرام قد يكون رزقا (ويعلم) تعالى (مستقرها) قال ابن عباس هو المكان الذي تأوي اليه وتستقر فيه ليلا ونهارا (ومستودعها) هو الذي تدفن فيه اذا ماتت وقال عبد الله بن مسعود المستقر ارحام الامهات والمستودع المكان الذي تموت فيه وقال عطاء المستقر أرحام الامهات والمستودع أصلاب الآباء وقيل الجنة أو النار والمستودع القبر لقوله تعالى في صفة الجنة والنار حسنت مستقرا وساءت مستقرا ومقاما ولا مانع أن يفسر ذلك بهذا كله (كل) أي كل واحدة من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها (في كتاب) أي ذكرها مثبت في اللوح المحفوظ (مبين) أي بين كما قال تعالى ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ولما أثبت تعالى بالدليل المتقدم كونه عالما بالمعلومات أثبت كونه تعالى قادرا على كل المقدورات بقوله تعالى (وهو الذي خلق السموات والارض في ستة ايام) أي من أيام الدنيا أولها الاحد وآخرها الجمعة وتقدم الكلام على تفسير ذلك في سورة الاعراف (وكان عرشه على الماء) قال كعب خلق الله ياقوتة خضراء ثم نظر اليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء وقال أبو بكر الاصم ومعنى قوله تعالى وكان عرشه على الماء كقولهم السماء على الارض وليس ذلك على سبيل كون أحدهما ملتصقا بالآخر وقال حمزة ان الله عز وجل كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والارض وخلق القلم فكتب به ما هو خالقه وما هو كائن من خلقه ثم ان ذلك الكتاب سبح الله تعالى ومجده ألف عام قبل أن يخلق شيأ من خلقه في هذا دلالة على كمال قدرته تعالى لان العرش مع كونه أعظم من السموات والارض كان على الماء وقد أمسكه الله تعالى من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه وقوله تعالى (ليبلوكم) متعلق بخلق أي خلقها وما فيها منافع لكم ومصالح ليختبركم وهو أعلم بكم منكم (أيكم أحسن عملا) أي أطوع لله وأورع عن محارم الله وهذا لقيام الحجة عليهم وقد مر أمثال ذلك ولما بين تعالى أنه انما خلق هذا العالم لاجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم وهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر لان الابتلاء والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة والثواب وتخصيص المسيء بالعقاب وذلك لا يتم الا مع الاعتراف بالمعاد والقيامة خاطب تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم فقال جل وعلا (ولئن قلت) يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك (انكم مبعوثون من بعد الموت) أي للحساب والجزاء (ليقولن الذين كفروا ان) أي ما (هذا) أي القرآن بالبعث أو الذي تقوله (الا سحر مبين) أي بين وقرأ حمزة والكسائي بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء فيكون ذلك راجعا للنبي صلى الله عليه وسلم والباقون بكسر السين وسكون الحاء ولما حكى تعالى عن الكفار أنهم يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم حكى

النصارى (قوله ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا) فائدة ذكر جميعا بعد كلهم مع ان كلا منهما يفيد الاحاطة والشمول الدلالة على وجود الايمان منهم بصفة

عنهم

عنهم نوعا آخر بقوله تعالى (ولئن أخرنا عنهم العذاب الى) مجىء (أمة) أى جماعة من الاوقات (معدودة) أى قليلة (ليقولن) أى استهزاء (ما يحبسه) أى ما يمنعه من الوقوع قال الله تعالى (ألا يوم يأتيهم) كيوم بدر (ليس مصروفا) أى مدفوعا العذاب (عنهم وحاق) أى نزل (بهم) من العذاب (ما كانوا به يستهزؤن) أى الذى كانوا يستعجلون فوضع يستهزؤن موضع يستعجلون لان استعجالهم كان استهزاء (فان قيل) لم قال تعالى وحاق على لفظ الماضى مع أن ذلك لم يقع (أجيب) بأنه وضع الماضى موضع المستقبل تحقيقا ومبالغة فى التأكيد والتقرير والتهديد ولما ذكر تعالى أن عذاب الكفار وان تأخر الا أنه لابد وأن يحيق بهم ذكر بعده ما يدل على كفرهم وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب بقوله تعالى (ولئن أذقنا) أى أعطينا (الانسان) أى الكافر (منا رحمة) أى نعمة كغنى وصحة بحيث يجد لذتها (ثم نزعناها) أى سلبنا تلك النعمة (منه انه ليؤس) أى قنوط من رحمة الله تعالى لقلة صبره وعدم ثقته به (كفور) أى جحود لنعمتنا عليه وأما المسلم الذى يعتقد أن تلك النعمة من جود الله تعالى وفضله واحسانه فانه لا يحصل له اليأس بل يقول لعله تعالى يردها على بعد ذلك أحسن وأكمل وأفضل مما كانت (ولئن أذقناه) أى الكافر (نعماء بعد ضراء مسته) كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم وفى اختلاف الفعلين وهما أذقناه ومسته من حيث الاسناد اليه تعالى فى الاول والى الضراء فى الثانى نكتة عظيمة وهى أن النعمة صادرة من الله تعالى تفضلا منه لخبر ما أحد يدخل الجنة الا برحمة الله تعالى قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا والضرر صادر من العبد كسبا لانه السبب فيه باجتلابه اياه بالمعاصى غالبا لقوله تعالى ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ولا ينافى ذلك قوله تعالى قل كل من عند الله فان الكل منه ايجادا غير أن الحسنة احسان وامتحان والسيئة مجازاة وانتقام لخبر ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شسع نعله الا بذنب وما يعفو الله أكثر (ليقولن) أى الذى أصابه الصحة والغنى (ذهب السيآت) أى المصائب التى أصابتنى (عنى) ولم يتوقع زوالها ولا يشكر عليها (انه لفرح) أى فرح بطر (فخور) على الناس بما أذاقه الله تعالى من نعمائه وقد شغله الفرح والفخر عن الشكر فبين سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن أحوال الدنيا غير باقية بل هى أبدا فى التغير والزوال والتحول والانتقال فان الانسان اما أن يتحول من النعمة الى المحنة ومن اللذات الى الآفات كالقسم الاول واما أن يكون بالعكس من ذلك وهو أن ينتقل من المكروه الى المحبوب كالقسم الثانى ولما بين تعالى أن الكافر عند الابتلاء لا يكون من الصابرين وعند الفوز بالنعماء لا يكون من الشاكرين بين حال المتقين بقوله تعالى (الا) أى لكن (الذين صبروا) على الضراء (وعملوا الصالحات) أى فى النعماء أى فانهم ان أصابتهم شدة صبروا وان نالتهم نعمة شكروا (أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) فجمع لهم تعالى بين هذين المطلوبين أحدهما زوال العقاب والخلاص منه وهو المراد من قوله تعالى لهم مغفرة والثانى الفوز بالثواب ودخول الجنة وهو المراد من قوله تعالى وأجر كبير (فلعلك) يا محمد (تارك بعض ما يوحى اليك) فلا تبلغهم اياه لتهاونهم به فانهم كانوا يستهزؤن بالقرآن ويضحكون منه وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بين

الاجماع الذى لا يدل عليه كلهم كقولك جاء القوم جميعا أى مجتمعين ونظيره قوله تعالى فسجد الملائكة كلهم أجمعون (قوله وأمرت ان أكون من المؤمنين) قال ذلك

الافطين والباقون بالفتح (وضائق به صدرك) أى بتلاوته عليهم لاجل (أن يقولوا لولا) أى هلا (أنزل عليه كنز) ينفقه فى الاستتباع كالملوك (او جاء معه ملك) يصدقه كما اقترحنا وروى عن ابن عباس أن رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة ليشهدوا بنبوتك فقال لا أقدر على ذلك فنزل (انما انت نذير) فلا عليك الا البلاغ لا الاتيان بما اقترحوه (والله على كل شئ وكيل) فتوكل عليه انه عالم بحالهم وفاعل بهم جزاء أقوالهم وأفعالهم (أم) أى بل (يقولون) كفار مكة (افتراه) أى اختلقه من تلقاء نفسه وليس هو من عند الله قال الله تعالى (قل) لهم يا محمد (فأتوا بعشر سور مثله) فى البيان وحسن النظم (مفتريات) فانكم عربيون مثلى قال ابن عباس هذه السور التى وقع بها هذا التحدى معينة وهى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف والانفال والتوبة ويونس وهود وقيل التحدى وقع بمطلق السور وهو متقدم على التحدى بسورة واحدة والتحدى بسورة واحدة وقع فى سورة البقرة وفى سورة يونس اما تقدم هذه السورة على سورة البقرة فظاهر لان هذه السورة مكية وسورة البقرة مدنية وأما فى سورة يونس فلان كل واحدة من هاتين السورتين مكية فتكون سورة هود متقدمة فى النزول على سورة يونس كما قاله الرازى وأنكر المبرد هذا وقال بل سورة يونس أولا وقال معنى قوله فى سورة يونس فأتوا بسورة مثله أى مثله فى الخبر عن الغيب والاحكام والوعد والوعيد فعجزوا فقال لهم فى سورة هود ان عجزتم عن الاتيان بسورة مثله فى الاخبار والاحكام والوعد والوعيد فأتوا بعشر سور من غير وعد ولا وعيد وانما هى مجرد البلاغة (وادعوا) أى وقل لهم يا محمد ادعوا للمعاونة على ذلك (من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) فى أنه مفترى والضمير فى قوله تعالى (فان لم يستجيبوا لكم) أى باتيان ما دعوتموهم اليه للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لانه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدونهم وقال تعالى فى موضع آخر فان لم يستجيبوا لك فاعلم والتعظيم للنبى صلى الله عليه وسلم (فاعلموا أنما أنزل) ملتبسا (بعلم الله) أى بما لا يعلمه الا الله تعالى من نظم يعجز الخلق واخبار بغيوب لا سبيل لهم اليه ولا يقدر عليه سواه وقوله تعالى (وأن) مخففة من الثقيلة أى وانه (لا اله الا هو) وحده وان توحيده واجب والاشراك به ظلم عظيم (فهل انتم مسلمون) اى ثابتون على الاسلام راسخون مخلصون فيه اذ تحقق عندكم اعجازه مطلقا وقيل الخطاب للمشركين والضمير فى لم يستجيبوا لمن استطعتم أى فان لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله الى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه فاعلموا أنه منزل من عند الله وأن ما دعاكم اليه من التوحيد حق فهل أنتم بعد هذه الحجة القاطعة مسلمون أى أسلموا وفى مثل هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها) أى بعمله الذى يعمل من أعمال البر (نوف اليهم أعمالهم) أى التى عملوها من خير كصدقة وصلة رحم (فيها) أى فى الدنيا (وهم فيها لا يبخسون) أى نوصل اليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الاولاد ونحو ذلك (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا

هنا موافقة لقوله قبل
تعي المؤمنين وقال فى
النحل من المسلمين موافقة
لقوله قبل فهم مسلمون
(قولوا ان يمسسك الله)
أى يمسك بضر الآية
(فان قلت) لم ذكر المس فى

النار

النار وحبط) أى بطل (ماصنعوا) أى عملوا (فيها) أى الآخرة فلا ثواب لهم (وباطل ما كانوا يعملون) لانه لغير الله تعالى فقال مجاهد نزلت فى أهل الرياء قال صلى الله عليه وسلم ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا يارسول الله وما الشرك الاصغر قال الرياء والرياء هو أن يظهر الانسان الاعمال الصالحة لتحمده الناس ويعتقدوا فيه الصلاح فهذا هو العمل الذى لغير الله تعالى نعوذ بالله من الخذلان وقال أكثر المفسرين انها نزلت فى الكافر وأما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة وارادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى اذا أفضى الى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا وقيل نزلت فى المنافقين الذين يطلبون بغزوهم مع النبى صلى الله عليه وسلم الغنائم من غير أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها وقيل فى اليهود والنصارى وهو منقول عن أنس ولما ذكر تعالى الذين يريدون باعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ذكر من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة بقوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه) قيل هو النبى صلى الله عليه وسلم والبينة هى القرآن (ويتلوه) أى يتبعه (شاهد) يصدقه (منه) أى من الله تعالى وهو جبريل عليه السلام (ومن قبله) أى القرآن (كتاب موسى) وهو التوراة شاهد له أيضا وقوله تعالى (اماما) أى كتابا مؤتما به فى الدين (ورحمة) أى على المنزل عليهم لانه الوصلة الى الفوز بسعادة الدارين حال من كتاب موسى والجواب محذوف لظهوره والتقدير أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم فى الآخرة الا النار ليس مثله بل بينهم تفاوت بعيد وتباين بين وقيل هو من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره والمراد بالبينة هو البيان والبرهان والمراد بالشاهد هو القرآن ومنه أى من الله ومن قبله كتاب موسى أى ويتلو ذلك البرهان من قبل مجىء القرآن كتاب موسى أى فى دلالته على هذا المطلوب لا فى الوجود قال الرازى وهذا القول هو الاظهر لقوله تعالى (اولئك يؤمنون به) وهذه صيغة جمع ولا يجوز رجوعه الى محمد صلى الله عليه وسلم انتهى ويجوز أن تكون للتعظيم أوله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه وربما يكون هذا أولى كما جرى عليه بعض المفسرين والاشارة الى من كان على بينة والضمير فى به للقرآن واذا كان هذا الفريق ليس له فى الآخرة الا النار فهذا الفريق ليس له فى الآخرة الا الجنة (ومن يكفر به) أى بالنبى صلى الله عليه وسلم أو القرآن (من الاحزاب) أى أصناف الكفار فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس (فالنار موعده) يعنى فى الآخرة روى سعيد بن جبير عن أبى موسى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يسمع بى يهودى ولا نصرانى فلا يؤمن بى الا كان من أهل النار قال أبو موسى فقلت فى نفسى ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا الا عن القران فوجدت الله تعالى يقول ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده قال بعض العلماء ولما دلت الآية على أن من يكفر به كانت النار موعده دل على أن من لا يكفر به كانت الجنة موعده وقوله تعالى (فلا تك فى مرية) أى شك (منه) أى القرآن أو الموعد (انه الحق من ربك) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره لانه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ويؤيد

الضر والارادة فى الخير (قلت) لاستعمال كل من المس والارادة فى كل من الضر والخير وانه لا مزيل لما يصيب به منهما ولا راد لما يريده فيهما

ذلك قوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أى لا يصدقون بما أوحينا إليك أو بأن موعد الكفار النار ٭ ثم وصف الله تعالى هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة فى معرض الذم ٭ الصفة الاولى كونهم مفترين على الله كما قال تعالى (ومن) أى لا أحد (أظلم ممن افترى على الله كذبا) بنسبة الشريك والولد اليه أو أسند اليه ما لم ينزله أو نفى عنه ما أنزله ٭ الصفة الثانية أنهم يعرضون على الله تعالى فى موقف الذل والهوان كما قال تعالى (أولئك يعرضون على ربهم) أى يوم القيامة (فان قيل) هم لا يختصون بهذا العرض لان العرض عام فى كل العباد كما قال تعالى وعرضوا على ربك صفا (أجيب) بأنهم يعرضون فيفتضحون بشهادة الاشهاد عليهم كما قال تعالى (ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) فيحصل لهم من الخزى والنكال ما لا مزيد عليه وهذه هى الصفة الثالثة واختلف فى هؤلاء الاشهاد فقال مجاهد هم الملائكة الذين يحفظون أعمالهم عليهم فى الدنيا وقال مقاتل هم الناس كما يقال على رؤس الاشهاد أى على رؤس الناس وقال قوم هم الانبياء كما قال تعالى فلنسئلن الذين أرسل اليهم ولنسئلن المرسلين والفائدة فى اعتبار قول الاشهاد المبالغة فى اظهار الفضيحة (فان قيل) العرض على الله يقتضى أن يكون الله تعالى فى حيز وهو تعالى منزه عن ذلك (أجيب) بأنهم يعرضون على الاماكن المعدة للحساب والسؤال أو يكون ذلك عرضا على من يوبخ بأمر الله تعالى من الانبياء والمؤمنين والاشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب أو جمع شهيد كشريف وأشراف قال أبو على الفارسى وكان هذا أرجح لان ما جاء من ذلك فى التنزيل جاء على فعيل كقوله تعالى وجئنا بك شهيدا على هؤلاء وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى يدنى المؤمن يوم القيامة فيستره من الناس فيقول أى عبدى تعرف ذنب كذا وكذا فيقول نعم حتى اذا قرره بذنوبه قال تعالى سترتها عليك فى الدنيا وقد سترتها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته وأما الكافر والمنافق فتقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ٭ ولما أخبر الله تعالى عن حالهم فى عقاب القيامة أخبر عن حالهم فى الحال بقوله تعالى (ألا لعنة الله على الظالمين) فبين تعالى انهم فى الحال ملعونون من عند الله وهذه هى الصفة الرابعة ٭ ثم وصفهم بالصفة الخامسة بقوله تعالى (الذين يصدون عن سبيل الله) أى دينه ٭ ثم وصفهم بالصفة السادسة بقوله تعالى (ويبغونها) أى يطلبون السبيل (عوجا) أى معوجة أى لانهم ظلموا أنفسهم بالتزام الكفر والضلال فقد أضافوا اليه المنع من الدين الحق والقاء الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة لانه لا يقال فى العاصى انه يبغى عوجا وانما يقال ذلك فيمن يعرف كيف الاستقامة وكيفية العوج بسبب القاء الشبهات وتقرير الضلالات ٭ ثم وصفهم بالصفة السابعة بقوله تعالى (وهم) أى والحال انهم (بالآخرة هم كافرون) وتكرير لفظ هم لتأكيد كفرهم وتوغلهم فيه ٭ الصفة الثامنة كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله تعالى كما قال تعالى (أولئك لم يكونوا معجزين فى الارض) أى ما كانوا معجزين الله فى الدنيا أن يعاقبهم اذ لا يمكنهم أن يهربوا من عذابه فان هرب العبد من عذاب الله تعالى محال لانه تعالى قادر على جميع الممكنات ولا تتفاوت قدرته بالقرب والبعد والقوة والضعف ٭ الصفة التاسعة انهم ليس لهم أولياء يدفعون عقاب الله تعالى عنهم كما قال تعالى (وما كان لهم من دون الله) أى

فأوجز الكلام بأن ذكر المس فى أحدهما والارادة فى الآخر ليدل بما ذكر على ما لم يذكر مع انه قد ذكر المس فيهما فى سورة الانعام

(سورة هود عليه السلام)

(قوله وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه الآية) ثم للترتيب الاخبارى

غيره (من أولياء) أي أنصار يمنعونهم من عذابه * الصفة العاشرة مضاعفة العذاب كما قال تعالى (يضاعف لهم العذاب) أي بسبب إضلالهم غيرهم وقيل لأنهم كفروا بالله وكفروا بالبعث والنشور * الصفة الحادية عشرة قوله تعالى (ما كانوا يستطيعون السمع) قال قتادة صم عن سماع الحق فلا يسمعون خيرا فينتفعون به (وما كانوا يبصرون) خيرا فيأخذوا به قال ابن عباس أخبر الله تعالى أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته تعالى في الدنيا وفي الآخرة أما في الدنيا فإنه قال ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وأما في الآخرة فإنه قال فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم * الصفة الثانية عشرة قوله تعالى (أولئك الذين خسروا أنفسهم) فإنهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان مصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم وذلك أعظم وجوه الخسران * الصفة الثالثة عشرة قوله تعالى (وضل) أي غاب (عنهم ما كانوا يفترون) على الله تعالى من دعوى الشريك وأن الآلهة تشفع لهم * الصفة الرابعة عشرة قوله تعالى (لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون) أي لا أحد أبين ولا أكثر خسرانا منهم * (تنبيه) * قال الفراء إن لا جرم بمنزلة قولنا لا بد ولا محالة ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا تقول العرب لا جرم أنك محسن على معنى حقا أنك محسن وقال الزجاج إن كلمة لا نفي لما ظنوا أنه ينفعهم وجرم معناه كسب ذلك الفعل والمعنى لا ينفعهم ذلك وكسب ذلك الفعل لهم الخسران في الدنيا والآخرة قال الأزهري وهذا من أحسن ما قيل في هذا الباب وقال سيبويه لا رد على أهل الكفر كما مر وجرم معناه أحق والمعنى أنه أحق كفرهم وقوع العذاب والخسران بهم واحتج سيبويه بقول الشاعر

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة * جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أراد أحقت الطعنة فزارة أن يغضبوا * ولما ذكر تعالى عقوبة الكفار وخسرانهم أتبعه بذكر أحوال المؤمنين في الدنيا وربحهم في الآخرة بقوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم) أي اطمأنوا إليه وخشعوا إليه إذ الإخبات في اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ويتعدى بإلى وباللام فإذا قلت أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه وإذا قلت أخبت له فمعناه خشع وخضع له فقوله تعالى إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إشارة إلى جميع عمل الجوارح وقوله تعالى وأخبتوا إشارة إلى أعمال القلوب وهي الخشوع والخضوع لله تعالى وأن هذه الأعمال الصالحة لا تنفع في الآخرة إلا بحصول أعمال القلب وهي الخشوع والخضوع (أولئك) أي الذين هذه صفتهم (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) فأخبر تعالى عن حالهم في الآخرة بأنهم من أهل الجنة التي لا انقطاع لنعيمها ولا زوال * ولما ذكر سبحانه وتعالى أحوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الحق ومن الصمم عن سماعه وذكر أحوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة ذكر فيهما مثالا مطابقا بقوله تعالى (مثل) أي صفة (الفريقين) أي الكفار والمؤمنين (كالأعمى والأصم) هذا مثل الكافر شبه بالأعمى لتعاميه عن آيات الله وبالأصم لتصامه عن استماع كلام الله تعالى وتأبيه عن تدبر معانيه (والبصير والسميع) هذا مثل المؤمن شبه بالبصير والسميع لأن أمرهما بالضد من الكافر فيكون كل منهما مشبها باثنين باعتبار وصفين أو تشبيه

لا الوجودي إذ التوبة
سابقة على الاستغفار أو
المعنى استغفروا ربكم من
الشرك ثم توبوا أي
ارجعوا إليه بالطاعة
(فإن قلت) بعده من لم
يستغفروا الله ولم يتب عنه

الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضديهما على أن تكون الواو في الاصم
وفي السميع لعطف الصفة على الصفة بخلافه على التشبيه الاول فانه لعطف الموصوف على
الموصوف ويعبر عنه بعطف الذات على الذات (هل يستويان) أي هل يستوي الفريقان
(مثلا) اى تشبيها الا يستويان ويصح أن يكون مثلا صفة لمصدر محذوف أي استواء مثلا
وان يكون حالا من فاعل يستويان وقوله تعالى (أفلا تذكرون) فيه ادغام التاء في الاصل في
الذال اى تتعظون بضرب الامثال والتأمل فيها وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف
الذال والباقون بالتشديد وقد جرت عادة الله تعالى بانه اذا أورد على الكفار أنواع الدلائل
اتبعها بالقصص ليصير ذكرها مؤكدا لتلك الدلائل وفي هذه السورة ذكر أنواعا من القصص
* القصة الاولى قصة نوح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه)
وقوله (اني لكم) قرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بفتح الهمزة اى باني والباقون بكسرها
على ارادة القول (نذير مبين) اى بين النذارة أخوف من العقاب ان خالف أمر الله تعالى
وقوله (أن لا تعبدوا الا الله) بدل من اني لكم أو مفعول مبين (اني أخاف عليكم) اى ان
عبدتم غيره (عذاب يوم أليم) اى مؤلم موجع في الدنيا أو الآخرة قال ابن عباس بعث نوح بعد
أربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة
وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة
وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألف سنة وأربعمائة
وخمسين * ولما حكى تعالى عن نوح عليه السلام انه دعا قومه الى عبادة الله تعالى حكى عنهم أنهم
طعنوا في نبوته بثلاثة أنواع من الشبهات بقوله تعالى (فقال الملأ الذين كفروا من قومه)
وهم الاشراف (ما نراك الا بشرا مثلنا) هذه الشبهة الاولى اى انك بشر مثلنا لا مزية لك
علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة وانما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلا منهم
لان الله تعالى اذا اصطفى عبدا من عباده وأكرمه بنبوته ورسالته وجب على من أرسله اليهم
اتباعه * الشبهة الثانية ما ذكره الله تعالى عنهم بقوله تعالى (وما نراك اتبعك الا الذين هم
أراذلنا) أي أسافلنا كالحاكة وأهل الصنائع الخسيسة وهو جمع أرذل بفتح الهمزة كقوله
تعالى أكابر مجرميها وقوله صلى الله عليه وسلم أحاسنكم أخلاقا أو جمع أرذل بضم الذال جمع
رذل بسكونها فهو على الاول جمع مفرد وعلى الثاني جمع جمع ثم قالوا ولو كنت صادقا
لاتبعك الاكابر من الناس والاشراف منهم وانما قالوا ذلك جهلا منهم أيضا لان الرفعة
بالدين واتباع الرسول لا بالمناصب العالية والمال (بادي الرأي) اى اتبعوك في أول الرأي من
غير تثبت وتفكر في أمرك ولو تفكروا ما اتبعوك ونصبه على الظرف أي وقت حدوث أول
رأيهم وقرأ أبو عمرو بادئ بهمزة مفتوحة بعد الدال والباقون بياء مفتوحة وأبدل السوسي
همزة الرأي ألفا وقفا ووصلا وأما حمزة فابدلها وقفا لا وصلا * الشبهة الثالثة ما ذكره الله تعالى
عنهم في قوله تعالى (وما نرى لكم) أي لك ولمن اتبعك (علينا من فضل) اى بالمال والشرف
والجاه تستحقون به الاتباع منا وهذا أيضا جهل منهم لان الفضيلة المعتبرة عند الله تعالى
بالايمان والطاعة لا بالشرف والرياسة وقولهم (بل نظنكم كاذبين) خطاب لنوح عليه
السلام

الله متاعا حسنا الى اجل
اى يرزقه ويوسع عليه كما
قال ابن عباس او يعمره
كما قال ابن قتيبة فما فائدة
التقييد بالاستغفار
والتوبة (قلت) قال غيرهما
المتاع الحسن المقيد

السلام فى دعوى الرسالة وأدرجوا قومه معه فى الخطاب وقيل خاطبوه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم وقيل كذبوه فى دعوى النبوة وكذبوا قومه فى دعوى العلم بصدقه فغلب المخاطب على الغائبين ولما ذكروا هذه الشبهة لنوح عليه السلام (قال) لهم (يا قوم أرأيتم) اى أخبرونى (ان كنت على بينة) اى نبوة ورسالة (من ربى وآتانى رحمة) اى نبوة ورسالة (من عنده) من فضله واحسانه (فعميت) اى خفيت والتبست (عليكم) ووحد الضمير اما لان البينة فى نفسها هى الرحمة واما لانه لكل واحدة منهما وقرأ حفص وحمزة والكسائى بضم العين وتشديد الميم والباقون بفتح العين وتخفيف الميم (أنلزمكموها) اى أنكرهكم على قبولها (وأنتم لها كارهون) اى لا تختارونها ولا تتاملون فيها الانقدر على ذلك قال قتادة والله لو استطاع نبي الله لالزمها قومه ولكنه لا يملك ذلك واتفق القراء على ضم النون من أنلزمكموها لاتصالها باللام رفعا وحيث اجتمع ضميران وليس أحدهما مرفوعا وقدم الاعرف منهما جاز فى الثانى الوصل كما فى الآية والفصل كان يقال أنلزمكم اياها (ويا قوم لا أسألكم عليه) اى على تبليغ الرسالة وهو وان لم يذكر معلوم مما ذكر (مالا) اى جعلا تعطونيه (ان) اى ما (اجرى الا على الله) اى ما ثواب تبليغى الا عليه فانه المأمول منه تعالى وقرأ ابن كثير وشعبة وحمزة والكسائى بسكون الياء والباقون بالفتح وقول نوح عليه السلام (وما أنا بطارد الذين آمنوا) جواب لهم حين طلبوا طردهم فانهم طلبوا من نوح عليه السلام قبل ان يطرد الذين آمنوا وهم الارذلون فى زعمهم فقال ما يجوز لى ذلك (انهم ملاقوا ربهم) اى بالبعث فيخاصمون طاردهم عنده ويأخذ لهم ممن ظلمهم وطردهم او انهم يلاقونه ويفوزون بقربه فكيف أطردهم (ولكنى أراكم قوما تجهلون) اى ان هؤلاء المؤمنين خير منكم أو عاقبة امركم أو تسفهون عليهم بان تدعوهم أراذل (ويا قوم من ينصرنى) اى يمنعنى (من الله) أى من عقابه (ان طردتهم) عنى وهم مؤمنون مخلصون (افلا) أى فهلا (تذكرون) أى تتعظون وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التاء فى الاصل فى الذال (ولا اقول لكم عندى خزائن الله) أى خزائن رزقه فكما أنى لا أسألكم مالا فكذلك لا أدعى انى املك مالا ولا غرض لى فى المال لا أخذا ولا دفعا وقوله (ولا اعلم الغيب ولا اقول انى ملك) فاتعاظم به عليكم حتى تقولوا ما أنت الا بشر مثلنا بل طريقى التواضع والخضوع ومن كان هذا شأنه وطريقته كذلك فانه لا يستنكف عن مخالطة الفقراء والمساكين ولا يطلب مجالسة الامراء والسلاطين ثم أكد ذلك بقوله (ولا اقول للذين تزدرى) اى تحتقر (اعينكم) أى لا أقول فى حقهم (لن يؤتيهم الله خيرا) فان ما أعده الله تعالى لهم فى الآخرة خير مما آتاكم فى الدنيا (الله اعلم بما فى انفسهم) وهذا كالدلالة على أنهم كانوا ينسبون اتباعه مع الفقر والذلة الى النفاق (انى اذا) اى ان فعلت ذلك (لمن الظالمين) لنفسى ومن الظالمين لهم (فان قيل) هذه الآية تدل على تفضيل الملائكة على الانبياء عليهم الصلاة والسلام فان الانسان اذا قال لا أدعى كذا وكذا انما يحسن اذا كان ذلك الشئ أشرف من أحوال ذلك القائل (اجيب) بان نوحا عليه السلام انما ذكر ذلك جوابا عما ذكروه من الشبه فانهم طعنوا فى اتباعه بالفقر فقال ولا أقول لكم عندى خزائن الله

بالاستغفار والتوبة فهو الماء فى الطاعة والقناعة ولا يكون ان الا للمستغفر التائب (قوله وما من دابة فى الارض) لم يقل على الارض مع انه انسب بتفسير الدابة لغة بانها

حتى أجعلهم أغنياء وطعنوا فيهم أيضا بانهم منافقون فقال ولا أعلم الغيب حتى أعرف كيفية
باطنهم وانما تكليفى بناء الاحوال على الظاهر وطعنوا فيه انه من البشر فقال ولا أقول انى
ملك حتى تنفوا عنى ذلك وحينئذ فالآية ليس فيها ذلك (فان قيل) فى هذه الآية دلالة على
ان طرد المؤمنين لطلب مرضاة الكفار من أصول المعاصى فكيف طرد محمد صلى الله عليه
وسلم بعض فقراء المؤمنين لطلب مرضاة الله حتى عاتبه الله تعالى فى قوله ولا تطرد الذين يدعون
ربهم بالغداة والعشى (أجيب) بان الطرد المذكور فى هذه الآية محمول على الطرد المطلق
على سبيل التأبيد والطرد المذكور فى واقعة محمد صلى الله عليه وسلم محمول على التبعيد فى
أوقات معينة رعاية للمصلحة ولما ان الكفار أوردوا تلك الشبهة وأجاب نوح عليه السلام
عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة أوردوا عليه كلامين الاول ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله
تعالى (قالوا يانوح قد جادلتنا) اى خاصمتنا (فاكثرت جدالنا) اى فاطنبت فيه وهذا يدل
على انه عليه السلام كان قد أكثر فى الجدال معهم وذلك الجدال ما كان الا فى اثبات التوحيد
والنبوة والمعاد وهذا يدل على ان الجدال فى تقرير الدلائل وازالة الشبهات حرفة الانبياء عليهم
الصلاة والسلام وعلى ان التقليد والجهل حرفة الكفار والثانى ماذكره الله تعالى عنهم
بقوله (فأتنا بما تعدنا) اى من العذاب (ان كنت من الصادقين) فى الدعوى والوعيد فان
مناظرتك لا تؤثر فينا (قال) لهم نوح عليه السلام فى جواب ذلك (انما يأتيكم به الله ان شاء)
تعجيله لكم فان امره اليه ان شاء عجله وان شاء أخره لا الى (وما أنتم بمعجزين) اى بفائتين الله
تعالى ولما أجاب نوح عليه السلام عن شأنهم ختم الكلام بخاتمة قاطعة فقال (ولا ينفعكم
نصحى ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم) أى يضلكم وجواب الشرط
محذوف دل عليه ولا ينفعكم نصحى وتقدير الكلام ان كان الله يريد ان يغويكم فان اردت ان
انصح لكم فلا ينفعكم نصحى فهو من باب اعتراض الشرط على الشرط ونظير ذلك مالو قال
رجل لزوجته انت طالق ان دخلت الدار ان كلمت زيدا فدخلت ثم كلمت لم تطلق فيشترط فى
وجوب الحكم وقوع الشرط الثانى قبل وقوع الاول وفى الآية دليل على ان الله تعالى قد
يريد الكفر من العبد فانه اذا أراد منه ذلك فانه يمتنع صدور الايمان منه (هو ربكم) اى
خالقكم والمتصرف فيكم وفق ارادته (واليه ترجعون) فيجازيكم على اعمالكم قال تعالى
(ام) اى بل (يقولون افتراه) اى اختلقه وجاء به من عند نفسه والهاء ترجع الى الوحى الذى
بلغه اليهم (قل) لهم (ان افتريته فعلى اجرامى) وهذا من باب حذف المضاف لان المعنى فعلى
اثم اجرامى والاجرام اقتراف المحظور وفى الآية محذوف آخر وهو ان المعنى ان كنت
افتريته فعلى عقاب جرمى وان كنت صادقا وكذبتمونى فعليكم عقاب ذلك التكذيب الا انه
حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليها (وانا برىء مما تجرمون) اى من عقاب جرمكم فى
اسناد الافتراء الى * (تنبيه) * أكثر المفسرين على ان هذا من بقية كلام نوح عليه السلام
مع قومه وقال مقاتل أم يقولون اى المشركون من كفار مكة افتراه اى محمد صلى الله عليه
وسلم اختلق القرآن من عند نفسه وهذه الآية وقعت فى قصة محمد صلى الله عليه وسلم فى اثناء
قصة نوح عليه السلام قال الرازى وقوله بعيد جدا (وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك)

اى

ما يدب على الارض لان فى
أعم من على لانها تتناول
من الدواب ما على ظهر
الارض وما فى بطنها وقيل
فى بمعنى على كما فى قوله
لاصلبنكم فى جذوع
النخل وقوله ام لهم سلم

اى لن يستقر على الايمان الا قوله تعالى (الا من قد آمن) قال ابن عباس ان قوم نوح كانوا يضربون نوحا حتى تسقط فيلفونه فى لبد ويلقونه فى بيت يظنون انه قد مات فيخرج فى اليوم الثانى ويدعوهم الى الله تعالى وروى ان شيخا منهم جاء متوكئا على عصاه ومعه ابنه فقال لابنه لا يغوينك هذا الشيخ المجنون فقال يا ابتاه مكنى من العصا فأخذها من أبيه وضرب بها نوحا عليه السلام حتى شجه شجة منكرة فاوحى الله تعالى اليه انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن (فلا تبتئس) اى لا تحزن عليهم فانى مهلكهم (بما) أى بسبب ما (كانوا يفعلون) من الشرك وتكذيب منهم فحينئذ دعا عليهم نوح عليه السلام فقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وحكى محمد بن اسحق عن عبيد بن عمير الليثى انه بلغه انهم كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه فاذا أفاق قال رب اغفر لقومى فانهم لا يعلمون حتى تمادوا فى المعصية واشتد عليه منهم البلاء وهو ينتظر من الجيل الى الجيل فلا يأتى قرن الا كان أخبث من الذين قبلهم ولقد كان يأتى القرن الآخر منهم فيقول قد كان هذا الشيخ مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنونا فلا يقبلون منه شيأ فشكا الى الله تعالى فقال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا حتى قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فاوحى الله تعالى اليه (واصنع الفلك) اى السفينة (باعيننا) قال ابن عباس بمرأى منا وقال مقاتل بعلمنا وقيل بحفظنا (ووحينا) اى بامرنا لك كيف تصنعها (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) اى ولا تراجعنى فى الكفار ولا تدعنى فى استدفاع العذاب عنهم (انهم مغرقون) اى محكوم عليهم بالاغراق فلا سبيل الى كفه وقيل لا تخاطبنى فى ابنك كنعان وامرأتك راعلة فانهما هالكان مع القوم ويروى ان جبريل عليه السلام أتى نوحا فقال ان ربك يأمرك ان تصنع الفلك قال كيف أصنع ولست بنجار قال ان ربك يقول اصنع فانك باعيننا فاخذ القدوم فجعل ينجر ولا يخطئ وصنعها فعملها مثل جؤجؤ الطير وفى قوله تعالى (ويصنع الفلك) قولان أحدهما انه حكاية حال ماضية اى فى ذلك الوقت كان يصدق عليه أنه يصنع الفلك الثانى التقدير فاقبل يصنع الفلك فاقتصر على قوله ويصنع الفلك ثم ان نوحا عليه السلام أقبل على عملها والها عن قومه وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره وجعل قومه يمرون عليه وهو يسخرون منه كما قال تعالى (وكلما مر عليه ملأ) اى جماعة (من قومه سخروا منه) اى استهزؤا به ويقولون يا نوح قد صرت نجارا بعدما كنت نبيا فاعقم الله أرحام نسائهم فلا يولد لهم قال ابن عباس رضى الله عنهما اتخذ نوح عليه السلام السفينة فى سنتين وكان طول السفينة ثلثمائة ذراع وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون فجعل فى البطن الاول الوحوش والهوام وفى البطن الاوسط الدواب وركب هو ومن معه البطن الاعلى مع ما يحتاج اليه من الزاد وقال قتادة كان بابها فى عرضها وروى عن أنس كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ستمائة وقيل ان الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى بهم الى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال كعب بن حام قال فضرب الكثيب بعصاه فقال قم باذن الله فاذا هو قائم ينفض عن رأسه التراب وقد شاب فقال له عيسى عليه

يسعون فيه وظاهر ان تفسير الدابة بما يدب على الارض يتناول الطير فلا يرد أن الآية لا تتناول الطير فى ضمان رزقه (فان قلت) على للوجوب والله تعالى لا يجب عليه شئ

السلام هكذا هلكت قال لا ولكن مت وأنا شاب ولكنني ظننت أنها الساعة أي ثم ثبت قال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألف ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة للدواب والوحوش وطبقة للانس وطبقة للطير ثم قال له عد باذن الله تعالى كما كنت فعاد ترابا قال البغوي والمعروف ان طولها ثلثمائة ذراع وعن زيد بن أسلم قال مكث نوح مائة سنة يغرس الاشجار ومائة سنة يعمل الفلك وعن كعب الاحبار ان نوحا عمل السفينة في ثلاثين سنة وروي أنها كانت ثلاث طبقات الطبقة السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى فيها الانس والطبقة العليا فيها الطير فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله تعالى الى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فاقبلا على الروث ولما أفسد الفار في السفينة فجعل يقرض حبالها أوحى الله تعالى اليه أن اضرب بين عيني الاسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة وهو القط فاقبلا على الفار فاكلاه قال الرازي واعلم أن أمثال هذه المباحث لا تعجبني لانها أمور لا حاجة الى معرفتها البتة ولا يتعلق بمعرفتها فائدة البتة فكان الخوض فيها من باب الفضول لاسيما مع القطع بانه ليس ههنا ما يدل على الجانب الصحيح والذي نعلمه انها كانت في السعة بحيث تسع المؤمنين من قومه وما يحتاجون اليه ولحصول زوجين من كل حيوان لان هذا القدر مذكور في القرآن وما آمن معه الا قليل فاما تعيين ذلك القدر فغير معلوم (قال) لهم لما سخر وا منه (ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون) اذا نجونا وغرقتم (فان قيل) السخرية لا تليق بمنصب النبوة (أجيب) بان ذلك ذكر على سبيل الازدواج في مشاكلة الكلام كما في قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها او المعنى ان تسخروا منا فسترون عاقبة سخريتكم وهو قوله تعالى (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) اي يهينه في الدنيا وهو الغرق (ويحل عليه) في الآخرة (عذاب مقيم) وهو النار التي لا انقطاع لها وقوله تعالى (حتى اذا جاء أمرنا) اي باهلاكهم غاية لقوله ويصنع الفلك وما بينهما حال من الضمير فيه أو حتى هي التي يبتدأ بعدها الكلام واختلف في التنور في قوله تعالى (وفار التنور) فقال عكرمة والزهري هو وجه الارض وذلك انه قيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الماء فار على وجه الارض فاركب السفينة وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال فار التنور وقت طلوع الفجر ونور الصبح وقال الحسن ومجاهد والشعبي انه التنور الذي يخبز فيه وهو قول أكثر المفسرين ورواية عطية وابن عباس لانه حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور حقيقته هو الموضع الذي يخبز فيه وهو قول أكثر المفسرين فوجب حمل اللفظ عليه وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال انه تنور لنوح ومنهم من قال انه كان لآدم عليه السلام قال الحسن كان تنورا من حجارة كانت حواء تخبز فيه فصار الى نوح فقيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب السفينة أنت وأصحابك واختلفوا أيضا في موضعه فقال مجاهد والشعبي كان في ناحية الكوفة وكان الشعبي يحلف بالله ما فار التنور الا من ناحية الكوفة وقال اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان فوران الماء منه علما لنوح وقال مقاتل كان ذلك تنور آدم عليه السلام وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة

(قلت) المراد بالوجوب هنا وجوب اختيار لا وجوب الزام كقوله صلى الله عليه وسلم غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم وكقول الانسان لصاحبه حقك واجب علي أو علي بمعنى من

وروى عن ابن عباس انه كان بالهند ومعنى فار نبع على قوة وشدة تشبيها بغليان القدر عند قوة النار ولا شبهة ان التنور لا يفور والمراد فار الماء من التنور فلما فار أمر الله تعالى نوحا عليه السلام ان يحمل فى السفينة ثلاثة أنواع من الاشياء الاول قوله تعالى (قلنا احمل فيها) اى السفينة (من كل زوجين اثنين) والزوجان عبارة عن كل شيئين يكون أحدهما ذكرا والآخر انثى والتقدير من كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما فى السفينة اثنين واحد ذكر وواحد انثى وفى القصة ان نوحا عليه السلام قال يارب كيف أحمل من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى اليه السباع والطير فجعل يضرب بيديه فى كل جنس فيقع الذكر فى يده اليمنى والانثى فى يده اليسرى فيحملهما فى السفينة وقرأ حفص بتنوين لام كل اى واحمل من كل شئ زوجين اثنين الذكر زوج والانثى زوج (فان قيل) ما الفائدة فى قوله زوجين اثنين والزوجان لا يكونان الا اثنين (اجيب) بان هذا على مثال قوله تعالى لا تتخذوا الهين اثنين وقوله تعالى نفخة واحدة والباقون بغير تنوين فهذا السؤال غير وارد النوع الثانى من الاشياء التى أمر الله تعالى نوحا عليه السلام ان يحملها فى السفينة قوله تعالى (وأهلك) وهم أبناؤه وزوجته وقوله تعالى (الا من سبق عليه القول) بانه من المغرقين وهو ابنه كنعان وامه راعلة وكانا كافرين حكم الله تعالى عليهما بالهلاك بخلاف سام وحام ويافث وزوجاتهم ثلاثة وزوجته المسلمة (فان قيل) الانسان اشرف من سائر الحيوانات فلم بدأ بالحيوانات (اجيب) بان الانسان عاقل فهو لعقله مضطر الى دفع اسباب الهلاك عن نفسه فلا حاجة فيه الى المبالغة فى الترغيب بخلاف السعى فى تخليص سائر الحيوانات فلهذا السبب وقع الابتداء به النوع الثالث من الاشياء التى أمر الله تعالى نوحا عليه السلام بحملها فى السفينة قوله تعالى (ومن آمن) اى واحمل معك من آمن معك من قومك واختلف فى العدد الذى ذكره الله تعالى فى قوله تعالى (وما آمن معه الا قليل) فقال قتادة وابن جريج لم يكن معه فى السفينة الا ثمانية نفر نوح وامرأته المسلمة وثلاثة بنين له وهم سام وحام ويافث ونساؤهم وقال ابن اسحق كانوا عشرة سوى نسائهم نوح وبنوه الثلاثة وستة اناس ممن كان آمن به وأزواجهم جميعا وقال مجاهد كانوا اثنين وسبعين نفرا رجلا وامرأة وعن ابن عباس قال كان فى سفينة نوح ثمانون نصفهم رجال ونصفهم نساء وقال الطبرى والصواب من القول فى ذلك ان يقال كما قال الله تعالى وما آمن معه الا قليل فوصفهم بالقلة فلم يحد عددا بمقدار فلا ينبغى ان يجاوز فى ذلك حد الله تعالى اذ لم يرد عدد فى كتاب الله تعالى ولا فى خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدم نحو ذلك عن الرازى وقال مقاتل حمل نوح معه فى السفينة جسد آدم عليه السلام فجعله معترضا بين الرجال والنساء وقصد نوح عليه السلام جميع الدواب والطير ليحملها قال ابن عباس أول ما حمل نوح الذرة وآخر ما حمل الحمار فلما دخل الحمار أدخل صدره وتعلق ابليس بذنبه فلم تستقل رجلاه فجعل نوح يقول ويحك ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال ويحك ادخل وان كان الشيطان معك كلمة زلت على لسانه فلما قالها خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه فقال نوح ما أدخلك على يا عدو الله قال ألم تقل ادخل وان كان الشيطان معك فكان معه على ظهر السفينة هكذا نقله البغوى قال الرازى وأما الذى

كما فى قوله تعالى اذا كالوا على الناس يستوفون (قوله ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) قال هنا وقال فى فصلت ولئن اذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته بزيادة منا ومن لانه ثم بين

يروى ان ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم نارى أو هوائى فكيف يؤثر الغرق فيه وأيضا كتاب الله تعالى لم يدل عليه ولم يرد فى ذلك خبر صحيح فالاولى ترك الخوض فى ذلك قال البغوى وروى ان بعضهم قال ان الحية والعقرب أتيا نوحا عليه السلام فقالتا احملنا معك فقال انكما سبب البلاء فلا أحملكما فقالتا احملنا فانا نضمن لك ان لا نضر أحدا ذكرك فمن قرأ حين يخاف مضرتهما سلام على نوح فى العالمين لم تضراه وقال الحسن لم يحمل نوح فى السفينة الا ما يلد و يبيض فاما ما يتولد من الطين من حشرات الارض كالبق والبعوض فلم يحمل منها شيأ (وقال) نوح لمن معه (اركبوا) أى صيروا (فيها) أى السفينة وجعل ذلك ركوبا لانها فى الماء كمركوب فى الارض وقوله تعالى (بسم الله مجراها ومرساها) متصل باركبوا حال من الواو فى اركبوا أى اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت اجرائها وارسائها قال الضحاك كان نوح اذا أراد ان تجرى السفينة قال بسم الله جرت واذا أراد أن ترسو قال بسم الله رست وقرأ حفص وحمزة والكسائى بنصب الميم من جرت ورست أى جريها ورسوها وهما مصدران والباقون بضم الميم من أجريت وارسيت اى بسم اجرائها وارسائها وأمال الالف بعد الراء أبو عمرو وحفص وحمزة والكسائى محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح وذكروا فى عامل الاعراب فى بسم الله وجوها الاول اركبوا بسم الله الثانى ابدؤا بسم الله الثالث بسم الله اجراؤها (ان ربى لغفور رحيم) أى لولا مغفرته لفرطاتكم ورحمته اياكم لما نجاكم وقوله تعالى (وهى تجرى بهم) متعلق بمحذوف دل عليه اركبوا اى فركبوا مسمين الله تعالى وهى تجرى وهم فيها (فى موج) وهو ما ارتفع من الماء اذا اشتدت عليه الريح (كالجبال) فى عظمه وارتفاعه على الماء قال العلماء بالسير أرسل الله تعالى المطر أربعين يوما وليلة وخرج الماء من الارض فذلك قوله تعالى ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر فصار الماء نصفين نصف من السماء ونصف من الارض وارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا حتى أغرق كل شئ وروى انه لما كثر الماء فى السكك خافت امرأة على ولدها من الغرق وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت به الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما بلغها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعت الصبى بيديها حتى ذهب بهما الماء فلو رحم الله تعالى منهم أحدا لرحم هذه المرأة وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والارض وكانت السفينة تجرى فى جوفه كما تسبح السمكة فليس بثابت قال البيضاوى والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا فان صح أى انه طبق ما بين السماء والارض فلعل ذلك أى ما ذكر من علو الموج قبل التطبيق (ونادى نوح ابنه) كنعان وكان كافرا بكامر وقيل كان اسمه يام (وكان فى معزل) عزل فيه نفسه اما عن أبيه أو دينه ولم يركب معه واما عن السفينة واما عن الكفار كأنه انفرد عنهم وظن نوح عليه السلام ان ذلك انما كان لانه أحب مفارقتهم ولذلك ناداه بقوله (يابنى اركب معنا) فى السفينة وقرأ عاصم بفتح الياء اقتصارا على الفتح من الالف المبدلة من ياء الاضافة فى قولك يابنيا والباقون بالكسر فى الوصل ليدل على ياء الاضافة المحذوفة كما قال الشاعر

يابنة

جهة الرحمة بقوله لا يسأم الانسان من دعاء الخير فناسب ذكرهما وحذفه هنا اكتفاء بقوله قبل ولئن أذقنا الانسان منا رحمة وزاد من ثم لانه لما حمد

(٢) قوله ورست يتبادر منه ان حفصا وحمزة والكسائى يقرؤن بفتح ميم مرساها والذى فى الجمل وقرأ الاخوان وحفص مجراها بفتح الميم والباقون بضمها واتفق السبعة على ضم ميم مرساها فانظره

• يا بنيّ لا تلوي واجيء ثم حذف الالف للتخفيف (ولا تكن مع الكافرين) أي في دين ولا مكان فنهلك ولما قال له ذلك (قال سآوي) أي ألتجئ وأصير (الى جبل يعصمني) أي يمنعني (من الماء قال) له نوح عليه السلام (لا عاصم) أي لا مانع (اليوم من أمر الله) أي من عذابه وقوله (الا من رحم) استثناء منقطع كأنه قيل ولكن من رحمه الله فهو المعصوم كقوله تعالى ما لهم به من علم الا اتباع الظن وقيل الا من رحم أي الا الراحم وهو الله تعالى وقيل الا مكان من رحمه الله تعالى فانه مانع من ذلك وهو السفينة (وحال بينهما) أي بين نوح وابنه أو بين ابنه والجبل (الموج) المذكور في قوله موج كالجبال (فكان) ابنه (من المغرقين) أي فصار من المهلكين بالماء (و) لما تناهى الطوفان وأغرق قوم نوح (قيل) أي قال الله تعالى أو ملك بأمره تعالى (يا أرض ابلعي ماءك) أي تشربيه (ويا سماء أقلعي) أي أمسكي ماءك ناداهما بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والاقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل تمثيلا لكمال انقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما وههنا همزتان مختلفتان من كلمتين الاولى مضمومة والثانية مفتوحة قرأ أبو عمرو ونافع وابن كثير بابدال الثانية واوا خالصة والباقون بالتحقيق (وغيض الماء) أي نقص وذهب وقرأ هشام والكسائي باشمام الغين وهو ضم الغين قبل الياء والباقون بالكسر وكذا وقيل (وقضي الامر) أي وأنجز ما وعد من اهلاك الكافرين وانجاء المؤمنين (واستوت) أي استقرت السفينة (على الجودي) وهو جبل بالجزيرة قريب من الموصل (وقيل) أي قال الله تعالى أو ملك بأمره تعالى (بعدا) أي هلاكا (للقوم الظالمين) ومجيء اخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء وان تلك الامور العظام لا تكون الا بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر وان فاعلها واحد لا يشارك في أفعاله فلا يذهب الوهم الى أن يقول غيره يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ولا أن يقضي ذلك الامر الهائل غيره ولا أن تستوي على متن الجودي وتستقر عليه الا بتسويته واقراره وروي ان السفينة لما استقرت بعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الارض فوقع على جيفة فلم يرجع فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت رجليها بالطين فعلم نوح أن الماء قد نقص فقيل انه دعا على الغراب بالخوف فلذا لا يألف البيوت وطوق الحمامة الخضرة التي في عنقها ودعا لها بالامان فمن ثم تألف البيوت وروي ان نوحا ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرت بالبيت العتيق وقد رفعه الله تعالى من الغرق وبقي موضعه فطافت به السفينة سبعا وأودع الحجر الاسود في جبل أبي قبيس وهبط نوح ومن معه في السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح وأمر من معه بصيامه شكرا لله تعالى وبنوا قرية بقرب الجبل وسميت سوق ثمانين فهي أول قرية عمرت على وجه الارض بعد الطوفان وقيل انه لم ينج أحد من الكفار من الغرق غير عوج ابن عنق وكان الماء يصل الى حجزته وهذا الاباء على القول باطباق الماء قال هذا القائل وسبب نجاته أن نوحا احتاج الى خشب ساج للسفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج اليه من الشام فنجاه الله تعالى من الغرق بذلك (فان قيل) كيف أغرق الله تعالى من لم يبلغ الحلم من الاطفال (أجيب) بانه تعالى يتصرف في خلقه لا يسئل عما يفعل وقيل ان الله تعالى أعقم أرحام نسائهم

الرحمة وجه تهاحد الطرفة بعدها التقشا كلا في التعد وهنا لما أهمل الاول أهمل الثاني ابتشا كلا (قوله وضائق به صدرك) انما لم ضائق ولم يقل ضيق لموافقة قوله تعبا

أو بعد مائة سنة فلم يولد لهم تلك المدة (ونادى نوح ربه) أى دعاه وسأله (فقال رب ان ابنى من أهلى) وقد وعدتنى أن تنجينى وأهلى (وان وعدك الحق) أى الصدق الذى لاخلف فيه (وأنت أحكم الحاكمين) لانك أعلمهم وأعدلهم (فان قيل) اذا كان النداء هو قوله رب فكيف عطف قال رب على نادى بالفاء (أجيب) بان الفاء تفصيل لمجمل نادى مثلها فى توضأ فغسل وقيل نادى أى أراد نداءه فقال رب (قال) الله تعالى له (يانوح انه) أى هذا الابن الذى سألت نجاته (ليس من أهلك) أى المحكوم بنجاتهم لايمانهم وكفره ولهذا علل بقوله تعالى (انه عمل غير صالح) وقرأ الكسائى بكسر الميم وفتح اللام بغير تنوين ونصب الراء أى عمل الكفر والتكذيب وكل هذا غير صالح والباقون بفتح الميم ورفع اللام منونة ورفع الراء أى ذو عمل غير صالح أو صاحب عمل غير صالح فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة كقول الخنساء تصف ناقة ترتع فانما هى اقبال وادبار واختلف علماء التفسير هل كان ذلك الولد ابن نوح أولا على أقوال الاول وهو قول ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والاكثرين أنه ابنه حقيقة ويدل عليه أنه تعالى نص عليه فقال ونادى نوح ابنه ونوح أيضا نص عليه فقال يابنى وصرف هذا اللفظ الى أنه رباه وأطلق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقته الى مجازه من غير ضرورة القول الثانى أنه كان ابن امرأته وهو قول محمد بن على الباقر وقول الحسن البصرى القول الثالث وهو قول مجاهد والحسن أنه ولد حنث ولد على فراشه ولم يعلم نوح بذلك واحتج هذا القائل بقوله تعالى فى امرأة نوح وامرأة لوط فخانتاهما قال الرازى وهذا قول واحش يجب صون منصب الانبياء عن هذه الفضيحة لاسيما وهو خلاف نص القرآن وقد قيل لابن عباس ما كانت تلك الخيانة فقال كانت امرأة نوح تقول زوجى مجنون وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه اذا نزل به (فلا تسألن ماليس لك به علم) أى بما لاتعلم أصواب هو أم لا لان اللائق بامثالك من أولى العزم بناء أمورهم على التحقيق وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بفتح اللام وتشديد النون والباقون بسكون اللام وتخفيف النون وأثبت الياء بعد النون فى الوصل دون الوقف ورش وأبو عمرو وحذفها الباقون وقفا ووصلا (انى أعظك) أى بمواعظى كراهة (أن تكون من الجاهلين) فتسأل كما يسألون وانما سمى نداءه سؤالا لتضمن ذكر الوعد بنجاة أهله واستظهاره فى شان ولده (قال) نوح (رب انى أعوذ بك أن) أى من أن (أسألك) فى شئ من الاشياء (ماليس لى به علم) تأدبا بادبك واتعاظا بوعظك (والا تغفر لى) أى الآن ما فرط منى وفى المستقبل ما يقع منى (وترحمنى) أى تتعزلانى وتمهلا وتكرما (أكن من الخاسرين) أى الغريقين فى الخسارة فان قيل هذا يدل على عدم عصمة الانبياء لوقوع هذه الزلة من نوح عليه السلام (أجيب) بان الزلة الصادرة من نوح انما هى كونه لم يستقص ما يدل على نفاقه وكفره لان قومه كانوا على ثلاثة أقسام كافر يظهر كفره ومؤمن يعلم ايمانه ومنافق لايعلم حاله فى نفس الامر وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة وحكم الكافرين هو الغرق وكان ذلك معلوما وأما أهل النفاق فبقى أمرهم مخفيا وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمنا وكانت الشفقة المفرطة التى تكون للاب فى حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافرا بل على الوجوه الصحيحة فأخطا فى ذلك الاجتهاد كما وقع لآدم عليه السلام فى الاكل من الشجرة فلم يصدر عنه الا الخطأ فى الاجتهاد فلم تصدر منه معصية فلجأ الى ربه تعالى

كالن وليدل على انه ضيق عارض لا ثابت لانه صلى الله عليه وسلم أوسع الناس صدرا ونظيره قولك زيد سائد وجائد تريد حدث فيه السيادة والجود فان أردت وصفه بهما قلت زيد

وخشع

وخشع له ودعاه وسأله المغفرة والرحمة كما قال آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين لان حسنات الابرار سيآت المقربين (قيل) أى قال الله تعالى أو ملك بأمره تعالى (يا نوح اهبط) أى انزل من السفينة أو من الجبل الى الارض المستوية (بسلام) أى بعظم وأمن وسلامة (منا) وذلك ان الغرق لما كان عاما فى جميع الارض فعندما خرج نوح عليه السلام من السفينة علم أنه ليس فى الارض شئ مما ينتفع به من النبات والحيوان فكان كالخائف فى أنه كيف يعيش وكيف يدفع جهات الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب فلما قال الله تعالى اهبط بسلام منا زال عنه ذلك الخوف لان ذلك يدل على حصول السلامة وأنه لا يكون الا مع الامن وسعة الرزق ثم انه تعالى لما وعده بالسلامة أردفه بان وعده بالبركة بقوله تعالى (وبركات عليك) وهو عبارة عن الدوام والبقاء والثبات لان الله تعالى صير نوحا عليه السلام أبا البشر لان جميع من بقى كانوا من نسله لان نوحا لما خرج من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل الا من ذريته فالخلق كلهم من نسله أو انه لم يكن معه فى السفينة الا من كان من نسله وذريته وعلى التقديرين فالخلق كلهم من ذريته ويدل على ذلك قوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فثبت أن نوحا كان آدم الاصغر فكان أبا الانبياء والخلق بعد الطوفان كلهم منه وممن ذريته وكان بين نوح وآدم ثمانية أجداد وقوله تعالى (وعلى أمم ممن معك) يحتمل أن تكون من للبيان فيراد الامم الذين كانوا معه فى السفينة لانهم كانوا جماعات أو قيل لهم أمم لان الامم تتشعب منهم وأن تكون لابتداء الغاية أى على أمم ناشئة ممن معك وهى الامم الى آخر الدهر قال فى الكشاف وهو الوجه وقوله تعالى (وأمم) بالرفع على الابتداء وقوله تعالى (سنمتعهم) أى فى الدنيا صفة والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم سنمتعهم وانما حذف لان قوله ممن معك يدل عليه والمعنى أن السلام منا والبركات عليك وعلى امم مؤمنين ينشؤن ممن معك وممن معك أمم ممتعون فى الدنيا (ثم يمسهم منا عذاب أليم) فى الآخرة وهم الكفار وعن محمد بن كعب القرظى دخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وقيل المراد بالامم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب ولما شرح تعالى قصة نوح عليه السلام على التفصيل قال تعالى (تلك) أى قصة نوح التى شرحناها ومحل تلك رفع على الابتداء وخبرها (من أنباء الغيب) أى من الاخبار التى كانت غائبة عن الخلق وقوله تعالى (نوحيها اليك) خبر ثان والضمير لها أى موحاة اليك وقوله تعالى (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) أى نزول القرآن خبر آخر والمعنى أن هذه القصة مجهولة عندك وعند قومك من قبل ايحائنا اليك ونظيره هذا ان يقول انسان لآخر لا تعرف هذه المسئلة لا أنت ولا أهل بلدك (فان قيل) قد كانت قصة طوفان نوح مشهورة عند أهل العلم (أجيب) بأن ذلك كان بحسب الاجمال وأما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة أو بأنه صلى الله عليه وسلم كان أميا لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها وكذلك كانت أمته ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (فاصبر) أى أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار (ان العاقبة للمتقين) الشرك والمعاصى وفى هذا تنبيه على ان عاقبة الصبر لنبينا صلى الله عليه وسلم النصر والفرج أى السرور كما كان لنوح ولقومه (فان

سيد وجواد (قوله فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) أى مثله فى الفصاحة والبلاغة والافهام يأتون به مفترى والقرآن ليس بمفترى أو معناه مفتريات كما ان القرآن فى زعمكم

قيل) هذه القصة ذكرت في يونس فما الحكمة والفائدة في اعادتها (أجيب) بأن القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه ففي السورة الاولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب فذكر تعالى قصة نوح في بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر ثم في العاقبة ظهر فكذا في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم وفي هذه السورة ذكرت لاجل أن الكفار كانوا يبالغون في الايحاش فذكرها الله تعالى لبيان أن اقدام الكفار على الايذاء والايحاش كان حاصلا في زمان نوح عليه السلام فلما صبر فاز وظفر فكن يا محمد كذلك لتنال المقصود ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليا عن الحكمة والفائدة و والقصة الثانية من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة هود عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (والى عاد) أي وأرسلنا الى عاد (أخاهم) فهو معطوف على قوله تعالى نوحا وقوله تعالى (هودا) عطف بيان ومعلوم أن تلك الاخوة ما كانت في الدين وانما كانت في النسب لان هودا كان رجلا من قبيلة عاد قبيلة من العرب كانوا بناحية اليمن (فان قيل) انه تعالى قال في ابن نوح انه ليس من أهلك فبين أن قرابة النسب لا تفيد اذا لم تحصل قرابة الدين وهنا أثبت هذه الاخوة مع الاختلاف في الدين (أجيب) بأن قوم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يستبعدون أن يكون رسولا من عند الله تعالى مع انه واحد من قبيلتهم فذكر الله تعالى أن هودا كان واحدا من عاد وأن صالحا كان واحدا من ثمود لازالة هذا الاستبعاد ولما تقدم أمر نوح عليه السلام مع قومه استشرف السامع الى معرفة ما قال هود عليه السلام هل هو مثل قوله أولا فاستأنف الجواب بقوله (قال يا قوم اعبدوا الله) اي وحدوه ولا تشركوا معه شيأ في العبادة (ما لكم من اله غيره) أي هو الهكم لان هذه الاصنام التي تعبدونها حجارة لا تضر ولا تنفع (فان قيل) كيف دعاهم الى عبادة الله تعالى قبل اقامة الدليل على ثبوت الاله (أجيب) بان دلائل وجود الله تعالى ظاهرة وهي دلائل الآفاق والانفس وقلما يوجد في الدنيا طائفة ينكرون وجود الاله ولذلك قال تعالى في صفة الكفار ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقرأ الكسائي بكسر الراء والهاء صفة على اللفظ والباقون بالرفع صفة على محل الجار والمجرور ومن زائدة (ان أنتم الا مفترون) أي كاذبون في عبادتكم غيره وكرر قوله (يا قوم) للاستعطاف وقوله (لا أسئلكم عليه أجرا ان أجري الا على الذي فطرني) أي خلقني خاطب به كل رسول قومه ازالة للتهمة وتمحيضا للنصيحة فانها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع (أفلا تعقلون) أي أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطا فتتعظون ثم قال (ويا قوم) أيضا لما ذكر (استغفروا ربكم) أي آمنوا به (ثم توبوا اليه) من عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان (يرسل السماء) أي المطر (عليكم مدرارا) أي كثير الدر (ويزدكم قوة الى قوتكم) أي ويضاعف قوتكم واعمارهم بكثرة المطر وزيادة القوة لان القوم كانوا أصحاب زرع وبساتين وعمارات حراصا عليها أشد الحرص فكانوا أحوج شيء الى الماء وكانوا مدلين بما هم عليه من شدة القوة والبطش والبأس والنجدة مهابين في كل ناحية وقيل أراد القوة في المال وقيل القوة على النكاح وقيل حبس عنهم المطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم وعن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما أنه وفد على معاوية فلما خرج تبعه بعض حجابه فقال اني رجل ذو مال

١. مفترى (فان قلت) كيف أفرد في قوله قل ثم جمع في قوله فان لم يستجيبوا لكم (قلت) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فيهما لكنه جمع في لكم تعظيما وتفخيما له ويعضده قوله في سورة

ولا يولد لي فعلني شيأ أمل الله يرزقني ولداً فقال عليك بالاستغفار فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة فولد له عشر بنين فبلغ ذلك معاوية فقال هلا سألته مم قال ذلك فوفد مرة أخرى فسأله الرجل فقال ألم تسمع قول هود ويزدكم قوة الى قوتكم وقول نوح ويمددكم بأموال وبنين (ولا تتولوا) أي ولا تعرضوا عن قبول قولي ونصحي حالة كونكم (مجرمين) أي مشركين * ولما حكى الله تعالى عن هود ما ذكره لقومه حكى أيضاً ما ذكره قومه له وهو أشياء أولها ما ذكره تعالى بقوله (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) أي بحجة تدل على صحة دعواك وسميت بينة لانها تبين الحق ومن المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام كان قد أظهر لهم المعجزات الا أن القوم لجهلهم أنكروها وزعموا أنه ما جاء بشيء من المعجزات وثانيها قولهم (وما نحن بتاركي آلهتنا) أي عبادتها وقولهم (عن قولك) أي صادرين عن قولك حال من الضمير في تاركي وهذا أيضاً من جهلهم فانهم كانوا يعرفون أن النافع والضار هو الله تعالى وأن الاصنام لا تضر ولا تنفع وذلك حكم فطرة العقل وبديهة النفس وثالثها قولهم (وما نحن لك بمؤمنين) أي مصدقين وفي ذلك اقناط له من الاجابة والتصديق ورابعها قولهم (ان) أي ما (نقول) في شأنك (الا اعتراك) أي أصابك (بعض آلهتنا بسوء) لسبك إياها فخبلتك وجننتك وأفسدت عقلك ثم انه تعالى ذكر أنهم لما قالوا ذلك (قال) هود عليه السلام مجيباً لهم (اني أشهد الله) على (واشهدوا) أنتم أيضاً على (أني بريء مما تشركون من دونه) أي الله وهو الاصنام التي كانوا يعبدونها (فكيدوني) أي احتالوا في هلاكي (جميعاً) أنتم وأصنامكم التي تعتقدون أنها تضر وتنفع فانها لا تضر ولا تنفع * (فائدة) * اتفق القراء على اثبات الياء في كيدوني هنا وقفاً ووصلاً لثباتها في المصحف (ثم لا تنظرون) أي تمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام لانه كان وحيداً في قومه وقال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت ثقة بالله تعالى كما قال تعالى (اني توكلت على الله ربي وربكم) أي فوضت أمري اليه واعتمدت عليه (ما من دابة) تدب على الارض ويدخل في هذا جميع بني آدم والحيوان لانهم يدبون على الارض (الا هو آخذ بناصيتها) أي مالكها وقاهرها فلا يقع نفع ولا ضر الا باذنه والناصية كما قال الازهري عند العرب منبت الشعر في مقدم الرأس وسمي الشعر النابت هناك ناصية باسم منبته والعرب اذا وصفوا انساناً بالذلة والخضوع قالوا ما ناصية فلان الا بيد فلان وكانوا اذا أسروا الاسير وأرادوا اطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخوطبوا في القرآن بما يعرفون من كلامهم (ان ربي على صراط مستقيم) أي طريق الحق والعدل فلا يظلمكم ولا يعمل الا بالاحسان والانصاف فيجازي المحسن باحسانه والمسيء بعصيانه وقوله تعالى (فان تولوا) فيه حذف احدى التاءين أي تعرضوا (فقد أبلغتكم) جميع (ما أرسلت به اليكم) فان قيل الابلاغ كان قبل التولي فكيف وقع جزاء للشرط (أجيب) بان معناه فان تتولوا لم أعاتب على تقصير من جهتي وصرتم محجوجين لانكم أنتم الذين أصررتم على التكذيب وقوله (ويستخلف ربي قوماً غيركم) استئناف بالوعيد لهم بان الله تعالى يهلكهم ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم يوحدونه ويعبدونه تعالى (ولا تضرونه) أي الله باشراككم (شيأ) من الضرر انما تضرون أنفسكم وقيل لا تنقصونه شيأ اذا أهلككم لان

فان لم يستجيبوا
القصص لك أو الخطاب في الثاني
للمشركين وفي يستجيبوا
لمن استطعتم والمعنى فأتوا
أيها المشركون بعشر سور
مثله الخ فان لم يستجب لكم
من تدعونه الى المظاهرة

وجودكم وعدمكم عنده سواء (ان ربى على كل شئ) صغيرا وكبيرا حقيرا وجليل (حفيظ) أى رقيب عالم بكل شئ وقادر على كل شئ فيحفظنى أن تنالونى بسوء أو حفيظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها أو حفيظ على كل شئ يحفظه من الهلاك اذا شاء ويهلكه اذا شاء (ولما) لم يرجعوا ولم يرعووا ببينة ولا رغبة ولا رهبة (جاء أمرنا) أى عذابنا وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم عذبهم الله تعالى بها سبع ليال وثمانية أيام حسوما تدخل فى مناخرهم وتخرج من أدبارهم وترفعهم وتضربهم على الارض على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية وهنا همزتان مفتوحتان من كلمتين قرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الاولى وقرأ ورش وقنبل بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية والباقون بتحقيقهما (نجينا هودا والذين آمنوا معه) أى من هذا العذاب وكانوا أربعة آلاف (برحمة منا) لان العذاب اذا نزل قد يعم المؤمن والكافر فلما أنجى الله تعالى المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه (ونجيناهم من عذاب غليظ) هو عذاب الآخرة ووصفه بالغلظ لانه أغلظ من عذاب الدنيا أو نجينا هودا والذين آمنوا معه من أن يصل اليهم الكفار بسوء مع اجتهادهم فى ذلك ونجيناهم من عذاب غليظ هو الريح المذكورة * ولما ذكر الله تعالى قصة عاد خاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال (وتلك عاد) وهو اشارة الى قبورهم وآثارهم كأنه تعالى قال سيحوا فى الارض فانظروا اليها واعتبروا ثم انه تعالى جمع أوصافهم ثم ذكر عاقبة أحوالهم فى الدنيا والآخرة أما أوصافهم فثلاثة الصفة الاولى قوله تعالى (جحدوا بآيات ربهم) أى بالمعجزات التى أتى بها هود عليه السلام الصفة الثانية قوله تعالى (وعصوا رسله) أى هودا وحده وانما أتى به بلفظ الجمع اما للتعظيم أو لان من عصى رسولا فقد عصى جميع الرسل لقوله تعالى لا نفرق بين أحد من رسله الصفة الثالثة قوله تعالى (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) أى ان السفلة كانوا يقلدون الرؤساء فى قولهم ما هذا الا بشر مثلكم فاطاعوا من دعاهم الى الكفر وما يرديهم وعصوا من دعاهم الى الايمان ولا يرديهم والجبار المرتفع المتمرد والعنيد والعنود والمعاند هو المنازع المعارض * ولما ذكر تعالى أوصافهم ذكر أحوالهم بقوله تعالى (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) أى جعل اللعن رديفا لهم ومتابعا ومصاحبا فى الدنيا والآخرة ومعنى اللعنة الابعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير وقيل اللعنة فى الدنيا من الناس وفى الآخرة لعنة على رؤس الاشهاد * ثم انه تعالى بين السبب الاصلى فى نزول هذه الاحوال المكروهة بهم بقوله تعالى (ألا ان عادا كفروا ربهم) أى كفروا بربهم فحذف الباء أو أن المراد بالكفر الجحد أى جحدوا ربهم وقيل هو من باب حذف المضاف أى كفروا نعمة ربهم * (تنبيه) * ألا أداة استفتاح لا تذكر الا بين يدى كلام يعظم موقعه ويجل خطبه ثم قال (ألا بعدا لعاد) دعاء عليهم بالهلاك والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل بهم بسبب ما حكى عنهم وانما كرر ألا وأعاد ذكرهم تفظيعا لامرهم وحثا على الاعتبار بحالهم وقوله تعالى (قوم هود) عطف بيان لعاد وفائدته تمييزهم من عاد الثانية عاد ارم والايماء الى استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود * القصة الثالثة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة قصة صالح عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (والى ثمود) وهم سكان الحجر أى وأرسلنا الى ثمود (أخاهم) فهو معطوف على قوله تعالى نوحا كما عطف عليه والى عاد

على معارضته لعجزهم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وبالنظر الى هذا الجواب جمع الضمير فى فلم يستجيبوا لكم هنا وأفرد فى القصص (فان قلت) قد قال فى سورة يونس فاتوا بسورة مثله وقد

وقوله

وقوله تعالى (صالحا) عطف بيان وتلك الاخوة كانت فى النسب لا فى الدين كما مر فى هود ثم أخرج قوله عليه السلام على تقدير سؤال بقوله (قال يا قوم) أى يا من يعز على أن يحصل لهم سوء (اعبدوا الله) أى وحده وخصوه بالعبادة (ما لكم من اله غيره) هو الهكم المستحق للعبادة لا هذه الاصنام ثم ذكر الدلائل الدالة على وحدانيته تعالى بقوله (هو أنشأكم) أى ابتدأ خلقكم (من الارض) وذلك انهم من بنى آدم وآدم خلق من الارض أو ان الانسان مخلوق من المنى وهو متولد من الدم والدم متولد من الاغذية وهى اما حيوانية واما نباتية فاما الحيوانية فحالها كحال الانسان فوجب انتهاء الكل الى النبات والنبات متولد من الارض فثبت أنه تعالى أنشأ الانسان من الارض وقيل من بمعنى فى كما فى قوله تعالى اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة (واستعمركم فيها) أى جعلكم عمارها وسكانها وقال الضحاك أطال اعماركم فيها حتى ان الواحد منهم كان يعيش ثلثمائة سنة الى ألف سنة وكذا كان قوم عاد وروى ان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الانهار وغرس الاشجار وحصلت لهم الاعمار الطويلة فسأل نبى من أنبياء زمانهم ربه ما سبب تلك الاعمار فأوحى الله اليه انهم عمروا بلادى فعاش فيها عبادى وأخذ معاوية فى احياء الارض فى آخر عمره فقيل له فى ذلك فقال ما حملنى عليه الا قول القائل

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به • ولا يكون له فى الارض آثار

وقال مجاهد استعمركم من العمرى أى جعلها لكم ما عشتم فاذا متم انتقلت الى غيركم • ولما بين لهم عليه السلام عظمة الله تعالى بين لهم طريق الرجوع اليه بقوله (فاستغفروه) أى آمنوا به (ثم توبوا اليه) من عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان وقد مر مثل ذلك (ان ربى قريب) من خلقه بعلمه لكل من أقبل عليه من غير حاجة الى حركة (مجيب) لكل من ناداه لا كمعبوداتكم فى الامرين • ولما قرر لهم عليه السلام هذه الدلائل (قالوا) له (يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) أى القول الذى جئت به لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد فانك كنت تعطف على فقيرنا وتعين ضعيفنا وتعود مرضانا فقوى رجاؤنا فيك أن تنصر ديننا فكيف أظهرت العداوة • ثم انهم أضافوا الى هذا التعجب الشديد فقالوا (أتنهانا أن نعبد ما) كان (يعبد آباؤنا) من الآلهة ومقصودهم بذلك التمسك بطرف التقليد ووجوب متابعة الآباء والاسلاف ونظير هذا التعجب ما حكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث قالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب ثم قالوا (واننا لفى شك مما تدعونا اليه) من التوحيد وترك عبادة الاصنام (مريب) أى موقع فى الريبة وهى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين والرجاء تعلق النفس بمجئ الخير على جهة الظن ونظيره الامل والطمع والنهى المنع من الفعل بصيغة لا تفعل وقولهم هذا مبالغة فى تزييف كلامه (قال) صالح عليه السلام مجيبا لهم (يا قوم أرأيتم) أى أخبرونى (ان كنت على بينة) أى بيان وبصيرة (من ربى) وأتى بحرف الشك على سبيل الجزم لملائم الخطاب حال المخاطبين (وآتانى منه رحمة) أى نبوة ورسالة (فمن ينصرنى) أى يمنعنى (من الله) أى عذابه (ان عصيته) أى ان خالفت أمره فى تبليغ رسالته والمنع عن الاشراك به (فما تزيدوننى) أى بأمركم لى بذلك (غير تخسير) أى غير

عجزوا عنه فكيف قال هنا فأتوا بعشر سور مثله (قلت) قيل نزلت سورة هود أولا لكن أنكره المبرد وقال بل سورة يونس أولا قال ومعنى قوله فى سورة يونس فأتوا بسورة مثله

تضليل قال الحسين بن الفضل لم يكن صالح في خسارة حتى يقول فما تزيدونني غير تخسير وانما المعنى فما تزيدونني بما تقولون الا نسبتي اياكم الى الخسارة * ولما كانت العادة فيمن يدعي النبوّة عند قوم يعبدون الاصنام أن يطلبوا المعجزة وأمر صالح عليه السلام هكذا كان يروى أن قومه خرجوا في عيد لهم فسألوه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا اليها ناقة فدعا ربه فخرجت كما سألوا أشار اليها بقوله (ويا قوم هذه ناقة الله) واضافتها الى الله اضافة تشريف كبيت الله (لكم آية) أي معجزة من وجوه أحدها أنه خلقها الله تعالى من الصخرة ثانيها أنه تعالى خلقها في جوف الجبل ثم شق الجبل عنها ثالثها أنه تعالى خلقها حاملا من غير ذكر ثم ولدت فصيلا يشبهها رابعها أنه تعالى خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة خامسها ما روي أنه كان لها شرب يوم ولكل القوم شرب يوم آخر سادسها أنه كان يحصل منها لبن كثير فيكفي الخلق العظيم به فكل واحد من هذه الوجوه معجز قوي وليس في القرآن الا أن هذه الناقة كانت آية معجزة وأما بيان أنها كانت آية معجزة من أي الوجوه فليس فيه بيانه * (تنبيه) * آية نصب على الحال وعاملها معنى الاشارة ولكم حال منها تقدمت عليها لتنكيرها ولو تأخرت لكانت صفة لها فلما تقدمت انتصبت على الحال ثم قال لهم (فذروها) أي اتركوها على أي حالة كان تركها (تأكل) مما أرادت (في أرض الله) من العشب والنبات فليس عليكم مؤنتها فصارت مع كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم لانهم كانوا ينتفعون بلبنها ثم انه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهد من اصرارهم على الكفر فان الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه بل يسعى في اخفائها وابطالها باقصى الامكان فلهذا السبب كان يخاف من اقدامهم على قتلها فلهذا احتاط وقال (ولا تمسوها بسوء) أي بعقر أو غيره ثم توعدهم بقوله (فيأخذكم) ان مسستموها بسوء (عذاب قريب) أي في الدنيا لا يتأخر عن مسكم لها الا يسيرا وذلك تحذير شديد لهم في الاقدام على قتلها فخالفوه (فعقروها) وذبحوها (فقال لهم) عند بلوغه الخبر (تمتعوا) أي عيشوا (في داركم) والتمتع التلذذ بالمنافع والملاذ التي تدرك بالحواس وذلك لا يحصل الا للحي وفي المراد من الدار وجهان أحدهما البلد وتسمى البلاد الديار لانه يدار فيها أي يتصرف فيها يقال ديار بكر لبلادهم الثاني دار الدنيا أي تمتعوا في الدنيا (ثلاثة أيام) وذلك أنهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه الصلاة والسلام بنزول العقاب بعد هذه المدة قال ابن عباس انه تعالى لما أمهلهم تلك الايام الثلاثة فقد رغبهم في الايمان ثم قالوا لصالح عليه السلام وما علامة ذلك قال تصير وجوهكم في اليوم الاول مصفرة وفي الثاني محمرة وفي الثالث مسودة ثم يأتيكم العذاب في اليوم الرابع فلما رأوا وجوههم مسودة أيقنوا حينئذ بالعذاب فتحنطوا واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع كما قال تعالى (ذلك) أي الوعد العالي الرتبة في الصدق (وعد غير مكذوب) أي فيه فاتسع في الظرف بحذف الحرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله * ويوم شهدناه (أي ورب يوم شهدنا فيه) سليما وعامرا * أو غير مكذوب على المجاز أو وعد غير كذب على أنه مصدر وقوله تعالى (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) في تفسيره وقراءة الهمزتين وعدد الذين آمنوا معه مثل ما تقدم في قصة عاد (و) نجيناهم (من خزي يومئذ) وهو هلاكهم بالصيحة أو ذلهم أو فضيحتهم يوم

القيامة

أي في الاخبار عن الغيب والاحكام والوعد والوعيد فقال لهم في سورة هود فأتوا بعشر سور مثله فعجزوا ثم عجزهم عن ذلك وان غيره مما ذكر ولا في البلاغة والتعجب هذا وغيره

القيامة وقرأ نافع والكسائى بفتح الميم من يومئذ على البناء لاضافته الى مبنى وكسرها الباقون على الاعراب والاول أكثر (ان ربك هو القوى) فهو يغلب كل شئ (العزيز) أى القادر على منع غيره من غير أن يقدر أحد عليه ثم أخبر تعالى عن عذاب قوم صالح بقوله (وأخذ الذين ظلموا) اى انفسهم بالكفر (الصيحة) اى صيحة جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا او أتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فى صدورهم فماتوا جميعا كما قال تعالى (فاصبحوا فى ديارهم جاثمين) أى باركين على الركب ميتين *(تنبيه)* انما قال تعالى واخذ ولم يقل واخذت لان الصيحة محمولة على الصياح وأيضا فصل بين الفعل والاسم المؤنث بفاصل فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث وقوله تعالى (كان) مخففة من الثقيلة واسمها محذوف اى كأنهم (لم يغنوا) أى يقيموا (فيها) أى ديارهم ولم يسكنوها مدة من الدهر يقال غنيت بالمكان اذا أقمت به وقوله تعالى (ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) تفسيره ما تقدم فى قوله تعالى ألا ان عادا كفروا ربهم الآية وقرأ حفص وحمزة ألا ان ثمود بغير تنوين للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة والباقون بالتنوين للذهاب الى الحى او الى الأب الاكبر ومن نون وقف على ألف بعد الدال ومن لم ينون وقف على الدال ساكنة وقرأ الكسائى بعدا لثمود بتنوين ثمود مع الكسر للميم والباقون بغير تنوين مع الفتح للميم أيضا القصة الرابعة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة قصة ابراهيم عليه الصلاة والسلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) اى باسحق ومن وراء اسحق يعقوب والمراد بالرسل الملائكة ولفظ رسلنا جمع وأقله ثلاثة واختلف فى الزائد على ذلك وأجمعوا على ان الاصل فيهم كان جبريل عليه السلام واقتصر ابن عباس وعطاء على أقل الجمع فقالا كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل وهم الذين ذكرهم الله تعالى فى سورة الذاريات بقوله تعالى هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين وفى الحجر ونبئهم عن ضيف ابراهيم وقال الضحاك كانوا تسعة وقال محمد بن كعب القرظى كان جبريل ومعه سبعة أملاك وقال السدى كان جبريل ومعه أحد عشر ملكا على صورة الغلمان الذين يكونون فى غاية الحسن قال النحويون ودخلت كلمة قد ههنا لان السامع لقصص الانبياء يتوقع قصة بعد قصة وقد للتوقع ودخلت اللام فى لقد لتأكيد الخبر (قالوا سلاما) اى سلمنا عليك سلاما ويجوز نصبه بقالوا على معنى ذكروا سلاما أى سلموا (قال سلام) أى أمركم أو جوابى سلام أو وعليكم سلام *(تنبيه)* قوله سلام أكمل من قوله السلام لان التنكير يفيد الكمال والمبالغة والتمام ولهذا صح وقوعه مبتدأ لان النكرة اذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدأ وأما لفظ السلام فانه لا يفيد الا الماهية (فان قيل) فلاى شئ ما كفى الاول فى التحلل من الصلاة عند النووى (أجيب) بان ذلك سنة متبعة وقرأ حمزة والكسائى بكسر السين وسكون اللام ولا ألف بعدها والباقون بفتح السين واللام وبعدها ألف قال الفراء ولا فرق بين القراءتين كما يقال حل وحلال وحرم وحرام وقيل سلم هو بمعنى الصلح أى نحن سلم صلح غير حرب (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) أى فما أبطأ مجيئه به والحنيذ المشوى على الحجارة المحماة فى حفرة من الارض وكان سمينا يقطر ودكه كما قال تعالى فى موضع آخر فجاء بعجل سمين قال قتادة كان عامة مال ابراهيم

الاول مع زيادة ان يقال ان الاعجاز وقع أولا بالتحدى بكل القرآن فى آية قل لئن اجتمعت الانس والجن ثم لما عجزوا تحداهم بعشر سور ثم لما عجزوا تحداهم بسورة فلما عجزوا

البقر روى أن ابراهيم عليه السلام مكث خمس عشرة ليلة لم يأته ضيف فاغتم لذلك وكان يحب الضيف ولا يأكل الا معه فلما جاءته الملائكة رأى أضيافا لم ير مثلهم فعجل قراهم وجاء بعجل سمين مشوى (فلما رأى أيديهم) أى الاضياف (لا تصل اليه) أى لا يمدون أيديهم اليه (نكرهم) أى أنكرهم وانكر حالهم لامتناعهم من الطعام (وأوجس) أى أضمر فى نفسه (منهم خيفة) أى خوفا قال قتادة وذلك انهم كانوا اذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير وانما جاء بشر (قالوا لا تخف) يا ابراهيم (انا) ملائكة الله (أرسلنا الى قوم لوط) بالعذاب وانما لم نمد أيدينا الى طعامك لانا لا نأكل (وامرأته) أى ابراهيم سارة وهى ابنة عم ابراهيم (قائمة) وراء الستر تسمع محاورتهم أو على رؤسهم للخدمة فسمعت البشارة بالولد التى دل عليها فيما مضى قوله بالبشرى (فضحكت) سرورا من تلك البشرى لزوجها مع كبرهما وربما ظنته من غيرها لانها كانت عجوزا عقيما فأزيل ذلك الظن عنها بقوله تعالى (فبشرناها) اى على لسان الملائكة تشريفا لها وتفخيما للشأن (باسحق) تلده (ومن وراء اسحق يعقوب) اى يكون يعقوب عليه السلام ابنا لاسحق عليه السلام فتعيش حتى ترى ولد ولدها قال البقاعى والذى يدل على هذا التقدير من انهم بشروه بالولد قبل امرأته فسمعت فعجبت ما يأتى عن نص التوراة وساق عن التوراة عبارة طويلة وقيل سبب سرورها زوال الخيفة أو هلاك أهل الفساد وقيل فضحكت فحاضت كما قال الشاعر

عهدى بسلمى ضاحكا فى لبانة * اى حائضا فى جماعة من النساء وهذا يرد على الفراء حيث قال ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة وقال آخر * تضحك الضبع لقتلى هذيل * أراد انها تحيض فرحا (تنبيه) ههنا همزتان مكسورتان من كلمتين قرأ قالون والبزى بتسهيل الاولى مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها أيضا حرف مد وقرأ أبو عمرو باسقاط أحدهما مع المد والقصر والباقون بتحقيق الهمزتين ولا ألف بينهما (قالت يا ويلتا) هذه كلمة تقال عند أمر عظيم والالف مبدلة من ياء الاضافة (أألد وانا عجوز) وكانت ابنة تسعين سنة فى قول ابن اسحق وقال مجاهد تسع وتسعين سنة (وهذا بعلى) اى زوجى سمى بذلك لانه قيم أمرها وقولها (شيخا) نصب على الحال قال الواحدى وهذا من لطيف النحو وغامضه فان كلمة هذا للاشارة فكان قولها وهذا بعلى شيخا قائم مقام أن يقال أشير الى بعلى حال كونه شيخا والمقصود تعريف هذه الحالة المخصوصة وهى الشيخوخة وكان ابن مائة وعشرين سنة فى قول ابن اسحق وقال مجاهد مائة سنة وكان بين البشارة والولادة سنة (ان هذا لشئ عجيب) أى ان الولد من هرمين فهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة ولذلك (قالوا) أى الملائكة لسارة (أتعجبين من أمر الله) منكرين عليها ذلك أى لا تعجبين من ذلك فان الله تعالى قادر على كل شئ واذا أراد شيأ كان سريعا فان خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس بمستغرب (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) أى بيت ابراهيم وأهل منصوب على المدح او النداء لقصد التخصيص كقولهم اغفر لنا أيتها العصابة وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة وفيه دليل على ان ازواج الرجل من أهل بيته (انه) تعالى (حميد) أى محمود على كل حال أو فاعل ما يستوجب به الحمد

قدامهم بقوله فلما توا
جد بشمله (قوله لاجرم
أنهم فى الآخرة هم
الاخسرون) قال ذلك
هنا وقال فى النحل هم
الخاسرون لان ما هنا نزل
فى قوم صدوا عن سبيل

(مجيد) أى كثير الخير والاحسان ه القصة الخامسة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة قصة لوط عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (فلما ذهب عن ابراهيم الروع) أى الخوف وهو ما أوجس من الخيفة حين أنكر أضيافه واطمأن قلبه بعرفانهم (وجاءته البشرى) بدل الروع بالولد أخذ (يجادلنا) أى يجادل رسلنا (فى) شأن (قوم لوط) وجواب لما أخذ يجادلنا الا أنه حذف اللفظ لدلالة الكلام عليه وقيل تقديره لما ذهب عن ابراهيم الروع جادلنا (فان قيل) كيف جادل ابراهيم الملائكة مع علمه بانهم لا يمكنهم مخالفة امر الله وهذا منكر (أجيب) بان المراد من هذه المجادلة تاخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصى لان الملائكة قالوا انا مهلكوا أهل هذه القرية أو ان مجادلته انما كانت فى قوم لوط بسبب مقام لوط فيهم ولهذا قال ابراهيم عليه السلام أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال أو أربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا فلم يزل ينقص حتى قال فعشرون قالوا لا حتى بلغ خمسة قالوا لا قال أرأيتم لو كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا وقد ذكر الله تعالى هذا فى سورة العنكبوت فقال ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين قال ابن جريج وكان فى قرى لوط أربعة آلاف ألف ولو كانت هذه المجادلة مذمومة لما مدحه بقوله تعالى (ان ابراهيم لحليم) اى لا يتعجل مكافاة غيره بل يتأنى فيها فيؤخر او يعفو ومن هذا حاله يحب من غيره هذه الطريقة وهذا مدح عظيم من الله تعالى لابراهيم ثم ضم الى ذلك ما يتعلق بالحلم وهو قوله تعالى (أواه) اى كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس (منيب) اى رجاع فلما اطال مجادلتهم قالوا له (يا ابراهيم أعرض عن هذا) أى الجدال وان كانت الرحمة ديدنك فلا فائدة فيه (انه قد جاء أمر ربك) أى قضاؤه الازلى بعذابهم وهو أعلم بحالهم (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) اى لا سبيل الى دفعه ورده (ولما جاءت رسلنا لوطا) أى هؤلاء الملائكة الذين بشروا ابراهيم بالولد قال ابن عباس انطلقوا من عند ابراهيم الى لوط وهو ابن أخى ابراهيم عليهما الصلاة والسلام وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بنى آدم وكانوا فى غاية الحسن ولم يعرف لوط انهم ملائكة الله تعالى (سىء بهم) أى حزن بسببهم (وضاق بهم ذرعا) أى صدرا يقال ضاق ذرع فلان بكذا اذا وقع فى مكروه ولا يطيق الخروج منه وذلك ان لوطا نظر الى حسن وجوههم وطيب روائحهم فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم وقيل ساءه ذلك لانه عرف بالآخرة انهم ملائكة الله تعالى وانهم جاؤا لاهلاك قومه فرق قلبه على قومه (وقال هذا يوم عصيب) أى شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء أى شد به مأخوذ من العصابة التى تشد بها الرأس قال قتادة خرجت الملائكة من عند ابراهيم نحو قرية لوط فاتوا لوطا نصف النهار وهو فى أرض له يعمل فيها وروى أنه كان يحتطب وقد قال الله تعالى لهم لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فاستضافوه وانطلق بهم فلما مضى ساعة قال لهم ما بلغكم من أمر هذه القرية قالوا وما أمرهم قال أشهد بالله انها لشر قرية فى الارض عملا يقول ذلك أربع مرات وروى أن الملائكة جاؤا الى بيت لوط فوجدوه فى داره ولم يعلم بذلك

قضلوا الله وصدوا غيرهم واضلوا وما هنالك نزل فى قوم صدوا عن سبيل الله فناسب فى الاول الاخسرون وفى الثانى الخاسرون (قوله وآتانى رحمة من عنده) قاله هنا بتقديم رحمة على الجار

أحد الا أهل بيت لوط فخرجت امرأته فاخبرت قومها وقالت ان في بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط (وجاءه قومه) لما علموا بهم (يهرعون) اى يسرعون (اليه) قاله ابن عباس وقال الحسن الاهراع المشي بين مشيين (ومن قبل) اى قبل مجيئهم الى لوط وقيل من قبل مجيء الرسل اليهم (كانوا يعملون السيئات) اى الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة وهي اتيان الرجال في أدبارهم (قال) لوط لقومه حين قصدوا أضيافه وظنوا انهم غلمان من بني آدم (ياقوم هؤلاء بناتي) قال مجاهد وسعيد بن جبير أراد ببناته نساء قومه وأضافهن الى نفسه لان كل نبي هو أبو امته كالوالد لهم اى تزوجوا منهن وقيل أراد بنات نفسه عرضهن عليهم بشرط الاسلام وقيل كان في ذلك الوقت وفي تلك الشريعة يباح تزويج المرأة المسلمة بالكافر كما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن الربيع قبل الوحي وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فاراد ان يزوجهما ابنتيه (هن أطهر لكم) اى أنظف فعلا (فان قيل) افعل التفضيل يقتضي كون العمل الذي يطلبونه طاهرا ومعلوم انه فاسد لانه لا طهارة في اتيان الرجال (أجيب) بان هذا جار مجرى قوله تعالى أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ومعلوم ان شجرة الزقوم لا خير فيها وكقوله صلى الله عليه وسلم لما قالوا يوم أحد اعل هبل قال الله اعلى وأجل ولا مماثلة بين الله تعالى والصنم وانما هو كلام خرج مخرج المقابلة ولهذا نظائر كثيرة (فاتقوا الله) وراقبوه واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والمعاصي (ولا تخزون) اى تفضحون (في ضيفي) اى أضيافي (أليس منكم رجل رشيد) يهتدي الى الحق فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر (قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق) اى حاجة (وانك لتعلم ما نريد) اى من اتيان الذكور وما لنا فيه الشهوة فعند ذلك (قال) اى لوط عليه السلام (لو ان لي بكم قوة) أي طاقة (أو آوي الى ركن شديد) أي عشيرة تنصرني شبهت بركن الجبل في شدته وعنه صلى الله عليه وسلم رحم الله أخي لوطا كان يأوي الى ركن شديد والركن الشديد نصر الله ومعونته فكان النبي صلى الله عليه وسلم استغرب من لوط عليه السلام قوله أو آوي الى ركن شديد وعده نادرة اذ لا ركن أشد من الركن الذي كان يأوي اليه وجواب لو محذوف تقديره لبطشت بكم أو لدفعتكم روي أنه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب (قالوا يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك) بسوء فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ربه في عقوبتهم فأذن له فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم كما قال تعالى فطمسنا أعينهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون الى بيوتهم فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان في بيت لوط قوما سحرة * (تنبيه) * ان يصلوا اليك جملة موضحة للتي قبلها لانهم اذا كانوا رسل الله لن يصلوا اليه ولن يقدروا على ضرره ثم قالوا له (فاسر بأهلك بقطع) أي طائفة (من الليل) وقرأ نافع وابن كثير بعد الفاء بهمزة وصل من السرى والباقون بهمزة قطع من الاسراء (ولا يلتفت منكم أحد) اى لا ينظر الى ورائه لئلا يرى عظيم ما نزل بهم وقوله (الا امرأتك) قرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع التاء على انه بدل من أحد والباقون بالنصب على انه

والمجرور وعكس بعد في قوله وآتاني منه رحمة وفي قوله ورزقني منه رزقا حسنا الموافق كل منهما ما قبله اذ الافعال المتقدمة هنا وهي نرى ونرى ونظن لم يفصل بينها وبين

قوله ابن الربيع هو كذلك في متن المواهب قال شارحه على الصواب ورواه يحيى بن بكير ومعن بن عيسى وأبو مصعب وغيره عن مالك وروى الجمهور عنه انه ابن ربيعة وادعى الاصيلي انه ابن الربيع بن ربيعة اه

استثناء من الاهل اى فلا تسر بها (انه مصيبها ما أصابهم) فلم يخرج بها وقيل خرجت والتفتت فقالت واقوماه فجاءها حجر فقتلها روى أنه قال لهم متى موعد هلاكهم فقالوا له (ان موعدهم الصبح) قال أريد أسرع من ذلك فقالوا (أليس الصبح بقريب) اى فاسرع الخروج بمن أمرت بهم (فلما جاء أمرنا) اى عذابنا بهلاكهم (جعلنا عاليها) اى قراهم (سافلها) روى ان جبريل عليه السلام ادخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات المذكورة فى سورة براءة وكانت خمس مدائن وفيها أربعمائة ألف وقيل أربعة آلاف ألف فرفع المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونهيق الحمار ونباح الكلاب لم يكفأ لهم اناء ولم ينتبه نائم ثم اسقطها مقلوبة الى الارض (وأمطرنا عليها) اى المدن بعد قلبها وقيل على شذاذها وهو بضم الشين المعجمة وبذالين معجمتين أولاهما مشددة وهم الذين ليسوا من أهلها يكونون فى القوم وليسوا منهم (حجارة من سجيل) اى من طين طبخ بالنار كما قال تعالى فى موضع آخر من طين وقيل مثل السجل وهو الدلو العظيمة (منضود) اى متتابع يتبع بعضها بعضا (مسومة) اى معلمة عليها اسم من يرمى بها وقال أبو صالح رأيت منها عند أم هانئ وهى حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع وقال الحسن عليها امثال الخواتيم وقال ابن جريج كان عليها سيما لا تشاكل حجارة الارض وقوله تعالى (عند ربك) ظرف لها (وما هى) أى تلك الحجارة (من الظالمين) أى مشركى مكة (ببعيد) اى بشئ بعيد أو بمكان بعيد لانها وان كانت فى السماء وهى مكان بعيد الا انها اذا وقعت منها فهى أسرع شئ لحوقا بالمرمى فكأنها بمكان قريب منه وفيه وعيد لهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل فقال يعنى ظالمى مكة ما من ظالم منهم الا وهو يعرض عليه حجر فيسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير للقرى اى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون عليها فى مسيرهم • القصة السادسة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة قصة شعيب عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (والى مدين) اى وأرسلنا الى مدين وهم قبيلة أبوهم مدين بن ابراهيم عليه السلام وقيل هو اسم مدينة بناها مدين المذكور وعلى هذا فالتقدير وأرسلنا الى أهل مدين فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه (أخاهم) اى فى النسب لا فى الدين و(شعيبا) عطف بيان وكان قائلا قال فما قال لهم فقيل (قال) ما قال اخوته من الانبياء فى البداءة بأصل الدين (يا قوم) مستعطفا لهم مظهرا غاية الشفقة (اعبدوا الله) اى وحدوه ولا تشركوا به شيأ (ما لكم من اله غيره) فلقد اتفقت كما ترى كلمهم واتحدت الى الله تعالى دعوتهم وهذا وحده قطعى الدلالة على صدق كل منهم لما علم قطعا من تباعد اعصارهم وتنائى ديارهم وان بعضهم لم يلم بالعلوم ولا عرف أخبار الناس الا من الحى القيوم • ولما دعاهم الى العدل فيما بينهم وبين الله تعالى دعاهم الى العدل فيما بينهم وبين عبيده فى أقبح ما كانوا اتخذوه بعد الشرك تدينا فقال (ولا تنقصوا) بوجه من الوجوه (المكيال والميزان) اى لا الكيل ولا آلته ولا الوزن ولا آلته والكيل تعديل الشئ بالآلة فى القلة والكثرة والوزن تعديله فى الخفة والثقل فالكيل العدل فى الكمية والوزن العدل فى الكيفية ثم علل ذلك بقوله (انى أراكم بخير) أى بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف قال ابن عباس كانوا موسرين فى نعمة وقال مجاهد كانوا فى خصب

ومفاعيلها جار ومجرور والفعل المتقدم بعد وهى كان فى الثانى وتفعل فى الثالث فصل بينه وبين مفعوله جار ومجرور واذ خبر كان كالمفعول (فان قلت) لم قال فى الاولين وآتانى وفى

وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحلول النقمة ان لم يؤمنوا ويتوبوا وهو قوله (وانى اخاف عليكم) ان لم تؤمنوا (عذاب يوم محيط) اى يحيط بكم فيهلككم جميعا وهو عذاب الاستئصال فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة ومنه قوله تعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين والمحيط من صفة اليوم فى الظاهر وفى المعنى من صفة العذاب وذلك مجاز مشهور كقوله هذا يوم عصيب (ويا قوم أوفوا) أى أتموا اتماما حسنا (المكيال والميزان) أى الكيل والوزن وآلتهما (فان قيل) النهى عن النقصان أمر بالايفاء فما فائدة قوله تعالى أوفوا (أجيب) بانهم نهوا أولا عن القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان لان فى التصريح بالقبيح نعيا عن المنهى وتعييرا له ثم ورد الامر بالايفاء الذى هو حسن فى العقول مصرحا بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه وجىء به مقيدا (بالقسط) أى ليكون الايفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان أمرا بما هو الواجب لان ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب اليه غير المأمور به وقد يكون محظورا كما فى الربا وقوله تعالى (ولا تبخسوا الناس اشياءهم) تعميم بعد تخصيص فانه أعم من ان يكون فى المقدار أو فى غيره فانهم كانوا يأخذون من كل شئ يباع كما تفعل السماسرة وكانوا يمكسون الناس وكانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الاشياء فنهوا عن ذلك فظهر بهذا البيان ان هذه الاشياء غير مكررة بل فى كل واحد منها فائدة زائدة والحاصل انه تعالى نهى فى الآية الاولى عن النقصان فى المكيال والميزان وفى الثانية أمر باعطاء قدر الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين بأداء الواجب الا عند أداء ذلك القدر من الزيادة ولهذا قال الفقهاء انه تعالى أمر بغسل الوجه وذلك لا يحصل الا عند غسل جزء من الرأس فكأنه تعالى نهى أولا عن سعى الانسان فى أن يجعل مال غيره ناقصا لتحصل له تلك الزيادة وفى الثانى أمر بان يسعى فى تنقيص مال نفسه ليخرج باليقين عن العهدة كما قيده بقوله تعالى بالقسط وفى الآية الثالثة نهى عن النقص فى كل الاشياء وكذا قوله تعالى (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) فان العثو يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد ومفسدين حال مؤكدة لمعنى عاملها وفائدتها اخراج ما يقصد به الاصلاح كما فعله الخضر عليه السلام (بقيت الله) قال ابن عباس يعنى ما أبقى الله لكم من الحلال بعد ايفاء الكيل والوزن (خير لكم) مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد مما يحصل لكم فى الدنيا من المال الحرام (ان كنتم مؤمنين) اى مصدقين بما قلت لكم وأمرتكم به * (فائدة) * بقيت رسمت هنا بالتاء المجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى والباقون وقفوا عليها بالهاء (وما انا عليكم بحفيظ) أعلم جميع اعمالكم وأقدر على كفكم عما يكون منها فساداه ولما أمرهم شعيب عليه السلام بشيئين بالتوحيد وبترك البخس (قالوا) له (يا شعيب) معوباسمه استخفافا وغلظة وأنكروا عليه مستهزئين به (أصلواتك تأمرك) اى تفعل معك فعل من يأمر دائما بتكليفنا (ان نترك ما يعبد) اى على سبيل المواظبة (آباؤنا) من الاصنام فحذف الذى هو التكليف لان الانسان لا يؤمر بفعل غيره قالوا له ذلك فى جواب أمره لهم بالتوحيد (او) نترك (أن نفعل) أى دائما (فى أموالنا ما نشاء) من قطع الدراهم والدنانير وافساد المعاملة والمقامرة ونحوها مما يكون افسادا للمال قالوا له ذلك فى جواب النهى عن

قوله وزرقى (قلت) لان الثالث تقدمه ذكر الاموال وتأخر عنه قوله الثالث وزقا حسنا وهما خاصان قوله ورزقى فناسبهما فانه بخلاف الاولين فانه تقدمهما أمور عامة

التطفيف والامر بالايفاء وانما أضافوا ذلك الى صلاته تهكما واستهزاء بها واشعارا بان مثل هذا لا يدعوا اليه داع عقلي وانما دعاك اليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه وكان شعيب عليه الصلاة والسلام كثير الصلاة في الليل والنهار وكان قومه اذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا وقصدوا بقولهم أصلواتك تأمرك السخرية والهزء كما انك اذا رأيت معتوها يطالع كتبا ثم لا يذكر كلاما فاسدا فيقال له هذا فائدة مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزء فكذا ههنا وقرأ حفص وحمزة والكسائي أصلاتك بالافراد والباقون بالجمع والتاء بالرفع في القراءتين وغلظ ورش اللام في أصلواتك وقولهم له (انك لانت الحليم الرشيد) تهكم به وقصدوا وصفه بضد ذلك كما يقال للبخيل الخسيس لو رآك حاتم لسجد لك وعللوا انكار ما سمعوه منه واستبعدوه بانه موسوم بالحلم والرشد المانعين من المبادرة الى مثل ذلك ثم أخرج قوله عليه الصلاة والسلام على تقدير سؤال بقوله (قال يا قوم) مستعطفا لهم لما بينهم من عواطف القرابة منبها لهم على أحسن النظر فيما ساقه على سبيل الفرض والتقدير ليكون أدعى الى سبيل الوفاق والانصاف (أرأيتم) اى أخبروني (ان كنت على بينة) اى برهان (من ربي) وعطف على جملة الشرط المستفهم عنه قوله (ورزقني) والضمير في (منه) لله تعالى أي من عنده باعانته بلا كد مني في تحصيله وعظم الرزق بقوله (رزقا حسنا) جليلا وما لا حلالا لم أظلم فيه أحدا وجواب الشرط محذوف اى فهل يسوغ مع هذا الانعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية ان أخون في وحيه فاخالفه في امره ونهيه وهذا اعتذار عما انكروا عليه من تغيير المألوف والنهي عن دين الآباء (وما أريد ان اخالفكم) اى واذهب (الى ما انهاكم عنه) فارتكبه (ان) اى ما (اريد) اى فيما آمركم به وانهاكم عنه (الا الاصلاح) اى ما أريد الا ان اصلحكم بموعظتي ونصيحتي وأمري بالمعروف ونهيي عن المنكر (ما استطعت) اى وهو الابلاغ والانذار فقط ولا استطيع اجباركم على الطاعة لان ذلك الى الله تعالى فانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء (وما توفيقي) اى لاصابة الحق والصواب (الا بالله) اى الا بمعونته وتأييده (عليه) لا على غيره (توكلت) اى اعتمدت في جميع أموري فانه القادر على كل شيء وما عداه عاجز وهذه الصيغة تفيد الحصر فلا ينبغي للانسان أن يتوكل على أحد الا على الله تعالى وفيه اشارة الى محض التوحيد الذي هو أقصى مراتب المبدا وأما قوله (واليه انيب) ففيه اشارة الى معرفة المعاد وهو أيضا يفيد الحصر لان قوله واليه انيب يدل على انه لا مآب للخلق الا الى الله تعالى وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه كان اذا ذكر شعيبا قال ذلك خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه (ويا قوم لا يجرمنكم) اى لا يكسبنكم (شقاقي) اى خلافي وهو فاعل يجرم والضمير مفعول أول والمفعول الثاني (ان يصيبكم) عذاب العاجلة على كفركم وأفعالكم الخبيثة قال في الكشاف جرم مثل كسب في تعديه الى مفعول واحد والى مفعولين تقول جرم ذنبا وكسبه وجرمته ذنبا وكسبته اياه ومنه قوله تعالى لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم (مثل ما أصاب قوم نوح) من الغرق (أو قوم هود) من الريح العقيم (أو قوم صالح) من الرجفة (وما قوم لوط منكم ببعيد) لا في الزمان ولا في المكان لانهم كانوا احدث عهد بهلاكهم وكانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم فان

فناسب قوله وآتاني (قوم ويا قوم لا أسألكم عليه مالا) ان قلت لم قال هنا مالا حكاية عن نوح بلفظ مالا وقاله بعد حكاية عن هود بلفظ أجرا (قلت) توسعة في التعبير عن المراد بعبارتين

القرب فى الزمان والمكان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الاحوال فكأنه يقول اعتبروا باحوالهم واحذروا من مخالفة الله ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب (فان قيل) لم قال ببعيد ولم يقل ببعيدين (أجيب) بان التقدير وما اهلاكهم بشئ بعيد وأيضا يجوز أن يسوى فى قريب وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التى هى الصهيل والنهيق ونحوهما انتهى (واستغفروا ربكم) أى آمنوا به (ثم توبوا اليه) عن عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان وقدم مثل ذلك (ان ربى رحيم) أى عظيم الرحمة للتائبين (ودود) أى محب لهم ولما بالغ عليه السلام فى التقرير والبيان أجابوه بانواع فاسدة الاول (قالوا) له (يا شعيب ما نفقه) أى ما نفهم (كثيرا مما تقول) (فان قيل) انه كان يخاطبهم بلسانهم فلم قالوا ما نفقه (أجيب) بانهم كانوا لا يلقون اليه اذهانهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو قوله تعالى وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه أو انهم فهموه ولكنهم ما أقاموا له وزنا فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه اذا لم يعبأ بحديثه ما أدرى ما تقول * النوع الثانى قولهم له (وانا لنراك فينا ضعيفا) أى لا قوة لك فتمتنع منا ان أردناك بسوء أو ذليلا لا عزلك وقيل أعمى بلغة حمير قاله قتادة وفى هذا تجويز العمى على الانبياء الا ان هذا اللفظ لا يحسن الاستدلال به فى اثبات هذا المعنى لانه ترك الظاهر من غير دليل وقيل ضعيف البصر قاله الحسن * النوع الثالث قولهم له (ولولا رهطك) اى عشيرتك وعزتهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم (لرجمناك) بالحجارة حتى تموت والرهط من الثلاثة الى عشرة وقيل الى السبعة والمقصود من هذا الكلام انهم بينوا له انه لا حرمة له عندهم ولا وقع له فى صدورهم وانهم انما لم يقتلوه لاجل احترام رهطه * النوع الرابع قولهم له (وما انت علينا بعزيز) أى لا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم وانما يعز علينا رهطك لانهم من أهل ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا * ولما خوف الكفار شعيبا عليه السلام بالقتل والايذاء حكى الله تعالى عنهم ما ذكروه[٣] فى هذا المقام وهو نوعان الاول (قال) لهم (يا قوم) مستعطفا لهم مع غلظتهم عليه (ارهطى اعز عليكم من الله) المحيط بكل شئ قدرة وعلما حتى نظرتم اليهم فى اقرابتى منهم ولم تنظروا الى الله تعالى فى قربى منه لما ظهر على من كرامته تعالى (واتخذتموه وراءكم ظهريا) أى جعلتموه كالمنسى المنبوذ وراء الظهر باشراككم به والاهانة لرسوله قال فى الكشاف والظهرى منسوب الى الظهر والكسر من تغييرات النسب ونظيره قولهم فى النسبة الى الامس امسى بكسر الهمزة وقوله (ان ربى بما تعملون محيط) أى انه عليم باحوالكم فلا يخفى عليه شئ منها * النوع الثانى قوله (ويا قوم اعملوا على مكانتكم) والمكانة الحالة التى يمكن صاحبها من عمله والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة وكل ما فى وسعكم وطاقتكم من ايصال الشرور الى (انى) أيضا (عامل) بما آتانى الله من القدرة والطاعة (سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) فمن موصولة مفعول العلم (فان قيل) لم لم يقل فسوف تعلمون (أجيب) بان ادخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل وأما حذف الفاء فجعله

جوابا

ولان قصة نوح وقع بعدها نوع مناسب بين الأولى ... والثانية [margin note, partly illegible: ولان قصة نوح وقع بعدها ... (فان قلت) لم قال فى الاولى ويا قوم بالواو وفى الثانية يا قوم بدونها (قلت) لان الاول ... الكلام الواقع بين النداءين فى قصة نوح وقصيره بينهما]

[٣] قوله حكى الله تعالى عنهم ما ذكروه مسبق قلم والصواب حكى الله عنه ما ذكره اه مصححه

جواباً عن سؤال مقدر وهو المسمى فى علم البيان بالاستئناف البيانى تقديره انه لما قال ويا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فكأنهم قالوا فماذا يكون بعد ذلك فقال سوف تعلمون فظهر أن حذف حرف الفاء ههنا أكمل فى باب الفصاحة والتهويل لانه استئناف (وارتقبوا) اى انتظروا عاقبة أمركم (انى معكم رقيب) اى منتظر والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم أو بمعنى المراقب كالعشير والنديم أو بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع (ولما جاء أمرنا) بعذابهم واهلاكهم (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة) اى بفضل (منا) بان هديناهم للايمان ووفقناهم للطاعة (فان قيل) لم جاءت قصة عاد وقصة مدين بالواو وقصة صالح ولوط بالفاء (أجيب) بان قصة عاد ومدين لم يسبقهما ذكر وعد يجرى مجرى السبب له بخلاف قصتى صالح ولوط فانهما ذكرا بعد الوعد وذلك قوله تعالى وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح فلذلك جاء بفاء السببية (وأخذت الذين ظلموا) اى ظلموا انفسهم بالشرك والبخس (الصيحة) اى صيحة جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة خرجت أرواحهم وماتوا جميعا وقيل أتتهم صيحة من السماء (فاصبحوا فى ديارهم جاثمين) اى باركين على الركب ميتين (كأن لم يغنوا) اى كأنهم لم يقيموا (فيها) اى ديارهم مدة من الدهر مأخوذ من قولهم غنى بالمكان اذا أقام فيه مستغنيا به عن غيره (الا بعدا) اى هلاكا (لمدين كما بعدت ثمود) انما شبههم بهم لان عذابهم كان أيضا بالصيحة لكن صيحتهم كانت من تحتهم وصيحة مدين كانت من فوقهم قال ابن عباس لم يعذب الله تعالى أمتين بعذاب الا قوم شعيب وقوم صالح فاما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم واما قوم شعيب فاخذتهم الصيحة من فوقهم * القصة السابعة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة وهى آخر قصصها قصة موسى عليه الصلاة والسلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد ارسلنا موسى بآياتنا) اى التوراة مع ما فيها من الشرائع والاحكام (وسلطان مبين) اى برهان بين ظاهر على صدق نبوّته ورسالته وقيل المراد بالآيات المعجزات وبالسلطان المبين العصا لانها اظهر الآيات وذلك لان الله تعالى اعطى موسى تسع آيات بينات وهى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الثمرات والسنين ومنهم من ابدل نقص الثمرات والسنين باظلال الجبل وفلق البحر قال بعض المحققين سميت الحجة سلطانا لان صاحب الحجة يقهر من لا حجة له كالسلطان يقهر غيره والعلماء سلاطين بسبب كمالهم فى القوّة العلمية والملوك سلاطين بحسب ما معهم من القدرة والمكنة الا ان سلطنة العلماء أكمل واقوى من سلطنة الملوك لان سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك تقبلهما ولان سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء لان سلطنة العلماء من جنس سلطنة الانبياء وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة (الى فرعون) طاغية القبط (وملئه) اى أشراف قومه الذين تتبعهم الاذناب لان القصد الاكبر رفع أيديهم عن بنى اسرائيل (فاتبعوا أمر فرعون) اى اتبعوا طريقة فرعون المنهمك فى الضلال والطغيان الداعى الى ما لا يخفى فساده على من له أدنى مسكة من العقل ولم يتبعوا موسى الهادى الى الحق المؤيد بالمعجزات الظاهرة الباهرة لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم (وما أمر فرعون برشيد) اى بسديد ولا

فى قصة هود فناسب ذكر الواو فى الاول لتوصل ما بعدها بما قبلها (قوله لا عاصم اليوم الآية) الاستثناء فيه منقطع لان من رحمه الله معصوم لا عاصم أو متصل لان معنى

حميد العاقبة ولا يدعو الى خير وقيل رشيد ذو رشد وانسلاخ فرعون من الرشد كان ظاهرا
لانه كان دهريا نافيا للصانع والمعاد وكان يقول لا اله للعالم وانما يجب على أهل كل بلد ان
يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم وكل الرشد في عبادة الله تعالى ومعرفته
فلما كان هو نافيا لهذين الامرين كان خاليا عن الرشد بالكلية (يقدم قومه يوم القيامة) الى
النار كما كان يقدمهم في الدنيا الى الضلال أو كما تقدم قومه في الدنيا فادخلهم البحر وأغرقهم
فكذا يتقدمهم في القيامة فيدخلهم النار كما قال تعالى (فاوردهم النار) * فان قيل لم يقل
يقدم قومه فيوردهم النار بل أتى بلفظ الماضي (أجيب) بانه انما أتى بلفظ الماضي مبالغة
في تحققه ونزل النار لهم منزلة الماء فسمى اتيانها موردا ولهذا قال تعالى (وبئس الورد
المورود) وردهم لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار ضده (فان قيل)
لفظ النار مؤنث فكان مقتضى ذلك ان يقال وبئست الورد المورود (أجيب) بان لفظ
الورد مذكر فكان التذكير والتأنيث جائزين كما تقول نعم المنزل دارك ونعمت المنزل دارك
فمن ذكر غلب المنزل ومن أنث بنى على تأنيث الدار (واتبعوا في هذه) اى الدنيا (لعنة) اى
طردا وبعدا عن الرحمة (ويوم القيامة) اى واتبعوا يوم القيامة لعنة أخرى فهم ملعونون في
الدنيا والآخرة ونظيره قوله تعالى في سورة القصص وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة
هم من المقبوحين (بئس الرفد) اى العون (المرفود) رفدهم سأل رافع بن الازرق ابن عباس
عن ذلك فقال هو اللعنة بعد اللعنة وقال قتادة ترادفت عليهم لعنتان من الله تعالى لعنة في
الدنيا ولعنة في الآخرة وكل شيء جعلته عونا لشيء فقد رفدته به وسميت اللعنة عونا لانهم اذا
تبعتهم في الدنيا ابعدتهم عن الرحمة واعانتهم على ما هم فيه من الضلال وسميت رفدا اى عونا
لهذا المعنى على التهكم كقول القائل * تحية بينهم ضرب وجيع * وسميت معانا لانها اردفت في
الآخرة بلعنة أخرى ليكونا هاديتين الى طريق الجحيم * ولما ذكر تعالى قصص الاولين قال تعالى
(ذلك) اى المذكور وهو مبتدأ خبره (من انباء القرى) اى اخبار اهل القرى وهم الامم
السالفة في القرون الماضية وقوله تعالى (نقصه عليك) اى نخبرك به يا محمد خبرا بعد خبر وفائدة
ذكر هذه القصص على النبي صلى الله عليه وسلم ليعلم السامع ان المؤمن يخرج من الدنيا مع
الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة وان الكافر يخرج مع اللعنة في الدنيا
والعقاب في الآخرة واذا تكررت هذه الاقاصيص على السمع فلا بد وان يلين القلب وتخضع
النفس وتزول العداوة ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال وفي اخباره
صلى الله عليه وسلم هذه القصص من غير مطالعة كتب ولا تتلمذ لاحد دليل على نبوته فان ذلك
لا يكون الا بوحي من الله تعالى (منها) اى القرى (قائم) اى باق كالزرع القائم هلك أهله دونه
(و) منها (حصيد) اى عافي الاثر كالزرع المحصود هلك مع أهله (وما ظلمناهم) اى باهلاكهم
بغير ذنب (ولكن ظلموا انفسهم) بالكفر والمعاصي وقال ابن عباس يريد وما نقصناهم في
الدنيا من النعيم والرزق ولكن نقصوا حظ انفسهم حيث استخفوا بحقوق الله تعالى (فما
أغنت) اى دفعت (عنهم آلهتهم) اى اصنامهم (التي يدعون) اى يعبدون (من دون الله)

اى

من رحم الراحم وهو الله فكأنه قيل لا عاصم الا الله أو لان عاصما بمعنى معصوم كماء دافق وعيشة راضية (قوله يا أرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي) ان قلت هما لا يعقلان فكيف أمرا

اى غيره (من شيء) اى شيأ من بدة (لما جاء امر ربك) اى عقابه (وما زادوهم) بعبادتهم (غير تتبيب) اى غير تخسير وقيل تدمير وما أخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فى كتابه بما فعله بأمم من تقدم من الانبياء عليهم الصلاة والسلام لما خالفوا الرسل وما ورد عليهم من عذاب الاستئصال وبين انهم ظلموا انفسهم فحل بهم العذاب فى الدنيا قال تعالى بعده (وكذلك) اى ومثل ذلك الاخذ العظيم (اخذ ربك اذا اخذ القرى وهى) اى القرى (ظالمة) والمراد اهلها ونظيره قوله تعالى وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها وقوله تعالى وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة فبين تعالى ان عذابه ليس مقصورا على من تقدم بل الحال فى اخذ كل الظالمين يكون كذلك ولما بين تعالى كيفية اخذ الامم المتقدمة ثم بين تعالى انه انما يأخذ جميع الظالمين على ذلك الوجه اتبعه بما يزيده تأكيدا وتقوية بقوله تعالى (ان اخذه اليم) اى مؤلم (شديد) اى صعب مقتت القوى وعن ابى موسى الاشعرى رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ وكذلك اخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان اخذه اليم شديد وفى هذه الآية الكريمة والحديث الشريف دلالة على ان من اقدم على ظلم فانه يتداركه بالتوبة والانابة ورد الحقوق الى اهلها ان كان الظلم للغير لئلا يقع فى هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن ان هذه الآية مختصة بظالمى الامم الماضية بل هى عامة فى كل ظالم ويعضده الحديث (ان فى ذلك) اى ما ذكر من عذاب الامم الماضية واهلاكهم (لآية) اى لعبرة وموعظة (لمن خاف عذاب) يوم الحياة (الآخرة) لانه ينظر ما أحل الله تعالى بالمجرمين فى الدنيا وما هو الا انموذج لما اعد لهم فى الآخرة فاذا رأى عظمه وشدته اعتبر به عظم العذاب الموعود فيكون له عبرة وعظة ولطفا فى زيادة التقوى والخشية من الله تعالى وقوله (ذلك) اشارة الى يوم القيامة لان عذاب الآخرة دل عليه (يوم مجموع له) اى فيه (الناس) اى ان خلق الاولين والآخرين كلهم يحشرون فى ذلك اليوم ويجمعون ثم وصفه تعالى بوصف آخر بقوله تعالى (وذلك يوم مشهود) اى يشهده اهل السموات واهل الارض (وما نؤخره) اى ذلك اليوم وهو يوم القيامة (الا لاجل) اى وقت (معدود) اى معلوم محدود وذلك الوقت لا يعلمه الا الله تعالى (يوم يأتى) ذلك اليوم (لا تكلم) فيه حذف احدى التاءين اى لا تتكلم (نفس الا باذنه) تعالى وقرأ نافع وابو عمرو والكسائى باثبات الياء بعد التاء من يأتى وصلا ووقفا وحذفها الباقون واما التاء من تكلم فشددها البزى فى الوصل وخففها الباقون (فان قيل) كيف يوفق بين قوله تعالى يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وقوله تعالى هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون (أجيب) بان ذلك اليوم يوم طويل له مواقف ومواطن ففى بعضها يجادلون عن أنفسهم وفى بعضها يكفون عن الكلام ولا يؤذن لهم وفى بعضها يؤذن لهم فيتكلمون وفى بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم (فمنهم) اى الناس (شقى و) منهم (سعيد) اى فمنهم من سبقت له الشقاوة فوجبت له النار بمقتضى الوعيد ومنهم من سبقت له السعادة فوجبت له الجنة بموجب الوعد وعن على رضى الله تعالى عنه قال كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله وبيده مخصرة ثم نكت بها الارض ساعة ثم قال ما من نفس منفوسة

(قلت) الامر هنا أمر ايجاد لا أمر ايجاب فلا يشترط فيه فهمهم ولا عقل لان الاشياء كلها ممتثلة لله تعالى ومنه قوله تعالى انما أمرنا لشيء اذا أردناه ان نقول له كن فيكون وقوله فقال لها

الا قد كتب مكانها من الجنة أو النار فقالوا يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما من كان من أهل السعادة فسيصير الى عمل اهل السعادة ومن كان من اهل الشقاوة فسيصير الى عمل اهل الشقاوة ثم قرأ فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى الآية وبقيع الغرقد هو مقبرة اهل المدينة الشريفة ومدفنهم فيه والمخصرة كالسوط والعصا مما يمسكه الانسان بيده والنكت بالنون والتاء المثناة من فوق ضرب الشيء بتلك المخصرة او باليد او نحو ذلك حتى يؤثر فيه (فاما الذين شقوا) في علمه تعالى (ففي النار لهم فيها زفير) وهو صوت شديد (وشهيق) وهو صوت ضعيف وقيل الزفير اخراج النفس والشهيق رده وقيل الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير بالنهيق والشهيق بمنزلة آخر صوت الحمار اذا ردده في صدره وقيل الزفير في الحلق والشهيق في الصدر وعلى كل فالمراد منهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم (خالدين فيها) وقوله تعالى (مادامت السموات والارض) فيه وجهان احدهما سموات الآخرة وارضها وهي مخلوقة دائمة للابد والدليل على ان لها سموات وارضا قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقوله تعالى واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ولانه لابد لاهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم اما سماء يخلقها الله تعالى او يظلهم العرش وكل ما اظلك فهو سماء وكل ما استقر قدمك عليه فهو ارض والوجه الثاني ان المراد مدة دوامهما في الدنيا (الا) اى غير (ماشاء ربك) من الزيادة على مدة دوامهما الا منتهى له وذلك هو الخلود فيها ابدا (ان ربك فعال لما يريد) من غير اعتراض (واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك) كما تقدم ودل عليه قوله تعالى (عطاء غير مجذوذ) اى مقطوع وقيل الاستثناء في اهل الشقاوة يرجع الى قوم من الموحدين يدخلهم الله تعالى النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها فيكون ذلك استثناء وذلك كاف في صحة الاستثناء لان زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض من غير الجنس لان الذين اخرجوا من النار سعداء في الحقيقة استثناهم الله تعالى من الاشقياء لما روى عن جابر انه صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بالشفاعة وفي رواية ان الله تعالى يخرج ناسا من النار فيدخلهم الجنة وفي رواية انه صلى الله عليه وسلم قال ليصيبن قوما سفع من النار بذنوب اصابوها عقوبة ثم يدخلهم الله بفضله ورحمته الجنة وفي رواية انه صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فيدخلون الجنة فيسمون الجهنميين وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد اى من أهل الكبائر من امة محمد صلى الله عليه وسلم بان تخلى طبقتهم التي كانوا فيها وان نازع في ذلك الزمخشري على مذهبه الفاسد من ان أهل الكبائر يخلدون في النار واما الاستثناء في اهل السعادة فيرجع الى مدة لبثهم في النار قبل دخولهم الجنة أو أن الاستثناء راجع الى الفريقين فانهم مفارقوا الجنة ايام عذابهم وان التأبيد من مبدا معين ينقص باعتبار الابتداء كما ينقص باعتبار الانتهاء وهؤلاء وان شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بايمانهم ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله تعالى فمنهم شقي وسعيد تقسيما صحيحا لان شرطه ان تكون صفة كل قسم منتفية عن قسيمه لان ذلك الشرط حيث التقسيم لانفصال حقيقي او مانع من الجمع من الجنسة

والنار

وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين وقوله ونادى نوح ربه فقال رب فالمعنا بالفاء وقال في مريم في قصة زكريا اذ نادى ربه نداء خفيا قال رب بلا فاء لانه أريد بالنداء هنا ارادته

والنار مدة تعمرهم فى الدنيا واحتباسهم فى البرزخ وهو ما بين الموت الى البعث ومدة وقوفهم للحساب ثم يدخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار فيكون المعنى خالدين فى الجنة والنار الا هذا المقدار وقيل معناه لو شاء ربك لاخرجهم منها ولكنه لا يشاء لانه تعالى حكم لهم بالخلود وقال الفراء هذا الاستثناء استثناه الله تعالى ولا يفعله كقولك والله لاضربنك الا ان أرى غير ذلك وعزيمتك ان تضربه وقال اهل المعانى هذه عبارة عن التأبيد على عادة العرب يقولون لا آتيك ما دامت السموات والارض ولا يكون كذا ما اختلف الليل والنهار يعنون أبدا وقيل ان اهل النار ينقلون منها الى الزمهرير وغيره من العذاب أحيانا وكذلك أهل الجنة ينعمون بما هو أعلى من الجنة وهو الفوز برضوان الله تعالى ولقائه كما قال تعالى وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر وقرأ حفص وحمزة والكسائى سعدوا بضم السين على البناء للمفعول من سعده الله بمعنى أسعده والباقون بفتحها وعطاء نصب على المصدر المؤكد أى أعطوا اعطاء أو الحال من الجنة * ولما شرح الله تعالى أقاصيص عبدة الاوثان ثم اتبعه باحوال الاشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول صلى الله عليه وسلم أحوال الكفار من قومه فقال (فلا تك) يا محمد (فى مرية) أى شك (مما يعبد هؤلاء) المشركون من الاصنام أنا نعذبهم كما عذبنا من قبلهم وهذه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم) أى كعبادتهم (من قبل) وقد عذبناهم (وانا لموفوهم) مثلهم (نصيبهم) أى حظهم من العذاب (غير منقوص) أى كاملا غير ناقص * ولما ذكر تعالى فى هذه الآية اعراضهم عن الاتباع مع ما أتى به من المعجزات وأنزل عليه من الكتاب سلاه باخيه موسى عليه السلام بقوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة الجامعة للخير (فاختلف فيه) أى الكتاب فآمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء فى القرآن (ولولا كلمة سبقت من ربك) بتأخير الحساب والجزاء للخلائق الى يوم القيامة (لقضى) أى لوقع القضاء (بينهم) أى بين من اختلف فى كتاب موسى فى الدنيا فيما اختلفوا فيه بانزال ما يستحقه المبطل ليتميز به المحق ولكن سبقت الكلمة ان القضاء الكامل انما يكون يوم القيامة كما قال تعالى فى سورة يونس عليه السلام فما اختلفوا حتى جاءهم العلم الآية * ولما كان الاختلاف قد يكون بغير الكفر بين تعالى أنه به لان كل طائفة من اليهود تنكر شكها فيه وفعلها فعل الشاك فقال تعالى مؤكدا (وانهم لفى شك) أى عظيم محيط بهم (منه) أى من الكتاب والقضاء (مريب) أى موقع فى الريب والتهمة والاضطراب مع ما رأوا من الآيات التى منها اسماع كلام الله تعالى ورؤيته ما كان يتجلى فى جبل الطور من خوارق الاحوال وقيل الضمير فى وانهم راجع لكفار مكة وفى منه للقرآن (وان كلا) أى كل الخلائق وقوله تعالى (لما) ما زائدة واللام موطئة القسم مقدرة تقديره والله (ليوفينهم ربك أعمالهم) فيجازى المصدق على تصديقه الجنة ويجازى المكذب على تكذيبه النار وقرأ نافع وابن كثير وشعبة بتخفيف وان والباقون بالتشديد وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد ميم لما والباقون بالتخفيف * (فائدة) * قال بعض الفضلاء انه تعالى لما أخبر عن توفية الاجزية على المستحقين فى هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التأكيدات أولها كلمة ان وهى للتأكيد وثانيها الفظة

فهى سبب له ومناسبت الفاء الدالة على السببية وهناك لم يرد ذلك فناسب ترك الفاء (قوله قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) * ان قلت هود كان رسولا فكيف لم يظهر معجزة (قلت) قد

كل وهي أم الباب في التأكيد وثانيها اللام الداخلة على خبران تفيد التأكيد أيضا ورابعها حرف ما اذا جعلناه على قول الفراء موصولا وخامسها المضمر وسادسها اللام الثانية الداخلة على جواب القسم وسابعها لنون المذكورة في قوله تعالى ليوفينهم فجميع هذه الالفاظ السبعة الدالة على التوكيد في هذه الكلمة الواحدة تدل على ان أمر الربوبية والعبودية لا يتم الا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر ثم أردفه بقوله تعالى (انه بما يعملون خبير) وهو من أعظم المؤكدات فانه تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده ففيه وعد للمحسنين ووعيد للمكذبين الكافرين ٭ ولما بين تعالى أمر الوعد والوعيد قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (فاستقم) أي على دين ربك والعمل والدعاء اليه (كما أمرت) والامر في ذلك للتأكيد فانه صلى الله عليه وسلم كان على الاستقامة لم يزل عليها وهو كقولك للقائم قم حتى آتيك أي دم على ما أنت عليه من القيام حتى آتيك وتوطئة لقوله تعالى (ومن تاب معك) أي وليستقم أيضا على دين الله والعمل بطاعته من آمن معك قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الاستقامة أن تستقيم على الامر والنهي ولا تروغ عنه روغان الثعلب وأشار صلى الله عليه وسلم الى شدة الاستقامة بقوله شيبتني هود وأخواتها وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ما نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم آية أشد ولا أشق من هذه الآية وعن بعضهم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت له يروى عنك انك قلت شيبتني هود فقال نعم فقلت بأي آية قال قوله تعالى فاستقم كما أمرت وعن سفيان ابن عبد الله الثقفي قال قلت يا رسول الله قل لي في الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك قال قل آمنت بالله ورسوله ثم استقم قال الامام الرازي ان هذه الآية أصل عظيم في الشريعة وذلك لان القرآن لما ورد بالامر بأعمال الوضوء مرتبة في اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله تعالى فاستقم كما أمرت ولما ورد الامر في الزكاة بأداء الابل من الابل والبقر من البقر وجب اعتبارها وكذا القول في كل ما ورد أمر الله تعالى به انتهى ٭ ولما كانت الاستقامة هي التوسط بين طرفي الافراط والتفريط نهى عن الافراط بقوله تعالى (ولا تطغوا) أي لا تجاوزوا الحد فيما أمرتم به أو نهيتم عنه بالزيادة افراطا فان الله تعالى انما أمركم ونهاكم لتهذيب أنفسكم لا لحاجته الى ذلك ولن تطيقوا ان تقدروا الله حق قدره والدين متين لم يشاده أحد الا غلبه كما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة فقوله صلى الله عليه وسلم ان الدين يسر ضد العسر أراد به التسهيل في الدين وترك التشديد فان هذا الدين مع يسره وسهولته قوي فلن يغالب ولن يقاوى وقوله وسددوا أي اقصدوا السداد في الامور وهو الصواب وقاربوا أي اطلبوا المقاربة وهي القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والرواح الرجوع عشاء والمراد منه اعملوا بالنهار واعملوا بالليل أيضا وقوله واستعينوا بشيء من الدلجة اشارة الى تقليله ٭ ولما نهى تعالى عن الافراط وهو الزيادة تصريحا أفهم النهي عن التفريط وهو النقص عن المأمور تلويحا من باب أولى ثم علل ذلك مؤكدا تنزيلا لمن يفرط أو يفرط منزلة المنكر فقال (انه بما تعملون بصير) أي عالم بأعمالكم كلها لا يخفى عليه شيء منها

اظهرها وهي الريح العرصر ولا يقبل قول الكفار في حقه قال بعضهم أوان الرسول انما يحتاج الى المعجزة اذا كان صاحب شريعة لتنقاد امته اليها اذ في كل شريعة

فيجازيكم

فيجازيكم عليه (ولا تركنوا) أى تميلوا (الى الذين ظلموا) أدنى ميل (فتمسكم النار) أى تصيبكم بحرها والنهى متناول للانحطاط فى هواهم والانقطاع اليهم ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزيى بزيهم ومد العين الى زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم وتأمل قوله تعالى ولا تركنوا فان الركون هو الميل اليسير وحكى أن الموفق صلى خلف الامام فقرأ بهذه الآية فغشى عليه فلما أفاق قيل له فى ذلك فقال هذا فيمن ركن الى من ظلم فكيف بالظالم ولما خالط الزهرى السلاطين كتب اليه أخ له فى الدين عافانا الله واياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغى لمن عرفك أن يدعو الله لك ويرحمك اصبحت شيخا كبيرا وقد أثقلتك نعم الله تعالى بما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيه وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله سبحانه وتعالى لتبيننه للناس ولا تكتمونه واعلم ان أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت انك آنست وحشة الظالم وسهلت سبيل الغى بدنوك ممن لم يؤد حقا ولم يترك باطلا حين ادناك اتخذوك قطبا تدور عليك رحى باطلهم وجسرا يعبرون عليك الى بلائهم وسلما يصعدون فيك الى ضلالهم يدخلون بك الشك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهلاء فما أيسر ما عمروا لك فى جنب ما خربوا عليك وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا فانك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا يغفل فداو دينك فقد دخله سقم وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء والسلام وقال سفيان فى جهنم واد لا يسكنه الا القراء الزائرون للملوك وعن الاوزاعى ما من شئ أبغض الى الله تعالى من عالم يزور عاملا أى من الظلمة وعن محمد بن سلمة الذباب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء وقال صلى الله عليه وسلم من دعا للظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك فى برية هل يسقى شربة ماء فقال لا فقيل له يموت فقال دعه يموت وقوله تعالى (وما لكم من دون الله من أولياء) أى أعوانا وأنصارا يمنعونكم من عذابه حال من قوله فتمسكم النار أى فتمسكم النار وأنتم على هذه الحالة (ثم لا تنصرون) اى لا تجدون من ينصركم ويخلصكم من عذاب الله فى القيامة ففى هذه الآية وعيد لمن ركن الى الظلمة بأن تمسه النار فكيف يكون حال الظالم فى نفسه ولما أمر تعالى بالاستقامة أردفه بالامر بالصلاة بقوله تعالى (وأقم الصلوة) وذلك يدل على أن أعظم العبادات بعد الايمان بالله تعالى هو الصلاة وقوله تعالى (طرفى النهار) الغداة والعشى اى الصبح والظهر والعصر وقوله تعالى (وزلفا) جمع زلفة أى طائفة (من الليل) اى المغرب والعشاء (ان الحسنات) كالصلوات الخمس (يذهبن) أى يكفرن (السيئات) اى الذنوب الصغائر لما رواه مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر وزاد فى رواية أخرى ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن اذا اجتنبت الكبائر وعن أبى هريرة رضى الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ماتقولون هل يبقى من درنه شئ قالوا لا يا رسول الله لا يبقى من درنه شئ فقال ذلك مثل

أحكام غير معقولة يحتاج الرسول الا فى تبليغها الى معجزة تدل على صدقه وهو لم يكن له شريعة وانما كان يأمر بالعقل فلا يحتاج الى معجزة لان الناس ينقادون الى ما يأمرهم به

الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل
الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات وعن الحسن
ان الحسنات قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وسبب نزول هذه الآية
ما رواه الترمذي عن أبي اليسر بن عمرو قال أتتني امرأة وزوجها بعثه النبي صلى الله عليه
وسلم في بعث فقالت بعني بدرهم تمرا قال فأعجبتني فقلت ان في البيت تمرا هو أطيب من هذا
فالحقيني فدخلت معي البيت فأهويت اليها فقبلتها فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك فقال استر
على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر
أحدا فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال أخلفت رجلا غازيا في سبيل الله
في أهله بمثل هذا حتى تمنى أنه لم يكن أسلم الا تلك الساعة حتى ظن انه من أهل النار وأطرق
رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا حتى أوحى اليه وأقم الصلوة طرفي النهار وزلفا من الليل
الى قوله تعالى (ذلك ذكرى للذاكرين) اى عظة للمتقين قال أبو اليسر فأتيته فقرأها على
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ألهذا خاصة أم
للناس عامة قال بل للناس عامة قال الترمذي هذا حديث حسن غريب وعن عبد الله بن
مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فنزلت
فقال رجل يا رسول الله ألهذا خاصة فقال بل للناس كافة وعن معاذ بن جبل قال أتى النبي
صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله أرأيت رجلا لقى امرأة ليس بينهما معرفة وليس
يأتي الرجل الى امرأته شيأ الا قد أتى هو اليها الا أنه لم يجامعها قال فأنزل الله تعالى هذه الآية
وأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ ويصلي فقال معاذ بن جبل فقلت يا رسول الله أهي له
خاصة أم للمؤمنين عامة قال بل للمؤمنين عامة قال العلماء الصغائر من الذنوب تكفرها
الاعمال الصالحة مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من أعمال البر وأما
الكبائر من الذنوب فلا يكفرها الا التوبة النصوح ولها ثلاث شرائط الاول الاقلاع عن
الذنب بالكلية الثاني الندم على فعله الثالث العزم التام على أن لا يعود اليه في المستقبل
فاذا حصلت هذه الشرائط صحت التوبة وكانت مقبولة ان شاء الله تعالى والاشارة في قوله
تعالى ذلك ذكرى الى ما تقدم ذكره من قوله تعالى فاستقم كما أمرت الى ههنا وقيل هو اشارة
الى القرآن وقوله تعالى (واصبر) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي واصبر يا محمد على أذى
قومك أو على الصلاة وهو قوله تعالى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها (فان الله لا يضيع
أجر المحسنين) أى أجر أعمالهم وعدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلا على
ان الصلاة والصبر احسان وايماء بانه لا يعتد بهما دون الاخلاص * ولما بين تعالى أن الامم
المتقدمين حل بهم عذاب الاستئصال بين ان السبب فيه أمران السبب الاول انه ما كان
فيهم قوم ينهون عن الفساد في الارض فقال تعالى (فلولا) اى فهلا (كان من القرون) أى
من الامم الماضية (من قبلكم أولو بقية) اى اصحاب رأي وخير وفضل (ينهون عن الفساد
في الارض) وسمى الفضل والجود بقية لان الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله فصار
مثلا في الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم وبه فسر بيت الحماسة

والمعقد
لموافقته للعقل والمعقد لا يلزم من
الجواب الاول ولا يلزم من
عدم اظهاره معجزة عدمها
في نفس الامر فقد قال
رسول الله صلى الله عليه
وسلم ما من نبي الا وقد أوتي
من الآيات ما مثله آمن

* ان تذنبوا ثم يأتيني بقيتكم * ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى اى فهلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه * (فائدة) * حكى عن الخليل أنه قال كل ما في القرآن من كلمة لولا فمعناه هلا الا التي في الصافات قال صاحب الكشاف وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصافات لولا أن تداركه نعمة من ربه ولولا رجال مؤمنون ولولا أن ثبتناك انتهى وقوله تعالى (الا قليلا ممن أنجينا منهم) استثناء منقطع معناه ولكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهى السبب الثاني لنزول عذاب الاستئصال قوله تعالى (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) اى ما نعموا فيه من الشهوات واهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عما وراء ذلك (وكانوا مجرمين) اى كافرين * (تنبيه) * قوله تعالى واتبع الذين ظلموا ان كان معناه واتبعوا الشهوات كان معطوفا على مضمر لان المعنى الا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو عطف على نهوا وان كان معناه واتبعوا جزاء الاتراف فالواو للحال فكأنه قيل أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم وقوله تعالى وكانوا مجرمين عطف على أترفوا اى اتبعوا الاتراف وكونهم مجرمين لان تابع الشهوات مغمور بالآثام أو على اتبعوا اى اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك ثم بين تعالى انه ما أهلك أهل القرى بظلم بقوله تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) اى بشرك (وأهلها مصلحون) فيما بينهم والمعنى انه لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين اذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم والحال ان عذاب الاستئصال لا ينزل لاجل كون القوم معتقدين الشرك بل انما ينزل ذلك العذاب اذا أساؤا في المعاملات وسعوا في الايذاء والظلم ولهذا قيل ان حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح ويقال في الاثر الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم وانما نزل على قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عذاب الاستئصال لما حكى الله تعالى عنهم من ايذاء الناس وظلم الخلق (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) اى أهل ملة واحدة وهي الاسلام كقوله تعالى ان هذه أمتكم أمة واحدة وفي هذه الآية دليل على ان الامر غير الارادة وأنه تعالى لم يرد الايمان من كل أحد وان ما أراده يجب وقوعه والمعتزلة يحملون هذه الآية على مشيئة الالجاء والاجبار ولهذا قال الزمخشري يعني لاضطرهم الى ان يكونوا أهل ملة واحدة (ولا يزالون مختلفين) اى على أديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل أهل دين من هذه الاديان اختلفوا في دينهم أيضا اختلافا كثيرا لا ينضبط عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تفترق اليهود على احدى وسبعين فرقة وفي رواية ألا ان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة والمراد بهذه الفرق أهل البدع والاهواء كالقدرية والمعتزلة والرافضة والمراد بالواحدة هي ملة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله (فان قيل) ما الدليل على ان الاختلاف في الاديان

عليه البشر وقولهم ما جئتنا ببينة كقول غيرهم ان هو الا رجل به جنة ان هذا لساحر عليم (قوله ولما جاء أمرنا نجينا هودا) قاله في قصة هود وشعيب بالواو وفي قصة صالح ولوط بالفاء.

فلم لا يجوز ان يحمل على الاختلاف فى الالوان والالسنة والارزاق والاعمال (أجيب) بان الدليل عليه ما قبل هذه الآية وهو قوله تعالى ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة فيجب حمل الاختلاف على ما يخرجهم من ان يكونوا أمة واحدة وما بعد هذه الآية وهو قوله تعالى (الا من رحم ربك) اى أراد لهم الخير فلا يختلفون فيه فيجب حمل الاختلاف على معنى يصح أن يستثنى منه ذلك وفى هذه الآية دلالة على ان الهداية والايمان لا تحصل الا بخلق الله تعالى لان تلك الرحمة ليست عبارة عن اعطاء القدرة والعقل وارسال الرسل وانزال الكتب وازاحة العذر فان كل ذلك حاصل فى حق الكفار فلم يبق الا ان يقال تلك الرحمة هو انه سبحانه وتعالى خلق فيهم تلك الهداية والمعرفة (ولذلك خلقهم) اى خلق أهل الاختلاف للاختلاف وخلق أهل الرحمة للرحمة روى عن ابن عباس انه قال خلق الله أهل الرحمة لئلا يختلفوا وخلق أهل العذاب لان يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا والحاصل ان الله تعالى خلق اهل الباطل وجعلهم مختلفين وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين فحكم على بعضهم بالاختلاف وهم أهل الباطل ومصيرهم الى النار وحكم على بعضهم بالاتفاق وهم أهل الحق ومصيرهم الى الجنة ويدل لذلك قوله تعالى (وتمت كلمة ربك) وهى (لأملأن جهنم من الجنة) اى الجن (والناس أجمعين) وهذا صريح بان الله تعالى خلق أقواما للجنة والرحمة فهداهم ووفقهم لاعمال أهل الجنة وخلق أقواما للضلالة والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية ولما ذكر تعالى القصص الكثيرة فى هذه السورة ذكر نوعين من الفائدة أولهما تثبيت الفؤاد بقوله تعالى (وكلا) اى وكل نبأ (نقص عليك) وقوله تعالى (من أنباء الرسل) اى نخبرك به بيان لكل وقوله تعالى (ما نثبت به فؤادك) بدل من كلا ومعنى تثبيت فؤاده زيادة يقينه وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الاذى وذلك لان الانسان اذا ابتلى بمحنة وبلية فاذا رأى له فيه مشاركا خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت واذا سمع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القصص وعلم ان حال جميع الانبياء مع اتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الاذى من قومه وأمكنه الصبر عليه * الفائدة الثانية قوله تعالى (وجاءك فى هذه الحق) اى فى السورة وعليه الاكثر أو فى هذه الانباء المقتصة فيها وقال الحسن فى هذه الدنيا قال الرازى وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع لانه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير لها (فان قيل) قد جاء الحق فى غير هذه السورة بل القرآن كله حق وصدق (أجيب) بانه انما خصها بالذكر تشريفا لها (وموعظة وذكرى للمؤمنين) وخصهم بالذكر لانتفاعهم بذلك بخلاف الكفار فذكر تعالى أمورا ثلاثة الحق والموعظة والذكرى أما الحق فهو اشارة الى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وأما الموعظة فهى اشارة الى التنفير عن الدنيا وتقبيح أحوالها وأما الذكرى فهى اشارة الى الارشاد الى الاعمال النافذة الصالحة فى الدار الآخرة * ولما بالغ تعالى الغاية فى الانذار والاعذار والترغيب والترهيب أتبع ذلك بان قال لرسوله صلى الله عليه وسلم (وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم) اى حالتكم وفيه وعيد وتهديد وان كانت صيغته صيغة الامر فهو كقوله تعالى لابليس واستفزز من استطعت

لان العذاب فى قصة الاولين تأخر عن وقت الوعيد فناسب الاتيان بالواو وفى قصة الآخرين وقع العذاب عقب الوعيد فناسب الاتيان بالفاء الدالة على التعقيب (قوله فان تولوا فقد

منهم

منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وقرأ شعبة بعد النون بألف على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد (انا عاملون) أي على حالتنا التي أمرنا بها ربنا (وانتظروا) أي ما يعدكم الشيطان به من الخذلان (انا منتظرون) أي ما يحل بكم من نقم الله تعالى وعذابه نحو ما نزل على أمثالكم وقيل انا منتظرون ما وعدنا الرحمن من أنواع الغفران والاحسان ثم انه تعالى ذكر خاتمة شريفة عالية جامعة لكل المطالب الشريفة المقدسة فقال (ولله غيب السموات والارض) أي علم ما غاب فيهما فعلمه سبحانه وتعالى نافذ في جميع مخلوقاته خفيها وجليها (واليه) أي لا الى غيره (يرجع الامر كله) أي اليه يرجع أمر الخلق كلهم في الدنيا والآخرة وقرأ نافع وحفص بضم الياء وفتح الجيم على البناء للمفعول والباقون بفتح الياء وكسر الجيم ولما كان أول درجات السير الى الله تعالى عبوديته وآخرها التوكل عليه قال تعالى (فاعبده) ولا تشتغل بعبادة غيره (وتوكل عليه) أي ثق به في جميع أمورك فانه كافيك (وما ربك بغافل عما تعملون) فيحفظ على العباد أعمالهم لا يخفى عليه شيء منها فيجزي المحسن باحسانه والمسيء باساءته وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة * (فائدة) * قال كعب الاحبار خاتمة التوراة خاتمة سورة هود وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة هود أعطي من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح ومن كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وابراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء حديث موضوع

سورة يوسف عليه السلام مكية

مائة واحدى عشرة آية وعدد كلماتها ألف وتسعمائة وست وتسعون كلمة
وعدد حروفها سبعة آلاف ومائة وستة وستون حرفا

(بسم الله) الذي وسع كل شيء قدرة وعلما (الرحمن) لجميع خلقه المبين لهم طريق الهدى (الرحيم) الذي خص حزبه بالابعاد عن مواطن الردى وقوله تعالى (الر) تقدم الكلام على أوائل السور وأول سورة البقرة وقرأ ورش بالامالة بين بين وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي بالامالة محضة والباقون بالفتح واختلف في سبب نزول هذه السورة فعن سعد بن جبير أنه قال لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتلوه على قومه فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فنزل الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها فقالوا لو ذكرتنا فنزل ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وعن ابن عباس انه قال سألت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف فنزلت هذه السورة وقوله تعالى (تلك) اشارة الى آيات هذه السورة أي تلك الآيات التي أنزلت اليك في هذه السورة المسماة بالر هي (آيات الكتاب) أي القرآن (المبين) أي المبين فيه الهدى والرشد والحلال والحرام المظهر للحق من الباطل الذي ثبت فيه قصص الاولين والآخرين وشرحت فيه أحوال المتقدمين (انا أنزلناه) أي الكتاب (قرآنا عربيا) أي بلغة العرب لكي يعلموا معانيه ويفهموا ما فيه روي ان علماء اليهود قالوا لكبراء

(ابلغتكم) جواب الشرط محذوف ان الابلاغ ليس هو الجواب لتقدمه على توليهم وانما هو متعلق الجواب والتقدير فقل لهم قد ابلغتكم (قوله ونجيناهم من عذاب غليظ)

المشركين اسألوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن كيفية قصة يوسف فأنزل الله تعالى هذه الآية وذكر فيها انه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها والتقدير انا أنزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف حال كونه قرآنا عربيا وسمى بعض القرآن قرآنا لان القرآن اسم جنس يقع على الكل والبعض (لعلكم) يا أهل مكة (تعقلون) اى أرادة ان تفهموا وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته واختلف العلماء هل فى القرآن شئ بغير العربية فقال أبو عبيدة من زعم ان فى القرآن لسانا غير العربية فقد أعظم على الله القول واحتج بهذه الآية انا أنزلناه قرآنا عربيا وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة ان فيه من غير لسان العرب مثل سجيل ومشكاة واليم واستبرق وجمع بعض المفسرين بين القولين بأن هذه الالفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة وان كانت غير عربية فى الاصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت اليهم وصارت لهم لغة وهو جمع حسن (نحن نقص عليك أحسن القصص) اى أحسن الاقتصاص لانه اقتص على أبدع الاساليب والقصص اتباع الخبر بعضه بعضا وأصله فى اللغة من قص الاثر اذا اتبعه وانما سميت الحكاية قصة لان الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيأ فشيأ والمعنى انا نبين لك يا محمد أخبار الامم السالفة و القرون الماضية أحسن البيان أو قصة يوسف عليه السلام خاصة وسماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التى تصلح للدين والدنيا وما فيها من سير الملوك والمماليك والغلمان ومكر النساء والصبر على ايذاء الاعداء وحسن التجاوز عنهم بعد اللقاء وغير ذلك قال خالد بن معدان فى سورة يوسف ومريم يتفكه فيهما أهل الجنة فى الجنة وقال ابن عطاء لا يسمع سورة يوسف محزون الا استراح اليها (بما) اى بسبب ما (أوحينا) اى بايحائنا (اليك) يا محمد (هذا القرآن) الذى قالوا فيه انه مفترى فضمن تتابع القصص القصة بعد القصة حتى لا يشك شاك ولا يمترى ممتر أنه من عند الله (وان كنت من قبله) اى ايحائنا اليك أو هذا القرآن (لمن الغافلين) اى عن قصة يوسف واخوته لانه صلى الله عليه وسلم انما علم ذلك بالوحى وقيل لمن الغافلين عن الدين والشريعة وان هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة بينها وبين النافية وقوله تعالى (اذ قال يوسف لابيه) بدل من أحسن القصص أو منصوب باضمار اذكر ويوسف اسم عبرى وقيل عربى ورد بانه لو كان عربيا لصرف وسئل أبو الحسن الاقطع عن يوسف فقال الاسف فى اللغة الحزن والاسيف العبد واجتمعا فى يوسف فسمى به وعن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم وقوله (يا أبت) أصله يا أبى فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما فى الزيادة ولذلك قلبها ابن كثير وابن عامر هاء فى الوقف ووقف الباقون بالتاء كالرسم وفى الوصل بالتاء للجميع وفتح التاء فى الوصل ابن عامر وكسرها الباقون (انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) قال أهل التفسير رأى يوسف عليه الصلاة والسلام فى منامه وكان ابن اثنتى عشرة سنة وقيل سبع عشرة وقيل سبع سنين ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر كأن أحد عشر كوكبا نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له وفسروا الكواكب باخوته وكانوا أحد عشر

كرر التحية لان المراد بالاولى تحيتهم من عذاب الدنيا الذى نزل بقوم هود وهى سموم أرسلها الله تعالى اليهم فقطعتهم عضوا عضوا وبالثانية تحيتهم من عذاب الآخرة الذى

يستضيئ بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس والقمر بابيه وأمه بجعل الشمس للام لانها مؤنثة والقمر للاب لانه مذكر والذي رواه البيضاوي تبعا للكشاف عن جابر من ان يهوديا قال للنبي صلى الله عليه وسلم أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف فاخبره باسمائها فقال اليهودي اي والله انها لاسماؤها قال ابن الجوزي انه موضوع وقوله (رأيتهم لي ساجدين) استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها فلا تكرار لان الرؤية الاولى تدل على انه شاهد الكواكب والشمس والقمر والثانية تدل على انه شاهد كونها ساجدة له وقال بعضهم انه لما قال اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر قيل له كيف رأيت قال رأيتهم لي ساجدين وقال آخرون يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤيا وهذا القائل لم يبين أن أيهما يحمل على الرؤية وأيهما يحمل على الرؤيا قال الرازي فذكر قولا مجملا غير مبين (فان قيل) قوله رأيتهم وقوله ساجدين لا يليق الا بالعقلاء والكواكب جمادات فكيف جاءت اللفظة المخصوصة بالعقلاء في حق الجمادات (أجيب) بأنها لما وصفت بالسجود صارت كأنها تعقل وأخبر عنها كما أخبر عمن يعقل كما قال تعالى في صفة الاصنام وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون وكما في قوله تعالى يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم (فان قيل) لم أفرد الشمس والقمر بالذكر مع أنهما من جملة الكواكب (أجيب) بانه أفردهما لفضلهما وشرفهما على سائر الكواكب كقوله تعالى وملائكته وجبريل وميكال وهل المراد بالسجود نفس السجود حقيقة أو التواضع كلاهما محتمل والاصل في الكلام حمله على الحقيقة قال أهل التفسير ان يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف عليه السلام فحسده اخوته لهذا السبب وظهر ذلك ليعقوب فلما رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها أن أبويه واخوته يخضعون له وخاف عليه حسدهم وبغيهم (قال) له أبوه (يا بني) بصيغة التصغير للشفقة أو لصغر سنه على ما تقدم وقرأ حفص في الوصل بفتح الياء والباقون بالكسر والتشديد للجميع (لا تقصص رؤياك على اخوتك) أي لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها (فيكيدوا لك كيدا) أي فيحتالوا في هلاكك (فان قيل) لم لم يقل فيكيدوك كما قال فكيدوني (أجيب) ان هذه اللام تأكيد للصلة كقوله للرؤيا تعبرون وكقوله نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك وقيل صلة كقوله لربهم يرهبون (ان الشيطان للانسان عدو مبين) أي ظاهر العداوة كما فعل بآدم وحواء فلا يألو جهدا في تسويلهم واثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على الكيد وعن أبي قتادة قال كنت أرى الرؤيا تمرضني حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا رأى أحدكم ما يحبه فلا يحدث به الا من يحب واذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتفل عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها فانها لا تضره وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فانها من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها واذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هي من الشيطان فليستعذ بالله من شرها ولا يذكرها لاحد فانها لا تضره وعن أبي رزين العقيلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءا من النبوة وهي على رجل طائر ما لم يحدث بها فاذا حدث بها سقطت قال وأحسبه قال ولا يحدث بها الا

استعقبه قوم هود بالكفر (قوله وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة) قاله هنا بذكر الدنيا وقال في قصة موسى بحذف هذه لعنة بحذفها اختصارا واكتفاء بما هنا (قوله وأخا

لبيبا أو حبيبا وانما أضيفت الرؤيا المحبوبة الى الله اضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة وان كانتا جميعا من خلق الله تعالى وتدبيره وارادته ولا فعل للشيطان فيهما ولكنه يحضر المكروهة ويرتضيها فيستحب اذا رأى الشخص فى منامه ما يحب أن يحدث به من يحب واذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم من شرها وليتفل ثلاثا وليتحول عن جنبه الآخر فانها لا تضره فان الله تعالى جعل هذه الاسباب سببا لسلامته من المكروه كما جعل الصدقة سببا لوقاية المال قال الحكماء ان الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب والرؤيا الجيدة انما يظهر تعبيرها بعد حين قالوا والسبب فيه ان رحمة الله تعالى تقتضى أن لا يحصل الاعلام بوصول الشر الا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل وأما الاعلام بالخير فانه يحصل متقدما على ظهوره بزمن طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير أكثر وأتم ولهذا لم تظهر رؤيا يوسف عليه السلام الا بعد أربعين سنة وهو قول أكثر المفسرين وقال الحسن البصرى كان بينهما ثمانون سنة حتى اجتمع عليه أبواه واخوته وخروا له ساجدين (وكذلك) اى وكما اجتباك ربك للاطلاع على هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكمال نفس (يجتبيك) اى يختارك ويصطفيك (ربك) بالدرجات العالية واجتباء الله تخصيصه بفيض الهى يحصل منه أنواع الكرامات بلا سعى من العبد وذلك مخصوص بالانبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين وقوله (ويعلمك) كلام مستأنف خارج عن التشبيه والتقدير وهو يعلمك (من) اى بعض (تأويل الاحاديث) من تأويل الرؤيا وغيرها من كتب الله تعالى والاخبار المروية عن الانبياء المتقدمين وكان يوسف عليه السلام فى تعبير الرؤيا وغيرها غاية والتأويل ما تؤول اليه عاقبة الامر (ويتم نعمته عليك) بالنبوة قال ابن عباس لان منصب النبوة اى مع الرسالة أعلى من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الانبياء فهذا من تمام النعمة عليهم لان جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة والنبوة فالكمال المطلق والتمام المطلق فى حق البشر ليس الا النبوة والرسالة وقيل يجتبيك بالنبوة ويتم نعمته عليك بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة أما سعادات الدنيا فالاكثار من الاولاد والخدم والاتباع والتوسع فى المال والجاه والاجلال فى قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد وأما سعادات الآخرة فالعلوم الكثيرة والاخلاق الفاضلة والاستغراق فى معرفة الله تعالى (وعلى آل يعقوب) اى أولاده وهذا يقتضى حصول تمام النعمة لآل يعقوب وتمام النعمة هو النبوة والرسالة كما مر فلزم حصولها لآل يعقوب وأيضا ان يوسف عليه السلام قال انى رأيت أحد عشر كوكبا وكان تأويله أحد عشر نفسا لهم فضل وكمال ويستضىء بعلمهم ودينهم أهل الارض لانه لا شئ أضوأ من الكواكب وبها يهتدى وذلك يقتضى أن تكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلا (فان قيل) كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه فى حق يوسف عليه السلام (أجيب) بان ذلك وقع منهم قبل النبوة والعصمة من المعاصى انما تعتبر بعد النبوة لا قبلها على خلاف فيه (كما أتمها على أبويك) بالنبوة والرسالة وقيل اتمام النعمة على ابراهيم عليه السلام خلاصه من النار واتخاذه خليلا وعلى اسحق خلاصه من الذبح وفداؤه بذبح

عظيم

الذين ظلموا الصيحة) قاله هنا فى قصة صالح بلا تاء وقاله بها بعد فى قصة شعيب وكل صحيح لكن اختص الثانى بها لان قوم شعيب وقع الاخبار عن عذابهم

عليم على قول ان اسحق هو الذبيح (من قبل) أى من قبل هذا الزمان وقوله (ابراهيم واسحق)
عطف بيان لابويك ثم ان يعقوب عليه السلام لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام
بقوله (ان ربك عليم) أى بليغ العلم (حكيم) أى بليغ الحكمة وهى وضع الاشياء فى أتقن
مواضعها (لقد كان فى) خبر (يوسف واخوته) وهم أحد عشر يهوذا وروبيل وشمعون
ولاوى وزبلون قال البقاعى بزاى وباء موحدة ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهى ابنة
خال يعقوب وولد له من سريتين احداهما زلفى والاخرى بلهم كذا قاله البغوى وقال الرازى
والاخرى بلهمة أربعة اولاد وأسماؤهم دان ونفتالى قال البقاعى بنون مفتوحة وفاء ساكنة
ومثناة فوقية ولام بعدها ياء وجاد وأشر ثم توفيت ليا فتزوج بأختها راحيل فولدت له يوسف
وبنيامين وقيل جمع بينهما ولم يكن الجمع محرما حينئذ (آيات) اى علامات ودلائل على قدرة
الله تعالى وحكمته فى كل شئ (للسائلين) عن قصصهم قال الرازى ولمن لم يسأل عنها وهو كقوله
تعالى فى أربعة أيام سواء للسائلين وقيل آيات على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك أن اليهود
سألوه عن قصة يوسف وقيل سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من ارض كنعان الى ارض
مصر فذكر لهم قصة يوسف فوجدوها موافقة لما فى التوراة فعجبوا منه فكان دلالة على
نبوته صلى الله عليه وسلم لانه لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يجالس العلماء واصحاب الاخبار ولم
يأخذ عنهم شيأ فدل ذلك على أن ما يأتى به وحى سماوى أوحاه الله تعالى اليه وعرفه به وهذه
السورة تشتمل على انواع من العبر والمواعظ والحكم منها رؤيا يوسف عليه السلام وما حقق
الله تعالى فيها من حسد اخوانه وما آل اليه امره من الملك ومنها ما اشتمل على حزن يعقوب
وصبره على فقد ولده وما آل اليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات التى اذا فكر فيها
الانسان اعتبر وقرأ ابن كثير آية على التوحيد والباقون على الجمع (اذ) أى واذكر اذ (قالوا)
أى بعض اخوة يوسف لبعض بعد أن بلغتهم الرؤيا وقالوا ما رضى أن تسجد له اخوته حتى
يسجد له أبواه (ليوسف واخوه) اى بنيامين (أحب الى ابينا منا) اللام لام الابتداء وفيها
تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أرادوا ان زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه وخبر المبتدا
أحب ووحد لان افعل يستوى فيه الواحد وما فوقه مذكرا كان أو مؤنثا اذا لم يعرف ولم
يضف وقيل اللام لام قسم تقديره والله ليوسف وانما قالوا وأخوه وهم جميعا اخوته لان
أمهما كانت واحدة والواو فى قولهم (ونحن عصبة) واو الحال أى يفضلهما فى المحبة علينا
وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة ونحن جماعة أقوياء نقوم بمرافقه فنحن أحق
بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما والعصبة والعصابة العشرة فما فوقها
وقيل الى الاربعين سموا بذلك لانهم جماعة تعصب بهم الامور ويستكفى بهم النوائب (ان
أبانا لفى ضلال) اى خطأ (مبين) اى بين فى ايثاره حب يوسف واخيه علينا والقرب المقتضى
للحب فى كلنا واحد لانا فى البنوة سواء ولنا مزية تقتضى تفضيلنا وهى أنا عصبة لما من النفع
له والذب عنه والكفاية ما ليس لهما * (تنبيه) * ههنا سؤالات * الاول ان من المعلوم أن
تفضيل بعض الاولاد على بعض يورث الحقد والحسد فلم أقدم يعقوب عليه السلام على ذلك
(أجيب) بانه انما فضلهما فى المحبة والمحبة ليست فى وسع البشر فكان معذورا فيها ولا يلحقه

بثلاثة ألفاظ مؤنثة فى
الاعراف والعنكبوت
فأخذتهم الرجفة وهنا
الصيحة وفى الشعراء الظلة
وقعت لهم الثلاثة فى ثلاثة
أوقات (قوله فاسر باهلك بقطع

فى ذلك لوم * الثانى كيف اعترضوا على أبيهم وهم يعلمون انه نبى وهم مؤمنون به وأجيب بانهم
وان كانوا مؤمنين بنبوته لكن جوزوا أن يكون فعله باجتهاد ثم ان اجتهادهم أدى الى تخطئة
أبيهم فى ذلك الاجتهاد لكونهم أكبر سنا وأكثر نفعا وعابوا عليهم ان تخصيصهما بالبر كان
لوجوه أحدها أن أمهما ماتت ثانيها أنه كان فى يوسف من آثار الرشد والنجابة مالم يجده فى
سائر أولاده ثالثها أنه وان كان صغيرا الا أنه كان يخدم أباه بانواع من الخدمة أعلى وأشرف
مما كان يصدر عن سائر أولاده والحاصل أن هذه المسئلة كانت اجتهادية وكانت مخلوطة بميل
النفس وموجبات الفطرة فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين فى دين
الآخر الثالث أنهم نسبوا أباهم الى الضلال عن رعاية مصالح الدنيا والبعد عن طريق
الرشد لا الضلال فى الدين * الرابع أن قولهم ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا محض
حسد والحسد من أمهات الكبائر لا سيما وقد أقدموا بسبب ذلك الحسد على أمور مذمومة
منها قولهم (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) أى بحيث يحصل اليأس من اجتماعه بابيه ومنها
القاؤه فى ذل العبودية ومنها أنهم أبقوا اباهم فى الحزن الدائم والاسف العظيم ومنها اقدامهم
على الكذب وكل ذلك يقدح فى العصمة والنبوة (أجيب) بما تقدم أن ذلك كان قبل النبوة
وقرأ نافع وابن كثير وهشام والكسائى بضم التنوين من مبين فى الوصل والباقون بالكسر
فان وقف القارئ على مبين وابتدأ بقوله اقتلوا يبتدئ بالضم للجميع وقولهم (يخل لكم
وجه أبيكم) جواب الامر أى يصف لكم وجه أبيكم فيقبل بكليته عليكم ولا يلتفت عنكم
الى غيركم ولا ينازعكم فى محبته أحد وقولهم (وتكونوا) مجزوم بالعطف على يخل لكم أو
منصوب باضمار أن (من بعده) اى قتل يوسف أو طرحه (قوما صالحين) بان تتوبوا الى الله
تعالى بعد فعلكم فانه يعفو عنكم وقال مقاتل يصلح أمركم فيما بينكم وبين أبيكم (قال
قائل منهم) هو يهوذا وكان أحسنهم رأيا فيه وهو الذى قال فلن أبرح الارض وقيل روبيل
وكان أكبرهم سنا (لا تقتلوا يوسف وألقوه) أى اطرحوه (فى غيابت الجب) اى فى اسفله
وظلمته والغيابة كل موضع ستر شيأ وغيبه عن النظر قال القائل

فان أنا يوما غيبتنى غيابتى * فسيروا بسيرى فى العشيرة والاهل

اراد غيابة حفرته التى يدفن فيها والجب البئر الكبيرة التى ليست مطوية سميت جبا لانها
قطعت قطعا ولم يحصل فيها شئ غير القطع من طى أو ما أشبهه وانما ذكر الغيابة مع الجب
دلالة على أن المشير أشار بطرحه فى موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين قال بعض
أهل العلم انهم عزموا على قتله وعصمه الله تعالى رحمة بهم ولو فعلوا الهلكوا أجمعين واختلف
فى موضع ذلك الجب فقال قتادة هو بيت المقدس وقال وهب هو بارض الاردن وقال مقاتل
هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وقرأ نافع بالف بين الباء والتاء على الجمع والباقون بغير
ألف على التوحيد (يلتقطه) أى يأخذه (بعض السيارة) جمع سيار اى المبالغ فى السير وذلك
الجب كان معروفا يرد عليه كثير من المسافرين فاذا أخذوه وذهبوا به الى ناحية أخرى فتستريح
منه (ان كنتم فاعلين) اى ما أردتم من التفريق فاكتفوا بذلك ولما أجمعوا على التفريق بين

من الليل) الآية استغنى
فيها الا الامر أذلك ولم يستثنوا
منها الى الطير اكتفاء باستثنائها
ثم قبله فى قوله انا لمنجوهم
أجمعين الا امرأته (قوله ولا

يوسف وأبيه بضرب من الحيل (قالوا) اعمالا للحيلة في الوصول اليه مستفهمين على وجه التعجب لانه كان أحس منهم السوء فكان يحذرهم عليه (يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف و) الحال (انا له لناصحون) أى قائمون بمصلحته وحفظه • (تنبيه) • اتفق القراء على اخفاء النون الساكنة عند النون المتحركة واتفقوا أيضا على ادغامها مع الاشمام (أرسله معنا غدا) أى الى الصحراء (نرتع) أى نتسع في أكل الفواكه ونحوها وأصل الرتع أكل البهائم في الخصب في زمن الربيع ويستعار للانسان اذا أريد به الاكل الكثير (ونلعب) روى أنه قيل لابي عمرو كيف يقولون نلعب وهم أنبياء فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء وأيضا جاز أن يكون المراد باللعب الاقدام على المباحات لاجل انشراح الصدر كما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجابر فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وأيضا كان لعبهم الاستباق والانتضال والغرض منه المحاربة والمقاتلة مع الكفار والدليل عليه قولهم انا ذهبنا نستبق وانما سموه لعبا لانه في صورته وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالنون فيهما والباقون بالياء وسكن العين أبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وكسرها الباقون في الوصل واقتبل وجه آخر وهو انه يثبت الياء في نرتع بعد العين وقفا ووصلا (وانا له لحافظون) أى بليغون في الحفظ له حتى نرده اليك سالما قال أبو حيان وانتصب غدا على الظرف وهو ظرف مستقبل يطلق على اليوم الذى يلى يومك وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد وأصل غد اغدو فحذفت الواو انتهى ثم ان يعقوب عليه السلام اعتذر لهم بعذرين الاول ما حكاه الله تعالى عنه بقوله (قال انى ليحزننى أن تذهبوا به) أى ذهابكم به والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب لانه كان لا يقدر أن يصبر عنه ساعة وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى والباقون بفتح الياء وضم الزاى والثانى قوله (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم به وكان يعقوب عليه السلام رأى في النوم أن الذئب شد على يوسف فكان يحذره فمن أجل هذا ذكر ذلك وكأنه لقنهم العلة وفي أمثال العرب البلاء موكل بالمنطق والمراد به الجنس وكانت أرضهم كثيرة الذئاب (قالوا) مجيبين عن الثانى بما يلين الاب لارساله مؤكدين لتطييب خاطره دالين على القسم بلامه (لئن أكله الذئب ونحن) أى والحال انا (عصبة) أى جماعة عشرة رجال بمثلهم تعصب الامور وتكفى الخطوب وأجابوا عن القسم بما أغنى عن جواب الشرط بقولهم (انا اذا) أى اذا كان هذا (لخاسرون) أى كاملون في الخسارة لانا اذا ضيعنا أخانا فنحن لما سواه من أموالنا أشد تضييعا وأعرضوا عن جواب الاول لان حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الاول وهو شدة حبه له فلما سمعوا ذلك المعنى تغافلوا عنه وأقله أن يقولوا ما فرجه الشح بفراقه يوما والسماح بفراقنا كل يوم وقرأ الذيب ورش والسوسى والكسائى بابدال الهمزة ياء وقفا ووصلا وحمزة وقفا لا وصلا والباقون بالهمزة وقفا ووصلا وقوله تعالى (فلما ذهبوا به) فيه اضمار واختصار تقديره فأرسله معهم فلما ذهبوا به (وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب) أى وعزموا على القائه فيها ولا بد من تقدير جواب وهو فجعلوه فيها وحذف الجواب في القرآن كثير بشرط أن يكون المذكور دليلا عليه وهنا كذلك قال وهب وغيره من أهل السير والاخبار ان اخوة يوسف قالوا له ما تشتاق أن تخرج معنا الى

(تنقصوا المكيال والميزان) هذا النهى يتضمن الامر بالايفاء وصرح به بعده فى قوله ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط وهو يتضمن النهى عن النقص ففى ذلك تأكيد على الحث

مواشينا ونتصيد ونستبق قال بلى قالوا فاسأل أباك أن يرسله معنا قال يوسف أفعل فدخلوا جميعا على أبيهم وقالوا يا أبانا ان يوسف قد أحب أن يخرج معنا اليه واشينا فقال يعقوب ما تقول يا بنى قال نعم يا أبت انى أرى من اخوتى اللين واللطف فأحب أن تأذن لى وكان يعقوب عليه الصلاة والسلام يكره مفارقته ويحب مرضاته فأذن له فأرسله معهم فلما خرجوا به من عند ابيهم جعلوا يحملونه على رقابهم وأبوهم ينظر اليهم فلما بعدوا عنه وصاروا الى الصحراء ألقوه على الارض واظهروا له ما فى أنفسهم من العداوة وأغلظوا له القول وجعلوا يضربونه فجعل كلما جاء الى واحد منهم واستغاث به يضربه فلم يرحمه منهم احد فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح يا أبتاه ويا يعقوب لو رأيت يوسف وما نزل به من اخوته لأحزنك ذلك وأبكاك يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وجعل يبكى بكاء شديدا فأخذه روبيل فجلد به الارض ثم جلس على صدره واراد قتله فقال له مهلا يا أخى لا تقتلنى فقال له يا ابن راحيل أنت صاحب الاحلام الكاذبة قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ولوى عنقه فاستغاث يوسف بيهوذا وقال له اتق الله فى وحل بينى وبين من يريد قتلى فادركته رحمة ورقة فقال يهوذا يا اخوتاه ما على هذا عاهدتمونى فانطلقوا به الى الجب ليطرحوه فيه فجاؤا به على بئر على غير الطريق واسع الاسفل ضيق الرأس فجعلوا يدلونه فى البئر فتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال يا اخوتاه ردوا على قميصى استتر به فى الجب فقالوا ادع الشمس والقمر والكواكب تخلصك وتؤنسك فقال انى لم أر شيئا فألقوه فيها وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة كانت فى البئر فقام عليها فنادوه فظن أنها رحمة أدركته فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمنعهم يهوذا من ذلك وكان يهوذا يأتيه بالطعام وبقى فيها ثلاث ليال (وأوحينا اليه) فى الجب فى صغره وهو ابن سبع عشرة سنة أو دونها كما أوحى الى يحيى وعيسى عليهما السلام فى صغرهما وفى القصص ان ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار جرد عن ثيابه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه اياه ودفعه ابراهيم عليه السلام الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب فى قصبة علقها على يوسف فأخرجها جبريل وألبسه اياها (لتنبئنهم) أى لتخبرنهم بعد هذا اليوم (بأمرهم) أى بصنعهم (هذا وهم لا يشعرون) اى انك يوسف لعلو شأنك وبعده عن اوهامهم وطول العهد المغير للهيآت كما قال تعالى فعرفهم وهم له منكرون والمقصود من ذلك تقوية قلبه وأنه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير مستوليا عليهم ويصيرون تحت امره ونهيه وقهره وروى انهم لما دخلوا عليه لطلب الحنطة عرفهم وهم له منكرون ودعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرنى هذا الجام انه كان لكم أخ من ابيكم يقال له يوسف فطرحتموه وقلتم لابيكم أكله الذئب وقيل لا يشعرون بايحائنا اليك وأنت فى البئر بانك ستخبرهم بصنيعهم هذا والفائدة فى اخفاء ذلك الوحى عنهم أنهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم وكانوا يقصدون قتله وقيل ان المراد من هذا الوحى الالهام كما فى قوله تعالى وأوحينا الى أم موسى وقوله تعالى وأوحى ربك الى النحل (و) لما كان من المعلوم أنه ليس بعد هذا الفعل الذى فعلوه الا الاعتذار (جاؤا أباهم) دون يوسف (عشاء) فى ظلمة الليل لئلا يتفرس أبوهم فى وجوههم اذا رآها فى ضياء النهار ضد ما جاؤا

على الزجر عن البخس وعلى الحث على العدل وقدم النهى على الامر لان دفع المفاسد آكد من جلب المصالح (قوله يوم يأتى الآية) بعيد لا تكلم نفس الا باذنه لقوله كل نفس تجادل عن

به من الاعتذار وقد قيل لا تطلب الحاجة في الليل فان الحياء في العينين ولا تعتذر بالنهار من
ذنب فتلجلج في الاعتذار (يبكون) والبكاء يجري بان الدمع من العين والآية تدل على أنه لا يدل
على الصدق لاحتمال التصنع روى ان امرأة حاكمت الى شريح فبكت فقال الشعبي يا أبا أمية
أما تراها تبكي فقال قد جاء اخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كذبة لا ينبغي للانسان أن يقضي
الا بالحق فعند ذلك فزع يعقوب عليه السلام فقال هل أصابكم في غنمكم شئ قالوا لا قال فما
فعل يوسف (قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق) قال الزجاج يسابق بعضنا بعضا في الرمي ومنه قوله
عليه الصلاة والسلام لا سبق الا في خف أو نصل أو حافر يعني بالنصل الرمي وقيل العدو
لنتبين أينا أسرع عدوا (وتركنا يوسف) أخانا (عند متاعنا) أي ما كان معنا مما نحتاج اليه
في ذلك الوقت من ثياب وزاد ونحو ذلك (فأكله) أي فتسبب عن انفراده أن أكله (الذئب
وما) أي والحال انك ما (أنت بمؤمن) أي بمصدق لما علموا أنه لا يصدقهم بغير أمارة (لنا ولو كنا
صادقين) في هذه القصة لمحبة يوسف عندك فكيف وأنت تسيء الظن بنا وقيل لا تصدقنا لانه
لا دليل لنا على صدقنا وان كنا صادقين عند الله تعالى (و) لما علموا أنه لا يصدقهم بغير أمارة
(جاؤا على قميصه) أي يوسف عليه السلام (بدم كذب) قال الفراء أي مكذوب فيه الا انه
وصفه بالمصدر على تقدير ذي كذب أو مكذوب أطلق على المصدر مبالغة لانه غير مطابق للواقع
لانهم ادعوا أنه دم يوسف عليه السلام والواقع أنه دم سخلة ذبحوها ولطخوا القميص بذلك
الدم قال القاضي ولعل غرضهم في نزع قميصه عند القائه في غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيدا
لصدقهم اذ يبعد ان يفعلوا ذلك طمعا في نفس القميص ولا بد في المعصية من أن يقترن بها
الخذلان فلو خرقوه مع لطخه بالدم لكان الاتهام أقوى فلما شاهد يعقوب عليه السلام
القميص صحيحا علم كذبهم روى أن يعقوب عليه السلام أخذ القميص منهم وألقاه على
وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا
أكل ابني ولم يمزق قميصه * (تنبيه) * على قميصه محله النصب على الظرفية كأنه قيل وجاؤا
فوق قميصه بدم كما تقول جاء على جماله بأحماله ولا يصح أن يكون حالا متقدمة لان حال المجرور
لا يتقدم عليه قال الشعبي قصة يوسف كلها في قميصه وذلك أنهم لما ألقوه في الجب نزعوا
قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على أبيه ولما شهد الشاهد قال ان كان قميصه قد من قبل ولما
أتى بقميصه الى يعقوب وألقي على وجهه ارتد بصيرا ثم ذكر تعالى ان اخوة يوسف لما ذكروا
ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم (قال) يعقوب عليه السلام (بل
سولت) أي زينت (لكم أنفسكم أمرا) ففعلتموه واختلف في السبب الذي عرف به كونهم
كاذبين على وجوه الاول أنه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم الثاني كان عالما بأنه حي لانه
عليه السلام قال ليوسف وكذلك يجتبيك ربك وذلك دليل على كذبهم في ذلك القول
الثالث أنه لما رأى قميصه صحيحا قال كذبتم لو أكله الذئب لخرق ثوبه وقيل انه لما قال ذلك
قال بعضهم بل قتله اللصوص فقال كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم الى قميصه أحوج منهم الى
قتله فلما اختلفت أقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم وقوله (فصبر جميل) مرفوع بالابتداء
لكونه موصوفا وخبره محذوف والتقدير فصبر جميل أولى من الجزع ومنهم من أضمر المبتدا

نفسها اى باذنه وقولا
بنافى ذلك قوله تعالى هذا
يوم لا ينطقون ولا يؤذن
لهم فيعتذرون لان فى
يوم القيامة مواقف ففى
بعضها لا يؤذن لهم فى
الكلام فيكفون عنه

قال الخليل الذي افعله صبر جميل وقال قطرب معناه فصبري صبر جميل وقال الفراء فهو صبر جميل وعن الحسن ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال صبر لا شكوى فيه فمن بث لم يصبر كما قال يعقوب انما أشكو بثي وحزني الى الله وقال مجاهد فصبر جميل من غير جزع وقال الثوري ان من الصبر ان لا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك ولا تزكي نفسك وروى ان يعقوب عليه السلام كان قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقة فقيل له ما هذا فقال طول الزمان وكثرة الاحزان فأوحى الله تعالى اليه يا يعقوب أتشكوني فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها في قصة الافك انها قالت والله لئن حلفت لا تصدقوني ولئن اعتذرت لا تعذروني فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وولده والله المستعان على ما تصفون فانزل الله تعالى في عذرها ما أنزل وقوله فصبر جميل يدل على ان الصبر على قسمين قد يكون جميلا وقد يكون غير جميل فالصبر الجميل ان ينكشف له ان هذا البلاء من الحق فاستغراقه في شهود نور المبلي يمنعه من الاشتغال بالشكاية من البلاء ولذلك قيل المحبة التامة لا تزداد بالوفاء ولا تنقص بالجفاء لانها لو ازدادت بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ وموصل النصيب لا يكون محبوبا بالذات بل بالعرض فهذا هو الصبر الجميل وأما الصبر لا للرضا بقضاء الله تعالى بل كان لسائر الاغراض فذلك الصبر لا يكون جميلا (فان قيل) الصبر على قضاء الله تعالى واجب وأما الصبر على ظلم الظالمين فغير واجب بل الواجب ازالته لا سيما في الضرر العائد الى الغير فلم صبر يعقوب على ذلك ولم يبالغ في البحث مع شدة رغبته في حضور يوسف ونهاية حبه له وكان من بيت عظيم شريف وكان الناس يعرفونه و يعتقدون فيه (اجيب) بانه يحتمل أن يكون منع من الطلب بوحي تشديدا للمحنة عليه وزيادة في اجره أو أنه لو بالغ في البحث لربما اقدموا على ايذائه ولم يمكنوه من الطلب والفحص فرأى ان الاصوب الصبر والسكوت وتفويض الامر بالكلية الى الله تعالى وقال (والله المستعان) اى المطلوب منه العون (على ما تصفون) أى تذكرون من امر يوسف والمعنى ان اقدامه على الصبر لا يكون الا بمعونة الله تعالى لان الدواعي النفسانية تدعوه الى اظهار الجزع وهي قوية والدواعي الروحانية تدعوه الى الصبر فكأن المحاربة وقعت بين الصنفين فما لم تحصل اعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة فقوله فصبر جميل يجري مجرى قوله اياك نعبد وقوله والله المستعان على ما تصفون يجري مجرى قوله واياك نستعين ولما اراد الله تعالى خلاص يوسف من الجب بين سببه بقوله تعالى (وجاءت سيارة) وهم القوم المسافرون سموا بذلك لانهم يسيرون في الارض وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فاخطؤا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق فهبطوا على ارض فيها جب يوسف وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران اى لم يكن الا للرعاة وروى ان ماءه كان ملحا فعذب حين القي يوسف فيه فلما نزلوا ارسلوا رجلا يقال له مالك بن ذعر لطلب الماء فذلك قوله تعالى (فأرسلوا واردهم) اى الذي يرد الماء ليستقي منه والوارد هو الذي يتقدم الرفقة الى الماء فيهيئ الارشية والدلاء (فأدلى) اى أرسل (دلوه) في البئر يقال أدليت الدلو اذا ارسلتها في البئر ودلوتها اذا اخرجتها والدلو معروف والجمع الدلاء فلما أرسلها تعلق بالحبل يوسف عليه السلام فلما خرج فاذا هو بغلام احسن ما يكون قال صلى

وفي بعضها يؤذن لهم فيه فيشكون (قوله فمنهم شقي وسعيد) ان قلت من للتبعيض ومعلوم ان الناس كلهم اما شقي أو سعيد فما معنى التبعيض (قلت) لان أهل التبعيض صحيح

الله عليه وسلم أعطى يوسف شطر الحسن ويقال انه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت جدته قد أعطيت سدس الحسن قال ابن اسحق ذهب يوسف وامه بثلثي الحسن وحكى الثعلبي عن كعب الاحبار قال كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوى الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان اذا تبسم رأيت النور من ضواحكه واذا تكلم رأيت شعاع النور من ثناياه لا يستطيع احد وصفه وكان حسنه كضوء النهار عند الليل وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله وصوره قبل ان يصيب الخطيئة فلما رآه مالك بن ذعر (قال يا بشراى هذا غلام) نادى البشرى بشارة لنفسه كأنه قال تعالى فهذا أوانك وعن الاعمش انه قال دعا امرأة اسمها بشرى فقال يا بشرى وعن السدي أن المدلي نادى صاحبه وكان اسمه بشرى فقال يا بشرى كما قرأه حمزة وعاصم والكسائي فانهم قرؤا بحذف الياء بعد الالف والباقون باثبات الياء وقيل ذهب به فلما دنا من أصحابه صاح بذلك وروى ان جدران البئر كانت تبكي على يوسف حين اخرج منها واختلف في ضمير (وأسروه بضاعة) الى من يعود وفيه قولان الاول انه عائد الى الوارد واصحابه أخفوا من الرفقة انهم وجدوه بالجب وذلك أنهم قالوا ان قلنا للسيارة التقطناه شاركونا وان قلنا اشتريناه سألونا الشركة فالاصوب ان نقول ان اهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر والثاني ونقل عن ابن عباس أنه قال وأسروه يعني اخوة يوسف أسروا شأنه وذلك ان يهوذا كان يأتيه بالطعام كل يوم فلم يجده في البئر فاخبر اخوته فطلبوه فاذا هم بمالك بن ذعر واصحابه نزول فأتوهم فاذا هم بيوسف فقالوا هذا عبد لنا أبق منا وتابعهم يوسف على ذلك لانهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية قال الرازي والاول أولى لان قوله وأسروه بضاعة يدل على ان المراد انهم أسروه حال ماحكموا بانه بضاعة وذلك انما يليق بالوارد لا باخوة يوسف * (تنبيه) * البضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت الشيء اذا قطعته قال الزجاج وبضاعة منصوب على الحال كانه قال وأسروه حال ما جعلوه بضاعة * ولما جعل تعالى هذا البلاء سببا لوصوله الى مصر ثم صارت وقائعه الى ان صار ملكا بمصر وحصل ذلك الذي رآه في النوم فكان العمل الذي عمله الاعداء في دفعه عن ذلك المطلوب صيره الله تعالى سببا لحصول ذلك المطلوب فلهذا المعنى قال تعالى (والله عليم) أي بالغ العلم (بما يعملون) اي لم يخف عليه ما فعلوه بيوسف وأبيهم (وشروه) اي باعوه اذ قد يطلق لفظ الشراء على البيع يقال شريت الشيء بمعنى بعته وانما حمل هذا الشراء على البيع لان الضمير في شروه وفي كانوا فيه من الزاهدين يرجع الى شيء واحد وذلك ان اخوته زهدوا فيه فباعوه وقيل ان الضمير يعود الى مالك بن ذعر واصحابه وعلى هذا يكون لفظ الشراء على بابه وقال محمد بن اسحق ربك اعلم أ اخوته باعوه ام السيارة واختلفوا في معنى قوله تعالى (بثمن بخس) فقال الضحاك اي حرام لان ثمن الحر حرام وسمى الحرام بخسا لانه مبخوس البركة وقال ابن مسعود اي زيوف وقال عكرمة اي بثمن قليل ويدل لهذا قوله تعالى (دراهم معدودة) لانهم كانوا في ذلك الزمان لا يزنون ما كان أقل من اربعين درهما انما كانوا يأخذون ما دونها عدا فاذا بلغتها وهي اوقية

القيامة ثلاثة اقسام قسم شقي وهم اهل النار وقسم سعيد وهم اهل الجنة وقسم لا شقي ولا سعيد وهم اهل الاعراف وان كان مصيرهم الى الجنة كما قال البارزي وغيره

وزنوها واختلفوا في عدة تلك الدراهم فقال ابن عباس كانت عشرين درهما فاقتسموها درهمين درهمين وعلى هذا لم يأخذ أخوه بنيامين شقيقه منها شيأ وقال مجاهد كانت اثنين وعشرين درهما وقال عكرمة أربعين درهما (وكانوا) اى اخوته (فيه) اى يوسف (من الزاهدين) لانهم لم يعلموا منزلته عند الله تعالى ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان في كذا اذا لم يرغب فيه وأصله القلة يقال رجل زهيد اذا كان قليل الطمع وقيل كانوا في الثمن من الزاهدين لانهم لم يكن قصدهم تحصيل الثمن وانما كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه وقيل الضمير في كانوا للسيارة لانهم التقطوه والملتقط للشئ متهاون به خائف من انتزاعه مستعجل في بيعه لا جرم باعوه بأوكس الاثمان روى في الاخبار ان مالك بن ذعر انطلق هو وأصحابه بيوسف وتبعهم اخوته يقولون استوثقوا منه لانه آبق فذهبوا به حتى اتوا مصر وعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير أو اطفير وهو العزيز الذى كان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العمالقة وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف الى الاسلام فأبى واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة واقام في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله تعالى العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل كان الملك في ايامه فرعون موسى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من اولاد فرعون يوسف وقيل اشتراه العزيز بعشرين دينارا وزوجى نعل وثوبين أبيضين وقال وهب بن منبه قدمت السيارة بيوسف مصر فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريرا وكان وزنه اربعمائة رطل وكان عمره حينئذ سبع عشرة سنة وقيل ثلاث عشرة سنة فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن فذلك قوله تعالى (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته) واسمها زليخا وقيل راعيل (أكرمى مثواه) قال الرازى اعلم ان شيأ من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ولم يثبت ايضا في خبر صحيح وتفسير كتاب الله تعالى لا يتوقف على شئ من هذه الروايات فالأليق بالعاقل ان يحترز من ذكرها انتهى ولكن البغوى ذكرها وتبعه على ذلك جماعة من المفسرين واللام في امرأته متعلقة بقال لا باشتراه والمثوى موضع الاقامة اى اجعلى منزله ومقامه عندنا كريما اى حسنا مرضيا بدليل قول يوسف انه ربى احسن مثواى والمراد تفقديه بالاحسان وتعهديه بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ساكنة في كنفنا قال المحققون امر العزيز امرأته باكرام مثواه دون اكرام نفسه يدل على انه كان ينظر اليه على سبيل الاجلال والتعظيم وهو كما يقال سلام الله على المجلس العالى ولما امرها باكرام مثواه علل ذلك بان قال (عسى أن ينفعنا) اى يقوم باصلاح مهماتنا أو نبيعه بالربح ان اردنا بيعه (أو نتخذه ولدا) اى نتبناه وكان حصورا ليس له ولد قال ابن مسعود افرس الناس ثلاثة العزيز في يوسف حيث قال لامرأته أكرمى مثواه عسى ان ينفعنا وابنة شعيب حين قالت لابيها في موسى استأجره وأبو بكر في عمر حيث استخلفه (وكذلك) اى وكما

(قوله خالدين فيها مادامت السموات والارض) ان قلت كيف قال ذلك مع ان السموات والارض تفنيان وذلك ينافى الخلود الدائم (قلت) هذا خرج مخرج الالفاظ التى تعبر العرب بها

نجيناه من القتل والجب وعطفنا عليه قلب العزيز (مكنا ليوسف فى الارض) اى أرض مصر قال البقاعى التى هى كالارض كلها لكثرة منافعها بالالتذاذ فيها التمكنه من الحكم بالعدل والنبوة وقوله تعالى (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) اى تعبير الرؤيا عطف على مقدر متعلق بمكنا أى لنمكنه أو الواو زائدة (والله غالب على أمره) اى الامر الذى يريده لانه تعالى فعال لما يريد ولا دافع لقضائه ولا مانع من حكمه فى ارضه وسمائه أو على امر يوسف اراد اخوته قتله فغلب امره عليهم وأرادوا أن يلتقطه بعض السيارة لينْدرس اسمه فغلب امره وظهر اسمه واشتهر ثم باعوه ليكون مملوكا فغلب الله امره حتى صار ملكا وسجدوا بين يديه ثم أرادوا أن يضروا أباهم ويطيبوا قلبه حتى يخلو لهم وجهه فغلب امره تعالى فاظهره على مكرهم واحتالت عليه امرأة العزيز لتخدعه عن نفسه فغلب امره تعالى فعصمه حتى لم يهم بسوء بل هرب منه غاية الهرب ثم بذلت جهدها فى اذلاله والقاء التهمة عليه فابى الله تعالى الا اعزازه وبراءته ثم اراد يوسف عليه السلام ذكر الساقى له فغلب امره تعالى فانساه ذكره حتى مضى الاجل الذى ضربه الله تعالى له وكم من امر كان فى هذه القصة وفى غيرها يرشد الى أنه لا امر لغيره (ولكن أكثر الناس) وهم الكفار (لا يعلمون) أن الامر كله بيد الله تعالى أو أن أكثر الناس لا يعلمون ما هو صانع بيوسف وما يريد منه فمن تامل فى الدنيا وعجائب احوالها عرف وتيقن ان الامر كله لله وان قضاء الله تعالى غالب ولما بين تعالى ان اخوته أساؤا اليه وصبر على تلك الشدائد والمحن ومكنه فى الارض أتبعه الامر بتمام النعمة عليه بقوله تعالى (ولما بلغ أشده) اى منتهى شبابه وقوته وشدته تقول العرب بلغ فلان اشده اذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته وهذا اللفظ مستعمل فى الواحد والجمع يقال بلغ فلان اشده وبلغوا اشدهم وهو ثلاث وثلاثون سنة وقال السدى بلغ ثلاثين سنة وقال الضحاك عشرين سنة وقال الكلبى الاشد ما بين ثمانية عشر الى ثلاثين وقيل اقصاه اثنان وستون سنة قال الاطباء ان الانسان يحدث فى اول الامر ويتزايد كل يوم شيأ فشيأ الى ان ينتهى الى غاية الكمال ثم يأخذ فى التراجع الى ان ينتهى الى العدم والمحاق كالقمر (آتيناه حكما) اى حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل او حكما بين الناس (وعلما) اى علم تأويل الاحاديث وقيل المراد بالحكم النبوة والرسالة وتقدم أن قوله تعالى واوحينا اليه وحى حقيقة قال الرازى فلا يبعد ان يقال ان ذلك الوحى اليه فى ذلك الوقت لا لاجل بعثته الى الخلق بل لاجل تقوية قلبه وازالة الحزن عن صدره ولاجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام (وكذلك) اى ومثل ذلك الجزاء الذى جزيناه به (نجزى المحسنين) قال ابن عباس يعنى المؤمنين وعنه ايضا يعنى المهتدين وقال الضحاك يعنى الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عليه السلام وعن الحسن من أحسن عبادة ربه فى شبيبته آتاه الله الحكمة فى اكتهاله ولما اخبر تعالى ان سبب النعمة عليه احسانه اتبعه دليله فقال تعالى (وراودته التى هو فى بيتها) اى امرأة العزيز راودت يوسف (عن نفسه) لانها لما رأته فى غاية الحسن والجمال طمعت فيه ويقال ان زوجها كان عاجزا والمراودة مفاعلة من راد يرود اذا جاء وذهب كأن المعنى خادعته عن نفسه أى فعلت

عن ارادة الدوام دون التأقيت كقولهم لا افعل هذا ما اختلف الليل والنهار وما دامت السموات والارض تريد لا افعله ابدا وانهم خوطبوا على

مايفعل المخادع لصاحبه عن الشئ الذى لايريد ان يخرجه من يده يحتال ان يغلبه عليه ويأخذه منه وهو عبارة عن التمحل لمواقعته اياها (وغلقت الابواب) اى أطبقتها وكانت سبعة والتشديد للتكثير أو للمبالغة فى الايثاق لان مثل هذا الفعل لا يكون الا فى ستر وخفية لاسيما اذا كان حراما ومع قيام الخوف الشديد (وقالت) له (هيت) اى تهيأت وتصنعت (لك) خاصة فاقبل الى وامتثل أمرى قال الواحدى هيت لك اسم للفعل نحو رويد وصه ومه ومعناه هلم فى قول جميع أهل اللغة وقرأ نافع وابن عامر بكسر الهاء والباقون بالفتح وقرأ هشام بعد الهاء بهمزة ساكنة والباقون بياء ساكنة وقرأ ابن كثير بضم التاء وفتحها والباقون بالفتح (قال) لها يوسف عليه السلام (معاذ الله) اى أعوذ بالله واعتصم به وألجأ اليه مما تدعينى اليه (انه) أى الذى اشترانى (ربى) اى سيدى (أحسن مثواى) اى اكرم منزلى فلا اخونه فى أهله وقيل انه اى الله ربى احسن مثواى اى آوانى ومن بلاء الجب أنجانى (انه لايفلح الظالمون) اى ان فعلت هذه الفعلة فانا ظالم ولا يفلح الظالمون (ولقد همت به وهم بها) اى قصدت مخالطته وقصد مخالطتها والهم بالشئ قصده والعزم عليه ومنه الهمام وهو الذى اذا هم بشئ امضاه والمراد بهمته ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختيارى وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والاجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم ولهذا قال بعض أهل الحقائق الهم قسمان هم ثابت وهو اذا كان معه عزم وعقد ورضا مثل هم امرأة العزيز فالعبد ماخوذ به وهم عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف عليه السلام والعبد غير ماخوذ به مالم يتكلم أو يعمل كما روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل اذا تحدث عبدى بان يعمل حسنة فانا أكتبها حسنة مالم يعملها فاذا عملها فانا أكتبها له بعشرة امثالها واذا تحدث بان يعمل سيئة فانا اغفرها له مالم يعملها فاذا عملها فانا أكتبها له بمثلها قال فى الكشاف ويجوز ان يريد بقوله وهم بها شارف ان يهم بها كما يقول الرجل قتلته لولم اخف الله يريد مشارفة القتل ومشافهته كانه شرع فيه (لولا ان رأى) اى بعين قلبه (برهان ربه) اى الذى آتاه اياه من الحكم والعلم أى لهم بها لكنه كان البرهان حاضرا له بحضور من يراه بالعين فلم يهم اصلا مع كونه فى غاية الاستعداد لذلك لما آتاه الله تعالى من القوة مع كونه فى سن الشباب فلولا المراقبة لهم بها لتوفر الدواعى غير أن نور الشهود محاها أصلا وهذا التقدير هو اللائق بمثل مقامه عليه السلام مع انه الذى تدل عليه اساليب هذه الآيات من جعله من المخلصين والمحسنين المصروف عنهم السوء وان السجن احب اليه من ذلك مع قيام القاطع على كذب ما تضمنه قولها ما جزاء من اراد باهلك سوأ الآية من مطلق الارادة ومع ما يصح من تقدير ماذكر بعد لولا فى خصوص هذا التركيب من اساليب كلام العرب فانه يجب ان يكون المقدر بعد كل شرط من معنى ما دل عليه ما قبله وهذا مثل قوله تعالى ان كادت لتبدى به لولا ان ربطنا على قلبها أى لأبدت به وأما ما ورد عن السلف مما يعارض ذلك من تفسيرهم بها بانه حل الهميان وجلس منها مجلس المجامع وبانه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الاربع وهى مستلقية على قفاها ومن تفسير البرهان بانه سمع

معتقدهم ان السموات والارض لا تفنيان اوان المراد سموات الآخرة وأرضها قال تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وتلك والجنة لا تفنى (فان قلت)

صوتا اياك واياها فلم يكترث له فسمعه ثانيا فلم يعمل به فسمعه ثالثا أعرض عنها فلم ينجع فيه
حتى مثل له يعقوب عاضا على أنملته وقيل ضرب بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله وقيل
كل ولد يعقوب ولد له اثنا عشر ولدا الا يوسف فانه ولد له أحد عشر ولدا من أجل ما نقص من
شهوته حين هم وقيل صيح به يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنى قعد لا ريش له وقيل
بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها وان عليكم لحافظين كراما كاتبين
فلم ينصرف ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فلم ينته ثم رأى فيها واتقوا
يوما ترجعون فيه الى الله فلم ينجع فيه فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام أدرك عبدي قبل
أن يدرك الخطيئة فانحط جبريل وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب
في ديوان الانبياء وقيل رأى تمثال العزيز وقيل قامت المرأة الى صنم كان هناك فسترته وقالت
أستحي أن يرانا فقال يوسف استحييت مما لا يسمع ولا يبصر ولا أستحي من السميع العليم
بذات الصدور فلم يصح منه شئ عن أحد منهم مع أن هذه الاقوال التي وردت عنهم اذا جمعت
تناقضت وتكاذبت قال الزمخشري وهذا ونحوه مما يورده أهل الجبر والحشو الذين دينهم
بهت الله وأنبيائه فأخزى الله أولئك في ايرادهم ما يؤدي الى أن يكون انزال الله السورة التي
هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدى بنبي من أنبياء الله تعالى فيما ذكروه
وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل وأطال في رد ذلك
وكذا فعل الرازي وقيل وهم بها أي بزجرها ووعظها وقيل هم بها أي غمه امتناعه منها وقيل
هم بها أي نظر اليها وقيل هم بضربها ودفعها وقيل هذا كله قبل نبوته وقد ذكر بعضهم
ما زال النساء يملن الى يوسف عليه السلام ميل شهوة حتى نبأه الله تعالى فألقى عليه هيبة
النبوة فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه (كذلك) أي مثل ذلك التثبيت نثبته في كل أمر
(لنصرف عنه السوء) أي الهم بالزنا وغيره (والفحشاء) أي الزنا وغيره وقيل السوء مقدمات
الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة والفحشاء هي الزنا فكأنه قيل لم فعل به هذا فقيل (انه
من عبادنا) أي الذين عظمناهم (المخلصين) أي في عبادتنا الذين هم خير صرف لا يخالطهم
غش وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام بعد الخاء والباقون بالفتح قال الرازي
فوروده باسم الفاعل دل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الاخلاص ووروده
باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه واصطفاه لحضرته وعلى كلا اللفظين فانه من أدل
الالفاظ على كونه منزها عما أضافوه اليه وهذا مع قول ابليس لاغوينهم أجمعين الا عبادك
منهم المخلصين شهادة من ابليس أن يوسف عليه السلام بريء من الهم فمن نسبه الى الهم
ان كانوا من أتباع دين الله فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وان كانوا من أتباع ابليس
وجنوده فليقبلوا شهادة ابليس على طهارته قال ولعلهم يقولون كنا في أول الامر تلامذة ابليس
الا أنا زدنا وبغرنا عليه في السفاهة كما قال الجزوري

وكنت فتى من جند ابليس فارتقى * بي الامر حتى صار ابليس من جندي
فلو مات قبلي كنت أحسن بعده * طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

ثم ذكر سبحانه وتعالى مبالغة في الامتناع بالجد في الهرب دليلا على اخلاصه وأنه لم يهم أصلا

اذا كان المراد بما ذكر الخلود الدائم فما معنى الاستثناء في قوله الا ما شاء ربك (قلت) هو استثناء من الخلود في عذاب اهل النار ومن الخلود في نعيم اهل الجنة لان أهل النار

فقال (واستبقا الباب) أى أوجدا المسابقة بغاية الرغبة من كل منهما هذا الهرب منها وهذه المنعه فكل منهما بذل أقصى جهده فى السبق فلحقته عند الباب الاقصى مع أنه قد كان سبقها بقوة الرجولية وقوة الداعية الى الفرار الى الله تعالى ولكن عاقه اتقانها المكر بكون الابواب كانت مغلقة فكان يشتغل بفتحها فتعلقت بأدنى ما وصلت اليه من قميصه وهو ما كان من ورائه خوف فواته فاشتدت نهاية مع اعراضه هو عنها وهربه منها فقصده فأراد الخروج فمنعته (و) لم تزل تنازعه حتى (قدت) أى شقت (قميصه) وكان القد (من دبر) أى الناحية من الخلف منه وانقطعت منه قطعة فبقيت فى يدها (والفيا) أى وجدا (سيدها) أى زوجها قطفير وهو العزيز تقول المرأة لبعلها سيدى ولم يقل سيدهما لان ملك يوسف لم يصح فلم يكن سيداله على الحقيقة (لدى) أى عند (الباب) جالسا مع ابن عم المرأة (فان قيل) كيف وحد الباب وقد جمعه فى قوله وغلقت الابواب (أجيب) بانه أراد الباب البرانى الذى هو المخرج من الدار والمخلص من العار فقد روى كعب الاحبار ان يوسف لما هرب جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الابواب فلما رأت المرأة ابن عمها هابته وخافت التهمة فسابقت يوسف بالقول و (قالت) لزوجها (ما جزاء من أراد باهلك سوأ) أى فاحشة زنا أو غيره ثم خافت عليه أن يقتل وذلك لشدة حبها له فقالت (الا أن يسجن) أى يحبس فى السجن ويمنع التصرف (أو عذاب أليم) أى مؤلم بأن يضرب بالسياط ونحوها وانما بدأت بالسجن قبل العذاب لان المحب لا يشتهى ايلام المحبوب وانما أرادت أن يسجن عندها يوما أو يومين ولم ترد السجن الطويل فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال يجب أن يجعل من المسجونين ألا ترى أن فرعون هكذا قال فى حق موسى عليه السلام فى قوله لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين فلما سمع يوسف عليه السلام مقالتها (قال) مبرئا نفسه (هى) بضمير الغيبة لاستحيائه مواجهتها باشارة أو ضمير خطاب (راودتنى عن نفسى) أى طلبت منى الفاحشة فأبيت وفررت منها وذلك أن يوسف عليه السلام ما كان يريد أن يذكر ذلك القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هى ما قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه وصدقه لعمرى فيما قال لا يحتاج الى بيان اكثر من الحال الذى كان فيه وهو أنهما عند الباب ولو كان الطلب منه لما كان الا فى محلها الذى تجلس فيه وهو صدر البيت وأشرف موضع فيه وأيضا هو عبد لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه الى هذا الحال وأيضا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه وأما يوسف فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس فكان الحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى ثم انه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلا آخر يقوى تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه برىء من الريب وأن المرأة هى المذنبة وهو قوله تعالى (وشهد شاهد من أهلها) اى وحكم حاكم من اهل المرأة واختلفوا فى هذا الشاهد فقال سعيد بن جبير والضحاك كان صبيا فى المهد أنطقه الله تعالى كرامة ليوسف عليه السلام وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال تكلم فى المهد أربعة وهم صغار شاهد يوسف وابن ماشطة بنت فرعون وعيسى ابن مريم وصاحب جريج الراهب رواه الامام أحمد وفى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج وصبى كان يرضع أمه فرأى راكبا حسن الهيئة

لا يخلدون فى عذابها وحده بل يعذبون بالزمهرير وأنواع أخر من العذاب وبما هو أشد من ذلك وهو سخط الله عليهم وأهل الجنة لا يخلدون فى نعيمها وحده بل ينعمون بالرضوان

الهيئة فقالت أمه اللهم اجعل ابنى مثل هذا فقال الصبى اللهم لا تجعلنى مثله وبهذا الاعتبار صار واحد وزاد الثعلبى سادساوهو يحيى بن زكريا عليهما السلام وزاد غيره على ذلك واهل الحصر فيما ذكر فى الحديث كان قبل العلم بالزيادة فلا تناقض وأوصلهم السيوطى الى أحد عشر ونظمهم فقال

تكلم فى المهد النبى محمد * ويحيى وعيسى والخليل ومريم
ومبرى جريج ثم شاهد يوسف * وطفل لدى الاخدود يرويه مسلم
وطفل عليه مر بالامة التى * يقال لها تزنى ولا تتكلم
وماشطة فى عهد فرعون طفلها * وفى زمن الهادى المبارك يختم

وقالت طائفة عظيمة من المفسرين انما كان لها ابن عم وكان رجلا حكيما واتفق فى ذلك الوقت أنه كان مع الملك يريد أن يدخل عليها فقال قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص الا أنا لا ندرى أيكما قدام صاحبه ولكن (ان كان قميصه قد من قبل) أى من قدام (فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر) أى من خلف (فكذبت وهو من الصادقين) لانه لولا ادباره منها واتباعها اياه لما وقع ذلك فعرف سيدها صحة ذلك بلا شبهة كما قال تعالى (فلما رأى) أى سيدها (قميصه) أى يوسف عليه السلام (قد من دبر قال) لها زوجها قطفير وقد قطع بصدقه وكذبها مؤكدا لاجل انكارها (انه) أى هذا القذف له (من كيدكن) معشر النساء والكيد طلب الانسان بما يكره (ان كيدكن عظيم) والعظيم ما ينقص مقدار غيره عنه حسا أو معنى (فان قيل) كيف وصف كيد النساء بالعظم مع قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا وهلا كان مكر الرجال أقوى من مكر النساء (أجيب) بأن الانسان ضعيف بالنسبة لخلق ما هو أعظم منه كخلق السموات والارض وبأن كيدهن أدق من كيد الرجال وألطف وأخفى لان الشيطان عليهن لنقصهن أقدر ومكرهن فى هذا الباب أعظم من كيد جميع البشر لان لهن من المكر والحيل والكيد فى اتمام مرادهن ما لا يقدر عليه الرجال فى هذا الباب ولان كيدهن فى هذا الباب يورث العار ما لا يورثه كيد الرجال * ولما ظهر للقوم براءة يوسف من ذلك الفعل المنكر حكى تعالى أنه قال (يوسف) أى يا يوسف (أعرض) أى انصرف بكليتك مجاوزا (عن هذا) الحديث فلا تذكره لاحد حتى لا يشيع وينتشر بين الناس ثم التفت الى المرأة وقال لها (واستغفرى لذنبك) أى توبى الى الله تعالى مما رميت يوسف به من الخطيئة وهو برىء منها (انك كنت من الخاطئين) أى الآثمين قال ابو بكر الاصم ان ذلك الزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار وقيل ان القائل المذكور هو الشاهد (فان قيل) كيف قال من الخاطئين بلفظ التذكير (أجيب) بأنه قال ذلك تغليبا للذكور على الاناث وأن المراد انك من نسل الخاطئين فمن ذلك النسل سرى ذلك العرق الخبيث فيك * ثم شاع الخبر واشتهر (وقال نسوة) أى وقال جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقى وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقى ولذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث وقوله (فى المدينة) أى مدينة مصر ظرف أى أشعن الحكاية فى مصر او صفة نسوة وقيل مدينة عين شمس (امرأت العزيز) وانما

والنظر الى وجهه الكريم وغير ذلك كما دل عليه عطاء غير مجذوذ أو والاعم في غير أى خالدين فيها مادامت السموات والارض غير ماشاء الله من الزيادة عليهما الى ما لا نهاية لها او الاعم فى

أضغنها الى زوجها ارادة لاشاعة الخبر لان النفس الى سماع أخبار أولى الاخطار أميل ويردن قطفير والعزيز الملك بلسان العرب ورسم امرأة بالتاء المجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالهاء والباقون بالتاء وأما الوصل فهو بالتاء للجميع (تراود فتاها) أي عبدها الكنعاني يقال فتاي وفتاتي أي عبدي وجاريتي (عن نفسه) أي تطلب منه الفاحشة وهو يمتنع منها (قد شغفها حبا) أي شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل الى فؤادها وحبا نصب على التمييز وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب قال النابغة

وقد حال هم دون ذلك والج • مكان الشغاف تبتغيه الاصابع

وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الشين والباقون بالادغام (انا لنراها) أي نعلم أمرها علما هو كالرؤية (في ضلال) أي خطأ (مبين) أي بين ظاهر حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر بسبب حبها اياه (فلما سمعت) زليخا (بمكرهن) أي قولهن وانما سمي ذلك مكرا لوجوه الاول ان النسوة انما ذكرن ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر الى وجهه لانهن عرفن أنهن اذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن الثاني ان زليخا أسرت اليهن حبها ليوسف عليه السلام وطلبت منهن كتمان هذا السر فلما أظهرن السر كان ذلك مكرا الثالث انهن وقعن في غيبتها والغيبة انما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر (أرسلت اليهن) تدعوهن لتقيم عذرها عندهن قال وهب اتخذت مادبة ودعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهن الخمس (وأعتدت) أي أعددت (لهن متكأ) أي طعاما يقطع بالسكين وهو الاترج وانما سمي الطعام متكأ لانه يتكأ عنده قال جميل

فظللنا بنعمة واتكأنا • وشربنا الحلال من قلله

والمتكأ ما يتكأ عليه عند الطعام والشراب والحديث لانهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك جاء النهي عنه في الحديث أن يأكل الرجل متكئا وقال صلى الله عليه وسلم لا آكل متكئا وقيل انها زينت البيت بالوان الفواكه والاطعمة ووضعت الوسائد ودعت النسوة اللاتي عيرنها بحب يوسف عليه السلام (وآتت) أي أعطت (كل واحدة منهن سكينا) أي لتأكل بها وكانت عادتهن أن يأكلن اللحم والفواكه بالسكين (وقالت) زليخا ليوسف عليه السلام (اخرج عليهن) أي النسوة وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهن يوسف وكانت قد زينته واختبأته في مكان وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي بكسر التاء في الوصل والباقون بالضم وأما الابتداء فجميع القراء يبتدؤن الهمزة بالضم (فلما رأينه) أي النسوة (أكبرنه) أي أعظمنه ودهشن عند رؤيته اتفق الاكثرون على انهن انما أكبرنه بجهتين الجمال الفائق والحسن الكامل وكان يوسف قد أعطي شطر الحسن وقال عكرمة كان فضل يوسف في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال رأيت يوسف ليلة أسري بي الى السماء كالقمر ليلة البدر ذكره البغوي بغير سند وقال ابن اسحق كان يوسف اذا سار في أزقة مصر يتلألأ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من الماء عليها ويقال انه ورث حسن آدم عليه السلام يوم خلقه الله تعالى قبل أن

الواو كقوله اني لا يخاف لدي المرسلون الا من ظلم (قوله وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) قال هنا بصيغة ليهلك لانه لما ذكر قوله بظلم نفي الظلم عن نفسه بابلغ لفظ يستعمل

يخرج من الجنة وقيل ورث الجمال من جدته سارة وقيل أكبرنه بمعنى حضن والهاء للسكت يقال أكبرت المرأة اذا حاضت وحقيقته دخلت فى الكبر لانها بالحيض تخرج من حد الصغر الى حد الكبر وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع ● فان لحت حاضت فى الخدور العواتق

وقيل أمنين قال الكميت

ولما رأته الخيل من رأس شاهق ● صهلن وأمنين المنى المدفقا

وقال الرازى انما أكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والاخبات وشاهدن فيه شهادة الهيبة وهيبة ملكية وهى عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة فوقع الرعب والمهابة منه فى قلوبهن (وقطعن أيديهن) أى جرحنها بالسكاكين التى معهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الاترج ولم يجدن الالم من فرط الدهشة بيوسف وقال وهب ماتت جماعة منهن (وقلن حاش لله) أى تنزيها له الرسم بغير ألف بعد الشين وقرأ أبو عمرو فى الوصل دون الوقف بألف بعد الشين والباقون بغير الف وقفا ووصلا (ما هذا) أى يوسف عليه السلام (بشرا) واعمال ما عمل ليس هى اللغة القدمى الحجازية ويدل عليها هذه الآية وقوله تعالى ما هنا أمهاتهم (ان) أى ما (هذا الاملك كريم) أى على الله لما حواه من الحسن الذى لا يكون عادة فى النسمة البشرية فان الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة (قالت) أى زليخا للنسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته (فذلكن) أى فهذا هو (الذى لمتننى فيه) اى فى محبته قبل ان تتصورنه حق تصوره ولو تصورتنه بما عاينتن لعذرتننى ثم انها صرحت بما فعلت فقالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) اى فامتنع من ذلك الفعل الذى طلبت وانما صرحت بذلك لانها علمت انها لا ملامة عليها منهن وانهن قد اصابهن ما اصابها عند رؤيته ثم قالت (ولئن لم يفعل ما آمره) اى وان لم يطاوعنى فيما ادعوته اليه (ليسجنن) اى ليعاقبن بالحبس (وليكونا من الصاغرين) اى الذليلين المهانين فقال النسوة ليوسف أطع مولاتك فيما دعتك اليه فاختار يوسف عليه السلام السجن على ما دعت اليه فلذلك (قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه) وان كان هذا مما تشتهيه النفس وذلك مما تكرهه نظرا الى العاقبة فان الاول فيه الذم فى الدنيا والعقاب فى الآخرة والثانى فيه المدح فى الدنيا والثواب الدائم فى الآخرة (فان قيل) ان الدعاء كان منها فلم اضافه اليهن جميعا (اجيب) بانهن خوفنه من مخالفتها وزين له مطاوعتها وقيل انهن دعونه الى انفسهن قال بعض العلماء لو لم يقل السجن احب الى لم يبتل بالسجن والاولى بالعبد ان يسأل الله تعالى العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الله الصبر بقوله لسألت الله البلاء فاسأله العافية رواه الترمذى (والا) اى وان لم (تصرف عنى كيدهن) اى فيما اردن منى بالتثبيت على العصمة (اصب) اى امل (اليهن) يقال صبا فلان الى كذا اذا مال اليه واشتاقه (واكن) اى أصر (من الجاهلين) أى من السفهاء بارتكاب ما يدعوننى اليه فان الحكيم لا يفعل القبيح وفى ذلك دليل على أن من ارتكب ذنبا انما يرتكبه عن جهالة والقصد بذلك الدعاء ولذلك قال تعالى (فاستجاب له ربه) اى فاجاب الله

في النفى لان اللام فيه لام الجحود والمضارع بعده الاستقبال فنفيها معا فعلت الظلم فيما مضى ولا أفعله فى الحال ولا فى المستقبل فكان غاية فى النفى وقاله فى القصص بدون ذكر ظالم

تعالى دعاءه الذي تضمنه هذا الثناء لان الكريم يغنيه التلويح عن التصريح كما قيل

اذا أثنى عليك المرء يوما * كفاه من تعرضه الثناء

(فصرف عنه كيدهن) اى ثبته بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن وآثرها على اللذة المتضمنة للعصيان (انه هو السميع) اى لدعاء الملتجئين اليه (العليم) اى للضمائر والنيات فيجيب ما صح فيه القصد وطاب منه العزم (ثم بدا) اى ظهر (لهم) اى العزيز واصحابه (من بعد ما رأوا الآيات) اى الدالة على براءة يوسف عليه السلام كشهادة الصبى وقد القميص وقطع النساء ايديهن واستعصامه عنهن (ليسجننه حتى) اى الى (حين) ينقطع فيه كلام الناس وذلك أن المرأة قالت لزوجها ان هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يقول لهم انى راودته عن نفسه وأنا لا اقدر على اظهار عذرى فاما ان تأذن لى فاخرج واعتذر واما ان تحبسه كما حبستنى فعند ذلك وقع فى قلب العزيز أن الاصلح حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة فسجنه * (تنبيه) * فى فاعل بدا اربعة اوجه احسنها انه ضمير يعود على السجن بفتح السين اى ظهر لهم حبسه والثانى ان الفاعل ضمير المصدر المفهوم من الفعل وهو بدا اى بدا لهم بداء والثالث انه مضمر يدل عليه السياق اى بدا لهم رأى والرابع انه محذوف وليسجننه قائم مقامه اى بدا لهم السجن فحذف واقيمت الجملة مقامه وليست الجملة فاعلا لان الجملة لا تكون كذلك وقيل الحبس هنا خمس سنين وقيل سبع سنين وقال مقاتل بن سليمان حبس يوسف اثنتى عشرة سنة وقال الرازى والصحيح ان هذه المقادير غير معلومة وانما القدر المعلوم أنه بقى مسجونا مدة طويلة لقوله تعالى واذكر بعد امة وعن عكرمة قال قال رجل ذو رأى للعزيز متى تركت هذا العبد يعتذر الى الناس ويقص عليهم امره فاتركه فى بيتها لا يخرج الى الناس فان خرج للناس عذروه وفضحوا اهلك فامر به فسجن (ودخل معه السجن فتيان) وهما غلامان كانا للوليد بن نزوان العمليق ملك مصر الاكبر احدهما خبازه صاحب طعامه والآخر ساقيه صاحب شرابه غضب الملك عليهما فحبسهما وكان السبب فيه أن جماعة من أشراف مصر ارادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالا على ان يسما الملك فى طعامه وشرابه فاجابا الى ذلك ثم ان الساقى ندم ورجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر الطعام بين يدى الملك قال الساقى لا تأكل أيها الملك فان الطعام مسموم فقال الخباز ولا تشرب فان الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشرب فشرب فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فابى فاطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فامر بحبسهما وكان يوسف عليه السلام حين دخل السجن قال لاهله انى أعبر الاحلام فقال أحد الفتيين لصاحبه هلم فلنجرب هذا العبد العبرانى فنتراءى له رؤيا قال ابن مسعود ومارأيا شيأ وانما تحالما ليجربا يوسف وقال قوم بل كانا رأيا حقيقة فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما فذكرا أنهما صاحبا الملك حبسهما وقد رأيا رؤيا غمتهما فقال يوسف قصا على ما رأيتما (قال أحدهما) وهو صاحب شراب الملك (انى أرانى أعصر خمرا) * فان قيل كيف يعقل عصر الخمر (أجيب) عن ذلك بثلاثة أقوال أحدها أن يكون المعنى أعصر عنب خمر أى العنب الذى يكون عصيره خمرا فحذف المضاف الثانى ان العرب تسمى الشئ باسم ما يؤل اليه تقول فلان يطبخ دبسا

فاكتفى بذكر اسم الفاعل المفيد للحال فقط وان كان يستعمل فى الماضى والمستقبل مجازا (قوله وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) ان قلت ما الجمع بينه

وهو يطبخ عصيرا الثالث قال أبو صالح أزد عمان يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة الى أهل مكة فنطقوا بها قال الضحاك نزل القرآن بألسنة جميع العرب وذلك انه قال انى رأيت فى المنام كأنى فى بستان واذا فيه شجرة فيها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدى فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه (وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه) وذلك انه قال رأيت فى المنام كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الطعام وسباع الطير تنهش منه (نبئنا) أى أخبرنا (بتأويله) أى بتفسيره (انا نراك من المحسنين) أى فى علم التفسير لانه متى عبر لم يخطئ كما قال وعلمتنى من تأويل الاحاديث وقيل فى أمر الدين لانه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فانه كان يصوم النهار ويقوم الليل كله ومن كان كذلك فانه يوثق بما يقوله فى تعبير الرؤيا وفى سائر الامور وقيل فى حق الشركاء والاصحاب لانه كان يعود مرضاهم ويؤنس حزينهم واذا ضاق على أحدهم وسع عليه واذا احتاج أحدهم جمع له شيأ قيل انه لما دخل السجن وجد قوما اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يسكنهم ويقول اصبروا وأبشروا وتؤجروا فيقولون بارك الله فيك يا فتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يا فتى قال أنا يوسف بن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله اسحق بن خليل الله ابراهيم فقال له عامل السجن والله يا فتى لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأحسن جوارك فكن فى اى بيوت السجن شئت وروى ان الفتيين لما رأيا يوسف قالا لقد احببناك حين رأيناك فقال لهما يوسف انشدكما الله ان لا تحبانى فوالله ما احبنى احد قط الا دخل على من حبه بلاء لقد احبتنى عمتى فدخل على بلاء ثم احبنى ابى فالقيت فى الجب واحبتنى امرأة العزيز فحبست فلما قصا عليه الرؤيا كره يوسف أن يعبرها لهما لما علم فى ذلك من المكروه على احدهما (قال) معرضا عن سؤالهما اخذا فى غيره من اظهار المعجزة فى الدعاء الى التوحيد (لا يأتيكما طعام ترزقانه) اى فى منامكما (الا نبأتكما بتأويله) اى فى اليقظة (قبل ان يأتيكما) تأويله وقيل اراد به فى اليقظة يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه من منازلكما تطعمانه الا نبأتكما بتأويله بقدره ولونه والوقت الذى يصل اليكما قبل أن يصل وأى طعام اكلتم ومتى اكلتم وهذه كمعجزة عيسى عليه السلام حيث قال وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم فقالا هذا فعل العرافين والكهنة فمن أين لك هذا العلم فقال ما أنا بكاهن (ذلكما) اى هذا التأويل والاخبار بالمغيبات (مما علمنى ربى) وفى ذلك حث على ايمانهم ثم قواه بقوله (انى تركت ملة) اى دين (قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) وكرر لفظة هم للتأكيد لشدة انكارهم للمعاد ولما ادعى يوسف عليه السلام النبوة وأظهر المعجزة أظهر انه من أهل بيت النبوة بقوله (واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب) ليسمعوا قوله ويطيعوا امره فيما يدعوهم اليه من التوحيد فان الانسان متى ادعى حرفة أبيه وجده لم يستبعد ذلك منه وأيضا فكمال درجة ابراهيم واسحق ويعقوب أمر مشهور فى الدنيا فاذا أظهر أنهم آباؤه عظموه ونظروا اليه بعين الاجلال فكان انقيادهم له أتم وتأثير قلوبهم بكلامه أكمل (فان قيل) انه كان نبيا فكيف قال اتبعت ملة آبائى والنبى لابد وان يكون مختصا بشريعة نفسه (أجيب) بان مراده التوحيد الذى لا يتغير ولعله كان رسولا من عند الله

وبين قوله ورسلا قد قصصناهم عليه من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك (قلت) معناه وكلا نقصه عليك من أنباء الرسل هو ما نثبت به فؤادك فهانى موضع رفع

تعالى الا انه كان نبيا على شريعة ابراهيم عليه السلام وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بسكون الياء آبائى والباقون بالفتح (ما كان) اى ما صح (لنا) معشر الانبياء (أن نشرك بالله من شئ) لان الله تعالى طهره وطهر آباءه عن الكفر ونظيره قوله تعالى ما كان لله ان يتخذ من ولد وانما قال من شئ لان اصناف الشرك كثيرة فمنهم من يعبد الاصنام ومنهم من يعبد النار ومنهم من يعبد الكواكب ومنهم من يعبد الملائكة فقوله من شئ رد على هؤلاء الطوائف وارشاد الى الدين الحق وهو انه لا موجد ولا خالق ولا رازق الا الله (ذلك) اى التوحيد (من فضل الله علينا) بالوحى (وعلى الناس) اى سائرهم ببعثنا لارشادهم وتثبيتهم عليه (ولكن اكثر الناس) اى المبعوث اليهم (لا يشكرون) هذه النعمة التى انعم الله تعالى بها عليهم لانهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ثم دعاهم الى الايمان فقال (يا صاحبى السجن) اى يا صاحبى فى السجن فاضافهما الى السجن كما تقول يا سارق الليلة فكما ان الليلة مسروق فيها غير مسروقة فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب وانما المصحوب غيره وهو يوسف عليه السلام او يا ساكنى السجن كما قيل لسكان الجنة اصحاب الجنة ولسكان النار اصحاب النار (أأرباب) اى آلهة (متفرقون) اى متباينون من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وصغير وكبير ومتوسط وغير ذلك (خير) اى اعظم فى صفة المدح واولى بالطاعة (ام الله الواحد القهار) اى المتوحد بالالوهية الذى لا يغالب ولا يشاركه فى الربوبية غيره خبر والاستفهام للتقرير وفى الهمزتين فى أأرباب من القراآت ما فى أأنذرتهم وقد مر (فان قيل) هل يجوز التفاضل بين الاصنام وبين الله تعالى حتى يقال انهم اخير ام الله (اجيب) بان ذلك خرج على سبيل الفرض والمعنى لو سلمنا انه حصل منهما ما يوجب الخير فهى خير ام الله الواحد القهار ثم بين عجز الاصنام فقال (ما تعبدون) وانما خاطبهم بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية فى المخاطبة لانه أراد جميع من فى السجن من المشركين والعبادة خضوع القلب فى اعلى مراتب الخضوع وبين حقارة معبوداتهم وسفالتها بقوله (من دونه) اى الله الذى قام البرهان على الهيته وعلى اختصاصه بذلك (الا اسماء) وبين ما يريد واوضحه بقوله (سميتموها) اى ذوات اوجدتم لها اسماء (انتم) سميتموها آلهة وأربابا وهى حجارة جماد خالية عن المعنى لا حقيقة لها (وآباؤكم) من قبلكم سموها كذلك (ما انزل الله بها) اى بعبادتها (من سلطان) اى حجة وبرهان (ان الحكم) أى ما الحكم (الا لله) أى المختص بصفات الكمال والحكم فصل الامر بما تدعو اليه الحكمة (أمر) وهو النافذ الامر المطاع الحكم (ألا تعبدوا الا اياه) لانه المستحق للعبادة لا هذه الاسماء التى سميتموها آلهة • ولما أقام الدليل على هذا الوجه الذى كان جديرا بالاشارة الى فضله أشار اليه باداة البعد تنبيها على علو مقامه وعظيم شانه فقال (ذلك) أى الشان الاعظم وهو توحيده وافراده عن خلقه (الدين القيم) اى المستقيم الذى لا عوج فيه (ولكن أكثر الناس) وهم الكفار (لا يعلمون) ما يصيرون اليه من العذاب فيشركون • ولما قرر يوسف عليه السلام أمر التوحيد والنبوة عاد الى الجواب عن السؤال الذى ذكراه فقال (يا صاحبى السجن) اى الذى يحصل فيه الانكسار للنفس والرقة فى القلب فتخلص فيه المودة ولما كان فى الجواب ما يسوء الخباز

خبر مبتدا محذوف ولا يقتضى اللفظ قصر أنباء جميع الرسل (قوله وجاءك فى هذه الحق) اى هذه الانباء او الآيات او السورة خصها بالذكر تشريفا لها وان كان قد جاءه الحق فى جميع السور

أيهم ليجوز كل منهما انه الفائز فان ألجاه الى التعيين كان ذلك عذراً له فى الخروج عن اللائق فقال (أما احدكما) وهو صاحب شراب الملك (فيسقى ربه) اى سيده (خمرا) على عادته والعناقيد الثلاثة هى ثلاثة أيام يبقى فى السجن ثم يدعو به الملك فيرده الى رتبته التى كان عليها هذا تأويل رؤياه (وأما الآخر) وهو صاحب طعام الملك (فيصلب) والسلال الثلاثة ثلاثة أيام ويدعو به الملك فيصلبه (فتأكل الطير من رأسه) هذا تأويل رؤياه قال ابن مسعود فلما سمعا قول يوسف عليه السلام قالا ما رأينا شيأ انما كنا نلعب فقال لهما يوسف عليه السلام (قضى) أى تم (الامر الذى فيه تستفتيان) أى تطلبان الافتاء فيه عملا بالفتوة فسألتما عن تأويله وهو تعبير رؤيا كما كذبتما أو صدقتما لم أقله عن جهل ولا غلط (وقال) يوسف عليه السلام (للذى ظن) أى علم وتحقق فالظن بمعنى العلم لانه قاله عن وحى لقوله قضى الامر ويجوز أن يكون ضمير ظن للساقى فهو حينئذ على بابه (أنه ناج منهما) وهو الساقى (اذكرنى عند ربك) أى سيدك ملك مصر بما رأيت منى من معالى الاخلاق وطهارة الشيم الدالة على بعدى عما رميت به والمراد بالرب هنا غير المراد به فى قوله أأرباب متفرقون فنجا الساقى وصلب صاحبه وفق ما قال لهما يوسف عليه السلام واختلف فى ضمير (فأنساه الشيطان ذكر ربه) على قولين أحدهما أنه يعود الى الساقى وهو قول جماعة من المفسرين أى فأنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف عند الملك قالوا لان صرف وسوسة الشيطان الى ذلك الرجل الساقى حتى أنساه ذكر يوسف أولى من صرفها الى يوسف والقول الثانى وعليه أكثر المفسرين أنه يرجع الى يوسف عليه السلام وقال الرازى انه الحق أى ان الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه تعالى حتى استعان بمخلوق مثله وتلك غفلة عرضت له عليه السلام فان الاستعانة بالمخلوق فى رفع الظلم جائزة فى الشريعة الا أن حسنات الابرار سيآت المقربين فهذا وان كان جائزاً لعامة الخلق الا أن الاولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الاسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا الا بمسبب الاسباب فلهذا صار يوسف عليه السلام مؤاخذا بهذا القول ولم يؤاخذه تعالى فى تلك القصة البتة بل ذكره باعظم وجوه المدح والثناء فعلم بذلك أنه عليه السلام كان مبرأ عما نسبه الجهال والحشوية اليه (فان قيل) كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى أنساه ذكر ربه (أجيب) بان ذلك انما كان شغل خاطر وأما النسيان الذى هو عبارة عن ترك الذكر وازالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه واختلف فى قدر البضع فى قوله تعالى (فلبث فى السجن بضع سنين) فقال مجاهد ما بين الثلاث الى التسع وقال ابن عباس ما دون العشرة قال البغوى وأكثر المفسرين على أن البضع فى هذه الآية سبع سنين وكان قد لبث قبله خمس سنين فجملته اثنتا عشرة سنة وقال وهب أصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف فى السجن سبع سنين وقال مالك بن دينار لما قال يوسف للساقى اذكرنى عند ربك قيل له يا يوسف اتخذت من دونى وكيلا لاطيلن حبسك فبكى يوسف وقال يارب أنسى قلبى كثرة البلوى فقلت كلمة قال الحسن قال النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله يوسف لولا كلمته التى قالها ما لبث فى السجن ما لبث ثم بكى الحسن وقال نحن اذا نزل بنا بلاء فزعنا الى الناس ذكره الثعلبى مرسلا وبغير سند وقال

كقوله حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى والتعريف فى الحق اما للجنس أو للعهد والمراد به البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة وتواترها عرفه وتنكير تاليه تفخيما له لكونه

الحسن أيضا دخل جبريل على يوسف عليهما السلام في السجن فلما رآه يوسف عرفه فقال له يا أخا المنذرين مالي أراك بين الخاطئين فقال له جبريل يا طاهر يا ابن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك أما استحييت مني واستشفعت بالآدميين فوعزتي لالبثنك في السجن بضع سنين قال يوسف وهو في ذلك عني راض قال نعم قال اذا لا أبالي وقال كعب قال جبريل ليوسف ان الله تعالى يقول لك من خلقك قال الله قال فمن علمك تأويل الرؤيا قال الله تعالى قال فمن حببك الى أبيك قال الله قال فمن أنجاك من كرب البئر قال الله تعالى قال فمن صرف عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف استشفعت بآدمي مثلك قال محمد بن عمر الرازي في تفسيره والذي جربته من أول عمري الى آخره ان الانسان كلما عول في أمر من الامور على غير الله تعالى صار ذلك سببا للبلاء والمحنة والشدة والرزية واذا عول على الله تعالى ولم يرجع الى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري الى هذا الوقت الذي بلغت الى السابع والخمسين فعند ذلك استقر قلبي على انه لا مصلحة للانسان في التعويل على شئ سوى فضل الله تعالى واحسانه * ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر الاكبر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هائلة كما قال تعالى (وقال الملك اني أرى) اي رأيت عبر بالمضارع حكاية للحال الشديدة ماهاله من ذلك (سبع بقرات سمان) اي خرجن من نهر يابس والسمن زيادة البدن من الشحم واللحم وسمان جمع سمينة ويجمع سمين أيضا عليه يقال رجال سمان ونساء سمان كما يقال رجال كرام ونساء كرام (يأكلهن) اي يبتلعهن (سبع) اي من البقر (عجاف) جمع عجفاء اي مهازيل خرجن من ذلك النهر *(تنبيه)* جمع عجفاء على عجاف والقياس عجف نحو حمراء وحمر حملا له على سمان لانه نقيضه ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض (و) اني ارى (سبع سنبلات خضر) اي قد انعقد حبها (و) اني أرى سبع سنبلات (أخر يابسات) اي قد أدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها وانما استغنى عن بيان حالها بما نص من حال البقرات والسنبلة نبات كالقصبة فيها جملة حبوب منتظمة فكأنه قيل فكان ماذا فقيل قال الملك بعد ان جمع السحرة والكهنة والمعبرين (يا أيها الملأ) اي الاشراف النبلاء الذين تملأ العيون مناظرهم والقلوب مآثرهم (أفتوني في رؤياي) اي أخبروني بتأويلها (ان كنتم للرؤيا تعبرون) اي ان كنتم عالمين بعبارة الرؤيا فاعبروها *(تنبيه)* اللام في الرؤيا مزيدة فلا تعلق لها بشئ وزيدت لتقدم المعمول تقوية للعامل كما زيدت اذا كان العامل فرعا كقوله تعالى فعال لما يريد ولا تزاد فيما عدا ذينك الا ضرورة وقيل ضمن تعبرون معنى ما يتعدى باللام تقديره ان كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا وقيل متعلقة بمحذوف على انها للبيان كقوله تعالى وكانوا فيه من الزاهدين تقديره أعني فيه وكذلك هذا تقديره أعني للرؤيا وعلى هذا يكون مفعول تعبرون محذوفا تقديره تعبرونها وفي الآية ما يوجبه حال العلماء من حاجة الملوك اليهم فكأنه قيل فما قالوا فقيل (قالوا) هذه الرؤيا (أضغاث) اي اخلاط (أحلام) مختلطة مختلفة مشتبهة جمع ضغث بكسر الضاد واسكان الغين المعجمة وهي قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس والاحلام جمع حلم بضم الحاء واسكان اللام وضمها وهو الرؤيا فقيد وها بالاضغاث وهو ما يكون من الرؤيا باطلا لكونه من

ويطلق على الله تعالى بخلاف تأديبه

(قوله رأيتهم لي ساجدين) ذكر الرؤية ثانيا جوابا لسؤال مقدر من يعقوب

حديث

حديث النفس ووسوسة الشيطان لكونها اشبه اخلاط النبات التى لا تناسب بينها الان الرؤيا تارة تكون من الملك وهى الصحيحة وتارة تكون من تخييل الشيطان وتخليطاته وتارة من حديث النفس ثم قالوا (وما نحن) اى بأجمعنا (بتأويل الاحلام) اى المنامات الباطلة (بعالمين) اى ليس لها تأويل عندنا وانما التأويل للمنامات الصادقة كأنه مقدمة ثانية للعذر * ولما سأل الملك عن هذه الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب تذكر ذلك الشرابى واقعة يوسف عليه السلام لانه كان يعتقد فيه كونه متبحرا فى هذا العلم كما قال تعالى (وقال الذى نجا) اى خلص (منهما) اى من صاحبى السجن وهو الشرابى ان فى الحبس رجلا فاضلا صالحا كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق فى كل ما ذكر وما أخطأ فى حرف فكانت هذه الرؤيا سببا لخلاص يوسف عليه السلام ولم يتذكر الشرابى الا بعد طول المدة كما قال تعالى (وادكر) بالدال المهملة اى طلب الذكر بالذال المعجمة وزنه افتعل (بعد أمة) اى وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة اى مدة طويلة والجملة اعتراض ومقول القول (أنا أنبئكم بتأويله فارسلون) اى الى يوسف عليه السلام فانه أعلم الناس فارسلوه اليه قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ولم يكن السجن بالمدينة فاتاه فقال الساقى المرسل اليه مناديا له نداء القرب تحببا اليه (يوسف) وزاد فى التحبب بقوله (أيها الصديق) اى البالغ فى الصدق والتصديق لانه جرب أحواله وعرف صدقه فى تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه وهذا يدل على أن من أراد أن يتعلم من رجل شيأ فانه يجب عليه أن يعظمه وأن يخاطبه بالالفاظ المشعرة بالاجلال ثم انه أعاد السؤال بعين اللفظ الذى ذكره الملك فقال (أفتنا) اى اذكر لنا الحكم (فى سبع بقرات سمان) اى رآهن الملك (يأكلهن سبع) من البقر (عجاف و) فى (سبع سنبلات) جمع سنبلة وهى مجمع الحب من الزرع (خضر و) فى سبع (أخر) من السنابل (يابسات) أى فى رؤيا ذلك ونعم ما فعل من ذكر السؤال بعين اللفظ فان نفس الرؤيا قد تختلف بحسب اختلاف الالفاظ كما هو مذكور فى ذلك العلم ثم قال (لعلى أرجع الى الناس) أى الى الملك وجماعته بفتواك قيل مانع يمنعنى (لعلهم يعلمون) أى بتأويل هذه الرؤيا وقيل بمنزلتك فى العلم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بفتح الياء والباقون بالسكون (قال) يوسف عليه السلام معبرا للملك الرؤيا اما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبات وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة فذلك قوله (تزرعون سبع سنين) وهو خبر بمعنى الامر كقوله تعالى والمطلقات يتربصن والوالدات يرضعن وانما خرج الامر فى صورة الخبر للمبالغة فى الايجاب فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه والدليل على كونه فى معنى الامر قوله فذروه فى سنبله وقوله (دأبا) نصب على الحال أى دائبين أى سبع سنين متتابعة على عادتكم فى الزراعة والدأب العادة وقيل ازرعوا بجد واجتهاد وهذا تأويل السبع السمان والسنبلات الخضر وقرأ حفص بفتح الهمزة وسكنها الباقون وأبدلها السوسى ألفا وقفا ووصلا وحمزة وقفا فقط (فما حصدتم فذروه) أى اتركوه (فى سنبله) لئلا يفسد ولا يقع فيه السوس وذلك أبقى له على طول الزمان (الا قليلا مما تأكلون) أى ادرسوا

عليه السلام كأنه قال ليوسف بعد قوله رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر كيف رأيتها اسأل عن حال رؤيتها فقال مجيبا رأيتهم لى ساجدين وقيل ذكره تو كيدا وجمع

قليلا من الحنطة للاكل بقدر الحاجة أمرهم بحفظ الاكثر لوقت الحاجة أيضا وهو وقت السنين المجدبة كما قال (ثم يأتى من بعد ذلك) أى السبع المخصبات (سبع شداد) أى مجدبات صعاب وهى تأويل السبع العجاف والسنبلات اليابسات (يأكلن ما قدمتم لهن) أى يأكل أهلهن ما ادخرتم لاجلهن فاسند اليهن على المجاز تطبيقا بين المعبر والمعبر به وهو يأكلهن سبع عجاف وهو يأكلن ما قدمتم لهن (الا قليلا مما تحصنون) أى تحرزون وتدخرون للبذر والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشئ فى الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع (ثم يأتى من بعد ذلك) أى السبع المجدبات (عام فيه يغاث الناس) أى يمطرون من الغيث وهو المطر وقيل ينقذون من قول العرب استغثت فاغاثنى (وفيه يعصرون) من العنب خمرا ومن الزيتون زيتا ومن السمسم دهنا وأراد بذلك كثرة النعم والخير وقال أبو عبيدة ينجون من الكرب والشدة والجدب وقرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب لان الكلام كله مع الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ردا الى الناس * ولما رجع الشرابى الى الملك وعرض عليه التعبير الذى ذكره يوسف عليه السلام استحسنه (وقال الملك) أى الذى العزيز فى خدمته (ائتونى به) لاسمع ذلك منه واكرمه وهذا يدل على فضيلة العلم فانه سبحانه وتعالى جعل علمه سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الاخروية فاتاه الرسول ليأتى به الى الملك (فلما جاءه) أى يوسف عليه السلام عن قرب من الزمان (الرسول) بذلك وهو الساقى وقال له أجب الملك (قال) له يوسف عليه السلام (ارجع الى ربك) أى سيدك الملك ولم يخرج معه حتى يظهر برهانه للملك ولا يراه بعين النقص ولذلك قال (فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) وانما قال يوسف عليه السلام فاسأله ما بال النسوة ولم يقل فاسأله أن يفتش عن حالهن لان قوله فاسأله يحتمل أن يكون بمعنى المسئلة أى اسأله عن شأنهن وأن يكون بمعنى الطلب وهو ان يفتش عن شأنهن فحسن تقييده بلفظ ما التى يسئل بها عن حقيقة الشئ ليهيجه أن يتحرك للتفتيش عن حالهن لان الانسان حريص على تحقيق الشئ ويستنكف أن ينسب الى الجهل به بخلاف ما لو قال سله أن يفتش أى اطلب منه فانه لا يبالى بهذا الطلب ولا يلتفت اليه لا سيما الملوك وانما لم يتعرض لسيدته مع ما صنعته به كرما ومراعاة للادب وقدم سؤال النسوة وفحص حالهن لتظهر براءة ساحته لانه لو خرج فى الحال لربما كان يبقى فى قلب الملك من تلك التهمة أثر فلما التمس من الملك أن يفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته من تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة وان يتوصل بها الى الطعن فيه وفى ذلك دليل على أنه ينبغى للشخص أن يجتهد فى نفى التهم ويتقى مواقعها وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لقد عجبت من يوسف وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى اشترطت أن يخرجونى ولقد عجبت منه حيث أتاه الرسول فقال ارجع الى ربك ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن ما لبث لاسرعت الاجابة وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر ان كان لحليما ذا اناة واصل الحديث فى الصحيحين مختصرا وانما قال صلى الله عليه وسلم ذلك على سبيل التواضع لانه صلى الله عليه وسلم كان فى الامر منه مبادرة وعجلة لو كان مكان يوسف والتواضع لا يصغر كبيرا ولا يضع رفيعا ولا يبطل لذى حق

الكواكب فى قوله رأيتهم لى ساجدين جمع العقلاء لوصفه لها بما هو من صفات العقلاء وهو السجود كقوله قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان

حقه لكنه يوجب لصاحبه فضلا ويلبسه جلالة وقدرا وقوله والله يغفر له مثل هذه المقدمة مشعرة بتعظيم المخاطب من توقيره وتوقير حرمته كما تقول لمن تعظمه عفا الله عنك ما صنعت فى أمرى ورضى الله تعالى عنك ما جوابك عن كلامى وقوله ان كان حليما هى المخففة من الثقيلة والاناة الوقار وقيل هو اسم من التأنى فى الامور وقرأ ابن كثير والكسائى بفتح السين ولا همزة بعدها والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها (ان ربى) أى الله (بكيدهن عليم) حين قلن أطع مولاتك وفيه تعظيم كيدهن والاستشهاد بعلم الله تعالى عليه وأنه برىء مما عيب به والوعيد لهن على كيدهن وقيل المراد بربى الملك وجعله ربا لنفسه لكونه مربيا له وفيه اشارة الى كون ذلك الملك عالما بكيدهن ومكرهن ولما قال يوسف عليه السلام ذلك وأبى أن يخرج من السجن قبل تبين الامر رجع الرسول الى الملك فأخبره بما قال عليه السلام فكأنه قيل فما فعل الملك فقيل (قال) للنسوة بعد ان جمعهن وامرأة العزيز معهن (ما خطبكن) أى ما شأنكن العظيم وقوله (اذ راودتن) أى خادعتن (يوسف عن نفسه) دليل على أن براءته كانت متحققة عند كل من علم القصة وانما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها وقيل ان امرأة العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن فكأنه قيل فما قلن قيل (قلن حاش لله) أى معاذ الله الملك الاعظم وتنزيها له من هذا الامر (ما علمنا عليه) أى يوسف عليه السلام وأغرقن فى النفى فقلن (من سوء) أى من خيانة فى شىء من الاشياء ولما أن يوسف عليه السلام راعى جانب امرأة العزيز حيث قال ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة البتة وعرفت المرأة انه انما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها واخفاء للامر عنها أرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم أزالت الغطاء والوطاء فلذلك (قالت امرأت العزيز) مصرحة بحقيقة الحال (الآن حصحص الحق) أى ظهر وتبين (أنا راودته) أى خادعته (عن نفسه) وأكدت ما أفصحت به مدحا ونفيا الكل سوء بقولها مؤكدا لاجل ما تقدم (وانه لمن الصادقين) أى الغريقين فى هذا الوصف فى نسبة المراودة الى وتبرئة نفسه فقد شهد النسوة كلهن ببراءته وانه لم يقع منه ما ينسب به الى شىء من السوء البتة فمن نسب بعد ذلك همّا أو غيره فهو تابع لمجرد الهوى فى نبى من المخلصين قال الرازى رأيت فى بعض الكتب ان امرأة جاءت بزوجها الى القاضى وادعت عليه المهر فأمر القاضى بان تكشف عن وجهها حتى يتمكن الشهود من اقامة الشهادة فقال الزوج لا حاجة الى ذلك فانى مقر بصداقها فى دعواها فقالت المرأة لما أكرمتنى الى هذا الحد فاشهدوا انى ابرأت ذمتك من كل حق لى عليك ٭ ولما رجع الرسول الى يوسف عليه السلام وأخبره بشهادتهن ببراءته قال (ذلك) أى الخلق العظيم فى تثبتى فى السجن الى أن تبين الحق (ليعلم) العزيز باقرارها وهى فى الامن وأنا فى محل الضيق والخوف علما مؤكدا (أنى لم أخنه) أى فى أهله ولا فى غيرها (بالغيب) أى والحال أن كلا منا غائب عن صاحبه هذا قول الاكثرين انه قول يوسف عليه السلام قال الفراء ولا يبعد وصل كلام انسان بكلام آخر اذا دلت القرينة عليه ومثاله قوله تعالى ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة هذا كلام بلقيس ثم قال الله تعالى وكذلك يفعلون وقوله

وجنوده (قوله قالوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم) هذا قول اخوة يوسف (فان قلت) كيف قالوا ذلك وهم أنبياء (قلت) لم يكونوا أنبياء على الصحيح وبتقدير

تعالى ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه كلام الداعي ثم قال الله تعالى ان الله لا يخلف الميعاد ثم ختم الكلام بقوله (وان الله لا يهدي) أي يسدد ولا ينجح بوجه من الوجوه (كيد الخائنين) أي ولو كنت خائنا لما خلصني الله من هذه الورطة العظيمة وحيث خلصني منها ظهر اني بريء عما نسبوني اليه وقيل انه كلام امرأة العزيز والمعنى اني وان كنت أحلت عليه الذنب في حضوره لكني ما أحلت الذنب عليه في غيبته اي لم تقل فيه وهو في السجن خلاف الحق ثم انها بالغت في تأكيد هذا القول وقالت وان الله لا يهدي كيد الخائنين يعني اني لما أقدمت على الكيد والمكر لا جرم افتضحت وانه لما كان بريا من الذنب لا جرم طهره الله تعالى منه ٭ واعلم ان هذه الآية على القول الاول دالة على طهارة يوسف عليه السلام من وجوه كثيرة الاول قولها أنا راودته عن نفسه والثاني قولها وانه لمن الصادقين وهو اشارة الى أنه صادق في قوله هي راودتني عن نفسي والثالث قول يوسف عليه السلام ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب والحشوية يذكرون أنه لما قال يوسف هذا الكلام قال له جبريل عليه السلام ولا حين هممت بها قال الرازي وهذا من رواياتهم الخبيثة وما صحت هذه الرواية في كتاب معتمد اي وانما أسندها بعضهم لابن عباس بل هم يلحقون بهذا الموضع سعيا منهم في تحريف ظاهر القرآن وربعها أن اقدامه على قوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب مع أنه خانه بأعظم وجوه الخيانة اقدام على وقاحة عظيمة وعلى كذب عظيم من غير أن يتعلق به مصلحة بوجه ما والاقدام على مثل هذه الوقاحة من غير فائدة أصلا لا يليق بأحد من العقلاء فكيف يليق اسناده الى نبي مرسل من سلالة الانبياء الاصفياء فثبت ان هذه الآية تدل دلالة قاطعة على براءته مما يقول الجهال والحشوية ٭ واختلفوا في تفسير قوله (وما أبرئ نفسي) لان ذلك يختلف باختلاف ما قبله لان قوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ان كان من كلام يوسف عليه السلام وقد مر أنه قول الاكثرين فهو أيضا كلامه وان كان من كلام المرأة فهذا أيضا كلامها فعلى الاول قد تمسك به الحشوية وقالوا انه عليه السلام لما قال ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين حللت تكة سراويلك فعند ذلك قال يوسف عليه السلام وما أبرئ نفسي (ان النفس لامارة بالسوء) أي بالزنا (الا ما رحم) اي عصم منه (ربي ان ربي غفور) اي للهم الذي هممته (رحيم) أي لو فعلته لتاب علي وهذا ضعيف كما قاله الرازي لما تقدم ان الآية المتقدمة برهان قاطع على براءته من الذنب وانما قال ذلك عليه السلام لانه لما قال ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب كان ذلك جاريا مجرى مدح النفس وتزكيتها وقد قال تعالى فلا تزكوا أنفسكم فاستدرك ذلك على نفسه بقوله وما أبرئ نفسي والمعنى وما أزكي نفسي ان النفس لامارة بالسوء مائلة الى القبائح راغبة في المعصية وعلى الثاني أنها لما قالت ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب قالت وما أبرئ نفسي من الخيانة مطلقا فاني قد خنته حين أحلت الذنب عليه وقلت ما جزاء من أراد باهلك سوأ الا أن يسجن وأودعته في الحبس كأنها أرادت الاعتذار مما كان ٭ واختلف في قوله (وقال الملك) فمنهم من قال هو العزيز ومنهم من قال هو الريان الذي هو الملك الاكبر قال الرازي وهذا هو الاظهر لوجهين الاول ان قول يوسف اجعلني على خزائن الارض يدل عليه الثاني قوله أستخلصه لنفسي يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصا وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك

ثم كانوا أنبياء انما قالوا
ذلك قبل نبوتهم والجواب
بان ذلك من الصغائر او
بانهم قالوه في صغرهم
ضعيف (قوله نرتع ونلعب)
(ان قلت) كيف قالوا
ذلك مع انهم كانوا بالغين

خالصا للعزيز فدل هذا على أن هذا الملك هو الملك الاكبر انتهى وانما صرح به ولم يستغن بضميره كراهية الالباس لما تخلل بينه و بين جواب امرأة العزيز من كلام يوسف عليه السلام ولو كان الكل من كلامها لاستغنى بالضمير ولم يحتج الى ابرازه (استخلصه لنفسى) أى اجعله خالصا لى دون شريك قال ابن عباس فاتاه الرسول فقال له ألق عنه ثياب السجن وألبسه ثيابا جددا وقم الى الملك فدعا له أهل السجن وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة واغتسل وتنظف ولبس ثيابا جددا بعد ان دعا لاهل السجن فقال اللهم عطف عليهم قلوب الاخيار ولا تعم عنهم الاخبار وكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الاحياء وبيوت الاحزان وتجربة الاصدقاء وشماتة الاعداء ثم أتى الملك فلما رآه غلاما حدثا فقال أيعلم هذا رؤياى ولا يعلمها السحرة والكهنة ثم أقعده قدامه وقال له لا تخف وألبسه طوقا من ذهب وثياب حرير وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك وروى ان جبريل عليه السلام دخل على يوسف وهو فى الحبس وقال قل اللهم اجعل لى من عندك فرجا ومخرجا وارزقنى من حيث لا أحتسب فقبل الله تعالى دعاءه وأظهر هذا السبب فى تخليصه من السجن وروى أن يوسف لما دخل عليه قال اللهم انى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه بالعربية فقال ما هذا اللسان قال هذا لسان عمى اسمعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال هذا لسان آبائى قال وهب كان الملك يتكلم بسبعين لغة ولم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما كلمه بلسان أجابه يوسف عليه السلام وزاد بالعربية والعبرانية (فلما كلمه) أى كلم الملك يوسف عليه السلام وشاهد منه ما شاهد من جلال النبوة وجميل الوزارة وخلال السيادة ومخايل السعادة أقبل عليه وقال انى أحب ان أسمع منك تاويل رؤياى شفاها فاجابه بذلك الجواب شفاها وشهد قلبه بصحته فعند ذلك (قال) له (انك اليوم لدينا مكين أمين) اى ذو مكانة وأمانة على أمرنا فما ترى أيها الصديق (قال) أرى أن تزرع فى هذه السنين المخصبة زرعا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام فاذا جاءت السنين المجدبة بعنا الغلال فيحصل بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك ومن لى بهذا الشغل فقال يوسف (اجعلنى على خزائن الارض) جمع خزانة وأراد خزائن الطعام والاموال والارض أرض مصر أى خزائن أرض مصر وقال الربيع بن أنس اى خرج مصر ودخله روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية قال رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزائن الارض لاستعمله من ساعته لكنه لما قال ذلك أخره الله تعالى سنة فاقام فى بيته سنة مع الملك قال الرازى وهذا من العجائب لانه لما تثاقل عند الخروج من السجن سهل الله تعالى عليه ذلك على أحسن الوجوه * ولما سارع فى ذكر هذا الالتماس أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على أن ترك التصرف أتم والتفويض بالكلية الى الله تعالى أولى ثم قال (انى حفيظ عليم) أى ذو حفظ وعلم بأمرها وقيل كاتب وحاسب (فان قيل) لم طلب يوسف عليه السلام الامارة والنبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الامارة ولم طلب الامارة من سلطان كافر ولم يصبر مدة ولم أظهر الرغبة فى طلبها فى الحال ولم طلب أمر الخزائن فى أول الامر مع ان هذا يورث نوع تهمة ولم مدح نفسه وقد قال تعالى فلا تزكوا أنفسكم ولم ترك الاستثناء فى هذا وقد قال تعالى ولا

قوله ألق عنه الخ كذا بالاصل ولعل الصواب ألق عنك ثياب السجن والبس بدليل بقية عبارته اه مصححه

عاقلين وأنبياء أيضا على قول وكيف رضى يعقوب بذلك منهم على قراءة النون (قلت) كان لعبهم المسابقة والمناضلة يؤيده انا ذهبنا نستبق وسموه لعبا لانه فى صورة اللعب قال الفخر

تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله فهذه سبعة أسئلة (أجيب) عنها بأن الاصل فى جواب هذه الاسئلة أن التصرف فى أمور الخلق كان واجبا عليه فجاز له أن يتوصل اليه بأى طريق كان وانما كان ذلك واجبا عليه لوجوه الاول أنه كان رسولا حقا من الله تعالى الى الخلق والرسول يجب عليه مراعاة الامة بقدر الامكان والثانى أنه علم بالوحى أنه سيحصل القحط والضيق الشديد فلعله تعالى أمره أن يدبر فى ذلك ويأتى بطريق لاجله يقل ضرر ذلك القحط فى حق الخلق والثالث أن السعى أيضا فى ايصال النفع الى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن فى العقول فكان مكلفا عليه السلام برعاية المصالح من هذه الوجوه وما كان يمكنه رعايتها الا بهذا الطريق وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب وانما مدح نفسه لان الملك وان علم كماله فى علوم الدين لكن ما كان عالما بانه يفى بهذا الامر وأيضا مدح النفس انما يكون مذموما اذا قصد به الشخص التطاول والتفاخر والتوصل الى غير ما يحل وأما هذا الوجه فليس بمذموم وقوله تعالى فلا تزكوا أنفسكم المراد به تزكية حال من لا يعلم كونها ممسكة والدليل قوله تعالى بعد هذه الآية هو أعلم بمن اتقى أما اذا كان الانسان عالما بانه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه وانما ترك الاستثناء لانه لو ذكره لربما اعتقد الملك فيه انه انما ذكره لعلمه أنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغى فلهذا المعنى ترك الاستثناء * ولما سأل يوسف عليه السلام ما تقدم قال معلما بانه قد أجيب بتصيير الله تعالى له (وكذلك) أى كانعامنا عليه بالخلاص من السجن (مكنا ليوسف فى الارض) أى أرض مصر (يتبوأ) أى ينزل (منها حيث يشاء) بعد الضيق والحبس قال ابن عباس وغيره ولما انقضت السنة من يوم سأل الامارة دعاه الملك فتوجه وجعل خاتم الملك فى اصبعه وقلده سيفه وجعل له سريرا من ذهب مكلا بالدر والياقوت طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة أذرع عليه ستون فراشا فقال يوسف عليه السلام أما السرير فاشد به ملكك وأما الخاتم فادبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى وأمره أن يخرج فخرج لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه فى صفاء لونه فانطلق حتى جلس على ذلك السرير ودانت له الملوك ودخل الملك بيته وفوض اليه أمر مصر وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه قال ابن اسحق قال ابن زيد وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلم سلطانه كله اليه وجعل أمره وقضاءه نافذا فى مملكته ثم مات قطفير بعد ذلك فزوجه الملك امرأته فلما دخل عليها قال أليس هذا خيرا مما كنت تريدين قالت أيها الصديق لا تلمنى فانى كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى فى ملك ودنيا وكان صاحبى لا يأتى النساء وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك فغلبتنى نفسى فوجدها يوسف عليه السلام عذراء فاصابها فولدت له ذكرين افرائيم وميشا فاقام العدل بمصر وأحبه الرجال والنساء وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام بالدراهم والدنانير فى السنة الاولى ثم بالحلى والجواهر فى السنة الثانية ثم بالدواب فى السنة الثالثة ثم بالعبيد والاماء فى السنة الرابعة ثم بالضياع والعقار فى السنة الخامسة ثم باولادهم فى السنة السادسة ثم برقابهم فى السنة السابعة حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة الا صار عبدا له فقال الناس ما رأينا كاليوم ملكا أجل ولا أعظم من هذا صار كل الخلق عبيدا له فلما سمع ذلك قال انى أشهد الله أنى أعتقت أهل مصر

الرازي وورد على أصل السؤال أن يقال كيف يتورعون عن الاب وهم قد فعلوا ما هو أعظم حرمة من الاب وأشد وهو القاؤهم أخاهم فى الجب

من آخرهم ووردت عليهم املاكهم وكان لا يبيع أحداً ممن يطلب الطعام أكثر من حمل بعير لئلا يضيق الطعام على الباقين هذا ملخص ما قاله البغوى والزمخشرى وغيرهما قال الرازى والله أعلم بحقيقة الحال وروى ان يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام فى تلك الايام فقيل له تجوع وبيدك خزائن الارض فقال ان شبعت نسيت الجائع وأمر يوسف طباخ الملك أن يجعل غداءه نصف النهار اراد بذلك أن يذيق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائعين قال البغوى فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار قال الله تعالى (نصيب) اى نخص (برحمتنا من نشاء) فى الدنيا والآخرة (ولا نضيع اجر المحسنين) بل نوتيهم أجورهم عاجلا وآجلا لان اضاعة الاجر اما أن تكون للعجز أو للجهل أو للبخل والكل ممتنع فى حق الله تعالى فالاضاعة ممتنعة (ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) الشرك والفواحش قال الرازى وهذا تنصيص من الله تعالى على أن يوسف عليه السلام كان فى الزمان السابق من المتقين وليس ههنا زمان سابق يحتاج الى بيان أنه كان فيه من المتقين الا ذلك الوقت الذى قال الله تعالى فيه ولقد همت به وهم بها فكان هذا من الله تعالى شهادة بانه عليه السلام كان فى ذلك الوقت من المتقين وأيضا قوله ولا نضيع أجر المحسنين شهادة من الله تعالى على أنه كان من المخلصين ٣ فثبت أن الله تعالى شهد بان يوسف كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين والجاهل الحشوى يقول انه كان من المذنبين ولا شك أن من لم يقبل قول الله تعالى مع هذه التأكيدات كان من الاخسرين ٭ ولما اشتد القحط وعظم البلاء عم ذلك جميع البلاد حتى وصل الى بلاد الشام وأرض كنعان وقصد الناس مصر من كل مكان للميرة فجعل يوسف عليه السلام لا يعطى أحداً أكثر من حمل بعير وان كان عظيما تقسيطا بين الناس وتزاحم الناس عليه ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس من الشدة فبعث بنيه الى مصر للميرة وأمسك بنيامين أخا يوسف لامه وأبيه فذلك قوله تعالى (وجاء اخوة يوسف) وكانوا عشرة وكان منزلهم بالعربات من أرض فلسطين ثغور الشام وكانوا أهل ابل وشياه فدعاهم أبوهم يعقوب عليه السلام وقال بلغنى أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا اليه واقصدوه لتشتروا منه ما تحتاجون من الطعام وههنا همزتان مختلفتان من كلمتين فقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الثانية والباقون بالتحقيق ولما أمرهم أبوهم بذلك خرجوا حتى قدموا مصر (فدخلوا عليه فعرفهم) قال ابن عباس بأول نظرة اليهم عرفهم وقال الحسن لم يعرفهم حتى تعرفوا اليه (وهم له منكرون) أى لم يعرفوه وذلك لوجوه الاول أنه عليه السلام أمر حجابه بان يوقفوهم من البعد وما كان يتكلم معهم الا بواسطة الثانى أنهم حين ألقوه فى الجب كان صغيراً ثم انهم رأوه بعد وفور اللحية وكبر الجثة قال ابن عباس وكان بين ان قذفوه فى البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة فلذلك أنكروه وقال عطاء انما لم يعرفوه لانه كان على سرير الملك وكان بزى ملوك مصر عليه ثياب حرير وفى عنقه طوق من ذهب ثم ان يوسف عليه السلام أمر بانزالهم واكرامهم وكانت عادته أن لا يزيد أحداً على حمل بعير وكانوا عشرة فاعطاهم عشرة أحمال كما قال تعالى (ولما جهزهم بجهازهم) أى وفاهم كيلهم والجهاز ما يعد من الامتعة للنقلة كعدد السفر وما يحمل من بلدة الى أخرى وما تزف به المرأة الى زوجها

على قصد القتل (قلت) لم يكن وقت القائهم يوسف فى الجب وقت طلب تورعهم عن اللعب ولا قبله وأصل السؤال انما وقع على طلب التورع المتقدم على الالقاء لكن يطلب الجواب عن القائهم له فى

---

٣ قوله شهادة من الله تعالى الخ هكذا بالاصول التى بايدينا ومقتضى قوله فثبت الخ أن يكون حق العبارة شهادة من الله تعالى على أنه كان من المحسنين وأيضا قوله انه من عبادنا المخلصين شهادة من الله تعالى على انه كان من المخلصين فثبت الخ فليحرر اه مصححه

فقالوا ان لنا شيخا كبيرا وأخا آخر بقى معه وذكروا ان أباهم لاجل سنه وشدة حزنه لم يحضر وان أخاهم فى خدمة أبيه ولابد لهما أيضا من حملين آخرين من الطعام فلما ذكروا ذلك قال يوسف عليه السلام فهذا يدل على أن حب أبيكم له أزيد من حبه لكم وهذا شئ عجيب لانكم أنتم مع جمالكم وعقلكم وأدبكم اذا كانت محبة أبيكم لذلك الاخ أكثر من محبته لكم دل ذلك على انه أعجوبة فى العقل والادب فجيئونى به حتى أراه كما قال تعالى حكاية عنه (قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) اى الذى خلفتموه عنده وقيل انه لما نظر اليهم وكلموه بالعبرانية قال لهم أخبرونى من أنتم وما أمركم فانى أنكرت شأنكم قالوا قوم من أرض الشأم أصابنا ما أصاب الناس فجئنا نمتار فقال لعلكم جئتم لتنظروا الى عورة بلادنا قالوا لا والله لسنا بجواسيس انما نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق يقال له يعقوب نبى من أنبياء الله تعالى قال وكم كنتم قالوا كنا اثنى عشر فذهب أخ لنا الى البرية فهلك فيها وكان أحبنا الى أبينا قال فكم أنتم ههنا قالوا عشرة قال وأين الابن الآخر قالوا عند أبينا لانه أخو الذى هلك وأبوه يتسلى به قال فمن يعلم ان الذى تقولون حق قالوا أيها الملك انا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فقال يوسف عليه السلام فائتونى بأخيكم الذى من أبيكم ان كنتم صادقين فأنا أرضى بذلك فقالوا ان أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه قال فدعوا بعضكم عندى رهينة حتى تأتونى بأخيكم فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأيا فى يوسف فخلفوه عنده ثم انه قال لهم (ألا ترون أنى أوفى الكيل) أى أتمه ولا أبخس منه شيأ وقرأ نافع بفتح الياء من أنى والباقون بالسكون وأما الياء من أوفى فجميع القراء يثبتونها فى الوقف لثباتها فى الرسم وحذفوها فى الوصل لالتقاء الساكنين (وأنا خير المنزلين) أى المضيفين فانه كان قد أحسن ضيافتهم مدة اقامتهم عنده قال الرازى وهذا يضعف قول من يقول من المفسرين انه اتهمهم ونسبهم الى انهم عيون وجواسيس ولو شافههم بهذا الكلام فلا يليق به أن يقول لهم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين وأيضا يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقا أن يقول لهم أنتم عيون وجواسيس مع أنه يعرف براءتهم عن هذه التهمة لان البهتان لا يليق بحال الصديق ثم قال عليه السلام (فان لم تأتونى به) أى بأخيكم (فلا كيل) أى فلا ميرة (لكم عندى) ولم يمنعهم من غيره (ولا تقربون) نهى أو عطف على محل فلا كيل لكم أى تحرموا ولا تقربوا منى ولا تدخلوا ديارى فجمع لهم عليه السلام بين الترغيب والترهيب فالترغيب فى قوله الاول والترهيب فى قوله الثانى لانهم كانوا فى نهاية الحاجة الى الطعام وما كان يمكنهم تحصيله الا من عنده ومع ذلك لم يخطر ببالهم أنه يوسف فكأنه قيل فما قالوا فقيل (قالوا سنراود) أى نجتهد ونطلب (عنه اباه) أى سنكلمه فيه ونتنازعه الكلام ونحتال فيه ونتلطف فى ذلك ولا ندع جهدا (وانا لفاعلون) أى ما أمرتنا به والتزمناه (و) لما أرغبهم وأرهبهم فى شأن أخيه (قال لفتيته) أى غلمانه الكيالين جمع فتى وقرأ حفص وحمزة والكسائى بألف بعد الياء المثناة تحت وبعد الالف نون مكسورة والباقون بالياء المثناة تحت ثم بتاء مثناة فوق مكسورة (اجعلوا بضاعتهم) أى التى أتوا بها ثمن الميرة وكانت دراهم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنها كانت النعال والادم (فى رحالهم) جمع رحل أوعيتهم التى يحملون

الجب صح ان ذلك من الماصى ويجاب بماصى فى الجواب عن قولهم اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا (قوله وأوحينا اليه) أى وحى الهام لا وحى رسالة لانه يومئذ لم يكن بالغا ووحى الرسالة انما يكون بعد الاربعين

فيها الطعام (لعلهم يعرفونها) أي بضاعتهم (اذا انقلبوا) أي رجعوا (الى اهلهم) وفتحوا أوعيتهم (لعلهم يرجعون) الينا واختلف في السبب الذي من أجله رد يوسف عليه السلام بضاعتهم في رحالهم على أوجه الاول أنه أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق فوضع تلك الدراهم في رحالهم حتى تبقى مخفية الى أن يصلوا الى أبيهم الثاني أراد أن يعرف أباه أنه أكرمهم وطلبهم لمزيد الاكرام فلا يثقل على أبيه ارسال أخيه الثالث مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الاخ لاجل الايذاء والظلم ولا يطلب زيادة الثمن الرابع أراد أن يحسن اليهم على وجه لا يلحقهم فيه عيب ولا منة الخامس قال الفراء انهم متى شاهدوا بضاعتهم في رحالهم وقع في قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد أنبياء فيرجعون ليعرفوا السبب فيه ويردوا المال الى مالكه السادس أراد به التوسعة على أبيه لان الزمان كان زمان القحط السابع رأى ان أخذ ثمن الطعام من أبيه ومن اخوته على شدة حاجتهم الى الطعام لؤم الثامن خاف أن لا يكون عند أبيه من المال ما يرجعون به مرة أخرى التاسع أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا ان ذلك كرم من يوسف عليه السلام وسخاء فيبعثهم ذلك الى العود اليه والحرص على معاملته عليه السلام (فلما رجعوا) أي اخوة يوسف عليه السلام (الى ابيهم قالوا يا أبانا) انا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة عظيمة لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامه فقال يعقوب عليه السلام اذا رجعتم الى ملك مصر فاقرؤه مني السلام وقولوا له ان أبانا يدعو لك بما أوليتنا ثم قال لهم أين شمعون قالوا ارتهنه ملك مصر وأخبروه بالقصة وقولهم (منع منا الكيل) فيه قولان أحدهما أنهم لما طلبوا الطعام لاخيهم الغائب عند أبيهم منعوا منه والثاني أنهم منعوا الكيل في المستقبل وهو قول يوسف عليه السلام فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ويدل له قولهم (فأرسل معنا أخانا) بنيامين (نكتل) فان حمزة والكسائي قرآه بالياء أي يكتل لنفسه وهذا يدل للقول الاول والباقون بالنون أي نكتل نحن واياه وهذا يدل للقول الثاني (وانا له لحافظون) عن أن يناله مكروه حتى نرده اليك فلما قالوا ليعقوب عليه السلام هذه المقالة (قال) لهم (هل آمنكم) أي أقبل منكم الآن وفي مستقبل الزمان تأمينكم لي فيه بما يسوءني تأمينا مستقبلا (عليه) أي بنيامين (الا كما أمنتكم) أي في الماضي (على أخيه) يوسف عليه السلام (من قبل) فانكم أكدتم غاية التأكيد فلم تحفظوه لي ولم تردوه الي والامن اطمئنان القلب الى سلامة النفس فاني في هذا الأمن عليه الا الله تعالى (فالله) المحيط علما وقدرة (خير حفظا) منكم ومن كل أحد ففيه التفويض الى الله تعالى والاعتماد عليه في جميع الامور وقرأ حفص وحمزة والكسائي بفتح الحاء وألف بعدها وكسر الفاء والباقون بكسر الحاء وسكون الفاء وهو منصوب على التمييز في القراءتين ويحتمل الاولى النصب على الحال اللازمة (وهو أرحم الراحمين) أي أرحم بي من أن يفجعني به بعد مصيبتي باخيه فلا يجمع على مصيبتين (ولما) أرادوا تفريغ ما قدموا به من الميرة (فتحوا متاعهم) أي أوعيتهم التي حملوها من مصر (وجدوا بضاعتهم) أي ما كان معهم من كنعان لشراء القوت (ردت اليهم) والوجد انتظهور

(قوله ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما) قاله هنا بدون واستوى وقاله في القصص به لان يوسف أوحى اليه في الصغر وموسى أوحى اليه بعد أربعين سنة فقوله واستوى اشارة الى تلك

الشئ للنفس بجباسة أو مايغني عنه امكانه قبل ماقالوا افقيل (قالوا) أى لابيهم عليه السلام
(ياأبانا ما) استفهامية أى أى شئ (نبغى) أى نريد جميع القراء أثبتوا الياء وقفا ووصلا لثباتها
فى الرسم فكأنه قال لهم ما الخبر فقالوا بيانا لذلك وتأكيدا للسؤال فى استصحاب أخيهم (هذه
بضاعتنا ردت الينا) هل من مزيد على ذلك أكرمنا وأحسن مثوانا وباع منا وردعلينا
متاعنا ولما كان التقدير ونرجع بها اليه بأخينا فيظهر له نصحنا وصدقنا (ونمير أهلنا) أى
نجلب اليهم الميرة برجوعنا اليه والميرة الاطعمة التى تحمل من بلد الى بلد (ونحفظ أخانا) فلا
يصيبه شئ مما تخشى عليه تأكيدا للوعد بحفظه (ونزداد كيل بعير) لاخينا (ذلك كيل
يسير) أى سهل على الملك لسخائه وحرصه على البذل وقيل قصير المدة ليس مثل مثله أن تطول
مدته بسبب الحبس والتأخير وقيل قليل فابعث أخانا معنا حتى نبدل ذلك القلة بالكثرة فكأنه
قيل ماقال لهم فقيل (قال) يعقوب عليه السلام (لن أرسله) أى بنيامين كائنا (معكم) أى فى
وقت من الاوقات (حتى تؤتون موثقا) أى عهدا مؤكدا (من الله) قرأ ابن كثير باثبات الياء
بعد النون وقفا ووصلا وأبو عمرو باثبات الياء وقفا لا وصلا وحذفها الباقون وقفا ووصلا
وقوله (لتأتنني) أى كائنكم (به) أى تحلفوا بالله لتأتنني به من الاتيان وهو المجئ فى كل حال
جواب القسم أو المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتنني به (الا) أى فى حال (أن يحاط) أى تحصل
الاحاطة بمصيبة من المصائب لا طاقة لكم بها (بكم) فتهلكوا من عند آخركم كل ذلك زيادة فى
التوثق بما حصل لهم من المصيبة بيوسف عليه السلام وان كان الاعتماد فى حفظه انما هو على
الله تعالى وهذا من باب اعقلها وتوكل فاجابوه الى ذلك كما قال تعالى (فلما آتوه موثقهم) بذلك
(قال الله على مانقول) نحن وأنتم (وكيل) أى شهيد وأرسله معهم بذلك (فان قيل) لم أرسله
معهم وقد شاهد منهم ماشاهد فى يوسف عليه السلام (أجيب) بان ذلك لوجوه أحدها أنهم
كبروا ومالوا الى الخير والصلاح الثانى انه كان شاهد أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد
والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام الثالث لعل الله أوحى اليه وضمن حفظه
وايصاله اليه (و) لما عزموا على الخروج الى مصر وكانوا موصوفين بالكمال والجمال وأبناء
رجل واحد (قال) لهم (يابنى لا تدخلوا) اذا قدمتم الى مصر (من باب واحد) من أبوابها
(وادخلوا من أبواب) واحترز من أن تكون متلاصقة أو متقاربة جدا بقوله (متفرقة) أى
تفرقا كثيرا وهذا حكم التكليف لئلا يصابوا بالعين وهى من قدر الله تعالى وقد ورد شرعنا
بذلك ففى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال العين حق وفى
رواية عن أحمد يحضرها الشيطان وحسد ابن آدم وفى رواية لمسلم العين حق ولو كان شئ
سابق القدر لسبقته العين وفى رواية عن جابر ان العين لتدخل الجمل القدر والرجل القبر
وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين فيقول أعيذكما بكلمات الله
التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ويقول هكذا كان يعوذ ابراهيم اسمعيل
واسحق صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر النبيين وعن عبادة بن الصامت قال دخلت على
رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول النهار فوجدته شديد الوجع ثم عدت اليه فى آخر النهار

الزيادة (قوله واستبقا الباب) وحد الباب هنا وجمعه قبل فى قوله وغلقت الابواب لان اغلاق الباب للاحتياط لا يتم الا باغلاق الجميع وأما هروبه منها فلا يكون الا الى باب واحد

فرأيته

فرأيته مهمافي فقال ان جبريل عليه السلام أتاني فرقاني فقال بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من كل عين وحاسد الله يشفيك قال فأفقت وفي رواية ان بني جعفر بن أبي طالب كانوا غلمانا بيضا فقالت أسماء يا رسول الله ان العين اليهم سريعة فاسترق لهم من العين فقال لها نعم وفي رواية دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أم سلمة وعندها صبي يشتكي فقالوا يا رسول الله أصابته العين فقال أما تسترقون له من العين وعن عائشة رضي الله تعالى عنها كان يؤمر العائن أن يتوضأ ثم يغتسل منه المعين الذي أصيب بالعين ● ولما خاف يعقوب عليه السلام أن يسبق من أمره هذا الى بعض الاوهام أن الحذر يغني عن القدر نفى ذلك بقوله عليه السلام (وما أغني) أي أدفع (عنكم) بقولي ذلك (من الله من شيء) قدره عليكم وانما ذلك شفقة ومن مزيدة للتأكيد واعلم أن الانسان مأمور بان يراعي الاسباب المعتبرة في هذا العالم بان يجزم بانه لا يحصل الا ما قدره الله تعالى وان الحذر لا يدفع القدر فالانسان مأمور بان يحذر الاشياء المهلكة والاغذية الضارة ويسعى في تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الامكان ومع ذلك يكون جازما بانه لا يصل اليه الا ما قدره الله تعالى ولا يحصل في الوجود الا ما أراده الله تعالى فقوله عليه السلام لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة اشارة الى رعاية الاسباب المعتبرة في هذا العالم وقوله وما أغني عنكم من الله من شيء اشارة الى عدم الالتفات الى الاسباب بل الى التوحيد المحض والبراءة من كل شيء سوى الله تعالى ● ولما قصر الامر كله اليه تعالى وجب رد كل أمر اليه وقصر النظر عليه فقال منبها على ذلك (ان الحكم الا لله) وحده الذي ليس الحكم الا له (عليه) أي على الله وحده (توكلت) أي جعلته وكيلي فرضيت بكل ما يفعل (وعليه) وحده (فليتوكل المتوكلون) أي الثابتون في باب التوكل فان ذلك من أعظم الواجبات من فعله فاز ومن أغفله خاب وقد ثبت بالبرهان ان لا حكم الا لله فلزم القطع بان حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله تعالى وذلك يوجب أن لا توكل الا على الله تعالى فهذا مقام شريف عال والشيخ أبو حامد الغزالي أكثر في تقرير هذا المعنى في كتاب التوكل من كتب احياء علوم الدين فمن أراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك الكتاب ● ولما قال يعقوب عليه السلام وما أغني عنكم من الله من شيء صدقه الله تعالى في ذلك فقال (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) أي متفرقين (ما كان) ذلك التفرق (يغني عنهم من الله) أي من قضائه وأغرق في النفي فقال (من شيء) أي مما قضاه عليهم كما تقدم من قول يعقوب عليه السلام فسرقوا وأخذ بنيامين بوجدان الصواع في رحله وتضاعفت المصيبة على يعقوب عليه السلام وقوله تعالى (الا حاجة) استثناء منقطع أي لكن حاجة (في نفس يعقوب) وهي الوصول الى ما أمر به شفقة عليهم (قضاها) يعقوب عليه السلام وأبرزها من نفسه الى أولاده فعملوا فيها بمراده فاغني عنهم الخلاص من عقوق أبيهم فقط (وانه) أي يعقوب عليه السلام مع أمره لبنيه بذلك (لذو علم) أي معرفة بالحكمين حكم التكليف وحكم التقدير واطلاع على الكونين عظيم (لما علمناه) بالوحي ونصب الحجج ولذلك قال وما أغني عنكم من الله من شيء ولم يغتر بتدبيره ● ولما كان قد يظن أن كل أحد يكون كذلك أي يعلم ما علمه نفى ذلك سبحانه

حتى لو تعددت أمامه لم يقصد منها أولا الا الاول فلهذا وحد الباب هنا وجمعه ثم (قوله لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون) كرر لعل رعاية للفواصل اذ لو قال لعلي أرجع الى الناس فيعلموا لحذف

وتعالى بقوله جل شأنه (ولكن أكثر الناس) أى لاجل ما نالهم من الاضطراب (لا يعلمون) أى ليسوا بذوى علم لما علمناه لاعراضهم عنه واستفراغ قواهم فى الاهتمام بما وقع التكليف لهم به ومن أحوال الدنيا ومقابلة فطرهم القويمة السليمة بردها الى ما تدعوهم اليه الحظوظ والشهوات حتى لا يكون طب لخاوق ولما أخبر تعالى عن دخولهم الى البلد أخبر عن دخولهم لحاجتهم الى يوسف عليه السلام فقال (ولما دخلوا) أى اخوة يوسف عليه السلام (على يوسف) فى المقدمة الثانية باخيهم بنيامين قالوا هذا أخونا فقال أحسنتم واصبتم وستجدون خير ذلك عندى ثم أنزلهم وأكرم منزلهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا أجلسنى معه فقال يوسف لقد صار أخوكم هذا وحيدا فاجلسه معه على مائدته وصار يؤاكله فلما كان الليل أمر أن ينزل كل اثنين منهم بيتا فبقى بنيامين وحده فقال يوسف هذا ينام معى على فراشى كما قال تعالى (آوى) أى ضم (اليه اخاه) فبات معه وجعل يوسف يضمه اليه ويشمه ثم قال له ما اسمك فقال بنيامين قال وما بنيامين قال المثكل وذلك انه لما ولد هلكت أمه قال وما اسم أمك قال راحيل بنت لاوى قال فهل لك من ولد قال نعم عشرة بنين ولما رأى تأسفه لاخ له هلك قال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك فقال ومن يجد أخا مثلك ولكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام اليه وعانقه و(قال انى أنا أخوك فلا تبتئس) أى لا تحزن (بما كانوا يعملون) أى بشئ فعلوه بنا فيما مضى فان الله قد أحسن الينا فلا تلتفت الى أعمالهم المنكرة التى قد أقدموا عليها وقد جمعنا الله تعالى على خير ولا تعلمهم بشئ من ذلك وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون ومد بعد النون من أنا قبل الهمزة المفتوحة نافع والباقون بالقصر ثم انه ملأ لهم أوعيتهم كما أرادوا وكان فى المرة الاولى أبطأ فى تجهيزهم فى طول المدة ليتعرف أخبارهم من حيث لا يشعرون ولذلك لم يعطف بالفاء وأسرع فى تجهيزهم فى هذه المرة قصدا الى انفراده باخيه من غير رقيب بالحيلة التى دبرها فلذلك أتت الفاء فى قوله (فلما جهزهم) أى أعجل جهازهم وأحسنه (بجهازهم جعل) بنفسه أو بمأذونه (السقاية) أى المشربة التى كان يشرب بها (فى رحل اخيه) أى وعاء طعام أخيه بنيامين كما فعل ببضاعتهم فى المرة الاولى قال ابن عباس كانت من زبرجد وقال ابن اسحق كانت من فضة وقيل من ذهب وقال عكرمة كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر وجعلها يوسف عليه السلام مكيالا لئلا يكال بغيرها وكان يشرب فيها قال الرازى هذا بعيد لان الاناء الذى يشرب فيه الملك لا يصلح أن يجعل صاعا وقيل كانت الدواب تسقى بها قال وهذا أيضا بعيد لان الآنية التى تسقى الدواب فيها لا تكون كذلك قال والاصوب أن يقال كان ذلك الاناء شيئا له قيمة أما الى هذا الحد الذى ذكروه فلا والسقاية والصواع واحد ثم ارتحلوا وأمهلهم يوسف عليه السلام حتى انطلقوا وذهبوا منزلا وقيل حتى خرجوا من العمارة ثم بعث خلفهم من استوقفهم وحبسهم (ثم اذن) أى أعلن فيهم بالنداء (مؤذن) قائلا برفيع صوته وان كانوا فى غاية القرب منه بما دل عليه اسقاط الاداة (ايتها العير) أى القافلة قال أبو الهيثم كل ما سير

التون جو انا اهل اقالت الرعاية (قوله اجعلنى على خزائن الارض) ان قلت كيف قال ذلك مع ان الانبياء عليهم السلام أعظم الناس زهدا فى

عليه

عليه من الابل والحمير والبغال فهو عير قال وقول من قال العير الابل خاصة باطل فقوله أيتها العير أى أصحاب العير كقوله يا خيل الله اركبي قال الفراء كانوا أصحاب ابل وقال مجاهد كانت العير حميرا وقرأ ورش بابدال الهمزة مؤذن واوا وقفا ووصلا وحمزة فى الوقف فقط والباقون بالقصر (انكم لسارقون) فقفوا حتى ننظر الذى فقدناه والسرقة أخذ ما ليس له أخذه فى خفاء من حرز مثله (فان قيل) هل كان هذا النداء بأمر يوسف عليه السلام أوما كان بأمره فان كان بأمره فكيف يليق بيوسف عليه السلام مع علو منصبه أن يبهت أقواما وينسبهم الى السرقة كذبا وبهتانا وان كان بغير أمره فهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة (أجيب) بأجوبة الاول أنه عليه السلام لما أظهر لاخيه أنه يوسف قال لست أفارقك قال لا سبيل الى ذلك الا بتدبير حيلة أنسبك فيها الى ما لا يليق بك قال رضيت بذلك وعلى هذا لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام لانه قد رضى به فلا يكون ذلك ذنبا الثانى انكم لسارقون يوسف من أبيه الا أنهم ما أظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض وفى المعاريض مندوحة من الكذب الثالث أن المنادى انما ذكر النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا يخرج أن يكون كذبا الرابع ليس فى القرآن ما يدل على أنهم قالوا هذا بأمر يوسف عليه السلام قال الرازى والاقرب الى ظاهر الحال أنهم فعلوا ذلك من أنفسهم لانهم لما طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم غلب على ظنهم أنهم الذين أخذوها ولما وصل اليهم الرسول قال لهم ألم نحسن ضيافتكم ونكرم مثواكم ونفيكم كيلكم وفعلنا بكم ما لم نفعل بغيركم قالوا بلى وما ذاك قالوا سقاية الملك فقدناها ولا نتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى (قالوا و) الحال أنهم قد (أقبلوا عليهم) أى على جماعة الملك المنادى وغيره (ماذا) أى ما الذى (تفقدون) مما يمكننا أخذه والفقدان ضد الوجود (قالوا نفقد) وكان للسقاية اسمان فعبروا بقولهم (صواع الملك) والصواع هو المكيال وهو السقاية المتقدمة سموه تارة كذا وتارة كذا وانما اتخذوا الاناء مكيالا لعزة ما يكال به فى ذلك الوقت (ولمن جاء به حمل بعير) أى من الطعام والبعير يطلق لغة على الذكر خاصة وأطلقه بعضهم على الناقة أيضا وجعله نظير انسان وهو ما جرى عليه الفقهاء فى باب الوصية والجمع فى القلة على أبعرة وفى الكثرة على بعران (وأنا به زعيم) قال مجاهد هذا الزعيم هو الذى أذن والزعيم الكفيل وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة فى شرعهم وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله الزعيم غارم واذا ورد فى شرعنا ما يقرر شرع غيرنا هل يكون شرعا لنا فى ذلك خلاف والراجح أنه ليس بشرع لنا (فان قيل) كيف تصح هذه الكفالة مع أن السارق لا يستحق شيأ (أجيب) بأنهم لم يكونوا سراقا فى الحقيقة فيحمل ذلك على مثل رد الضائع فيكون ذلك جعالة أو ان مثل هذه الكفالة كانت جائزة عندهم فى ذلك الزمان (قالوا) أى اخوة يوسف عليه السلام (تالله) التاء حرف قسم وهى عند الجمهور بدل من واو القسم والواو بدل من الباء فهى فرع الفرع فلذلك ضعفت عن التصرف فى الاسماء فلا تدخل الا على الجلالة الكريمة أو الرب مضافا للكعبة أو الرحمن فى قول ضعيف ولو قلت تالرحمن لم يجز أى والله (لقد علمتم) أى علما جربتم من أمانتنا

الدنيا ورغبة فى الآخرة (قلت) انما طلب ذلك ليتوصل به الى امضاء حكم الله تعالى واقامة الحق وبسط العدل ونحوه ولعله ان أحدا غيره لا يقوم مقامه فى ذلك (قوله ولما

قبل هذا في كون مجيئنا (ما جئنا) وأكدوا النفي باللام فقالوا (لنفسد) أي لنوقع الفساد (في الارض) أي أرض مصر (و) لقد علمتم (ما كنا) أي بوجه من الوجوه (سارقين) أي موصوفين بهذا الوصف قطعا (فان قيل) من أين علموا ذلك (أجيب) بان ذلك يعلم مما رأوا من أحوالهم وقيل لانهم ردوا البضاعة التي جعلت في رحالهم قالوا فلو كنا سارقين ما رددناها وقيل قالوا ذلك لانهم كانوا معروفين بانهم لا يتناولون ما ليس لهم وكانوا اذا دخلوا مصر كمموا أفواه دوابهم كي لا تتناول شيأ من حروث الناس (قالوا) أي أصحاب يوسف عليه السلام المنادي ومن معه (فما جزاؤه) أي السارق وقيل الصواع (ان كنتم كاذبين) في قولكم ما كنا سارقين ووجد فيكم والجزاء مقابلة العمل بما يستحق من خير وشر (قالوا) وثوقا منهم بالبراءة واخبارا بالحكم عندهم (جزاؤه من وجد في رحله) ولتحققهم البراءة علقوا الحكم على مجرد الوجدان لا السرقة ثم أكدوا ذلك بقولهم (فهو جزاؤه) قال ابن عباس كان ذلك الزمان كل سارق بسرقته فلذلك قالوا ذلك أي فالسارق جزاؤه أن يسلم بسرقته الى المسروق منه فيسترق سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم السارق وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق فاراد يوسف أن يحبس أخاه عنده فرد الحكم اليهم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم (كذلك) أي الجزاء (نجزي الظالمين) بالسرقة قال أصحاب يوسف فلا بد من تفتيش رحالكم فردوهم الى يوسف عليه السلام فامر بتفتيشها بين يديه (فبدأ بأوعيتهم) ففتشها (قبل وعاء أخيه) لئلا يتهم فلم يجد فيها شيأ (ثم) أي بعد تفتيش أوعيتهم والتأني في ذلك (استخرجها) أي السقاية أو الصاع لانه يذكر ويؤنث (من وعاء أخيه) فلما خرج الصاع من وعاء بنيامين نكس اخوته رؤسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له ايش الذي صنعت فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل مازال لنا منكم بلاء حتى أخذت هذا الصاع فقال بنيامين بل بنو راحيل مازال لهم منكم بلاء ذهبتم باخي فاهلكتموه في البرية ان الذي وضع هذا الصاع في رحلي هو الذي وضع البضاعة في رحالكم فاخذ بنيامين رقيقا وقيل ان المنادي وأصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصاع من رحله فاخذوه برقبته وردوه الى يوسف عليه السلام ٭ (تنبيه) ٭ ههنا همزتان مختلفتان من كلمتين قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الثانية ياء والباقون بالتحقيق (كذلك) أي مثل ذلك الكيد (كدنا ليوسف) خاصة بان علمناه اياه بجزائهم على كيدهم بيوسف عليه السلام في الابتداء وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام فيكيدوا لك كيدا والكيد من الخلق الحيلة ومن الله تعالى التدبير بالحق فالمراد من هذا الكيد هو ان الله تعالى ألقى في قلب اخوته بان حكموا أن جزاء السارق هو أن يسترق لا جرم لما ظهر الصاع في رحله حكموا عليه بالاسترقاق وصار ذلك سببا لتمكن يوسف عليه السلام من امساك أخيه عند نفسه ولما كان الكيد يشعر بالحيلة والخديعة وهو في حق الله تعالى محال حمل على الغاية ونهايته هذا القاء الانسان من حيث لا يشعر في أمر مكروه ولا سبيل له الى دفعه فالكيد في حق الله تعالى محال على هذا المعنى وقيل المراد بالكيد ههنا ان اخوة يوسف سعوا في ابطال أمره والله تعالى نصره وقواه وأعلى أمره وقوله تعالى (ما كان) أي

جهزهم بجهازهم) قاله هنا بالواو وقاله بعد بالفاء لانه ذكر هنا أول مجيئهم الى يوسف فناسبته الواو الدالة على الاستئناف وذكر بعد عند انصرافهم عنه عطفا على ما

يوسف (ليأخذ أخاه في دين الملك) اي حكمه بيان للكيد لان جزاءه كان عنده الضرب وتغريم مثلي ما أخذ لا أنه يستعبد وقوله تعالى (الا ان يشاء الله) فيه وجهان أحدهما انه استثناء منقطع تقديره ولكن بمشيئة الله أخذه في دين غير دين الملك وهو دين آل يعقوب عليه السلام ان الاسترقاق جزاء السارق والثاني انه مفرغ من الاحوال العامة والتقدير ما كان ليأخذه في كل حال الا في حال التباسه بمشيئة الله اي اذنه في ذلك ❊ ولما كان يوسف عليه السلام انما تمكن من ذلك بعلو درجته وتمكنه ورفعته بعدما كان فيه عندهم من الصغار كان ذلك محل عجب فقال تعالى التفاتا الى مقام التكلم (نرفع درجات من نشاء) اي بالعلم كما رفعنا درجته وكان الاصل درجاته ولكنه عمم لانه أدل على العظمة فكان أليق بمظهرها وفي هذه الآية دليل على ان العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات لان الله تعالى لما هدى يوسف عليه السلام الى هذه الحيلة مدحه لاجل ذلك ورفع درجته على اخوته ووصف ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى نرفع درجات من نشاء عندما حكى عنه دلائل التوحيد والبراءة عن الهية الشمس والقمر والكواكب وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتنوين التاء والباقون بغير تنوين (وفوق كل ذي علم عليم) قال ابن عباس فوق كل عالم عالم الى ان ينتهي العلم الى الله تعالى فالله تعالى فوق كل عالم لانه هو الغني بعلمه عن التعلم وفي الآية دليل على ان اخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم قال ابن الانباري يجب ان يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لربه تعالى ولا يطمع نفسه في العلية في العلوم لانه لا يخلو عالم من عالم فوقه ❊ ولما حصل لاخوة يوسف من اخراج الصواع من رحل بنيامين ما حصل فكأنه قيل فما كان فعلهم عند ذلك فقيل (قالوا) تسلية لانفسهم ودفعا للعار عن خاصتهم (ان يسرق) ولم يجزموا بسرقته لعلمهم بامانته وظنهم ان الصواع دس في رحله وهو لا يشعر كما دست بضاعتهم في رحالهم وكان قد قال لهم ذلك (فقد سرق أخ له من قبل) اي يوسف وكان غرضهم من ذلك انا لسنا على طريقته ولا على سيرته وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لانهما من أم أخرى واختلفوا في التي نسبوها الى يوسف عليه السلام على أقوال فقال سفيان بن عيينة أخذ دجاجة من الطير التي كانت في بيت يعقوب فاعطاها سائلا وقال مجاهد جاء سائل فاخذ بيضة من البيت فناولها السائل وقال وهب كان يخبأ الطعام من مائدة يعقوب للفقراء وقال سعيد بن جبير كان جده أبو أمه كافرا يعبد الوثن وأمرته أمه ان يسرق تلك الاوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الاوثان ففعل ذلك فهذا هو السرقة وقال محمد بن اسحق ان يوسف عليه السلام كان عند عمته ابنة اسحق وكانت تحبه حبا شديدا فارادت ان تمسكه عند نفسها وكان قد بقي معها منطقة لابيها اسحق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف عليه السلام من تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ثم قالت انه سرقها وكان علمهم ان من سرق يسترق فقال يعقوب عليه السلام ان كان قد فعل ذلك فهو سلم لك فامسكته عندها حتى ماتت فتوصلت بهذه الحيلة الى امساكه عند نفسها قال ابن الانباري وليس في هذه الافعال كلها سرقة ولكنها تشبهها فعيروه بها عند الغضب وقيل انهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوءة من الغضب على يوسف بعد تلك الوقائع وبعد انقضاء المدة الطويلة قال الرازي وهذه

دخلوا فذا سببه الفاء الدالة على الترتيب والتعقيب (قوله أيتها العير انكم لسارقون) ان قلت كيف جاز ليوسف ان يأمر المؤذن بان يقول ذلك مع ان فيه بهتانا واتهام من لم يسرق

الواقعة تدل على ان قلب الحاسد لا يطمئن من الغل البتة (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها)
اى يظهرها (لهم) والضمير للكلمة التى هى قوله (قال) اى فى نفسه (أنتم شر مكانا) اى من
يوسف وأخيه اى لسرقتكم أخاكم من أبيكم وظلمكم له وقيل الضمير يرجع الى الكلمة التى
قالوها فى حقه وهى قولهم فقد سرق أخ له من قبل وعلى هذا يكون المعنى فأسر يوسف جواب
الكلمة التى قالوها فى حقه (والله أعلم) منكم (بما تصفون) اى تقولون وانه ليس كما قلتم قال
أصحاب الاخبار والسير ان يوسف عليه السلام لما استخرج الصاع من رحل بنيامين نقره
وأدناه الى اذنه ثم قال ان صاعى هذا يخبرنى انكم كنتم اثنى عشر رجلا لاب واحد وانكم
انطلقتم بأخ لكم من أبيكم فبعتموه فقال بنيامين أيها الملك ان صاعك يخبرك من جعله فى
رحلى ثم نقره وأدناه من اذنه فقال ان صاعى غضبان وهو يقول كيف تسألونى عن صاحبى
وقد رأيت مع من كنت قالوا فغضب روبيل لذلك وكانوا أولاد يعقوب اذا غضبوا لم يطاقوا
وكان روبيل اذا غضب لم يقم لغضبه شئ وكان اذا صاح ألقت كل حامل حملها اذا سمعت صوته
وكان مع هذا اذا مسه أحد من ولد يعقوب عليه السلام يسكن غضبه وكان أقوى الاخوة
وأشدهم وروى انه قال لاخوته كم عدد الاسواق بمصر قالوا عشرة فقال اكفونى أنتم
الاسواق وأنا أكفيكم الملك أو اكفونى أنتم الملك وأنا أكفيكم الاسواق ودخلوا على يوسف
فقال روبيل لتردن علينا أخانا أو لاصيحن صيحة لا تبقى بمصر امرأة حامل الا ألقت ولدها
وقامت كل شعرة فى جسده حتى خرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له صغير قم الى جنب روبيل
فمسه وروى خذ بيده فأتنى به فذهب الغلام فمسه فسكن غضبه فقال لاخوته من مسنى
منكم قالوا لم يصبك منا أحد فقال روبيل ان هنا بذرا من بذر يعقوب فقال يوسف من يعقوب
وروى انه غضب ثانيا فقام اليه يوسف فركضه برجله وأخذ بتلابيبه فوقع على الارض وقال
أنتم يا معشر العبرانيين تظنون ان لا أحد أشد منكم فلما صار أمرهم الى هذا ورأوا ان لا سبيل
لهم الى تخليصه خضعوا وذلوا و(قالوا يا أيها العزيز) فخاطبوه بما يليق بالاكابر ليرق لهم (ان
له) اى هذا الذى وجد الصواع فى رحله (أبا شيخا كبيرا) اى فى سنه وقدره وهو مغرم به لا يقدر
على فراقه ولا يصبر عنه (فخذ أحدنا مكانه) وأحسن الى أبيه بارساله اليه (انا نراك) اى نعلمك
علما هو كالرؤية أو بحسب ما رأيناه (من المحسنين) اى العريقين فى صفة الاحسان فاجر فى
أمرنا على عادة احسانك فكأنه قيل فما أجابهم فقيل (قال معاذ الله) هو نصب على المصدر
وحذف فعله وأضيف الى المفعول اى نعوذ بالذى لا مثل له معاذا عظيما من (ان نأخذ الا من
وجدنا متاعنا عنده) ولم يقل سرق متاعنا لانه لم يفعل فى الصواع فعل السارق ولم يقع منه
قبل ذلك ما يصح اطلاق الوصف عليه ثم علله بقوله (انا اذا) اى اذا أخذنا أحدا مكانه
(لظالمون) اى عريقون فى الظلم فى دينكم فلم تطلبون ما هو ظلم عندكم ولما استيأسهم بما قال
عن اطلاق بنيامين حكى الله تعالى ما تم لهم من الرأى فقال (فلما) دالا بالفاء على قرب زمن تلك
المراجعات (استيأسوا) اى ايسوا (منه) لما رأوا من احسانه ولطفه ورحمته يأسا شديدا بما
رأوا من ثباته على أخذه بعينه وعدم استبداله (خلصوا) اى انفردوا عن غيرهم حال كونهم
(نجيا) وهو مصدر يصلح للواحد وغيره اى ذوى نجوى يناجى بعضهم بعضا فكأنه قيل فما

(قلت) انما قاله
بانه سرق
تورية عما جرى منهم مجرى
السرقة من فعلهم بيوسف
فانهم فعلوا أولا وكان ذلك
القول من المؤذن بغير أمر
يوسف عليه السلام أو أن
حكم ذلك حكم المحيل

قالوا

قالوا فقيل (قال كبيرهم) في السن وهو روبيل وقيل في الفضل والعلم وهو يهوذا وقيل شمعون وكان له الرياسة على اخوته (ألم تعلموا) مقررا لهم بما يعرفونه مع قرب الزمان ليشتد توجههم في بذل الجهد في الخلاص من غضب أبيهم (ان أباكم) اى الشيخ الكبير الذى تجتمعون في أحب ولده اليه (قد أخذ عليكم) اى قبل ان يعطيكم هذا الولد الآخر (موثقا) اى عهدا وثيقا (من الله) في أخيكم وانما جعل حلفهم بالله موثقا منه لانه باذن منه وتأكيد من جهته وقوله (ومن قبل ما فرطتم) في هذه الآية وجوه أظهرها ان ما مزيدة فيتعلق الظرف بالفعل بعدها والتقدير ومن قبل هذا فرطتم اى قصرتم في حق يوسف وشأنه وزيادة ما كثيرة وبه بدأ الزمخشرى وغيره وقيل انها مصدرية في محل رفع بالابتداء والخبر هو قوله (في يوسف) اى وتفريطكم كائن أو مستقر في يوسف والى هذا ذهب الفارسى وقيل غير ذلك ولا نطيل بذكره اذ في هذا القدر كفاية (فلن أبرح) اى أفارق (الارض) اى أرض مصر (حتى يأذن لى أبى) اى بالعود اليه (أو يحكم الله لى) بخلاص أخى (وهو خير الحاكمين) اى أعدلهم (فان قيل) هذه الواقعة من أولها الى آخرها تزوير وكذب فكيف يجوز ليوسف عليه السلام ان يعمل مثل هذه الاعمال بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه أيضا عنده مع علمه بشدة وجدان أبيه عليه وشدة غمه وفيه ما فيه من العقوق وايذاء الناس من غير ذنب لاسيما ويعلم انه اذا حبس أخاه عنده بهذه التهمة فانه يعظم حزن أبيه ويشتد غمه فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة في التزوير الى هذا الحد (أجيب) بأجوبة كثيرة للعلماء وأحسنها انه انما فعل ذلك بأمر الله تعالى له لا عن أمره وانما أمره الله تعالى بذلك ليزيد بلاء يعقوب عليه السلام فيضاعف له الاجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه ولله تعالى أسرار لا يعلمها أحد من خلقه وهو المتصرف في خلقه بما يشاء فهو الذى أخفى خبر يوسف عن يعقوب في هذه المدة مع قرب المسافة لما يريد ان يدبره فيهم والله أعلم بأحوال عباده ثم قال كبيرهم (ارجعوا الى أبيكم) دونى (فقولوا) له اى متلطفين في خطابكم (يا أبانا) وأكدوا مقالتكم فانه ينكرها وقولوا (ان ابنك سرق) (فان قيل) كيف يحكمون عليه بانه سرق من غير بينة وهو قد أجابهم بالجواب الشافى فقال الذى جعل الصاع في رحلى هو الذى جعل البضاعة في رحالكم (أجيب) بانهم لما شاهدوا الصاع وقد أخرج من متاعه غلب على ظنهم انه سرق فلذلك نسبوه الى السرقة في ظاهر الامر لا في حقيقة الحال ويدل على انهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم (وما شهدنا) عليه (الا بما علمنا) ظاهرا من رؤيتنا الصاع يخرج من وعائه وأما قوله وضع الصاع في رحلى من وضع البضاعة في رحالكم فالفرق ظاهر لان هناك لما رجعوا بالبضاعة اليهم اعترفوا بانهم هم الذين وضعوها في رحالهم وأما هذا الصاع فان أحدا لم يعترف بانه هو الذى وضع الصاع في رحله فلهذا السبب غلب على ظنهم انه سرق فشهدوا بناء على الظن (وما كنا للغيب) اى بما غاب عنا حين أعطينا الموثق (حافظين) اى ما كنا نعلم ان ابنك يسرق ويصير أمرنا الى هذا ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به معنا وانما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا الى حفظه سبيل وحقيقة الحال غير معلومة لنا فان الغيب لا يعلمه الا الله تعالى فلعل الصاع دس في رحله ونحن لا نعلم ذلك فلعل حيلة دبرت في ذلك غاب عنا علمها كما صنع في رد بضاعتنا (واسئل القرية) اى أهلها على حذف المضاف وهو

الشرعية التى يتوصل بها الى مصالح دينية كقوله تعالى لايوب وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وقول ابراهيم في حق زوجته هى أختى لتسلم من يد الكافر (قوله انه لا ييأس من روح

مجاز مشهور وقيل انه مجاز لكنه من باب اطلاق المحل وارادة الحال (التي كنا فيها) وهي مصر
عما أخبرناك به يخبروك بصدق قصتنا فان الامر قد اشتهر عندهم وقيل هي قرية من قرى مصر
كانوا ارتحلوا منها الى مصر (و) اسأل (العير) اى القافلة وهم قوم من كنعان جيران يعقوب
عليه السلام (التي أقبلنا فيها) والسؤال طلب الاخبار باداته من الهمزة أو هل أو غيرهما
والقرية الارض الجامعة لحدود فاصلة وأصلها من قريت الماء جمعته والعير قافلة الحمير من
العير بالفتح وهو الحمار هذا هو الاصل ثم كثر حتى استعمل في غير الحمير ولما كان ذلك بالانكار
لما يتحقق من كرم أخيهم أكدوه بقولهم (وانا) اى والله انا (لصادقون) في أقوالنا ولما
رجعوا الى أبيهم وقالوا له ما قال كبيرهم فكأنه قيل فما قال لهم فقيل (قال) لهم (بل سولت)
اى زينت تزيينا بليغا (لكم أنفسكم أمرا) اى حدثتكم بأمر ففعلتموه والا فما أدرى الملك
ان السارق يؤخذ بسرقته (فصبر جميل) اى فامرى صبر جميل أو فصبر جميل صبرى أو أجمل
وتقدم مثل ذلك في واقعة يوسف الا انه قال فيها والله المستعان على ما تصفون وقال هنا (عسى
الله أن يأتيني بهم) اى بيوسف وشقيقه بنيامين والاخ الثالث الذى أقام بمصر (جميعا) اى فلا
يتخلف منهم أحد وانما قال يعقوب عليه السلام هذه المقالة لانه لما طال حزنه واشتد بلاؤه
ومحنته علم ان الله تعالى سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله
تعالى وتفرس ان هذه الافعال نشأت عن يوسف عليه السلام وان الامر يرجع الى السلامة
والاجتماع ثم علل هذا بقوله (انه هو العليم) اى البليغ العلم بما خفى عنا من ذلك فيعلم أسبابه
الموصلة الى المقاصد (الحكيم) اى البليغ فيما يدبره ويقضيه (و) لما ضاق قلب يعقوب عليه
السلام بسبب الكلام الذى سمعه من ابنائه في حق بنيامين (تولى عنهم) اى انصرف بوجهه
عنهم لما تولى عنده من الحزن (وقال يا أسفا) اى يا أسفي (على يوسف) اى تعال هذا أوانك
والاسف أشد الحزن والحسرة والالف بدل من ياء المتكلم وانما تأسف على يوسف دون أخويه
والحادث انما هو مصيبتهما لان مصيبته كانت قاعدة المصائب والحزن القديم اذا صادفه حزن
آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الاول كما قال متمم بن نويرة لما رأى قبرا
جديدا جدد حزنه على أخيه مالك

فقالوا أتبكي كل قبر رأيته * لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت لهم ان الاسى يبعث الاسى * فدعنى فهذا كله قبر مالك

ولانه كان واثقا بحياتهما دون حياته وفي حديث رواه الطبراني لم تعط أمة من الامم انا لله وانا
اليه راجعون عند المصيبة الا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ألا ترى الى يعقوب حين أصابه
ما أصابه لم يسترجع وقال يا أسفا (وابيضت عيناه) اى انمحق سوادهما وبدل بياضا (من الحزن)
اى من كثرة البكاء عليه وقيل عند غلبة البكاء يكثر الماء في العين فتصير العين كأنها ابيضت
من بياض ذلك الماء وقيل ضعف بصره حتى صار يدرك ادراكا لطيفا وقيل عمى وقال مقاتل لم
يبصر بهما ست سنين حتى كشفه الله تعالى بقميص يوسف عليه السلام قيل ان جبريل عليه
السلام دخل على يوسف في السجن فقال ان بصر أبيك ذهب من الحزن عليك فوضع يده على

رأسه

الله) أى من رحمته الا القوم الكافرون (ان قلت) من المؤمنين من ييأس من روح الله لشدة مصيبته أو كثرة ذنوبه كما في قصة الذى أمر أهله اذا مات ان يحرقوه الحديث ثم ان الله تعالى

رأسه وقال ليت أمي لم تلدني ولم أكن حزنا على أبي (فان قيل) هذا اظهار للجزع وجار مجرى الشكاية وهو لا يليق بمثل يعقوب عليه السلام (أجيب) بانه لم يذكر الا هذه الكلمة ثم عظم بكاؤه ثم أمسك لسانه عن النياحة وذكر ما لا ينبغي ولم يظهر الشكاية مع أحد من الخلق ويدل لذلك قوله (فهو كظيم) أي مغموم مكروب لا يظهر كربه وقوله انما أشكو بثي وحزني الى الله فكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبته وقويت محنته صبر وتجرع الغصة وما أظهر الشكاية به فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثناء الجزيل وروى ان يوسف عليه السلام قال لجبريل عليه السلام هل لك علم بيعقوب قال نعم قال فكيف حزنه قال حزن سبعين ثكلى وهي التي لها ولد واحد يموت قال فهل له أجر قال نعم أجر مائة شهيد وامثال ذلك لا يدخل تحت التكليف فانه قل من يملك نفسه عند الشدائد وأيضا البكاء مباح فقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وانا على فراقك يا ابراهيم لمحزونون رواه الشيخان * (تنبيه) * شرف الانسان باللسان والعين والقلب فبين تعالى أن هذه الثلاثة كانت غريقة في الغم فاللسان كان مشغولا بقوله يا أسفا والعين بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد الذي يشبه الوعاء المملوء الذي سد فلا يمكن خروج الماء منه وهذا مبالغة في وصف ذلك الغم * ولما وقع من يعقوب عليه السلام ذلك كان قائلا يقول فما قال له أولاده فقيل (قالوا) له حنقا من ذلك (تالله تفتؤ) أي لا تفتؤ أي لا تزال (تذكر يوسف) تفجعا فتفتؤ جواب القسم وهو على حذف لا كقول الشاعر

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

ويدل على حذفها أنه لو كان مثبتا لاقترن بلام الابتداء ونون التوكيد معا عند البصريين أو أحدهما عند الكوفيين فتفتؤ هنا ناقصة بمعنى لا تزال كما تقرر ورسمت تفتؤ بالواو (حتى) الى أن (تكون حرضا) أي مشرفا على الهلاك لطول مرضك وهو مصدر يستوي فيه الواحد وغيره (أو تكون من الهالكين) أي الموتى (فان قيل) لم حلفوا على ذلك مع انهم لم يعلموا ذلك قطعا (أجيب) بانهم بنوا الامر على الظاهر قال أكثر المفسرين قائل هذا الكلام هم اخوة يوسف وقال بعضهم ليس الاخوة بل الجماعة الذين كانوا في الدار من أولاده وخدمه * ولما قالوا له ذلك فكأن قائلا يقول فما قال لهم فقيل (قال) لهم (انما أشكو بثي) والبث أشد الحزن سمي بذلك لانه من صعوبته لا يطاق حمله فيباح به وينشر (وحزني) مطلقا وان كان سببه خفيفا بقدر الخلق على ازالته (الى الله) المحيط بكل شيء علما وقدرة لا الى غيره فهو الذي تنفع الشكوى اليه (وأعلم من الله) أي الملك الاعلى من اللطف بنا أهل البيت (ما لا تعلمون) فيأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب وفي ذلك اشارة الى أنه كان يعلم حياة يوسف ويتوقع رجوعه اليه وذكروا لسبب هذا التوقع أمورا أحدها أن ملك الموت أتاه فقال له يا ملك الموت هل قبضت روح ابني يوسف قال لا يا نبي الله ثم أشار الى جانب مصر وقال اطلبه من ههنا ولذلك قال (يا بني اذهبوا فتحسسوا) أي والتحسس طلب الخبر بالحاسة وهو قريب من التجسس بالجيم وقيل التحسس بالحاء يكون في الخير وبالجيم يكون في الشر ومنه الجاسوس وهو الذي يطلب الكشف عن عورة الناس والمعنى تحسسوا خبرا (من) أخبار (يوسف

قوله (قالت) انما يياس من روح الله الكافر لا المؤمن عملا بظاهر الآية فكل من أيس من روح الله فهو كافر حتى يعود الى الايمان ولا نسلم ان صاحب القصة مات

وأخيه) أي اطلبوا خبرهما وثانيها أنه علم أن رؤيا يوسف عليه السلام صادقة لأن أمارات
الرشد والكمال ظاهرة في حق يوسف عليه السلام ورؤيا مثله لا تخطئ وثالثها لعل الله تعالى أوحى
اليه أنه سيوصله اليه ولكنه تعالى ما عين الوقت فلهذا بقي في القلق ورابعها قال السدي
لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكمال حاله وأقواله وأفعاله طمع في أن يكون هو يوسف وقال يبعد
أن يظهر في الكفار مثله ثم تلطف ببنيه وقال لهم (ولا تيأسوا) أي تقنطوا (من روح الله)
قال ابن عباس من رحمة الله وقال قتادة من فضل الله وقال ابن زيد من فرج الله (انه لا ييأس
من روح الله الا القوم الكافرون) أي القوم يقعون في الكفر قال ابن عباس ان المؤمن من
الله على خير يرجوه في البلاء ويحمده على الرخاء والكافر على الضد من ذلك فان اليأس من
رحمة الله لا يحصل الا اذا اعتقد الانسان أن اله العالم غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع
المعلومات أو ليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر واذا كان
اليأس لا يحصل الا عند حصول أحد هذه الثلاثة وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس
لا يحصل الا لمن كان كافرا وقرأ البزي بعد التاء من تيأسوا وبعد الياء من لا ييأس بالف
وبعدها ياء مفتوحة بخلاف عنه والباقون بهمزة مفتوحة قبلها ياء ساكنة ° ولما قال
يعقوب عليه السلام لبنيه ذلك قبلوا منه هذه الوصية وعادوا الى مصر (فلما دخلوا عليه) أي
على يوسف عليه السلام (قالوا يا أيها العزيز) وكان العزيز لقب الملك مصر يومئذ (مسنا وأهلنا)
أي من خلفناهم وراءنا (الضر) أي لا يسنا ملابسة نحسها (وجئنا ببضاعة) وقالوا (مزجاة) اما
لنقصها أو لرداءتها أولهما جميعا وقال الحسن البضاعة المزجاة القليلة واختلفوا في تلك
الرداءة فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام وقيل متاع الاعراب
الصوف والسمن وقيل الاقط وقيل النعال والادم وقيل ان دراهم مصر كان ينقش فيها صورة
يوسف عليه السلام والدراهم التي جاؤا بها ما كان فيها ذلك فما كانت مقبولة عند الناس ثم
سببوا من هذا الاعتذار لانه أقرب الى رحمة أهل الكرم قولهم (فأوف لنا الكيل) أي شفقة
علينا بسبب ضعفنا (وتصدق) أي تفضل (علينا) زيادة على الوفاء كما عودتنا بفضل ترجو
ثوابه ولما رأوا أفعاله تدل على تمسكه بدين الله تعالى علموا ذلك بقولهم (ان الله) أي الذي له
الكمال كله (يجزي المتصدقين) أي وان كانت على غني قوي فكيف اذا كانت على أهل
الحاجة والضعف ° (فائدة) ° سئل سفيان بن عيينة هل حرمت الصدقة على نبي من الانبياء
سوى نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام قال سفيان ألم تسمع قوله وتصدق علينا الآية يريد
أن الصدقة كانت حلالا لهم ولابيهم وروى أن الحسن سمع رجلا يقول اللهم تصدق علي قال
ان الله لا يتصدق وانما يتصدق من يبغي الثواب قل اللهم أعطني وتفضل علي (فان قيل) اذا
كان ابوهم امرهم أن يتحسسوا من يوسف واخيه فلم عادوا الى الشكوى (أجيب) بان
المتحسس يتوصل الى مطلوبه بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضمور رقة الحال وقلة المال
وشدة الحاجة وذلك مما يرق القلب فقالوا نجربه في هذه الامور فان رق قلبه لنا ذكرنا له
المقصود والا سكتنا فقدموا هذه المقدمة قال أبو حيان وذكر أنهم لما كلموه بهذا الكلام
أدركته الرقة على اخوته فارفض دمعه فباح بالذي كان يكتم فلهذا (قال) لهم (هل علمتم)

ايسوا ولم ييأسوا له الرجوع عن وصيته (قوله ولما ان جاء البشير) قاله هنا وفي العنكبوت آخر اف قوله ولما ان جاءت رسلنا لوطا بذكر ان وقال في هود ولما جاءت رسلنا لوطا وقد

مقررا

مقررا لهم بعد ان استأنسوا به قال البقاعى والظاهر ان هذا كان بغير ترجمان (ما) اى قبح الذى (فعلتم بيوسف) اى اخيكم الذى حلتم بينه وبين أبيه (وأخيه) فى جعلكم اياه فريدا منه ذليلا بينكم ثم فى قولكم له لما وجد الصاع فى رحله لايزال يأتينا البلاء من قبلكم يابنى راحيل وانما قال لهم ذلك نصحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكنهم لامعاتبة وتثريبا وقيل اعطوه كتاب يعقوب عليه السلام فى تخليص بنيامين وذكروا له ماهو فيه من الحزن على فقد يوسف وأخيه فقال لهم ذلك وقوله (اذ أنتم جاهلون) اى فاعلون فعلهم أولانهم كانوا حينئذ صبيانا طياشين تلويحا الى معرفته فقد روى أنه لما قال هذا تبسم وكان فى تبسمه أمر من الحسن لايجهله منه من رآه ولو مرة واحدة فعرفوه بذلك فلذلك (قالوا أئنك لانت يوسف) استفهام تقرير ولذلك حقق بان واللام عليه وقيل عرفوه بنظره وخلقه حين كلمهم وقيل دفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب واسحق مثلها وقرأ ابن كثير بهمزة مكسورة بعدها نون على الخبر وقرأ قالون وأبو عمرو بهمزة مفتوحة بعدها همزة مكسورة مسهلة بينهما ألف على الاستفهام وقرأ ورش بغير ألف بينهما والتسهيل فى الثانية على الاستفهام أيضا وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين مع القصر ولهشام وجه ثان وهو المد وقيل انهم لم يعرفوه حتى (قال) لهم (أنا يوسف) وزادهم بقوله (وهذا أخى) بنيامين شقيقى وانما ذكره لهم ليزيدهم ذلك معرفة له وتثبيتا فى أمره وليبنى عليه قوله (قد من الله علينا) قال ابن عباس بكل خير فى الدنيا والآخرة وقال آخرون بالجمع بيننا بعد التفرقة (انه من يتق) اى المعاصى (ويصبر) اى على البليات وأذى الناس وقال ابن عباس يتق الزنا ويصبر على العزوبة وقال مجاهد يتق المعصية ويصبر على السجن (فان الله لايضيع أجر المحسنين) والمعنى انه من يتق ويصبر فان الله لايضيع أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين وقرأ قنبل باثبات الياء بعد القاف وقفا ووصلا واختلف المعربون فى ذلك على وجهين أجودهما أن اثبات حرف العلة فى الجزم لغة لبعض العرب وأنشدوا عليه قول قيس بن زهير

ألم يأتيك والانباء تنمى • بما لاقت لبون بنى زياد

(وقول الآخر)

هجوت زبان ثم جئت معتذرا • من هجو زبان لم تهجو ولم تدع

(وقول الآخر)

اذا العجوز غضبت فطلق • ولاترضاها ولاتملق

والثانى أنه مرفوع غير مجزوم ومن موصولة والفعل صلتها فلذلك ثبتت لامه وسكن يصبر لتوالى الحركات وان كانت فى كلمتين وقرأ الباقون بالحذف وقفا ووصلا ولما ذكر يوسف عليه السلام لاخوته ان الله تعالى من عليه وأنه من يتق ويصبر فان الله تعالى لايضيعهم صدقوه فيه واعترفوا له بالفضل والمرتبة ولذلك (قالوا) مقسمين بقولهم (تالله) أى الملك الاعظم (لقد آثرك) أى اختارك (الله علينا) بالعلم والعقل والحلم والحسن والملك والتقوى وغير ذلك واحتج بعضهم بهذه الآية على ان اخوته ما كانوا أنبياء لان جميع المناصب التى

العنكبوت اولا والمابات
ورسلنا ابراهيم بحذفها تنبيها
على جواز الامرين
والقول بان ذكر ان بعد لما
على وقوع جواب لما الا
بخلاف ما اذا حذفت
يردبان آية هود وآية

تكون مغايرة لمنصب النبوة كالعدم بالنسبة اليه فلو شاركوه في منصب النبوة لما قالوا ذلك ثم قالوا (وان كنا لخاطئين) أي والحال ان شاننا انا كنا مذنبين بما فعلنا معك ولذلك أذلنا الله تعالى لك فكأنه قيل ما قال لهم على قدرته وتمكنه مع ما سلف من اهانتهم له فقيل (قال) لهم قول الكرام اقتداء باخوانه من الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام (لا تثريب) اى لا لوم ولا تعنيف ولا اهلاك (عليكم اليوم) وانما خصه بالذكر لانه مظنة التثريب فاذا انتفى ذلك فيه فما ظنك بما بعده ولما أعفاهم من التثريب كانوا في مظنة السؤال عن كمال العفو المزيل للعقاب من الله تعالى فاتبعه الجواب عن ذلك بالدعاء لهم بقوله (يغفر الله) أي الذي لا اله غيره (لكم) اى ما فرط منكم وعبر في هذا الدعاء بالمضارع ارشاد لهم الى اخلاص التوبة ورغبهم في ذلك ورجاهم بالصفة التي هي سبب الغفران فقال (وهو) تعالى (أرحم الراحمين) لجميع العباد لاسيما التائب فهو جدير بادراك النعم روى أنهم أرسلوا اليه انك لتدعونا الى طعامك وكرامتك بكرة وعشيا ونحن نستحي مما فرط منا فقال ان أهل مصر ينظرون الي وان ملكت فيهم بعين العبودية فيقولون سبحان من بلغ عبدا بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت الآن بكم وعظمت في العيون حيث علم الناس أنكم اخوتي واني من ذرية ابراهيم عليه السلام ولما أقر أعينهم بعد اجتماع شملهم بازالة ما تخشونه دنيا وأخرى سال عن أبيه فقال ما فعل أبي بعدي قالوا ابيضت عيناه من الحزن فاعطاهم قميصه وقال (اذهبوا بقميصي هذا) وهو قميص ابراهيم عليه السلام الذي لبسه حين ألقي في النار عريانا فاتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فالبسه اياه وكان ذلك عند ابراهيم فلما مات ابراهيم ورثه اسحق فلما مات اسحق ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك في قصبة من فضة وسد رأسها وعلقها في عنقه لما كان يخاف عليه من العين وكان لا يفارقه فلما ألقي في البئر عريانا جاءه جبريل وعلى يوسف ذلك التعويذ فاخرج القميص والبسه اياه ففي الوقت جاءه جبريل عليه السلام وقال ارسل ذلك القميص فان فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا على سقيم الا عوفي فدفع يوسف ذلك القميص الى اخوته وقال اذا وصلتم الى أبي (فالقوه على وجه أبي يأت) أي يصر (بصيرا) أي يرد اليه بصره كما كان أو يأت الي حال كونه بصيرا (وائتوني) أي أبي وأنتم (باهلكم) اى مصاحبين لكم (أجمعين) لا يتخلف منكم أحد فرجعوا بالقميص لهذا القصد وروى أن يهوذا هو الذي حمل القميص لما لطخوه بالدم فقال لا يحمل هذا غيري لافرحه كما احزنته فحمله وهو حاف من مصر الى كنعان وبينهما ثمانون فرسخا (ولما فصلت العير) من عريش مصر وهو آخر بلاد مصر الى اول بلاد الشام (قال ابوهم) لولد ولده ومن حوله من اهله مؤكدا لعلمه انهم ينكرون قوله (انى لاجد ريح يوسف) اوصلته اليه ريح الصبا باذن الله تعالى من مسيرة ثلاثة ايام او ثمانية ايام أو اكثر قال مجاهد هبت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام انه ليس في الدنيا من ريح الجنة الا ما كان من ذلك القميص قال اهل المعاني ان الله تعالى اوصل اليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجيء وقت الفرج من المكان البعيد ومنع من وصول خبره اليه مع قرب احدى البلدتين من الاخرى في مدة ثمانين سنة وذلك يدل على ان كل سهل فهو في زمان المحنة صعب

العنكبوت التي ذكر فيها ان تجدتان شرطا وجوابا مع ان انذكرت في احداهما وحذفت من الاخرى الا ان يقال انها اذا لم تذكر لم يلزم وقوع جواب لما الا (قوله

وكل صعب فهو في زمان الاقبال سهل ومعنى أجد ريح يوسف أشم وعبر بالوجود لانه وجدان له بحاسة الشم (لولا أن تفندون) اى تنسبوني الى الخرف قال أبو بكر الانباري أفند الرجل اذا خرف وتغير عقله وعن الاصمعي اذا كثر كلام الرجل من خرف فهو مفند قال في الكشاف يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة لانها لم تكن في شبيبتها ذات رأي حتى تفند في كبرها وقيل التفنيد الافساد يقال فندت فلانا اذا أفسدت رأيه ورددته قال بعضهم

يا صاحبي دعا لومي وتفنيدي ● فليس ما فات من أمر بمردود

ولما ذكر يعقوب عليه السلام ذلك (قالوا) اى الحاضرون عنده (تالله انك لفي ضلالك) اى حبك (القديم) ليوسف لا تنساه ولا تذهل عنه على بعد العهد وهو كقول اخوة يوسف ان أبانا لفي ضلال مبين وقال مقاتل معنى الضلال هنا الشقاء اى شقاء الدنيا والمعنى انك لفي شقائك القديم بما تكابده من الاحزان على يوسف وقال الحسن انما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات فكان يعقوب في ولوعه بذكره ذاهبا عن الرشد والصواب ثم انهم عجلوا له بشيرا فاسرع قبل وصولهم بالقميص (فلما) وزيدت (ان) لتأكيد مجيئه على تلك الحالة وزيادتها بعد لما قياس مطرد (جاء البشير) وهو يهوذا بذلك القميص (ألقاه) اى طرحه البشير (على وجهه) اى يعقوب وقيل ألقاه يعقوب على وجه نفسه (فارتد) اى رجع (بصيرا) أى صيره الله بصيرا كما كان كما يقال طالت النخلة والله تعالى هو الذي أطالها ولما ألقى القميص على وجهه وبشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه وانشرح صدره وزالت أحزانه فعند ذلك (قال) لبنيه (ألم أقل لكم انى أعلم من الله ما لا تعلمون) من حياة يوسف وان الله تعالى يجمع بيننا قال السهيلي لما جاء البشير الى يعقوب عليه السلام أعطاه في بشارته كلمات كان يرويها عن أبيه عن جده عليهم السلام وهي يا لطيفا فوق كل لطيف الطف بي في أموري كلها كما أحب ورضني في دنياي وآخرتي وروى ان يعقوب عليه السلام قال للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال ما أصنع بالملك على أي دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة فعند ذلك (قالوا يا أبانا) منادين بالاداة التي تدل على الاهتمام العظيم بما بعدها لما له من عظيم الوقع (استغفر) اى اطلب من الله تعالى ان يغفر (لنا ذنوبنا) اى التي اقترفناها ثم قالوا مؤكدين تحقيقا للاخلاص في التوبة (انا كنا خاطئين) اى متعمدين للاثم بما ارتكبنا في أمر يوسف عليه السلام ومن حق المعترف بذنبه أن يصفح عنه ويسئل له المغفرة قال صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه فكأنه قيل فما قال لهم فقيل (قال) لهم (سوف أستغفر) اى اطلب ان يغفر (لكم ربي) الذي أحسن الي بأن يغفر لي حتى لا يفرق بيني وبينهم في دار البقاء والربوبية هو أتم الملك على الاطلاق وهو ملك الله تعالى وظاهر هذا الكلام انه لم يستغفر لهم في الحال بل وعدهم بأن يستغفر لهم بعد ذلك واختلفوا في سبب هذا المعنى على وجوه فقال ابن عباس والاكثرون أراد أن يستغفر لهم في وقت السحر لان هذا الوقت أوفق الاوقات لرجاء الاجابة وفي رواية أخرى له انه أخر الاستغفار الى ليلة الجمعة لانها أوفق لاوقات الاجابة وقال وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة وقال طاوس أخر الى السحر من ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشوراء

وخروا له سجدا) ان قلت كيف جاز لهم ان يسجدوا ليوسف والسجود لغير الله حرام (قلت) المراد انهم جعلوه كالقبلة ثم سجدوا لله شكرا لنعمة وجدان يوسف كما تقول صليت

وقيل استغفر لهم في الحال وقوله سوف أستغفر لكم ربي معناه انى أدوم على هذا الاستغفار في الزمان المستقبل وقيل قام الى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ رفع يديه وقال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لاولادي ما فعلوا في حق يوسف فأوحى الله تعالى اليه انى قد غفرت لك ولهم أجمعين وعن الشعبي قال اسأل يوسف ان عفا عنكم استغفر لكم ربي (انه هو الغفور الرحيم) كل ذلك تسكينا لقلوبهم وتصحيحا لرجائهم وروى أن يوسف عليه السلام كان بعث مع البشير الى يعقوب عليه السلام مائتى راحلة وجهازا كثيرا ليأتوا يعقوب وأهله وولده فتهيأ يعقوب عليه السلام للخروج الى مصر فخرج بهم فلما دنا من مصر كلم يوسف الملك الذى فوقه فخرج يوسف عليه السلام والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وركب أهل مصر معهما بأجمعهم يتلقون يعقوب وكان يعقوب يمشى وهو يتوكأ على يهوذا فنظر الى الخيل والناس فقال يا يهوذا هذا فرعون مصر قال لا هذا ابنك يوسف فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدؤه بالسلام فقال له جبريل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام فقال يعقوب السلام عليك يا مذهب الاحزان وقال الثورى لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكى فقال يوسف يا أبت بكيت على حتى ابيضت عيناك ألم تعلم ان القيامة تجمعنا قال بلى يا بنى ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك فذلك قوله تعالى (فلما دخلوا على يوسف آوى) اى ضم (اليه أبويه) قال الحسن أباه وأمه وكانت حية أكرمهما بما يتميزان به وغلب الاب في التثنية لذكورته وعن ابن عباس أنها خالته لما وكانت أمه قد ماتت في نفاس بنيامين قال البغوى وفى بعض التفاسير ان الله تعالى أحيا أمه حتى جاءت مع يعقوب الى مصر (فان قيل) ما معنى دخولهم عليه قبل مصر (أجيب) بانه حين استقبلهم نزل بهم في خيمة أو بيت هناك فدخلوا عليه وضم اليه أبويه (وقال) مكرما (ادخلوا مصر) اى البلد المعروف وأتى بالشرط للامن لا للدخول فقال (ان شاء الله آمنين) من جميع ما ينوب حتى مما فرطتم في حقى وفى حق أخى روى ان يعقوب عليه السلام وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى عليه السلام والمقاتلون منهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الصبيان والشيوخ (و) لما استقرت بهم الدار بدخول مصر (رفع أبويه) اى أجلسهما معه (على العرش) أى السرير الرفيع والرفع هو النقل الى العلو (وخروا له) اى انحنوا له أبواه واخوته (سجدا) اى سجود انحناء والتواضع قد يسمى سجودا كقول الشاعر

• ترى الأكم فيها سجدا للحوافر • لا وضع جبهة وكان تحيتهم في ذلك الزمان او أنهم وضعوا الجباه وكان ذلك على طريقة التحية والتعظيم لا على طريقة العبادة وكان ذلك جائزا في الامم السالفة فنسخت في هذه الشريعة وروى عن ابن عباس انه قال معناه خروا لله سجدا بين يدى يوسف عليه السلام فيكون سجود شكر لله لاجل وجدان يوسف ويدل عليه قوله تعالى ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا وذلك يشعر بانهم صعدوا على السرير ثم سجدوا لله تعالى ولو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لان ذلك أدخل في التواضع (فان قيل) هذا التأويل لا يطابق قول يوسف عليه السلام (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى

اللام للعلة أو وصلت لقبلة سجدوا لله تعالى أى لاجله ومنه قوله رأيتهم لى ساجدين اى الكواكب اى أنها سجدت لله لاجل مصلحتى والسعى في إعلاء منصبى وقوله وقد أحسن بى حيث جعلنى

من قبل) والمراد منه قوله انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين أى رأيتهم ساجدين لاجلى اى انهم سجدوا لله لطلب مصلحتى والسعى فى اعلاء منصبى واذا كان هذا محتملا سقط السؤال قال الرازى وعندى أن هذا التأويل متعين لانه يبعد من عقل يوسف ودينه ان يرضى بأن يسجد له ابوه مع سابقته فى حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة اوانهم جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا شكر النعمة وجدانه فانه يقال صليت للكعبة كما يقال صليت الى الكعبة قال حسان

ما كنت أعرف ان الامر منصرف • عن هاشم ثم منها عن أبى الحسن
أليس اول من صلى لقبلتكم • واعرف الناس بالآثار والسنن

ثم استأنف يوسف عليه السلام فقال (قد جعلها ربى) اى الذى رباني بها وصلنى اليها (حقا) أى مطابقة للواقع لتأويلها وتأويل ما اخبرتنى به أنت والتأويل تفسير ما يؤول اليه معنى الكلام وعن سلمان رضى الله تعالى عنه ان ما بين رؤياه وتأويلها أربعون سنة وعن الحسن انه القى فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وبقى فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ثم وصل الى ابيه واقاربه وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة فكان عمره مائة وعشرين سنة (وقد أحسن) اى اوقع احسانه (بى) تصديقا لما بشرتنى به من اتمام النعمة وتعدية احسن بالباء أدل على القرب من التعدية بالى وان كان أصل احسن ان يتعدى بالى كما قال تعالى وأحسن كما احسن الله اليك وقيل ضمن معنى لطف فتعدى بالباء كقوله تعالى وبالوالدين احسانا وقال (اذ اخرجنى من السجن) ولم يذكر اخراجه من الجب لوجوه اولها انه قال لاخوته لاتثريب عليكم اليوم ولو ذكر واقعة الجب لكان ذلك تثريبا لهم فكان اهماله جاريا مجرى الكرم ثانيها أنه لما خرج من الجب لم يصر ملكا بل صير وعبدا واما صار ملكا بعد اخراجه من السجن فكان هذا الاخراج أقرب من أن يكون انعاما كاملا ثالثها انه لما خرج من الجب وقع فى المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة ولما خرج من السجن وصل الى ابيه واخوته فكان هذا أقرب الى المنفعة مع ان اللفظ محتمل لجب أيضا لكنه احتمال خفى ولما كان يعقوب وولده بارض كنعان وتحول الى بدو وقال ابن عباس ومنه قدم على يوسف قال يوسف عليه السلام (وجاء بكم من البدو) أى من أطراف بادية فلسطين وذلك من أكبر النعم كما جاء فى الحديث من يرد الله به خيرا ينقله من البادية الى الحاضرة والبدو ضد الحاضرة وهو من الظهور يقال بدا يبدو اذا سكن فى البادية يروى عن عمر اذا بدونا جفونا اى تخلقنا باخلاق البدويين قال الواحدى البدو بسط من الارض يظهر فيه الشخص من بعيد وأصله من بدا يبدو بدوا ثم سمى المكان باسم المصدر وفى الآية دلالة على ان فعل العبد خلق الله تعالى لانه أضاف اخراجه من السجن الى الله تعالى ومجيئهم من البدو اليه (من بعد أن نزغ) أى افسد (الشيطان) بسبب الحسد (بينى وبين اخوتى) واصل النزغ دخول فى امر لافساده (فان قيل) اضافة يوسف عليه السلام الخير الى الله تعالى والشر الى الشيطان تقتضى ان فعل الشر ليس من الله تعالى كما قاله بعض المبتدعة ولو كان منه لاضافه اليه (أجيب) بان اضافة هذا الفعل الى الشيطان مجاز لان الفاعل المطلق هو الله تعالى فى الحقيقة قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا

اذ اخرجنى من السجن) ان قلت لم ذكر يوسف عليه السلام نعمة الله عليه فى اخراجه من السجن دون اخراجه من الجب مع انه أعظم نعمة لان وقوعه فى الجب كان اعظم خطرا

القصد فاثبت بذلك ان الكل من عند الله تعالى و بقضائه وقدره وليس للشيطان فيه مدخل الا بالقاء الوسوسة و التحريش لافساد ذات البين وذلك باقدار الله تعالى اياه على ذلك كما حكى الله تعالى ذلك عنه بقوله تعالى وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى ولما كان حصول الاجتماع بينه و بين اخوته وابويه مع الالفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال وكان فى غاية البعد عن العقول الا أنه تعالى لطيف قال يوسف عليه السلام (ان ربى لطيف لما يشاء) أى لطيف التدبير له اذ ما من صعب الا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهل دونها فاذا أراد حصول الشئ سهل أسبابه فحصل وان كان فى غاية البعد عن الحصول (انه هو العليم) بوجوه المصالح والتدابير (الحكيم) أى الذى يفعل كل شئ فى وقته وعلى وجه يقتضى الحكمة روى ان يوسف عليه السلام طاف بابيه فى خزائنه فلما ادخله خزانة القرطاس قال يا بنى ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت الىّ على ثمان مراحل قال أمرنى جبريل بذلك قال أوما تسأله قال أنت اقرب منى اليه فسأله فقال جبريل الله أمرنى بذلك لقولك واخاف ان ياكله الذئب قال فهلا خفتنى ولما حضر يعقوب عليه السلام الموت وصى يوسف عليه السلام ان يحمله ويدفنه عند أبيه فمضى بنفسه فدفنه ثمة ثم عاد الى مصر وأقام بعده ثلاثا وعشرين سنة ولما تم امره وعلم أنه لا يدوم تاقت نفسه الى الملك الدائم فقال (رب قد آتيتنى) وافتتح بقد لان الحال حال توقع السامع لشرح حال الرؤيا (من الملك) اى بعضه بعد بعدى منه جدا وهو ملك مصر (وعلمتنى من) اى بعض (تأويل الاحاديث) طبق ما بشرنى به ابى واخبرت به أنت من التمكين والتعليم قبل ذلك والله غالب على امره ثم ناداه بوصف جامع للعلم والحكمة فقال (فاطر) أى خالق (السموات والارض) ثم اعلمه باعراضه عن نفسه من انه لا يعول على غيره فى شئ من الاشياء (أنت وليى) اى الاقرب الى باطنا وظاهرا (فى الدنيا والآخرة) اى لا ولى لى غيرك والولى يفعل لموليه الاصلح والاحسن فاحسن لى فى الآخرة اعظم مما احسنت لى فى الدنيا روى أنه صلى الله عليه وسلم حكى عن جبريل عن رب العزة جل وعلا أنه قال من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته افضل ما اعطى السائلين فلهذا المعنى من أراد الدعاء لابد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله تعالى فهذا يوسف عليه السلام لما اراد ان يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض ثم ذكر عقبه الدعاء وهو قوله (توفنى) اى اقبض روحى وافيا تاما فى جميع امرى حسا ومعنى حال كونى (مسلما) ولما كان المسلم حقيقة من كان عريقا فى الاخلاص عقبه بقوله (والحقنى بالصالحين) ونظيره ما فعله الخليل عليه السلام فى قوله الذى خلقنى فهو يهدين من ههنا الى قوله رب هب لى حكما ثناء على الله تعالى ثم من قوله رب هب لى حكما الى آخر الكلام دعاء فكذا هنا *(تنبيه)* اختلف فى قوله توفنى مسلما هل هو طلب منه الوفاة أم لا فقال قتادة سأل ربه اللحوق به ولم يتمن نبى قط الموت قبله وكثير من المفسرين على هذا القول وقال ابن عباس فى رواية عطاء يريد اذا توفيتنى فتوفنى على الاسلام فهذا طلب لان يجعل الله تعالى وفاته على الاسلام وليس فيه ما يدل على انه طلب الوفاة واللفظ صالح للامرين ولا يبعد فى الرجل العاقل اذا كمل عقله أن يتمنى الموت وتعظم رغبته فيه لوجوه

(قلت) لان مصيبة الدين كانت عنده اعظم لطول مدتها ولصاحبته الاوباش واعداء الدين فيه بخلاف مصيبة الجب لقصر مدتها ولكون المؤنس له فيه جبريل عليه السلام وغيره

كثيرة

كثيرة منها ان الخطباء والبلغاء وان أطنبوا فى مذمة الدنيا الا أن حاصل كلامهم يرجع الى ثلاثة أمور احدها ان هذه السعادات سريعة الزوال مشرفة على الفناء والالم الحاصل عند زوالها أشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها وثانيها انها غير خالصة بل هى ممزوجة بالمنغصات والمكدرات وثالثها ان الاراذل من الخلق يشاركون الافاضل فيها بل ربما كان حصة الاراذل أعظم بكثير من حصة الافاضل فهذه الجهات الثلاثة منفرة عن هذه اللذات ولما عرف العاقل انه لا يمكن تحصيل هذه اللذات الا مع هذه الجهات الثلاثة المنفرة لا جرم تمنى الموت ليتخلص عن هذه الآفات ومنها أن مداخل اللذات الدنيوية قليلة وهى ثلاثة أنواع لذة الاكل ولذة النكاح ولذة الرياسة ولكل واحدة منها عيوب كثيرة أما لذة الاكل ففيها عيوب احدها ان هذه اللذة ليست لذة قوية فانه لا يمكن ابقاؤها فان الانسان اذا أكل وشبع لم يبق فيه الالتذاذ بالاكل فهذه اللذة ضعيفة ومع ضعفها غير باقية وثانيها انها فى نفسها خسيسة وان الاكل عبارة عن ترطيب ذلك الطعام بالبزاق المجتمع فى الفم ولا شك انه شئ منفر ولما يصل الى المعدة يظهر فيه الاستحالة الى الفساد والنتن والعفونة وذلك أيضا منفر وثالثها ان جميع الحيوانات الخسيسة مشاركة فيها ورابعها ان الاكل انما يطيب عند اشتداد الجوع والجوع نقص وآفة وخامسها ان الاكل مستحقر عند العقلاء حتى قيل من كانت همته ما يدخل فى بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه فهذه اشارات مختصرة الى معايب الاكل وأما لذة النكاح فما ذكر فى الاكل حاصل هنا مع أشياء أخر وهى ان النكاح سبب لحصول الولد وحينئذ تكثر الاشخاص فتكثر الحاجات الى المال فيحتاج الانسان بسببها الى الاحتيال فى المال بطرق لا نهاية لها وربما صار هالكا بسبب طلب المال وأما لذة الرياسة فعيوبها كثيرة منها أن يكون على شرف الزوال فى كل حين وأوان ومنها انه عند حصولها فى الخوف الشديد من الزوال ومنها أنه يكون عند زوالها فى الاسف العظيم والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال فالعاقل اذا تأمل فى هذه المعانى علم قطعا انه لا صلاح له فى طلب هذه اللذات فيكون لقاء الله عنده أروح فيتمنى الموت وعن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه أن ميمون بن مهران بات عنده فرآه كثير البكا والمسئلة للموت فقال له صنع الله لك خيرا كثيرا أحييت سننا وأمت بدعا وفى حياتك خير وراحة للمسلمين فقال أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقر الله عينه وجمع له أمره قال توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين (فان قيل) الانبياء عليهم الصلاة والسلام يعلمون أنهم يموتون لا محالة على الاسلام فكان هذا الدعاء حاصله طلب تحصيل الحاصل وانه لا يجوز (أجيب) بان حال كمال المسلم أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الاستسلام ويرضى بقضاء الله وتطمئن النفس وينشرح الصدر وينفسح القلب فى هذا الباب وهذه حالة زائدة على الاسلام الذى هو ضد الكفر والمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى (فان قيل) ان يوسف عليه السلام كان من أكابر الانبياء والصلاح أول درجة المؤمنين فالواصل الى الغاية كيف يليق به أن يطلب البداية (أجيب) بان ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال يعنى بان يلحقه بآبائه ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والمعنى ألحقنى بهم فى ثوابهم ودرجاتهم وولد ليوسف عليه السلام من امرأة

من الملائكة ولان فى ذكر [illegible] الجب ... وتقربها لاخوته بعد قوله لا تثريب عليكم اليوم وقوله توفنى ... قلت كيف قال ... يوسف ذلك مع علمه بان كل نبى لا يموت الا مسلما (قلت

العزيز ثلاثة افراثيم وميشا وهو جد يوشع بن نون ورحمة امرأة أيوب عليهم السلام ولما تاقت نفسه الى الملك المخلد وتمنى الموت فلم يات عليه أسبوع حتى توفاه الله عز وجل طيبا طاهرا وتشاح الناس في دفنه فطلب أهل كل محلة أن يدفن في محلتهم رجاء بركته حتى هموا بالقتال فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل حيث يتفرق الماء بمصر ليجري عليه الماء وتصل بركته الى جميعهم قال عكرمة دفن في الجانب الايمن من النيل فاخصب ذلك الجانب واجدب الجانب الآخر فنقل الى الجانب الايسر فاخصب ذلك الجانب واجدب الآخر فدفنوه في وسطه وقدروا ذلك بسلسلة فاخصب الجانبان الى أن اخرجه موسى عليه السلام ودفنه بقرب آبائه بالشام وقد يسر الله تعالى زيارته وزيارة آبائه في عام شرعت في هذه التفسير سنة أربع وستين وتسعمائة جمعني الله تعالى وآبائي وأهلي واصحابي وأحبابي معهم في دار كرامته * ولما تم الذي كان من أمر يوسف عليه السلام واخوته على الوجه الاحكم والصراط الاقوم من ابتدائه الى انتهائه قال تعالى مشيرا الى أنه دليل كاف في تصحيح نبوته صلى الله عليه وسلم بقوله (ذلك) اى الذي ذكرته لك يا محمد من قصة يوسف عليه السلام وما جرى له مع اخوته ثم صار الى الملك بعد الرق (من أنباء الغيب) اى اخبار ما غاب عنك (نوحيه اليك) اى الذي اخبرناك به من اخبار يوسف وحي اوحيناه اليك (و) الحال انك (ما كنت لديهم) اى عند اخوة يوسف عليه السلام (اذ) اى حين (اجمعوا امرهم) اى عزموا على أمر واحد وهو القاء يوسف في الجب (وهم يمكرون) اى يدبرون الاذى في الخفية بيوسف والمعنى ان هذا النبأ غيب لانه صلى الله عليه وسلم ما طالع الكتب ولا تتلمذ لاحد ولا كانت البلدة بلدة العلماء واتيانه صلى الله عليه وسلم بهذه القصة الطويلة على وجه لا يقع فيها تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم ومن غير أن يقال انه حاضر معهم لابد وأن يكون معجزا وقوله تعالى وما كنت لديهم ذكر على سبيل التهكم بهم لان كل أحد يعلم أن محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان معهم ولما سالت قريش واليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نقله أبو حيان عن ابن الانباري عن قصة يوسف عليه السلام فنزلت مشروحة هذا الشرح الشافي مبينة هذا البيان الوافي فامل صلى الله عليه وسلم ان يكون ذلك سبب اسلامهم فخالفوا تأميله عزاه الله تعالى بقوله (وما أكثر الناس) أى اهل مكة (ولو حرصت) على ايمانهم (بمؤمنين) لعنادهم وتصميمهم على الكفر وكان ذلك اشارة الى ما ذكر الله تعالى في قوله تعالى انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ثم نفى عنه التهمة بقوله تعالى (وما تسألهم عليه) اى على تبليغ هذا الكتاب الذي أوحيناه اليك واغرق في النفي فقال (من اجر) حتى يكون سؤالك سببا لان يتمولك او يقولوا لولا انزل عليه كنز ليستغني به عن سؤالنا ثم نفى عن هذا الكتاب كل غرض دنيوي بقوله تعالى (ان هو الا ذكر) اى عظة من الله تعالى (للعالمين) عامة ثم ان الله تعالى اخبر عنهم انهم لما تاملوا الآيات الدالة على توحيده تعالى بقوله تعالى (وكأين) أى وكم (من آية) دالة على وحدانية الله تعالى (في السموات) كالنيرين وسائر الكواكب والسحاب وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى (والارض) من الجبال والشجر والدواب وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى (يمرون عليها) اى يشاهدونها (وهم عنها

قاله اظهارا للعبودية والافتقار وشدة الرغبة في طلب سعادة الخاتمة وتعليما للامة وطلبا للثواب (قوله وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) * ان قلت كيف قال ذلك مع ان

معرضون)

معرضون) اى لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون اذ لم ينظروا في الدلائل على نبوتك فان العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ثم انهم يمرون عليها ولا يلتفتون اليها • ولما كان ربما قيل كيف يوصفون بالاعراض وهم يعتقدون ان الله تعالى فاعل تلك الآيات بين ان اشراكهم مسقط لذلك بقوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله) حيث يقرون بانه الخالق الرازق (الا وهم مشركون) بعبادتهم الاصنام قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله لكنهم كانوا يثبتون شريكا في العبودية وعن ابن عباس ان هذه الآية نزلت في تلبية مشركى العرب كانوا يقولون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك يعنون الاصنام وعنه أيضا ان اهل مكة قالوا الله ربنا وحده لا شريك له والملائكة بناته فلم يوحدوا بل أشركوا وقال عبدة الاصنام ربنا الله وحده والاصنام شفعاؤنا عنده وقالت اليهود ربنا الله وحده وعزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال عبدة الشمس والقمر ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا وقال المهاجرون والانصار ربنا الله وحده لا شريك له ولما كان أكثر هؤلاء لا ينقادون الا بالعذاب قال تعالى (أفأمنوا) انكار فيه معنى التوبيخ والتهديد (أن تأتيهم) في الدنيا (غاشية) اى نقمة تغشاهم وتشملهم (من عذاب الله) أى الذى له الامر كله كما أتى من ذكرنا قصصهم من الامم (أو تأتيهم الساعة بغتة) أى فجأة وهم عنها في غاية الغفلة وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) أى بوقت اتيانها قبله كالتأكيد لقوله بغتة • ولما كان صلى الله عليه وسلم مبلغا عن الله تعالى امره أن يأمرهم باتباعه بقوله تعالى (قل) يا أعلى الخلق وأصفاهم وأعظمهم نصحا واخلاصا (هذه) اى الدعوة الى الله تعالى التى أدعو اليها (سبيلى) أى طريقتى التى ادعو اليها الناس وهى توحيد الله تعالى ودين الاسلام وسمى الدين سبيلا لانه الطريق المؤدى الى ثواب الجنة (ادعوا الى الله) اى الى توحيده والايمان به (على بصيرة) اى حجة واضحة وقوله (أنا) تأكيد للمستتر في أدعو وعلى بصيرة لانه حال منه او مبتدأ خبره على بصيرة وقوله (ومن اتبعنى) اى ممن آمن بى وصدق بما جاءنى عطف عليه لان كل من ذكر الحجة وأجاب عن الشبهة فقد دعا بقدر وسعه الى الله وهذا دل على ان الدعاء الى الله انما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو ان يكون على بصيرة مما يقول ويقين فان لم يكن كذلك والا فهو محض الغرور وقال صلى الله عليه وسلم العلماء امناء الرسل على عباد الله من حيث يحفظون ما يدعون اليه • (فائدة) • جميع القراء يثبتون الياء وقفا ووصلا لثباتها في الرسم (وسبحان) أى وقل سبحان (الله) تنزيها لله تعالى عما يشركون به (وما أنا من المشركين) أى الذين اتخذوا مع الله ضدا وندا ولما قال أهل مكة للنبى صلى الله عليه وسلم هلا بعث الله ملكا قال تعالى (وما ارسلنا من قبلك) الى المكلفين (الا رجالا) اى مثل ما انك رجل لا ملائكة ولا اناثا كما قاله ابن عباس ولا من الجن كما قاله الحسن (يوحى اليهم) اى بواسطة الملائكة مثل ما يوحى اليك وقرأ حفص قبل الواو بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء وفتح الحاء وضم الهاء من اليهم حمزة على أصله وكسرها الباقون (من اهل القرى) أى من اهل الامصار والمدن المبنية بالمدر والحجر ونحوه لا من اهل البوادى لان اهل الامصار افضل وأعلم واكمل واعقل من اهل البوادى ومكة ام القرى لانها مجمع لجميع الخلائق لما أمروا به من حج البيت وكان العرب كلهم

(قلت) الايمان والشرك لا يجتمعان معناه وما يؤمن اكثرهم بان الله خالقه ورازقه وخالق كل شئ قولا الا وهو مشرك بعبادة الاصنام فعلا او المراد به المنافقون يؤمنون بالسنتهم

يأتونها فكيف تغضبوا في حقك قال الحسن لم يبعث الله نبيا من البادية لغلظهم وجفائهم ثم هددهم سبحانه وتعالى بقوله تعالى (أفلم يسيروا) أي هؤلاء المشركون المكذبون (في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من المكذبين الرسل والآيات فيحذروا تكذيبك ويعتبروا بهم وبما حل بهم من عذابه ولما كان الله تعالى ينجي المؤمنين عند نزول العذاب بالامم الماضية المكذبة وما في الآخرة خير لهم بين ذلك بقوله تعالى (ولدار الآخرة) أي ولدار الحال الآخرة او الساعة الآخرة او الحياة الآخرة (خير) وهي الجنة (للذين اتقوا) الله من حيث ما آلها الموت وان فرحوا في الحال وان امتدت ألف عام وكان عيشها كله رغدا من غير آلام (أفلا يعقلون) فيستعملون عقولهم فيتبعون الداعي الى هذا السبيل الاقوم وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتاء على الخطاب لاهل مكة والباقون بالياء على الغيبة لهم وللمشركين المكذبين وقوله تعالى (حتى اذا استيأس الرسل) غاية لمحذوف دل عليه الكلام أي لا يغررهم تمادي أيامهم فان من قبلهم أمهلوا حتى أيس الرسل من النصر عليهم في الدنيا ومن ايمانهم لانهماكهم في الكفر مترفين متمادين فيه من غير وازع (وظنوا) أي أيقن الرسل (أنهم قد كذبوا) بالتشديد كما قرأه غير حمزة وعاصم والكسائي تكذيبا لا ايمان بعده وأما بالتخفيف كما قرأ هؤلاء فالمعنى ان الامم ظنوا أن الرسل قد أخلفوا ما وعدوا به من النصر عليهم (جاءهم نصرنا) لهم بخذلان أعدائهم (فنجي من نشاء) أي النبي والمؤمنون وقرأ ابن عامر وعاصم بنون مضمومة بعدها جيم مشددة وياء بعد الجيم مفتوحة والباقون بنونين الاولى مضمومة والثانية ساكنة وتخفيف الجيم وسكون الياء (ولا يرد بأسنا) أي عذابنا (عن القوم المجرمين) أي المشركين ما نزل بهم ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه القصص وحث على الاعتبار بها بقوله أفلم يسيروا اتبعه بأن في أحاديثهم أعظم عبرة فقال حثا على تأملها والاستبصار بها (لقد كان في قصصهم) أي يوسف واخوته او في قصص الرسل (عبرة) أي عظة عظيمة (لاولي الالباب) أي لذوي العقول المبرأة من شوائب الكدر يعبرون بها الى ما يسعدهم لان من قدر على ما قص من أمر يوسف عليه السلام لقادر على أن يعز محمدا صلى الله عليه وسلم ويعلي كلمته وينصره على من عاداه كائنا من كان كما فعل بيوسف وغيره ولما كان من أجل العبرة في ذلك القطع بحقية القرآن نبه تعالى على ذلك بتقدير سؤال فقال تعالى (ما كان حديثا يفترى) أي يختلق لان الذي جاء به من عند الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه أن يفتريه لانه لم يقرأ الكتب ولم يتلمذ لاحد ولم يخالط العلماء فمحال أن يفتري هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد في التوراة من غير تفاوت كما يعلم من قوله تعالى (ولكن تصديق الذي بين يديه) أي من الكتب الالهية المنزلة من السماء كالتوراة والانجيل ففي ذلك اشارة الى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما في التوراة من ذكر قصة يوسف عليه السلام (و) زاد على ذلك بقوله (تفصيل) أي تبيين (كل شيء) أي يحتاج اليه من الدين اذ ما من أمر ديني الا وله سند من القرآن بوسط أو بغير وسط وقيل المراد تفصيل كل شيء من واقعة يوسف مع أبيه واخوته قال الواحدي وعلى التفسيرين جميعا فهو من العام الذي أريد به الخاص كقوله تعالى ورحمتي وسعت كل شيء أي يجوز أن يدخل فيها وقوله تعالى وأوتيت

قوله ويشركون بقلوبهم اعتقادا (قوله أفلم يسيروا في الارض) قاله هنا وفي الحج وفي آخر غافر بالفاء وقاله في الروم وفاطر وأول غافر بالواو لان ما في الثلاثة الاول تقدمه التعبير [illegible]

من كل شئ (وهدى) من الضلال (ورحمة) ينال بها خير الدارين (لقوم يؤمنون) أى يصدقون خصهم بالذكر لانهم هم الذين انتفعوا به كقوله تعالى هدى للمتقين فسبحان من انزله معجزا باهرا وقاضيا بالحق لايزال ظاهرا وما رواه البيضاوى تبعا للكشاف من أنه صلى الله عليه وسلم قال علموا أرقاءكم سورة يوسف فانه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد أحدا حديث موضوع والله أعلم

سورة الرعد مكية

الا ولا يزال الذين كفروا الآية ويقول الذين كفروا لست مرسلا الآية أو مدنية الا ولو أن قرآنا سيرت به الجبال وهى ثلاث أو أربع أو خمس أو ست وأربعون آية وعدد كلماتها ثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وسبعة أحرف

(بسم الله) الحق الذى كل ما عداه باطل (الرحمن) الذى عم بالرغبة والرهبة لعموم الرحمة (الرحيم) الذى خص من شاء بما يرضاه بعظيم الرهبة (المر) قال ابن عباس معناه أنا الله أعلم وأرى وقال فى رواية عطاء أنا الله الملك الرحمن وقد تقدم الكلام على شئ من أوائل السور فى أول سورة البقرة وقرأ قالون وابن كثير وحفص بالفتح وقرأ ورش بين بين والباقون بالامالة (تلك) أى هذه الآيات (آيات الكتاب) أى القرآن والاضافة بمعنى من وقيل المراد بالكتاب السورة الكاملة ووصفت بالكمال من تعريف الكتاب بأل لان خبر المبتدا اذا عرف بلام الجنس أفاد المبالغة وقوله تعالى (والذى انزل اليك من ربك) أى القرآن مبتدأ وخبره (الحق) أى الموضوع كل شئ منه فى موضعه على ما تدعو اليه الحكمة الواضح الذى لا يختلف شئ منه عن مطابقة الواقع من بعث ولا غيره (ولكن اكثر الناس) أى مشركى مكة (لا يؤمنون) لاخلالهم بالنظر والتأمل فيه قال مقاتل نزلت فى مشركى مكة حين قالوا ان محمدا يقوله من تلقاء نفسه فرد الله تعالى عليهم بذلك * ولما ذكر تعالى أن أكثر الناس لا يؤمنون ذكر عقبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد بامور أحدها قوله تعالى (الله الذى رفع السموات بغير عمد) أى سوار ٣ جمع عمود كأدم وأديم أو عماد كاهب واهاب والعمود جسم مستطيل يمنع المرتفع أن يميل (ترونها) أى وأنتم ترون السماء مرفوعة بغير عمد من تحتها تسندها ولا من فوقها علاقة تمسكها فالعمد منفية بالكلية قال اياس بن معاوية السماء مقببة على الارض مثل القبة ففى ذلك دلالة عظيمة على وحدانية الله تعالى لان هذه الاجسام العظيمة بقيت واقفة فى الجو العالى ويستحيل أن يكون بقاؤها هناك لاعيانها ولذاتها فهذا برهان باهر على وجود الاله القادر القاهر وقيل الضمير راجع الى العمد أى انها عمدا ولكن لا ترونها أنتم ومن قال بهذا القول يقول ان عمدها على جبل قاف وهو جبل من زمرد محيط بالدنيا والسماء عليه مثل القبة وهذا قول مجاهد وعكرمة قال الرازى وهذا التاويل فى غاية السقوط لان السموات لما كانت مستقرة على جبل قاف فاى دلالة تبقى فيها على وجود الاله * (تنبيه) * الله مبتدأ والذى رفع السموات خبره ويجوز أن يكون الموصول صفة والخبر يدبر الامر ثانيها قوله تعالى (ثم استوى على العرش) بالحفظ والتدبير والقهر

فى الانكار بالفاء فى قوله هنا أفأمنوا ان تأتيهم غاشية وفى الحج فهى خاوية على عروشها وفى آخر غافر فأى آيات الله تنكرون وما فى الثلاثة الاخيرة

٣ قوله جمع عمود كادم وأديم الخ فى حاشية الجمل والعامة على فتح العين والميم وهو اسم جمع وعبارة بعضهم انه جمع نظرا الى المعنى دون الصناعة وقرأ أبو حيوة ويحيى بن وثاب عمد بضمتين ومفرده يحتمل أن يكون عمادا كشهاب وشهب وكتاب وكتب وأن يكون عمودا كرسول ورسل اه

والقدرة أي انه من فوق العرش الى ما تحت الثرى في حفظه وتدبيره وفي الاحتياج اليه ولقدم الكلام على ذلك في سورة الاعراف بما فيه كفاية ونحن نلخصه ايضا فنقول قوله تعالى (وسخر) أي ذلل (الشمس والقمر) لمنافع خلقه فهما مقهوران يجريان على ما يريد (كل) منهما (يجري) في فلكه (لاجل مسمى) أي الى وقت معلوم وهو وقت فناء الدنيا وزوالها وعند مجيء ذلك الوقت تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك التسييرات كما وصف الله تعالى ذلك في قوله اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت واذا السماء انشقت واذا السماء انفطرت وعن ابن عباس للشمس مائة وثمانون منزلا كل يوم لها منزل وذلك يتم في ستة أشهر ثم انها تعود مرة أخرى الى واحد واحد منها في ستة أشهر مرة أخرى وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلا فالمراد بقوله تعالى كل يجري لاجل مسمى هذا وتحقيقه أنه تعالى قدر لكل واحد من تلك الكواكب سيرا الى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء وحينئذ يلزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك ثم انه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال (يدبر الامر) أي يقضي أمر ملكه من الايجاد والاعدام والاحياء والاماتة والاغناء والافقار ويدخل فيه انزال الوحي وبعثة الرسل وتكليف العباد وفي ذلك دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لان هذا العالم المعلوم من اعلى العرش الى ما تحت الثرى أنواع وأجناس لا يحيط بها الا الله عز وجل والدليل المذكور دل على أن اختصاص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ليس الا من الله تعالى ومن المعلوم أن من اشتغل بتدبير شيء آخر فانه يشغله شأن عن شأن فالعاقل اذا تأمل في هذه الآية علم أنه تعالى يدبر عالم الاجساد وعالم الارواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شأن عن شأن ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على أنه تعالى متعال في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته عن مشابهة المحدثات والممكنات ولما كان هذا بيانا شافيا لا لبس فيه قال تعالى (يفصل) أي يبين (الآيات) التي برزت الى الوجود وتدبيرها الدالة على وحدانيته وكمال حكمته المشتملة على ابتداعاته بمفرقها او يباين بينها مباينة لا لبس فيها تقريبا لعقولكم وتدريبا لفهومكم لتعلموا أنها فعل الواحد المختار ولما كان هذا التدبير وهذا التفصيل دالا على تمام القدرة وغاية الحكمة وكان البعث لفصل القضاء والحكم بالعدل واظهار العظمة هو محط الحكمة علل ذلك بقوله (لعلكم) يا أهل مكة (بلقاء ربكم) بالبعث (توقنون) فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الاشياء وتدبيرها على عظمها وكثرتها قادر على ايجاد الانسان واحيائه بعد موته روي أن واحدا قال لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه انه تعالى كيف يحاسب الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الآن دفعة واحدة وكما يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة وحاصل الكلام أنه تعالى كما قدر على ابقاء الاجرام الفلكية والنيرات الكوكبية في الجو العالي لا يبعد أن يرد الارواح الى الاجساد وان كان الخلق عاجزين عنه وكما يمكنه أن يدبر من فوق العرش الى ما تحت الثرى لا يشغله شأن عن شأن كذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن (تنبيه) اليقين صفة من صفات العلم وهي فوق المعرفة والدراية وهي سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك ولما ذكر تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال

تقدمه التعبير بالواو في قوله في الروم أولم يتفكروا في أنفسهم وفي فاطر أولم نعمركم وفي أول غافر وأنذرهم يوم الآزفة وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من

قدرته من رفع السماء بغير عمد وأحوال الشمس والقمر أردفها بذكر الدلائل الارضية بقوله تعالى (وهو الذى مد الارض) أى بسطها طولا وعرضا لتثبت عليها الاقدام ويتقلب عليها الحيوان ولو شاء لجعلها كالجدار والازج لا يستطاع القرار عليها هذا اذا قلنا ان الارض مسطحة لا كرة وعند أصحاب الهيئة أنها كرة فكيف يقولون بذلك ومد الارض ينافى كونها كرة كما ثبت بالدليل (أجيب) بان الارض جسم عظيم والكرة اذا كانت فى غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح كما أن الله تعالى جعل الجبال أوتادا مع أن العالم من الناس يستقرون عليها فكذلك ههنا ومع هذا فالله تعالى قد أخبر أنه مد الارض ودحاها وبسطها وكل ذلك يدل على التسطيح والله تعالى أصدق قيلا وأبين دليلا من أصحاب الهيئة هذا هو الدليل الاول من الدلائل الارضية الثانى منها قوله (وجعل) أى وخلق (فيها) أى الارض (رواسى) أى جبالا ثوابت واحدها راسية أى ثابتة باقية فى حيزها غير منتقلة عن مكانها لا تتحرك ولا يتحرك ما هى راسية فيه وهذا لا بد وأن يكون بتخليق القادر الحكيم قال ابن عباس أول جبل وضع على وجه الارض جبل أبى قبيس * ولما غلب على الجبال وصفها بالرواسى صارت الصفة تغنى عن الموصوف فجمعت جمع الاسم كحائط وكاهل قاله أبو حيان الثالث منها قوله تعالى (وانهارا) أى وجعل فى الارض أنهارا جارية لمنافع الخلق والنهر المجرى الواسع من مجارى الماء وأصله الاتساع ومنه النهار لاتساع ضيائه الرابع منها قوله تعالى (ومن كل الثمرات) وهو متعلق بقوله تعالى (جعل فيها) أى الارض (زوجين اثنين) أى وجعل فيها من جميع أنواع الثمار صنفين اثنين والاختلاف اما من حيث الطعم كالحلو والحامض أو اللون كالاسود والابيض أو الحجم كالصغير والكبير أو الطبيعة كالحار والبارد (فان قيل) الزوجان لا بد وأن يكونا اثنين فما الفائدة فى اثنين (أجيب) بانه قيل انه تعالى أول ما خلق العالم وخلق فيه الاشجار خلق من كل نوع من الانواع اثنين فقط فلو قال خلق زوجين لم يعلم أن المراد النوع أو الشخص فلما قال اثنين علم أنه تعالى أول ما خلق من كل زوجين اثنين لا أقل ولا أزيد كما أن الناس وان كان فيهم الآن كثرة فابتداؤهم من زوجين اثنين بالشخص آدم وحواء فكذا القول فى جميع الاشجار والزروع الخامس منها قوله تعالى (يغشى) أى يغطى (الليل) بظلمته (النهار) أى والنهار الليل بضوئه فيعتدل فعلوما على ما قدره الله تعالى لهما فى السير من الزيادة والنقصان وذلك من الحكم النافعة فى الدين والدنيا الظاهرة لكل ذى عقل انها تدبير بفعله واختياره وقهره واقتداره وقرأ شعبة وحمزة والكسائى بفتح الغين وتشديد الشين والباقون بسكون الغين وتخفيف الشين * ولما ذكر تعالى هذه الدلائل النيرة والقواطع القاهرة جمعها وناطها بالفكر فقال تعالى (ان فى ذلك) أى الذى وقع التحدث عنه من الآيات (لآيات) أى دلالات (لقوم يتفكرون) أى يجتهدون فى الفكر فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب والتفكر والتدبر تصرف القلب فى طلب معانى الاشياء ثم انه تعالى ذكر دليلا ظاهرا جدا بقوله تعالى (وفى الارض) أى التى أنتم سكانها تشاهدون ما فيها مشاهدة لا تقبل الشك (قطع) أى بقاع مختلفة (متجاورات) أى متقاربات يقرب بعضها من بعض واحدة طيبة والاخرى سبخة لا تنبت

دونه لا يغضون بشيء

(سورة الرعد)

(قوله ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ختم الآية هنا بيتفكرون وختمها بعد بيعقلون لان التفكر فى الشيء سبب

وأخرى صالحة للزرع لا للشجر وأخرى بالعكس وأخرى قليلة الريع وأخرى كثيرته مع انتظام الكل فى الارضية وهو من دلائل قدرته تعالى (وجنات) أى بساتين فيها أنواع الاشجار من نخيل وأعناب وغير ذلك كما قال تعالى (من أعناب وزرع ونخيل صنوان) جمع صنو وهى النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى عمه العباس عم الرجل صنو أبيه يعنى أنهما من أصل واحد (وغير صنوان) أى متفرقات مختلفة الاصول وسمى البستان جنة لانه يستتر بأشجاره الارض وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص برفع العين واللام والنون الثانية من صنوان والراء من غير مع التنوين فى العين واللام والنون وعدم التنوين فى الراء والباقون بالخفض فى الاربعة وعدم التنوين فى الراء ولما كان الماء بمنزلة الاب والارض بمنزلة الام وكان الاختلاف مع اتحاد الاب والام أعجب وأدل على الاسناد الى الواحد المسبب لا الى شىء من الاسباب قال (تسقى) قرأه ابن عامر وعاصم بالياء على التذكير أى المذكور وقراءة الباقين بالتاء على التأنيث أى الجنات وما فيها (بماء واحد) فتخرج أغصانها وثمراتها فى وقت معلوم لا تتأخر عنه ولا تتقدم والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام وقيل فى حده جوهر سيال به قوام الارواح (ونفضل بعضها على بعض فى الاكل) أى فى الطعم ما بين حلو وحامض وغير ذلك وفى الشكل والرائحة والمنفعة وغير ذلك وذلك أيضا مما يدل على القادر الحكيم فان اختلافها مع اتحاد الاصول والاسباب لا يكون الا بتخصيص قادر مختار قال مجاهد وذلك كمثل بنى آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد وقال الحسن هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بنى آدم وكانت الارض طينة واحدة فى يد أى فى قدرة الرحمن فسطحها فصارت قطعا متجاورات فينزل عليها الماء من السماء فتخرج هذه زهرتها وشجرها وثمرها ونباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد وكذلك الناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم فتخشع وتخضع وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع وقال الحسن والله ما جالس القرآن أحد الا قام من عنده بزيادة أو نقصان قال تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا وقرأ حمزة والكسائى بالياء ليطابق قوله تعالى يدبر الامر والباقون بالنون وقرأ نافع وابن كثير بسكون الكاف والباقون بالرفع (ان فى ذلك) أى الامر العظيم الذى ذكرناه (لآيات) أى دلالات (لقوم يعقلون) أى يستعملون عقولهم بالتدبر والتفكر فى الآيات الدالة على وحدانيته تعالى ٥ ولما ذكر تعالى الدلائل القاهرة الدالة على معرفة المبدا ذكر بعده ما يدل على المعاد بقوله تعالى (وان تعجب) أى يا أكرم الخلق من تكذيب الكفار لك بعد ان كنت تعرف عندهم بالصادق الامين (فعجب) أى فحقيق أن يتعجب منه (قولهم) أى منكرى البعث (أئذا كنا ترابا) أى بعد الموت (أئنا لفى خلق جديد) أى خلق بعد الموت كما كنا قبله ولم يعلموا أن القادر على انشاء الخلق وما تقدم على غير مثال قادر على اعادتهم (وقيل) وان تعجب من اتخاذ المشركين ما لا يضرهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها مع اقرارهم بأن الله تعالى خلق السموات والارض وهو يضر وينفع وقد رأوا القدرة الله تعالى وما ضرب لهم به الامثال فعجب قولهم ذلك والعجب تغير النفس برؤية المستبعد فى العادة وقال المتكلمون

التعجب

التعقل والسبب مقدم على المسبب فناسب تقدم التفكر على التعقل (قوله وقد بسطهمن فى السموات والارض) ٥ ان قلت كيف قال ذلك هنا وقال فى الحج ان الله يبسط له

العجب هو الذى لا يعرف سببه وذلك فى حق الله تعالى محال لانه تعالى علام الغيوب لا تخفى عليه خافية وقرأ أبو عمرو وخلاد والكسائى بادغام الباء فى الفاء والباقون بالاظهار

●(تنبيه)● هنا آيتان فى كل منهما همزتان فقرأ قالون بتحقيق الهمزة الاولى وتسهيل الثانية ويدخل بينهما ألفا على الاستفهام وفى الآية الثانية بهمزة مكسورة بعدها نون مشددة على الخبر وورش كذلك الا أنه لا يدخل بين الهمزتين فى أئذا ألفا وينقل فى الثانى على أصله وابن كثير يقرأ بالاستفهام فيهما من غير ادخال ألف بين الهمزتين مع تحقيق الاولى وتسهيل الثانية فيهما وأبو عمرو كذلك مع ادخال ألف بينهما وابن عامر فى الاول بهمزة مكسورة بعدها ذال مفتوحة على الخبر وفى الثانى بهمزة مفتوحة محققة وهمزة مكسورة محققة على الاستفهام وأدخل هشام بينهما ألفا بخلاف عنه والباقون بهمزتين محققتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة ولا ألف بينهما فى الموضعين ●(فائدة)● جميع ما فى القرآن من ذلك أحد عشر موضعا فى تسع سور والاحد عشر مكررة فتصير اثنين وعشرين فى هذه السورة موضع والثانى والثالث فى سورة الاسراء والرابع فى المؤمنون والخامس فى النمل والسادس فى العنكبوت والسابع فى السجدة والثامن والتاسع فى الصافات والعاشر فى الواقعة والحادى عشر فى النازعات وأذكر ان شاء الله تعالى فى كل سورة من السور المذكورة مذهبهم فى محله (اولئك) أى الذين جمعوا أنواعا من البعد من كل خير (الذين كفروا بربهم) أى غطوا ما يجب اظهاره بسبب الاستهانة بالذى بدأ خلقهم ثم رباهم بانواع اللطف فاذا أنكروا اعادتهم فقد أنكروا ابدأهم (واولئك) البعداء البغضاء (الاغلال) يوم القيامة (فى اعناقهم) بسبب كفرهم والغل طوق من حديد تقيد به اليد فى العنق وقيل المراد بالاغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما يقاد الاسير الذليل بالغل وقيل انهم مقيدون بالضلال لا يرجى فلاحهم (واولئك) أى الذين لا خسارة أعظم من خسارتهم (اصحاب النار هم فيها خالدون) أى ثابت خلودهم دائما لا يخرجون منها ولا يموتون ●ولما كان صلى الله عليه وسلم يهددهم تارة بعذاب يوم القيامة وتارة بعذاب الدنيا والقوم كلما هددهم بعذاب يوم القيامة أنكروا القيامة والبعث والحشر والنشر وهو الذى تقدم ذكره فى الآية الاولى وكلما هددهم بعذاب الدنيا قالوا ائتنا بهذا العذاب وطلبوا منه اظهاره وانزاله على سبيل الطعن واظهار ان الذى يقوله كلام لا أصل له نزل (ويستعجلونك) أى استهزاء وتكذيبا والاستعجال طلب التعجيل وهو تقديم الشئ قبل وقته الذى يقدر له (بالسيئة) أى العذاب (قبل الحسنة) أى الرحمة وذلك أن مشركى مكة كانوا يقولون اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ●(تنبيه)● قوله قبل الحسنة فيه وجهان أحدهما متعلق بالاستعجال ظرفا له والثانى أنه متعلق بمحذوف على أنه حال مقدرة من السيئة قاله أبو البقاء (وقد) أى والحال أنه قد (خلت من قبلهم المثلات) جمع مثلة بفتح الميم وضم المثلثة كصدقة وصدقات أى عقوبات أمثالهم من المكذبين أفلا يعتبرون بها (وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) والا لم يترك على ظهرها دابة كما قال تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة وقال ابن عباس معناه لذو تجاوز عن

من فى السموات ومن فى الارض وفى النحل ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض (قلت) لانه هنا ذكر العلويات من الرعد والبرق والسحاب ثم الملائكة بتسبيحهم ثم

المشركين اذا آمنوا (وان ربك لشديد العقاب) للمصرين على الشرك الذين ماتوا عليه وقال مقاتل انه لذو تجاوز عن شركهم فى تأخير العذاب عنهم وشديد العقاب اذا عاقب * ولما بين سبحانه وتعالى أن الكفار طعنوا فى نبوة النبى صلى الله عليه وسلم بسبب طعنهم فى الحشر والنشر أولا ثم طعنوا فى نبوته بسبب طعنهم فى صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانيا ثم طعنوا فى نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة ثالثا وهو المذكور فى قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لولا) أى هلا (أنزل عليه) أى محمد صلى الله عليه وسلم (آية من ربه) أى مثل عصا موسى وناقة صالح وذلك لانهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا هذا كتاب مثل سائر الكتب واتيان الانسان بتصنيف معين وكتاب معين لا يكون معجزا مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام وكان نبينا صلى الله عليه وسلم راغبا فى اجابة مقترحاتهم لشدة التفاته الى ايمانهم قال الله تعالى له (انما أنت منذر) أى ليس عليك الا الانذار والتخويف وليس عليك اتيان الآيات (ولكل قوم هاد) أى نبى يدعوهم الى ربهم بما يعطيه من الآيات لا بما يقترحون وقرأ ابن كثير فى الوقف بياء بعد الدال وفى الوصل بغير ياء وتنوين الدال والباقون بغير ياء فى الوقف والوصل مع تنوين الدال * ولما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات أخبرهم الله تعالى عن عظيم قدرته وكمال علمه بقوله تعالى (الله يعلم ما تحمل كل انثى) من ذكر وغيره وواحد ومتعدد وغير ذلك (وما تغيض) أى تنقص (الارحام) من مدة الحمل (وما تزداد) أى من مدة الحمل فقد تكون سبعة أشهر وأزيد عليها الى سنتين عند الامام ابى حنيفة والى أربع عند الامام الشافعى والى خمس عند الامام مالك رضى الله تعالى عنهم وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وهرم بن حيان بقى فى بطن أمه أربع سنين ولذلك سمى هرما وقيل ما تنقصه الرحم من الاولاد وتزيده منهم يروى ان شريكا كان رابع أربعة فى بطن أمه وقيل من نقصان الولد فيخرج ناقصا والزيادة تمام خلقه وقيل ما تنقص بالسقط عن ان يتم وما يزداد بالتمام وقيل ما تنقص بظهور دم الحيض وذلك انه اذا سال الدم فى وقت الحمل ضعف الولد ونقص بمقدار حصول ذلك قال ابن عباس كلما سال الحيض فى وقت الحمل يوما زاد فى مدة الحمل يوما ليحصل الجبر ويعتدل الامر والآية تحتمل جميع ذلك اذ لا تنافى فى هذه الاقوال ويدل لذلك قوله تعالى (وكل شئ) من هذا وغيره من الآيات المقترحات وغيرها (عنده) اى فى علمه وقدرته (بمقدار) فى كيفيته وكميته لا يجاوزه ولا يقصر عنه لانه تعالى عالم بكيفية كل شئ وكميته على الوجه المفصل المبين * (تنبيه) * قوله تعالى عنده يجوز أن يكون مجرور المحل صفة لشئ أو مرفوعه صفة لكل أو منصوبه ظرفا لقوله بمقدار أو ظرفا للاستقرار الذى تعلق به الجار لوقوعه خبرا (عالم الغيب) وهو ما غاب عن كل مخلوق (والشهادة) وهو ما شاهدوه وقيل الغيب هو المعدوم والشهادة هو الموجود وقيل الغيب ما غاب عن الحس والشهادة ما حضر فى الحس (الكبير) أى العظيم (المتعال) عن خلقه بالقهر المنزه عن صفات النقص فهو تعالى موصوف بالعلم الكامل والقدرة التامة وقرأ ابن كثير فى الوقف والوصل بياء بعد اللام والباقون بغير ياء وقفا ووصلا * ولما كان علمه تعالى شاملا لجميع الاشياء قال تعالى (سواء منكم) أى فى علمه تعالى (من أسر القول) أى أخفى معناه فى

الاصنام والكفار فبدأ بذكر من فى السموات لتقدم ذكرهم واتبعهم من فى الارض ولم يذكر من فيها استخفافا بالاصنام والكفار وفى الحج تقدم ذكر المؤمنين وسائر الاديان فقدم ذكر من فى السموات لشرفهم ثم قال ومن فى الارض لتقدم ذكر المؤمنين وفى النحل تقدم ذكر ما خلقه الله عاما ولم يكن فيه ذكر الملائكة والرعد ولا الانس =

نفسه (ومن جهر به) أي أظهره فقد استوى في علمه تعالى المسر بالقول والجاهر به (ومن هو مستخف) أي مستتر (بالليل) أي بظلامه (وسارب) أي ظاهر بذهابه في سربه (بالنهار) والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق وقال ابن عباس واستوى ما أضمرته القلوب وأظهرته الالسنة وقال مجاهد سواء من يقدم على القبائح في ظلمات الليل ومن يأتي بها في النهار الظاهر على سبيل التواري والضمير في (له) يعود الى من في قوله سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل أو للانسان (معقبات) أي ملائكة تعتقبه والذي عليه الجمهور ان المراد بالملائكة الحفظة وانما صح وصفهم بالمعقبات اما لاجل أن ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس واما لاجل انهم يتعقبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والكتب وكل من عمل عملا ثم عاد اليه فقد عقب فعلى هذا المراد من المعقبات ملائكة الليل والنهار روى عن عثمان أنه قال يا رسول الله اخبرني عن العبد كم معه من ملك فقال صلى الله عليه وسلم ملك عن يمينك للحسنات وهو أمير على الذي على الشمال فاذا عملت حسنة كتبت عشرا واذا عملت سيئة قال الذي على الشمال لصاحب اليمين اكتب قال لا لعله أن يتوب أو يستغفر فيستأذنه ثلاث مرات فاذا قال ثلاثا قال اكتب أراحنا الله منه فبئس القرين ما أقل مراقبته لله واستحياءه منا فهو قوله تعالى له معقبات (من بين يديه) أي قدامه (ومن خلفه) أي وراءه وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لربك رفعك وان تجبرت قصمك وملكان على شفتيك يحفظان عليك الصلاة وملك على فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك وملكان على عينيك [3] فهذه عشرة أملاك على كل آدمي ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فهم عشرون ملكا على كل آدمي وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله تعالى وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون وقال مجاهد ما من عبد الا وله ملك موكل بحفظه من الجن والانس والهوام في نومه ويقظته (فان قيل) الملائكة ذكور فلم ذكروا في جمع الاناث وهو المعقبات (أجيب) بجوابين الاول قال الفراء المعقبات ملائكة معقبة واحدها معقب ثم جمعت معقبة بمعقبات كما قيل أبناآت ورجالات جمع أبناء ورجال [4] والذي على التذكير قوله تعالى (يحفظونه) والثاني وهو قول الاخفش انما أنث لكثرة ذلك منها نحو نسابة وعلامة وهو ذكر واختلف في المراد من قوله تعالى (من أمر الله) على أقوال أحدها انه على التقديم والتأخير والتقدير له معقبات من أمر الله يحفظونه ثانيها ان فيه اضمارا أي ذلك الحفظ من أمر الله أي مما أمر الله تعالى به فحذف الاسم وأبقى خبره ثالثها ان كلمة من معناها الباء والتقدير يحفظونه بأمر الله وباعانته وقال كعب الاحبار لولا ان الله تعالى وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن وقال ابن جريج معنى يحفظونه أي يحفظون عليه الحسنات والسيئات (فان قيل) ما الفائدة في تخصيص هؤلاء الملائكة مع بني آدم وتسلطهم عليهم (أجيب) بأن الانسان اذا علم أن الملائكة تحصي عليه أعماله كان الى الحذر من المعاصي أقرب لان من اعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم فاذا حاول الاقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونه زجره الحياء منهم عن الاقدام اليها كما يزجره اذا حضر من يعظمه من البشر

---

[3] قوله فهذه عشرة الخ عبارة العلامة عبد السلام على الجوهرة وعند الطبراني أن عثمان سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن عدد الملائكة الموكلين بالآدمي فقال لكل آدمي عشرة بالليل وعشرة بالنهار واحد عن يمينه وآخر عن شماله واثنان من بين يديه ومن خلفه واثنان على جانبيه وآخر قابض على ناصيته فان تواضع رفعه وان تكبر وضعه واثنان على شفتيه ليس يحفظان عليه الا الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم والعاشر يحرسه من الحية أن تدخل فاه اهـ وهو ظاهر اهـ مصححه

[4] قوله والذي على التذكير لعله والذي يدل على التذكير اهـ مصححه

واذا علم أن الملائكة تحصى عليه تلك الاعمال كان ذلك أيضا رادعا له عنها واذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردع أكمل ٭ ولما دل ذلك على غاية القدرة والعظمة قال تعالى (ان الله) مع قدرته (لا يغير ما بقوم) أى لا يسلبهم نعمته (حتى يغيروا ما) أى الذى (بأنفسهم) من الاحوال الجميلة الى الاحوال القبيحة (واذا أراد الله بقوم سوأ) أى هلاكا أو عذابا (فلا مرد له) أى لا يقدر أحد لا من المعقبات ولا من غيرها أن يرد ما نزل بهم من قضائه وقدره (وما لهم) أى ان أراد الله بهم سوأ (من دونه) أى غير الله (من وال) يلى أمرهم وينصرهم ويمنع العذاب عنهم وقرأ ابن كثير فى الوقف باثبات الياء بعد اللام دون الوصل والباقون بغير ياء بعد اللام وقفا ووصلا ٭ ولما خوف الله تعالى بقوله واذا أراد الله بقوم سوأ أتبعه بذكر آيات تشبه النعم والاحسان من بعض الوجوه وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه بقوله تعالى (هو الذى يريكم البرق خوفا) أى للمسافرين من الصواعق (وطمعا) أى للمقيم فى المطر وقيل ان كل شئ يحصل فى الدنيا يحتمل الخير والشر فهو خير بالنسبة الى قوم وشر بالنسبة الى آخرين فكذلك المطر خير فى حق من يحتاج اليه فى أوانه وشر فى حق من يضره ذلك اما بحسب المكان واما بحسب الزمان والبرق معروف وهو لمعان يظهر من بين السحاب (وينشئ) أى يخلق (السحاب الثقال) أى بالمطر ٭ (تنبيه) ٭ خوفا وطمعا مصدران ناصبهما محذوف أى تخافون خوفا وتطمعون طمعا ويجوز غير ذلك والسحاب قال على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه غربال الماء وهو غيم ينسحب فى السماء وهو اسم جنس جمعى واحده سحابة وأكثر المفسرين على أن الرعد فى قوله تعالى (ويسبح الرعد بحمده) على انه اسم للملك الذى يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه ولا يرد ذلك عطف الملائكة عليه فى قوله تعالى (والملائكة) أى تسبحه (من خيفته) أى الله لانه أفرد بالذكر تشريفا له كما فى قوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال قال ابن عباس أقبلت يهود على النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا أخبرنا عن الرعد ما هو فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب قال ابن الاثير والمخاريق جمع مخراق وهو فى الاصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا وهى آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه وقد جاء تفسير المخراق فى حديث آخر وهو سوط من نور تزجر به الملائكة السحاب وعن ابن عباس أنه قال من سمع صوت الرعد فقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شئ قدير فان أصابته صاعقة فعلى ديته وعن عبد الله بن الزبير أنه كان اذا سمع صوت الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وفى بعض الاخبار يقول الله تعالى لو أن عبادى أطاعونى لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت الشمس عليهم بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد وفى رواية عن ابن عباس الرعد ملك موكل بالسحاب يسوقه حيث يؤمر ٣ وانه يحوز الماء فى نقرة ابهامه وانه يسبح الله تعالى اذا سبح لا يبقى ملك فى السماء الا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر وعن الحسن أن الرعد خلق من خلق الله ليس بملك وقد اختلفت الروايات فى ذلك ففى بعضها أنه ملك موكل بالسحاب وفى بعضها انه ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعى بغنمه وفى بعضها انه ملك يسوق السحاب بالتسبيح كما يسوق الحادى الابل

بحداثه

= بالصريح فاقتضت الآية ما فى السموات وما فى الارض فقال فى كل آية ما يناسبها (قوله الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) قاله هنا وفى القصص والعنكبوت والروم بلفظ الله وفى الاسراء وفى سبا بدونه

٣ قوله وانه يحوز كذا فى النسخة المطبوعة وفى بعض النسخ وانه يحور على صيغة جمع بحر والمحرر اه مصححه

بعدانه وفى بعضها أنه ملك سمى به وهو الذى تسمعون صوته وقد مرت الاشارة الى ذلك فى البقرة وقيل هؤلاء الملائكة أعوان الرعد جعل الله تعالى له أعوانا فهم خائفون خاضعون طائعون وقيل المراد بهم جميع الملائكة واستظهر وقوله تعالى (ويرسل الصواعق) جمع صاعقة وهى العذاب المهلك تنزل من البرق فتحرق من تصيبه (فيصيب بها من يشاء) فيهلكه (وهم يجادلون فى الله) حيث يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكذيب التشديد فى الخصومة روى أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدين لقتله فأخذه عامر بالمجادلة ودار اربد من خلفه ليضربه بالسيف فتنبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله تعالى على اربد صاعقة فقتلته ورمى عامر بغدة فمات فى بيت سلولية فكان يقول غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية فنزلت وعن الحسن أنه قال كان رجل من طواغيت العرب بعث اليه النبى صلى الله عليه وسلم نفرا يدعونه الى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال لهم اخبرونى عن رب محمد هذا الذى تدعوننى اليه مم هو أمن ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس فاستعظم القوم مقالته فانصرفوا الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما رأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه فقال صلى الله عليه وسلم ارجعوا اليه فرجعوا اليه فجعل لا يزيدهم على مقالته الاولى وقال أجيب محمدا الى رب لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا وقالوا يا رسول الله ما زادنا على مقالته الاولى وأخبث فقال ارجعوا اليه فرجعوا فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونه وهو يقول هذه المقالة اذا ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فأحرقت الكافر وهم جلوس فجاؤا يسعون ليخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا احترق صاحبكم فقالوا من أين علمتم فقالوا أوحى الله تعالى الى النبى صلى الله عليه وسلم ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله (وهو شديد المحال) واختلف المفسرون فى قوله تعالى وهو شديد المحال فقال على رضى الله عنه شديد الاخذ وقال ابن عباس شديد الحول وقال مجاهد شديد القوة وقال أبو عبيدة شديد القوة والمغالبة واختلف فى قوله تعالى (له) أى الله (دعوة الحق) فقال على دعوة الحق التوحيد وقال ابن عباس شهادة أن لا اله الا الله وقال الحسن الحق هو الله تعالى وكل دعاء اليه دعوة الحق (والذين يدعون) أى وهم الكفار (من دونه) أى غير الله وهى الاصنام (لا يستجيبون) أى الاصنام (لهم) أى الكفار (بشئ) مما يطلبونه من نفع أو دفع ضر (الا) أى الا استجابة (كباسط) أى كاستجابة باسط (كفيه الى الماء) أى على شفير البئر يدعوه (ليبلغ فاه) أى بارتفاعه من البئر اليه (وما هو) أى الماء (ببالغه) أى فاه أبدا لانه جماد لا يشعر بدعائه ولا يقدر على اجابته فكذلك ما هم بمجيبين لهم أبدا لان أصنامهم كذلك وقيل شبهوا فى قلة فائدة دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشرب به فبسط كفيه ناشرا أصابعهما ولم يصل كفاه الى ذلك الماء ولم يبلغ مطلوبه من شربه ثم انه تعالى عمم فى أنه لا يستجاب لهم بقوله تعالى (وما دعاء الكافرين الا فى ضلال) أى ضياع لا منفعة فيه لانهم ان دعوا الله لم يجبهم وان دعوا الآلهة لم تستطع اجابتهم وقيل المراد بالدعاء فى الآية العبادة وقوله تعالى (ولله يسجد من فى السموات والارض) يحتمل أن يراد به

بلفظ الرب وفى الشورى باضمار لفظ الله وبزيادته فى العنكبوت وفى ثانى موضعى سبأ وبزيادة من عباده فى العنكبوت وفى القصص وفى ثانى موضعى سبأ موافقة لتقدم تكرر

السجود على حقيقته وهو وضع الجبهة وعلى هذا فيكون قوله تعالى (طوعا) للملائكة والمؤمنين من الثقلين حالتي الشدة والرخاء وقوله تعالى (وكرها) للكافرين والمنافقين الذين أكرهوا على السجود بالسيف وان يراد به التعظيم والاعتراف بالعبودية فكل من في السموات والارض معترف بعبودية الله تعالى كما قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله وان يراد به الانقياد والخضوع وترك الامتناع وكل من في السموات والارض ساجد لله بهذا المعنى لان قدرته ومشيئته نافذة في الكل ❊ (تنبيه) ❊ قوله تعالى طوعا وكرها اما مفعول من أجله واما حال أى طائعين وكارهين واختلف في تفسير قوله تعالى (وظلالهم بالغدو) أى البكر (والآصال) أى العشايا أى تسجد فقال أكثر المفسرين كل شخص سواء كان مؤمنا أو كافرا فان ظله يسجد لله قال مجاهد ظل المؤمن يسجد لله تعالى وهو طائع وظل الكافر يسجد لله تعالى وهو كاره وقال الزجاج جاء في التفسيرات الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله قال ابن الانباري ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال عقولا وأفهاما تسجد بها لله وتخشع وقيل المراد من سجود الظلال ميلها من جانب الى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس وهي منقادة مستسلمة في طولها وقصرها وميلها من جانب الى جانب وانما خص الغدو والآصال بالذكر لان الظلال انما تعظم وتكثر في هذين الوقتين ❊ (تنبيه) ❊ الغدو جمع غداة كقنى وقناة والآصال جمع الاصل والاصل جمع أصيل وهو ما بين العصر الى غروب الشمس ❊ ولما بين تعالى ان كل من في السموات والارض ساجد لله تعالى عدل الى الرد على عباد الاصنام بقوله تعالى (قل) يا أشرف الخلق على الله تعالى لقومك (من رب السموات والارض) أى من مالكهما وما فيهما ومدبرهما وخالقهما (قل الله) أى أجب عنهم بذلك ان لم يقولوه ولا جواب لهم غيره ولانه البين الذي لا يمكن المراء فيه ولقنهم الجواب به وروى أنه لما قال للمشركين ذلك عطفوا عليه وقالوا أجب أنت فأمره الله تعالى فأجاب بذلك ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الاصنام بقوله تعالى (قل) لهم (أفاتخذتم من دونه) أى غير الله (أولياء) أى أصناما تعبدونها (لا يملكون لانفسهم نفعا) يجلبونه (ولا ضرا) يدفعونه فكيف يملكون لكم ذلك وقرأ ابن كثير وحفص باظهار الذال في أتخذتم عند التاء والباقون بالادغام ثم ضرب الله تعالى مثلا للمشركين الذين يعبدون الاصنام والمؤمنين الذين يعبدون الله فقال تعالى (قل هل يستوى الاعمى والبصير) قال ابن عباس يعنى المشرك والمؤمن وانما مثل الكافر بالاعمى لانه لا يهتدى سبيلا فكذلك الكافر لا يهتدى سبيلا ❊ ثم ضرب الله مثلا للايمان والكفر بقوله تعالى (أم هل تستوى الظلمات) أى الكفر (والنور) أى الايمان الجواب لا وقرأ شعبة وحمزة والكسائى يستوى بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وأما اللام من هل هنا فلا تدغم على القراءتين (أم جعلوا لله شركاء) والهمزة للانكار وقوله تعالى (خلقوا كخلقه) صفة شركاء أى خلقوا سموات وأرضين وشمسا وقمرا وجبالا وبحارا وجنا وانسا (فتشابه الخلق) أى خلق الشركاء بخلق الله (عليهم) من هذا الوجه فلا يدرون ما خلق الله ولا ما خلق آلهتهم فاعتقدوا استحقاق عبادتهم بخلقهم وهذا استفهام انكار أى ليس الامر كذلك ولا يستحق العبادة الا الخالق ❊ ولما كان من المعلوم قطعا أن جوابهم ان الخالق كله لله لزمتهم الحجة

لفظ الله تعالى في السور الاربع ولتقدم تكرر لفظ الرب في مواضع الثلاثة ولتقدم تكرر الاضمار في الشورى وزاد في العنكبوت من عباده لموافقة ابسط الكلام على الرزق

فقال تعالى (قل) لهؤلاء المشركين (الله خالق كل شئ) أى مما يصح أن يكون مخلوقا فهو من العموم الذى يراد به الخصوص فلا يدخل فى ذلك صفات الله تعالى واذا كان لا خالق غيره فلا يشاركه فى العبادة أحد فوجب أن ينفرد بالالهية كما قال تعالى (وهو الواحد) أى الذى لا يجانسه شئ وكل ما سواه لا يخلو عن مماثل يماثله وأين رتبة من يماثل من رتبة من لا مثل له (القهار) الذى كل شئ تحت قهره فيدخل تحت قضائه ومشيئته وارادته * ثم ضرب تعالى مثلا للحق والباطل بقوله تعالى (أنزل من السماء) أى السحاب أو السماء نفسها (ماء) أى مطرا (فسالت أودية) أى أنهار جمع واد وهو الموضع الذى يسيل الماء فيه بكثرة فاتسع فيه واستعمل للماء الجارى فيه وتنكيرها لان المطر يأتى على تناوب بين البقاع (بقدرها) أى بمقدارها الذى علم الله تعالى أنه نافع غير ضار أو بمقداره فى الصغر والكبر (فاحتمل السيل زبدا رابيا) أى عاليا عليه هو ما على وجهه من قذر ونحوه (ومما توقدون عليه فى النار) أى من جواهر الارض الذهب والفضة والنحاس والحديد (ابتغاء) أى طلب (حلية) أى زينة (أو متاع) أى ينتفع به كالاوانى اذا أذيبت وآلات الحرب والحرث والمقصود من هذا بيان منافعها (زبد مثله) أى مثل زبد السيل وهو خبثه الذى ينفيه الكير ومن للابتداء أو للتبعيض وقرأ حفص وحمزة والكسائى بالياء على الغيبة على أن الضمير للناس واضماره للعلم به والباقون بالتاء على الخطاب (كذلك) أى مثل هذا الضرب العلى الرتب المتين السبب (يضرب الله) أى الذى له الامر كله (الحق والباطل) أى مثلهما فانه تعالى مثل الحق فى افادته وثباته بالماء الذى ينزل من السماء فتسيل به الاودية على قدر الحاجة والمصلحة فينتفع به أنواع المنافع ويمكث فى الارض بأن يثبت بعضه فى منافعه ويسلك بعضه فى عروق الارض الى العيون والقنى والآبار ومثل الباطل فى قلة نفعه وسرعة زواله بزبدهما وهو قوله تعالى (فاما الزبد) أى من السيل وما أوقد عليه من الجواهر (فيذهب جفاء) قال أبو حيان مضمحلا أى متلاشيا لا منفعة فيه ولا بقاء له وقال ابن الانبارى متفرقا وانتصابه على الحال (واما ما ينفع الناس) من الماء ومن الجواهر الذى هو مثل الحق (فيمكث فى الارض) أى يثبت ويبقى لينتفع به أهلها (كذلك) أى مثل ذلك الضرب (يضرب) أى يبين (الله) الذى له الاحاطة الكاملة علما وقدرة (الامثال) فيجعلها فى غاية الوضوح وان كانت فى غاية الغموض قال أهل المعانى هذا مثل ضربه الله تعالى للحق والباطل فالباطل وان علا على الحق فى بعض الاوقات والاحوال فان الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذى يعلو على الماء فيذهب الزبد ويبقى الماء الصافى الذى ينفع وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ويذهب العلو الذى هو الكدر وهو ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الارض كذلك الحق والباطل وقيل هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالايمان كمثل الماء الصافى الذى ينتفع به الناس ومثل الكافر وخبث اعتقاده كمثل الزبد الذى لا ينتفع به البتة * ثم انه تعالى لما ذكر الحق والباطل ذكر ما لاهلهما من الثواب والعقاب فقال تعالى (للذين استجابوا لربهم) أى أجابوه الى ما دعاهم اليه من التوحيد والعدل والنبوة وبعث الاموات والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم (الحسنى) قال ابن عباس ٣ وقال أهل المعانى الحسنى هى المنفعة العظمى فى الحسن وهى المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة الدائمة

المذكور فيها صبرها وفاد فى القصص من عباده موافقة لذلك وان كان اللفظ الرزق فيه تضمنا وزاد من عباده فى ثانى موضعى سبا لانه نزل فى المؤمنين وما قبله فى الكافرين وحذف

٣ قوله قال ابن عباس وقال أهل المعانى هكذا بالاصول ولينظر ما قاله ابن عباس اه مصححه

الخالصة عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والاجلال ولم يذكر تعالى الزيادة ههنا لانه تعالى ذكرها في سورة أخرى وهي قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة هذا مآل اهل الحق وأما مآل اهل الباطل فهو ما ذكره بقوله جل من قائل (والذين لم يستجيبوا له) وهم الكفرة فلهم أنواع ثلاثة من العذاب والعقوبة فالنوع الاول قوله تعالى (لو أن لهم ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به) أي جعلوه فكاك أنفسهم بغاية جهدهم لان المحبوب بالذات لكل انسان هو ذاته وكل ما سواه فهو انما يحبه لكونه وسيلة الى مصالح ذاته فاذا كانت النفس في الضرر والالم والتعب وكان مالك الدنيا اوى عالم الاجناس والارواح فانه يرضى بأن يجعله فداء نفسه لان المحبوب بالعرض لابد وأن يكون فداء لما كان محبوبا بالذات والكناية في به عائدة الى ما في قوله ما في الارض والنوع الثاني من أنواع العذاب الذي أعده الله تعالى لهم ما ذكره بقوله تعالى (أولئك لهم سوء الحساب) وهو المناقشة فيه وعن النخعي بأن يحاسب العبد بذنبه كله لا يغفر منه شيء وانما نوقشوا لانهم أحبوا الدنيا وأعرضوا عن المولى فلما ماتوا بقوا محرومين عن معشوقهم الذي هو الدنيا وبقوا محرومين من الفوز بسعادة خدمة المولى والنوع الثالث من عقوباتهم ما ذكره بقوله تعالى (ومأواهم) أي مرجعهم (جهنم) وذلك لانهم كانوا غافلين عن الاشتغال بخدمة المولى عاشقين للذات الدنيا فاذا ماتوا فارقوا معشوقهم فيحترقون على مفارقتها وليس عندهم شيء آخر يجبر هذه المصيبة فلذلك كان مأواهم جهنم * ثم انه تعالى وصف هذا المأوى بقوله عز من قائل (وبئس المهاد) اي الفراش والمخصوص بالذم محذوف أي جهنم * ونزل في حمزة وأبي جهل وقيل في عمار وأبي جهل (أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق) أي يؤمن به ويعمل بما فيه وهو حمزة أو عمار رضي الله تعالى عنهما (كمن هو أعمى) أي أعمى البصيرة ولا يؤمن به ولا يعمل بما فيه وهو أبو جهل قال ابن الخازن في تفسيره وحمل الآية على العموم أولى وان كان السبب مخصوصا والمعنى لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن هو لا يبصر الحق ولا يتبعه وانما شبه الكافر والجاهل بالاعمى لان الاعمى لا يهتدي لرشد (انما يتذكر) اي يتعظ (أولوا الالباب) أي أصحاب العقول الذين يطلبون من كل صورة معناها ويأخذون من كل قشرة لبابها ويعبرون من ظاهر كل حديث الى سره ولبابه (الذين يوفون بعهد الله) أي ما عاقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلى أو ما عهد الله تعالى عليهم في كتبه (ولا ينقضون الميثاق) أي ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبينهم وبين العباد فهو تعميم بعد تخصيص (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) أي من الايمان والرحم وغير ذلك والاكثرون على أنه أراد به صلة الرحم عن أبي موسى ان عبد الرحمن بن عوف عاد أبا الدرداء فقال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما يحكي عن ربه تعالى أنا الرحمن وهي الرحم شققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته أو قال بتته وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحم متعلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه ومعنى ينسأ يؤخر والمراد به تأخير الاجل وفيه قولان أحدهما وهو المشهور أنه يزاد في عمره

لفظه له في غير العنكبوت وفي اول موضعي سبا اختصارا (قوله قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب) ان قلت كيف طابق هذا الجواب قوله لولا أنزل عليه آية من ربه

زيادة حقيقية والثاني يبارك له في عمره فكأنه قد زيد فيه وعن ابن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي اذا انقطعت رحمه وصلها وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال تاتي يوم القيامة لها ألسنة ذلقة الرحم فتقول أي رب قطعت والامانة تقول أي رب تركت والنعمة تقول أي رب كفرت وعن الفضيل بن عياض ان جماعة دخلوا عليه بمكة فقال من أين أنتم فقالوا من خراسان قال اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم واعلموا ان العبد لو أحسن كل الاحسان وكانت له دجاجة فأساء اليها لم يكن من المحسنين (ويخشون ربهم) أي وعيده عموما والخشية خوف يشوبه تعظيم (ويخافون سوء الحساب) خصوصا فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا (والذين صبروا) اى على طاعة الله تعالى وعن معاصيه وفي كل ما ينبغي الصبر فيه وقال ابن عباس صبروا على أمر الله وقال عطاء على المصائب والنوائب وقيل صبروا عن الشهوات وعن المعاصي ومرجع الكل واحد فان الصبر الحبس وهو تجرع مرارة منع النفس عما تحب مما لا يجوز فعله (ابتغاء) اى طلب (وجه ربهم) أي رضاه لا طلب غيره من جود أو سمعة أو رياء أو لغرض من أغراض الدنيا أو نحو ذلك (وأقاموا الصلوة) اى المفروضة وقيل مطلق الصلاة فيدخل فيه الفرض والنفل (وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) قال الحسن المراد به الزكاة فان لم يتهم بترك الزكاة فالاولى أن يؤديها سرا وان كان يتهم بترك أدائها فالاولى أن يؤديها علانية وقيل المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية الزكاة وقيل المراد بالسر ما يؤديه من الزكاة بنفسه وبالعلانية ما يدفعه الى الامام (ويدرؤن) أي يدفعون (بالحسنة السيئة) كالجهل بالحلم والاذى بالصبر روي عن ابن عباس قال يدفعون بالصالح من العمل السيء من العمل وهو معنى قوله تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات وقوله صلى الله عليه وسلم اذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية وعن عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيق قد خنقه ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل حسنة أخرى فانفكت أخرى حتى يخرج الى الارض وقال ابن عباس يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم وعن الحسن اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا وعن ابن عمر ليس الواصل من وصل ثم وصل تلك مجازاة لكن من قطع ثم وصل وعطف من لم يصله وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى اذا هيجه قوم اهتاج لكن الحليم من قدر ثم عفا وعن ابن كيسان اذا أذنبوا تابوا وقيل اذا رأوا منكرا امروا بتغييره وروى أن شقيقا البلخي دخل على ابن المبارك متنكرا فقال له من أين أنت فقال من بلخ فقال وهل تعرف شقيقا قال نعم فقال وكيف طريقة أصحابه قال اذا منعوا صبروا واذا أعطوا شكروا فقال ابن المبارك طريقة كلابنا هكذا فقال شقيق فكيف ينبغي أن يكون الامر فقال الكاملون هم الذين اذا منعوا شكروا واذا أعطوا آثروا (أولئك) أى العالو الرتبة (لهم عقبى الدار) وبينها تعالى بقوله (جنات عدن) أى اقامة لا انفكاك لها يقال عدن بالمكان اذا أقام به ثم استأنف بيان تمكنهم بها بقوله تعالى (يدخلونها) ولما كانت الدار لا تطيب بدون الاحبة قال تعالى عاطفا على الضمير المرفوع (ومن صلح من آبائهم) أى الذين كانوا سببا في

(قلت) المعنى قل لهم ان الله أنزل على آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة لكن الاضلال والهداية من الله فاضلكم عن تلك الآيات وهدى اليها آخرين فلا فائدة في تكثير الآيات

ايجادهم فيشمل ذلك الآباء والامهات وان علوا (وأزواجهم وذرياتهم) أي الذين تسببوا عنهم والمعنى أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم وان لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم وتعظيما لشأنهم ويقال ان من أعظم موجبات سرورهم أن يجتمعوا فيتذاكروا أحوالهم في الدنيا ثم يشكروا الله تعالى على الخلاص منها والفوز بالجنة ولذلك قال الله تعالى في صفة أهل الجنة انهم يقولون ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين وفي ذلك دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة وان الموصوفين بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة زيادة في أنسهم والتقييد بالصلاح دلالة على أن مجرد الانساب لاتنفع وفسر ابن عباس الصلاح بالتصديق فقال يريد من صدق بما صدقوا وان لم يعمل مثل أعمالهم قال الرازي قوله وأزواجهم ليس فيه مايدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الاولى من مات عنها أو ماتت عنه وماروى عن سودة أنها لما هم الرسول صلى الله عليه وسلم بطلاقها قالت دعني يارسول الله أحشر في جملة نسائك كالدليل على ماذكرنا اهـ وعلى هذا من تزوجت بغيره قيل انها تخير بينهما ثم زاد تعالى في ترغيبهم بقوله تعالى (والملائكة يدخلون عليهم) لان الاكثار من تردد رسل الملك أعظم في الفخر وأكثر في السرور والعزة ولما كان اتيانهم من الاماكن المعتادة مع القدرة على غيرها أدل على الادب والكرم قال تعالى (من كل باب) قال ابن عباس لهم خيمة من درة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها ألف باب مصاريعها من ذهب يدخلون عليهم من كل باب يقولون لهم (سلام عليكم) أي فاضمر القول هنا لدلالة الكلام عليه (بما صبرتم) على أمر الله والباء السببية أي بسبب صبركم أو البدلية أي بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه (فان قيل) بم يتعلق قوله بما صبرتم قال الزمخشري بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم وقال البيضاوي متعلق بعليكم أو بمحذوف لا بسلام فان الخبر فاصل مع أن الزمخشري قال ويجوز أن يتعلق بسلام أي نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم وهذا أظهر ورد الاول بأن الممنوع منه انما هو المصدر المؤول بحرف مصدري وفعل والمصدر هنا ليس كذلك * ولما تم ذلك تسبب عنه قوله تعالى (فنعم عقبى الدار) وهي المسكن في قرارها بالابنية التي يحتاج اليها والمرافق التي ينتفع بها والعقبى الانتهاء الذي يؤدي اليه الابتداء من خير أو شر والمخصوص بالمدح محذوف أي عقباكم * ولما ذكر تعالى صفات السعداء وما يترتب عليها من الاحوال الشريفة العالية أتبعها بذكر أحوال الاشقياء وذكر ما يترتب عليها من الاحوال المخزية المكربة وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب ليكون البيان كاملا فقال تعالى (والذين ينقضون عهد الله) أي يفعلون بخلاف موجبه والنقض التفريق الذي ينفي تأليف البناء (من بعد ميثاقه) أي الذي أوثقه عليهم من الاقرار والقبول (ويقطعون ما) أي الذي (أمر الله به أن يوصل) وذلك في مقابلة قوله من قبل والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل فجعل من صفات هؤلاء القطع بالضد من ذلك الوصل والمراد به قطع ما يوجب الله تعالى وصله أي لما له من المحاسن الجلية والخفية التي هي عين الصلاح ويدخل في ذلك وصل الرسول صلى الله عليه وسلم بالموالاة والمعاونة ووصل المؤمنين ووصل الارحام ووصل سائر من له حق (ويفسدون) أي يوقعون الفساد (في الارض) أي في أي جزء كان منها بالظلم وتهييج الفتن والدعاء الى غير دين الله تعالى (أولئك) أي البعداء

فلما طلبوا بعدها آيات أخر
من ان تشتبه على العاقل
الله عليه وسلم كانت أكثر
التي ظهرت على النبي صلى
لان الآيات الباهرة المتكاثرة
مجرى التعجب من قولهم
والمعجزات أو هو كلام جرى

البغضاء (لهم اللعنة) أي الطرد والبعد (ولهم سوء الدار) والدار لهم هي جهنم وليس لهم فيها
الا ما يسوء الصائر اليها ولما حكم تعالى على من نقض عهده في قبول التوحيد والنبوة بأنهم
ملعونون في الدنيا ومعذبون في الآخرة فكأنه قيل لو كانوا أعداء الله تعالى لما فتح الله عليهم
أبواب النعم واللذات في الدنيا فأجاب الله تعالى بقوله تعالى (الله يبسط الرزق) أي يوسعه (لمن
يشاء ويقدر) أي يضيقه على من يشاء سواء في ذلك الطائع والعاصي ولا تعلق لذلك بالكفر
والايمان فقد يوجد الكافر موسعا عليه دون المؤمن ويوجد المؤمن موسعا عليه دون الكافر
فالدنيا دار امتحان ولما كانت السعة مظنة الفرح الا عند من وفقه الله تعالى قال الله تعالى
(وفرحوا) أي كفار مكة فرح بطر (بالحيوة الدنيا) أي بما نالوه فيها لا فرح سرور بفضل الله
والانعام عليهم ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة (وما الحيوة الدنيا) أي بكمالها
(في الآخرة) أي في جنبها (الا متاع) أي حقير متلاش يتمتع به ويذهب كعجالة الراكب وهي
ما يتعجله من تمرات أو شربة ماء سويق أو نحو ذلك (ويقول الذين كفروا) من أهل مكة (لولا)
أي هلا (أنزل عليه) أي على هذا الرسول (آية) أي علامة بينة (من ربه) أي المحسن اليه
كالعصا واليد والبيضاء والناقة لصالح لنهتدي بها فنؤمن به وأمره الله تعالى أن يجيبهم بقوله
(قل) أي لهؤلاء المعاندين (ان الله يضل من يشاء) اضلاله فلا تغني عنه الآيات شيئا وان أنزلت
كل آية (ويهدي) أي يرشد (اليه) أي الى دينه (من أناب) أي رجع اليه كأبي بكر الصديق وغيره
ممن تبعه من العشرة المشهود لهم بالجنة وغيرهم ولو حصلت آية واحدة فلا تشتغلوا بطلب
الآيات ولكن تضرعوا الى الله تعالى في طلب الهداية وقوله تعالى (الذين آمنوا) بدل من من
أناب أو خبر مبتدا محذوف (وتطمئن) أي تسكن (قلوبهم بذكر الله) أي أنسا به واعتمادا عليه
ورجاء منه أو بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته أو بذكر دلائله
الدالة على وجوده أو بالقرآن الذي هو أقوى المعجزات وقال ابن عباس يريد اذا سمعوا القرآن
خشعت قلوبهم واطمأنت (فان قيل) قد قال الله تعالى في سورة الانفال انما المؤمنون الذين
اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل ضد الاطمئنان فكيف الجمع بين هاتين الآيتين (أجيب)
بأنهم اذا ذكروا العقاب ولم يأمنوا أن يقدموا على المعاصي فهناك يحصل الوجل واذا ذكروا
وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم الى ذلك وحينئذ حصل الجمع بينهما (ألا بذكر الله) أي
الذي له الجلال والاكرام لا بذكر غيره (تطمئن) أي تسكن (القلوب) ويثبت اليقين فيها وقوله
تعالى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مبتدأ خبره (طوبى لهم) واختلف العلماء في تفسير طوبى
فقال ابن عباس فرح لهم وقرة عين وقال عكرمة نعمى لهم وقال قتادة حسنى لهم وقال النخعي
خير لهم وكرامة وقال سعيد بن جبير طوبى اسم الجنة بالحبشية قال الرازي وهذا القول
ضعيف لانه ليس في القرآن الا العربي لا سيما واشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر
وعن أبي هريرة وأبي الدرداء ان طوبى شجرة في الجنة تظل الجنان كلها وقال عبيد بن عمير هي
شجرة في جنة عدن أصلها في دار النبي صلى الله عليه وسلم وفي كل دار وغرفة غصن منها لم يخلق
الله لونا ولا زهرة الا وفيها منه الا السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة الا وفيها منها ينبع من
أصلها عينان الكافور والسلسبيل وقال مقاتل كل ورقة منها تظل أمة عليها ملك يسبح

كان محل التعجب والانكار فكأنه قيل لهم ما أعظم عنادكم ان الله يضل من يشاء كمن كان على صنيعكم من التصميم على الكفر فلا سبيل الى هدايتكم وان أنزلت كل آية ويهدي

الله تعالى بانواع التسبيح وعن أبي سعيد الخدري أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم ما طوبى قال شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها وعن معاوية ابن قرة عن أبيه يرفعه طوبى شجرة غرسها الله تعالى بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلي والحلل وان أغصانها لترى من وراء سور الجنة وفي رواية عن أبي هريرة انه قال ان في الجنة شجرة يقال لها طوبى يقول الله تعالى لها تفتقي لعبدي عما يشاء فتنفتق له عن فرس مسرجة بلجامها وهيئتها كما يشاء وتنفتق له عن راحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما يشاء وقيل طوبى فعلى من الطيب قلبت ياؤه واوا لضم ما قبلها مصدر الطاب كبشرى وزلفى ومعنى طوبى لك أصبت خيرا وطيبا (وحسن مآب) أي حسن المنقلب (كذلك) أي مثل ارسال الرسل الذين قدمنا الاشارة اليهم في آخر سورة يوسف وفي غيرها (أرسلناك في أمة) أي جماعة كثيرة (قد خلت من قبلها) أي تقدمتها (أمم) طال اذاهم لانبيائهم ومن آمن بهم واستهزاؤهم بهم في عدم الاجابة حتى كأنهم تواصوا بهذا القول فليس ببدع ارسالك اليهم (لتتلو) أي لتقرأ (عليهم) أي على أمتك (الذي أوحينا اليك) من القرآن وشرائع الدين (وهم) أي والحال أنهم (يكفرون بالرحمن) أي بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شئ وقال قتادة هذه الآية مدنية نزلت في صلح الحديبية وذلك ان سهيل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل بن عمرو لا نعرف الرحمن الا صاحب اليمامة يعني مسيلمة الكذاب اكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن أي انهم يكفرونه ويجحدونه قال البغوي والمعروف ان الآية مكية وسبب نزولها ان أبا جهل سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الحجر يدعو يا الله يا رحمن فرجع الى المشركين فقال ان محمدا يدعو الله ويدعو الها آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى وروى الضحاك عن ابن عباس انها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن قال الله تعالى (قل) لهم يا محمد ان الرحمن الذي أنكرتم معرفته (هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت) أي اعتمدت عليه في أموري كلها (واليه متاب) أي مرجعي ومرجعكم روي ان أهل مكة قعدوا في فناء الكعبة فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم وعرض الاسلام عليهم فقال له عبد الله بن أمية المخزومي سير لنا جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا واجعل لنا فيها أنهارا نزرع فيها وأحي لنا بعض اموتنا لنسألهم أحق ما تقول ام باطل فقد كان عيسى يحيي الموتى وسخر لنا الريح حتى نركبها الى البلاد فقد كانت الريح مسخرة لسليمان فلست بأهون على ربك من سليمان فنزل قوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) اي نقلت عن أماكنها (او قطعت) اى شققت (به الارض) من خشية الله تعالى عند قراءته فجعلت أنهارا وعيونا (أو كلم به الموتى) أي بأن يحيوا وجواب لو محذوف أي لكان هذا القرآن لانه في غاية ما يكون من الصحة واكتفى بمعرفة السامعين مراده وهذا معنى قول قتادة قال لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وقيل تقديره لما آمنوا ونقل عن الفراء ان جواب لو هي الجملة من قوله وهم يكفرون ففي الكلام تقديم وتأخير وما بينهما اعتراض وتقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن لو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به

الارض

لمن كان على خلاف صنيعكم (قوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) وان قلت كيف طابقه قوله عليه وجعلوا لله شركاء (قلت) فيه محذوف تقديره

الارض او كلم به الموتى لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا لما سبق من علمنا فيهم (فان قيل) لم حذفت التاء فى قوله تعالى أو كلم به الموتى وثبتت فى الفعلين قبله (أجيب) بانه من باب التغليب لان الموتى يشمل المذكر والمؤنث (بل لله الامر) اى القدرة على كل شئ (جميعا) وهذا اضراب عما تضمنته لو من معنى النفى اى بل الله قادر على الاتيان بما اقترحوه من الآيات لكن الارادة لم تتعلق بذلك لعلمه تعالى بانه لا يلين قلوبهم ويؤيد ذلك قوله تعالى (أفلم ييأس الذين آمنوا) عن ايمانهم مع ما رأوا من أحوالهم وذهب أكثرهم الى أن معناه أفلم يعلم الذين آمنوا (أن) اى بانه (لو يشاء الله) أى الذى له صفات الكمال (لهدى الناس جميعا) اى الى الايمان من غير آية ولكنه تعالى لم يشأ هداية جميع الخلائق (ولا يزال الذين كفروا) اى جميع الكفار (تصيبهم بما) اى بسبب ما (صنعوا قارعة) اى نازلة وداهية تقرعهم بانواع البلايا تارة بالجدب وتارة بالسلب وتارة بالقتل وتارة بالاسر وغير ذلك واختلف فى الكفار على قولين قيل أراد بهم جميع الكفار لان الوقائع الشديدة التى وقعت لبعض الكفار من ذلك أوجبت حصول الغم فى قلب الكل وقيل المراد الكفار من أهل مكة والالف واللام للمعهود السابق ويدل لهذا قول ابن عباس أراد بالقارعة السرايا التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها اليهم (أو تحل) أى تنزل نزولا ثابتا تلك القارعة (قريبا من دارهم) اى فتفزعون من أمرهم وقيل معناه أو تحل أنت يا محمد بجيشك قريبا من دارهم مكة كما حل بالحديبية (حتى يأتى وعد الله) اى بالنصر وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه بفتح مكة أو بالنصر على جميع الكفرة فى زمن عيسى عليه السلام فينقطع ذلك لانه لا يبقى على الارض كافر وقيل أراد بوعد الله يوم القيامة لان الله يجمعهم فيه فيجازيهم باعمالهم (ان الله لا يخلف الميعاد) لامتناع الكذب فى كلامه تعالى * ولما كان الكفار يسألون هذه الآيات منه صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق عليه ويتأذى من تلك الكلمات أنزل الله تعالى تسلية له وتصبيرا له على سفاهة قومه (ولقد استهزئ برسل من قبلك) كما استهزئ بك (فأمليت للذين كفروا) أى أطلت المدة بتأخير العقوبة (ثم أخذتهم) بالعقوبة (فكيف كان عقاب) أى هو واقع موقعه فكذلك أفعل بمن استهزأ بك والاملاء الامهال بان يترك مدة من الزمان فى راحة وأمن كالبهيمة يملى لها فى المرعى وهذا استفهام معناه التعجب وفى ضمنه وعيد شديد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء ثم انه تعالى أورد على المشركين ما يجرى مجرى الحجاج وما يكون توبيخا لهم وتعجيبا من عقولهم فقال تعالى (أفمن هو قائم) أى رقيب (على كل نفس بما كسبت) أى عملت من خير وشر وهو الله تعالى القادر على كل الممكنات العالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات ولا بد لهذا الكلام من جواب فان من موصولة صلتها هو قائم والموصول مرفوع بالابتداء وخبره محذوف تقديره كمن ليس بهذه الصفة وهى الاصنام التى لا تنفع ولا تضر دل على هذا المحذوف قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء) ونظيره قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام الآية تقديره كمن قسا قلبه يدل عليه قوله فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله وانما حسن حذفه كون الخبر مقابلا للمبتدا وقد جاء مبينا كقوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق وقوله تعالى (قل سموهم) فيه

أفمن هو رقيب على كل نفس صالحة وطالحة يعلم ما كسبت من خير وشر كمن ليس كذلك من شركائهم التى لا تضر ولا تنفع ويدل له قوله وجعلوا لله شركاء ونحوه قوله تعالى

تنبيه على أن هؤلاء الشركاء لا يستحقونها والمعنى سموهم بأسمائهم الحقيقية فإنهم إذا عرفت حقائقهم أنها حجارة أو غير ذلك علم أنها بمركز العجز ومحل الفقر عرف ما هم عليه من سخافة العقول وركاكة الآراء ثم قيل أرجعتم عن ذلك إلى الإقرار بأنهم من جملة عبيده (أم تنبئونه) أي تخبرونه (بما لا يعلم) وعلمه محيط بكل شيء (في الأرض) من كونها آلهة ببرهان قاطع (أم) تسمونهم شركاء (بظاهر من القول) أي بحجة ظاهرية تقال بالفم وكل ما لا يعلم فليس بشيء وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب ينادي على نفسه بالإعجاز ۞ ولما كان التقدير ليس لهم على شيء من هذا برهان قاطع ولا قول ظاهر بنى عليه قوله تعالى (بل زين) أي وقع التزيين بأمر من لا يرد أمره على يد من كان من شياطين الإنس أو شياطين الجن (للذين كفروا مكرهم) أي أمرهم الذي أرادوا به ما يراد بالمكر من إظهار شيء وإبطان غيره وذلك أنهم أظهروا أن شركاءهم آلهة حقا وهم يعلمون بطلان ذلك وليس بهم في الباطن إلا تقليد الآباء وأظهروا أنهم يعبدونهم للتقرب بهم إلى الله زلفى وليشفعوا لهم وهم لا يعتقدون بعثا ولا نشورا فصار كل ذلك من فعلهم فعل الماكر (وصدوا) غيرهم (عن السبيل) أي طريق الهدى الذي لا يقال لغيره سبيل فإن غيره عدم بل العدم خير منه فهم لم يسلكوا السبيل ولا تركوا غيرهم يسلكه فضلوا وأضلوا وليس ذلك بعجيب فإن الله أضلهم (ومن يضلل الله) أي الذي له الأمر كله بإرادة ضلاله (فما له من هاد) وقرأ ابن كثير بإثبات الياء بعد الدال في الوقف دون الوصل والباقون بغير ياء وقفا ووصلا وكذلك من واق وكذا ولا واق ۞ ولما أخبر الله تعالى بتلك الأمور المذكورة بين أنه جمع لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بقوله تعالى (لهم عذاب في الحيوة الدنيا) بالقتل والأسر والذل والإهانة واغتنام الأموال واللعن ونحو ذلك مما فيه غيظهم (ولعذاب الآخرة أشق) أي أشد في المشقة بسبب القوة والشدة وكثرة الأنواع والدوام وعدم الانقطاع ثم بين تعالى أن أحدا لا يقيهم من عذابه بقوله تعالى (وما لهم من الله من واق) أي مانع يمنعهم إذا أراد بهم سوءا في الدنيا ولا في الآخرة والواقي فاعل من الوقاية وهي الحجز عما يدفع الأذية ۞ ولما ذكر تعالى عذاب الكفار في الدنيا والآخرة أتبعه بذكر ثواب المتقين بقوله تعالى (مثل) أي صفة (الجنة) أي التي هي مقرهم (التي وعد المتقون) واختلف في إعراب ذلك على أقوال الأول قال سيبويه مثل الجنة مبتدأ وخبره محذوف والتقدير فيما قصصناه عليك مثل الجنة والثاني قال الزجاج مثل الجنة جنة من صفتها كذا وكذا والثالث مثل الجنة مبتدأ وخبره (تجري من تحتها الأنهار) كما تقول صفة زيد أسمر والرابع الخبر (أكلها) أي ما يؤكل فيها (دائم) لا ينقطع لأنه الخارج عن العادة فقد وصف الله تعالى الجنة بثلاثة أوصاف الأول تجري من تحتها أي من تحت قصورها وأشجارها الأنهار الثاني أن أكلها دائم لا ينقطع أبدا بخلاف جنة الدنيا والثالث قوله تعالى (وظلها) أي دائم ليس كظل الدنيا لا تنسخه الشمس ولا غيرها إذ ليس فيها شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول ثم إنه تعالى لما وصف الجنة بهذه الصفات الثلاثة بين تعالى أنها للمتقين بقوله تعالى (تلك) أي الجنة العالية الأوصاف (عقبى) أي آخر أمر (الذين اتقوا) أي الشرك ثم كرر الوعيد للكافرين بقوله تعالى (وعقبى) أي منتهى أمر (الكافرين النار)

أفمن شرح الله صدره للإسلام تقديره كمن قسا قلبه يدل عليه قوله فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله (قوله قل إنما أمرت أن أعبد الله) ۞ إن قلت كيف اتصل هذا بقوله قبله ومن

لاغير وفي ترتيب النظم اطماع للمتقين واقناط للكافرين واختلف في قوله تعالى (والذين آتيناهم الكتاب) على قولين الاول أنهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والمراد بالكتاب القرآن (يفرحون بما أنزل اليك) من أنواع التوحيد والعدل والنبوة والبعث والاحكام والقصص (ومن الاحزاب) اى الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار (من ينكر بعضه) وهذا قول الحسن وقتادة (فان قيل) الاحزاب منكرون كل القرآن (أجيب) بأنهم لا ينكرون كل ما في القرآن لانه ورد فيه اثبات الله تعالى واثبات علمه وقدرته وحكمته وأقاصيص الانبياء والاحزاب لا ينكرون كل هذه الاشياء والقول الثاني ان المراد بالكتاب التوراة وبأهله الذين أسلموا من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام واصحابه ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون من نجران وثمانية من اليمن واثنان وثلاثون من أرض الحبشة وفرحوا بالقرآن لانهم آمنوا به وصدقوه والاحزاب بقية أهل الكتاب وسائر المشركين وقيل كان ذكر الرحمن قليلا في القرآن في الابتداء فلما أسلم عبد الله بن سلام ومن تبعه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن مع كثرة ذكره في التوراة فلما كرر الله تعالى ذكره في القرآن فرحوا به فانزل الله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه يعني مشركي مكة حين كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتاب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم قالوا ما نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة يعني مسيلمة فانزل الله تعالى وهم بذكر الرحمن هم كافرون ثم انه تعالى لما بين هذا جمع كل ما يحتاج المرء اليه في معرفة المبدأ والمعاد وبينه بالفاظ قليلة فقال (قل) اى يا أكرم الخلق على الله تعالى (انما أمرت) اى وقع الى الامر الجازم الذي لا شك فيه ولا تغيير ممن له الامر كله (ان اعبد الله) اى وحده ولذلك قال (ولا أشرك به) شيأ (اليه) وحده (أدعوا واليه مآب) أى مرجعي للجزاء لا الى غيره (وكذلك) أى كما أنزلنا الكتب على الانبياء بلسانهم (أنزلناه) أى القرآن (حكما) والحكم فصل الامر على الحق (عربيا) بلسانك ولسان قومك وانما سمي القرآن حكما لان فيه جميع التكاليف والحلال والحرام والنقض والابرام فلما كان سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة وروى ان المشركين كانوا يدعون النبي صلى الله عليه وسلم الى ملة آبائه فوعده الله تعالى على متابعتهم في تلك المذاهب بان يصلي الى قبلتهم بعدما حوله الله تعالى عنها بقوله تعالى (ولئن اتبعت أهواءهم) أى الكفار فيما يدعونك اليه من ملتهم (بعدما جاءك من العلم) أى بانك على الحق وأن قبلتك هي الكعبة (ما لك من الله من ولي) اى ناصر (ولا واق) اى مانع من عذابه قال ابن عباس الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ونزل لما عيروا الكفار النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة النساء (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا) أى نساء ينكحونهن فكان لسليمان ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية وكان لداود عليه السلام مائة امرأة (وذرية) اى أولادا فانت مثلهم وكانوا يقولون أيضا لو كان رسولا من عند الله لكان أي شئ طلبناه منه من المعجزات أتى به فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله) أى بارادته لان المعجزة الواحدة كافية في ازالة العذر والعلة وفي اظهار الحجة والبينة وأما الزائد عليها فهو مفوض الى مشيئة الله

(قوله وقد ذكر الذين من الاحزاب من ينكر بعضه (قلت) هو جواب المنكرين معناه قل انما أمرت فيما أنزل الى بان اعبد الله ولا أشرك به فانكارهم لبعضه انكار لعبادة الله وتوحيده

تعالى ان شاء أظهرها وان لم يشأ لم يظهرها لا اعتراض لاحد عليه فى ذلك * ولما توعدهم صلى الله عليه وسلم نزول العذاب وظهور النصرة له ولقومه وتأخر ذلك عنهم قالوا لو كان نبيا صادقا لما ظهر كذبه فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (لكل أجل) أى مدة (كتاب) أى مكتوب قد أثبت فيه ان أمر كذا يكون فى وقت كذا من الثواب والعقاب والاحكام والاتيان بالآيات وغيرها ثبا ماونسخا على ما تقتضيه الحكمة * ولما اعترضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ان محمدا يأمر أصحابه بأمر اليوم ثم يأمر بخلافه غدا وما سبب ذلك الا أنه يقوله من تلقاء نفسه فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (يمحو الله ما يشاء) أى محوه من الشرائع والاحكام وغيرها بالنسخ فيرفعه (ويثبت) ما يشاء اثباته من ذلك بان يقره ويمضى حكمه كقوله تعالى ما ننسخ من آية الى قوله تعالى ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بسكون الثاء المثلثة وتخفيف الباء الموحدة والباقون بفتح الثاء وتشديد الباء الموحدة *(تنبيه)* فى هذه الآية قولان أحدهما أنها عامة فى كل شئ كما يقتضيه ظاهر اللفظ وهذا مذهب عمر وابن مسعود وغيرهما قالوا ان الله يمحو من الرزق ويزيد فيه وكذا القول فى الاجل والسعادة والشقاوة والايمان والكفر وروى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكى ويقول اللهم ان كنت كتبتنى فى أهل السعادة فأثبتنى فيها وان كنت كتبت على الشقاوة فامحنى وأثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ومثله عن ابن مسعود وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى بعض الآثار ان الرجل يكون قد بقى من عمره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فيرد الى ثلاثة أيام والرجل يكون قد بقى من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيرد الى ثلاثين سنة وروى ان الله تعالى ينزل أى أمره فى آخر ثلاث ساعات تبقى من الليل فينظر فى الساعة منهن فى أم الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت والقول الثانى ان هذه الآية خاصة فى بعض الاشياء دون بعض واختلفوا على هذا القول فقال سعيد بن جبير وقتادة يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه وقال ابن عباس يمحو الله ما يشاء ويثبت الا الرزق والاجل والسعادة والشقاوة واستدل لهذا بما رواه حذيفة بن أسيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثم قال يا رب أذكر أم أنثى فيقضى ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول الملك يا رب رزقه فيقضى ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول يا رب أشقى أم سعيد فيكتبان فيكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد ولا ينقص وقال عطية عن ابن عباس هو الرجل يعمل بطاعة الله تعالى ثم يرجع لمعصية الله تعالى فيموت على ضلاله فهو الذى يمحو والذى يثبت يعمل الرجل بطاعة الله فيموت وهو فى طاعته فهو الذى يثبت وقال الحسن يمحو ما يشاء أى من جاء أجله يذهب به ويثبت من لم يجئ أجله الى أجله وعن سعيد بن جبير قال يمحو ما يشاء من ذنوب العباد فيغفرها ويثبت ما يشاء فلا يغفرها وقال عكرمة يمحو الله ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات كما قال تعالى فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وقال السدى

(ان قلت) كيف أثبت لهم مكرا ثم نفاه عنهم بقوله فلله المكر جميعا (قلت) معناه ان مكر الماكرين مخلوق له ولا يضر الا بارادته فاثبت لهم باعتبار الكسب ونفيه

يمحو الله ما يشاء يعني القمر ويثبت ما يشاء يعني الشمس بيانه قوله تعالى فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة وقال الربيع هذا في الارواح يقبضها الله تعالى عند النوم فمن أراد موته أمسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده الى صاحبه بيانه قوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها الآية وقيل ان الله تعالى يثبت في أول كل سنة حكمها فاذا مضت السنة محاه وأثبت حكما آخر للسنة المستقبلة وقيل يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة وقيل ان الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحو الله من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب وقيل هذا في المحن والمصائب فهي مثبتة في الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة (وعنده) تعالى (أم الكتاب) أصل الكتب والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الاصل للشئ أما ومنه أم الرأس للدماغ وأم القرى لمكة وكل مدينة فهي أم لما حولها من القرى فكذلك أم الكتاب هو الذي يكون أصلا لجميع الكتب وفيه قولان الاول أنه اللوح المحفوظ الذي لا يغير ولا يبدل وجميع حوادث العالم العلوي والسفلي يثبت فيه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كان الله ولا شئ ثم خلق اللوح وأثبت فيه أحوال جميع الخلق الى قيام الساعة والقول الثاني ان أم الكتاب أصله الذي لا يغير منه شئ وهو الذي كتب في الازل وقال ابن عباس في رواية عكرمة هما كتابان كتاب سوى أم الكتاب يمحو ما يشاء منه ويثبت وعنده أم الكتاب لا يغير منه شئ وعلى هذا فالكتاب الذي يمحو منه ويثبت هو الكتاب الذي تكتبه الملائكة على الخلق وعن ابن عباس قال ان لله لوحا محفوظا مسيرته خمسمائة عام من درة بيضاء لها دفتان من ياقوتة لله فيه في كل يوم ثلثمائة وستون لحظة يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وسأل ابن عباس كعبا عن أم الكتاب فقال علم الله ما هو خالق وما خلقه ولما كان من مقترحاتهم وطلباتهم استهزاء استعجال السيئة مما توعدوا به وكانت النفس ربما تمنت وقوع ذلك البعض وانبائه ليؤمن به غيره تقريبا لفصل النزاع قال تعالى (واما نرينك) بادغام نون ان الشرطية في ما الزائدة وأكده بالنون تأكيدا للاعلام بانه لا حرج عليه في ضلال من ضل بعد ابلاغه (بعض الذي نعدهم) اي من العذاب وأنت حي كما تريد أو تريد اصحابك قبل وفاتك فذلك شافيك من أعدائك والوعد الخبر عن خير مضمون والوعيد الخبر عن شر مضمون والمعنى ههنا عليه وسماه وعدا لتنزيلهم اياه في طلب نزوله منزلة الوعد (او نتوفينك) اي قبل أن نرينك ذلك فلا لوم عليك ولا عتب (فانما عليك البلاغ) أي ليس عليك الا تبليغ الرسالة اليهم وليس عليك ان تجازيهم ولا ان تأتيهم بالمقترحات والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ واما فيه ادغام نون ان الشرطية في ما الزائدة (وعلينا الحساب) اي علينا أن نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم باعمالهم فلا تحتفل باعراضهم ولا تستعجل بعذابهم ⁂ (تنبيه) ⁂ قال أبو حيان هنا شرطان لان المعطوف على الشرط شرط فيقدر لكل شرط ما يناسب أن يكون جزاء مرتبا عليه والتقدير واما نرينك بعض الذي نعدهم فذلك شافيك من أعدائك واما نتوفينك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب وقد مرت الاشارة الى ذلك ⁂ ولما وعد الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يريه بعض ما يعده أو يتوفاه قبل ذلك بين تعالى ان آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت بقوله تعالى (أولم يروا) اي كفار مكة (أنا نأتي الارض) أي

عنهم باعتبار الخلق
(سورة ابراهيم عليه السلام)
(قوله وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه) ان قلت هذا يقتضى ان النبي صلى الله عليه

ننقصه دار أرض هؤلاء الكفرة (ننقصها من أطرافها) بما يفتح الله تعالى على المسلمين من ديار
الشرك أرضا بعد أرض حوالى أرضهم هذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة وقال مجاهد هو
خراب الارض وقبض أهلها وعن عكرمة قال هو قبض الناس وعن الشعبي مثله وعطاء
وجماعة نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء ويؤيد هذا ما رواه عمرو بن العاص أنه قال
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد
ولكن يقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا
وأضلوا وقال الحسن قال عبد الله بن مسعود عليكم بالعلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب أهله
وقال علي انما مثل الفقهاء كمثل الانف اذا قطعت لم تعد وقال سليمان لا يزال الناس بخير
ما بقي الاول حتى يتعلم الآخر واذا هلك الاول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس وقيل لسعيد
ابن جبير ما علامة هلاك الناس قال هلاك علمائهم ثم أثبت تعالى لنفسه أمرا كليا فقال
(والله) أي الملك الاعلى (يحكم) في خلقه بما يريد لانه (لا معقب) أي راد لان المعقب رد
الشيء بعد فصله (لحكمه) وقد حكم للاسلام بالاقبال وعلى الكفر بالادبار وذلك كائن لا يمكن
تغييره *(تنبيه)* محل جملة لا معقب لحكمه النصب على الحال كأنه قيل والله يحكم نافذا
حكمه كما تقول جاء زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة تريد حاسرا (وهو) عز وجل مع تمام
القدرة (سريع الحساب) فيحاسبهم عما قليل في الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل والاجلاء في
الدنيا وقال ابن عباس يريد سريع الانتقام يعني حسابه للمجازاة بالخير والشر فمجازاة الكفار
بالانتقام منهم ومجازاة المؤمنين بايصال الثواب اليهم وقد تقدم الكلام في معنى سريع
الحساب قبل هذا وقوله تعالى (وقد مكر الذين من قبلهم) أي من كفار الامم الماضية قبل
مكروا بانبيائهم مثل نمروذ مكر بابراهيم وفرعون مكر بموسى واليهود مكروا بعيسى فيه
تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (فلله المكر جميعا) أي ان مكر جميع الماكرين
حاصل بتخليقه وارادته لانه تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد فالمكر لا يضر الا باذنه ولا يؤثر
الا بتقديره فيه أمان له صلى الله عليه وسلم من مكرهم فكأنه قيل اذا كان حدوث المكر من
الله تعالى وتأثيره في الممكور به من الله وجب ان لا يكون الخوف الا من الله تعالى لا من أحد
من المخلوقين وذهب بعض المفسرين الى أن المعنى فلله جزاء المكر وذلك أنهم لما مكروا
بالمؤمنين بين الله تعالى أنه يجازيهم على مكرهم قال الواحدي والاول أظهر القولين بدليل
قوله تعالى (يعلم ما تكسب كل نفس) أي ان اكساب العباد معلومة لله تعالى وخلاف المعلوم ممتنع
الوقوع واذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك فكان الكل من الله فيجازيهم
على أعمالهم وفي ذلك وعيد وتهديد للكفار الماكرين ثم انه تعالى أكد ذلك التهديد بقوله
تعالى (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة ألهم أم للنبي صلى
الله عليه وسلم وأصحابه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالالف بعد الكاف على الافراد
والكاف مفتوحة والفاء مكسورة مخففة والباقون بالالف بعد الفاء على الجمع فالكاف
مضمومة والفاء مفتوحة مشددة فمن قرأ الافراد أراد الجنس كقوله تعالى ان الانسان لفي
خسر ليوافق قراءة الجمع وقال عطاء المستهزؤون وهم خمسة والمقتسمون وهم ثمانية وعشرون

وسلم انما بعث الى العرب خاصة فكيف الجمع بينه وبين قوله قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا وقوله وما أرسلناك الا كافة للناس *قلت قومه هم العرب ونزوله بلسانهم

وقال

وقال ابن عباس يريد أبا جهل قال الرازي والأول هو الصواب أي لموافق قراءة الجمع كما مر * ولما تقدم قوله تعالى ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه عطف عليه بعد شرح ما استتبعه قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) أي لكونك لا تأتي بمقترحاتهم مع أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل يوما انه قادر عليها فكأنه قيل فما أقول لهم فقال تعالى (قل) لهم (كفى بالله) الذي له الاحاطة الكاملة (شهيدا) أي بليغ العلم في شهادته بالاطلاع على ما ظهر وما بطن (بيني وبينكم) يشهد بتأييد رسالتي وتصحيح مقالتي بما أظهر لي من الآية وأوضح من الدلالة بهذا الكتاب ويشهد بتكذيبهم بادعائكم القدرة على المعارضة وتركهم لها عجزا وهذا أعلى مراتب الشهادة لأن الشهادة قول يفيد غلبة الظن بان الامر كما شهد به والمعجزة فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولا من عند الله واختلف في قوله تعالى (ومن عنده علم الكتاب) فروى العوفي عن ابن عباس أنهم علماء اليهود والنصارى أي أن كل من كان عالما من اليهود بالتوراة ومن النصارى بالانجيل علم أن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من عند الله لما يجد من الدلائل الدالة على نبوته فيهما شهد بذلك من شهد به وأنكره من أنكره منهم والثاني ان المراد شهادة أهل الكتاب من الذين آمنوا وهم عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري وقال الحسن ومجاهد والزجاج وسعيد بن جبير ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى قال الحسن لا والله لا يعني الا الله والمعنى كفى بالله الذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح الا هو شهيدا بيني وبينكم وهذا أظهر كما استظهره البقاعي وان كان عطف الصفة على الموصوف خلاف الاصل اذ يقال شهد بهذا زيد الفقيه لا زيد والفقيه لأنه جائز في الجملة وقيل معناه أن علم أن القرآن الذي جئتكم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والاخبار عن الغيوب وعن الامم الماضية فمن علمه بهذه الصفة كان شهيدا بيني وبينكم والله أعلم بمراده وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري وتبعهما ابن عادل من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الرعد أعطى من الاجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون الى يوم القيامة وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله حديث موضوع

مع الترجمة لما في الاسر كاف لحصول الغرض بذلك ولأنه أبعد عن التهمة والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف

(قوله ليغفر لكم من ذنوبكم) من زائدة اذ الاسا

سورة ابراهيم عليه السلام مكية

(الا قوله تعالى ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله الآيتين وهي اثنتان وخمسون آية وعدد كلماتها ثمانمائة واحدى وثلاثون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم) قوله تعالى (الر) تقدم الكلام عليها أول يونس وهود وقوله تعالى (كتاب) خبر لمبتدا محذوف أي هذا القرآن كتاب أو الر ان قلنا انها مبتدأ والجملة بعده صفة ويجوز أن يرتفع بالابتداء وخبره الجملة بعده وجاز الابتداء بالنكرة لانها موصوفة تقديرا تقديره كتاب أي كتاب يعني عظيما من بين الكتب السماوية (أنزلناه اليك) يا أشرف الخلق عند الله تعالى (لتخرج الناس) أي عامة قومك وغيرهم بدعائك اياهم (من الظلمات) أي الكفر وأنواع الضلالة (الى النور) أي الايمان والهدى قال الرازي والآية دالة على أن

طرق الكفر والبدع كثيرة وان طريق الحق ليس الا واحدا لانه تعالى قال لتخرج الناس من الظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الايمان والهدى بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل على أن طرق الجهل والكفر كثيرة وأن طريق العلم والايمان ليس الا واحدا (تنبيه) القائلون بان معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها الا من تعليم الرسول احتجوا بهذه الآية وذلك يدل على أن معرفة الله تعالى لا تحصل الا من طريق التعليم وأجيب بان الرسول صلى الله عليه وسلم كالمنبه وأما المعرفة فهي انما تحصل من الدليل وقوله تعالى (باذن ربهم) متعلق بالاخراج أي بتوفيقه وتسهيله ويبدل من الى النور (الى صراط) أي طريق (العزيز) أي الغالب (الحميد) أي المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد وفي قوله (الله) قراءتان فقرأ نافع وابن عامر برفع الهاء وصلا وابتداء على انه مبتدأ خبره (الذي له ما في السموات وما في الارض) أي ملكا وخلقا وقرأ الباقون بالجر على أنه بدل أو عطف بيان وما بعده صفة (تنبيه) ذهب جماعة من المحققين الى أن قولنا الله جار مجرى الاسم العلم لذات الله سبحانه وتعالى وذهب قوم آخرون الى أنه لفظ مشتق قال الرازي والحق عندنا هو الاول لان الامة لما اجتمعت على أن قولنا لا اله الا الله يوجب التوحيد المحض علمنا أن قولنا الله جار مجرى الاسم العلم وقد قال تعالى هل تعلم له سميا أي هل تعلم من اسمه الله غير الله وذلك يدل على أن قولنا الله اسم لذاته المخصوصة ولذا استشكل قراءة الجر اذ الترتيب الحسن أن يذكر الاسم ثم يذكر عقبه الصفات كقوله تعالى هو الله الخالق البارئ المصور وأما الخالق الله فلا يحسن وأجيب عن ذلك بانه لا يبعد أن تذكر الصفة أولا ثم يذكر الاسم ثم تذكر الصفة مرة أخرى كما يقال مررت بالامام الاجل محمد الفقيه وهو بعينه نظير قوله تعالى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السموات وما في الارض والآية تفيد حصر ما في السموات وما في الارض له لا لغيره وذلك يدل على أنه لا مالك الا الله ولا حاكم الا الله وأنه تعالى خالق لاعمال العباد لانها حاصلة في السموات والارض فوجب القول بان أعمال العباد له بمعنى كونها مملوكة له والملك عبارة عن القدرة فوجب كونها مقدورة لله واذا ثبت أنها مقدورة لله وجب وقوعها بقدرة الله والا لكان العبد قد منع الله تعالى من ايقاع مقدوره وذلك محال ثم انه تعالى لما ذكر ذلك عطف على الكفار بالوعيد فقال تعالى (وويل للكافرين) أي الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذي له ما في السموات وما في الارض وعبدوا من لا يملك شيأ البتة بل هو مملوك لله تعالى لانه من جملة ما في السموات وما في الارض وويل مبتدأ وجاز الابتداء به لانه دعاء كسلام عليكم وللكافرين خبره وقوله تعالى (من عذاب شديد) أي يعذبهم في الآخرة متعلق بويل ولا يضر الفصل بالخبر ثم وصفهم بقوله تعالى (الذين يستحبون) أي يختارون (الحياة الدنيا على الآخرة) أي يؤثرونها عليها (ويصدون عن سبيل الله) أي يمنعون الناس عن قبول دين الله (ويبغونها) أي السبيل (عوجا) أي معوجة والاصل ويبغون لها زيغا وميلا فحذف الجار وأوصل الفعل الى الضمير (أولئك) أي الموصوفون بهذه الصفات (في ضلال بعيد) أي عن الحق واسناد البعد الى الضلال اسناد مجازي لان البعيد هم الضلال ببيعهم عن الباقي الى الفانية ثم ذكر ما يجري مجرى تكميل النعمة والاحسان في الوجهين بقوله تعالى (وما أرسلنا من رسول) أي في زمن من

يغفر ما قبله أو تبعيضية لاخراج حقوق العباد (قوله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) قال ذلك هنا وقال بعد وعلى الله فليتوكل المتوكلون لان الايمان سابق على التوكل

الازمان

الازمان (الا بلسان) اى لغة (قومه) أما بالنسبة الى الرسول فلانه تعالى بين أن سائر الانبياء كانوا مبعوثين الى قومهم خاصة وأما أنت يا محمد فمبعوث الى عامة البشر وكان هذا الانعام في حقك أكمل وأفضل واما بالنسبة الى عامة الخلق فهو انه تعالى ذكر أنه ما بعث رسولا الا بلسان أولئك القوم (ليبين لهم) ما أمروا به فيفهموه عنه بيسر وسرعة لان ذلك أسهل لفهم أسرار تلك الشريعة والوقوف على حقائقها وأبعد عن الغلط والخطأ ‎•‏ (تنبيه) ‎•‏ تمسك طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية بهذه الآية على أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يرسل لغير العرب من وجهين الاول ان القرآن لما كان نازلا بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة الا العرب وحينئذ لا يكون القرآن حجة الا عليهم الثاني قالوا ان قوله تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه المراد بذلك اللسان لسان العرب وذلك يدل على انه مبعوث الى العرب فقط ورد عليهم بان المراد بالقوم أهل دعوته والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا بل الى الثقلين لان التحدي كما وقع مع الانس وقع مع الجن بدليل قوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ثم بين سبحانه وتعالى ان الاضلال والهداية بمشيئته بقوله تعالى (فيضل الله من يشاء) اضلاله (ويهدى من يشاء) هدايته فانه تعالى هو المضل الهادى وليس على الرسل الا التبليغ والبيان والله تعالى هو الهادى المضل يفعل ما يشاء (وهو العزيز) فى ملكه فلا راد له عن مشيئته (الحكيم) فى صنعه فلا يهدى ولا يضل الا لحكمة ‎•‏ ولما بين تعالى انه انما أرسل محمدا عليه الصلاة والسلام الى الناس ليخرجهم من الظلمات الى النور وذكر كمال انعامه عليه وعلى قومه فى ذلك الارسال وفى تلك البعثة أتبع ذلك بشرح بعثة سائر الانبياء الى أقوامهم وكيفية معاملة أقوامهم لهم ليكون ذلك تصبيرا له صلى الله عليه وسلم على أذى قومه وارشادا له الى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم فذكر تعالى على العادة المألوفة قصص بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام فبدأ بذكر قصة موسى عليه السلام فقال (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) اى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وانفجار العيون من الحجر واظلال الجبل والمن والسلوى وسائر معجزاته (أن أخرج قومك) اى بنى اسرائيل (من الظلمات) اى الكفر والضلال (الى النور) اى الايمان والهدى ‎•‏ (تنبيه) ‎•‏ يجوز ان تكون أن مصدرية اى بان أخرج والباء فى بآياتنا للحال وهذه للتعدية ويجوز ان تكون مفسرة للرسالة بمعنى اى ويكون المعنى اى أخرج قومك من الظلمات اى قلنا له أخرج قومك كقوله تعالى وانطلق الملأ منهم ان امشوا (وذكرهم بأيام الله) قال ابن عباس بنعم الله وقال مقاتل بوقائع الله فى الامم السالفة يقال فلان عالم بأيام العرب اى بوقائعهم وفى المثل من سره يوما ساءه قال الرازى معناه من رأى فى يوم سروره بمصرع غيره رأى غيره فى يوم آخر بمصرع نفسه وقال تعالى وتلك الايام نداولها بين الناس والمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد والترغيب والوعد ان يذكرهم ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمنوا بالرسل فيما سلف من الايام والترهيب والوعيد ان يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل فيما سلف من الايام مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من

(قوله لا يقدرون مما كسبوا على شيء) قدم مما كسبوا على ما بعده لان الكسب هو المقصود بالذكر بقرينة ما قبله وان كان القياس عكس ذلك كما فى البقرة لان على

العذاب ليرغبوا في الوعد فيصدقوا ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب وقيل ايام الله
في حق موسى أن يذكر قومه بايام المحنة والبلاء حين كانوا تحت أيدي القبط يسومونهم سوء
العذاب فخلصهم الله من ذلك وجعلهم ملوكا بعد ان كانوا مملوكين (ان في ذلك) اي التذكير
العظيم (لآيات) على وحدانية الله تعالى وعظمته (لكل صبار) اي كثير الصبر على الطاعة
وعن المعصية (شكور) اي كثيرا شكر للنعم وانما خص الصبور والشكور بالاعتبار
بالآيات وان كان فيها عبرة للكل لانهم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم بالآيات
فكأنها ليست لغيرهم فهو كقوله تعالى هدى للمتقين فان الانتفاع لا يمكن حصوله الا لمن
يكون صابرا شاكرا أما من لا يكون كذلك فلا ينتفع بالبتة ❁ ولما أمر الله تعالى موسى ان
يذكرهم بايام الله حكى عنه انه ذكرهم بها بقوله تعالى (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة
الله عليكم) وقوله (اذ أنجاكم من آل فرعون) ظرف للنعمة بمعنى الانعام اي اذكروا انعام
الله عليكم في ذلك الوقت (يسومونكم سوء العذاب) بالاستعباد (ويذبحون) اي تذبيحا
كثيرا (أبناءكم) اي المولودين (ويستحيون) اي يستبقون (نساءكم) أحياء وذلك لقول
بعض الكهنة ان مولودا يولد في بني اسرائيل يكون سبب زوال ملك فرعون (فان قيل) لم
ذكرته لي في سورة البقرة يذبحون بغير واو وذكره هنا مع الواو (أجيب) بانه انما حذفت
في سورة البقرة لانه تفسير لقوله يسومونكم سوء العذاب وفي التفسير لا يحسن ذكر الواو
وهنا أدخل الواو فيه لانه نوع آخر لانهم كانوا يعذبونهم بانواع من العذاب غير الذبح فليس
تفسيرا للعذاب (وفي ذلكم بلاء) اي انعام وابتلاء (من ربكم عظيم) لان الابتلاء يكون ابتلاء
بالنعمة والمحنة جميعا ومنه قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة (فان قيل) تذبيح الابناء فيه
بلاء وأما استحياء النساء فكيف فيه ابتلاء (أجيب) بانهم كانوا يستخدمونهن ويتركونهن
تحت أيديهم كالاماء فكان ذلك ابتلاء وقوله تعالى (واذ) اي واذكروا اذ (تأذن ربكم) فهو
أيضا من كلام موسى عليه السلام وتأذن بمعنى أذن كتوعد وأوعد غيرانه أبلغ لما في التفعل
من معنى التكلف والمبالغة (لئن شكرتم) يا بني اسرائيل نعمتي بالتوحيد والطاعة
(لازيدنكم) نعمة الى نعمة ولاضاعفن لكم ما آتيتكم فان الشكر قيد الموجود وصيد
المفقود والشكر عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه
الطريقة ثم قد يترقى العبد عن تلك الحالة الى أن يصير حبه للمنعم شاغلا له عن الالتفات الى
النعمة ولا شك ان منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته وأما الزيادة
في النعمة فهي على قسمين روحانية وجسمانية فالاولى هي ان الشاكر يكون أبدا في مطالعة
أقسام نعمة الله تعالى وأنواع فضله وكرمه وأما الثانية فلان الاستقراء دل على ان كل من
كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر كان وصول نعم الله اليه أكثر نسأل الله تعالى القيام بواجب
شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه واحسانه ويفعل ذلك باهلينا وأحبابنا ❁ ثم انه تعالى
لما ذكر ما يستحقه الشاكر ذكر ما يستحقه مقابله بقوله تعالى (ولئن كفرتم) اي جحدتم
النعمة بالكفر والمعصية لاعذبنكم دل عليه (ان عذابي لشديد) اي لمن كفر نعمتي ولا
يشكرها ومن عادة أكرم الاكرمين ان يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد ❁ ولما بين موسى ان

الاشتغال

شيء فلا تلتفتون ربما
كسبوا منه شيئا (قوله
وانزل من السماء ماء) قاله
هنا بدون لكم وقاله في النحل
بذكر لكم اكتفاء هنا
بذكره بعد لاسيما وقد ذكر
مكررا (قوله رب انهن

الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات فى الدنيا والآخرة والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد وحصول الآفات فى الدنيا والآخرة بين بعده أن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود الا الى صاحب الشكر وصاحب الكفران وأما المعبود والمشكور فانه متعال عن ان ينتفع بالشكر أو يستضر بالكفران فلا جرم قال تعالى (وقال موسى ان تكفروا أنتم) يا بنى اسرائيل (ومن فى الارض) وأكده بقوله تعالى (جميعا) اى من الثقلين فانما ضرر ذلك يعود على أنفسكم وحرمتموها الخير كله (فان الله لغنى) عن جميع خلقه فلا يزداد بشكر الشاكرين ولا ينقص بكفر الكافرين (حميد) اى محمود فى جميع أفعاله لانه فيها متفضل عادل وقوله تعالى (ألم يأتكم) يا بنى اسرائيل (نبأ) اى خبر (الذين من قبلكم قوم نوح) وكانوا أهل الارض (و) نبأ (عاد) قوم هود وكانوا أشد الناس أبدانا (و) نبأ (ثمود) قوم صالح وكانوا أقوى الناس على نحت الصخور وبناء القصور يحتمل ان يكون من كلام موسى أو كلام مبتدأ من الله تعالى لقوم محمد صلى الله عليه وسلم وهو استفهام تقرير وقوله تعالى (والذين من بعدهم) اى بعد هؤلاء الامم الثلاثة (لا يعلمهم الا الله) فيه قولان الاول ان يكون المراد لا يعلم كنه مقاديرهم الا الله تعالى لان المذكور فى القرآن جملة فاما ذكر العدد والعمر والكيفية والكمية فغير حاصل والقول الثانى ان المراد ذكر أقوام ما بلغنا أخبارهم أصلا كذبوا رسلا لم نعرفهم أصلا ولا يعلمهم الا الله ولذلك كان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون يعنى انهم يدعون علم الانساب الى آدم عليه السلام وقد نفى الله علمها عن العباد وعن ابن عباس انه قال بين عدنان واسمعيل ثلاثون أبا لا يعرفون ونظير هذه الآية قوله تعالى وقرونا بين ذلك كثيرا وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا وقوله تعالى منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وعنه صلى الله عليه وسلم انه كان فى انتسابه لا يجاوز معد بن عدنان بن أدد وقال تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم وتعلموا من النجوم ما تستدلون به على الطريق قال الرازى والقول الثانى أقرب ولما (جاءتهم) اى هؤلاء الاقوام الذين تقدم ذكرهم (رسلهم بالبينات) اى الدلائل الواضحات والمعجزات الباهرات أتوا بامور أولها ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى (فردوا) اى الامم (أيديهم فى أفواههم) وفى ذلك احتمالات الاول ان الكفار ردوا أيديهم فى أفواههم فعضوها غيظا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ والثانى انهم لما سمعوا كلام الانبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم فى أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فيضع يده على فيه والثالث أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك الى الانبياء أن كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث والرابع أنهم أشاروا بايديهم الى ألسنتهم والى ما تكلموا به من قولهم الكفر كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به) اى على زعمكم اى ان هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره اقناطا لهم من التصديق هذا هو الامر الثانى الذى أتوا به وقيل الضمير فى ردوا راجع للرسل عليهم السلام وفيه وجهان أحدهما ان الكفار أخذوا أيدى الرسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوا ويقطعوا الكلام والثانى ان الرسل لما أيسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدى أنفسهم على أفواه أنفسهم

(أضللن كثيرا من الناس) ان قلت كيف جعل الاصنام مضلة والضلال ضار وقد نفى عنهم الضرر بقوله ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم (قلت) نسبة الاضلال

فان من ذكر كلاما عند قوم وأنكروه وخافهم فذلك المتكلم ربما وضع يده في فمه على فم نفسه وغرضه ان يعرفهم انه لا يعود الى ذلك الكلام البتة والامر الثالث قولهم (وانا لفى شك مما) اى شيء (تدعوننا) أيها الرسل (اليه) اى من الدين (مريب) اى موجب الريبة اى موقع فى الريبة والشبهة والريبة قلق النفس وان لا تطمئن الى الامر الذى يشك فيه (فان قيل) انهم قالوا أولا انا كفرنا بما أرسلتم به فكيف يقولون ثانيا وانا لفى شك والشك دون الكفر (أجيب) بانهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل كانهم حصل لهم شبهة توجب الشك لهم فقالوا ان لم ندع الجزم واليقين فى كفرنا فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين فى صحة نبوتكم وعلى التقديرين فلا سبيل الى الاعتراف بنبوتكم ❊ ولما قال هؤلاء الكفار للرسل ذلك (قالت) لهم (رسلهم) مجيبين (أفى الله شك) اى هل تشكون فى الله وهو استفهام انكار اى لا شك فى توحيده للدلائل الظاهرة عليه منها قوله تعالى (فاطر) اى خالق (السموات والارض) اى وما فيهما من الانفس والارواح والارزاق وقرأ أبو عمرو رسلهم هنا وفيما فى جاءتهم رسلهم باسكان السين والباقون بالرفع ❊ ولما أقاموا الدليل على وجود الله تعالى وصفوه بكمال الرحمة قولهم (يدعوكم) اى الى الايمان به بعثنا وقولهم (ليغفر لكم) اللام متعلقة بيدعو اى لاجل غفران ذنوبكم كقوله

دعوت لما نابنى مسورا ❊ فلبى فلبى يدى مسور

ويجوز أن تكون معدية كقولك دعوتك لزيد والتقدير يدعوكم الى غفران ذنوبكم وقوله (من ذنوبكم) قال السيوطى من زائدة فان الاسلام يغفر به ما قبله أو تبعيضية لاخراج حقوق العباد اه اى والمغفور لهم ما بينهم وبين الله تعالى قال الرازى والعاقل لا يجوزه المصير الى كلمة من كلام الله تعالى بانها زائدة من غير ضرورة اه وقال فى الكشاف ما علمته جاء هكذا الا فى خطاب الكافرين كقوله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم وقال فى خطاب المؤمنين ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم وغير ذلك مما يوقفك عليه الاستقراء وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين وان لا يسوى بين الفريقين فى الميعاد اه قال الرازى وأما قول الكشاف فهو من باب الطامات لان هذا التبعيض ان حصل فلا حاجة الى ذكر هذا الجواب وان لم يحصل كان هذا الكلام فاسدا (ويؤخركم) اى ولا يفعل بكم فعل من تهددون من الملوك فى المعاجلة فى الاهلاك لمن خالفهم بل يؤخركم (الى أجل مسمى) اى الى وقت قد سماه وبين مقداره يبلغكموه ان أنتم آمنتم به والا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت ان أنتم ما آمنتم (فان قيل) أليس قال تعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فكيف قال هنا ويؤخركم الى أجل مسمى (أجيب) بان الاجل على قسمين معلق ومبرم (قالوا) اى الامم مجيبين للرسل (ان) اى ما (أنتم) أيها الرسل (الا بشر مثلنا) اى لا فضل لكم علينا فلم تختصون بالنبوة دوننا ولو ارسل الله تعالى الى البشر رسلا لجعلهم من جنس اى من البشر فى زعم القائلين أفضل وقول الكشاف وهم الملائكة جار على مذهبه (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) اى ما تريدون بقولكم هذا الا صدنا عن آلهتنا التى كان آباؤنا يعبدونها (فأتونا

بسلطان

الهاء بجعلهن بابا نسبة كما يقال النسبة الى سببه قد فتنتهم الدنيا وداء وهو بل فهى سبب الاضلال وفاعله حقيقة هو الله (قوله ربنا اغفر لى ولوالدى) ان قلت كيف استغفر ابراهيم عليه

بسلطان مبين) اى بحجة ظاهرة على صدقكم * ولما حكى الله تعالى عن الكفار شبهاتهم فى الطعن فى النبوة حكى عن الانبياء عليهم الصلاة والسلام جوابهم عنها بقوله تعالى (قالت لهم رسلهم) مجيبين لهم (ان) اى ما (نحن الا بشر مثلكم) كما قلتم فسلموا أن الامر كذلك لكنهم بينوا أن التماثل فى البشرية لا يمنع من اختصاص بعض بمنصب النبوة بقولهم (ولكن الله يمن) اى يتفضل (على من يشاء من عباده) بالنبوة والرسالة فيصطفى من يشاء من عباده لهذا المنصب العظيم الشريف كما قال تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته (وما كان) اى ما صح واستقام (لنا ان نأتيكم بسلطان الا باذن الله) اى الا بامره لانا عبيد مربوبون فليس الينا الاتيان بالآيات ولا تستبد به استطاعتنا حتى نأتيكم بما اقترحتموه وانما هو أمر متعلق بمشيئة الله تعالى فله أن يخص كل نبى بنوع من الآيات (وعلى الله فليتوكل) بامرهم (المؤمنون) اى بثقوا به فلا نخاف من تخويفكم ولا نلتفت الى تهديدكم فانا توكلنا على الله واعتمدنا على فضل الله فان الروح متى كانت مشرفة بالمعارف الالهية مشرقة باضواء عالم الغيب قلما تبالى بالاحوال الجسمانية وقلما تقيم لها وزنا فى حالتى السراء والضراء فلهذا توكلوا على الله وعولوا على فضله وقطعوا أطماعهم عمن سواه وهو الامر للاشعار بما يوجب التوكل وقصدوا به أنفسهم قصدا اوليا ألا ترى الى قولهم (وما لنا ألا نتوكل على الله) اى اى عذر لنا فى أن لا نتوكل عليه (وقد هدانا سبلنا) اى وقد عرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد فان من فاز بشرف العبودية ووصل الى مقام الاخلاص والمكاشفة يقبح عليه أن يرجع فى أمر من الامور الى غير الحق وفى هذه الآية دلالة على أنه تعالى يعصم أولياءه والمخلصين فى عبوديته عن كيد أعدائهم ومكرهم وقرأ أبو عمرو بسكون الباء والباقون بالرفع وكذلك لرسلهم سكن أبو عمرو السين ورفعها الباقون ثم قالوا (ولنصبرن على ما آذيتمونا) فان الصبر مفتاح الفرج ومطلع الخيرات والحق لابد وأن يصير غالبا قاهرا والباطل لابد وأن يصير مغلوبا مقهورا ثم قالوا (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) فان قيل اى فرق بين التوكلين (أجيب) بان الاول لاستحداث التوكل والثانى طلب دوامه اى فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم المسبب عن ايمانهم * ولما حكى الله تعالى عن الانبياء عليهم السلام انهم اكتفوا فى دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته حكى عن الكفار انهم بالغوا فى السفاهة بقوله تعالى (وقال الذين كفروا لرسلهم) مستهزئين لمن قصروا اتباعهم عليه (لنخرجنكم من أرضنا) اى التى لنا الآن الغلبة عليها (أو لتعودن فى ملتنا) اى حلفوا ليكونن أحد الامرين اما اخراجكم أيها الرسل واما عودكم الى ملتنا اى ديننا (فان قيل) قد يفهم هذا بظاهره أنهم كانوا على ملتهم قبل ذلك (أجيب) بان العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير فى كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار ولكن عاد يقولون ما عدت أراه عاد لا يكلمنى ما عاد لفلان مال وقد أجمعت الامة على ان الرسل من أول الامر انما نشؤا على التوحيد لا يعرفون غيره ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ولمن آمن معه فغلبوا الجماعات على الواحد وقيل أو لتعودن فى ملتنا اى الى ما كنتم عليه قبل ادعاء الرسالة من السكوت عنا وعدم التعرض لنا بالطعن والقدح * ولما ذكر

السلام لوالديه وهما
كافران والاستغفار
للكفار حرام (قال) المعنى
واغفر لوالدى ان اسلما
أو أراد بهما آدم وحواء
(قوله ولا تحسبن الله غافلا
عما يعمل الظالمون)

الكفار هذا الكلام قال تعالى (فأوحى اليهم) اى الرسل (ربهم) وقوله تعالى (لنهلكن الظالمين) اى الكافرين حكاية تقتضى اضمار القول أو اجرى الايحاء مجرى القول لانه ضرب منه (ولنسكننكم الارض) اى أرضهم (من بعدهم) اى بعد هلاكهم ونظيره قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها وقوله تعالى وأورثكم أرضهم وديارهم قال الزمخشرى وعن النبى صلى الله عليه وسلم من آذى جاره ورثه الله داره قال ولقد عاينت هذا فى مدة قريبة كان لى خال يظلمه عظيم القرية التى أنا فيها ويؤذينى فيه فمات ذلك العظيم وملكنى الله ضيعته فنظرت يوما الى أبناء خالى يترددون فيها ويأمرون وينهون فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثتهم به وسجدنا شكرا لله تعالى (ذلك) اى النصر وايراث الارض (لمن خاف مقامى) اى موقفى وهو موقف الحساب لان ذلك الموقف موقف الله الذى يوقف فيه عباده يوم القيامة ونظيره وأما من خاف مقام ربه وقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقيل ذلك لمن خاف مقامى اى خافنى فالمقام مقحم مثل ما يقال سلام على المجلس العالى والمراد السلام على فلان (وخاف وعيد) قال ابن عباس ما أوعدت من العذاب وهذا يدل على أن الخوف من الله غير الخوف من وعيده لان العطف يقتضى المغايرة وفى تفسير قوله تعالى (واستفتحوا) قولان أحدهما طلب الفتح اى واستنصروا الله تعالى على أعدائهم وهو كقوله تعالى ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح والثانى الفتح الحكم والقضاء أى واستحكموا الله وسألوه القضاء بينهم وهو مأخوذ من الفتاحة وهى الحكومة كقوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فعلى القول الاول المستفتح هم الرسل لانهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب لما أيسوا من ايمانهم قال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وقال موسى ربنا اطمس على أموالهم وقال لوط انصرنى على القوم المفسدين وعلى القول الثانى قال الرازى فالاولى أن يكون المستفتح هم الامم وذلك أنهم قالوا اللهم ان كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا ومنه قول كفار قريش اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء وكقول آخرين ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين (وخاب) اى خسر وهلك (كل جبار) اى متكبر عن طاعة الله وقيل هو الذى لا يرى فوقه أحدا وقيل هو المتعظم فى نفسه المتكبر على اقرانه واختلفوا فى قوله تعالى (عنيد) فقال مجاهد معاند للحق ومجانبه وقال ابن عباس هو المعرض عن الحق وقال مقاتل هو المتكبر وقال قتادة هو الذى يأبى ان يقول لا اله الا الله وقيل هو المعجب بما عنده ولما حكم تعالى على الكافر بالخيبة ووصفه بكونه جبارا عنيدا وصف كيفية عذابه بأمور الاول قوله تعالى (من ورائه) اى أمامه (جهنم) اى هو صائر اليها قال أبو عبيدة هو من الاضداد وقال الشاعر

عسى الكرب الذى أمسيت فيه * يكون وراءه فرج قريب

ويقال أيضا الموت وراء كل أحد وقال تعالى وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا أى أمامهم وقال ثعلب هو اسم لما توارى عنك سواء كان خلفك أم قدامك فيصح اطلاق لفظ الوراء على خلف وقدام وقال ابن الانبارى وراء بمعنى بعد قال الشاعر

(ان قلت) كيف يتشبه النبى صلى الله عليه وسلم تعاظلا وهو أعلم الخلق بالله (قلت) المراد دوام نزهه عن ذلك كقوله تعالى ولا تكونن من المشركين وقوله ولا تدع مع الله الها آخر

* وليس وراء الله للخلق مهرب * ومعنى الآية على هذا ان الكافر بعد الخيبة يدخل جهنم الامر الثاني ما ذكره تعالى بقوله (ويسقى) أي في جهنم (من ماء صديد) وهو ما يسيل من جوف أهل النار مختلطا بالقيح والدم جعل ذلك شراب أهل النار وقال محمد بن كعب هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر (فان قيل) علام عطف ويسقى (أجيب) بانه عطف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى من ماء صديد (يتجرعه) اى يتكلف أن يبلعه مرة بعد مرة لمرارته وحرارته ونتنه (ولا يكاد يسيغه) أي ولا يقدر على ابتلاعه قال الزمخشري دخل كاد للمبالغة يعني ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الاساغة كقوله تعالى لم يكد يراها أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها (فان قيل) كيف الجمع على هذا الوجه بين يتجرعه ولا يكاد يسيغه (أجيب) بجوابين أحدهما أن المعنى ولا يسيغ جميعه كانه يتجرع البعض وما أساغ الجميع والثاني ان الدليل الذي ذكر انما دل على وصول ذلك الشراب الى جوف ذلك الكافر لان ذلك ليس باساغة لان الاساغة في اللغة اجراء الشراب في الحلق واستطابة المشروب والكافر يتجرع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه أي لا يستطيبه ولا يشربه شربا مرة واحدة وعلى هذين الوجهين يصح حمل لا يكاد على نفي المقاربة الامر الثالث ما ذكره تعالى بقوله تعالى (ويأتيه الموت) أي أسبابه المقتضية له من أنواع العذاب (من كل مكان) أي من سائر الجهات وقيل من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وابهام رجله (وما هو بميت) فيستريح وقال ابن جريج تتعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع الى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة الامر الرابع ما ذكره تعالى بقوله تعالى (ومن ورائه) أي ومن بين يديه بعد ذلك العذاب (عذاب غليظ) أي شديد كل وقت يستقبله أشد مما قبله وقيل هو الخلود في النار وقيل هو قطع الانفاس وحبسها في الاجساد ولما ذكر تعالى أنواع عذابهم بين بعده أن سائر أعمالهم تصير باطلة ضائعة وذلك هو الخسران الشديد بقوله تعالى (مثل) اى صفة (الذين كفروا بربهم أعمالهم) اى الصالحة كصدقة وصلة رحم وفك أسير واقراء ضيف وبر والدين في عدم الانتفاع بها (كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف) اى شديد هبوب الريح فجعلته هباء منثورا لا يقدر عليه كما قال تعالى (لا يقدرون) اى الكفار يوم الجزاء (مما كسبوا) اى عملوا في الدنيا (على شئ) اى لا يجدون لهم ثوابا لفقد شرطه وهو الايمان وقرأ نافع الرياح بالجمع والباقون بالافراد (ذلك) اشارة الى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون (هو الضلال البعيد) اى الخسران الكبير لان أعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى عودها * (تنبيه) * في ارتفاع قوله تعالى مثل أوجه أحدها وهو مذهب سيبويه أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا وتكون الجملة من قوله تعالى أعمالهم كرماد مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كرماد والثاني وهو مذهب الفراء التقدير مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد فحذف المضاف اعتمادا على ذكره بعد المضاف اليه وهو قوله تعالى أعمالهم ومثله قوله تعالى ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة المعنى ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة الثالث أن يكون التقدير صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد كقوله صفة زيد

ونظيره في الامر قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله وهو مجاز معناه لا تحسبن الله ... كونه من الغافلين أو هو من لوازم الغفلة لغير النبي صلى الله عليه

عرضه مصون وماله مبذول الرابع أن تكون اعمالهم بدلا من قوله مثل الذين كفروا والتقدير مثل أعمالهم وقوله تعالى كرماد هو الخبر وقيل غير ذلك وقوله تعالى (ألم تر) أى تنظر خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته وقيل لكل واحد من الكفرة على الالتفات (أن الله خلق السموات) على عظمها وارتفاعها (والارض) على تباعد أقطارها واتساعها وقوله تعالى (بالحق) أى بالحكمة والوجه الذى يحق أن تخلق عليه متعلق بخلق وقرأ حمزة والكسائى بالف بعد الخاء وكسر اللام ورفع القاف وخفض الارض والباقون بغير ألف بعد الخاء وفتح اللام والقاف ونصب الارض (ان يشأ يذهبكم) أيها الناس (ويأت) بدلكم (بخلق جديد) أطوع منكم رتب ذلك على كونه خالق السموات والارض استدلالا به عليه فان من خلق أصولهم وما يتوقف عليه تخليقهم قدر أن يبدلهم بخلق آخر ولم يمتنع عليه كما قال تعالى (وما ذلك على الله بعزيز) أى بممتنع فانه تعالى قادر بذاته ولا اختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شأنه كان حقيقا أن يؤمن به ويعبد رجاء ثوابه وخوفا من عقابه يوم الجزاء ولما ذكر تعالى أصناف عذاب هؤلاء الكفار وذكر عقيبه أن أعمالهم تصير محبطة باطلة ذكر كيفية مجادلاتهم عند تلك أتباعهم بهم وكيفية افتضاحهم عندهم بقوله تعالى (وبرزوا) أى الخلائق من قبورهم (لله جميعا) والتعبير فيه وفيما يأتى بالماضى وان كان معناه الاستقبال لتحقق وقوعه لان كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو حق وصدق وكائن لا محالة فصار كأنه قد حصل ودخل فى الوجود ونظيره ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ＊(تنبيه)＊ البروز فى اللغة الظهور بعد الاستتار وهو فى حق الله تعالى محال فلا بد من تأويله وهو من وجهين الاول أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله تعالى فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية الثانى أنهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله تعالى وحكمه ثم حكى الله تعالى عنهم أن الضعفاء يقولون للرؤساء هل تقدرون على دفع عذاب الله تعالى عنا بقوله تعالى (فقال الضعفاء) أى الاتباع جمع ضعيف يريد به ضعفاء الرأى (للذين استكبروا) أى المتبوعين الذين طلبوا الكبر وادعوه فاستغووهم به حتى تكبروا على الرسل وقوله تعالى (انا كنا لكم تبعا) يصح أن يكون مصدرا نعت به للمبالغة أو على اضمار مضاف وأن يكون جمع تابع أى تابعين لكم فى تكذيب الرسل فكنتم سبب ضلالنا وقد جرت عادة الاكابر بالدفع عن أتباعهم المساعدين لهم على أباطيلهم (فهل أنتم) أى فى هذا اليوم (مغنون) أى دافعون (عنا من عذاب الله) أى من انتقامه (من شئ) فان قيل فما الفرق بين من فى عذاب الله وبين من فى شئ (أجيب) بان الاولى للتبيين والثانية للتبعيض كأنه قيل هل أنتم مغنون عنا بعض الشئ الذى هو من بعض عذاب الله ويجوز أن يكونا للتبعيض معا بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شئ هو بعض عذاب الله وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا انهم (قالوا لو هدانا الله) أى الذى له صفات الكمال (لهديناكم) أى لو أرشدنا الله تعالى لارشدناكم ودعوناكم الى الهدى ولكنه لم يهدنا فضللنا

وسلم بمن يحسبه عاقلا لجهله بصفاته

＊(سورة الحجر)＊

(قوله وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون) ان قلت كيف وصفوه بالجنون مع قولهم نزل عليه

وكنتم

وكنتم لنا تبعا فاضللتمونا كم ولما كان الموجب لقولهم هذا الجزع قالوا (سواء علينا) أى نحن وأنتم (أجزعنا أم صبرنا) اى مستو علينا الجزع والصبر والجزع أبلغ من الحزن لانه يصرف الانسان عما هو بصدده ويقطعه عنه (ما لنا من محيص) اى منجى ومهرب مما نحن فيه من العقاب *(تنبيه)* يحتمل ان يكون هذا من كلام المتبوعين وان يكون كلام الفريقين ويؤيد الثانى ما روى انهم يقولون فى النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر فعند ذلك يقولون ذلك وقال محمد بن كعب القرظى بلغنى أن أهل النار استغاثوا بالخزنة كما قال الله تعالى وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فردت الخزنة عليهم أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى فردت الخزنة عليهم ادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا يا مالك ليقض علينا ربك سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلثمائة وستون يوما واليوم كألف سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله انكم ماكثون فلما أيسوا مما عنده قال بعضهم لبعض ذلك* ولما ذكر تعالى المناظرة التى وقعت بين الرؤساء والاتباع من كفرة الانس أردفها بالمناظرة التى وقعت بين الشيطان وبين اتباعه بقوله تعالى (وقال الشيطان) الذى هو أول المتبوعين فى الضلال ورأس الضالين والمستكبرين (لما قضى الامر) أى أحكم وفرغ منه وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أخذ أهل النار فى لوم ابليس وتقريعه وتوبيخه فيقوم فيهم خطيبا قال مقاتل يوضع له منبر من نار فيجتمع أهل النار اليه يلومونه فيقول لهم ما أخبر الله تعالى بقوله (ان الله وعدكم وعد الحق) أى بالبعث والجزاء على الاعمال فصدقكم (ووعدتكم) أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب (فأخلفتكم) أى الوعد فلم أقل شيأ الا كان زيغا فاتبعتمونى مع كونى عدوكم وتركتم ربكم وهو وليكم *(تنبيه)* فى الآية اضمار من وجهين الاول ان التقدير ان الله وعدكم وعد الحق فصدقكم كما تقدم تقديره ووعدتكم فأخلفتكم وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد لانهم كانوا يشاهدونها وليس وراء العيان بيان ولانه ذكر فى وعد الشيطان الاخلاف فدل ذلك على الصدق فى وعد الله تعالى الثانى أن قوله ووعدتكم فأخلفتكم الوعد يقتضى مفعولا ثانيا وحذف هذا للعلم به والتقدير ووعدتكم أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب كما تقرر ولما بين غروره بين سهولة اغترارهم زيادة فى تنديمهم فقال (وما كان لى عليكم من سلطان) أى سلطان فى مزيدة اى قوة وقدرة أقهركم على الكفر والمعاصى وألجئكم على متابعتى وقوله (الا أن دعوتكم) استثناء منقطع قال النحويون لان الدعاء ليس من جنس السلطان فمعناه لكن دعوتكم (فاستجبتم لى) بحكم من الشهوات لان النفس تدعو الى هذه الاحوال الدنيوية ولا تتصور كيفية السعادات الاخروية والكمالات النفسانية والشيطان يدعو اليها ويرغب فيها كما قال والآخرة خير وأبقى قال الرازى وعندى انه يمكن أن يقال كلمة الا ههنا استثناء حقيقى لان قدرة الانسان على حمل الغير على عمل من الاعمال تارة تكون بالقهر والقسر وتارة تكون بتقوية الداعية فى قلبه بالقاء الوساوس اليه فهذا نوع من أنواع التسليط اه ثم قال لهم (فلا تلومونى) أى لانه ما كان منى الا الدعاء والقاء الوسوسة (ولوموا

الذكر أى القرآن المشتمل ... ذلك اعترافهم بنبوتنا (قلت) انما قالوه استهزاء وسخرية لا اعترافا كما قال فرعون لقومه ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون او فيه حذف اى

أنفسكم) لانكم سمعتم دلائل الله تعالى وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم أن لا تلتفتوا الى ولا تسمعوا قولى فلما رجحتم قولى على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم أولى باجابتى ومتابعتى من غير حجة ولا دليل (فان قيل) لم قال الشيطان فلا تلومونى وهو ملوم بسبب اقدامه على تلك الضلالة والوسوسة الباطلة (أجيب) بانه أراد لا تلومونى على فعلكم ولوموا أنفسكم عليه لانكم عدلتم عما توجه من هداية الله تعالى لكم * ثم قال تعالى حكاية عن الشيطان انه قال (ما أنا بمصرخكم) أى بمغيثكم فيما يخصكم من العذاب فازيل صراخكم منه (وما أنتم بمصرخى) أى بمغيثى فيما يخصنى منه وقرأ ما عدا حمزة بفتح الياء مع التشديد وقرأ حمزة بكسر الياء مع التشديد على الاصل فى التقاء الساكنين لان ياء الاعراب ساكنة وياء المتكلم أصلها السكون فلما التقيا كسرت لالتقاء الساكنين قال البيضاوى وهو أصل مرفوض فى مثله لما فيه من اجتماع ياءين وثلاث كسرات مع حركة ياء الاضافة اه فقوله أصل مرفوض أى متروك عند النحاة والا فهو قراءة متواترة عند القراء فيجب المصير اليه الا انها وردت من رب العالمين على لسان سيد المرسلين وقول القراء وامامهم وهم القراء فانه قل من سلم منهم من الوهم مدفوع فقد قال أبو حيان هى قراءة متواترة نقلها السلف واقتفى آثارهم فيها الخلف فلا يجوز أن يقال فيها انها خطأ أو قبيحة أو رديئة وقد نقل جماعة من أهل اللغة أنها لغة لكن قل استعمالها ونص قطرب على أنها لغة فى بنى يربوع ونص على أنها صواب أبو عمرو بن العلاء لما سئل عنها والقاسم بن معن من رؤساء الكوفيين قال الله تعالى حكاية عن الشيطان أنه قال (انى كفرت بما أشركتمون من قبل) أى كفرت اليوم باشراككم اياى من قبل هذا اليوم أى فى الدنيا كقوله تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم ومعنى كفره باشراكهم اياه تبرؤه منه واستنكاره له كقوله تعالى انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم روى البغوى بسنده عن عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة يقول عيسى ذلك النبى الامى فيأتونى فيأذن الله لى أن أقوم فيثور مجلسى من أطيب[٣] ريح شمها أحد حتى آتى ربى فيشفعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى الى ظفر قدمى ثم يقول الكفار قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير الشيطان هو الذى أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فانك أضللتنا فيقوم فيثور مجلسه أنتن ريح شمها أحد ثم يعظم لهم ويقول عند ذلك ان الله وعدكم وعد الحق الآية قال فى الكشاف وقوله (ان الظالمين) أى الكافرين (لهم عذاب أليم) أى قول من كلام الله تعالى ويحتمل أن يكون من جملة قول ابليس وانما حكى الله تعالى ما سيقول فى ذلك الوقت ليكون لطفا للسامعين فى النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لابد لهم من الوصول اليه وأن يتصوروا فى أنفسهم ذلك المقام الذى يقول فيه الشيطان ما يقول فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم * ولما بالغ سبحانه وتعالى فى شرح حال الاشقياء من الوجوه الكثيرة شرح أحوال السعداء وما أعد لهم من الثواب العظيم والاجر الجزيل وذلك أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم فالمنفعة الخالصة اليها الاشارة بقوله تعالى (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار) وكونها دائمة أشير اليها

بقوله

بايها الذى نزل عليه الذكر (قوله ونحن الوارثون) * ان قلت كيف قال ذلك والوارث من يتجدد له الملك بعد فناء المورث والله تعالى لم يتجدد له ملك لانه لم يزل

[٣] قوله فيثور مجلسى من أطيب وقوله الآتى فيثور مجلسه أنتن هكذا بالاصول التى بايدينا وليحرر لفظ الحديث اه مصححه

بقوله تعالى (خالدين فيها) وهو حال مقدرة والتعظيم حصل لهم من وجهين أحدهما قوله
تعالى (باذن ربهم) لان تلك المنافع انما كانت تفضلا من الله تعالى وانعاما والثاني قوله تعالى
(تحيتهم فيها سلام) لان بعضهم يحيي بعضا بهذه الكلمة والملائكة يحيونهم بها كما قال تعالى
والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم والرب يحييهم أيضا بهذه التحية كما قال تعالى
سلام قولا من رب رحيم ويحتمل أن يكون المراد انهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع آفات
الدنيا وحسراتها وفنون آلامها واسقامها وأنواع همومها وغمومها لان السلام مشتق من
السلامة * ولما شرح الله سبحانه وتعالى أحوال الاشقياء وأحوال السعداء ذكر مثلا يبين
الحال في حكم هذين القسمين بقوله تعالى (ألم تر) اى تنظر والخطاب يحتمل أن يكون للنبي صلى
الله عليه وسلم ويدخل معه غيره وأن يكون لكل فرد من الناس اى ألم تر أيها الانسان (كيف
ضرب الله) اى المحيط بكل شئ علما وقدرة (مثلا) سيره بحيث يعم نفعه والمثل قول سائر يشبه
فيه حال الثاني بالاول ثم بينه بقوله تعالى (كلمة طيبة) قال ابن عباس وأكثر المفسرين هي
لا اله الا الله (كشجرة طيبة) قال ابن مسعود وأنس هي النخلة وعن ابن عباس هي شجرة
في الجنة وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ان الله تعالى ضرب مثل
المؤمن شجرة فاخبروني ما هي قال عبد الله فوقع الناس في شجر البوادي وكنت صبيا فوقع
في قلبي أنها النخلة فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقولها وأنا أصغر القوم وروى
فنهاني مكان عمر فاستحييت فقال له عمر يا بني لو كنت قلتها لكانت أحب الي من حمر النعم ثم قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم الا انها النخلة قيل الحكمة في تشبيه الانسان بالنخلة من بين
سائر الاشجار أن النخلة أشبه به من حيث انها اذا قطع رأسها يبست وسائر الاشجار يتشعب
من جوانبها بعد قطع رأسها وأنها تشبه الانسان بحيث انها لا تحمل الا باللقاح لانها خلقت
من فضلة طينة آدم عليه السلام ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أكرموا عمتكم قيل ومن
عمتنا قال النخلة (أصلها ثابت) اى في الارض (وفرعها) اى غصنها (في السماء) اى في جهة
العلو والصعود ولم يرد المظلة كقولك في الجبل طويل في السماء تريد ارتفاعه وشموخه
(تؤتي) اى تعطي (أكلها) اى ثمرها (كل حين باذن ربها) اى بارادته والحين في اللغة الوقت
يطلق على القليل والكثير واختلفوا في مقداره هنا فقال مجاهد الحين هنا سنة كاملة لان
النخلة تثمر في كل سنة مرة وقال قتادة ستة أشهر يعني من حين طلعها الى وقت صرامها وقال
الربيع كل حين يعني كل غدوة وعشية لان ثمر النخل يؤكل ليلا ونهارا وصيفا وشتاء فيؤكل
منها الجمار والطلع والبلح والخلال والبسر والمنصف والرطب وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس
الى حين الطري الرطب فاكلها دائم في كل وقت قال العلماء ووجه الحكمة في تمثيل كلمة
الاخلاص بالشجرة لان الايمان ثابت في قلب المؤمن كثبوت أصل هذه الشجرة في الارض
وعمله يصعد الى السماء كما قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فكذلك
فرع هذه عال في السماء وتنال بركته وثوابه كل وقت والمؤمن كلما قال لا اله الا الله صعدت الى
السماء وجاءت بركتها وخيرها وثوابها ومنفعتها ولان الشجرة لا تكون شجرة الا بثلاثة أشياء
عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال كذلك الايمان لا يتم الا بثلاثة أشياء تصديق القلب وقول

مالك الله الملك (قلت) الوارث لغة هو الباقي بعد فناء غيره وان لم يتجدد له ملك وفي الاية ونحن الباقي بعد فناء الخلائق وان الخلائق لما كانوا يعتقدون أنهم مالكون

اللسان وعمل بالابدان ثم نبه تعالى على عظم هذا المثل ليقبل على تدبره ليعلم المراد منه فيلزم فقال (ويضرب الله) اى الذى له الاحاطة الكاملة (الامثال للناس لعلهم يتذكرون) اى يتعظون فان فى ضرب الامثال زيادة افهام وتذكير وتصوير للمعانى العقلية فيحصل الفهم التام والوصول الى المطلوب ولما ذكر مثل حال السعداء اتبعه بمثل حال الاعداء فقال (ومثل كلمة خبيثة) هى كلمة الكفر (كشجرة خبيثة) هى الحنظل وقيل الثوم وقيل الكشوث بمثلثة فى آخره قال الجوهرى نبت يتعلق باغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق فى الارض قال الشاعر

هى الكشوث فلا أصل ولا ورق ✽ ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر

وقيل شجرة الشوك (اجتثت) اى استؤصلت (من فوق الارض) اى عروقها قريبة منه (ما لها من قرار) اى اصل ولا عرق فكذلك الكفر بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة وعن عبادة انه قيل لبعض العلماء ما تقول فى كلمة خبيثة فقال ما اعلم لها فى الارض مستقرا ولا فى السماء مصعدا الا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها يوم القيامة ✽ ولما وصف الله سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة فى الآية المتقدمة اخبر بقوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) انه تعالى يثبتهم بها (فى الحيوة الدنيا) اى فى القبر وقيل قبل الموت (وفى الآخرة) اى يوم القيامة عند البعث والحساب وقيل فى القبر على القول الثانى ✽ ولما وصف الكلمة الخبيثة فى الآية المتقدمة اخبر بقوله تعالى (ويضل الله الظالمين) اى الكفار انه تعالى لا يهديهم للجواب الصواب (ويفعل الله ما يشاء) اى ان شاء هدى وان شاء أضل لا اعتراض عليه روى عن البراء بن عازب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المسلم اذا سئل فى القبر يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وروى عن انس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العبد اذا وضع فى القبر وتولى عنه أصحابه يسمع قرع نعالهم اتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل لمحمد صلى الله عليه وسلم فاما المؤمن فيقول اشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة قال النبى صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعا قال قتادة ذكر لنا أنه يفسح له فى قبره ثم رجع الى حديث انس قال وأما المنافق او الكافر فيقال له ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول لا ادرى كنت اقول ما يقول الناس فيه فيقال لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال شهدنا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغ من دفنها وانصرف الناس قال انه الآن يسمع خفق نعالكم اتاه منكر ونكير أعينهما مثل قدور النحاس وانيابهما مثل صياصى البقر واصواتهما مثل الرعد فيجلسانه فيسألانه ما كان يعبد ومن نبيه فان كان ممن يعبد الله تعالى قال كنت أعبد الله ونبيى محمد صلى الله عليه وسلم جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة فيقال له على اليقين حييت وعليه مت وعليه تبعث ثم يفتح له باب الى الجنة ويوسع له فى حفرته وان كان من أهل الشك قال لا ادرى

ويسمون بذلك ايضا مجازا ثم اذا ماتوا خلصت الاملاك كلها لله تعالى عن ذلك التعلق فبهذا الاعتبار سمى وارثا ونظير ذلك قوله تعالى لمن الملك اليوم والملك له ازلى وابدى

نعمت الناس يقولون شيأ فقلته فيقال له على الشك حييت وعليه مت وعليه تبعث ثم يفتح له باب الى النار ويسلط عليه عقارب وتنانين لو نفخ احدهم فى الدنيا ما انبتت شيأ فتنهشه وتؤمر الارض فتنضم عليه حتى تختلف اضلاعه فنسأل الله الثبات لنا ولوالدينا ولاحبابنا فى الدنيا والآخرة انه كريم جواد * ثم انه تعالى عاد الى وصف الكافرين فقال (ألم تر) اى تنظر وفى المخاطب ما تقدم (الى الذين بدلوا) والتبديل جعل الشئ مكان غيره (نعمت الله) اى التى اسبغها عليهم من كلمة التوحيد ومن جميع النعم الدنيوية وتيسير الرزق وغير ذلك بان جعلوا مكان شكرها (كفرا) وهم يدعون أنهم اشكر الناس للاحسان واعلاهم همما فى الوفاء وابعدهم عن الجفاء (وأحلوا) اى انزلوا (قومهم) اى الذين تابعوهم فى الكفر باضلالهم اياهم (دار البوار) اى الهلاك مع ادعائهم انهم أذب الناس عن الجار فضلا عن الاهل روى البخارى فى التفسير انهم كفار اهل مكة وقوله تعالى (جهنم) عطف بيان (يصلونها) اى يدخلونها (وبئس القرار) اى المقر هى (وجعلوا لله) اى الذين يعلمون انه لا شريك له فى خلقهم ورزقهم لان له الكمال كله (أندادا) اى شركاء وقوله تعالى (ليضلوا عن سبيله) اى دين الاسلام فيه قراءتان قرأ ابن كثير وابو عمرو بفتح الياء من ضل يضل والباقون بضم الياء من اضل يضل وليس الضلال ولا الاضلال غرضهم فى اتخاذ الانداد لكن لما كان نتيجته جعل كالغرض * ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الانواع الثلاثة من الاعمال القبيحة قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) اى تهديدا لهم فانهم لا يشكون فى قولك وان عاندوا (تمتعوا) بدنياكم قليلا (فان مصيركم) اى مرجعكم (الى النار) فى الآخرة ولما أمر الله تعالى الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا أمر المؤمنين بترك التمتع بالدنيا والمبالغة فى المجاهدة بالنفس والمال بقوله تعالى (قل لعبادى) فوصفهم باشرف اوصافهم واضافهم الى ضميره الشريف تحبيبا لهم فيه ثم اتبع هذا الوصف ما يناسبه من اذعانهم اسيدهم بقوله تعالى (الذين آمنوا) اى اوجدوا هذا الوصف (يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقناهم) فيه وجهان احدهما يصح أن يكون جوابا لامر محذوف تقديره قل لعبادى الذين آمنوا اقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا والثانى يصح أن يكون هو أمرا مقولا محذوفا منه اللام اى ليقيموا ليصح تعلق القول بهما وانما حسن ذلك ههنا ولم يحسن فى قوله

محمد تفد نفسك كل نفس * اذا ما خفت من شئ تبالا

اى تبالى به اى تكترث به لدلالة قل عليه (سرا وعلانية) اى ينفقون اموالهم فى حال السر والعلانية وقيل المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية اخراج الزكاة الواجبة * (تنبيه) * فى انتصاب سرا وعلانية وجوه احدها أن يكون على الحال اى ذوى سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين والثانى على الظرف اى وقت سر وعلانية وثالثها على المصدر اى انفاق سر وانفاق علانية * ولما أمرهم الله تعالى باقامة الصلاة والانفاق أشار الى عدم التهاون بذلك بقوله عز وجل (من قبل أن يأتى يوم) اى عظيم جدا ليس كشئ من الايام التى تعرفونها (لا بيع فيه) اى فيشترى المقصر ما يتدارك به تقصيره أو يفدى به نفسه (ولا خلال) اى مخالة اى صداقة تنفع فى ذلك اليوم قال مقاتل انما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة فكأنه تعالى يقول

(قوله وان عليك اللعنة) قال ذلك هنا بتعريف الجنس ليناسب ما قبله من التعبير بالجنس فى قوله ولقد خلقنا الانسان والجان خلقناه فقصد الملائكة وقال فى ص وان

انفقوا أموالكم في الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الانفاق في مثل هذا اليوم الذي لا يحصل
فيه مبايعة ولا مخالة ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة البقرة لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة
(فان قيل) كيف نفى الله تعالى المخالة في هاتين الآيتين مع انه تعالى اثبتها في قوله تعالى
الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين (اجيب) بان الآية الدالة على نفي المخالة محمولة
على نفي المخالة بسبب ميل الطبع ورغبة النفس والآية الدالة على حصول المخالة محمولة على
حصول المخالة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى * ولما طال الكلام في وصف
احوال السعداء واحوال الاشقياء وكانت العمدة العظمى والمنزلة الكبرى في حصول
السعادات معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وفي حصول الشقاوة فقدان ذلك ختم تعالى احوال
الفريقين بقوله تعالى (الله) اي الملك الاعلى المحيط بكل شيء ثم اتبعه بالدلائل الدالة على
وجوده وكمال علمه وقدرته وذكر هنا عشرة انواع من الدلائل اولها قوله تعالى (الذي خلق
السموات) وثانيها قوله تعالى (والارض) وهما اكبر خلقا منكم واعظم شانا وثالثها قوله
تعالى (وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم) تعيشون به وهو يشمل المطعوم
والملبوس * (تنبيه) الله مبتدأ وخبره الذي خلق ورزقا مفعول لاخرج ومن الثمرات بيان له
حال منه ويصح أن يكون المراد بالسماء هنا السحاب اشتقاقا من السمو والارتفاع وأن يكون
الجرم المعهود فينزل من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الارض وقد ذكرت ذلك في
سورة البقرة وفي غيرها ورابعها قوله تعالى (وسخر لكم الفلك) أي السفن (لتجري في البحر)
أي بالركوب والحمل (بامره) أي بمشيئته وارادته وخامسها قوله تعالى (وسخر لكم الانهار)
اي ذللها لكم تجرونها حيث شئتم لان ماء البحر لا ينتفع به في سقي الزروع والثمرات ولا في
الشراب فكان ذلك نعمة من الله تعالى وسادسها وسابعها قوله تعالى (وسخر لكم الشمس
والقمر) حال كونهما (دائبين) اي جاريين في فلكهما لا يفتران في سيرهما وانارتهما
وتأثيرهما في ازالة الظلمة واصلاح النبات والحيوان الى آخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا
وذهابها وللشمس سلطان النهار وبها تعرف فصول السنة وهي افضل من القمر لكثرة نفعها
والقمر سلطانه الليل وبه يعرف انقضاء الشهور وكل ذلك بتسخير الله تعالى وانعامه وثامنها
وتاسعها قوله تعالى (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان فيكم بالضياء والظلمة والزيادة
والنقصان وذلك من نعم الله تعالى على عباده حيث جعل لهم الليل ليسكنوا فيه والنهار
ليبتغوا من فضله وعاشرها قوله تعالى (وآتاكم من كل ما سألتموه) أي مما أنتم محتاجون اليه
على حسب مصالحكم فانتم سألتموه بالقوة * ولما ذكر سبحانه وتعالى بعض ما أنعم به على عباده
بين أن العبد عاجز عن حصرها وعدها بقوله تعالى (وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها) أي
لا تضبطوا عددها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها هذا اذا أرادوا أن يعدوها على الاجمال واما على
التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه الا الله تعالى (ان الانسان) أي الكافر وقال ابن عباس
يريد أبا جهل (لظلوم) أي كثير الظلم لنفسه (كفار) أي كفور لنعم ربه وقيل ظلوم في الشدة
يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع (فان قيل) لم قال تعالى هنا ان الانسان لظلوم
كفار وفي النحل ان الله لغفور رحيم (أجيب) بانه تعالى يقول للعبد اذا حصلت لك النعم

عليك اعني بالاضافة
ايناسب ماقبله من قوله
لما خلقت بيدي (قوله
ونزعنا مافي صدورهم من
غل اخوانا) قال هنا
زيادة اخوانا لانه نزل في
اصحاب رسول الله صلى الله

الكثيرة فانت الذى أخذتها وأنا الذى أعطيتها فضل لانك عند أخذها وصفان وهما كونك ظلوما كفارا ولى وصفان عند اعطائها وهما كونى غفورا رحيما والمقصود كأنه يقول ان كنت ظلوما فانا غفور وان كنت كفارا فانا رحيم أعلم بعجزك وتقصيرك فلا أقابل تقصيرك الا بالتوقير ولا أجازى بجفائك الا بالوفاء ونسأل الله حسن العاقبة والرحمة ولما بين الله تعالى بالدلائل المتقدمة أن لا معبود الا الله سبحانه وتعالى وانه لا يجوز عبادة غير الله البتة حكى عن ابراهيم عليه السلام مبالغة فى انكاره عبادة الاوثان بقوله تعالى (واذ) أى واذكرهم مذكرا بايام الله خبر ابراهيم اذ (قال ابراهيم رب) أى المحسن الى باجابة دعائى (اجعل هذا البلد) أى مكة (آمنا) أى ذا أمن وقد أجاب الله تعالى دعاءه فجعله حرما لا يسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه (فان قيل) أى فرق بين قوله اجعل هذا بلدا آمنا وبين قوله اجعل هذا البلد امنا (أجيب) بان المسؤل فى الاول أن يجعله من جملة البلاد التى يامن أهلها ولا يخافون وفى الثانى أن يزيل عنها الصفة التى كانت حاصلة لها وهى الخوف ويجعل لها تلك الصفة وهى الامن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا (فان قيل) كيف أجاب الله تعالى دعاءه مع ان جماعة من الجبابرة قد أغاروا عليها وأخافوا أهلها (أجيب) بجوابين أحدهما ان ابراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله تعالى فلم يقدر أحد على اخراب مكة (فان قيل) يرد على هذا ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة (أجيب) بان قوله تعالى اجعل هذا البلد يعنى الى قرب يوم القيامة وخراب الدنيا فهو عام مخصوص بقصة ذى السويقتين فلا تعارض بين النصين والجواب الثانى أن المراد جعل أهلها آمنين كقوله تعالى واسئل القرية أى أهلها وهذا الجواب عليه أكثر المفسرين وعلى هذا فقد اختص أهل مكة بزيادة الامن فى بلدهم كما أخبر الله تعالى بقوله ويتخطف الناس من حولهم وأهل مكة آمنون من ذلك حتى ان من التجأ الى مكة أمن على نفسه وماله وحتى ان الوحوش اذا كانت خارجة الحرم استوحشت واذا كانت داخلة الحرم استأنست لعلمها انه لا يهيجها أحد فى الحرم وهذا القدر من الامن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها (واجنبنى) أى بعدنى (وبنى أن) أى عن أن (نعبد الاصنام) أى اجعلنا فى جانب غير جانب عبادتها (فان قيل) الانبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون فما الفائدة فى قوله اجنبنى عن عبادة الاصنام (أجيب) بانه عليه الصلاة والسلام انما سأل ذلك هضما لنفسه واظهارا للحاجة والفاقة الى فضل الله فى كل المطالب وفى ذلك دليل على أن عصمة الانبياء بتوفيق الله تعالى وحفظه اياهم (فان قيل) كان كفار قريش من أبنائه مع انهم كانوا يعبدون الاصنام فكيف أجيب دعاؤه (أجيب) بان المراد من كان موجودا حال الدعاء ولا شبهة ان دعوته كانت مجابة فيهم أو ان هذا الدعاء مخصوص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال عليه السلام فى آخر الآية فمن تبعنى فانه منى وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فانه ليس منه ونظيره قوله تعالى انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح والصنم المنحوت على خلقة البشر وما كان منحوتا على غير خلقة البشر فهو وثن قاله الطبرى ولذا لما سئل ابن عيينة كيف عبدت العرب الاصنام فقال ما عبد أحد

عليه وسلم وقاله فى غيرهذه السورة بدونهما لانه نزل فى عامة المؤمنين (قوله فقالوا سلاما قال انا منكم وجلون) حذف منه قبل قال اختصارا اما فى هود فقال سلام فما لبث أن جاء بعجل

من بنى اسمعيل صنما واحتج بقوله تعالى واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام انما كانت انصاب الحجارة لكل قوم قالوا البيت حجر فحيثما نصبنا حجرا فهو بمنزلة البيت فكانوا يدورون بذلك الحجر أى يطوفون به أسابيع تشبيها بالكعبة ويسمونه الدوار بضم الدال المشددة وقد تفتح قال الجوهرى دوار بالضم صنم وقد يفتح فاستحب أن يقال طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت قال الرازى وهذا الجواب ليس بقوى لانه عليه السلام لا يجوز أن يريد بهذا الدعاء الاعباد غير الله والحجر كالصنم فى ذلك ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم أنه قال (رب انهن) أى الاصنام (أضللن كثيرا من الناس) بعبادتهم لها (تنبيه) اتفق كل الفرق على أن قوله أضللن مجاز لانها جمادات والجماد لا يفعل شيأ البتة الا انه لما حصل عند عبادتها أضيف اليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم أى افتتنوا بها واغتروا بسببها ثم قال (فمن تبعنى) أى على التوحيد (فانه منى) أى فانه جار مجرى بعضى لفرط اختصاصه بى وقربه منى (ومن عصانى) أى فى غير الدين (فانك غفور رحيم) وهذا صريح فى طلب الرحمة والمغفرة لاولئك العصاة واذا ثبت حصول هذه الشفاعة فى حق ابراهيم عليه الصلاة والسلام ثبت حصولها فى حق محمد صلى الله عليه وسلم لانه مأمور بالاقتداء به كما قال تعالى اتبع ملة ابراهيم وقيل ان هذا الدعاء كان قبل أن يعلم ابراهيم ان الله لا يغفر الشرك وقيل انك قادر أن تغفر له وترحمه بان تنقله عن الكفر الى الاسلام وقيل المراد من هذه المغفرة أن لا يعاجلهم بالعقاب فلا يمهلهم حتى يتوبوا قال الرازى واعلم أن هذه الاوجه ضعيفة وارتضى ما تقرر أولا (تنبيه) حكى الله سبحانه وتعالى عن ابراهيم عليه السلام فى هذا الموضع انه طلب من الله تعالى سبعة أمور الاول طلب من الله تعالى نعمة الامان وهو رب اجعل هذا البلد آمنا المطلوب الثانى أن يرزقه الله تعالى التوحيد ويصونه عن الشرك وهو قوله واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام المطلوب الثالث قوله (ربنا انى اسكنت من ذريتى) أى بعض ذريتى أو ذرية من ذريتى فحذف المفعول على هذا القول وهم اسمعيل ومن ولد منه فان اسكانه متضمن لاسكانهم (بواد) هو وادى مكة المشرفة لكونه فى فضاء منخفض بين جبال تجرى فيه السيول (غير ذى زرع) أى لا يكون فيه من الزرع قط فانه حجرى لا ينبت كقوله تعالى قرآنا عربيا غير ذى عوج بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج (عند بيتك المحرم) أى الذى حرمت التعرض له والتهاون به وجعلت ما حوله حرما لمكانه أو لانه لم يزل ممنعا عزيزا يهابه كل جبار كالشئ المحرم الذى حقه أن يجتنب أو لانه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها أو لانه حرم على الطوفان أى منع منه كما سمى عتيقا لانه أعتق منه فلم يستول عليه أو لانه أمر الصائرين اليه أن يحرموا على أنفسهم أشياء كانت تحل لهم من قبل أو لانه حرم موضع البيت حين خلق السموات والارض وحفه بسبعة أملاك وهو مثل البيت المعمور الذى بناه آدم فرفع الى السماء السادسة وروى ان هاجر كانت أمة لسارة فوهبتها لابراهيم عليه السلام فولدت منه اسمعيل فقالت سارة كنت أريد أن يهب الله لى ولدا من خليله فمنعنيه ورزقه خادمتى وغارت عليهما وقالت لابراهيم بعدهما منى وناشدته بالله أن يخرجهما من عندها فنقلهما الى مكة واسمعيل رضيع حتى وضعهما عند البيت عند دوحة

خفيف فلما رأى ايديهم لا تصل اليه نكرهم واوجس منهم خيفة (قوله لا توجل) اى لا تخف وبه عبر هود توسعة فى التعبير عن الشئ الواحد بمتساويين وخص ما هنا بالاول

فوضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسمعيل فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها فقالت له آلله أمرك بهذا قال نعم قالت إذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال ربنا إني أسكنت من ذريتي حتى بلغ يشكرون وجعلت أم إسمعيل ترضعه وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى من أحد فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعي الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم إسمعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة فإن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية يأتيه السيل فيأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأم إسمعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك قالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء قالوا نعم قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فألفى ذلك أم إسمعيل وهي تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم إسمعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسمعيل وتقدم تمام هذه القصة في سورة البقرة ثم قال (ربنا ليقيموا الصلاة) اللام لام كي متعلقة بأسكنت أي ما أسكنتهم بهذا الوادي المقفر الخالي من كل مرتفق ومرتزق إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم يعمروه بذكرك وعبادتك وما أمرت به وينتفعوا بالتبرك بالبقعة التي شرفتها على البقاع مستعدين لجوارك الكريم [illegible] ويتلو القرآن فيه وإن كرع والسجود حوله مستقبلين [illegible] [illegible] وتكرير النداء [illegible] [illegible] المقصود بالذات [illegible] والتضرع من الدعاء وتقديمها (فاجعل أفئدة) أي قلوبا [illegible] (من الناس) ومن للتبعيض [illegible] بعض الناس (تهوي) [illegible] [illegible]

قوله القصة ... [illegible] او اخته ... هو بالثاني او ... قوله [illegible] ... انها لمن ... الثاني ... [illegible] إذا ... هو الله تعالى [illegible]

والمجوس ولكنه قال أفئدة من الناس فهم المسلمون وقال ابن عباس لو قال أفئدة الناس لحنت اليه فارس والروم والناس كلهم ولما دعا لهم بالدين دعا لهم بالرزق فقال (وارزقهم من الثمرات) ولم يقل وارزقهم الثمرات وذلك يدل على أن المطلوب بالدعاء ايصال بعض الثمرات اليهم ويحتمل أن يكون المراد به ايصال بعض الثمرات اليهم ايصالها اليهم على سبيل التجارات كما قال تعالى يجبى اليه ثمرات كل شئ حتى توجد فيه الفواكه الصيفية والربيعية والخريفية في يوم واحد وليس ذلك من آياته بعجيب وأن يكون المراد عمارة القرى بالقرب منها لتحصيل تلك الثمار وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال كانت الطائف من أرض فلسطين فلما قال ابراهيم ذلك رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم (لعلهم يشكرون) يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لاداء العبادات واقامة الطاعات فان ابراهيم عليه السلام بين انه انما طلب تيسير المنافع على أولاده لاجل أن يتفرغوا لاقامة الطاعات واداء الواجبات * ولما طلب عليه السلام من الله تعالى تيسير المنافع لاولاده وتسهيلها عليهم ذكر انه لا يعلم عواقب الاحوال ونهاية الامور في المستقبل فانه تعالى هو العالم بها والمحيط باسرارها فقال (ربنا انك تعلم ما نخفى) أى نسر (وما نعلن) وهذا هو المطلوب الرابع والمعنى أنك أعلم باحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا منا قيل ما نخفى من الوجد بسبب حصول الفرقة بيني وبين اسمعيل وما نعلن من البكاء وقيل ما نخفى من الحزن المتمكن في القلب وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع الى من تكلنا قال الى الله قالت آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا واختلف في قوله تعالى (وما يخفى على الله من شئ في الارض ولا في السماء) فقيل من تتمة قول ابراهيم عليه السلام يعنى وما يخفى على الله الذى هو عالم الغيب من شئ في أى مكان والاكثرون على انه قول الله تعالى تصديقا لابراهيم فيما قال كقوله تعالى وكذلك يفعلون ولفظ من تفيد الاستغراق كانه قيل وما يخفى عليه شئ ما ولما أتم ابراهيم عليه السلام ما دعا به أتبعه الحمد على ما رزقه من النعم بقوله تعالى (الحمد لله) أى المستجمع لصفات الكمال (الذى وهب لى) أى أعطانى (على الكبر) أى وهب لى وأنا كبير آيس من الولد قيد الهبة بحال الكبر استعظاما للنعمة واظهار الما فيه من المعجزة (اسمعيل واسحق) ومقدار ذلك السن غير معلوم من القرآن وانما يرجع فيه الى الروايات فقال ابن عباس ولد اسمعيل لابراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة (فان قيل) ان ابراهيم عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء عندما اسكن اسمعيل وأمه في ذلك الوادى وفي ذلك الوقت ما ولد اسحق فكيف يمكنه أن يقول ذلك (أجيب) بان هذا يقتضى ان ابراهيم انما ذكر هذا الكلام في زمن آخر لا عقب ما تقدم من الدعاء قال الرازى ويمكن أيضا أن يقال انه عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء بعد كبر اسمعيل وظهور اسحق وان كان ظاهر الروايات بخلافه انتهى
(تنبيه) * قوله على الكبر بمعنى مع كقوله

الدعلى ما تر ين من كبرى * أعلم من حيث يؤكل الكتف

يقول خواص الملك دبرنا كذا وأمرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك وفي ذلك اظهار لمزيد قربهم بالملك (قوله ان في ذلك لآيات للمتوسمين) وانما لسبيل مقيم ان في ذلك

وهوفيه وضع الحال • ولماذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الافصاح والتصريح قال (ان ربى) أى المحسن الى (لسميع الدعاء) أى لمجيبه (فان قيل) الله تعالى يسمع كل دعاء أجابه أولم يجبه (أجيب) بان هذا من قولك سمع الملك كلامى اذا اعتد به وقبله ومنه سمع الله لمن حمده • المطلوب الخامس قوله (رب اجعلنى مقيم الصلوة) أى معدلا لها مواظبا عليها •(تنبيه)• فى الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لان قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام يدل على أن ترك المنهيات لا يحصل الا من الله تعالى وقوله رب اجعلنى مقيم الصلاة يدل على ان فعل المأمورات لا يحصل الا من الله تعالى وذلك تصريح بان ابراهيم عليه السلام كان مصرا على ان الكل من الله تعالى وقوله تعالى (ومن ذريتى) عطف على المنصوب فى اجعلنى أى واجعل بعض ذريتى كذلك لان كلمة من فى قوله ومن ذريتى للتبعيض وانماذكر هذا التبعيض فلانه علم باعلام الله تعالى انه يكون فى ذريته جمع من الكفار وذلك قوله تعالى لا ينال عهدى الظالمين • المطلوب السادس أنه عليه السلام لما دعا الله تعالى فى المطالب المذكورة دعا الله تعالى فى أن يقبل دعاءه فقال (ربنا وتقبل دعاء) قال ابن عباس يريد عبادتى بدليل قوله تعالى وأعتزلكم وماتدعون من دون الله وقيل دعائى المذكور • المطلوب السابع قوله (ربنا) أى أيها المالك لامورنا المدبر لنا (اغفرلى) فان قيل ان طلب المغفرة انما يكون بعد سابقة ذنب (أجيب) بان المقصود من ذلك الالتجاء الى الله تعالى وقطع الطمع الا من فضله وكرمه ورحمته ثم أشرك معه أقرب الناس اليه وأحقهم بشكره فقال (ولوالدى) •فان قيل كيف جاز أن يستغفر لوالديه وكانا كافرين (أجيب) بوجوه الاول ان المنع منه لا يعلم الا بتوقيف فلعله لم يجد منه منعا وظن كونه جائزا الثانى أراد بوالديه آدم وحواء الثالث كان ذلك بشرط الاسلام وقال بعضهم كانت أمه مؤمنة ولذلك خص أباه بالذكر فى قوله فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ثم دعا لمن تبعه فى الدين من ذريته وغيرهم بقوله (وللمؤمنين) أى العريقين فى هذا الوصف (يوم يقوم) أى يبدو ويظهر (الحساب) وقيل أراد يوم يقوم الناس فيه للحساب فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهوما عند السامع وهذا دعاء للمؤمنين بالمغفرة والله تعالى لا يرد دعاء خليله ابراهيم عليه السلام وفيه بشارة عظيمة للمؤمنين بالمغفرة فنسأل الله تعالى أن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولاحبابنا ولمن نظر فى هذا التفسير ودعا لمن كان سببا فيه بالمغفرة • ولما بين تعالى دلائل التوحيد ثم حكى عن ابراهيم عليه السلام انه طلب من الله تعالى أن يصونه عن الشرك وطلب منه أن يوفقه للاعمال الصالحة وان يخصه بالرحمة والمغفرة فى يوم القيامة عقبه بقوله تعالى مخاطبا لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) لان الغفلة معنى يمنع الانسان عن الوقوف على حقائق الامور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعترى الانسان من قلة التحفظ والتيقظ وهذا فى حق الله تعالى محال والمقصود من ذلك التنبيه على انه ينتقم للمظلوم من الظالم ففيه وعيد وتهديد للظالم واعلام له بانه لا يعاملهم معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولا يتركه مغفلا عنه وعن سفيان ابن عيينة فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم فقيل له من قال هذا فغضب وقال انما قاله من

الآية للمؤمنين) وان قلت كيف جمع الآية أولا ووحدها ثانيا والقصة واحدة (قلت) جمع أولا باعتبار ما ورد فى قصص من حديث لوط وضيف ابراهيم وتعرض قوم لوط لهم وما

عليه (فان قيل) كيف يليق به صلى الله عليه وسلم أن يحسب الله موصوفا بالغفلة وهو أعلم الناس به (أجيب) بوجوه الاول أن المراد به التثبيت على ما كان عليه من انه لا يحسب الله غافلا كقوله تعالى لا تدع مع الله الها آخر والثانى ان المقصود منه بيان انه لو لم ينتقم لكان عدم الانتقام لاجل غفلته عن ذلك الظلم والثالث ان المراد ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عما يعملون ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير والرابع أن يكون هذا الكلام وان كان خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر الا أنه يكون فى الحقيقة خطابا مع الامة * ثم بين تعالى انه (انما يؤخرهم) أى عذابهم (ليوم) موصوف بخمس صفات الصفة الاولى قوله تعالى (تشخص فيه الابصار) أى أبصارهم لا تقر مكانها من هول ما ترى فى ذلك اليوم الصفة الثانية قوله تعالى (مهطعين) أى مسرعين الى الداعى أو مقبلين بابصارهم لا يطرفون هيبة وخوفا وقيل المهطع الخاضع الذليل الساكن الصفة الثالثة قوله تعالى (مقنعى رؤسهم) أى رافعيها اذ الاقناع رفع الرأس الى فوق فاهل الموقف من صفتهم أنهم رافعو رؤسهم الى السماء وهذا بخلاف المعتاد لان من يتوقع البلاء يطرق بصره الى الارض وقال الحسن وجوه الناس يوم القيامة الى السماء لا ينظر أحد الى أحد الصفة الرابعة قوله تعالى (لا يرتد اليهم طرفهم) أى بل تثبت عيونهم شاخصة لا يطرفون بعيونهم ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للاجفان قد شغلهم ما بين أيديهم الصفة الخامسة قوله تعالى (وأفئدتهم) أى قلوبهم (هواء) أى خالية من العقل لفرط الحيرة والدهشة وقال قتادة خرجت قلوبهم عن صدورهم فصارت فى حناجرهم فلا تخرج من أفواههم ولا تعود الى أماكنها * (تنبيه) * اختلفوا فى وقت حصول هذه الصفات فقيل انها عند المحاسبة بدليل انه تعالى انما ذكر هذه الصفات عقب وصف ذلك اليوم بيوم يقوم الحساب وقيل انها تحصل عندما يتميز فريق عن فريق فالسعداء يذهبون الى الجنة والاشقياء الى النار وقيل يحصل عند اجابة الداعى والقيام من القبور قال الرازى والاول أولى (وأنذر الناس) يا محمد أى خوفهم يوم القيامة وهو قوله تعالى (يوم يأتيهم العذاب) أى الذى تقدم ذكره وهو شخوص أبصارهم وكونهم مهطعين مقنعى رؤسهم (فيقول الذين ظلموا) أى كفروا (ربنا أخرنا) أى بان تردنا الى الدنيا (الى أجل قريب) أى الى امد وحد من الزمان قريب (نجب دعوتك) أى بالتوحيد ونتدارك ما فرطنا فيه (ونتبع الرسل) فيما يدعوننا اليه فيقال لهم توبيخا (أولم تكونوا أقسمتم) أى حلفتم (من قبل) فى الدنيا (ما لكم) وأكد النفى بقوله (من زوال) أى ما لكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور كما قال فى آية أخرى وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت وكانوا يقولون لا زوال لنا من هذه الحياة الى حياة أخرى ومن هذه الدار الى دار المجازاة لا انهم كانوا ينكرون أن يزولوا عن حياة الى موت او عن شباب الى هرم او عن غنى الى فقر ثم انه تعالى زادهم توبيخا آخر بقوله تعالى (وسكنتم) فى الدنيا (فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) بالكفر من الامم السابقة (وتبين لكم كيف فعلنا بهم) أى وظهر لكم بما تشاهدون

> كلا من اهلاكهم وقلب المدينة على من فيها وامطار الحجارة على من غاب منها ووحد ثانيا باعتبار وحدة قرية قوم لوط المشار اليها بقوله وانها لبسبيل مقيم (قوله وقد

فى منازلهم من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندكم من اخبارهم (وضربنا) اى وبينا (لكم الامثال) فى القرآن أن عاقبتهم عادت الى الوبال والخزى والنكال مما يعلم به انه قادر على الاعادة كما قدر على الابتداء وقادر على التعذيب المؤجل كما يفعل الهلاك المعجل وذلك فى كتاب الله تعالى كثير واما ذكر تعالى صفة عقابهم اتبعه بذكر كيفية مكرهم بقوله تعالى (وقد مكروا مكرهم) اى الشديد العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم واختلف فى عود الضمير فى مكروا على وجوه الاول أن يعود الى الذين سكنوا فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم لان الضمير يعود الى أقرب مذكور والثانى الى قوم محمد صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى وأنذر أى يا محمد الناس وقد مكر قومك مكرهم وذلك المكر هو الذى ذكر الله تعالى فى قوله واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك (وعند الله مكرهم) اى ومكتوب عند الله فعلهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه وقيل ان مكرهم لا يزيل أمر محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو ثابت كثبوت الجبال وقد حكى عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فى الآية قول آخر وهو أنها نزلت فى نمروذ الجبار الذى حاج ابراهيم فى ربه فقال نمروذ ان كان ما يقوله ابراهيم حقا فلا أنتهى حتى أصعد الى السماء فأعلم ما فيها ثم أمر نمروذ صاحبه فاتخذ لنفسه تابوتا وجعل له بابا من أعلاه وبابا من أسفله وربط قوائمه الاربع بأربعة نسور وكان قد جوعها ورفع فوق الجوانب الاربع من التابوت عصا أربعة وعلق على كل واحدة منها قطعة لحم ثم انه جلس مع صاحبه فى ذلك التابوت فلما أبصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت فى جو الهواء فطارت يوما حتى أبعدت فى الهواء فقال نمروذ لصاحبه افتح الباب الاسفل وانظر الى الارض كيف تراها ففعل فقال أرى الارض مثل اللجة والجبال مثل الدخان قال فطارت النسور يوما آخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال نمروذ لصاحبه افتح الباب الاعلى ففتح فاذا السماء كهيئتها وفتح الباب الاسفل فاذا الارض سوداء مظلمة ونودى ايها الطاغى اين تريد قال عكرمة كان معه فى التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب فرمى بسهم فعاد اليه السهم ملطخا بالدم بدم سمكة قذفت نفسها من بحر فى الهواء وقيل طائر أصابه السهم فقال كفيت اله السماء فنكس تلك العصى التى علق عليها اللحوم فسفلت النسور وهبطت الى الارض فسمعت الجبال حفيف التابوت والنسور ففزعت وظنت ان قد حدث فى السماء حدث وأن القيامة قد قامت فكادت تزول عن أماكنها فذلك قوله تعالى (وان كان مكرهم) أى من القوة والضخامة (لتزول منه الجبال) قال الرازى ولا حاجة بى تأويل الآية الى هذا فانه لم يجئ فيه خبر صحيح معتمد انتهى والمراد بالجبال هنا قيل حقيقتها وقيل شرائع الاسلام المشبهة بها فى القرار والثبات وقرأ الكسائى بفتح اللام الاولى ورفع الاخيرة والباقون بكسر الاولى وفتح الثانية والتقدير على القراءة الاولى وان كان بحيث انه تزول منه الجبال وقيل ان نافية واللام لتأكيد النفى (فلا تحسبن الله) الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد منه أمته (مخلف وعده رسله) من النصر واعلاء الكلمة واظهار الدين كما قال تعالى انا لننصر رسلنا وقال تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلى (فان قيل) هلا قال مخلف رسله وعده ولم قدم المفعول الثانى على الاول (أجيب) بانه تعالى قدم ذلك ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا كقوله

كذب اصحاب الحجر المرسلين الحجر اسم واديهم أو مدينتهم (فان قلت) اصحابه وقومهم قوم صالح انما كذبوا صالحا لانه المرسل اليهم لا الرسل كلهم (قلت) من كذب رسولا

تعالى ان الله لا يخلف الميعاد ثم قال رسله ليدل به على انه تعالى لما لم يخلف وعده أحدا وليس من شأنه اخلاف المواعيد فكيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته (ان الله) اى ذو الجلال والاكرام (عزيز) اى غالب يقدر ولا يقدر عليه (ذو انتقام) اى من عصاه وقوله تعالى (يوم تبدل الارض غير الارض) بدل من يوم يأتيهم أو ظرف للانتقام والمعنى يوم تبدل هذه الارض التى تعرفونها أرضا أخرى غير هذه المعروفة وقوله تعالى (والسموات) عطف على الارض وتقديره والسموات غير السموات والتبديل التغيير وقد يكون فى الذوات كقولك بدلت الدراهم دنانير ومنه بدلناهم جلودا غيرها وبدلناهم بجنتيهم جنتين وفى الاوصاف كقولك بدلت الحلقة خاتما اذا أذبتها وسويتها خاتما فنقلتها من شكل الى شكل آخر ومنه قوله تعالى فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات والآية محتملة لكل واحد من هذين المفهومين فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى تلك الارض وانما تغير اوصافها وأنشد

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ● ولا الدار بالدار التى كنت تعلم

فتبدل اوصافها فتسير عن الارض جبالها وتفجر بحارها وتسوى فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابا ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها معلم لاحد أخرجاه فى الصحيحين العفراء بالعين المهملة وهى البيضاء الى حمرة ولهذا شبهها بقرصة النقى وهو الخبز الابيض الجيد الفائق المائل الى الحمرة كأن النار ميلت بياض وجهه الى الحمرة وقوله ليس فيها معلم لاحد يعنى ليس فيها علامة لاحد لتبديل هيئتها وصفتها وزوال جبالها وجميع بنائها فلا يبقى فيها أثر يستدل به وعن ابن مسعود انه قال تبدل الارض بارض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم تعمل عليها خطيئة وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه الارض من فضة والسماء من ذهب وقال محمد بن كعب وسعيد بن جبير تبدل الارض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه وعن الضحاك أيضا من فضة كالصحائف وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فاين يكون الناس يومئذ يا رسول الله فقال على الصراط أخرجه مسلم وروى ثوبان ان حبرا من اليهود سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أين تكون الناس يوم تبدل الارض غير الارض قال هم فى الظلمة دون الحشر قال الرازى واعلم انه لا يبعد أن يقال المراد من تبديل الارض والسموات هو انه تعالى يجعل الارض جهنم والسموات الجنة والدليل عليه قوله تعالى كلا ان كتاب الابرار لفى عليين وقوله تعالى كلا ان كتاب الفجار لفى سجين (وبرزوا) اى خرجوا من قبورهم (لله) اى لحكمه والوقوف بين يديه تعالى للحساب (الواحد) اى الذى لا شريك له (القهار) اى الذى لا يدافعه شئ عن مراده كما قال تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ولما وصف نفسه سبحانه وتعالى بكونه قهارا بين عجزهم وذلتهم بقوله تعالى (وترى) يا محمد اى تبصر (المجرمين) اى الكافرين (يومئذ) اى يوم القيامة ثم ذكر تعالى من صفات عجزهم وذلتهم أمورا الصفة الاولى قوله تعالى (مقرنين) أى مشدودين (فى الاصفاد) جمع صفد وهو القيد قال

واحدا كذب جميع الرسل لاتفاقهم فى دعوة الناس الى توحيد الله تعالى (قوله فوربك لنسألنهم اجمعين) ● ان قلت كيف قال ذلك هنا وقال فى الرحمن فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس

الكلبى

الكلبي كل كافر مع شيطان في غل وقال عطاء هو معنى قوله تعالى واذا النفوس زوجت أي قرنت فتقرن نفوس المؤمنين بنفوس الحور العين ونفوس الكافرين بقرنائهم من الشياطين وقيل هو قرن بعض الكفار ببعض فتنضم تلك النفوس الشقية والارواح الكدرة الظلمانية بعضها الى بعض لكونها متشاكلة متجانسة وتتادى ظلمة كل واحد منهما الى الاخرى وقال ابن زيد قرنت أيديهم وأرجلهم الى رقابهم بالاغلال الصفة الثانية قوله تعالى (سرابيلهم) أي قمصهم جمع سربال وهو القميص (من قطران) وهو شيء يتحلب من شجر يسمى الابهل فيطبخ وتطلى به الابل الجربى فيحرق الجرب بحرارته وحدته وقد تصل حرارته الى داخل الجوف ومن شأنه أنه يتسارع فيه اشتعال النار وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يصير ذلك الطلاء كالسرابيل فيحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب لذع القطران وحرقته واسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح وأيضا التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين الصفة الثالثة قوله تعالى (وتغشى) أي تعلو (وجوههم النار) ونظيره قوله تعالى أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب وقوله تعالى يوم يسحبون في النار على وجوههم * ولما كان موضع العلم والجهل هو القلب وموضع الفكر والوهم هو الرأس واثر هذه الاحوال يظهر في الوجه فلهذا خص الله تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيهما فقال في القلب نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة وقال في الوجه وتغشى وجوههم النار وقوله تعالى (ليجزي الله) متعلق ببرزوا (كل نفس ما كسبت) اي من خير أو شر وهذا أولى من قول الواحدي المراد منه أنفس الكفار لان ما سبق ذكره لا يليق أن يكون جزاء لاهل الايمان * ولما كان حساب كل نفس جديرا بان يستعظم قال (ان الله سريع الحساب) أي لا يشغله حساب نفس عن حساب أخرى ولا شأن عن شأن وقوله تعالى (هذا) اشارة الى القرآن الذي يخرج الناس من الظلمات الى النور نزل منزلة الحاضر وقيل الى السورة (بلاغ) اي كان غاية الكفاية في الايصال (للناس) والموعظة لهم وقوله تعالى (ولينذروا) اي وليخوفوا (به) عطف على محذوف وذلك المحذوف متعلق ببلاغ تقديره اي لينصحوا ولينذروا وقيل الواو مزيدة ولينذروا متعلق ببلاغ (وليعلموا) اي بما فيه من الحجج على وحدانية الله تعالى (أنما هو) اي الله (اله واحد) فيستدلوا بذلك على أن الله واحد لا شريك له (وليذكر) بادغام التاء في الاصل في الذال اي يتعظ (أولوا الالباب) أي أصحاب العقول الصافية من الاكدار والافهام الصحيحة فانه موعظة لمن اتعظ * (تنبيه) * ذكر سبحانه وتعالى لهذا البلاغ ثلاث فوائد مستفادة من قوله تعالى ولينذروا به وتاليه والحكمة في انزال الكتب تكميل الرسل للناس واستكمالهم القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد واستصلاح القوة العملية التي هي التدرع بلباس التقوى جعلنا الله تعالى من الفائزين بها بمحمد وآله وفعل ذلك بوالدينا وأحبابنا وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة ابراهيم أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد كل من عبد الاصنام وعدد من لم يعبد حديث موضوع قال العلامة ابن جماعة في شرح منظومة ابن فرج التي أولها غرامي صحيح ونرح من غرائب الجويني يكفر واضع الحديث أي والمشهور عدم تكفيره

ولا جان (قلت) لان في يوم القيامة مواقف ففي بعضها لا يسئلون وفي بعضها يسئلون ولان ذلك تطويل هو دار وتقدم ان المراد هنا انهم يسئلون سؤال توبيخ وهو لم فعلتم او نحوه وثم لا يسئلون سؤال

سورة الحجر مكية بالاجماع

وهي تسع وتسعون آية وستمائة واربع وخمسون كلمة وعدد حروفها ألفان وسبعمائة وستون حرفا

(بسم الله) الملك الواحد القهار (الرحمن) الذي أسبغ نعمه على سائر بريته التي عجزت عن وصفه الافكار (الرحيم) الذي خص أهل ولايته بنجاتهم من النار وقوله تعالى (الر) ذكر فيه الفتح والامالة أول يونس وقيل معناه انا الله أرى وقدمنا الكلام على أوائل السور في أول سورة البقرة وقوله تعالى (تلك) اشارة الى آيات هذه السورة أي هذه الآيات (آيات الكتاب) أي القرآن والاضافة بمعنى من وقوله تعالى (وقرآن مبين) أي مظهر للحق من الباطل عطف بزيادة صفة وقيل المراد بالكتاب هو السورة وكذا القرآن وقيل المراد بالكتاب التوراة والانجيل وبالقرآن هذا الكتاب ثم بين سبحانه وتعالى حال الكفار يوم القيامة بقوله تعالى (ربما يود) أي يتمنى (الذين كفروا) اذا عاينوا حالهم وحال المسلمين في ذلك اليوم (لو كانوا مسلمين) وقيل حين يعاينون حال المسلمين عند نزول النصر وحلول الموت ورب للتكثير فانه يكثر منهم تمني ذلك وقيل للتقليل فان الاهوال تدهشهم فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك الا في أحيان قليلة فان قيل لم دخلت رب على المضارع وقد أبوا دخولها الا على الماضي (أجيب) بان المترقب في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه فكأنه قيل ربما ود وقرأ عاصم ونافع بتخفيف باء ربما والباقون بالتشديد قال أبو حاتم أهل الحجاز يخففون ربما وقيس وبكر يثقلونها ولما تمادوا في طغيانهم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (ذرهم) أي دعهم عن النهي عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم (يأكلوا ويتمتعوا) بدنياهم وتنفيذ شهواتهم والتمتع التلذذ وهو طلب اللذة حالا بعد حال كالتقرب في أنه طلب القرب حالا بعد حال (ويلههم الأمل) أي يشغلهم توقعهم لطول الاعمار واستقامة الاحوال عن أخذ حظهم من الطاعة ومن الاستعداد للمعاد وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائي برفع الهاء والميم والباقون بكسر الهاء ورفع الميم وأما الوقف فالجميع بكسر الهاء والكلام على الهاء الثانية وأما الهاء الاولى فمكسورة للجميع وقفا ووصلا * ولما كان هذا أمرا لا يشتغل به الا أحمق تسبب عنه التهديد بقوله تعالى (فسوف يعلمون) أي ما يحل بهم بعد ما فسحنا لهم في زمن التمتع من سوء صنيعهم وهذا قبل الامر بالقتال *(تنبيه)* في الآية دليل على أن ايثار التلذذ والتنعم في الدنيا يؤدي الى طول الامل وليس ذلك من أخلاق المؤمنين وعن بعضهم التمتع في الدنيا من أخلاق الهالكين والاخبار في ذم الامل كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر وعن علي رضي الله تعالى عنه انما أخشى عليكم اثنتين طول الامل واتباع الهوى فان طول الامل ينسي الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق * ولما هددهم تعالى

باية

استلام واستغفار

(سورة النحل)

(قوله حين تريحون وحين تسرحون) قدم الاراحة على السرح مع انها مؤخرة عنه في الواقع لان الانعام وقت الاراحة

بآية القمع والهاء الامل أتبعه بما يؤكد الزجر بقوله تعالى (وما أهلكنا من قرية) أي من
القرى والمراد أهلها ومن مزيدة (الا ولها كتاب معلوم) أي أجل مضروب محدود مكتوب
في اللوح المحفوظ لهلاكها *(تنبيه)* المستثنى جملة واقعة صفة لقرية والاصل
أن لا تدخلها الواو كقوله تعالى الا لها منذرون وانما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف
كما يقال في الحال جاءني زيد عليه ثوب وجاءني وعليه ثوب *(فائدة)* رسم كتاب هنا باثبات
الالف* ثم بين تعالى الآية السابقة بقوله تعالى (ما تسبق) وأكد الاستغراق بقوله تعالى
(من أمة) وقيل من مزيدة كقولك ما جاءني من أحد أي أحد وبين أن المراد بالكتاب الاجل
بقوله تعالى (أجلها) أي الذي قدرناه لها (وما يستأخرون) أي عنه *(تنبيه)* انث الامة
أولا ثم ذكرها آخرا حملا على اللفظ في الاول وعلى المعنى في الثاني قال البقاعي وانما ذكره لئلا
يصرفوه الى خطابه صلى الله عليه وسلم تعنتا وفي الآية دليل على أن كل من مات أو قتل فانما
مات بأجله وان من قال يجوز أن يموت قبل أجله مخطئ * ولما بالغ تعالى في تهديد الكفار ذكر
شبههم في انكار نبوته صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر) أي
القرآن في زعمه (انك لمجنون) انما نسبوه الى الجنون اما لانهم كانوا يستبعدون كونه رسولا
حقا من عند الله لان الرجل اذا سمع كلاما مستبعدا من غيره فربما قال به جنون واما لانه عليه
الصلاة والسلام كان يظهر عليه عند نزول الوحي حالة شبيهة بالغشي فظنوا أنها جنون ويدل
عليه قوله تعالى أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ثم أتبعوه ما زعموا أنه دليل على قولهم فقالوا
(لوما) أي هلا (تأتينا بالملائكة) أي يشهدون لك بأنك رسول من عند الله حقا (ان كنت من
الصادقين) في ادعائك الرسالة وان هذا القرآن من عند الله ولما كان في قولهم أمران أجاب
الله تعالى عن قولهم الثاني لانه أقرب بقوله تعالى (ما ننزل الملائكة الا بالحق) أي الا تنزلا
ملتبسا بالحكمة والمصلحة ولا حكمة في أن نأتيكم بهم عيانا تشاهدونهم ويشهدون لكم
بصدق النبي صلى الله عليه وسلم لانكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ومثله قوله تعالى وما
خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وقيل الحق الوحي أو العذاب وقرأ شعبة بضم
التاء مع فتح الزاي ورفع الملائكة وحفص وحمزة والكسائي بنونين الاولى مضمومة والثانية
مفتوحة وكسر الزاي ونصب الملائكة والباقون بالتاء مفتوحة مع فتح الزاي ورفع الملائكة
وشدد التاء البزي في الوصل وأما الزاي فهي مشددة للجميع من يفتح ومن يكسر (وما كانوا)
أي الكفار (اذا) أي اذ تأتيهم الملائكة (منظرين) أي لزوال الامهال عنهم فيعذبون في الحال
ان لم يؤمنوا أو يصدقوا وكان حينئذ يفوت ما قضيناه من تأخيرهم واخراج من أردنا ايمانه
من أصلابهم ثم أجاب تعالى عن الاول بقوله تعالى مؤكدا لتكذيبهم (انا نحن) بما لنا من
العظمة والقدرة (نزلنا) أي بالتدريج على لسان جبريل عليه السلام (الذكر) أي القرآن
(وانا له لحافظون) أي من التبديل والتحريف والزيادة والنقصان ونظيره قوله تعالى ولو كان
من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الاشياء كلها
لا يقدر أحد من جميع الخلق من الجن والانس أن يزيد فيه أو ينقص منه كلمة واحدة أو حرفا
واحدا وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها

وهي وردها عشاء الى مراحها
أجمل وأحسن من سرحها
لانها تقبل مالئة البطون
حاملة الضروع متهادية في
مشيها بخلاف وقت سرحها
وهو اخراجها الى المرعى
(قوله ان في ذلك لآية لقوم)

التحريف والتبديل والزيادة والنقصان (فان قيل) فلم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن فى المصحف وقد وعد الله تعالى بحفظه وما حفظه الله تعالى فلا خوف عليه (أجيب) بأن جمعهم القرآن فى المصحف كان من أسباب حفظ الله تعالى اياه فانه تعالى لما أراد حفظه قيضهم لذلك قال أصحابنا وفى هذه الآية دلالة قوية على كون البسملة آية من أول كل سورة لان الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن والحفظ لا معنى له الا أن يبقى مصونا من الزيادة والنقصان فلو لم تكن البسملة آية من القرآن لما كان مصونا عن التغيير ولما كان محفوظا عن الزيادة ولو جاز أن يظن بالصحابة أنهم زادوا لجاز أيضا أن يظن بهم النقصان وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة وقيل الضمير فى له راجع الى النبى صلى الله عليه وسلم والمعنى وانا له لحافظون ممن أراده بسوء فهو كقوله تعالى والله يعصمك من الناس ولما أساء الكفار عليه صلى الله عليه وسلم فى الاول وخاطبوه بالسفاهة وقالوا انك لمجنون وكان عادة هؤلاء الجهال مع جميع الانبياء قال سبحانه وتعالى تسلية له على وجه راد عليهم (ولقد أرسلنا من قبلك) أى رسلا فحذف ذكر الرسل لدلالة الارسال عليه وقوله تعالى (فى شيع) اى فرق (الاولين) من باب اضافة الصفة الى الموصوف كقوله تعالى حق اليقين عمواشيعة المتابعة بعضهم بعضا فى الاحوال التى يجتمعون عليها فى الزمن الواحد والشيع جمع شيعة وهى الفرقة المجتمعة المتفقة كلمتهم على مذهب وطريقة وقال الفراء الشيعة هم الاتباع وشيعة الرجل اتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم الانسان (وما يأتيهم) عبر بالمضارع على حكاية الحال الماضية فان ما لا تدخل على مضارع الا وهو فى معنى الحال ولا على ماض الا وهو قريب من الحال والاصل وما كان يأتيهم (من رسول) اى على اى وجه كان (الا كانوا به) جبلة وطبعا (يستهزؤن) كاستهزاء قومك بك فصبروا فاصبر كما صبروا (كذلك) اى مثل ادخالنا التكذيب فى قلوب هؤلاء المستهزئين بالرسل (نسلكه) اى ندخله (فى قلوب المجرمين) اى كفار مكة المستهزئين (لا يؤمنون به) اى بالنبى صلى الله عليه وسلم وقيل بالقرآن وفى الآية دليل على أن الله تعالى يخلق الباطل فى قلوب الكفار والسلك ادخال الشئ فى الشئ كالخيط فى المخيط والرمح فى المطعون ومنه قوله تعالى ما سلككم فى سقر وقيل الضمير فى نسلكه يعود الى الذكر كما أن الضمير فى به يعود اليه وجملة لا يؤمنون به حال من ذلك الضمير والمعنى على هذا مثل ذلك السلك نسلك الذكر فى قلوب المجرمين مكذبا به غير مؤمن به قال البيضاوى وهذا الاستدلال ضعيف اذ لا يلزم من تعاقب الضمائر توافقها فى المرجوع اليه اه وما أعدت الضمير عليه فى ذلك هو ما قاله ابن الخازن وجرى عليه الجلال السيوطى وقوله تعالى (وقد خلت سنة الاولين) أى سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم أنبياءهم وعيد شديد لكفار مكة بأنه ينزل بهم مثل ما نزل بالامم الماضية المكذبة وقال الزجاج قد مضت سنة الله فى أن يسلك الكفر والضلال فى قلوبهم قال الرازى وهذا أليق بظاهر اللفظ وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بادغام تاء التأنيث فى السين والباقون بالاظهار وقوله تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء) الآية هو المراد فى سورة الانعام فى قوله تعالى ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس الآية أى الذين يقولون لوما تأتينا بالملائكة فلو أنزلنا الملائكة (فظلوا فيه) اى فظلت الملائكة (يعرجون) أى يصعدون فى الباب وهم يرونها عيانا (لقالوا) أى من

يتفكرون) وجد الآية فى خمسة هذه السورة فى خمسة مواضع نظرا المدلولها وجمعها فى موضعين لمناسبة قوله قبله مسخرات (قوله وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله) قاله هنا

عتوهم فى الكفر (انما سكرت ابصارنا) أى سدت عن الابصار بالسحر من السكر ويدل عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف أو حيرت من السكر ويدل عليه قراءة الباقين بالتشديد (بل نحن قوم مسحورون) أى قد سحرنا محمد بذلك أى كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات كانشقاق القمر وما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن المعجز الذى لا يستطيع الجن والانس أن يأتوا بمثله وقيل الضمير فى يعرجون للمشركين أى فظل المشركون يصعدون فى ذلك الباب فينظرون فى ملكوت السموات وما فيها من العجائب لما آمنوا لعنادهم وكفرهم وقالوا انما سحرنا وقرأ الكسائى بادغام لام بل فى النون والباقون بالاظهار * ولما أجاب الله تعالى عن شبهة منكرى النبوة والقول بالنبوة مفرع على القول بالتوحيد ودلائل التوحيد منها سماوية ومنها أرضية بدأ منها بذكر الدلائل السماوية فقال مفتتحا بحرف التوقع (ولقد جعلنا) بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة (فى السماء بروجا) قال الليث البروج واحدها برج من بروج الفلك والبروج هى النجوم الكبار مأخوذة من الظهور يقال تبرجت المرأة اذا ظهرت وأراد بها المنازل التى تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيارة وهى اثنا عشر برجا الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت وهى منازل الكواكب السبعة السيارة المريخ وله الحمل والعقرب والزهرة ولها الثور والميزان وعطارد وله الجوزاء والسنبلة والقمر وله السرطان والشمس ولها الاسد والمشترى وله القوس والحوت وزحل وله الجدى والدلو وهذه البروج مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس فى كل سنة مرة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر فى ثمانية وعشرين يوما قال ابن عباس فى هذه الآية يريد بروج الشمس والقمر يعنى منازلهما وقال عطية هى قصور فى السماء عليها الحرس وقال مجاهد هى النجوم العظام قال أبو اسحق يريد نجوم هذه البروج وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام (وزيناها) أى السماء بالشمس والقمر والنجوم والاشكال والهيآت البهية (للناظرين) أى المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها ومبدعها وهو الله الذى أوجد كل شىء وخلقه وصوره (وحفظناها من كل شيطان رجيم) أى مرجوم وقيل ملعون قال ابن عباس كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها على الكهنة فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها فما منهم من أحد يريد استراق السمع الا رمى بشهاب فلما منعوا تلك المقاعد ذكروا ذلك لابليس فقال لقد حدث فى الارض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن فقالوا والله هذا الحدث وقوله تعالى (الا من استرق السمع) بدل من كل شيطان رجيم وقيل استثناء منقطع أى لكن من استرق السمع واستراق السمع اختلاسه قال ابن عباس يريد الخطفة اليسيرة وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب كما قال تعالى (فأتبعه شهاب مبين) وهو شعلة من نار ساطعة وقد يطلق على الكواكب لما فيها من البريق يشبه شهاب النار

بتأخير فيه عن مواخر وبالواو وفى لتبتغوا وقاله فى فاطر بتقديم فيه وحذف الواو جريا هنا على القياس اذ الفلك مفعول أول لترى ومواخر مفعول ثان له وفيه ظرف ووجهه التأخير والواو

فلا يخطئ أحدا فمنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه أو جنبه أو يده حيث يشاء الله ومنهم من يخبله فيصير غولا فيضل الناس في البوادي روى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قضى الامر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها الآخر الى لسان الساحر أو الكاهن وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعها من السماء (فان قيل) اذا جاز أن يسمع الشيطان أخبار الغيوب من الملائكة خرج الاخبار عن المغيبات عن كونه معجزا دليلا على الصدق لان كل غيب يخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم قام فيه الاحتمال وحينئذ يخرج عن كونه معجزا دليلا على الصدق (أجيب) بأنا أثبتنا كون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا بسائر المعجزات ثم بعد العلم بنبوته نقطع بأن الله تعالى أعجز الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق وعند ذلك يصير الاخبار عن الغيب معجزا ولما شرح الله تعالى الدلائل السماوية في تقرير التوحيد أتبعها بذكر الدلائل الارضية وهي أنواع النوع الاول قوله تعالى (والارض مددناها) قال ابن عباس بسطناها على وجه الماء قال البغوي يقال انها مسيرة خمسمائة سنة في مثلها دحيت من تحت الكعبة (فان قيل) فهل يدل ذلك على أنها بسيطة أو كرة عظيمة على ما يقوله أرباب الهيئة (أجيب) بأنه ليس في الآية دلالة على شيء من ذلك لان الارض على تقدير كونها كرة فهي في غاية العظمة والكرة العظيمة ترى كالسطح المستوي وتقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وسيأتي زيادة على ذلك ان شاء الله تعالى في سورة والنازعات النوع الثاني قوله تعالى (وألقينا فيها رواسي) أي جبالا ثوابت واحدها راس والجمع راسية وجمع الجمع رواسي وهو كقوله تعالى وألقى في الارض رواسي أن تميد بكم قال ابن عباس لما بسط الله تعالى الارض على الماء مالت بأهلها كالسفينة فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكي لا تميد بأهلها وقيل ان الله تعالى خلقها لتكون دلالة للناس على طرق الارض ونواحيها لانها كالاعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون في الضلال النوع الثالث قوله تعالى (وأنبتنا فيها) واختلف في عود ضمير فيها فقيل يعود الى الارض لان أنواع النبات المنتفع به تكون في الارض وقيل الى الجبال لانها أقرب مذكور ولقوله تعالى (من كل شيء موزون) وانما يوزن ما يتولد من الجبال والاولى عوده لهما واختلفوا في المراد بالموزون فقال ابن عباس أي معلوم وقال مجاهد أي مقدار معين تقتضيه حكمته وقال الحسن أعني به الشيء الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن والاولى أنه جميع ما ينبت في الارض والجبال لان ذلك نوعان أحدهما ما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون والثاني النبات فبعضه موزون وبعضه بالكيل وهو يرجع الى الوزن لان الصاع والمد مقدران بالوزن (وجعلنا لكم فيها) أي انعاما منا وتفضلا عليكم (معايش) وهي بياء صريحة من غير همز جمع معيشة وهو ما يعيش به الانسان مدة حياته في الدنيا من المطاعم

العطف على لام العلة في قوله انا كلوا منه وقدم في فاطر فيه لمناسبة ما قبله من تقديم الجار والمجرور على ما بعده في قوله ومن كل تأكلون لحما طريا وحذف الواو لعدم المعطوف عليه

والملابس

والملابس والمعادن وغيرها (و) جعلنا لكم (من لستم له برازقين) من العبيد والانعام والدواب والطير فانكم تنتفعون بها ولستم لها برازقين لان رزق جميع الخلق على الله تعالى وبعض الجهال يظنون في أكثر الامر انهم هم الذين يرزقون العيال والخدم والعبيد وذلك خطأ فان الله هو الرزاق يرزق المخدوم والخادم والمملوك والمالك لانه تعالى خالق الاطعمة والاشربة وأعطى القوة الغاذية والهاضمة والا لم يحصل لاحد رزق (فان قيل) صيغة من مختصة بمن يعقل (أجيب) بانه تعالى أثبت لجميع الدواب رزقا على الله تعالى حيث قال وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها فغلب من يعقل على غيره حكي أن الماء قد قل في بعض الاودية والجبال واشتد الحر قال بعضهم فرأيت بعض تلك الوحوش رفعت رؤسها الى السماء عند اشتداد عطشها قال فرأيت الغيوم قد أقبلت وأمطرت وامتلأت الاودية * (تنبيه) * قيل لا يجوز أن يكون ومن لستم له برازقين مجرورا عطفا على الضمير المجرور لا يقال أخذت منك وزيد الا باعادة الخافض كما في قوله تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح والراجح الجواز كما قرئ قوله تعالى تساءلون به والارحام بالخفض في القراآت السبع وهذا أعظم دليل * ولما بين سبحانه وتعالى أنه أنبت لهم كل شيء موزون وجعل لهم معايش أشعر بذكر ما هو السبب لذلك فقال تعالى (وان) أي وما (من شيء) أي مما ذكر وغيره من الاشياء الممكنة وهي لا نهاية لها (الا عندنا خزائنه) أي قادرون على ايجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه فضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور وروى جعفر ابن محمد عن أبيه عن جده قال في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البحر والبر والخزائن جمع خزانة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه للحفظ وقيل أراد مفاتيح الخزائن وقيل المطر لانه سبب الارزاق لبني آدم والوحش والطير والدواب ومعنى عندنا أي في حكمه تعالى وتصرفه وأمره وتدبيره (وما ننزله) من بقاع القدرة (الا بقدر معلوم) أي على حسب المصالح وقيل ان لكل أرض حدا ومقدارا من المطر يقال لا ينزل من السماء قطرة مطر الا ومعها ملك يسوقها الى حيث يشاء الله * ولما أتم ما اراد من آيتي السماء والارض وختمه بشمول قدرته لكل شيء أتبعه ما ينشأ عنهما مما هو بينهما ودعا في خزائن قدرته بقوله تعالى (وأرسلنا الرياح) جمع ريح وهو جسم لطيف منبث في الجو سريع المر (لواقح) أي حوامل لانها تحمل الماء الى السحاب فهي لاقحة يقال ناقة لاقحة اذا حملت الولد وقال ابن مسعود يرسل الله تعالى الريح فتحمل الماء فتمجه في السحاب ثم تمر به فتدر كما تدر اللقحة ثم تمطر وقال عبيد بن عمير يبعث الله تعالى الريح المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه الى بعض فتجعله ركاما ثم يبعث الله اللواقح تلقح الشجر وعن ابن عباس قال ما هبت ريح قط الا جثا النبي صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها ريحا وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا عصفت الريح قال اللهم اني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به وقرأ حمزة بالافراد والباقون بالجمع (فأنزلنا) أي بعظمتنا بسبب تلك السحاب التي حملتها الريح (من السماء) أي الحقيقية أو جهتها أو السحاب لان الاسباب المترقبة ١ يسند الشيء تارة الى القريب منها وتارة

هناك (قوله أفمن يخلق كمن لا يخلق) هذا من عكس التشبيه اذ مقتضى الظاهر العكس لان الخطاب لعباد الاوثان حيث سموها آلهة تشبيها به تعالى فجعلوا غير الخالق كالخالق فخولف

١ قوله المترقبة هكذا بالاصل الطبع وفي بعض النسخ المتقاربة وبعض المتراقبة اه مصححه

الى البعيد (ماء) وهو جسم مائع سيال به حياة كل حيوان من شأنه الاغتذاء (فأسقيناكموه) اى جعلناه لكم سقيا يقال سقيته ماء يشرب به واسقيته اى مكنته منه ليسقى به ماشيته ومن يريد ونفى سبحانه وتعالى عن غيره ما أثبته أولا لنفسه بقوله (وما أنتم له) أى لذلك الماء (بخازنين) أى ليست خزائنه بأيديكم والخزن وضع الشئ فى مكان مهيأ للحفظ فثبت أن القادر عليه واحد مختار ومن دلائل التوحيد الاحياء والاماتة كما قال تعالى (وانا لنحن نحيى) أى لنا هذه الصفة على وجه العظمة فنحيى بها من نشاء من الحيوان بروح البدن ومن الروح بالمعارف ومن النبات بالنمو وان كان أحدهما حقيقة والآخر مجازا لان الجمع جائز (ونميت) أى لنا هذه الصفة فنبرز بها من عظمتنا ما نشاء (ونحن الوارثون) أى الارث التام اذا مات الخلائق الباقون بعد كل شئ كما كنا ولا شئ فليس لاحد تصرف باماتة ولا احياء فثبت بذلك الوحدانية والفعل بالاختيار فلما ثبت بهذا كمال قدرته وكانت آثار القدرة لا تكون محكمة الا بالعلم قال تعالى (ولقد علمنا المستقدمين منكم) وهو من قضينا بموته أولا من لدن آدم فيكون فى موته كأنه يسارع الى التقدم اليه وان كان هو وكل من أهله مجتهدا بالعلاج فى تأخيره (ولقد علمنا المستأخرين) أى الذين نمد فى أعمارهم فنؤخر موتهم حتى يكونوا كأنهم يسابقون الى ذلك وان عاجلوا الموت بشرب سم أو نحوه أو عاجلهم غيرهم بضربهم بسيف أو غيره فعرف من ذلك قطعا أن الفاعل واحد مختار وقال ابن عباس أراد بالمستقدمين الاموات وبالمستأخرين الاحياء وقال عكرمة المستقدمين من خلق الله تعالى والمستأخرين من لم يخلق وقال الحسن المستقدمين فى الطاعة والخير والمستأخرين المستبطؤن عنه وقيل المستقدمين من القرون الاولى والمستأخرين أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المستقدمين فى الصفوف والمستأخرين فيها وذلك ان النساء كن يخرجن الى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان فى الرجال من فى قلبه ريبة فيتأخر الى آخر صف الرجال ومن النساء من فى قلبها ريبة فتتقدم الى أول صف النساء لتقرب من الرجال فقال النبى صلى الله عليه وسلم خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها (تنبيه) فى سبب نزول هذه الآية قولان أحدهما ان امرأة حسناء كانت تصلى خلف النبى صلى الله عليه وسلم فكان بعضهم يستقدم حتى يكون فى أول صف حتى لا يراها ويتأخر بعضهم حتى يكون فى آخر صف فاذا ركع نظر من تحت ابطه فنزلت والثانى أن النبى صلى الله عليه وسلم حرض على الصف الاول فازدحموا عليه وقال قوم بيوتهم قاصية عن المسجد لنبيعن دورنا ولنشترين دورا قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم فنزلت (وان ربك هو يحشرهم) أى المستقدمين والمستأخرين للجزاء وتوسط الضمير للدلالة على أنه القادر والمتولى لحشرهم لا غيره وتصدير الجملة بان لتحقيق الوعد والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الاشياء يدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله تعالى (انه حكيم) أى باهر الحكمة متقن فى أفعاله (عليم) وسع علمه كل شئ ولما استدل سبحانه وتعالى بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد فى الآية المتقدمة أردفه بالاستدلال بتخليق الانسان على هذا المطلوب بقوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان) قال الرازى والمفسرون أجمعوا على أن المراد منه آدم عليه السلام ونقل فى كتب الشيعة عن محمد بن على الباقر أنه قال قد انقضى قبل آدم الذى هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر والمعنى انسانا ظاهره

في خطابهم لانهم بالغوا
في عبادتها حتى صارت
عندهم أصلا في العبادة
والخالق فرعا فجاء الانكار
على وفق ذلك لينبهوا
المراد على معتقدهم

وادراك

وادراك البصر اياه وقيل من النسيان لانه عهد اليه فنسي (من صلصال) أي من الطين الشديد اليابس الذي لم تصبه نار اذا نقرته سمعت له صلصلة أي صوتا وقال ابن عباس هو الطين اذا نضب عنه الماء تشقق فاذا حرك تقعقع وقال مجاهد هو الطين المنتن واختاره الكسائي وقال الفراء هو طين خالط برمل فصار له صوت عند نقره وقال الرازي قال المفسرون خلق الله تعالى آدم من طين فصوره وتركه في الشمس أربعين سنة فصار صلصالا لا يدري أحد ما يراد به ولم يروا شيأ من الصور يشبهه الى أن نفخ فيه الروح (من حمإ) أي طين أسود منتن (مسنون) أي مصور بصورة الآدمي وقال ابن عباس هو التراب المبتل المنتن وقال مجاهد هو المنتن المتغير قال البغوي وفي بعض الآثار ان الله تعالى خمر طينة آدم وتركه حتى صار متغيرا أسود ثم خلق منه آدم عليه السلام قال ابن الخازن والجمع بين هذه الاقوال على ما ذكره بعضهم ان الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام قبض قبضة من تراب الارض واليه الاشارة بقوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم ان ذلك التراب بل بالماء حتى اسود وأنتن ريحه وتغير واليه الاشارة بقوله تعالى من حمإ مسنون ثم ان ذلك الطين الاسود المتغير صوره الله صورة انسان أجوف فلما جف ويبس كانت تدخل فيه الريح فيسمع له صلصلة واليه الاشارة بقوله تعالى من صلصال كالفخار وهو الطين اليابس يفخر في الشمس ثم نفخ فيه الروح فكان بشرا سويا ولما ذكر سبحانه وتعالى خلق الانسان ذكر ما خلقه قبل من الجان فقال تعالى (والجان) قال ابن عباس هو أبو الجن كما ان آدم عليه السلام أبو البشر وابليس أبو الشياطين وفي الجن مسلمون وكافرون ويأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبني آدم وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون الا اذا مات ابليس وقال وهب ان من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ومن الجن من هو بمنزلة الريح لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين قال ابن الخازن والاصح ان الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم في الاستتار سموا جنا لتواريهم واستتارهم عن الاعين من قولهم جن الليل اذا ستر والشيطان هو العاتي المتمرد الكافر والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر وانتصاب الجان بفعل يفسره (خلقناه من قبل) أي قبل خلق الانسان (من نار السموم) أي من ريح حارة تدخل مسام الانسان فتقتله من قوة حرارتها قال الرازي فالريح الحارة فيها نار ولها لفح كما ورد في الخبر انها من فيح جهنم انتهى ويقال السموم بالنهار والحرور بالليل وقال الكلبي عن أبي صالح السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها وهي نار تكون بين السماء وبين الحجاب فاذا أحدث الله تعالى أمرا خرقت الحجاب فهوت الى ما أمرت به فالهدة التي تسمعون خرق ذلك الحجاب وعن ابن عباس هذه السموم جزء من سبعين جزأ من السموم التي خلق منها الجان وتلا هذه الآية وعن الضحاك عن ابن عباس كان ابليس من حي من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار وأما الملائكة فخلقوا من النور * ولما ذكر الله تعالى حدوث الانسان الاول واستدل بذكره على وجود الاله القادر المختار ذكر بعده واقعته بقوله تعالى (واذ) أي واذكر يا أشرف الخلق قول ربك عز وجل اذ (قال ربك) أي المحسن اليك بتشريف أبيك آدم عليه السلام لتشريفك (للملائكة اني خالق بشرا) أي حيوانا

(فان قلت) المراد بمن لا يخلق الاصنام فكيف جيء بمن المختصة باولي العلم (قلت) خاطبهم على معتقدهم لانهم سموها آلهة وعبدوها فاجروها مجرى أولي العلم

كشيفا يباشر ويلاقي والملائكة والجن لا يباشرون للطف أجسامهم عن ابشار البشر والبشرة ظاهر الجلد من كل حيوان وقوله تعالى (من صلصال من حمإ مسنون) تقدم تفسيره (فإذا سويته) أي عدلته وأتممته وهيأته لنفخ الروح فيه بالفعل (ونفخت فيه من روحي) أي خلقت الحياة فيه وليس ثم نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل وأضاف الروح اليه تشريفا كما يقال بيت الله وهو ما يحيى به الروح على المولى أشرف منه ما يصير به العالم عاملا خاشعا وسيأتي الكلام على الروح ان شاء الله تعالى في سورة سبحان عند قوله تعالى ويسألونك عن الروح (فقعوا) أي اسقطوا (له) تعظيما حال كونكم (ساجدين) وتقدم في سورة البقرة الكلام على من المخاطب بالسجود وهل هو كل الملائكة أو ملائكة السموات أو ملائكة الارض وهل هو سجود الحناء أو غيره (فسجد الملائكة) وقوله تعالى (كلهم أجمعون) قال سيبويه تأكيد بعد تأكيد وسئل المبرد عن ذلك فقال لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا ثم عند هذا بقي احتمال وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد في وقت آخر فلما قال أجمعون ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة قال الزجاج وقول سيبويه أجود لان أجمعين معرفة ٣ فلا يكون حالا وقوله تعالى (الا ابليس) أجمعوا على أن ابليس كان مأمورا بالسجود لآدم واختلفوا في انه هل كان من الملائكة أم لا وقد سبقت هذه المسئلة على الاستقصاء في سورة البقرة وقوله تعالى (أبى أن يكون مع الساجدين) أي لآدم استئناف تقديره ان قائلا قال هل سجد فقيل أبى ذلك واستكبر عنه (قال) الله تعالى له (يا ابليس مالك ألا تكون) أي أن تكون ولا مزيدة أي ما منعك أن تكون (مع الساجدين) لآدم (قال لم أكن لأسجد لبشر) جسماني كثيف واللام لتأكيد النفي أي لا يصح مني وينافي حالي أن أسجد وانا ملك روحاني لبشر (خلقته من صلصال من حمإ مسنون) وهو أخس العناصر وخلقتني من نار وهي أشرفها استنقص آدم باعتبار النوع والاصل وقد سبق الجواب عنه في سورة الاعراف *(تنبيه)* قال بعض المتكلمين انه تعالى أوصل هذا الخطاب الى ابليس على لسان بعض رسله وضعف لان ابليس قال في الجواب لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال فقوله خلقته خطاب الحضور لا خطاب الغيبة وظاهره يقتضي أن الله تعالى تكلم مع ابليس بغير واسطة وأن ابليس تكلم مع الله بغير واسطة فكيف يعقل هذا مع ان مكالمة الله تعالى من غير واسطة من أعظم المناصب وأشرف المراتب فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم *(وأجيب)* بان مكالمة الله تعالى انما تكون منصبا عاليا اذا كانت على سبيل الاكرام والاعظام فاما اذا كانت على سبيل الاهانة والاذلال فلا (قال) الله تعالى له (فاخرج منها) أي من الجنة وقيل من السموات وقيل من زمرة الملائكة وقد تقدم الكلام على ذلك أيضا في سورة الاعراف (فانك رجيم) أي مطرود من الخير والكرامة فان من يطرد يرجم بالحجر أو شيطان رجيم بالشهب وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته (وان عليك اللعنة) أي هذا الطرد والابعاد (الى يوم الدين) قال ابن عباس يريد يوم الجزاء حيث يجازي العباد باعمالهم مثل قوله تعالى مالك يوم الدين (فان قيل) كلة الى تفيد حصر انتهاء الغاية فهذا يفيد ان اللعنة لا تحصل الا الى يوم الدين وعند القيامة يزول اللعن

(أجيب)

ونظيره قوله تعالى الهم أرجل يمشون بها الآية (قوله أموات غير أحياء) ان قلت ما فائدة قوله في وصف الاصنام غير أحياء بعد قوله أموات

٣ قوله فلا يكون حالا انظر من ادعى حالية اجمعون مع انه مفرد مرفوع اه مصححه

(أجيب) بجوابين الاول أن المراد التأبيد وذكر القيامة أبعد غاية ذكرها الناس فى كلامهم كقوله تعالى ما دامت السموات والارض فى التأبيد والثانى أنه مذموم مدعو عليه باللعن فى السموات والارض الى يوم القيامة من غير أن يعذب فاذا جاء ذلك اليوم عذب عذابا يقترن اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب أن شدة العذاب تذهل عنه ولما جعله الله تعالى رجيما ملعونا الى يوم القيامة فكان قائلا يقول فماذا قال فقيل (قال رب) فاعترف بالعبودية والاحسان اليه (فأنظرنى) أى أخرنى والانظار تأخير المحتاج للنظر فى أمره والفاء متعلقة بمحذوف دل عليه فاخرج منها فانك رجيم (الى يوم يبعثون) أى الناس أراد أن يجد فسحة فى الاغواء ونجاة من الموت اذ لا موت بعد وقت البعث (قال) الله تعالى مجيبا للاول دون الثانى بقوله تعالى (فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) وهو المسمى فيه أجلك عند الله وهو النفخة الاولى وما يتبعها من موت كل مخلوق لم يكن فى دار الخلد (فان قيل) كيف أجابه الله تعالى الى ذلك الامهال (أجيب) بأنه انما أجابه الى ذلك زيادة فى بلائه وشقائه وعذابه لا لاكرامه ورفع مرتبته * ولما أجيب لذلك كأنه قيل فماذا قال فقيل (قال رب) أى أيها الموجد والمدبر لى وقوله (بما أغويتنى) أى خيبتنى من رحمتك الباء فيه للقسم وما مصدرية وجواب القسم (لأزينن) أى أقسم باغوائك اياى لأزينن لهم فى الارض حب الدنيا ومعاصيك كقوله فبعزتك لأغوينهم أجمعين الا أنه فى ذلك الموضع أقسم بعزة الله وهى من صفات الذات وهنا أقسم باغواء الله وهى من صفات الافعال والفقهاء قالوا القسم بصفات الذات صحيح واختلفوا فى القسم بصفات الافعال والراجح فيها الصحة (ولأغوينهم) أى بالاضلال عن الطريق الحميدة بالقاء الوسوسة فى قلوبهم ولاجلهم (أجمعين) على الغواية وقوله (الا عبادك منهم المخلصين) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام أى الذين أخلصوا دينك عن الشوائب وقرأه الباقون بفتحها أى الذين أخلصهم الله تعالى بالهداية وانما استثنى ابليس المخلصين لانه علم ان كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه قال الرازى والذى حمله على هذا الاستثناء انه لا يصير كاذبا فى دعواه فلما احترز ابليس عن الكذب علمنا ان الكذب فى غاية الخساسة *(تنبيه)* قال رويم الاخلاص فى العمل هو ان لا يريد صاحبه عنه عوضا من الدارين ولا عوضا من الملكين وقال الجنيد الاخلاص سر بين العبد وبين الله تعالى لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله وذكر القشيرى وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال سألت جبريل عليه السلام عن الاخلاص ما هو قال سألت رب العزة عن الاخلاص ما هو قال سر استودعته قلب من أحب من عبادى * ولما ذكر ابليس أنه يغوى بنى آدم الا من عصمه الله بتوفيقه وتضمن هذا الكلام تفويض الامور الى الله تعالى والى ارادته (قال) تعالى (هذا) أى الذى ذكرته من حال المستثنى والمستثنى منه (صراط) أى طريق (على مستقيم) أى لا انحراف عنه لانى قضيت به وحكمت به عليك وعليهم ولو لم تقل أنت * ولما قال ابليس لأزينن لهم فى الارض ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين أوهم هذا أن له سلطانا على عباد الله غير المخلصين فبين تعالى كذبه أنه ليس له سلطان على أحد من عبيد الله سواء أكانوا المخلصين

(قلت) فائدته انها أموات لا يعقب موتها حياة احترازا عن أموات يعقب موتها حياة كالنطف والبيض والاجساد الميتة وذلك أبلغ فى موتها كأنه قال أموات فى الحال غير احياء

اولم يكونوا مخلصين بل ومن اتبع منهم ابليس باختياره صار تبعاله ولكن حصول تلك المتابعات أيضا ليس لاجل ابليس وأوهم ان له على بعض عباد الله سلطانا نافين تعالى كذبه وذكر تعالى انه ليس له على أحد منهم سلطان ولاقدرة أصلا بقوله تعالى (ان عبادى) أى المؤمنين كلهم (ليس لك) أى بوجه من الوجوه (عليهم سلطان) أى لترذهم كلهم عما يرضينى ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن ابليس وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى وقال تعالى فى آية أخرى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون (الا من اتبعك) أى بتعمد منه ورغبة فى اتباعك (من الغاوين) أى ومات من غير توبة فانى جعلت لك عليهم سلطانا بالتزيين والاغواء وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال معناه ليس لك عليهم سلطان تلقيهم فى ذنب يضيق عنه عفوى وقيل ان الاضافة للتشريف فلا تشمل الا الخلص فحينئذ يكون الاستثناء منقطعا وفائدة سوقه بصورة الاستثناء على تقدير الانقطاع الترغيب فى رتبة التشريف بالاضافة اليه والرجوع عن اتباع العدو الى الاقبال عليه لان ذوى الانفس الابية والهمم العلية ينافسون فى ذلك المقام ويرونه كما هو الحق أعلى مرام (وان جهنم لموعدهم) أى الغاوين وهم ابليس ومن تبعه (أجمعين) ثم بين تعالى أنهم متفاوتون فيها بقوله تعالى (لها) أى لجهنم (سبعة أبواب) أى سبع طبقات قال على رضى الله تعالى عنه أتدرون كيف أبواب النار هكذا ووضع احدى يديه على الاخرى أى سبعة أبواب بعضها فوق بعض وان الله تعالى وضع الجنات على العرض ووضع النيران بعضها على بعض قال ابن جريج النار سبع دركات أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية * (تنبيه) * تخصيص العدد لان أهلها سبع فرق وقيل جعلت سبعة على وفق الاعضاء السبعة من العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل لانها مصادر السيآت فكانت مواردها الابواب السبعة ولما كانت هى بعينها مصادر الحسنات بشرط النية والنية من أعمال القلب زادت الاعضاء واحدا فجعلت أبواب الجنان ثمانية قال تعالى (لكل باب) أى منها (منهم) أى من الغاوين خاصة لايشاركهم فيها المخلص (جزء) أى نصيب وقرأ شعبة بضم الزاى والباقون بالسكون (مقسوم) أى معلوم فلكل دركة قوم يسكنونها قال الضحاك فى الدركة الاولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون وفى الثانية النصارى وفى الثالثة اليهود وفى الرابعة الصابئون وفى الخامسة المجوس وفى السادسة أهل الشرك وفى السابعة المنافقون فذلك قوله تعالى ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار وروى عن عمر رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتى أو قال على أمة محمد ولما شرح الله تعالى أحوال أهل العقاب أتبعه بصفة أهل الثواب بقوله تعالى مؤكدا لانكار المكذبين بالبعث (ان المتقين) أى الذين اتقوا الشرك بالله تعالى كما قال جمهور الصحابة والتابعين وهو الصحيح لان المتقى هو الآتى بالتقوى مرة واحدة كما أن الضارب هو الآتى بالضرب مرة واحدة والقاتل هو الآتى بالقتل مرة واحدة فكما أنه ليس من شرط صدق الوصف بكونه ضاربا أو قاتلا كونه آتيا بجميع أنواع الضرب

والقتل

فى الماسل (قوله وما يشعرون أيان يبعثون) * ان قلت كيف عاب الاصنام بانهم لايعلمون مع ان المؤمنين كذلك (قلت) معناه وما يشعر الاصنام متى يبعث عبادها فكيف تكون

والقتل ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا كونه آتيا بجميع أنواع التقوى لان الآتى بفرد واحد من أفراد التقوى يكون آتيا بالتقوى لان كل فرد من افراد الماهية يجب كونه مشتملا على تلك الماهية (فى جنات) أى بساتين قال الرازى أما الجنات فأربعة لقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ثم قال ومن دونهما جنتان فيكون المجموع أربعة وقوله ولمن خاف مقام ربه جنتان يؤكد ما قلناه لان من آمن بالله لا ينفك قلبه من الخوف من الله تعالى وقوله تعالى ولمن خاف يكفى فى صدقه حصول هذا الخوف مرة واحدة وقوله تعالى (وعيون) قال الرازى يحتمل أن يكون المراد منها ما ذكره الله تعالى فى قوله مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ويحتمل أن يكون المراد من هذه العيون منابع مغايرة لتلك الانهار (فان قيل) هل كل واحد من المتقين مختص بعيون أو تجرى تلك العيون بعضها الى بعض (أجيب) بان كل واحد من الوجهين محتمل فيجوز أن يختص كل واحد بعين ينتفع هو بها ومن يختص به من الحور والولدان ويكون ذلك على قدر حاجتهم وعلى حسب شهواتهم ويحتمل أن يجرى من بعضهم الى بعض لانهم يطهرون عن الحقد والحسد وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وحفص برفع العين والباقون بالكسر وقرأ بكسر التنوين فى الوصل أبو عمرو وابن ذكوان وعاصم وحمزة والباقون بالضم * ولما كان المنزل لا يحسن الا بالسلامة والانس قال تعالى (ادخلوها) أى يقال لهم ذلك (بسلام) أى سالمين من كل آفة مرحبا بكم (آمنين) من ذلك دائما ولما كان الانس لا يكمل الا بالجنس مع كمال المودة وصفاء القلوب عن الكدر قال تعالى (ونزعنا) أى بما لنا من العظمة والقدرة (ما فى صدورهم من غل) أى حقد كامن فى القلب ويطلق على الشحناء والعداوة والحسد والبغضاء فكل هذه الخصال المذمومة داخلة فى الغل لانها كامنة فى القلب يروى ان المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد حالة كونهم (اخوانا) أى متصافين حالة كونهم (على سرر) جمع سرير وهو مجلس رفيع موطأ للسرور وهو مأخوذ منه لانه مجلس سرور قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل ما بين صنعاء الى الجابية (متقابلين) لا يرى بعضهم قفا بعض فان التقابل التواجه وهو نقيض التدابر ولا شك أن المواجهة أشرف الاحوال وعن مجاهد رضى الله تعالى عنه تدور بهم الاسرة حيثما داروا فيكونون فى جميع أحوالهم متقابلين * (تنبيه) * ليس المراد الاخوة فى النسب بل المراد الاخوة فى المودة والمخالطة كما قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وعن الجنيد أنه قال ما أحلى الاجتماع مع الاصحاب وما أمر الاجتماع مع الاضداد وقوله تعالى (لا يمسهم فيها نصب) أى اعياء وتعب وجهد ومشقة استئناف او حال بعد حال او حال من الضمير فى متقابلين وقوله تعالى (وما هم منها بمخرجين) المراد به كونه خلودا بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمالا بلا نقصان وفوزا بلا حرمان * ولما ذكر تعالى أحوال المتقين وأحوال غيرهم اتبع ذلك بقوله تعالى (نبئ) أى خبر يا أفضل الخلق (عبادى) اخبارا جليلا (انى أنا) أى وحدى (الغفور) أى

آلهة مع الجهل بخلاف المؤمنين فانهم يعلمون ٣ انه يوم القيامة (قوله ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم) أى ليحملوا أوزار كفرهم

٣ هكذا بياض بالاصل

للمؤمنين (الرحيم) بهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من عبادى وانى والباقون بالسكون وأما الهمزة فى نبئ فلم يبدلها الا حمزة فى الوقف فقط وكذا الهمزة من نبئهم ونقل عن حمزة كسر الهاء فى الوقف (وان عذابى) أى وحدى للعصاة (هو العذاب الاليم) أى المؤلم ❊ (تنبيه) ❊ فى هذه الآية لطائف الاولى انه سبحانه وتعالى أضاف العباد الى نفسه وهذا تشريف عظيم الا ترى انه قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم سبحان الذى أسرى بعبده ليلا الثانية انه تعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيدات بالفاظ ثلاث أولها قوله تعالى انى وثانيها قوله انا وثالثها ادخال حرف الالف واللام على قوله تعالى الغفور الرحيم ولما ذكر العذاب لم يقل انى أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال وان عذابى هو العذاب الاليم الثالثة انه أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ان يبلغ اليهم هذا المعنى فكأنه اشهد رسوله على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة والرابعة انه لما قال نبئ عبادى كان معناه نبئ كل من كان معترفا بعبوديتى وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع كذلك يدخل فيه المؤمن العاصى وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فامسك منها عنده تسعة وتسعين وأرسل فى خلقه رحمة فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار وعن عبادة رضى الله تعالى عنه قال بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لو يعلم العبد قدر عفو الله ما تورع من حرام ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه الى قتلها وعنه صلى الله عليه وسلم أنه مر بنفر من أصحابه وهم يضحكون فقال أتضحكون وقد ذكر الجنة والنار بين أيديكم فنزل نبئ عبادى الى أنا الغفور الرحيم ❊ ولما بالغ تعالى فى تقرير النبوة ثم اردفه بذكر دلائل التوحيد ثم ذكر تعالى عقبه أحوال القيامة ووصف الاشقياء والسعداء أتبع ذلك بقصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام ليكون سماعها مرغبا فى العبادة الموجبة للفوز بدرجات الاولياء ومحذرا عن المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الاشقياء وافتتح من ذلك بقصة ابراهيم عليه السلام فقال تعالى (ونبئهم) أى خبر يا سيد المرسلين عبادى (عن ضيف ابراهيم) وهم ملائكة اثنا عشر او عشرة او ثلاثة منهم جبريل عليه السلام (فان قيل) الضيف هو المنضم الى غيره لطلب القرى (اجيب) بان هؤلاء سموا بهذا الاسم لانهم على صورة الضيف فهو من دلالة التضمن وقيل أيضا ان من يدخل دار انسان و يلتجئ اليه يسمى ضيفا وان لم يأكل (اذ دخلوا عليه) أى ابراهيم وكان يكنى أبا الضيفان كان لقصره أربعة أبواب لكى لا يفوته أحد (فقالوا سلاما) أى نسلم عليك سلاما او سلمت سلاما (قال) ابراهيم عليه السلام بلسان الحال او المقال (انا) أى انا ومن عندى (منكم وجلون) أى خائفون وكان خوفهم لامتناعهم من الاكل او لانهم دخلوا بغير اذن و بغير وقت والوجل اضطراب النفس لتوقع ما تكره (قالوا لا توجل) أى لا تخف (انا) رسل ربك (نبشرك بغلام) أى ولد ذكر فى نهاية القوة ليس كأولاد الشيوخ ضعيفا وقرأ حمزة بفتح النون وسكون الباء وضم الشين مخففة والباقون بضم النون وفتح الباء وكسر الشين مشددة (عليم) أى ذى علم كثير هو

مباشرة ومثل او بعض اوزار كفر من اضلوهم بتسببهم فى كفرهم فمن زائدة او تبعيضية واما قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر اخرى فمعناه وزرا لا مدخل لها فيه ولا تعلق

اسحق عليه السلام كما ذكر في هود وتقدم ذكر القصة هنالك بأسرها (قال) ابراهيم عليه السلام (أبشرتموني) أي بالولد وقوله (على ان مسني الكبر) حال أي مع مسه اياي (فان قيل) كيف قال (فبم) أي فبأي شئ (تبشرون) أي فبشروا الى ذلك بأنا شافيا مع انهم قد بينوا ما بشروا به وما فائدة هذا الاستفهام (أجيب) بأنه أراد أن يعرف ان الله تعالى هل يعطيه الولد مع بقائه على صفة الشيخوخة او يقلبه شابا ثم يعطيه الولد والسبب في هذا الاستفهام ان العادة جارية بأنه لا يحصل في حال الشيخوخة التامة وانما يحصل في حال الشباب او انه استفهام تعجب ويدل لذلك قولهم (قالوا بشرناك بالحق) قال ابن عباس يريدون بما قضاه الله تعالى والمعنى ان الله تعالى قضى ان يخرج من صلب ابراهيم اسحق و يخرج من صلب اسحق ذرية مثل ما أخرج من صلب آدم وقولهم (فلا تكن) أي بسبب تبشيرنا (من القانطين) أي الآيسين نهي لابراهيم عليه السلام عن القنوط ونهي الانسان عن الشئ لا يدل على كونه فاعلا المنهي عنه كما في قوله تعالى ولا تطع الكافرين والمنافقين ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام أنه (قال ومن يقنط) أي ييأس من هذا اليأس [٣] (من رحمة ربه) أي الذي لم يزل احسانه عليه (الا الضالون) أي المخطئون طريق الاعتقاد الصحيح في ربهم من تمام القدرة وانه لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة وقرأ أبو عمرو والكسائي بكسر النون والباقون بفتحها ولما تحقق عليه السلام البشرى ورأى اتيانهم مجتمعين على غير الصفة التي يأتي عليها الملك للوحي وكان هو وغيره من العارفين بالله عالمين بانه ما ينزل الملك الا بالحق كان ذلك سببا لان يسألهم عن أمرهم ابزول وجله كله ولذلك (قال) عليه السلام (فما) بفاء السبب (خطبكم) أي شأنكم قال أبو حيان والخطب لا يكاد يقال الا في الامر الشديد اه وقال الرماني انه الامر الجليل (أيها المرسلون) فانكم ما جئتم الا لامر عظيم يكون فصلا بين هالك وناج (قالوا انا أرسلنا) أي أرسلنا العزيز الحكيم الذي أنت أعرف الناس في هذا الزمان به (الى) اهلاك (قوم) اى ذوي منعة (مجرمين) أي كافرين وهم قوم لوط وقوله تعالى (الا آل لوط) فيه وجهان أحدهما انه استثناء متصل على أنه مستثنى من الضمير المستكن في مجرمين بمعنى أجرموا كلهم الا آل لوط فانهم لم يجرموا ويكون معنى قوله تعالى (انا لمنجوهم أجمعين) اى لايمانهم استئناف اخبار بنجاتهم لكونهم لم يجرموا ويكون الارسال حينئذ شاملا للمجرمين ولآل لوط لاهلاك اولئك وانجاء هؤلاء والثاني انه استثناء منقطع لان آل لوط لم يندرجوا في المجرمين البتة فيكون قوله تعالى انا لمنجوهم أجمعين جرى مجرى خبر لكن في اتصاله بآل لوط لان المعنى لكن آل لوط منجوهم وقرأ حمزة والكسائي بسكون النون وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون وتشديد الجيم وقوله تعالى (الا امرأته) استثناء من آل لوط او من ضميرهم على الاول وعلى الثاني لا يكون الا من ضميرهم لاختلاف الحكمين اللهم الا ان يجعل انا لمنجوهم اعتراضا وقوله تعالى (قدرنا) قرأ شعبة بتخفيف الدال والباقون بالتشديد (انها لمن الغابرين) أي من الباقين في العذاب لكفرها * (تنبيه) * معنى التقدير في اللغة جعل الشئ على مقدار غيره يقال قدر هذا الشئ بهذا أي اجعله على مقداره وقدر الله تعالى الاقوات أي جعلها على مقدار الكفاية ويفسر التقدير بالقضاء فيقال قضى الله تعالى عليه وقدره عليه أي جعله

لهما بسبب ولا غيره ونظيرها من الآيتين سؤالا وجوابا قوله تعالى واتصل خطابا كم الى قوله واثقالا مع أثقالهم (قوله فاصابهم سيآت ما عملوا) قال فيه وفي الجاثية ما عملوا وفي

[٣] قوله من هذا اليأس هكذا بالاصول ولعل من زائدة من الناسخ اه مصححه

على مقدار ما يكفي في الخير والشر وقيل معنى قدرنا كتبنا وقال الزجاج دبرنا (فان قيل) لم اسند الملائكة فعل التقدير الى أنفسهم مع انه لله عز وجل (اجيب) بانهم انما ذكروا هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى كما تقول خاصة الملك دبرنا كذا وأمرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك لاهم وانما يريدون بهذا الكلام اظهار مالهم من الاختصاص بذلك الملك فكذا هنا * ولما بشر الملائكة عليهم السلام ابراهيم عليه السلام بالولد وأخبروه بانهم مرسلون بعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد ابراهيم عليه السلام الى لوط وآله وهذه هي القصة الثانية المذكورة في هذه السورة قال تعالى (فلما جاء آل لوط المرسلون) ههنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ قالون والبزي وأبو عمرو باسقاط واحدة منهما مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها حرف مد والباقون بتحقيق الهمزتين وكذا وجاء أهل المدينة (قال) لهم (انكم قوم منكرون) لانهم دخلوا عليه هجما فاستنكرهم وخاف من دخولهم لاجل شر يوصلونه اليه ولاجل انهم كانوا شبابا مردا حسان الوجوه فخاف ان يهجم قومه عليهم بسبب طلبهم فقال هذه الكلمة وقيل ان النكرة ضد المعرفة فقوله عليه السلام انكم قوم منكرون أي لا اعرفكم ولا أعرف انكم من أي الاقوام أنتم ولاى غرض دخلتم على فعند ذلك (قالوا) اى الملائكة (بل جئناك بما) اى بالعذاب الذى (كانوا) أى قومك (فيه يمترون) اى يشكون في نزوله بهم والجاهل يوصف بالشك وان كان مكذبا من جهة ما يعرض له منه من حيث انه لا يرجع الى نفسه فيما هو عليه ثم اكدوا ما ذكروه بقولهم (واتيناك بالحق) اى باليقين الذى لا يشك فيه ثم اكدوا هذا التأكيد بقولهم (وانا لصادقون) اى فيما أخبرناك به (فاسر باهلك) اى فاذهب بهم في الليل (بقطع من الليل) أى في طائفة من الليل وقيل هي آخره قال الشاعر

افتحي الباب وانظري في النجوم * كم علينا من قطع ليل بهيم

كأنه طال عليه الليل فخاطب صحبته بذلك او كان يحب طول الليل للوصال وقرأ نافع وابن كثير بوصل همزة فاسر بعد الفاء من السرى والباقون بالقطع وهما بمعنى (واتبع ادبارهم) اى وكن على آثار أهلك وسر خلفهم وتطلع على أحوالهم (ولا يلتفت منكم احد) أى لئلا يرى اليهم ما نزل بهم من البلاء وقيل جعل ترك الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط (وامضوا حيث تؤمرون) اى الى المكان الذى أمركم الله بالمضي اليه قال ابن عباس هو الشام وقال المفضل حيث يقول لكم جبريل وذلك ان جبريل أمرهم ان يمضوا الى قرية معينة ما عمل أهلها عمل قوم لوط وقيل الى الاردن وقيل الى مصر * (تنبيه) * حيث ههنا على بابها من كونها ظرف مكان مبهم ولابهامها تعدى اليها الفعل من غير واسطة (وقضينا) أى واوحينا (اليه) ولما ضمن قضينا معنى الايحاء تعدى بالى ومثله وقضينا الى بني اسرائيل وقوله تعالى (ذلك الامر) مبهم تفسيره (ان دابر هؤلاء مقطوع) اى مستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم احد وقوله تعالى (مصبحين) حال من هؤلاء او من الضمير في مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان دابر هؤلاء في معنى مدبري هؤلاء اى يتم استئصالهم في الصباح (وجاء اهل المدينة) اى مدينة من مدائن قوم لوط وهي سذوم بسين مهملة وذال معجمة واخطأ من

الزمر ما كسبوا موافقة لما قبل كل منها او بعده او قبله وبعده اذ ما هنا قبله ما كانوا يعملون من سوء وتعملون مرتين وقبل في الجاثية ما كنتم تعملون وعملوا الصالحات وبعده

قال بعضهم (يستبشرون) اى باضياف لوط طمعا فيهم وليس فى الآية دليل على المكان الذى جاؤه الا ان القصة تدل على انهم جاؤا دار لوط وقيل ان الملائكة لما كانوا فى غاية الحسن اشتهر خبرهم حتى وصل الى قوم لوط وقيل امرأة لوط أخبرتهم بذلك قال الرازى وبالجملة فالقوم قالوا نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح وجها ولا أحسن شكلا منهم فذهبوا الى دار لوط طلبا منهم لاولئك المرد والاستبشار اظهار السرور ولما وصلوا اليه (قال) لهم لوط (ان هؤلاء ضيفى) اى وحق على الرجل اكرام الضيف (ولا تفضحون) فيهم يقال فضحه يفضحه اذا أظهر من أمره ما يلزم به العار واذا قصد الضيف بسوء كان ذلك اهانة لصاحب المنزل ثم أكد ذلك بقوله (واتقوا) أى خافوا (الله) فى أمرهم (ولا تخزون) اى ولا تخجلونى فيهم بقصدكم اياهم بفعل الفاحشة من الخزاية وهى الحياء أو لا تذلونى بسببهم من الخزى وهو الهوان (قالوا) أى قومه فى جواب قوله لهم (اولم ننهك عن العالمين) أي عن ان تضيف أحدا من العالمين وقيل اولم ننهك ان تدخل الغرباء المدينة فانا نطلب منهم الفاحشة وقيل اولم ننهك ان تمنع بيننا وبينهم فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد وكان لوط عليه السلام يمنعهم عنهم بقدر وسعه ثم (قال) لهم (هؤلاء بناتى) أى نساء القوم لان كل امة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونساؤهم بناته فكأنه قال لهم هؤلاء بناتى فانكحوهن وخلوا بنى فلا تتعرضوا لهم (ان كنتم فاعلين) اى ما أقول لكم او قضاء الشهوة والكلام فى ذلك قدمر بالاستقصاء فى سورة هود وقرأ نافع بفتح ياء بناتى والباقون بسكونها قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على لسان ملائكته (لعمرك) اى وحياتك وما اقسم بحياة أحد غيره وذلك يدل على انه أكرم الخلق على الله تعالى (انهم لفى سكرتهم) أى شدة غفلتهم التى أزالت عقولهم (يعمهون) أى يتحيرون الخطاب [3] للوط عليه السلام قالت له الملائكة ذلك أى فكيف يعقلون قولك ويلتفتون الى نصيحتك * (تنبيه) * لعمرك مبتدأ محذوف الخبر وجوبا وانهم وما فى حيزه جواب القسم تقديره لعمرك قسمى او يمينى انهم والعمر والعمر بالفتح والضم واحد وهو البقاء الا انهم خصوا القسم بالمفتوح لايثار الاخف فيه وذلك لان الحلف كثير الدور على ألسنتهم بلعمرى ولعمرك (فأخذتهم الصيحة) اى صيحة هائلة مهلكة وهل هى صيحة جبريل عليه السلام قال الرازى ليس فى الآية دليل على ذلك فان ثبت بدليل قوى قيل به والا فليس فى الآية دليل الا انهم جاءتهم صيحة عظيمة مهلكة وقوله تعالى (مشرقين) اى داخلين فى وقت الشروق وهو بزوغ الشمس حال من مفعول أخذتهم ثم بين سبحانه وتعالى ما تسبب عن الصيحة معقبا لها بقوله تعالى (فجعلنا) اى بما لنا من العظمة والقدرة (عاليها) اى مدائنهم (سافلها) بان رفعها جبريل عليه السلام الى السماء واسقطها مقلوبة الى الارض (وأمطرنا عليهم) اى أهل المدائن التى قلبت المدائن لاجلهم (حجارة من سجيل) اى طين طبخ بالنار * (تنبيه) * دلت الآية الكريمة على ان الله تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب احدها الصيحة الهائلة المنكرة وثانيها انه جعل عاليها سافلها وثالثها انه أمطر عليهم حجارة من سجيل وتقدمت الاشارة الى ذلك فى سورة هود (ان فى ذلك) اى المذكور من هذه الانواع (لآيات) اى دلالات على وحدانية الله تعالى (للمتوسمين) أى للناظرين المتفكرين بجمع

سيآت ما عملوا وقيل ما فى
الزمر ذوقوا ما كنتم
تكسبون وبعده فما أغنى
عنهم ما كانوا يكسبون
(قوله انما قولنا لشىء اذا
أردناه ان نقول له كن فيكون)
ان قلت * هذا يدل على

[3] قوله الخطاب للوط الخ هكذا
بالاصول التى بايدينا
ولعله او الخطاب الخ
كما تدل عليه عبارة
الكشاف اه مصححه

متوسم وهو الناظر فى السمة حتى يعرف حقيقة الشئ وسمته (وانها) اى هذه المدائن (لبسبيل) اى طريق قريش الى الشام (مقيم) اى لم يندرس بل يشاهدون ذلك ويرون أثره أفلا يعتبرون ثم قال سبحانه وتعالى مشيرا الى زيادة الحث على الاعتبار بالتأكيد (ان فى ذلك) اى هذا الامر العظيم (لآية) اى علامة عظيمة فى الدلالة على وحدانيته تعالى (للمؤمنين) اى كل من آمن بالله وصدق الانبياء والرسل عرف ان ذلك انما كان لاجل ان الله تعالى انتقم لانبيائه من اولئك الجهال اما الذين لا يؤمنون بالله فانهم يحملونه على حوادث العالم ووقائعه ثم ذكر تعالى القصة الثالثة وهى قصة شعيب عليه السلام بقوله تعالى (وان) مخففة من الثقيلة أى وانه (كان) أى جبلة وطبعا (اصحاب الايكة) وهم قوم شعيب عليه السلام وقد ذكر الله تعالى قصتهم فى سورة الشعراء والايكة الشجر المتكاثف وقيل الشجر الملتف وقال ابن عباس هى شجر المقل وقال الكلبى الايكة الغيضة أى غيضة شجر بقرب مدين (لظالمين) اى عريقين فى الظلم بتكذيبهم شعيبا عليه السلام (فانتقمنا منهم) اى بسبب ذلك قال المفسرون اشتد الحر فيهم أياما ثم اضطرم عليهم المكان نارا فهلكوا عن آخرهم وقوله تعالى (وانهما) فيه قولان الاول ان المراد قرى قوم لوط والايكة والقول الثانى ان الضمير للايكة ومدين لان شعيبا كان مبعوثا اليهما فلما ذكر الايكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما (لبامام) اى طريق (مبين) أى واضح والامام اسم لما يؤتم به قال الفراء انما جعل الطريق اماما لانه يؤم ويتبع وقال ابن قتيبة لان المسافر يأتم به حتى يصل الى الموضع الذى يريده ثم ذكر تعالى القصة الرابعة وهى قصة صالح عليه السلام بقوله تعالى (ولقد كذب اصحاب الحجر) وهم ثمود قوم صالح عليه السلام وديارهم بين المدينة الشريفة والشام (المرسلين) اى كلهم بتكذيب رسولهم كما كذب هؤلاء المرسلين بتكذيبك لان الرسل يشهد بعضهم لبعض بالصدق فمن كذب واحدا منهم فقد كذب الجميع وهم فى اثبات الرسالة بالمعجزة على حد سواء ثم اتبع ذلك قوله تعالى (وآتيناهم) اى بما لنا من العظمة والقدرة على يد رسولهم صالح عليه السلام (آياتنا) اى آيات الكتاب المنزل على نبيهم او معجزات كالناقة وكان فيها آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظيم خلقها وقرب ولادتها وغزارة لبنها وانما اضاف الآيات اليهم وان كانت لنبيهم صالح عليه السلام لانه مرسل من ربهم اليهم بهذه الآيات (فكانوا عنها) أى الآيات (معرضين) اى تاركيها غير ملتفتين اليها لا يتفكرون فيها ثم أخبر تعالى عنهم انهم كانوا مثل هؤلاء فى الامن من العذاب والغفلة عما يراد بهم مع انهم كانوا أشد منهم فقال تعالى (وكانوا ينحتون) والنحت قلع جزء بعد جزء من الجسم على سبيل المسح (من الجبال) أى التى تقدم انا جعلناها رواسى (بيوتا آمنين) عليها من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الاعداء لوثاقتها لا كبيوتكم التى لا بقاء لها على أدنى درجة وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص برفع الباء والباقون بكسرها (فاخذتهم الصيحة) اى صيحة العذاب (مصبحين) اى وقت الصبح (فما اغنى) اى ما دفع (عنهم) الضر والبلاء (ما كانوا يكسبون) اى يعملون من بناء البيوت

ان المعدوم شئ وعلى ان خطاب المعدوم جائز مع ان الاول متفق عليه عند اكثر العلماء والثانى بالاجماع (قلت) اما تسميته شيئا فمجاز بالاول واما الثانى

الوثيقة واستكثار الاموال والعدد وعن جابر رضى الله تعالى عنه مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم الا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلفها ولما ذكر تعالى هذه القصص تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم فانه اذا سمع ان الامم السالفة كانوا ابدا يعاملون أنبياء الله بمثل هذه المعاملات سهل تحمل تلك السفاهة قال تعالى (وما خلقنا السموات والارض) اى على ما لهما من العلو والسعة والارض على ما لها من المنافع والغرائب (وما بينهما) من هؤلاء المشركين المكذبين وعذابهم ومن المياه والرياح والسحاب المسبب عنه النبات وغير ذلك (الا بالحق) اى الا خلقا ملتبسا بالحق فيتفكر فيه من وفقه الله تعالى ليعلم النشأة الآخرة بهذه النشأة الاولى (وان الساعة) اى القيامة (لآتية) لا محالة فيجازى الله تعالى كل أحد بعمله ثم انه تعالى لما صبره على أذى قومه رغبه بعد ذلك فى الصفح عن سيآتهم بقوله تعالى (فاصفح الصفح الجميل) اى اعرض عنهم اعراضا لا جزع فيه ولا تعجل بالانتقام منهم وهذا منسوخ بآية السيف قال الرازى وهو بعيد لان المقصود من ذلك أن يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح فكيف يصير منسوخا اه والاول جرى عليه البغوى وجماعة من المفسرين ثم علل تعالى هذا الامر بقوله (ان ربك) اى المحسن اليك الآمر لك بهذا (هو) اى وحده (الخلاق) أى المتكرر منه هذا الفعل (العليم) اى البالغ العلم بكل المعلومات فليست أقوالهم وأفعالهم الا منه سبحانه وتعالى لانه خالقها وقد علت أنه لا يضيع مثقال ذرة فاعتمد عليه فى أخذ حقك فانه نعم المولى ونعم النصير ولما صبره الله تعالى على أذى قومه وأمره ان يصفح الصفح الجميل اتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التى خص الله تعالى أفضل خلقه بها بقوله تعالى (ولقد آتيناك) يا أفضل الخلق بما لنا من العظمة والقدرة كما آتينا صالحا ما تقدم (سبعا) يكون كل سبع منها كفيلا باغلاق باب من أبواب النيران السبعة وهى أم القرآن الجامعة لجميع معانى القرآن التى أمرنا باعادتها فى كل ركعة زيادة فى حفظها وتبركا بلفظها وتذكرا لمعانيها وتخصيصا لها عن بقية الذكر الذى تكفلنا بحفظه والسبب فى وقوع هذا الاسم على الفاتحة لانها سبع آيات وهذا ما عليه أكثر المفسرين روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال هى السبع المثانى رواه أبو هريرة وقيل المراد سبع سور وهى الطوال واختلف فى السابعة فقيل الانفال وبراءة لانهما فى حكم سورة ولذلك لم يفصل بينهما بآية البسملة وقيل الحواميم السبع وقيل سبع صحائف وهى الاسباع وقوله تعالى (من المثانى) صفة للسبع وهو جمع واحده مثناة والمثناة كل شئ يثنى اى يجعل اثنين من قولك ثنيت الشئ ثنيا اى عطفته وضممت اليه آخر ومنه يقال لركبتى الدابة ومرفقيها مثانى لانها تثنى بالفخذ والعضد ومثانى الوادى معاطفه وأما تسمية الفاتحة بالمثانى فلوجوه الاول أنها تثنى فى كل صلاة بمعنى أنها تقرأ فى كل ركعة الثانى أنها تثنى بما بعدها اى بما يقرأ معها الثالث أنها قسمت قسمين اثنين لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين والحديث مشهور وقد ذكرته

فلان ذلك خطاب تكوين لا خطاب ايجاد فيمتنع ان يكون المخاطب به موجودا قبل الخطاب لانه انما يكون بالخطاب (قوله وقد يصعب) بالخطاب (وما فى السموات وما فى الارض من دابة) فجوز

فى وجه تسميتها صلاة عند ذكرها الرابع أنها قسمان اثنان ثناء ودعاء وأيضا النصف الاول منها حق الربوبية وهو الثناء والنصف الثانى حق العبودية وهو الدعاء الخامس أن كلماتها مثناة مثل الرحمن الرحيم اياك نعبد واياك نستعين أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم وأما السور والاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ولما فيها من الثناء كأنها تثنى على الله تعالى بافعاله العظمى وصفاته الحسنى

•(تنبيه)• من فى من المثانى اما للبيان واما للتبعيض اذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال وللبيان ان أردت الاسباع قال الزمخشرى ويجوز أن تكون كتب الله كلها مثانى لانها تثنى عليه لما فيها من المواعظ المكررة ويكون القرآن بعضها وقوله تعالى (والقرآن العظيم) أى الجامع لجميع معانى الكتب السماوية المتكفل بخيرى الدارين مع زيادات لا تحصى فيه أوجه أحدها أنه من عطف بعض الصفات على بعض أى الجامع بين هذين النعتين الثانى أنه من عطف العام على الخاص اذ المراد بالسبع اما الفاتحة واما الطوال فكأنه ذكر مرتين بجهة الخصوص ثم باندراجه فى العموم الثالث أن الواو مقحمة • ولما عرف سبحانه وتعالى رسوله عظيم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين وهو انه آتاه سبعا من المثانى والقرآن العظيم نهاه عن الرغبة فى الدنيا بقوله تعالى (لا تمدن عينيك) اى لا تشغل سرك وخاطرك بالالتفات (الى ما متعنا به ازواجا منهم) اى اصنافا من الكفار والزوج فى اللغة الصنف وقد أوتيت القرآن العظيم الذى فيه غنى عن كل شئ قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه من أوتى القرآن فرأى أن أحدا أوتى فى الدنيا أفضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وتأول سفيان بن عيينة هذه الآية بقول النبى صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن اى لم يستغن وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لا تمدن عينيك أى لا تتمن ما فضلنا به أحدا من متاع الدنيا وقيل أتت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجوهر وسائر الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى طاعة الله تعالى فقال الله تعالى لقد أعطيتكم سبع آيات هن خير من هذه القوافل السبع وقرر الواحدى هذا المعنى فقال انما يكون مادا عينيه الى الشئ اذا أدام النظر نحوه وادامة النظر الى الشئ تدل على استحسانه وتمنيه وكان النبى صلى الله عليه وسلم لا ينظر الى ما يستحسن من متاع الدنيا روى أنه نظر الى نعم بنى المصطلق وقد عبست فى أبوالها وأبعارها وهو أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها اذا تركت من العمل أيام الربيع فتكثر شحومها ولحومها وهى أحسن ما تكون وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم وقوله تعالى (ولا تحزن عليهم) نهى له عن الالتفات اليهم ان لم يؤمنوا فيخلصوا أنفسهم من النار ولما نهاه سبحانه وتعالى عن الالتفات الى أولئك الاغنياء من الكفار امره بالتواضع لفقراء المسلمين بقوله تعالى (واخفض جناحك) اى ألن جانبك (للمؤمنين) اى العريقين فى هذا الوصف واصبر نفسك معهم وارفق بهم • ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله

بالسجود عن الانقياد لما لا يعقل والسجود على الجبهة فيمن يعقل فجمع بين الحقيقة والمجاز وانما لم يغلب العقلاء من الدواب على غيرهم كما فى آية والله خلق كل دابة من ماء لانه

عليه وسلم بالزهد في الدنيا والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ ما أرسل به اليهم بقوله تعالى (وقل إني أنا النذير) من عذاب الله أن ينزل عليكم ان لم تؤمنوا وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون (المبين) اى البين الانذار وقوله تعالى (كما أنزلنا) اى العذاب (على المقتسمين) قال ابن عباس هم اليهود والنصارى سموا بذلك لانهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به وقال عكرمة انهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد هذه السورة لى وقال آخر هذه السورة لى وانما فعلوا ذلك استهزاء به وقال مجاهد انهم اقتسموا كتبهم فآمن بعضهم ببعضها وكفر بعضهم ببعضها وقال قتادة أراد بالمقتسمين كفار قريش قال سموا بذلك لان أقوالهم تقسمت فى القرآن فقال بعضهم انه سحر وزعم بعضهم أنه كهانة وزعم بعضهم أنه أساطير الاولين وقال ابن السائب سموا بالمقتسمين لانهم اقتسموا طرق مكة وذلك أن الوليد بن المغيرة بعث رهطا من أهل مكة قيل ستة عشر وقيل أربعين وقال انطلقوا فتفرقوا على طرق مكة حيث يمر بكم أهل الموسم فاذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم انه مجنون وليقل بعضكم انه كاهن وليقل بعضكم انه ساحر وليقل بعضكم انه شاعر فذهبوا وقعدوا على طرق مكة يقولون ذلك لمن يمر بهم من حجاج العرب وقعد الوليد بن المغيرة على باب المسجد الحرام نصبوه حكما فاذا جاؤا وسألوه قال أولئك فيقول صدقوا فاهلكهم الله تعالى يوم بدر وقوله تعالى (الذين جعلوا القرآن عضين) نعت للمقتسمين وقال ابن عباس هم اليهود والنصارى جزؤا القرآن اجزاء فآمنوا بما وافق التوراة والانجيل وكفروا بالباقى وقال مجاهد قسموا كتاب الله ففرقوه وبدلوه وقيل كانوا يستهزؤن به فيقول بعضهم سورة البقرة لى ويقول بعضهم سورة آل عمران لى وقيل اقتسموا القرآن فقال بعضهم سحر وقال بعضهم شعر وقال بعضهم كذب وقال بعضهم أساطير الاولين وقيل هم أهل الكتاب آمنوا ببعض كتبهم وكفروا ببعض على أن القرآن ما يقرؤنه من كتبهم فيكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم وقولهم سحر وشعر وأساطير الاولين بان غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم

(تنبيه) عضين جمع عضة وهى الفرقة والعضين الفرق وتقدم معنى جعلهم القرآن كذلك وقيل العضة السحر بلغة قريش يقولون هو عاضه وهى عاضهة وفى الحديث لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضهة والمستعضهة اى الساحرة والمستسحرة وقيل هو من العضه وهو الكذب والبهتان يقال عضهه عضها وعضيهة اى رماه بالبهتان وقيل جمع عضو مأخوذ من قولهم عضيت الشئ أعضيه اذا فرقته وجعلته أجزاء وذلك انهم جعلوا القرآن أعضاء مفرقة فقال بعضهم سحر وقال بعضهم أساطير الاولين ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه على أنه يسأل هؤلاء المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين بقوله تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) فيكون الضمير عائدا على المقتسمين لانه الاقرب ويحتمل أن يعود على جميع المكلفين لان ذكرهم تقدم فى قوله تعالى وقل انى أنا النذير المبين اى لجميع الخلق قال جماعة من المفسرين يسئلون عن لا اله الا الله وقال أبو العالية يسئلون عما كانوا يعبدون وما

أراد هنا عموم كل دابة ولم يقترن بتغليب فجاء بما التى تعم النوعين وفى تلك وان أراد العموم لكنه اقترن بتغليب وهو ذكر ضمير العقلاء فى قوله فمنهم فجاء

أجابوا به المرسلين (فان قيل) كيف الجمع بين قوله تعالى فوربك لنسئلنهم أجمعين و بين قوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان (أجيب) بان النفي ينصرف الى بعض الاوقات والاثبات الى وقت آخر لان يوم القيامة يوم طويل وفيه مواقف يسئلون في بعضها ولا يسئلون في بعض آخر ونظيره قوله تعالى هذا يوم لا ينطقون وقال في آية أخرى ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (فاصدع) اى اجهر بما و شدقا فارقا بين الحق والباطل وقرأ حمزة والكسائي باشمام الصاد الساكنة قبل الدال والباقون بالصاد الخالصة (بما) اى بسبب ما (تؤمر) به أمر النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية باظهار الدعوة روى عن عبد الله بن عبيدة قال كان مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه (واعرض) اى اعراض من لا يبالي (عن المشركين) بالصفح الجميل عن الاذى والاجتهاد في الدعاء ولا تلتفت الى لومهم اياك على اظهار الدعوة قال بعض المفسرين كالبغوي وهذا منسوخ بآية القتال قال الرازي وهو ضعيف لان معنى هذا الاعراض ترك المبالاة بهم فلا يكون منسوخا ولما كان هذا الصدع في غاية الشدة عليه صلى الله عليه وسلم لكثرة ما يلقى عليه من الاذى خفف عنه سبحانه وتعالى بقوله معللا (انا) اى بما لنا من العظمة والقدرة (كفيناك المستهزئين) اى شر الذين هم عريقون في الاستهزاء وهم خمسة نفر من رؤساء قريش الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل وعدى بن قيس والاسود بن عبد المطلب والاسود بن عبد يغوث ووصف سبحانه وتعالى هؤلاء بقوله تعالى (الذين يجعلون مع الله الها آخر) وقيل ليس بصفة بل مبتدأ ولتضمنه معنى الشرط دخلت الفاء في خبره وهو (فسوف يعلمون) اى عاقبة أمرهم في الدارين ولما ذكر سبحانه وتعالى ان قومه يسفهون عليه ولا سيما أولئك المقتسمون قال له تعالى (ولقد نعلم) اى نحقق وقوع علمنا (انك) اى على ما لك من الحلم وسعة البطان (يضيق صدرك) اى يوجد ضيقه و يتجدد (بما يقولون) اى من الاستهزاء والتكذيب بك و بالقرآن لان الجبلة البشرية والمزاج الانساني يقتضى ذلك عند هذا قال تعالى (فسبح) ملتبسا (بحمد ربك) اى نزهه عن صفات النقص وقال الضحاك قل سبحان الله و بحمده وقال ابن عباس فصل بامر ربك (وكن من الساجدين) اى من المصلين روى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة وتقدمت معناه في سورة البقرة (تنبيه) اختلف الناس كيف صار الاقبال على الطاعات سببا لزوال ضيق القلب والحزن فقال العارفون المحققون اذا اشتغل الانسان بهذه الانواع من العبادات يتنور باطنه ويشرق عليه و ينفسح و ينشرح صدره فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت اليها وقال بعض الحكماء اذا نزل بالانسان بعض المكاره فليفزع الى الطاعات فكانه يقول يا رب يجب على عبادتك سواء أعطيتني الخيرات أو ألقيتني في المكاره فانا عبدك بين يديك فافعل بي ما تشاء (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) قال ابن عباس يريد الموت وسمى الموت يقينا لانه أمر متيقن وهذا مثل قوله تعالى في سورة مريم

وأوصاني

جن تغليبا للعقلاء (قوله ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون) قال هنا وفي الروم بالفاء اه باظهار القول اى قل لهم تمتعوا كما في قوله قل تمتعوا

وأوصاني بالصلوة والزكوة مادمت حيا وروى البغوي بسنده عن ابن جبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله الى أن اجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى الى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (فان قيل) اى فائدة لهذا التوقيت مع أن كل أحد يعلم أنه اذا مات سقطت عنه العبادات (أجيب) بان المراد منه واعبد ربك في جميع زمان حياتك فلا تخل لحظة من لحظات الدنيا بهذه العبادات وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى هذا الذي نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراها أو قال شريت له بمائتي درهم فدعاه حب الله وحب رسوله الى ماترون رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحجر كان له من الاجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والانصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم حديثه موضوع

سورة النحل مكية

الاقوله تعالى وان عاقبتم الى آخر السورة وحكى الاصم عن بعضهم أنها كلها مدنية وقال آخرون من أولها الى قوله كن فيكون مدني وما سواه مكي وعن قتادة بالعكس وتسمى سورة النعم والمقصود من هذه السورة الدلالة على انه تعالى تام القدرة والعلم فاعل بالاختيار منزه عن شوائب النقص وأدل ما فيها على هذا المعنى أمر النحل لما ذكر من شأنها في دقة الفهم في ترتيب بيوتها ورعيها وسائر أمرها من اختلاف ألوان ما يخرج منها من أعسالها وجعله شفاء مع أكلها من الثمار النافعة والضارة وغير ذلك من الامور وروحها بالنعم واضح وهي مائة وثمانية وعشرون آية وألفان وثمانمائة وأربعون كلمة وعدد حروفها سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف (بسم الله) اى المحيط بدائرة الكمال فما شاء فعل (الرحمن) اى الذي عمت نعمته بجليل خلقه وحقيره وصغيره وكبيره (الرحيم) اى الذي خص من شاء بنعمة النجاة عما يسخطه بما يرضاه وقوله تعالى (أتى أمر الله) فيه وجهان أحدهما أنه ماض لفظا مستقبل معنى اذ المراد به يوم القيامة وانما أبرزه في صورة ما وقع وانقضى تحقيقا له ولصدق المخبر به والثاني أنه على بابه والمراد مقدماته وأوائله وهو نصر رسوله صلى الله عليه وسلم أي جاء أمر الله ودنا وقرب فانه يقال في الكلام المعتاد انه قد أتى ووقع اجراء لما يجب وقوعه مجرى الواقع يقال لمن طلب الاعانة وقرب حصولها جاءك الغوث اى أتى امر الله وعدا (فلا تستعجلوه) وقوعا قبل مجيئه فانه واقع لا محالة روى أنه صلى الله عليه وسلم قال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار باصبعيه السبابة والوسطى قال ابن عباس كان مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من اشراط الساعة ولما مر جبريل باهل السموات مبعوثا الى النبي صلى الله عليه وسلم قالوا الله أكبر قامت الساعة وروى أنه لما نزلت اقتربت الساعة قال الكفار بعضهم لبعض ان هذا أي محمدا صلى الله عليه وسلم يزعم ان القيامة قد اقتربت فامسكوا عن

فان مصيركم الى النار وقوله قل تمتع بكفرك قليلا وقال في العنكبوت وليتمتعوا فسوف يعلمون باللام والياء على القياس اذ هو معطوف على اللام

بعض ما تقولون حتى تنظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا ما نرى شيأ فنزل اقترب للناس حسابهم فاشفقوا وانتظروا فلما امتدت الايام قالوا يا محمد ما نرى شيأ مما تخوفنا به فنزل أتى أمر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم وظنوا انها قد أتت حقيقة فنزل فلا تستعجلوه فاطمأنوا فلما كان الكفار قالوا سلنا لك يا محمد الا أنا نعبد هذه الاصنام لتشفع لنا عند الله تعالى فتخلصنا من هذا العذاب المحكوم به فاجابهم الله تعالى بقوله تعالى (سبحانه) أي تنزيها له (وتعالى عما يشركون) اي تبرأ سبحانه وتعالى بالاوصاف الحميدة عن أن يكون له شريك في ملكه وقرأ حمزة والكسائي أتى بالامالة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقرأ حمزة والكسائي عما تشركون في الموضعين بالتاء على وفق قوله فلا تستعجلوه والباقون بالياء على الغيبة على تلوين الخطاب أو على ان الخطاب للمؤمنين أولهم ولغيرهم ● ولما أجاب سبحانه وتعالى الكفار عن شبهتهم بقوله تنزيها لنفسه عما يشركون وكان الكفار قالوا هب ان الله تعالى قضى على بعض عبيده بالشر وعلى آخرين بالخير ولكن كيف يمكنك أن تعرف هذه الامور التي لا يعلمها الا الله تعالى وكيف صرت بحيث تعرف أسرار الله تعالى وأحكامه في ملكه وملكوته فاجابهم الله تعالى بقوله (ينزل الملائكة) قال ابن عباس يريد بالملائكة جبريل وحده قال الواحدي يسمى الواحد بالجمع اذا كان ذلك الواحد رئيسا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الزاي والباقون بتشديدها والمراد (بالروح) الوحي أو القرآن فان القلوب تحيا به من موت الجهالات وقوله تعالى (من أمره) اي بارادته حال من الروح (على من يشاء من عباده) وهم الانبياء (أن أنذروا) اي خوفوا الكافرين بالعذاب وأعلموهم (أنه) اي الشان (لا اله الا أنا) اي لا اله غيري وقوله تعالى (فاتقون) اي خافوني رجوع الى مخاطبتهم بما هو المقصود ● (تنبيه) ● في قوله تعالى ان أنذروا ثلاثة أوجه أحدها انها المفسرة لان الوحي فيه ضرب من القول والانزال بالروح عبارة عن الوحي قال تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا الثاني أنها المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشان محذوف الثالث أنها المصدرية التي من شأنها نصب المضارع ووصلت بالامر كقولهم كتبت اليه بأن قم والآية تدل على أن نزول الوحي بواسطة الملائكة وان النبوة عطاء ● ولما وحد سبحانه وتعالى نفسه ذكر الآيات الدالة على وحدانيته من حيث انها تدل على أنه تعالى هو الموجد لاصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة بقوله تعالى (خلق السموات) اي التي هي السقف المظال (والارض) اي التي هي البساط المقل (بالحق) أي اوجدهما على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصصها بحكمته (تعالى) اي تعالى بالغات الوصف (عما يشركون) به من الاصنام ● ولما كان خلق السموات والارض غيبا تقدمه وكان خلق الانسان على هذه الصفة شهادة فتكون أقوى في الدلالة على وحدانيته تعالى قال تعالى (خلق الانسان) اي هذا النوع (من نطفة) اي آدم عليه السلام من مطلق الماء ومن تفرع منه بعد زوجه حواء من ماء مقيد بالدفق الى أن صيره قويا شديدا (فاذا هو خصيم) اي شديد الخصومة (مبين) اي بينها روى ان أبي

ابن

ومدخولها في قوله ليكفروا بما آتيناهم ومدخولها غائب (قوله ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها) اي على الارض من دابة قال لذلك هنا وقال في فاطر

ابن خلف الجمحي وكان ينكر البعث جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال تزعم يا محمد ان الله يحيي هذا العظم بعد ما قد رم فنزلت هذه الآية ونزل فيه أيضا قوله تعالى قال من يحيي العظام وهي رميم قال الخازن في تفسيره والصحيح ان الآية عامة في كل ما يقع فيه الخصومة في الدنيا ويوم القيامة وحملها على العموم أولى * ولما كان أشرف الاجسام الموجودة في العالم السفلي بعد الانسان سائر الحيوانات وأشرفها الانعام ذكرها بقوله تعالى (والانعام) اى الازواج الثمانية الضأن والمعز والابل والبقر ونصبه بفعل يفسره (خلقها) قال الواحدي تم الكلام عند قوله والانعام خلقها ثم ابتدأ فقال (لكم فيها دفء) اى ما يدفأ به من اللباس والاكسية ونحوها المتخذة من الاصواف والاوبار والاشعار قال ويجوز أيضا ان يكون تمام الكلام عند قوله والانعام خلقها لكم ثم ابتدأ فقال تعالى فيها دفء * قال الرازي قال صاحب النظم واحسن الوجهين ان يكون الوقف عند قوله تعالى خلقها والدليل عليه أنه عطف عليه ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال * ولما ذكر تعالى الانعام ذكر انها أنواعا من المنافع الاول قوله تعالى لكم فيها دفء النوع الثاني قوله تعالى (ومنافع) اى ولكم فيها منافع من نسلها ودرها وركوبها والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الانعام وانما عبر تعالى عن ذلك بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الاعم لان الدر والنسل قد ينتفع به في الاكل وقد ينتفع به في البيع بالنقود وقد ينتفع به بان يبدل بالثياب وسائر الضروريات فعبر عن جملة هذه الاقسام بلفظ المنافع ليتناول الكل النوع الثالث قوله تعالى (ومنها تأكلون) فان قيل تقديم الظرف يفيد الحصر لان تقديم الظرف مؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها (اجيب) بان الاكل من هذه الانعام هو الذي يعتمده الناس في معايشهم وأما الاكل من غيرها كالدجاج والبط والاوز وصيد البر والبحر فليس يعتد به في الاغلب وأكله يجري مجرى التفكه به فخرج ومنها تأكلون مخرج الغالب في الاكل من هذه الانعام (فان قيل) منفعة الاكل مقدمة على منفعة اللباس فلم قدمت منفعة اللباس عليه (أجيب) بان منفعة اللباس أكثر من منفعة الاكل فلهذا قدمت على منفعة الاكل (ولكم فيها جمال) اى زينة (حين تريحون) اى تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشي (وحين تسرحون) اى تخرجونها بالغداة الى المرعى فان الافنية تتزين بها في الوقتين ويجل أهلها في أعين الناظرين اليها (فان قيل) لم قدمت الاراحة على التسريح (أجيب) بان الجمال في الاراحة أظهر اذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ثم أوت الى الحظائر حاضرة لاهلها فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها الى المرعى فانها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع ثم تأخذ في التفرق والانتشار للمرعى في البرية فليس في التسريح تجمل كما في الاراحة النوع الرابع قوله تعالى (وتحمل أثقالكم) جمع ثقل وهو متاع المسافر (الى بلد) اى غير بلدكم أردتم السفر اليه (لم تكونوا بالغيه) اى غير واصلين اليه على غير الابل (الا بشق الانفس) اى الا بكلفة ومشقة والشق بكسر الشين نصف الشيء اى لم تكونوا بالغيه الا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها وقال ابن عباس يريد من مكة الى اليمن والى الشام والى مصر قال الواحدي والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير ابل لشق عليكم

بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ترك لفظ ظهرها هنا احترازا عن الجمع بين الظاءين في ظهرها وظلمهم بخلافه في فاطر اذ لم يذكر فيها بظلمهم (فان قلت)

وخص ابن عباس هذه البلاد لان متاجر أهل مكة كانت الى هذه البلاد (فان قيل) المراد من قوله تعالى والانعام خلقها لكم الابل فقط بدليل أنه وصفها في آخر الآية بقوله وتحمل أثقالكم الى بلد وهذا الوصف لا يليق الا بالابل (أجيب) بان المقصود من هذه الآيات تعديد منافع الانعام فبعض تلك المنافع حاصل في الكل وبعضها مختص بالبعض والدليل عليه أن قوله ولكم فيها جمال حاصل في البقر والغنم مثل حصوله في الابل *(تنبيه)* احتج منكرو كرامات الاولياء بهذه الآية فانها تدل على أن الانسان لا يمكنه الانتقال من بلد الى بلد الا بشق الانفس وحمل الاثقال على الابل ومثبتو الكرامات يقولون ان الاولياء قد ينتقلون من بلد الى بلد آخر بعيد في ليلة واحدة من غير تعب وتحمل مشقة وكان ذلك على خلاف هذه الآية فيكون باطلا واذا بطل القول بالكرامات في هذه الصورة بطل القول بها في سائر الصور اذ لا قائل بالفرق وأجاب المثبتون بانا نخصص عموم هذه الآية بالادلة الدالة على وقوع الكرامات (ان ربكم) أي الموجد لكم والمحسن اليكم (لرؤف) أي بليغ الرحمة لمن يتوسل اليه بما يرضيه وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي بقصر الهمزة والباقون بالمد (رحيم) أي بليغ الرحمة بسبب وبغير سبب وقوله تعالى (والخيل) أي الصاهلة وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه كالابل والرهط (والبغال) أي المتولدة بينها وبين الحمير (والحمير) أي الناهقة عطف على الانعام أي وخلق هذه الحيوانات (لتركبوها) أي لاجل ان تركبوها وفي نصب قوله تعالى (وزينة) أوجه أحدها انه مفعول من أجله وانما وصل الفعل الى الاول باللام في قوله تعالى لتركبوها والى هذا بنفسه لاختلاف شرطه في الاول وهو عدم اتحاد الفاعل فان الخالق هو الله تعالى والراكب المخاطبون بخلاف الثاني الثاني انها منصوبة على الحال وصاحب الحال اما مفعول خلقها واما مفعول لتركبوها فهو مصدر أقيم مقام الحال الثالث أن ينتصب بتقدير فعل قدره الزمخشري بقوله وخلقها زينة وقدره ابن عطية وغيره بقولهم وجعلها زينة الرابع أنها مصدر لفعل محذوف أي وتتزينون بها زينة *(تنبيه)* احتج القائلون وهم ابن عباس والحاكم وأبو حنيفة ومالك بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية قالوا منفعة الاكل أعظم من منفعة الركوب فلو كان أكل لحم الخيل جائزا لكان هذا المعنى أولى بالذكر وحيث لم يذكره تعالى علمنا أنه يحرم أكله لان الله تعالى خص الانعام بالاكل حيث قال تعالى ومنها تأكلون وخص هذه بالركوب فقال لتركبوها فعلمنا انها مخلوقة للركوب لا للاكل واحتج القائلون باباحة أكل اللحم من الخيل وهم سعيد بن جبير وعطاء وشريح والحسن والشافعي بما روي عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة وبما روي عن جابر رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية وأذن في الخيل وفي رواية أكلنا زمن خيبر الخيل وحمر الوحش ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحمار الاهلي هذه رواية البخاري ومسلم وفي رواية أبي داود قال ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد أصابتنا مخمصة فنهانا النبي صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل وأجابوا عن هذه الآية بان ذكر الركوب والزينة لا يدل على أن منفعتها مختصة بذلك

الآية تقتضي مؤاخذة
الورى بظلم الظالم وذلك
لا يحسن من الحكيم
(قلت) المراد بالظلم هنا
الكفر وبالدابة الدابة
الظالمة وهي الكافرة

والها

وانما خص هاتين المنفعتين بالذكر لانهما معظم المقصود ولهذا سكت عن حمل الاثقال على الخيل مع قوله تعالى فى الانعام وتحمل أثقالكم ولم يلزم من ذلك تحريم حمل الاثقال على الخيل وقال الواحدى لو دلت هذه الآية على تحريم أكل هذا الحيوان لكان تحريم أكلها معلوما فى مكة لاجل ان هذه السورة مكية ولو كان الامر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين ان لحوم الحمر الاهلية حرمت عام خيبر اى وذلك فى المدينة باطلا لان التحريم لما كان حاصلا قبل هذا اليوم لم يكن لتخصيص هذا التحريم بهذه السنة فائدة قال الرازى وهذا جواب حسن متين وقال ابن الخازن والدليل الصحيح المعتمد عليه فى اباحة لحوم الخيل ان السنة مبينة للكتاب ولما كان نص الآية يقتضى ان الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الاكل مسكوتا عنه ودار الامر فيه على الاباحة والتحريم فوردت السنة باباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير أخذنا به جمعا بين النصين * ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الانواع من الحيوان ذكر باقيها على سبيل الاجمال بقوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) وذلك لان أنواعها وأصنافها وأقسامها كثيرة خارجة عن الحد والاحصاء ولو خاض الانسان فى شرح عجائب أحوالها لكان المذكور بعد كتبه المجلدات الكثيرة كالقطرة فى البحر فكان أحسن الاحوال ذكرها على سبيل الاجمال كما ذكر الله تعالى فى هذه الآية وروى عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس انه قال ان عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار السبعة يدخل فيه جبريل كل يوم ويغتسل فيزداد نورا الى نوره وجمالا الى جماله ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل نفضة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل كل يوم منهم سبعون ألفا البيت المعمور وفى الكعبة أيضا سبعون ألفا لا يعودون اليه الى ان تقوم الساعة سبحان من له هذا الملك العظيم قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وفسر قتادة الآية بالسوس فى النبات والدود فى الفواكه وفسرها بعضهم بما أعد الله تعالى لاهل الجنة فى الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر * ولما شرح الله تعالى دلائل التوحيد قال تعالى (وعلى الله) اى الذى له الاحاطة بكل شئ (قصد السبيل) اى بيان الطريق المستقيم انما ذكرت هذه الدلائل وشرحها ازاحة للعذر وازالة للعلة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة والمراد بالسبيل الجنس ولذا أضاف اليها القصد وقال (ومنها) اى السبيل (جائر) اى حائد عن الاستقامة (فان قيل) هذه الآية تدل على ان الله تعالى يجب عليه الارشاد والهداية الى الدين وازاحة العلل والاعذار كما قال به المعتزلة لانه تعالى قال وعلى الله قصد السبيل وكلمة على للوجوب قال تعالى ولله على الناس حج البيت (أجيب) بان المراد على الله تعالى بحسب الفضل والكرم أن يبين الدين الحق والمذهب الصحيح (فان قيل) لم غير أسلوب الكلام حيث قال فى الاول وعلى الله قصد السبيل وفى الثانى ومنها جائر دون وعليه جائر (أجيب) بان المقصود بيان سبله وتقسيم السبيل الى القصد والجائر انما جاء بالعرض ثم قال تعالى (ولو شاء) هدايتكم (لهداكم) الى قصد السبيل (أجمعين) فتهتدون اليه باختيار منكم قال الرازى وهذا يدل على ان الله تعالى ما شاء هداية الكفار وما أراد منهم الايمان لان كلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره * ولما ذكر تعالى نعمه على

كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما (قوله فاحيا به الارض بعد موتها) فاللام هنا بمعنى من لعدم ذكرها قبله وليوافق حذفها بعده من قوله لكيلا يعلم بعد علم شيئا

عباده بخلق الحيوانات لأجل الانتفاع والزينة عقبه بذكر انزال المطر لأنه من أعظم النعم على عباده فقال (هو) أي لا غيره مما تدعى فيه الالهية (الذي أنزل) أي بقدرته الباهرة (من السماء) اما من نفسها أو من غيرها أو من جهتها أو من السحاب كما هو مشاهد (ماء) أي واحدا تحسونه بالذوق والبصر (لكم منه) أي من ذلك الماء (شراب) أي تشربونه وقد بين تعالى في آية أخرى ان هذه النعمة جليلة فقال وجعلنا من الماء كل شيء حي (فان قيل) ظاهر هذا ان شرابنا ليس الا من المطر (أجيب) بأنه تعالى لم ينف أن يشرب من غيره وبتقدير الحصر لا يمتنع ان يكون الماء العذب تحت الارض من جملة ماء المطر سكن هناك بدليل قوله في سورة المؤمنون وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الارض (ومنه) أي من الماء (شجر) أي ينبت بسببه والشجر هنا كل نبات من الارض حتى الكلأ وفي الحديث لا تأكلوا ثمن الشجر فانه سحت يعني الكلأ (فان قيل) قال المفسرون في قوله تعالى والنجم والشجر يسجدان المراد من النجم ما ينجم من الارض مما ليس له ساق ومن الشجر ما له ساق (أجيب) بأن عطف الجنس على النوع وبالضد مشهور وأيضا فلفظ الشجر يشعر بالاختلاط يقال تشاجر القوم اذا اختلط أصوات بعضهم ببعض وتشاجرت الرياح اذا اختلطت وقال تعالى حتى يحكموك فيما شجر بينهم ومعنى الاختلاط حاصل في العشب والكلأ فوجب اطلاق لفظ الشجر عليه ويصح ان يكون المراد بالشجر هنا ما له ساق لان الابل تقدر على رعي ورق الاشجار الكبار وحينئذ فاطلاق الشجر على الكلأ مجاز (فيه) أي الشجر (تسيمون) أي ترعون مواشيكم يقال أسمت الماشية اذا خليتها ترعى وسامت هي اذا رعت حيث شاءت قال الزجاج أخذ ذلك من السومة وهي العلامة لانها تؤثر في الارض برعيها علامات وقال غيره لانها تعلم للارسال في المرعى ولما ذكر تعالى الحيوانات تفصيلا واجمالا ذكر الثمار تفصيلا واجمالا بقوله تعالى (ينبت) أي الله (لكم به) أي بذلك الماء (الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات) فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذي يقتات به كالحنطة والشعير والارز لان به قوام البدن وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الادم والدهن والبركة فيه وثلث بذكر النخيل لان ثمرها غذاء وفاكهة وختم بذكر الاعناب لانه شبيه النخيل في المنفعة من التفكه والتغذية ثم ذكر تعالى سائر الثمار اجمالا لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده لان الحبة الواحدة تقع في الطين فاذا مضى عليها مقدار معين من الوقت نفذ في داخل تلك الحبة أجزاء من رطوبة الارض ونداوتها فتنتفخ الحبة فينشق أعلاها وأسفلها فيخرج من أعلى تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الارض الى الهواء ومن أسفلها شجرة أخرى غائصة في قعر الارض وهذه الغائصة هي المسماة بعروق الشجرة ثم ان تلك الشجرة لا تزال تزداد وتنمو وتقوى ثم تخرج منها الاوراق والازهار والاكمام والثمار ثم ان تلك الثمار تشتمل على أجسام مختلفة الطبائع مثل العنب فان قشره وعجمه باردان يابسان كثيفان ولحمه وماؤه حاران رطبان لطيفان والى ذلك الاشارة بقوله تعالى (ان في ذلك لآية) بينة على ان فاعل ذلك تام القدرة يقدر على الاعادة وانه مختار يفعل ذلك في الوقت الذي يريده وانما تحصل معرفة ذلك (لقوم يتفكرون) فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته فيؤمنون ثم ذكر سبحانه وتعالى

وقاله في العنكبوت بإثباتها
ليوافق التعبير بمن في قوله
قبل ولئن سألتهم من نزل
من السماء ماء وأثبتها
في قوله في الحج لكيلا يعلم
من بعد علم شيئا ليوافق
التعبير بالبعد في قوله

أشياء تدل على أنه الفاعل المختار بقوله تعالى (وسخر لكم) أي أيها الناس لإصلاح أحوالكم (الليل) للسكون (والنهار) للمعاش ثم ذكر آية النهار فقال (والشمس) أي لمنافع اختصاصها ثم آية الليل فقال (والقمر) لأمور علقها به (والنجوم) أي الآيات أصبح الها ثم نبه على تغيرها بقوله تعالى (مسخرات) أي بأنواع التغير لما خلقها الله على أوضاع دبرها (بأمره) أي بإرادته سببا لصلاحكم وصلاح ما به قوامكم دلالة على وحدانيته تعالى وفعله تعالى بالاختيار ولو شاء تعالى لأقام أسبابا غيرها أو أغنى عن الأسباب وقرأ ابن عامر برفع الأربع وهي الشمس والقمر والنجوم ومسخرات على الابتداء والخبر ووافقه حفص في الاثنين الأخيرين والنجوم مسخرات لا غير والباقون بالنصب عطفا على ما قبله في الثلاثة الأول وفي الرابع وهو مسخرات على الحال ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الأشياء وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم ذلك بقوله (إن في ذلك) أي التسخير العظيم (لآيات) أي دلالات متعددة كثيرة عظيمة (لقوم يعقلون) أي يتدبرون فيعلمون أن جميع الخلق تحت قدره وقدرته وتسخيره لما أراده منهم وقوله تعالى (وما ذرأ) أي خلق (لكم في الأرض) عطف على الليل أي وسخر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات وقيل إنه في موضع نصب بفعل محذوف أي وخلق هكذا قدره أبو البقاء وكأنه استبعد تسلط سخر على ذلك فقدره لائقا وقوله تعالى (مختلفا) حال منه وقوله تعالى (ألوانه) أي في الخلقة والهيئة والكيفية فاعل به (إن في ذلك لآية لقوم يذكرون) أي يتعظون * (تنبيه) * ختم تعالى الآية الأولى بالتفكر لأن ما فيها يحتاج إلى تأمل ونظر وختم الثانية بالعقل لأن مدار ما تقدم عليه وختم الثالثة بالتذكر لأنه نتيجة ما تقدم وجمع الآيات في الثانية دون الأولى والثالثة لأن ما نيط بها أكثر ولذلك ذكر معها العقل ولما استدل سبحانه وتعالى على إثبات الإله أولا بأجرام السموات والأرض وثانيا ببدن الإنسان وثالثا بعجائب خلقة الحيوان ورابعا بعجائب النبات ذكر خامسا عجائب العناصر وبدأ بالاستدلال بعنصر الماء بقوله تعالى (وهو) أي لا غيره وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بضمها (الذي سخر البحر) أي ذلله وهيأه لعيش ما فيه من الحيوان وتكون الجواهر وغير ذلك قال علماء الهيئة ثلاثة أرباع كرة الأرض غائصة في الماء فذلك هو البحر المحيط وجعل في هذا الربع المسكون سبعة أبحر قال تعالى والبحر يمده من بعده سبعة أبحر والبحر الذي سخره الله تعالى للناس هو هذه البحار فتسخيرها الخلق ما مر ومنه جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها بالركوب وبالغوص وبغير ذلك فمنافع البحار كثيرة وذكر سبحانه وتعالى منها هنا ثلاثة منافع * الأولى قوله تعالى (لتأكلوا منه) أي بالاصطياد وغيره من لحوم الأسماك (لحما طريا) لا تجدون منه ولا ألين وهو أرطب اللحوم فيسرع إليه الفساد فيبادر إلى أكله عذبا في ذلك دلالة على كمال قدرته تعالى وذلك أن السمك لو كان كله مالحا لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري لأنه لما خرج من البحر الملح الزعاق الطري في غاية العذوبة علم أنه بخلق الله وقدرته لا بحسب الطبع وعلم بذلك أن الله تعالى قادر على إخراج الضد من الضد * المنفعة الثانية قوله تعالى (وتستخرجوا منه) أي بجهدكم في الغوص وما يشبهه (حلية) أي اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما اللؤلؤ

خلقناكم من تراب ثم من نطفة الآية (قوله نسقيكم مما في بطونه) قال هنا بإفراد الضمير مذكرا وفي المؤمنين بطونها بجمعه وتأنيثا نظرا هنا إلى أن الأنعام مفرد كما نقله الزمخشري عن سيبويه

والمرجان (تلبسونها) اى نساؤكم ومن بعضكم فكأن اللابس أنتم ولان زينة النساء بالحلى
انما هو لاجل الرجال فكان ذلك زينة لهم * المنفعة الثالثة قوله تعالى (وترى الفلك) اى السفن
(مواخر) اى تمخر الماء اى تشقه بجريها (فيه) اى مقبلة ومدبرة وذلك أنك ترى سفينتين
احداهما تقبل والاخرى تدبر بريح واحدة وقال مجاهد تمخر الريح السفن يعنى أنها اذا جرت
يسمع لها صوت وقال الحسن مواخر يعنى مملوأة متاعا وقوله تعالى (ولتبتغوا) اى لتطلبوا
عطف على لتأكلوا وما بينهما اعتراض وقيل عطف على محذوف تقديره لتنتفعوا بذلك
ولتبتغوا (من فضله) اى من سعة رزقه بركوبها للتجارة وللوصول الى البلدان الشاسعة
(ولعلكم تشكرون) الله على هذه النعم التى أنتم عاجزون عنها ولا تحصونها * ثم انه تعالى ذكر
بعض النعم التى خلقها الله تعالى فى الارض بقوله تعالى (وألقى فى الارض رواسى) أى جبالا
ثوابت (أن تميد) اى كراهة ان تميل وتضطرب (بكم) وقيل لئلا تميل بكم والاول قدره
البصريون والثانى قدره الكوفيون وقد تقدم مثل ذلك فى قوله تعالى يبين الله لكم ان تضلوا
روى ان الله تعالى خلق الارض فجعلت تمور فقالت الملائكة ما هى بمقر أحد على ظهرها
فاصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت وقوله تعالى (وأنهارا) عطف على
رواسى لان الالقاء بمعنى الخلق والجعل ألا ترى أنه تعالى قال فى آية أخرى وجعل فيها رواسى
من فوقها وقال تعالى وألقيت عليك محبة منى وذكر تعالى الانهار بعد الجبال لان
معظم عيون الانهار وأصولها تكون من الجبال (و) جعل لكم فيها (سبلا) اى طرقا
مختلفة تسلكون فيها فى أسفاركم والتردد فى حوائجكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان
(لعلكم تهتدون) اى بتلك السبل الى مقاصدكم والى معرفة الله تعالى فلا تضلون
(و) جعل لكم فيها (علامات) اى من الجبال وغيرها جمع علامة تهتدون بها فى أسفاركم * ولما
كانت الدلالة بالنجم أنفع الدلالات وأوضحها برا وبحرا ليلا ونهارا نبه على عظمها بالالتفات
الى مقام الغيبة لافهام العموم لئلا يظن ان المخاطب مخصوص والامر لا يتعداه فقال تعالى
(وبالنجم) اى الجنس (هم) اى أهل الارض كلهم وأولى الناس بذلك المخاطبون وهم قريش
ثم العرب كلها لفرط معرفتهم بالنجوم (يهتدون) وقدم الجار تنبيها على أن الدلالة بغيره بالنسبة
اليه سافلة وقيل المراد بالنجم الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدى وقيل الضمير لقريش
لانهم كانوا كثيرى الاسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء فى مسايرهم بالنجوم * ولما ذكر سبحانه
وتعالى من عجائب قدرته وبديع خلقه ما ذكر على الترتيب الاحسن والنظم الاكمل وكانت هذه
الاشياء المخلوقة المذكورة فى الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة الله ووحدانيته وأنه
تعالى المنفرد بخلقها جميعها قال على سبيل الانكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة هذه
الاصنام العاجزة التى لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شئ (أفمن يخلق) أى هذه الاشياء الموجودة
وغيرها (كمن لا يخلق) شيأ من ذلك بل على ايجاد شئ ما فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل
بعبادة من لا يستحق العبادة وترك عبادة من يستحقها وهو الله تعالى (فان قيل) ذلك الزام
للذين عبدوا الاوثان وسموها آلهة تشبيها بالله فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق فكان حق
الالزام أن يقال أفمن لا يخلق كمن يخلق (أجيب) بانهم لما جعلوا غير الله مثل الله تعالى

وثم الثانى انه جمع كما هو الشائع
(قوله والله جعل لكم من
أنفسكم أزواجا) اى من
جنسكم كما قال الله تعالى
لقد جاءكم رسول من
أنفسكم (قوله وبنعمة الله
هم يكفرون) ظاهره ان زيادة

في تسميته باسمه والعبادة له وسووا بينه وبينه فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبهوها بها فانكر عليهم ذلك بقوله تعالى افمن يخلق كمن لا يخلق (فان قيل) من لا يخلق ان اريد به جميع ما عبد من دون الله كان ورود من واضحا لان العاقل يغلب على غيره فيعبر عن الجميع بمن ولو جيء ايضا بما جاز وان اريد به الاصنام فلم جيء بمن الذي هو لاولي العلم (اجيب) بانهم سموها آلهة وعبدوها فاجروها مجرى اولي العلم الا ترى الى قوله تعالى على اثره والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيأ وهم يخلقون والى قول الشاعر

بكيت الى سرب القطا اذ مررن بي * فقلت ومثلي بالبكاء جدير
اسرب القطا هل من يعير جناحه * لعلي الى من قد هويت اطير

فاوقع من على سرب لما عامله معاملة العقلاء وقيل للمشاكلة بينه وبين ما يخلق وقيل المعنى ان من يخلق ليس كمن لا يخلق من اولي العلم فكيف بما لا علم عنده كقوله تعالى ألهم أرجل يمشون بها يعني أن الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب لان هؤلاء أحياء وهم أموات فكيف تصح لهم العبادة لا انها لو صحت لهم هذه الاعضاء لصح أن يعبدوا ولما كان هذا القدر ظاهرا غير خاف على أحد فلا يحتاج فيه الى تدقيق الفكر والنظر بل بمجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل ختم تعالى ذلك بقوله تعالى (أفلا تذكرون) بما تشاهدونه من ذلك ولو من بعض الوجوه فتؤمنون *(تنبيه)* احتج أهل السنة بهذه الآية على أن العبد غير خالق لافعال نفسه لانه تعالى ميز نفسه عن الاشياء التي يعبدونها بصفة الخالقية لان الغرض من قوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق بيان تميزه عن هذه الاشياء بصفة الخالقية وانه انما استحق الالهية والعبودية لكونه تعالى خالقا وهذا يقتضي ان العبد لو كان خالقا لوجب كونه الها معبودا ولما كان ذلك باطلا علمنا ان العبد لا يقدر على الخلق والايجاد ولما كانت المقدورات لا تحصى وأكثرها نعم على العباد ذكرتهم بخالقهم قال ممتنا عليهم باحسانه من غير سبب منهم (وان تعدوا) كلكم (نعمة الله) اي انعام الملك الاعظم الذي لا رب غيره عليكم من صحة البدن وعافية الجسم واعطاء النظر الصحيح والعقل السليم وبطش اليدين ومشي الرجلين الى غير ذلك مما أنعم به عليكم وما خلق لكم مما تحتاجون اليه من أمر الدنيا حتى لو رام أحدكم معرفة أدنى نعمة من هذه النعم لعجز عنها وعن معرفتها وحصرها فان تتبعها يفوت الحصر (لا تحصوها) أي لا تضبطوا اعدادها ولا تبلغه طاقتكم مع كفرها واعراضكم جملة عن شكرها والعبد وان أتعب نفسه في القيام بالطاعات والعبادات وبالغ في شكر نعم الله تعالى فانه يكون مقصرا لان نعم الله كثيرة وأقسامها عظيمة وعقل الخلق قاصر عن الاحاطة بمباديها فضلا عن غاياتها لكن الطريق الى ذلك أن يشكر الله تعالى على جميع نعمه مفصلها ومجملها (ان الله لغفور) أي لتقصيركم في القيام بشكر ما يحق النعمة كما يجب عليكم (رحيم) بكم فوسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصي وقوله تعالى (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) فيه وجهان الاول ان الكفار مع كفرهم كانوا يسرون أشياء وهو ما كانوا يمكرون بالنبي صلى الله عليه وسلم وما يعلنون اي وما يظهرون من

هم وفي العنكبوت بدونها لان ما هنا اتصل بقوله والله جعل لكم من انفسكم ازواجا الخ وهو بالخطاب ثم انتقل الى الغيبة فقال افبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم

أداه صلى الله عليه وسلم فاخبر الله تعالى بانه عالم بكل أحوالهم سرها وعلانيتها لا يخفى عليه خافية وان دقت وخفيت والوجه الثانى أنه تعالى لما ذكر الاصنام وذكر عجزها فى الآية المتقدمة ذكر فى هذه الآية ان الاله الذى يستحق العبادة يجب أن يكون عالما بكل المعلومات سرها وجهرها وهذه الاصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة * ثم وصف تعالى هذه الاصنام بصفات * الاولى مذكورة فى قوله تعالى (والذين تدعون) اى تعبدون (من دون الله) اى الاصنام وتعتقدون انها آلهة وقرأ عاصم بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (لا يخلقون شيأ وهم يخلقون) اى يصورون من الحجارة وغيرها (فان قيل) قوله تعالى فى الآية المتقدمة أفمن يخلق كمن لا يخلق يدل على أن هذه الاصنام لا تخلق شيأ وهم يخلقون وهذا هو المعنى المذكور فى تلك الآية المذكورة فما فائدة هذا التكرار (أجيب) بان فائدته أن المعنى المذكور فى الآية المتقدمة أنهم لا يخلقون شيأ فقط والمذكور فى هذه الآية أنهم لا يخلقون شيأ وهم يخلقون كغيرهم فكان هذا زيادة فى المعنى وهو فائدة التكرار فكانه تعالى بدأ بشرح نقصهم فى ذواتهم وصفاتهم فبين أولا أنها لا تخلق شيأ ثم بين ثانيا أنها كما لا تخلق غيرها فهى مخلوقة كغيرها * الصفة الثانية قوله تعالى (أموات) اى جمادات لا روح لها (غير أحياء) اذ الاله الذى يستحق أن يعبد هو الحى الذى لا يموت (فان قيل) علم من قوله أموات أنها غير أحياء فما الفائدة فى ذكره (أجيب) بان من الاموات ما يعقب موته حياة كالنطف التى ينشئها الله تعالى حيوانا واجساد الحيوانات التى تبعث بعد موتها وأما الحجارة فاموات لا يعقب موتها حياة وذلك أعرق فى موتها وقيل ذكر ثانيا كيدا بان الكلام مع الكفار الذين يعبدون الاوثان وهم فى نهاية الجهالة والضلالة ومن تكلم مع الجاهل الغبى فقد يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة وغرضه الاعلام بكون المخاطب فى غاية الغباوة فى أنه لا يفهم المعنى المقصود بالعبارة الواحدة * الصفة الثالثة قوله تعالى (وما يشعرون) أى الاصنام (أيان) اى وقت (يبعثون) اى وما تعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الاحياء تهكما بها لان شعور الجماد محال فكيف بشعور ما لا يعلمه حى الا الحى القيوم سبحانه وتعالى وقيل الضمير راجع للاصنام قال ابن عباس ان الله تعالى يبعث الاصنام لها أرواح ومعها شياطينها فيؤمر بالكل الى النار وقيل المراد بقوله تعالى والذين تدعون من دون الله الملائكة وكان ناس من الكفار يعبدونهم فقال الله تعالى انهم أموات اى لا بد لهم من الموت غير أحياء اى باقية حياتهم وما يشعرون اى لا علم لهم بوقت بعثهم * ولما زيف سبحانه وتعالى طريقة عبدة الاصنام وبين فساد مذهبهم قال تعالى (الهكم) اى أيها الخلق جميعا المعبود بحق (اله) اى متصف بالالهية على الاطلاق بالنسبة الى كل أوان وكل زمان وكل مكان (واحد) لا يقبل التعدد الذى هو مثار النقص بوجه من الوجوه لان التعدد يستلزم امكان التمانع المستلزم للعجز المستلزم للبعد عن رتبة الالهية (فالذين) اى فتسبب عن هذا أن الذين (لا يؤمنون بالآخرة) اى دار الجزاء ومحل اظهار الحكم الذى هو ثمرة الملك والعدل الذى هو مدار العظمة (قلوبهم منكرة) اى جاحدة للوحدانية (وهم) اى والحال انهم بسبب انكار ذلك (مستكبرون) اى متكبرون عن الايمان بها (لا جرم) اى حقا (ان الله يعلم) علما غيبيا

يكفرون فلو ترك هم لالتبست الغيبة بالخطاب بان تبدل الياء تاء (قوله يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيأ ولا يستطيعون) غلب فيه من يعقل على من لا يعقل

وشاهديا (ما يسرون) اى ما يخفون مطلقا أو بالنسبة الى بعض الناس (وما يعلنون) اى يظهرون فيجازيهم بذلك * ولما كان فى ذلك معنى التهديد عال ذلك بقوله تعالى (انه) اى العالم بالسر والعلن (لا يحب المستكبرين) اى على خلقه فما بالك بالمستكبرين على التوحيد واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى عدم محبتهم انه يعاقبهم وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل يا رسول الله ان الرجل يحب ان يكون ثوبه حسنا قال ان الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمص الناس ومعنى بطر الحق أنه يستكبر عند سماع الحق فلا يقبله ومعنى غمص الناس استنقاصهم وازدراؤهم * ولما بالغ سبحانه وتعالى فى دلائل التوحيد وأورد الدلائل القاهرة فى ابطال مذاهب عبدة الاصنام قال تعالى عاطفا على قلوبهم منكرة (واذا قيل لهم) اى لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة وقوله تعالى (ما) استفهامية و(ذا) موصولة اى ما الذى (أنزل ربكم) على محمد صلى الله عليه وسلم واختلف فى قائل هذا القول فقيل كلام بعضهم لبعض وقيل قول المسلمين لهم وقيل قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سألهم وفود الحاج عما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم (قالوا) مكابرين فى انزال القرآن هو (أساطير) اى أكاذيب (الاولين) مع عجزهم بعد تحديهم عن معارضتهم أقصر سورة منه مع علمهم بانهم أفصح الناس وأنه لا يكون من احد من الناس متقدم أو متأخر قول الا قالوا أبلغ منه (فان قيل) هذا كلام متناقض لانه لا يكون منزلا من ربهم وأساطير (أجيب) بانهم قالوه على سبيل السخرية كقوله ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون واللام فى قوله تعالى (ليحملوا) لام العاقبة كما فى قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وذلك لما وصفوا القرآن بكونه أساطير الاولين كان عاقبتهم بذلك ان يحملوا (اوزارهم) اى ذنوب انفسهم وانما قال تعالى (كاملة) لئلا يتوهم انه يكفر عنهم شئ بسبب البلايا التى اصابتهم فى الدنيا وأعمال البر التى عملوها فى الدنيا بل يعاقبون بكل أوزارهم (يوم القيامة) الذى لا شك فيه ولا محيص عن اتيانه قال الرازى وهذا يدل على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا فى حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة (و) ليحملوا أيضا (من) جنس (أوزار) الجهلة الضعفاء (الذين يضلونهم) وقوله تعالى (بغير علم) حال من مفعول يضلونهم اى يضلون من يعلم أنهم ضلال أو من الفاعل وانما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وان لم يعلم لانه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين الحق والمبطل وانما حصل للرؤساء الذين أضلوا غيرهم وصدوهم عن الايمان مثل أوزار الاتباع لانهم دعوهم الى الضلال فاتبعوهم فاشتركوا فى الاثم وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيأ ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيأ أخرجه مسلم ومعنى الآية والحديث أن الرئيس والكبير اذا سن سنة حسنة أو سيئة قبيحة فتبعه عليها

اذ عبر بالواو والنون اذ من يعبد من يعقل كالعزيز والمسيح ومن لا يعقل كالاصنام وافرد يملك نظرا الى لفظ ما وجمع يستطيعون نظرا الى معناها كما قال وجعل لكم من الفلك

جماعة فعملوا بها فان الله تعالى يعطيهم ثوابه وعقابه حتى يكون ذلك الثواب والعقاب مساويا لكل ما يستحقه كل واحد من الاتباع الذين عملوا بالسنة الحسنة أو القبيحة وليس المراد بان الله يوصل جميع الثواب أو العقاب الذى يستحقه الاتباع الى الرؤساء ويدل لذلك قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى وقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى *(تنبيه)* قال الواحدى لفظة من فى قوله تعالى ومن اوزار ليست للتبعيض لانها لو كانت كذلك لنقص عن الاتباع بعض الاوزار وقد قال صلى الله عليه وسلم لا ينقص ذلك من آثامهم شيأ لكنها للجنس كما قدرت ذلك فى الآية الكريمة اى ليحملوا من جنس اوزار الاتباع وقيل انها للتبعيض وجرى عليه البيضاوى تبعا للزمخشرى (الاساء) اى بئس (ما يزرون) اى يحملون حملهم هذا وفى هذا وعيد وتهديد لهم (فان قيل) ان الله تعالى حكى هذه الشبهة عن القوم ولم يجب عنها بل اقتصر على محض الوعيد فما السبب فى ذلك (اجيب) بان السبب فيه انه تعالى بين كون القرآن معجزا بطريقين الاول انه صلى الله عليه وسلم تحداهم اولا بكل القرآن وثانيا بعشر سور وثالثا بسورة فعجزوا عن المعارضة وذلك يدل على كونه معجزا الثانى انه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها فى آية اخرى وهى قوله تعالى اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا وابطلها بقوله تعالى قل انزله الذى يعلم السر فى السموات والارض ومعناه ان القرآن يشتمل على الاخبار بالغيوب وذلك لا يتأتى الا ممن يكون عالما باسرار السموات والارض *ولما ثبت كون القرآن معجزا بهذين الطريقين وتكرر شرح هذين الطريقين مرارا كثيرة لاجرم اقتصر فى هذه الآية على مجرد الوعيد ولم يذكر ما يجرى مجرى الجواب عن هذه الشبهة ثم انه سبحانه وتعالى بالغ فى وصف وعيد هؤلاء الكفار بقوله تعالى (قد مكر الذين من قبلهم) اى ممن رأوا آثارهم ودخلوا فى ديارهم (فاتى الله) أى أمره (بنيانهم من القواعد) أى من جهة العمد التى بنوا عليها مكرهم (فخر) أى سقط (عليهم السقف من فوقهم) وصار سبب هلاكهم وقرأ ابو عمرو فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم واما الوقف فحمزة بضم الهاء على اصله والباقون بالكسر (وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) اى من جهة لا يخطر ببالهم وهذا على سبيل التمثيل اى التشبيه والتخييل لافساد ما أبرموه من المكر بالرسل فجعل الله هلاكهم فيما أبرموه كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فاتى البنيان من الاساطين بان تضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا ونحوه من حفر لاخيه جبا وقع فيه منكبا وقيل هو نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح ببابل ليصعد الى السماء قال ابن عباس كان طول الصرح فى السماء خمسة آلاف ذراع وقال كعب كان طوله فرسخين فاهب الله تعالى الريح فالقت رأسه فى البحر وخر عليهم الباقى وهم تحته قال البغوى ولما سقط الصرح تبلبلت السن الناس يومئذ من الفزع فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية فذلك قوله تعالى فاتى الله بنيانهم من القواعد اى أتى امره فضرب بنيانهم من أصله فخر عليه وعلى قومه السقف اى أعلى البيوت من فوقهم فهلكوا *(تنبيه)* قال ابن الخازن فى قول البغوى وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية نظر لان صالحا عليه السلام كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية وكان اهل

والانعام فما تركبون استووا على ظهوره وحيث افرد الضمير نظرا الى لفظ ما وجمع الظهور نظرا الى معناها (فان قلت) ما فائدة نفى استطاعة الرزق بعد نفى ملكه (قلت) ليس فى

اليمن مر بإسمعيل جرهم الذين نشأ إسمعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكان ببابل من العرب طائفة قديمة قبل إبراهيم عليه السلام انتهى وقد يقال إنه كان لسان أكثر الناس بالسريانية فلا ينافي ذلك (فإن قيل) ما فائدة قوله تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم والسقف من فوقهم (أجيب) بأنهم قد لا يكونون تحته فلما قال تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم دل على أنهم كانوا تحته وحينئذ يفيد هذا الكلام بأن الأبنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها * ولما ذكر الله تعالى حال أصحاب المكر في الدنيا ذكر حالهم في الآخرة بقوله عز وجل (ثم يوم القيامة يخزيهم) أي يذلهم ويهينهم بعذاب النار (ويقول) لهم الله تعالى على لسان الملائكة توبيخاً (أين شركائي) أي في زعمكم واعتقادكم (الذين كنتم تشاقون) أي تخالفون المؤمنين (فيهم) أي في شأنهم وقرأ نافع بكسر النون والباقون بفتحها (قال) أي يقول (الذين أوتوا العلم) أي من الأنبياء والمؤمنين وقال ابن عباس يريد الملائكة (إن الخزي) أي البلاء المذل (اليوم) أي يوم الفصل الذي يكون للفائز فيه العاقبة المأمونة (والسوء) أي كل ما يسوء (على الكافرين) أي العريقين في الكفر الذين تكبروا في غير موضع التكبر وفائدة قولهم إظهار الشماتة وزيادة الإهانة وحكايته لتكون لطفاً لمن سمعه *(تنبيه)* في الآية دلالة على أن ماهية الخزي وماهية السوء في يوم القيامة مختصة بالكافرين وهذا ينفي حصول هذه الماهية في حق غيرهم ويؤكده قول موسى عليه السلام إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ثم إنه تعالى وصف عذاب هؤلاء الكافرين من وجه آخر فقال سبحانه وتعالى (الذين تتوفاهم الملائكة) أي تقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه عليهم السلام وقرأ حمزة في هذه الآية وفي الآية الآتية بالياء في الموضعين على التذكير لأن الملائكة ذكور والباقون بالتاء على التأنيث لأن لفظ الجمع مؤنث (ظالمي أنفسهم) أي بأن عرضوها للعذاب المخلد بكفرهم (فألقوا السلم) أي استسلموا وانقادوا حين عاينوا الموت قائلين (ما كنا نعمل من سوء) أي شرك وعدوان فتقول لهم الملائكة (بلى) أي بل كنتم تعملون أعظم السوء ثم علل تكذيبهم بقوله تعالى (إن الله عليم بما كنتم تعملون) أي فلا فائدة لكم في إنكاركم فيجازيكم به ولما كان هذا الفعل مع العلم سبباً لدخول جهنم قال تعالى (فادخلوا) أي أيها الكفرة (أبواب جهنم) أي أبواب طبقاتها ودركاتها (خالدين) أي مقدرين الخلود (فيها) أي جهنم لا يخرجون منها وإنما قال تعالى ذلك لهم ليكون أعظم في الخزي والغم وفي ذلك دليل على أن الكفار بعضهم أشد عذاباً من بعض ثم قال تعالى (فلبئس مثوى) أي مأوى (المتكبرين) عن قبول التوحيد وسائر ما أتت به الرسل * ولما بين تعالى أحوال المكذبين ذكر أحوال المصدقين بقوله تعالى (وقيل للذين اتقوا) أي خافوا عقاب الله (ماذا) أي أي شيء (أنزل ربكم قالوا خيراً) أي أنزل خيراً وذلك أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا جاء سأل الذين قعدوا على الطرق عنه فيقولون ساحر شاعر كاهن كذاب مجنون ولو لم تلقه خير لك فيقول السائل أنا شر وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أدخل مكة وألقاه فيدخل مكة فيرى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيخبرونه بصدقه وأنه نبي مبعوث من الله تعالى فذلك قوله تعالى وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم

يستطيعون ضمير مفعول هو الرزق بل الاستطاعة منفية عنهم مطلقاً في الرزق وغيره وبتقدير أن فيه ضميراً لا يلزم من نفي الملك انتفاء استطاعته لجواز بقاء الاستطاعة

الآية (فان قيل) لم رفع الاول وهو قولهم أساطير الاولين ونصب الثانى وهو قولهم خيرا (أجيب) بانه ذكر ذلك للفصل بين جواب المقر وجواب الجاحد وذلك أنهم لما سألوا الكفار عن المنزل على النبى صلى الله عليه وسلم عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا أساطير الاولين وليس هو من الانزال فى شئ لانهم لم يعتقدوا كونه منزلا ولما سألوا المؤمنين عن المنزل على النبى صلى الله عليه وسلم لم يتلعثموا وطابقوا الجواب عن السؤال بينا مكشوفا مفعولا للانزال فقالوا خيرا أى أنزل خيرا وتم الكلام عند قوله خيرا فهو وقف تام ثم ابتدأ بقوله تعالى (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) أى حياة طيبة أو ان الذين أتوا بالاعمال الصالحات الحسنة لهم ثوابها حسنة مضاعفة من الواحدة الى العشرة الى السبعمائة الى أضعاف كثيرة أو انه تعالى بين أن اعترافهم بذلك الاحسان فى هذه الدنيا حسنة أى جزاؤهم على احسانهم هل جزاء الاحسان الا الاحسان ولما كانت هذه الدار سريعة الزوال أخبر عن حالهم فى الآخرة فقال (ولدار الآخرة) أى الجنة (خير) أى ما أعد الله لهم فى الجنة خير مما حصل لهم فى الدنيا ثم مدحها ومدحهم بقوله تعالى (ولنعم دار المتقين) أى دار الآخرة فحذف لتقدم ذكرها وقال الحسن هى الدنيا لان أهل التقوى يتزودون فيها للآخرة وقوله تعالى (جنات) أى بساتين (عدن) أى اقامة خبر مبتدا محذوف ويصح أن يكون المخصوص بالمدح (يدخلونها) أى تلك الجنات حالة كونها (تجرى من تحتها) أى من تحت غرفها (الانهار) ثم كأن سائلا سأل عما فيها من الثمار وغيرها فاجيب بان (لهم فيها ما يشاؤن) أى ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين مع زيادات غير ذلك فهذه الآية تدل على حصول كل الخيرات والسعادات فهى أبلغ من قوله تعالى وفيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين لان هذين القسمين داخلان فى قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن مع أقسام أخرى وعلى أن الانسان لا يجد كل ما يريده فى الدنيا لان قوله لهم فيها ما يشاؤن يفيد الحصر (كذلك) أى مثل هذا الجزاء العظيم (يجزى الله) أى الذى له الكمال كله (المتقين) أى الراسخين فى صفة التقوى ثم حث تعالى على ملازمة التقوى بالتنبيه على أن العبرة بحال الموت فقال (الذين تتوفاهم الملائكة) أى تقبض أرواحهم وقوله تعالى (طيبين) كلمة مختصرة جامعة للمعانى الكثيرة وذلك لانه يدخل فيه اتيانهم بكل ما أمروا به واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين بالاخلاق الفاضلة مبرئين عن الاخلاق المذمومة ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين الى حضرة القدس ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الارواح وانها لم تقبض الامع البشارة بالجنة حتى صاروا كأنهم مشتاقون لها ومن هذا حاله لا يتألم بالموت وأكثر المفسرين على أن هذا التوفى هو قبض الارواح كما مر وان كان الحسن يقول انه وفاة الحشر واستدل بقوله تعالى ادخلوا الجنة لانه لا يقال عند قبض الارواح فى الدنيا ادخلوا الجنة وأجاب الاكثرون بما سياتى وأدغم أبو عمرو التاء فى الطاء بخلاف عنه ثم بين تعالى ان الملائكة (يقولون) لهم عند الموت (سلام عليكم) فتسلم عليهم أو تبلغهم السلام من الله تعالى كما روى ان العبد المؤمن اذا أشرف على الموت جاءه ملك فقال السلام عليك يا ولى الله الله يقرأ عليك السلام ويبشرك بالجنة ويقال لهم فى الآخرة هذا جواب الاكثرين (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) أو انهم

على الكتاب الشغلاف هؤلاء فانهم لا يملكونه ولا يستطيعون ان يملكوا (قوله عبدا مملوكا لا يقدر على شيء) فانقد كره مملوكا بعد قوله عبدا الاحتراز عن

للبشر وهم بالجنة صارت الجنة كأنها دارهم وكأنهم فيها فيكون المراد بقولهم ادخلوا الجنة أي هي خاصة لكم كأنكم فيها • ولما طعن الكفار في القرآن بقولهم أساطير الأولين وذكر أنواع التهديد والوعيد ثم أتبعه بذكر الوعد لمن وصف القرآن بكونه خيرا عاد الى بيان أن أولئك الكفار لا ينزجرون عن كفرهم وأقوالهم الباطلة الا اذا جاءتهم الملائكة أو أتاهم أمر ربك فقال تعالى (هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة) لقبض أرواحهم وقرأ حمزة والكسائي بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وتقدم توجيه ذلك (أو يأتي أمر ربك) أي يوم القيامة وقيل العذاب وقيل انهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل الله تعالى ملكا من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة فقال تعالى هل ينظرون في التصديق بنبوتك الا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك وعلى كلا التقديرين فقد قال تعالى (كذلك) أي مثل ما (فعل) هؤلاء هذا الفعل البعيد الشنيع فعل (الذين من قبلهم) من الامم السالفة كذبوا رسلهم فأهلكوا (وما ظلمهم الله) باهلاكهم بغير ذنب (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بكفرهم وتكذيبهم للرسل فاستوجبوا ما نزل بهم (فأصابهم) أي فتسبب عن ظلمهم لأنفسهم أن أصابهم (سيئات) أي عقوبات أو جزاء سيئات (ما عملوا وحاق) أي نزل (بهم ما كانوا به يستهزؤن) تكبرا عن قبول الحق فحاق بهم جزاؤه والحيق لا يستعمل الا في الشر وقرأ حاق حمزة بالامالة والباقون بالفتح (وقال الذين أشركوا) للنبي صلى الله عليه وسلم استهزاء ومنعا للبعثة والتكليف (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا) لأنهم اعتقدوا أن كون الأمر كذلك يمنع من جواز بعثة الرسل وهو اعتقاد باطل فلذلك استحقوا عليه الذم والوعيد ثم قالوا الهم (ولا حرمنا من دونه من شيء) أي من السوائب والبحائر والحامي فهو راض به وبمشيئته وحينئذ فلا فائدة في مجيئك وفي ارسالك وهذا عين ما حكاه الله تعالى عنهم في سورة الأنعام في قوله تعالى سيقول الذين أشركوا لو شاء الله الآية قال الله تعالى (كذلك فعل الذين من قبلهم) أي من تقدم هؤلاء من الكفار من الامم الماضية كانوا على هذه الطريقة وهذا الفعل الخبيث فانكار بعثة الرسل كان قديما في الامم الخالية ففي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وكذا في قوله تعالى (فهل على الرسل الا البلاغ) أي الابلاغ (المبين) أي البين فليس عليهم هداية أحد انما عليهم تبليغ ما أرسلوا به الى من أرسلوا اليه • ثم بين تعالى أن البعثة أمر جرت به السنة الالهية في الامم كلها سببا لهدى من أراد اهتداءه وزيادة اضلال من أراد ضلاله كالغذاء الصالح فانه ينفع المزاج السوي ويقويه ويضر المزاج المنحرف ويفنيه بقوله تعالى (ولقد) أي والله لقد (بعثنا) أي بما لنا من العظمة التي من اعترض عليها قصم (في كل أمة) من الامم الذين من قبلكم (رسولا) أي كما بعثنا فيكم محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا (أن اعبدوا الله) أي الملك الأعلى وحده وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر النون في الوصل والباقون بالضم (واجتنبوا الطاغوت) أي الأوثان أن تعبدوها (فمنهم من هدى الله) أي وفقهم للايمان بارشاده (ومنهم من حقت) أي وجبت (عليه الضلالة) أي في علم الله تعالى فلم ينفعهم ولم يرد هداهم • (تنبيه) • في هذه الآية أبين دليل على أن

الحر فانه عبد لله تعالى وليس
مملوكا فالعبد مملوك لا يقدر
على شيء بقوله مملوكا
الاحتراز من المأذون له
والمكاتب لقدرتهما على
التصرف استقلالا (قوله
هل يستوون) • ان قلت

الهادي والمضل هو الله تعالى لانه المتصرف في عباده يهدي من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض لاحد عليه فيما حكم به لسابق علمه ثم التفت سبحانه وتعالى الى مخاطبتهم اشارة الى أنه لم يبق بعد هذا الدليل القطعي في نظر البصيرة الا الدليل المحسوس بالبصر فقال تعالى (فسيروا) اى فان كنتم أيها المخاطبون في شك من أخبار الرسل فسيروا (في الارض) اى جنسها (فانظروا) اى اذا سرتم ومررتم بديار المكذبين وآثارهم ثم أشار تعالى بالاستفهام الى أن أحوالهم مما يجب أن يسئل عنه للاتعاظ به فقال (كيف كان عاقبة) اى آخر امر (المكذبين) اى من عاد ومن بعدهم من الذين تلقيتم أخبارهم عمن قلدتموهم في الكفر من آبائكم لعلكم تعتبرون * ولما كان من المحقق انه ليس بعد الايصال في الاستدلال الى الامر المحسوس الا العناد أعرض عنهم ملتفتا الى الرؤف بهم الشفيق عليهم محمد صلى الله عليه وسلم فقال مسليا له (ان تحرص على هداهم) فتطلبه بغاية جهدك واجتهادك وقد اضلهم الله تعالى لا تقدر على ذلك ثم قال تعالى (فان الله لا يهدي من يضل) اى من يرد ضلاله وهو معنى من حقت عليه الضلالة وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح الياء وكسر الدال والباقون بضم الياء وفتح الدال على البناء للمفعول قال البيضاوي وهو أبلغ ثم قال تعالى (وما لهم) أى هؤلاء الذين أضلهم الله وجميع من يضله (من ناصرين) أى وليس لهم أحد ينصرهم في الدنيا والآخرة عند مجازاتهم على الضلالة لينقذوهم مما يلحقهم عليه من الوبال كما فعل بالمكذبين ممن قبلهم ثم حكى الله عن هؤلاء القوم انهم ينكرون الحشر والنشر بقوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) أى غاية اجتهادهم فيها (لا يبعث الله من يموت) وذلك أنهم قالوا ان الانسان ليس هو الا هذه البنية المخصوصة فاذا مات وتفرقت أجزاؤه وبلى امتنع عوده بعينه لان الشيء اذا عدم فقد فنى ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه فكذبهم الله تعالى في قولهم بقوله تعالى (بلى) أى يبعثهم بعد الموت فان لفظة بلى اثبات لما بعد النفي والجواب عن شبهتهم ان الله تعالى خلق الانسان وأوجده من العدم ولم يكن شيئا فالذى أوجده ولم يكن شيئا قادر على ايجاده بعد اعدامه لان النشأة الثانية أهون من الاولى وقوله تعالى (وعدا عليه حقا) مصدران مؤكدان منصوبان بفعلهما المقدر أى وعد ذلك وعدا وحقه حقا (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك أى لا علم لهم بوصلهم لذلك لانه من عالم الغيب لا يمكن عقولهم الوصول اليه بغير ارشاد من الله تعالى ولا هم يقبلون أقوال الدعاة اليه الذين أيدهم الله بروح منه لتقيدهم بما يوصل الى عقولهم انها قاصرة على عالم الشهادة لا يمكنها الترقى منه الى عالم الغيب بغير واسطة منه سبحانه وتعالى فلذلك ترى الانسان منهم يأبى ذلك استبعادا وهو خصيم مبين وقوله تعالى (ليبين لهم الذى يختلفون فيه) يتعلق بما دل عليه بلى أى يبعثهم ليبين لهم والضميران لمن يموت وهو عام للمؤمنين والكافرين والذى اختلفوا فيه هو الحق (وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين) في قولهم لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء وقولهم لا يبعث الله من يموت وقيل يجوز أن يتعلق بقوله ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أى بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه وانهم كانوا على الضلالة قبله

لم يجمع ولم يثن مع ان المضروب به المثل اثنان مملوك ومن رزقه الله رزقا حسنا (قلت) جمع باعتبار معنى المماليك والمالكين أو نظرا الى ان أقل الجمع اثنان

مفترين على الله الكذب ثم بين سبحانه وتعالى تيسر الاعادة بقوله تعالى (انما قولنا) اى
بما لنا من العظمة والقدرة (لشئ) ابتداء او اعادة (اذا أردناه أن نقول له كن فيكون) اى
يتسبب من ذلك القول انه يكون * (تنبيه) * قوله تعالى قولنا مبتدأ وان نقول خبره فيكون
وكن من كان التامة التى بمعنى الحدوث والوجود اى اذا أردنا حدوث شئ فليس الا ان
نقول له احدث فيحدث عقب ذلك من غير توقف (فان قيل) قوله تعالى كن ان كان خطابا مع
المعدوم فهو محال وان كان خطابا مع الموجود فكان أمرا بتحصيل الحاصل وهو محال
(أجيب) بان هذا تمثيل لنفى الكلام والمعاياة وخطاب مع الخلق بما يعقلون ليس هو خطاب
المعدوم لان ما أراده فهو كائن على كل حال وعلى ما أراده من الاسراع ولو اراد تعالى خلق الدنيا
والآخرة بما فيهما من السموات والارض فى قدر لمح البصر لقدر على ذلك ولكن خاطب تعالى
العباد بما يعقلون وعن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول الله تبارك وتعالى يشتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى ويكذبنى وما ينبغى له اما شتمه
اياى فيقول ان لى ولدا وأما تكذيبه فيقول ليس يعيدنى كما بدأنى وفى رواية كذبنى ابن آدم
ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فاما تكذيبه اياى فقوله لن يعيدنى وليس أول الخلق
باهون على من اعادته وأما شتمه اياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الله الاحد الصمد الذى لم يلد
ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وقرأ ابن عامر والكسائى بفتح النون من يكون عطفا على نقول
أو جوابا للامر والباقون بالرفع ولما حكى الله تعالى عن الكفار انهم أقسموا بالله جهد
أيمانهم على انكار البعث والقيامة دل ذلك على انهم تمادوا فى الغى والجهالة والجهل والضلال
وفى مثل هذه الحالة لا يبعد اقدامهم على ايذاء المسلمين وانزال العقوبة بهم وحينئذ يلزم على
المؤمنين أن يهاجروا من تلك الديار والمساكن فبين تعالى حكم تلك الهجرة وما لهؤلاء
المهاجرين من الحسنة فى الدنيا والآخرة بقوله تعالى (والذين هاجروا فى الله) اى فى حقه
ولوجهه لاقامة دينه (من بعد ما ظلموا) وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله
تعالى عنهم ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم الى الله منهم من هاجر الى الحبشة ثم الى المدينة فجمع له
تعالى بين الهجرتين ومنهم من هاجر الى المدينة أو المحبوسون المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهم بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل أخذهم
المشركون بمكة يعذبونهم ليرجعوا عن الاسلام الى الكفر فاما بلال فكان أصحابه يخرجونه
الى بطحاء مكة فى شدة الحر يشدونه ويجعلون على صدره الحجارة وهو يقول أحد أحد فاشتراه
منهم أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأعتقه واشترى معه ستة نفر أخر وأما صهيب فقال أنا رجل
كبير ان كنت معكم لم أنفعكم وان كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه أبو
بكر قال له ربح البيع يا صهيب وقال عمر نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه وهو ثناء عظيم
يريد لو لم يخلق الله نارا لاطاعه (لنبوئنهم) أى لننزلنهم (فى الدنيا) دارا (حسنة) وهى المدينة
وقيل لنحسنن اليهم فى الدنيا بان نفتح لهم مكة ونمكنهم من أهلها الذين ظلموهم وأخرجوهم منها
وقيل أراد بالحسنة فى الدنيا التوفيق والهداية الى الدين (ولأجر الآخرة) وهى الجنة والنظر
الى وجهه الكريم (أكبر) أى أعظم (لو كانوا يعلمون) أى الكفار والمتخلفون عن الهجرة

(قوله وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب) ان قلت أو للشك وهو على الله محال فما معنى ذلك (قلت) أو هنا بمعنى الواو أو للشك بالنسبة الينا أو بمعنى بل ونظير ذلك

ما للمهاجرين من الكرامة لو افقهوهم وقيل انه راجع الى المهاجرين أى لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا فى اجتهادهم وصبروا وروى ان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان اذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول له خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله به فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ثم يقرأ هذه الآية وقوله تعالى (الذين صبروا) أى على الشدائد وعلى مفارقة الوطن الذى هو حرم الله وعلى المجاهدة وبذل الاموال والانفس فى سبيل الله محله رفع على تقديرهم أو نصب على المدح ويجوز أن يكون تابعا للموصول قبله نعتا أو بدلا أو بيانا فمحله محله (وعلى ربهم يتوكلون) أى منقطعين اليه مفوضين الامر كله اليه *(تنبيه)* ذكر الله تعالى فى هذه الآية الصبر والتوكل وهما مبدأ السلوك الى الله تعالى ومنتهاه اما الصبر فهو قهر النفس وحبسها على اعمال البر وسائر الطاعات واحتمال الاذى من الخلق وأما التوكل فهو الانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه الى الحق كما مرت الاشارة اليه فالاول هو مبدأ السلوك والثانى هو آخر الطريق ومنتهاه * ونزل لما أنكر مشركو مكة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا الله أعظم وأجل ان يكون رسوله بشرا فهلا بعث ملكا الينا (وما أرسلنا من قبلك) يا محمد الى الامم من طوائف البشر (الا رجالا) لا ملائكة بل آدميين هم فى غاية الاقتدار على الصبر والتوكل الذى هو محط الرحال (نوحى اليهم) بواسطة الملائكة فعادة الله جارية مستمرة من أول مبتدا الخلق الى الآن لم يبعث رسولا الا من البشر (فاسئلوا أهل الذكر) اى أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وانما أمرهم الله تعالى بسؤالهم لان كفار مكة كانوا يعتقدون ان أهل الكتاب اهل علم وقد أرسل اليهم رسلا مثل موسى وعيسى عليهما السلام من البشر وكانوا بشرا مثلهم فاذا سألوهم فلا بد أن يخبروهم ان الرسل الذين أرسلوا اليهم كانوا بشرا فاذا أخبروهم بذلك فربما زالت هذه الشبهة وقال ابن عباس يريد أهل التوراة والدليل عليه قوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر يعنى التوراة والذكر هو التوراة وقال الزجاج معناه اسألوا كل من يذكر بعلم وتحقيق * ولما كان عندهم أحسن من ذلك سماع أخبار الامم قبلهم أشار اليه بقوله تعالى (ان كنتم) أى جبلة وطبعا (لا تعلمون) ذلك فانهم لا يعلمونه وأنتم الى تصديقهم أقرب من تصديق المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (بالبينات) متعلق بمحذوف اى أرسلناهم بالحجج الواضحة وقيل التقدير ان كنتم لا تعلمون بالبينات (والزبر) أى الكتب فاسألوا اهل الذكر وقيل انه متعلق بمحذوف جواب لسؤال مقدر كأنه قيل بم أرسلوا فقيل أرسلوا بالبينات والزبر وقوله تعالى (وأنزلنا اليك الذكر) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والذكر هو القرآن وانما سمى ذكرا لانه موعظة وتذكير (لتبين للناس) كافة اى بما أعطاك الله تعالى من الفهم الذى فقت فيه جميع الخلق واللسان الذى هو أعظم الالسنة وأفصحها وقد أوصلك الله تعالى فيه الى رتبة لم يصل اليها احد (ما نزل) أى ما وقع تنزيله (اليهم) من هذا الشرع المؤدى الى سعادة الدارين بتبيين المجمل وشرح ما أشكل من علم أصول الدين الذى رأسه التوحيد ومن البعث وغيره فان القرآن فيه محكم وفيه متشابه فالمحكم يجب ان يكون مبينا والمتشابه هو المجمل فيطلب بيانه من السنة (ولعلهم يتفكرون) فيما أنزل اليهم اذا نظروا أساليبه الفائقة ومعانيه العالية الرائقة فيعتبرون (فان قيل) ان هذه الآية تدل على ان

قوله الى مائة ألف أو يزيدون وقوله كالحجارة أو أشد قسوة وأورد على الاخير ان بل للاضراب وهو رجوع عن الاخبار وهو على الله محال ويجاب بمنع انه محال بناء على جواز

المبين لكل التكاليف والاحكام هو النبي صلى الله عليه وسلم فالقياس ليس بحجة (أجيب) بانه صلى الله عليه وسلم لما بين ان القياس حجة فمن رجع فى تبيين الاحكام والتكاليف الى القياس كان ذلك فى الحقيقة رجوعا الى بيان النبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (أفأمن الذين مكروا السيآت) فيه اضمار تقديره المكرات السيآت وهم كفار قريش مكروا بالنبي صلى الله عليه وسلم واصحابه وبالقرآن فى أذيتهم والمكر عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الاخفاء ثم انه تعالى ذكر فى تهديدهم أربعة أمور الاول قوله تعالى (ان يخسف الله بهم الارض) كما خسف بقارون وأصحابه فاذا هم فى بطنها لا يقدرون على نوع تقلب بمتابعة ولا غيرها الثانى قوله تعالى (أو يأتيهم العذاب) على غير تلك الحال (من حيث لا يشعرون) به فيأتيهم بغتة فيهلكهم كما فعل بقوم لوط عليه السلام الثالث قوله تعالى (أو يأخذهم) اى الله بعذابه (فى) حالة (تقلبهم) ومشاعرهم حاضرة وقواهم مجتمعة وفى تفسير هذا التقلب وجوه أولها انه تعالى يأخذهم بالعقوبة فى أسفارهم فانه تعالى قادر على اهلاكهم فى السفر كما انه قادر على اهلاكهم فى الحضر (فما هم بمعجزين) اى بفائتين العذاب بسبب ضربهم فى البلاد البعيدة بل يدركهم الله تعالى حيث كانوا ثانيها انه تعالى يأخذهم بالليل والنهار وفى حال اقبالهم وادبارهم وذهابهم ومجيئهم وثالثها ان الله تعالى يأخذهم فى حال ما يتقلبون فى قضايا أفكارهم فيحول الله بينهم وبين اتمام تلك الحيل وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى وقلبوا لك الامور فانهم اذا قلبوها فقد تقلبوا فيها الامر الرابع قوله تعالى (أو يأخذهم على تخوف) وفى تفسير التخوف قولان الاول التخوف تفعل من الخوف يقال خفت الشيء وتخوفته والمعنى انه تعالى لا يأخذهم بالعذاب أولا بل يخيفهم أولا ثم يعذبهم بعده وتلك الاخافة هو انه تعالى يهلك قرية فتخاف التى تليها فيأتيهم العذاب والثانى التخوف بمعنى التنقص اى انه تعالى ينقص شيأ بعد شيء فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا من تخوفه اذا تنقصه روى ان عمر رضى الله تعالى عنه قال على المنبر ما تقولون فى هذه الآية فسكتوا فقال شيخ من هذيل هذه لغتنا التخوف التنقص فقال عمر هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها قال نعم قال شاعرنا أبو كبير

تخوف (اى تنقص) الرحل (اى رحل ناقته) منها تامكا (اى سناما) قردا

(اى متراكما أو مرتفعا وهو بسكون الراء) كما تخوف عود النبعة السفن

والنبعة بالضم واحدة النبع وهو شجر يتخذ منه السفن والسفن بفتح السين والفاء ما ينحت به الشيء وهو فاعل تخوف ومفعوله عود فقال عمر عليكم بديوانكم قالوا وما ديواننا قال شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم ومعنى البيت ان رحل ناقته ينقص سنامها المتراكم أو المرتفع كما ينقص السفن عود النبعة (فان ربكم) اى المحسن اليكم باهلاك من يريد وابقاء من يريد وقوله تعالى (لرؤف) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى بقصر الهمزة والباقون بالمد ومعناه بليغ الرحمة لمن يتوصل اليه بنوع وسيلة وكذا من قاطعه أتم مقاطعة واليه أشار بقوله تعالى (رحيم) اى حيث لم يعاجلهم بالعذاب ولما خوف سبحانه وتعالى المشركين بالانواع الاربعة المذكورة من العذاب أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته فى تدبير أحوال العالم العلوى والسفلى وتدبير أحوال الارواح والاجسام ليظهر لهم أنه مع كمال هذه

وقوع النسخ فى الاخبار وهو جائز عند الاشاعرة مطلقا خلافا للمعتزلة

٣ (قوله فيما لا يعتبر

سرابيل تقيكم الحر) أى والبرد وانما حذفه لدلالة ضده عليه كما فى قوله

٣ قوله فيما لا يعتبر هكذا بالاصل ولينظر اه مصححه

القدرة الباهرة والقوة القهر المتناهية لا يعجز عن ايصال العذاب اليهم على أحد تلك الاقسام الاربعة بقوله تعالى (أولم يروا) قرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب على نسق ما قبله والباقون بالياء على الغيبة (الى ما خلق الله من شئ) أى من الاجرام التى لها ظل كشجر وجبل (تتفيؤ) أى تميل (ظلاله عن اليمين والشمائل) جمع شمال أى عن جانبى كل واحد منهما وشقيه استعارة من يمين الانسان وشماله لجانبى الشئ أى ترجع الظلال من جانب الى جانب منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له وقال قتادة والضحاك أما اليمين فاول النهار وأما الشمائل فآخره لان الشمس وقت طلوعها الى وقت انتهائها الى وسط الفلك تقع الظلال الى الجانب الغربى فاذا انحدرت الشمس من وسط الفلك الى الجانب الغربى وقعت الظلال فى الجانب الشرقى والظلال فى أول النهار تبتدئ من يمين الفلك على الربع الغربى من الارض ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك تبتدئ من شمال الفلك واقعة على الربع الشرقى من الارض (فان قيل) ما السبب فى ذكر اليمين بلفظ الواحد والشمائل بصيغة الجمع (أجيب) باشياء الاول انه وحد اليمين والمراد الجمع ولكنه اقتصر فى اللفظ على الواحد كقوله تعالى ويولون الدبر الثانى قال الفراء كأنه اذا وحد ذهب الى واحد من ذوات الظلال واذا جمع ذهب الى كلها وذلك لان قوله الى ما خلق الله من شئ لفظه واحد ومعناه الجمع على ما مر فيحتمل كلا الامرين الثالث ان العرب اذا ذكرت صيغتى جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله تعالى وجعل الظلمات والنور وقوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم

• (تنبيه) • الهمزة للاستفهام وهو استفهام انكار اى قد رأوا امثال هذه الصنائع فما بالهم لم يتفكروا فيه ليظهر لهم كمال قدرته وقهره فيخافوا منه وما موصولة مبهمة بمعنى الذى ومن شئ بيان لها (فان قيل) كيف بين الموصول وهو مبهم بشئ وهو مبهم بل أبهم مما بينه (أجيب) بان شيأ قد اتضح وظهر بوصفه بالجملة بعده وهو تتفيؤ ظلاله وقيل الجملة بيان لما وقوله تعالى (سجدا لله) حال من الظلال جمع ساجد كشاهد وشهود وراكع وركع واختلف فى المراد من السجود على قولين أحدهما ان المراد منه الاستسلام والانقياد يقال سجد البعير اذا طأطأ رأسه ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل ويقال اسجد للقرد فى زمانه أى اخضع له وقال الشاعر ترى الاكم فيها سجدا للحوافر اى متواضعة والثانى ان هذه الظلال واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد فلما كانت الظلال يشبه شكلها شكل الساجدين أطلق الله تعالى عليها هذا اللفظ وكان الحسن يقول أما ظلك فيسجد لربك وأما أنت فلا تسجد لربك بئسما صنعت وعن مجاهد ظل الكافر يصلى وهو لا يصلى وقيل ظل كل شئ يسجد لله سواء أكان ذلك الشئ ساجدا أم لا قال الرازى والاول أقرب الى الحقائق العقلية والثانى أقرب الى الشبهات الظاهرة وقوله تعالى (وهم داخرون) اى صاغرون حال أيضا من الظلال فينتصب عنه حالان وقيل حال من الضمير المستتر فى سجدا فهى حال متداخلة (فان قيل) الظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون (أجيب) بانه تعالى لما وصفها بالطاعة والدخور أشبهت العقلاء أو ان فى جملة ذلك من يعقل فغلب • ولما حكم على الظلال بما يعم أصحابها من جماد وحيوان وكان الحيوان أشرف من الجماد رقى الحكم اليه

قوله أولم تروا قرأه الخ كذا فى نسخة صحيحة وما وقع فى الطبعة الاولى غير سديد اه مصحح

بيدك الخير أى والشر وخص الخير بالذكر لان الخطاب بالقرآن أول ما وقع بالحجاز والوقاية من الحر أهم عند أهله لان الحر عندهم أشد من البرد والخير مطلوب العباد من

بخصوصه فقال (ولله يسجد ما في السموات وما في الارض) وقوله تعالى (من دابة) يجوز ان يكون بيانا لما في السموات وما في الارض جميعا على ان في السموات خلقا لله يدبون فيها كما تدب الاناسي في الارض وان يكون بيانا لما في الارض وحده ويراد بما في السموات الخلق الذي يقال له الروح وان يكون بيانا لما في الارض ويراد بما في السموات الملائكة وكرر ذكرهم بقوله تعالى (والملائكة) خصوصا من بين الساجدين لانهم أطوع الخلق وأعبدهم ويجوز ان يراد بما في السموات ملائكتهن وبقوله تعالى والملائكة ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم (فان قيل) سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد (أجيب) بان المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم وبسجود غيرهم انقياده لارادة الله تعالى وانه غير ممتنع عليه وكلا السجودين يجمعهما معنى الانقياد فلم يختلفا فلذلك جاز ان يعبر عنهما بلفظ واحد (فان قيل) هلا جيء بمن دون ما تغليبا للعقلاء من الدواب على غيرهم (أجيب) بانه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب فكان متناولا للعقلاء خاصة فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم ارادة للعموم (وهم) اى الملائكة (لا يستكبرون) عن عبادته ثم عال تخصيصهم بقوله تعالى دلالة على انهم كغيرهم في الوقوف بين الخوف والرجاء (يخافون ربهم) اى الموجد لهم المدبر لامورهم المحسن اليهم خوفا مبتدأ (من فوقهم) اشارة الى علو الخوف عليهم وغلبته لهم أو ان يرسل عليهم عذابا من فوقهم أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده وقوله تعالى وانا فوقهم قاهرون والجملة حال من الضمير في لا يستكبرون أو بيان له أو تقرير لان من خاف الله لا يستكبر عن عبادته (ويفعلون ما يؤمرون) اى من الطاعة والتدبير وفي ذلك دليل على ان الملائكة مكلفون مدارون على الامر والنهي والوعد والوعيد كسائر المكلفين وأنهم بين الخوف والرجاء كما مرت الاشارة اليه وانهم معصومون من الذنوب لان قوله تعالى وهم لا يستكبرون يدل على انهم منقادون لخالقهم وانهم ما خالفوا في أمر من الامور كما قال تعالى لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون ❊ ولما بين تعالى ان كل ما سوى الله تعالى سواء أكان من عالم الارواح أم من عالم الاجساد فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبريائه أتبعه بالنهي عن الشرك وبالامر بان كل ما سواه فهو ملكه وانه غني عن الكل بقوله تعالى (وقال الله) فعبر لاجل تعظيم المقام بالاسم الاعظم الخاص (لا تتخذوا) اى لا تكلفوا فطرتكم الاولى السليمة المجبولة على معرفة ان الاله واحد أن تأخذ في اعتقادها (الهين اثنين) ❊ فان قيل انما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا عندي رجال ثلاثة وأفراس أربعة لان المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص فاما رجل ورجلان وفرس وفرسان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة الى ان يقال رجل واحد ورجلان اثنان فما وجه قوله تعالى الهين اثنين (أجيب) باجوبة أولها قال الرازي وهو الاقرب عندي ان الشيء اذا كان مستنكرا مستقبحا فمن أراد المبالغة في التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالي تلك العبارات سببا لوقوف العقل على ما فيه من القبح والقول بوجود الهين مستقبح في العقول فان أحدا من العقلاء لم يقل بوجود الهين متساويين في الوجود والقدم وصفات الكمال فالمقصود من تكرار

(قوله ربهم دون البشر (قوله يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) ان قلت بل كلهم كافرون (قلت) المراد بالاكثر هنا الجميع (قوله قالوا ربنا هؤلاء

اثنين تأكيد التنفير عنه وتوقيف العقل على ما فيه من القبح الثاني ان قوله تعالى الهين لفظ واحد يدل على أمرين ثبوت الاله وثبوت التعدد فاذا قيل لا تتخذوا الهين لم يعرف من هذا اللفظ ان النهي وقع عن اثبات الالهين أو عن اثبات التعدد أو عن مجموعهما فلما قال لا تتخذوا الهين اثنين ظهر ان قوله لا تتخذوا نهي عن اثبات التعدد فقط الثالث في الآية تقديم وتأخير والتقدير لا تتخذوا اثنين الهين الرابع ان الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فاذا أريدت الدلالة على ان المعنى به منهما والذي يساق اليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد اليه والعناية به ألا ترى انك لو قلت انما هو اله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل أنك تثبت الالهية لا الوحدانية * ثم علل تعالى ذلك النهي بما اقتضاه السياق من الوحدانية فقال جل ذكره (انما هو) اى الاله المفهوم من لفظ الهين الذى لا يستحق غيره ان يطلق عليه هذا الضمير الا مجازا لانه لا يطلق اطلاقا حقيقيا الا على من وجوده من ذاته (اله) اى مستحق هذا الوصف على الاطلاق (واحد) لا يمكن ان يثنى بوجه ولا ان يجزأ بغاية وغير غاية لغناه المطلق عن كل شئ واحتياج كل شئ اليه * ولما دلت الدلائل على انه لا بد للعالم من اله وثبت ان القول بوجود الهين محال وثبت انه لا اله الا الواحد الاحد الفرد الصمد قال تعالى بعده (فاياى فارهبون) اى خافون دون غيرى والرهبة مخافة مع حزن واضطراب وانما نقل الكلام من الغيبة الى خطاب الحضور وهو من طريقة الالتفات لانه أبلغ فى الترهيب من قوله فاياه فارهبوه ومن ان يجيء ما قبله على لفظ المتكلم * ولما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح ان اله العالم لا شريك له فى الالهية وجب ان يكون جميع المخلوقات عبيده وفى ملكه وتصرفه وتحت قهره وذلك قوله تعالى (وله) اى الله وأعاد الضمير فى قوله تعالى له على الله الاسم الاعظم العلم الجامع لجميع الاسماء الحسنى (ما فى السموات والارض) اى ما نعبدونه وغيره فكيف يتصور ان يكون شئ من ذلك الها وهو ملكه مع كونه محتاجا الى الزمان والمكان وغيرهما (وله الدين) اى الطاعة وقوله تعالى (واصبا) أى دائما حال من الدين والعامل فيه ما فى الظرف من معنى الفعل قال ابن قتيبة ليس من أحد يدان له ويطاع الا انقطع ذلك بسبب فى حال الحياة أو بالموت الا الحق سبحانه وتعالى فان طاعته واجبة أبدا ولانه المنعم على عباده المالك لهم فكانت طاعته واجبة دائما أبدا وقوله تعالى (أفغير الله) أى الذى له العظمة كلها (تتقون) استفهام انكار والمعنى أنكم بعدما عرفتم ان اله العالم واحد وعرفتم أن كل ما سواه محتاج اليه فى وقت دوامه وبقائه فبعد العلم بذلك كيف يعقل أن يكون للانسان رغبة فى غير الله تعالى أو رهبة من غير الله تعالى * ولما بين تعالى أن الواجب على العاقل أن لا يتقى غير الله بين أنه يجب عليه أن لا يشكر احدا الا الله تعالى بقوله تعالى (وما بكم من نعمة) أى من نعمة الاسلام وصحة الابدان وسعة فى الارزاق وكل ما أعطاكم من مال أو ولد أو جاه (فمن الله) هو المتفضل على عباده فيجب عليكم شكره على جميع انعامه لان الشكر انما يجب على النعمة ثبت بهذا أن العاقل يجب عليه أن لا يخاف وأن لا يشكر الا الله تعالى * (تنبيه) * احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الايمان حصل بخلق الله فقالوا الايمان نعمة وكل نعمة فمن الله ينتج أن الايمان من الله وأيضا النعمة عبارة عن كل

شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك) * ان قلت ما فائدة قولهم ذلك مع انه تعالى عالم به (قلت) لما أنكروا الشرك بقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ختم الله على أفواههم وأنطق جوارحهم ... باصحاب السنتهم

مايكون منتفعا به وأعظم الاشياء فى النفع هو الايمان فثبت أن الايمان نعمة و المسلمون
مطبقون على قولهم الحمد لله على نعمة الايمان والنعم اما دينية واما دنيوية أما النعم الدينية
فهى اما معرفة الحق لذاته واما معرفة الخير لاجل العمل به والنعم الدنيوية اما نفسانية واما
بدنية واما خارجية وكل واحد من هذه الثلاثة جنس تحته أنواع خارجة عن الحصر كما قال
تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وقد مرت الاشارة الى ذلك عند ذكر هذه الآية ولما كان
الخلاص منهم لصحيح ادعائهم الوهية غيره أمرا مستبعدا عبر باداة التراخى والبعد فى قوله تعالى
(ثم اذا مسكم) اى أصابكم أدنى مس (الضر) بزوال نعمة مما أنعم به عليكم وقال ابن عباس
يريد الاسقام والامراض والحاجة (فاليه) اى لا الى غيره (تجأرون) اى ترفعون أصواتكم
بالاستغاثة لما ركز فى فطرتكم الاولية السليمة من انه لا ملجأ ولا منجى منه الا اليه (ثم اذا
كشف) سبحانه وتعالى (الضر) اى الذى مسكم (عنكم) ونبه على مسارعة الانسان
فى الكفران فقال (اذا فريق) اى جماعة هم أهل فرقة وضلال (منكم) اى أيها العباد
(بربهم) الذى تفرد بالانعام عليهم (يشركون) اى يوقعون الاشراك بعبادة غيره (ليكفروا
بما آتيناهم) اى من النعم *(تنبيه)* فى هذه اللام وجهان الاول انها لام كى فيكون المعنى
على هذا انهم انما أشركوا بالله ليجحدوا نعمه عليهم فى كشف الضر الثانى أنها لام العاقبة كما فى
قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا والمعنى عاقبة أمرهم هو كفرهم بما
آتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضر والبلاء ثم انه تعالى توعدهم بعد ذلك بقوله تعالى
(فتمتعوا) اى باجتماعكم على عبادة الاصنام وهذا لفظه أمر والمراد منه التهديد كقوله تعالى
قل آمنوا به أولا تؤمنوا وقوله تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (فسوف تعلمون) عاقبة
أمركم وما ينزل بكم من العذاب* ولما بين تعالى بالدلائل القاهرة فساد قول أهل الشرك
والتشبيه شرح تفاصيل أقوالهم وبين فسادها بانواع الاول قوله تعالى (ويجعلون) اى
المشركون (لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) من الحرث والانعام بقولهم هذا لله وهذا
لشركائنا *(تنبيه)* الضمير فى قوله تعالى لما لا يعلمون عائد على الاصنام اى ان الاصنام لا تعلم
شيأ البتة لانها جماد والجماد لا علم له وقيل عائد الى المشركين ومعنى لا يعلمونها أنهم يسمونها آلهة
فيعتقدون فيها جهالات مثل انها تنفعهم وتشفع لهم وليس الامر كذلك* ثم أقسم سبحانه
وتعالى بنفسه على نفسه أنه يسألهم يوم القيامة بقوله تعالى (تالله لتسئلن) سؤال توبيخ وفيه
التفات من الغيبة الى الحضور وهو من بديع الكلام وبليغه (عما كنتم تفترون) على الله من
أنه أمركم بذلك *(تنبيه)* فى وقت السؤال احتمالان الاول انه يقع عند القرب من الموت
الثانى انه يقع فى الآخرة قال الرازى وهذا أولى* النوع الثانى قوله تعالى (ويجعلون لله
البنات) ونظيره قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا كانت خزاعة وكنانة
يقولون الملائكة بنات الله قال الرازى أظن ان العرب انما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة
لاستتارهم عن العيون فأشبهوا النساء فى الاستتار فاطلقوا عليهم البنات قال ابن عادل وهذا
الذى ظنه ليس بشئ فان الجن أيضا مستترون عن العيون ولم يطلقوا عليهم لفظ البنات * ولما
حكى الله تعالى عنهم هذا القول قال تعالى (سبحانه) وفيه وجهان الاول ان يكون المراد تنزيه

فقالوا عند
جوارحهم
معاينة آلهتهم ربنا هؤلاء
شركاؤنا فاقروا بعد
انكارهم طلبا للرحمة وفرارا
من الغضب فكان هذا
القول على وجه الاعتراف
منهم بالذنب لا على وجه

ذاته عن نسبة الولد اليه الثانى تعجيب الخلق من هذا الامر والجهل الصريح وهو وصف الملائكة بالانوثة ثم نسبتها بالولدية الى الله تعالى قيل فى التفسير معناه معاذ الله وذلك مقارب للوجه الاول وانما ذكر الله تعالى ما يعلو العمع الغرق المطلق بين مانسبوا الانفسهم مع لزوم الحاجة والضعف بقوله تعالى (ولهم ما يشتهون) من البنين وقد يكونون أعداء أعدائهم ثم انه تعالى ذكر ان الواحد من هؤلاء المشركين لا يرضى بالولد البنت لنفسه فكيف يثبته لله تعالى فقال (واذا بشر أحدهم بالانثى) اى أخبر بولادتها (ظل وجهه) اى صار أودام النهار كله (مسودا) من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتخجيل كما ان بياض الوجه واشراقه كناية عن الفرح والسرور (وهو كظيم) اى مملوء غيظا على المرأة ولا ذنب لها بوجه والبشارة فى أصل اللغة الخبر الذى يغير البشرة من حزن أو سرور ثم خص فى عرف اللغة بالسرور ولا يكون الا بالخبر الاول فالمراد بالبشارة هنا الاخبار كما مر وقول الرازى ان اطلاقه على الخير والشر داخل فى التحقيق خلاف المشهور (يتوارى) اى يستخفى (من القوم) اى من الرجال الذين هو فيهم (من سوء ما بشر به) خوفا من التعيير وذلك ان العرب كانوا فى الجاهلية اذا قرب ولادة زوجة أحدهم توارى عن القوم الى ان يعلم ما ولد له فان ولد له ذكر ابتهج وسر بذلك وظهر وان كانت أنثى حزن ولم يظهر أياما يتردد ماذا يفعل بذلك الولد (أيمسكه) أى يتركه بغير قتل (على هون) هوان وذل (أم يدسه فى التراب) وذكر الضمير فى يمسكه ويدسه نظرا الى لفظ الولد أو لكون الانثى ولدا كما علم مما مر قال ابن ميلق قال المفسرون كانت المرأة اذا أدركها المخاض احتفرت حفرة وجلست على شفيرها فان وضعت ذكرا أظهرته وظهر السرور على أهلها وان وضعت أنثى استأذنت مستولدها فان شاء أمسكها على هون وان شاء أمرها بالقائها فى الحفرة وردت التراب عليها وهى حية لتموت انتهى وعن قيس بن عاصم أنه قال يا رسول الله انى وأدت ثمان بنات فى الجاهلية فقال له صلى الله عليه وسلم أعتق عن كل واحدة منهن رقبة فقال يا نبى الله انى ذو ابل قال أهد عن كل واحدة منهن هديا وروى أن رجلا قال يا رسول الله والذى بعثك بالحق ما أجد حلاوة الاسلام منذ أسلمت فقد كانت لى فى الجاهلية ابنة فأمرت امرأتى أن تزينها فأخرجتها فلما انتهيت الى واد فيه بئر بعيدة القعر ألقيتها فيها فقالت يا أبت قتلتنى فكلما ذكرت قولها لم ينفعنى شئ فقال صلى الله عليه وسلم ما كان فى الجاهلية فقد هدمه الاسلام وما فى الاسلام يهدمه الاستغفار وكانوا فى الجاهلية مختلفين فى قتل البنات فمنهم من يحفر الحفرة ويدفنها فيها الى ان تموت ومنهم من يرميها من شاهق جبل ومنهم من يغرقها ومنهم من يذبحها وكانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية خوفا من أن يطمع فيهن غير الاكفاء وتارة خوفا من الفقر وكثرة العيال ولزوم النفقة وكان الذى منهم يريد أن يحيى ابنته تركها حتى تكبر ثم يلبسها جبة من صوف أو شعر ويجعلها ترعى الابل والغنم فى البادية قال الله تعالى (ألا ساء) أى بئس (ما يحكمون) حكمهم هذا وذلك لانهم بلغوا فى الاستنكاف من البنت الى أعظم الغايات فأولها أنه يسود وجهه وثانيها أنه يختفى عن القوم من شدة نفرته عن البنت وثالثها ان الولد محبوب بحسب الطبيعة ثم انه بسبب نفرته عنها يقدم على قتلها وذلك يدل على أن النفرة عن البنت

اعلام من لا يعلم وأنهم لما عاينوا عظيم غضب الله قالوا ذلك رجاء أن يلزم الله الاصنام ذنوبهم فيخفف عنهم العذاب (فألقوا) أى الشركاء كالاصنام اليهم القول فسر القول بقوله انكم لكاذبون أى

والاستنكاف عنها قد بلغ مبلغا لا يزاد عليه فكيف يليق بالعاقل أن يثبت ذلك لاله عالم مقدس عال عن مشابهة جميع المخلوقات ونظير هذه الآية قوله تعالى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى ثم قال تعالى (للذين لا يؤمنون بالآخرة) وهم الكفار (مثل السوء) اى الصفة السوء بمعنى القبيحة وهى قتلهم البنات مع احتياجهم اليهن للنكاح (ولله المثل الاعلى) اى الصفة العليا وهى انه لا اله الا هو وان له جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء السرمدى وغير ذلك من الصفات التى وصف الله بها نفسه وقال ابن عباس مثل السوء النار والمثل الاعلى شهادة أن لا اله الا الله (فان قيل) كيف جاء لله المثل الاعلى مع قوله تعالى فلا تضربوا لله الامثال (أجيب) بان المثل الذى يضربه الله تعالى حق وصدق والذى يذكره غيره باطل (وهو العزيز) الذى لا يمتنع عليه شئ فلا نظير له (الحكيم) الذى لا يوقع شيأ الا فى محله ولما حكى الله تعالى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم بين أنه تعالى يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة اظهارا للفضل والرحمة والكرم بقوله تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) اى بسبب كفرهم ومعاصيهم (ما ترك عليها) اى على الارض وانما أضمرها من غير ذكر لدلالة الناس والدابة عليها (من دابة) اى ان الله تعالى لو آخذ الناس بظلمهم لاهلك جميع الدواب التى على وجه الارض (فان قيل) اسم الناس جنس يشمل الكل فيدخل فى ذلك الانبياء فيدل ذلك على عدم عصمتهم (أجيب) بان ذلك عام مخصوص بقوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله فالمذكور فى هذه الآية اما كل العصاة المستحقين العقاب أو الذين تقدم ذكرهم من المشركين ومن الذين أثبتوا لله البنات أو جميع الكفار بدليل قوله تعالى ان شر الدواب عند الله الذين كفروا وقال قتادة قد فعل الله تعالى ذلك فى زمن نوح عليه السلام فاهلك جميع الدواب التى على وجه الارض الا من كان فى السفينة مع نوح عليه السلام روى أن أبا هريرة رضى الله تعالى عنه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بئسما قلت ان الحبارى تموت هزالا من ظلم الظالم وقال ابن مسعود ان الجعل تعذب فى جحرها بذنب ابن آدم والجعل بضم الجيم وفتح العين دويبة قاله الجوهرى وقيل فى معنى الآية ولو يؤاخذ الله الآباء الظالمين بسبب ظلمهم لانقطع النسل ولم توجد الابناء ولم يبق فى الارض أحد (ولكن يؤخرهم) أى يمهلهم بفضله وكرمه وحلمه (الى أجل مسمى) أى الى انتهاء آجالهم وانقضاء أعمارهم (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة) عنه (ولا يستقدمون) أى لا يؤخرون ساعة من الاجل الذى جعله الله تعالى لهم ولا ينتقصون منه * (تنبيه) * ههنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط احدى الهمزتين مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها حرف مد والباقون بتحقيق الهمزتين * النوع الثالث من الاقاويل الفاسدة التى كان يذكرها الكفار وحكاها الله تعالى عنهم قوله (ويجعلون لله ما يكرهون) لانفسهم من البنات وأراذل الاموال والشركاء فى الرياسة ثم وصف الله تعالى جرأتهم مع ذلك بقوله تعالى (وتصف) اى وتقول (ألسنتهم الكذب) اى مع ذلك مع أنه قول لا ينبغى أن يتخيله عاقل ثم بينه بقوله تعالى (أن لهم الحسنى) اى عنده اى الجنة كقوله تعالى ولئن

في قولكم انكم عبدتمونا
(فان قلت) لم قالت
الاصنام للمشركين
ذلك مع انهم كانوا صادقين
فيه (قلت) قالوا لهم
لتظهر فضيحتهم حيث
عبدوا من لا يعلم بعبادتهم
(فان قلت) كيف أثبت

رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى ولا جهل أعظم ولا أحكم سوأ من أن تقطع بأن من تجعل له ما تكره أن يجعل لك ما تحب فكأنه قيل ما لهم عنده فقيل (لا جرم) اى لا ظن ولا تردد فى (أن لهم النار) اى هى جزاء الظالمين وقيل لا جرم بمعنى حقا (وأنهم مفرطون) اى متركون فيها أو مقدمون اليها وقرأ نافع بكسر الراء اى متجاوزون الحد والباقون بالفتح (فان قيل) انهم لم يقروا بالبعث فكيف يقولون ان لنا الحسنى عند الله (أجيب) بانهم قالوا ان كان محمد صادقا فى البعث بعد الموت فان لنا الجنة وقيل انه كان فى العرب جمع يقرون بالبعث والقيامة وانهم كانوا يربطون البعير النفيس على قبر الميت و يتركونه الى أن يموت ويقولون ان ذلك الميت اذا حشر فانه يحشر معه مركوبه ثم بين تعالى أن مثل هذا الصنيع الذى يصدر من مشركى قريش قد صدر من سائر الامم السابقين فى حق الانبياء المتقدمين بقوله تعالى (تالله) اى الملك الاعلى (لقد أرسلنا) اى بما لنا من القدرة رسلا من الماضين (الى أمم من قبلك) كما أرسلنا الى هؤلاء (فزين لهم الشيطان) اى المحترق بالغضب المطرود باللعنة (أعمالهم) الخبيثة من الكفر والتكذيب كما زين لهؤلاء فضلوا كما ضلوا فاهلكناهم وهذا يجرى مجرى التسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم والمزين فى الحقيقة هو الله تعالى هذا مذهب أهل السنة وانما جعل الشيطان آلة بالالقاء للوسوسة فى قلوبهم وليس له قدرة على أن يضل أحدا أو يهدى أحدا وانما له الوسوسة فقط فمن أراد الله تعالى شقاوته سلطه الله عليه حتى يقبل وسوسته (فهو وليهم اليوم) اى فى الدنيا وانما عبر باليوم عن زمانها أى فهو وليهم حين كان يزين لهم أو يوم القيامة على أنه حكاية حال ماضية أو آتية أى لا ولى لهم غيره وهو عاجز عن نصرة نفسه فكيف ينصرهم وقيل الضمير لقريش أى زين الشيطان للكفرة المتقدمين أعمالهم وهو ولى هؤلاء القوم يغرهم ويغويهم وقيل يجوز أن يقدر مضاف أى فهو ولى أمثالهم والولى القرين والناصر فيكون نفيا للناصر لهم على ابلغ الوجوه (ولهم عذاب أليم) اى مؤلم فى الآخرة ٭ ثم ذكر تعالى أنه مع هذا الوعيد الشديد قد أقام الحجة وأزاح العلة بقوله تعالى (وما أنزلنا) اى بما لنا من العظمة من جهة العلو (عليك) يا أشرف المرسلين (الكتاب) اى القرآن (الا لتبين لهم) اى للناس (الذى اختلفوا فيه) من أمر الدين مثل التوحيد والشرك واثبات المعاد ونفيه فانه كان فيهم من ينكر البعث ومنهم من يؤمن به ومنهم عبد المطلب ومثل تحريم الحلال كالبحيرة والسائبة وتحليلهم أشياء محرمة كالميتة (فان قيل) اللام فى لتبين لهم تدل على أن أفعال الله تعالى معللة بالاغراض كقوله تعالى كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس وقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون (أجيب) بانه لما ثبت بالعقل امتناع التعليل وجب صرفه الى التأويل وقوله تعالى (وهدى ورحمة) اى وذكراما بعده معطوفان على محل لتبين الا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما لانهما فعلا الذى أنزل الكتاب ودخلت اللام على لتبين لانه فعل المخاطب لا فعل المنزل وانما ينتصب مفعولا له ما كان فعل فاعل الفعل المعلل ولما كان ذلك ربما شملهم وهم على ضلالهم نفاه بقوله تعالى (لقوم يؤمنون) ونظيره قوله تعالى فى أول البقرة هدى للمتقين وانما خص المؤمنين بالذكر من حيث انهم قبلوه وانتفعوا به كما فى قوله تعالى انما أنت منذر من يخشاها لانه انما انتفع بانذاره هذا القوم فقط ٭ ولما انقضى الدليل على أن قلوبهم منكرة استكبارا

للاصنام نطقا هنا ونفاه
عنها فى قوله فى الكهف
فدعوهم فلم يستجيبوا لهم
(قلت) المثبت لهم هنا
النطق بتكذيب المشركين
فى دعوى عبادتهم لها
والمنفى عنهم فى الكهف

وما

وما يتعلق به وختمه بما احيابه القلوب فى الايمان والعلم بعد موتها بالكفر والجهل وكان المقصود الاعظم من القرآن تقرير اصول اربعة الالهيات والنبوّات والمعاد واثبات القضاء والقدر والفعل بالاختيار وكان أجل هذه المقاصد الالهيات شرع فى ذكر الوحدانية والقدرة والفعل بالاختيار المستلزم للقدرة على البعث على وجه غير المتقدم ليعلم أن أدلة ذلك أكثر من أوراق الاشجار وأجلى من ضياء النهار فعطف على قوله والله يعلم ما تسرون وما تعلنون قوله مباصعا فى الدليل بين العالم العلوى والعالم السفلى (والله) اى الذى له الامر كله (أنزل من السماء) فى الوقت الذى يريده (ماء) بالمطر والثلج والبرد (فاحيابه) اى بذلك الماء (الارض) بانواع النبات (بعد موتها) اى يبسها (ان فى ذلك) المذكور (لآية) اى دلالة واضحة على كمال قدرته تعالى (لقوم يسمعون) اى سماع تدبر وانصاف ونظر لان سماع القلوب هو النافع لا سماع الآذان فمن سمع آيات القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها انتفع ومن لم يسمع بقلبه فكأنه أصم لم يسمع فلم ينتفع بالآيات ومن الدلائل المذكورة فى هذه الآية الاستدلال بعجائب أحوال الحيوانات وهو قوله (وان لكم فى الانعام لعبرة) اى اعتبارا اذا تفكرتم فيها وعرفتم كمال قدرتنا وقوله تعالى (نسقيكم مما فى بطونه) استئناف بيان للعبرة وانما ذكر لفظ الضمير لان لفظ الانعام مفرد وضع لافادة الجمع كالرهط والقوم ولا من اللبس والدلالة على قوة المعنى اكرنها سورة النعم وأنثه فى سورة المؤمنون للمعنى فان الانعام اسم جمع ولذلك عده سيبويه فى باب مالا ينصرف فى الاسماء المفردة الواردة على أفعال كقولهم ثوب أكياش بياء تحتية وشين معجمة ضرب من الثياب يغزل مرتين ومن قال انه جمع نعم جعل الضمير للبعض فان اللبن لبعضها دون جميعها وقرأ نافع وابن عامر وشعبة بفتح النون تقول سقيته حتى روى قال تعالى وسقاهم ربهم شرابا طهورا والباقون بضمها من قولك اسقاه اذا جعل له شرابا كقوله تعالى وأسقيناكم ماء فراتا ولما كان فى موضع العبرة تخليص اللبن من غيره قدم قوله تعالى (من بين فرث) وهو الثفل الذى نزل الى الكرش فاذا خرج منه لم يسم فرثا (ودم لبنا خالصا) أى صافيا خلقه الله وسطا بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغى عليه أحدهما بلون أو رائحة أو طعم روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما اذا أكلت البهيمة العلف واستقر فى كرشها طبخته فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما والكبد متسلطة على هذه الاصناف الثلاثة تقسمها فيجرى الدم فى العروق واللبن فى الضرع ويبقى الفرث فى الكرش فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل وسئل شقيق عن الاخلاص فقال تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم (سائغا للشاربين) أى سهل المرور فى الحلق وقيل لم يغص أحد باللبن قط *(تنبيه)* قال أهل التحقيق اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار كذلك يدل على امكان الحشر والنشر وذلك لان هذا العشب الذى يأكله الحيوان انما يتولد من الماء والارض فخالق العالم دبر تدبيرا آخر بقلب ذلك الدم لبنا ثم دبر تدبيرا آخر فاحدث من ذلك اللبن السمن والجبن فهذا الاستقرار يدل على انه تعالى قادر على ان يقلب هذه الاجسام من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة فاذا كان كذلك لم يمتنع أيضا أن يكون قادرا على أن يقلب أجزاء أبدان الاموات

النطق بالاجابة الى الشفاعة لهم ودفع العذاب عنهم ولا تنافى (قوله ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ) ان قلت اذا كان كذلك فكيف اختلفت الائمة فى كثير من الاحكام (قلت)

الى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على أن البعث والقيامة أمر ممكن غير ممتنع وفي حدوث اللبن في الثدى واتصافه بالصفات التي باعتبارها يكون موافقا لتغذية الطفل مشتملة على حكمة عجيبة يشهد صريح العقل بانه لا تحصل الا بتدبير الفاعل الحكيم المدبر وبيانه من وجوه الاول انه تعالى خلق في أسفل المعدة منفذا يخرج منه ثفل الغذاء فاذا تناول الانسان غذاء أو شرابا انطبق ذلك المنفذ انطباقا كليا لا يخرج منه شئ من ذلك المأكول والمشروب الى أن يكمل انهضامه في المعدة وينجذب ما صفا منه الى الكبد ويبقى الثفل هناك فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ وينزل منه ذلك الثفل وهذا من العجائب التي لا يمكن حصولها الا بتدبير الفاعل الحكيم لانه متى كانت الحاجة الى خروج ذلك الجسم من المعدة انفتح فحصول الانطباق تارة والانفتاح تارة أخرى بحسب الحاجة وبقدر المنفعة مما لا يتأتى الا بتقدير الفاعل الحكيم الثانى عند تولد اللبن في الضرع يحدث الله تعالى في حلمة الثدى ثقبا صغيرة ومسام ضيقة وجعلها بحيث اذا اتصل المص والحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن عنها ولما كانت تلك المسام ضيقة جدا كان لا يخرج منها الا ما كان في غاية الصفاء واللطافة وأما الاجزاء الكثيفة فانه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى في الداخل فالحكمة في احداث تلك الثقب الصغيرة والمنافذ الضيقة في رأس حلمة الثدى انها تكون كالمصفاة فكل ما كان لطيفا خرج وكل ما كان كثيفا احتبس في الداخل ولم يخرج فبهذا الطريق يصير اللبن خالصا موافقا لبدن الطفل سائغا للشاربين الثالث أنه تعالى ألهم ذلك الطفل الى المص فان الام كلما ألقت حلمة الثدى في فم الطفل فذلك الطفل في الحال يأخذ في المص ولولا أن الفاعل المختار الرحيم ألهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص والا لم يحصل الانتفاع بتخليق ذلك اللبن في الثدى وقوله تعالى (ومن ثمرات النخيل والاعناب) متعلق بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والاعناب أى من عصيرهما وحذف لدلالة نسقيكم عليه وقوله تعالى (تتخذون منه سكرا) بيان وكشف عن كنه الاسقاء قال الواحدى الاعناب عطف على الثمرات لا على النخيل لانه يصير التقدير ومن ثمرات الاعناب والعنب نفسه ثمرة وليس له ثمرة أخرى (ورزقا حسنا) كالتمر والزبيب والدبس والخل *(تنبيه)* في تفسير السكر وجوه الاول هو الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو رشد رشدا ورشدا فان قيل الخمر محرمة فكيف ذكرها الله تعالى في معرض الانعام (أجيب) عن ذلك بوجهين احدهما ان هذه السورة مكية وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة فكان نزول هذه الآية كان في الوقت الذى كانت الخمرة فيه غير محرمة وممن قال بنسخها النخعى والشعبى الثانى أن الآية جامعة بين العتاب والمنة فالعتاب بالنسبة الى السكر والمنة بالنسبة الى رزقا حسنا الوجه الثانى أن السكر هو النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر فاذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد فهو حلال عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى الى حد السكر ويحتج بهذه الآية وبقوله صلى الله عليه وسلم الخمر حرام لعينها وهذا يقتضى أن يكون السكر شيأ غير الخمر وكل من أثبت هذه المغايرة قال انه النبيذ المطبوخ الوجه الثالث أن السكر هو الطعام قاله أبو عبيدة واحتج عليه بقول الشاعر

لان اكثر الاحكام ليس منصوصا عليه فيه بل بعضها منصوص عليه وبعضها مستنبط منه وطرق الاستنباط مختلفة فبعضها بالاحالة اما على السنة بقوله تعالى وما آتاكم

* جعلت اعراض الكرام سكرا * اى تنقلت باعراضهم بان جعلتم تقلا وتناولتها والنقل ما يتنقل به على الشراب قال البغوى والاولى لاقاويل ان قوله تعالى تتخذون منه سكرا منسوخ انتهى ويدل له قول الحسن ذكر الله نعمته عليهم فى الخمر قبل أن يحرمها عليهم وروى عن ابن عباس قال السكر ما حرم من ثمرها والرزق الحسن ما احل من ثمرها وروى عنه ايضا السكر الحرام منه والرزق زبيبه وخله ومنافعه * ثم قال تعالى (ان فى ذلك) المذكور (لآية) اى دلالة على قدرته تعالى (لقوم يعقلون) اى يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل فى الآيات فيعلمون ان هذه الاحوال لا يقدر عليها الا الله تعالى فيحتج به واجبا على وجود الاله القادر الحكيم * ولما بين تعالى أن اخراج الالبان واخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والاعناب دليل قاطع وبرهان ساطع على ان لهذا العالم الها قادرا مختارا حكيما ذكر أن اخراج العسل الذى جعله الله تعالى شفاء للناس من دابة ضعيفة وهى النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على اثبات هذا المقصود بقوله تعالى (وأوحى ربك الى النحل) وحى الهام قال الضحاك الهمها ولم يرسل اليها رسولا والمراد من الالهام انه تعالى قدر فى نفسها هذه الاعمال العجيبة التى يعجز عنها العقلاء من البشر وبيانه من وجوه الاول ما ذكره الله تعالى بقوله (أن اتخذى) اى بان اتخذى ويجوز أن تكون مفسرة لان فى الايحاء معنى القول (من الجبال بيوتا) تأوين اليها واغلب ما تبنيه النحل فيه بيتا تشبه بيوت الانسان فتبنى البيوت المسدسة من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طبعها والعقلاء من البشر لا يمكنهم مثل تلك البيوت الا بآلات وانظار دقيقة الثانى انه ثبت فى الهندسة ان تلك البيوت لو كانت مشكلة باشكال سوى المسدسات كأن كانت مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الاشكال فانه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة فاهتداء هذا الحيوان الضعيف الى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الاعاجيب الثالث ان النحل يحصل بينها واحد كالرئيس للبقية وذلك الواحد يكون اعظم جثة من الباقى ويكون نافذ الحكم على تلك البقية وهم يخدمونه ويحملونه عند تعبه وذلك ايضا من الاعاجيب الرابع انها اذا انفردت عن وكرها ذهبت مع الجمعية الى موضع آخر فاذا ارادوا عودها الى وكرها ضربوا الطبول وآلات الموسيقى فبواسطة تلك الالحان يقدرون على ردها الى أوكارها وهذه ايضا حالة عجيبة فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة كان ليس الا على سبيل الالهام وهو حالة شبيهة بالوحى والوحى قد ورد فى حق الانبياء كقوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب وفى حق الاولياء قال تعالى واذ أوحيت الى الحواريين وبمعنى الالهام فى حق البشر قال تعالى واوحينا الى أم موسى وفى حق سائر الحيوانات خاص قال الزجاج يجوز أن يقال سمى هذا الحيوان نحلا لان الله تعالى نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها وقال غيره النحل يذكر ويؤنث وهى مؤنثة فى لغة الحجاز ولذلك أنثها الله تعالى وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحده الا الهاء (و) اتخذى (من الشجر) أى الصالحة بيوتا (و) اتخذى (مما يعرشون) أى الناس فيبنون تلك الاماكن وذلك أن النحل منه وحشى وهو الذى يسكن الجبال والشجر والكهوف ومنه أهلى وهو

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وقوله وما ينطق عن الهوى أو على الاجماع بقوله ويتبع غير سبيل المؤمنين الآية أو على القياس بقوله فاعتبروا يا أولي الابصار

الذي يأوي إلى البيوت وتربيه الناس عندهم وقد جرت العادة أن الناس يبنون للنحل الأماكن حتى يأوي إليها وذكر ذلك بحرف التبعيض لأنها لا تبني في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش من الكرم أو سقف ولا في كل مكان منها وقرأ ابن عامر وشعبة بضم الراء والباقون بكسرها
* (تنبيه) * ظاهر قوله تعالى اتخذي أمر وقد اختلفوا فيه فمن الناس من يقول لا يبعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول ولا يبعد أن يتوجه عليها من الله أمر ونهي وقال آخرون بل المراد منه أنه تعالى خلق فيها غرائز وطبائع توجب هذه الأحوال وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى في سورة النمل عند قوله تعالى يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم * ولما كان أهم شيء للحيوانات بعد الراحة من هم المقيل أكل شيء تنبه فقال (ثم كلي من كل الثمرات) أي من كل ثمرة تشتهيها مرها وحلوها وذكر ذلك بحرف التراخي إشارة إلى عجيب الصنع في ذلك وتيسيره لها * (تنبيه) * لفظ من هذا للتبعيض أو لابتداء الغاية * ولما أذن لها في ذلك كله وكان من المعلوم عادة أن تعاطيه لا يكون إلا بمشقة عظيمة في معاناة السير إليه نبه على خرقه العادة في تيسيره لها بقوله تعالى (فاسلكي سبل ربك) أي الطرق التي ألهمك الله تعالى أن تسلكيها وتدخلي فيها لأجل طلب الثمار وقوله تعالى (ذللا) جمع ذلول حال من السبل أي مسخرة لك فلا تعسر عليك وإن توعرت ولا تضلي عن العود فيها وإن بعدت وقيل من الضمير في اسلكي أي منقادة لأربابها حتى إنهم ينقلونها من مكان إلى مكان آخر حيث شاؤوا وأرادوا لا تستعصي عليهم وقوله تعالى (يخرج من بطونها) فيه عدول عن خطاب النحل إلى خطاب الناس لأنه محل الإنعام عليهم والمقصود من خلق النحل وإلهامه لأجلهم (شراب) أي عسل (مختلف ألوانه) ما بين أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل وذلك على قدر ما أكل من الثمار والأزهار ويستحيل في بطونها عسلا بقدرة الله تعالى ثم يخرج من أفواهها يسيل كاللعاب وقال الرازي إنه رأى في بعض كتب الطب أن العسل طل من السماء ينزل كالترنجبين فيقع على الأزهار وأوراق الشجر فتجمعه النحل فتأكل بعضه وتدخر بعضه في بيوتها لأنفسها لتتغذى به فإذا اجتمع في بيوتها من تلك الأجزاء الطلية شيء كثير فذلك هو العسل وقال هذا القول أقرب إلى العقل لأن طبيعة الترنجبين تقرب من طبيعة العسل وأيضا إنا نشاهد أن النحل يتغذى بالعسل وأجاب عن قوله تعالى يخرج من بطونها شراب أن كل تجويف في داخل البدن يسمى بطنا فقوله يخرج من بطونها أي من أفواهها انتهى والأول كما قال ابن الخازن وغيره أظهر لأنا نشاهد أن العسل يوجد فيه طعم تلك الأزهار التي يأكلها النحل وكذا يوجد لذتها وريحها وطعمها فيه أيضا ويعضد هذا قول بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أكلت مغافير قال لا قالت ما هذه الريح التي أجد منك قال سقتني حفصة شربة عسل قالت جرست نحله العرفط والعرفط شجر الطلح له صمغ يقال له المغافير كريه الرائحة فمعنى جرست نحله العرفط أكلت ورعت من العرفط الذي له الرائحة الكريهة فثبت بهذا أنه يوجد في طعم العسل ولونه وريحه طعم ما يأكله النحل ولونه وريحه لا ما قاله الأطباء من أنه طل لأنه لو كان طلا لكان على لون واحد وقوله كل تجويف في داخل البدن يسمى بطنا خلاف الظاهر لأن لفظ البطن إذا أطلق لم يرد به إلا العضو المعروف بطن الإنسان وغيره (فيه) أي الشراب

والاعتبار والنظر والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس (قوله ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) قاله هنا بلفظ ما وفي الزمر بلفظ الذي موافقة في كل

الذى يخرج من بطون النحل (شفاء للناس) من الاوجاع كما قال ابن عباس وابن مسعود
اما لبعضها كما دل عليه تنكير شفاء واما للكلها بضميمته الى غيره اذ قل معجون من المعاجين
لم يذكر الاطباء فيه العسل أو بدونه بنيته وبهذا سقط ماقيل انه يضر باصحاب الصفراء و يهيج
الحرارة ويضر بالشباب المحرورين ويعطش قال ابن مسعود العسل شفاء من كل داء والقرآن
شفاء لما فى الصدور وفى رواية عنه عليكم بالشفاءين القرآن والعسل و روى نافع أن ابن عمر
ما كانت قرحة ولا شئ الا لطخ الموضع بالعسل و يقرأ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه
فيه شفاء للناس وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه
وسلم فقال ان أخى يشتكى بطنه فقال صلى الله عليه وسلم اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال
قد سقيته فما نفع فقال اذهب فاسقه العسل فقد صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فشفاه الله
فبرأ فكأنما انشط من عقال فقوله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك يحتمل أنه
صلى الله عليه وسلم علم بنور الوحى الالهى أن العسل الذى أمره بشربه سيظهر نفعه بعد ذلك
فلما لم يظهر نفعه فى الحال قال صدق الله يعنى فيما وعد من أن فيه شفاء للناس وكذب بطن
أخيك يعنى باستعجاله الشفاء فى أول مرة وقال مجاهد الضمير فى فيه شفاء للناس راجع
للقرآن لان فيه شفاء من أمراض الشرك والجهالة والضلالة وهو هدى و رحمة للناس وعلى
هذا تمت قصة تولد العسل من النحل عند قوله تعالى يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ثم
ابتدأ وقال فيه شفاء للناس أى فى هذا القرآن قال الرازى وهذا القول ضعيف و يدل عليه
وجهان الاول أن الضمير فى قوله تعالى فيه شفاء للناس يجب عوده الى أقرب المذكورات
وما ذاك الا قوله تعالى شراب مختلف ألوانه وأما الحكم بعود هذا الضمير الى القرآن مع أنه غير
مذكور فيما سبق فهو غير مناسب والثانى حديث أبى سعيد الخدرى المتقدم ✽ ثم انه تعالى
ختم الآية بقوله تعالى (ان فى ذلك) أى المذكور (لآية لقوم يتفكرون) أى فى اختصاص
النحل بتلك الطعوم الرقيقة واللطائف الخفية مثل بناء البيوت المسدسة وغير ذلك فيعتبرون
و يستدلون بما ذكرنا على وحدانيتنا وقدرتنا وقد كثر فى هذه السورة اضافة الآيات الى
المخاطبين تارة بالافراد وتارة بالجمع ونوّعها تارة بالعقل و تارة بالفكر وتارة بالذكر وتارة بغيرها
✽ ثم انه تعالى لما أيقظهم من رقدتهم ونبههم على عظيم غفلتهم شرع يعرض ما فى أنفسهم من
الادلة على ذلك فقال (والله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (خلقكم) أى أوجدكم من العدم
وأخرجكم الى الوجود ولم تكونوا شيأ (ثم يتوفاكم) أى عند انقضاء آجالكم على اختلاف
الانسان فلا يقدر الصغير أن يؤخر ولا الكبير على أن يقدم فمنكم من يموت على حال قوته
(ومنكم من يرد الى أرذل العمر) أى أخسه من الهرم والخرف قال بعض العلماء عمر الانسان
له أربع مراتب سن الطفولية والنمو وهو من أول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية
سن الشباب وبلوغ الاشد ثم المرتبة الثانية سن الوقوف وهو من ثلاثة وثلاثين سنة الى
أربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل والمرتبة الثالثة سن الكهولة وهو من الاربعين
الى الستين وهذه المرتبة يشرع فيها الانسان فى النقص لكنه يكون نقصا خفيا لا يظهر ثم
المرتبة الرابعة سن الشيخوخة والانحطاط من الستين الى آخر العمر خمسة وستون سنة يتبين

منهما لما قبله اذ ابدل ماهنا
انما عند الله هو خير لكم
ما عندكم ينفد وما عند الله
باق وقيل ماهنا أسوأ الذى
والذى جاء بالصدق (قوله
ثم ان ربك للذين هاجروا
من بعد ما فتنوا) الآية

النقص ويكون الهرم والخرف قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه أرذل العمر خمسة وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة وقال قتادة تسعون سنة وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم اني أعوذ بك من العجز والهرم والبخل وأعوذ بك من عذاب القبر وفتنة المحيا والممات وفي رواية عنه كان يقول اللهم اني أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات (لكيلا يعلم بعد علم شيأ) أي ليصير الى حالة شبيهة بحال الطفولية في نقصان القوة والعقل وسوء الفهم * (تنبيه) * هل ذلك عام في المسلم والكافر أو مختص بالكافر فيه قولان أحدهما انه عام والقول الثاني انه مختص اذ المسلم لا يزداد بطول العمر الا كرامة على الله تعالى ولا يقال في حقه انه رد الى أرذل العمر قال الرازي والدليل عليه قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فبين ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ما ردوا الى أسفل السافلين وقال عكرمة من قرأ القرآن لم يصر الى هذه الحالة وقال في قوله تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين قرؤا القرآن وقال ابن عباس قوله ثم رددناه أسفل سافلين يريد الكافرين ثم استثنى المؤمنين فقال الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهذا يؤيد ما مر (ان الله عليم) بمقادير أعمارهم (قدير) يميت الشاب النشيط ويبقي الهرم الفاني وفي ذلك تنبيه على ان تفاوت آجال الناس ليس الا بتقدير قادر حكيم ركب أبنيتهم وعدل أمزجتهم على قدر معلوم ولو كان مقتضى الطباع كما يقول الطبائعيون لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ * ولما ذكر تعالى المفاوتة في الاعمار المنادية بابطال الطبائع الموجبة للمسابقة الى الاعتبار لأولي الابصار لخوف كل لحظة من مصيبة الموت أتبعها بالمفاوتة في الارزاق فقال (والله) أي الذي له الامر كله (فضل بعضكم) أيها الناس (على بعض في الرزق) فمنكم غني ومنكم فقير ومنكم مالك ومنكم مملوك كل ذلك بتقدير العزيز الحكيم فيجعل الضعيف العاجز الجاهل أغنى من القوي المحتال العالم فترى أكيس الناس وأكثرهم عقلا يفني عمره في طلب القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك وترى أجلف الخلق وأقلهم عقلا وفهما تنفتح له أبواب الدنيا فكل شيء خطر بباله أو دار في خياله فانه يحصل له بسهولة ولو كان السبب في ذلك هو جهل الانسان وعقله لوجب أن يكون الاعقل أفضل في هذه الاحوال فلما رأينا ان الاعقل أقل نصيبا وان الاجهل الاخس أوفر نصيبا علمنا ان ذلك بسبب قسمة القسام كما قاله تعالى أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا فاتقوا الله وأجملوا في طلب الرزق واقبلوا في جمع قلوبكم على ما ينفعكم من الاستبصار وأنشد سفيان بن عيينة يقول

كم من قوي قوي في تقلبه * مهذب الرأي عنه الرزق منحرف
ومن ضعيف ضعيف العقل مختلط * كأنه من خليج البحر يغترف

(وحكي) أن سليمان المهلبي أرسل الى الخليل بن أحمد بمائة ألف درهم فردها الخليل وكتب اليه هذه الابيات

أبلغ سليمان اني عنه في سعة * وفي غنى غير اني لست ذا مال
شحى بنفسي اني لا أرى أحدا * يموت جوعا ولا يبقى على حال

كررتها وفي قوله بعد ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة الآية ان ربك لطول الكلام بين الانطفين قيل ومثله أيعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون

العجز

فالعجز عن قدرها العجز بنفسه * ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر في النفس لا في المال تعرفه * ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

وقال الشافعي رحمه الله تعالى

ومن الدليل على القضاء وكونه * بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق

(تنبيه) هذا التفاوت ليس مختصا بالمال بل هو حاصل في الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والاسم القبيح وهذا بحر لا ساحل له قال الرازي وقد كنت مصاحبا لبعض الملوك في بعض الاسفار وكان ذلك الملك كثير المال والجاه فكانت الجنائب الكثيرة تقاد بين يديه وما كان يمكنه ركوب واحد منها وربما احضرت الاطعمة الشهية والفواكه الكثيرة العطرة عنده وما كان يمكنه أن يتناول شيئا منها وكان من الفقراء من هو صحيح المزاج وقوي البنية كامل القوة وما كان يجد ملء بطنه طعاما فذلك الملك وان كان يفضل هذا الفقير في المال الا أن هذا الفقير كان يفضل ذلك الملك في الصحة والقوة وهذا باب واسع اذا اعتبره الانسان عظم تعجبه فيه فنسأل الله تعالى أن يغنينا من فضله وان يرضينا بما قسم لنا انه كريم جواد * ثم ضرب الله تعالى مثلا للذين جعلوا لله شركاء بقوله تعالى (فما الذين فضلوا) اي في الرزق وهم الموالي (برادي رزقهم على ما ملكت ايمانهم) اي بجاعلي ما رزقناهم من الاموال وغيرها بينهم وبين مماليكهم (فهم) اي المماليك والموالي (فيه سواء) اي شركاء يقول الله تعالى هم لا يرضون ان يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقناهم سواء فكيف يجعلون بعض عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني وقيل معنى الآية ان الموالي والمماليك الله رازقهم جميعا فهم في رزقه سواء فلا تحسبن الموالي يردون ارزاقهم على مماليكهم من عند انفسهم بل ذلك رزق الله اجراه على ايدي الموالي للمماليك والمقصود منه بيان ان الرازق هو الله تعالى لجميع خلقه وان الموالي والمماليك في ذلك الرزق سواء وان الملاك لا يرزق المملوك وانما ذلك رزق اجريته اليهم على ايديهم فالرازق للملاك والمملوك هو الله تعالى * ولما قرر سبحانه وتعالى هذه الدلائل وبينها وأظهرها بحيث يفهمها كل عاقل كان ذلك انما اعطاه منه على الخلق فعند ذلك قال (أفبنعمة الله) في تقرير هذه البيانات وايضاح هذه البينات (يجحدون) أي يكفرون وفي ذلك انكار على المشركين حيث جحدوا نعمته وعبدوا غيره وجعلوا له شركاء يضيفون اليهم بعض ما أنعم به عليهم فيسوون بينهم وبينه في ذلك وقرأ شعبة بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة * ثم انه تعالى ذكر نوعا آخر من أحوال الناس ليستدل به على وجود الاله المختار الحكيم وتنبيها على انعام الله تعالى على عبيده بمثل هذه النعم بقوله تعالى (والله) أي الذي له تمام القدرة وكمال العلم (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) أي من جنسكم لتستأنسوا بها ولتكون أولادكم منكم فخلق حواء من ضلع آدم وسائر الناس من نطف الرجال والنساء فهو خطاب عام فتخصيصه بآدم وحواء فقط خلاف الدليل والمعنى أنه تعالى خلق النساء لتتزوج بهن الذكور ومعنى من أنفسكم كقوله تعالى فاقتلوا أنفسكم فسلموا على أنفسكم أي بعضكم بعضا ونظيره قوله تعالى ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) والحفدة جمع حافد وهو المسرع بالخدمة المسارع

(قوله يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) * ان قلت ما معنى اضافة النفس الى النفس مع ان النفس لا نفس لها (قلت) النفس يقال للروح وللجوهر القائم بذاته المتعلق بالجسم تعلق

الى الطاعة ومنه قول القانت واليك نسعى ونحفد أى نسرع الى طاعتك هذا أصله فى اللغة واختلف فيه أقوال المفسرين فقال ابن مسعود والنخعى الحفدة أختان الرجل على بناته وعن ابن مسعود انهم أصهاره فهو بمعنى الاول وعلى هذا يكون معنى الآية وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهن فيحصل لكم بسببهن الاختان والاصهار وقال الحسن وعكرمة والضحاك هم الخدم وقال مجاهد هم الاعوان وكل من أعانك فهو حفيدك وقال عطاء هم ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه وقال الكلبى ومقاتل البنون هم الصغار والحفدة كبار الاولاد الذين يعينون الرجل الذين ليسوا منه أى أولاد المرأة من الزوج الاول قال الرازى والاولى دخول الكل فيه لان اللفظ محتمل للكل بحسب المعنى المشترك قال الزمخشرى ويجوز أن يراد بالحفدة البنون أنفسهم كانه قيل جعل لكم منهن أولادا هم بنون وهم حافدون أى جامعون بين الامرين انتهى ومع هذا فالمشهور ان الحافد ولد الولد من الذكور والاناث * (فائدة) * قال الاطباء وأهل الطبيعة المنى اذا انصب الى الخصية اليمنى من الذكر ثم انصب منه الى الجانب الايمن من الرحم كان الولد ذكرا تاما فى الذكورة واذا انصب من الخصية اليسرى ثم انصب الى الجانب الايسر من الرحم كان الولد أنثى تاما فى الانوثة واذا انصب الى الخصية اليمنى وانصب منها الى الجانب الايسر من الرحم كان ذكرا فى طبيعة الاناث واذا انصب الى الخصية اليسرى ثم انصب منها الى الجانب الايمن من الرحم كان هذا الولد أنثى فى طبيعة الذكور وحاصل كلامهم ان الذكور الغالب عليهم الحرارة واليبوسة والغالب على الاناث البرودة والرطوبة وهذه العلة ضعيفة فان فى النساء من مزاجها فى غاية السخونة وفى الرجال من مزاجه فى غاية البرودة فخالق الذكر والانثى هو الاله القادر الحكيم * ولما ذكر تعالى انعامه على عبيده بالمنكوح وما فيه من المنافع والمصالح ذكر انعامه عليهم بالمطعومات الطيبة فقال (ورزقكم من الطيبات) سواء كانت من النبات وهى الثمار والحبوب والاشربة أو كانت من الحيوان والمراد بالطيب المستلذ أو الحلال ومن فى من الطيبات للتبعيض لان كل الطيبات فى الجنة وما طيبات الدنيا الا أنموذج منها واختلف فى تفسير قوله تعالى (أفبالباطل يؤمنون) فقال ابن عباس يعنى بالاصنام وقال مقاتل يعنى بالشيطان وقال عطاء يصدقون ان لى شريكا وصاحبة وولدا (وبنعمت الله هم يكفرون) أى بان يضيفوها الى غير الله تعالى ويتركون اضافتها الى الله تعالى وقيل الباطل ما سول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله ما أحل لهم من هذه الطيبات وتحريم الخبائث * (فائدة) * رسمت نعمت هنا بالتاء ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء والكسائى يقرأ بالامالة * ولما شرح الله تعالى الدلائل على صحة التوحيد واتبعها بذكر أقسام النعم العظيمة اتبعها بالرد على عبدة الاصنام فقال (ويعبدون من دون الله) أى غيره (ما لا يملك لهم رزقا) اى تاركين عبادة من بيده جميع الارزاق وهو ذو العلو المطلق الذى رزقهم من الطيبات ويعبدون غيره ثم بين تعالى جهة الرزق بقوله تعالى (من السموات والارض) اما الرزق الذى يأتى من جانب السماء فالمطر وأما الذى من جانب الارض فالنبات والثمار التى تخرج منها وقوله تعالى (شيأ) فيه ثلاثة أوجه أحدها أنه منصوب على المصدر اى لا يملك لهم

التدبير ويطلق الانسان ولعين الشئ وذاته كما يقال نفس الذهب والفضة محبوبة اى ذاتها فالمراد بالنفس الاولى الانسان وبالثانية ذاته فكأنه قال يوم يأتى كل انسان يجادل

ملكا أى شيأ من الملك والثانى أنه بدل من رزقا أى لا يملكون لهم شيأ قال ابن عادل وهذا غير مفيد اذ من المعلوم أن الرزق شئ من الاشياء ويؤيد ذلك أن البدل لا يأتى الا لأحد معنيين البيان أو التأكيد وهذا ليس فيه بيان لانه أعم ولا تأكيد والثالث انه منصوب برزقا على انه اسم مصدر واسم المصدر يعمل عمل المصدر على خلاف فى ذلك * ولما كان من لا يملك شيأ قد يكون موصوفا باستطاعة أن يتملك بطريق من الطرق نفى الله تعالى عنهم ذلك بقوله تعالى (ولا يستطيعون) أى وليس لهم نوع استطاعة أصلا (فان قيل) انه تعالى قال ويعبدون من دون الله ما لا يملك فعبر عن الاصنام بصيغة ما وهى لغير العاقل ثم جمع بالواو والنون فقال ولا يستطيعون وهو مختص بمن يعقل (أجيب) بانه عبر عنها ثانيا اعتبارا باعتقادهم انها آلهة وفى تفسير قوله تعالى (فلا تضربوا لله الامثال) وجهان الاول قال أكثر المفسرين لا تشبهوا الله بخلقه فانه واحد لا مثل له ولا شبيه ولا شريك من خلقه لان الخلق كلهم عبيده وفى ملكه فكيف يشبه الخالق بالمخلوق والرازق بالمرزوق والقادر بالعاجز الثانى ان عبدة الاوثان كانوا يقولون ان اله العالم أجل وأعظم من ان يعبده الواحد منا بل نحن نعبد الكواكب أو نعبد هؤلاء الاصنام ثم ان الكواكب والاصنام عبيد الاله الاكبر الاعظم كما ان أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك وأولئك الاكابر كانوا يخدمون الملك فكذا ههنا (ان الله) أى الذى له الامر كله ولا أمر لغيره (يعلم) أى خطأ ما أنتم عليه من ضرب الامثال له (وأنتم لا تعلمون) ذلك وقيل معناه وأنتم لا تعلمون ما عليكم من العذاب العظيم بسبب عبادة هذه الاصنام ولو علمتموه لتركتم عبادتها * ولما ختم تعالى ابطال مذهب عبدة الاصنام بسلب العلم الذى هو مناط السداد عنهم أكد ذلك بضرب مثل بقوله تعالى (ضرب الله) أى الذى له كمال العلم وتمام القدرة (مثلا) بالاحرار والعبيد ثم أبدل من مثلا (عبدا) وقيده بقوله تعالى (مملوكا) ليخرج الحر لان العبد يطلق على الحر بالنسبة الى الله تعالى وقيده بقوله تعالى (لا يقدر على شئ) ليخرج المكاتب ومن فيه شائبة حرية وهذا مثل شركائهم ثم عطف على عبدا قوله (ومن) أى وحرا فهى نكرة موصوفة ليطابق عبدا (رزقناه منا رزقا حسنا) أى واسعا طيبا (فهو ينفق منه) دائما وهو معنى قوله تعالى (سرا وجهرا) أى يتصرف فيه كيف يشاء وهذا مثل الاله وله المثل الاعلى ثم بكتهم انكارا عليهم بقوله تعالى (هل يستوون) أى هذان الفريقان الممثل بهما لان المراد الجنس فاذا كان لا يسوغ فى عقل أن يسوى بين مخلوقين أحدهما حر مقتدر والآخر مملوك عاجز فكيف يسوى بين حجر من صوان أو غيره وبين الله تعالى الذى له القدرة التامة على كل شئ وقيل ذلك تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق * (تنبيه) * جواب هل يستوون هو لا يستوون وقوله تعالى (الحمد لله) قال ابن عباس الحمد لله على ما فعل بأوليائه وانعم عليهم بالتوحيد وقيل المعنى ان كل الحمد لله وليس شئ من الحمد للاصنام لانه لا نعمة لها على أحد لانها جماد عاجز أى انما الحمد لله لا لغيره فيجب على جميع العباد حمد الله لانه تعالى أهل المحامد والثناء الحسن فكأنهم قالوا نحن نعلم ذلك فقيل (بل أكثرهم) أى الكفار (لا يعلمون) لكونهم يسوونه غيره[3] ومن نفى عنه أصل العلم الذى هو أعلى صفات الكمال كان فى عداد الانعام فهم لذلك يشبهون به ما ذكر ويضربون له الامثال الباطلة ويضيفون نعمه الى غيره ثم انه

من ذاته لا يهمه شان غيره كل يقول نفسى نفسى (قوله ولا تك فى ضيق) قاله هنا بحذف النون وفى النمل باثباتها تشبيها لها بحروف العلة وخص ما هنا بحذفها موافقة لقوله

[3] قوله يسوونه غيره كذا بالاصل ولعله يسوونه بغيره وفى نسخة يسوون غيره ولعل صوابها يسوون غيره به فلعل السقط من الناسخ اهـ مصحح

تعالى ضرب لعبدة الاوثان مثلا آخر بقوله تعالى (وضرب الله مثلا) ثم أبدل منه (رجلين)
ثم استأنف البيان لما أجمل فقال (أحدهما أبكم) وهو الذى ولد أخرس فكل أبكم أخرس
وليس كل أخرس أبكم وروى ثعلب عن ابن الاعرابى الابكم الذى لا يسمع ولا يبصر ووصف الله
تعالى هذا الرجل بصفة ثانية بقوله تعالى (لا يقدر على شئ) لانه لا يفهم ولا يفهم وفى ذلك
اشارة الى العجز التام والنقصان الكامل ثم وصفه الله تعالى بصفة ثالثة بقوله تعالى (وهو)
أى ذلك الابكم العاجز (كل على مولاه) أى ثقيل على من ولى أمره ويعوله قال أهل المعانى
أصله من الغلظ الذى هو نقيض الحدة يقال كل السكين اذا غلظت شفرته فلم تقطع وكل اللسان
اذا غلظ فلم يقدر على الكلام وكل فلان عن الامر اذا ثقل عليه فلم ينهض فيه ثم وصفه تعالى
بصفة رابعة بقوله (أينما يوجهه) أى يرسله ويصرفه ذلك المولى (لا يأت بخير) لانه عاجز
لا يحسن ولا يفهم قيل هذا مثل شركائهم الذين هم عيالهم ووبال على عبدتهم ووبخهم الله
تعالى بقوله (هل يستوى هو) أى هذا الموصوف بهذه الصفات الاربع (ومن) أى ورجل
آخر على ضد صفته فهو ناطق قادر عالم فطن ذو خير مبارك ميمون (يأمر) أى وهو رجل آخر
يأمر بما له من العلم والقدرة (بالعدل) أى يبذل النصيحة لغيره (وهو) فى نفسه ظاهرا وباطنا
(على صراط) أى طريق واضح (مستقيم) أى عامل فيه بما يأمر به قيل هذا مثال المعبود
بالحق الذى يكفى عابده جميع المؤن وهو دال على كمال علمه وتمام قدرته وقيل المراد من هذا
الابكم عبد لعثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه كان ذلك العبد يكره الاسلام وما كان فيه
خير ومولاه وهو عثمان يأمر بالعدل وكان على الدين القويم والصراط المستقيم وقيل المراد
كل عبد موصوف بهذه الصفات المذمومة وكل حر موصوف بتلك الصفات الحميدة وهذا
القول كما قال الرازى أولى من الاول لان وصفه تعالى اياهما بكونهما رجلين يمنع من حمل
ذلك على الوثن وكذلك بالبكم وبالكل وبالتوجه فى جهات المنافع وكذلك وصف الآخر بانه
على صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى وأيضا المقصود تشبيه صورة بصورة فى أمر
من الامور وذلك التشبيه لا يتم الا عند كون احدى الصورتين مغايرة للاخرى وأما القول
الثانى فضعيف أيضا لان المقصود ابانة التفرقة بين رجلين موصوفين بالصفات المذكورة وذلك
غير مختص بشخص معين بل اذا حصل التفاوت فى الصفات المذكورة فانه يحصل المقصود
ثم وصف سبحانه وتعالى نفسه بكمال العلم بقوله تعالى (ولله) أى لا لغيره (غيب السموات
والارض) وهو ما غاب فيهما عن العباد بان لم يكن محسوسا ولم يدل عليه محسوس وقيل الغيب
ههنا هو قيام الساعة فان علمه غائب عن أهل السموات والارض ثم وصف سبحانه وتعالى كمال
قدرته بقوله تعالى (وما أمر الساعة) وهو الوقت الذى يكون فيه البعث (الا كلمح البصر) أى
الا كرجع الطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها والمعنى وما أمر قيام الساعة فى السرعة
والسهولة الا كطرف العين والمراد منه تقدير كمال القدرة ومعنى قوله تعالى (أو هو أقرب)
ان لمح البصر عبارة عن انتقال الجسم المسمى بالطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها ولا شك
أن الحدقة مؤلفة من أجزاء فلمح البصر عبارة عن المرور على جملة تلك الاجزاء التى منها تألف
الحدقة ولا شك أن تلك الاجزاء كثيرة والزمان الذى يحصل فيه لمح البصر مركب من

قيل ولم يك من المشركين
ولسبب نزول هذه الآية
لانها نزلت تسلية النبى صلى
الله عليه وسلم حين قتل عمه
حمزة ومثل به فقال صلى
الله عليه وسلم لافعلن بهم
ولاصنعن فانزل الله
تعالى ولئن صبرتم لهو خير

آيات متعاقبة والله تعالى قادر على إقامة القيامة في آن واحد من تلك الآنات فلذلك قال أو هو أقرب إلا أنه لما كان أسرع الأحوال والحوادث في عقولنا وأفكارنا هو لمح البصر لا جرم ذكره ثم قال أو هو أقرب تنبيها على ما مر ولا شبهة في أنه ليس المراد طريقة الشك فالمراد إذا بل هو أقرب وقال الزجاج المراد به الإبهام على المخاطبين لأنه تعالى يأتي بالساعة إما بقدر لمح البصر أو بما هو أسرع وقيل معناه أن قيام الساعة وإن تراخى فهو عند الله كالشيء الذي تقولون فيه هو كلمح البصر أو هو أقرب مبالغة كقوله تعالى وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون (إن الله) أي الملك الأعظم (على كل شيء قدير) فيقدر على أن يحيي الخلائق دفعة واحدة كما قدر على إحيائهم فإنه تعالى مهما أراده كان في أسرع ما يكون ثم إنه تعالى عاد إلى الدلائل الدالة على وجود الصانع المختار فعطف على قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا قوله عز وجل (والله) أي الذي له العظمة كلها (أخرجكم) بقدرته وعلمه (من بطون أمهاتكم) حال كونكم عند الإخراج (لا تعلمون شيئا) من الأشياء قل أو جل فالذي أخرجكم منها قادر على إخراجكم من بطون الأرض بلا فرق بل بطريق الأولى وقرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة والباقون بضمها وقرأ حمزة بكسر الميم والباقون بفتحها ثم عطف على أخرجكم قوله تعالى (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) آلات لإزالة الجهل الذي وقعت الولادة عليه وفتق مواضعها وسواها وعدلها وأنتم في البطون حيث لا تصل إليه يد ولا يتمكن من شق شيء منه بآلة فالذي قدر على ذلك في البطن ابتداعا قادر على إعادته في بطن الأرض بل بطريق الأولى قال البقاعي ولعله تعالى جمعهما أي الأبصار والأفئدة دون السمع لأن التفاوت فيهما أكثر من التفاوت فيه بما لا يعلمه إلا الله والأفئدة هي القلوب التي هيأها الله تعالى للفهم وإصلاح البدن بما أودعها من الحرارة اللطيفة للمعاني الدقيقة (لعلكم تشكرون) لتصيروا بمعارف القلوب التي وهبكموها إذا سمعتم المواعظ وأبصرتم الآيات في حال يرجى فيها شكركم لما أفاض عليكم من لطائف صنعه بأن تعرفوا ما له من العلم والقدرة فإنه إنما أنعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها في شكر من أنعم بها عليكم (فإن قيل) عطف وجعل لكم السمع على أخرجكم يقتضي أن يكون جعل السمع والبصر متأخرين عن الإخراج من البطون مع أن الأمر ليس كذلك (أجيب) بأن حرف الواو لا يوجب الترتيب وأيضا إذا حملنا السمع على الاستماع والأبصار على الرؤية زال السؤال ثم إنه تعالى ذكر دليلا آخر على كمال قدرته وحكمته بقوله تعالى (ألم يروا إلى الطير مسخرات) أي مذللات للطيران (في جو السماء) أي في الهواء بين الخافقين على ما لا يقدرون عليه بوجه من الوجوه مع مشاركتكم لها في السمع والبصر وزيادتكم عليها بالعقول فعلم قطعا أنه تعالى خلق الطير خلقة معها يمكنه الطيران فيها وإلا لما أمكن ذلك لأنه تعالى أعطى الطير جناحا يبسطه مرة ويكسره مرة أخرى مثل ما يعمل السابح في الماء وخلق الجو خلقة لطيفة رقيقة يسهل خرقه والنفاذ فيه ولولا ذلك لما كان الطيران ممكنا مع ذلك (ما يمسكهن) في الجو عن الوقوع (إلا الله) أي الملك الأعظم فإن جسد الطير جسم ثقيل والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه

الصابرين الآية فبالغ في الحذف ليكون ذلك مبالغة في التسلية وأتى بالتاء هنا في الفعل جاء على القياس ولأن الحزن ثم دون الحزن هنا

(سورة الإسراء)

فى الجو معلقا من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه فوجب أن يكون الممسك له فى ذلك الجو هو الله تعالى وقرأ ابن عامر وحمزة بالتاء على أنه خطاب العامة والباقون بالياء على الغيبة (ان فى ذلك) المذكور (لآيات) أى دلالات (لقوم يؤمنون) وخصهم بذلك لانهم هم المنتفعون بها وان كانت هذه الآيات آيات لكل العقلاء ثم ذكر تعالى نوعا آخر من دلائل التوحيد بقوله تعالى (والله) اى الذى له الحكمة البالغة (جعل لكم من بيوتكم) وأصل البيت المأوى ليلا ثم اتسع فيه (سكنا) اى موضعا تسكنون فيه * (تنبيه) * البيوت التى يسكن الانسان فيها على قسمين أحدهما البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التى بها يمكن تسقيف البيوت واليها الاشارة بقوله تعالى والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقلها بل الانسان ينتقل اليها والقسم الثانى القباب والخيام والفساطيط واليها الاشارة بقوله تعالى (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) المتخذة من الادم ويجوز أن يتناول المتخذة من الوبر والصوف والشعر فانها من حيث انها نابتة على جلودها يصدق عليها انها من جلودها (تستخفونها) اى تجدونها خفيفة يخف عليكم حملها ونقلها (يوم ظعنكم) اى وقت ترحالكم وعبر باليوم لان الترحال فى النهار (ويوم اقامتكم) اى وقت الحضر أو وقت النزول وهذا القسم من البيوت يمكن نقلها وتحويلها من مكان الى مكان وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح العين والباقون بالسكون وأضاف قوله تعالى (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) الى ضمير الانعام لانها من جملتها قال المفسرون وأهل اللغة الاصواف للضأن والاوبار للابل والاشعار للمعز (أثاثا) اى ما يلبس ويفرش (ومتاعا) اى ما يتجر به وقيل الاثاث ما يكتسى به المرء ويستعمله فى الغطاء والوطاء والمتاع ما يفرش فى المنازل ويتزين به واختلف فى معنى قوله تعالى (الى حين) فقيل الى حين تبلى وقيل الى حين الموت وقيل الى حين بعد حين وقيل الى يوم القيامة * (تنبيه) * فى نصب أثاثا وجهان أحدهما انه منصوب عطفا على بيوتا اى وجعل لكم من أصوافها أثاثا والثانى انه منصوب على الحال واعلم ان الانسان اما أن يكون مقيما أو مسافرا والمسافر اما أن يكون غنيا يستصحب معه الخيام أولا فالقسم الاول أشار اليه بقوله تعالى جعل لكم من بيوتكم سكنا وأشار الى القسم الثانى بقوله تعالى وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا وأشار الى القسم الثالث بقوله تعالى (والله) اى الذى له الجلال والاكرام (جعل لكم) اى من غير حاجة منه تعالى (مما خلق) من شجر وجبال وأبنية وغيرها وقوله تعالى (ظلالا) جمع ظل تتقون به شدة الحر وقوله تعالى (وجعل لكم) مع غناه المطلق (من الجبال أكنانا) جمع كن موضع تسكنون فيه من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها (وجعل لكم) اى امتنانا منه عليكم (سرابيل) جمع سربال قال الزجاج كل ما لبسته فهو سربال من قميص أو درع أو جوشن أو غيره اى وسواء كان من صوف أو كتان أو قطن أو غير ذلك (تقيكم الحر) ولم يقل تعالى والبرد لتقدمه فى قوله تعالى فيها دفء وقيل لانه اكتفى بأحد المتقابلين وقيل كان المخاطبون بهذا الكلام العرب وبلادهم حارة فكان حاجتهم الى ما يدفع الحر فوق حاجتهم الى ما يدفع البرد كما قال تعالى ومن

إصوافها

(قوله الذى أسرى بعبده ليلا) قال بعضهم دون نبيه أو حبيبه لئلا تضل به أمته كما ضلت أمة المسيح حيث دعته الها أو لأن وصفه بالعبودية المضافة الى الله تعالى أشرف

أصوافها وأوبارها وأشعارها وسائر أنواع الثياب أشرف الا أنه تعالى ذكر ذلك النوع لانه كان انعامه بها أشد واعتيادهم للبسها أكثر ولما كانت السرابيل نوعا واحدا لم يكرر لفظ جعل فقال (وسرابيل) اى دروعا من حديد وغيرها (تقيكم بأسكم) اى حربكم أى فى الطعن والضرب فيها ولما عدد الله تعالى أنواع نعمه قال (كذلك) اى كاتمام هذه النعمة المتقدمة (يتم نعمته عليكم) فى الدنيا والدين بالبيان والهداية لطريق النجاة والمنافع والتنبيه على دقائق ذلك (لعلكم) يا أهل مكة (تسلمون) اى تخلصون لله الربوبية وتعلمون أنه لا يقدر على هذه الانعامات أحد سواه وقيل تسلمون من الجراح بلبس الدروع (فان تولوا) فلم يقبلوا منك وآثروا لذات الدنيا ومتابعة الآباء والمعاداة فى الكفر (فانما عليك) يا أفضل الخلق (البلاغ المبين) هذا جواب الشرط وفى الحقيقة جواب الشرط محذوف أى فقد تمهد عذرك بعد ما أديت ما وجب عليك من التبليغ فذكر سبب العذر وهو البلاغ ليدل على المسبب وذلك لان تبليغه سبب فى عذره فأقيم السبب مقام المسبب وهذا قبل الامر بالقتال ثم انه تعالى ذمهم بأنهم (يعرفون نعمت الله) اى الملك الاعظم التى تقدم عد بعضها فى هذه السورة وغيرها (ثم ينكرونها) بعبادتهم غير المنعم بها وقال السدى نعمة الله يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم أنكروه وكذبوه وقيل نعمة الله هى الاسلام وهو من أعظم النعم التى أنعم الله تعالى بها على عباده ثم ان كفار مكة أنكروه وجحدوه واختلف فى معنى قوله تعالى (وأكثرهم الكافرون) مع أنهم كلهم كانوا كافرين على وجوه الاول انما قال تعالى وأكثرهم لانه كان فيهم من لم تقم عليه الحجة ممن لم يبلغ حد التكليف أو كان ناقص العقل فاراد بالاكثر البالغين الاصحاء الثانى ان يكون المراد بالكافر الجاحد المعاند وكان فيهم من لم يكن معاندا بل كان جاهلا بصدق الرسول وما ظهر له كونه نبيا حقا من عند الله الثالث انه ذكر الاكثر والمراد الجميع لان أكثر الشئ يقوم مقام الكل فذكر الاكثر كذكر الجميع وهذا كقوله تعالى الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ولما بين تعالى من حال القوم انهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها وذكر أيضا من حالهم أن أكثرهم كافرون أتبعه بالوعيد فذكر حال يوم القيامة بقوله تعالى (ويوم) اى وخوفهم يوم أو واذكر لهم يوم (نبعث) بعد البعث (من كل أمة شهيدا) هو نبيها كما قال تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا يشهد نبيها لها وعليها يوم القيامة ليحكم تعالى بقوله اجراء للامر على ما يتعارفون وان كان تعالى غنيا عن شهيد وقوله تعالى (ثم لا يؤذن للذين كفروا) فيه وجوه أحدها لا يؤذن لهم فى الاعتذار كقوله تعالى ولا يؤذن لهم فيعتذرون ثانيها لا يؤذن لهم فى كثرة الكلام ثالثها لا يؤذن لهم فى الرجوع الى دار الدنيا والى التكليف رابعها لا يؤذن لهم فى حال شهادة الشهود بل يسكت أهل الجمع كلهم ليشهد الشهود (فان قيل) ما معنى ثم ههنا (أجيب) بان معناها انهم يمنعون أى يبتلون بغير شهادة الانبياء عليهم السلام بما هو أطم منها وانهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم فى القاء معذرة ولا ادلاء بحجة (ولا هم يستعتبون) اى لا تزال عتباهم وهى ما يعتبون عليها ويلامون يقال استعتبت فلانا بمعنى اعتبته اى ازلت

المقامات وقال لا لا منكرا ليدل على قصر زمن الاسراء مع ان بين مكة و بين بيت المقدس مسيرة اربعين ليلة لان التنكير يدل على البعضية والحكمة فى اسرائه صلى الله عليه

عنباه (واذا رأى الذين ظلموا) اى ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى (العذاب) اى عذاب جهنم بعد الموقف وشهادة الشهداء (فلا يخفف عنهم) ذلك العذاب (ولاهم ينظرون) اى لا يمهلون ه ولما بين تعالى حاصل أمرهم فى البعث ومابعده وكان من أهم المهم أمرهم فى الموقف مع شركائهم الذين كانوا يرجونهم عطف على ذلك بقوله تعالى (واذا رأى) اى بالعين يوم القيامة (الذين اشركوا شركاءهم) اى الا ٓلهة التى كانوا يدعونها شركاء من الشياطين وغيرها (قالوا ربنا) اى ياسى أحسن المناور بانا (هؤلاء شركاؤنا) أضافوهم الى أنفسهم لانه لاحقيقة لشركتهم سوى تسميتهم لها الموجبة لضرهم ثم بينوا المراد بقولهم (الذين كنا ندعوا) اى نعبدهم (من دونك) ليقربونا اليك فاكرمنا الاجلهم جريا على مناهجهم فى الدنيا فى الجهل والغباوة فخاف شركاؤهم من عواقب هذا القول والاقرار عليه سطوات الغضب (فالقوا) اى الشركاء (اليهم) اى المشركين (القول) اى بادروا به حتى كان اسراعهم اليه اسراع شئ ثقيل يلقى من علو وأكدوا قولهم فقالوا (انكم لكاذبون) فى جعلنا شركاء او انكم عبدتمونا حقيقة وانما عبدتم أهواءكم كقوله تعالى كلا سيكفرون بعبادتهم ولا يبعد أن تنطق الاصنام بذلك يومئذ فى انهم حملوهم على الكفر والزموهم اياه كقوله وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى (والقوا) اى الشركاء (الى الله) اى الملك الاعلى (يومئذ) اى يوم القيامة (السلم) اى الاستسلام لحكمه بعد الاستكبار فى الدنيا (وضل) اى غاب (عنهم) اى الكفار (ما كانوا يفترون) اى من أن آلهتهم تشفع لهم ه ولما ذكر تعالى وعيد الذين كفروا أتبعه بوعيد من ضم الى كفره صد الغير عن سبيل الله بقوله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) اى ضموا مع كفرهم انهم منعوا الناس عن الدخول فى الايمان بالله وبرسوله (زدناهم عذابا) لصدهم (فوق العذاب) المستحق بكفرهم (بما كانوا يفسدون) اى بكونهم مفسدين بصدهم وقيل زدناهم عذابا بحيات وعقارب كامثال البخت يستغيثون بالهرب منها الى النار ومنهم من ذكر أن لكل عقرب ستمائة فقرة فى كل فقرة ثلثمائة قلة من سم وقيل عقارب لها أنياب كالنخل الطوال ثم كرر سبحانه وتعالى التحذير من ذلك اليوم على وجه يزيد على ما أفهمته الا ٓية السابقة وهو أن الشهادة تقع على الامم لا لهم وذكر بحضرتهم فقال (ويوم) اى وخوفهم أو واذكر لهم يوم (نبعث) اى بمالنا من القدرة (فى كل أمة) من الامم والامة عبارة عن القرن والجماعة (شهيدا عليهم) قال ابن عباس يريد الانبياء قال المفسرون كل نبى شاهد على أمته وهو أعدل شاهد عليها (من أنفسهم) اى منهم لان كل نبى انما بعث من قومه الذين بعث اليهم ليشهد عليهم بما فعلوا من كفر وايمان وطاعة وعصيان (وجئنا) بما لنا من العظمة (بك) ياخير المرسلين (شهيدا على هؤلاء) اى الذين بعثناك اليهم وهم أهل الارض وأكثرهم ليس من قومه صلى الله عليه وسلم ولذلك لم تقيد بعثته بشئ وقال أبو بكر الاصم المراد بذلك الشهيد هو أنه تعالى ينطق عشرة من أعضاء الانسان حتى انها تشهد عليه وهو الاذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان قال والدليل عليه انه قال فى صفة الشهيد انه من أنفسهم وهذه الاعضاء لاشك انها من

وسلم من بيت المقدس دون مكة لانه محشر الخلائق فيطؤه بقدميه ليسهل على أمته يوم القيامة وقوفهم ببركة أثر قدميه أولانه مجمع أرواح الانبياء فاراد الله تعالى ان يشرفهم بزيارته

أنفسهم وورد بانه تعالى قال شهيدا عليهم فيجب ان يكون غيرهم وأيضا قال من كل أمة فيجب ان يكون ذلك الشهيد من الامة وآحاد هذه الاعضاء لا يصح وصفها بانها من الامة ثم بين تعالى انه أزاح علتهم فيما كلفوا به فلا حجة لهم ولا معذرة بقوله تعالى (ونزلنا) أى بعظمتنا بحسب التدريج والتنجيم (عليك) يا خير خلق الله (الكتاب) أى القرآن الجامع للهدى (تبيانا) أى بيانا بليغا (لكل شئ) (فان قيل) كيف كان القرآن تبيانا لكل شئ (اجيب) بان المعنى من كل شئ من امور الدين حيث كان نصا على بعضها واحالة على السنة حيث أمر فيه باتباع النبى صلى الله عليه وسلم وطاعته وقد قال تعالى وما ينطق عن الهوى وحثا على الاجماع فى قوله تعالى ويتبع غير سبيل المؤمنين وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته اتباع أصحابه والاقتداء بآثارهم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق القياس والاجتهاد فكانت السنة والاجماع والقياس والاجتهاد مستندة الى تبيان الكتاب فمن ثم كان تبيانا لكل شئ (وهدى) أى من الضلالة (ورحمة) لمن آمن به وصدقه (وبشرى) بالجنة (للمسلمين) أى الموحدين خاصة ولما استقصى سبحانه وتعالى فى شرح الوعد والوعيد والرغبة والترهيب اتبعه بقوله (ان الله) أى الملك المستجمع لصفات الكمال (يأمر بالعدل) قال ابن عباس فى بعض الروايات العدل شهادة ان لا اله الا الله (والاحسان) أداء الفرائض وقال فى رواية اخرى العدل خلع الانداد والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحب للناس ما تحب لنفسك فان كان مؤمنا احببت له ان يزداد ايمانا وان كان كافرا أحببت له أن يكون أخاك فى الاسلام وقال فى رواية ثالثة العدل هو التوحيد والاحسان هو الاخلاص فيه وقال آخرون يعنى بالعدل فى الافعال والاحسان فى الاقوال فلا تفعل الا ما هو عدل ولا تقل الا ما هو احسان وأصل العدل المساواة فى كل شئ من غير زيادة ولا نقصان فالعدل هو المساواة فى المكافأة ان خيرا فخير وان شرا فشر والاحسان ان تقابل الخير باكثر منه والشر بان تعفو عنه وعن الشعبى قال عيسى بن مريم انما الاحسان أن تحسن الى من أساء اليك ليس الاحسان ان تحسن الى من أحسن اليك وقيل العدل الانصاف والانصاف أعدل من الاعتراف للمنعم بانعامه والاحسان ان تحسن الى من أساء اليك وعن محمد بن كعب القرظى قال دعانى عمر بن عبد العزيز فقال صف لى العدل فقلت بخ سألت عن أمر جسيم كن لصغير الناس أبا ولكبيرهم ابنا وللمثل منهم أخا وللنساء كذلك (وايتاء) أى ومن الاحسان ايتاء (ذى القربى) أى القرابة القربى والبعدى فيندب ان تصلهم من فضل ما رزقك الله فان لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتودد وروى ابو سلمة عن أبيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم ان أهل هذا البيت ليكونون فجارا فتنمى أموالهم ويكثر عددهم اذا وصلوا ارحامهم * ولما أمر تعالى بالمكارم نهى عن المساوى بقوله تعالى (وينهى عن الفحشاء) قال ابن عباس أى الزنا فانه اقبح احوال الانسان واشنعها وقال غيره الفحشاء ما قبح من القول والفعل فيدخل فيه الزنا وغيره من جميع الاقوال والافعال المذمومة جميعها (والمنكر) قال ابن عباس يعنى الشرك والكفر وقال غيره المنكر ما لا يعرف فى شريعة ولا سنة (والبغى) هو الاستعلاء على الناس والتجبر عليهم وقيل ان أعجل

صلى الله عليه وسلم او امرى به منه ليشاهد من أحواله وصفاته ما يخبر به الكفار صبيحة تلك الليلة فيكون اخباره بذلك مطابقا لما رأوا او شاهدوا ودليلا على صدقه فى الاسراء

المعاصي عقابا البغي ولو أن جبلا بغى على جبل لدك الباغي وأمر تعالى على البغي مع دخوله في المنكر اهتماما به كما بدأ بالفحشاء لذلك وقال ابن قتيبة في هذه الآية العدل استواء السر والعلانية والاحسان أن تكون سريرته خيرا من علانيته والفحشاء والمنكر والبغي أن تكون علانيته أحسن من سريرته وقال بعض العلماء ان الله تعالى ذكر من المأمورات ثلاثة أشياء ومن المنهيات ثلاثة أشياء فذكر العدل وهو الانصاف والمساواة في الاقوال والافعال وذكر في مقابلته الفحشاء وهو ماقبح من الاقوال والافعال وذكر الاحسان وهو ان يعفو عمن ظلمه ويحسن الى من أساء اليه وذكر في مقابلته المنكر وهو أن ينكر احسان من أحسن اليه وذكر ايتاء ذي القربى والمراد به صلة القرابة والتودد اليهم والشفقة عليهم وذكر في مقابلته البغي وهو أن يتكبر عليهم او يظلمهم حقوقهم ولما كان هذا المذكور من أبلغ المواعظ نبه عليه بقوله تعالى (يعظكم) أي يأمركم بما يرقق قلوبكم من مصاحبة الثلاثة الاول وهي العدل والاحسان وايتاء ذي القربى ومجانبة الثلاثة الاخيرة وهي الفحشاء والمنكر والبغي (لعلكم تذكرون) أي لكي تتعظوا فتعملوا بما فيه رضا الله تعالى وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد وفيه ادغام التاء في الاصل في الذال وروى البيهقي في شعب الايمان عن ابن مسعود انه قال أعظم آية في كتاب الله تعالى الله لا اله الا هو الحي القيوم وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر الآية التي في النحل ان الله يأمر بالعدل والاحسان وأكثر آية في كتاب الله تفويضا ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وأشد آية في كتاب الله تعالى رجاء قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم الآية وقال أهل المعاني لما قال الله تعالى في الآية الاولى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ بين في هذه الآية المأمور به والمنهي عنه على سبيل الاجمال فما من شئ يحتاج اليه الناس في أمر دينهم مما يجب أن يؤتى به او يترك الا وقد اشتملت عليه هذه الآية وعن قتادة ليس من خلق حسن كان من أهل الجاهلية يعملون به ويعظمونه ويخشونه الا أمر الله تعالى به وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم الا نهى الله عنه وعن عكرمة ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة ان الله يأمر بالعدل والاحسان الى آخر الآية فقال له يا ابن أخي أعد علي فأعادها عليه فقال الوليد والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وما هو بقول البشر ولما تقررت هذه الجمل التي جمعت بجمعها المأمورات والمنهيات ماتضيق عنه الدفاتر والصدور وشهد لها المعاندون من بلغاء العرب انها بلغت من البلاغة مبلغا يحصل به غاية السرور ذكر بعض تلك الاقسام وبدأ بما هو مع جمعه أهم وهو الوفاء بالعهد بقوله تعالى (وأوفوا) أي أوقعوا الوفاء الذي لا وفاء في الحقيقة غيره (بعهد الله) أي الملك الاعلى الذي عاهدكم عليه بادلة العقل من التوحيد والبيع والايمان وغيرها من أصول الدين وفروعه (اذا عاهدتم) بتقلبكم لمباذعاتكم لامتثاله (ولا تنقضوا الايمان) واحترز عن لغو اليمين بقوله تعالى (بعد توكيدها) أي تشديدها فتحنثوا فيها وفي ذلك دليل على أن المراد بالعهد غير اليمين لانه أعم منه وقرأ أبو عمرو بادغام الدال في التاء بخلاف عنه (و) الحال انكم (قد جعلتم الله) أي الذي له العظمة كلها (عليكم كفيلا) أي شاهدا ورقيبا

(قوله باركنا حوله) هو اعم من ان يقال باركنا عليه او فيه لافادته شمول البركة لما احاط بالمسجد من ارض الشام بالمنطوق وللمسجد بمفهوم الاولى (قوله) وان اساتم فلها اللام للاختصاص

وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بإظهار دال قد عند الجيم والباقون بالإدغام وعن جابر رضي الله عنه قال نزلت هذه الآية في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم كان من أسلم بايع على الإسلام فقال تعالى وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام (إن الله) أي الذي له الإحاطة الكاملة (يعلم ما تفعلون) من وفاء العهد ونقضه ثم ضرب الله تعالى لنقض العهد مثلاً فقال (ولا تكونوا) أي في نقض العهد (كالتي نقضت غزلها) أي ما غزلته فهو مصدر بمعنى المفعول (من بعد قوة) أي إبرام وإحكام وقوله تعالى (أنكاثاً) جمع نكث وهو ما ينقض من الغزل والحبل قال مقاتل هذه امرأة من قريش يقال لها رائطة وقيل ريطة وتلقب بجعراء وكانت خرقاء حمقاء اتخذت مغزلاً قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل من الصوف والشعر والوبر هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن وكان هذا دأبها وقال السدي كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء مكة تغزل فإذا أبرمت غزلها نقضته وقال مجاهد نقضت حبلها بعد إبرامها إياه وقال قتادة لو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد إبرامه لقلتم ما أحمق هذه وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده وقال في قوله تعالى (تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم) خيانة وغدراً انتهى والدخل ما يدخل في الشيء على سبيل الفساد وقيل الدخل والدغل أن يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه وإنما كانوا يفعلون ذلك (أن) أي بسبب أن (تكون) أو مخافة أن تكون وتكون يجوز أن تكون تامة فتكون (أمة) أي جماعة فاعلها وأن تكون ناقصة فتكون أمة اسمها و(هي) مبتدأ و(أربى) أي أكثر (من أمة) خبره والجملة في محل نصب على الحال على الوجه الأول وفي موضع الخبر على الثاني وأربى مأخوذ من ربا الشيء يربو إذا زاد وهذه الزيادة قد تكون في العدد وفي القوة وفي الشرف قال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء ثم يجدون من كان أعز منهم وأشرف فينقضون حلف الأولين ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز فنهاهم الله تعالى عن ذلك (إنما يبلوكم الله) الذي له الملك كله أي يختبركم (به) أي بما أمركم به من الوفاء لنعلم المختبر ليظهر للناس تمسككم بالوفاء وانحلالكم عنه اعتماداً على كثرة أنصاركم وقلة أنصار من نقضتم عهده من المؤمنين وغيرهم مع قدرته سبحانه وتعالى على ما يريد فيوشك أن يعاقب بالمخالفة فيضعف القوي ويقل الكثير ويكثر القليل (وليبينن لكم) أي إذا تجلى لفصل القضاء (يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) أي إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب فاحذروا يوم العرض على مالك السموات والأرض وإن من نوقش الحساب هلك (ولو شاء الله) أي الملك الأعلى الذي لا أمر لأحد معه أن يجعلكم أمة واحدة لا خلاف بينكم في أصول الدين ولا فروعه (لجعلكم أمة واحدة) أي متفقة على أمر واحد وهو دين الإسلام (ولكن) لم يشأ ذلك بل شاء اختلافكم فهو تعالى (يضل من يشاء) عدلاً منه تعالى لأنه تام الملك ولو كان الذي أضله على أحسن الحالات (ويهدي) بفضله (من يشاء) ولو كان على أخس الحالات والأحوال فبذلك تكونون مختلفين لا يسئل عما يفعل سبحانه وتعالى (ولتسئلن عما كنتم تعملون) في الدنيا فيجازي المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بعدله

أو بمعنى على كما في قوله تعالى يخرون للأذقان سجداً (قوله ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً) قال ذلك هذا بلفظ كبيراً وقال في الكهف

تعالى ولما حذر سبحانه وتعالى عن نقض العهد والايمان مطلقا قال تعالى (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا) أى فسادا ومكرا وخديعة (بينكم) وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق الايمان والا لزم التكرار الخالى عن الفائدة فى موضع واحد بل المراد نهى أولئك الاقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن نقض ايمان مخصوصة أقدموا عليها ولهذا المعنى قال المفسرون المراد نهى الذين بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم عن نقض العهد لان قوله تعالى (فتزل) أى فيكون ذلك سببا لان تزل (قدم) هى فى غاية العظمة (بعد ثبوتها) اى عن مركزها التى كانت به من دين او دنيا فلا يصير لها قرار فتسقط عن مرتبتها لا يليق بنقض عهد قبله وانما يليق بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان به وبشرائعه * (تنبيه) * فتزل منصوب باضمار ان على جواب النهى وزلل القدم مثل يذكر لكل من وقع فى بلاء بعد عافية او سقط فى ورطة بعد سلامة او محنة بعد نعمة (وتذوقوا السوء) أى العذاب فى الدنيا (بما) أى بسبب ما (صددتم) أى أنفسكم ومنعتم غيركم بايمانكم التى قد أردتم بها الافساد وخفاء الحق (عن سبيل الله) أى دينه وذلك انه من نقض العهد سهل على غيره طرق نقض العهد فيستن به (ولكم) مع ذلك (عذاب عظيم) أى ثابت غير منفك اذا متم على ذلك ثم أكد سبحانه وتعالى هذا التحذير بقوله تعالى (ولا تشتروا) أى ولا تكلفوا أنفسكم لجاجا وترك النظر أن تأخذوا وتستبدلوا (بعهد الله) الذى له الكمال كله (ثمنا قليلا) أى من حطام الدنيا وان كنتم ترونه كثيرا ثم علل قلته بقوله تعالى (انما عند الله) أى الذى له الجلال والاكرام من ثواب الدارين (هو خير لكم) ولا يعدل عن الخير الى غيره الا لجوج ناقص العقل ثم شرط علم خيريته لكونهم من ذوى العلم بقوله تعالى (ان كنتم تعلمون) أى ان كنتم من أهل العلم والتمييز فتعلمون فضل ما بين العوضين * ثم بين ذلك بقوله تعالى (ما عندكم) أى من متاع الدنيا ولذاتها (ينفد) أى يفنى فصاحبه منغص العيش أشد ما يكون به اغتباطا بانقطاعه (وما عند الله) أى الذى له الامر كله من ثواب الآخرة ونعيم الجنة (باق) أى دائم روى عن ابى موسى الاشعرى رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى وقرأ ابن كثير باقى فى الوقف بالياء والباقون بغير ياء واما فى الوصل فالجميع بالتنوين (ولنجزين الذين صبروا) على الوفاء بما يرضيه من الاوامر والنواهى فى السراء والضراء (أجرهم) أى ثواب صبرهم (بأحسن ما كانوا يعملون) أى بجزاء أحسن من أعمالهم او يجزيهم على أحسن أعمالهم وذلك لان المؤمن قد يأتى بالمباحات وبالمندوبات وبالواجبات ولا شك ان الواجبات والمندوبات مما يثاب على فعلها لا على فعل المباحات وقرأ ابن كثير وعاصم بالنون قبل الجيم أى ولنجزين نحن والباقون بالياء أى وليجزين الله ثم انه تعالى رغب المؤمنين فى الايمان بكل ما كان من شرائع الاسلام بقوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن) اذ لا اعتداد باعمال الكفار فى استحقاق الثواب وانما المتوقع عليها تخفيف العذاب (فان قيل) من عمل صالحا يفيد العموم فما فائدة تمييز ذكر او انثى (اجيب) بانه ذكر دفعا للتخصيص باحد الفريقين واختلف فى قوله تعالى (فلنحيينه حياة طيبة) فقال سعيد بن جبير وعطاء هى الرزق الحلال وقال مقاتل هى

بلفظ حسنا موافقة للفواصل قبلها وبعدها (قوله وجعلنا الليل والنهار آيتين) ان قلت لم ثنى الآية هنا وافردها فى قوله وجعلناها وابنها آية (قلت) لتباين الليل

العيش

العيش فى الطاعة وقال الحسن هى القناعة لان عيش المؤمن فى الدنيا وان كان فقيرا أطيب
من عيش الكافر وان كان غنيا لان المؤمن لما علم ان رزقه من عند الله تعالى وذلك بتقديره
وتدبيره تعالى وعرف ان الله تعالى محسن كريم حكيم يضع الاشياء فى محلها فكان المؤمن
راضيا بقضاء الله وبما قدره له ورزقه اياه وعرف أن مصلحته فى ذلك القدر الذى رزقه
فاستراحت نفسه من الكدر والحرص فطاب عيشه بذلك وأما الكافر والجاهل بهذه
الاصول فدائم الحرص على طلب الرزق فيكون أبدا فى حزن وتعب وعناء وحرص فى الدنيا
ولا ينال من الرزق الا ما قدر له فظهر بهذا ان عيش المؤمن القنوع أطيب من غيره وقال
السدى الحياة الطيبة انما تحصل فى القبر لان المؤمن يستريح بالموت من كد الدنيا وتعبها
وقال مجاهد وقتادة هى الجنة لانها حياة بلا موت وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم وملك بلا هلاك
وسعادة بلا شقاوة فاثبت بهذا ان الحياة الطيبة لا تكون الا فى الجنة ولا مانع من ان المؤمن
الكامل يحصل جميع ذلك ثم ان الله تعالى ختم الآية بقوله تعالى (ولنجزينهم أجرهم) اى فى
الدنيا والآخرة (باحسن ما كانوا يعملون) اى من الطاعة وقد سبق تفسيره ولما قال تعالى
ولنجزينهم أجرهم باحسن ما كانوا يعملون أرشده الى العمل الذى به تخلص أعماله من
الوسواس بقوله تعالى (فاذا قرأت القرآن) اى أردت قراءته (فاستعذ) اى ان شئت جهرا
وان شئت سرا قال الشافعى رضى الله تعالى عنه والاسرار أولى فى الصلاة وفى قول يجهر كما يفعل
خارج الصلاة (بالله) اى سل الذى له الكمال كله ان يعيذك (من الشيطان) اى المحترق باللعنة
(الرجيم) اى المطرود عن الرحمة من أن يصدك بوساوسه عن اتباعه ويدخل فى ذلك جميع
المردة من الشياطين لان لهم قدرة على القاء الوسوسة فى قلوب بنى آدم باقدار الله تعالى على ذلك
وقيل المراد ابليس خاصة والاستعاذة بالله تعالى هى الاعتصام به والخطاب للنبى صلى الله عليه
وسلم ويدخل فيه غيره من أمته وظاهر الآية وجوب الاستعاذة واليه ذهب عطاء سواء كانت
القراءة فى الصلاة أم فى غيرها واتفق سائر الفقهاء على أنها سنة فى الصلاة وغيرها والصارف
لهذا الامر عن الوجوب أحاديث كثيرة منها القراءة بدون ذكر تعوذ كحديث البخارى وغيره
عن أبى سعيد بن المعلى رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ما منعك أن تجيبنى
قال كنت أصلى قال ألم يقل الله استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم ثم قال لأعلمنك سورة هى
أعظم سورة فى القرآن الحمد لله رب العالمين وفى رواية الموطا انه صلى الله عليه وسلم نادى أبيا
وأنه قال له كيف تقرأ اذا افتتحت الصلاة قال أبى فقرأت الحمد لله رب العالمين حتى أتيت الى
آخرها وظاهر الآية يدل على ان الاستعاذة بعد القراءة واليه ذهب جماعة من الصحابة
والتابعين وهو قول أبى هريرة واليه ذهب مالك وداود الظاهرى قالوا لان قارئ القرآن
يستحق ثوابا عظيما وربما حصل الوسواس فى قلب القارئ هل حصل له ذلك الثواب أو لا فاذا
استعاذ بعد القراءة اندفعت تلك الوساوس وبقى الثواب مخلصا والذى ذهب اليه الاكثرون من
الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وفقهاء الامصار ان الاستعاذة مقدمة على القراءة
قالوا ومعنى الآية اذا أردت ان تقرأ القرآن فاستعذ بالله وتبعتم على ذلك فاهذا قدرت ذلك

والنهار من كل وجه ولتكررهما فناسبهما التثنية بخلاف عيسى مع أمه فانه جزء منها ولا تكرر فيهما فناسبهما الافراد (قوله وجعلنا آية النهار مبصرة) اى مضيئة لان

في الآية الكريمة ومثل ذلك قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ومثله من الكلام اذا أكلت فسم أي اذا أردت ان تأكل فقل بسم الله الرحمن الرحيم واذا سافرت فتأهب أي اذا أردت السفر فتأهب وأيضا الوسوسة انما تحصل في أثناء القراءة فتقديم الاستعاذة على القراءة لتذهب الوسوسة عنه أولى من تأخيرها عن وقت الحاجة اليها ٭ ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان وكان ذلك يوهم أن للشيطان قدرة على التصرف في أبدان الانسان أزال الله تعالى ذلك الوهم وبين انه لا قدرة له البتة الا على الوسوسة بقوله تعالى (انه ليس له سلطان) اي بحيث لا يقدر المسلط عليه على الانفكاك عنه (على الذين آمنوا) اى بتوفيق ربهم لهم (وعلى ربهم) وحده (يتوكلون) اى على أوليائه المؤمنين به والمتوكلين عليه فانهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته وعن سفيان الثوري قال ليس له سلطان على ان يحملهم على ذنب لا يغفر لهم ثم وصل تعالى بذلك ما أفهمه من ان له سلطانا على غيرهم بقوله (انما سلطانه) اى الذي يتمكن به غاية التمكن بامكان الله تعالى له (على الذين يتولونه) اى يحبونه ويطيعونه (والذين هم به) اى بالله تعالى (مشركون) وقيل الضمير راجع الى الشيطان والمعنى هم بسببه مشركون بالله ٭ ولما كان المشركون اذا نزلت آية فيها شدة ثم نزلت آية ناسخة لها يقولون ان محمدا يستهزئ باصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ما هو الا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه نزل (واذا بدلنا) اى بقدرتنا بالنسخ (آية) سهلة كالعدة بأربعة أشهر وعشر وقتال الواحد من المسلمين لاثنين من الكفار أو شاقة كتحريم الخمر وايجاب الصلوات الخمس فجعلناها (مكان آية) شاقة كالعدة بحول ومصابرة عشرة من الكفار أو سهلة كالآيات المتضمنة لاباحة الخمر والتبديل رفع الشيء ووضع غيره مكانه (والله) اي الذي له الاحاطة الشاملة (أعلم بما ينزل) من المصالح بحسب الاوقات والاحوال بنسخ أو غيره (قالوا) اى الكفار (انما أنت) يا محمد (مفتر) اى متقول على الله تعالى تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه وهو جواب اذا والله أعلم بما ينزل اعتراض والمعنى والله أعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ والتغليظ والتخفيف اى هو أعلم بجميع ذلك وبمصالح العباد وهذا توبيخ للكفار على قولهم انما أنت مفتر اى اذا كان هو أعلم بما ينزل فما لهم ينسبون محمدا الى الافتراء لاجل التبديل والنسخ (بل أكثرهم) وهم الذين يستمرون على الكفر (لا يعلمون) حكمة فائدة النسخ والتبديل ولا يميزون الخطأ من الصواب فان الله تعالى أعلم بمصالح العباد كما ان الطبيب يأمر المريض بشربة ثم بعد مدة ينهاه عنها ويأمره بغيرها بضد تلك الشربة ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم بقوله تعالى (قل) لمن واجهك بذلك منهم (نزله) اى القرآن بحسب التدريج لاجل اتباع المصالح باحاطة علم المتكلم به (روح القدس) اى جبريل عليه السلام واضافة الروح الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وزيد الخير والمراد روح المقدس وحاتم الجواد وزيد الخير والمقدس المطهر من المآثم (من ربك بالحق) اى متلبسا بالحكمة (ليثبت الذين آمنوا) اى ليثبت بالقرآن قلوب الذين آمنوا فيزدادوا ايمانا ويقينا (وهدى) اى بيانا واضحا (وبشرى

للمسلمين)

(قوله كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) لا ينافي قوله وكفى بنا حاسبين لان في يوم القيامة مواقف مختلفة ففي موقف يكل الله حسابهم الى أنفسهم وعلمه محيط به

للمسلمين) اى المنقادين لحكمك (فان قيل) ظاهر الآية ان القرآن لا ينسخ بالسنة لقوله تعالى وإذا بدلنا آية مكان آية اذ مقتضاه ان الآية لا تنسخ الا باخرى (أجيب) بان هذه الآية دالت على انه تعالى يبدل آية بآية ولا دلالة فيها على انه لا يبدل آية الا بآية وأيضا فجبريل عليه السلام ينزل بالسنة كما ينزل بالآية * ولما كان المشركون يقولون ان محمدا انما يتعلم هذه القصص وهذه الاخبار من انسان آخر وهو آدمي مثله وليس هو من عند الله كما يزعم نزل قوله تعالى (ولقد نعلم) اى علما مستمرا (أنهم يقولون انما يعلمه بشر) واختلف في البشر الذي قال المشركون ان النبي صلى الله عليه وسلم يتعلم منه فقيل هو عبد لبني عامر بن لؤى يقال له يعيش كان يقرأ الكتب وقيل عداس غلام عتبة بن ربيعة وقيل عبد لبني الحضرمي صاحب كتب وكان اسمه جبرا فكانت قريش تقول عبد بني الحضرمي يعلم خديجة وخديجة تعلم محمدا وقيل كان بمكة نصراني أعجمي اللسان اسمه بلعام ويقال ابن ميسرة يتكلم بالرومية وقيل سلمان الفارسي وبالجملة فلا فائدة في تعداد هذه الاسماء والحاصل ان القوم اتهموه بانه يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم انه يظهرها من نفسه ويزعم انه انما عرفها بالوحي وهو كاذب فيه فاجاب الله تعالى عنه تكذيبا لهم فيما رموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب بقوله تعالى (لسان الذي يلحدون) اى يميلون اليه أو يشيرون (اليه) أي انه يعلمه (أعجمي) اى لا يعرف لغة العرب وهو مع ذلك ألكن في التأدية غير مبين (وهذا) أي القرآن (لسان عربي مبين) اى ذو بيان وفصاحة فكيف يعلمه أعجمي وروى ان الرجل الذي كانوا يشيرون اليه أسلم وحسن اسلامه (ان الذين لا يؤمنون) اى لا يصدقون كل تصديق معترفين (بآيات الله) اى الذي له العظمة كلها (لا يهديهم الله) اى لا يرشدهم ولا يوفقهم للايمان (ولهم عذاب أليم) اى مؤلم في الآخرة ثم أخبر الله تعالى ان الكفار هم المفترون بقوله تعالى (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) اى القرآن بقولهم هذا من قول البشر (وأولئك) اى البعداء البغضاء (هم الكاذبون) اى الكاملون في الكذب لان تكذيب آيات الله أعظم من الكذب أو اولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شيء لا يحجبهم عنه مروأة ولا دين * ولما ذكر تعالى الذين لا يؤمنون مطلقا أتبعهم صنفا منهم هم أشد كفرا بقوله تعالى (من) اى أي مخلوق وقع له أنه (كفر بالله) اى الذي له صفات الكمال بان قال أو عمل ما يدل على الكفر (من بعد ايمانه) بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم (الا من اكره) اى على التلفظ بالكفر فتلفظ به (وقلبه مطمئن بالايمان) فلا شيء عليه لان محل الايمان هو القلب روى ان قريشا أكرهوا عمارا وأبا ياسرا وأمه سمية على الارتداد فربطوا سمية بين بعيرين وقالوا انك أسلمت من أجل الرجال فقتلت وقتل ياسر وهما أول قتيل في الاسلام وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا مكرها وهو كاره بقلبه فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بانه كفر فقال صلى الله عليه وسلم كلا ان عمارا امتلأ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فجاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ويقول مالك ان عادوا لك فقل لهم مثل ما قلت * (تنبيه) * في الآية دليل على اباحة التلفظ بالكفر وان كان الافضل أن يتجنب

وفي موقف يحاسبهم هو وقيل هو الذي يحاسبهم وقوله كفى بنفسك لا غير اليوم عليك حسيبا اى يكفيك أنك شاهد على نفسك بذنوبها فهو توبيخ وتقريع لا تعريض

عنه اعزاز الدين كما فعله أبواه ولما روى ان مسيلمة أخذ رجلين فقال لاحدهما ما تقول فى محمد
فقال رسول الله قال فما تقول فى قال أنت أيضا فخلاه وقال للآخر ما تقول فى محمد فقال
رسول الله قال فما تقول فى قال أنا أصم فاعاد عليه ثلاثا فاعاد جوابه فقتله فبلغ رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال أما الاول فقد أخذ برخصة الله وأما الثانى فقد صدع بالحق فهنيأ له
واختلف الائمة فى وقوع الطلاق بالاكراه فقال الشافعى وأحمد رحمهما الله تعالى لا يقع طلاق
المكره وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقع واستدل الشافعى بقوله تعالى لا اكراه فى الدين
ولا يمكن ان يكون المراد نفى ذاته لان ذاته موجودة فوجب حمله على نفى آثاره اى لا أثر له
ولا عبرة به وقال عليه الصلاة والسلام رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وقال
أيضا لا طلاق فى اغلاق اى اكراه وتمسك أبو حنيفة بقوله تعالى فان طلقها فلا تحل له وهذا قد
طلقها وأجيب بان الآية مخصوصة بغير ذلك جمعا بين الادلة (ولكن من شرح بالكفر صدرا)
اى فتحه ووسعه لقبول الكفر واختاره ورضى به (فعليهم غضب) اى غضب لم تبين جهة
عظمه لكونه (من الله) أى الملك الاعظم (ولهم) أى بظواهرهم وبواطنهم (عذاب عظيم)
فى الآخرة لارتدادهم على أعقابهم (ذلك) أى الوعيد العظيم (بانهم) أى بسبب أنهم
(استحبوا) أى أحبوا حبا عظيما (الحيوة الدنيا) الكائنة الحاضرة الفانية فآثروها (على
الآخرة) الباقية الفاخرة لانهم رأوا ما فيه المؤمنون من الضيق والكافرون من السعة
(وأن الله) أى الذى له الغنى المطلق (لا يهدى القوم الكافرين) أى لا يرشدهم الى الايمان
ولا يوفقهم للعمل (أولئك) أى البعداء البغضاء (الذين طبع الله) أى الملك الذى لا أمر لاحد
معه (على قلوبهم) أى ختم عليها واستوثق ولما كان التفاوت فى السمع نادرا وحده بقوله
تعالى (وسمعهم) أو بمعنى اسماعهم ليناسب قوله تعالى (وأبصارهم) فصاروا بعدم انتفاعهم
بهذه المشاعر كانهم لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون (وأولئك) أى الاباعد من كل خير (هم
الغافلون) عما يرادبهم من العذاب فى الآخرة (لاجرم) أى لاشك (انهم فى الآخرة هم
الخاسرون) أى أكمل الناس خسارة لان الله تعالى وصفهم بست صفات الاولى انهم
استوجبوا غضب الله تعالى الثانية انهم استوجبوا العذاب الاليم الثالثة انهم استحبوا
الحياة الدنيا على الآخرة الرابعة أن الله تعالى حرمهم من الهداية الخامسة انه تعالى طبع
على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم السادسة انه جعلهم من الغافلين عن العذاب الشديد يوم
القيامة اذ كل واحدة من هذه الصفات من أعظم الاحوال المانعة من الفوز بالخيرات
والسعادات ومعلوم انه تعالى انما أدخل الانسان فى الدنيا ليكون كالتاجر الذى يشترى
بطاعته سعادات الآخرة فاذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظم خسرانه فلهذا السبب
حكم تعالى عليهم بالخسران ولما ذكر تعالى حال من كفر بالله من بعد ايمانه وحال من
أكره على الكفر ذكر بعده حال من هاجر من بعد ما فتن بقوله تعالى (ثم ان ربك) اى المحسن
اليك (للذين هاجروا) الى المدينة الشريفة بالولاية والنصر وقوله تعالى (من بعد ما فتنوا)
قرأ ابن عامر بفتح الفاء والتاء على اسناد الفعل الى الفاعل والباقون بضم الفاء وكسر
التاء على فعل ما لم يسم فاعله وجه القراءة الاولى انه عاد الضمير على المؤمنين فالمعنى

فتنوا

حساب العبد الى نفسه وقيل من يرد مناقشته فى الحساب يحاسبه بنفسه ومن يرد مسامحته يكل حسابه اليه (قوله واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها) اى أردنا منهم الفسق

فتنوا أنفسهم بما أعطوا المشركين من القول ظاهرا وأنهم لما صبروا على عذاب المشركين فكأنهم فتنوا أنفسهم وان عاد على المشركين فهو ظاهر أى فتنوا المؤمنين لان أولئك المفتونين هم المستضعفون الذين حملهم أقوياء المشركين على الردة والرجوع عن الايمان فبين تعالى أنهم هاجروا (ثم جاهدوا وصبروا) على الطاعة (ان ربك من بعدها) أى الفتنة (لغفور) أى بليغ الاكرام (رحيم) فهو يغفر لهم ويرحمهم * (تنبيه) * حذف خبر ان الاولى لدلالة خبر الثانية عليه أو مقدر بما مر (يوم) أى اذكر يوم (تأتى كل نفس) أى وان عظم جرمها (تجادل) أى تحاجج (عن نفسها) أى لا يهمها غيرها وهو يوم القيامة (فان قيل) ما معنى النفس المضافة الى النفس (أجيب) بانه يقال لعين الشئ وذاته نفسه وفى نقيضه غيره والنفس الجملة كما هى فالنفس الاولى هى الجملة والثانية عينها وذاتها فكأنه قيل يوم يأتى كل انسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كل يقول نفسى نفسى ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم هؤلاء الذين أضلونا وما كنا مشركين (وتوفى كل نفس) صالحة أو غير صالحة (ما عملت) اى جزاءه من جنسه (وهم لا يظلمون) اى شيأ ولما هدد تعالى الكفار بالوعيد الشديد فى الآخرة هددهم أيضا بآفات الدنيا وهى الوقوع فى الجوع والخوف بقوله تعالى (وضرب الله) اى المحيط بكل شئ (مثلا) ويبدل منه (قرية) هى مكة والمراد أهلها (كانت آمنة) اى ذات أمن ويأمن بها أهلها فى زمن الخوف قال تعالى أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم والامن فى مكة كان كذلك لان العرب كان يغير بعضهم على بعض دون اهل مكة فانهم كانوا أهل حرم الله والعرب كانوا يحترمونهم ويخصونهم بالتعظيم والتكريم (مطمئنة) اى قارة باهلها لا يحتاجون فيها الى نجعة وانتقال بسبب زيادة الامن بكثرة العدد وقوة المدد وكف الله تعالى الناس عنها ووجود ما يحتاج اليه أهلها (فان قيل) الاطمئنان هو الامن فيلزم التكرار (أجيب) بان قوله تعالى آمنة اشارة الى الامن وقوله تعالى مطمئنة اى لا يحتاجون فيها الى نجعة كما مر وقيل اشارة تعالى بذلك الى الصحة لان هواء ذلك البلد كان ملائما لامزجتهم فلذلك اطمأنوا اليه واستقروا قالت العقلاء ثلاثة ليس لها نهاية الامن والصحة والكفاية (يأتيها) أى على سبيل التجدد والاستمرار (رزقها رغدا) اى واسعا طيبا (من كل مكان) بر وبحر بتيسير الله تعالى * ولما كانت النعمة تجر الى البطر غالبا نبه تعالى على ذلك بقوله تعالى (فكفرت بانعم الله) اى الذى له الكمال كله وأنعم جمع نعمة قال الزمخشرى على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع وقال قطرب هى جمع نعم والنعم النعمة يقال هذه أيام نعم وطعم فلاتصوموا وقيل جمع نعماء مثل بأساء وأبؤس (فان قيل) الانعم جمع قلة فكان تلك القرية كفرت بانواع قليلة من نعم الله فعذبها الله تعالى فلم لم يقل تعالى كفرت بنعم عظيمة فاستوجبوا العذاب (أجيب) بان المقصود التنبيه بالادنى على الاعلى فان كفران النعم القليلة لما أوجب العذاب فبكفران النعم الكثيرة أولى وبان الله تعالى أنعم عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به وبالغوا فى ايذائه (فأذاقها الله) اى المحيط بكل شئ (لباس الجوع) بعد رغد العيش سبع سنين وقطعت العرب عنهم الميرة بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا وأكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب الميتة وقيل ان القرية غير مكة

أو أمرناهم بالطاعة ففسقوا يقال كثرناهم آمرته وآمرته بالقصر والمد بمعنى كثرته وقيد بالمترفين وان كان الامر لا يختص بهم لان صلاحهم او فسادهم مستلزم لصلاح

لانهم اضر بتمنعهم لا المكة ومثل مكة يكون غيرمكة (والخوف) بسرايا النبي صلى الله عليه وسلم

(تنبيه) استعير الذوق لادراك أثر الضرر واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف وأوقع الاذاقة عليه بالنظر الى المستعارله كقول كثير عزة

غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا * غلقت لضحكته رقاب المال

فانه استعار الرداء للمعروف لانه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه وأضاف اليه الغمر الذى هو وصف المعروف والنوال لا وصف الرداء نظرا الى المستعارله ولو نظر الى المستعار لقال ضافى الرداء أى سابغه ومعنى البيت اذا ضحك المسؤل ضحكة أيقن السائل بذلك التبسم استرقاق رقاب ماله وانه يعطى بلا خلاف وقد ينظر الى المستعارله كقوله

ينازعنى ردائى عبد عمرو * رويدك يا أخا عمرو بن بكر

لى الشطر الذى ملكت يمينى * ودونك فاعتجر منه بشطر

استعار الرداء للسيف ثم قال فاعتجر نظرا الى المستعار ولو نظر الى المستعار منه لقال تعالى فى الآية وكساهم لباس الجوع والخوف ولقال كثير ضافى الرداء اذا تبسم ضاحكا وهذا نهاية ما يقال فى الاستعارة وقال ابن عطية لما باشرهم ذلك صار كاللباس وهذا كقول الاعشى

اذا ما الضجيع ثنى جيدها * تثنت عليه فكانت لباسا

ومثله قوله تعالى هن لباس لكم وانتم لباس لهن ومثله قول الشاعر

وقد لبست بعد الزبير مجاشع * لباس التى حاضت ولم تغسل الدما

كأن العار لما باشرهم والتصق بهم كأنهم نسوة وقوله تعالى فأذاقها نظير قوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم ونظير قول الشاعر * دونك ما جنيت فاحس وذق * وقوله تعالى (بما كانوا يصنعون) يجوز أن تكون ما مصدرية اى بسبب صنعهم أو بمعنى الذى والعائد محذوف أى بسبب الذى كانوا يصنعونه والواو فى يصنعون عائد على أهل البلد وقيل قرية نظيره قوله تعالى أو هم قائلون بعد قوله تعالى وكم من قرية أهلكناها ولما ذكر الله تعالى المثل ذكر الممثل له فقال تعالى (ولقد جاءهم) اى أهل هذه القرية (رسول منهم) من نسبهم يعرفونه بأصله ونسبه وهو محمد صلى الله عليه وسلم (فكذبوه فأخذهم العذاب) قال ابن عباس يعنى الجوع الذى كان بمكة وقيل القتل الذى كان يوم بدر (وهم ظالمون) اى فى حال تلبسهم بالظلم كقوله تعالى الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم نعوذ بالله من مفاجأة النقمة والموت على الغفلة وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام ثم قال تعالى (فكلوا) اى أيها المؤمنون (مما رزقكم الله) قال ابن عباس يريد من الغنائم وقال الكلبى ان رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا وقالوا عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان وكانت الميرة قد قطعت عنهم فاذن فى الحمل اليهم فحمل الطعام اليهم فقال الله تعالى كلوا مما رزقكم الله قال الرازى والقول ما قال ابن عباس يدل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية انما حرم عليكم الميتة يعنى أنكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا مما رزقكم الله (حلالا طيبا) وهو الغنيمة واتركوا الخبائث وهى الميتة والدم ولما أمرهم تعالى بأكل الحلال أمرهم بشكر النعمة بقوله تعالى (واشكروا نعمت الله ان كنتم اياه تعبدون) اى تطيعون *(تنبيه)* رسمت

نعمة

(قوله من غيرهم او فسادة (قوله كان يريد العاجلة) الآية *ان قلت قضيته ان من لم يترك الدنيا يكون من أهل النار وليس كذلك (قلت) المراد من لم يرد باسلامه وعبادته الا الدنيا

نعمة بالتاء وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالهاء والباقون بالتاء والكسائي يقف بالامالة وتقدم تفسير قوله تعالى (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) في سورة البقرة فلا اعادة في تفسير ذلك وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة فمن اضطر في الوصل بكسر النون والباقون بالضم *(تنبيه)* حصر المحرمات في هذه الاشياء الاربعة مذكور أيضا في سورة الانعام عند قوله تعالى قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الآية وفي سورة المائدة في قوله تعالى أحلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم واجمعوا على أن المراد بقوله تعالى الا ما يتلى عليكم هو قوله تعالى في سورة البقرة حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله وقوله تعالى في المائدة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم فهذه الاشياء داخلة في الميتة ثم قال تعالى وما ذبح على النصب وهو أحد الاشياء الداخلة تحت قوله تعالى وما أهل به لغير الله فثبت أن هذه السور الاربعة دالة على حصر المحرمات في هذه الاربعة سورتان مكيتان وسورتان مدنيتان فان سورة البقرة مدنية وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله بالمدينة فمن أنكر حصر التحريم في هذه الاربعة الا ما خصه الاجماع والدلائل العقلية القاطعة كان في محل أن يخشى عليه لان هذه السورة دلت على أن حصر المحرمات في هذه الاربعة كان مشروعا ثابتا في أول زمان مكة وآخره وأول زمان المدينة وأنه تعالى أعاد هذا البيان في هذه السور الاربعة قطعا للاعذار وازالة للشبهة * ولما حصر تعالى المحرمات في هذه الاربع بالغ في تأكيد ذلك الحصر وزيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه الاربعة تارة وفي النقصان عنها أخرى بقوله تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) لما لم يحله الله ولم يحرمه فانهم كانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وكانوا يقولون ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا فقد زادوا في المحرمات وزادوا أيضا في المحللات لانهم حللوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فبين الله تعالى أن المحرمات هي هذه الاربعة وبين أن الاشياء التي يقولون هذا حلال وهذا حرام كذب وافتراء على الله تعالى *(تنبيه)* في انتصاب الكذب وجهان أحدهما قال الكسائي ما مصدرية والتقدير ولا تقولوا لاجل وصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام نظيره أن يقال لا تقولوا لكذا وكذا كذا وكذا (فان قيل) حمل الآية على هذا يؤدي الى التكرار لان قوله تعالى (لتفتروا على الله الكذب) عين ذلك (أجيب) بان قوله تعالى لما تصف ألسنتكم الكذب ليس فيه بيان أنه كذب على الله فاعاده ليحصل فيه هذا البيان الزائد ونظائره في القرآن كثير وهو أنه تعالى يذكر كلاما ويعيده بعينه مع فائدة زائدة الثاني أن تكون ما موصولة والتقدير ولا تقولوا للذي تصف ألسنتكم الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام وحذف لفظ فيه لكونه معلوما وقيل اللام في لتفتروا لام العاقبة كما في قوله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا (فان قيل) ما معنى وصف ألسنتهم الكذب (أجيب) بان ذلك من فصيح الكلام وبليغه جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه واذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته كقولهم وجهها يصف الجمال أي هي جميلة وعينها تصف السحر أي هي ساحرة فلما أرادوا المبالغة

وهذا لا يكون الا كافرا او منافقا (قوله وما كان عطاء ربك محظورا) أي ممنوعا * فان قلت كيف قال ذلك مع انا نشاهد الواحد لا يقدر على دانق وآخر معه الالوف (قلت)

فى وصف الوجه بالجمال ووصف العين بالسحر عبروا بذلك * ثم انه تعالى أوعد المفترين بقوله
تعالى (ان الذين يفترون على الله) اى الذى له الكمال كله (الكذب) منكم ومن غيركم
(لا يفلحون) اى لا يفوزون بخير لان المفترى يفترى لتحصيل مطلوب فنفى الله تعالى عنه
الفلاح لانه الفوز بالخير والنجاح ثم بين تعالى ان ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب
بقوله تعالى (متاع قليل) اى منفعة قليلة تنقطع عن قرب لفنائه وان امتد ألف عام
(ولهم) بعده (عذاب أليم) اى مؤلم فى الآخرة * ولما بين تعالى ما يحل ويحرم لاهل الاسلام
أتبعه ببيان ما يخص اليهود به من المحرمات بقوله تعالى (وعلى الذين هادوا) اى اليهود
(حرمنا) عليهم عقوبة لهم بعدوانهم وكذبهم على ربهم (ما قصصنا عليك) يا أجل المرسلين
(من قبل) اى فى سورة الانعام وهو قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية
(وما ظلمناهم) اى بتحريم ذلك عليهم (ولكن كانوا) اى دائما طبعا لهم وخلقا مستقرا
(أنفسهم) خاصة (يظلمون) بالبغى والكفر فضيقنا عليهم معاملة بالعدل وعاملناكم أنتم حيث
ظلمتم بالفضل فاشكروا النعمة واحذروا غوائل النقمة * ولما بين تعالى هذه النعمة الدنيوية
عطف عليها نعمة هى أكبر منها جدا استجلابا لكل ظالم وبين عظمتها بحرف التراخى فقال
تعالى (ثم ان ربك) اى المحسن اليك (للذين عملوا السوء) وهو يتناول كل ما لا ينبغى فعله فيشمل
الكفر وسائر المعاصى (بجهالة) اى بسببها أو ملتبسين بها لم الجهل بالله وبعقابه وعدم
التدبر فى العواقب فكل من عمل سوأ انما يفعله بالجهالة أما الكفر فلأن أحدا لا يرضى به مع
العلم بكونه كفرا لانه لو لم يعتقد كونه حقا فانه لا يختاره ولا يرتضيه وأما المعصية فلأن العالم لم
تصدر منه المعصية ما لم تصر الشهوة غالبة للعقل فثبت أن كل من عمل السوء فانما يقدم عليه
بسبب الجهالة (ثم تابوا من بعد ذلك) اى الذنب ولو كان عظيما ولم يصروا على ما أذن فيه
خالقهم (وأصلحوا) بالاستقرار على ذلك (ان ربك) اى المحسن اليك بتسهيل دينك وتيسيره (من
بعدها) اى التوبة (لغفور) اى بليغ الستر لما عملوا من السوء (رحيم) اى بليغ الرحمة محسن
بالاكرام فضلا منه ونعمة * ولما دعاهم الله تعالى الى مكارم الاخلاق ونهاهم عن مساويها
بقبوله لمن أقبل اليه وكان ابراهيم عليه الصلاة والسلام رئيس الموحدين لا جرم ذكره الله
تعالى فى آخر هذه السورة ووصفه بتسع صفات الصفة الاولى قوله تعالى (ان ابراهيم
كان أمة) اى لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد الا متفرقة فى أشخاص كثيرة
كقول القائل

وليس لله (اى من الله) بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

اى أن يجمع صفاتهم فى شخص واحد وقال مجاهد كان مؤمنا وحده والناس كلهم كانوا كفارا
فلهذا المعنى كان وحده أمة واحدة وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى زيد بن عمرو بن نفيل
يبعثه الله أمة وحده وعن شهر بن حوشب لم تبق الارض الا وفيها أربعة عشر يدفع الله تعالى بهم
عن أهل الارض الا زمن ابراهيم فانه كان وحده وقيل أمة فعلة بمعنى مفعول كالدخلة والنخبة
من أمه اذا قصده واقتدى به فان الناس كانوا يؤمونه للاستفادة ويقتدون بسيره كقوله

المراد بالمطامعنا الرزق والله سوى فى ضمانه بين المطيع والعاصى من العباد فلا تفاوت بينهم فى اصل الرزق وانما التفاوت بينهم فى مقادير الاملاك وانما لم يمنع الله الكفار الرزق

تعالى انى جاعلك للناس اماما وقرأ هشام ان ابراهام وملة ابراهام بالالف بعد الهاء فيهما وقرأ الباقون بالياء فيهما الصفة الثانية قوله تعالى (قانتا لله) اى مطيعا له قائما باوامره الصفة الثالثة قوله تعالى (حنيفا) اى مائلا عن الباطل قال ابن عباس انه اول من اختتن واقام مناسك الحج وضحى وهذه السنة الحنيفية الصفة الرابعة قوله تعالى (ولم يك من المشركين) اى انه عليه الصلاة والسلام كان من الموحدين فى الصغر والكبر وقد ابطل عبادة الاصنام والكواكب بقوله لا أحب الآفلين ثم كسر تلك الاصنام حتى آل الامر الى ان القوه فى النار وذلك دليل اثبات الصانع مع ملك زمانه وهو قوله ربى الذى يحيى ويميت ثم طلب من الله تعالى ان يريه كيف يحيى الموتى ليحصل له زيادة الطمأنينة قال الرازى ومن وقف على علم القرآن علم ان ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان غريقا فى بحر علم التوحيد الصفة الخامسة قوله تعالى (شاكرا لانعمه) فان قيل لفظ الانعم جمع قلة ونعمة الله تعالى على ابراهيم عليه السلام كانت كثيرة فلم قال شاكرا لانعمه (اجيب) بانه ذكر القلة للتنبيه على انه كان لا يخل بشكر القليلة فكيف بالكثيرة وروى انه عليه الصلاة والسلام كان لا يتغدى الا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فاخر غداءه فاذا هو بقوم من الملائكة فى صورة البشر فدعاهم الى الطعام فخيلوا له ان بهم جذاما فقال لهم الآن وجبت مؤاكلتكم شكرا لله على انه عافانى وابتلاكم بهذا البلاء الصفة السادسة قوله تعالى (اجتباه) اى اصطفاه للنبوة واختاره لخلته الصفة السابعة قوله تعالى (وهداه الى صراط مستقيم) اى وهداه الى دين الاسلام لانه الصراط المستقيم والدين القويم ونظيره قوله تعالى وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه الصفة الثامنة قوله تعالى (وآتيناه فى الدنيا حسنة) قال قتادة حببه للناس حتى ان ارباب الملل يتولونه ويثنون عليه اما المسلمون واليهود والنصارى فظاهر واما كفار قريش وسائر العرب فلا فخر لهم الا به وتحقيق القول ان الله تعالى اجاب دعاءه فى قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين وقال آخرون هو قول المصلى منا كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وقيل اولادا ابرارا على الكبر الصفة التاسعة قوله تعالى (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) فى الجنة (فان قيل) لم لم يقل تعالى فى اعلى مقامات الصالحين (اجيب) بانه تعالى حكى عنه انه قال رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين فقال تعالى هنا وانه فى الآخرة لمن الصالحين تنبيها على انه تعالى اجاب دعاءه ثم ان كونه من الصالحين لا ينفى ان يكون فى اعلى مقامات الصالحين فان الله تعالى بين ذلك فى آية اخرى وهى قوله تعالى وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ۞ ولما وصف الله تعالى ابراهيم عليه السلام بهذه الصفات العالية الشريفة امر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فى اتباعه مشيرا الى علو مرتبته بحرف التراخى بقوله تعالى (ثم اوحينا اليك) يا اشرف الرسل وقيل اتى بثم للتراخى اى لتراخى ايامه عن ايام ابراهيم عليهما افضل الصلاة والسلام (ان اتبع ملة ابراهيم) فى التوحيد والدعوة اليه بالرفق وايراد الدلائل مرة بعد اخرى والمجادلة مع كل احد على حسب فهمه ولا بعد فى ان يفهم ذلك الهجرة ايضا وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم مامورا بشريعة ابراهيم عليهما الصلاة والسلام الا ما نسخ منها وما لم ينسخ صار شرعا له وقوله تعالى

كما منعهم الهداية لان فى منعه لهلاكهم وقيام الحجة لهم بان يقولوا لو أمهلتنا ورزقتنا لبقينا احياء فآمنا ولانه لو منعهم الرزق لكان قد عاجلهم بالعقوبة فلكان

(حنيفا) حال من النبي صلى الله عليه وسلم ويصح ان يكون حالا من ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (وما كان من المشركين) كرره ردا على من زعم من اليهود والنصارى انهم على دينه وقوله سبحانه وتعالى (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) فيه قولان الاول روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال أمرهم موسى عليه السلام بالجمعة وقال تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوما واحدا وهو يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيأ من أعمالكم فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا لا نريد الا اليوم الذي فرغ الله تعالى فيه من الخلق وهو يوم السبت فجعل عليهم السبت وشدد عليهم فيه ثم جاء عيسى عليه السلام أيضا بالجمعة فقالت النصارى لا نريد أن يكون عيدهم أي اليهود بعد عيدنا فاتخذوا الاحد وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى كتب يوم الجمعة على من كان قبلكم فاختلفوا فيه وهدانا الله له فهم لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد (فان قيل) هل في العقل وجه يدل على ان الجمعة أفضل من السبت والاحد فان أهل الملل اتفقوا على انه تعالى خلق العالم في ستة أيام وبدأ تعالى بالخلق والتكوين في يوم الاحد وتم في يوم الجمعة فكان يوم السبت يوم الفراغ فقالت اليهود نحن نوافق ربنا في ترك الاعمال فعينوا يوم السبت لهذا المعنى وقالت النصارى مبدأ الخلق والتكوين يوم الاحد فنجعل هذا اليوم عيدنا فهذان الوجهان معقولان لنا فما وجه جعل يوم الجمعة عيدا (اجيب) بان يوم الجمعة هو يوم التمام والكمال وحصول التمام والكمال يوجب الفرح الكامل والسرور فجعل يوم الجمعة يوم العيد أولى من هذا الوجه القول الثاني اختلافهم في السبت هو انهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة (وان ربك) أي المحسن اليك بطواعية أصحابك لك (ليحكم بينهم) أي هؤلاء المختلفين (يوم القيامة) وهو يوم اجتماع جميع الخلائق (فيما كانوا فيه يختلفون) فيحكم للمحقين بالثواب وللمبطلين بالعقاب. ولما أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم باتباع ابراهيم عليه الصلاة والسلام بين الشيء الذي أمره بمتابعته فيه بقوله تعالى (ادع) أي كل من تمكن دعوته ممن بعثت اليه (الى سبيل ربك) أي المحسن اليك بتسهيل السبيل الذي تدعو اليه واتساعه وهو الاسلام الذي هو الملة الحنيفية (بالحكمة) أي المعاملة المحكمة وهو الدليل الواضح المزيل للشبهة (والموعظة الحسنة) اي بالدعاء الى الله تعالى بالترغيب والترهيب بالخطابات المقنعة والعبارات النافعة فالاولى لدعوى خواص الامة الطالبين للحقائق والثانية لدعوى عوامهم (وجادلهم) أي وجادل معانديهم (بالتي) أي بالمجادلة التي (هي أحسن) كالدعاء الى الله تعالى بآياته والدعاء الى حججه بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير غلظ ولا تعسف فان ذلك أنفع في تسكين لهبهم وتبيين شبههم وقيل المراد بالحكمة القرآن أي ادعهم بالقرآن والموعظة الحسنة الرفق واللين في الدعوة وفي الامر بالمجادلة التي هي أحسن الاعراض عن أذاهم وعدم التقصير في تبليغ الرسالة والدعاء الى الحق وعلى هذا القول قال بعض علماء التفسير هذا منسوخ بآية السيف وقيل ان الناس خلقوا وجبلوا على ثلاثة أقسام القسم الاول العلماء الكاملون وهم أصحاب العلوم الصحيحة والبصائر الشافية الذين

ذلك من صفات الجهلاء والله منزه عن ذلك لانه حكيم كريم ولان اعطاء الرزق لجميع العباد عدل وعدل الله عام وهبة الهداية فضل والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء (قوله

يطلبون معرفة الاشياء على حقائقها فهؤلاء هم المشار اليهم بقوله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة أى ادعهم بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الاشياء بحقائقها ويفهموا الناس وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم القسم الثانى أصحاب الفطرة السليمة والخلقة الاصلية وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا الى حضيض النقصان فهم أوسط الاقسام وهم المشار اليهم بقوله تعالى والموعظة الحسنة أى ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة القسم الثالث أصحاب جدال وخصام ومعاندة وهؤلاء هم المشار اليهم بقوله تعالى وجادلهم بالتى هى أحسن اى حتى ينقادوا الى الحق ويرجعوا اليه (ان ربك) المحسن اليك بالتخفيف عنك (هو أعلم) اى من كل من يتوهم فيه علم (بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أى فهو سبحانه وتعالى أعلم بالفريقين فمن كان فيه خير كفاه الوعظ والنصيحة اليسيرة ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل وكأنك تضرب فى حديد بارد فما عليك الا البلاغ والدعوة وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فليس ذلك اليك وهذا قبل الامر بالقتال وذكر فى قوله تعالى (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) أقوال أحدها وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء وأبى بن كعب والشعبى ان النبى صلى الله عليه وسلم لما رأى عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وأذنه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تلبث فى بطنها حتى رمت بها فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال أما انها لو أكلته لم تدخل النار أبدا حمزة أكرم على الله من ان يدخل شيأ من جسده النار فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه نظر الى شئ لم ينظر الى شئ قط أوجع لقلبه منه فقال النبى صلى الله عليه وسلم رحمة الله عليك فانى ما علمتك الا فعالا للخيرات وصولا للرحم ولولا حزن من بعدك عليك لسرنى ان أدعك حتى تحشر من أفواج شتى أما والله لئن ظفرنى الله بهم لامثلن بسبعين منهم مكانك فنزلت فامسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أراد وكفر عن يمينه وقال المسلمون أيضا لما رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أحد من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين الا مثل به الا حنظلة بن الراهب فان أباه أبا عامر الراهب كان مع أبى سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال المسلمون حين رأوا ذلك لئن ظفرنا عليهم لنزيدن عليهم يعنى على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب باحد القول الثانى ان هذا كان قبل الامر بالسيف والجهاد حتى كان المسلمون قد أمروا بالقتال مع من يقاتلهم ولا يبتدؤا بالقتال وهو قوله تعالى وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا وفى هذه الآية أمر الله تعالى ان يعاقبوا بمثل ما يصيبهم من العقوبة ولا يزيدوا القول الثالث ان المقصود من هذه الآية نهى المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم وهذا قول مجاهد والنخعى وابن سيرين قال الرازى وحمل هذه الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب فى كلام الله وهو فى غاية البعد بل الاصوب عندى ان يقال انه تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بدعوة الخلق الى الدين الحق باحدى الطرق الثلاثة وهى الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالطريق الاحسن ثم ان تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم

لا تجعل مع الله الها آخر
فتقعد مذموما مخذولا)
قال ذلك هنا ثم قال ولا
تجعل يدك مغلولة الى عنقك
ولا تبسطها كل البسط
فتقعد ملوما محسورا ثم
قال ولا تجعل مع الله الها
آخر

واسلافهم والحكم عليهم بالكفر والضلالة وذلك مما يشوش قلوبهم ويوحش صدورهم ويحمل أكثرهم على قصد ذلك الداعى بالقتل تارة وبالضرب ثانيا وبالشتم ثالثا ان ذلك الداعى المحق اذا سمع تلك السفاهات لابد وان يحمله طبعه على تاديب اولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة بالضرب فعند هذا أمر المحقين فى هذا المقام برعاية العدل والانصاف وترك الزيادة فهذا هو الوجه الصحيح الذى يجب حمل الآية عليه (فان قيل) فهل تقدحون فيما روى أنه عليه الصلاة والسلام ترك العزم على ترك المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الآية (أجيب) بانه لاحاجة الى القدح فى تلك الرواية لان تلك الواقعة داخلة فى عموم هذه الآية فيمكن التمسك فى تلك الواقعة بعموم هذه الآية وذلك لايوجب سوء الترتيب فى كلام الله تعالى *(تنبيه)* أمر الله تعالى برعاية العدل والانصاف فى هذه الآية ورتب ذلك على أربع مراتب المرتبة الاولى قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به أى ان رغبتم فى استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه فى عدل الله تعالى ورحمته وفى قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به دليل على ان الاولى له أن لا يفعل كما انك اذا قلت للمريض ان كنت تأكل الفاكهة فكل التفاح كان معناه أن الاولى بك أن لا تأكلها فذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض أن الاولى تركه المرتبة الثانية الانتقال من التعريض الى التصريح وهو قوله تعالى (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وهذا تصريح بان الاولى ترك ذلك الانتقام لان الرحمة أفضل من القسوة والانتفاع أفضل من الانتقام وقرأ الهو قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون برفعها المرتبة الثالثة هو الامر الجازم بالترك وهو قوله تعالى (واصبر) لانه فى المرتبة الثانية ذكر ان الترك خير وأولى وفى هذه المرتبة الثالثة صرح بالامر بالصبر فى هذا المقام *ولما كان الصبر فى هذا المقام شديدا شاقا ذكر بعده ما يفيد سهولته بقوله تعالى (وما صبرك الا بالله) أى الملك الاعظم الذى شرع لك هذا الشرع الاقوم فذلك بتوفيقه ومعونته وهذا هو السبب الكلى الاصلى ثم ذكر بعده ما هو السبب الجزئى القريب بقوله سبحانه وتعالى (ولا تحزن عليهم) أى فى شدة كفرهم فتبالغ فى الحرص الباخع للنفس (ولا تك فى ضيق) ولو قل كما اوح اليه بتنوين التحقير (مما يمكرون) اى من استقرار مكرهم بك واعبد ربك حتى يأتيك اليقين وكانك به وقد أتى فاصبر فان الله معزك ومظهر دينك وقرأ ابن كثير بكسر الضاد والباقون بفتحها *(تنبيه)* هذا من الكلام المقلوب لان الضيق صفة والصفة تكون حاصلة فى الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلا فى الصفة فكان المعنى ولا يكن الضيق فيك الا أن الفائدة فى قوله تعالى ولا تك فى ضيق هو أن الضيق اذا عظم وقوى صار كالشئ المحيط بالانسان من كل الجوانب وصار كالقميص المحيط به فكانت الفائدة فى ذكر هذا اللفظ هذا المعنى المرتبة الرابعة قوله تعالى (ان الله) اى الجامع لصفات الكمال بلطفه وعونه (مع الذين اتقوا) اى وجد منهم الخوف من الله تعالى واجتنبوا المعاصى (والذين هم محسنون) فى أعمالهم والشفقة على خلقه وهذا يجرى مجرى التهديد لان فى المرتبة الاولى رغبة فى ترك الانتقام على سبيل الرمز وفى الثانية عدل عن الرمز

آخر فتلق فى جهنم ملوما مدحورا ولا تنكرا ونحيا لان الاولى فى الدنيا والثالثة فى الآخرة وانما طاب فيهما للنبى صلى الله عليه وسلم على الراجح والمراد به غيره كما فى آية اما يبلغن عندك

الى التصريح وهو قوله تعالى ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وفى المرتبة الثالثة أمر بالصبر على سبيل الجزم وفى هذه المرتبة الرابعة كانه ذكر الوعيد على فعل الانتقام فقال ان الله مع الذين اتقوا أى عن استيفاء الزيادة والذين هم محسنون أى فى ترك أصل الانتقام فكأنه تعالى قال ان أردت ان أكون معك فكن من المتقين ومن المحسنين وهذه المعية بالرحمة والفضل والتربية وفى قوله تعالى اتقوا اشارة الى التعظيم لامر الله وفى قوله والذين هم محسنون اشارة الى الشفقة على خلق الله تعالى قيل لهرم بن حبان عند قرب وفاته أوص فقال ان الوصية فى المال ولا مال لى ولكن أوصيكم بخواتيم سورة النحل *(تنبيه)* قال بعضهم ان قوله تعالى وان عاقبتم الى لهو خير للصابرين منسوخ بآية السيف قال الرازى وهذا فى غاية البعد لان المقصود من هذه الآية تعليم حسن الادب فى كيفية الدعوى الى الله تعالى وترك التعدى وطلب الزيادة ولا تعلق لهذه الاشياء بآية السيف وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما أنعم عليه فى دار الدنيا وان مات فى يوم تلاها أو ليلته كان له من الاجر كالذى مات وأحسن الوصية حديث موضوع قال الرازى فى آخر هذه السورة يقول مصنف الكتاب الحق عزيز والطريق بعيد والمركب ضعيف والقرب بعد والوصل هجر والحقائق مصونة والمعانى فى غيب الغيب مكنونه والاسرار فيما وراء أقفال العزة مخزونة وبيد الخلق القيل والقال والكمال ليس الا لله تعالى ذى الاكرام والاجلال

سورة الاسراء وتسمى سبحان وبنى اسرائيل مكية

الا وان كادوا الآيات الثمان مائة وعشر آيات أو احدى عشرة وألف وخمسمائة وثلاث وثلاثون كلمة وعدد حروفها ستة آلاف وأربعمائة وستون حرفا

(بسم الله) الملك المالك لجميع الامر (الرحمن) لكل ما أوجده بما رباه (الرحيم) لمن خصه بالتزام العمل بما يرضاه وقوله تعالى (سبحان) اسم بمعنى التسبيح الذى هو التنزيه وقد يستعمل علما له فيقطع عن الاضافة ويمنع من الصرف للعلمية وزيادة الالف والنون قال الاعشى فى مدحه عامر بن الطفيل

قد قلت لما جاءنى فخره * سبحان من علقمة الفاخر

أى العجب منه اذ يفخر والعرب تقول سبحان من كذا اذا تعجبوا منه الشاهد فى سبحان حيث جعله علما على التنزيه فمنعه الصرف وعلقمة المذكور صحابى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شيخ فاسلم وبايع واستعمله عمر بن الخطاب رضى الله عنه على حوران فمات بها (الذى أسرى بعبده) هو محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو أشرف عباده على الاطلاق وأحقهم بالاضافة اليه وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى أسرى بالامالة محضة وورش بين بين والباقون بالفتح وقوله تعالى (ليلا) نصب على الظرف والاسراء سير الليل وفائدة ذكره الاشارة بتنكيره الى تقليل مدته فكان هذا الامر الجليل فى جزء يسير من الليل والى أنه عليه الصلاة والسلام لم يحتج فى الاسراء والعروج الى سدرة المنتهى وسماع الكلام من العلى

الكبر أحدهما أو كلاهما وأما الثانية فخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أيضا وهو المراد به وذلك ان امرأة بعثت صبيا اليه مرة بعد أخرى سألته قميصا ولم يكن عليه ولا له

الاعلى الى رياضة بصيام ولا غيره بل كان مهيأ لذلك متأهلا له فأقامه تعالى من الفرش الى العرش (من المسجد الحرام) اى بعينه وهو الذى يدل عليه ظاهر لفظ القرآن وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ أتانى جبريل بالبراق وقيل كان نائما فى الحطيم وقيل فى بيت أم هانئ بنت أبى طالب قال البقاعى وهو قول الجمهور والمراد بالمسجد حينئذ الحرم لانه فناء المسجد (الى المسجد الاقصى) اى بيت المقدس الذى هو بعيد المسافة حينئذ وأبعد المسجدين الاعظمين مطلقا من مكة المشرفة بينهما أربعون ليلة فصلى بالانبياء كلهم ابراهيم وموسى ومن سواهما على جميعهم أفضل الصلاة والسلام ورأى من آياتنا الكبرى ماقدرناله كما يأتى فى حديث المعراج ورجع بين أظهركم الى المسجد الاقرب منكم فى ذلك الجزء اليسير من الليل وأنتم تضربون أكباد الابل فى هذه المسافة شهرا ذهابا وشهرا ايابا ثم وصفه تعالى بما يقتضى تعظيمه وانه أهل للقصد بقوله تعالى (الذى باركنا حوله) اى بما لنا من العظمة بالمياه والاشجار وقال مجاهد سماه مباركا لانه مقر الانبياء ومهبط الملائكة والوحى ومنه يحشر الناس يوم القيامة وموطن العبادات ومعدن الفواكه والارزاق والبركات وبارك تعالى حوله لاجله فما ظنك به نفسه فهو أبلغ من باركنا فيه ثم منه الى السموات العلا الى سدرة المنتهى الى مالم ينله بشر غيره صلى الله عليه وسلم قال البقاعى ولعل حذف ذكر المعراج من القرآن هنا لقصور أفهامهم عن ادراك أدلته لو أنكروه بخلاف الاسراء فانه أقام دليله عليهم بما شاهدوه من الامارات التى وصفها لهم وهم قاطعون بانه صلى الله عليه وسلم لم يرها قبل ذلك فلما بان صدقه بما ذكر من الامارات أخبر بعد ذلك من أراد الله تعالى بالمعراج * ثم ذكر سبحانه وتعالى الغرض من الاسراء بقوله تعالى (لنريه) بعينه وقلبه (من آياتنا) أى عجائب قدرتنا السماوية والارضية كما أرينا أباه الخليل عليه السلام ملكوت السموات والارض (انه) أى الله (هو السميع) لجميع الاقوال (البصير) أى العالم بأحوال عباده فيكرم ويقرب من شاء منهم وقيل انه أى هذا العبد الذى اختصصناه بالاسراء هو أى خاصة السميع أى اذنا وقلبا بالاجابة لنا والاذعان لاوامرنا البصير بصرا وبصيرة بدليل ما أخبر به من الآيات وصدقه من الدلالات حتى نعت ماسألوه عنه من بيت المقدس ومن أمر عيرهم وغيرهما مما هو مشهور فى قصة الاسراء واختلف هل أسرى بروحه أو بجسده صلى الله عليه وسلم فعن عائشة رضى الله تعالى عنها انها كانت تقول مافقدت جسد النبى صلى الله عليه وسلم ولكن أسرى بروحه والاكثرون على أنه أسرى بجسده فى اليقظة وتواترت الاخبار الصحيحة على ذلك منها قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة التى تربط فيها الانبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن قال جبريل عليه السلام أصبت الفطرة قال صلى الله عليه وسلم ثم عرج بى الى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بى الى السماء الثانية

فاستفتح

قبض شيره فنزعه ودفعه اليه فدخل وقت الصلاة ثم يخرج فى الدين فدخل عليه أصحابه فرأوه على تلك الصفة فلاموه على ذلك فانزل الله فتقعد ملوما أى يلومك الناس محسورا

قوله الذى هو الخ كلام غير مستقيم اهـ

فاستفتح جبريل فقيل من أنت فقال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل قد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى فرحبابى ودعوالى بخير ثم عرج بى الى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل وقد أرسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بيوسف واذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بى ودعالى بخير ثم عرج بى الى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل وقد أرسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بادريس فرحب بى ودعالى بخير ثم عرج بى الى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت فقال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل قد أرسل اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بهرون فرحب بى ودعالى بخير ثم عرج بى الى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بموسى فرحب بى ودعالى بخير ثم عرج بى الى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابراهيم فاذا هو مستند الى البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون اليه ثم ذهب بى الى السدرة المنتهى فاذا ورقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها قال صلى الله عليه وسلم فأوحى الى عبده ما أوحى وفرض على فى كل يوم وليلة خمسين صلاة فنزلت حتى انتهيت الى موسى فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة فى كل يوم وليلة قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك لا تطيق ذلك وانى قد بلوت بنى اسرائيل وخبرتهم قال فرجعت الى ربى فقلت له أى رب خفف عن أمتى فحط عنى خمسا فرجعت الى موسى فقال ما فعلت فقلت قد حط عنى خمسا قال ان أمتك لا تطيق ذلك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لان أمتك لا تطيق ذلك قال فلم أزل أرجع بين ربى وبين موسى ويحط عنى خمسا خمسا حتى قال يا محمد هى خمس صلوات فى كل يوم وليلة بكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فان عملها كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت الى موسى فأخبرته فقال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك فان أمتك لا تطيق فقلت قد رجعت الى ربى حتى استحيت رواه الشيخان وروى أنه قال بعد ذلك ولكن أرضى وأسلم فلما جاوزت نادى مناد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى ثم أدخلت الجنة فاذا فيها جنابذ اللؤلؤ واذا ترابها المسك وروى أنه لما وصل الى سدرة المنتهى فاذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ما هذان يا جبريل قال أما الباطنان فنهران فى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ثم رفع الى البيت المعمور ثم أوتيت باناء من خمر واناء من لبن واناء من عسل فاخترت اللبن فقال هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك قال ثم فرضت على الصلاة خمسين صلاة يوم فرضت فمررت على موسى وساق الحديث ومنها ما رواه الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت ربى عز وجل قال هى رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم

أى مكشوفا وقيل مقطوع عن الخروج الى الجماعة (قوله اما يلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) فائدة ذكر عندك انهما يكبران فى بيته وكنفه ويكونان كلا عليه لا كافل

ليلة أسري به الى بيت المقدس قال والشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الزقوم ومنها
ما رواه قتادة عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن
ليلة الاسراء به قال بينا أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجع ومنهم من قال بين النائم
واليقظان وذكر بين رجلين وأتيت بطست من ذهب مملوءة حكمة وايمانا فشق من النحر
الى مراق البطن واستخرج قلبي فغسل ثم حشي ثم أعيد وقال سعيد وهشام ثم غسل البطن
بماء زمزم ثم ملئ ايمانا وحكمة ثم أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون
البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته وساق بقية الحديث ومنها ما روي أنه صلى
الله عليه وسلم كان نائما في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسري به ورجع من ليلته وقص
القصة على أم هانئ وقال مثل لي النبيون فصليت بهم وقام ليخرج الى المسجد فتشبثت أم
هانئ بثوبه فقال ما لك قالت أخشى أن يكذبك الناس وقومك ان أخبرتهم قال وان كذبوني
فخرج اليهم وروي أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به فكان بذي طوى
قال يا جبريل ان قومي لا يصدقوني قال يصدقك أبو بكر وهو الصديق قال ابن عباس
وعائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كانت ليلة أسري بي فأصبحت بمكة قطعت
بأمري وعرفت أن الناس يكذبوني فروي أنه عليه الصلاة والسلام قعد معتزلا حزينا فمر به
أبو جهل فجلس اليه فقال كالمستهزئ هل استفدت من شيء قال نعم أسري بي الليلة قال الى أين
قال الى بيت المقدس قال ثم أصبحت بين ظهرانينا قال نعم فقال أبو جهل يا معشر بني كعب
ابن لؤي هلموا فانفضت اليه المجالس فجاؤا حتى جلسوا اليهما قال حدث قومك بما حدثتني
قال نعم اني قد أسري بي الليلة قالوا الى أين قال الى بيت المقدس قالوا ثم أصبحت بين أظهرنا
قال نعم فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وانكارا وارتد ناس ممن كان آمن به وسعى
رجال الى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا هل لك في صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة الى بيت
المقدس قال أوقد قال قالوا نعم قال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا تصدقه على ذلك قال اني
لأصدقه على أبعد من ذلك أصدقه على خبر السماء في غدوة أو روحة فسمي الصديق قال وفي
القوم من كان يأتي المسجد الأقصى فقالوا فهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد الأقصى قال نعم
قال فذهبت أنعت وأنعت فما زلت أنعت حتى التبس علي قال فجيء بالمسجد وأنا أنظر اليه
حتى وضع دون دار عقيل فنعت المسجد وأنا أنظر اليه فقال القوم أما النعت فوالله لقد أصاب
ثم قالوا يا محمد أخبرنا عن عيرنا فهي أهم الينا هل لقيت منها شيئا قال نعم مررت على عير بني
فلان وهي بالروحاء وقد أضلوا بعيرا لهم وهم في طلبه وفي رحالهم قدح من ماء فعطشت فأخذته
وشربته ثم وضعته كما كان فاسألوهم هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا اليه قالوا هذه
آية قال ومررت بعير بني فلان وفلان وفلان راكبان قعودا لهما فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان
فانكسرت يده فاسألوهما عن ذلك قالوا وهذه آية قالوا فأخبرنا عن عيرنا متى تجيء قال مررت
بها بالتنعيم قالوا فما عدتها وما أحمالها وما أحمالها ومن فيها فقال هيئتها كذا وكذا وفيها فلان
وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا وهذه
آية ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون والله لقد قص محمد شيئا وبينه حتى أتوا كداء

لهما فعوه وربما أنا لهمنه ما
من الشاق ما كان
ايتاليهامنه في حال السفر
(قوله ولا تقربوا الزنا) هو
أعم من ان يقال ولا تزنوا
لقصد النهي عن مقدمات
الزنا كاللمس والقبلة

فجلسوا

غروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش وأحوالهم بالضد من أحوال سائر الخلق وقال قتادة يكونون في أسراب لهم حتى اذا زالت الشمس عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم والثاني ان معناه لاثياب لهم ويكونون كسائر الحيوانات عراة أبدا وفي كتب الهيئة ان أكثر حال الزنج كذلك وحال كل من سكن البلاد القريبة من خط الاستواء كذلك قال الكلبي هم عراة يفرش أحدهم احدى أذنيه ويلتحف بالاخرى وقال الزمخشري وعن بعضهم قال خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء القوم فقيل بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم واذا أحدهم يفرش احدى أذنيه ويلبس الاخرى فلما قرب طلوع الشمس سمعت صوتا كهيئة الصلصلة فغشي على ثم أفقت فلما طلعت الشمس فاذا هي فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلوني سربا لهم فلما ارتفع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم وعن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الارض وقوله تعالى (كذلك) فيه وجوه الاول ان معناه كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها الثاني ان أمره كما وصفناه من رفعة المكان وبسطة الملك قال البغوي والصحيح ان معناه كما حكم في القوم الذين هم عند غروب الشمس كذلك في القوم الذين هم عند مطلعها (وقد أحطنا بما لديه) أي عند ذي القرنين من الآلات والجند وغيرهما (خبرا) أي علما تعلق بظواهره وخفاياه والمعنى ان كثرة ذلك بلغت مبلغا لا يحيط به الا علم اللطيف الخبير (ثم) ان ذا القرنين لما بلغ المغرب والمشرق (أتبع سببا) آخر من جهة الشمال في ارادة ناحية السد مخرج يأجوج ومأجوج واستمر آخذا فيه (حتى اذا بلغ) في مسيره ذلك (بين السدين) أي بين الجبلين وهما جبلا أرمينية وأذربيجان وقيل جبلان في أواخر الشمال وقيل هذا المكان في منقطع بلاد الترك من ورائهما يأجوج ومأجوج قال الرازي والاظهر ان موضع السد في ناحية الشمال سد الاسكندر ما بينهما كما سيأتي وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح السين والباقون بضمها وهما لغتان معناهما واحد وقال عكرمة ما كان من صنع بني آدم فهو السد بالفتح وما كان من صنع الله فهو بالضم وقاله أبو عمرو وقيل بالعكس (وجد من دونهما) أي بقربهما من الجانب الذي هو أدنى منهما الى الجهة التي أتى منها ذو القرنين (قوما) أي أمة من الناس لغتهم في غاية البعد من لغات بقية الناس لبعد بلادهم عن بقية البلاد فهم كذلك (لا يكادون) أي لا يقربون (يفقهون) أي يفهمون (قولا) ممن مع ذي القرنين فهما جيدا كما يفهم غيرهم لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرأ حمزة والكسائي بضم الياء وكسر القاف والباقون بفتحهما وقال ابن عباس لا يفقهون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم واستشكل بقولهم (قالوا ياذا القرنين) وأجيب بانه تكلم عنهم مترجم ممن هو مجاورهم ويفهم كلامهم (ان يأجوج ومأجوج) وهما اسمان أعجميان لقبيلتين فلم ينصرفا وقرأ عاصم بهمزة ساكنة بعد الياء والميم والباقون بالالف فيهما وهما لغتان أصلهما من أجيج النار وهو ضوءها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم وهم من أولاد يافث بن نوح عليه السلام قال الضحاك هم جيل من الترك قال السدي الترك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم وعن قتادة انهم اثنان

بالساعة (قوله وما تلك بيمينك يا موسى) ان قلت ما فائدة سؤاله تعالى لموسى مع انه أعلم بما في يده (قلت) فائدته تأنيسه وتخفيف ما حصل عنده من دهشة الخطاب وهيبة الاجلال

وعشرون قبيلة بنى ذو القرنين السد على احدى وعشرين قبيلة وبقيت قبيلة واحدة فهم الترك سموا الترك لانهم تركوا خارجين قال أهل التواريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج وقال ابن عباس فى رواية عطاء هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء وروى عن حذيفة مرفوعا ان يأجوج أمة ومأجوج أمة وكل أمة أربعمائة ألف أمة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر الى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح وهم من ولد آدم يسيرون فى خراب الارض وقال هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الارز شجر بالشام طوله عشرون ومائة ذراع فى السماء وصنف منهم طوله وعرضه سواء عشرون ومائة وهؤلاء لا تقوم لهم الجبال ولا الحديد وصنف منهم يفرش احدى اذنيه ويلتحف بالاخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير الا أكلوه ومن مات منهم أكلوه مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية ومنهم ان ثبت لهم مخالب فى أظفارهم وأضراسهم كأضراس السباع وعن على رضى الله تعالى عنه أنه قال منهم من طوله شبر ومنهم من هو مفرط فى الطول وقال كعب هم نادرة فى ولد آدم وذلك أن آدم احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج فهم يتصلون بنا من جهة الاب دون الام وذكر وهب بن منبه أن ذا القرنين كان رجلا من الروم ابن عجوز فلما بلغ كان عبدا صالحا قال الله تعالى انى باعثك الى أمم مختلفة ألسنتهم منهم أمتان بينهما طول الارض احداهما عند مغرب الشمس يقال لها ناسك والاخرى عند مطلعها يقال لها منسك وأمتان بينهما عرض الارض احداهما فى القطر الايمن يقال لها هاويل والاخرى فى قطر الارض الايسر يقال لها تاويل وأمم فى وسط الارض منهم الجن والانس ويأجوج ومأجوج فقال ذو القرنين بأى قوة أكاثرهم وبأى لسان أناطقهم قال الله تعالى انى سأطوقك وأبسط لك لسانك وأشد عضدك فلا يهولنك شىء وألبسك الهيبة فلا يروعنك شىء وأسخر لك النور والظلمة واجعلهما من جنودك يهديك النور من امامك وتحفظك الظلمة من ورائك فانطلق حتى أتى مغرب الشمس فوجد جمعا وعددا لا يحصيه الا الله تعالى فكاثرهم بالظلمة حتى جمعهم فى مكان واحد فدعاهم الى الله تعالى والى عبادته فمنهم من آمن ومنهم من كفر ومنهم من صد عنه فعمد الى الذين تولوا عنه وأدخل عليهم الظلمة فدخلت أجوافهم وبيوتهم فدخلوا فى دعوته فجند من أهل المغرب جندا عظيما فانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم حتى أتى هاويل فعمل فيهم كعمله فى ناسك ثم مضى حتى انتهى الى منسك عند مطلع الشمس فعمل فيها وجند منها جنودا كعمله فى الامتين ثم أخذ ناحية الارض اليسرى فأتى تاويل فعمل فيها كعمله فيما قبلها ثم عمد الى الامم التى فى وسط الارض فلما كان مما يلى منقطع الترك نحو المشرق قالت له أمة صالحة من الانس يا ذا القرنين ان بين هذين الجبلين خلقا أشباه البهائم أى وهم يأجوج ومأجوج (مفسدون فى الارض) يفترسون الدواب والوحوش والسباع ويأكلون الحيات والعقارب وكل ذى روح خلقه الله فى الارض وليس يزداد خلق كزيادتهم فلا يشك أنهم سيملكون الارض ويظهرون عليها ويفسدون فيها وقال الكلبى فسادهم انهم كانوا يخرجون أيام الربيع الى أرضهم فلا يدعون فيها شيأ أخضر الا أكلوه ولا يابسا الا

وقت التكلم معه أو اعترافه بكونها عصا وازدياد علمه بذلك فلا يعترضه شك اذا قلبها الله ثعبانا انها كانت عصا ثم انقلبت ثعبانا بقدرة الله تعالى (قوله هى عصاى) هو جواب موسى

قوله أربعمائة ألف فى الجلل أربعة آلاف وقوله آدم احتلم فيه أنه ما احتلم نبى قط فان صح ما هنا فمعناه فاض منيه حال نومه لامتلاء وعائه اهـ مصحح

احتملوه وآدخلوه أرضهم وقيل بالقتل وأكل لحومهم وقيل بالغزو وإقرارهم أذى شديدا وقتلا وقيل فسادهم أنهم كانوا يأكلون الناس وقيل معناه أنهم سيفسدون في الأرض بعد خروجهم (فهل نجعل لك خرجا) أي جعلا من المال وقرأ حمزة والكسائي بفتح الراء وألف بعدها والباقون بسكون الراء ولا ألف بعدها فقيل هما بمعنى وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك (على أن تجعل) في جميع ما (بيننا وبينهم) من الأرض التي يمكن توصلهم إلينا منها إلا ما شاء الله من الأمكنة (سدا) أي حاجزا بين هذين الجبلين فلا يصلون إلينا وقرأ نافع وابن عامر وشعبة برفع السين والباقون بالنصب (قال) لهم ذو القرنين (ما مكني فيه ربي) أي الحسن الذي ما ترونه من الأموال والرجال والتوصل إلى جميع الممكن للمخلوق (خير) من خراجكم الذي تريدون بذله كما قال سليمان عليه السلام فما آتاني الله خير مما آتاكم وقرأ ابن كثير بنون مفتوحة بعد الكاف وبعدها نون مكسورة والباقون بنون واحدة مكسورة مشددة (فأعينوني بقوة) أي إني لا أريد المال بل أعينوني بأيديكم وقوتكم وبالآلات التي أتقوى بها في فعل ذلك فإن ما هي إنما هو للقتال وما يكون من أسبابه لا لمثل هذا (أجعل بينكم) أي بين ما تختصون به (وبينهم ردما) أي حاجزا حصينا موثقا بعضه فوق بعض من التلاصق والتلاحم وهو أعظم من السد من قولهم ثوب مردم إذا كان رقاعا فوق رقاع قالوا وما تلك القوة قال فعلة وصناع يحسنون البناء قالوا وما تلك الآلات قال (آتوني) أي أعطوني (زبر الحديد) أي قطعه وهو جمع زبرة كغرفة وغرف قال الخليل الزبرة من الحديد القطعة الضخمة فأتوه به وبالحطب فحفر له الأساس حتى بلغ الماء وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم (حتى إذا ساوى) أي بذلك البناء (بين الصدفين) أي بين جانبي الجبلين أي سوى بين طرفي الجبلين سميا بذلك لأنهما يتصادفان أي يتقابلان من قولهم صادفت الرجل لاقيته وقابلته وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر برفع الصاد والدال وشعبة برفع الصاد وسكون الدال والباقون بنصب الصاد والدال ثم وضع المنافخ والنار في الحطب والفحم و(قال) أي للعملة (انفخوا) فنفخوا (حتى إذا جعله) أي الحديد (نارا) أي كالنار (قال آتوني) أي أعطوني (أفرغ عليه قطرا) أي أصب النحاس المذاب على الحديد المحمى فصبه عليه فدخل في خلال الحديد مكان الحطب لأن النار أكلت الحطب حتى لزم الحديد النحاس فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلا صلدا قال الزمخشري قيل ما بين السدين مائة فرسخ وروي أن عرضه كان خمسين ذراعا وارتفاعه مائتي ذراع وعن قتادة قال ذكر لنا أن رجلا وفي رواية عن رجل من أهل المدينة قال يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال انعته لي قال كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء وهذه معجزة عظيمة إن كان نبيا أو كرامة إن لم يكن لأن هذه الزبرة الكبيرة إذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر الحيوان أن يقرب منها والنفخ عليها لا يكون إلا بالقرب منها فكأنه تعالى صرف تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين عليها حتى تمكنوا من العمل فيها * (تنبيه) * قطرا هو المتنازع فيه وهذه الآية أشهر أمثلة النحاة في باب التنازع وبها تمسك البصريون على أن إعمال الثاني من العاملين المتوجهين نحو معمول واحد أولى إذ لو كان قطرا مفعول

(فإن قلت) لم زاد عليه أتوني على الجمع (قلت) قال ابن عباس رضي الله عنهما إنه سئل سؤالا إنما تصنع بها فأجاب بذلك أو ذكر ذلك خوفا من أنه يوهم بالقائها كما أمر بالقاء النعلين

آتونى لاضمر مفعول افرغ حذرا من الالباس ثم قال تعالى (فما) اى فتسبب عن ذلك انه لما
أكمل عمل الردم واحكمه ما (اسطاعوا) اى يأجوج ومأجوج وغيرهم (ان يظهروه) اى
يعلوا ظهره لعلوه وملاسته وقرأ حمزة بتشديد الطاء والباقون بالتخفيف (وما استطاعوا له
نقبا) اى خرقا لصلابته وثخانته وزيادة التاء هنا تدل على ان العلو عليه اصعب من
نقبه لارتفاعه وصلابته والتصاق بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس
فى علو الجبل فانهم ولو احتالوا ببناء درج من جانبهم أو وضع تراب حتى ظهروا عليه لم ينفعهم
ذلك لانهم لا حيلة لهم على النزول من الجانب الآخر ويؤيده أنهم انما يخرجون فى آخر
الزمان بنقبه لا بظهورهم عليه ولا ينافى نفى الاستطاعة لنقبه ما رواه الامام احمد والترمذى
فى التفسير وابن ماجه فى الفتن عن ابى رافع عن ابى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
ان يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى
عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعودون اليه كأشد ما كان حتى اذا بلغت مدتهم وأراد الله
تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم
ارجعوا فستحفرونه غدا ان شاء الله تعالى فيستثنى فيعودون اليه وهو كهيئته حين
تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس الحديث وفى حديث الصحيحين عن زينب بنت جحش
عن النبى صلى الله عليه وسلم فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق رسول الله
صلى الله عليه وسلم ورواه عن ابى هريرة وفيه مثل هذا وعقد تسعين لان هذا فى آخر الزمان
ثم انه قيل لما قال حين فراغه قيل (قال هذا) اى السد بمعنى الاقدار عليه (رحمة) اى نعمة
(من ربى) اى المحسن الى باقدارى عليه ومنع العادية (فاذا جاء وعد ربى) بقرب قيام الساعة
أو بوقت خروجهم (جعله دكا) اى مدكوكا مبسوطا وروى أنهم يخرجون على الناس فيتبعون
المياه ويتحصن الناس فى حصونهم منهم فيرمون بسهامهم الى السماء فترجع مخضبة بالدماء
فيقولون قهرنا من فى الارض وعلونا من فى السماء قسوة وعلوا فيبعث الله تعالى عليهم نغفا
فى رقابهم وفى رواية فى آذانهم فيهلكون قال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ان دواب
الارض لتسمن وتشكر من لحومهم شكرا اخرجه الترمذى قوله قسوة وعلوا اى غلظة
وفظاظة وتكبرا والنغف دود يخرج فى أنوف الابل والغنم وقوله وتشكر من لحومهم شكرا
يقال شكرت الشاة تشكر شكرا حين امتلأ ضرعها لبنا والمعنى أنها تمتلئ أجسادها لحما وتسمن
وعن النواس بن سمعان قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه
ورفع حتى ظنناه فى طائفة من النخل فلما رحنا اليه عرف ذلك فينا فقال ما شأنكم قلنا
يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل فقال غير
الدجال اخوفنى عليكم ان يخرج وأنا فيكم فانا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فكل
امرئ حجيج نفسه والله خليفتى على كل مسلم وانه شاب قطط اى شديد الجعودة وقيل حسن
الجعودة عينه طافئة اى بارزة وقيل مخروقة كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه
منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف انه خارج من خلة بين الشام والعراق فعاث اى أفسد
يمينا وعاث شمالا يا عباد الله فاثبتوا قلنا يا رسول الله وما لبثه فى الارض قال أربعون يوما

أو لئلا ينسب اليه التعب
فى حلها مع ان المقام مقام
البسط للتلذذ بالكلام مع
الرب تعالى ولهذا بسط فى
الجواب اذ كان يكفى
فيه ان يقول عصا (قوله
واضمم يدك الى جناحك)

يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يا رسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم قال لا اقدروا له قدره اى واليوم الثانى والثالث كذلك وسكت عن ذلك للعلم به من الاول قلنا يا رسول الله وما اسراعه فى الارض قال كالغيث استدبرته الريح فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والارض فتنبت وتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا واسبغه ضروعا وأمده خواصر ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شئ من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها أخرجى كنوزك فيتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء فى دمشق بين مهرودتين اى حلتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين اذا طأطأ رأسه قطر واذا رفعه تحدر منه مثل جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه الامات ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه حتى يدركه بباب لد قرية بالشام قريبة من الرملة فيقتله ثم يأتى عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك اذ أوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام انى قد أخرجت عبادا لى لا يدان لاحد بقتالهم فحرز عبادى الى الطور ويبعث يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقول لقد كان بهذه مرة ماء ويحصر نبى الله وأصحابه حتى يكون رأس الثور لاحدهم خيرا من مائة دينار لاحدكم اليوم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه الى الله تعالى فيرسل الله تعالى عليهم النغف فى رقابهم وهو بالتحريك دود يكون فى أنوف الابل والغنم كامر واحدتها نغفة فيصبحون فرسى اى قتلى الواحد فريس ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه الى الارض فلا يجدون فى الارض موضع شبر الا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه الى الله فيرسل الله تعالى عليهم طيرا كأعناق البخت فتحملهم حيث شاء الله تعالى ثم يرسل الله تعالى عليهم مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الارض حتى يتركها كالزلفة وهى بالتحريك جمعها زلف مصانع الماء ويجمع على المزالف أيضا اى فتصير الارض كأنها مصنعة من مصانع الماء وقيل كالمرآة وقيل الزلفة الروضة وقيل بالقاف ايضا ثم يقال للارض انبتى ثمرتك وردى بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك فى الرسل وهو بتحريك الراء والسين من الابل والغنم من عشرة الى خمسة وعشرين حتى ان اللقحة من الابل لتكفى الفئام من الناس وهو مهموز الجماعة الكثيرة واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس فبينما هم كذلك اذ بعث الله تعالى عليهم ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة (وكان وعد ربى) الذى وعد به فى خروج يأجوج ومأجوج واحراقهم الارض وافسادهم لها وقرب قيام الساعة (حقا) كائنا لا محالة فلذلك أعان تعالى على هدمه هذا آخر حكاية ذى القرنين وفى القصة ان ذا القرنين دخل الظلمة فلما رجع توفى بشهرزور وذكر بعضهم أن عمره كان نيفا وثلاثين سنة سبحان من يدوم عزه وبقاؤه ثم انه تعالى

جعل هنا الجناح مضموما اليه وفى القصص مضموما فى قوله واضمم اليك جناحك لان المراد به هنا ما بين العضد الى الابط ومن اليد اليسرى وبه ثم اليمنى من اليد اليمنى فلا تنافى (قوله

قال عاطفا على ما تقديره فقد بان أمر ذي القرنين اي بيانه وصدق في قوله فاذا جاء وعد ربي فانه اذا جاء وعدنا جعلناه بقدرتنا التي نؤتيها ياجوج وماجوج دكا فاخرجناهم على الناس بعد خروج الدجال (وتركنا بعضهم) اي ياجوج وماجوج (يومئذ) اي حين يخرجون (يموج) اي يضطرب (في بعض) كموج البحر او يموج بعض الخلق في بعض فيضطربون ويختلطون انسهم وجنهم حيارى ويؤيده (ونفخ في الصور) أي القرن النفخة الثانية لقوله تعالى (فجمعناهم) اي الخلائق في مكان واحد يوم القيامة قال البقاعي ويجوز أن تكون هذه الفاء فاء الفصيحة فيكون المراد النفخة الاولى أي ونفخ فمات الخلائق كلهم فبليت أجسامهم وتفتتت عظامهم كما كان من تقدمهم ثم نفخ الثانية فجمعناهم من التراب بعد تمزقهم فيه وتفرقهم في أقطار الارض بالسيول والرياح وغير ذلك (جمعا) فاحييناهم دفعة واحدة كلمح البصر وحشرناهم الى الموقف للحساب ثم الثواب والعقاب (وعرضنا) اي اظهرنا (جهنم يومئذ) اي اذ جمعناهم لذلك (للكافرين عرضا) ظاهرة لهم بكل ما فيها من الاهوال وهم لا يجدون لهم عنها مصرفا ثم وصفهم بما أوجب لهم ذلك بقوله تعالى (الذين كانت) كونا كأنه جبلة لهم (أعينهم) وهو بدل من الكافرين (في غطاء عن ذكري) اي عن القرآن فهم لا يهتدون به وعما جعلنا على الارض من زينة دليلا على الساعة بافنائه ثم احيائه واعادته بعد ابداده (وكانوا) بما جعلناهم عليه (لا يستطيعون سمعا) اي لا يقدرون أن يسمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم ما يتلوه عليهم لبغضهم له فلا يؤمنون به ولما بين تعالى أمر الكافرين أنهم أعرضوا عن الذكر وعن استماع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم أتبعه بقوله تعالى (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي) من الاحياء كالملائكة وعزير والمسيح والاموات كالاصنام (من دوني) وقوله تعالى (أولياء) اي اربابا مفعول ثان ليتخذوا والمفعول الثاني لحسب محذوف والمعنى أظنوا أن الاتخاذ المذكور ينفعهم ولا يغضبني ولا أعاقبهم عليه كلا وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها وهم على مراتبهم في المد ولما كان معنى الاستفهام الانكاري ليس الامر كذلك حسن جدا قوله تعالى مؤكدا لاجل انكارهم (انا أعتدنا جهنم) التي تقدم أنا عرضناها لهم (للكافرين) اي هؤلاء وغيرهم (نزلا) اي هي معدة لهم كالنزل المعد للضيف وهذا على سبيل التهكم ونظيره قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم ثم ذكر تعالى ما فيه تنبيه على جهل القوم فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) لهم (هل ننبئكم) اي نخبركم وادغم الكسائي لام هل في النون والباقون بالاظهار (بالاخسرين أعمالا) اي الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يرجون به فضلا ونوالا فنالوا هلاكا وبوارا واختلفوا فيهم فقال ابن عباس وسعد بن أبي وقاص هم اليهود والنصارى وهو قول مجاهد قال سعد بن أبي وقاص أما اليهود فكذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأما النصارى فكفروا بالجنة فقالوا لا طعام فيها ولا شراب انتهى قال البقاعي وكذا قال اليهود لان الفريقين أنكروا الحشر الجسماني وخصوه بالروحاني وقيل هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع • (تنبيه) • أعمالا تمييز للاخسرين جمع عمل وان كان مصدرا لتنوع أعمالهم ثم وصفهم تعالى بضد ما يدعونه لانفسهم من نجاح السعي واحسان الصنع فقال تعالى (الذين ضل) اي ضاع وبطل (سعيهم في الحيوة الدنيا) لكفرهم

(تنبيه)

قال اذهب الى فرعون) قال ذلك هنا وقال في الشعراء ان ائت القوم الظالمين قوم فرعون وفي القصص فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه اقتصر في طه على فرعون لانه

•(تنبيه)• محل الموصول الجر نعتا أو بدلا أو بيانا أو النصب على الذم أو الرفع على الخبر المحذوف فانه جواب السؤال ومعنى خسرانهم أنه مثلهم من يشترى سلعة يرجو فيها ربحا فخسر وخاب سعيه كذلك أعمال هؤلاء الذين أتعبوا أنفسهم مع ضلالهم فبطل جدهم واجتهادهم فى الحياة الدنيا (وهم يحسبون) اى يظنون وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بالكسر (أنهم يحسنون صنعا) اى عملا يجازون عليه لاعتقادهم انهم على الحق •ثم بين تعالى السبب فى بطلان سعيهم بقوله تعالى (أولئك) اى البعداء البغضاء (الذين كفروا بآيات ربهم) اى بدلائل توحيده من القرآن وغيره (ولقائه) اى رؤيته لانه يقال لقيت فلانا اى رأيته (فان قيل) اللقاء عبارة عن الوصول قال تعالى فالتقى الماء على أمر قد قدر وذلك فى حق الله تعالى محال فوجب حمله على لقاء ثواب الله تعالى كما قال بعض المفسرين (أجيب) بان لفظ اللقاء وان كان عبارة عن الوصول الا أن استعماله فى الرؤية مجاز ظاهر مشهور والذى يقول ان المراد لقاء ثواب الله قال لا يتم الا بالاضمار وحمل اللفظ على المجاز المتعارف المشهور أولى من حمله على ما يحتاج الى الاضمار ثم قال تعالى (فحبطت) اى فبسبب جحدهم الدلائل بطلت (أعمالهم) فصارت هباء منثورا فلا يثابون عليها وفى قوله تعالى (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) قولان أحدهما انا نزدريهم وليس لهم عندنا وزن ومقدار تقول العرب ما لفلان عندى وزن أى قدر لخسته وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرؤا ان شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا الثانى لا نقيم لهم ميزانا لان الميزان انما يوضع لاهل الحسنات والسيآت من الموحدين ليتميز مقدار الطاعات ومقدار السيآت وقال أبو سعيد الخدرى تأتى ناس بأعمالهم يوم القيامة عندهم فى التعظيم كجبال تهامة فاذا وزنوها لم تزن شيأ فذلك قوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ولما كان هذا السياق فى الدلالة على ان لهم جهنم أوضح من الشمس قال تعالى (ذلك) اى الامر العظيم الذى بينا من وعيدهم (جزاؤهم) ثم بين ذلك الجزاء بقوله تعالى (جهنم) وصرح بالسببية بقوله تعالى (بما كفروا) اى بما أوقعوا التغطية للدلائل (واتخذوا آياتى) الدالة على وحدانيتنا (ورسلى) المؤيدين بالمعجزات الظاهرات (هزوا) اى مهزوا بهما فلم يكتفوا بالكفر الذى هو طعن فى الالهية حتى ضموا اليه الهزو الذى هو أعظم احتقارا • ولما بين سبحانه وتعالى ما لاحد قسمى أهل الجمع تنفيرا عنهم بين ما للآخرين على تقدير الجواب لسؤال يقتضيه الحال ترغيبا فى اتباعهم والاقتداء بهم بقوله (ان الذين آمنوا) اى باشروا الايمان (وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) من الخصال (كانت لهم) اى فى علم الله قبل أن يخلقوا البناء أعمالهم على الاساس (جنات) اى بساتين (الفردوس) اى أعلى الجنة وأوسطها والاضافة اليه للبيان روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة وقال كعب ليس فى الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال قتادة الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وأرفعها وقال كعب الفردوس هو

الاصل بالنسبة الى قومه مع سبق طه وا كتفى فى الشعراء بذكره فى الاضافة عن ذكره مفردا وجمع بينهما فى القصص ليوافق قوله فذانك برهانان فى التعدد (قوله واحلل عقدة من

بستان الجنة الذى فيه الاعناب وقال مجاهد هو البستان بالرومية وقال الزجاج هو بالرومية منقول الى لفظ العربية وقال عكرمة هى الجنة بلسان الحبش وقال الضحاك هى الجنة الملتفة الاشجار (نزلا) اى منزلا كما كان السعير والاغلال لاولئك نزلا وقوله تعالى (خالدين فيها) حال مقدرة (لايبغون) اى لا يريدون أدنى ارادة (عنها حولا) اى تحولا الى غيرها قال ابن عباس لا يريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار اذا لم توافقه الى دار أخرى ه ولما ذكر تعالى فى هذه السورة أنواع الدلائل والبينات وشرح فيها أقاصيص الاولين والآخرين نبه على حال كمال القرآن بقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) يا أشرف الخلق الخالق (لو كان البحر) اى ماؤه على عظمته عندكم (مدادا) وهو اسم لما يمد به الشئ كالحبر للدواة والسليط للسراج (لكلمات) اى لكتب كلمات (ربى) اى المحسن الى (لنفد) اى فنى مع الضعف فناء لاتدارك له (البحر) لانه جسم متناه (قبل أن تنفد) اى تفنى وتفرغ (كلمات ربى) لان معلوماته تعالى غير متناهية والمتناهى لايفى البتة بغير المتناهى وقرأ حمزة والكسائى بالياء التحتية على التذكير والباقون بالفوقية على التانيث ه ولما لم يكن أحد غيره يقدر على امداد البحر قال تعالى (ولو جئنا بمثله) اى بمثل البحر الموجود (مددا) اى زيادة ومعونة ونظيره قوله تعالى ولو أن مافى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال البغوى وابن عباس قالت اليهود تزعم يا محمد انا قد أوتينا الحكمة وفى كتابك ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ثم تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا فانزل الله تعالى هذه الآية وقال البيضاوى وسبب نزولها أن اليهود قالوا فى كتابكم ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وتقرؤن وما أوتيتم من العلم الا قليلا انتهى وقال فى الكشاف يعنى ان ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله وقيل لما نزل وما أوتيتم من العلم الا قليلا قالت اليهود أوتينا التوراة وفيها علم كل شئ فانزل الله تعالى هذه الآية ه ولما كانوا ربما قالوا مالك لاتحدث من هذه الكلمات بكل ماسألناه عنه قال الله تعالى (قل) ياخير الخلق لهم (انما أنا بشر) فى استبداد القدرة على ايجاد المعدوم والاخبار بالغيب (مثلكم) اى لا أمر لى ولا قدرة الا ما يقدرنى ربى عليه ولكن (يوحى الى) اى من الله تعالى الذى خصنى بالرسالة كالوحى الى الرسل قبلى (انما الهكم) الذى يجب أن يعبد (اله واحد) لا ينقسم بمجانسة ولا غيرها قادر على ما يريد لامنازع له لم يؤخر جواب ما سألتمونى عنه من عجز ولا من جهل هذا الذى يعنى كل أحد علمه وأما ما سألتم عنه فى أمر الروح والقصتين فمنه تعالى فامر لوجه لقوم ماضر كم جهله (فمن) اى فتسبب عن وحدته المستلزمة لقدرته أنه من (كان يرجوا لقاء ربه) اى يخاف المصير اليه وقيل يأمل رؤيته والرجاء يكون بمعنى الخوف والامل جميعا قال الشاعر

فلا كل ماترجوا من الخير كائن ٭ ولا كل ماترجوا من الشر واقع

فجمع بين المعنيين (فليعمل عملا) ولو قليلا (صالحا) يرتضيه الله (ولا يشرك) اى وليكن ذلك العمل مبنيا على الاساس وهو أن لا يشرك ولو بالرياء (بعبادة ربه احدا) فاذا عمل ذلك استوفى علوم الدنيا والآخرة روى ان جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى لاعمل

لسانى) قال ذلك هنا وقال فى الشعراء ولا ينطلق لسانى وفى القصص وأخى هرون هو أفصح منى لسانا صرح بعقد اللسان فى طه لسبقها وكنى عنها فى الشعراء لما بينهما من

بجلسوا عليه فجعلوا ينتظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه اذ قال قائل منهم هذه الشمس والله
قد أشرقت فقال آخر والله وهذه العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا
وقالوا ما هذا الا سحر مبين والاورق من الابل الذي في لونه بياض الى سواد وهو أطيب الابل
لحما كما قاله الجوهري ومنها ما روى عن أنس بن مالك قال كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم
وجاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وايمانا فأفرغها في صدري ثم أطبقه ثم اخذ بيدي وعرج
بي الى السماء فلما جئنا الى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء افتح قال ومن هذا قال
جبريل قال هل معك أحد قال نعم معي محمد قال فارسل اليه قال نعم ففتح قال فلما علونا السماء
الدنيا فاذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل
شماله بكى فقال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم
وهذه الاسودة التي عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فاهل اليمين منهم أهل الجنة والاسودة التي عن
شماله أهل النار واذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى ثم عرج بي جبريل حتى أتى
الى السماء الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا فقال أنس
ابن مالك فذكر أنه وجد في السموات آدم وادريس وموسى وعيسى وابراهيم ولم يبين كيف
منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وابراهيم في السماء السادسة قال فلما مر
جبريل ورسول الله صلى الله عليهما وسلم بادريس فقال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح قال
فقلت من هذا قال انه ادريس قال ثم مررت بموسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح
قال قلت من هذا قال هذا موسى فقال ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ
الصالح قال فقلت من هذا قال عيسى ثم مررت بابراهيم فقال مرحبا بالابن الصالح والنبي
الصالح قال فقلت من هذا قال هذا ابراهيم قال ابن شهاب أخبرني ابن حزم ان ابن عباس
كان يقول كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى اسمع فيه صرير
الاقلام وروى معمر عن قتادة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بالبراق ليلة أسرى
به مسرجا ملجما فاستصعب عليه فقال جبريل أبمحمد تفعل هذا فما ركبك أحد أكرم على الله
منه فارفض عرقا وقال ابن زيد عن أبيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهيت الى
بيت المقدس قال جبريل باصبعه فخرق بها الحجر وشد به البراق وفي رواية أنه جاء جبريل
بالبراق الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له يا محمد اركب فركبه صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل
وطار به البراق في الهواء فاخترق به الجو فعطش صلى الله عليه وسلم واحتاج الى الشرب
فأتاه جبريل باناءين اناء من لبن واناء من خمر وذلك قبل تحريم الخمر فعرضهما عليه فتناول
اللبن فقال له جبريل عليه السلام أصبت الفطرة أصاب الله تعالى بك أمتك ولذلك كان صلى
الله عليه وسلم يتأول اللبن بالعلم فلما وصل الى السماء الدنيا استفتح الى أن قال ثم عرج بي الى
سدرة المنتهى وأخبره جبريل ان أعمال بني آدم تنتهي الى تلك السدرة وانها مقر الارواح فهي
نهاية لما ينزل مما هو فوقها ونهاية لما يعرج اليها مما هو دونها وبها مقام جبريل عليه السلام
فنزل صلى الله عليه وسلم عن البراق وجيء اليه بالرفرف وهو نظير المحفة عند نا فقعد عليه وسلمه

بالمطرق وعن النابغة ورم
الاولى (قوله ولقد صرفنا في
هذا القرآن) قال ذلك هنا
بحذف للناس اكتفاء
بذكره قبل بلفظه وكل انسان
الزمناه طائره في عنقه وقاله
بعد بذكره تمييز عن الحسن

جبريل الى الملك النازل بالرفرف فسأله الصحبة ليأنس به فقال له لا أقدر لو خطوت خطوة لاحترقت فما منا الا له مقام معلوم وما أسرى الله بك يا محمد الا ليريك من آياته فلا تغفل فودعه وانصرف مع ذلك الملك والرفرف والملك يمشي به الى أن ظهر لمستوى سمع فيه صرير الاقلام في الالواح وهي تكتب ما يجري به الله تعالى في خلقه وما تنسخه الملائكة من أعمال عباده قال تعالى انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ثم زج بي في النور زجة فافرده الملك الذي كان معه وتأخر عنه فلم يره معه فعلم أن الرفرف ما تدلى الا ليكون البراق له مكان لا يتعداه كجبريل لما بلغ الى المكان الذي لا يتعداه وقف وكذلك الرفرف لما وصل الى مقام لا يتعداه زج به في النور فغمره النور من جميع نواحيه وأعطى علما آخر لم يكن يعلمه قبل ذلك عن وحي من حيث لا يدري وجهته وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد رأيتني وأنا في الحجر وقريش تسألني عن مسرى فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط فرفعه الله لي لانظر اليه فما سألوني عن شيء الا أنبأتهم به وقد رأيتني في جماعة من الانبياء فاذا موسى قائم يصلي فاذا رجل جعد كأنه من رجال شنوأة واذا عيسى ابن مريم قائم يصلي أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفي واذا ابراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم يعني به نفسه صلى الله عليه وسلم فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت قال قائل يا محمد هذا مالك خازن النار فسلم عليه فالتفت اليه فبدأني بالسلام وعن جابر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما كذبني قريش قمت الى الحجر فجلى الله لي بيت المقدس وذكر الحديث وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الاحمر وهو قائم يصلي في قبره (فان قيل) رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى يصلي في قبره وكيف تصلي الانبياء بعد الموت وهم في دار الآخرة (اجيب) بان صلاته صلى الله عليه وسلم بالانبياء عليهم السلام ببيت المقدس يحتمل أن الله تعالى جمعهم له ليصلي بهم ويعرفوا فضله وتقدمه عليهم ثم ان الله تعالى أراه اياهم في السموات على مراتبهم ليعرفهم مراتبهم وفضلهم وأما مروره بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الاحمر فيحتمل انه كان بعد رجوعه من المعراج وأما حكم صلاة الانبياء وهم في الدار الآخرة فهم في حكم الشهداء بل هم أفضل منهم وقد قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء فالانبياء بعد الموت أولى وأما حكم صلاتهم فيحتمل أنها بالذكر والدعاء وذلك من أعمال الآخرة قال تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم وورد في الحديث أنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ويحتمل أن الله تعالى خصهم بخصائص في الآخرة كما خصهم في الدنيا بخصائص لم يخص بها غيرهم منها أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أنه رآهم يلبون ويحجون فكذلك الصلاة والله أعلم بحقائق الامور وروى عن شريك بن عبد الله قال سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة انه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى اليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم وساق حديث المعراج بقصته قال فاذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان قال ما هذان يا جبريل قال هذان النيل والفرات عنصرهما ثم مضى به في السماء فاذا هو

لجريان ذكرهما معا قبل وقاله في الكهف بذكره ايضا لعدم ذكره قبل وبعد وقدم اي قوله للناس على قوله في هذا القرآن هنا الا في الآية الثالثة اهتماما بالتمييز المذكور بالناس لانهم

بنهر آخر عليه خيام من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فاذا هو مسك أذفر قال ما هذا يا جبريل قال هو الكوثر الذى خبأ لك ربك وذكر فى آخر حديثه أنه صلى الله عليه وسلم قال فى آخر الحديث ثم علا بى حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى فكان منه كقاب قوسين أو أدنى فاوحى اليه وذكرت عائشة ان الذى دنا فتدلى جبريل عليه السلام وسيأتى الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى فى سورة النجم (فان قيل) قوله تعالى لنريه من آياتنا يدل على انه تعالى ما أراه الابعض الآيات لان كلمة من تفيد التبعيض وقال فى حق ابراهيم عليه الصلاة والسلام وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض أى ملكهما فيلزم أن يكون معراج ابراهيم أفضل من معراج محمد عليهما السلام (أجيب) بانه لما أضيفت تلك الآيات الى الله تعالى دل على انها أفضل مما أراه ابراهيم * (تنبيه) * قال النووى فى شرح مسلم قد جاء فى رواية شريك فى حديثه أوهام أنكرها عليه العلماء فيها منها قوله وذلك قبل ان يوحى اليه وهو غلط لم يوافق عليه وان الاسراء أقل ما قيل فيه انه كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر شهرا ٣ وقال الطبرانى كان ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة وقال الزهرى كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمس سنين قال ابن اسحق أسرى به صلى الله عليه وسلم وقد فشا الاسلام بمكة والقبائل وقيل كان الاسراء فى رجب ويقال فى رمضان قال النووى وأشبه الاقوال قول الزهرى وابن اسحق ومما يدل على أنه أسرى بجسده صلى الله عليه وسلم قوله تعالى أسرى بعبده ولفظ العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقوله صلى الله عليه وسلم أتيت بالبراق وهو اسم للدابة وهى التى ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به واشتقاقه من البرق لسرعته أو لشدة صفائه وبياضه ولمعانه وتلألؤ نوره والحلقة باسكان اللام ويجوز فتحها والمراد بربط البراق بالحلقة الاخذ بالاحتياط فى الامور وتعاطى الاسباب وان ذلك لا يقدح فى التوكل اذا كان الاعتماد على الله تعالى وقوله جاءنى جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فيه اختصار والتقدير قال لى اختر فاخترت اللبن وقول جبريل اخترت الفطرة يعنى فطرة الاسلام وجعل اللبن علامة الفطرة الصحيحة السليمة لكونه سهلا طيبا سائغا للشاربين وانه سليم العاقبة بخلاف الخمر فانها أم الخبائث وجالبة لانواع الشر وقوله ثم عرج بى حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فيه بيان الادب لمن استأذن ان يقول أنا فلان ولا يقول أنا فقط فانه مكروه وفيه أن للسماء أبوابا وبوابين عليها حرسا وقول بواب السماء وقد أرسل اليه وفى الرواية الاخرى وقد بعث اليه معناه للاسراء وصعود السماء وليس مراده الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة فان ذلك لا يخفى عليه الى هذه المدة وقوله فاذا أنا بآدم وذكر جماعة من الانبياء فيه استحباب لقاء أهل الفضل والصلاح بالبشر والترحيب والكلام الحسن وان كان الزائر أفضل من المزور وفيه جواز مدح الانسان فى وجهه اذا أمن عليه من الاعجاب وغيره من أسباب الفتنة وقوله فاذا أنا بابراهيم مسند ظهره الى البيت المعمور فيه دليل على جواز الاستناد الى القبلة وتحويل ظهره اليها وقوله ذهب بى الى السدرة المنتهى هكذا وقع فى هذه الرواية بالالف واللام وفى باقى الروايات الى سدرة المنتهى قال ابن عباس وغيره من

قوله عليه خيام الخ هكذا فى النسخ ولعله محرف عن قوله عليه جنابذ من لؤلؤ وزبرجد اه

الاصل فى التكليف ولهذا اقتصر عليهم فى غالب الآيات كقوله يا أيها الناس وقوله من بعد ما بيناه للناس وقوله الذى انزل فيه القرآن هدى للناس وعكس فى الكهف لمناسبة قوله قبل

٣ قوله الطبرانى فى بعض النسخ الحربى بدله اه مصحح

المفسرين سميت بذلك لان علم الملائكة ينتهي اليها ولم يجاوزها أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن مسعود سميت بذلك لكونه ينتهي اليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله عز وجل وقوله واذا ثمرها مثل القلال هو بكسر القاف جمع قلة بضمها وهي الجرة الكبيرة التي تسع قربتين أو أكثر وقوله فرجعت الى ربي قال النووي معناه رجعت الى الموضع الذي ناجيته منه أولا فناجيته فيه ثانيا وقوله فلم أزل أرجع بين موسى وبين ربي معناه بين موضع مناجاة ربي وقوله ففرض على أمتي خمسين صلاة الى قوله فوضع عني خمسا وفي رواية شطرها وفي رواية عشرا ليس بين هذه الروايات منافاة لان المراد بالشطر الجزء وهو الخمس وليس المراد منه التنصيف وأما رواية العشر فهو رواية شريك ورواية الخمس رواية قتادة وهو أثبت من شريك والمراد حط عني خمسا الى آخره ثم قال هي خمس وهن خمسون يعني خمسين في الاجر والثواب لان الحسنة بعشر أمثالها واحتج العلماء بهذا الحديث على جواز نسخ الشيء قبل فعله وفي الحديث انه شق صدره ليلة المعراج وقد شق صدره أيضا في صغره وهو عند حليمة التي كانت ترضعه فالمراد بالشق الثاني زيادة التطهير لما يراد به من الكرامة ليلة المعراج وقوله أتيت بطشت من ذهب قد يتوهم انه يجوز استعمال الذهب لنا وليس الامر كذلك لان هذا الفعل من فعل الملائكة وهم مباح لهم استعمال الذهب أو لعل هذا كان قبل تحريمه وقوله ممتلئ حكمة وايمانا فافرغها في صدري قد يقال الحكمة والايمان من المعاني والافراغ صفة الاجسام فما معنى ذلك (أجيب) بانه يحتمل أنه جعل في الطشت شيء يحصل به كمال الايمان والحكمة وزيادتهما سمي ايمانا وحكمة لكونه سببا لهما وهذا من أحسن المجاز وقوله في صفة آدم فاذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة هو جمع سواد وقد فسر في الحديث بانه نسم بنيه يعني أرواح بنيه (فان قيل) أرواح المؤمنين في السماء وأما أرواح الكفار فتحت الارض السفلى فكيف تكون في السماء (أجيب) بانه يحتمل ان أرواح الكفار تعرض على آدم عليه السلام وهو في السماء فوافق وقت عرضها على آدم مرور النبي صلى الله عليه وسلم فاخبر بما رأى وقوله اذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر عن شماله بكى فيه شفقة الوالد على أولاده وسروره وفرحه بحسن حال المؤمن منهم وحزنه على حال الكافر منهم وقوله في ادريس مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح قد اتفق المؤرخون انه هو اخنوخ جد نوح فيكون جد النبي صلى الله عليه وسلم كما أن ابراهيم جده فكان ينبغي أن يقول بالنبي الصالح والابن الصالح كما قال آدم وابراهيم (وأجيب) بانه قيل ان ادريس المذكور هنا هو الياس وهو من ذرية ابراهيم فليس هو جد نوح قاله القاضي عياض وقال النووي ليس في هذا الحديث ما يمنع كون ادريس أبا النبينا صلى الله عليه وسلم وان قوله الاخ الصالح يحتمل أن يكون قاله تلطفا وتأدبا وهو أخ وان كان ابنا لان الانبياء اخوة والمؤمنون اخوة انتهى وانما أطلت في بيان ذلك لان الكلام مع الاحبة يحلو ولولا خوف الملال ما اقتصرت على ذلك فقد قال بعض المفسرين لا أعلم في الكتاب العزيز سورة تضمنت من خصائصه التي فضل بها كافة الانبياء ما تضمنته هذه السورة ولكن في هذا القدر كفاية لاولي الالباب ولما ثبت بهذه الخارقة ما أخبر به صلى الله عليه وسلم عن نفسه المقدسة من عظيم القدرة وما جاء صلى الله عليه وسلم

مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة الآية (قوله تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن) ضمير فيهن عائد الى السموات والارض والتسبيح وهو التنزيه شامل لتسبيح

من

من الآيات البينات في هذا الوقت اليسير أتبعه ما منح في السير من مصر الى الارض المقدسة من الآيات في مدد طوال موسى عليه الصلاة والسلام الذي كان أعظم الانبياء بركة على هذه الامة ليلة الاسراء لما أرشد النبي صلى الله عليه وسلم اليه من مراجعة الله تعالى في تخفيف الصلاة حتى رجعت من خمسين الى خمس مع أجر خمسين فقال (وآتينا) أي بعظمتنا (موسى الكتاب) أي التوراة (وجعلناه) اي الكتاب بما لنا من العظمة (هدى لبني اسرائيل) بالحمل على العدل في التوحيد والاحكام وأسرينا بموسى عليه السلام وبقومه من مصر الى بلاد المسجد الاقصى فأقاموا سائرين اليه أربعين سنة ولم يصلوا ومات كل من خرج الا المتقين الموفين بالعهد فقد بان الفضل بين الاسراءين كما بان الفضل بين الكتابين فذكر الاسراء أولا دليل على حذف مثله أولا ٢ فالآية من الاحتباك ثم نبه على ان المراد من ذلك كلمة التوحيد اعتقادا وعبادة بقوله تعالى (ألا) أي لئلا (يتخذوا) على قراءة أبي عمرو بالياء على الغيبة وقرأ غيره بالتاء على ان لا تتخذوا كقولك كتبت اليه أن افعل كذا (من دوني وكيلا) أي ربا تكلون اليه أموركم وذلك هو التوحيد فلا معراج أعلى ولا درجة أشرف ولا نعمة أعظم من أن يصير المرء بقائي بحر التوحيد وأن لا يعوّل في أمر من الامور الا على الله تعالى فان نطق نطق بذكر الله وان تفكر تفكر في دلائل تنزيه الله وان طلب طلب من الله فيكون كله لله وبالله والى الله وقوله تعالى (ذرية) نصب على الاختصاص في قراءة أبي عمرو وعلى النداء عند الباقين أي يا ذرية (من حملنا) اي في السفينة بعظمتنا على ظهر ذلك الماء الذي طبق ما تحت أديم السماء ونبه تعالى على شرفهم وتمام نعمتهم بقوله تعالى (مع نوح) ففي ذلك تذكير بانعام الله تعالى عليهم وانجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح في السفينة قال قتادة الناس كلهم من ذرية نوح لانه كان معه في السفينة ثلاث بنين سام وحام ويافث فالناس كلهم من ذرية أولئك قال البقاعي لان الصحيح ان من كان معه من غير ذريته ماتوا ولم يعقبوا ولم يقل ذرية نوح ليعلم انهم عقب أولاده المؤمنين لتكون تلك منة أخرى ثم انه تعالى أثنى على نوح حثا على الاقتداء به في التوحيد كما اقتدى به آباؤهم في ذلك بقوله تعالى (انه كان عبدا شكورا) أي مبالغا في الشكر الذي هو صرف العبد جميع ما أنعم الله تعالى به عليه لما خلق له روى انه عليه الصلاة والسلام كان اذا أكل قال الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء أجاعني وفي رواية انه يسمي اذا أكل ويحمد اذا فرغ واذا شرب قال الحمد لله الذي سقاني ولو شاء أظمأني واذا اكتسى قال الحمد لله الذي كساني ولو شاء أعراني واذا احتذى قال الحمد لله الذي حذاني ولو شاء أحفاني واذا قضى حاجته قال الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية ولو شاء حبسه وفي رواية انه كان يقول الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقى منفعته في جسدي وأخرج عني أذاه وفي رواية انه كان اذا أراد الافطار عرض طعامه على من مر به فان وجده محتاجا آثره به * ولما ذكر تعالى انعامه على بني اسرائيل بانزال التوراة عليهم وبأنه جعل التوراة هدى لهم بين انهم ما اهتدوا بهداه بل وقعوا في الفساد بقوله تعالى (وقضينا) اي وأوحينا (الى بني اسرائيل) أي الى بني عبدنا يعقوب عليه السلام الذي كان أطوع أهل زمانه وحيا مقطوعا مثبوتا ٣ (في الكتاب) أي التوراة التي قد أوصلناها اليهم على

---

٢ قوله دليل على حذف مثله اولا هكذا في الاصول التي بايدينا والظاهر ان هنا سقطا والتقدير دليل على حذف مثله ثانيا وذكر ايتاء الكتاب ثانيا دليل على حذف مثله اولا الخ اه مصححه

بلسان المقال كما في المؤمنين وبلسان الحال كما في سائر الموجودات اذ كل موجود يدل على قدرته تعالى وفي ذلك جمع بين الحقيقة والمجاز وهو جائز عند الشافعي رضي الله عنه

٣ قوله مثبوتا هكذا وفيما سيأتي قريبا القياس مثبتا لانه من أثبت الرباعي اه مصححه

لسان موسى عليه السلام وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ وقوله تعالى (لتفسدن) جواب قسم محذوف ويجوز أن يجرى القضاء المثبوت مجرى القسم فيكون لتفسدن جوابا له كأنه قال وأقسمنا لتفسدن (فى الارض) أى أرض الشام قاله السيوطى وقال الرازى أرض مصر ويوافق الاول قول البقاعى أى المقدسة التى كأنها اشرفها هى الارض (مرتين) اى افسادتين قال فى الكشاف اولاهما قتل زكريا عليه السلام وحبس ارمياء حين انذرهم بسخط الله تعالى والاخرى قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى بن مريم وقال البيضاوى الاولى مخالفة أحكام التوراة وقتل شعيا وقتل أرمياء وثانيتهما قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم السلام (ولتعلن) أى بما صرتم اليه من البطر انسيان المنعم (علوا كبيرا) بالظلم والتمرد لانه يقال لكل متكبر قد علا وتعظم (فاذا جاء وعد اولاهما) اى أولى مرتى الفساد وهو الوقت الذى حددناهم الانتقام فيه (بعثنا عليكم عبادا لنا) اى لايدان لكم بهم كما قال تعالى (اولى بأس شديد) اى اصحاب قوة فى الحرب واختلف فيهم فقال فى الكشاف سنحاريب وجنوده وقيل بختنصر وقال ابن عباس جالوت قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفا وقال البيضاوى عبادا لنا بختنصر عامل لهراسف على بابل وجنوده وقيل جالوت الخزرى وهو بخاء فزاى مفتوحتين فراء نسبة الى الخزر وهو ضيق العين وصغرها وهو الذى قتله داود وجيل من الناس وذكر الرازى فى ذلك قولين الاول ان الله تعالى سلط عليهم بختنصر فقتل منهم أربعين ألفا ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية الى أرض نفسه فبقوا هنالك فى الذل الثانى ان الله تعالى ألقى الرعب من بنى اسرائيل فى قلوب المجوس فلما كثرت المعاصى فيهم أزال الله ذلك الرعب عن قلوب المجوس فقصدوهم وبالغوا فى قتلهم وافنائهم واهلاكهم وأخرج ابن أبى حاتم عن عطية قال افسدوا المرة الاولى فارسل الله عليهم جالوت فقتلهم وأفسدوا المرة الثانية فقتلوا يحيى بن زكريا فبعث الله عليهم بختنصر وعن ابن مسعود قال كان أول الفساد من قتل زكريا فبعث الله عليهم ملك القبط وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال الاولى قتل زكريا والاخرى قتل يحيى قاله الرازى واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض فى معرفة أولئك الاقوام بأعيانهم بل المقصود هو انهم لما أكثروا من المعاصى سلط الله عليهم أقواما فقتلوهم وافنوهم ثم قال الله تعالى (فجاسوا) أى ترددوا لطلبكم (خلال الديار) أى وسطها للقتل والغارة قال البيضاوى فقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم وحرقوا التوراة وخربوا المسجد والمعتزلة لما منعوا تسليط الله الكافر على ذلك أولوا البعث بالتخلية انتهى وفى ذلك تعريض بالزمخشرى فانه قال فى كشافه (فان قلت) كيف جاز ان يبعث الله تعالى الكفرة على ذلك ويسلطهم عليه (قلت) معناه خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم على ان الله عز وجل اسند بعث الكفرة عليهم الى نفسه فهو كقوله تعالى وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون (وكان) أى ذلك البعث ووعد العقاب به (وعدا مفعولا) أى قضاء كائنا لازما لا شك فى وقوعه ولا بد ان يفعل (ثم رددنا لكم الكرة) أى الدولة والغلبة (عليهم) حتى تبتم عن ذنوبكم ورجعتم عن الفساد فى زمن داود بقتله جالوت وذلك بعد مائة سنة (وأمددناكم بأموال) تستعينون بها على قتال عدوكم (وبنين) تتقوون بهم (وجعلناكم أكثر) من عدوكم (نفيرا) أى عشيرة تنفر

(ان قلت) يمنع من شموله للثانى قولهم لكن لا تفقهون تسبيحهم لانه مفقوه لنا (قلت) الخطاب فيه للكفار وهم لم يفقهوا تسبيح الموجودات لانهم أثبتوا لله شريكا وزوجا وولدا بل

معكم عند ارادة القتال وغيره من المهمات والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر
وهم المجتمعون للذهاب الى العدو * ولما حكى الله تعالى عنهم أنهم لما عصوا سلط الله عليهم أقواما
قصدوهم بالقتل والنهب والسبي ولما تابوا أزال عنهم تلك المحنة وأعاد عليهم الدولة فعند ذلك
ظهر أنهم ان أطاعوا الله فقد أحسنوا الى أنفسهم وان أصروا على المعصية فقد أساؤا على
أنفسهم وقد تقرر في العقول أن الاحسان الى النفس حسن مطلوب وان الاساءة اليها قبيحة
فلهذا المعنى قال تعالى (ان أحسنتم) أي بفعل الطاعة على حسب الامر في الكتاب الداعي الى
العدل والاحسان (أحسنتم لانفسكم) اى لان ثوابها لها (وان أسأتم) بارتكاب المحرمات
والافساد (فلها) أي الاساءة لان وبالها عليها قال النحويون وانما قال وان أسأتم فلها للتقابل
والمعنى فاليها أو فعليها كما مر مع ان حروف الاضافة يقوم بعضها مقام بعض كقوله تعالى
يومئذ تحدث أخبارها بان ربك أوحى لها أي اليها * (تنبيه) * قال أهل الاشارات هذه الآية
تدل على ان رحمة الله غالبة على غضبه بدليل أنه تعالى لما حكى عنهم الاحسان ذكره مرتين
فقال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم ولما حكى عنهم الاساءة اقتصر على ذكرها مرة
واحدة فقال تعالى وان أسأتم فلها ولولا ان جانب الرحمة غالب والالما كان كذلك ثم قال
(فاذا جاء وعد الآخرة) أي ثانية في الافساد وهو الوقت الذي حددناه للانتقام فيه
(ليسوؤا) اى بعثنا عليكم عبادا لنا ليسوؤا (وجوهكم) اى يجعل آثار الاساءة بائنة فيها
وحذف متعلق اللام لدلالة الاول عليه وقرأ الكسائي بعد اللام بنون مفتوحة على
التوحيد والضمير فيه لله والباقون بالياء مفتوحة وأما الهمزة التي بعد الواو التي بعد السين
فقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وحفص بضم الهمزة ومدها والباقون بفتح الهمزة ولا مد
وقوله تعالى (وليدخلوا المسجد) عطف على ليسوؤا والمراد بالمسجد الاقصى الذي سقنا كم
اليه من مصر في تلك المدد الطوال وأعطينا كم بلاده بالتدريج وجعلناه محل عزكم وأمنكم
ثم جعلناه محلا لاكرام أشرف خلقنا بالاسراء به اليه وجمع أرواح النبيين كلهم فيه وصلاته
بهم وهذا تعريض بتهديد قريش بانهم ان لم يرجعوا ابدل الله أمنهم في الحرم خوفا وعزهم ذلا
وأدخل عليهم جنودا لا قبل لهم بها وقد فعل ذلك عام الفتح لكنه فعل اكرام لا اهانة ببركة
هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم (كما دخلوه) اى الاعداء (أول مرة) بالسيف ويقهروا
جميع جنودكم دفعة واحدة (وليتبروا) أي يهلكوا ويدمروا مع التقطيع والتفريق
(ما علوا) أي عليه من ذلك وقيل ما مصدرية أي مدة علوهم (تتبيرا) أي اهلاكا قال الزجاج
وكل شئ جعلته مكسرا مفتتا فقد تبرته ومنه قيل تبر الزجاج وتبر الذهب لمكسره ومنه قوله
تعالى ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال الرازي وهذه المرة الاخيرة هي
اقدامهم على قتل زكريا ويحيى عليهما السلام قال البيضاوي وذلك بان سلط عليهم الفرس
مرة اخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه حردون وقيل بردوس قيل دخل
صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دما يغلي فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم
يقبل منا فقال ما صدقتموني فقتل عليه الوفا منهم فلم يهدأ الدم ثم قال ان لم تصدقوني ما تركت
منكم أحدا فقالوا انه دم يحيى فقال لمثل هذا ينتقم ربكم منكم ثم قال يا يحيى اى خطأ بالدمه

هم غافلون عن أكثر دلائل
التوحيد والنبوة والمعاد
(قوله أإذا كنا عظاما
ورفاتا الآية) أعادها بعينها
آخر السورة وليس تكرارا
لان الاولى من كلامهم
في الدنيا حين أنكروا

قوله والالما كذا بالنسخ
والمناسب حذف والا اه
مصحح

قد علم ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك فاعد أبإذن الله قبل أن لا يبقى أحد منهم فهدأ أي سكن وقال الواحدي فبعث الله تعالى عليهم بختنصر البابلي المجوسي أبغض خلقه اليه فسبى بني اسرائيل وخرب بيت المقدس قال الرازي أقوال التواريخ تشهد ان بختنصر كان قبل وقت عيسى ويحيى وزكريا بسنين متطاولة ومعلوم ان الملك الذي انتقم من اليهود ملك الروم يقال له قسطنطين الملك والله أعلم بأحوالهم ولا يتعلق غرض من أغراض تفسير القرآن بمعرفة اعيان هؤلاء الاقوام انتهى * ولما انقضى ذلك كان كأنه قيل هل بقي لهم نصرة على عدوهم فقال تعالى (عسى ربكم أن يرحمكم) يا بني اسرائيل بعد انتقامه منكم فترد الدولة اليكم ثم بعد أن أطمعهم فزعهم بقوله تعالى (وان عدتم) أي الى المعصية (عدنا) أي الى صب البلاء عليكم في الدنيا مرة أخرى قال القفال انما حملنا هذه الآية على عذاب الدنيا لقوله تعالى في سورة الاعراف خبرا عن بني اسرائيل واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ثم قال وانهم قد عادوا الى فعل ما لا ينبغي وهو التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم وكتمان ما ورد في التوراة والانجيل فعاد الله تعالى عليهم بالتعذيب على أيدي العرب فجرى على بني النضير وقريظة وبني قينقاع ويهود خيبر ما جرى من القتل والجلاء ثم الباقي منهم مقهورون بالجزية لا ملك لهم ولا سلطان ثم قال تعالى (وجعلنا) أي بعد ذلك بعظمتنا (جهنم) أي التي تلقى داخلها بالتجهم والكراهة (للكافرين) وذكر الوصف الظاهر موضع الضمير لبيان تعلق الحكم به على سبيل الرسوخ سواء في ذلك هم وغيرهم وقوله تعالى (حصيرا) يحتمل أن يكون فعيلا بمعنى الفاعل أي جعلنا جهنم حاصرا لهم ويحتمل أن يكون بمعنى مفعول أي جعلناها موضعا محصورا لهم والمعنى ان عذاب الدنيا وان كان شديدا قويا الا انه قد يتفلت بعض الناس عنه والذي يقع في ذلك العذاب يتخلص منه اما بالموت واما بطريق آخر وأما عذاب الآخرة فانه يكون حاصرا للانسان محيطا به لا رجاء في الخلاص عنه فهؤلاء الاقوام لهم من عذاب الدنيا ما وصفناه ويكون لهم بعد ذلك من عذاب الآخرة ما يكون محيطا بهم من جميع الجهات ولا يتخلصون منه أبدا * ولما بين سبحانه وتعالى كتاب موسى عليه السلام الذي أنزل عليه فيما بين مصر وبيت المقدس في تلك المدة المتطاولة وجعله هدى لبني اسرائيل صادق الوعد والوعيد بين تعالى كتاب محمد صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه منه في سبب مسيره اليه في ذلك ووصفه بثلاثة أنواع من الصفات الاولى قوله تعالى (ان هذا القرآن) أي الجامع لكل حق والفارق بين كل ملتبس (يهدي للتي) أي الى الطريق التي (هي أقوم) أي أصوب من كل طريق فقوله تعالى للتي هي أقوم نعت لموصوف محذوف كما تقرر ويصح أن يقدر الملة والشريعة أي يهدي الى الملة والشريعة التي هي أقوم الملل والشرائع ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال في القرآن كقوله تعالى ادفع بالتي هي أحسن وقيل الى الكلمة التي هي أعدل وهي شهادة أن لا اله الا الله * (تنبيه) * لفظ أفعل قد جاء بمعنى الفاعل كقولنا الله أكبر أي الله الكبير وكقولنا الاشج والناقص أعدلا بني مروان فأقوم يحتمل أن يكون كذلك وأن يبقى على ظاهره * الصفة الثانية قوله تعالى (ويبشر المؤمنين) أي الراسخين في هذا الوصف ولهذا قيدهم بيانا لهم بقوله (الذين) أي يصدقون ايمانهم بأنهم (يعملون) أي على

البعث والثانية من كلام الله حين جازاهم على كفرهم وانكارهم البعث فقال مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا الآية وقال هنا ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وفي الكهف ذلك

سبيل التجديد والاستمرار والبناء على العلم (الصالحات) من التقوى والاحسان (أن لهم أجرا كبيرا) هو الجنة والنظر الى وجه الله تعالى وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم الياء وفتح الباء الموحدة وكسر الشين مشددة (فان قيل) قال هنا أجرا كبيرا وفي الكهف أجرا حسنا (أجيب) بوقوع ذلك لموافقة الفواصل قبل وبعد في كل منهما الصفة الثالثة قوله تعالى (وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا) أي أحضرنا وهيأنا (لهم عذابا أليما) وهو النار في الآخرة وهو عطف على أن لهم أجرا كبيرا والمعنى أنه تعالى بشر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب أعدائهم نظيره قولك بشرت زيدا بانه سيعطى وبان عدوه سيمنع (فان قيل) كيف يليق لفظ البشارة بالعذاب (أجيب) بان هذا مذكور على سبيل التهكم أو انه من باب اطلاق أحد الضدين على الآخر كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها أو على يبشر باضمار يخبر (فان قيل) هذه الآية واردة في شرح أحوال اليهود وهم ما كانوا ينكرون الايمان بالآخرة (أجيب) بان أكثر اليهود ينكرون الثواب والعقاب الجسمانيين وبان بعضهم قال لن تمسنا النار الا أياما معدودات فهم بذلك صاروا كالمنكرين للآخرة * ولما بين سبحانه وتعالى ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم والانسان قد يقدم على ما لا فائدة فيه بينه بقوله تعالى (ويدع الانسان بالشر) عند ضجره على نفسه وأهله وماله (دعاءه) اي مثل دعائه (بالخير) ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك روي أنه صلى الله عليه وسلم دفع الى سودة بنت زمعة أسيرا فاقبل يئن في الليل فقالت له مالك فبكى وشكا ألم قيده فارخت كتافه فهرب فلما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم دعا به فاعلم بشأنه فقال صلى الله عليه وسلم اللهم اقطع يدها فرفعت سودة يديها تتوقع أن يقطع الله تعالى يدها فندم النبي صلى الله عليه وسلم وقال اللهم انما أنا بشر أغضب كما يغضبون فمن دعوت عليه فاجعل دعائي رحمة له وقيل المراد النضر بن الحرث حيث قال اللهم انصر خير الحزبين اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الى آخره فاجاب الله تعالى دعاءه وضربت رقبته يوم بدر صبرا وكان بعضهم يقول ائتنا بعذاب الله وآخرون يقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين وانما فعلوا ذلك للجهل ولاعتقاد أن محمدا كاذب فيما يقول وقيل المراد أن الانسان قد يبالغ في الدعاء طالبا الشيء قد يعتقد أن خيره فيه مع أن ذلك الشيء منبع لشره وضرره وهو يبالغ في طلبه لجهله بحال ذلك الشيء وانما يقدم على مثل هذا العمل لكونه عجولا مغترا بظواهر الامور غير متفحص عن حقائقها وأسرارها كما قال تعالى (وكان الانسان) أي الجنس (عجولا) أي يسارع الى كل ما يخطر بباله ولا ينظر الى عاقبته وقيل المراد آدم عليه السلام لما انتهى الروح الى سرته ذهب لينهض فسقط *(تنبيه)* حذفت واو ويدع أي التي هي لام الفعل خطا في جميع المصاحف ولا موجب لحذفها لفظا في العربية لكنها لما كانت لا تظهر في اللفظ حذفت في الخط ونظيره قوله تعالى سندع الزبانية وسوف يؤت الله المؤمنين ويوم يناد المنادي فما تغن النذر قال الفراء ولو كان ذلك بالواو والياء لكان صوابا وقال الرازي أقول هذا يدل على انه سبحانه وتعالى قد عظم هذا القرآن المجيد عن التحريف والتغيير فان اثبات الواو والياء في أكثر ألفاظ القرآن وعدم اثباتهما في هذه المواضع المعدودة يدل على أن هذا القرآن نقل كما سمع وان أحدا لم يتصرف

جزاؤهم جهنم بما كفروا اكتفاء هنا بزيادة جهنم بالاشارة ولتقدم ذكر جهنم وهي وان تقدمت في الكهف لم يكتف بالاشارة بل جمع بينها وبين العبارة لاقتران الوعيد بالوعد

فيه بحسب قدر فهمه وقوة عقله * ولما بين تعالى ما أوصل من نعم الدين وهو القرآن أتبعه بما وصل اليهم من نعم الدنيا فقال (وجعلنا الليل والنهار آيتين) دالتين على تمام العلم وشمول القدرة آية الليل كالآيات المتشابهة وآية النهار كالمحكمة فكما ان المقصود من التكليف لا يتم الا بذكر المحكم والمتشابه فكذلك الزمان لا يتيسر الانتفاع به الا بهاتين الآيتين (فمحونا) أي بعظمتنا الباهرة (آية الليل) أي طمسنا نورها بالظلام ليسكنوا فيه فجعلناها لا يبصر فيها المرئيات كما لا يبصر الكتاب اذا محى (وجعلنا) بما لنا من القدرة (آية النهار مبصرة) أي مبصرا فيها بالضوء فلا تزال هذه الدار الناقصة في تنقل من نور الى ظلمة ومن الظلمة الى النور كما ان الانسان بجبلته التي يدعو اليها طبعه وتأتيه الداعي اليه عقله من انتقال من نقصان الى كمال ومن كمال الى نقصان كما ان القمر الذي هو أنقص من الشمس كذلك قال ابن عباس جعل الله نور الشمس سبعين جزأ ونور القمر كذلك فمحا من نور القمر تسعة وستين جزأ فجعلها مع نور الشمس وحكى أن الله تعالى أمر جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور وسأل ابن الكوا عليا رضي الله عنه عن السواد الذي في القمر قال هو أثر المحو *(تنبيه)* المراد من الآيتين نفس الليل والنهار فالاضافة للبيان أي انه تعالى جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا اما الدين فلان كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير له مع كونهما متعاقبين على الدوام وهو من أقوى الدلائل على أنهما غير موجودين بذاتهما بل لا بد لهما من فاعل يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة وأما في الدنيا فلان مصالح الدنيا لا تتم الا بالليل والنهار فلولا الليل ما حصل السكون والراحة ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف وقيل الليل والنهار ظرفان والتقدير وجعلنا آيتين في الليل والنهار والمراد بالآيتين على هذا اما الشمس والقمر واما تكوير هذا على هذا وهذا على هذا ثم ذكر تعالى بعض المنافع المرتب على ذلك بقوله تعالى (لتبتغوا) أي تطلبوا طلبا شديدا (فضلا من ربكم) أي المحسن اليكم فيهما بضياء هذا تارة ونور هذا أخرى (ولتعلموا) بفصل هذا عن هذا (عدد السنين والحساب) لان الحساب يبنى على أربع مراتب الساعات والايام والشهور والسنين والعدد للسنين والحساب لما دون السنين وهي الشهور والايام والساعات وبعد هذه المراتب الاربعة لا يحصل الا التكرار كما انهم رتبوا العدد على أربع مراتب الآحاد والعشرات والمئات والالوف وليس بعدها الا التكرار ولما ذكر تعالى أحوال آيتي الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان عظيمتان من الله تعالى على أهل الدنيا وقد ذكر تعالى في آيات كثيرة منافعهما كقوله تعالى وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وكقوله تعالى جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله وشرح تعالى حالهما وفصل ما فيهما من وجوه الدلالة على الخالق ومن وجوه النعم العظيمة على الخلق كان ذلك تفصيلا نافعا وبيانا كاملا فلا جرم قال تعالى (وكل شيء) أي لكم اليه حاجة في مصالح دينكم ودنياكم (فصلناه تفصيلا) أي بيناه تبيينا وهو كقوله تعالى ما فرطنا في الكتاب من شيء وكقوله تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وقوله تدمر كل شيء بأمر ربها وانما ذكر تعالى تفصيلا لاجل توكيد الكلام وتقريره فكأنه قال فصلناه حقا ولما بين تعالى انه أوصل الى الخلق أصناف

بالجنات في قوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ليكون الوعد والوعيد ظاهرين للمستمعين (قوله ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا)

الاشياء النافعة لهم في الدنيا والدين مثل آيتي الليل والنهار وغيرهما كان منعما عليهم بوجوه النعم وذلك يقتضي وجوب اشتغالهم بخدمته وطاعته فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فانه يكون مسؤلا عن اعماله وأقواله كما قال تعالى (وكل انسان ألزمناه) أي بعظمتنا (طائره) أي عمله الذي قدرناه عليه من خير وشر لان العرب كانوا اذا أرادوا الاقدام على عمل من الاعمال وأرادوا أن يعرفوا ان ذلك العمل يسوقهم الى خير أو الى شر اعتبروا أحوال الطير وهو انه يطير بنفسه أو يحتاج الى ازعاجه واذا طار فهو يطير متيامنا أو متياسرا أو صاعدا الى الجو الى غير ذلك من الاحوال التي كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة فلما كثر ذلك منهم سموا نفس الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه فقوله تعالى وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه أي وكل انسان ألزمناه عمله (في عنقه) الذي هو محل التزين بالقلادة ونحوها ومحل الشين بالغل ونحوه فان كان عمله خيرا كان كالقلادة والحلي في العنق وهذا مما يزينه وان كان عمله شرا كان كالغل في عنقه وهو مما يشينه وقال مجاهد ما من مولود يولد الا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد قال الرازي والتحقيق في هذا الباب أنه تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والفهم والعلم والعمر والرزق والسعادة والشقاوة والانسان لا يمكنه أن يتجاوز ذلك المقدار وأن ينصرف عنه بل لابد وأن يصل اليه ذلك القدر بحسب الكمية والكيفية فتلك الاشياء المقدرة كأنها تطير اليه وتصير اليه فلهذا المعنى لا يبعد أن يعبر عن تلك الاحوال المقدرة بلفظ الطائر فقوله تعالى ألزمناه طائره في عنقه كناية عن كل ما قدره الله ومضى في علمه حصوله له فهو لازم له واصل اليه غير منصرف عنه واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة انتهى ملخصا ثم قال تعالى (ونخرج له يوم القيامة كتابا) أي مكتوبا فيه عمله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذي عن شمالك فيحفظ لك سيآتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك في قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة وقوله تعالى (يلقاه منشورا) صفتان لكتابا وقرأ ابن عامر بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف على البناء للمفعول من لقيته كذا أي استقبلته به والباقون بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف وأمال الالف بعد القاف حمزة والكسائي محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح • ثم انه اذا لقي كتابه يوم القيامة يوم العرض قيل له (اقرأ كتابك) أي بنفسك (كفى بنفسك اليوم) الذي تنكشف فيه الستور وتظهر جميع الامور (عليك حسيبا) أي حاسبا بليغا فانك تعطى القدرة على قراءته أميا كنت أو قارئا ولا ترى فيه زيادة ولا نقصا ولا تقدر أن تنكر منه حرفا وان أنكره لسانك شهدت عليك اركانك فيالها من قدرة باهرة وقوة قاهرة ونصفة ظاهرة قال الحسن عدل والله في حقك من جعلك حسيب نفسك وقال السدي يقول الكافر يومئذ انك قضيت انك لست بظلام للعبيد فاجعلني أحاسب نفسي فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (فان قيل) قد قال تعالى وكفى بنا حاسبين فكيف الجمع في ذلك (أجيب) بان المراد بالحسيب هنا الشهيد أي كفى بنفسك اليوم شاهدا

(ان قلت) لم خص داود بالذكر (قلت) لانه اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من الانبياء وهو الرسالة والكتابة والخطابة والخلافة والملك والقضاء في زمن واحد قال تعالى وشددنا ملكه الآية

عليك أو ان القيامة مواقف مختلفة فى موقف يكل الله تعالى حسابهم الى أنفسهم وعلمه محيط بهم وفى آخر يحاسبهم هو وقوله تعالى (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه) لان ثواب اهتدائه له لا ينجى غيره (ومن ضل فانما يضل عليها) أى اثمه عليها فلا يضر فى ضلاله سواه كما قال الكابى دلالة على ان العبد متمكن من الخير والشر وانه غير مجبور على عمل بعينه أصلا لان قوله تعالى من اهتدى الى آخره انما يليق بالقادر على الفعل المتمكن منه كيف شاء وأراد أما المجبور على احد الطرفين الممنوع عن الطرف الثانى فهذا لا يليق به هذا مذهب أهل السنة والجماعة فاتبعه ترشد ثم انه تعالى أعاد تقرير أن كل أحد مختص بأثر عمل نفسه بقوله تعالى (ولا تزر) أى نفس (وازرة) أى آثمة أى لا تحمل (وزر) نفس (أخرى) بل انما تحمل وزرها فقط (فان قيل) ورد أن المظلوم يأخذ من حسنات الظالم فاذا لم يوف يؤخذ من سيآت المظلوم وتطرح على الظالم (أجيب) بأن ذلك بسببه فهو كفعله (فان قيل) قد ورد أن الميت يعذب ببكاء أهله (أجيب) بأن ذلك محمول على ما اذا أوصى بذلك وكان ذلك الفعل كقول طرفة بن العبد

اذا مت فانعينى بما أنا أهله • وشقى على الجيب يا ابنة معبد

وعليه حمل الجمهور الاخبار الواردة بتعذيب الميت على ذلك (فان قيل) ذنب الميت فيما اذا أوصى أو أمر بذلك فلا يختلف عذابه بامتثالهم وعدمه (أجيب) بأن الذنب على السبب يعظم بوجود المسبب وشاهده من سن سنة سيئة الخ وقال الشيخ أبو حامد ان ما ذكر محمول على الكافر وغيره من أهل الذنوب ثم قال تعالى (وما كنا) أى على ما لنا من القدرة (معذبين) أحدا (حتى نبعث رسولا) يبين له ما يجب عليه فمن بلغته دعوته فخالف أمره واستكبر عن اتباعه عذبناه بما يستحقه وهذا أمر قد تحقق بارسال آدم عليه السلام ومن بعده من الانبياء الكرام عليهم السلام فى جميع الامم قال تعالى ولقد أرسلنا فى كل أمة رسولا وقال تعالى وان من أمة الا خلا فيها نذير فان دعوتهم الى الله تعالى قد انتشرت وعمت الاقطار واشتهرت (فان قيل) الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسول لان معهم أدلة العقل التى بها يعرف الله تعالى وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه واستحقاقهم العذاب لاغفالهم النظر فيما معهم وكفرهم لذلك لا لاغفال الشرائع التى لا سبيل اليها الا بالتوقيف والعمل بها لا يصح الا بعد الايمان (أجيب) بان بعثة الرسول من جملة التنبيه على النظر والايقاظ من رقدة الغفلة لئلا يقولوا انا كنا عن هذا غافلين فهلا بعثت الينا رسولا ينبهنا على النظر فى أدلة العقل وفى الآية دليل على أن لا وجوب قبل الشرع • (فائدة) • فى حكم أهل الفترتين بين نوح وادريس وبين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة عشر قسما ستة سعداء وأربعة أشقياء وثلاثة تحت المشيئة • فاما السعداء فقسم وحد الله تعالى بنور وجده فى قلبه كقس بن ساعدة فانه كان يقول اذا استدل هل لهذا العالم اله البعرة تدل على البعير وأثر الاقدام يدل على المسير وقسم وحد الله تعالى بما تجلى لقلبه من النور الذى لا يقدر على دفعه وقسم ألقى فى نفسه واطلع من كشفه على منزلة محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به فى عالم الغيب وقسم اتبع ملة حق ممن تقدمه وقسم طالع فى كتب الانبياء فعرف شرف محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به وقسم آمن بنبيه الذى أرسل اليه وأدرك رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وآمن به فله أجران وأما الاشقياء فقسم عطل لا عن نظر بل عن تقليد

وقال يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض الآية (ان قلت) لم ذكر الزبور هنا وعرفه فى قوله ولقد كتبنا فى الزبور (قلت) يجوز ان يكون الزبور من الاعلام التى تستعمل بال وبدونها

وقسم عطل بعدما أثبت لا عن استقصاء بنظر وقسم أشرك عن تقليد محض وقسم علم الحق وعانده * وأما الذى تحت المشيئة فقسم عطل فلم يقر بوجوده عن نظر قاصر لضعف فى مزاجه وقسم أشرك عن نظر أخطأ فيه وقسم عطل بعدما أثبت لا عن نظر بلغ فيه أقصى القوة هكذا قسم محيى الدين بن عربى فى الباب العاشر من الفتوحات المكية نقل ذلك عنه شيخ وقته الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ونقل عن السيوطى ان أبوى النبى صلى الله عليه وسلم لم تبلغهما الدعوة والله تعالى يقول وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وحكم من لم تبلغه الدعوة أنه يموت ناجيا ولا يعذب ويدخل الجنة قال وهذا مذهب لا خلاف فيه بين المحققين من أئمتنا الشافعية فى الفقه والاشاعرة فى الاصول ونص على ذلك الامام الشافعى رضى الله عنه وتبعه على ذلك الاصحاب قال السيوطى وقد ورد فى الحديث أن الله تعالى أحيا أبويه حتى آمنا به وعلى ذلك جماعة من الحفاظ منهم الخطيب البغدادى وأبو القاسم بن عساكر وأبو حفص بن شاهين والسهيلى والقرطبى والطبرى وابن المنير وابن سيد الناس وابن ناصر الدين الدمشقى والصفدى وغيرهم والاولى لنا الامساك عن ذلك فان الله تعالى لم يكلفنا بذلك ونكل الامر فى ذلك الى الله تعالى ونقول كما قال النووى لما سئل عن طائفة ابن عربى تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون * ولما أشار تعالى الى عذاب المخالفين قرر أسبابه وعرف أنها بقدره وان قدره لا يمنع حقوق العذاب بقوله تعالى (واذا أردنا) أن نحيى قرية الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة ألقينا فى قلوب أهلها امتثال أوامرنا والتقييد باتباع رسلنا واذا أردنا (ان نهلك قرية) فى الزمن المستقبل (أمرنا) أى بما لنا من القدرة التامة الشاملة (مترفيها) أى منعميها الذين لهم الامر والنهى قال الاكثرون أمرهم الله تعالى بالطاعة والخير على لسان رسله (ففسقوا فيها) أى خرجوا عن طاعة الله ورسوله وقال صاحب الكشاف ظاهر اللفظ يدل على أنه تعالى يأمرهم بالفسق فيفسقون الا أن هذا مجاز ومعناه أنه يفتح عليهم أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا قال والدليل على أن ظاهر اللفظ يقتضى ماذكرناه ان المأمور به انما حذف لان قوله ففسقوا يدل عليه يقال أمرته فقام وأمرته فقرأ لا يفهم منه الا أن المأمور به قيام وقراءة فكذا هنا لما قال أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وجب أن يكون المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا ولا يقال يشكل هذا بقولهم أمرته فعصانى وخالفنى فان هذا كلام لا يفهم منه أنى أمرته بالمعصية والمخالفة لانا نقول ان المعصية منافية للامر ومناقضة له فيكون كونها مأمورا بها مخالفا فلهذه الضرورة تركنا هذا الظاهر انتهى قال الرازى ولقائل أن يقول كما أن قوله أمرته فعصانى يدل على أن المأمور به شئ غير المعصية من حيث ان المعصية منافية للامر ومناقضة له فكذلك قوله أمرته ففسق يدل على ان المأمور به غير الفسق لان الفسق عبارة عن الاتيان بضده فكونه فسقا ينافى كونه مأمورا به كما أن كونه معصية ينافى كونها مأمورا بها فوجب أن يدل هذا اللفظ على أن المأمور به ليس بفسق وهذا الكلام فى غاية الظهور ولم أدر لم أصر صاحب الكشاف على قوله مع ظهور فساده فثبت أن الحق ماذكره الكل وهو أن المعنى أمرناهم بالاعمال الصالحة وهى الايمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الامر عنادا وأقدموا على الفسق (فحق عليها القول) أى الذى توعدناهم به على

كالعباس والفضل أو نكره هنا بمعنى آتيناه بعض الزبور وهى الكتب أو أراد به ما فيه ذكر النبى صلى الله عليه وسلم من الزبور فهى بعض الزبور زبورا كما سمى بعض القرآن قرآنا فى قوله تعالى

لسان رسولنا (فدمرناها تدميرا) أي أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريب ديارهم وخص
المترفين بالذكر لأن غيرهم يتبعهم ولأنهم أسرع إلى الحماقة وأقدر على الفجور وقيل معناه كثرنا
وروى الطبراني وغيره حديث خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أي كثيرة النتاج والسكة
بكسر السين وتشديد الكاف الطريقة المصطفة من النخل والمأبورة الملقحة قال ذلك الجوهري
وروي أن رجلا من المشركين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إني أرى أمرك هذا حقيرا
فقال صلى الله عليه وسلم إنه سيأمر أي سيكثر ويكبر وعن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي
الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد
اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بين أصبعيه الإبهام والتي تليها
قالت زينب قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم إذا كثر الخبث أي الشر وويل
يقال لمن وقع في مهلكة أو أشرف أن يقع فيها وقوله تعالى (وكم أهلكنا) أي بما لنا من العظمة
تمييز مدلول كم بقوله تعالى (من القرون) أي المكذبين (من بعد نوح) كعاد وثمود من الأمم
الماضية يخوف به الكفار أي كفار مكة قال عبد الله بن أبي أوفى القرن عشرون ومائة سنة
وقيل مائة سنة روي عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بشر المازني أن النبي صلى الله عليه وسلم
وضع يده على رأسه وقال سيعيش هذا الغلام قرنا قال محمد بن القاسم ما زلنا نعد له حتى تمت له
مائة سنة ثم مات وقال الكلبي القرن ثمانون سنة وقيل أربعون ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى
الله عليه وسلم (وكفى بربك) أي المحسن إليك (بذنوب عباده خبيرا بصيرا) أي عالما ببواطنها
وظواهرها فكم من إنسان كنتم ترونه من أكابر الصالحين ثم استقرت عاقبته على خلاف ذلك
وكم من شخص ترونه مجتهدا في العبادة فإذا خلا بارز ربه بالعظائم وتقديم الخبير لتقديم متعلقه
ولما قرر أنه سبحانه وتعالى عالم ببواطن عباده وظواهرهم قسمهم إلى قسمين الأول قوله تعالى
(من كان يريد العاجلة) أي الدنيا مقصورا عليها همه (عجلنا له فيها) أي العاجلة بأن نفيض
عليه من منافعها (ما نشاء) أي من البسط والتقتير (لمن نريد) أي أن نفعل به ذلك فقيد تعالى
الأمر بقيدين أحدهما تقييد المعجل بإرادته ومشيئته والثاني تقييد المعجل له بإرادته وهكذا
الحال ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضا منه وكثير منهم يتمنون ذلك
البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة (تنبيه) لمن نريد بدل بعض من
كل من الضمير في له بإعادة العامل تقديره لمن نريد تعجيله له ويقال إن الآية في المنافقين كانوا
يراؤون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم إلا مساهمتهم في الغنائم ونحوها وهذا هو
المناسب لقوله تعالى (ثم جعلنا له جهنم يصلاها) أي في الآخرة (مذموما) أي مفعولا به الذم
(مدحورا) أي مدفوعا مطرودا مبعدا وإن ذكره البيضاوي بصيغة قيل ثم ذكر تعالى القسم
الثاني وشرط فيه ثلاثة شروط الأول قوله تعالى (ومن أراد الآخرة) أي أراد بعمله ثواب
الآخرة فإنه إن لم ينو ذلك لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وقوله
صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنيات الثاني قوله تعالى (وسعى لها سعيها) وذلك يقتضي أن
يكون ذلك العمل من باب القرب والطاعات وكثير من الضلال يتقربون بعبادة الأوثان ولهم
فيها تأويلات أحدها أنهم يقولون إله العالم أجل وأعظم من أن يقدر الواحد منا على إظهار

وقرآنا فرقناه (قوله قال ادعوا الذين زعمتم من دونه) قاله هنا بالضمير لقرب مرجعه وهو الرب في قوله وربك أعلم وقال في سبأ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله بالاسم الظاهر لبعد مرجعه

عبوديته

عبوديته وخدمته ولكن غاية قدرتنا أن نشتغل بعبادة بعض المقربين من عباد الله بأن نشتغل بعبادة كوكب أو ملك من الملائكة ثم ان الملك أو الكوكب يشتغل بعبادة الله تعالى فهؤلاء يتقربون الى الله تعالى بهذا الطريق وهذه طريقة فاسدة فلا جرم أنه لم ينتفع بها ثانيها انهم قالوا اتخذنا هذه التماثيل على صورة الانبياء والاولياء والمراد من عبادتها أن تصير تلك الانبياء والاولياء شفعاء لنا عند الله وهذا الطريق أيضا فاسد فلا جرم لم ينتفع بها ثالثها أنه نقل عن أهل الهند أنهم يتقربون الى الله تعالى بقتل أنفسهم تارة وباحراق أنفسهم أخرى وهذه الطريقة أيضا فاسدة فلا جرم لم ينتفع بها وكذا القول في جميع الفرق المبطلين الذين يتقربون الى الله تعالى بمذاهبهم الباطلة الثالث قوله تعالى (وهو مؤمن) لان الشرط في كون أعمال البر مقتضية للثواب هو الايمان فان لم يوجد لم يحصل المشروط وعن بعض المتقدمين من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا هذه الآية ثم انه تعالى أخبر عند وجود هذه الشروط بقوله تعالى (فأولئك) أى العالو الرتبة لجمعهم الشرائط الثلاثة (كان سعيهم مشكورا) أى مقبولا مثابا عليه بالتضعيف وبعضهم يفتح له أبواب الدنيا مع ذلك كداود وسليمان عليهما السلام ويستعمله فيها بما فيه مرضاة الله تعالى وبعضهم يزويها عنه كرامة له لا هوانا به فربما كان الفقر خيرا له وأعون على مراده فالحاصل أنها ان وجدت عند الولي لم تشرفه وان عدمت عنه لم تحقره وانما التشريف وغيره عند الله تعالى بالاعمال

(تنبيه) كل من أتى بفعل اما أن يقصد به تحصيل خيرات الدنيا واما أن يقصد به خيرات الآخرة واما أن يقصد به مجموعهما واما أن لا يقصد به واحدا منهما فان قصد به تحصيل الدنيا فقط أو تحصيل الآخرة فقط فالله ذكر حكم هذين القسمين في هذه الآية وأما القسم الثالث فينقسم الى ثلاثة أقسام اما أن يكون طلب الآخرة راجحا أو مرجوحا أو يكون الطلبان متعادلين فان كان طلب الآخرة راجحا فهل يكون هذا العمل مقبولا عند الله تعالى فيه رأيان أحدهما أنه غير مقبول لقوله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن الله تعالى أنه قال أنا أغنى الاغنياء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه وأيضا طلب رضوان الله اما أن يكون سببا مستقلا لكونه باعثا لهم على ذلك الفعل وداعيا اليه واما أن لا يكون فان كان الاول امتنع أن يكون لغيره مدخل في ذلك البعث والدعاء لان الحكم اذا أسند الى سبب تام كامل امتنع أن يكون لغيره مدخل فيه وان كان الثاني فيكون الداعي الى ذلك الفعل هو المجموع وذلك المجموع ليس هو طلب رضوان الله لان المجموع الحاصل من الشئ ومن غيره يجب أن يكون مغايرا لطلب رضوان الله فوجب أن لا يكون مقبولا الرأى الثاني أنه مقبول لان طلب الآخرة لما كان راجحا على طلب الدنيا تعارض المثل بالمثل فبقي القدر الزائد داعية خالصة لطلب الآخرة فوجب كونه مقبولا وأما اذا كان طلب الدنيا وطلب الآخرة متعادلين أو كان طلب الدنيا راجحا فقد اتفقوا على أنه غير مقبول الا أنه على كل حال خير مما اذا كان طلب الدنيا خاليا بالكلية عن طلب الآخرة وأما القسم الرابع وهو الاقدام على الفعل من غير داع فهذا مبني على أن صدور الفعل من القادر هل يتوقف على حصول الداعي أم لا فالذين يقولون انه يتوقف على حصول الداعي قالوا هذا القسم ممتنع الحصول والذين قالوا لا يتوقف قالوا هذا

الضمير لو أتى به والمراد فيهما قل ادعوا الذين زعمتم وهم آلهة من دون الله أى غيره ابتغوا كم بزعمكم (فان قلت) كيف قال من دونه مع ان المشركين ما زعموا غير الله الها دون

الفعل لا أثر له في الباطن وهو محرم في الظاهر لانه عبث * ثم انه تعالى قال (كلا) أي من الفريقين مريد الدنيا ومريد الآخرة (نمد) أي بالعطاء ثم أبدل من كلا قوله تعالى (هؤلاء) أي الذين طلبوا الدنيا نمد (وهؤلاء) أي الذين طلبوا الآخرة نمد (من عطاء ربك) أي المحسن اليك ان ضيق على مؤمن فيما لحاجة من الدنيا الفانية التي انما هي لعب ولهو وان وسع فيما لاستعمال فيها على حسب ما يرضيه (وما كان عطاء ربك) أي الموجد لك المدبر لامرك (محظورا) أي ممنوعا في الدنيا عن مؤمن ولا كافر بل هو ملء السهل والجبل من الذهب والفضة والحديد والنحاس والجواهر والثمار وأقوات الناس والبهائم وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى حتى لو اجتمع كل الناس على جمعه ليلا ونهارا ولم يكن لهم شغل سوى ذلك لاعياهم ولم يقدروا عليه فسبحان الجواد المعطي المانع ثم انه تعالى أمر بالنظر في عطائه هذا على وجه مرغب في الآخرة مزهد في الدنيا بقوله تعالى (انظر) أي أيها الانسان أو يا محمد (كيف فضلنا بعضهم على بعض) فأوسعنا على مؤمن وقترنا على مؤمن آخر وأوسعنا على كافر وقترنا على كافر آخر وبين سبحانه وتعالى وجه الحكمة في التفاوت في سورة الزخرف بقوله تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات الآية وقال تعالى في آخر سورة الانعام ورفع بعضكم فوق بعض درجات *(تنبيه)* كيف نصب اما على التشبيه بالظرف واما على الحال وهي معلقة لانظر بمعنى فكر او أبصر ولما نبه تعالى على ان ما نراه من التفضيل انما هو بحسب قدرته أخبر أن ما بعد الموت كذلك بقوله تعالى (وللآخرة أكبر) أي أعظم (درجات وأكبر تفضيلا) من درجات الدنيا ومن تفضيلها فان نسبة التفاضل في درجات الآخرة الى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا فان كان الانسان تشتد رغبته في طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته في طلب الآخرة أحرى لانها دار المقامة روي أن قوما من الاشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله تعالى عنه فخرج الاذن لبلال وصهيب فشق على أبي سفيان فقال سهيل بن عمرو انما أوتينا من قبلنا انهم دعوا ودعينا يعني الى الاسلام فأسرعوا وأبطأنا وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة * ولما بين تعالى ان الناس فريقان منهم من يريد بعمله الدنيا فقط وهم أهل العذاب ومنهم من يريد طاعة الله وهم أهل الثواب ثم شرط في ذلك ثلاثة شروط فصل تلك المجملات وبدأ أولا بشرح حقيقة الايمان وأشرف أجزاء الايمان هو التوحيد ونفي الشريك والاضداد بقوله تعالى (لا تجعل مع الله) أي الذي له جميع صفات الكمال (الها آخر) قيل الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره والاولى أنه للانسان فيكون خطابا عاما لكل من يصلح أن يخاطب به (فتقعد) أي فيتسبب عن ذلك أن تقعد أي تصير في الدنيا بل الآخرة (مذموما مخذولا) لان المشرك كاذب والكاذب يستوجب الذم والخذلان ولانه قد ثبت بالدليل أنه لا اله ولا مدبر الا الله تعالى فحينئذ تكون جميع النعم حاصلة من الله تعالى فمن أشرك بالله فقد أضاف بعض تلك النعم الى غير الله فاستحق الذم والخذلان *(تنبيه)* قال الواحدي قوله تعالى فتقعد انتصب لانه وقع بعد الفاء جوابا للنهي وانتصابه باضمار أن كقولك لا تنقطع عنا فنجفوك والتقدير لا يكن منك انقطاع فيحصل أن نجفوك فما بعد الفاء متعلق بالجملة المتقدمة بحرف الفاء وانما سماه النحويون جوابا لكونه مشابها للجزاء وأن الثاني

الله بل مع الله على وجه الشرك (قلت) في الكلام تقديم وتأخير تقديره قل ادعوا الذين من دون الله زعمتم انهم شركاء (قوله ومنعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون) أي

وما منعنا ان نرسل رسولا بالآيات التي اقترحها أهل مكة على النبي صلى الله عليه وسلم كجعل الصفا ذهبا وازالة جبال مكة الا تكذيب الاولين [illegible] بها أي بآيات اقترحوها

مسبب عن الاول كما تقرر * ولما ذكر تعالى ما هو الركن الاعظم في الايمان أتبعه بذكر ما هو من شعائر الايمان وشرائعه وذلك أنواع الاول أن يشتغل الانسان بعبادة الله تعالى و يحترز عن عبادة غيره وهذا هو المراد من قوله تعالى (وقضى) أى أمر (ربك) أى المحسن اليك وقوله تعالى (ألا تعبدوا) أى أنت وجميع أهل دعوتك وهم جميع الناس (الا اياه) فيه وجوب عبادة الله تعالى والمنع من عبادة غيره لان العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق الا بمن له الانعام والافضال على عباده ولا منعم الا الله تعالى فكان هو المستحق للعبادة لا غيره * (تنبيه) * روى ميمون بن مهران عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية كان الاصل ووصى ربك فالتصقت احدى الواوين بالصاد فقرئ وقضى ربك ثم قال ولو كان على القضاء ما عصى الله أحد قط لان خلاف قضاء الله ممتنع وهذا القول كما قاله الرازي بعيد جدا اذ لو فتح هذا الباب لارتفع الامان عن القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك أنه طعن عظيم في الدين ويشد فع ما قاله بما فسر تضى به * ولما أمر تعالى بعبادة نفسه أتبعه بالامر ببر الوالدين بقوله تعالى (وبالوالدين) أى وأحسنوا أى وأوقعوا الاحسان بهما (احسانا) أى بان تبروهما ليكون انفع لكم فانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون * (تنبيهان) * أحدهما المناسبة بين الامر بعبادة الله تعالى والامر ببر الوالدين من وجوه الاول أن السبب الحقيق لوجود الانسان هو تخليق الله تعالى وايجاده والسبب الظاهر هو الابوان فامر الله تعالى بتعظيم السبب الحقيقي ثم أتبعه بالامر بتعظيم السبب الظاهري الثاني ان الوجود اما قديم واما محدث ويجب أن تكون معاملة الانسان مع الموجود القديم بالتعظيم والعبودية ومع المحدث باظهار الشفقة وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله واحق الخلق بالشفقة الابوان لكثرة انعامهما على الانسان فقوله تعالى وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه اشارة الى التعظيم لامر الله تعالى وقوله تعالى وبالوالدين احسانا اشارة الى الشفقة على خلق الله الثالث ان الاشتغال بشكر المنعم واجب ثم المنعم الحقيقي هو الخالق سبحانه وتعالى وقد يكون بعض المخلوقين منعما عليك وشكره ايضا واجب لقوله صلى الله عليه وسلم من لم يشكر الناس لم يشكر الله وليس لاحد من الخلائق نعمة على الانسان مثل الابوين لان الولد قطعة من الوالدين قال صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة مني وأيضا شفقة الوالدين على الولد عظيمة وايصال الخير الى الولد منهما أمر طبيعي واحترازهما عن ايصال الضرر اليه أمر طبيعي أيضا فوجب أن تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة بل هي أكبر من كل نعمة تصل من الانسان الى الانسان وأيضا حال ما يكون الانسان في غاية الضعف ونهاية العجز يكون انعام الابوين في ذلك الوقت واصلا الى الولد واذا وقع الانعام على هذا الوجه كان موقعه عظيما وأيضا فايصال الخير الى الغير قد يكون لداعية ايصال الخير اليه وايصال الخير الى الولد ليس لهذا الغرض فكان الانعام فيه أتم وأكمل فثبت بهذه الوجوه أنه ليس لاحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد فلهذا بدأ الله بشكر نعمة الخالق وهو قوله تعالى وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله تعالى وبالوالدين احسانا (فان قيل) الوالدان انما طلبا تحصيل اللذة لانفسهما فلزم منه دخول الولد في الوجود دون قوله

في عالم الآفات والظلمات فأي انعام للأبوين على الولد حتى ان بعض المتسمين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول هو الذي أدخلني في عالم الكون والفساد وعرضني للموت والفقر والعمى والزمانة وقيل لأبي العلاء المعري ماذا نكتب على قبرك فقال اكتبوا على قبري هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد وقال في ترك التزوج والولد

وتركت فيهم نعمة العدم التي • فيهم لقد سبقت نعيم العاجل
ولو أنهم ولدوا لعانوا شدة • ترمي بهم في موبقات الآجل

وقيل لاسكندر استاذك أعظم منة عليك أم والدك فقال أستاذي أعظم منة لأنه تحمل أنواع الشدائد عند تعليمي فأوقعني في نور العلم وأما الوالد فانه طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه فأخرجني الى آفات عالم الكون والفساد ومن الكلمات المأثورة المشهورة خير الآباء من علمك (أجيب) بأنه وان كان في أول الأمر طلب لذة الوقاع الا أن الاهتمام بايصال الخيرات اليه ودفع الآفات عنه من أول دخوله في الوجود الى وقت بلوغه الكبر أليس أنه أعظم من جميع ما يصل اليه من جهات الخيرات والمبرات فسقطت تلك الشبهات (التنبيه الثاني) ان لفظ الآية يدل على معان كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة في الاحسان الى الوالدين منها أنه تعالى قال في الآية المتقدمة ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ثم أردفه بهذه الآية المشتملة على الأعمال التي بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة وجعل من جملتها البر بالوالدين وذلك يدل على أن هذه الطاعة من أصول الطاعات التي تفيد سعادة الآخرة ومنها انه تعالى بدأ بذكر الأمر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى وثلث ببر الوالدين وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة في تعظيم هذه الطاعة ومنها انه تعالى لم يقل واحسانا بالوالدين بل قال وبالوالدين احسانا فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام بهما ومنها انه تعالى قال احسانا بلفظ التنكير والتنكير يدل على التعظيم أي احسانا عظيما كاملا لأن احسانهما اليك قد بلغ الغاية العظيمة فوجب أن يكون احسانك اليهما كذلك ثم على جميع التقديرات لا تحصل المكافأة لأن انعامهما عليك على سبيل الابتداء وفي الأمثال المشهورة ان البادئ بالبر لا يكافأ ولما كان سبحانه وتعالى علم ما في الطباع من ملال الولد لهما عند أخذهما في السن قال تعالى (اما) مؤكدا بادخال ما على ان الشرطية لزيادة التقرير لمعنى اهتماما بشأن الوالدين (يبلغن عندك الكبر) أي كأن يضطرا اليك في حالة الضعف والعجز فلا يكون لهما كافل غيرك فيصيرا عندك في آخر العمر كما كنت عندهما في أوله (أحدهما أو كلاهما) وقرأ حمزة والكسائي بألف بعد الغين وكسر النون فالألف ضمير الوالدين لتقدم ذكرهما وأحدهما بدل منه وكلاهما عطف عليه فاعلا أو بدلا (فان قيل) هلا كان كلاهما توكيدا لا بدلا (أجيب) بأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيدا لاثنين فوجب أن يكون مثله (فان قيل) لم لا يجوز أن يكون أحدهما بدلا وكلاهما توكيدا ويكون ذلك عطفا للتوكيد على البدل (أجيب) بأن العطف يقتضي المشاركة فجعل أحدهما بدلا والآخر توكيدا خلاف الأصل وقرأ الباقون بغير ألف وفتح النون والاعراب على هذا ظاهر وجميع القراء يشددون النون ثم انه تعالى أمر الانسان في حق والديه بخمسة أشياء الأول منها قوله تعالى (فلا تقل لهما أف) أي

قوله هذا جناية أبي الخ الذي في ابن خلكان انه بيت شعر وهو • هذا جناه أبي علي وما جنيت على احد اه

على رسلهم لما أرسلناها فأهلكناهم ولو أرسلناها الى هؤلاء لكذبوا بها واستحقوا الهلاك وقد حكمنا بامهالهم ليتم أمر النبي صلى الله عليه وسلم ولا نعجل بالعقوبة (فان قالت)

لا

لا تضجر منهما قال الزجاج أف معناه النتن وهذا قول مجاهد لانه قال معنى قوله فلا تقل لهما أف أى لا تتقذرهما كما انهما كانا لا يتقذران منك حين كنت تخرأ وتبول وفى رواية اخرى عن مجاهد اذا وجدت منهما رائحة تؤذيك فلا تقل لهما أف فلقد بالغ سبحانه وتعالى بالوصية بهما حيث شفع الاحسان اليهما بتوحيده ونظمهما فى سلك القضاء بهما معا ثم ضيق الامر فى مراعاتهما حتى لم يرخص فى ادنى كلمة تنفلت من التضجر مع موجبات الضجر ومع مقتضياته ومع احوال لا يكاد يدخل صبر الانسان معها فى الاستطاعة وقد قال صلى الله عليه وسلم اياكم وعقوق الوالدين فان الجنة يوجد ريحها من مسيرة الف عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار ازاره خيلاء ان الكبرياء لله رب العالمين وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال لا يقوم الى خدمتهما عن كسل وقرأ نافع وحفص بالتنوين فى الفاء مع الكسر وابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين والباقون بكسر الفاء من غير تنوين الثانى قوله تعالى (ولا تنهرهما) اى لا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك يقال نهره وانتهره اذا استقبله بكلام يزجره قال تعالى واما السائل فلا تنهر (فان قيل) المنع من التأفيف يدل على المنع من الانتهار بالاولى فما فائدة ذكره (اجيب) بان المراد بالمنع من التأفيف المنع من اظهار الضجر بالقليل والكثير والمراد من منع الانتهار المنع من اظهار المخالفة فى القول على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما الثالث قوله تعالى (وقل لهما قولا كريما) اى حسنا جميلا طيبا لينا كما يقتضيه حسن الادب معهما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو ان يقول يا ابتاه يا اماه وسئل سعيد بن المسيب رضى الله عنه عن القول الكريم فقال هو قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ وعن عطاء انه قال هو ان يتكلم معهما بشرط أن لا يرفع اليهما بصره ولا يشد اليهما نظره وذلك أن هذين الفعلين ينافيان القول الكريم (فان قيل) ابراهيم الخليل عليه السلام قال لابيه انى أراك وقومك فى ضلال مبين مع انه عليه السلام من أعظم الناس أدبا وحلما وكرما (أجيب) بأن حق الله تعالى مقدم على حق الابوين فاقدام ابراهيم عليه السلام على ذلك الايذاء انما كان تقديما لحق الله تعالى والرابع قوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) أى لا من أجل الامتثال للامر وخوف العار فقط بل من أجل الرحمة لهما بان لا تزال تذكر نفسك بالاوامر والنواهى وبما تقدم لهما من الاحسان اليك والمقصود المبالغة فى التواضع وهذه استعارة بليغة قال القفال وفى تقريره وجهان الاول ان الطائر اذا أراد ضم فرخه اليه للتربية خفض له جناحه فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية فكأنه قال للولد اكفل والديك بان تضمهما الى نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك والثانى أن الطائر اذا أراد الطيران نشر جناحيه ورفعهما ليرتفع واذا أراد ترك الطيران خفض جناحيه فجعل خفض الجناح كناية عن التواضع واللين (فان قيل) كيف أضاف الجناح الى الذل والذل لا جناح له (أجيب) بوجهين الاول أنه أضيف الجناح الى الذل كما يقال حاتم الجود فكما أن المراد هناك حاتم الجواد فكذا هنا المراد اخفض لهما جناحك الذليل الثانى أن مدار الاستعارة على الخيال فهنا تخيل للذل جناحا خفيضا كما جعل لبيد للشمال يدا وللقرة زماما فى قوله

كيف قال وما منعنا الى آخره مع انه تعالى لا يمنعه عن ارادته مانع (قلت) المنع هنا مجاز عن الترك كانه قال وما سبب ترك الارسال بالآيات الا تكذيب الاولين (قوله وآتينا ثمود

وغداة ريح قد كشفت وقرة ● اذ أصبحت بيد الشمال زمامها

فاثبت للشمال يدا وللقرة زماما ووضع زمامها في يد الشمال فكذا هنا ومن ظريف ما حكى أن أبا تمام لما نظم قوله

لا تسقنى ماء الملام فاننى ● صب قد استعذبت ماء بكائى

جاءه رجل بقصعة وقال له أعطنى شيأ من ماء الملام فقال له حتى تأتينى بريشة من جناح الذل يريد أن هذا مجاز استعار مثل ذلك وقال بعضهم

راشوا جناحى ثم بلوه بالندى ● فلم أستطع من حبهم أن أطيرا

الخامس قوله تعالى (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) أى لا تكتف برحمتك عليهما التى لا بقاء لها وادع الله أن يرحمهما برحمته الباقية واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك فى صغرك وتربيتهما لك هذا اذا كانا مسلمين فان كانا كافرين فان الدعاء لهما بالرحمة منسوخ بقوله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى بل يدعو الله تعالى لهما بالهداية والارشاد فاذا هداهما فقد رحمهما وسئل بعضهم عن بر الوالدين فقال لا ترفع صوتك عليهما ولا تنظر اليهما شزرا ولا يريا منك مخالفة فى ظاهر ولا باطن وأن تترحم عليهما ما عاشا وتدعو لهما اذا ماتا وتقوم بخدمة أوداثهما من بعدهما لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه ● (تنبيه) ● قد ورد فى بر الوالدين أحاديث كثيرة منها ما روى عن أبى هريرة أنه قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله من أحسن الناس بصحبتى فقال أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك ٣ ومنها عنه أيضا أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أرغم الله أنفه أرغم الله أنفه أرغم الله أنفه قيل من يا رسول الله قال من أدرك والديه أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة ومنها ما روى عنه أيضا أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يجزى ولد والده الا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه ومنها ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى الجهاد فقال أحى والداك قال نعم قال ففيهما فجاهد ومنها ما رواه الترمذى أنه صلى الله عليه وسلم قال رضا الرب فى رضا الوالدين وسخط الرب فى سخط الوالدين ومنها ما روى عن أبى الدرداء أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الوالد أوسط أبواب الجنة فاحفظ ان شئت أو ضيع ومنها ما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى العمل أحب الى الله تعالى قال الصلاة على وقتها قلت ثم أى قال بر الوالدين قلت ثم أى قال الجهاد فى سبيل الله وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت فقال ذلك كله واصل اليه ولا شئ أنفع لهم من الاستغفار ولو كان شئ أفضل منه لأمركم به فى الوالدين ولقد كرر الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز الوصية بالوالدين ومنها ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال رضا الله فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما ومنها ما روى عن سعيد بن المسيب ان البار بوالديه لا يموت ميتة سوء ومنها ما روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبوى بلغا من الكبر أنى ألى منهما ما وليا منى فى الصغر فهل قضيتهما قال لا فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما ومنها ما رواه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

قوله مبصرة) أى دالة الناقة كما يقال الدليل مرشد وهاد (فان قلت) ما وجه ارتباط هذا بما قبله (قلت) لما أخبر بأن الأولين كذبوا بالآيات المقترحة عين منها ناقة صالح لأن آثار ديارهم

٣ قوله من أحسن الناس الخ هكذا بالأصول التى بأيدينا والذى فى صحيح مسلم من أحق الناس بحسن الصحبة قال أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك أدناك وذكر روايات أخرى ليس منها هذه الرواية فليحرر لفظ الحديث اهـ مصححه

قوله أنفع لهم هكذا فى الأصول ولو جرى على ما قبله لأفرد ولعله راجع الى الأموات المفهومين من الميت اهـ

رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي ورغم أنف رجل أتى عليه شهر رمضان فلم يغفر له ورغم أنف رجل أدرك أبويه الكبر فلم يدخلاه الجنة ومنها ما روي أن رجلا شكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أباه وأنه يأخذ ماله فدعاه فاذا هو شيخ يتوكأ على عصا فسأله فقال انه كان ضعيفا وأنا قوي وفقيرا وأنا غني فكنت لا أمنعه شيأ من مالي واليوم أنا ضعيف وهو قوي وأنا فقير وهو غني ويبخل علي بماله فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما من حجر ولا مدر يسمع بهذا الا بكى ثم قال للولد أنت ومالك لابيك وشكا اليه آخر سوء خلق أمه فقال لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر قال انها سيئة الخلق قال لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين قال انها سيئة الخلق قال لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها وأظمأت لك نهارها قال لقد جازيتها قال ما فعلت قال حججت بها على عنقي قال ما جزيتها وعن ابن عمر أنه رأى رجلا في الطواف يحمل أمه ويقول

أنا لها مطية لا تذعر ** اذا الركاب نفرت لا تنفر

ما حملت وأرضعتني أكثر ** الله ربي ذو الجلال الأكبر

تظنني جزيتها يا ابن عمر قال لا والله ولا زفرة واحدة * ولما كان ما ذكر في حق الوالدين عسرا جدا يحذر من التهاون به أشار بقوله تعالى (ربكم) أي المحسن اليكم في الحقيقة فانه هو الذي عطف عليكم من يربيكم وهو الذي أعانهم على ذلك (أعلم) أي من كل أحد (بما في نفوسكم) من قصد البر بهما وغيره فلا يظهر أحدكم غير ما يبطن فان ذلك لا ينفعه ولا ينجيه الا أن يحمل نفسه على ما يكون سببا لرحمتها (ان تكونوا صالحين) أي متقين محسنين في نفس الأمر والصلاح استقامة الفعل على ما يدعو الدليل اليه * وأشار تعالى الى أنه لا يكون ذلك الا بمجاهدة النفس وترجيعها كرة بعد كرة بقوله تعالى (فانه كان للأوابين) أي الرجاعين الى الخير مرة اثر مرة بعد جماح أنفسهم عنه (غفورا) أي بالغ الستر بمن وقع منه تقصير فرجع عنه فانه مغفور له * ولما حث تعالى على الاحسان للوالدين بالخصوص عم بالأمر بالاحسان لكل ذي قرابة ورحم وغيره بقوله تعالى (وآت ذا القربى) من جهة الأب والأم وان بعد (حقه) والخطاب لكل أحد أن يؤتي أقاربه حقوقهم من صلة الرحم والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمعاضدة ونحو ذلك وقيل ان كانوا محتاجين وهو موسر لزمه الانفاق عليهم عند الامام أبي حنيفة وقال الشافعي لا يلزم الا نفقة الوالد على ولده والولد على والده فقط وقيل المراد بالقرابة قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم (و) آت (المسكين) حقه وان لم يكن قريبا (و) آت (ابن السبيل) وهو المسافر المنقطع عن ماله ليكون متقيا محسنا * ولما رغب تعالى في البذل وكانت النفس قلما يكون فعلها قواما بين الافراط والتفريط أتبع ذلك بقوله تعالى (ولا تبذر) بتفريق المال سرفا وبذله فيما لا ينبغي وقد كانت الجاهلية تبذر أموالها في الفخر والسمعة وتذكر ذلك في أشعارها فأمر الله تعالى بالنفقة في وجوهها مما يقرب منه ويزلف اليه وفي قوله تعالى (تبذيرا) تنبيه على أن الارتفاع عن ساحة التبذير أولى من الهبوط الى مضيق الشح والتقتير والتبذير بسط اليد في المال على حسب الهوى وقد سئل ابن مسعود عن التبذير فقال انفاق المال في غير حقه وأما الجود فهو اتباع أمر الله تعالى في حقوق المال وعن مجاهد لو أنفق الانسان ماله كله في الحق ما كان تبذيرا ولو أنفق مدا في باطل كان تبذيرا

الهالكة بالمهملة في بلاد العرب قريبة من حدودهم بمصر وأماندهم وواردهم

(قوله فظلوا جرا) أي بالناقة لان الباء ليست للتعدية لان الظلم يتعدى بنفسه فالمعنى فظلموا أنفسهم بقتلها أي

وقد أنفق بعضهم نفقة فى خير فأكثر فقال له صاحبه لا خير فى السرف فقال لا سرف فى الخير
وعن عبد الله بن عمر قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال ما هذا السرف
يا سعد قال أوفى الوضوء سرف قال نعم وان كنت على نهر جار ثم نبه تعالى على قبح التبذير
باضافته اياه الى أفعال الشياطين بقوله تعالى (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) أى على
طريقتهم أوهم اخوانهم واصدقاؤهم لانهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الاسراف أوهم
قرناؤهم وهم فى النار على سبيل التوعد ثم انه تعالى بين صفة الشيطان بقوله تعالى (وكان
الشيطان) أى هذا الجنس البعيد من كل خير المحترق بكل شر (لربه) أى الذى أحسن اليه
بايجاده وتربيته (كفورا) أى ستورا المبالغة على ستره من آياته الظاهرة ونعمته الباهرة مع
الجزة فلا ينبغى أن يطاع لانه لا يدعو الا الى مثل فعله قال بعض العلماء خرجت هذه الآية على
وفق عادة العرب وذلك لانهم كانوا يجمعون الاموال بالنهب والغارة ثم كانوا ينفقونها فى
الخيلاء والتفاخر وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن
الاسلام وتوهين أهله واعانة أعدائه فنزلت هذه الآية تنبيها على قبح افعالهم فى هذا الباب
وقوله تعالى (واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) نزل فى مهجع وبلال وصهيب
وسالم وخباب وكانوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم فى الاحايين ما يحتاجون اليه ولا يجد
فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك لانتظار رزق من الله يرجوه أن يأتيه فيعطيه (فقل لهم) اى فى
حالة الاعراض (قولا ميسورا) اى ذا يسر بشرح صدورهم وبسط رجائهم لان ذلك اقرب
الى طريق المتقين المحسنين قال ابو حيان روى انه عليه الصلاة والسلام كان بعد نزول هذه
الآية اذا لم يكن عنده ما يعطى وسئل يقول يرزقنا الله تعالى واياكم من فضله انتهى وقد وقع
هذا الابتغاء موضع الفقد لان فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سببا للابتغاء والابتغاء مسببا
عنه فوضع المسبب موضع السبب ثم امر تعالى نبيه بما وصف له عباده المؤمنين فى الانفاق
فى سورة الفرقان بقوله تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فقال
تعالى (ولا تجعل يدك) أى بالبخل (مغلولة) أى كأنها بالمنع مشدودة بالغل (الى عنقك) أى
لا تستطيع مدها أى لا تمسك عن الانفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك فى وجوه صلة الرحم
وسبيل الخيرات والمعنى لا تجعل يدك فى انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط (ولا تبسطها)
بالبذل (كل البسط) فتبذر بحيث لا يبقى فى يدك شئ ذكر الحكماء فى كتب الاخلاق أن لكل
خلق طرفى افراط وتفريط وهما مذمومان والخلق الفاضل هو العدل والوسط فالبخل افراط
فى الامساك والتبذير افراط فى الانفاق وهما مذمومان والمعتدل هو الوسط وعن جابر أتى
رسول الله صلى الله عليه وسلم صبى فقال يا رسول الله ان أمى تستكسيك درعا أى قميصا ولم يكن
لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا قميصه فقال للصبى من ساعة الى ساعة هذا متعلق بمحذوف أى
أخرنا الآن من ساعة ليس لنا فيها درع الى ساعة يظهر لنا فيها درع فعد الينا فذهب الى أمه
فقالت له قل له ان أمى تستكسيك الدرع الذى عليك فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم
ونزع قميصه فاعطاه وقعد عريانا اى فى ازار وحده فأذن بلال بالصلاة فانتظروه فلم يخرج فشغل
قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عريانا فأنزل الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك

ولا

سببه (قوله وما نرسل
بالآيات الا تخويفا) ان
قلت هذا يدل على لا رد ال
بالآيات وقوله قبل وما
منعنا أن نرسل بالآيات
يدل على عدمه (قلت)
اراد بالآيات هنا العجز

ولا تبسطها كل البسط فتعطي جميع ما عندك *(تنبيه)* ما ذكرته عن جابر تبعا للكشاف
والبيضاوي والرازي وغيرهم قال الولي العراقي لم أقف عليه وكذا قال الحافظ ابن حجر وقد
يقال من حفظ حجة على من لم يحفظ (فتقعد) اي توجد كالمقعد (ملوما) أي بالغ الرسوخ فيما
يلام بسببه عند الله لان ذلك مما نهى الله عنه وعند نفسك وعند الناس لانه يلوم نفسه وأصحابه
أيضا يلومونه على تضييع المال بالكلية (محسورا) اي منقطعا بك لذهاب ما تقوى به قال
القفال شبه حال من أنفق كل ماله بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته لان ذلك المقدار
من المال كانه مطية تحمل الانسان الى آخر الشهر والسنة كما أن ذلك البعير يحمله ويبلغه
الى آخر المنزل فاذا انقطع ذلك البعير بقي في وسط الطريق عاجزا متحيرا فكذلك الانسان اذا
أنفق مقدار ما يحتاج اليه في مدة شهر في أول منه بقي في وسط ذلك الشهر عاجزا متحيرا ومن فعل
ذلك لحقه اللوم من أهله والمحتاجين الى انفاقه عليهم بسبب سوء تدبيره وترك الحزم في مهمات
معاشه ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (ان ربك) أي المحسن اليك (يبسط الرزق) أي
يوسعه (لمن يشاء) البسط دون غيره (ويقدر) اي يضيقه سواء قبض يده أم بسطها لان الرب
هو الذي يربي المربوب ويقوم باصلاح مهماته ورفع درجاته على مقدار الصلاح في الصواب
فيوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض لان ذلك هو الصلاح قال تعالى ولو بسط الله
الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء (انه كان بعباده خبيرا) أي بالغ الخبر
(بصيرا) أي بالغ البصر بما يكون من كل من القبض والبسط لهم مصلحة ومفسدة فالتفاوت
في انه ربى العباد ليس لاجل بخل بل لاجل رعاية مصلحة لا يعلمها العبد فسبحان المتصرف في
عباده كيف يشاء * ولما أتم سبحانه وتعالى الوصية بالاصول وما تبع ذلك أوصى بالفروع بقوله
تعالى (ولا تقتلوا أولادكم) فذكرهم بلفظ الولد الذي هو داعية الى الحنو والعطف (خشية
املاق) أي فقر متوقع لم يقع بعد ثم وصل بذلك استئنافا بقوله تعالى (نحن نرزقهم واياكم)
فقدم ضمير الاولاد لكون الاملاق مترقبا من الانفاق عليهم ثم علل تعالى ذلك بما هو أعم منه
فقال تعالى (ان قتلهم) أي مطلقا لهذا أو لغيره (كان خطأ) أي اثما (كبيرا) أي عظيما
وقرأ ابن كثير بفتح الطاء ومد بعدها ممدا متصلا وقرأ ابن ذكوان بفتح الخاء والطاء ولا مد بعد
الطاء والباقون بكسر الخاء وسكون الطاء قال الرماني الخطء بكسر ثم سكون لا يكون الا تعمدا
الى خلاف الصواب والخطأ أي محركا قد يكون من غير تعمد وانما وجب بر الاولاد لامور
أحدها أنهم في غاية الضعف ولا كافل لهم غير الوالدين وانما وجب بر الوالدين مكافأة لما صدر
منهما من أنواع البر الى الولد الثاني أن امتناع الآباء من البر بالاولاد يقتضي خراب العالم
الثالث أن قرابة الولادة قرابة الجزئية والبعضية وهي من أعظم الموجبات للمحبة فلو لم تحصل
المحبة دل ذلك على غلظ شديد في الروح وقسوة في القلب وذلك من أعظم الاخلاق الذميمة
فرغب الله تعالى في الاحسان الى الاولاد ازالة لهذه الخصلة الذميمة وعبر تعالى بالاولاد ليشمل
الاناث فان العرب كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب وقدرة البنين عليه بسبب
اقدامهم على النهب والغارة عليهم وأيضا كانوا يخافون أنهن بعد كبرهن تفقد أكفاؤهن
فيحتاجون الى انكاحهن من غير أكفاء وفي ذلك عار شديد فنهاهم الله تعالى عن ذلك فان

والدلالات وفيه اقبل الآيات
والشهرة
المقترحة (قوله والشهرة
المعونة في القرآن) * ان قالت
ليس في القرآن امن شهرة
(قالت) فيه اضمار تقديره
والشهرة المعونة المذكورة

الموجب للرحمة والشفقة هو كونه ولدا وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور والاناث وأما
ما يخاف من الفقر في البنات فقد يخاف مثله في الذكور في حال الصغر وقد يخاف أيضا
في العاجزين من البنين وكما أنه سبحانه وتعالى يفتح أبواب الرزق على الذكور فكذلك على
الاناث ولما كان في قتل الاولاد حظ من البخل وفي فعل الزنا داع من الاسراف أتبعه به فقال
تعالى (ولا تقربوا الزنا) أدنى قرب ولو بفعل شئ من مقدماته وانما أتى تعالى بالقرب بان قطعيا له
لما فيه من المفاسد الجارة الى الفتن بالقتل وتضييع النسب والتسبب في ايجاد نفس بالباطل
وغير ذلك ثم علل تعالى النهي عن ذلك بقوله تعالى مؤكدا ابلاغا في التنفير عنه لما للنفس من شدة
الداعية اليه (انه كان فاحشة) أى فعلة ظاهرة القبح زائدته وقد نهانا الله تعالى عن
الفحشاء في قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء
الآية (وساء) أى وبئس الزنا (سبيلا) أى طريقا طريقه ثم نهى سبحانه وتعالى عن القتل
مطلقا عن التقييد بالاولاد بغير حق بقوله تعالى (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله) أى بالاسلام
والعهد (الا بالحق) وهو المبيح للقتل من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم
الا باحدى ثلاث رجل كفر بالله بعد ايمانه أو زنى بعد احصانه أو قتل نفسا بغير حق ومثل
انتقال المسلم من دين الاسلام الى دين الكفر انتقال كافر من دين الى دين آخر سواء كان ذلك
الدين يقر عليه أم لا ومن ذلك قوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وقوله
تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا
واختلف الفقهاء فى أشياء غير ذلك منها ان تارك الصلاة كسلا هل يقتل فعند الشافعي يقتل
بشروط معلومة وعند أبى حنيفة لا يقتل التارك كالزانى ومنها أن عمل اللواط هل يوجب
القتل فعند الشافعي يوجب قتل الفاعل كالزانى وعند أبى حنيفة لا يوجبه ومنها أن الساحر
اذا قال قتلت فلانا بسحرى عمدا هل يوجب القتل فعند الشافعي يوجبه وعند أبى حنيفة
لا يوجبه ومنها أن القتل بالمثقل هل يوجب القصاص فعند الشافعي يوجب وعند أبى حنيفة
لا يوجب ومنها أن الامتناع من أداء الزكاة هل يوجب القتل اختلفوا فيه فى زمان أبى بكر
رضى الله عنه ومنها أن اتيان البهيمة هل يوجب القتل فعند اكثر الفقهاء لا يوجب وعند قوم
يوجبه ولكل ممن ذكر أدلة يستدل بها رضى الله تعالى عنهم أجمعين ثم قال تعالى (ومن قتل
مظلوما) اى باى ظلم كان من غير ان يرتكب ما يبيح قتله (فقد جعلنا لوليه) ى سواء كان قريبا
أم بعيدا (سلطانا) اى أمرا متسلطا به وقوله تعالى (فلا يسرف فى القتل) قرأ حمزة والكسائى
بالتاء على الخطاب اى أيها الولى والباقون بالياء على الغيبة اى الولى وفسر الاسراف بوجوه
الاول ان يقتل القاتل وغير القاتل وذلك ان أولياء المقتول كانوا اذا قتل واحد من قبيلة
شريفة قتلوا خلقا من القبيلة الدنيئة فنهى الله تعالى عنه وحكم بقتل القاتل وحده الثانى
ان الاسراف هو ان لا يرضى بقتل القاتل فان الجاهلية كانوا يقصدون أشرف القاتل ثم
يقتلون منهم قوما معينين ويتركون القاتل الثالث ان الاسراف هو ان لا يكتفى بقتل القاتل
بل يقتله ثم يمثل به ويقطع أعضاءه قال القفال ولا يبعد حمله على الكل لان جملة على هذه المعانى
مشترك فى كونها اسرافا واختلف فى رجوع الهاء الى ماذا فى قوله تعالى (انه كان منصورا)

في القرآن أو معناه الملعون
آكلوها وهم الكفرة أو
الملعونة بمعنى المذمومة وهي
مذمومة في القرآن بقوله
تعالى ان شجرت الزقوم طعام
الاثيم وبقوله تعالى طلعها

فقال

فقال مجاهد راجعة الى المقتول فى قوله تعالى ومن قتل مظلوما اى ان المقتول منصور فى الدنيا بايجاب القود على قاتله وفى الآخرة بتكفير خطاياه وايجاب النار لقاتله وقال قتادة راجعة لولى المقتول اى انه منصور على القاتل باستيفاء القصاص أو الدية فليكتف بهذا القدر ولا يطمع فى الزيادة وقيل راجعة الى القاتل الظالم اى ان القاتل يكتفى منه باستيفاء القصاص ولا يطلب منه زيادة لانه منصور من عند الله تعالى فى تحريم طلب الزيادة منه أو انه اذا عوقب فى الدنيا بازيد مما فعل نصر فى الآخرة وقيل راجعة الى الدم وقيل الى الحق * ولما ذكر تعالى النهى عن اتلاف النفوس أتبعه بالنهى عن اتلاف الاموال لان اعز الاشياء بعد النفوس الاموال وأحق الناس بالنهى عن اتلاف أموالهم هو اليتيم لانه لصغره وضعفه وكمال عجزه يعظم ضرره باتلاف ماله فلهذا السبب خصهم الله تعالى بالنهى عن اتلاف أموالهم بقوله تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم) عبر بالقربان الذى هو قبل الاخذ تعظيما للمقام فهو أبلغ من قوله تعالى ولا تأكلوها اسرافا وبدارا وفى تفسير قوله تعالى (الا بالتى هى أحسن) وجهان الاول الا بالتصرف الذى ينميه ويكثره الثانى روى مجاهد عن ابن عباس انه قال اذا احتاج أكل بالمعروف واذا أيسر قضاه فان لم يوسر فلا شئ عليه والولى تبقى ولايته على اليتيم (حتى يبلغ أشده) وهو ايناس الرشد منه بعد بلوغه كما بين تعالى ذلك فى آية أخرى وهى قوله تعالى وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم * ولما نهى سبحانه وتعالى عن ثلاثة أشياء وهى الزنا والقتل وأكل مال اليتيم أتبعها بثلاثة أوامر الاول قوله تعالى (وأوفوا بالعهد) اى اذا عاهدتم الله تعالى على فعل المأمورات وترك المنهيات أو الناس على فعل أو قول جائز وفى تفسير قوله تعالى (ان العهد كان مسؤلا) وجوه الاول ان يراد ان صاحب العهد كان مسؤلا فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه كقوله تعالى واسئل القرية ثانيها ان العهد كان مسؤلا اى مطلوبا يطلب من المعاهد ان لا يضيعه ويفى ثالثها ان يكون هذا تخييلا كان يقال للعهد لم نكثت وهلا أوفى بك تبكيتا للناكث كما يقال للموؤدة بأى ذنب قتلت وكقوله تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين والمخاطبة لعيسى عليه السلام والانكار على غيره الامر الثانى قوله تعالى (وأوفوا الكيل اذا كلتم) اى لغيركم فان كلتم لانفسكم فلا جناح عليكم ان نقصتم عن حقكم ولم تفوا الكيل الامر الثالث قوله تعالى (وزنوا) اى وزنا متلبسا (بالقسطاس) اى ميزان العدل الذى هو أقوم الموازين وزاد فى تأكيد معناه فقال (المستقيم) دون شئ من الحيف * (تنبيه) * القسطاس رومى عرب ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن لان الاعجمى اذا استعملته العرب وأجرته مجرى كلامهم فى الاعراب والتعريف والتنكير ونحوها صار عربيا وقرأ حفص وحمزة والكسائى بكسر القاف والباقون بضمها (ذلك) اى الامر العالى الرتبة الذى أخبرناكم به من الايفاء بالتمام والكمال (خير) لكم فى الدارين الدنيا والآخرة من التطفيف بالكيل أو الوزن من حيث ان الانسان يتخلص بواسطته عن الذكر القبيح فى الدنيا والعذاب الشديد فى الآخرة وان تراءى لكم ان التطفيف خير (وأحسن تأويلا) اى عاقبة فى الدارين اما فى الدنيا فلانه اذا اشتهر بالاحتراز عن التطفيف عول الناس عليه ومالت القلوب اليه وحصل له الاستغناء فى الزمان

كأنه رؤس الشياطين أو الملعونة بمعنى المبعدة لان اللعن لغة الطرد والابعاد وهذه الشجرة مبعدة عن مكان رحمة الله تعالى وهو الجنة لانها فى قعر جهنم وهذا الابعاد مذكور

القليل وكم رأينا من الفقراء من اشتهر واعند الناس بالامانة والاحتراز عن الخيانة انقلبت القلوب عليهم وحصلت الاموال الكثيرة لهم واما في الآخرة فالفوز بالثواب العظيم والخلاص من العقاب الاليم والتأويل وهو تفعيل من الاول وهو الرجوع وأفعل التفضيل هنا الاستعمال النصفة بارخاء العنان اى على تقدير ان يكون في كل منهما خير فهذا المعنى الذى ذكرناه أزيد خيرا والعاقل لا يرضى لنفسه بالدون ولما شرح الله تعالى الاوامر الثلاثة عاد الى ذكر النواهي فنهى عن ثلاثة أشياء أولها قوله تعالى (ولا تقف) اى لا تتبع أيها الانسان (ما ليس لك به علم) من قول أو فعل وحاصله يرجع الى النهي عن الحكم بما لا يكون معلوما وهو قضية كلية يندرج تحتها أنواع كثيرة واختلف المفسرون فيها فقال ابن عباس لا تشهد الا بما رأته عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك وقال قتادة لا تقل سمعت ولم تسمع ورأيت ولم تر وعلمت ولم تعلم وقيل المراد النهي عن القذف وقيل المراد النهي عن الكذب وقيل المراد نهي المشركين عن اعتقاداتهم وتقليدهم لأسلافهم لان الله تعالى نسبهم في تلك العقائد الى اتباع الهوى فقال تعالى ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس وقيل القفو هو البهت وأصله من القفا كأنه يقال خلفه وهو في معنى الغيبة قال صلى الله عليه وسلم من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله تعالى في ردغة الخبال رواه الطبراني وغيره وردغة بسكون الدال وفتحها عصارة أهل النار وقال الكميت

ولا أرمي البريء بغير ذنب * ولا أقفو الحواصن ان قفينا

بناء قفينا للمفعول والحواصن النساء العفائف واللفظ عام يتناول الكل فلا معنى للتقييد

(تنبيه) يقال قفوت أثر فلان أقفو اذا اتبعت أثره وسميت قافية الشعر قافية لان البيت يقفو البيت وسميت القبيلة المشهورة بالقافة لانهم يتبعون آثار اقفاء الناس أو آثار أقدامهم ويستدلون بها على أحوال الناس وقال تعالى ثم قفينا على آثارهم برسلنا وسمي القفا قفا لانه مؤخر بدن الانسان فان مشى يتبعه ويقفوه (فان قيل) ان هذه الآية تدل على منع القياس فانه لا يفيد الا الظن والظن مغاير للعلم (أجيب) بان ذلك عام دخله التخصيص فان الحكم في الدين بمجرد الظن جائز باجماع الامة وبان المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند سواء كان قطعيا أم ظنيا واستعماله بهذا المعنى شائع ذائع وقد استعمل في مسائل كثيرة منها ان العمل بالفتوى عمل بالظن ومنها ان العمل بالشهادة عمل بالظن ومنها الاجتهاد في طلب القبلة ولا يفيد الا الظن ومنها قيم المتلفات وارش الجنايات لا سبيل اليها الا بالظن ومنها الفصد والحجامة وسائر المعالجات تبنى على الظن ومنها بعث الحكمين في الشقاق قال تعالى وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها وحصول ذلك الشقاق مظنون لا معلوم ومنها ان الحكم على الشخص المعين بكونه مؤمنا مظنون ويبنى على هذا الظن أحكام كثيرة مثل حصول التوارث ومثل الدفن في مقابر المسلمين ومنها الاعتماد على صدق الاصدقاء وعداوة الاعداء كلها مظنونة وبناء الامر على تلك الظنون وقال صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر وذلك تصريح بأن الظن معتبر فبطل قول من يقول انه لا يجوز بناء الامر على الظن ثم علل تعالى النهي مخوفا

(قوله تعالى في القرآن بقوله تعالى ان الحمير تخرج في أصل الجحيم (قوله أرأيتك هذا الذي كرمت على) قاله هنا الخطاب كنظيره بتكرير في الانعام في أرأيتكم لدلالته على ان المخاطب به)

بقوله تعالى (ان السمع والبصر) وهما طريقا الادراك (والفؤاد) الذى هو آلة الادراك ثم هول تعالى الامر بقوله تعالى (كل أولئك) اى هذه الاشياء العظيمة العالية المنافع البديعة التكوين •(تنبيه)• أولاء وجميع أسماء الاشارة يشار بها للعاقل وغيره كقول الشاعر

ذم المنازل بعد منزلة اللوى • والعيش بعد أولئك الايام

يجوز فى ذم فتح الميم وكسرها وضمها وقوله بعد منزلة اللوى اى بعد مفارقتها والاضافة فى منزلة اللوى للبيان وهو ممدود ولكن قصره هنا للضرورة والعيش عطف على المنازل والايام صفة لاسم الاشارة أو عطف بيان له (كان عنه) اى بوعد لاخلاف فيه (مسؤلا) بسؤال يخصه •(تنبيه)• ظاهر الآية يدل على ان الجوارح مسؤلة وفيه وجوه الاول ان معناه ان صاحب السمع والبصر والفؤاد هو المسؤل لان السؤال لا يصح الا ممن كان عاقلا وهذه الجوارح ليست كذلك بل العاقل الفاهم هو الانسان كقوله تعالى واسئل القرية اى أهلها والمعنى انه يقال للانسان لم سمعت مالم يحل سماعه ولم نظرت مالم يحل نظره ولم عزمت على مالم يحل لك العزم عليه الثانى ان تقدير الآية ان أولئك الاقوام كلهم مسؤلون عن السمع والبصر والفؤاد فيقال لهم استعملتم السمع فيماذا أفى الطاعة أم فى المعصية وكذا القول فى بقية الاعضاء وذلك لان الحواس آلات النفس والنفس كالامير لها والمستعمل لها فى مصالحها فان استعملها فى الخيرات استوجب الثواب وان استعملها فى المعاصى استحق العقاب الثالث ان الله تعالى يخلق الحياة فى الاعضاء ثم انها تسئل لقوله تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فكذلك لا يبعد ان يخلق العقل والحياة والنطق فى هذه الاعضاء ثم انها تسئل وروى عن شكل بن حميد قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا نبى الله علمنى تعويذا أتعوذ به فاخذ بيدى ثم قال قل أعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى وشر لسانى وشر قلبى وشر منيى قال فحفظتها قال سعد المنى ماؤه • النهى الثانى قوله تعالى (ولا تمش فى الارض) اى جنسها (مرحا) اى ذا مرح وهو شدة الفرح والمراد من الآية النهى عن ان يمشى الانسان مشيا يدل على الكبرياء والعظمة قال الزجاج ولا تمش فى الارض مختالا فخورا ونظيره قوله تعالى فى سورة الفرقان وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وقال تعالى فى سورة لقمان واقصد فى مشيك واغضض من صوتك وقال تعالى فيها ولا تمش فى الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ثم علل تعالى النهى عن ذلك بقوله تعالى (انك لن تخرق الارض) اى تثقبها حتى تبلغ آخرها بكبرك (ولن تبلغ الجبال طولا) اى بتطاولك وهو تهكم بالمختال لان الاختيال حماقة مجردة لا تفيد شيأ ليس فى التذلل وفى ذلك اشارة الى ان العبد ضعيف لا يقدر على خرق أرض ولا وصول الى جبال فهو محاط به من فوقه ومن تحته بنوعين من الجمادات وهو أضعف منهما بكثير والضعيف المحصور لا يليق به التكبر فكانه قيل له تواضع ولا تتكبر فانك خلق ضعيف من خلق الله محصور بين حجارة وتراب فلا تفعل فعل المقتدر القوى وقيل ذكر ذلك لان من مشى مختالا يمشى مرة على عقبيه ومرة على صدور قدميه فقيل له انك لن تثقب الارض ان مشيت على عقبيك ولن تبلغ الجبال

أمر عظيم وهو هنا كذلك لانه اعظم الله ضمن بقوله لاحتنكن ذريته الا قليلا لاغوان أكثرهم (قوله فمن أوتى كتابه بيمينه فاولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا) ان قلت لم خصهم

طولا ان مشيت على صدور قدميك قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما ينحط من صبب وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال ما رأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجرى فى وجهه وما رأيت أحدا أسرع فى مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الارض تطوى له انا لنجهد أنفسنا وانه غير مكترث وقوله تعالى (كل ذلك) اشارة الى ما نهى عنه مما تقدم فان الذى تقدم منهيات ومأمورات وجملة ذلك من قوله تعالى لا تجعل مع الله الها آخر الى هنا خمسة وعشرون وها أنا أسردها لك تسهيلا عليك فأولها لا تجعل مع الله الها آخر وثانيها وثالثها وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه لاشتماله على تكليفين الامر بعبادة الله تعالى والنهى عن عبادة غيره رابعها وبالوالدين احسانا خامسها فلا تقل لهما أف سادسها ولا تنهرهما سابعها وقل لهما قولا كريما ثامنها واخفض لهما جناح الذل من الرحمة تاسعها وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا عاشرها وآت ذا القربى حقه حادى عشرها والمسكين ثانى عشرها وابن السبيل ثالث عشرها ولا تبذر تبذيرا رابع عشرها فقل لهم قولا ميسورا خامس عشرها ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك سادس عشرها ولا تبسطها كل البسط سابع عشرها ولا تقتلوا أولادكم ثامن عشرها ولا تقتلوا النفس تاسع عشرها ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا عشروها فلا يسرف فى القتل حادى عشريها وأوفوا بالعهد ثانى عشريها وأوفوا الكيل ثالث عشريها وزنوا بالقسطاس المستقيم رابع عشريها ولا تقف ما ليس لك به علم خامس عشريها ولا تمش فى الارض مرحا فكل هذه تكليفات بعضها أوامر وبعضها نواه فالمنهى عنه هو الذى قال تعالى فيه (كان سيئه عند ربك مكروها) أى يبغضه والعاقل لا يفعل ما يكرهه المحسن اليه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الهمزة وبالتاء منونة منصوبة وقرأ الباقون بضم الهمزة والهاء مضمومة من غير تنوين والمعنى على هذا ظاهر أى ان سيئ تلك الاقسام يكون مكروها وأما على القراءة الاولى فسيئة خبر كان وأنث حملا على معنى كل ثم قال مكروها حملا على لفظها وقال الزمخشرى ان السيئة فى حكم الاسماء بمنزلة الذنب والاسم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه ولا فرق بين من قرأ سيئة وسيئا الا ترى انك تقول الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة فلا تفرق بين اسنادها الى مذكر ومؤنث وفى نصب مكروها أوجه أحدها أنه خبر ثان لكان الثانى أنه بدل من سيئة وضعف بان البدل بالمشتق قليل الثالث أنه حال من الضمير المستتر فى عند ربك لوقوعه صفة لسيئة الرابع أنه نعت لسيئة وانما ذكر وصف سيئة لان تأنيثه وتأنيث موصوفه مجازى ورد بان ذلك انما يجوز حيث أسند الى المؤنث المجازى اما اذا أسند الى ضميره فلا نحو الشمس طالعة فلا يجوز طالع وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى الاحكام المتقدمة فى الاوامر والنواهى (مما أوحى اليك) يا أشرف الخلق (ربك) أى المحسن اليك (من الحكمة) التى هى معرفة الحق لذاته والخير للعمل به وانما سميت هذه الامور حكمة لوجوه الاول ان حاصلها يرجع الى الامر بالتوحيد وأنواع الطاعات والخيرات والاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة فالآتى بمثل هذه الشريعة لا يكون داعيا الى دين الشيطان بل الفطرة الاصلية تشهد بانه يكون داعيا الى دين الرحمن

ذلك مع ان أصحاب
الشمال كذلك (قلت) لان
أصحاب الشمال اذا
نظروا الى ما فى كتابهم من
الفضائح والقبائح أخذهم
من الحياء والخجل والخوف

الثانى ان هذه الاحكام المذكورة فى هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية فى جميع الاديان والملل ولا تقبل النسخ والابطال فكانت محكمة وحكمة من هذا الاعتبار الثالث ان الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير للعمل به كما مرت الاشارة اليه فالامر بالتوحيد عبارة عن القسم الاول وسائر التكاليف عبارة عن تعليم الخيرات حتى يواظب عليها ولا ينحرف عنها فثبت ان الاشياء المذكورة من هذه الآيات عين الحكمة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان هذه الآيات كانت فى ألواح موسى عليه السلام وجعل سبحانه وتعالى فاتحتها قوله تعالى لا تجعل مع الله الها آخر وخاتمتها قوله تعالى (ولا تجعل مع الله الها آخر) تنبيها على ان التوحيد مبدأ الامور ومنتهاها وان من قصد بفعل أو ترك غيره ضاع سعيه وانه رأس الحكمة وملاكها ورتب عليه ما هو عائدة الشرك فى قوله تعالى أولا لا تجعل مع الله أى فى الدنيا وثانيا ما هو نتيجته فى العقبى فقال (فتلقى) أى فيفعل بك فى الآخرة فى الحشر (فى جهنم) من الاسراع فيه وعدم القدرة على التدارك فعل من ألقى من عال حال كونك (ملوما) أى تلوم نفسك (مدحورا) أى مبعدا من رحمة الله * (تنبيه) * ذكره سبحانه وتعالى فى الآية الاولى بقوله تعالى مذموما مخذولا وفى هذه الآية ملوما مدحورا والفرق بين الذم واللوم * وان يذكر له ان الفعل الذى أقدم عليه قبيح ومنكر فهذا معنى كونه مذموما ثم يقال له فعلت هذا الفعل القبيح وما الذى حملك عليه فهذا هو اللوم فاول الامر يصير مذموما وآخره يصير ملوما والفرق بين المخذول والمدحور هو ان المخذول عبارة عن الضعيف يقال تخاذلت أعضاؤه اى ضعفت والمدحور هو المطرود والطرد عبارة عن الاستخفاف والاهانة فكونه مخذولا عبارة عن ترك اعانته وتفويضه الى نفسه وكونه مدحورا عبارة عن اهانته فيصير أول الامر مخذولا وآخره مدحورا وقوله تعالى (أفأصفاكم ربكم بالبنين) خطاب للذين قالوا الملائكة بنات الله والهمزة للانكار أى أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بافضل الاولاد وهم البنون ولم يجعل فيهم نصيبا لنفسه (واتخذ من الملائكة اناثا) أى بنات لنفسه وهذا خلاف ما عليه معقولكم وعادتكم فان العبيد لا يستأثرون باجود الاشياء واصفاها من الشوائب ويكون أردؤها وأدونها للسادات (انكم لتقولون قولا عظيما) باضافة الاولاد اليه لان اثبات الولد يقتضى كونه تعالى مركبا من الابعاض والاجزاء وذلك يقدح فى كونه قديما واجب الوجود لذاته وأيضا فبتقدير ثبوت الولد فقد جعلوا أشرف القسمين لانفسهم وأخس القسمين لله تعالى وهذا جهل عظيم وأيضا جعلوا الملائكة الذين هم من أشرف خلق الله الذين منهم من يقدر على حمل الارض وقلب اسفلها على أعلاها اناثا فى غاية الرخاوة * ولما كان فى هذا من البيان ما لا يخفى على انسان ولم يرجعوا اشار الى أن لهم مثل هذا الاعراض عن امثال هذا البيان فقال تعالى (ولقد صرفنا) أى بينا بيانا عظيما بانواع طرق البيان من العبر والحكم والامثال والاحكام والحجج والاعلام فى قوالب الوعد والوعيد والامر والنهى والمحكم والمتشابه الى غير ذلك (فى هذا القرآن) أى فى مواضع منه من الامثال كما قال تعالى ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل قيل لفظة فى زائدة كما فى قوله تعالى وأصلح لى فى ذريتى ورد بان فى لا تزاد وما ذكر متأول كما يأتى ان شاء الله تعالى فى الاحقاف والتصريف لغة صرف الشئ من

ما يوجب انقباض المنعم عن اقامة الحروف قد يكون قراءتهم كلا قراءة وامر اصحاب اليمين على العكس واما قوله تعالى ولا يظلمون فتيلا فمعناه الى كل الناس لا الى اصحاب

جهة الى أخرى ثم صار كناية عن التبيين قاله أبو حيان وقوله تعالى (ليذكروا) متعلق بصرفنا وقرأ حمزة والكسائي بسكون الذال ورفع الكاف من غير تشديد من الذكر الذي هو بمعنى التذكر والباقون بفتح الذال والكاف مع تشديدهما (وما يزيدهم) أي التصريف (الا نفورا) أي تباعدا عن الحق وقلة طمأنينة اليه وعن سفيان كان اذا قرأها قال زادني ذلك لك خضوعا ما زاد أعداءك نفورا * ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أي لهؤلاء المشركين ولا تيأس من رجوع بعضهم (لو كان معه آلهة كما تقولون) من هذه الاقوال التي لو قالها أعظمكم في حق أدناكم وهو يريد بها حقيقتها لصار ضحكة للعباد (اذا لابتغوا) أي طلبوا طلبا عظيما (الى ذي العرش) أي صاحب السرير الاعظم المحيط الذي من ناله كان منفردا بالتدبير (سبيلا) أي طريقا سالكا يوصلون به اليه ليقهروه ويزيلوا ملكه كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم مع بعض أو ليتخذوا عنده يدا تقربهم اليه وقرأ ابن كثير وحفص بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب وادغم ابو عمرو الشين من العرش في السين بخلاف عنه ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه فقال عز من قائل (سبحانه) اى تنزه التنزه الاعظم عن كل شائبة نقص (وتعالى) اى علا اعلى العلو بصفات الكمال (عما يقولون) اى من هذه النقائص التي لا يرضاها لنفسه احد من عقلاء خلقه (علوا) اى تعاليا (كبيرا) اى متباعدا غاية البعد عما يقولون فانه تعالى في اعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجوب والبقاء لذاته *(تنبيه)* جعل العلو مصدر التعالي ومصدره تعاليا كما قدرته فهو المراد ونظيره قوله تعالى والله انبتكم من الارض نباتا (فان قيل) ما الفائدة في وصف ذلك العلو بالكبير (اجيب) بان المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثبوت الصاحبة والولد والشركاء والاضداد والانداد منافاة بلغت في القوة والكمال الى حيث لا تعقل الزيادة عليها لان المنافاة بين الواجب لذاته وبين الممكن لذاته وبين القديم والمحدث وبين الغني والمحتاج منافاة لا تعقل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ثم استأنف تعالى بيان عظمة هذا التنزيه مقرونا بالوصف بالكمال فقال (تسبح) اى توقع التنزيه الاعظم (له) اى الاله الاعظم الذي تقدم وصفه بالجلال والاكرام خاصة (السموات السبع والارض) اى السبع (ومن فيهن) اى من ذوى العقول (وان) اى وما واغرق في النفي فقال (من شئ) اى ذى عقل او غيره (الا يسبح بحمده) اى يقول سبحان الله العظيم وبحمده او يقول سبحان الله وبحمده وقال ابن عباس وان من شئ حي الا يسبح بحمده وقال قتادة يعني الحيوانات والناميات وقال عكرمة الشجرة تسبح والاسطوانة تسبح وعن المقداد بن عدي التراب يسبح ما لم يبتل فاذا ابتل ترك التسبيح والورقة تسبح ما دامت على الشجرة فاذا سقطت تركت التسبيح والماء يسبح ما دام جاريا فاذا ركد ترك التسبيح والثوب يسبح ما دام جديدا فاذا وسخ ترك التسبيح وقال السيوطي في جواب سؤال عن ذلك

قد خصصت آية الاسرى بمتصف * وصف الحياة كرطب الزرع والشجر

فيابس نبات لا تسبيح منه كذا * ما زال عن موضع كالقطع للحجر

وقال

اليمين خاصة واما خصم ذلك لانهم يعلمون انهم لا يظلمون ويعتقدون ذلك بخلاف اصحاب الشمال فانهم يعتقدون او يظنون انهم يظلمون (قوله وما منع الناس أن

وقال ابراهيم النخعي وان من شيء جماد وحي الا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف
وقال مجاهد كل الاشياء تسبح لله تعالى حيوانا كانت أو جمادا وتسبيحها سبحان الله وبحمده
يدل على ذلك ماروى عن ابن مسعود كنا نعد الآيات بركة وانتم تعدونها تخويفا كنا مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم في سفر فقل الماء فقال صلى الله عليه وسلم اطلبوا فضلة من ماء فجاؤا باناء فيه
ماء قليل فادخل يده صلى الله عليه وسلم في الاناء ثم قال حي على الطهور المبارك والبركة من الله
فلقد رأيت الماء ينبع من بين اصابعه صلى الله عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو
يؤكل وعن جابر بن سمرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان بمكة حجرا كان يسلم على ليالي
بعثت اني لاعرفه الآن وعن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم كان يخطب الى جذع فلما اتخذ له
المنبر تحول اليه فحن الجذع فاتاه فمسح يده عليه وفي رواية فنزل فاحتضنه وساره بشيء ففي هذه
الاحاديث دليل على ان الجمادية تكلم وانه يسبح وقال بعض اهل المعاني تسبيح السموات
والارض والجمادات والحيوانات سوى العقلاء بلسان الحال حيث تدل على الصانع وقدرته
ولطيف حكمته فكانها تنطق بذلك ويصير لها بمنزلة التسبيح قال البغوي والاول أصح
وهو المنقول عن السلف وقال ابن الخازن القول الاول أصح لما دلت عليه الاحاديث وانه
منقول عن السلف قال البغوي واعلم ان لله تعالى علما في الجمادات لايقف عليه غيره فينبغي
ان يوكل علمه اليه (ولكن لاتفقهون) أي لاتفهمون (تسبيحهم) أي لانه ليس بلغتكم (انه
كان حليما غفورا) *ولما ذكر سبحانه وتعالى اثبات الالهية اتبعه بذكر تقرير النبوة بقوله
تعالى (واذا قرأت القرآن) أي الذي لايدانيه واعظ ولايساويه مفهم وهو تبيان لكل شيء
(جعلنا) أي بما لنا من العظمة (بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) أي
يحجب قلوبهم عن فهم ماتقرؤه عليهم والانتفاع به قال قتادة هو الاكنة فالمستور بمعنى الساتر
كقوله تعالى كان وعده مأتيا مفعول بمعنى فاعل وقيل مستورا عن أعين الناس فلايرونه
وفسره بعضهم بالحجاب عن الاعين الظاهرة كما روى عن سعيد بن جبير أنه لما نزلت تبت يدا ابي
لهب جاءت امرأة ابي لهب ومعها حجر والنبي صلى الله عليه وسلم مع ابي بكر رضي الله عنه فلم
تره فقالت لابي بكر ابن صاحبك لقد بلغني انه هجاني فقال والله ماينطق بالشعر ولايقوله
فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لارضخ به رأسه فقال ابو بكر مارأتك
يارسول الله قال لالم يزل ملك بيني وبينها يسترني (وجعلنا) أي بما لنا من العظمة (على قلوبهم
أكنة) اي اغطية كراهة (أن يفقهوه) أي يفهموه أي يفهموا القرآن حق فهمه (وفي
آذانهم وقرا) اي شيئا ثقيلا يمنع سماعهم وعن اسماء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا
ومعه ابو بكر اذ اقبلت امرأة ابي لهب ومعها فهر تريد الرسول صلى الله عليه وسلم وهي تقول
مذمما ابينا ودينه قلينا وأمره عصينا فقال أبو بكر يارسول الله معها فهر اخشاها عليك
فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فجاءت ومارأت رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقالت اني رأيت قريشا قد علمت اني ابنة سيدها وان صاحبك هجاني فقال ابو بكر لا ورب
الكعبة ورب هذا البيت ماهجاك وروي ابن عباس ان أبا سفيان والنضر بن الحرث وابا
جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي صلى الله عليه وسلم ويسمعون حديثه فقال النضر يوما

(يؤمنوا اذ جاءهم الهدى) قال ذلك هنا وقاله في الكهف بزيادة ويستغفروا ربهم لان المعنى هنا مامنعهم من الايمان بجهل الا قولهم أبعث الله بشرا رسولا

ما أرى ما يقول محمد غير أنى أرى شفتيه يتحرك بشئ وقال أبو سفيان انى لأرى بعض ما يقوله الاحقا وقال أبو جهل هو مجنون وقال أبو لهب هو كاهن وقال حويطب بن عبد العزى هو شاعر فنزلت هذه الآية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد تلاوة القرآن قرأ قبلها ثلاث آيات وهى فى سورة الكهف انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وفى سورة النحل أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وفى حم الجاثية أفرأيت من اتخذ الهه هواه الى آخر الآية فكان الله تعالى يحجبه ببركة هذه الآيات عن عيون المشركين (واذا ذكرت ربك) أى المحسن اليك واليهم (فى القرآن وحده) أى مع الاعراض عن آلهتهم كأن قلت وأنت تتلو القرآن لا اله الا الله • (تنبيه) • فى نصب وحده وجهان أحدهما أنه منصوب على الحال وان كان معرفة لفظا لانه فى قوة النكرة اذ هو فى معنى منفردا والثانى أنه منصوب على الظرف (ولوا على أدبارهم نفورا) اى هربا من استماع التوحيد • (تنبيه) • فى نفورا وجهان أحدهما مصدر من غير اللفظ مؤكد لان التولى والنفور بمعنى والثانى أنه حال من فاعل ولوا وهو حينئذ جمع نافر كقاعد وقعود وشاهد وشهود والضمير فى ولوا يعود الى الكفار وقيل يعود الى الشياطين وان لم يجر لهم ذكر قال المفسرون ان القوم كانوا عند استماع القرآن على أقسام منهم من كان يلهو عند استماعه روى أنه عليه الصلاة والسلام كان كلما قرأ القرآن قام عن يمينه ويساره اخوان من ولد قصى يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار ومنهم من كان اذا سمع من القرآن ما ليس فيه ذكر الله تعالى بقوا واجمين لا يفهمون منه شيأ ومنهم من اذا سمع آيات فيها ذكر الله تعالى وذم المشركين ولوا نفورا وتركوا ذلك المجلس ولما كانوا ربما ادعوا السمع والفهم فشككوا بعض من لم يرسخ ايمانه أتبعه تعالى بقوله تعالى (نحن أعلم) اى من كل عالم (بما يستمعون) اى يبالغون فى الاصغاء والميل لقصد السمع (به) من الآذان والقلوب أو بسببه ولاجله من الهزء بك وبالقرآن (اذ يستمعون) اى يصغون بجهدهم (اليك) اى الى قراءتك (واذ) اى حين (هم) ذو (نجوى) اى يتناجون بان يرفع كل منهم بصره الى صاحبه بعد اعراضهم عن الاستماع ثم ذكر تعالى ظرف النجوى بقوله تعالى (اذ) وهو بدل من اذ قبله (يقول الظالمون) وقولهم (ان) اى ما (تتبعون الا رجلا مسحورا) اى مخدوعا مغلوبا على عقله روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عليا أن يتخذ طعاما ويدعو اليه أشراف قريش من المشركين ففعل ذلك ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم الى التوحيد وقال قولوا لا اله الا الله حتى تطيعكم العرب وتدين لكم العجم فابوا عليه ذلك وكانوا عند استماعهم من النبى صلى الله عليه وسلم القرآن والدعوى الى الله تعالى يقولون ان تتبعون الا رجلا مسحورا (فان قيل) انهم لم يتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يصح أن يقولوا ان تتبعون الا رجلا مسحورا (أجيب) بان معناه ان اتبعتموه فقد اتبعتم رجلا مسحورا وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان وعاصم وحمزة بكسر التنوين فى الوصل والباقون بالضم ثم قال تعالى (انظر كيف ضربوا) اى هؤلاء الضلال (لك الامثال) التى هى أبعد شئ من صفتك من قولهم كاهن وساحر وشاعر ومعلم ومجنون (فضلوا) عن الحق فى جميع ذلك (فلا) اى فتسبب عن ذلك أنهم لا (يستطيعون سبيلا) اى وصولا الى طريق الحق • ولما جرت

هلا بعث ملكا وجهلوا ان التجانس يورث التآنس والتغاير يورث التنافر

والمعنى فى الكهف ما منعهم عن الايمان والاستغفار الا ان تأتيهم نسخة الا ولعله زاد فيها

عادة القرآن باثبات التوحيد والنبوّة والمعاد وقدم الدلالة على الاولين وختم باثبات جهلهم
فى النبوّة مع ظهورها أتبع ذلك أمرا جليا فى ضلالهم عن السبيل فى أمر المعاد وقرره غاية
التقرير وحرره أتم تحرير قال تعالى معجبا منهم (وقالوا) اى المشركون المنكرون للتوحيد
والنبوّة والبعث مع اعترافهم بأنا ابتدأنا خلقهم وشاهدتهم فى كل وقت انا نحيي الارض
بعد موتها وقولهم (أئذا) استفهام انكارى كانهم على ثقة من عدم ما ينكرونه والعامل فى
اذا فعل من لفظ مبعوثون لا هو فان ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها فالمعنى أنبعث اذا (كنا) اى
بجملة أجسامنا كونا لازما (عظاما ورفاتا) اى حطاما مكسرا مفتتا أو غبارا وقال الفراء هو
التراب وهو قول مجاهد ويؤيده أنه قد يكرر فى القرآن ترابا وعظاما ويقال للتبن الرفات لانه
دقاق الزرع (أئنا لمبعوثون) حال كوننا مخلوقين (خلقا جديدا) * (تنبيه) * تقرير شبهة هؤلاء
الضلال هى أن الانسان جفت أعضاؤه وتناثرت وتفرقت فى جوانب العالم واختلطت تلك
الاجزاء بسائر أجزاء العالم فالاجزاء المائية مختلطة بمياه العالم والاجزاء الترابية مختلطة بالتراب
والاجزاء الهوائية مختلطة بالهواء فكيف يعقل اجتماعها باعيانها مرة أخرى وكيف يعقل
عود الحياة اليها باعيانها مرة أخرى هذا تقرير شبهتهم (أجيب) عنها بانها لا تتم الا بالقدح فى
كمال علم الله تعالى وفى كمال قدرته فانه تعالى قادر على كل الممكنات فهو قادر على اعادة التأليف
والتركيب والحياة والعقل الى تلك الاجزاء بأعيانها فمن سلم كمال علم الله تعالى وكمال قدرته زالت
عنه هذه الشبهة بالكلية * ولما كان كأنه قيل فماذا يقال لهم فى الجواب فقال (قل) لهم
يا أشرف الخلق لا تكونوا رفاتا بل (كونوا) أصلب من التراب (حجارة) أى هى فى غاية اليبس
(أو حديدا) أى زائدا على يبس الحجارة لشدة اتصال الاجزاء * (تنبيه) * ليس المراد به أمر
الزام بل المراد انكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله تعالى عن الاعادة وذلك كقول القائل أتطمع فى
وأنا فلان فيقول كن من شئت كن ابن الخليفة فسأطلب منك حقى (أو خلقا) غير ذلك (مما
يكبر) أى يعظم عظمة كبيرة (فى صدوركم) أى مما يكبر عندكم عن قبول الحياة لكونه أبعد
شئ منها فان الله تعالى قادر على اعادة الحياة اليها وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأكثر
المفسرين انه الموت فانه ليس فى نفس ابن آدم شئ أكبر من الموت أى لو كنتم الموت بعينه
لاميتنكم ولابعثنكم وقيل السموات والارض والجبال لانها من أعظم المخلوقات (فسيقولون)
تماديا فى الاستهزاء (من يعيدنا) اذا كنا كذلك (قل الذى فطركم) أى ابتدأ خلقكم (أول مرة)
ولم تكونوا شيأ يعيدكم بالقدرة التى ابتدأكم بها فكما لم تعجز تلك القدرة عن البداءة فهى لا تعجز
عن الاعادة (فسينغضون) أى يحركون (اليك رؤسهم) تعجبا واستهزاء كانهم فى شدة جهلهم على
غاية البصيرة من العلم بما يقولون والنغض والانغاض تحريك بارتفاع وانخفاض (ويقولون)
استهزاء (متى هو) أى البعث والقيامة قال الرازى واعلم ان هذا السؤال فاسد لانهم حكموا
بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التى تقدمت ثم ان الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه ممكنا
فى نفسه فقولهم متى هو كلام لا تعلق له بالبحث فانه لما ثبت بالدليل العقلى كونه ممكن الوجود
فى نفسه وجب الاعتراف بامكانه فأما أنه متى يوجد فذلك لا يمكن اثباته من طريق العقل بل
انما يمكن اثباته بالدليل السمعى فان أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف والا فلا سبيل الى

ويستغفروا ربهم لاتصاله بقوله سنة الاولين وهم قوم نوح وهود وصالح وشعيب حيث امروا بالاستغفار فنوح قال استغفروا ربكم انه كان غفارا وهود قال ياقوم استغفروا ربكم ثم

معرفته لانه تعالى بين فى القرآن أنه لا يطلع أحدا من الخلق على وقته المعين فقال تعالى ان الله عنده علم الساعة وقال انما علمها عند ربى وقال تعالى ان الساعة آتية أكاد أخفيها فلا جرم قال تعالى (قل عسى أن يكون قريبا) قال المفسرون عسى من الله واجب ومعناه أنه قريب اذ كل آت قريب وأمال معنى وعسى حمزة والكسائى امالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقوله تعالى (يوم يدعوكم) بدل من قريبا والمعنى عسى أن يكون البعث يوم يدعوكم أى بالنداء الذى يسمعكم وهو النفخة الاخيرة كما قال تعالى يوم ينادى المناد من مكان قريب روى أن اسرافيل ينادى أيها الاجسام البالية والعظام النخرة والاجزاء المتفرقة عودى كما كنت (فتستجيبون) أى تجيبون والاستجابة موافقة الداعى فيما دعا اليه وهى الاجابة الا أن الاستجابة تقتضى طلب الموافقة فهى آكد من الاجابة واختلف فى معنى قوله تعالى (بحمده) فقال ابن عباس بأمره وقال سعيد بن جبير يخرجون من قبورهم وينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون سبحانك اللهم وبحمدك فيحمدونه حين لا ينفعهم الحمد وقال قتادة بمعرفته وطاعته وقال أهل المعانى تستجيبون بحمده اى تستجيبون حامدين كما تقول جاء بغضبه اى جاء غضبان وركب الامير بسيفه اى وسيفه معه وقال الزمخشرى بحمده حال منهم اى حامدين وهى مبالغة فى انقيادهم للبعث كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيأبى ويمتنع ستركبه وأنت حامد شاكر يعنى أنك تحمل عليه وتقسر عليه قسرا حتى انك تلين لين المسمح الراغب فيه الحامد عليه (وتظنون ان) اى ما (لبثتم الا قليلا) اى مع استجابتكم وطول لبثكم ولشدة ما ترون من الهول فعندها تستقصرون مدة لبثكم فى الدنيا وتحسبونها يوما أو بعض يوم وعن قتادة تحاقرت الدنيا فى أنفسهم حين عاينوا الآخرة وقال الحسن معناه تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا ولم تكن وبالآخرة ولم تزل فهذا يرجع الى استقلال مدة اللبث فى الدنيا وقيل المراد استقلال مدة لبثهم فى برزخ القيامة لانه لما كان عاقبة أمرهم الدخول فى النار استقصروا لبثهم فى برزخ القيامة وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة عند التاء المثناة والباقون بالادغام ولما ذكر تعالى الحجة اليقينية فى صحة المعاد وهو قوله تعالى قل الذى فطركم أول مرة قال تعالى (وقل) يا محمد (لعبادى) اى المؤمنين لان لفظ العباد فى أكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين قال تعالى فبشر عبادى الذين يستمعون القول وقال تعالى فادخلى فى عبادى وقال تعالى عينا يشرب بها عباد الله (يقولوا) للكفار الذين كانوا يؤذونهم الكلمة (التى هى أحسن) ولا يكافؤهم على سفههم بل يقولون يهديكم الله وكان هذا قبل الاذن بالقتال وقيل نزلت فى عمر بن الخطاب شتمه بعض الكفار فأمره الله تعالى بالعفو وقيل أمر المؤمنين بأن يقولوا ويفعلوا الخلة التى هى أحسن وقيل الاحسن قول لا اله الا الله ثم علل تعالى بقوله تعالى (ان الشيطان) اى البعيد عن الرحمة المحترق باللعنة (ينزغ بينهم) اى يفسد ويغرى بعضهم على بعض ويوسوس لهم لتقع بينهم المشارة والمشاقة وأصل النزغ الطعن وهم غير معصومين فيوشك ان يأتوا بما لا يناسب الحال ثم علل تعالى هذه العلة بقوله تعالى (ان الشيطان كان) اى فى قديم الزمان وأصل الطبع كونا هو مجبول عليه (للانسان عدوا) اى بليغ العداوة (مبينا) اى بين العداوة ثم فسرت لى التى هى أحسن بما علمهم ربهم

توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا وصالح قال فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب وشعيب قال واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود (قوله قل كفى بالله

من النصفة بقوله تعالى (ربكم أعلم بكم) فعلم أن قوله تعالى ان الشيطان الى آخر جملة اعتراضية بين المفسر والمفسر وسكن أبو عمرو الميم واخفاها عند الباء بخلاف عنه وكذا أعلم بمن ثم استأنف تعالى (ان يشأ) اى رحمتكم (يرحمكم) اى بهدايتكم (أو ان يشأ) تعذيبكم (يعذبكم) اى باضلالكم فلا تحتقروا أيها المؤمنون المشركين فتقطعوا بأنهم من أهل النار فتعيروهم بذلك فانه يجر الى غيظ القلوب فلا فائدة لان الخاتمة مجهولة ولا تجاوزوا فيهم ما أمركم الله به من قول وفعل * ثم رقى الله الخطاب الى أعلى الخلق ورأس أهل الشرع ليكون من دونه أولى بالمعنى منه فقال تعالى (وما أرسلناك) اى مع مالنا من العظمة الغنية عن كل شئ (عليهم وكيلا) اى حفيظا وكفيلا تقسرهم على ما يرضى الله وانما أرسلناك على حسب ما نأمرك به بشيرا ونذيرا فدارهم ومر أصحابك بمداراتهم وقد مر أن هذا قبل الاذن بالقتال * ولما أمرهم بأن ينسبوا الاعلمية بهم اليه تعالى أخبر بما هو أعم من ذلك قاصرا الخطاب على أعلم خلقه بقوله تعالى (وربك) أى المحسن اليك بأن جعلك أكمل الخلق (أعلم بمن في السموات والارض) فعلمه غير مقصور عليكم بل متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذات الارضين والسموات فيعلم تعالى حال كل أحد ويعلم ما يليق به من المفاسد والمصالح ويعلم اختلاف صورهم وأديانهم وأخلاقهم وأحوالهم وجميع ما هم عليه سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية فيفضل بعض الناس على بعض على حسب احاطة علمه وشمول قدرته وبعض النبيين على بعض كما قال تعالى (ولقد فضلنا) بما لنا من العظمة (بعض النبيين) سواء كانوا رسلا أم لا (على بعض) بعد أن جعلنا الكل فضلاء لتقوى كل منهم واحسانه فخصصنا كلا منهم بفضيلة كموسى بالكلام وابراهيم بالخلة ومحمد صلى الله عليه وسلم بالاسراء فلا ينكر أحد من العرب أو بني اسرائيل أو غيرهم تفضيلنا لهذا النبي الكريم الذى صدرنا السورة بتفضيله على جميع الخلائق فاذا نفعل ما نشاء بما لنا من القدرة التامة والعلم الشامل وقرأ نافع بالهمزة والباقون بالياء وورش على أصله يمد على الهمزة ويوسط ويقصر (وآتينا) موسى التوراة و(داود زبورا) وعيسى الانجيل فلم يبعد أيضا أن نؤتى محمدا صلى الله عليه وسلم القرآن ولم يبعد أن نفضله على جميع الخلق (فان قيل) ما السبب في تخصيص داود عليه السلام بالذكر هنا (أجيب) بأوجه الاول انه تعالى ذكر انه فضل بعض النبيين على بعض ثم قال وآتينا داود زبورا يعني ان داود أوتي ملكا عظيما ثم انه تعالى لم يذكر ما آتاه من الملك وذكر ما آتاه من الكتاب تنبيها على أن الفضل الذى ذكره قبل ذلك المراد منه التفضيل بالعلم والدين لا بالمال الثاني انه تعالى كتب في الزبور أن محمدا خاتم الانبياء وأن أمة محمد خير الامم قال تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته (فان قيل) هلا عرفه كقوله ولقد كتبنا في الزبور (أجيب) بأن التنكير هنا يدل على تعظيم حاله لان الزبور عبارة عن المزبور فكان معناه الكتاب وكان معنى التنكير انه كامل في كونه كتابا ويجوز أن يكون زبورا علما فاذا دخلت عليه أل كقوله تعالى ولقد كتبنا في الزبور كانت للمح الاصل كعباس والعباس وفضل والفضل الثالث ان كفار قريش ما كانوا أهل نظر وجدل بل كانوا يرجعون الى اليهود في استخراج الشبهات واليهود كانوا يقولون انه لا نبي بعد

(شهيدا بيني وبينكم) قال ذلك هنا بتقديم شهيدا على بيني وبينكم وقاله في العنكبوت بالعكس لان ما هنا جاء على الاصل من تقديم المفعول وما في العنكبوت جاء على خلاف

موسى ولا كتاب بعد التوراة فنقض الله عليهم كلامهم بانزال الزبور على داود وروى البخاري في التفسير عن ابي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه لتسرج فكان يقرأ قبل ان يفرغ اي القرآن قال البقاعي ومن اعظم المناسبات لتخصيص داود عليه السلام وزبوره بالذكر هنا ذكر البعث الذي هذا مقامه فيه صريحا وكذا ذكر النار مع خلو التوراة عن ذلك اما البعث فلا ذكر له فيها أصلا وأما النار فلم يذكر شيء يدل عليها الا الجحيم في موضع واحد وأما الزبور فذكر فيه النار والهاوية والجحيم في غير موضع انتهى وقرأ حمزة بضم الزاي والباقون بالفتح واختلف في سبب نزول قوله تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم) أنهم آلهة (من دونه) اي من سواه كالملائكة وعزير والمسيح وقرأنا فع وابن كثير وابو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائي بضم اللام من قل وكسرها عاصم وحمزة كل هذا في حال الوصل وأما الابتداء فالجميع ابتدؤا بهمزة مضمومة (فلا يملكون كشف الضر) اي البؤس الذي من شأنه أن يمرض الجسم كله (عنكم) حتى لا يدعو اشيأ منه (ولا تحويلا) له الى غيركم فقال ابن عباس انها نزلت في الذين عبدوا المسيح وعزيرا والملائكة والشمس والقمر والنجوم وقيل ان قوما عبدوا نفرا من الجن فاسلم النفر من الجن وبقي أولئك القوم متمسكين بعبادتهم فنزلت فيهم هذه الآية وقيل ان المشركين اصابهم قحط شديد حتى اكلوا الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم فنزل قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه وليس المراد الاصنام لانه تعالى قال في وصفهم (أولئك الذين يدعون) اي يدعونهم الكفار ويتألهونهم (يبتغون) اي يطلبون طلبا عظيما (الى ربهم) اي المحسن اليهم (الوسيلة) اي المنزلة والدرجة والقربة لاعمالهم الصالحة وابتغاء الوسيلة الى الله تعالى لا يليق بالاصنام البتة وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائي بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم *(تنبيه)* أولئك مبتدأ وخبره يبتغون ويكون الموصول نعتا أو بيانا أو بدلا والمراد باسم الاشارة الانبياء أو الملائكة الذين عبدوا من دون الله والمراد بالواو العباد لهم ويكون العائد على الذين محذوفا والمعنى أولئك الانبياء الذين يدعونهم المشركون لكشف ضرهم يبتغون الى ربهم الوسيلة (أيهم أقرب) اي يتسابقون بالاعمال مسابقة من يطلب كل منهم أن يكون اليه أقرب ولديه أفضل (ويرجون رحمته) رغبة فيما عنده (ويخافون عذابه) فهم كغيرهم موصوفون بالعجز والحاجة فكيف يدعونهم آلهة وقيل معناه ان الكفار ينظرون أيهم أقرب الى الله تعالى فيتوسلون به ثم علل خوفهم بامر عام بقوله تعالى (ان عذاب ربك) أي المحسن اليك برفع انتقام الاستئصال منه عن أمتك (كان) أي كونا لازما (محذورا) جديرا بان يحذر لكل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلا عن غيرهم لما شوهد من اهلاكه للقرون الماضية ولما قال تعالى ان عذاب ربك كان محذورا بين بقوله تعالى (وان) أي وما (من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا) أي كل قرية أي أهلها لابد وان يرجع حالهم الى أحد أمرين اما الاهلاك بالموت والاستئصال واما العذاب بالقتل وأنواع البلاء وقال مقاتل أما الصالحة فبالموت وأما الطالحة فبالعذاب وقال عبد الله بن مسعود اذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن

الله

الاصل ايتصل وصفت
انتم يدبه وهو قوله تعالى يعلم
ما في السموات والارض (قوله
أولم يروا أن الله الذي خلق
السموات والارض قادر)
وفي الاحقاف بلفظ بقادر
وفي يس أوليس الذي خلق

الله تعالى في هلاكها (كان ذلك) أي الامر العظيم (في الكتاب) أي اللوح المحفوظ
(مسطورا) أي مكتوبا قال عبادة بن الصامت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
ان أول ما خلق الله القلم فقال اكتب فقال وما أكتب قال القدر ما كان وما هو كائن الى أبد
الابد أخرجه الترمذي * ولما كان كفار قريش قد تكرر اقتراحهم للآيات وكان
صلى الله عليه وسلم اشد حرصه على ايمان كل أحد يحب أن الله تعالى يجيبهم الى مقترحهم
طمعا في ايمانهم فاجاب الله تعالى بقوله (وما منعنا) أي على ما لنا من العظمة التي لا يعجزها شئ
ولا يمنعها مانع (أن نرسل بالآيات) أي التي اقترحوها كما حكى الله تعالى عنهم ذلك في قولهم
فأتنا بآية كما أرسل الاولون وقال آخرون لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الآيات
وقال سعيد بن جبير انهم قالوا انك تزعم انه كان قبلك أنبياء منهم من سخرت له الريح ومنهم من
أحيا الموتى فأتنا بشئ من هذه المعجزات فكان كأنه لا آيات عندهم سوى ذلك (الا) علمنا في عالم
الشهادة بما وقع من (أن كذب بها) أي المقترحات (الاولون) وعلمنا في عالم الغيب ان هؤلاء
مثل الاولين ان الشقي منهم لا يؤمن بالمقترحات كما لم يؤمن بغيرها وانه يقول فيها ما قال في غيرها
من انها سحر ونحو ذلك والسعيد لا يحتاج في ايمانه اليها فكم أجبنا أمة الى مقترحها فما زاد
ذلك أهل الضلالة منهم الا كفرا فأخذناهم لان سنتنا جرت ان لا نمهل بعد الاجابة الى المقترحات
من كذب بها قال ابن عباس سأل اهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم ان يجعل لهم الصفا ذهبا
وان ينحي الجبال عنهم ليزرعوا تلك الاراضي فطلب صلى الله عليه وسلم ذلك من الله تعالى
فاوحى الله تعالى اليه ان شئت فعلت ذلك لكن بشرط ان لم يؤمنوا اهلكتهم فقال صلى الله
عليه وسلم لا اريد ذلك فتفضل الله تعالى برحمته هذه الامة وتشريفها على الامم السالفة بعدم
استئصالها لما يخرج من اصلاب كفرتها من خاص عباده فلهذا السبب ما اجابهم الله تعالى
الى مطلوبهم فقال جل ذكره بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وامر ثم ذكر تعالى من تلك
الآيات التي اقترحها الاولون ثم كذبوا بها لما ارسلت اليهم فاهلكوا ما ذكره تعالى بقوله تعالى
(وآتينا ثمود الناقة) حالة كونها (مبصرة) اى مضيئة بينة جديرة بان يستبصر بها كل من
شاهدها فيستدل بها على صدق قول ذلك النبي (فظلموا بها) أي ظلموا أنفسهم بتكذيبها وقال
ابن قتيبة جحدوا بانها من الله تعالى فاهلكناهم فكيف بتمناها هؤلاء على سبيل الاقتراح
والتحكم على الله تعالى وخص تعالى هذه الآية بالذكر لان آثار اهلاكهم في بلاد العرب
قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم ثم قال تعالى (وما نرسل بالآيات) أي
المقترحات وغيرها (الا تخويفا) للمرسل اليهم بها فان خافوا نجوا والا اهلكوا بعذاب
الاستئصال من كذب بالآيات المقترحات وبعذاب الآخرة من كذب بغيرها كالمعجزات وآيات
القرآن فامر من بعث اليهم مؤخر الى يوم القيامة (فان قيل) المقصود الاعظم من اظهار
الآيات أن يستدل بها على صدق المدعي فكيف حصر المقصود من اظهارها في التخويف
(أجيب) بانه لما كان هو الحامل والغالب على التصديق فكأنه هو المقصود ولما طلب القوم
من النبي صلى الله عليه وسلم تلك الآيات المقترحات وأجاب الله تعالى بان اظهارها ليس
بمصلحة صار ذلك سببا لجراءة أولئك الكفار بالطعن فيه وان يقولوا له لو كنت رسولا حقا من

السموات والارض بقادر
لان ما هنا خبر أن وما في
يس خبر ليس وخبرها
تدخله الباء وما في الاحقاف
خبر ان وكان القياس عدم
دخول الباء فيه لكنها
دخلته تشبيها للم بليس في

عند الله لا تيت بهذه المعجزات التي اقترحناها كما أتى بها موسى وغيره من الانبياء فعند هذا قوى
الله تعالى قلبه وبين له انه ينصره ويؤيده فقال تعالى (و) اذكر يا أشرف الخلق (اذ قلنا لك
ان ربك) أي المتفضل بالاحسان اليك بالرفق لامتك (أحاط بالناس) علما وقدرة فهم في قبضته
وقدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته فلا يقدرون على أمر من الامور الا بقضائه
وقدره وهو حافظك ومانعك منهم فلا تهتم باقتراحهم وامض فيما أمرك به من تبليغ الرسالة
فهو ينصرك ويقويك على ذلك كما وعدك بقوله تعالى والله يعصمك من الناس وقيل ان المراد
بالناس أهل مكة بمعنى أنه يغلبهم ويقهرهم روى أنه لما تزاحف الفريقان يوم بدر ورسول الله
صلى الله عليه وسلم في العريش مع أبي بكر رضي الله عنه كان يدعو ويقول اللهم انى أسألك
عهدك ووعدك ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر
وكان صلى الله عليه وسلم يقول حين وردبدرا والله كأني أنظر الى مصارع القوم وهو يومئ
الى الارض ويقول هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان فتسامعت قريش بما أوحى الى النبي
صلى الله عليه وسلم ثم عطف تعالى على وما نرسل بالآيات قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التي
أريناك) أي التي شاهدتها ليلة الاسراء (الافتنة) أي امتحانا واختبارا (للناس) لانه صلى الله
عليه وسلم لما ذكر لهم قصة الاسراء كذبوه وكفر به كثير ممن كان قد آمن به وازداد المخلصون
ايمانا فلهذا السبب كانت امتحانا وروى البخاري في التفسير عن ابن عباس انه قال هي رؤيا
عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به وتقدم أنه قول الاكثر فنهم سعيد بن
جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وما قاله بعضهم من ان الرؤيا تدل
على انها رؤيا منام ضعيف اذ لا فرق بين الرؤية والرؤيا في اللغة يقال رأيته بعيني رؤية ورؤيا
(فائدة) قال بعض العلماء كانت اسراآته صلى الله عليه وسلم أربعا وثلاثين مرة واحدة
بجسده والباقي بروحه رؤيا رآها قال ومما يدل على أن الاسراء ليلة فرض الصلاة كانت
بالجسم ما ورد في بعض طرق الحديث أنه صلى الله عليه وسلم استوحش لما زج به في
النور ولم يرمعه أحد اذ الارواح لا توصف بالوحشة ولا بالاستيحاش قال ومما يدلك على أن
الاسراء كان بجسمه ما وقع له من العطش فان الارواح المجردة لا تعطش ولما كان قد أخبر
صلى الله عليه وسلم ان شجرة الزقوم تنبت في أصل الجحيم وكان ذلك في غاية الغرابة ضمها
الى الاسراء في ذلك بقوله تعالى (والشجرة الملعونة في القرآن) لان فيها امتحانا أيضا بل قال
بعض المفسرين هي على التقديم والتأخير والتقدير وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة
الملعونة في القرآن الافتنة للناس واختلف في هذه الشجرة فالاكثرون قالوا انها شجرة الزقوم
المذكورة في قوله تعالى ان شجرة الزقوم طعام الاثيم فكانت الفتنة في ذكر هذه الشجرة
من وجهين الاول أن أبا جهل قال زعم صاحبكم ان نار جهنم تحرق الحجارة حيث قال وقودها
النار والحجارة ثم يقول في النار شجرة والنار تأكل الشجر فكيف تولد فيها الشجر والثاني قال
ابن الزبعرى ما نعلم الزقوم الا التمر والزبد فتزقموا منه فانزل الله تعالى حين عجبوا أن يكون
في النار شجر انا جعلناها فتنة للظالمين الآيات وما قدروا الله حق قدره من قال ذلك فان الله
تعالى قادر على أن يجعل الشجر من جنس لا تأكله النار فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد

(قوله لقد علمت
النبي (قوله لقد علمت ما انزل هؤلاء الارب السموات والارض بصائر) *ان قلت كيف قال موسى عليه السلام لفرعون ذلك مع ان فرعون لم يعلم ذلك لانه لو علم ذلك لم يقل

الترك يتخذ منه مناديل اذا اتسخت طرحت فى النار فيذهب الوسخ وبقيت سالمة لاتعمل فيها النار وترى النعامة تبلع الجمر وتبلع الحديد المحمر باحماء النار فلا يضرها ثم أقرب من ذلك انه تعالى جعل فى الشجر نارا فلا تحرقه قال تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا (فان قيل) ليس فى القرآن لعن هذه الشجرة (أجيب) عن ذلك بوجوه الاول المراد لعن الكفار الذين يا كلونها لان الشجرة لاذنب لها حتى تلعن على الحقيقة وانما وصفت بلعن أصحابها على المجاز الثانى ان العرب تقول لكل طعام ضار انه ملعون الثالث ان اللعن فى اللغة الابعاد ولما كانت هذه الشجرة مبعدة عن صفات الخير سميت ملعونة وقيل ان الشجرة الملعونة فى القرآن هى اليهود لقوله تعالى لعن الذين كفروا الآية وقيل هى الشيطان وقيل أبو جهل وعن ابن عباس هى الكشوث التى تتلوى بالشجر تجعل فى الشراب ولما ذكر سبحانه وتعالى أنه يرسل بالآيات تخويفا قال هنا أيضا (ونخوفهم فما يزيدهم) اى الكافرين والتخويف بالقرآن (الاطغيانا كبيرا) اى تجاوزا للحد هو فى غاية العظم فبتقدير أن يظهر الله تعالى لهم المعجزات التى اقترحوها لم يزدادوا بها الاتماديا فى الجهل والعناد فاقتضت الحكمة أن لايظهر الله لهم مااقترحوه من الآيات والمعجزات فانهم قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر وخوفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم فكيف يخاف قوم هذه حالهم بارسال مايقترحون من الآيات * ولما نازع القوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لامرين الكبر والحسد أما الكبر فلان تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد وأما الحسد فلانهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة فبين تعالى ان هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا ابليس على الخروج عن الايمان والدخول فى الكفر بقوله تعالى (واذ) اى واذكر اذ (قلنا) بما لنا من العظمة التى لاينقض مرادها (للملائكة) حين خلقنا أباك آدم وفضلناه (اسجدوا لآدم) اى امتثالا لامرى (فسجدوا الا ابليس) اى ابى أن يسجد لكونه ممن حقت عليه الكلمة ولم ينفعه مايعلمه من قدرة الله وعظمته وذلك معنى قوله تعالى (قال) اى منكرا متكبرا (أأسجد) اى خضوعا (لمن خلقت) حال كون اصله (طينا) فكفر بنسبته لنا الى الجور متخيلا انه أفضل من آدم عليه السلام من حيث ان الفروع ترجع الى الاصول وان النار التى هى أصله أكرم من الطين الذى هو أصل آدم وذهب عنه ان الطين أنفع من النار وعلى تقدير التنزل فالجواهر كلها من جنس واحد والله تعالى هو الذى أوجدها من العدم يفضل بعضها على بعض بما يحدث فيها من الاعراض وقد ذكر الله تعالى هذه القصة فى سبع سور وهى البقرة والاعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص والكلام المستقصى فيها قد تقدم فى البقرة ولعل هذه القصة انما كررت تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فانه كان فى محنة عظيمة من قومه وأهل زمانه فكأنه تعالى يقول ألا ترى ان أول الانبياء هو آدم عليه السلام ثم انه كان فى محنة شديدة من ابليس وان الكبر والحسد كل منهما بلية عظيمة ومحنة عظيمة للخلق وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية وأدخل قالون وأبو عمرو بينهما ألفا ولم يدخل ورش وابن كثير بينهما ألفا ولورش أيضا ابدال الثانية ألفا واذا وقف حمزة سهل الثانية كقراءة ابن كثير وقرأ هشام بالتحقيق فى الثانية والتسهيل وادخال ألف بينهما وقرأ الباقون

لموسى عليه السلام
مسحورا بل كان يؤمن به
(قلت) معناه لقد علمت
لو نظرت نظرا صحيحا ولكنك
معاند مكابر تخشى فوات
دعوى الالهية لو صدقتنى
(قوله وانى لاظنك يافرعون

بتحقيقهما بلا ادخال ولما أخبر تعالى بتكبره كان كأنه قيل ان هذه الوقاحة عظيمة واجتراء على الجناب الاعلى فهل كان منه غير ذلك قيل (قال أرأيتك) أي أخبرني وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء ولورش وجه ثان وهو ان يبدلها ألفا وأسقطها الكسائي والباقون بالتحقيق (هذا الذي كرمت علي) لم كرمته علي مع ضعفه وقوتي فكأنه قيل لقد أتى بالغاية في اساءة الادب فما كان بعد هذا فقيل قال مقسما لاجل استبعاد ان يجترئ أحد هذه الجراءة على الملأ الاعلى (لئن أخرتن) أي أيها الملأ الاعلى تأخيرا ممتدا (الى يوم القيامة) حياء متمكنا وجواب القسم الموطأ باللام (لأحتنكن) أي بالاغواء (ذريته) أي لاستولين عليهم استيلاء من جعل في حنك الدابة الاسفل حبلا يقودها به فلا تأبى عليه وقرأ نافع وأبو عمرو بزيادة ياء بعد النون في أخرتني عند الوصل وحذفها في الوقف وأثبتها ابن كثير وصلا ووقفا وحذفها الباقون وقفا ووصلا اتباعا للرسم ولما علم أنه لا يقدر على الجميع قال (الا قليلا) وهم أولياؤك الذين حفظتهم مني كما قال تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان (فان قيل) كيف ظن ابليس هذا الظن الصادق بذرية آدم (أجيب) بأوجه الاول انه سمع الملائكة يقولون أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فعرف هذه الاحوال الثاني انه وسوس الى آدم ولم يجد له عزما فقال الظاهر ان أولاده يكونون مثله في ضعف العزم الثالث انه عرف انه مركب من قوة بهيمية شهوية وقوة وهمية شيطانية وقوة عقلية ملكية وقوة سبعية غضبية وعرف ان بعض تلك القوى تكون هي المستولية في بعض أول الخلقة ثم ان القوة العقلية انما تكمل في آخر الامر ومن كان كذلك كان ماذكره ابليس لازما له ثم كأنه قيل لقد أطال عدو الله الاجتراء فما قال له ربه بعد ذلك فقيل (قال) عدالة (اذهب) أي امض لما قصدته وهو طرد وتخلية بينه وبين ما سولت له نفسه وتقدم في الحجر انه انما يؤخر الى يوم الوقت المعلوم وهو يوم ينفخ في الصور لا انه يؤخر الى يوم القيامة كما طلب وقرأ أبو عمرو وخلاد والكسائي بادغام الباء الموحدة في الفاء وأظهرها الباقون ولما حكم تعالى بشقاوته وشقاوة من أراد طاعته له تسبب عنه قوله تعالى (فمن تبعك منهم) أي أولاد آدم عليه السلام (فان جهنم) أي الطبقة النارية التي تتجهم داخلها (جزاؤكم) أي جزاؤك وجزاء اتباعك تجزون ذلك (جزاء موفورا) أي مكملا وافيا بما تستحقون على أعمالكم الخبيثة ولما طلب ابليس الامن من الله تعالى الامهال الى يوم القيامة لاجل ان يحتنك ذرية آدم ذكر الله تعالى له أشياء الاول اذهب أي امض كما مر فاني أمهلتك هذه المدة وليس من الذهاب الذي هو ضد المجيء الثاني قوله تعالى (واستفزز) أي استخف (من استطعت منهم) أن تستفزه وهم الذين سلطناك عليهم (بصوتك) قال ابن عباس معناه بدعائك الى معصية الله وكل داع الى معصية الله تعالى فهو من جند ابليس وقيل أراد بصوتك الغناء واللهو واللعب الثالث قوله تعالى (واجلب) أي صح (عليهم) من الجلبة وهي الصياح (بخيلك ورجلك) واختلفوا في الخيل والرجل على أقوال الاول روى أبو الضحى عن ابن عباس انه قال كل راكب وراجل في معصية الله تعالى وعلى هذا فخيله ورجله كل من شاركه في الدعاء الى المعصية الثاني يحتمل ان يكون لابليس جيش من الشياطين بعضهم راكب وبعضهم راجل الثالث ان المراد منه ضرب المثل

(مثبورا) أي هالكا أو ملعونا أو خاسرا (ان قلت) كيف قال له لأظنك مثبورا مع انه يعلم انه مثبور (قلت) الظن هنا بمعنى العلم كما في قوله تعالى الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم

كناية الرجل الجد في الامر جدا بالخيل والرجل قال الرازي وهذا أقرب وقال الزمخشري هو كلام ورد مورد التمثيل مثل في تسلطه على من يغويه بمغوار وقع على قوم فصوت بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم ويقلقلهم عن مراكزهم وأجلب عليهم بجند من خيالة ورجالة حتى استأصلهم والخيل تقع على الفرسان قال صلى الله عليه وسلم يا خيل الله اركبي وقد تقع على الافراس خاصة وقرأ حفص عن عاصم بكسر الجيم وسكنها الباقون جمع راجل كصاحب وصحب وراكب وركب ورجل بالكسر والضم لغتان مثل حدث وحدث وهو مفرد اريد به الجمع الرابع قوله تعالى (وشاركهم في الاموال والاولاد) أما المشاركة في الاموال فقال مجاهد هو كل ما اصيب من حرام او انفق في حرام وقال قتادة هو جعلهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وقال الضحاك هو ما يذبحونه لآلهتهم وقال عكرمة هو تبتيكهم آذان الانعام وقيل هو جعلهم من أموالهم شيأ لغير الله كقولهم هذا لله وهذا لشركائنا ولا منافاة بين جميع هذه الاقوال وأما المشاركة في الاولاد فقال عطاء عن ابن عباس هو تسمية الاولاد بعبد شمس وعبد العزى وعبد الحرث وعبد الدار ونحوها وقال الحسن هو انهم هودوا اولادهم ونصروهم ومجسوهم وروى عن جعفر بن محمد ان الشيطان يقعد على ذكر الرجل فاذا لم يقل بسم الله أصاب معه امرأته وأنزل في فرجها كما ينزل الرجل ويقال في جميع هذه الاقوال أيضا ما تقدم وروى ان رجلا قال لابن عباس ان امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة نار قال ذلك من وطء الجن وفي الآثار ان ابليس لما خرج الى الارض قال يارب أخرجتني من الجنة لاجل آدم فسلطني عليه وعلى ذريته قال أنت مسلط قال لا استطيعه الا بك فزدني قال استفزز من استطعت منهم بصوتك قال آدم يارب سلطت ابليس علي وعلى ذريتي واني لا أستطيعه الا بك قال لا يولد لك ولد الا وكلت به من يحفظونه قال زدني قال الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها قال زدني قال التوبة مفروضة ما دام الروح في الجسد فقال زدني فقال يا عبادي الذين أسرفوا الآية وفي الطبراني ابليس قال يارب بعثت أنبياء وأنزلت كتبا فما قرآني قال الشعر قال فما كتابي قال الوشم قال ومن رسولي قال الكهنة قال فما طعامي قال ما لم يذكر عليه اسمي قال فما شرابي قال كل مسكر قال وأين مسكني قال الحمامات قال وأين مجلسي قال الاسواق قال وما صوتي قال المزمار قال وما مصايدي قال النساء الخامس قوله تعالى (وعدهم) أي من المواعيد الباطلة ما يستخفهم ويغرهم من ذلك وعدهم بان لا جنة ولا نار ومن ذلك شفاعة الآلهة والكرامة على الله تعالى بالانساب الشريفة وتسويف التوبة وايثار العاجل على الآجل ونحو ذلك وقوله تعالى (وما يعدهم الشيطان) من باب الالتفات واقامة الظاهر مقام الضمير ولو جرى على سنن الكلام الاول لقال وما تعدهم بالتاء من فوق وقوله تعالى (الا غرورا) فيه أوجه أحدها انه نعت مصدر محذوف وهو نفسه مصدر والاصل الا وعدا غرورا الثاني انه مفعول من أجله اي ما يعدهم من الاماني الكاذبة الا لاجل الغرور الثالث انه مفعول به على الاتساع أي ما يعدهم الا الغرور نفسه والغرور تزيين الباطل بما يظن انه حق (فان قيل) كيف ذكر الله تعالى هذه الاشياء لابليس وهو يقول ان الله لا يأمر بالفحشاء (اجيب) بان هذا على طريق التهديد كقوله تعالى اعملوا ما شئتم وكقول القائل اجهد

وانما عبر بالظن ليقابل قول فرعون له لاظنك مسحورا كانه قال ان ظننتني مسحورا فانا أظنك مثبورا (قوله يخرون للاذقان) كرره لان الاول وقع في حال

ماشئت فسوف ترى وكما يقال اجهد جهدك فسوف ترى ما ينزل بك * ولما قال الله تعالى له افعل ماتقدر عليه قال تعالى (ان عبادى) أى الذين اهلتهم للاضافة الى نفسى وابحق عبوديتى بالتقوى والاحسان (ليس لك عليهم سلطان) اى فلا تقدر ان تغويهم وتحملهم على ذنب لا يغفر فانى وفقتهم للتوكل على فكفيتهم أمرك (وكفى بربك) اى الموجد لك (وكيلا) أى حافظا لهم منك * ولما ذكر تعالى انه الوكيل الذى لا كافى غيره اتبعه بعض افعاله الدالة على ذلك بقوله تعالى (ربكم) أى المتصرف فيكم هو (الذى يزجى) اى يجرى (لكم الفلك) ومنها التى حملكم فيها مع أبيكم نوح عليه الصلاة والسلام (فى البحر لتبتغوا) أى لتطلبوا (من فضله) الربح وأنواع الامتعة التى لا تكون عندكم ثم انه تعالى علل ذلك بقوله عز وجل (انه) أى فعل سبحانه وتعالى ذلك لانه (كان) أى ازلا وأبدا (بكم رحيما) حيث هيأ لكم ماتحتاجون اليه وسهل عليكم ما يعسر من أسبابه *(تنبيه)* الخطاب فى قوله ربكم وفى قوله تعالى انه كان بكم عام فى حق الكل والمراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها وأما قوله تعالى (واذا مسكم الضر) اى الشدة (فى البحر) خطاب للكفار بدليل قوله تعالى (ضل) أى غاب عن ذكركم وخواطركم (من تدعون) أى تعبدون من الآلهة (الا اياه) وحده فاخلصتم له الدعاء لعلمكم أنه لا ينجيكم سواه (فلما نجاكم) من الغرق وأوصلكم بالتدريج (الى البر أعرضتم) عن الاخلاص له ورجعتم الى الاشراك (وكان الانسان) أى هذا النوع (كفورا) أى جحودا للنعم بسبب انه عند الشدة يتمسك بفضله ورحمته وعند الرخاء والراحة يعرض عنه ويتمسك بغيره وقوله تعالى (أفأمنتم) الهمزة فيه للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم من البحر فأمنتم بعد خروجكم منه (أن نخسف بكم جانب البر) نغيبكم فى أى جانب كان منه لان قدرتنا على التغييب فى الماء والتراب على السواء فعلى العاقل أن يستوى خوفه من الله تعالى فى جميع الجوانب (أو) أمنتم أن (نرسل عليكم) من جهة الفوق شيأ من أمرنا (حاصبا) أى نمطر عليكم حجارة من السماء كما أمطرناها على قوم لوط قال الله تعالى انا أرسلنا عليهم حاصبا وقيل الحاصب الريح (ثم لا تجدوا لكم) أيها الناس (وكيلا) يحميكم من ذلك ولا من غيره كما لم تجدوا فى البحر وكيلا غيره (أم أمنتم) أى جاوزت بكم الغباوة حدها فلم تجوزوا اذلك (أن نعيدكم فيه) أى البحر الذى يضطركم الى ذلك فنقسركم عليه وان كرهتم (تارة أخرى) باسباب تضطركم الى أن ترجعوا فتركبوه (فنرسل عليكم قاصفا من الريح) أى ريحا شديدة لا تمر بشئ الا قصفته فتكسر فلككم (فنغرقكم) فى البحر الذى أعدناكم فيه بقدرتنا (بما كفرتم) أى بسبب اشراككم وكفرانكم نعمة الانجاء (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) أى مطالبا يطالبنا بما فعلنا بكم *(تنبيه)* تارة بمعنى مرة وكرة فهى مصدر وتجمع على تير وتارات قال الشاعر

وانسان عينى يحسر الماء تارة * فيبدو وتارات يجم فيغرق

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ان نخسف او نرسل ان نعيدكم فنرسل فنغرقكم بجميع هذه الخمسة بنون العظمة والباقون بياء الغيبة والقراءة الاولى على سبيل الالتفات من الغائب فى قوله تعالى ربكم الى آخره والقراءة الثانية على سنن ما تقدم من الغيبة * ثم ان الله تعالى ذكر نعمة

اخرى

السجود والثانى فى حال البكاء والاول واقع فى قراءة القرآن أو سماعه والثانى فى غير ذلك

(سورة الكهف)

(قوله قيما) * ان قلت ما فائدة ذكره بعد قوله ولم

اخرى رفيعة جليلة على الانسان وذكر فيه أربعة أنواع النوع الاول قوله تعالى (ولقد كرمنا) أى بعظمتنا تكريما عظيما (بنى آدم) وحذف متعلق التكريم فلذا اختلف المفسرون فيه فقال ابن عباس كل شئ يأكل بفيه الا ابن آدم فانه يأكل بيده وعن الرشيد انه أحضر طعاما عنده فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف فقال له جاء فى تفسير جدك ابن عباس ولقد كرمنا بنى آدم جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فأحضرت الملاعق فردها وأكل بأصابعه وروى عن ابن عباس انه قال بالعقل وقال الضحاك بالنطق والتمييز وقيل على سائر الطين بالنمو وعلى النامى بالحياة وعلى سائر الحيوان بالنطق وقال عطاء بتعديل القامة وامتدادها والدواب منكبة على وجوهها قال بعضهم وينبغى ان يشترط مع هذا شرط وهو طول القامة مع استكمال القوة العقلية والحسية والحركية والا فالاشجار أطول قامة من الانسان وقيل الرجال باللحى والنساء بالذوائب وقيل بان سخر لهم سائر الاشياء وقيل بان منهم خير أمة أخرجت للناس وقيل بحسن الصورة قال تعالى وصوركم فأحسن صوركم ولما ذكر الله تعالى خلقة الانسان وهى ولقد خلقنا الانسان الآية قال فتبارك الله أحسن الخالقين قال الرازى فان شئت فتأمل عضوا واحدا من أعضاء الانسان وهى العين فخلق الحدقة سوداء ثم أحاط بذلك السواد بياض العين ثم أحاط بذلك البياض سواد الاشفار ثم أحاط بذلك السواد بياض الاجفان ثم خلق فوق بياض الجفن سواد الحاجبين ثم خلق فوق ذلك السواد بياض الجبهة ثم خلق فوق ذلك البياض سواد الشعر وليكن هذا المثال الواحد انموذجا لك فى هذا الباب انتهى واستدل أيضا لشرف الانسان بان الموجود اما أن يكون أزليا وأبديا وهو الله تعالى واما أن لا يكون لا أزليا ولا أبديا وهو عالم الدنيا مع كل ما فيه من المعادن والنبات والحيوان وهذا أخس الاقسام واما أن يكون أزليا ولا يكون أبديا وهذا ممتنع الوجود لان ما ثبت قدمه امتنع عدمه واما أن لا يكون أزليا ولكنه يكون أبديا وهو الانسان والملك ولاشك ان هذا القسم أشرف من القسم الثانى والثالث وذلك يقتضى كون الانسان أشرف من أكثر المخلوقات * النوع الثانى قوله تعالى (وحملناهم فى البر) على الدواب وغيرها (و) فى (البحر) على السفن وغيرها من حملته حملا اذا جعلت له ما يركبه او حملناهم فيهما حتى لم تخسف بهم الارض ولم نغرقهم فى الماء * النوع الثالث قوله تعالى (ورزقناهم من الطيبات) أى المستلذات من الثمرات والاقوات وذلك لان الاغذية اما حيوانية واما نباتية وكلا القسمين فان الانسان انما يتغذى بالطف أنواعها وأشرف أقسامها بعد التنقية التامة والطبخ الكامل والنضج البالغ وذلك مما لا يحصل الا للانسان * النوع الرابع قوله تعالى (وفضلناهم) فى أنفسهم باحسان الشكل وفى صفاتهم بالعلم المنتج لسعادة الدارين (على كثير ممن خلقنا) أى بعظمتنا التى خلقناهم بها وأكد الفعل بالمصدر اشارة الى اعراقهم فى الفضيلة فقال تعالى (تفضيلا) * (تنبيه) * ظاهر الآية يدل على فضلهم على كثير من خلقه لا على الكل وقال قوم فضلوا على جميع الخلق الا على الملائكة وهو قول ابن عباس واختيار الزجاج على ما رواه الواحدى فى بسيطه وقال الكلبى فضلوا على جميع الخلائق كلهم الا على

يجعل له عوجا لان نفى العوج يستلزم الاقامة (قلت) فائدته التأكيد فى وصف كتاب الله العظيم أو معنى قيما انه قائم على الكتب السماوية كلها مصدقا لها ناسخا

طائفة من الملائكة جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت وأشباههم وقال قوم فضلوا على جميع الخلق وعلى جميع الملائكة كلهم وقد يوضع الاكثر موضع الكل كقوله تعالى هل أنبئكم على من تنزل الشياطين الى قوله تعالى وأكثرهم كاذبون أى كلهم وروى جابر يرفعه قال لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال تعالى لا أجعل من خلقته بيدى ونفخت فيه من روحى كمن قلت له كن فكان والاولى كما قاله بعض المفسرين كالبغوى وابن عادل أن يقال عوام الملائكة أفضل من عوام المؤمنين وخواص المؤمنين أفضل من خواص الملائكة قال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية وروى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال المؤمن أكرم على الله من الملائكة عنده رواه البغوى ورواه الواحدى فى بسيطه (فان قيل) قال تعالى فى أول الآية ولقد كرمنا بنى آدم وقال فى آخرها وفضلناهم فلابد من الفرق بين التكريم والتفضيل والالزم التكرار (أجيب) بأنه تعالى فضل الانسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية كالعقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة ثم انه سبحانه وتعالى عرضه بواسطة العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والاخلاق الفاضلة * ولما ذكر تعالى أنواع كرامات الانسان فى الدنيا شرح أحوال درجاته فى الآخرة بقوله تعالى (يوم) أى اذكر يوم (ندعوا) أى بتلك العظمة (كل أناس) أى منكم (بامامهم) الامام فى اللغة كل من ائتم به قوم كانوا على هدى أو ضلالة فالنبى امام أمته والخليفة امام رعيته والقرآن امام المسلمين وامام القوم هو الذى يقتدون به فى الصلاة وذكروا فى تفسير الامام هنا أقوالا أحدها امامهم نبيهم روى ذلك مرفوعا عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فينادى يوم القيامة ياأمة ابراهيم ياأمة موسى ياأمة عيسى ياأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيقوم أهل الحق الذين تبعوا الانبياء فيأخذون كتبهم بأيمانهم ثم ينادى الاتباع ياأتباع نمرود ياأتباع فرعون ياأتباع فلان وفلان من رؤساء الضلال وأكابر الكفر الثانى أن امامهم كتابهم الذى أنزل عليهم فينادى فى القيامة ياأهل القرآن ياأهل التوراة ياأهل الانجيل الثالث امامهم كتاب أعمالهم قال تعالى وكل شئ أحصيناه فى امام مبين فسمى الله تعالى هذا الكتاب اماما قال الزمخشرى ومن بدع التفاسير أن الامام جمع أم وان الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم وان الحكمة فيه رعاية حق عيسى واظهار شرف الحسن والحسين وأن لا تفتضح أولاد الزنا قال وليت شعرى أيهما أبدع البدع أصحة لفظه أم بهاء حكمته قال ابن عادل وهو معذور لان أما لا يجمع على امام هذا قول من لا يعرف الصناعة ولا لغة العرب (فمن أوتى) أى من المدعوين (كتابه) أى كتاب عمله (بيمينه) وهم السعداء أولوا البصائر فى الدنيا (فأولئك يقرؤن كتابهم) ابتهاجا وتبجحا بما يرون فيه من الحسنات (ولا يظلمون) ينقص حسنة تامن ظالم ما (فتيلا) أى شيأ فى غاية القلة والحقارة بل يزادون بحسب اخلاص النيات وطهارة الاخلاق وزكاء الاعمال * (تنبيه) * الفتيل القشرة التى فى شق النواة سمى بذلك لانه اذا رام الانسان اخراجه انفتل وهذا مثل يضرب للشئ الحقير التافه ومثله القطمير وهو

لبعض شراحه ولو نصب [illegible] بمقدر تقديره لكن جعله قمبا (قوله لنعلم) اى الجزم بين (الخ) اى لنعلمه علم ظهور ومشاهدة (قوله بامامهم كلهم) الواو فيه زائدة وقيل مستأنفة وقيل واو

الفلالة التي في ظهر النواة والنقير وهي النقرة التي في ظهر النواة وروى مجاهد عن ابن عباس قال الفتيل هو الوسخ الذي يفتله الانسان بين سبابته وابهامه (فان قيل) لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع أن أهل الشمال يقرؤنه (أجيب) بان أصحاب الشمال اذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على المهلكات العظيمة والقبائح الكاملة فيستولي الخوف على قلوبهم ويثقل لسانهم فيعجزون عن القراءة الكاملة وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك لا جرم أنهم يقرؤن كتابهم على أحسن الوجوه ثم لا يقنعون بقراءتهم وحدهم بل يقول القارئ لاهل المحشر هاؤم اقرؤا كتابيه جعلنا الله تعالى وجميع أحبابنا منهم * ثم قال الله تعالى (ومن كان) منهم (في هذه) أي الدار (أعمى) أي ضالا يعمل في الافعال فعل الاعمى في أخذ الاعيان لا يهتدي الى أخذ ما ينفعه وترك ما يضره ولا يميز بين حسن وقبيح (فهو في الآخرة أعمى) أي أشد عمى مما كان عليه في هذه الدار لا يجد له قصدا ولا يهتدي لصواب ولم يقل تعالى أشد عمى كما يقال في الخلق اللازمة لحالة واحدة مثل العور والحمرة والسواد ونحوها لان هذا مراد به عمى القلب الذي من شانه التزايد والحدوث في كل لحظة شيأ بعد شئ (وأضل سبيلا) لان هذه الدار دار الاكتساب والترقي في الاسباب وأما تلك فليس فيها شئ من ذلك وقال عكرمة جاء نفر من أهل اليمن الى ابن عباس فسأله رجل عن هذه الآية فقال اقرؤا ما قبلها فقرؤا ربكم الذي يزجي لكم الفلك الى قوله تفضيلا فقال ابن عباس من كان أعمى في هذه النعم التي قد رأى وعاين فهو في الآخرة التي لم يعاين ولم ير أعمى وأضل سبيلا وعلى هذا فالاشارة في قوله هذه الى النعم المذكورة في الآيات المتقدمة وحمل بعضهم العمى الثاني على عمى العين والبصر كما قال تعالى ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وقال تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما وهذا العمى زيادة في عقوبتهم ولما عدد تعالى في الآيات المتقدمة أقسام نعمه على خلقه وأتبعها بذكر درجات الخلق في الآخرة وشرح أحوال السعداء أردفه بما يجري مجرى تحذير السعداء عن الاغترار بوسواس أرباب الضلال والانخداع بكلماتهم المشتملة على المكر والتلبيس فقال تعالى (وان كادوا) أي قاربوا في هذه الحياة الدنيا بما هم في أنفسهم من عصمة الله تعالى لك ولما كانت ان هذه هي المخففة من الثقيلة أتى باللام الفارقة بينها وبين النافية بقوله تعالى (ليفتنونك) أي ليخالطونك مخالطة تميلك الى جهة قصدهم لكثرة خداعهم واختلف في سبب نزول هذه الآية فروى عطاء عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في وفد ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال قال وما هن قالوا أن لا نجبي في الصلاة بفتح الجيم والباء الموحدة المشددة أي لا ننحني فيها ولا نكسر أصنامنا الا بايدينا ٣ وأن لا تمنعنا من اللات والعزى سنة من غير أن نعبدها فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود وأما أن تكسروا أصنامكم بايديكم فذلك لكم وأما الطاغية يعني اللات والعزى فاني غير ممتعكم بها وفي رواية وحرم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها فأبى ذلك رسول الله صلى الله

الثمانية كما في قوله وفتحت أبوابها وقال الزمخشري وغيره هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الصفة الواقعة حالا عن المعرفة تقول جاءني رجل

٣ قوله وان لا تمتعنا الخ هكذا بالاصول التي بايدينا والذي في حاشية العلامة الجمل نقلا عن البيضاوي وعن الخازن أيضا وأن تمتعنا باللات سنة الخ وهو المناسب لقوله الآتي فاني غير ممتعكم

اه مصححه

عليه وسلم ولم يجبهم فقالوا يا رسول الله انا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا ما لم تعط غيرنا فان خشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا فقل الله أمرني بذلك فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فطمع القوم في سكوته أن يعطيهم ذلك فصاح عليهم عمر وقال أما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمسك عن الكلام كراهة لما تذكرونه فانزل الله تعالى هذه الآية وقال سعيد بن جبير كان النبي صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الاسود فمنعه قريش وقالوا لا ندعك حتى تلم بآلهتنا وتمسها فحدث صلى الله عليه وسلم نفسه ما على أن أفعل ذلك والله يعلم انى لها لكاره بعد أن يدعوني حتى استلم الحجر فانزل الله تعالى هذه الآية وروى ان قريشا قالوا له اجعل آية رحمة اية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك فنزلت وان كادوا ليفتنونك (عن الذي أوحينا اليك) من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا (لتفترى) أى لتقول (علينا غيره) أى ما لم نقله (واذا) أى لو ملت الى ما دعوك اليه (لاتخذوك) أى بغاية الرغبة (خليلا) أى لو الوك وصادقوك وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم وراض بشركهم ومن يكن خليل الكفار لم يكن خليل الله تعالى وانك اذا أبصرت رشدك فلزمت أمر الله واستمروا على عداهم انما هو لفضلنا لك على كل مخلوق (ولولا أن ثبتناك) أى على الحق بعصمتنا اياك (لقد كدت) أى قاربت (تركن) أى تميل (اليهم) أى الى الاعداء (شيئا) أى ركونا (قليلا) لحبك في هدايتهم وحرصك على منفعتهم ولكنا عصمناك فمنعناك أن تقرب من الركون فضلا من أن تركن اليهم لان كلمة لولا تفيد انتفاء الشئ لثبوت غيره تقول لولا زيد لهلك عمرو ومعناه ان وجود زيد منع من حصول الهلاك لعمرو فكذلك ههنا قوله تعالى ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم معناه لولا حصل تثبيت الله لمحمد صلى الله عليه وسلم فكان تثبيت الله مانعا من حصول قرب الركون وهذا صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما هم باجابتهم مع قوة الداعى اليها ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه (اذا) أى لو قاربت الركون الموصوف اليهم (لاذقناك ضعف) عذاب (الحيوة وضعف) عذاب (الممات) أى مثلى ما يعذب غيرك في الدنيا والآخرة وكان أصل الكلام عذابا ضعفا في الحياة وعذابا ضعفا في الممات ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ثم أضيفت كما يضاف موصوفها وقيل المراد بضعف الحياة عذاب الآخرة وضعف الممات عذاب القبر والسبب في تضعيف هذا العذاب ان أقسام نعمة الله تعالى في حق الانبياء عليهم الصلاة والسلام أكثر فكانت ذنوبهم أعظم فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر ونظيره قوله تعالى يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وقيل الضعف من أسماء العذاب (ثم لا تجد لك) أى وان كنت أعظم الخلق وأعلاهم مرتبة وهمة (علينا نصيرا) أى مانعا يمنعك من عذابنا واختلفوا في سبب نزول قوله تعالى (وان) أى وانهم (كادوا) أى الاعداء (ليستفزونك) أى ليزعجونك بعداوتهم (من الارض ليخرجوك منها) فقال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فقالوا يا أبا القاسم ان الانبياء انما بعثوا بالشام وهى بلاد مقدسة وكانت مسكن ابراهيم فلو خرجت الى الشام آمنا بك واتبعناك وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج الا خوف الروم فان كنت رسول الله فالله يمنعك منهم فعسكر

رسول

وبدء آخر ومررت بزيد ومعه سيف وصفه قوله وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم وفائدتها توكيد اتصال الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت

رسول الله صلى الله عليه وسلم على أميال من المدينة وقيل بذى الحليفة حتى يجتمع اليه أصحابه ويراه الناس عازما على الخروج الى الشام فيدخلون فى دين الله فنزلت هذه الآية فرجع وهذا قول الكلبى وعلى هذا فالآية مدنية والمراد بالارض أرض المدينة وقال قتادة ومجاهد الارض أرض مكة والآية مكية هم المشركون أن يخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكفهم الله تعالى عنه حتى أمره بالهجرة فخرج بنفسه قال ابن عادل تبعا للرازى وهذا أليق بالآية لان ما قبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية وهذا اختيار الزجاج وكثير فى التنزيل ذكر الارض والمراد منها مكان مخصوص كقوله تعالى أو ينفوا من الارض أى من مواضعهم وقوله تعالى حكاية عن أخى يوسف فلن أبرح الارض يعنى الارض التى كان قصدها لطلب الميرة (فان قيل) قال تعالى وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك يعنى أهل مكة فالمراد أهلها فذكر تعالى أنهم أخرجوه وقال تعالى وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها فكيف الجمع بينهما على القول الثانى (أجيب) بانهم هموا باخراجه وهو صلى الله عليه وسلم ما خرج بسبب اخراجهم وانما خرج بامر الله تعالى وحينئذ فلا تناقض (واذا) أى واذا أخرجوك (لا يلبثون خلافك) أى بعد اخراجك لو أخرجوك (الا) زمنا (قليلا) وقد كان كذلك على القول الثانى فانهم أهلكوا ببدر بعد هجرته وعلى القول الاول قتل منهم بنى قريظة وأجلى بنى النضير بقليل وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة بفتح الخاء وسكون اللام والباقون بكسر الخاء وفتح اللام وبعدها ألف قال الشاعر

عفت الديار (أى اندرست) خلافهم أى (خلفهم) فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيرا

الشواطب النساء اللاتى يشققن الجريد ليعملن منه الحصير والشطب والشواطب سعف النخل الاخضر يصف دروس ديار الاحبة بعدهم وانها غير مكنوسة كأنما بسط فيها سعف النخل ولما أخبر بذلك أعلم أنه سنة فى جميع الرسل بقوله تعالى (سنة) أى كسنة أو سننا بك سنة (من قد أرسلنا قبلك) أى فى الازمان الماضية كلها (من رسلنا) أنا نهلك كل أمة أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم والسنة لله واضافتها الى الرسل لانها من أجلهم ويدل عليه قوله تعالى (ولا تجد لسنتنا تحويلا) أى تغييرا ولما قرر تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم الالهيات والمعاد والنبوات أردفها بذكر الامر بالطاعة وأشرف الطاعة بعد الايمان الصلاة فلذلك قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (أقم الصلوة) بفعل جميع أركانها وشرائطها بحيث تصير كأنها قائمة بنفسها فانها سالب العبادة لما فيها من المناجاة والاعراض عن كل غير وفناء عن كل سوى بما أشرق من أنوار الحضرة التى قد اضمحل اليها كل فان وفى ذلك اشارة عظيمة الى ان الصلاة أعظم ناصر على الاعداء الذين يريدون بمكرهم استفزاز الاولياء ولذلك كان صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة ثم عين له الاوقات بقوله تعالى (لدلوك الشمس) فى هذه اللام قولان أحدهما انها بمعنى بعد أى بعد دلوك الشمس ومثله قول متمم

فلما تفرقنا كأنى ومالكا * لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

والثانى انها على بابها انها تعقب بزوال الشمس والدلوك مصدر دلكت الشمس وفيه أقوال أحدها انه الزوال وهو قول ابن عباس وابن عمر وجابر وأكثر التابعين ويدل لذلك قوله

مستقر (قوله لا مبدل لكلماته) أى من البشر والا فالله يبدلها قال تعالى ما ننسخ من آية او ننساها نأت بخير منها او مثلها وقال واذا بدلنا آية مكان آية الآية (قوله فان شاء

صلى الله عليه وسلم أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر وقول أهل اللغة معنى الدلوك في كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة والثاني انه الغروب وهو قول ابن مسعود ونقله الواحدي في البسيط عن علي رضي الله تعالى عنه وبه قال ابراهيم النخعي والضحاك والسدي وهو اختيار الفراء وكما يقال للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة يقال لها أيضا اذا غربت دالكة لانها في الحالين زائلة قال الازهري والثالث انه من الزوال الى الغروب وقال في القاموس دلكت الشمس غربت أو اصفرت أو مالت أو زالت عن كبد السماء فحينئذ في هذه اللفظة دلالة على الظهر والعصر والمغرب من استعمال المشترك في معانيه أما في الظهر والمغرب فواضح لما مر وأما العصر فلان أول وقتها أول أخذ الشمس في الاصفرار وأدل دليل على ذلك أنه تعالى غيا الاقامة لوقت العشاء بقوله تعالى (الى غسق الليل) أي ظلمته وهو وقت صلاة عشاء الآخرة والغاية أيضا هنا داخلة لما سياق وقد أجمعوا على أن المراد من قوله تعالى (وقرآن الفجر) أي صلاة الصبح وهو منصوب قيل على الاغراء أي وعليك بقرآن الفجر ورد بان أسماء الافعال لا تعمل مضمرة وقال الفراء انه منصوب بالعطف على الصلاة في قوله تعالى أقم الصلاة والتقدير أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر وحينئذ تدخل الصلوات الخمس في هذه الآية قال ابن عادل كالرازي وحمل كلام الله تعالى على ما يكون أكثر فائدة أولى انتهى وسميت صلاة الصبح قرآنا لاشتمالها عليه وان كانت بقية الصلوات أيضا مشتملة عليه لانه يطول فيها في القراءة ما لا يطول في غيرها فالمقصود من قوله تعالى وقرآن الفجر الحث على طول القراءة فيها أكثر من غيرها لان التخصيص بالذكر يدل على كونه أكمل من غيره ولما كان القيام عن المنام يشق على مرغبا فيه ظهرا غير مضمر لان المقام مقام تعظيم فقال (ان قرآن الفجر كان مشهودا) أي تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار قال الرازي ثم ان ملائكة الليل اذا صعدت قالت يارب انا تركنا عبادك يصلون لك وتقول ملائكة النهار يارب أتينا عبادك وهم يصلون فيقول الله تعالى للملائكة اشهدوا باني قد غفرت لهم وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تفضل صلاة الجمع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ثم يقول أبو هريرة اقرؤا ان شئتم ان قرآن الفجر كان مشهودا وهذا يدل على ان التغليس أولى من التنوير لان الانسان اذا شرع فيها من أول الوقت ففي ذلك الوقت ظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرة ثم اذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار وأما اذا ابتدأ بهذه الصلاة في وقت التنوير فهناك لم يبق أحد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور فقوله كان مشهودا يدل على ان التغليس أفضل وأيضا الانسان اذا شرع في صلاة الصبح من أول هذا الوقت فكانت الظلمة القوية في العالم فاذا امتدت القراءة ففي أثناء هذا الوقت ينقلب العالم من الظلمة الى الضوء والظلمة مناسبة

للموت

فليؤمن ومن شاء فليكفر) ان قلت في هذه اباحة للكفر (قلت) لا لان هذا انما ذكر تهديدا لهم بناء على ان الضمير في شاء لمن وعليه الجمهور والمعنى فمن شاء الله ايمانه آمن

للموت والعدم والضوء مناسب للحياة والوجود فالانسان لما قام من منامه فكأنه انتقل من الموت الى الحياة ومن العدم الى الوجود ومن السكون الى الحركة وهذه الحالة العجيبة تشهد العقول بأنه لا يقدر على هذا التقليب الا الخالق المدبر بالحكمة البالغة فحينئذ يستنير العقل بنور هذه المعرفة ويخلص من مرض قلبه فان اكثر الخلق وقعوا فى أمراض القلوب وهى حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر وهذه الدنيا مثل دار المرضى اذا كانت مملوأة من المرضى والانبياء كالاطباء الحاذقين والمريض ربما كان يقوى مرضه فلا يعود الى الصحة الا بعلاجات قوية وربما كان المريض جاهلا فلا ينقاد للطبيب ويخالفه فى اكثر الامر لان الطبيب اذا كان مشفقا حاذقا فانه يسعى فى ازالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه وان لم يقدر على ازالته فانه يسعى فى تقليله وفى تخفيفه فلما كان مرض الدنيا مستوليا على الخلق ولا علاج له الا بالدعوى الى معرفة الله سبحانه وتعالى وخدمته وطاعته وهذا علاج شاق على النفوس وقل من يقبله وينقاد له لاجرم أن الانبياء اجتهدوا فى تقليل هذا المرض فحملوا الخلق على الشروع فى الطاعة والعبودية من أول وقت القيام من النوم لانه مما ينفع فى ازالة هذا المرض * ثم حث سبحانه وتعالى على التهجد لافضليته وأرشديته بقوله عز من قائل (ومن الليل) أى وعليك أو وقم بعض الليل (فتهجد به) أى واترك الهجود للصلاة يقال هجد وتهجد نام ليلا وهجد وتهجد سهر فهو من الاضداد ومنه قيل لصلاة الليل التهجد قاله فى الصحاح والضمير فى به لمطلق القرآن والمراد من الآية قيام الليل لصلاة النافلة فلا يحصل التهجد الا بصلاة تفل بعد نوم وكانت فريضة على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى أمته فى الابتداء بقوله تعالى يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا ثم نسخ بما فى آخرها ثم نسخ بما فى الصلوات الخمس وبقى قيام الليل على الاستحباب بقوله تعالى فاقرؤا ما تيسر منه وبقى الوجوب فى حقه صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى (نافلة لك) أى زيادة لك مختصة بك وروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ثلاث هن على فريضة وهن سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل والصحيح أنه نسخ فى حقه أيضا ودليل النسخ رواه مسلم وقد وردت أحاديث كثيرة فى قيام الليل منها ما روى عن المغيرة بن شعبة أنه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا ومنها ما روى عن زيد بن خالد الجهنى أنه قال لارمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فتوسدت عتبته أو فسطاطه فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة ٣ فلهذا قيل انه أكثر الوتر وهو أحد قولى الشافعى والمرجح عنده ان اكثره احدى عشرة ركعة لما رواه أبو سلمة أنه سأل عائشة رضى الله تعالى عنها عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ما كان يزيد فى رمضان ولا فى غيره على احدى عشرة ركعة أى وترا يصلى أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلى أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلى ثلاثا قالت عائشة رضى الله تعالى عنها فقلت يا رسول الله أتنام قبل أن توتر فقال يا عائشة ان عينى تنام ولا ينام قلبى ومنها ما روى عن أنس بن مالك قال

ومن شاء كفره كفر تنبيه على ان الضمير فيه قد كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما (قوله يحلون فيها من أساور من ذهب) وان قلت الباس الى الدنيا حرام على الرجال فكيف وعد الله

٣ قوله فذلك الخ هكذا بالاصل والعدد وهذا احدى عشرة ركعة الا ان كان المراد بقوله ثم اوتر انه اتى بثلاث ركعات فاعرف والحديث اه مصححه

ما كنا نشاء أن نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الليل مصليا الا رأيناه وما نشاء ان نراه نائما
الا رأيناه وفى رواية غيره قال وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيأ و يفطر حتى
نقول لا يصوم منه شيأ ثم قال تعالى (عسى أن يبعثك ربك) اى الحسن اليك (مقاما محمودا)
اتفق المفسرون على ان كلمة عسى من الله واجب قال أهل المعانى لان لفظة عسى تفيد
الاطماع ومن أطمع انسانا فى شئ ثم حرمه كان عارا والله أكرم من ان يطمع احدنا فى شئ ثم
لا يعطيه ذلك وأما المقام المحمود فقال الواحدى أجمع المفسرون على انه مقام الشفاعة
كما قال صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية هو المقام الذى أشفع فيه لامتى وقال حذيفة يجمع
الناس فى صعيد واحد فلا تتكلم نفس فاول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك
وسعديك والشر ليس اليك والمهدى من هديت وعبدك بين يديك وبك واليك لا ملجأ
ولا منجى منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت فقال هذا هو المراد من قوله
تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ويدل للاول أحاديث منها ما روى عن أبى هريرة
انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل نبى دعوة مستجابة وانى اختبأت دعوتى
شفاعتى لامتى وهى نائلة منكم ان شاء الله تعالى من مات لا يشرك بالله شيأ ومنها ما روى عن
جابر انه قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه
الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى
وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة * ومنها ما روى عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال
يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهموا بذلك فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيريحنا من مكاننا
فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته
وعلمك أسماء كل شئ اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناكم ويذكر
خطيئته التى أصاب أكله من الشجرة وقد نهى عنها ولكن ائتوا نوحا أول نبى بعثه الله الى
أهل الارض فيأتون نوحا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التى أصاب بسؤال ربه بغير علم
ولكن ائتوا ابراهيم خليل الرحمن فيأتون ابراهيم فيقول لست هناكم ويذكر ثلاث
كذبات كذبهن ولكن ائتوا موسى عبدا آتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجيا قال فيأتون
موسى فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التى أصاب قتله النفس ولكن ائتوا عيسى
عبد الله وكلمته قال فيأتون عيسى فيقول لست هناكم ولكن ائتوا محمدا عبدا غفر الله له
ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال فيأتونى فاستأذن على ربى فيؤذن لى فاذا رأيته وقعت ساجدا
فيدعنى ما شاء الله ان يدعنى فيقول ارفع رأسك يا محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه قال
فارفع رأسى فاثنى على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه قال ثم أشفع فيحد لى حدا فاخرجهم من النار
وأدخلهم الجنة ثم أعود فاقع ساجدا فيدعنى ما شاء الله ان يدعنى ثم يقول ارفع يا محمد وقل تسمع
واشفع تشفع وسل تعطه قال فارفع رأسى فاثنى على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه قال ثم اشفع
فيحد لى حدا فاخرجهم من النار وأدخلهم الجنة قال فلا أدرى فى الثالثة أو الرابعة فاقول
يارب ما بقى الا من حبسه القرآن اى وجب عليه الخلود وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما
مقاما محمودا يحمدك فيه الاولون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق سل فتعطى

(قوله ودخل جنته) (قلت) عادة ملوك الفرس والروم لبس الاساور والتيجان دون من عداهم فلذلك وعد الله المؤمنين بها فى الجنة بانهم ملوك الآخرة

واشفع فتشفع ليس أحد الا تحت لوائك والاخبار فى الشفاعة كثيرة وفى هذا القدر كفاية لاولى البصائر جعلنا الله تعالى وجميع أحبابنا من أهلها الداخلين تحت شفاعة سيد الانبياء والمرسلين آمين واختلف أهل التفسير فى قوله تعالى (وقل رب ادخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) فقال ابن عباس والحسن أدخلنى مدخل صدق المدينة وأخرجنى مخرج صدق مكة نزل حين أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالهجرة وقال الضحاك أخرجنى مخرج صدق من مكة آمنا من المشركين وأدخلنى مدخل صدق ظاهرا عليها بالفتح وقال مجاهد أدخلنى فى أمرك الذى أرسلتنى به من النبوة مدخل صدق وأخرجنى من الدنيا وقد قمت بما وجب على من حقها مخرج صدق وقيل ادخاله الغار واخراجه منه سالما وقيل ادخلنى مدخل صدق الجنة وأخرجنى مخرج صدق من مكة وقيل ادخلنى فى القبر مدخل صدق ادخالا مرضيا وأخرجنى منه عند البعث مخرج صدق اخراجا ملقى بالكرامة والجامع لهذه الاقوال ماجرى عليه البقاعى فى تفسيره بقوله فى كل مقام تريد ادخالى فيه حسى ومعنوى دنيا وأخرى مدخل صدق يستحق الداخل فيه ان يقال له أنت صادق فى قولك وفعلك فان ذا الوجه بين لا يكون عند الله وجيها وأخرجنى من كل ماتخرجنى منه مخرج صدق انتهى والمراد من المدخل والمخرج الادخال والاخراج ومعنى اضافة المدخل والمخرج الى الصدق مدحهما كأنه سأل الله تعالى ادخالا حسنا واخراجا حسنا لايرى فيهما مايكره ثم سأل الله تعالى ان يرزقه التقوية بالحجة وبالقهر والقدرة فقال (واجعل لى من لدنك) اى عندك (سلطانا نصيرا) اى حجة ظاهرة تنصرنى بها على جميع من خالفنى وقد أجاب الله تعالى دعاءه وأعلمه انه يعصمه من الناس بقوله تعالى والله يعصمك من الناس وقال تعالى ألا ان حزب الله هم الغالبون وقال تعالى ليظهره على الدين كله وقال تعالى ليستخلفنهم فى الارض ووعده تعالى ليظهره على الدين ووعده تعالى لينزعن ملك فارس والروم فيجعله له وعنه صلى الله عليه وسلم انه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال انطلق فقد استعملتك على أهل الله فكان شديدا على المرتابين المنافقين لينا على المؤمنين وقال والله لاأعلم متخلفا يتخلف عن الصلاة الاضربت عنقه فانه لايتخلف عن الصلاة الا منافق فقال أهل مكة يارسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد اعرابيا جافيا فقال صلى الله عليه وسلم انى رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالا شديدا حتى فتح له فدخلها فاعز الله تعالى الاسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم فذلك السلطان النصير ثم أمره الله تعالى أن يخبر بالاجابة بقوله تعالى (وقل) لاوليائك وأعدائك (جاء الحق) وهو ماأمرنى به ربى وأنزله الى (وزهق) أى اضمحل وبطل وهلك (الباطل) وهو كل مايخالف الحق ثم علل زهوقه بقوله تعالى (ان الباطل) أى وان ارتفعت له دولة وصولة (كان) فى نفسه بجبلته وطبعه (زهوقا) أى لايبقى بل يزول على أسرع الوجوه وقت ٣ وأسرع رجوع قضاء قضاه الله تعالى من الازل روى البخارى فى التفسير عن ابن مسعود قال دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما صنم كل قوم بحيالهم فجعل يطعنها بعود فى يده و يقول جاء الحق وزهق الباطل فيجعل الصنم ينكب لوجهه وعن ابن عباس كانت لقبائل العرب أصنام يحجون اليها وينحرون لها

(قوله أفردها بعد تثنيتها البدل على الحصر أى لاجنة له غيرها ولانصيب له فى جنة غيره ولم يقصد جنة معينة من الجنتين بل جنس ما كان له فى الدنيا (قوله ولئن رددت الى ربى لاجدن خيرا منها)* ان قلت

٣ قوله على أسرع الوجوه وقت هكذا بالنسخ ولعل الظاهر وقتا بالنصب فليحرر اه مصححه

فشكا البيت الى الله تعالى فقال أى رب الى متى تعبد هذه الاصنام حولى دونك فاوحى الله تعالى الى البيت انى ساحدث لك نوبة جديدة فاملؤك خدودا سجدا يدفون اليك دفيف النسور و يحنون اليك حنين الطير الى بيضها لهم عجيج حولك بالتلبية * ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح جاء جبريل عليه السلام وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم خذ مخصرتك ثم ألقها فجعل يأتى صنما صنما وهو ينكت بالمخصرة فى عينه ويقول جاء الحق وزهق الباطل فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعا وبقى صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر فقال يا على ارم به فحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد ورمى به فكسره فجعل أهل مكة يتعجبون و يقولون ما رأينا رجلا أسحر من محمد قال الزمخشرى وشكاية البيت والوحى اليه تخييل وتمثيل * ولما بين سبحانه وتعالى الالهيات والنبوات والحشر والنشر والبعث واثبات القضاء والقدر ثم أتبعه بالامر بالصلاة ونبه على ما فيها من الاسرار وكان القرآن هو الجامع لجميع ذلك أتبعه ببيان كونه شفاء ورحمة بقوله تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) أى ما هو شفاء فى تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافى للمريض *(تنبيه)* فى من هذه ثلاثة أوجه أحدها لبيان الجنس قاله الزمخشرى والبيضاوى وابن عطية وأبو البقاء ورد عليهم أبو حيان بان التى للبيان لابد ان يتقدمها ما تبينه لا ان تتقدم عليه وهنا قد وجد تقديمها عليه الثانى أنها للتبعيض وأنكره الحوفى لانه يلزم ان لا يكون بعضه شفاء وأجاب أبو البقاء بان منه ما يشفى من المرض وهذا قد وجد بدليل رقية بعض الصحابة سيد الحى الذى لدغ بالفاتحة فشفى من المرض فيكون التبعيض بالنسبة للامراض الجسمانية والا فهو كله شفاء للابدان وللقلوب من الاعتقادات وغيرها الثالث أنها لابتداء الغاية وهو كما قال ابن عادل واضح (و) من العجيب ان هذا الشفاء (لا يزيد الظالمين) وهم الذين يضعون الشىء فى غير موضعه باعراضهم عما يجب قبوله (الا خسارا) اى نقصانا لانه اذا جاءهم وقامت به الحجة عليهم أعرضوا عنه فكان اعراضهم ذلك زيادة فى كفرهم كما ان قبول المؤمنين له واقبالهم على تدبره زيادة فى ايمانهم وفى الدارمى عن قتادة قال ما جالس أحد القرآن فقام عنه الا بزيادة أو نقصان ثم قرأ هذه الآية * ثم انه تعالى ذكر السبب الاصلى فى وقوع هؤلاء الكافرين الجاهلين الضالين فى أودية الضلال ومقامات الخزى والنكال وهو حب الدنيا والرغبة فى المال والجاه واعتقادهم أن ذلك انما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم فقال تعالى (واذا أنعمنا) أى بما لنا من العظمة (على الانسان) أى هذا النوع هؤلاء وغيرهم وقال ابن عباس ان الانسان ههنا هو الوليد بن المغيرة قال الرازى وهذا بعيد بل المراد أى نوع الانسان اذا أنعمنا عليه (أعرض) أى عن ذكرنا ودعائنا اذ ان نوع الانسان أنه اذا فاز بمقصوده ووصل الى مطلوبه اغتر وصار غافلا عن عبودية الله متمردا عن طاعة الله كما قال تعالى ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى (ونأى) عن ذكر الله (بجانبه) اى لوى عطفه وبعد بنفسه كأنه مستغن بامره ويجوز ان يكون كناية عن الاستكبار لانه من عادة المستكبرين ومعنى النأى فى اللغة البعد والاعراض عن الشىء أن يوليه عرض وجهه وقرأ ابن ذكوان بالف ممدودة بعد النون وتأخير الهمزة مثل جاء وفى هذه القراءة تخريجان أحدهما من ناء ينوء اى نهض والثانى انه مقلوب من نأى فيكونان بمعنى قال ابن عادل ولكن متى أمكن عدم القلب فهو أولى وقرأ الباقون بالهمزة بعد النون

كيف قال الكافر ذلك وهو ينكر البعث (قلت) معناه ولئن رددت الى ربى على زعمك ليعطينى هنالك خيرا منها او نظيره قوله فى فصلت ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى وعبر

والب

وألف بعد همزة وأمال الالف بعد الهمزة السوسي وشعبة وخلاد محضة بخلاف عن السوسي وأمالها ورش بين بين وأمال الهمزة والنون محضة خلف والكسائي وفتح الباقون (وإذا مسه الشر) أي هذا النوع وإن قل (كان يؤسا) أي شديد اليأس مما عهده من رحمة ربه والحاصل أنه ان فاز بالنعمة والدولة اغتر بها ونسي ذكر الله وان بقي في الحرمان عن الدنيا استولى عليه الاسف والحزن ولم يتفرغ لذكر الله فهذا المسكين محروم أبدا عن ذكر الله تعالى ونظيره قوله تعالى فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن وكذلك ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا من حفظه الله وشرفه بالاضافة اليه فليس للشيطان عليه سلطان ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل كل) من الشاكر والكافر (يعمل على شاكلته) أي طريقته التي تشاكل روحه وتشاكل ما طبعناه عليه من خير أو شر (فربكم) أي فتسبب عن ذلك ان الذي خلقكم وصوركم (أعلم) من كل أحد (بمن هو) منكم (أهدى سبيلا) أي أوضح طريقا واتباعا للحق فيشكر ويصبر احتسابا بانه يعطيه الثواب وبمن هو منكم أضل سبيلا فيجعل له العقاب لانه يعلم ما طبعهم عليه في أصل الخلقة وغيره تعالى انما يعلم أمور الناس في طرائقهم بالتجربة وقد روى الامام أحمد لكن بسند منقطع عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا واذا سمعتم برجل تغير عن طبعه فلا تصدقوا فانه يصير الى ما جبل عليه * واختلف في سبب نزول قوله تعالى (ويسئلونك) أي تعنتا وامتحانا (عن الروح) فعن عبد الله بن مسعود قال بينما أنا أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض اسألوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه لا يجيء بشيء تكرهونه فقال بعضهم لنسألنه فقام رجل منهم فقال يا أبا القاسم ما الروح فسكت فقلت انه يوحى اليه فقمت فلما انجلى عنه قال ويسئلونك عن الروح (قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا) قال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لا تسألوه وقال ابن عباس ان قريشا اجتمعوا فقالوا ان محمدا نشأ فينا بالصدق والامانة وما اتهمناه بكذب وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفرا الى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فانهم أهل كتاب فبعثوا جماعة اليهم فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة أشياء فان أجاب عن كلها أو لم يجب عن شيء منها فليس بنبي وان أجاب عن اثنين ولم يجب عن واحد فهو نبي فاسألوه عن فتية فقدوا في الزمن الاول ما كان أمرهم فانه كان لهم حديث عجيب وعن رجل بلغ مشرق الارض ومغربها وعن الروح فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال أخبركم بما سألتم غدا ولم يقل ان شاء الله فلبث الوحي قال مجاهد اثنتي عشرة ليلة وقيل خمسة عشر يوما وقيل أربعين يوما وأهل مكة يقولون وعدنا محمد غدا وقد أصبحنا لا يخبرنا بشيء حتى حزن صلى الله عليه وسلم من مكث الوحي وشق عليه ما يقوله أهل مكة ثم نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ونزل في الفتية أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب ويسئلونك عن ذي القرنين ونزل في الروح ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وقول الرازي ومن الناس من طعن في هذه الرواية من وجوه

هنا ورددت وثم برجعت توسعة في التعبير عن الشيء بمتساويين (قوله ان ترني أنا أقل منك مالا وولدا) فائدة ذكر أنا في مثل ذلك حصر الخبر في المبتدأ كما في قوله اني أنا

وذكر من جملة ذلك كيف يليق به أن يقول انى لا أعرف هذه المسئلة مع أنها من المسائل المشهورة المذكورة مع جمهور الخلق غير لائق لان ذلك كان علامة على نبوته قال الزمخشري فبين لهم القصتين وأبهم امر الروح وهو مبهم فى التوراة فندموا على سؤالهم انتهى واختلفوا فى الروح الذى وقع السؤال عنه فروى عن ابن عباس أنه جبريل عليه السلام وهو قول الحسن وقتادة وروى عن على أنه قال ملك له سبعون ألف وجه لكل وجه سبعون ألف لسان يسبح الله تعالى بكلها وقال مجاهد خلق على صورة بنى آدم لهم أيد وأرجل ورؤس وليسوا بملائكة ولاناس يأكلون الطعام وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله تعالى خلقا أعظم من الروح غير العرش لو شاء أن يبتلع السموات السبع والارضين السبع ومن فيهن بلقمة واحدة لفعل صورة خلقه على صورة الملائكة وصورة وجهه على صورة وجه الآدميين يقوم يوم القيامة على يمين العرش وهو أقرب الخلق الى الله تعالى عند الحجب السبعين وأقرب الى الله تعالى وهو ممن يشفع لاهل التوحيد ولولا أن بينه وبين الملائكة سترا من نور لاحترق أهل السموات من نوره وقيل الروح هو القرآن وقيل المراد منه عيسى فانه روح الله تعالى وكلمته ومعناه أنه ليس كما تقوله اليهود ولا كما تقوله النصارى وقال بعضهم هو الروح المركب فى الخلق الذى يحيا به الانسان قال البغوى وهو الاصح وتكلم فيه قوم فقال بعضهم هو الدم ألا ترى أن الحيوان اذا مات لا يفوت منه الا الدم وقال قوم هو نفس الحيوان بدليل أنه يموت باحتباس النفس وقال قوم عرض وقال قوم هو جسم لطيف وقال بعضهم الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء ألا ترى أنه اذا كان موجودا يكون الانسان موصوفا بجميع هذه الصفات واذا خرج ذهب الكل قال البغوى وأولى الاقاويل أن يوكل علمه الى الله عز وجل وهو قول أهل السنة قال عبد الله بن بريدة ان الله تعالى لم يطلع على الروح ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا بدليل قوله تعالى قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا اى فى جنب علم الله تعالى *(تنبيه)* اختلف فى المخاطب بقوله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا فقيل هو النبى صلى الله عليه وسلم وقيل اليهود فانهم يقولون أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير وقيل عام روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب أم انت معنا فيه فقال نحن وأنتم لم نؤت من العلم الا قليلا فقالوا ما أعجب شأنك ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وساعة تقول هذا فنزلت ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده الآية قال الزمخشرى وليس ما قالوه بلازم لان القلة والكثرة يدوران مع الاضافة فيوصف الشئ بالقلة مضافا الى ما فوقه وبالكثرة مضافا الى ما تحته فالحكمة التى أوتيها العبد خير كثير فى نفسها الا أنها اذا أضيفت الى علم الله فهى قليلة وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم معنى الروح ولكن لم يخبر به لان ترك اخباره كان علما لنبوته قال البغوى والاول أصح أن الله استأثر بعلمه انتهى وعن ابى يزيد لقد مضى النبى صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح وقال الرازى قوله تعالى قل الروح من امر ربى من فعل ربى وهذا الجواب يدل على انهم سألوه أن الروح قديمة او حادثة فقال بل هى حادثة وانما حصلت بفعل الله وتكوينه وايجاده ثم احتج على احداث الروح بقوله وما اوتيتم من العلم الا قليلا بمعنى ان الروح فى مبدا الفطرة

(قوله وقوله انى انا الله ربك) (قوله وهو خير ثوابا وخير عقبا) خير هنا ليست على بابها اذ خير الله لا ينسب ولا يتصف بضد طاعته فى العاقبة فيكون الله خيرا منه ثوابا وعقبا اوذلك على

تكون

تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم تحصل المعارف والعلوم فهي لاتزال تكون في التغير من حال الى حال وفي التبديل من نقصان الى كمال والتغير والتبدل من امارات الحدوث فقوله قل الروح من امر ربي يدل على انهم سالوه ان الروح هل هي حادثة اوقديمة فاجاب بانها حادثة واقعة بتخليق الله تعالى وتكوينه وهو المراد من قوله تعالى قل الروح من امر ربي ثم استدل على حدوث الارواح بتغيرها من حال الى حال وهو المراد بقوله وما أوتيتم من العلم الاقليلا فهذا ما نقوله في هذا الباب انتهى وهو نص لطيف ولما بين سبحانه وتعالى أنهم ما آتاهم من العلم الاقليلا بين انه لوشاء ان يأخذ منهم ذلك القليل أيضا اقدر عليه بقوله تعالى (ولئن شئنا) اى ومشيئتنا لايتعاظمها شيء واللام موطئة للقسم وأجاب عن القسم بما أغنى عن جواب الشرط فقال (لنذهبن) اى بما لنا من العظمة ذهابا محققا (بالذي أوحينا اليك) بان نمحو احفظه من القلوب وكتابته من الكتب وهذا وان كان أمرا مخالفا للعادة الا أنه تعالى قادر عليه (ثم) اى بعد الذهاب به (لاتجد لك به علينا وكيلا) اى لاتجد من تتوكل عليه في رد شيء منه واعادته مسطورا محفوظا وقوله تعالى (الا رحمة من ربك) استثناء متصل لانه مندرج في قوله وكيلا والمعنى الا أن يرحمك ربك فيرده عليك اومنقطع فتقدر لكن عند البصريين او بل رحمة من ربك عند الكوفيين والمعنى ولكن رحمة من ربك او بل رحمة من ربك بتركه غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن قال الرازي وهذا تنبيه على ان لله تعالى على جميع العلماء نوعين من المنة احدهما تسهيل ذلك العلم عليهم والثاني ابقاء حفظه عليهم فعلى كل ذي علم ان لايغفل عن هاتين النعمتين وعن القيام بشكرهما وهما منة من الله تعالى عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره ومنته عليه في بقاء المحفوظ (فان قيل) كيف يذهب القرآن وهو كلام الله تعالى (أجيب) بان المراد محو ما في المصاحف واذهاب ما في الصدور وقال عبد الله بن مسعود اقرؤا القرآن قبل ان يرفع فانه لاتقوم الساعة حتى يرفع قيل هذه المصاحف ترفع فكيف ما في صدور الناس قال يسري عليه ليلا فيرفع ما في صدورهم فيصبحون لايحفظون شيأ ولايجدون في المصاحف شيأ ثم يفيضون في الشعر وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال لاتقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل له دوي تحت العرش كدوي النحل فيقول الرب مالك فيقول يارب أتلى ولايعمل بي وفي رواية لابن مسعود أول ما تفقدون من دينكم الامانة وآخر ما تفقدون الصلاة وليصلين قوم ولادين لهم وان هذا القرآن تصبحون يوما ومافيكم منه شيء فقال رجل كيف ذلك وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا وتعلمه أبناؤنا ويعلمه ابناؤنا أبناءهم فقال يسري عليه ليلا فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينزع ما في القلوب وقوله تعالى (ان فضله كان) أى ولم يزل (عليك كبيرا) فيه قولان احدهما المراد منه ان فضله كان عليك كبيرا بسبب ابقاء العلم والقرآن عليك ثانيهما أن المراد أن فضله كان عليك كبيرا بسبب انه جعلك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام المحمود وقد أنعم عليك أيضا ببقاء العلم والقرآن عليك ونزل حين قال الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم لونشاء لقلنا مثل هذا القرآن (قل) أى لهؤلاء البعداء (لئن اجتمعت الانس) الذين تعرفونهم وتعرفون ما أوتوا من البلاغة والحكمة والذين لاتعرفونهم (والجن) الذين يأتون كهانهم ويعلمونهم بعض المغيبات عنهم

سبيل الفرض والتقدير (قوله وحشرناهم) اتى به ماضيا ٣ مع ان ما قبله مضارع ابدونهما ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة يدل على ان حشرهم كان قبل التسيير والبروز

٣ قوله مع أن ما قبله الخ هكذا بالاصل ولعل استقامة العبارة أن يقال مع أن ما قبله مضارع لان قوله ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة يدل الخ

وغيرهم وترك الملائكة لانهم لا عهد لهم بشيء من التصدي ولانهم كانوا وسايط (على ان يأتوا بمثل هذا القرآن) في البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى (لا يأتون بمثله) أي لا يقدرون على ذلك فالقرآن معجز في النظم والتأليف والاخبار عن الغيوب وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق ولو كان مخلوقا لأتوا بمثله ●(تنبيه)● في قوله تعالى لا يأتون بمثله قولان أظهرهما انه جواب القسم الموطأة باللام والثاني أنه جواب الشرط واعتذروا عن رفعه بان الشرط ماض فهو كقوله

●وان أتاه خليل (أي فقير) يوم مسغبة ● يقول لا غائب مالي ولا حرم

لان الشرط وقع ماضيا وناقشه أبو حيان بان هذا ليس مذهب سيبويه ولا الكوفيين والمبرد لان مذهب سيبويه في مثله ان النية به التقديم ومذهب الكوفيين والمبرد أنه على حذف الفاء وهذا لمذهب ثالث قال به بعض الناس (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) أي معينا بضم أقوى ما فيه الى أقوى ما في صاحبه ●(تنبيه)● قد تقدم في سورة البقرة أن الله تعالى قال فأتوا بسورة من مثله وقدمنا الكلام على ذلك وفي وجه كون القرآن معجزا قولان أحدهما أنه معجز في نفسه والثاني أنه ليس في نفسه معجزا الا أنه تعالى لما صرف دواعيهم عن الاتيان بمعارضته وكانت الدواعي متوفرة على الاتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضا للعادة فيكون معجزا والقول الاول أظهر (ولقد صرفنا) اي بينا بوجوه مختلفة زيادة في التقرير والبيان (للناس في هذا القرآن من كل مثل) اي من كل معنى هو كالمثل في غرابته ووقوعه موقعا في الانفس وقيل معناه من كل وجه من العبر والاحكام والوعد والوعيد والقصص وغيرها وقيل صفة لمحذوف اي مثلا من جنس كل مثل ليتعظوا (فأبى أكثر الناس) وهم من هم في صورة الناس كفار قريش قد سلبوا معانيهم (الا كفورا) اي جحودا (فان قيل) كيف جاز فأبى أكثر الناس الا كفورا ولم يجز ضربت الا زيدا (أجيب) بان أبى متأول بالنفي كأنه قيل فلم يرضوا الا كفورا ● ولما تبين بالدليل اعجاز القرآن على وفق دعوى محمد صلى الله عليه وسلم ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فعل المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة وذكروا من ذلك ستة أنواع من المعجزات أولها (وقالوا) اي كفار قريش ومن والاهم (لن نؤمن لك حتى تفجر) أي تفجيرا عظيما (لنا من الارض ينبوعا) أي عينا غزيرة الماء من شأنها ان تنبع بالماء ولا ينضب ماؤها وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة والباقون بضم التاء وفتح الفاء وكسر الجيم المشددة ثانيها قولهم (أو تكون لك) أنت وحدك (جنة من نخيل وعنب) أي واشجار عنب عبر عنها بالثمرة لان الانتفاع منه بغيرها قليل (فتفجر الانهار) الجارية (خلالها) اي وسطها (تفجيرا) اي تشقيقا والفجر شق الظلام عن عمود الصبح والفجور شق جلباب الحياء بما يخرج الى الفساد ثالثها قولهم (أو تسقط السماء) اي نفسها (كما زعمت) فيما تتوعدنا به (علينا كسفا) اي قطعا جمع كسفة وهي القطعة وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بنصب السين مثل قطعة وقطع وسدرة وسدر والباقون بسكونها مثل دمنة ودمن وسدرة وسدر وهو نصب على الحال في القراءتين جميعا كأنه قيل أو تسقط السماء علينا مقطعة رابعها قولهم (أو تأتي) معك (بالله) اي الملك الاعظم

ليعاينوا تلك الاهوال والعظائم كأنه قال وحشرناهم قبل ذلك (قوله مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها) ● ان قلت كيف قال ذلك مع ان

(والملائكة قبيلا) أى عيانا ومقابلة ننظر اليه لا يخفى علينا شئ منه وقال الفضال هو جمع قبيلة أى أصناف الملائكة قبيلة قبيلة قال ابن عباس كفيلا أى يكفلون بما تقول خامسها قولهم (أو يكون لك) أى خاصة لك (بيت من زخرف) أى ذهب كامل الحسن والزينة سادسها قولهم (أو ترقى) أى تصعد (فى السماء) درجة درجة ونحن ننظر اليك صاعدا (ولن نؤمن) أى نصدق مذعنين (لرقيك) أى أصلا (حتى تنزل) وحققوا معنى كونه من السماء بقولهم (علينا كتابا) ومعنى كونه فى رق أو نحوه بقولهم (نقرؤه) يأمرنا فيه باتباعك روى عكرمة عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة وابا البخترى بن هشام وعبد الله بن أمية وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام والعاصى بن وائل ونبيها ومنبها ابنى الحجاج اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا اليه ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك يكلمونك فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا وهو يظن أنهم بدا لهم فى أمره بداء وكان عليهم حريصا يحب رشدهم حتى جلس اليهم فقالوا يا محمد انا بعثنا اليك لنعذر فيك وانا والله لا نعلم أن رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الاحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فما بقى أمر قبيح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك فان كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وان كنت تريد الشرف سودناك علينا وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك لا تستطيع رده بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك وكانوا يسمون التابع من الجن الرئى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بى ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا الشرف عليكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى اليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم فان تقبلوا منى فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وان تردوه الى أصبر لامر الله تعالى حتى يحكم الله بينى وبينكم فقالوا يا محمد فان كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد أضيق بلادا وأشد عيشا منا فسل لنا ربك الذى بعثك فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت ويبسط لنا بلادنا ويفجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن منهم قصى بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فان صدقوك صدقناك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ما أرسلت به وان تقبلوه فهو حظكم وان تردوه أصبر لامر الله قالوا فان لم تفعل فسل ربك أن يبعث ملكا يصدقك وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك فانك تقوم بالاسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه فقال صلى الله عليه وسلم ما بعثت بهذا ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا قالوا فأسقط السماء كما زعمت أن ربك ان شاء فعل فقال ذلك الى الله ان شاء فعل ذلك بكم فقال قائل منهم لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا فلما قالوا ذلك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام معه عبد الله بن أمية وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب وقال له عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك أن تجعل ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل فوالله لا أومن

الصغائر نكفر باجتناب الكبائر قوله ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم (قلت) الآية الاولى فى حق الكافرين بدليل قوله فترى المجرمين والثانية

لك ابدا حتى تتخذ الى السماء سلما ترقى به وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتى بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهله حزينا لما رأى من مباعدتهم فأنزل الله هذه الآية وفيها اشارة الى أنه ليس من شرط كونه نبيا صادقا تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها اذ لو فتح هذا الباب لزم أن لا ينتهى الامر فيه الى مقطع وكلما أتى النبى صلى الله عليه وسلم بمعجز اقترحوا عليه معجزا آخر ولا ينتهى الامر فيه الى حد ينقطع عنده عناد المعاندين وتعنت الجاهلين مع أنه صلى الله عليه وسلم أعطى من الآيات والمعجزات ما أغنى عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر وتفجير العيون من بين الاصابع وما أشبه ذلك ﴿ ولما تم تعنتهم وكان لسان الحال طالبا من الله تعالى الجواب عنه أمر الله تعالى بجوابهم بقوله تعالى (قل) أى لهؤلاء البعداء والاشقياء (سبحان ربى) أى تعجبا من اقتراحاتهم وتنزيها لله من أن يأتى أو يتحكم عليه أو يشاركه أحد فى القدرة وقرأ ابن كثير وابن عامر بصيغة الماضى والباقون قل بصيغة الامر (هل كنت الا بشرا) لا يقدر على غير ما يقدر عليه البشر (رسولا) كما كان من قبلى من الرسل وكانوا لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله تعالى على أيديهم بما يلائم حال قومهم ولم يكن أمر الآيات اليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله حتى يتخيروها هذا هو الجواب المجمل وأما التفصيل فقد ذكر فى آيات أخر كقوله تعالى ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم ولو فتحنا عليهم بابا ونحو ذلك ﴿ ولما أمر بما انتفى من أنه كاخوانه من الرسل فى كونه بشرا أتبعه قوله عطفا على قالوا أو وقالوا (وما منع الناس) أى قريشا ومن قال بقولهم لما لهم من الاضطراب (أن يؤمنوا) أى لم يبق لهم مانع من الايمان والجملة مفعول منع (اذ جاءهم الهدى) أى الدليل القاطع على الايمان وهو القرآن وغيره من الادلة وقرأ أبو عمرو وهشام بادغام ذال اذ عند الجيم والباقون بالاظهار وأمال الالف بعد الجيم حمزة وابن ذكوان بخلف عنه واذا وقف حمزة على جاءهم سهل الهمزة مع المد والقصر (الا أن قالوا) فاعل منع أن قالوا أى منكرين عليه غاية الانكار متعجبين متهكمين (أبعث الله بشرا رسولا) لان الكفار كانوا يقولون لن نؤمن لك لانك بشر ولو بعث الله تعالى رسولا الى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة فأجابهم الله تعالى بقوله (قل) أى لهؤلاء المطرودين عن الرحمة (لو كان فى الارض ملائكة يمشون) عليها كالآدميين (مطمئنين) أى مستوطنين فيها كالبشر (لنزلنا عليهم) مرة بعد مرة كما فعلنا فى تنزيل جبريل عليه السلام على الانبياء من البشر وحقق الامر بقوله تعالى (من السماء ملكا رسولا) يعلمهم الخير ويهديهم المراشد لتمكنهم من التلقى منه لما كانتهم له بخلاف البشر كما هو مقتضى الحكمة لان رسول كل جنس ينبغى أن يكون منهم اذ الشئ عن شكله أفهم وبه آنس واليه أحن وله آلف الا من فضله الله تعالى بتغلب روحه على نفسه وبتغلب عقله على شهوته فأقدره بذلك على التلقى من الملك كالمرسلين ثم أجابهم الله تعالى جوابا آخر بقوله عز وجل (قل كفى بالله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما وأمال الالف حمزة والكسائى محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (شهيدا بينى وبينكم) على أنى رسوله اليكم لبظهور المعجزات على وفق دعواهم

فى حق المؤمنين لان اجتناب الكبائر لا يتحقق مع وجود الكفر أو يقال الاولى فى حق المؤمنين أيضا لكن يجوز أن يرتكب الصغائر ايشاهد ما العبد يوم القيامة ثم تكفر عنه

وانى

وانى بلغت ما أرسلت به اليكم وانكم عاندتم ومن يشهد الله على صدقه فهو صادق فعند ذلك قول القائل بان الرسول يجب أن يكون ملكا لا انسانا تحكم فاسد لا يلتفت اليه * (تنبيه) * شهيدا نصب على الحال أو التمييز ثم انه تعالى ذكر ما هو كالتهديد والوعيد بقوله تعالى (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) يعلم ظواهرهم وبواطنهم ويعلم من قلوبهم أنهم لا يشكرون هذا الا لمحض الحسد وحب الرياسة والاستنكاف من الانقياد للحق * ولما تقدم أنه تعالى أعلم بالمهتدى والضال عطف عليه قوله تعالى (ومن يهد الله) بأن يخلق الهداية فى قلبه (فهو المهتدى) لا يمكن أحدا غيره أن يضله * (تنبيه) * أثبت نافع وأبو عمرو الياء بعد الدال مع الوصل دون الوقف وحذفها الباقون وقفا ووصلا (ومن يضلل فلن تجد لهم) أى الضالين (أولياء) يهدونهم (من دونه) ولا ينفعونهم بشئ أراد الله تعالى غيره ولما كان يوم القيامة يظهر الله فيه لكل أحد ما كان يعمله نبه على ذلك بقوله تعالى (ونحشرهم) بنون العظمة أى نجمعهم بكره (يوم القيامة) الذى هو محط الحكمة (على وجوههم) سحبا يمشون عليها اهانة لهم فيها كما لم يذلوها بالسجود لنا قال تعالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم أى يمشون عليها روى أبو هريرة رضى الله عنه قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى يمشيهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم قال حكماء الاسلام ان الكفار أرواحهم شديدة التعلق بالدنيا ولذاتها وليس لها تعلق بعالم الانوار وحضرة الاله سبحانه وتعالى فلما كانت وجوه قلوبهم وأرواحهم متوجهة الى الدنيا لاجرم كان حشرهم على وجوههم وأما قوله تعالى (عميا وبكما وصما) فقد استشكله شخص على ابن عباس فقال أليس قد قال الله تعالى ورأى المجرمون النار وقال تعالى سمعوا لها تغيظا وزفيرا وقال تعالى دعوا هنالك ثبورا وقال تعالى يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وقال تعالى حكاية عن الكفار والله ربنا ما كنا مشركين فقد ثبت بهذه الآيات أنهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف قال تعالى هنا عميا وبكما وصما أجاب ابن عباس وتلامذته عنه من وجوه الاول قال ابن عباس عميا لا يرون شيأ يسرهم صما لا يسمعون شيأ يسرهم بكما لا ينطقون بحجة الثانى قال فى رواية عطاء عميا عن النظر أى عما جعله الله تعالى لاوليائه وبكما عن مخاطبة الله تعالى ومخاطبة الملائكة المقربين صما عن ثناء الله تعالى عليهم الثالث قال مقاتل انه حين يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون يصيرون عميا بكما صما أما قبل ذلك فهم يرون ويسمعون وينطقون الرابع أنهم يكونون رائين سامعين ناطقين فى الموقف ولولا ذلك لما قدروا أن يطالعوا كتبهم ولا أن يسمعوا الالزام بحجة الله تعالى عليهم الا أنهم اذا أخذوا يذهبون من الموقف الى النار جعلهم الله تعالى عميا بكما صما قال الرازى والجواب الاول أولى لان الآيات السابقة تدل على أنهم فى النار يبصرون ويسمعون ويصيحون ثم بين تعالى مكانهم بقوله عز وجل (مأواهم جهنم) تسعر عليهم (كلما خبت) أى أخذ لهبها فى السكون عندما أكلت لحومهم وجلودهم (زدناهم سعيرا) توقدا باعادة الجلود واللحوم ملتهبة مسعرة كأنهم لما كذبوا بالاعادة بعد الافناء جزاهم الله تعالى بأن لا يزالوا على الاعادة والافناء وقرأ نافع وابن كثير وعاصم وابن عامر باظهار تاء التأنيث عند الزاى وأدغمها الباقون ثم بين علة تعذيبهم ليرجع منهم من قضى بسعادته بقوله تعالى (ذلك) أى العذاب العظيم (جزاؤهم بأنهم) اى أهل الضلالة (كفروا بآياتنا) القرآنية وغيرها

(قوله الا ابليس كان من الجن) فان قلت هذا يدل على ان ابليس من الجن وهو مناف لقوله فى البقرة واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس فعلم قدر نعمة الله وعليه

وكانوا كل يوم يزددون كفرا وهم عازمون على الدوام على ذلك ما بقوا (وقالوا) انكارا لقدرتنا (أئذا كنا عظاما ورفاتا) ممزقين في الارض ثم كرروا الانكار كأنهم على ثقة من أمرهم هذا الذي بطلانه أوضح من الشمس بقولهم (ائنا لمبعوثون خلقا جديدا) فنحن نريهم جزاء على هذا الانكار المكرر انا نلق الحديد في جلودهم ولحومهم مكررا كل لحظة قال تعالى كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ثم أتبعه بقاطع في بيان جهلهم بقوله تعالى (أولم يروا) اى يعلموا يعيون بصائرهم على ما هو كالرؤية يعيون أبصارهم لما قام عليه من الدلائل بعضه من الشواهد الجلائل (أن الله الذي خلق السموات) جمعها المادل على ذلك من الحسن ولما لم تكن الارض مثل ذلك أفردها مريدا الجنس الصالح للجميع بقوله تعالى (والارض) على كبر أجرامها وعظم احكامها وقوله تعالى (قادر على أن يخلق مثلهم) فيه قولان الاول المعنى قادر على أن يخلقهم ثانيا فعبر عن خلقهم ثانيا بلفظة المثل كما يقول المتكلمون ان الاعادة مثل الابتداء الثاني أن المراد قادر على أن يخلق عبيدا آخرين يوحدونه ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويتركون ذكر هذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا فهو كقوله تعالى ويأت بخلق جديد وقوله تعالى ويستبدل قوما غيركم قال الواحدي والقول هو الاول لانه أشبه بما قبله ● ولما بين الله تعالى بالدليل المذكور ان البعث والقيام أمر ممكن الوجود في نفسه أردفه ببيان أن لوقوعه في الوجود وقتا معلوما عند الله وهو قوله تعالى (وجعل لهم أجلا لا ريب) اى لا شك (فيه) وهو الموت أو القيامة (فأبى الظالمون الا كفورا) أى بعد هذه الدلائل الظاهرة أبوا الا الكفر والجحود ● ولما قال الكفار لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا فطلبوا اجراء الانهار والعيون في بلدتهم لتكثر أموالهم ويتسع عيشهم بين تعالى أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم وشحهم بقوله تعالى (قل) اى لهؤلاء المتعنتين (لو أنتم) اى دون غيركم (تملكون خزائن) عبر بصيغة منتهى الجموع لان المقام جدير بالمبالغة (رحمة ربي) اى خزائن رزقه وسائر نعمه وذلك غير متناه (اذا لامسكتم) اى لو قع منكم الامساك عن الانفاق في بعض الوجوه التي تحتاجونها (خشية) اى مخافة عاقبة (الانفاق) اى الموصل الى الفقر فكان المعنى انكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لانهاية لها لبقيتم على الشح والدناءة وهذا مبالغة عظيمة في وصفهم بهذا الشح وقول البيضاوي تبعا للزمخشري أنتم مرفوع بفعل يفسره ما بعده قال الزمخشري تقديره لو تملكون جرى فيه على مذهب الكوفيين من أن لو يليها الفعل مضمرا كما يليها ظاهرا والبصريون يمنعون ايلاءها الفعل مضمرا الا في شذوذ كقول حاتم لو ذات سوار لطمتني واصل هذا المثل ان امرأة عطلاء من الحلي والهيئة لطمت حاتما على نحر الناقة وقاتلته بقسوة لما أردنا نفصدها والفصد عندهم أن يقطع عرق من عروق ٣ ثم يجمع دمها فيشوى وقيل أصله ان المرأة المذكورة لطمت رجلا فقال لو ذات سوار لطمتني لاحتملتها فصار مثلا يضرب للكريم يلطمه الدنيء ثم استدل على صحة هذا المفروض بالشاهد من مضمون قولهم (وكان) اى جبلة وطبعا (الانسان) اى الذي من شأنه الانس بنفسه فهو لذلك لا يعقل الامور حق عقلها (قتورا) اى بخيلا ● (تنبيه) ● فتح الياء في ربي نافع وأبو عمرو وسكنها الباقون وهم على مراتبهم في المد (فان قيل) قد يوجد في جنس الانسان من هو جواد كريم (أجيب) من

فانه يدل على انه من الملائكة (قلت) في ذلك قولان أحدهما انه من الجن الظاهر هذه الآية ولانه له ذرية كفرة ولانه أي كفر الكفرة بخلاف الملائكة لا ذرية لهم ولا يعصون

٣ قوله عرق من عروق هكذا بالنسخ ولعله عرق من عروق البعير أو نحو ذلك اه مصححه

وجوه الاول ان الاصل في الانسان البخل لانه خلق محتاجا والمحتاج لابد وأن يحبس ما به يدفع الحاجة وأن يمسكه لنفسه الا أنه قد يجود به لاسباب من خارج فثبت أن الاصل في الانسان البخل الثاني أن الانسان انما يبذل لطلب الثناء والحمد وليخرج عن عهدة الواجب فهو في الحقيقة ما أنفق الا ليأخذ العوض فهو في الحقيقة بخيل الثالث أن المراد بهذا الانسان المعهود السابق وهم الذين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ولما قدم سبحانه وتعالى أن أكثر الناس جحدوا الآيات لكونه تعالى حكم بضلالهم ومن حكم بضلاله لا يمكن هداه شرع يسلي نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بما اتفق لمن قبله من الانبياء بقوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) اى واضحات واختلف في هذه الآيات فقال ابن عباس والضحاك هي العصا واليد البيضاء والعقدة التي كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وقال مجاهد وعطاء هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون ونقص من الثمرات وقال البقاعي وهي كما في التوراة العصا ثم الدم ثم الضفادع ثم القمل ثم موت البهائم ثم البرد الكبار التي أنزلها الله تعالى مع النار المضطرمة فكانت تهلك كل ما مرت عليه من نبات وحيوان ثم الجراد ثم الظلمة ثم موت الابكار من الآدميين وجميع الحيوان ثم قال وقد نظمتها ليهون حفظها فقلت

عصا قل موت البهائم ظلمة * جراد دم ثم الضفادع والبرد
وموت بكور الآدمي وغيره * من الحي آتاه الذي عز وانفرد

قال وكأنه عد اليد مع العصا آية ولم تفرد اليد لانه ليس فيها ضرر عليهم اه وقال البيضاوي هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفجار الماء من الحجر وانفلاق البحر ونتق الطور على بني اسرائيل وذكر محمد بن كعب القرظي الطمس والبحر بدل السنين ونقص من الثمرات وقال كان الرجل منهم مع أهله في فراشه وقد صارا حجرين والمرأة منهم قائمة تخبز وقد صارت حجرا وقال بعضهم هي آيات الكتاب وهي أحكام يدل عليها ما روى عن صفوان ان يهوديا قال لصاحبه تعال نسأل هذا النبي فقال الآخر لا تقل نبي فانه لو سمع صارت له أربعة أعين فأتياه فسألاه عن هذه الآية ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فقال لا تشركوا بالله شيأ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا بالبريء الى سلطان ليقتله ولا تسرقوا ولا تقذفوا المحصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت فقبلوا يده وقالوا نشهد انك نبي قال فما منعكم أن تتبعوني قالوا ان داود دعا ربه أن لا يزال في ذريته نبي وانا نخاف ان اتبعناك أن تقتلنا اليهود وقال الرازي اعلم أنه تعالى ذكر في القرآن أشياء كثيرة من معجزات موسى عليه السلام احدها أنه تعالى أزال العقدة من لسانه قيل في التفسير ذهب العجمة وصار فصيحا ثانيها انقلاب العصا حية ثالثها تلقف الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها رابعها اليد البيضاء وخمسة أخرى وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعاشر شق البحر وهو قوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر والحادي عشر الحجر وهو قوله تعالى أن اضرب بعصاك الحجر والثاني عشر اظلال الجبل وهو قوله تعالى واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة والثالث عشر انزال المن والسلوى عليه وعلى قومه

الله ما امرهم لانهم عقول مجردة لا شهوة لهم ولا معصية الا عن شهوة فالاستثناء في تلك الآية منقطع ويؤيدهما وهو المختار أنه من الملائكة قبل أن يعصى الله تعالى فلما

والرابع عشر والخامس عشر قوله تعالى ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات والسادس عشر الطمس على أموالهم حجارة من النخل والدقيق والاطعمة والدراهم والدنانير روى أن عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب عن قوله تعالى تسع آيات بينات فذكر محمد بن كعب في جملة التسع حل عقدة اللسان والطمس فقال عمر بن عبد العزيز هكذا يجب أن يكون الفقيه ثم قال يا غلام أخرج ذلك الجراب فأخرجه فنفضه فاذا بيض مكسور نصفين وجوز مكسور وفوم وعدس وحمص كلها حجارة وقوله تعالى (فاسئل) اى يا أعظم خلقنا (بنى اسرائيل) يجوز أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين ولا همزة بعدها والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ويجوز أن يكون الخطاب له خاصة وأمره بالسؤال لهم ليتبين له كذبهم مع قومهم أي فاسأل بني اسرائيل عامة الذين نبهوا قريشا على السؤال عن الروح كما في بعض الروايات وعن أهل الكهف وذى القرنين وعن حديث موسى عليه السلام والمؤمنين منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه (اذ) اى عن ذلك حين (جاءهم) أي جاء آباءهم فوقع لهم من التكذيب بعد اظهار المعجزات الباهرات ما وقع لك (فقال) اى فذهب الى فرعون فأمره بارسالهم معه فأبى فاظهر له الآيات واحدة بعد أخرى فتسبب عن ذلك صدق ما يقتضيه الحال وهو أن قال (له فرعون) عتوا واستكبارا (انى لاظنك يا موسى مسحورا) اى مخدوعا مغلوبا على عقلك فكل ما تشاء عنك فهو من آثار السحر وهذا كما قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وقال في موضع آخر ساحر وانهم ربما أطلقوا اسم المفعول مريدين اسم الفاعل مبالغة لانه كالخبر عن الفعل وفى الامر بسؤال اليهود تنبيه على ضلالهم ولما لم يؤمن فرعون على تواتر تلك الآيات وعظمها كانه قيل فما قال موسى عليه السلام فقيل (قال) لفرعون (لقد علمت) بفتح التاء قراءة غير الكسائي وقرأ الكسائي بضمها على اخباره عن نفسه (ما أنزل هؤلاء) اى الآيات (الا رب السموات والارض) اى خالقهما ومدبرهما حال كون هذه الآيات (بصائر) اى بينات يبصر بها صدقى وأما السحر فانه لا يخفى انه خيال لا حقيقة له ولكنك تعاند * (تنبيه) * قوله تعالى هؤلاء الكلام عليه من جهة الهمزتين كالكلام على هؤلاء ان كنتم في البقرة وقد تقدم الكلام على ذلك * ثم حكى الله تعالى ان موسى قال لفرعون (وانى) اى وان ظننتنى يا فرعون مسحورا (لاظنك يا فرعون مثبورا) اى ملعونا مطرودا ممنوعا من الخير فاسد العقل فعارضه موسى بذلك وشتان بين الظنين فان ظن فرعون كذب صرف لعناده لرب العالمين لوضوح مكابرته للبصائر التى كشف عنها ايما انكشاف فهى أوضح من الشمس وظن موسى عليه السلام قريب الى الصحة واليقين من تظاهر أماراته لان هذه الآيات ظاهرة وهذه المعجزات قاهرة ولا يرتاب العاقل أنها من عند الله وفى أنه تعالى أظهرها لاجل تصديقى وأنت منكرها فلا يحملك على هذا الانكار الا الحسد والعناد والبغى والجهل وحب الدنيا ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور (فاراد) اى فتسبب عن هذا الذى هو موجب للايمان في العادة الا أن فرعون أراد (أن يستفزهم) اى يستخف موسى ومن آمن معه ويخرجهم فيكونوا كالماء اذا سال من قولهم فز الجرح اذا سال (من الارض) بالنفى والقتل ليتمكن منهم كما أراد هؤلاء أن يستفزوك منها

للتمكن

عصاه فمسخه شيطانا وروى
ذلك عن ابن عباس كما روى
عنه أيضا انه كان من خزان
الجنة فتوهم جماعة من
الملائكة يسمون الجن فكان
بمعنى صار أو المعنى كان في
سابق علمه تعالى او من

للتمكن مما هم عليه من الكفر والعناد ثم أخذ تعالى يحذرهم سطواته بما فعل بمن كان قبلهم وأكثر منهم وأشد بقوله تعالى (فأغرقناه) أى فتسبب عن ذلك أن رددنا كيده فى نحره كما قال تعالى ولا يحيق المكر السيء الا بأهله أراد فرعون أن يخرج موسى من أرض مصر لتخلص له تلك البلاد والله تعالى أهلك فرعون وجعل تلك الارض خالصة لموسى ولقومه فأدخله البحر حين أدخل بنى اسرائيل فأنجاهم وأغرق آل فرعون (ومن معه جميعا) كما جرت به سنة الله تعالى فيمن عاند بعد أن رأى الخوارق وكفر النعمة وأفرط فى البغى بعد ظهور الحق فليحذر هؤلاء مثل ذلك ولاسيما اذا أخرج رسولنا من بين أظهرهم ففى هذه الآية وأمثالها بشارة له صلى الله عليه وسلم فى ان الله تعالى يسلك به فى النصرة والتمكن سبيل اخوانه من الرسل عليهم الصلاة والسلام (وقلنا من بعده) أى الاغراق (لبنى اسرائيل) الذين كانوا تحت يده أذل من العبيد لتقواهم واحسانهم (اسكنوا الارض) اى التى أراد أن يستفزكم منها (فاذا جاء) اى مجيأ محققا (وعد الآخرة) اى القيامة بعد أن سكنتم الارض أحياء ودفنتم فيها أمواتا (جئنا) اى بما لنا من العظمة والقدرة (بكم) منها (لفيفا) اى بعثنا كم واياهم مختلطين لا حكم لاحد على آخر ولا دفع لاحد عن آخر على غير الحالة التى كانت فى الدنيا ثم ميزنا بعضكم عن بعض ثم عطف سبحانه وتعالى على قوله تعالى ولقد صرفنا قوله عز وجل (وبالحق) أى من المعانى الثابتة التى لا مرية فيها لا بغيره (أنزلناه) نحن أى القرآن فهو ثابت لا يزول كما أن الباطل هو الذاهب الزائل وهذا القرآن الكريم مشتمل على أشياء لا تزول وذلك لانه مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والاكرام وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوة الانبياء واثبات الحشر والنشر والقيامة وكل ذلك مما لا يقبل الزوال ويشتمل أيضا على شريعة باقية لا يتطرق اليها النقص والتغيير والتحريف وأيضا هذا القرآن تكفل الله تعالى بحفظه عن تحريف الزائغين وتبديل الجاهلين كما قال تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (وبالحق) لا بغيره (نزل) هو ووصل اليهم على لسانك بعد انزاله عليك كما أنزلناه واعتضاد بالمحفوظ لم يطرأ عليه طارئ فليس فيه من تحريف ولا تبديل كما وقع فى كتاب اليهود الذين سألهم قومك ثم قال تعالى (وما أرسلناك) يا أفضل الخلق بما لنا من العظمة (الا مبشرا) للمطيع (ونذيرا) للعاصى من العقاب فلا عليك الا التبشير والانذار لا ما يقترحونه عليك من المعجزات فان قبلوا الدين الحق انتفعوا به والا فليس عليك من كفرهم شئ ثم ان الله تعالى أخبر أن الحكمة فى انزال القرآن مفرقا بقوله عز وجل (وقرآنا) أى وفصلنا أو وأنزلنا قرآنا (فرقناه) أى أنزلناه نجما فى أوقات متطاولة قال سعيد بن جبير نزل القرآن كله ليلة القدر من السماء العليا الى السماء السفلى ثم فصل فى السنين التى نزل فيها قال قتادة كان بين أوله وآخره عشرون سنة وقيل ثلاث وعشرون سنة والمعنى قطعناه آية آية وسورة سورة ولم ينزل جملة (لتقرأه على الناس) أى عامة (على مكث) اى مهل وتؤدة ليفهموه (ونزلناه) من عندنا بما لنا من العظمة (تنزيلا) بعضه اثر بعض مفرقا بحسب الوقائع لانه أتقن فى نصابها وأعون على الفهم لطول التأمل لما نزل من نجومه فى مدة ما بين النجمين لغزارة ما فيه من المعانى ثم ان الله تعالى هددهم على لسان نبيه

الجن الذين هم من الملائكة فالاستثناء متصل ولا منافاة بين الآيتين (قوله افتتخذونه وذريته أولياء من دونى) ان قلت كيف قال ذلك مع ان الشيطان وذريته ليسوا أولياء بل أعداء لان الاولياء هم الاصدقاء (قلت)

صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل) لهؤلاء الضالين (آمنوا به) أى القرآن (أو لا تؤمنوا) فالايمان به غير محتاج اليكم ولا موقوف عليكم لانكم ان آمنتم به كان الحظ لكم والا لم تضروا الا أنفسكم فاختاروا ما تريدون فان ايمانكم بالقرآن لا يزيده كمالا وامتناعكم منه لا يورثه نقصانا وقوله تعالى (ان الذين أوتوا العلم من قبله) أى من قبل انزاله ممن آمن به من بنى اسرائيل تعليل له أى ان لم تؤمنوا به وأنتم أهل جاهلية وشرك فان خيرا منكم وأفضل وهم العلماء الذين قرؤا الكتب وعلموا ما الوحى وما الشرائع قد آمنوا به وصدقوه وثبت عندهم أنه النبى العربى الموعود فى كتبهم (اذا يتلى عليهم) أى القرآن (يخرون للاذقان) منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام قال الزجاج الذقن مجمع اللحيين وكما يبتدئ الانسان بالخرور الى السجود فاقرب الاشياء من وجهه الى الارض الذقن وقيل ان الاذقان كناية عن اللحى والانسان اذا بالغ عند السجود فى الخشوع والخضوع ربما مسح لحيته على التراب فان اللحية يبالغ فى تنظيفها فاذا عفرها الانسان بالتراب فى معرض المبالغة فقد أتى بغاية التعظيم وقيل ان الانسان اذا استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على الارض فى معرض السجود كالمغشى عليه فيكون حينئذ خروره على الذقن فقوله يخرون للاذقان كناية عن غاية وَلَهِه وخوفه وخشيته (فان قيل) لم قال يخرون للاذقان سجدا ولم يقل يسجدون (أجيب) بان المقصود من ذكر هذا اللفظ مسارعتهم الى ذلك حتى كأنهم يسقطون (فان قيل) لم قال يخرون للاذقان ولم يقل على الاذقان (أجيب) بأن العرب تقول اذا خر الرجل فوقع لوجهه خر للذقن ثم بين أن ذلك ليس سقوطا اضطراريا من كل جهة بقوله تعالى (سجدا) أى يفعلون ذلك لما يعلمون من خيفته بما أوتوا من العلم السالف وما فى قلوبهم من الاذعان والخشية للرحمن (ويقولون) أى على وجه التجديد المستمر (سبحان ربنا) تنزيها له عن خلف الوعد (ان) أى انه (كان) أى كوناً لا ينفك (وعد ربنا) أى المحسن الينا بالايمان وما تبعه من وجوه العرفان (لمفعولا) أى دون خلف ولا بد أن يأتى جميع ما وعد به فى الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وانزال القرآن عليه ومن الثواب والعقاب وهو تعريض بقريش حيث كانوا يستهزؤن بالوعيد فى قولهم أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ونحوه مما معناه الطعن فى قدرة الله تعالى القادر على كل شئ وقوله تعالى (ويخرون للاذقان يبكون) كرره لاختلاف الحال والسبب فان الاول للشكر عند انجاز الوعد والثانى لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله (ويزيدهم) أى سماع القرآن (خشوعا) أى خضوعا وتواضعا ولين قلب ورطوبة عين ٭ ولما طالت الكلمات فى المناظرة مع المشركين ومنكرى النبوات والجواب عن شبهاتهم أتبعها ببيان كيف يدعون الله ويطيعونه وكيف يذكرونه فى وقت الاشتغال باداء العبودية فقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) لهم (ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات ليلة وهو ساجد يا الله يا رحمن فسمعه أبو جهل وهم لا يعرفون الرحمن فقال ان محمدا ينهانا أن نعبد الهين وهو يدعو الها آخر مع الله تعالى يقال له الرحمن فانزل الله تعالى هذه الآية أى ان شئتم قولوا يا الله وان شئتم قولوا يا رحمن وعن عائشة رضى الله تعالى عنها

قالت

المراد بالولا هنا اتباع الناس لهم فيما يامرونهم به من المعاصى فالمراد الاعتزال من هذا لانه من لوازمها (قوله ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربه فاعرض عنها) قاله هنا بالفاء الدالة على التعقيب لانها هنا فى الاحياء من

قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر بالدعاء يقول يا الله يا رحمن فسمعه أهل مكة فأقبلوا
عليه فأنزل الله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن الآية وعن ابن عباس ان ذكر الرحمن
كان في القرآن قليلا في أول ما أنزل وكان الذين قد أسلموا من اليهود يسوءهم قلة ذكره لكثرته في
التوراة كابن سلام وابن يامين وابن صوريا وغيرهم فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك
فنزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن فقال قريش ما بال محمد كان يدعو إلها واحدا
وهو الآن يدعو إلهين ما نعرف الرحمن الا صاحب اليمامة فنزل وهم بذكر الرحمن هم كافرون
ونزل أيضا قوله تعالى قالوا وما الرحمن وفرح مؤمنو أهل الكتاب وهو قوله تعالى الذين آتيناهم
الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب أي مشركي قريش من ينكر بعضه وعن ابن
عباس سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن
الى آخر الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أمان من السرقة فان رجلا من المهاجرين
تلاها حين أخذ مضجعه فدخل عليه سارق فجمع ما في البيت وحمله والرجل ليس بنائم حتى
انتهى الى الباب فوجد الباب مردودا فوضع الكارة ففعل ذلك ثلاث مرات فضحك صاحب
الدار فقال اني أحصنت بيتي (فان قيل) اذا قال الرجل ادع زيدا أو عمرا فهم منه كون زيد
مغايرا لعمرو فيوهم كون الله تعالى غير الرحمن وحينئذ تقوى شبهة أبي جهل لعنه الله تعالى
(أجيب) بأن الدعاء هنا بمعنى التسمية لا بمعنى النداء والتسمية تتعدى الى مفعولين يقال
دعوته زيدا ثم يترك أحدهما استغناء عنه فيقال دعوت زيدا والله والرحمن المراد بهما الاسم
لا المسمى وأو للتخيير فمعنى الآية ادعوا باسم الله أو ادعوا باسم الرحمن أي اذكروه بهذا الاسم
أو اذكروه بذلك الاسم فقوله ادعوا الله يحسبه على ما لزم في كرمه بحكم الوعد من افاضة الرحمة
والكرم وأيضا تخصيص هذين الاسمين بالذكر يدل على أنهما أشرف من سائر الاسماء وتقديم
اسم الله على اسم الرحمن يدل على أن قولنا الله أعظم الاسماء وتقدم الكلام على ذلك في تفسير
بسم الله الرحمن الرحيم والتنوين في قوله تعالى (أيا ما تدعوا) عوض عن المضاف اليه وما صلة
للابهام المؤكد والمعنى أيا تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله تعالى (فله الاسماء الحسنى)
لانه اذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان لانهما منها ومعنى كونها أحسن الاسماء أنها
مستقلة بمعاني التمجيد والتقديس والتعظيم وقد تقدم ذكر الاسماء الحسنى في الاعراف عند
قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها او بعض الاحاديث الواردة في فضلها فليراجع ووقف
حمزة والكسائي على الالف بعد الياء ووقف الباقون على الالف بعد الميم واختلف في تفسير
ونزول قوله تعالى (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) فروى عن ابن عباس أنه صلى الله عليه
وسلم كان يرفع صوته بالقراءة فاذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من جاء به فأوحى الله تعالى اليه
ولا تجهر بصلاتك فيسمعه المشركون فيسبوا الله تعالى عدوا بغير علم ولا تخافت بها فلا تسمع
أصحابك (وابتغ بين ذلك سبيلا) وروى أنه صلى الله عليه وسلم طاف بالليل على دور الصحابة وكان
أبو بكر رضي الله تعالى عنه يخفي صوته بالقراءة في صلاته وكان عمر يرفع صوته فلما جاء النهار
وجاء أبو بكر وعمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي بكر لم تخفي صوتك فقال أناجي ربي
وقد علم حاجتي وقال لعمر لم ترفع صوتك فقال أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان فأمر النبي صلى

الكفار فانهم ذكروا
فاعرة واطعب ماذكروا
وقاله في الصحبة ثم بدالة
على التراخي لان ما هذا الذي
الاصوات من الكفار فانهم
ذكروا مرة بعد أخرى ثم

الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع صوته قليلا وعمر أن يخفض صوته قليلا وقيل معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلا بان تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار وقيل ان المراد بالصلاة الدعاء وهذا قول عائشة رضى الله تعالى عنها وأبي هريرة ومجاهد قالت عائشة هي الدعاء وروى هذا مرفوعا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية انما ذلك في الدعاء والمسئلة قال عبد الله بن شداد كان اعراب من بني تميم اذا سلم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا اللهم ارزقنا مالا وولدا يجهرون فانزل الله تعالى هذه والمخافتة خفض الصوت والسكون يقال صوت خفيت أى خفيض ويقال للرجل اذا مات قد خفت أى انقطع كلامه وخفت الزرع اذا ذبل والمستحب من ذلك التوسط وهو أن يسمع نفسه كما روى عن ابن مسعود أنه قال من لم يخافت لم يسمع أذنيه وقد مدح الله تعالى المؤمنين بقوله تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال عز من قائل ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وبعضهم قال الآية منسوخة بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية قال الرازى وهو بعيد ٭ ولما أمر الله تعالى أنه لا يذكر ولا ينادى الا بأسمائه الحسنى علم كيفية التحميد بقوله تعالى (وقل الحمد لله) اى الملك الاعظم ثم ذكر سبحانه وتعالى من صفات التنزيه والجلال وهي السلوب ثلاثة أنواع الاول قوله تعالى (الذى لم يتخذ) اى لكونه محيطا بالصفات الحسنى (ولدا) والسبب فيه وجوه الاول أن الولد هو الشئ المتولد من جزء من أجزاء ذلك الشئ فكل من له ولد فهو مركب من الاجزاء والمركب محدث والمحدث محتاج والمحتاج لا يقدر على كمال الانعام فلا يستحق كمال الحمد الثانى أن كل من له ولد فانه يمسك جميع النعم لولده فاذا لم يكن له ولد أفاض تلك النعم على عبيده الثالث أن الولد هو الذى يقوم مقام الوالد بعد انقضائه وفنائه فلو كان له ولد لكان منقضيا ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الانعام فى كل الاوقات فوجب أن لا يستحق الحمد على الاطلاق ٭ النوع الثانى من الصفات السلبية قوله تعالى (ولم يكن له) بوجه من الوجوه (شريك فى الملك) والسبب فى اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك لم يعرف حينئذ أن هذه النعم والمنافع حصلت منه أو من شريكه فلا يعرف كونه مستحقا للحمد والشكر ٭ النوع الثالث قوله تعالى (ولم يكن له ولى من الذل) أى ولم يوال من أجل مذلة به يدفعها بموالاته والسبب فى اعتباره أنه لو جاز عليه ولى يلى أمره كان مستوجبا الاعظم أنواع الحمد ومستحقا لاقسام الشكر فنفى عنه أن يكون له ما يشاركه من جنسه ومن غير جنسه اختيارا أو اضطرارا أو ما يعاونه ويقويه ورتب الحمد عليه للدلالة على أنه الذى يستحق جنس الحمد لانه كامل الذات المنفرد بالايجاد المنعم على الاطلاق وما عداه ناقص مملوك نعمة أو منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله تعالى (وكبره تكبيرا) أى وعظمه تعظيما على نفى اتخاذ الولد والشريك والذل وكل ما لا يليق به وترتيب الحمد على ذلك للدلالة على أنه المستحق لجميع المحامد لكمال ذاته وتفرده فى صفاته روى الامام أحمد فى مسنده عن معاذ الجهنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقول آية العز الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك الى آخر السورة وعن ابن عباس أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدونه فى السراء والضراء

اعرضوا الملوت فلم يؤمنوا
(قوله نسيا حوتهما) ان
قلت كيف قال ذلك مع
ان الناسي يوشع وحده
(قلت) نسبة النسيان اليهما
مجاز والمراد احدهما

صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جلس مجلسا ذكر فيه الله تعالى وحذر قومه ما أصاب من كان قبلهم من الامم وكان النضر يخلفه فى مجلسه اذا قام وقال أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثا منه فهلموا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ثم قال ان قريشا بعثوه وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط الى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما سلاهم عن محمد وصفته فانهم أهل الكتاب الاول وعندهم من العلم ماليس عندنا من علم الانبياء فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن أحوال محمد فقال لهم اليهود سلوه عن ثلاثة عن فتية ذهبوا فى الدهر الاول فان حديثهم عجيب وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الارض ومغاربها وسلوه عن الروح وماهى فان اخبركم فهو نبي والا فهو متقول فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا قد جئتنا كم بفصل ما بيننا وبين محمد واخبراهم بما قالته اليهود فجاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخبركم بما سألتم عنه غدا ولم يستثن فانصرفوا عنه فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمس عشرة ليلة لم ينزل عليه وحى وشق عليه ذلك ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله بسورة اهل الكهف وفيها معاتبة الله تعالى اياه على حزنه عليهم وفيها خبر اولئك الفتية وخبر الرجل الطواف ثم بدأ بالفتية فقال (اذ) اى واذكر اذ (اوى الفتية) وهم اصحاب الكهف المسؤل عنهم جمع فتى وهو الشاب الكامل والشباب اقبل الى الحق واهدى للسبيل من الشيوخ (الى الكهف) خائفين على ايمانهم من قومهم الكفار واختلفوا فى سبب مصيرهم الى الكهف فقال محمد بن اسحق بن يسار مرج أهل الانجيل وكثرت فيهم الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكين بعبادة الله وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس عبد الاصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه وكان ينزل قرى الروم فلا يترك فى قرية نزلها احدا الا فتنه عن دينه حتى يعبد الاصنام او يقتله ثم نزل مدينة اهل الكهف وهى افسوس فلما نزل بها كبر على اهل الايمان فاستخفوا منه وهربوا فى كل وجه واتخذ شرطا من الكفار وامرهم ان يتبعوهم فى اماكنهم ويخرجوهم اليه فخيروهم بين القتل وبين عبادة الاوثان والذبح للطواغيت فمنهم من يرغب فى الحياة ومنهم من يأبى ان يعبد غير الله تعالى فيقتل فلما راى ذلك اهل الشدة فى الايمان جعلوا يسلمون انفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ويقطعون ثم جعل ما قطع من اجسامهم على سور المدينة من نواحيها وعلى كل باب من ابوابها حتى عظمت الفتنة فلما رأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والدعاء والتسبيح وكانوا من أشراف المدينة ومن أشراف الروم وكانوا ثمانية نفر بكوا وتضرعوا الى الله تعالى وجعلوا يقولون ربنا اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وارفع عنهم هذا البلاء حتى يعلنوا عبادتك فبينما هم على ذلك وقد دخلوا مصلى لهم أدركهم الشرط فوجدوهم سجودا على وجوههم يبكون ويتضرعون الى الله تعالى فقالوا لهم ما خلفكم عن أمر الملك انطلقوا اليه ثم خرجوا فرفعوا أمرهم الى دقيانوس فقالوا تجمع الناس للذبح لآلهتك وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يستهزؤن بك ويعصون أمرك فلما سمع ذلك بعث اليهم

فبذكر مولان فى ذكره
قصد زيادة المواجهة
بالعتاب على ترك الوصية مرة
ثانية (قوله مالم تستطع)
جاء فى الاول بالتاء على

فأتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم في التراب فقال لهم ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التي تعبد في الارض وتجعلوا أنفسكم أسوة سراة أهل مدينتكم اختاروا اما ان تذبحوا لآلهتنا واما أن أقتلكم فقال له كبيرهم واسمه مكسلمينا ان لنا الها ملء السموات والارض عظمته لن ندعو من دونه الها أبدا له الحمد والتكبير والتسبيح من أنفسنا خالصا أبدا اياه نعبد واياه نسأل النجاة والخير وأما الطواغيت فلن نعبدها أبدا اصنع ما بدا لك وقال أصحابه مثل ما قال فلما قالوا ذلك أمر الملك بنزع لباسهم وحلية كانت عليهم من الذهب والفضة وقال سأفرغ لكم وأنجز لكم ما وعدتكم من العقوبة وما يمنعني أن أعجل لكم ذلك الا أني أراكم شبابا حديثة أسنانكم فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلا تذكرون فيه وترجعون الى عقولكم ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده وانطلق الى مدينة أخرى قريبة منهم لبعض أموره فلما رأى الفتية خروجه بادروا قدومه وخافوا اذا قدم مدينتهم أن يذكرهم فائتمروا بينهم أن يأخذ كل واحد منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقي ثم ينطلقوا الى كهف قريب من المدينة فيمكثوا فيه ويعبدوا الله تعالى حتى اذا جاء دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما يشاء فلما قال ذلك بعضهم لبعض عمد كل فتى منهم الى بيت أبيه فأخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقي معهم واتبعهم كلب كان لهم حتى اذا أتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه وقال كعب الاحبار مروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مرارا فقال لهم الكلب ما تريدون مني لا تخشوا جانبي أنا أحب أحباب الله عز وجل فناموا حتى أحرسكم وقال ابن عباس هربوا ليلا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعه كلبه فخرجوا من البلد الى الكهف وهو قريب من البلد قال ابن اسحق فلبثوا فيه ليس لهم عمل غير الصلاة والصيام والتسبيح والتحميد ابتغاء وجه الله تعالى وجعلوا نفقتهم الى فتى منهم يقال له تمليخا فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرا وكان من أجملهم وأجلدهم وكان اذا دخل المدينة يضع ثيابا كانت عليه حسانا ويأخذ ثيابا كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها ثم يأخذ ورقه وينطلق الى المدينة فيشتري لهم طعاما وشرابا ويتجسس لهم الخبر هل ذكروا أصحابه بشيء ثم يرجع الى أصحابه فلبثوا في ذلك ما شاء الله أن يلبثوا ثم قدم دقيانوس المدينة وأمر عظماء أهلها أن يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الايمان وكان تمليخا يشتري لاصحابه طعامهم فرجع الى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل وأخبرهم ان الجبار قد دخل المدينة وأنهم قد ذكروا والتمسوا من عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجودا يدعون ويتضرعون ويتعوذون من الفتنة ثم ان تمليخا قال لهم يا اخوتاه ارفعوا رؤسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم فرفعوا رؤسهم وأعينهم تفيض من الدمع فطعموا وذلك مع غروب الشمس ثم جعلوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضا فبينما هم كذلك اذ ضرب الله على آذانهم في الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابهم ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤسهم فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس فالتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض عظمائه وعظماء المدينة لقد ساءني شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد كانوا ظنوا

الاصل وقوله فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا لان مفعول الاول ... الفرع ... ومحكس ذلك في قوله فما

ان بى غضبا عليهم بجهلهم ما جهلوا من أمرى ما كنت لأجهل عليهم انهم تابوا وعبدوا الهى فقال عظماء المدينة ما أنت بحقيق أن ترحم قوما فجرة مردة عصاة فقد كنت أجلت لهم أجلا ولو شاؤا الرجعوا فى ذلك الاجل ولكنهم لم يتوبوا فلما قالوا ذلك غضب غضبا شديدا ثم أرسل الى آبائهم فأتى بهم فسألهم عنهم وقال اخبرونى عن أبنائكم المردة الذين عصونى فقالوا أما نحن فلم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة قد ذهبوا بأموالنا وأهلكوها فى أسواق المدينة ثم انطلقوا فارتقوا الى جبل يدعى بنجلوس فلما قالوا ذلك خلى سبيلهم وجعل ما يدرى ما يصنع بالفتية فألقى الله تعالى فى قلبه أن يسد باب الكهف عليهم وأراد الله تعالى أن يكرمهم بذلك ويجعلهم آية لأمة تستخلف من بعدهم وأن يبين لهم ان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور فأمر دقيانوس بالكهف أن يسد عليهم وقال دعوهم كما هم فى الكهف يموتون جوعا وعطشا ويكون كهفهم الذى اختاروه قبرا لهم وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم وقد توفى الله تعالى أرواحهم وفاة النوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال ثم ان رجلين مؤمنين فى بيت الملك دقيانوس يكتمان ايمانهما اهتما أن يكتبا شأن الفتية وخبرهم فى لوحين من رصاص ويجعلاهما فى تابوت من نحاس ويجعلا التابوت فى البنيان وقالا لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من يفتح عليهم خبرهم حين يقرأ الكتاب ففعلا ذلك وبنيا عليه وبقى دقيانوس ما بقى ثم مات وقومه وقرون بعده كثيرة وقد حكى الله تعالى عنهم أنهم لما أووا الى الكهف (فقالوا) أى عقب استقرارهم فيه (ربنا آتنا من لدنك) أى من عندك (رحمة) توجب لنا المغفرة والرزق والامن من عدوك (وهيئ لنا من أمرنا) أى من الامر الذى نحن عليه من مفارقة الكفار (رشدا) الرشد والرشد والرشاد نقيض الضلال وفى تفسير الآية وجهان الاول أن التقدير هيئ لنا أمرا ذا رشد أى حتى نصير بسببه راشدين مهتدين الثانى اجعل أمرنا رشدا كله كقولك رأيت منك رشدا ولما أجابهم سبحانه وتعالى عبر عن ذلك بقوله تعالى (فضربنا) أى عقب هذا القول وبسببه (على آذانهم) حجابا يمنع السماع أى أنمناهم نومة لا تنبههم الاصوات الموقظة فحذف المفعول الذى هو الحجاب كما يقال بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبة ثم بين تعالى انه انما ضرب على آذانهم (فى الكهف) أى المعهود وهو ظرف مكان وقوله تعالى (سنين) ظرف زمان وقوله تعالى (عددا) أى ذوات عدد يحتمل التكثير والتقليل فان مدة لبثهم كبعض يوم عنده كقوله تعالى لم يلبثوا الا ساعة من نهار وقال الزجاج اذا قل الشئ فهم مقدار عدده فلم يحتج الى أن يعد واذا كثر احتاج الى أن يعد (ثم بعثناهم) أى أيقظناهم من ذلك النوم (لنعلم) أى علم مشاهدة وقد سبق نظير هذه الآية فى القرآن كثيرا منها ما سبق فى سورة البقرة الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وفى آل عمران ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم وقد نبهنا على ذلك فى محله (أى الحزبين) أى الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم (أحصى لما لبثوا أمدا) واختلفوا فى الحزبين المختلفين فقال عطاء عن ابن عباس المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك وأصحاب الكهف وقال مجاهد الحزبان من الفتية أصحاب الكهف لما تيقظوا اختلفوا

قوله بنجلوس كذا فى أكثر النسخ وفى بعض بنجلوس بالحاء وفى الجمل بالجيم وفى حياة الحيوان منجلوس والعلم عند الله اه مصححه

الاول اشتمل على حرف وفعل وفاعل ومفعول فناسبه الحذف تخفيفا بخلاف مفعول الثانى فانه اسم واحد وهو قوله نقبا فناسبه البقاء على الاصل (قوله فاردت ان اعيبها)

فأمهم كم لبثوا ويدل له قوله تعالى قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فالحزبان هما هذان وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا ان لبثهم قد تطاول وقال الفراء ان طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم ﴿تنبيه﴾ أحصى فعل ماض أى أيهم ضبط أمر أوقات لبثهم واما من جعله أفعل تفضيل فقال فى الكشاف ليس بالوجه السديد وذلك ان بناءه من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس ونحو أعدى من الجرب وأفلس من ابن المذلق شاذ والقياس على الشاذ فى غير القرآن ممتنع فكيف به ثم قال الله تعالى (نحن) أى بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة (نقص عليك) يا أشرف الخلق (نبأهم) أى خبرهم العظيم قصا ملتبسا (بالحق) أى الصدق (انهم فتية) أى شبان (آمنوا بربهم) أى المحسن اليهم الذى تفرد بخلقهم ورزقهم ثم وصفهم الله تعالى بقوله (وزدناهم) بعد ان آمنوا (هدى) بما قذفناه فى قلوبهم من المعارف (وربطنا على قلوبهم) أى قويناها فصار ما فيها من القوى مجتمعا غير مبددة كانت حالهم فى الجلوة حالهم فى الخلوة (اذ قاموا) اى وقت قيامهم بين يدى الجبار دقيانوس من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام (فقالوا ربنا رب السموات والارض) وذلك لانه كان يدعو الناس الى عبادة الطواغيت فثبت الله تعالى هؤلاء الفتية حتى عصوا ذلك الجبار وأقروا بربوبية الله تعالى وصرحوا بالبراءة من الشرك والانداد بقولهم (لن ندعو من دونه الها) لان ما سواه عاجز والله (لقد قلنا اذا) اى اذا دعونا من دونه غيره (شططا) اى قولا ذا بعد عن الحق جدا وقال مجاهد كانوا أبناء عظماء مدينتهم فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد فقال رجل منهم هو أكبر القوم انى لاجد فى نفسى شيأ ما أظن أن أحدا يجده قالوا ما تجد قال أجد فى نفسى ان ربى رب السموات والارض قالوا نحن كذلك فى انفسنا فقاموا جميعا فقالوا ربنا رب السموات والارض وقال عطاء قالوا ذلك عند قيامهم من النوم قال الرازى وهو بعيد لان الله تعالى استأنف قصتهم بقوله تعالى نحن نقص عليك وقال عبيد بن عمير كان أصحاب الكهف فتيانا مطوقين مسورين ذوى ذوائب وكان معهم كلب صيدهم فخرجوا فى عيد لهم عظيم فى زى وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التى يعبدونها وقد قذف الله تعالى فى قلوب الفتية الايمان وكان أحدهم وزير الملك فآمنوا وأخفى كل واحد ايمانه فقالوا فى أنفسهم نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لا يصيبنا عقاب بجرمهم فخرج شاب منهم حتى انتهى الى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده فرجا ان يكون على مثل أمره من غير ان يظهر ذلك ثم خرج آخر فخرجوا كلهم جميعا فاجتمعوا فقال بعضهم لبعض ما جمعكم وكل واحد يكتم صاحبه مخافة على نفسه ثم قالوا ليخرج كل فتيين فيخلوا ثم يفشى كل واحد سره الى صاحبه ففعلوا فاذا هم جميعا على الايمان واذا بكهف فى الجبل قريب منهم فقال بعضهم لبعض (هؤلاء قومنا) وان كانوا أسن منا وأقوى وأجل فى الدنيا (اتخذوا من دونه آلهة) أشركوهم معه تعالى لشبهة واهية (لولا) أى هلا (يأتون عليهم بسلطان) اى دليل (بين) اى ظاهر مثل ما نحن على تقرير معبودنا بالادلة الظاهرة فتسبب عن عجزهم عن دليل انهم أظلم الظالمين فلذلك قالوا (فمن أظلم) اى لا أحد أظلم (ممن افترى) اى تعمد (على الله) اى الملك

قاله الخضر فى خرق السفينة وقال فى قتل الغلام فاردنا ان يبدلهما ربهما خيرا وفى اقامة جدار اليتيمين فاراد ربك ان يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما الا ان الاول فى الظاهر

وعن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا اله الا الله وعن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الكلام الى الله تعالى أربع لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بأيهن بدأت أخرجه مسلم وروى أن قول العبد الله أكبر خير ٣ من الدنيا وما فيها وعن عمرو بن شعيب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه وقل الحمد لله الآية يقال أفصح الصبي في منطقه فهم ما يقول وعن عبد الله بن كعب قال افتتحت التوراة بفاتحة سورة الانعام وختمت بخاتمة هذه السورة وأما ما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري وتبعهما ابن عادل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة بني اسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في الجنة والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية فحديث موضوع

سورة الكهف مكية

الا واصبر نفسك الآية وهي مائة وعشر آيات وألف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة وعدد حروفها ستة آلاف وثلثمائة وستون حرفا

(بسم الله) الذي لا كفء له ولا شريك (الرحمن) الذي أقام عباده على أوضح الطرق بانزال هذا الكتاب (الرحيم) بتفضيل من اختصه بالصواب وهو قوله تعالى (الحمد لله) تقدم الكلام عليه مستقصى في أول الفاتحة (الذي أنزل على عبده الكتاب) أي القرآن رتب تعالى استحقاق الحمد على انزاله تنبيها على أنه أعظم انعامه وخص رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذكر لان انزال القرآن نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم أما كونه نعمة عليه فلان الله تعالى أطلعه بواسطة هذا الكتاب الكريم على أسرار علوم التوحيد والتنزيه وصفات الجلال والاكرام وأسرار أحوال الملائكة والانبياء وأحوال القضاء والقدر وتعلق أحوال العالم السفلي بأحوال العالم العلوي وتعلق أحوال عالم الآخرة بعالم الدنيا وكيفية نزول القضاء من عالم الغيب وكيفية ارتباط عالم الجسمانيات بعالم الروحانيات ولا شك أن ذلك من أعظم النعم وأما كون هذا الكتاب نعمة علينا فلانه مشتمل على التكاليف والاحكام والوعد والوعيد والعقاب وبالجملة فهو كتاب كامل في أقصى الدرجات فكل أحد ينتفع به بمقدار طاقته وفهمه فوجب عليه صلى الله عليه وسلم وعلى أمته أن يحمدوه على هذه النعم الجزيلة وقال تعالى على عبده لما في كل من الوصف بالعبودية والاضافة اليه سبحانه وتعالى من الاعلام بتشريفه واشارة الى أنه الذي أسرى به الى حضرات مجده لمريه من آياته • ثم انه تعالى وصف الكتاب بوصفين الاول قوله تعالى (ولم يجعل له) أي فيه (عوجا) أي اختلافا وتناقضا كما قال تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا والجملة حال من الكتاب الوصف الثاني قوله تعالى (قيما) قال ابن عباس يريد مستقيما أي معتدلا لا افراط فيه ولا تفريط قال الرازي وهذا عندي مشكل لانه لا معنى لنفي الاعوجاج الا حصول الاستقامة فتفسير القيم بالمستقيم يوجب التكرار بل الحق أن المراد من كونه قيما كونه سببا لهداية الخلق وأنه يجري مجرى

٣ قوله خير من الدنيا في بعض النسخ خير له من الدنيا

كتفطره في قوله يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وقيل نسي موسى تفقد الحوت ويوشع ان يخبره بخبره (قوله حتى اذا ركبا في السفينة خرقها) قال بعضهم وقال بعد حتى

من يكون قيما للاطفال فالارواح البشرية كالاطفال والقرآن كالقيم المشفق القائم بمصالحهم وقال قبل ذلك ان الشئ يجب أن يكون كاملا فى ذاته ثم يكون مكملا لغيره ويجب أن يكون تاما فى ذاته ثم يكون فوق التمام بأن يفيض عنه كمال الغير فقوله تعالى ولم يجعل له عوجا اشارة الى كونه كاملا فى ذاته وقوله قيما اشارة الى كونه مكملا لغيره ونظيره قوله تعالى فى سورة البقرة فى صفة الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين فقوله لا ريب فيه اشارة الى كونه فى نفسه بالغا فى الصحة وعدم الاخلال الى حيث يجب على العاقل أن لا يرتاب فيه وقوله هدى للمتقين اشارة الى كونه سببا لهداية الخلق ولكمال حالهم فقوله تعالى ولم يجعل له عوجا قائم مقام قوله تعالى لا ريب فيه وقوله تعالى قيما قائم مقام قوله تعالى هدى للمتقين واختلف النحويون فى نصب قوله تعالى قيما على أوجه الاول قال فى الكشاف لا يجوز جعله حالا من الكتاب لان قوله تعالى ولم يجعل له عوجا معطوف على قوله تعالى أنزل فهو داخل فى حيز الصلة وانه لا يجوز قال ولما بطل هذا وجب أن ينتصب بمضمر والتقدير ولم يجعل له عوجا جعله قيما لانه تعالى اذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة قال فان قلت فما فائدة الجمع بين نفى العوج واثبات الاستقامة وفى أحدهما غنى عن الآخر قلت فائدته التأكيد ورب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح الوجه الثانى انه حال ثانية والجملة المنفية قبله حال أيضا كما مر وتعدد الحال لذى حال واحد جائز والتقدير أنزله غير جاعل له عوجا قيما الوجه الثالث أنه حال أيضا ولكنه بدل من الجملة قبله لانها حال وابدال المفرد من الجملة اذا كانت بتقدير مفرد جائز ولما ذكر تعالى أنه أنزل على عبده هذا الكتاب الموصوف بما ذكر أردفه ببيان ما لاجله أنزله بقوله عز وجل (لينذر) أى يخوف الكتاب الكافرين (بأسا) أى عذابا (شديدا من لدنه) أى صادرا من عنده وقرأ شعبة باسكان الدال وكسر النون والهاء وصلة الهاء ياء والباقون بضم الدال وسكون النون وضم الهاء وابن كثير على أصله بضم الهاء فى الوصل بواو (ويبشر المؤمنين) اى الراسخين فى هذا الوصف وقرأ حمزة والكسائى بفتح الياء التحتية وسكون الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم التحتية وفتح الموحدة وكسر الشين مشددة (الذين يعملون الصالحات) وهى ما أمر به خالصا له وذلك الشيآن مفتاح الايمان (أن لهم) أى بسبب أعمالهم (أجرا حسنا) هو الجنة حال كونهم (ماكثين فيه أبدا) بلا انقطاع أصلا فان الابد زمان لا آخر له وقوله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) معطوف على قوله تعالى لينذر بأسا شديدا من لدنه والمعطوف يجب كونه مغايرا للمعطوف عليه فالاول عام فى حق كل كافر والثانى خاص بمن أثبت لله ولدا وعادة القرآن جارية بأنه اذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيها على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلى كقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال فكذا ههنا هذا العطف يدل على أن أقبح أنواع الكفر اثبات الولد لله تعالى *(تنبيه)* الذين أثبتوا لله ولدا ثلاث طوائف الاولى كفار العرب الذين قالوا الملائكة بنات الله الثانية النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله الثالثة اليهود الذين قالوا عزير ابن الله * ثم انه تعالى أنكر على القائلين ذلك من وجهين الاول قوله تعالى (ما لهم به) أى القول (من علم) أى أصلا لانه مما لا يمكن أن يتعلق العلم به لانه لا وجود له ولا يمكن وجوده ثم قرر تعالى هذا المعنى

اذا القياف فلا ما نقتله بالفاء لانه جعل خرقها جزاء الشرط وجعل قتل الغلام من جملة الشرط فعطفه عليه بالفاء وجزاء الشرط قوله قال أقتلت نفسا

وأكده بقوله (ولا لآبائهم) الذين يتخبطون بتقليدهم في الدين حتى في هذا الذي لا يرضيه عاقل ولو أخطؤا في تصرف دنيوي لم يتبعوهم فيه (فان قيل) اتخاذ الله ولدا محال في نفسه فكيف قيل ما لهم به من علم (أجيب) بأن انتفاء العلم بالشئ قد يكون للجهل بالطريق الموصل اليه وقد لا يكون لانه في نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به ونظيره قوله تعالى ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به الوجه الثاني (كبرت) أي مقالتهم (كلمة) أي ما أكبرها من كلمة وصور فظاظة اجترائهم على النطق بها بقوله تعالى (تخرج من أفواههم) أي لم يكفهم خطورها في أنفسهم وترددها في صدورهم حتى تلفظوا بها وكان صدورهم بها على وجه التكرير كما يشير اليه التعبير بالمضارع • (تنبيه) • سميت هذه كلمة كما يسمون القصيدة كلمة • ثم بين تعالى ما أفهمه الكلام من أنه كما أنهم لا علم لهم بذلك لا علم لاحد به أصلا لانه لا وجود له فقال تعالى (ان) أي ما (يقولون الا كذبا) أي قولا لا حقيقة له بوجه من الوجوه ولما كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على ايمان قومه شفقة عليهم وغيرة على المقام الالهي الذي ملأ قلبه تعظيما خفض عليه سبحانه وتعالى بقوله تعالى (فلعلك باخع) أي قاتل (نفسك) من شدة الغم والوجد وأشار تعالى الى شدة نفرتهم وسرعة مفارقتهم وعظيم مباعدتهم بقوله عز من قائل (على آثارهم) أي حين تولوا عن التوحيد وعن اجابتك (ان لم يؤمنوا بهذا الحديث) أي القرآن المجيد لتنزيله على حسب التدريج (أسفا) منك على ذلك والاسف شدة الحزن والغضب (فان قيل) ذلك يدل على حدوث القرآن (أجيب) بانه محمول على الالفاظ وهي حادثة • ثم بين سبحانه وتعالى علة ارشاده الى الاعراض عنهم بغير ما يقدر عليه من التبليغ للبشارة والنذارة بانهم لم يخرجوا عن مراده تعالى وأن الايمان لا يقدر على ادخاله قلوبهم غيره بقوله عز وجل (انا) أي انا الفاعل ذلك لانا (جعلنا ما على الارض) من الحيوان والنبات والشجر والانهار والمعادن وغير ذلك وقال بعضهم بل المراد الناس فهم زينة الارض وبالجملة فليس في الارض الا المواليد الثلاثة وهي المعادن والنبات الشامل للشجر والحيوان وأشرف أنواع الحيوان الانسان (زينة لها) أي الارض قيل المراد أهلها أي زينة لاهلها قال الرازي ولا يمتنع أن يكون ما يحسن به الارض زينة لها كما جعل الله السماء مزينة بالكواكب • ولما أخبر تعالى بزينتها أخبر تعالى بعلته بقوله تعالى (لنبلوهم) أي نعاملهم معاملة المختبر (أيهم أحسن عملا) باخلاص الخدمة لربه فيصير ما كان له منهم ظاهرا فان الله تعالى يعلم السر وأخفى لتقوم عليهم الحجة على ما يتعارفونه بينهم بان من أظهر موافقة الامر فيما نال من الزينة حاز المثوبة ومن اجترأ على مخالفة الامر بما آتاه منها استحق العقوبة فكأنه تعالى يقول يا محمد اني خلقت الارض وزينتها وأخرجت منها أنواع المنافع والمصالح والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ثم انهم يكفرون ويتمردون ومع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم فأنت أيضا يا محمد لا ينبغي أن تنتهي في الحزن بسبب كفرهم الى أن تترك الاشتغال بدعوتهم الى الدين الحق • ثم انه تعالى لما بين أنه انما زين الارض لاجل الامتحان والابتلاء لا لاجل أن يبقى الانسان فيها متنعما بها أبدا زهد فيها بقوله تعالى (وانا لجاعلون ما عليها) من

(قوله لقد) زاكية بغير نفس (أولا قد جئت شيئا إمرا) قاله بلفظ الإمر لأنه العجب والعجب كما يكون في الخير يكون في الشر وقاله بعد في قتل الغلام بلفظ نكرا لأنه

جميع تلك الزينة لا يصعب علينا شيء منه (صعيدا) اى فتاتا (جرزا) اى يابسا لا ينبت ونظيره قوله تعالى كل من عليها فان وقوله تعالى فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا وتخصيص الاهلاك بما على الارض يوهم بقاء الارض الا أن سائر الآيات على أن الارض أيضا لا تبقى كما قال تعالى يوم تبدل الارض غير الارض * ولما ان القوم تعجبوا في قصة أصحاب الكهف وسألوها النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل الامتحان قال تعالى (أم حسبت) اى ظننت على ما لك من العقل الرزين والرأى الرصين (ان أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) على ما لزم من تهويل السائلين من الكفرة من اليهود والعرب والواقع انهم كانوا من العجائب ليسوا بعجب بالنسبة الى كثرة آياتنا فان من كان قادرا على تخليق السموات والارض كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلثمائة سنة وأكثر في النوم والكهف الغار الواسع في الجبل واختلف في الرقيم فقيل هو اسم كلبهم قال أمية بن أبي الصلت

وليس بها الا الرقيم مجاورا

وصيدهم (وهو بكسر الصاد مفعول مجاورا أى فناءهم) والقوم في الكهف هجد (أى نوم) وقيل هو لوح من رصاص رقمت فيه أسماؤهم وقصصهم وجعل على باب الكهف قال البغوى وهذا أظهر الاقاويل وقيل ان الناس رقموا حديثهم نقرا في الجبل وقيل هو الوادى الذى فيه الكهف وقيل الجبل وقيل قريتهم وقيل أصحاب الرقيم قوم آخرون غير أصحاب الكهف كانوا ثلاثة يطلبون الكلأ أو نحوه لاهلهم فأخذهم المطر فأووا الى الكهف فانحطت صخرة وسدت عليهم بابه فقال أحدهم اذكروا أيكم عمل حسنة لعل الله يرحمنا ببركته فقال واحد استعملت أجراء ذات يوم فجاء رجل منهم وسط النهار وعمل في بقيته مثل عملهم فأعطيته مثل أجرهم فغضب أحدهم وترك أجره فوضعته في جانب البيت فربيت به فرفاشترت به فصيلة والفصيلة ولد الناقة اذا انفصل عن أمه فبلغت ما شاء الله فرجع الى بعد حين شيخا ضعيفا لا أعرفه وقال ان لى عندك حقا وذكره حتى عرفته فدفعتها اليه جميعا اللهم ان كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنا فانصدع عنهم الجبل حتى رأوا الضوء والصدع الشق والصداع وجع الرأس وقال آخر كان في فضل وأصاب الناس شدة فجاءتني امرأة تطلب مني معروفا فقلت والله ما هو دون نفسك فأبت وعادت ثم رجعت ثلاثا ثم ذكرت ذلك لزوجها فقال أجيبي له وأعيني عيالك فأتت وسلمت الى نفسها فلما كشفتها وهممت بها ارتعدت فقلت لها ما لك فقالت أخاف الله تعالى فقلت لها خفتيه في الشدة ولم أخفه في الرخاء فتركتها وأعطيتها ملتمسها اللهم ان كنت فعلته لوجهك فافرج عنا فانصدع حتى تعارفوا وقال الثالث كان لى أبوان هرمان وكان لى غنم وكنت أطعمهما وأسقيهما ثم أرجع الى غنمى فحبسنى ذات يوم غيم فلم أرجع حتى أمسيت فأتيت أهلى وأخذت محلبى فحلبت فيه ومضيت اليهما فوجدتهما نائمين فشق على أن أوقظهما فوقفت جالسا محلبى على يدى حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما اللهم ان كنت فعلت ذلك لوجهك الكريم فافرج عنا ففرج الله عنهم فخرجوا وقد رفع ذلك النعمان بن بشير وقد قدمنا سبب نزول قصة أصحاب الكهف عند قوله تعالى ويسئلونك عن الروح * وذكر محمد بن اسحق سبب نزول هذه القصة مشروحا فقال كان النضر بن الحرث من شياطين قريش وكان يؤذى رسول الله

لا يكون الا في الشر وقتل النفس اعظم من مجرد خرق السفينة فناسب نكرا ولذلك قال في خرق ما هو فيه السفينة الم اقل انك وفي قتل الغلام الم اقل لك

صلى

الاعظم (كذبا) بنسبة الشريك اليه تعالى ثم قال بعض الفتية لبعض (واذ) اى وحين (اعتزلتموهم) اى قومكم (وما يعبدون) أى واعتزلتم معبودهم وقوله (الا الله) يجوز ان يكون استثناء منه متصلا على ماروى انهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه كما كان أهل مكة وان يكون منقطعا وقيل هو كلام معترض اخبار من الله تعالى عن الفتية بانهم لم يعبدوا غير الله تعالى (فاووا الى الكهف) اى الغار الذى فى الجبل (ينشر) اى يبسط (لكم) ويوسع عليكم (ربكم) اى المحسن اليكم (من رحمته) مايكفيكم به المهم من أمركم فى الدارين (ويهيئ لكم من أمركم) اى الذى من شأنه ان يهمكم (مرفقا) اى ماترتفقون به وتنتفعون وجزمهم بذلك لخلوص يقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله وقرأ نافع وابن عامر بفتح الميم وكسر الفاء والباقون بكسر الميم وفتح الفاء قال الفراء وهما لغتان واشتقاقهما من الارتفاق وكان الكسائى لايذكر فى مرفق الانسان الذى فى اليد الا كسر الميم وفتح الفاء والفراء يجيزفى الامر وفى اليد وقيل هما لغتان الا ان الفتح أقيس والكسر أكثر والخطاب فى قوله تعالى (وترى الشمس) للنبى صلى الله عليه وسلم اولكل أحد وليس المراد ان من خوطب بهذا يرى هذا المعنى ولكن العادة فى المخاطبة تكون على هذا النحو ومعناه انك لو رأيتهم لرأيته على هذه الصورة (اذا طلعت تزاور) أى تميل (عن كهفهم ذات اليمين) اى ناحيته (واذا غربت تقرضهم) اى تعدل فى سيرها عنهم (ذات الشمال) أى فلا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم لان الله تعالى زواها عنهم وقيل ان باب ذلك الكهف كان مفتوحا الى جانب الشمال فاذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف واذا غربت كانت على شماله وقرأ السوسى بامالة ألف ترى المنقلبة بعد الراء فى الاصل بخلاف عنه والباقون بالفتح فى الوصل وهم على اصولهم فى الوقف وأبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو تزاور بتشديد الزاى وتخفيف الراء مضمومة وابن عامر بسكون الزاى ولا ألف بعدها وتشديد الواو على وزن تحمر والباقون وهم عاصم وحمزة والكسائى بتخفيف الزاى والواو ولا خلاف فى ضم الراء ولما بين انه تعالى حفظهم من حر الشمس بين انه انعشهم بروح الهواء والطفهم بسعة الموضع فى فضاء الغار فقال تعالى (وهم فى فجوة منه) اى فى وسط الكهف ومتسعه ينالهم برد الريح ونسيمها ثم بين تعالى نتيجة هذا الامر الغريب فى النبا العجيب بقوله تعالى (ذلك) اى المذكور العظيم (من آيات الله) اى دلائل قدرته (من يهد الله) اى الذى له الملك كله بخلق هذه الهداية فى قلبه كأصحاب الكهف (فهو المهتد) فى اى زمان كان فلن تجد له مضلا مغويا ففى ذلك اشارة الى ان اهل الكهف جاهدوا فى الله واسلموا له وجوههم فلطف بهم واعانهم وارشدهم الى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة وان كل من سلك طريق المهتدين الراشدين فهو الذى اصاب الفلاح واهتدى الى السعادة وقرأ نافع وابو عمرو بزيادة ياء بعد الدال فى الوصل دون الوقف والباقون بحذفها وقفا ووصلا (ومن يضلل) أى يضله الله تعالى ولم يرشده كدقيانوس وأصحابه (فلن تجد له وليا) أى معينا (مرشدا) اى يرشده للحق ثم انه تعالى عطف على مامضى بقية أمرهم بقوله تعالى (وتحسبهم) اى لو رأيتهم ايها المخاطب (ايقاظا) اى منتبهين لان اعينهم منفتحة للهواء

افساد محض والثالث انعام محض وفى الثانى افساد من حيث الفعل وانعام من حيث التبديل فاسنده الى نفسه وربه كذا قيل فى الاخير والاوجه ماقيل فيه انه عبر عن نفسه

لانه يكون ابقى لها جمع يقظ بكسر القاف (وهم رقود) اى نيام جمع راقد قال الزجاج لكثرة
تقلبهم يظن انهم ايقاظ والدليل عليه قوله تعالى (ونقلبهم) اى فى ذات حال نومهم تقليبا كثيرا
بحسب ما يتقضيهم كما يكون النائم (ذات) اى فى الجهة التى هى صاحبة (اليمين) منهم (وذات
الشمال) لينال روح النسيم جميع أبدانهم ولا يتأثر ما يلى الارض منها بطول المكث
* (تنبيه) * اختلف فى مقدار مدة التقليب فعن أبى هريرة انهم فى كل عام تقليبتين وعن
مجاهد يمكثون رقودا على ايمانهم تسع سنين ثم يقلبون على شمائلهم فيمكثون رقودا تسع
سنين وقيل لهم تقليبة واحدة فى يوم عاشوراء قال الرازى وهذه التقديرات لا سبيل للعقل
اليها ولفظ القرآن لا يدل عليها وما جاء فيه خبر صحيح فكيف يعرف انتهى ولهذا قلت بحسب
ما يتقضيهم وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فائدة تقليبهم لئلا تأكل الارض لحومهم
ولا ثيابهم اه قال الرازى وهذا أعجب من ذلك لانه تعالى لما قدر على ان يمسك حياتهم
ثلثمائة سنة وأكثر أفلا يقدر على حفظ أجسادهم أيضا من غير تقليب اه وهذا ليس
بعجيب لان القدرة صالحة لذلك وأكثر بحسب العادة وأما امساك أرواحهم فهو خرق
للعادة فلا يقاس عليه (وكلبهم باسط ذراعيه) أى يديه اى ملقيهما على الارض مبسوطتين
غير مقبوضتين ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه
انبساط الكلب قال المفسرون كان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهما * (تنبيه) *
باسط اسم فاعل ماض واعمل على حكاية الحال والكسائى يعمله ويستشهد بالآية الكريمة
وأكثر المفسرين على أن الكلب من جنس الكلاب وروى عن ابن جريج أنه كان أسدا
ويسمى الاسد كلبا فان النبى صلى الله عليه وسلم دعا على عتبة بن أبى لهب فقال اللهم سلط عليه
كلبا من كلابك فافترسه الاسد وقال ابن عباس كان كلبا أغر واسمه قطمير وعن على اسمه
ريان واختلف فى قوله تعالى (بالوصيد) فقال ابن عباس هو باب الكهف وقيل العتبة قال
السدى والكهف لا يكون له باب ولا عتبة وانما أراد موضع الباب والعتبة وقال الزجاج
الوصيد فناء البيت وفناء الدار قال الشاعر

بارض فضاء لا يسد وصيدها * على ومعروفى بها غير منكر

وقال مجاهد والضحاك الوصيد الكهف (لو اطلعت عليهم) بكسر الواو على أصل التقاء
الساكنين أى وهم على تلك الحالة (لوليت منهم) حال وقوع بصرك عليهم (فرارا) لما ألبسهم
الله تعالى من الهيبة وجعل لهم من الجلالة تدبيرا منه لما أراده منهم حتى لا يصل اليهم أحد
حتى يبلغ الكتاب اجله (ولملئت منهم رعبا) أى فزعا واختلف فى ذلك الرعب كان لماذا فقال
الكلبى لان اعينهم مفتحة كالمستيقظ الذى يريد ان يتكلم وهم نيام وقيل من وحشة
المكان وقيل لكثرة شعورهم وطول اظفارهم وتقلبهم من غير حس كالمستيقظ وقيل ان الله
تعالى منعهم بالرعب حتى لا يراهم احد وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال غزونا مع
معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف فقال معاوية لو كشف لنا عن
هؤلاء فنظرنا اليهم فقال ابن عباس قد منع ذلك من هو خير منك لو اطلعت عليهم لوليت
منهم فرارا فبعث معاوية ناسا فقال اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم

فيه بلفظ الجمع تنبيها على
انه من العظماء فى علوم
الحكمة فلم يقدم على القتل
الا لحكمة عالية (قوله
وجدها تغرب فى عين حمئة)
ان قلت الشمس فى السماء

رصاقا خرجهم وقرأ نافع وابن كثير بتشديد اللام بعد الميم والباقون بتخفيفها والسوسى بابدال الهمزة ياء على اصله وقفا ووصلا وحمزة فى الوقف فقط وقرأ ابن عامر والكسائى رعبا بضم العين والباقون بسكونها (وكذلك) أى كما فعلنا بهم ماذكرنا آية (بعثناهم) اى أيقظناهم آية (ليتساءلوا بينهم) اى ليسأل بعضهم بعضا عن احوالهم فى نومهم ويقظتهم فيتعرفوا حالهم وما صنع الله تعالى بهم فيزدادوا يقينا على كمال قدرة الله تعالى ويستبصروا به أمر البعث ويشكروا ما أنعم الله به عليهم (قال قائل منهم) مستفهما من اخوانه (كم لبثتم) نائمين فى هذا الكهف من ليلة أو يوم وهذا يدل على ان هذا القائل استشعر طول لبثهم مما رأى من هيئتهم أو بغير ذلك من الامارات (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) لانهم دخلوا الكهف طلوع الشمس وبعثوا آخر النهار فلما رأوا الشمس باقية قالوا أو بعض يوم فلما نظروا الى طول أظفارهم وشعورهم (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) فاحالوا العلم على الله تعالى قال ابن عباس القائل ذلك هو رئيسهم تمليخا رد علم ذلك الى الله تعالى وعلم أن مثل هذا التغيير لا يحصل الا فى الايام الطويلة وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة عند المثناة والباقون بالادغام ثم لما علموا أن الامر ملتبس عليهم لا طريق لهم الى علمه أخذوا فيما يهمهم وقالوا (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه) اى بفضتكم وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة بسكون الراء والباقون بكسرها والورق اسم للفضة سواء كانت مضروبة أم لا ويدل عليه ما روى أن عرفجة اتخذ أنفا من ورق ويقال لها الرقة وفى الحديث فى الرقة ربع العشر (الى المدينة) اى التى خرجتم منها وهى مدينة طرسوس وهذه الآية تدل على أن السعى فى امساك الزاد أمر مهم مشروع وانه لا يبطل التوكل على الله تعالى اذ حقيقة التوكل على الله تعالى تهيئة الاسباب واعتقاد أن لا مسبب للاسباب الا الله تعالى فحمل النفقة وما يصلح المسافر هو رأى المتوكلين على الله دون المتوكلين على الانفاقات على ما فى أوعية القوم من النفقات ومنه قول عائشة رضى الله تعالى عنها لمن سألها عن محرم يشد عليه هميانه أوثق عليك نفقتك وما حكى عن بعض صعاليك العلماء أنه كان شديد الحب الى أن يرزق حج بيت الله الحرام وعلم منه ذلك فكان مياسير أهل بلده كلما عزم قوم على حج أتوه ان يصحبوه وألحوا عليه فيعتذر اليهم ويحمد لهم بذلهم فاذا انفضوا عنه قال لمن عنده ما لهذا السفر الا شيآن شد الهميان والتوكل على الرحمن (فلينظر أيها أزكى طعاما) قال ابن عباس يريد ما حل من الذبائح لان عامة أهل بلدهم كانوا مجوسا وفيهم قوم يخفون ايمانهم وقال مجاهد كان ملكهم ظالما فقوله أيها أزكى طعاما اى ايها ابعد عن الغصب وكل سبب حرام وقيل أيها أطيب وألذ وقيل ايها أرخص قال الزجاج قوله أيها رفع بالابتداء وأزكى خبره وطعاما تمييز ولا بد هنا من حذف اى اى اهلها أزكى اى احل وقيل لا حذف والضمير عائد على الاطعمة المدلول عليها من السياق (فليأتكم) ذلك الاحد (برزق منه) لنا كل (وليتلطف) اى وليكن فى ستر وكتمان فى دخول المدينة وشراء الاطعمة حتى لا يعرف (ولا يشعرن) اى ولا يخبرن (بكم احدا) من أهل المدينة (انهم) اى اهل المدينة (ان يظهروا) اى يطلعوا عالين (عليكم يرجموكم) اى

الرابعة وهى بقدر كرة الارض مائة وستين او وخمسين اوو عشرين مرة فكيف تسعها عين فى الارض تغرب فيها (قلت) المراد وجدها فى ظنه كما يرى راكب البحر الشمس

يقتلوكم والرجم بمعنى القتل كثير في القرآن كقوله ولولا رهطك لرجمناك وقوله لارجمنك وقوله أن ترجمون وقال الزجاج اى يقتلوكم بالرجم والرجم اخبث أنواع القتل (او يعيدوكم في ملتهم) ان لنتم لهم (ولن تفلحوا اذا) اى ان رجعتم الى ملتهم (ابدا) بل تكونوا خاسرين قال بعض العلماء ولاخوف على المؤمن الفار بدينه أعظم من هذين الامرين أحدهما فيه هلاك النفس وهو الرجم الذى هو أخبث أنواع القتل والآخر هلاك الدين (فان قيل) أليس انهم لوأكرهوا على الكفر حتى أظهروا الكفر لم يكن عليهم مضرة فكيف قالوا ولن تفلحوا اذا أبدا (أجيب) بانهم خافوا أنهم لو بقوا على الكفر مظهرين له فقد يميل بهم ذلك الى الكفر الحقيق فكان خوفهم بسبب هذا الاحتمال (فان قيل) ما النكتة فى العدول عن واحدكم الى أحدكم وكل ذلك دال على الوحدة (أجيب) بان النكتة فيه أن العرب اذا قالوا أحد القوم أرادوا به فردا منهم واذا قالوا واحد القوم أرادوا رئيسهم والمراد فى القصة أى واحد كان والقرآن الكريم أنزل بلغتهم فراعى ما راعوا (وكذلك) اى ومثل ما فعلنا بهم ذلك الامر العظيم من الربط على قلوبهم والستر والحماية من الطالبين لهم والحفظ لاجسادهم على مر الزمان وتعاقب الحدثان وغير ذلك (أعثرنا) أى أطلعنا غيرهم (عليهم) يقال عثرت على كذا علمته وأصله أن من كان غافلا عن شئ فعثر به نظر اليه فعرفه فكان العثر سببا لحصول العلم فاطلق السبب على المسبب بقوله تعالى (ليعلموا) متعلق باعثرنا والضمير قيل يعود على مفعول أعثرنا المحذوف تقديره اعثرنا الناس وقيل يعود الى أهل الكهف وهذا هو الظاهر (ان وعد الله) الذى له صفات الكمال بالبعث للروح والجسد معا (حق) لان قيامهم بعد نومهم يتقلبون نيفا وثلثمائة سنة مثل من مات ثم بعث قال بعض العارفين علامة اليقظة بعد النوم علامة البعث بعد الموت ولما كان من الحق ما قد يداخله شك قال تعالى (وان) اى وليعلموا أن (الساعة) اى آتية (لاريب) اى لا شك (فيها) *(تنبيه)* اختلف فى السبب الذى عرف الناس واقعة أصحاب الكهف فقال محمد بن اسحق ان ملك تلك البلاد رجل صالح يقال له تندوسيس فلما ملك بقى فى ملكه ثمانية وستين سنة فتحزب الناس فى مملكته فكانوا أحزابا منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح فبكى وتضرع الى الله تعالى وحزن حزنا شديدا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على اهل الحق ويقولون لا حياة الا الدنيا وانما تبعث الارواح ولا تبعث الاجساد وجعل الملك يرسل الى من يظن فيهم خيرا وأنهم أئمة فى الخلق فلم يقبلوا منه وجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا يخرجون الناس عن الحق وملة الحواريين فلما رأى ذلك الملك دخل بيته وأغلق بابه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا فجلس عليه ودأب ليله ونهاره زمانا يتضرع الى الله تعالى ويبكى أى رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم ثم ان الله تعالى الذى يكره هلكة عباده أراد أن يظهر على الفتية اصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ويستجيب لعبده تندوسيس ويتم نعمته عليه وان يجمع من كان تبدد من المؤمنين وألقى الله فى نفس رجل من تلك البلد الذى فيه الكهف أن يهدم ذلك البنيان الذى على فم الكهف فيبنى به حظيرة

قوله يقال له تندوسيس الذى فى حياة الحيوان يقال تاودوسيوس فليحرر اه

طالعته وغاربة فيه فقد ذو القرنين انتهى الى آخر البنيان فى جهة الغرب فوجدها عينا واسعة فظن ان الشمس تغرب فيها (فان قلت) ذو القرنين كان نبيا او تقيا حكيما

لعنه فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان تلك الحظيرة حتى اذا نزعاها على فم الكهف وفتحا باب الكهف أذن الله تعالى ذو القدرة والسلطان محيي الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهري الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة انفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون لها اذا أصبحوا من ليلتهم ثم قاموا الى الصلاة فصلوا كالذي كانوا يفعلون لا يرى في وجوههم ولا في ألوانهم شيء يكرهونه كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون ان ملكهم دقيانوس في طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم ائتنا بما قال الناس في شأننا عشية أمس عند الجبار وهم يظنون انهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون وقد يخيل لهم انهم قد ناموا أطول ما كانوا ينامون حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض كم لبثتم نياما قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكل ذلك في أنفسهم يسير فقال لهم تمليخا التمستم بالمدينة وهو يريد ان يؤتى بكم اليوم فتذبحون للطواغيت أو يقتلكم فما شاء الله بعد ذلك فعل فقال لهم مكسلمينا يا اخوتاه اعلموا أنكم ملاقوا الله فلا تكفروا بعد ايمانكم اذا دعاكم عدو الله ثم قالوا لتمليخا انطلق الى المدينة فتسمع ما يقال لنا بها وما الذي يذكر عند دقيانوس وتلطف ولا تشعرن بك أحدا وابتغ لنا طعاما وائتنا به وزدنا على الطعام الذي جئتنا به فقد أصبحنا جياعا ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التي كان يتنكر فيها وأخذ ورقا من نفقتهم التي كانت معهم التي ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع فانطلق تمليخا خارجا فلما مر بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مر ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفيا يصد عن الطريق متخوفا ان يراه احد من أهلها فيعرفه ولا يشعر ان دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلثمائة سنة فلما أتى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة تكون لاهل الايمان اذا كان أمر الايمان ظاهرا فلما رآى عجب وجعل ينظر اليها مستخفيا وينظر يمينا وشمالا ثم ترك الباب وتحول لباب آخر من أبوابها فراى مثل ذلك فجعل يخيل اليه ان المدينة ليست بالتي كان يعرفها ورأى ناسا كثيرا محدثين لم يكن رآهم قبل ذلك فجعل يمشي ويتعجب ويخيل اليه انه حيران ثم رجع الى الباب الذي أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول ياليت شعري ما هذا اما عشية أمس فكان المسلمون يخبؤن هذه العلامة ويستخفون بها واما اليوم فانها ظاهرة لعلي حالم ثم يرى انه ليس بنائم فاخذ كساءه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشي بين ظهري سوقها فيسمع ناسا يحلفون باسم عيسى بن مريم فزاده فرقا ورأى انه حيران فقام مسندا ظهره الى جدار من جدرات المدينة ويقول في نفسه والله ما ادري ما هذا اما عشية امس فليس على وجه الارض انسان يذكر عيسى بن مريم الا قتل واما اليوم فاسمع كل انسان يذكر عيسى ولا يخاف ثم قال في نفسه لعل هذه ليست المدينة التي اعرف والله ما اعلم مدينة بقرب مدينتنا فقام كالحيران ثم لقي فتى فقال له ما اسم هذه المدينة يا فتى فقال اسمها افسوس فقال في نفسه لعل بي مسا او امرا اذهب عقلي والله يحق لي ان اسرع الخروج منها قبل ان اخزى فيها او يصيبني شر فاهلك ثم انه أفاق فقال والله لو عجلت الخروج من هذه المدينة قبل أن يفطن بي لكان أكيس فدنا من

فكيف خفي عليه هذا حتى وقع في ظنه ما يستحيل وقوعه (قلت) الانبياء والحكماء لا يبعد ان يقع منهم مثل ذلك الا ترى الى نسيان موسى فيما انكره على الخضر وأيضا فانه

الذين يبيعون الطعام فاخرج الورق التي كانت معه فاعطاها رجلا منهم فقال بعني بهذا الورق طعاما فاخذها الرجل فنظر الى ضرب الورق ونقشها فعجب منها ثم طرحها الى رجل من أصحابه فنظر اليها ثم الى آخر ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل الى رجل ويتعجبون منها ثم جعلوا يتشاورون بينهم ويقول بعضهم لبعض ان هذا اصاب كنزا مخبأ في الارض منذ زمان ودهر طويل فلما رآهم تمليخا يتشاورون من اجله فرق فرقا شديدا وجعل يرتعد ويظن أنهم فطنوا به وعرفوه وانهم انما يريدون ان يذهبوا به الى ملكهم دقيانوس وجعل أناس آخرون يأتونه فيتعرفونه فقال لهم وهو شديد الفرق أفضلوا علي قد اخذتم ورقي فامسكوها وأما طعامكم فليس لي حاجة به فقالوا من أنت يافتى وما شأنك والله لقد وجدت كنزا من كنوز الاولين وانت تريد ان تخفيه انطلق معنا وارنا وشاركنا فيه نخفف عليك ما وجدت وانك ان لم تفعل نأت بك السلطان فنسلمك اليه فيقتلك فلما سمع قولهم قال ما وجدت شيأ وقال قد وقعت في كل شيء احذر منه قالوا يافتى انك والله لا تستطيع ان تكتم ما وجدت فجعل تمليخا لا يدري ما يقول لهم وخاف حتى انه لم يرد اليهم جوابا فلما راوه لا يتكلم اخذوا كساءه وطرحوه في عنقه وجعلوا يقودونه في سكك المدينة حتى سمع من فيها فقيل اخذ رجل عنده كنز واجتمع عليه اهل المدينة صغيرهم وكبيرهم وجعلوا ينظرون اليه ويقولون والله ما هذا الفتى من اهل هذه المدينة وما رايناه قط وما نعرفه فجعل تمليخا ما يدري ما يقول لهم فلما اجتمع عليه اهل المدينة وكان متيقنا ان اباه واخوته في المدينة وانه من عظماء اهلها وانهم سيأتونه اذا سمعوا به فبينما هو قائم كالحيران ينتظر متى ياتيه بعض اهله فيخلصه من بين ايديهم اذ اختطفوه وانطلقوا به الى رئيسي المدينة ومدبريها اللذين يدبران امرها وهما رجلان صالحان اسم احدهما اريوس واسم الآخر اسطيوس فلما انطلقوا به اليهما ظن تمليخا انه ينطلق به الى دقيانوس الجبار فجعل يلتفت يمينا وشمالا وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون وجعل تمليخا يبكي ويرفع راسه الى السماء وقال اللهم اله السماء واله الارض افرغ اليوم علي صبرا وأولج معي روحا منك تؤيدني بها عند هذا الجبار وجعل يقول في نفسه فرق ما بيني وبين اخوتي يا ليتهم يعلمون مالقيت وياليتهم ياتوني فنقوم جميعا بين يدي هذا الجبار فانا كانوا اتفقنا على الايمان بالله سبحانه وتعالى وان لا نشرك به شيأ ولا نفترق في حياة ولا موت فلما انتهى به الى الرجلين الصالحين ورأى انه لم يذهب به الى دقيانوس افاق وسكن عنه البكاء فاخذ اريوس واسطيوس الورق فنظرا اليها وعجبا منها ثم قال احدهما اين الكنز الذي وجدت يافتى فقال تمليخا ما وجدت كنزا ولكن هذا ورق آبائي ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ما أدري ما شأني وما أقول لكم فقال احدهما ممن انت فقال تمليخا اما انا فكنت ارى اني من اهل هذه المدينة قالوا فمن أبوك ومن يعرفك بها فانبأهم باسم ابيه فلم يجدوا احدا يعرفه ولا اباه فقال له احدهما انت رجل كذاب لا تنبئنا بالحق فلم يدر تمليخا ما يقول لهم غير انه نكس بصره الى الارض فقال بعض من حوله هذا رجل مجنون وقال بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمدا حتى يتفلت منكم فقال له احدهما ونظر اليه نظرا شديدا اتظن انا نرسلك ونصدقك بان هذا مال ابيك ونقش هذه الورق وضربها اكثر من ثلثمائة سنة

قادر على تصغير جرم الشمس وتوسيع العين وكر الارض بحيث تمنع عين الناظر الشمس فلم لا يجوز ذلك ولم نعلم به لقصور عقولنا عن الاحاطة بذلك (قوله فلا تصيبهم يوم

وأنت غلام شاب وتظن أنك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ وشمط كما ترى وحولك سراة هذه المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه البلدة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار واني لأظنني سآمر بك فتعذب عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدته فلما قال ذلك قال لهم تمليخا أنبئوني عن شئ أسألكم عنه فان فعلتم صدقتكم عما عندي فقالوا سل لا نكتمك شيأ قال ما فعل الملك دقيانوس قالوا ليس نعرف اليوم على وجه الارض ملكا يسمى دقيانوس ولم يكن الا ملكا هلك منذ زمان ودهر طويل وهلكت بعده قرون كثيرة فقال تمليخا اني اذا لحيران وما هو يصدق أحد من الناس بما أقول لقد كنا فتية وان الملك أكرهنا على عبادة الاوثان والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فنمنا فلما انتبهنا خرجت لاشترى طعاما وأتجسس الاخبار فاذا أنا كما ترون فانطلقوا معي الى الكهف الذي في جبل ينجلوس أريكم أصحابي فلما سمع اريوس ما يقول تمليخا قال يا قوم لعل هذه آية من آيات الله تعالى جعلها الله تعالى لكم على يد هذا الغلام فانطلقوا بنا معه يرينا أصحابه فانطلق معه اريوس واسطيوس ومعهما جميع أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا اليهم فلما رأى الفتية أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذي كان يأتي فيه فظنوا أنه قد أخذ وذهب به الى ملكهم دقيانوس فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفونه اذ سمعوا الاصوات وجلبة الخيل مصعدة عندهم فظنوا أنهم رسل الجبار دقيانوس بعث اليهم ليأتوا بهم فقاموا الى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضا وقالوا انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فانه الآن بين يدي الجبار وهو ينتظرنا حتى نأتيه فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس على هذه الحالة اذا هم باريوس وأصحابه وقوف على باب الكهف فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكي فلما رأوه يبكي بكوا معه ثم سألوه عن خبره فقص عليهم الخبر كله فعرفوا أنهم كانوا نياما بأمر الله تعالى ذلك الزمن الطويل وانما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث وليعلم الناس ان الساعة آتية لا ريب فيها ثم دخل على اثر تمليخا اريوس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم من فضة فقام بباب الكهف ثم دعا رجالا من عظماء أهل المدينة ففتح التابوت عندهم فوجد فيه لوحين من رصاص مكتوب فيهما مكسلمينا ومحشلمينا وتمليخا ومطرونس وكشطونس وبيرونس ويطونس كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وانا كتبنا أسماءهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم ان عثر عليهم فلما قرؤه عجبوا وحمدوا الله تعالى الذي أراهم آية البعث فيهم ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله تعالى وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر اريوس وأصحابه سجدا وحمدوا الله تعالى الذي أراهم آية من آياته ثم كلم بعضهم بعضا وأنبأهم الفتية عن الذي لقوه من ملكهم دقيانوس ثم ان اريوس وأصحابه بعثوا بريدا الى ملكهم الصالح تندوسيس ان عجل لعلك تنظر الى آية من آيات الله جعلها الله تعالى على ملكك وجعلها آية للعالمين ليكون لهم نورا وضياء وتصديقا للبعث فاعجل الى فتية بعثهم الله تعالى وكان قد توفاهم منذ أكثر من ثلثمائة سنة فلما أتى الملك الخبر قام ورجع اليه عقله وذهب

القيامة وزنا) أي قدرا لحقارتهم وليس المراد أن لا تنصب لهم موازين الا أن الميزان انما ينصب ليوزن به الحسنات في مقابلة السيئات والكافر لا حسنة له

همسه فقال أحمد الله رب السموات والارض وأعبدك وأسبح لك تطولت على ورحمتنى فلم تطفئ النور الذى جعلته لآبائى وللعبد الصالح قسطنطينوس الملك فلما نبئ به أهل المدينة ركبوا اليه وساروا معه حتى أتوا مدينة أفسوس فتلقاهم أهل المدينة وساروا معه نحو الكهف فلما صعد الجبل ورأى الفتية تندوسيس فرح بهم وخر ساجدا على وجهه وقام تندوسيس قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الارض يسبحون الله تعالى ويحمدونه ثم قالوا له نستودعك الله السلام عليك ورحمة الله وبركاته وحفظك وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الانس والجن فبينما الملك قائم اذ رجعوا الى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أنفسهم وقام الملك تندوسيس اليهم فجعل ثيابه عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم فى تابوت من ذهب فلما أمسى ونام أتوه فى المنام وقالوا له انا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكن خلقنا من تراب والى التراب نصير فاتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى منه فأمر الملك حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله تعالى حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد على ان يدخل عليهم وقيل ان تمليخا الماحمل الى الملك الصالح قال له الملك من أنت قال انا رجل من أهل هذه المدينة وذكر انه خرج أمس اومنذ أيام وذكر منزله وأقواما لم يعرفهم احد وكان الملك قد سمع ان فتية فقدوا فى الزمان الاول وأن اسماءهم مكتوبة على لوح فى خزانته فدعا باللوح فنظر فى اسمائهم فاذا اسمه مكتوب فذكر اسماء الآخرين فقال تمليخا هم اصحابى فلما سمع الملك ذلك ركب هو ومن معه من القوم فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا دعونى حتى ادخل على اصحابى وابشرهم فانهم ان رأوكم معى ارعبتموهم فدخل فبشرهم فقبضت روحه وأرواحهم وأعمى على الملك وأصحابه أثرهم فلم يهتدوا اليهم * ثم وقع التنازع فى امرهم بين اهل المدينة كما قال تعالى (اذ يتنازعون) اى اهل المدينة (بينهم امرهم) اى أمر الفتية فى البناء حولهم (فقالوا) اى الكفار (ابنوا عليهم) اى حولهم (بنيانا) يسترهم فانهم كانوا على ديننا وقوله تعالى (ربهم اعلم بهم) يجوز ان يكون من كلام الله تعالى وان يكون من كلام المتنازعين فيهم (قال الذين غلبوا على امرهم) اى امر الفتية وهم المؤمنون (لنتخذن عليهم) اى حولهم (مسجدا) يصلى فيه وفعل ذلك على باب الكهف وقيل ان بعضهم قال الاولى ان يسد باب الكهف عليهم لئلا يدخل أحد عليهم ولا يقف على أحوالهم انسان وقال الآخرون بل الاولى أن يبنى على باب الكهف مسجدا وهذا القول يدل على أن اولئك الاقوام كانوا عارفين بالله ومعترفين بالعبادة والصلاة وقيل تنازعوا فى مقدار مكثهم وقيل فى عددهم واسمائهم * (تنبيه) * بنيانا يجوز ان يكون مفعولا به جمع بنيانة وان يكون مصدرا * ولما ذكر اصحاب الكهف عند النبى صلى الله عليه وسلم وقع الاختلاف فى عددهم كما قال تعالى (سيقولون) اى الخائضون فى قصتهم من اهل الكتاب والمؤمنين فقال بعض اهل الكتاب (ثلاثة رابعهم كلبهم) اى هم ثلاثة رجال ورابعهم كلبهم بانضمامه اليهم (ويقولون) اى بعضهم (خمسة سادسهم كلبهم) فهذان القولان لنصارى نجران وقيل الاول قول اليهود والثانى قول النصارى (فان قيل) لم جاءت سين الاستقبال فى الاول دون الاخيرين (اجيب) بان فى ذلك وجهين ان تدخل الاخيرين فى حكم السين

لعوا مالقوله وأما من خفت موازينه فامه هاوية فهو فى من غلبت سيئاته على حسناته من المؤمنين فانه يدخل النار لكن لا يخلد فيها

كما تقول قدأ كرم وأنتم تريد معنى التوقع في الفعلين جميعا وان تريد بفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له * ولما كان قولهم ذلك بغير علم كان (رجما بالغيب) أى ظنا فى الغيبة عنهم فهو راجع الى القولين معا ونصب على المفعول له أى لظنهم ذلك (ويقولون) أى المؤمنون (سبعة وثامنهم كلبهم) قال أكثر المفسرين هذا الاخير هو الحق ويدل عليه وجوه الاول انه تعالى لما حكى قوله ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قال بعده (قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل) وأتبع القولين الاولين بقوله تعالى رجما بالغيب وتخصيص الشئ بالوصف يدل على ان الحال فى الباقى بخلافه فوجب أن يكون المخصوص بالظن الباطل هو القولان الاولان وان يكون القول الثالث مخالفا لهما فى كونه رجما بالغيب الوجه الثانى ان الواو فى قوله تعالى وثامنهم هى الواو التى تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالا من المعرفة فى نحو قولك جاءنى رجل ومعه آخر لتوكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر فكانت هذه الواو دالة على ان الذين كانوا فى الكهف كانوا سبعة وثامنهم كلبهم وقول محمد بن اسحق انهم كانوا ثمانية مردود فكأن الله تعالى حكى اختلافهم وتم الكلام عند قوله ويقولون سبعة ثم حقق هذا القول بقوله تعالى وثامنهم كلبهم والثامن لا يكون الا بعد السبع وهذه الواو يسمونها واو الثمانية لان العرب تعد فتقول واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية لان العقد كان عندهم سبعة كما هو اليوم عندنا عشرة ونظير هذه الآية فى ثلاث آيات وهو قوله تعالى والناهون عن المنكر وقوله تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها لان أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة وقوله تعالى ثيبات وأبكارا قال القفال وقولهم واو الثمانية ليس بشئ بدليل قوله تعالى هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ولم يذكر الواو فى النعت الثامن اه وقد يجاب بان ذلك جرى على الغالب الوجه الثالث انه تعالى قال ما يعلمهم الا قليل وهذا يقتضى انه حصل العلم بعدتهم لذلك القليل وكان ابن عباس يقول أنا من أولئك العدد القليل وكان يقول انهم سبعة وثامنهم كلبهم وكان على رضى الله تعالى عنه يقول كانوا سبعة قال الرازى واسماؤهم تمليخا مكسلمينا مشلينا وهؤلاء الثلاثة كانوا أصحاب يمين الملك وعن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان الملك يستشير هؤلاء الستة لينصرفوا فى مهماته والسابع كشفطيوش وهو الراعى الذى وافقهم لما هربوا من ملكهم وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال هم مكسلمينا وتمليخا ومرطونس وبينونس وسارينونس ودونواس وكفشططونس وهو الراعى واسم كلبهم قطمير واسم مدينتهم افسوس *(تنبيه)* فى الآية حذف والتقدير سيقولون هم ثلاثة كما تقدم تقديره فحذف المبتدأ لدلالة الكلام عليه وقيل الاقوال الثلاثة لاهل الكتاب والقليل منهم أى ولا علم بذلك الا فى قليل منهم وأكثرهم على الظن * ثم انه تعالى لما ذكر هذه القصة اتبعها بان نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن شيئين عن المراء وعن الاستفتاء أما النهى عن المراء فقوله تعالى (فلا تمار) أى تجادل (فيهم) اى فى شأن الفتية (الا مراء) اى جدالا (ظاهرا) أى غير متعمق فيه وهو ان تقص عليهم ما فى القرآن من غير أن تكذبهم فى تعيين ذلك العدد ونظيره قوله تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب

(سورة مريم عليها السلام)

(قوله يرثنى ويرث من آل يعقوب) اى يرث العلم والنبوة لا المال لخبر نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركنا صدقة وورث يتعدى

الا بالتى هى أحسن واما النهى عن الاستفتاء فقوله تعالى (ولا تستفت فيهم) أى ولا تسأل (منهم) اى من أهل الكتاب اليهود (أحدا) عن قصتهم سؤال مسترشد لانه لما ثبت أنه ليس عندهم علم فى هذا الباب وجب المنع من استفتائهم وفيها أوحى اليك مندوحة عن غيره ولا سؤال متعنت تريد تفضيح المسؤل عنه وتزييف ما عنده فانه يخل بمكارم الاخلاق ولما سأل أهل مكة عن خبر أهل الكهف قال النبى صلى الله عليه وسلم أخبركم به غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحى عنه خمسة عشر يوما وفى رواية اخرى أربعين يوما فنزل (ولا تقولن لشئ) أى لاجل شئ تعزم عليه (انى فاعل ذلك) الشئ (غدا) أى فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة (الا ان يشاء الله) أى الا متلبسا بمشيئته بأن تقول ان شاء الله والسبب فى ذلك ان الانسان اذا قال سأفعل الفعل الفلانى غدا لم يبعد ان يموت قبل مجىء الغد ولم يبعد أيضا ان بقى حيا ان يعيقه عن ذلك الفعل سائر العوائق فاذا لم يقل ان شاء الله صار كاذبا فى ذلك الوعد والكذب منفر لا يليق بالانبياء عليهم الصلاة والسلام فلهذا السبب وجب عليه ان يقول ان شاء الله حتى اذا تعذر عليه الوفاء بذلك الوعد لم يصر كاذبا ولم يحصل التنفير (تنبيه) قال كثير من الفقهاء اذا قال الرجل لامرأته أنت طالق ان شاء الله لم يقع عليه الطلاق لانه لما علق وقوع الطلاق على مشيئته تعالى لم يقع عليه الطلاق الا اذا علمنا حصول المشيئة ومشيئة الله تعالى غيب لا سبيل لنا الى العلم بحصولها الا اذا علمنا أن متعلق المشيئة وقع وهو الطلاق وعلى هذا لا يعرف حصول المشيئة الا اذا وقع الطلاق ولا يعرف وقوع الطلاق الا اذا عرفت المشيئة فيتوقف العلم بكل واحد منهما على العلم بالآخر وهو دور فلهذا لا يقع الطلاق وقيل المراد الا أن يشاء الله أى الا ان يأذن لك الله تعالى فى ذلك القول والمعنى أنه ليس لك أن تخبر عن نفسك انك تفعل الفعل الفلانى الا أن يأذن لك الله تعالى فى ذلك الاخبار وقد احتج القائلون بان المعدوم شئ بهذه الآية لان الشئ الذى سيفعله غدا معدوم فى الحال فوجب تسمية المعدوم بانه شئ (واجيب) بان هذا الاستدلال لا يفيد الا ان المعدوم يسمى بكونه شيأ وعندنا ان السبب فيه انه سيصير شيأ يجوز تسميته بكونه شيأ فى الحال كما قال تعالى أتى أمر الله فلا تستعجلوه والمراد سيأتى أمر الله واختلف فى معنى قوله تعالى (واذكر ربك اذا نسيت) فقال ابن عباس ومجاهد والحسن معناه اذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن وعند هذا اختلفوا فقال ابن عباس لو لم يحصل التذكر الا بعد مدة طويلة ثم ذكر ان شاء الله كفى فى رفع الحنث وعن سعيد بن جبير بعد سنة او شهر او اسبوع او يوم وعن طاوس لا يقدر على الاستثناء الا فى مجلسه وعن عطاء يستثنى على مقدار حلب ناقة غزيرة وعند عامة الفقهاء انه لا أثر له فى الكلام ما لم يكن موصولا واحتج ابن عباس بان قوله اذا نسيت غير مختص بوقت غير معين بل هو متناول لكل الاوقات وظاهره ان الاستثناء لا يجب ان يكون متصلا أما عامة الفقهاء فقالوا لو جوزنا ذلك للزم أن لا يستقر شئ من العقود والايمان يحكى ان المنصور بلغه ان أبا حنيفة خالف ابن عباس فى الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال له الامام أبو حنيفة هذا يرجع عليك لانك تأخذ البيعة بالايمان أترضى ان يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن المنصور كلامه ورضى عنه واستدل له بان الآيات الكثيرة دلت على وجوب الوفاء بالعقد والعهد قال تعالى أوفوا بالعقود وقال تعالى وأوفوا بالعهد

فاذا

قوله بوقت غير معين كذا بالنسخ والمناسب حذف غير اهـ مصحح

بنفسه ومن وقد جمع بينهما فى الآية وقيل من للتبعيض لا للتعدية لان آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء وعلى الاول المراد من آل يعقوب الانبياء لانهم الذين لا يورثون الا العلم

فاذا أتى بالعقد أو العهد وجب عليه الوفاء بمقتضاه لاجل هذه الآيات خالفنا الدليل فيما اذا كان الاستثناء متصلا لان الاستثناء مع المستثنى منه كالكلام الواحد بدليل أن الاستثناء وحده لا يفيد شيأ فهو جار مجرى بعض الكلمة الواحدة فجملة الكلام كالكلمة الواحدة المفيدة فاذا لم يكن متصلا أفاد الالتزام التام فوجب الوفاء بذلك الملتزم وقيل ان قوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله قال عكرمة واذكر ربك اذا غضبت وقال وهب مكتوب فى الانجيل ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب وقال الضحاك والسدى هذا فى الصلاة المنسية قال الرازى وتعلق هذا الكلام بما قبله يفيد اتمام الكلام فى هذه القصة وجعله مستأنفا يصير الكلام مبتدأ منقطعا وذلك لا يجوز وفى قوله تعالى (وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا) وجوه الاول أن يكون قوله تعالى الا أن يشاء الله ليس بحسن تركه وذكره أولى من تركه وهو قوله لأقرب من هذا رشدا والمراد منه ذكر هذه الجملة الثانى أنه لما وعدهم بشئ وقال معه ان شاء الله فيقول وعسى أن يهدين ربى لشئ أحسن وأكمل مما وعدتكم به الثالث أن قوله عسى ان يهدين ربى لاقرب من هذا رشدا اشارة الى قصة أصحاب الكهف اى لعل الله يؤتينى من البينات والدلائل على صحة نبوتى وصدقى فى ادعاء النبوة ما هو أعظم فى الدلالة وأقرب رشدا من قصة أصحاب الكهف وقد فعل الله تعالى ذلك حين آتاه من قصص الانبياء والاخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك • ثم شرع تعالى فى آية هى آخر الآيات المذكورة فى قصة أصحاب الكهف بقوله تعالى (ولبثوا فى كهفهم) اى نياما (ثلثمائة) اى مدة ثلثمائة (سنين) قال بعضهم وهذه السنون الثلثمائة عند أهل الكتاب شمسية وتزيد القمرية عليها تسع سنين وقد ذكرت فى قوله (وازدادوا تسعا) اى تسع سنين لان التفاوت بين الشمسية والقمرية فى كل مائة سنة ثلاث سنين لان السنة الشمسية تزيد على السنة القمرية عشرة أيام واحدى وعشرين ساعة وخمس ساعة فالثلثمائة سنة الشمسية ثلثمائة وتسع قمرية قال الرازى وهذا مشكل لانه لا يصح بالحساب هذا القول ويمكن أن يقال انهم لما استكملوا ثلثمائة سنة قرب أمرهم من الانتباه ثم اتفق ما أوجب بقاءهم فى النوم بعد ذلك تسع سنين وقرأ حمزة والكسائى بغير تنوين فى الوصل والباقون بالتنوين فسنين عطف بيان لثلثمائة لانه لما قال ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة لم يعرف انها أيام أو شهور أو سنون فلما قال سنين صار هذا بيانا لقوله ثلثمائة فكان ذلك عطف بيان له وقيل هو على التقديم والتأخير اى لبثوا سنين ثلثمائة وأما وجه القراءة الاولى فهو أن الواجب فى الاضافة أن يقال ثلثمائة سنة الا أنه يجوز وضع الجمع موضع الواحد فى التمييز كقوله تعالى بالاخسرين أعمالا وحذف مميز تسع لدلالة ما تقدم عليه اذ لا يقال عندى ثلثمائة درهم وتسعة الا وأنت تعنى تسعة دراهم ولو أردت ثيابا أو نحوها لم يجز لانه الغاز • ثم ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم اذا نازعوه فى مدة لبثهم فى الكهف بقوله تعالى (قل الله أعلم بما لبثوا) اى فهو أعلم منكم وقد أخبر بمدة لبثهم وقيل ان أهل الكتاب قالوا ان المدة من حين دخلوا الكهف الى يومنا هذا وهو اجتماعهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ثلثمائة سنين وازدادوا تسع سنين فرد الله تعالى عليهم ذلك وقال الله اعلم بما لبثوا

قوله ما هو أعظم كذا بالنسخ ولعل الاولى الى ما اه مصححه

والنبوة (قوله انى يكون لى غلام) الى آخره (ان قلت) كيف استبعد زكريا ذلك وانكره (قلت) لم يقله انكارا بل ليجاب بما أجيب به عن طلبه الولد وهو قوله تعالى يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى فيزداد الموقنون ايقانا ويرتدع المبطلون

يعني بعد قبض أرواحهم الى يومنا هذا لا يعلمه الا الله (له غيب السموات والارض) اى ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلهما فالغيب ما يغيب عن ادراكك والله عز ذكره لا يغيب عن ادراكه شيء فيكون عالما بهذه الواقعة لا محالة وقوله تعالى (أبصر به وأسمع) كلمة تذكر في التعجب اى ما أبصر الله تعالى بكل موجود وما أسمعه بكل مسموع (ما لهم) أي أهل السموات والارض (من دونه) اى الله (من ولى) اى ناصر (ولا يشرك في حكمه) اى في قضائه (أحدا) منهم ولا يجعل له فيه مدخلا لانه غني بذاته عن كل أحد وقيل الحكم هنا علم الغيب اى لا يشرك في علم غيبه احدا وقرأ ابن عامر بالتاء الفوقية قبل الشين وبسكون الكاف على نهي كل احد عن الاشراك والباقون بالتحتية وضم الكاف *(تنبيه)* احتج أصحابنا رحمهم الله تعالى بهذه القصة على صحة القول بالكرامة للاولياء وقد قدمنا معرفة الولي في سورة يونس عند قوله تعالى ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فمما يدل على جواز كرامات الاولياء القرآن والاخبار والآثار والمعقول * اما القرآن فالمعتمد فيه عندنا آيات الحجة الاولى قصة مريم عليها السلام وقد شرحناها في سورة آل عمران فلا نعيدها الحجة الثانية قصة أصحاب الكهف وبقاؤهم في النوم سالمين من الآفات مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين وأن الله تعالى كان يعصمهم من حر الشمس ومن الناس من تمسك أيضا في هذه المسئلة بقوله تعالى قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك على أنه غير السيد سليمان والسيد جبريل * وأما الاخبار فكثيرة منها ما أخرج في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لم يتكلم في المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم وصبي في زمن جريج وصبي آخر اما عيسى فقد عرفتموه وأما جريج فكان رجلا عابدا في بني اسرائيل وكانت له أم فكان يوما يصلي اذ اشتاقت اليه أمه فقالت يا جريج فقال يا رب أمي وصلاتي الصلاة خير أم رؤيتها ثم يصلي فدعته ثانيا فقال مثل ذلك حتى تم ثلاث مرات وكان يصلي ويدعها فاشتد ذلك على أمه فقالت اللهم لا تمته حتى تريه المومسات وكانت زانية في بني اسرائيل فقالت لهم أنا أفتن جريجا حتى يزني فأتته فلم تقدر على شيء وكان هناك راع يأوي بالليل الى صومعته فلما أعياها جريج راودت الراعي على نفسها فأتاها فولدت ثم قالت ولدي هذا من جريج فأتاه بنو اسرائيل وكسروا صومعته وشتموه ثم صلى فدعا الغلام قال أبو هريرة كأني أنظر الى النبي صلى الله عليه وسلم حين قال بيده يا غلام من أبوك فقال الراعي فندم القوم على ما كان منهم واعتذروا اليه وقالوا نبني لك صومعتك من ذهب أو فضة فأبى عليهم وبناها كما كانت وأما الصبي الآخر فان امرأة كان معها صبي لها ترضعه اذ مر بها شاب جميل ذو شارة فقالت اللهم اجعل ابني مثل هذا فقال الصبي اللهم لا تجعلني مثله ثم مر بها امرأة ذكروا انها سرقت وزنت وعوقبت فقالت اللهم لا تجعل ابني مثل هذه فقال الصبي اللهم اجعلني مثلها فقالت له أمه في ذلك فقال ان الراكب جبار من الجبابرة فكرهت ان أكون مثله وان هذه قيل انها زنيت ولم تزن وقيل لها سرقت ولم تسرق وهي تقول حسبي الله فأحببت ان أكون مثلها ومنها خبر الغار وهو مشهور في الصحيح عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم فآواهم المبيت الى غار فدخلوه

او قاله تعجب فرح وسرور لا تعجب انكار واستبعاد

ويعقوب المذكور هو ابو يوسف وقيل هو أخو زكريا وقيل هو أخو عمران أبي مريم عليهم السلام (قوله قال رب

فانحدرت عليهم صخرة من الجبل فسدت عليهم باب الغار وقد ذكرت ذلك عند قوله تعالى كانوا من آياتنا عجبا ومنها قوله صلى الله عليه وسلم رب اشعث اغبر ذى طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لابره ولم يفرق من شئ وشئ فيما يقسم به على الله تعالى ومنها ما روى عن سعيد بن المسيب عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها التفتت البقرة وقالت انى لم أخلق لهذا وانما خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنت بهذا وأبو بكر وعمر ومنها ما روى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بينا رجل سمع رعدا أو صوتا فى السحاب ان اسق حديقة فلان قال فغدوت الى تلك الحديقة فاذا رجل قائم فيها فقلت له ما اسمك قال فلان بن فلان قلت فما تصنع بحديقتك هذه اذا صرمتها قال ولم تسأل عن ذلك قلت لانى سمعت صوتا فى السحاب أن اسق حديقة فلان قال اما اذ قلت فانى أجعلها أثلاثا فاجعل لنفسى ولاهلى ثلثا واجعل للمساكين وابناء السبيل ثلثا وانفق عليها ثلثا واما الآثار فكثيرة أيضا ولنبدأ منها ببعض ما نقل انه ظهر على يد الخلفاء الراشدين من الكرامات ثم ببعض ما ظهر على يد بعض الصحابة أما أبو بكر رضى الله تعالى عنه فمن كراماته أنه لما حملت جنازته الى باب قبر النبى صلى الله عليه وسلم ونودى السلام عليك يا رسول الله هذا أبو بكر بالباب فاذا بالباب قد فتح واذا بهاتف يهتف من القبر أدخلوا الحبيب الى الحبيب وأما عمر رضى الله تعالى عنه فقد ظهرت أنواع كثيرة من كراماته النوع الاول ما روى انه لما بعث جيشا وأمر عليهم رجلا يدعى سارية بن الحصين فبينما عمر يوم الجمعة يخطب جعل يصيح فى خطبته وهو على المنبر يا سارية الجبل الجبل قال على بن أبى طالب رضى الله عنه كتبت تاريخ هذه الكلمة فلما قدم رسول ذلك الجيش فقال يا أمير المؤمنين غزونا يوم الجمعة فى وقت الخطبة فهزمونا فاذا بانسان يصيح يا سارية الجبل فاسندنا ظهورنا الى الجبل فهزم الله تعالى الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة ذلك الصوت قال الرازى قلت سمعت بعض المذكرين قال كان ذلك معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه قال لابى بكر وعمر أنتما منى بمنزلة السمع والبصر فلما كان عمر بمنزلة البصر لمحمد صلى الله عليه وسلم لا جرم قدر على أن يرى من ذلك البعد العظيم النوع الثانى ما روى أن نيل مصر كان فى الجاهلية يقف فى كل سنة مرة واحدة فكان لا يجرى حتى تلقى فيه جارية حسناء فلما جاء الاسلام كتب عمرو بن العاص الى عمر فكتب عمر على خرقة ايها النيل ان كنت تجرى بامر الله فاجر وان كنت انما تجرى بامرك فلا حاجة بنا اليك فالقيت تلك الخرقة فى النيل فجرى ولم يقف بعد ذلك النوع الثالث لما وقعت الزلزلة فى المدينة فضرب عمر بالدرة على الارض وقال اسكنى باذن الله فسكنت وما حدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك الوقت النوع الرابع وقعت النار فى بعض دور المدينة فكتب عمر على خرقة يا نار اسكنى باذن الله فالقوها فى النار فانطفأت فى الحال النوع الخامس ما روى ان رسول ملك الروم جاء الى عمر وطلب داره فظن ان داره مثل قصور الملوك فقالوا ليس له ذلك وانما هو فى الصحراء يضرب اللبن فلما ذهب الى الصحراء رأى عمر وضع درته تحت رأسه ونام على التراب فتعجب الرسول من ذلك وقال اهل المشرق والمغرب يخافون هذا الانسان وهو على هذه الصفة ثم قال فى نفسه ان وجدته خاليا فاقتله واخلص

قوله ولم يفرق من شئ اعله بين شئ الخ اه

اجعل لى آية) الآية أى علامة (ان قلت) كيف طلب العلامة على وجود الولد بعدما بشره الله به (قلت) ليبادر الى الشكر ويتعجل السرور اذا حمل

الناس منه فلما رفع السيف أخرج الله تعالى من الارض أسدين فقصدا نحوه فخاف وألقى السيف من يده وانتبه عمرو ولم يرشيأ فسأله عن الحال فذكر له الواقعة وأسلم قال الرازي واقول هذه الواقعة رويت بالآحاد وههنا ما هو معلوم بالتواتر وهو أنه مع بعده عن زينة الدنيا واحترازه عن التكلفات والتهويلات ساس الشرق والغرب وغلب الممالك والدول ولو نظرت في كتب التواريخ علمت أنه لم يتفق لاحد من أول عهد دهر الى الآن ما تيسر له فانه مع غاية بعده عن التكلفات كيف قدر على تلك السياسات ولا شك ان هذا من أعظم الكرامات وأما عثمان رضي الله تعالى عنه فاشياء كثيرة منها ما روى عن أنس قال مررت في الطريق فوقعت عيني على امرأة ثم دخلت على عثمان فقال مالي أراكم تدخلون علي وآثار الزنا ظاهرة عليكم فقلت أجاء الوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا ولكن فراسة صادقة ومنها انه لما طعن بالسيف فاول قطرة من دمه سقطت وقعت على المصحف على قوله تعالى فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ومنها أن جهجاها الغفاري انتزع العصا من يد عثمان فكسرها على ركبته فوقعت الاكلة في ركبته وأما علي رضي الله تعالى عنه فاشياء كثيرة أيضا منها ما روى ان واحدا من محبيه سرق وكان عبدا أسود فاتي به الى علي فقال أسرقت فقال بلى فقطع يده فانصرف من عند علي فلقيه سلمان الفارسي وابن الكواء فقال ابن الكواء من قطع يدك فقال أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول فقال له سلمان قطع يدك وتمدحه فقال ولم لا أمدحه وقد قطع يدي بحق وخلصني من النار فسمع سلمان ذلك فاخبر به عليا فدعا الاسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات فسمعنا صوتا من السماء ارفع الرداء عن اليد فرفعناه فاذا اليد قد برئت وأما ما روى عن بعض الصحابة فشيء كثير ونذكر منها شيأ قليلا منها ما روى محمد بن المنكدر عن سفينة قال ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها وركبت لوحا من ألواحها فطرحني اللوح في خيسة فيها اسد فخرج الاسد الي يريدني فقلت يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فتقدم الاسد الي ودلني على الطريق ثم همهم فظننت انه يودعني ورجع ومنها ما روى ثابت عن أنس ان اسيد بن حضير ورجلا آخر من الانصار تحدثا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة لهما حتى ذهب من الليل زمان ثم خرجا من عنده وكانت الليلة شديدة الظلمة وكان في يد كل واحد منهما عصا فاضاءت عصا احدهما لهما حتى مشيا في ضوء ثم لما افترقت بهما الطريق اضاءت للآخر عصاه فمشى حتى بلغ منزله ومنها ما روى انه قيل لخالد بن الوليد ان في عسكرك من يشرب الخمر فركب فرسه ليلة فطاف بالعسكر فلقي رجلا على فرس ومعه خمر فقال ما هذا قال خل فقال خالد اللهم اجعله خلا فذهب الرجل الى اصحابه فقال أتيتكم بخمر ما شربت العرب مثلها فلما فتحوا فاذا هو خل فقالوا والله ما جئتنا الا بخل فقال والله هذا دعاء خالد ومنها الواقعة المشهورة وهي ان خالد بن الوليد أكل كفا من السم على اسم الله وما ضره ومنها ما روى ان ابن عمر كان في بعض أسفاره فلقي جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع فطرد السبع من طريقهم ثم قال انما يسلط على ابن آدم ما يخافه ولو انه لم يخف غير الله لما سلط عليه شيء ومنها ما روى ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث العلاء بن الحضرمي في غزاة فحال بينهم وبين المطلوب قطعة من البحر فدعا

لا يظهر في أول الصلوق [illegible] فأراد معرفته أول وجوده جعل الله آية وجوده معجزة عن كلام الناس (قوله ولم يكن جبارا عصيا) قال ذلك هنا وقال بعده

باسم الله الاعظم ومشوا على الماء وفي كتب الصوفية من هذا الباب روايات متجاوزة عن الحد والحصر فمن أراد ها طالعها وأما الدلائل العقلية على جواز الكرامات فمن وجوه الاول أنه صلى الله عليه وسلم قال حاكيا عن رب العزة من آذى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة فجعل ايذاء الولي قائما مقام ايذائه وتأكد هذا الخبر المشهور أنه تعالى يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني استسقيتك فما سقيتني استطعمتك فما أطعمتني فيقول يارب كيف أفعل هذا وأنت رب العالمين فيقول ان عبدي فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدت ذلك عندي وكذا في السقي والاطعام فدلت هذه الاخبار على أن أولياء الله يبلغون هذه الدرجات العالية والمراتب الشريفة فاذا جاز ايصال العبد الى هذه الدرجات فأي بعد أن يعطيه الله تعالى كسرة خبز أو جرعة ماء أو يسخر له كلبا أو دودة الوجه الثاني أنه صلى الله عليه وسلم قال عن رب العزة ما تقرب الى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا وقلبا ولسانا ويدا ورجلا في يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يمشي وهذا الخبر يدل على أنه لم يبق في سمعهم نصيب لغير الله تعالى لما قال أنا سمعه وأنا بصره وهذا المقام أشرف من تسخير الحية والسبع واعطاء عنقود من العنب أو شربة من الماء فلما أوصل برحمته عبده الى هذه الدرجات العالية فأي بعد في أن يعطيه رغيفا واحدا أو شربة من الماء في مفازة الوجه الثالث لو امتنع اظهار الكرامة لكان ذلك اما لاجل أن الله تعالى ليس أهلا لان يفعل مثل هذا الفعل أو لاجل أن المؤمن ليس أهلا لان يعطيه الله هذه العطية والاول قدح في قدرة الله تعالى وهو كفر والثاني باطل فان معرفة الله تعالى ومحبته وطاعته والمواظبة على ذكره وتقديسه وتمجيده وتهليله أشرف من اعطاء رغيف واحد في مفازة وتسخير حية أو أسد فلما أعطاه المحبة والذكر والشكر من غير سؤال أولى من أن يعطيه شربة ماء في مفازة فأي بعد فيه واحتج المنكر للكرامات بوجوه الاول أن ظهور الفعل الخارق للعادة جعله الله تعالى دليلا على النبوة فلو حصل لغير النبي لبطلت هذه الدلالة الوجه الثاني أن الله تعالى قال وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس والقول بان الولي ينتقل من بلد الى بلد بعيد دلا على هذا الوجه طعن في هذه الآية وأيضا ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يصل من مكة الى المدينة الا في أيام كثيرة مع التعب الشديد فكيف يعقل أن يقال ان الولي ينتقل من بلد نفسه الى الحج في اليوم الواحد الوجه الثالث أن هذا الولي الذي يظهر عليه الكرامات اذا ادعى على انسان درهما واحدا فهل يطالب بالبينة أم لا فان طالبناه بها كان عبثا لان ظهور الكرامة عليه يدل على أنه لا يكذب ومع قيام الدليل القاطع كيف يطالب الدليل الظني وان لم يطالب بها فقد تركنا قوله صلى الله عليه وسلم البينة على المدعي فهذا يدل على أن القول بالكرامة باطل وأجيب عن الاول بان الناس اختلفوا هل يجوز للولي دعوى الولاية فقال قوم من المحققين انه لا يجوز فعلى هذا الفرق بين المعجزة والكرامة أن المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوة والكرامة لا تكون مسبوقة بدعوى الولاية وعلى القول بالجواز الفرق بينهما ان النبي يدعي المعجزة ويقطع بها والولي اذا ادعى الكرامة لا يقطع بها لان المعجز يجب ظهوره والكرامة

ولم يبعد في جبار اشقيا لان الاول في حق يحيى والثاني في حق عيسى عليهما السلام (قوله وسلام عليه يوم ولد) قاله هنا في قصة يحيى منكرا وقال بعد في قصة عيسى والسلام

لايجب ظهورها وأجيب عن الثانى بان قوله تعالى وتصل اتقالكم الى آخره محمول على المعهود المتعارف وكرامات الاولياء أحوال نادرة فتصير كالمستثنيات من ذلك العموم المتعارف وأجيب عن الثالث بان التمسك بالامور النادرة لايعول عليه فى الشرع فلا ينافى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم البينة على المدعى ومع هذا فصاحب الكرامة يجب عليه ان يكون خائفا وجلا ولهذا قال المحققون أكثر ما حصل الانقطاع عن حضرة الله انما وقع فى مقام الكرامات فلاجرم ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من أشد أنواع البلاء والذى يدل على ان الاستئناس بالكرامة قاطع عن الطريق وجوه الاول ان الكرامات أشياء مغايرة للحق سبحانه وتعالى فالفرح بالكرامات فرح بغير الحق والفرح بغير الحق حجاب والمحجوب عن الحق كيف يليق به الفرح والسرور الوجه الثانى ان من اعتقد فى نفسه انه صار مستحقا للكرامة بسبب عمله حصل لعمله وقع عظيم فى قلبه ومن كان لعمله وقع عظيم فى قلبه كان جاهلا اذ لو عرف ربه لعلم ان كل طاعات الخلق فى جنب جلاله تقصير وكل شكر فى جنب آلائه ونعمائه قصور وكل معارفهم وعلومهم فهى فى مقابلة عزته حيرة وجهل وجدت فى بعض الكتب انه قرئ فى مجلس الاستاذ أبى على الدقاق قوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فقال علامة ان الحق رفع عملك ان لايبقى عندك من عملك فى نظرك فان بقى عملك فى نظرك فهو غير مرفوع وان لم يبق عملك فى نظرك فهو مرفوع مقبول الوجه الثالث ان صاحب الكرامة انما وجد الكرامة لاظهار الذل والتضرع فى حضرة الله تعالى فاذا ترفع وتكبر وتجبر بسبب الكرامات فقد بطل مابه وصل الى الكرامات فهذا طريق يؤدى ثبوته الى عدمه فكان مردودا ولهذا المعنى لما ذكر صلى الله عليه وسلم مناقب نفسه وفضائلها كان يقول فى آخر كل واحد منها ولا فخر اى لا أفتخر بهذه الكرامات وانما أفتخر بالمكرم والمعطى الوجه الرابع انه تعالى وصف عباده المخلصين بقوله تعالى ويدعوننا رغبا اى فى ثوابنا ورهبا اى من عذابنا وقيل رغبا فى وصالنا ورهبا من عقابنا قال بعض المحققين والاحسن ان يقال رغبا فينا ورهبا عنا وفى هذا القدر كفاية لأولى الالباب جعلنا الله تعالى وأحبابنا من أهل ولايته بمحمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحابته ❁ ثم لما دل اشتمال القرآن على قصة أصحاب الكهف من حيث انها من المغيبات بالاضافة الى النبى صلى الله عليه وسلم على انه وحى معجز أمره ان يداوم درسه ويلازم أصحابه بقوله تعالى (واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك) اى القرآن واتبع مافيه واعمل بما فيه (لامبدل لكلماته) اى لا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره وقال بعضهم مقتضى هذا أن لايتطرق النسخ اليه وأجاب بان النسخ فى الحقيقة ليس تبديلا لان المنسوخ ثابت فى وقته الى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالمغاير فكيف يكون تبديلا وهذا لايحتاج اليه مع التفسير المذكور (وان تجد من دونه) اى الله (ملتحدا) اى ملجأ فى البيان والارشاد وقيل ان لم تتبع القرآن ❁ ونزل فى عيينة بن حصن الفزارى لما أتى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء فيهم سلمان الفارسى وعليه شملة قد عرق فيها وبيده خوص يشقه ثم ينسجه فقال له أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها فان أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك الا هؤلاء

على قوم ولست معترضا لان الاول من الله والفعل منه كثير والثانى من عيسى وال الاستغراق او العهد كما فى قوله تعالى كما ارسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول اى ذلك

اى كما قال قوم نوح أنؤمن لك واتبعك الارذلون فعهم حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلسا او اجعل لهم مجلسا (واصبر نفسك) اى احبسها وثبتها (مع الذين يدعون ربهم) ونظير هذه الآية قد سبق فى سورة الانعام وهو قوله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ففى تلك الآية نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن طردهم وفى هذه الآية أمره بمجالستهم والمصابرة معهم وفى قوله تعالى (بالغدوة والعشى) وجوه الاول انهم مواظبون على هذا العمل فى كل الاوقات كقول القائل ليس لفلان عمل بالغداة والعشى الاشتم الناس الثانى المراد صلاة الفجر والعصر الثالث ان المراد الغداة وهو الوقت الذى ينتقل فيه الانسان من النوم الى اليقظة وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من الموت الى الحياة والعشى هو الوقت الذى ينتقل الانسان فيه من الحياة الى الموت ومن اليقظة الى النوم والانسان العاقل يكون فى هذين الوقتين كثير الذكر لله تعالى عظيم الشكر لآلاء الله ونعمائه وقرأ ابن عامر بضم الغين المعجمة وسكون الدال وبعدها واو مفتوحة والباقون بفتح الغين والدال وألف بعدها والرسم فى المصحف بالواو هنا وفى سورة الانعام (يريدون) بعبادتهم (وجهه) تعالى اى رضاه وطاعته لاشيأ من اعراض الدنيا (ولا تعد) اى تنصرف (عيناك عنهم) الى غيرهم وعبر بالعينين عن صاحبهما فنهى صلى الله عليه وسلم ان يصرف بصره ونفسه عنهم لاجل رغبته فى مجالسة الاغنياء لعلهم يؤمنون وقوله تعالى (تريد زينة الحيوة الدنيا) فى موضع الحال اى انك ان فعلت ذلك لم يكن اقدامك عليه الا لرغبتك فى زينة الحياة الدنيا ولما بالغ تعالى فى أمره فى مجالسة الفقراء من المسلمين بالغ فى النهى عن الالتفات الى أقوال الاغنياء والمتكبرين بقوله تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) اى جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا اى عيينة بن حصن وقيل أمية بن خلف (واتبع هواه) اى فى طلب الشهوات (وكان أمره فرطا) اى اسرافا وباطلا وهذا يدل على ان أشر أحوال الانسان ان يكون قلبه خاليا عن ذكر الحق ويكون مملوأ من الهوى الداعى الى الاشتغال بالخلق لان ذكر الله تعالى نور وذكر غيره ظلمة لان الوجود طبيعة النور والعدم منبع الظلمة والحق تعالى واجب الوجود لذاته فكان النور الحق هو الله تعالى وماسواه فهو ممكن الوجود لذاته والامكان طبيعة عدمية فكان منبع الظلمة فالقلب اذا أشرق فيه ذكر الله تعالى فقد حصل فيه النور والضوء والاشراق واذا توجه القلب الى الخلق فقد حصل فيه الظلم والظلمة بل الظلمات فلهذا السبب اذا أعرض القلب عن الحق وأقبل على الخلق فهو الظلمة الخالصة التامة والاعراض عن الحق هو المراد بقوله تعالى أغفلنا قلبه عن ذكرنا والاقبال على الخلق هو المراد بقوله تعالى واتبع هواه روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال كنت جالسا فى عصابة من ضعفاء المهاجرين وان بعضهم ليستتر ببعض من العرى وقارئ يقرأ من القرآن فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما الذى كنتم تصنعون قلنا يارسول الله كان واحد يقرأ من القرآن ونحن نسمع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذى جعل من أمتى من أمرت ان أصبر نفسى معهم ثم جلس وسطنا وقال أبشروا ياصعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة فتدخلون الجنة قبل الاغنياء

السلام الموجه الى نبى موجه الى (قوله فارسلنا اليها روحنا) اى جبريل (فان قلت) كيف قال ذلك مع ان اتفاق العلماء على ان الوحى لم ينزل على امرأة ولهذا قالوا فى قوله

بمقدار خمسمائة سنة * ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا يلتفت الى أولئك الاغنياء الذين قالوا ان طردت الفقراء آمنا بك قال تعالى بعده (وقل الحق) اى وقل لهؤلاء ولغيرهم هذا الذى جئتكم به فى أمر أهل الكهف وغيرهم من هذا الوحى العربى المعرى عن العوج الظاهر الاعجاز الباهر الحجج الحق كائنا (من ربكم) المحسن اليكم فى أمر أهل الكهف وغيرهم من صبر نفسى مع المؤمنين والاعراض عمن سواهم وغير ذلك لا ما تقولون فى أمرهم ويجوز أن يكون الحق مبتدأ وخبره الجار بعده (فمن شاء) اى منكم ومن غيركم (فليؤمن) بهذا الذى قصصناه فيهم وفى غيرهم فهو مقبول مرغوب فيه وان كان فقير الرث الهيئة ولم ينفع الا نفسه (ومن شاء) منكم ومن غيركم (فليكفر) فهو أهل لان يعرض عنه ولا يلتفت اليه وان كان أغنى الناس وأحسنهم هيئة وان تعاظمت هيئته وهذا لا يقتضى استقلال العبد بفعله كما تقول المعتزلة نعن ابن عباس فى معنى الآية من شاء الله له الايمان آمن ومن شاء له الكفر كفر ونقل عن على رضى الله عنه انه قال هذه الصيغة تهديد ووعيد اى فهى كقوله تعالى اعملوا ما شئتم فان الله تعالى لا ينتفع بايمان المؤمنين ولا يستضر بكفر الكافرين بل نفع الايمان يعود على المؤمن وضرر الكفر يعود على الكافر كما قال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها * ولما هدد السامعين بما حاصله ليختر كل امرئ لنفسه ما يجده غدا عند الله أتبعه بذكر الوعيد والافعال الباطلة وبذكر الوعد على الايمان والاعمال الصالحة أما الوعيد فقوله تعالى (انا أعتدنا) اى هيأنا بما لنا من العظمة والقدرة (للظالمين) اى ان أنف عن قبول الحق لاجل ان الذين قبلوه فقراء ومساكين وكذا كل من لم يؤمن (نارا) وهى الجحيم ثم وصف الله تعالى تلك النار بصفتين الاولى قوله تعالى (أحاط بهم) كلهم (سرادقها) اى فسطاطها شبه به ما يحيط بهم من النار وقيل هو الحجرة التى تكون حول الفسطاط وقيل حائط من نار والمراد انه لا مخلص لهم منها ولا فرجة يتفرجون بالنظر الى ما وراءها من غير النار بل هى محيطة من كل الجوانب وقيل هو دخان يغشاهم قبل دخولهم النار يحيط بهم كالسرادق حول الفسطاط الصفة الثانية قوله تعالى (وان يستغيثوا) اى يطلبوا الغوث (يغاثوا بماء) ووصف هذا الماء بصفتين الاولى قوله تعالى (كالمهل) وهو كما فى حديث مرفوع دردى الزيت وعن ابن مسعود انه دخل بيت المال وأخرج نفاعة كانت فيه وأوقد عليها النار حتى تلألأت ثم قال هذا هو المهل وقال أبو عبيدة والاخفش كل شئ أذبته من نحاس أو ذهب أو فضة فهو المهل وقيل انه الصديد والقيح وقيل انه ضرب من القطران ثم يحتمل ان تكون هذه الاستغاثة لانهم طلبوا ماء للشرب فيعطون هذا المهل قال تعالى تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية ويحتمل ان يستغيثوا من حرجهنم فيطلبوا ماء يصبونه على أنفسهم للتبريد فيعطون هذا الماء قال تعالى حكاية عنهم أفيضوا علينا من الماء وقال تعالى فى آية أخرى سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار فاذا استغاثوا من حرجهنم صب عليهم القطران الذى يعم كل أبدانهم كالقميص والصفة الثانية للماء قوله تعالى (يشوى الوجوه) اى اذا قرب الى الفم للشرب فكيف بالفم والجوف ثم وصل تعالى بذلك ذمه فقال تعالى (بئس الشراب) اى ذلك الماء الذى

وأوحينا الى ام موسى انه وحى الهام وقيل وحى منام (قوله) لان الوحى لم ينزل على امرأة قط قال مقاتل فى قوله واوحينا الى ام موسى انه كان وحيا بواسطة جبريل

هو كالمهل لان المقصود من شرب الشراب تسكين الحرارة وهذا يبلغ فى احراق الانسان مبلغا عظيما ثم عطف عليه ذم النار المعدة لهم بقوله تعالى (وساءت) اى النار وقوله تعالى (مرتفقا) تمييز منقول من الفاعل اى قبح مرتفقها وهو مقابل لقوله تعالى الآتى فى الجنة وحسنت مرتفقا والا فاى ارتفاق فى النار ولما ذكر تعالى وعيد المبطلين اردفه بوعد المحقين فقال تعالى (ان الذين آمنوا) ولما كان الايمان هو الاذعان للاوامر عطف عليه ما يحقق ذلك بقوله تعالى (وعملوا الصالحات) ثم عظم جزاءهم بقوله تعالى (انا لا نضيع) اى بوجه من الوجوه (اجر من احسن عملا) وهذه الجملة خبر ان الذين وفيه اقامة الظاهر مقام المضمر والمعنى اجرهم اى نثيبهم بما تضمنه (اولئك لهم جنات عدن) اى اقامة فكانه قيل فما لهم فيها فقيل (تجرى من تحتهم) اى من تحت منازلهم (الانهار) وذلك لان افضل المساكن ما كان يجرى فيه الانهار او الماء فكانه قيل ثم ماذا فقيل (يحلون فيها) و بنى الفعل للمجهول لان المقصود وجود التحلية وهى لعزتها انما يؤتى بها من الغيب فضلا من الله تعالى ولما كانت نعم الله لا يحصى نوع منها قال تعالى مبعضا (من اساور) جمع اسورة كاحمرة جمع سوار كما يلبس ذلك ملوك الدنيا من جبابرة الكفرة فى بعض الاقاليم كاهل فارس وقيل من زائدة وقيل للابتداء ومن فى قوله تعالى (من ذهب) للبيان صفة لاساور وتنكيرها لتعظيم حسنها عن الاحاطة به وقيل للتبعيض ولما كان اللباس جزاء العمل فكان موجودا عندهم اسند الفعل اليهم فقال (ويلبسون ثيابا خضرا) لان الخضرة احسن الالوان واكثرها طراوة ثم وصفها بقوله تعالى (من سندس) وهو ما رق من الديباج (واستبرق) وهو ما غلظ منه جمع بين النوعين للدلالة على ان فيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين وفى آية اخرى بطائنها من استبرق فيكون الغليظ بطانة الرقيق ثم استانف الوصف عن حال جلوسهم فيها بانه جلوس الملوك المتمكنين من النعيم فقال تعالى (متكئين فيها) اى لانهم فى غاية الراحة (على الارائك) جمع اريكة وهى السرير فى الحجلة وهى بيت يزين بالثياب والستور للعروس ثم مدح هذا بقوله تعالى (نعم الثواب) اى الجزاء الجنة ولو لم يكن لها وصف غير ما عمت فكيف ولها من الاوصاف ما لا يعلم حق علمه الا الله تعالى والى ذلك اشار بقوله تعالى (وحسنت) اى الجنة كلها وبين ذلك بقوله تعالى (مرتفقا) اى مقرا ومرتفقا ومجلسا ولما افتخر الكفار باموالهم وانصارهم على فقراء المسلمين بين الله تعالى ان ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال ان يصير الفقير غنيا والغنى فقيرا واما الذى يجب الافتخار به فطاعة الله تعالى وعبادته وهى حاصلة لفقراء المؤمنين و بين ذلك بضرب هذا المثل المذكور بقوله تعالى (واضرب لهم) اى لهؤلاء الاغنياء المتجبرين الذين يستكبرون على المؤمنين و يطلبون طردهم لضعفهم وفقرهم (مثلا) لما آتاهم الله من زينة الحياة الدنيا واعتمدوا عليه وركنوا اليه ولم يشكروا من آتاهم اياه عليه بل اداهم الى الافتخار والتكبر على من زوى ذلك عنه اكراما له وصيانة عنه (رجلين) الى آخر الآية واختلف فى سبب نزولها فقيل نزلت فى رجلين من اهل مكة من بنى مخزوم احدهما مؤمن وهو ابو سلمة وكان زوج ام سلمة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم والآخر كافر وهو الاسود بن عبد ياليل وهما ابنا عبد الاسد بن عبد ياليل . وقيل

والمتفق عليه انما هو وحى الرسالة لا مطلق الوحى والوحى هنا انما هو ببشارة الولد لا بالرسالة (قوله انى اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا) ان قلت كيف قالت مريم ذلك مع انه

مثال لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وأصحابه شبههما برجلين من بني اسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا في قول ابن عباس وقال مقاتل تمليخا والآخر كافر واسمه فطروس وقال وهب قطفر وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة والصافات وكانت قصتهما على ما حكى عبد الله بن المبارك عن معمر عن عطاء الخراساني قال كانا رجلين شريكين لهما ثمانية آلاف دينار وقيل كانا أخوين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتقاسماها فاشترى أحدهما أرضا بألف دينار فقال صاحبه اللهم ان فلانا قد اشترى أرضا بألف دينار واني مشتر منك أرضا في الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال صاحبه اللهم ان فلانا بنى دارا بألف دينار واني اشتريت منك دارا في الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم تزوج صاحبه امرأة فانفق عليها ألف دينار فقال هذا اللهم اني أخطب اليك من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه اشترى خدما ومتاعا بألف دينار فقال هذا اللهم اني اشترى خدما ومتاعا من الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم أصابته حاجة شديدة فقال لو أتيت صاحبي لعله ينالني منه معروف فجلس على طريقه حتى مر به في حشمه فقام اليه فنظر اليه الآخر فعرفه فقال له فلان قال نعم قال ما شانك قال أصابتني حاجة بعدك فأتيتك لتعينني بخير قال فما فعل مالك وقد اقتسمنا مالا وأخذت شطره فقص عليه قصته فقال وانك لمن المصدقين بهذا اذهب فلا أعطيك شيأ فطرده وروى انه لما أتاه أخذ بيده فجعل يطوف به ويريه أموال نفسه فنزل فيهما واضرب لهم مثلا رجلين أي اذكر لهم خبر رجلين (جعلنا لاحدهما جنتين) أي بستانين يستر ما فيهما من الاشجار من يدخلهما (من أعناب) لانها من أشجار البلاد الباردة وتصبر على الحر وهي فاكهة وقوت بالعنب والزبيب والخل وغيرها ثم انه تعالى وصف الجنتين بصفات الصفة الاولى قوله تعالى (وحففناهما) أي أطفناهما من جوانبهما (بنخل) لانها من أشجار البلاد الحارة وتصبر على الحرور بما منعت عن الاعناب بعض أسباب العاهات وثمرها فاكهة بالبسر والرطب وقوت بالتمر والخل فكان النخل كالاكليل من وراء العنب *(تنبيه)* الحفاف الجانب وجمعه أحفة يقال أحف به القوم أي أطافوا بجوانبه الصفة الثانية قوله تعالى (وجعلنا بينهما) أي أرض الجنتين (زرعا) ليدل شمول الآفة للكل لان زمان الزرع ومكانه غير زمان أثمار الشجر ومكانه وذلك هو العمدة في القوت فكانت الجنتان أرضا جامعة لخير الفاكهة وأفضل الاقوات وعمارتهما متواصلة متشابكة لم يتوسطهما ما يقطعهما ويفصل بينهما مع سعة الاطراف وتباعد الاكناف وحسن الهيئات والاوصاف الصفة الثالثة قوله تعالى (كلتا) أي كل واحدة من (الجنتين) المذكورتين (آتت أكلها) أي ما يطلب منها ويؤكل من ثمر وحب كاملا غير منسوب شئ منهما الى نقص ولاردائة وهو معنى (ولم تظلم) أي ولم تنقص (منه شيأ) يعهد في سائر البساتين فان الثمار تتم في عام وتنقص في عام غالبا والظلم النقصان تقول الرجل ظلمني حقي أي نقصني *(تنبيه)* كلا اسم مفرد معرفة يؤكد به مذكران معرفتان وكلتا اسم مفرد ومعرفة يؤكد به مؤنثان معرفتان وانما اذا أضيفا الى المظهر كانا بالالف في الاحوال الثلاثة كقولك جاءني كلا أخويك ورأيت كلا أخويك ومررت بكلا أخويك وجاءني كلتا

اختيك

انما يتعوذ من الفاسق لا من التقي (قلت) معناه ان كنت ممن يتقي الله فانت تنتهي عني بتعوذي به منك وقيل ظنه رجلا اسمه تقي وكان فاجرا فتعوذت منه (قوله ايهب

أختيك ورأيت كلتا أختيك ومررت بكلتا أختيك واذا أضيفا الى المضمر كانا فى الرفع بالالف وفى الجر والنصب بالياء وبعضهم يقول مع المضمر بالالف فى الاحوال الثلاثة أيضا فقوله تعالى آتت أكلها حمل على اللفظ لان كلتا لفظه مفرد ولو قيل آتتا على المعنى لجاز الصفة الرابعة قوله تعالى (وفجرنا خلالهما نهرا) اى وسطهما او بينهما ومنه قوله تعالى ولأوضعوا خلالكم ومنه يقال خللت القوم اى دخلت القوم وذلك ليدوم شربهما ويستغنيا عن المطر عند القحط ويزيد بهاؤهما الصفة الخامسة قوله تعالى (وكان له) اى صاحب الجنتين (ثمر) اى أنواع من المال سوى الجنتين قال ابن عباس من ذهب وفضة وغير ذلك من أثمر ماله اذا كثر وعن مجاهد الذهب والفضة خاصة أى كان مع الجنتين أشياء من الاموال ليكون متمكنا من العمارة بالاعوان والآلات وجميع ما يريد وقرأ أبو عمرو ثمر هنا وغيره الآتى بسكون الميم فيهما بعد ضم الثاء المثلثة وقرأ عاصم بفتح المثلثة والميم فيهما والباقون بضم المثلثة والميم فيهما ذكر أهل اللغة ان الضم أنواع المال من الذهب والفضة وغيرهما وبالفتح حمل الشجر قال قطرب وكان أبو عمرو بن العلاء يقول الثمر المال والولد وأنشد للحرث بن حلزة

واقد رأيت معاشرا • قد أثمروا مالا وولدا

وقال النابغة

مهلا فداء لك الاقوام كلهم • وما أثمر من مال ومن ولد

(فقال) أى هذا الكافر (لصاحبه) أى المسلم المجعول مثلا لفقراء المؤمنين (وهو) أى صاحب الجنتين (يحاوره) أى يراجعه الكلام من حار يحور اذا رجع افتخارا عليه وتقبيحا لحاله بالنسبة اليه والمسلم يحاوره بالوعظ وتقبيح الركون الى الدنيا (أنا أكثر منك مالا) لما ترى من جنانى وغيرى وقرأ نافع بمد الالف بعد النون والباقون بالقصر هذا فى الوصل وأما فى الوقف فبالالف للجميع وسكن قالون وأبو عمرو والكسائى هاء وهو وضمها الباقون ورقق ورش راء يحاوره (وأعز نفرا) أى ناسا يقومون معى فى المهمات وينفعون عند الضرورات لان ذلك لازم لكثرة المال غالبا وترى أكثر الاغنياء من المسلمين وان لم يطلقوا بمثل هذا الكلام فان ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه (ودخل جنته) بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها وأفرد الجنة لارادة الجنس ودلالة ما أفاده الكلام من أن مالاتصالهما كالجنة الواحدة واشارة الى انه لا جنة له غيرها لانه لا حظ له فى الآخرة (وهو) أى والحال أنه (ظالم لنفسه) لاعتماده على ماله والاعراض عن ربه ثم استأنف بيان ظلمه بقوله تعالى (قال ما أظن أن تبيد) أى تنعدم (هذه) أى الجنة (أبدا) لطول أمله وتمادى غفلته واغتراره بجهله تمززا فى الطغيان والبطر بقصر النظر على الحاضر فانكر البعث بقوله (وما أظن الساعة قائمة) أى كائنة استلذاذا بما هو فيه واخلادا اليه واعتمادا عليه وقوله (ولئن رددت الى ربى) الحسن الى فى هذه الدار فى الساعة اقسام منه على انه ان رد الى ربه على سبيل الفرض والتقدير وعلى ما يزعم صاحبه أن الساعة قائمة (لأجدن خيرا منها) أى من هذه الجنة (منقلبا) أى مرجعا لانه لم يعطنى الجنة فى الدنيا الا ليعطينى فى الآخرة أفضل منها قال ذلك طمعا وتمنيا على الله وادعاء

لك) اى ليهب ربك لك غلاما وقرئ لاهب لك غلاما انما انا رسول بتقدير ربك يقول لك أرسلت رسولا اليك لاهب لك فيكون حكاية عن الله لا من قول جبريل أو باسناد

اكرامه عليه ومكانته عنده وانه ما أولاه الجنتين الا لاستحقاقه واستئهاله وأن معه هذا الاستحقاق أينما توجه كقوله ان لى عنده للحسنى لأوتين مالا وولدا (قال له صاحبه) أى المؤمن (وهو) أى والحال أن ذلك الصاحب (يحاوره) أى يراجعه منكرا عليه (أكفرت بالذى خلقك من تراب) أى خلق أصلك آدم من تراب لان خلق أصله سبب فى خلقه فكان خلقه خلقا له (ثم من نطفة) متولدة من أغذية أصلها تراب هى مادتك القريبة (ثم سواك) أى عدلك بعد أن أولدك وطورك فى أطوار النشأة (رجلا) أى كملك انسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال جعل كفره بالبعث كفرا بالله تعالى لان منشأه الشك فى كمال قدرة الله تعالى ولذلك رتب الانكار على خلقه اياه من التراب فان من قدر على بدء خلقه مرة قدر على أن يعيده منه ولما أنكر على صاحبه أخبر عن اعتقاده بما يضاد اعتقاد صاحبه فقال مؤكدا لاجل انكار صاحبه مستدركا لاجل كفرانه (لكنا) أصله لكن أنا نقلت حركة الهمزة الى النون وحذفت الهمزة ثم أدغمت النون فى مثلها كما قال القائل

وترمينى بالطرف أى أنت مذنب * وتقلينى لكن اياك لا أقلى

أى لكن أنا لا أقليك ولما كان سبحانه وتعالى لا شئ أظهر منه ولا شئ أبطن منه أشار الى ذلك جريا على ذلك بالاضمار قبل الذكر فقال (هو) أى الظاهر أتم ظهور فلا يخفى أصلا ويجوز أن يكون الضمير للذى خلقك (الله) أى المحيط بصفات الكمال (ربى) وحده لم يحسن الى خلقا ورزقا أحد غيره وهذا اعتقادى فى الماضى والحال وقرأ ابن عامر باثبات الالف بعد النون وقفا ووصلا لاتباع المرسوم والباقون باثبات الالف بعد النون وقفا وحذفها وصلا (فان قيل) قوله لكنا استدراك لماذا (أجيب) بانه لقوله أكفرت فكأنه قال لاخيه أكفرت بالله لكنى مؤمن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمرو حاضر وذكر القفال فى قول المؤمن (ولا أشرك بربى) أى المحسن الى فى عبادتى (أحدا) وجوها أحدها انى لا أرى الفقر والغنى الا منه فأحمده اذا أعطى وأصبر اذا ابتلى ولا أكفر عندما ينعم على ولا أرى كثرة الاموال والاعوان من نفسى وذلك لان الكافر لما اغتر بكثرة المال والجاه فكأنه قد أثبت لله شريكا فى اعطاء العز والغنى وثانيها لعل ذلك الكافر مع كونه منكرا للبعث كان عابد صنم فبين هذا المؤمن فساد قوله باثبات الشركاء وثالثها ان هذا الكافر لما عجز الله تعالى عن البعث والحشر فقد جعله مساويا للخلق فى هذا العجز واذا أثبت المساواة فقد أثبت الشريك ثم قال المؤمن للكافر (ولولا اذ) أى وهلا حين (دخلت جنتك قلت) عند اعجابك بها ما يدل على تفويضك الامر فيها وفى غيرها الى الله تعالى وهو (ما شاء الله) أى الامر ما شاء الله أو ما شاء الله كائن على ان ما موصولة أى وأى شئ شاء الله كان على أنها شرطية والجواب محذوف أى اقرارا بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى ان شاء أبقاها وان شاء أهلكها وقرأ ابن ذكوان وحمزة بالامالة والباقون بالفتح واذا وقف حمزة وهشام على شاء أبدل الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر وأظهر اذ عند الدال نافع وابن كثير وعاصم والباقون بالادغام وهلا قلت (لا قوة الا بالله) اعترافا بالعجز على نفسك والقدرة لله وأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها فبمعونة الله تعالى واقداره أو لا يقوى أحد فى بدنه ولا فى غير ذلك الا بالله وفى الحديث من أعطى خيرا من

الهبة الى جبريل مجازا أى لا كون سببا فى هبة الولد بواسطة نفخى فى درعك فهو من قول جبريل (قوله ولم أك بغيا) لم يقل بغية لما قاله ابن الانبارى من ان بغيا غالب فى النساء

اهل او مال فيقول عند ذلك ماشاء الله لاقوة الا بالله لم يرفيه مكروها ثم ان المؤمن لما اعلم الكافر بالايمان أجابه عن افتخاره بالمال والنفر فقال (ان ترن أنا أقل منك مالا و ولدا) اى من جهة المال والولد ويحتمل أن يكون أنا فصلا وأن يكون تاكيدا للمفعول الاول وقرأ قالون وابو عمرو باثبات الياء وصلا وحذفها وقفا وابن كثير باثباتها وصلا ووقفا والباقون بالحذف وقفا ووصلا وقوله تعالى (فعسى ربى) اى المحسن الى (أن يؤتين) من خزائن رزقه (خيرا من جنتك) اما فى الدنيا واما فى الآخرة لايمانى جواب الشرط (و يرسل عليها) اى جنتك (حسبانا) جمع حسبانة اى صواعق (من السماء فتصبح) بعد كونها قرة العين بما تم تزيه من الاشجار والزروع (صعيدا زلقا) اى ارضا ملساء باستئصال نباتها واشجارها فلا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قدم وقوله (او يصبح ماؤها غورا) اى غائرا فى الارض لاتناله الايدى والدلاء مصدر وصف به كالزلق (فلن تستطيع) انت (له) اى للماء الغائر (طلبا) يصير بحيث لاتقدر على رده الى موضعه ثم انه اخبر الله تعالى أنه حقق ما قدره هذا المؤمن فقال (وأحيط) اى وقعت الاحاطة بالهلاك و بنى للمفعول لان النكد حاصل باحاطة الهلاك من غير نظر الى فاعل مخصوص والدلالة على سهولته (بثمره) اى الرجل المشرك كله واستؤصل هالكا ما فى السهل منه وما فى الجبل وما يصبر منه على البرد والحر وما لا يصبر قال بعض المفسرين ان الله تعالى ارسل عليها نارا فاهلكتها وغار ماؤها (فاصبح يقلب كفيه) ندما و يضرب احداهما على الاخرى تحسرا فتقلب الكفين كناية عن الندم والتحسر لان النادم يقلب كفيه ظهرا لبطن كما يكنى عن ذلك بعض الكف والسقوط فى اليد لانه فى معنى الندم فعدى تعديته كأنه قيل فاصبح يندم (على ما انفق فيها) اى فى عمارتها او غمائها (وهى خاوية) اى ساقطة (على عروشها) اى دعائمها التى كانت تحتها فسقطت على الارض وسقطت هى فوقها وقوله تعالى (و يقول) عطف على يقلب او حال من ضميره (يا) للتنبيه (ليتنى) تمنيا لرد مافاته لما تم من ذهول عقله ودهشته وعدم اعتماده على الله تعالى من غير اشراك بالاعتماد على الفانى (لم اشرك بربى أحدا) كما قال له صاحبه فندم حيث لا ينفعه الندم على ما فرط فى الماضى لاجل ما فاته على الدنيا لا حرصا على الايمان لحصول الفوز فى العقبى لقصور عقله ووقوفه مع المحسوسات المشاهدة (فان قيل) ان هذا الكلام يوهم ان جنته انما هلكت بشؤم شركه وليس مرادا لان أنواع البلاء أكثرها انما يقع للمؤمنين قال تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون وقال صلى الله عليه وسلم خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وأيضا لما قال ياليتنى لم أشرك بربى أحدا فقد ندم على الشرك ورغب فى التوحيد فوجب أن يصير مؤمنا فلم قال تعالى بعده (ولم تكن له فئة) أى جماعة من نفره الذين افتخر بهم ولا من غيرهم (ينصرونه) مما وقع فيه (من دون الله) عند هلاك كما (وما كان) هو (منتصرا) بنفسه بل ليس الامر فى ذلك الا لله وحده (أجيب) عن الاول بانه لما عظمت حسراته لاجل أنه أنفق عمره فى تحصيل الدنيا وكان معرضا فى عمره كله من طلب الدين فلما ضاعت الدنيا بالكلية بقى محروما من الدنيا والدين وعن

وقد تقول العرب رجل بغى فتركوا التاء فيه اجراء له مجرى حائض وعاقر وهو فعيل بمعنى فاعل فتركوا التاء فيه كما قال فى قوله ان رحمة الله قريب من المحسنين أو لموافقة

الثانى بانه انما ندم على الشرك لاعتقاده أنه لو كان موحدا غير مشرك لبقيت عليه جنته فهو انما رغب في ذلك لاجل طلب الدنيا فلذلك لم يقبل الله توحيده وقرأ حمزة والكسائى يكن بالتحتية على التذكير والباقون بالفوقية على التأنيث ولما انتج هذا المثل قطعا أنه لا أمر لغير الله تعالى المرجو لنصر أوليائه بعد ذلهم ولاغنائهم بعد فقرهم ولاذلال أعدائهم بعد عزهم وكبرهم وافقارهم بعد اغنائهم وحده وان غيره انما هو كالخيال لا حقيقة له صرح بذلك في قوله تعالى (هنالك) أى في مثل هذه الشدائد العظيمة (الولاية لله) أى الذى له الكمال كله وقرأ حمزة والكسائى بكسر الواو أى الملك والباقون بفتحها أى النصرة وقوله تعالى (الحق) قرأه أبو عمرو والكسائى برفع القاف على الاستئناف والقطع تعليلا تنبيها على ان فزعهم في مثل هذه الازمان اليه تعالى دون غيره برهان قاطع على انه الحق وما سواه باطل وان الفخر بالعرض الزائل من اجهل الجهل وان المؤمنين لا يضيرهم فقرولا يسوغ طردهم لاجله وانه يوشك ان يعود فقرهم غنى وضعفهم قوة وقرأه الباقون بخفضها على الوصف اى الثابت الذى لا يحول يوما ولا يزول ولا يغفل ساعة ولا ينام ولا ولاية لغيره بوجه (هو خير ثوابا) من ثواب غيره لو كان يثيب (وخير عقبا) أى عاقبة للمؤمنين وقرأ عاصم وحمزة بسكون القاف والباقون بضمها ونصب على التمييز ولما تم المثل لدنياهم الخاصة بهم التى ابطرتهم فكانت سببا لشقاوتهم وهم يحسبون انها عين اسعادهم ضرب لدار الدنيا العامة لجميع الناس في قلة ثوابها وسرعة فنائها وان من تكبر كان اخس منها فقال (واضرب) اى صير (لهم) اى لهؤلاء الكفار المغترين بالعرض الفانى المفتخرين بكثرة الاموال والاولاد وعزة النفر وقوله تعالى (مثل الحيوة الدنيا) مفعول اول ثم ذكر المثل بقوله تعالى (كماء) وهو المفعول الثانى (انزلناه) بعظمتنا وقدرتنا وقال تعالى (من السماء) تنبيها على بليغ القدرة فى امساكه فى العلو وانزاله فى وقت الحاجة (فاختلط) اى فتعقب وتسبب عن انزاله انه اختلط (به نبات الارض) اى التف بسببه حتى خالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه كما قال تعالى فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وقيل اختلط ذلك الماء بالنبات حتى روى واهتز وكان حق اللفظ على هذا التفسير فاختلط بنبات الارض لكن لما كان كل من المختلطين موصوفا بصفة صاحبه عكس للمبالغة فى كثرته ثم اذا انقطع ذلك بالطرمدة جف ذلك النبات (فاصبح هشيما) اى يابسا متفرقة اجزاؤه (تذروه) اى تنثره وتفرقه (الرياح) فتذهب به والمعنى انه تعالى شبه الدنيا بنبات حسن فيبس فتكسر ففرقته الرياح حتى يصير عما قليل كأنه بقدرة الله تعالى لم يكن وقرأ حمزة والكسائى بالتوحيد والباقون بالجمع (وكان الله) أى المختص بصفات الكمال (على كل شئ) من دون ذلك وغيره انشاء وافناء واعادة (مقتدرا) أزلا وأبدا يتكون بنه أولا وتنميته وسطا وابطاله آخرا فاحوال الدنيا أيضا كذلك تظهر أولا فى غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلا قليلا ثم تأخذ فى الانحطاط الى أن تنتهى الى الهلاك والفناء ومثل هذا الشئ ليس للعاقل أن يبتهج به * (تنبيه) * قوله تعالى فاصبح يجوز أن يكون على بابه فان أكثر ما يطرق من الآفات صباحا كقوله تعالى فاصبح يقلب كفيه ويجوز أن يكون بمعنى صار من غير تقييد بصباح كقول القائل

القواصل (قوله فقولى انى نذرت للرحمن صوما) الآية مرتب على مقدر بينه وبين الشرط تقديره فاماترين من البشر احدا فسألك الكلام فقولى انى نذرت الآية وبهذا

أصبحت لا أحمل السلاح ولا ٭ أملك رأس البعير ان نفرا

٭ ولما بين سبحانه وتعالى أن الدنيا سريعة الانقراض والانقضاء مشرفة على الزوال والبوار والفناء بين بقوله تعالى (المال والبنون زينة الحيوة الدنيا) ادخال هذا الجزئي تحت هذا الكلي فينعقد به قياس بين الانتاج وهو أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا ولما كانت زينة الحياة الدنيا سريعة الانقضاء والانقراض أنتج انتاجا بديهيا ان المال والبنون سريع الانقضاء والانقراض وما كان كذلك فانه ينتج بالعقل أن لا يفتخر به أو يفرح بسببه أو يقيم له في نظره وزنا وهذا برهان ظاهر باهر على فساد قول أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الاموال ٭ ثم ذكر تعالى مايدل على رجحان أولئك الفقراء على أولئك الكفار من الاغنياء فقال (والباقيات الصالحات خير) أى من الزينة الفانية لان خيرات الدنيا منقرضة منقضية وخيرات الآخرة دائمة باقية والدائم الباقي خير من المنقرض المنقضي وهذا معلوم بالضرورة لاسيما وقد ثبت أن خيرات الدنيا حقيرة خسيسة وأن خيرات الآخرة رفيعة شريفة والمفسرون ذكروا في الباقيات الصالحات أقوالا أحدها أنها سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وزاد بعضهم ولا حول ولا قوة الا بالله والغزالي في تفسير هذه الزيادة وجه لطيف فقال روى أن من قال سبحان الله حصل له من الثواب عشر حسنات فاذا قال والحمد لله صارت عشرين فاذا قال ولا اله الا الله صارت ثلاثين فاذا قال والله أكبر صارت أربعين وتحقيق القول فيه أن مراتب الثواب أعظمها هو الاستغراق في معرفة الله تعالى وفي محبته فاذا قال سبحان الله فقد عرف كونه تعالى منزها عن كل مالا يليق به وكل مالا ينبغي فحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة فاذا قال مع ذلك الحمد لله فقد أقر بان الحق سبحانه وتعالى مع كونه منزها عن كل مالا ينبغي فهو المبتدئ لكل ماينبغي ولافاضة كل خير وكمال فقد تضاعفت درجات المعرفة فلاجرم قلنا بمضاعفة الثواب فاذا قال مع ذلك لا اله الا الله فقد أقر بان الذى تنزه عن كل مالا ينبغي وهو المبتدئ لكل ماينبغي ليس في الوجود موجود هكذا الا هو الواحد فقد صارت مراتب المعرفة ثلاثة فلاجرم صارت درجات الثواب ثلاثة فاذا قال العبد والله أكبر فمعنى انه أكبر أنه اعظم من ان يصل العقل الى كنه كبريائه وجلاله فقد صارت مراتب المعرفة أربعة فلاجرم صارت درجات الثواب اربعة وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر أحب الى مما طلعت عليه الشمس وعن أبي سعيد الخدري أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استكثروا من الباقيات الصالحات قيل وماهن يارسول الله قال التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله ثانيها أنها الصلوات الخمس ثالثها أنها الطيب من القول رابعها وهو أعمها وأولاها أنها اعمال الخيرات التي تبقى ثمراتها أبد الآباد فيندرج في ذلك الصلوات واعمال الحج وصيام رمضان وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله والكلام الطيب وغير ذلك من كل عمل وقول دعاك لمحبة الله تعالى ومعرفته وخدمته وأما مادعاك من قول او عمل الى الاشتغال باحوال الخلق فهو خارج من ذلك لان كل ماسوى الحق فهو فان لذاته فكان الاشتغال به والانفاق عليه باطلا وسعيا ضائعا

سقط ماقيل في ان قولها فلن أكلم اليوم انسيا كلام بعد النذر اذ هو بهذا التقدير من تمام النذر لا بعده (قوله وأوصاني بالصلوة والزكوة) ٭ ان قلت كيف أمر بذلك مع انه

وأما الحق لذاته فهو الباقي الذي لا يقبل الزوال لا جرم كان الاشتغال بمحبته ومعرفته وطاعته
وخدمته هو الذي يبقى بقاء لا يزول ، ولما كان أهم ما الى من حصل الباقيات ليس لكفايته بل لمن
يعقله الموت حاجته قال تعالى (عند ربك) أي المحسن اليك بالمواهب العالية والمواهب خير من
المال والبنين في العاجل والآجل (ثوابا وخير) من ذلك كله (أملا) أي من جهة ما يرجوه فيها
من الثواب ويرجوه بها من الامل لان ثوابها الى بقاء آملها كل ساعة في تحقق وعلو وارتقاء
وآمل المال والبنين فان أحوج ما يكون اليهما وعن قتادة كل ما أريد به وجه الله تعالى
خير ثوابا أي ما يتعلق بها من الثواب وما يتعلق بها من الامل لان صاحبها يأمل في الدنيا ثواب
الله ونصيبه في الآخرة ولما بين سبحانه وتعالى خساسة الدنيا وشرف الآخرة أردفه بأحوال
يوم القيامة وذكر منها أنواعا النوع الاول قوله تعالى (ويوم) أي واذكر لهم يوم (نسير)
بأيسر أمر (الجبال) عن وجه الارض بعواصف القدرة كما نسير نبات الارض بعد أن حصد
هشيما بالرياح كما قال تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ● (تنبيه) ● ليس
في لفظ الآية ما يدل الى أين تسير قال الرازي ويحتمل أن يقال ان الله يسيرها الى الموضع الذي
يريده ولم يبين ذلك لخلقه والحق ان المراد ان الله تعالى يسيرها الى العدم لقوله تعالى
ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا
ولقوله وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم التاء
الفوقية وفتح الياء التحتية بعد السين على فعل ما لم يسم فاعله ورفع الجبال باسناد نسير اليها
كما في قوله تعالى واذا الجبال سيرت والباقون بالنون المضمومة وكسر الياء التحتية بعد السين
باسناد فعل التسيير اليه تعالى نفسه ونصب الجبال لكونه مفعول نسير والمعنى فيهن متقارب
ذلك اعتبارا بقوله تعالى وحشرناهم والمعنى واحد لانها اذا سيرت فمسيرها ليس الا الله تعالى
● النوع الثاني قوله تعالى (وترى الارض) بكمالها (بارزة) لا غار فيها ولا صدع ولا جبل ولا نبت
ولا شجر ولا ظل فبقيت بارزة ظاهرة ليس عليها ما يسترها وهو المراد من قوله تعالى لا ترى فيها
عوجا ولا أمتا وقيل انها برزت ما في بطنها وقذفت الموتى المقبورين فيها فاذا هي بارزة الجوف
والبطن فحذف ذكر الجوف كما قال تعالى وألقت ما فيها وتخلت وقال تعالى وأخرجت الارض
أثقالها النوع الثالث قوله تعالى (وحشرناهم) اي الخلائق قهرا الى الموقف الذي تنكشف
فيه الخبايا وتظهر الفضائح والمغيبات ويقع الحساب فيه على النقير والقطمير والناقد فيه
بصير (فلم نغادر) اي نترك (منهم) اي الاولين والآخرين (أحدا) لانه لا ذهول ولا عجز ونظيره
قوله تعالى قل ان الاولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم (فان قيل) لم جيء
بحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى (أجيب) بان ذلك يقال للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير
وقبل البروز ليعاينوا تلك الاهوال العظائم كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك ● ولما ذكر تعالى
حشرهم وكان من المعلوم أنه للعرض ذكر كيفية ذلك العرض فقال بانيا الفعل للمفعول على
طريقة كلام القادر ينزل ان المخوف العرض لا لكونه من معين (وعرضوا على ربك) المحسن
اليك برفع أوليائك وخفض أعدائك وقوله تعالى (صفا) حال اي مصطفين واختلف في
تفسيره على وجوه الاول أن تعرض الخلق كلهم صفا واحدا الاتساع الارض ظاهرين لا يحجب

كان طفلا وخطاب
التكليف انما يكون بعد
البلوغ والتمييز (قلت)
ذلك لا يدل على انه أوصاه
بأداء ذلك في الحال بل
أوصاه في الحال بالاداء
بعد البلوغ والتمييز أو أن

بعضهم

بعضهم بعضا فانها لا يبعد ان يكونوا صفا واحدا يقف بعضهم وراء بعض مثل الصف في الصلاة
بالكعبة التي تكون بعضها خلف بعض وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى صفا صفوفا كقوله تعالى
يخرجكم طفلا أي أطفالا ثالثها المراد بالصف القيام كما في قوله تعالى فاذكروا اسم الله عليها
صواف أي قياما وقيل كل امة صف ويقال لهم (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) أي
فرادى حفاة عراة غرلا وليس المراد حصول المساواة من كل وجه لانهم خلقوا صغارا ولا عقل
لهم ولا تكليف عليهم بل المراد ما مر ويقال لمنكري البعث (بل زعمتم أن) أي انا (لن نجعل
لكم موعدا) أي مكانا ووقتا نجمعكم فيه هذا الجمع فننجز لكم ما وعدناكم به على ألسنة
رسلنا فكنتم مع التعزز على المؤمنين بالاموال والانصار منكرين البعث والقيامة فالآن
قد تركتم الاموال والانصار في الدنيا وشاهدتم ان القيامة والبعث حق وعن ابن عباس رضي
الله عنهما قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال ايها الناس انكم تحشرون
الى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا اول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين ألا وان اول خلق
يكسى يوم القيامة ابراهيم عليه السلام الا وانه سيجاء برجال من امتي فيؤخذ بهم ذات الشمال
فاقول يا رب اصحابي فيقول انك لا تدري ما احدثوا بعدك فاقول كما قال العبد الصالح وكنت
عليهم شهيدا ما دمت فيهم الى قوله العزيز الحكيم قال فيقال لي انهم لم يزالوا مرتدين على اعقابهم
منذ فارقتهم وفي رواية فاقول سحقا سحقا وقوله غرلا اي قلفا الغرلة القلفة التي تقطع من
جلد الذكر وهو موضع الختان وقوله سحقا اي بعدا قال بعض العلماء المراد بهؤلاء الذين
ارتدوا من العرب بعده وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة غرلا فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم الى
بعض فقال الامر أشد من ان يهمهم ذلك زاد النسائي في رواية لكل امرئ منهم يومئذ شان
يغنيه وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر
الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير واربعة على بعير
وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح
معهم حيث اصبحوا وتمسي حيث امسوا (ووضع) بعد العرض المستعقب للجمع بادنى اشارة
(الكتاب) المضبوط فيه دقائق الاعمال وجلائلها على وجه بين لا يخفى على قارئ
ولا غيره شيء منه فيوضع كتاب كل انسان في يده اما في اليمين واما في الشمال والمراد
الجنس وهو صحف الاعمال (فترى المجرمين مشفقين) اي خائفين خوف العقاب
من الحق وخوف الفضيحة من الخلق (مما فيه) من قبائح اعمالهم وسوء افعالهم
واقوالهم (ويقولون) عندما يرون ما فيه من السيئات وقولهم (يا) للتنبيه (ويلتنا) أي
هلاكنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه كناية على انه لا نديم لهم اذ ذاك الا الهلاك (مال هذا
الكتاب) أي أي شيء له حال كونه على غير حال الكتب في الدنيا (لا يغادر) أي لا يترك (صغيرة
ولا كبيرة) من ذنوبنا وقال ابن عباس الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة وقال سعيد بن جبير
الصغيرة اللمم والمسيس والقبلة والكبيرة الزنا (الا أحصاها) أي عدها واثبتها في هذا الكتاب
ونظيره قوله تعالى وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون وقوله تعالى انا كنا نستنسخ

الله صحبه عقب ولادته
تاما مميزا بدليل قوله ان
مثل عيسى عند الله كمثل
آدم فكما انه تعالى خلق
آدم تاما كاملا دفعة فكذا
القول في عيسى عليهما
السلام وهو أقرب الى

ما كنتم تعملون * (تنبيه) * ادخال التاء في الصغيرة والكبيرة على تقدير أن المراد الفعلة الصغيرة والكبيرة قال بعض العلماء احترسوا من الصغائر قبل الكبائر لان الصغائر هي التي جرتهم الى الكبائر واحترزوا من الصغائر حذرا من أن تقعوا في الكبائر وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم ومحقرات الذنوب فانما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا بطن واد فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود فانضجوا خبزهم وان محقرات الذنوب لموبقات (ووجدوا ما عملوا حاضرا) أي مثبتا في كتابهم (ولا يظلم ربك) أي الذي رباك بخلق القرآن (أحدا) منهم ولا من غيرهم في كتاب ولا عقاب ولا ثواب بل يجازي الاعداء بما يستحقونه تعذيبا لهم ويجازي أولياءه الذين عادوهم بما يستحقون تنعيما لهم روى الامام أحمد في المسند عن جابر بن عبد الله انه سافر الى عبد الله بن أنيس مسيرة شهر يستاذن فاستاذن عليه قال فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته قلت حديث بلغني عنك انك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم في القصاص فخشيت أن تموت قبل أن أسمعه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الله عز وجل الناس أو قال العباد حفاة عراة بهما قلت وما بهما قال ليس معهم شيء ثم ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لاحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق ولا ينبغي لاحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولاحد من أهل النار عليه حق حتى أقتص منه حتى اللطمة قال فقلنا كيف وانا نأتي حفاة عراة بهما قال بالحسنات والسيئات وروى الرازي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يحاسب الله الناس في القيامة على ملة يوسف وأيوب وسليمان فيدعو المملوك فيقال ما شغلك عني فيقول جعلتني عبدا لآدمي فلم يفرغني فيدعو يوسف فيقول كان هذا عبدا مثلك فلم يمنعه ذلك ان عبدني فيؤمر به الى النار ثم يدعو المبتلى فاذا قال شغلتني بالبلاء دعا أيوب فيقول قد ابتليت هذا بأشد من بلائك فلم يمنعه ذلك من عبادتي ثم يؤتى بالملك في الدنيا مع ما آتاه الله تعالى من الغنى والسعة فيقول ما عملت فيما آتيتك فيقول شغلني الملك عن ذلك فيدعى سليمان فيقول هذا عبدي آتيته أكثر مما آتيتك فلم يشغله ذلك عن عبادتي اذهب فلا عذر لك ويؤمر به الى النار وعن معاذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لن تزول قدم العبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع عن جسده فيم أبلاه وعن عمره فيم أفناه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه كيف عمل به * ولما كان المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين وهذه الآية المذكورة في قوله تعالى (واذ) أي واذكر اذ (قلنا للملائكة) الذين هم أطوع شيء لاوامرنا المقصود من ذكرها عين هذا المعنى وذلك لان ابليس انما تكبر على آدم لانه افتخر بأصله ونسبه وقال خلقتني من نار وخلقته من طين وأنا أشرف منه في الاصل والنسب فكيف أسجد له وكيف أتواضع له وهؤلاء المشركون عاملوا فقراء المسلمين بعين هذه المعاملة فقالوا كيف نجالس هؤلاء الفقراء مع أنا أناس من أنساب شريفة وهم من أنساب بازلة ونحن أغنياء وهم فقراء ذكر الله تعالى هذه القصة تنبيها على أن هذه الطريقة هي نفسها طريقة ابليس حين أمره الله تعالى في جملة الملائكة بقوله تعالى (اسجدوا لآدم) سجود الحناء بلا وضع جبهة تحية له

ظاهر قوله ما دمت حيا انها أوصاه بذلك الا بعد بلوغه وتمييزه (فان قلت) الزكاة انما تجب على الاغنياء وعيسى لم يزل فقيرا الا بما كساه مدة مكثه في الارض مع علمه تعالى بحاله

فسجدوا

(فسجدوا الا ابليس كان من الجن) قيل هم نوع من الملائكة فالاستثناء متصل وقيل هو منقطع وابليس أبو الجن فله ذرية ذكرت معه بعد والملائكة لا ذرية لهم وكررت هذه القصة لهذا المقصود المذكور قال البيضاوي وهكذا مذهب كل تكرير في القرآن أي انما يكرر لمناسبة ذلك المحل الذي يذكر فيه (ففسق) أي خرج بتركه السجود (عن أمر ربه) أي سيده ومالكه الحسن اليه والفاء للسببية وفيه دليل على ان الملك لا يعصى البتة وانما عصى ابليس لانه كان خبيثا في أصله والكلام المستقصى فيه تقدم في سورة البقرة ثم انه تعالى حذر عن اتباعه بقوله تعالى (أفتتخذونه) الخطاب لآدم وذريته والهاء هنا وفيما يأتي لابليس والهمزة للانكار والتعجب أي بعد ما فسق باحتقاركم فطرده لاجلكم فيكون ذلك سببا لان تتخذوه (وذريته) شركائي (أولياء) لكم (من دوني) تطيعونهم بدل طاعتي وقوله تعالى (وهم لكم عدو) أي أعداء حال ولما كان هذا الفعل أجدر شيء بالذم وصل به قوله تعالى (بئس للظالمين بدلا) من الله ابليس وذريته وكان الاصل لكم ولكنه أبرز الضمير ليعلق الفعل بالوصف لافادة التعميم روى مجاهد عن الشعبي قال اني لقاعد يوما اذ أقبل جمال فقال أخبرني هل لابليس زوجة قلت ان ذلك لعرس ما شهدته ثم ذكرت قوله تعالى أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني فعلمت أن لا تكون ذرية الا من زوجة فقلت نعم وقال قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل انه يدخل ذنبه في دبره فيبيض البيضة فتنفلق عن جماعة من الشياطين قال مجاهد من ذرية ابليس لاقيس وولهان وهما صاحبا الطهارة والصلاة والهفاف ومرة وبه يكنى وزلنبور وهو صاحب الاسواق يزين اللغو والايمان الكاذبة ومدح السلع وثبر وهو صاحب المصائب يزين خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب والاعور وهو صاحب الزنا ينفخ في احليل الرجل وعجز المرأة ومطوس وهو صاحب الاخبار الكاذبة يلقيها في أفواه الناس لا يجدون لها أصلا وداسم وهو الذي اذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر الله دخل معه واذا أكل ولم يسم الله أكل معه قال الاعمش ربما دخلت البيت ولم أذكر الله ولم أسلم فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا وخاصمتهم ثم اذكر فاقول داسم داسم وعن عثمان بن أبي العاص قال قلت يا رسول الله ان الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك شيطان يقال له خنزب فاذا أحسسته فتعوذ بالله واتفل على يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فاذهبه الله عني وعن أبي بن كعب ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للوضوء شيطان يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فادناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيأ قال ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه ويقول نعم أنت قال الاعمش أراه قال فيلتزمه واختلفوا في عود الضمير في قوله تعالى (ما أشهدتهم) على وجوه أحدها وهو الذي ذهب اليه الاكثرون ان المعنى ما أشهدت الذين اتخذوهم أولياء (خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) اي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى اقتلوا أنفسكم نفي احضار ابليس وذريته خلق السموات والارض واحضار بعضهم خلق

(قلت) فكيف أوصاهم بالزكاة هنا تزكية المراد بالزكاة هنا تزكية النفس وتطهيرها من المعاصي لا زكاة المال

(قوله وان الله ربي وربكم) قال ذلك هنا وقال في الزخرف وان الله هو ربي

بعض ليدل على نفي الاعتضاد بهم في ذلك كما صرح به بقوله تعالى (وما كنت متخذ المضلين) اي الذين يضلون الناس ووضع الظاهر موضع المضمر اظهارا لاضلالهم وذما لهم (عضدا) اي اعوانا وانصارا قال الرازي وهو الاقوى عندي ان الضمير عائد الى الكفار الذين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ان لم تطرد عن مجالسك هؤلاء الفقراء من عندك فلا نؤمن بك فكأنه تعالى قال ان هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركائي في تدبير العالم بدليل اني ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة بل هم قوم كسائر الخلق فلم أقدموا على الاقتراح الفاسد قال والذي يؤكد هذا ان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورات فالاقرب في هذه الآية هو أولئك الكفار وهو قوله تعالى بئس للظالمين بدلا والمراد بالظالمين أولئك الكفار وثالثها أن يكون المراد من قوله ما أشهدتهم الى آخره دون هؤلاء الكفار جاهلين بما جرى به القلم في الازل من أحوال السعادة والشقاوة فكأنه قيل انهم السعيد من حكم الله بسعادته والشقي من حكم الله بشقاوته في الازل وأنتم غافلون عن أحوال الازل فانه تعالى قال ما أشهدتهم الى آخره واذا جهلتم هذه الحالة فكيف يمكنكم أن تحكموا لانفسكم بالرفعة والعلو والكمال ولغيركم بالذل والدناءة بل ربما صار الامر في الدنيا والآخرة على العكس مما حكمتم به ❊ ولما قرر تعالى ان القول الذي قالوه في الافتخار على الفقراء اقتدوا فيه بابليس عاد بعده الى التهويل بأهوال القيامة فقال (ويوم) التقدير واذكر لهم يا محمد يوم عطفا على قوله واذ قلنا للملائكة (يقول) اي الله يوم القيامة لهؤلاء الكفار تهكما بهم وقرأ حمزة بالنون والباقون بالياء (نادوا شركائي) اي ما عبد من دوني وقيل ابليس وذريته ثم بين تعالى ان الاضافة ليست على حقيقتها بل توبيخا لهم فقال تعالى (الذين زعمتم) انهم شركائي أو شفعاؤكم ليمنعوكم من عذابي (فدعوهم) تمادياً في الجهل والضلال (فلم يستجيبوا لهم) اي فلم يغيثوهم استهانة بهم واشتغالا بأنفسهم فضلا عن أن يعينوهم (وجعلنا بينهم) اي المشركين والشركاء (موبقا) اي واديا من أودية جهنم يهلكون فيه جميعا وهو من وبق بالفتح هلك ونقل ابن كثير عن عبد الله بن عمر انه قال هو واد عميق فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلال وقال الحسن البصري عداوة اي يؤول بهم الى الهلاك والتلف كقول عمر رضي الله تعالى عنه لا يكون حبك كلفا ولا بغضك تلفا اي لا يكن حبك يجر الى الكلف ولا بغضك يجر الى التلف وقيل الموبق البرزخ البعيد اي وجعلنا بين هؤلاء الكفار وبين الملائكة وعيسى برزخا بعيدا يهلك فيه الساري لفرط بعده لانهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان ❊ ولما قرر سبحانه وتعالى ما لهم مع شركائهم ذكر حالهم في استقرار جهلهم فقال تعالى (ورأى المجرمون) اي العريقون في الاجرام (النار) من مكان بعيد (فظنوا) ظنا (انهم مواقعوها) اي مخالطوها في تلك الساعة من غير تأخير ومهلة لشدة ما يسمعون من تغيظها وزفيرها كما قال تعالى اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا فان مخالطة الشيء لغيره اذا كانت على وجه الشدة يقال لها مواقعة (ولم) اي والحال انهم لم (يجدوا عنها مصرفا) اي مكانا ينصرفون اليه لان الملائكة تسوقهم اليها والموضع موضع التحقق ولكن ظنهم جريا على عادتهم سفها بالجهل كما قالوا اتخذ الله ولدا لبغير علم وما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن

أو زيادة هؤلاء تعالى ذكر قصة عيسى عليه السلام هنا مستوفاة فاغنى ذلك عن التأكيد بخلافه ثم ولذلك قال هنا فويل للذين كفروا وفي الزخرف فويل للذين ظلموا

الساعة قائمة ان نظن الاظنا وما نحن بمستيقنين مع قيام الأدلة التي لا شك فيها وقيل الظن هنا بمعنى العلم واليقين ● ولما افتخر هؤلاء الكفار على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم وأتباعهم وبين الله تعالى بالوجوه الكثيرة ان قولهم فاسد وشبههم باطلة ذكر فيه المثلين المتقدمين ثم قال بعده (ولقد صرفنا) وأظهر نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم الدال وادغمها الباقون (في هذا القرآن) اى القيم الذي لا عوج فيه مع جمعه للمعاني (للناس) اى المنزلين والثابتين وقوله تعالى (من كل مثل) صفة لمحذوف اى مثلا من جنس كل مثل ليتعظوا أو انا حولنا الكلام وصرفناه في كل وجه من وجوه المعاني وألبسناه من العبارات الرائقة والاساليب المتناسقة ما صار به في غرابته كالمثل يقبله كل من سمعه وتضرب به آباط الابل في سائر البلاد بين العباد تسر به قلوبهم وتلهج به ألسنتهم فلم يقبلوه ولم يتركوا المجادلة الباطلة كما قال تعالى (وكان الانسان أكثر شيء) يتأتى منه الجدل وميزه كثرته بقوله تعالى (جدلا) أي خصومة قال بعض المحققين والآية دالة على أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام جادلوهم في الدين لان المجادلة لا تحصل الا من الطرفين ولهذا قيل أراد بالانسان الكافر وقيل الآية على العموم قال ابن الخازن وهو الاصح وكذا قال البغوي فعن على رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله تعالى عنها ليلة فقال الا تصليان فقلت يا رسول الله أنفسنا بيد الله فاذا شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت ذلك ولم يرجع الى شيأ ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول وكان الانسان أكثر شيء جدلا وقال ابن عباس أراد النضر بن الحرث وجداله في القرآن وقال الكلبي أراد به خلقا الجحي ● ولما بين سبحانه وتعالى اعراضهم بين موجبه عندهم فقال تعالى (وما منع الناس) أي الذين جادلوا بالباطل الاعجاز هكذا كان الاصل ولكنه عبر عن هذا المفعول الثاني بقوله (أن يؤمنوا) ليفيد التجديد وذمهم على الترك (اذ) أي حين (جاءهم الهدى) أي القرآن على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وعطف على المفعول الثاني معبرا بمثل ما مضى للماضي قوله تعالى (ويستغفروا ربهم) أي لا مانع لهم من الايمان ولا من الاستغفار والتوبة ● ولما كان الاستثناء مفرغا أتى بالفاعل فقال (الا أن) أي طلب أن (تأتيهم سنة الاولين) أي سنتنا فيهم وهي الاهلاك المقدر عليهم (أو) طلب أن (يأتيهم العذاب قبلا) أي مقابلة وعيانا وهو القتل يوم بدر وقيل عذاب الآخرة وقرأ الكوفيون بضم القاف والباء الموحدة والباقون بكسر القاف وفتح الباء الموحدة ● ولما كان ذلك ليس الى الرسول وانما هو الى الله تعالى نبه بقوله تعالى (وما نرسل المرسلين الا مبشرين) بالثواب على أفعال الطاعة (ومنذرين) بالعقاب على أفعال المعصية فطلب منهم الظالمون من أممهم ما ليس اليهم (ويجادل الذين كفروا) اى يجددون الجدال كلما أتاهم أمر من قبلنا (بالباطل) من قولهم ما أنتم الا بشر مثلنا ولو كنتم صادقين لأتيتم بما يطلب منكم مع ان ذلك ليس كذلك اذ ليس لاحد غير الله من الامر شيء (ليدحضوا به) اى ليبطلوا بجدالهم (الحق) اى القرآن والمعجزات المثبتة لصدقهم (واتخذوا آياتي) اى القرآن (وما أنذروا) اى وانذارهم أو والذي أنذروا به من العقاب (هزوا) اى استهزاء وقرأ حفص بالواو وقفا ووصلا وحمزة بالواو وقفا لا وصلا

اذ الكفر أشد قبحا من الظلم فكان وصف من ذكر بالكفر في المثل الذي استوفي فيه قصته عيسى أنسب من المثل الذي أجمل فيه قصته وقال هنا اصم بهم وابصر وعكس

وسكن الزاى حمزة وضمها الباقون ولحمزة فى الوقف أيضا النقل * ولما حكى الله تعالى عن الكفار أحوالهم الخبيثة ووصفهم بما أوجب الخزى بقوله تعالى (ومن أظلم) اى لا احد أظلم وهو استفهام على سبيل التقرير (ممن ذكر بآيات ربه) اى المحسن اليه بها وهى القرآن (فأعرض عنها) تاركا لما يعرف من تلك العلامات العجيبة وما أوجب ذلك الاحسان من الشاكر (ونسى ما قدمت يداه) من الكفر والمعاصى فلم يتفكر فى عاقبتها ثم علل تعالى ذلك الاعراض بقوله تعالى (انا جعلنا على قلوبهم) جمع رجوعا الى أسلوب واتخذوا آياتى لانه أنص على ذم كل واحد (أكنة) اى أغطية مستعلية عليها استعلاء يدل سياق العظمة على أنه لا يدع شيأ من الخير يصل اليها فهى لا تعى شيأ من آياتنا ودل تذكير الضمير وافراده على أن المراد بالآيات القرآن فقال (أن) أى كراهة أن (يفقهوه) أى يفهموه (وفى آذانهم وقرا) أى ثقلا فهم لا يسمعون حق السمع ولا يعون حق الوعى (وان تدعهم) أى تكرر دعاءهم كل وقت (الى الهدى) لتنجيهم بما عندك من الحرص والجد على ذلك (فلن يهتدوا) أى بسبب دعائك (اذا) أى اذا دعوتهم (أبدا) لان الله تعالى حكم عليهم بالضلال فلا يقع منهم ايمان ثم قال تعالى (وربك) مشيرا بهذا الاسم الى ما اقتضاه حال الوصف من الاحسان (الغفور) أى البليغ المغفرة الذى يستر الذنوب اما بمحوها واما بالحلم عنها الى وقت آخر (ذو الرحمة) أى الموصوف بالرحمة الذى يعامل وهو قادر مع موجبات الغضب معاملة الراحم بالاكرام ثم استشهد تعالى على ذلك بقوله تعالى (لو يؤاخذهم) أى هؤلاء الذين عادوك وهو عالم انهم لا يؤمنون أو يعاملهم معاملة المؤاخذة (بما كسبوا) من الذنوب (لعجل لهم العذاب) أى فى الدنيا (بل لهم موعد) وهو اما يوم القيامة واما فى الدنيا وهو يوم بدر وسائر ايام الفتح (لن يجدوا من دونه) أى الموعد (موئلا) أى ملجأ ينجيهم منه فاذا جاء موعدهم أهلكناهم فيه باول ظلمهم وآخره وقوله تعالى (وتلك) مبتدأ وقوله تعالى (القرى) أى الماضية من عاد وثمود ومدين وقوم لوط وأشكالهم صفته لان أسماء الاشارة توصف بأسماء الاجناس والخبر (أهلكناهم) والمعنى وتلك أصحاب القرى أهلكناهم (لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) أى وقتا معلوما لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون وقرأ شعبة بفتح الميم واللام اى لهلاكهم وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام والباقون بضم الميم وفتح اللام اى لاهلاكهم ثم عطف سبحانه وتعالى على قوله تعالى واذ قلنا للملائكة (واذ) اى واذكر لهم حين (قال موسى لفتاه) يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليهم الصلاة والسلام وانما قال فتاه لانه كان يخدمه ويتبعه وقيل كان يأخذ منه العلم وقيل فتاه عبده وفى الحديث ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ولا يقل عبدى وأمتى

* (تنبيه) * أكثر العلماء على أن موسى المذكور فى هذه الآية هو موسى بن عمران صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة وعن كعب الاحبار أنه موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب وهو قد كان نبيا قبل موسى بن عمران قال البغوى والاول أصح واحتج له القفال بان الله تعالى لم يذكر فى كتابه موسى الا أراد به صاحب التوراة فاطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف اليه ولو كان المراد شخصا آخر يسمى موسى غيره لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وازالة الشبهة كما انه لما كان المشهور فى العرف عن أبى حنيفة هذا الرجل المعين فلو ذكرنا هذا الاسم

في الكهف لان مضمونها أنه تعالى ذكر قصص الانبياء فاستمعها وتدبرها واستعمل النظر فيها تميز ذلك ومضمون الكهف انه تعالى له غيب السموات والارض فاجعل

وأردنا به رجلا سواه فقصدنا مثل ان نقول قال أبو حنيفة الدينوري وعن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس ان نوفا البكالي يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني اسرائيل فقال ابن عباس كذب عدو الله ونوف البكالي هو نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي ويقال انه دمشقي وكانت أمه زوجة كعب الاحبار نقله ابن كثير وحجة الذين قالوا موسى هذا غير صاحب التوراة أنه يقال بعد أن أنزل عليه التوراة وكلمه بلا واسطة وخصه بالمعجزات الباهرة العظيمة التي لم يتفق مثلها الا لكبرا كابر الانبياء يبعد ان يبعثه بعد ذلك الى التعلم والاستفادة (وأجيب) بانه لا يبعد أن يكون العالم الكامل في كثرة العلوم يجهل بعض العلوم فيحتاج في تعلمها الى من هو دونه وهو أمر متعارف روى البخاري حديث ان موسى قام خطيبا في بني اسرائيل فسئل أي الناس أعلم قال انا فعتب الله تعالى عليه اذ لم يرد العلم اليه فاوحى الله تعالى اليه ان لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال يارب فكيف لي به قال تاخذ حوتا فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فاخذ حوتا فجعله في مكتل ثم قال (لا أبرح) أي لا أزال أسير في طلب العبد الذي أعلمني ربي بفضله (حتى أبلغ مجمع البحرين) أي ملتقى بحر الروم وبحر فارس مما يلي الشرق قاله قتادة أي المكان الجامع لذلك فالقاه هنالك (أو أمضي حقبا) أي دهرا طويلا في بلوغه ان لم أظفر به بمجمع البحرين الذي جعله ربي موعدا لي في لقائه والحقب قال في القاموس ثمانون سنة أو أكثر والدهر والسنة والسنون انتهى فساراو تزودا حوتا مشويا في مكتل كما أمر به فكانا يأكلان منه الى ان بلغا المجمع كما قال تعالى (فلما بلغا مجمع بينهما) اى بين البحرين قال لفتاه اذا فقدت الحوت فاخبرني فناما واضطرب الحوت في المكتل وخرج وسقط في البحر فلما استيقظا (نسيا حوتهما) اى نسي يوشع حمله عند الرحيل ونسي موسى عليه السلام تذكيره وقيل الناسي يوشع فقط وهو على حذف مضاف اى نسي أحدهما كقوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (فاتخذ) الحوت (سبيله في البحر) اى جعله بجعل الله (سربا) اى مثل السرب وهو الشق الطويل لا نفاذ له وذلك ان الله تعالى أمسك عن الحوت جري الماء فانجاب عنه فبقي كالكوة لم يلتئم وجمد ما تحته وقد ورد في حديثه في الصحيح ان الله تعالى أحياه وأمسك عن موضع جريه في الماء فصار طاقا لا يلتئم وكان المجمع كان ممتدا فظن عليه السلام ان المطلوب امامه أو ظن المراد مجمع البحرين آخر فسارا (فلما جاوزا) ذلك المكان بالسير بقية يومهما وليلتهما واستمرا الى وقت الغداء من ثاني يوم (قال) موسى عليه السلام (لفتاه آتنا) اى أحضر لنا (غداءنا) وهو ما يؤكل أول النهار لنتقوى به على ما حصل لنا من الاعياء ولذلك وصل به قوله (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) اى تعبا ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله تعالى به فقوله هذا اشارة الى السفر الذي وقع بعد مجاوزتهما الموعد او مجمع البحرين ونصبا مفعول بلقينا (قال) له فتاه (أرأيت) اى ما دهاني وقرأ نافع بتسهيل الهمزة التي هي عين الكلمة ولورش وجه آخر وهو ابدالها حرف مد وأسقطها الكسائي والباقون بالتحقيق (اذ أوينا الى الصخرة) التي بمجمع البحرين (فاني نسيت الحوت) اى نسيت ان أذكر لك أمره ثم علل عدم ذكره بقوله (وما أنسانيه الا الشيطان) بوسوسته وقرأ حفص بضم الهاء وأمال الالف الكسائي محضة وورش بين بين وبالفتح والباقون بالفتح وقوله (ان أذكره) الا في محل نصب على البدل من هاء أنسانيه بدل اشتمال اي

بصورتك في الفكر في مخلوقاته وتدبرها بحيث تصل الى معرفته واسمع بصفاته ووحدته فناسب تقديم السمع هنا والبصر ثم (قوله استغفر الذنب) فان قلت الاستغفار

أنسانيه ذكره (واتخذ سبيله) اى طريقه الذى ذهب فيه (فى البحر عجبا) وهو كونه كالسرب معجزة لموسى أو الخضر وذكره الآن مانع من ان يكون للشيطان عليه سلطان على ان هذا النسيان ليس مفوتا للطاعة بل فيه ترقية لهما فى معراج المقامات العالية لوجدان التعب بعد المكان الذى فيه البغية وحفظ الماء منصبا على طول الزمان وغير ذلك من الآيات القاهرة وقوله تعالى انما سلطانه على الذين يتولونه مبين ان السلطان الحمل على المعاصى وقوله وما أنسانيه الا الشيطان ان أذكره اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وقد كان فى هذه القصة خوارق منها احياء الحوت ومنها الجماد ما كان أكل منه ومنها امساك الماء عن مدخله وقد اتفق لنبينا صلى الله عليه وسلم لنفسه وأتباعه ببركته مثل ذلك أما اعادة ما أكل من الحوت المشوى وهو جنبه فقد روى البيهقى فى أواخر دلائل النبوة عن اسامة بن زيد رضى الله تعالى عنه انه صلى الله عليه وسلم أتى بشاة مشوية فقال لبعض أصحابه ناولنى ذراعها وكان أحب الشاة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدمها ثم قال ناولنى ذراعها فناوله ثم قال ناولنى ذراعا قال يا رسول الله انما هما ذراعان وقد ناولتك فقال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لو سكت ما زلت تناولنى ذراعا ما قلت لك ناولنى ذراعا فقد أخبر صلى الله عليه وسلم انه لو سكت أوجد الله تعالى ذراعا ثم ذراعا وهكذا وأما احياء الحوت المشوى ففى قصة الشاة المشوية المسمومة ان ذراعها أخبر النبى صلى الله عليه وسلم انه مسموم فهذا أعظم من عود الحياة من غير نطق وكذا حنين الجذع وتسليم الحجر وتسبيح الحصى ونحو ذلك أعظم من عود الحياة الى ما كان حيا وروى البيهقى فى الدلائل عن عمرو بن سواد قال قال الشافعى ما أعطى الله تعالى نبيا ما أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم قلت أعطى عيسى عليه السلام احياء الموتى فقال أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم احياء الجذع الذى كان يخطب الى جنبه حين هيئ له المنبر وحن الجذع حتى سمع صوته فهذا أكبر من ذلك انتهى وقد ورد أشياء كثيرة من احياء الموتى له صلى الله عليه وسلم ولبعض أمته وروى عن أنس رضى الله تعالى عنه انه قال كنا فى الصفة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتته امرأة ومعها ابن لها فاضاف المرأة الى النساء وأضاف ابنها الينا فلم يلبث ان أصابه وباء المدينة فمرض أياما ثم قبض فغمضه النبى صلى الله عليه وسلم وأمر بجهازه فلما أردنا ان نغسله قال ائت أمه فاعلمها فجاءت حتى جلست عند قدميه فأخذت بهما ثم قالت اللهم انى أسلمت لك تطوعا وخالفت الاوثان زهدا وهاجرت اليك رغبة اللهم لا تشمت بى عبدة الاوثان ولا تحملنى من هذه المصيبة ما لا طاقة لى بحملها قال فوالله ما انقضى كلام المرأة حتى حرك قدميه وألقى الثوب عن وجهه وعاش حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم وحتى هلكت أمه وأما آية الماء فرجعها الى صلابته ولا فرق بين جموده بعدم الالتئام بعد الانخراق وبين جموده وصلابته بالامتناع من الانخراق وقد جهز عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه جيشا واستعمل عليه العلاء بن الحضرمى فحصل لهم حر شديد وجهدهم العطش قال بعض الجيش فلما مالت الشمس لغروبها صلى بنا ركعتين ثم مد يده وما نرى فى السماء شيأ فوالله ما حط يده حتى بعث الله تعالى ريحا وأنشأ سحابا فافرغت حتى ملأت الغدر والشعاب فشربنا وسقينا واستقينا ثم أتينا عدونا وقد جاوزنا خليجا فى البحر

الكافر حرام فكيف وعد ابراهيم عليه السلام أباه بالاستغفار مع انه كافر (قلت) معناه سأسأل الله لك توبة تنال بها مغفرته يعنى الاسلام والاستغفار للكافر بهذا الوجه جائز

الى جزيرة فوقف على الخليج وقال يا علي يا عظيم يا حليم يا كريم ثم قال أجيزوا بسم الله فأجزنا
ما يبل الماء حوافر دوابنا فأصبنا العدو عليه فقتلنا وأسرنا وسبينا ثم أتينا الخليج فقال مثل
مقالته فأجزنا وما يبل الماء حوافر دوابنا والاخبار في ذلك كثيرة ولما قال فتاه ذلك كأنه قيل
فما قال موسى عليه السلام حينئذ (قال) له (ذلك) أي الامر العظيم من فقد الحوت (ما كنا
نبغ) أي نريد من هذا الامر المغيب عنا فان الله تعالى جعله موعدا في لقاء الخضر وقرأ نافع
وأبو عمرو والكسائي باثبات الياء وصلا لا وقفا وابن كثير باثباتها وصلا ووقفا والباقون
بالحذف (فارتدا على آثارهما) أي فرجعا في الطريق الذي جاآ فيه يقصانها (قصصا) أي
يتبعان أثرهما اتباعا أو مقتصين حتى أتيا الصخرة قال البقاعي يدل على ان الارض كانت
رملا لا علم فيه فالظاهر والله أعلم انه مجمع النيل والملح عند دمياط أو رشيد من بلاد مصر
ويؤيده نقر العصفور في البحر الذي ركب في سفينته للتعدية كما في الحديث فان الطير لا يشرب
من الملح ومن المشهور في بلاد رشيد ان الامر كان عندهم وان عندهم سمكا ذاهب الشق
يقولون انه من نسل تلك السمكة والله أعلم انتهى وتقدم عن قتادة أنه ملتقى بحر فارس والروم
وقال محمد بن كعب طنجة وقال أبي بن كعب افريقية وقيل البحران موسى والخضر لانهما
كانا بحري علم قال ابن عادل وليس في اللفظ ما يدل على تعيين هذين البحرين فان صح في الخبر
الصحيح شيء فذاك والا فالاولى السكوت عنه انتهى ثم استمرا يقصان حتى انتهيا الى موضع فقد
الحوت (فوجدا عبدا من عبادنا) مضافا الى حضرة عظمتنا قيل كان ملكا من الملائكة
والصحيح الذي جاء في التواريخ وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه الخضر واسمه بليا بن
ملكان وكنيته أبو العباس قيل كان من بني اسرائيل وقيل من أبناء الملوك الذين تزهدوا
وتركوا الدنيا والخضر لقب سمي بذلك لانه جلس على فروة بيضاء فاذا هي تهتز تحته خضراء
والفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة وقيل سمي خضرا لانه كان اذا صلى اخضر ما حوله روي
ان موسى عليه السلام رأى الخضر مسجى بثوب فسلم عليه فقال الخضر وأنى بأرضك السلام
قال انا موسى أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا وفي رواية لقيه مسجى بثوب مستلقيا على قفاه
بعض الثوب تحت رأسه وبعضه تحت رجليه وفي رواية لقيه وهو يصلي ويروى لقيه وهو على
طنفسة خضراء على كبد البحر ويروى ان موسى عليه السلام لما وصل اليه قال السلام
عليك فقال وعليك السلام يا نبي بني اسرائيل فقال موسى ما عرفك هذا فقال الذي بعثك
الي وكان الخضر في أيام أفريدون وكان على مقدمة ذي القرنين الاكبر وبقي الى أيام موسى
وقيل ان موسى سأل ربه أي عبادك أحب اليك قال الذي يذكرني ولا ينساني قال فأي عبادك
أقضى قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى فقال فأي عبادك أعلم قال الذي يبتغي علم الناس
الى علمه عسى ان يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى فقال ان كان في عبادك أعلم مني
فادللني عليه قال أعلم منك الخضر قال أين أطلبه قال على الساحل عند الصخرة قال كيف لي
به قال تأخذ حوتا في مكتل فحيث فقدته فهو هناك (آتيناه) بعظمتنا (رحمة من عندنا) أي
وحيا ونبوة وكونه نبيا هو قول الجمهور وقيل انه ليس بنبي قال البغوي عند أكثر أهل العلم أي
فعندهم انه ولي (وعلمناه من لدنا) أي علما لم يجر على قوانين العادات على انه ليس بمستغرب عند

كان يقول اللهم وفقه
للاسلام او تب عليه واهده
او انه وعده ذلك على
انه يسلم ويستغفر له بعد
اسلامه او انه وعده ذلك
قبل تحريم الاستغفار
للكافر (قوله وناديناه من

أهل الاصطفاء (علماً) قذفناه في قلبه بغير واسطة وأهل التصوف سموا العلم بطريق المكاشفة
العلم اللدني فاذا سعى العبد في الرياضات يتزين الظاهر بالعبادات وتخلى النفس عن العلائق
وعن الاخلاق الرذيلة بتحليتها بالاخلاق الجميلة صارت القوى الحسية والخيالية ضعيفة
فاذا ضعفت قويت القوى العقلية وأشرقت الانوار الالهية في جوهرة العقل وحصلت
المعارف وكملت العلوم من غير واسطة سعي وطلب في التفكر والتأمل وهذا هو المسمى بالعلوم
اللدنية ثم أورد سبحانه وتعالى القصة على طريق الاستئناف على تقدير سؤال السائل عن كل
كلام يرشد اليه ما قبله وذلك انه من المعلوم ان الطالب للشخص اذا لقيه كلمه لكن لا يعرف عين
ذلك الكلام فقال لمن ٣ كأنه سأل عن ذلك (قال له موسى) طالباً منه على سبيل التأدب والتلطف
باظهار ذلك في قالب الاستئذان (هل أتبعك) أي اتباعاً بليغاً حيث توجهت والاتباع الاتيان
بمثل فعل الغير لمجرد كونه آتياً به وبين انه لا يطلب منه غير العلم بقوله (على أن تعلمن) أثبت الياء
نافع وأبو عمرو وصلاً لا وقفاً وابن كثير وصلاً ووقفاً والباقون بالحذف وزاد في التعطف بالاشارة
الى انه لا يطلب جميع ما عنده ليطول عليه الزمان بل جوامع منه يسترشد بها الى باقيه فقال
(مما علمت) وبناه للمفعول لعلم المخاطبين لكونهما من المخلصين بان الفاعل هو الله تعالى
وللاشارة الى سهولة كل أمر الى الله تعالى (رشداً) أي علماً يرشدني الى الصواب فيما أقصده
وقرأ أبو عمرو بفتح الراء والشين والباقون بضم الراء وسكون الشين * ولما أتم موسى عليه
السلام العبارة عن السؤال (قال) له الخضر عليه السلام (انك) يا موسى (لن تستطيع معي
صبراً) نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجوه من التأكيد كأنه مما لا يصح ولا يستقيم وفتح
الياء من معي صبراً في المواضع الثلاثة حفص وسكنها الباقون ثم علل عدم الصبر معه
واعتذر عنه بقوله (وكيف تصبر) يا موسى (على ما لم تحط به خبراً) أي وكيف تصبر على أمور
وأنت نبي ظاهرها منكر والرجل الصالح لا يتمالك أن يصبر اذا رأى ذلك بل يبادر ويأخذ
في الانكار وخبراً مصدر لمعنى لم تحط به أي لم تخبر حقيقته (قال) له موسى عليه السلام آتياً
بنهاية التواضع لمن هو أعلم منه ارشاداً لما ينبغي في طلب العلم رجاء تسهيل الله تعالى له النفع
به (ستجدني) فأكد الوعد بالسين ثم أخبر تعالى انه قوى التأكيد بالتبرك بذكر الله تعالى لعلمه
بصعوبة الامر على الوجه الذي تقدم الحث عليه في هذه السورة في قوله تعالى ولا تقولن لشيء
اني فاعل ذلك غداً الا أن يشاء الله ليعلم أنه منهاج الانبياء فقال (ان شاء الله) أي الذي له صفات
الكمال (صابراً) على ما يجوز الصبر عليه ثم زاد التأكيد بقوله عطفاً بالواو على صابراً لبيان
التمكن في كل من الوصفين (ولا أعصي) أي وغير عاص (لك أمراً) تأمرني به غير مخالف
لظاهر أمر الله تعالى * (تنبيه) * دلت هذه الآية الكريمة على ان موسى عليه السلام
راعى أنواعاً كثيرة من الادب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر منها أنه جعل نفسه
تبعاً له بقوله هل أتبعك ومنها انه استأذن في اثبات هذه التبعية كأنه قال هل تأذن لي أن أجعل
نفسي تبعاً لك وهذه مبالغة عظيمة في التواضع ومنها قوله صلى الله عليه وسلم على أن تعلمن وهذا
اقرار منه على نفسه بالجهل وعلى استاذه بالعلم ومنها قوله مما علمت وصيغة من للتبعيض وطلب
منه تعليم بعض ما علم وهذا أيضاً اقرار بالتواضع كأنه يقول لا أطلب منك أن تجعلني مساوياً

٣ قوله لمن الخ كذا بالاصل وليتأمل اه مصحح

جانب الطور الايمن) أي الذي يلي يمين موسى حين أقبل من مدين (قوله ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) * ان قلت هرون كان أكبر من موسى فلم وهبه له (قلت) معناه ان

لك فى العلم بل أطلب منك ان تعطينى جزأ من أجزا ما علمت ومنها ان قوله مما علمت اعتراف منه بان الله تعالى علمه ذلك العلم ومنها قوله رشدا طلب منه الارشاد والهداية ومنها قوله ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ومنها انه ثبت بالاخبار ان الخضر عرف أولا ان موسى صاحب التوراة وهو الرجل الذى كلمه الله من غير واسطة وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة ثم انه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الانواع الكثيرة من التواضع وذلك يدل على كونه عليه السلام آتيا فى طلب العلم باعظم أبواب المبالغة فى التواضع وذلك يدل على ان هذا هو اللائق به لان كل من كانت احاطته بالعلوم التى علم ما فيها من البهجة والسعادة أكثر كان طلبه لها أشد فكان تعظيمه لارباب العلم أكمل وأشد وكل ذلك يدل على ان الواجب على المتعلم اظهار التواضع بكل الغايات وأما المعلم فان رأى ان فى التغليظ على المتعلم ما يفيده نفعا وارشادا الى الخير فالواجب عليه ذكره فان السكوت عنه يوقع المتعلم فى الغرور وذلك يمنعه من التعلم وروى ان موسى عليه السلام لما قال هل أتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا قال له الخضر كفى بالتوراة علما وبنى اسرائيل شغلا فقال له موسى الله أمرنى بهذا (قال) له الخضر (فان اتبعتنى) اى صحبتنى ولم يقل اتبعنى ولكن جعل الاختيار اليه الا أنه شرط عليه شرطا فقال (فلا تسئلنى عن شئ) أقوله أو أفعله (حتى أحدث لك) خاصة (منه ذكرا) اى حتى أبدأك بوجه صوابه فانى لا أقدم على شئ الا وهو صواب جائز فى نفس الامر وان كان ظاهره غير ذلك فقبل موسى شرطه رعاية لادب المتعلم من العالم ولما تشارطا وتراضيا على الشرط تسبب عن ذلك قوله تعالى (فانطلقا) اى موسى والخضر عليهما السلام على الساحل فانتهيا الى موضع احتاجا فيه الى ركوب السفينة فاذا الابطال الباد سفينة بركبان فيها راستمرا (حتى اذا ركبا فى السفينة) التى مرت بهما وأجاب الشرط بقوله (خرقها) اى أخذ الخضر فاسا فخرق السفينة بان قلع لوحا أو لوحين من ألواحها من جهة البحر لما بلغت اللجة ولم يقترن خرق بالفا لانه لم يكن مسببا عن الركوب ثم استأنف قوله (قال) أى موسى عليه السلام منكرا لذلك لما فى ظاهره من الفساد باتلاف المال المفضى الى فساد أكبر منه باهلاك النفوس ناسيا لما عقد على نفسه على انه لو لم ينس لم يترك الانكار كما فعل عند قتل الغلام لان مثل ذلك غير داخل فى الوعد لان المستثنى شرعا كالمستثنى وضعا (أخرقتها) وبين عذره فى الانكار لما فى غاية الخرق من الفظاعة فقال (لتغرق أهلها) فان خرقها سبب لدخول الماء فيها المفضى الى غرق أهلها وقرأ حمزة والكسائى بالياء التحتية مفتوحة وفتح الراء ورفع اللام من أهلها والباقون بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الراء ونصب لام أهلها ثم قال له موسى والله (لقد جئت شيأ امرا) اى عظيما منكرا (قال) الخضر (ألم أقل انك) يا موسى (لن تستطيع معى صبرا) فذكره بما قال له عند الشرط (قال) موسى (لا تؤاخذنى) يا خضر (بما نسيت) اى غفلت عن التسليم لك وترك الانكار عليك قال ابن عباس انه لم ينس ولكنه من معاريض الكلام اى وهى التورية بالشئ عن الشئ وفى المثل ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب اى سعة فكأنه نسى شيأ آخر وقيل معناه بما تركت من عهدك والنسيان الترك وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كانت الاولى من موسى

الله تعالى انعم على موسى عليه السلام باجابته دعوته فيه حيث قال واجعل لى وزيرا من اهلى هرون اخى الآية فعنى هبته جعله عضدا له وناصرا ومعينا (قوله وعلى صالحا) قاله هنا

نسيانا والوسطى شرطا والثالثة عمدا (ولا ترهقني من أمري عسرا) أي لا تكلفني مشقة يقال أرهقه عسرا وأرهقته عسرا أي كلفته ذلك يقول لا تضيق على أمري ولا تعسر متابعتك على ويسرها على بالاغضاء وترك المناقشة وعاملني باليسر ولا تعاملني بالعسر وعسرا مفعول ثان لترهقني من أرهقته كذا اذا حملته اياه وغشاه به وما في بما نسيت مصدرية أو بمعنى الذي والعائد محذوف وروى ان الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء وروى ان موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فحشا به الخرق وروى ان الخضر أخذ قدحا من زجاج ورقع به خرق السفينة (فان قيل) قول موسى عليه السلام أخرقتها لتغرق أهلها ان كان صادقا في هذا دل ذلك على صدور ذنب عظيم من الخضر ان كان نبيا وان كان كاذبا دل ذلك على صدور الذنب من موسى وأيضا فقد التزم موسى ان لا يعترض عليه وجرت العهود المذكورة بذلك ثم انه خالف تلك العهود وذلك ذنب (أجيب) بان كلامه ما صادق فيما قال موسى بحسب ما عنده أما موسى عليه السلام فانه ما خطر له قط ان يعاهد على ان لا ينهى عما يعتقده منكرا وأما الخضر فانه عقد على ما في نفس الامر انه لا يقدم على منكر (فانطلقا) بعد نزولهما من السفينة وسلامتهما من الغرق والعطب (حتى اذا لقيا غلاما) قال ابن عباس لم يبلغ الحنث (فقتله) حين لقيه كما دلت عليه الفاء العاطفة على الشرط قال البغوي في القصة انهما خرجا من البحر يمشيان فمرا بغلمان يلعبون فاخذ غلاما ظريفا وضيء الوجه فاضجعه ثم ذبحه بالسكين قال السدي كان أحسنهم وجها كان وجهه يتوقد حسنا قال البغوي وروينا انه أخذ رأسه فاقتلعه بيده وروى عبد الرزاق هذا الخبر وأشار بيده باصابعه الثلاثة الابهام والسبابة والوسطى وقلع رأسه وروى انه رضخ رأسه بالحجارة وقيل ضرب رأسه بالجدار فقتله وكونه لم يبلغ الحنث هو قول الاكثرين وقال الحسن كان رجلا قال شعيب الجبائي وكان اسمه جيسور وقال الكلبي كان فتى يقطع الطريق ويأخذ المتاع ويلتجئ الى أبويه وقال الضحاك كان غلاما يعمل بالفساد ويتأذى منه أبواه وعن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش لارهق أبويه طغيانا وكفرا قال الرازي وليس في القرآن كيف لقيه هل كان يلعب مع جمع من الغلمان أو كان منفردا وهل كان مسلما أو كافرا أو هل كان بالغا أو صغيرا وكان اسم الغلام بالصغير أليق وان احتمل الكبير الا ان قوله بغير نفس أليق بالبالغ منه بالصبي لان الصبي لا يقتل وان قتل قال البقاعي الا ان يكون شرعهم لا يشترط البلوغ وقال ابن عباس ولم يكن نبي الله يقول اقتلت نفسا زاكية بغير نفس الا وهو صبي قال الرازي أيضا أو كيفية قتله هل قتله بان حز رأسه أو بان ضرب رأسه بالجدار أو بطريق آخر فليس في القرآن ما يدل على شيء من هذه الاقسام انتهى ثم اجاب الشرط بقوله مشيرا بان شروعه في الانكار في هذه اسرع (قال) موسى (اقتلت) يا خضر (نفسا زاكية بغير نفس) قتلتها ليكون قتلها لها قودا وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بالف بعد الزاي وتخفيف الياء التحتية والباقون بغير الف بعد الزاي وتشديد التحتية قال الكسائي الزاكية والزكية لغتان ومعنى هذه الطهارة وقال ابو عمرو الزاكية التي لم تذنب والزكية التي اذنبت ثم تابت ثم استأنف قوله (لقد) اظهر لدال نافع وابن كثير

وقال في الفرقان وعمل عملا صالحا لانه تعالى اوجز هنا في ذكر المعاصي فاوجز في التوبة واطال ثم فاطال (قوله لقد احصاهم وعدهم عدا) ان قلت ما فائدة ذكر

وابن ذكوان وعاصم وأدغمها الباقون (جئت) فيه قلب ابدالها (شيئا) وصرح بالانكار في قوله (نكرا) لان مباشرة الغرق سبب ولهذا قال بعضهم النكر أعظم من الامر في القبح لان قتل الغلام أعظم من خرق السفينة لانه يمكن أن لا يحصل الغرق وأما هنا فقد حصل الاتلاف قطعا والنكر ما أنكرته العقول ونفرت منه النفوس فهو أبلغ في القبح من الامر وقيل الامر أعظم لان خرق السفينة يؤدي الى اتلاف نفوس كثيرة وهذا القتل ليس الا اتلاف شخص واحد وقرأ نافع وابن ذكوان وشعبة برفع الكاف والباقون بسكونها ولما كانت هذه ثانية (قال) له الخضر (ألم أقل لك) يا موسى (انك لن تستطيع معي صبرا) وهذا عين ما ذكره في المسئلة الاولى الا انه هنا زاد لفظة لك (فان قيل) لم زادها هنا (أجيب) بانه زادها مكافحة بالعتاب على رفض الوصية ووسما بقلة الصبر والثبات لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير أول مرة قال ابن الاثير المكافحة المدافعة والمضاربة والاشمئزاز من اشمأز الرجل أي انقبض قلبه قال البغوي وفي القصة ان يوشع كان يقول لموسى يا نبي الله اذكر العهد الذي أنت عليه (قال) موسى حياء منه لما أفاق بتذكيره ما حصل من فرط الوجد لامر الله تعالى فذكر أنه ما تبعه الا بامر الله تعالى (ان سألتك عن شيء بعدها) أي بعد هذه المرة وأعلم بشدة ندمه عن الانكار بقوله (فلا تصاحبني) أي لا تتركني أتبعك بل فارقني ثم علل ذلك بقوله (قد بلغت) وأشار الى أن ما وقع منه من الاخلال بالشرط من أعظم الخوارق التي اضطر اليها فقال (من لدني) أي من قبلي (عذرا) باعتراضي مرتين واحدة بالتى في نهيهما وقد أخبر الله بحسن حالك في غزارة علمك فحصل بهذه الطريقة من حيث انه احتمله مرتين أولا وثانيا مع قرب المدة روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك ولو لبث مع صاحبه لابصر أعجب الاعاجيب وعن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله علينا وعلى موسى وكان اذا ذكر أحدا من الانبياء بدأ بنفسه لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة أي حياء واشفاق فقال ان سألتك الى آخره وقرأ نافع بضم الدال وتخفيف النون وقرأ شعبة كذلك الا انه يشم الدال فتصير ساكنة قريبة من الضم والباقون بضم الدال وتشديد النون (فانطلقا) أي موسى والخضر يمشيان لينظر الخضر أمرا يتفذ فيه ما عنده من علمه وورش يغلظ اللام في لفظ انطلقا على أصله بعد قتل الغلام (حتى اذا أتيا أهل قرية) قال ابن عباس هي انطاكية وقال ابن سيرين هي الايلة وهي أبعد أرض الله من السماء وعبر عنها بالقرية دون المدينة لانه أدل على الذم وقيل برقة وعن أبي هريرة بلدة بالاندلس (استطعما أهلها) أي طلبا من أهل القرية أي يطعموهما وفي الحديث انهما كانا يمشيان على مجالس أولئك القوم يستطعمانهم (فأبوا أن يضيفوهما) أي أن ينزلوهما ويطعموهما يقال ضافه اذا كان له ضيفا وحقيقته مال اليه من ضاف السهم عن الغرض وضيفه وأضافه أنزله وجعله ضيفا (فان قيل) الاستطعام ليس من عادة الكرام وكيف أقدم عليه موسى والخضر وقد حكى الله تعالى عن موسى أنه قال عند ورود ماء مدين رب اني لما أنزلت الي من خير فقير (أجيب) بأن الاقدام الجائع على الاستطعام أمر مباح في كل الشرائع بل ربما وجب ذلك عند الخوف من الضرر الشديد (فان قيل) لم قال حتى اذا أتيا أهل

العدد ... والاحصاء هو ... الاحصاء ... لا يكون الا بعد معرفة العدد (قال) له معنى ثالث وهو العلم كقوله واحصى كل شيء عددا أي علم عدد كل شيء فالمعنى هذا

قرية استطعما أهلها ولم يقل استطعماهم (أجيب) بأن التكرير قد يكون للتأكيد كقول الشاعر

ليت الغراب غداة ينعب دائبا • كان الغراب مقطع الاوداج

وعن قتادة شر القرى التي لا تضيف الضيف (فائدة) قال الرازي وفي كتب الحكايات ان أهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الآية استحيوا وجاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمل من الذهب وقالوا يا رسول الله نشتري بهذا الذهب ان تجعل الباء تاء حتى تصير القراءة هكذا فأتوا أن يضيفوهما اى أتيناهم لاجل الضيافة حتى يندفع عنا هذا اللوم فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال تغيير هذه النقطة يوجب دخول الكذب في كلام الله تعالى وذلك يوجب القدح في الالهية فعلم أن تغيير النقطة الواحدة من القرآن يوجب بطلان الربوبية والعبودية ولما أبوا أن يضيفوهما انصرفا (فوجدا فيها) اى القرية ولم يقل فيهم ايذانا بان المراد وصف القرية بسوء الطبع (جدارا) اى حائطا مائلا مشرفا على السقوط ولهذا قال مستعير المائل بعقل صفة من يعقل (يريد أن ينقض) اى يسقط وهذا من مجاز كلام العرب لان الجدار لا ارادة له وانما معناه قرب ودنا من السقوط كما تقول العرب داري تنظر الى دار فلان اذا كانت تقابلها فاستعير الارادة للمشارفة كما استعير لها الهم والعزم في قوله

يريد الرمح صدر أبي براء • ويعدل عن دماء بني عقيل

وقول الآخر ان دهرا يلف شملي بجمل • لزمان يهم بالاحسان

ففي البيت الاول دليل على استعارة الارادة للمشارفة وفي الثاني دليل على استعارة الهم لها وجمل اسم محبوبته يقول ان دهرا يجمع بيني وبينها لزمان قصده الاحسان لا الاساءة ونظير ذلك من القرآن قوله تعالى ولما سكت عن موسى الغضب وقوله تعالى أن يقول له كن فيكون وقوله تعالى قالتا أتينا طائعين قال الزمخشري ولقد بلغني ان بعض المحرفين لكلام الله تعالى ممن لا يعلم كان يجعل الضمير للخضر وقيل ان الله تعالى خلق للجدار حياة وارادة كالحيوان (فأقامه) اى سواه وفي حديث أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال الخضر بيده فأقامه وقال ابن عباس هدمه وقعد يبنيه وقال سعيد بن جبير مسح الجدار بيده فاستقام وذلك من معجزاته وقال السدي بل طينا وجعل يبني الحائط فشق ذلك على موسى عليه السلام (فان قيل) الضيافة من المندوبات فتركها ترك مندوب وذلك غير منكر فكيف يجوز من موسى عليه السلام مع علو منصبه أنه غضب عليهم الغضب الشديد الذي لاجله ترك العهد الذي التزمه في قوله ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبني وايضا مثل الغضب لاجل ترك الاكل في ليلة واحدة لا يليق بادون الناس فضلا عن كليم الله تعالى (اجيب) بان تلك الحالة كانت حالة افتقار واضطرار الى الطعام فلاجل تلك الضرورة نسي موسى عليه السلام ما قاله فلا جرم (قال) موسى (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) اى لطلبت على عملك أجرة تصرفها في تحصيل المطعوم وتحصيل سائر المهمات وقرأ ابن كثير وابو عمرو بتخفيف التاء بعد اللام وكسر الخاء واظهر ابن كثير الذال عند التاء على اصلها وادغمها ابو عمرو والباقون بتشديد التاء وفتح الخاء واظهر حفص الذال على اصله وادغمها الباقون • ولما كان كلام موسى هذا

متضمنا

لقد علمهم وعدهم عدا

(سورة طه)

(قوله وهل أتاك حديث موسى اذ رأى نارا الآية) فكيف حكى الله تعالى قول موسى عليه السلام لاهله عند رؤية

مثل هذا السؤال (قال) له الخضر (هذا) اى هذا الانكار على ترك الاجر (فراق بيني وبينك)
وقيل ان موسى عليه السلام لما شرط انه ان سأله بعد ذلك سؤالا آخر حصل به الفراق حيث
قال ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبني فلما ذكر هذا السؤال فارقه وهذا فراق بيني وبينك
اى هذا الفراق الموعود (فان قيل) كيف ساغ اضافة بين الى غير متعدد (اجيب)
بان مسوغ ذلك تكريره بالعطف بالواو الا ترى انك لو اقتصرت على قولك المال بيني لم يكن
كلاما حتى تقول بيننا او بيني وبين فلان ثم قال له الخضر (سأنبئك) اى ساخبرك يا موسى قبل
فراقك (بتأويل) اى بتفسير (ما لم تستطع عليه صبرا) لان هذه المسائل الثلاثة مشتركة
في شئ واحد وهو ان احكام الانبياء عليهم الصلاة والسلام مبنية على الظواهر كما قال صلى الله
عليه وسلم نحن نحكم بالظواهر والله يتولى السرائر والخضر ما كانت احكامه مبنية
على ظواهر الامور بل كانت مبنية على الاسباب الخفية الواقعة في نفس الامر وذلك لان
الظاهر في اموال الناس وفي ارواحهم انه يحرم التصرف فيها والخضر تصرف في اموال
الناس وفي ارواحهم في المسئلة الاولى وفي الثانية من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف
لان الاقدام على خرق السفينة وقتل الانسان من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف محرم
والاقدام على اقامة ذلك الجدار المائل في المسئلة الثالثة تحمل التعب والمشقة من غير
سبب ظاهر ثم اخذ الخضر في تأويل ذلك مبتدئا بالمسئلة الاولى بقوله (اما السفينة) اى التي
احسن الينا اهلها خرقتها (فكانت لمساكين) عشرة اخوة خمسة زمنى وخمسة (يعملون في
البحر) اى يؤاجرون ويكتسبون واحتج الشافعي رضي الله عنه بهذه الآية على ان حال الفقير
اشد في الحاجة والضرر من حال المسكين لان الله تعالى سماهم مساكين مع انهم كانوا يملكون
تلك السفينة (فاردت ان اعيبها) اى ان اجعلها ذات عيب بان تفوت منفعتها بذلك ساعة
من نهار وتكلف اهلها لوحا او لوحين يسدونها به ذلك اخف عليهم من ان تفوتهم منفعتها
بالكلية كما يعلم من قوله (وكان وراءهم) اى امامهم كقوله تعالى ومن ورائهم برزخ وقيل
خلفهم وكان طريقهم في رجوعهم عليه (ملك) كان كافرا واسمه الجلندى وقال محمد بن
اسحق اسمه مولة بن خليد (٣) الازدي وقيل اسمه هدد بن بدد (ياخذ كل سفينة) اى صالحة
وحذف التقييد بذلك للعلم به (غصبا) من اصحابها ولم يكن عند اصحابها علم به فاذا مرت به تركها
لعيبها فاذا جاوزته اصلحوها فانتفعوا بها قيل سدوها بقارورة وقيل بالقار (فان قيل) قوله
فاردت ان اعيبها مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه ان يتأخر عن السبب فلم قدم
عليه (اجيب) بان النية به التأخير وانما قدم للعناية ولان خوف الغصب ليس هو السبب
وحده ولكن مع كونها للمساكين فلما كان كل من الغصب والمسكنة سبب الفعل قدمها
على الغصب اشارة الى ان اقوى السببين الحاملين على فعله الرأفة بالمساكين • ثم شرع في
تأويل المسئلة الثانية بقوله (واما الغلام) الذي قتلته (فكان ابواه مؤمنين) التثنية للتغليب
يريد اباه وامه فغلب المذكر وهو شائع ومثله القمران قيل ان ذلك الغلام كان بالغا وكان يقطع
الطريق ويقدم على الافعال المنكرة وكان ابواه يحتاجان الى دفع شر الناس عنه والتعصب له
وتكذيب من يرميه بشئ من المنكرات وكان يصير بسببه الوقوع في الفسق وربما ادى ذلك

اخبار هذا وفى النقل
والقصص بعبارات محتملة
وهذه الصحم نسخ الاصول
راجعه فلعله اصلحت
عبارته موسى عليه السلام
فيها (قلت) [illegible]
الاعراف [illegible]

(٣) قوله مولة بن خليد
الخ هكذا في النسخ والذي
في البيضاوي منوار بن
جلندى الازدي كما هو اه

الفسق الى الكفر وقيل انه كان صبيا الا انه علم منه انه لو صار بالغا لحصلت فيه هذه المفاسد
وفي الحديث انه طبع كافرا ولو عاش لارهقهما ذلك كما قال (فخشينا) أي خفنا وان الخشية خوف
يشوبه تعظيم (أن يرهقهما) أي يغشيهما ويلحقهما (طغيانا وكفرا) أي لمحبتهما له يتبعانه في
ذلك (فان قيل) هل يجوز الاقدام على قتل الانسان بمثل ذلك (أجيب) بانه اذا تأكد ذلك بوحي
من الله تعالى جاز وعن ابن عباس أن نجدة الحروري كتب اليه كيف قتله أي كيف قتل
الخضر عليه السلام وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان فكتب اليه ان علمت من
حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل رواه بمعناه مسلم ولما ذكر ما يلزم على تقدير بقائه
من المفاسد تسبب عنه قوله (فأردنا) أي بقتله وإراحتهما من شره (أن يبدلهما ربهما) أي
المحسن اليهما باعطائه وأخذه قال مطرف فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقي
كان فيه هلاكهما فليرض كل امرئ بقضاء الله تعالى فان قضاء الله تعالى للمؤمن فيما يكره
خير له من قضائه فيما يحب ولهذا أبدلهما الله تعالى (خيرا منه زكاة) أي طهارة وبركة من
الذنوب والاخلاق الرديئة وصلاحا وتقوى (وأقرب رحما) أي رحمة وعطفا عليهما وقيل
هو من الرحم والقرابة قال قتادة أي أوصل للرحم وأبر للوالدين قال الكلبي أبدلهما الله
تعالى جارية فتزوجها نبي من الانبياء فولدت له نبيا فهدى الله تعالى على يديه أمة من الامم
وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال أبدلهما الله تعالى جارية ولدت سبعين نبيا وقال ابن جريج
أبدلهما بغلام مسلم وقرأ نافع وابو عمرو أن يبدلهما بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال
والباقون بسكون الموحدة وتخفيف الدال وقرأ ابن عامر رحما برفع الحاء والباقون
بالسكون * ثم شرع في تأويل المسألة الثالثة بقوله (وأما الجدار) اي الذي اشرت باخذ الاجر
عليه (فكان لغلامين) ودل على كونهما دون البلوغ بقوله (يتيمين) وكان اسم أحدهما أصرم
والآخر صريما ولما كانت القرية لا تنافي التسمية بالمدينة وكان التعبير بالقرية أولا أليق
عبر بها لانها مشتقة من معنى الجمع فكان أليق بالذم في ترك الضيافة ولما كانت المدينة بمعنى
محل الاقامة عبر بها فقال (في المدينة) فكان التعبير بها أليق للاشارة به الى أن الناس يمرون
فيها فينهدم الجدار وهم مقيمون فيأخذون الكنز كما قال (وكان تحته كنز لهما) فلذلك أقمته
احتسابا واختلف في ذلك الكنز فعن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كان ذهبا
وفضة رواه البخاري في تاريخه والترمذي والحاكم وصححه والذم على كنزهما في قوله تعالى
والذين يكنزون الذهب والفضة لمن لا يؤدي زكاتهما وما يتعلق بهما من الحقوق وعن
سعيد بن جبير قال كان الكنز صحفا فيها علم رواه الحاكم وصححه وعن ابن عباس قال كان
لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبا لمن أيقن بالموت كيف يفرح عجبا لمن أيقن بالقدر كيف يغضب
عجبا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب عجبا لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل عجبا لمن أيقن بزوال
الدنيا وتقلبها باهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله وفي الجانب الآخر مكتوب
أنا الله لا اله الا أنا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته
على يديه والويل كل الويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه قال البغوي وهذا
قول أكثر أهل التفسير وروي ذلك أيضا مرفوعا قال الزجاج الكنز اذا أطلق ينصرف

الى

عليه السلام مثل هذا
السؤال وسيجيء جوابه
وجوابه ثم يأتي هنا (قوله
فلما أتاها) قال هنا وفي
القصص بلفظ أتى وفي
النمل بلفظ جاء لانهما
وان كانا بمعنى واحد

الى كنز المال ويجوز عند التقييد أن يقال عنه كنز علم وهذا اللوح كان جامعا لهما وقوله
(وكان أبوهما صالحا) فيه تنبيه على أن سعيه في ذلك كان لصلاحه فيراعى وتراعى ذريته
وكان سياحا واسمه كاشح قال ابن عباس حفظا لصلاح أبيهما وقيل كان بينهما وبين الاب
الصالح سبعة آباء قال محمد بن المنكدر ان الله تعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده
وعشيرته واهل دويرات حوله فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم قال سعيد بن المسيب اني
أصلي فاذكر ولدي فازيد في صلاتي وعن الحسن أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما
بم حفظ الله الغلامين قال بصلاح ابيهما قال فابي وجدي خير منه قال قد أنبأنا الله أنكم قوم
خصمون وذكروا أيضا أن ذلك الاب الصالح كان من الذين تضع الناس الودائع عنده فيردها
اليهم (فاراد ربك أن يبلغا) أي الغلامان (أشدهما) أي الحلم وكمال الرأي (ويستخرجا
كنزهما) لينتفعا به وينفعا الصالحين * (تنبيه) * أسند الارادة في قوله فاردت أن أعيبها الى
نفسه لانه المباشر للتعييب وثانيا في قوله فاردنا الى الله والى نفسه لان التبديل باهلاك الغلام
وايجاد الله تعالى بدله وثالثا في قوله فاراد ربك الى الله وحده لانه لا مدخل له في بلوغ الغلامين
أولان الاول في نفسه شر والثالث خير والثاني ممتزج أولانه لما ذكر العيب أضافه الى ارادة
نفسه ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيها على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم
يقدم على هذا القتل الا لحكمة عالية ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لاجل صلاح أبيهما
أضافه الى الله تعالى لان التكفل بصلاح الابناء لرعاية حق الآباء ليس الا لله تعالى
أو لاختلاف حال العارف في الالتفات الى الوسائط (فان قيل) اليتيمان هل أحد منهما عرف
حصول ذلك الكنز تحت ذلك الجدار أم لا فان كان الاول امتنع أن يتركوا سقوط ذلك الجدار
وان كان الثاني فكيف يمكنهم بعد البلوغ استخراج ذلك الكنز ومعرفته والانتفاع به
(وأجيب) لعلهما كانا جاهلين به الا أن وصيهما كان عالما به ثم ان ذلك الوصي غاب وأشرف
ذلك الجدار في غيبته على السقوط ولما قرر الخضر هذه الجوابات قال (رحمة من ربك) أي
انما فعلت هذه الافعال لغرض أن تظهر رحمة الله لانها بأسرها ترجع الى حرف واحد وهو
تحمل الضرر الادنى لدفع الضرر الاعلى كما تقرر (وما فعلته) اي شيئا من ذلك (عن أمري) اي
عن اجتهادي ورأيي بل بامر من له الامر وهو الله تعالى * (تنبيه) * واحتج من ادعى نبوة الخضر
بامور احدها قوله تعالى آتيناه رحمة من عندنا والرحمة هي النبوة قال تعالى وما كنت ترجو
أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك والمراد من هذه الرحمة النبوة قال الرازي ولقائل ان
يقول نسلم ان النبوة رحمة ولكن لا يلزم ان تكون كل رحمة نبوة الثاني قوله تعالى وعلمناه
من لدنا علما وهذا يقتضي ان الله تعالى علمه بلا واسطة تعليم معلم ولا ارشاد مرشد وكل من علمه
الله تعالى بلا واسطة البشر وجب ان يكون نبيا يعلم الامور بالوحي من الله تعالى قال الرازي
وهذا الاستدلال ضعيف لان العلوم الضرورية تحصل ابتداء من الله وذلك لا يدل على النبوة
الثالث ان موسى عليه السلام قال هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت والنبي لا يتبع غير نبي في
التعلم قال الرازي وهذا أيضا ضعيف لان النبي لا يتبع غير نبي في العلوم التي باعتبارها صار
نبيا اما غير تلك العلوم فلا الرابع انه اظهر على موسى الترفع حيث قال وكيف تصبر على ما لم

تغاير بينهما لفظا وتوسعة
في التعبير عن الشيء
وخص اتى
بتساوبين
بهذه السورة لكثرة التعبير
بالاتباع فيها وجاء بالفعل
لكثرة التعبير بالجمع فيها
والحق ما في القصص عاني

فقط به خبر أما موسى فانه اظهر له التواضع حيث قال ولا اعصى لك امرا وهذا يدل على انه كان فوق موسى ومن لا يكون نبيا لا يكون فوق نبي قال الرازي وهذا ايضا ضعيف لانه يجوز ان يكون غير النبي فوق النبي في علوم لا تتوقف نبوته عليها الخامس قوله وما فعلته عن امري وفي المعنى انى فعلته بوحى من الله وهذا يدل على النبوة قال الرازي وهذا ايضا ضعيف ظاهر الحجة السادس ما روى ان موسى عليه السلام لما وصل اليه قال السلام عليك قال وعليك السلام يا نبي بني اسرائيل فقال موسى من عرفك هذا قال الذي بعثك الى وهذا يدل على أنه انما عرف ذلك بالوحى والوحى لا يكون الا مع النبوة قال الرازي ولقائل أن يقول لم لا يجوز أن يكون ذلك من باب الكرامات والالهامات انتهى وبالجملة فالجمهور على أنه نبي كامل واختلفوا هل هو حى أو ميت فقيل ان الخضر والياس حيان يلتقيان كل سنة بالموسم قال البغوى وكان سبب حياته فيما يحكى أنه شرب من عين الحياة وذلك ان ذا القرنين دخل الظلمة ليطلب عين الحياة وكان الخضر على مقدمته فوقع الخضر على العين فنزل فاغتسل وشرب وشكر الله تعالى واخطأ ذو القرنين الطريق وذهب آخرون الى انه ميت لقوله تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد وقال النبي صلى الله عليه وسلم بعدما صلى العشاء ليلة أرأيتكم ليلتكم هذه فان رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الارض احد ولو كان الخضر حيا لكان لا يعيش بعده ولما بين لموسى سر تلك القضايا قال له (ذلك) اى هذا التأويل العظيم (تأويل ما لم تسطع) يا موسى (عليه صبرا) وحذف تاء الاستطاعة هنا تخفيفا فان استطاع واسطاع بمعنى واحد ٭(تنبيه)٭ من فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعلمه ولا يبادر الى انكار ما لا يستحسنه فلعل فيه سرا لا يعرفه وان يداوم على التعلم ويتذلل للمعلم ويراعى الادب في المقال وان ينبه المجرم على جرمه ويعفو عنه حتى يتحقق اصراره ثم يهاجره وروى ان موسى لما اراد ان يفارق الخضر قال له اوصنى قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به ٭ ولما فرغ من هذه القصة التى حاصلها انه طواف في الارض لطلب العلم عقبها بقصة من طاف الارض لطلب الجهاد وقدم الاولى اشارة الى علو درجة العلم لانه أساس كل سعادة وقوام كل امر فقال عاطفا على ويجادل الذين كفروا بالباطل (ويسئلونك) اى اليهود وقيل مشركو مكة بأشرف الخلائق (عن ذى القرنين) وذكروا في سبب تسميته بذلك وجوها الاول قال أبو الطفيل سئل على رضى الله عنه عن ذى القرنين أكان نبيا أم ملكا قال لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان عبدا صالحا أمر قومه بتقوى الله تعالى فضربوه على قرنه الايمن فمات ثم بعثه الله تعالى فأمرهم بتقوى الله تعالى فضربوه على قرنه الايسر فمات ثم بعثه الله تعالى فسمى ذا القرنين وفيكم مثله يعنى نفسه الثانى انه انقرض في وقته قرنان من الناس الثالث أنه كانت صفحتا رأسه من نحاس الرابع كان على رأسه ما يشبه القرنين الخامس كان لتاجه قرنان السادس أنه طاف قرنى الدنيا شرقها وغربها السابع كان له قرنان اى ضفيرتان الثامن ان الله تعالى سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من أمامه وتمده الظلمة من ورائه التاسع أنه لقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشا لانه ينطح اقرانه العاشر أنه رأى في المنام كأنه صعد الفلك وتعلق بطرفى الشمس وقرنيها اى جانبيها فسمى بذلك

طه لقرب ما بينهما أى من حيث قوله يا موسى انى أنا ربك وقوله في القصص يا موسى انى انا الله وان اختلف محلوه باختلاف ذلك في الفعل (قوله ان الساعة آتية) قالهما وفي الحج

لهذا السبب الحادي عشر أنه كان له قرنان تواريهما العمامة الثاني عشر أنه دخل النور والظلمة وذكروا في اسمه أيضا وجوها الاول اسمه مرزبان اليوناني من ولد يونان بن يافث ابن نوح الثاني اسمه اسكندر بن فيلقوس الرومي اشتهر في كتب التواريخ أنه بلغ ملكه أقصى المشرق والمغرب وأمعن حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم عاد الى مصر وبنى الاسكندرية وسماها باسم نفسه الثالث شمر بن عمر بن افريقيس الحميري وهو الذي بلغ ملكه مشارق الارض ومغاربها وافتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال

قد كان ذو القرنين قبلي مسلما • ملكا علا في الارض غير مفند

بلغ المشارق والمغارب يبتغي • أسباب ملك من كريم سيد

واختلفوا في نبوته مع الاتفاق على ايمانه فقال بعضهم كان نبيا واحتجوا على ذلك بوجوه الاول قوله تعالى انا مكنا له في الارض وحمل على التمكين في الدنيا والتمكين الكامل في الدين هو النبوة الثاني قوله تعالى وآتيناه من كل شئ سببا وهذا يدل على أنه تعالى آتاه من النبوة سببا الثالث قوله تعالى ياذا القرنين اما أن تعذب الخ والذي يتكلم الله معه لا بد أن يكون نبيا ومنهم من قال انه كان عبدا صالحا ملكه الله تعالى الارض وأعطاه الله سبحانه وتعالى الملك والحكمة وألبسه الهيبة وقد قالوا ملك الارض مؤمنان ذو القرنين وسليمان وكافران نمروذ وبختنصر ومنهم من قال انه كان ملكا من الملائكة عن عمر رضي الله تعالى عنه انه سمع رجلا يقول ياذا القرنين فقال اللهم غفرا أما رضيتم أن تسموا بأسماء الانبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة والاكثر على القول الثاني ويدل له قول علي رضي الله تعالى عنه المتقدم • (تنبيه) • قد قدمنا ان اليهود امروا المشركين أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة أصحاب الكهف وعن قصة ذي القرنين وعن الروح والمراد من قوله تعالى ويسئلونك عن ذي القرنين هو ذلك السؤال ثم قال الله تعالى (قل) أي لهؤلاء المتعنتين (سأتلوا) أي أقص قصا متتابعا في مستقبل الزمان ان أعلمني الله تعالى به (عليكم) أي أيها البعداء والضمير في قوله تعالى (منه) لذي القرنين وقيل لله تعالى (ذكرا) أي خبرا كافيا لكم في تعرف أمره جامعا لمجامع ذكره (انا مكنا له في الارض) أي مكنا له أمره من التصرف فيها كيف شاء يصل بها الى جميع مسالكها ويظهر بها على سائر ملوكها (وآتيناه) بعظمتنا (من كل شئ) يحتاج اليه في ذلك (سببا) أي وصلة توصله اليه من العلم والقدرة والآلة (فأتبع سببا) أي سلك طريقا نحو المغرب قال البقاعي ولعله بدأ به لان باب التوبة فيه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو واتبع في المواضع الثلاثة بتشديد التاء الفوقية ووصل الهمزة قبل الفوقية والباقون بقطع الهمزة وسكون التاء الفوقية واسم متبعا له (حتى اذا بلغ) في ذلك السير (مغرب الشمس) أي موضع غروبها (وجدها تغرب في عين حمئة) أي ذات حمأ وهي الطين الاسود أي بلغ موضعا في الغرب لم يبق بعده شئ من العمران وجد الشمس كأنها تغرب في وهدة مظلمة كما يرى راكب البحر يرى الشمس كأنها تغرب في البحر اذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر والارض أكبر من الارض مرات كثيرة فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الارض قال البيضاوي ولعله بلغ ساحل المحيط فرأى ذلك اذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء ولذلك قال وجدها تغرب ولم

حذف لام التاكيد وقاله في غافر باثباتها لانها انما تزاد لتاكيد الخبر وتاكيده انما يحتاج اليه اذا كان المخبر به شاكا في الخبر والمخاطبون في غافر هم الكافرون فاكد فيها باللام

يقل كانت تغرب وقرأ شعبة وحمزة والكسائى وابن عامر بألف بعد الحاء وياء مفتوحة بعد الميم
عن أبى ذر قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل فرأى الشمس حين غابت
فقال أتدرى يا أبا ذر أين تغرب هذه قلت الله ورسوله أعلم قال فانها تغرب فى عين حمئة وقرأ
الباقون بغير ألف بعد الحاء وبعد الميم همزة مفتوحة واتفق ان ابن عباس كان عنده معاوية
فقرأ معاوية حامية فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأ قال كما يقرأ
أمير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار وسأله كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين كذلك
نجده فى التوراة (ووجد عندها) أى عند تلك العين على الساحل المتصل بها (قوما) أى أمة قال
ابن جريج مدينة لها اثنا عشر ألف باب لولا ضجيج أهلها لسمعت وجبة الشمس حين تجب أى
تغرب قيل كان لباسهم جلود الوحش وطعامهم ما يلفظه البحر كانوا كفارا فخيره الله تعالى بين
أن يعذبهم أو يدعوهم الى الايمان كما حكى ذلك بقوله تعالى (قلنا يا ذا القرنين) اما بواسطة الملك
ان كان نبيا أو بواسطة نبى زمانه ان لم يكن أو باجتهاد فى شريعته (اما أن تعذب) بالقتل على
كفرهم (واما أن تتخذ) أى بغاية جهدك (فيهم حسنا) بالارشاد وتعليم الشرائع وقيل خيره بين
القتل والاسر وسماه حسنا فى مقابلة القتل ويؤيد الاول قوله (قال أما من ظلم) باستمراره على
الكفر فانا نرفق به حتى نيأس منه ثم نقتله والى ذلك أشار بقوله (فسوف نعذبه) بوعد لا خلف
فيه بعد طول الدعاء والترفق وقال قتادة كان يطبخ من كفر فى القدور وهو العذاب المنكر
(ثم يرد الى ربه) فى الآخرة (فيعذبه عذابا نكرا) أى شديدا جدا فى النار وتقدم فى نكرا
سكون الكاف وضمها (وأما من آمن وعمل صالحا) تصديقا لما أخبر به من تصديقه (فله)
فى الدارين (جزاء الحسنى) أى الجنة وقرأ حفص وحمزة والكسائى بفتح الهمزة بعد الزاى
منونة وتكسر فى الوصل لالتقاء الساكنين قال الفرا نصبه على التفسير أى لجهة النسبة
وقيل منصوب على الحال أى فله المثوبة الحسنى مجزيا بها والباقون بضم الهمزة من غير تنوين
فالاضافة للبيان قال المفسرون والمعنى على قراءة النصب فله الحسنى جزاء كما تقول له هذا
الثوب هبة وعلى قراءة الرفع وجهان الاول فله جزاء الفعلة الحسنى والفعلة الحسنى هى الايمان
والعمل الصالح والثانى فله جزاء المثوبة الحسنى واضافة الموصوف الى الصفة مشهورة
كقوله ولدار الآخرة وأمال ألف الحسنى حمزة والكسائى محضة وأبو عمرو بين بين وورش
بالفتح والامالة بين بين (وسنقول) بوعد لا خلف فيه بعد اختباره بالاعمال الصالحة (له) أى
لاجله (من أمرنا) اى ما نأمره به (يسرا) أى قولا غير شاق من الصلاة والزكاة والخراج
والجهاد وغيرها وهو ما يطيقه ولا يشق عليه مشقة كثيرة (ثم أتبع) لارادة طلوع مشرق
الشمس (سببا) من جهة الجنوب يوصله الى المشرق واستمر فيه لا يمل ولا تغلبه أمة مر عليها
(حتى اذا بلغ) فى مسيره ذلك (مطلع الشمس) اى الموضع الذى تطلع عليه أولا من المعمور من
الارض (وجدها تطلع على قوم) قال الجلال المحلى هم الزنج وقوله تعالى (لم نجعل لهم من
دونها) اى الشمس (سترا) فيه قولان الاول انه لا شئ لهم من سقف ولا جبل يمنع من وقوع شعاع
الشمس عليهم لان أرضهم لا تحمل بنيانا قال الرازى ولهم سروب يغيبون فيها عند طلوع الشمس
ويظهرون عند غروبها فيكونون عند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف فى المعاش وعند

خلاف تبيك (أو لنقلا
بعد ذلك منها من لا يؤمن
بها) نهى عنها وبها الساعة
والنهى ظاهرا من لا يؤمن
بها وحقيقة وهى عليه
السلام اذ المقصود نهى
موسى عن التكذيب

غروبها

العمل لله فاذا اطلع عليه سرني فقال ان الله لا يقبل ما شورك فيه فنزلت تصديقا وروى أنه قال له لك أجران أجر السر وأجر العلانية وذلك اذا قصد أن يقتدى به وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال اتقوا الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر قال الرياء وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فانا منه بريء هو للذى عمله وعن سعد بن فضالة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا جمع الله تبارك وتعالى الناس ليوم لا ريب فيه نادى منادٍ من كان يشرك فى عمل عمله لله فليطلب ثوابه منه فان الله تعالى اغنى الشركاء عن الشرك والآية جامعة لخلاصتى العلم والعمل وهما التوحيد والاخلاص فى الطاعة

•(خاتمة)• روى فى فضائل سورة الكهف أحاديث كثيرة منها ما رواه الترمذى وغيره من قرأها عند مضجعه كان له نور يتلألأ فى مضجعه الى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وان كان مضجعه بمكة كان له نور يتلألأ من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ وروى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال وقال البيضاوى وعنه عليه السلام من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورا من قرنه الى قدمه ولكن الذى رواه الامام أحمد من قرأ أول سورة الكهف كانت له نورا من قرنه الى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء وروى البغوى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قدمه الى رأسه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء فنسأل الله تعالى أن ينور قلوبنا وأبصارنا وان يغفر زلاتنا ولا يؤاخذنا بسوء أفعالنا وأن يفعل ذلك بوالدينا وأولادنا وأقاربنا وأصحابنا ومشايخنا وجميع اخواننا المسلمين وأحبابنا آمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما الى يوم الدين

التصريح رفى القصد من بكتابة مبهمة لدلالة تلك الكتابة عليها (قوله اذ اوحينا الى امك ما يوحى) ان قلت هذا مجهول فما فائدته (قلت) فائدته الاشارة الى انه ليس كل الامور مما

سورة مريم عليها السلام مكية

وهى ثمان وتسعون آية وسبعمائة واثنان وستون كلمة
وثلاثة آلاف وثمانمائة حرف وحرفان

(بسم الله) المنزه عن كل شائبة نقص القادر على كل ما يريد (الرحمن) الذى عم نواله سائر مخلوقاته (الرحيم) بسائر خلقه واختلف فى تفسير قوله تعالى (كهيعص) قال ابن عباس هو اسم من اسماء الله تعالى وقال قتادة هو اسم من اسماء القرآن وقيل هو اسم الله الاعظم وقيل هو اسم السورة وقيل قسم أقسم الله به وعن الكلبى هو ثناء أثنى الله به على نفسه وعنه معناه كاف لخلقه هاد لعباده يده فوق أيديهم عالم ببريته صادق فى وعده وعن ابن عباس قال الكاف من كريم وكبير والهاء من هاد والياء من رحيم والعين من عليم وعظيم والصاد من صادق وقيل انه من المتشابه الذى استأثر الله تعالى بعلمه وقد تقدم الكلام على

ذلك فى اول سورة البقرة وقرأ نافع بإمالة الهاء والياء بين بين وأمالهما محضة شعبة والكسائى وأمال الهاء محضة أبو عمرو وابن عامر وحمزة وللسوسى فى الياء خلاف فى الامالة محضة والفتح والباقون وهم ابن كثير وحفص بفتحهما بلا خلاف ولجميع القراء فى العين المد والتوسط وقوله تعالى (ذكر) مبتدأ محذوف الخبر تقديره مما يتلى عليكم ذكر أو خبر محذوف المبتدا تقديره المتلو ذكر أو هذا ذكر (رحمت ربك) وقوله تعالى (عبده) مفعول رحمة لانها مصدر بنى على التاء لانها دالة على الوحدة ورسمت بتاء مجرورة ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائى ووقف بالتاء على الرسم الباقون وقوله تعالى (زكريا) بيان له (تنبيه) اعلم انه تعالى ذكر فى هذه السورة قصص جملة من الانبياء الاولى هذه القصة وهى قصة زكريا فيحتمل أن المراد من قوله تعالى رحمة ربك أنه عنى عبده زكريا ثم فى كونه رحمة وجهان أحدهما انه يكون رحمة على أمته لانه هداهم الى الايمان والطاعة والثانى أن يكون رحمة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لان الله تعالى لما شرع له صلى الله عليه وسلم طريقته فى الاخلاص والابتهال فى جميع الامور الى الله تعالى صار ذلك لطفا داعيا له ولامته الى تلك الطريقة فكان زكريا رحمة ويحتمل ان يكون المراد أن هذه السورة فيها ذكر الرحمة التى رحم بها عبده زكريا (اذ نادى ربه نداء) مشتملا على دعاء (خفيا) اى سرا جوف الليل لانه أسرع الى الاجابة وان كان الجهر والاخفاء عند الله سيان ٣ وقيل اخفاه لئلا يلام على طلب الولد فى زمن الشيخوخة وقيل أسره من مواليه الذين خافهم وقيل خفت صوته لضعفه وهرمه كما جاء فى صفة الشيخ صوته خفات وسمعه تارات (فان قيل) من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين كونه نداء وخفيا (أجيب) بوجهين الاول انه أتى بأقصى ما قدر عليه من رفع الصوت الا ان صوته كان ضعيفا لنهاية ضعفه بسبب الكبر فكان نداء نظرا الى القصد خفيا نظرا الى الواقع الثانى أنه دعا فى الصلاة لان الله تعالى أجابه فى الصلاة لقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك وكون الاجابة فى الصلاة يدل على كون الدعاء فيها فيكون النداء فيها اخفاء (تنبيه) فى ناصب اذ ثلاثة أوجه أحدها انه ذكر ولم يذكر الا هو فى غيره والثانى رحمة ولم يذكر الجلال المحلى غيره وذكر الوجهين أبو البقاء والثالث أنه بدل من زكريا بدل اشتمال لان الوقت مشتمل عليه ثم كأنه قيل ماذا النداء فقيل (قال رب) بحذف الاداة للدلالة على غاية القرب (انى وهن) اى ضعف جدا (العظم منى) اى هذا الجنس الذى هو اقوى ما فى بدنى ولو جمع لاوهم انه وهن مجموع عظامه لا جميعها وقوله (واشتعل الرأس) اى منى (شيبا) تمييز محول عن الفاعل اى انتشر الشيب فى شعره كما ينتشر شعاع النار فى الحطب وانى اريد ان ادعوك (ولم اكن بدعائك) اى بدعائى اياك (رب شقيا) اى خائبا فيما مضى فلا تخيبنى فيما يأتى وان كان ما ادعو به فى غاية البعد فى العادة لكنك فعلت مع ابى ابراهيم مثله فهو دعاء وشكر واستعطاف ثم عطف على قوله انى وهن قوله (وانى خفت الموالى) اى الذين يلوننى فى النسب كبنى العم أن يسيئوا الخلافة (من ورائى) أى فى بعض الزمان الذى بعدى (وكانت امرأتى عاقرا) لا تلد أصلا بما دل عليه فعل الكون

بوحى الى الثناء كالنبوة ونحوها او التعظيم والتفخيم آولا كما فى قوله تعالى فغشاها ما غشى والبيان ثانيا كقوله تعالى ان اقذفيه الآية (قوله ثم رجعنا الى اه) قاله هنا بلفظ الرجع وقال

٣ قوله سيان هكذا بالاصول ولعله على لغة من يلزم المثنى الالف أو يجعل كان شانية والجملة خبرها اه مصححه

(فهب لى) اى فتسبب عن شيخوختى وضعفى وتعويدك لى بالاجابة وخوفى من سوء خلافة أقاربى ويأسى عن الولد عادة بعقم امرأتى وبلوغى من الكبر حد الاحرالذى معه أنى أقول لك ياقادرعلى كل شئ هب لى (من لدنك) اى من الامور المستبطنة المستغربة التى عندك لم تجرها على مناهج العادات والاسباب المطردات (وليا) اى ابنا من صلبى (يرثنى) فى جميع ماأنا فيه من العلم والنبوة والعمل (ويرث) زيادة على ذلك (من آل يعقوب) جزائهم ماخصصتهم به من المنح وفضلتهم به من النعم ومحاسن الاخلاق ومعالى الشيم فان الانبياء لايورثون المال وقيل يرثنى الحبورة أى العلم بتحبير الكلام وتحسينه فانه كان حبرا هو بالفتح والكسر وهو أفصح يقال للعالم بتحبير الكلام وتحسينه وهو يعقوب بن اسحق عليهما السلام وقيل يرثنى العلم ويرث من آل يعقوب النبوة ولفظ الارث يستعمل فى المال وفى العلم والنبوة أما فى المال فلقوله تعالى وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأما فى النبوة فلقوله تعالى وأورثنا بنى اسرائيل الكتاب الآية وقال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء ولان الانبياء لم يورثوا دينارا ولادرهما وانما ورثوا العلم وخص اسم يعقوب اقتداء به نفسه اذ قال ليوسف عليه السلام ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ولان اسرائيل قد صار علما على الاسباط كلهم وكانت قد غلبت عليهم الاحداث وقرأ أبو عمرو والكسائى بجزم الثاء المثلثة فيهما على أنهما جواب الامر اذ تقديرهما ان تهب يرث والباقون بالضم فيهما على انهما صفة (واعترض) بان زكريا دعا الله تعالى ان يهبه ولدا يرثه مع أن يحيى قتل قبله فلم يجبه الى ارثه منه (وأجيب) بان اجابة دعاء الانبياء غالبة لا لازمة فقد يتخلف لقضاء الله تعالى بخلافه كما فى دعاء ابراهيم عليه السلام فى حق أبيه وكما فى دعاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله وسألته ان لايذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها ولما كان من قضاء الله تعالى وقدره أن يوجد يحيى نبيا صالحا ثم يقتل استجيب دعاء زكريا فى ايجاده دون ارثه * ولما ختم دعاءه بقوله (واجعله رب) اى ايها المحسن الى (رضيا) اى مرضيا عندك اجابه الله تعالى بقوله تعالى (يازكريا انا نبشرك بغلام) يرث كما سألت ثم (اسمه يحيى) وقرأ حمزة بفتح النون وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم النون وفتح الموحدة وكسر الشين مشددة وكذلك فى آخر السورة *(تنبيه)* يحيى اسم اعجمى ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة وقيل منقول من الفعل المضارع كما سموا بيعمر وانما تولى تعالى تسميته تشريفا له قال تعالى (لم نجعل له من قبل سميا) اى مسمى بيحيى قال قتادة والكلبى لم يسم احد قبله بيحيى *(تنبيه)* سميا مأخوذ من السمو وفيه دلالة لقول البصريين ان الاسم من السمو ولو كان من الوسم لقيل وسيما وقال سعيد بن جبير وعطاء لم نجعل له شبها ومثلا كما قال تعالى هل تعلم له سميا اى مثلا والمعنى انه لم يكن له مثل لانه لم يعص ولم يهم بمعصية قط ورد هذا لان هذا يقتضى تفضيله على الانبياء قبله كابراهيم وموسى وليس كذلك وقيل لم يكن له ميل الى أمر النساء لانه كان سيدا وحصورا وعن ابن عباس لم تلد العواقر مثله ولدا ثم كأنه قيل فما قال فى جواب هذه البشارة العظيمة فقيل (قال) عالما بصدقها طالبا لتأكيدها والتلذذ بترديدها بهل ذلك من امرأته

فى القصص فرددناه بلفظ الرد لانهما وان اتحدا معنى لكن خص الرجع بما هنا لخفة ثقل الرجع خفة القاف وثقل الرجع ثقل الرد بالقصص خفة الكاف والرد بالقصص لثقل ضمة القاف وخفة الرد لثقل ضمة الهاء وليوافق قوله انا رادوه

قوله يرث كما سألت هذا يناقض ما قدمه من أنه لم يجب الى ارثه لتخلفه بكونه قتل قبل والده وعبارة العلامة الجلال قوله يرث كما سألت قد يستشكل بانه سأل ولدا يرث منه ولم يفعل ذلك لقتل يحيى فى حياة زكريا والجواب ان المراد وراثة العلم والنبوة ولو فى حياة زكريا ثم ذكر الجواب الذى تقدم فى الشرح اه

أو من غيرها وهل اذا كان منها يكونان على حالتيهما من الكبر أو غيرهما غير طائش ولا عجل (رب) أيها المحسن الى باجابة الدعاء دائما (أنى) اى من أين وكيف وعلى أى حال (يكون لى غلام) يولد لى فى غاية القوة والنشاط والكمال فى الذكورة (وكانت) اى والحال انه كانت (امرأتى) اذ كانت شابة (عاقرا) غير قابلة للولد وأنا وهى شابان فلم يأتنا ولد لاختلال أحد السببين فكيف بها وقد أيست قال الجلال المحلى بلغت ثمانيا وتسعين سنة (وقد بلغت) انا (من الكبر عتيا) من عتا يبس أى نهاية السن قال الجلال المحلى مائة وعشرين سنة وبما تقرر سقط ما قيل لم تعجب زكريا عليه السلام بقوله أنى يكون لى غلام مع أنه هو الذى طلب الغلام وقرأ حفص وحمزة والكسائى عتيا وصليا وجثيا بكسر عين الاول وصاد الثانى وجيم الثالث وضم الباقون وأما بكيا فكسر الباء الموحدة حمزة والكسائى وضمها الباقون وأصل عتى عتوو وكسرت التاء تخفيفا وقلبت الواو الاولى ياء لمناسبة الكسرة والثانية ياء لتدغم فيها وانما استعجب للولد من شيخ فان وعجوز عاقر اعترافا بان المؤثر فيه كمال القدرة وان الوسايط عند المحققين ملغاة ولذلك (قال) اى الله تعالى كما قال الاكثرون لان زكريا انما كان يخاطب الله ويسأله بقوله رب انى وهن العظم منى أو الملك المبلغ للبشارة تصديقا له لقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى وأيضا فانه لما قال وقد بلغت من الكبر عتيا قال (كذلك) اى الامر كذلك فهو خبر مبتدإ محذوف ثم علله بقوله (قال ربك) اى الذى عودك بالاحسان فدل ذلك على أنه كلام الملك قال ابن عادل ويمكن أن يجاب بانه يحتمل أن يحصل النداآن نداء الله تعالى ونداء الملك ثم ذكر مقول القول فقال (هو) اى خلق يحيى منكما على هذه الحالة (على) اى خاصة (هين) اى بان أرد عليك قوة الجماع وافتق رحم امرأتك للعلوق (وقد خلقتك) اى قدرتك وصورتك وأوجدتك (من قبل ولم) اى والحال أنك لم (تك شيأ) بل كنت معدوما صرفا وفيه دليل على ان المعدوم ليس بشئ ولاظهار الله تعالى هذه القدرة العظيمة ألهمه السؤال ليجاب بما يدل عليها وقرأ حمزة والكسائى بعد القاف بنون بعدها الف والباقون بعد القاف بتاء مضمومة ولما تاقت نفسه الى سرعة المبشر به (قال رب اجعل لى) على ذلك (آية) اى علامة تدلنى على وقوعه (قال آيتك) على وقوع ذلك (الا تكلم الناس) اى لاتقدر على كلامهم بخلاف ذكر الله تعالى (ثلاث ليال) اى بأيامها كما فى آل عمران ثلاثة أيام حال كونك (سويا) من غير خرس ولا مرض وجعلت الآية الدالة عليه سكوت ثلاثة ايام ولياليهن من غير ذكر الله دلالة على اخلاصه وانقطاعه بكليته الى الله تعالى دون غيره (فخرج) عقب اعلام الله تعالى له بهذا (على قومه من المحراب) اى من المسجد وهم ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخلوا ويصلوا اذ خرج اليهم متغيرا لونه فأنكروه وهو منطلق اللسان بذكر الله تعالى منقبض عن كلام الناس فقالوا ما لك يا نبى الله (فأوحى اليهم) اى اشار بشفتيه من غير نطق وقال مجاهد كتب لهم فى الارض (ان سبحوا) اى اوجدوا التنزيه والتقديس لله تعالى بالصلاة وغيرها (بكرة وعشيا) اى أوائل النهار وأواخره على العادة فعلم بمنعه من كلامهم حمل امرأته بيحيى قال الجلال المحلى وبعد ولادته بسنتين قال الله

تعالى

قوله وسلاماً لكم فيها الخ (قوله وسلام) قاله هنا بلفظ سلام وقاله فى الزخرف بلفظ جعل لان لفظ السلوك مع السبل أكثر استعمالا من جعل فخص به طه لتقدمها

تعالى له (يا يحيى خذ الكتاب) أى التوراة (بقوة) أى بجد ثم ان الله تعالى وصفه بصفات * الاولى قوله تعالى (وآتيناه الحكم) قال ابن عباس النبوة (صبيا) قال الجلال المحلى وهو ابن ثلاث سنين أى أحكم الله عقله فى صباه واستنبأه وقيل المراد بالحكم الحكمة وفهم التوراة فقرأ التوراة وهو صغير قال البغوى وعن بعض السلف من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو ممن أوتى الحكم صبيا * الصفة الثانية قوله تعالى (وحنانا) أى وآتيناه رحمة وهيبة ووقارا ورقة قلب ورزقا وبركة (من لدنا) أى من عندنا بلا واسطة تعليم ولا تجربة * الصفة الثالثة قوله تعالى (وزكاة) أى وآتيناه طهارة فى دينه قال ابن عباس يعنى بالزكاة الطاعة والاخلاص وقال قتادة هى العمل الصالح وقال الكلبى يعنى صدقة تصدق الله بها على أبويه * الصفة الرابعة قوله تعالى (وكان) أى جبلة وطبعا (تقيا) أى مخلصا مطيعا وروى أنه لم يعمل خطيئة ولم يهم بها * الصفة الخامسة قوله تعالى (وبرا بوالديه) أى بارا لطيفا بهما محسنا اليهما لانه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى أعظم من بر الوالدين يدل عليه قوله تعالى وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا * الصفة السادسة قوله تعالى (ولم يكن جبارا) أى متكبرا والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب وذلك من صفات المؤمنين قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم واخفض جناحك للمؤمنين وقال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ولان رأس العبادة معرفة الانسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال ومن عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به التجبر والترفع ولذلك لما تجبر ابليس وتمرد صار مبعدا عن رحمة الله تعالى وعن المؤمنين وقيل الجبار هو الذى لا يرى لاحد على نفسه حقا وهو من التعظيم والذهاب بنفسه من أنه لا يلزمه قضاء حق لاحد وقيل هو كل من عاقب على غضب نفسه * الصفة السابعة قوله تعالى (عصيا) أى عاقا أو عاصى ربه وهو أبلغ من العاصى كما أن العليم أبلغ من العالم * الصفة الثامنة قوله تعالى (وسلام عليه) منا (يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) * فان قيل لم خص هذه الاوقات الثلاثة (أجيب) بوجوه الاول قال محمد بن جرير الطبرى وسلام عليه يوم ولد أى أمان من الله تعالى عليه يوم ولد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بنى آدم ويوم يموت أى أمان من الله من عذاب القبر ويوم يبعث أى ومن عذاب الله يوم القيامة الثانى قال ابن عيينة أوحش ما يكون الخلق فى ثلاثة مواطن يوم ولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه ويوم يموت فيرى قوما ما شاهدهم قط ويوم يبعث فيرى فى محشر عظيم فأكرم الله تعالى يحيى عليه السلام فخصه بالسلام فى هذه المواطن الثالث قال عبد الله بن نفطويه وسلام عليه يوم ولد أى أول ما يرى فى الدنيا ويوم يموت أى أول يوم يرى فيه أمر الآخرة ويوم يبعث حيا أى أول يوم يرى فيه الجنة والنار وهو يوم القيامة وانما قال حيا تنبيها على كونه من الشهداء لانه قتل وقد قال تعالى أحياء عند ربهم يرزقون * (فروع) * الاول هذا السلام يمكن أن يكون من الله وأن يكون من الملائكة وعلى التقديرين ففيه دلالة على تشريفه لان الملائكة لا يسلمون الا عن أمر الله تعالى * الثانى ليحيى مزية فى هذا السلام على ما لسائر الانبياء لقوله تعالى سلام على نوح سلام على ابراهيم لانه تعالى قال يوم ولد وليس

ويجعل الزخرف ليوافق التعبير به قبل مرة وبعد مرارا (قوله قالوا آمنا برب هرون وموسى) أخر موسى عن هرون مع ان هرون كان وزيرا له لموافقة الفواصل (قوله لا يموت

كذلك سائر الانبياء الثالث روى ان عيسى عليه السلام قال ليحيى عليه السلام أنت أفضل مني لان الله تعالى قال سلام عليه وأنا سلمت على نفسي قال الرازي وهذا ليس بقوي لان سلام عيسى على نفسه يجري مجرى سلام الله تعالى على يحيى لان عيسى معصوم لا يفعل الا ما أمر الله تعالى انتهى ولكن بين السلامين مزية ‌* (تنبيه) * هذه القصة قد ذكرت في آل عمران بقوله تعالى كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا الى أن قال هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء فنادته الملائكة وهو قائم لان زكريا عليه السلام لما رأى خرق العادة في حق مريم طمع في حق نفسه فدعا وقد وقعت المخالفة في ذكرها هنا وهنالك في الالفاظ من وجوه الاول منها ان الله تعالى صرح في آل عمران بان المنادي هو الملائكة بقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب وفي هذه السورة الاكثر على أن المنادي بقوله تعالى يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى هو الله تعالى (وأجيب) بان الله تعالى هو المبشر سواء كان بواسطة أم لا الثاني انه قال تعالى في آل عمران أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر فذكر أولا كبر سنه ثم عقر امرأته وفي هذه السورة قال أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا وأجيب بان الواو لا تقتضي الترتيب الثالث قال في آل عمران وقد بلغني الكبر وقال هنا وقد بلغت من الكبر عتيا وأجيب بان ما بلغك فقد بلغته الرابع قال في آل عمران آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة ايام الا رمزا وقال هنا ثلاث ليال سويا وأجيب بان الآيتين دلتا على ان المراد ثلاثة أيام بلياليهن كما مر * القصة الثانية قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام ولما كانت قصة عيسى عليه السلام أغرب من قصة يحيى لان خلق الولد من شخصين فانيين أقرب الى مناهج العادات من خلق الولد لا من أب البتة وأحسن طرق التعليم والفهم الاخذ من الاقرب فالاقرب مرتقيا الى الاصعب فالاصعب أشار الى ذلك بتغيير السياق فقال عاطفا على ما تقديره اذكر هذا لهم (واذكر) بلفظ الامر (في الكتاب) أي القرآن (مريم) أي قصتها وهي ابنة عمران خالة يحيى كما في الصحيح من حديث أنس بن مالك بن صعصعة الانصاري في حديث الاسراء فلما خلصت فاذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة ثم أبدل من مريم بدل اشتمال فقال (اذ) أي اذكر ما اتفق لها حين (انتبذت) أي كانت تقصمها أن اعتزلت وانفردت (من أهلها) حالة (مكانا شرقيا) أي شرقي بيت المقدس وقال الرازي شرقي دارها وعن ابن عباس اني لأعلم خلق الله تعالى لاي شيء اتخذت النصارى الشرق قبلة لقوله تعالى مكانا شرقيا فاتخذت ميلاد عيسى قبلة واقتصر الجلال المحلي على الشرق من الدار وتردد البيضاوي بينهما فقال شرقي بيت المقدس أو شرقي دارها انتهى ويحتمل أن يكون شرقي بيت المقدس هو شرقي دارها فلا مخالفة (فاتخذت) أي اتخذت بقصد وتكلف ودل على قرب المكان بالاتيان بالجار فقال (من دونهم) اي أدنى مكان من مكانهم (حجابا) اي أرسلت سترا تستتر به لغرض صحيح وليس بمذكور واختلف المفسرون فيه على وجوه أحدها أنها طلبت الخلوة كيلا تشتغل عن العبادة ثانيها انها عطشت فخرجت الى المفازة تستقي ثالثها انها كانت في منزل زوج اختها

فيها ولا يحيى) أي لا يموت فيها موتا متصلا ولا يحيى حياة متصلة بل كلما مات من شدة العذاب أعيد حيا ليدوم العذاب وانما قرر ذلك لان الموت والحياة

زكريا وفيه محراب على حدة تسكنه وكان زكريا اذا خرج أغلق عليها الباب فتمنت ان تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها فانفجر السقف لها فخرجت فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك كما قال تعالى (فأرسلنا) لامر يدل على عظمتنا (اليها روحنا) اى جبريل عليه السلام ليعلمها بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب لئلا يشتبه عليها الامر فتقتل نفسها غما (فتمثل لها) اى تشبح بشين معجمة ثم باء موحدة ثم حاء مهملة وهو روحاني بصورة الجسماني (بشرا سويا) في خلقه حسن الشكل رابعها أنها قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بشئ يسترها وكانت تتحول من المسجد الى بيت خالتها اذا حاضت وتعود اليه اذا طهرت فبينما هي في مغتسلها أتاها جبريل بعد لبسها ثيابها متمثلا بصورة شاب أمرد سوي الخلق تستأنس بكلامه اذ لو أتاها في الصورة الملكية لنفرت منه ولم تقدر على استماع كلامه قال البيضاوي ولعله لتهيج شهوتها فتنحدر نطفتها الى رحمها اى مع أمنها الفتنة لعفتها قال الرازي وكل هذه الوجوه محتملة وليس في اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها ولما رأت مريم جبريل نحوها (قالت انى أعوذ) اى أعتصم (بالرحمن) ربي الذي رحمته عامة لجميع خلقه (منك) اى أن تقربني وفتح ياء انى نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون وهم على مراتبهم في المد لما تفرست فيه بما أنار الله تعالى من بصيرتها وأصفى من سريرتها التقوى قالت (ان كنت تقيا) اى مؤمنا مطيعا وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله اى فاني عائذة منك أو نحو ذلك دل تعوذها من تلك الصورة الحسنة على عفتها وورعها (فان قيل) انما يستعاذ من الفاجر فكيف قالت ان كنت تقيا (أجيب) بان هذا كقول القائل ان كنت مؤمنا فلا تظلمني اى ينبغي أن يكون ايمانك مانعا لك من الظلم كذلك هنا ينبغي أن تكون تقواك مانعة لك من الفجور وهذا في نهاية الحسن لانها علمت أنه لا تؤثر الاستعاذة الا في التقي وهو كقوله تعالى وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين اى ان شرط الايمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يخشى في حال دون حال وقيل كان في ذلك الزمان انسان فاجر يتبع النساء اسمه تقي فظنت مريم ان ذلك الشخص المشاهد هو ذلك فاستعاذت منه قال الرازي والاول هو الوجه ولما علم جبريل عليه الصلاة والسلام خوفها (قال) مجيبا لها بما معناه انى لست ممن تخشين أن يكون متهما كذا الاجل استعاذتها (انما انا رسول ربك) اى الذي عذت به فانالست متهما بل متصف بما ذكرت وزيادة الرسالة وعبر باسم الرب المقتضي للاحسان لطفا بها ولان هذه السورة مصدرة بالرحمة ومن أعظم مقاصدها تعداد النعم على خلص عباده وقوله (ليهب لك) قرأ ورش وأبو عمرو وقالون بخلاف عنه بالياء اى ليهب الله تعالى لك وقرأ الباقون بالهمز أى لاهب انا لك وفي مجازه وجهان الاول أن الهبة لما جرت على يديه بان كان هو الذي ينفخ في جيبها بامر الله تعالى جعل نفسه كأنه هو الذي وهب لها واضافة الفعل الى من هو سبب مستعمل قال الله تعالى في الاصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس الثاني أن جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة ثم بين الموهوب بقوله (غلاما) اى ولدا ذكرا في غاية القوة والرجولية ثم وصفه بقوله (زكيا) اى نبيا طاهرا من كل ما يدنس البشر ناميا على الخير والبركة (قالت) مريم (انى) اى من أين

لا يرتفعان عن الشخص (قوله لا تخاف دركا ولا تخشى) اى لا تخاف ادراك فرعون ولا تخشى غرقا في البحر والا فالخوف والخشية مترادفان وغايرتهما لفظا

وكيف (يكون لي غلام) ابنه (ولم يمسسني بشر) بنكاح (ولم الئ بغيا) أي زانية فتعجبت مما بشرها به جبريل عليه السلام لانها قد عرفت بالعادة أن الولادة لاتكون الامن رجل والعادة عند أهل المعرفة معتبرة في الامور وان جوزوا خلاف ذلك في القدرة فليس في قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر على هذا الحد ولانها كانت منفردة للعبادة ومن يكون كذلك لابد أن يعرف قدرة الله تعالى على ذلك وبما تقرر سقط ماقيل قولها ولم يمسسني بشر يدخل تحته قولها ولم ألئ بغيا ولهذا اقتصر عليه في سورة آل عمران بقولها قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر فلم تذكر البغي ويجوز أن يقال انها أفردت ذكر البغي مع دخوله في الكلام الاول لانه أعظم مافي بابه فهو نظيرة قوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال (قال) لها جبريل عليه السلام الامر (كذلك) من خلق غلام منك بغير أب ولما كان لسان الحال قائلا كيف يكون بغير سبب أجاب جبريل بقوله (قال ربك هو) أي المذكور وهو ايجاد الولد على هذه الهيئة (على) وحدي لايقدر عليه غيري (هين) أي بان ينفخ بامري جبريل فيك فتحملي به ولنكون ماذكر في معنى العلة عطف عليه (ولنجعله) بمالنا من العظمة (آية للناس) أي علامة على كمال قدرتنا على البعث أدل من الآية في يحيى عليه السلام وبه تمام القسمة الرباعية في خلق البشر فانه أوجده من أنثى بلا ذكر وحواء من ذكر بلا أنثى وآدم عليه السلام لامن ذكر ولا أنثى وبقية أولاده من ذكر وأنثى معا (ورحمة منا) على العباد يهتدون به (وكان) ذلك كله (أمرا مقضيا) به في علي وقوله تعالى (فحملته) فيه حذف تقديره فنفخنا فيها فحملته دل على ذلك قوله تعالى في سورة التحريم ومريم ابنة عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا واختلف في النافخ فقال بعضهم كان النفخ من الله تعالى لهذه الآية ولانه تعالى قال ان مثل عيسى عند الله كمثل ادم ومقتضى التشبيه حصول المشابهة الافيما أخرجه الدليل وفي حق آدم النافخ هو الله تعالى قال تعالى فنفخت فيه من روحي فكذا ههنا وقال بعضهم النافخ جبريل لان الظاهر من قول جبريل عليه السلام لاهب لك على أحد القراءتين أنه النافخ واختلف في كيفية نفخه فقيل ان جبريل عليه السلام رفع درعها فنفخ في جيبها فحملت حين لبسته وقيل مد الى جيب درعها أصابعه ونفخ في الجيب وقيل نفخ في كم قميصها وقيل في فيها وقيل نفخ جبريل نفخا من بعيد فوصل النفخ اليها فحملت بعيسى في الحال وقيل نفخ في ذيلها فدخلت النفخة في صدرها فحملت فجاءت أختها امرأة زكريا تزورها فلما التزمتها عرفت أنها حبلى وذكرت مريم حالها فقالت امرأة زكريا اني وجدت مافي بطني يسجد لما في بطنك فذلك قوله تعالى مصدقا بكلمة من الله وقيل حملت وهي بنت ثلاث عشرة سنة وقيل بنت عشرين وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل قال الرازي وليس في القرآن مايدل على شيء من هذه الاقوال المذكورة * ثم عقب بالحمل قوله (فانتبذت به) أي فاعتزلت به وهو في بطنها حالة (مكانا قصيا) أي بعيدا من أهلها أو من المكان الشرقي وأشار الى قرب الولادة من الحمل بفاء التعقيب في قوله (فأجاءها) أي فالجأها وألجاها (المخاض) وهو تحرك الولد في بطنها للولادة

(قوله واضل فرعون قومه وماهدى) ان قلت مدرده يغني عن عجزه فكيف ذكر العجز (قلت) رعاية للبلاغة المعنى وماهداهم بعد ما اضلهم فان المضل قد يهدي بعد اضلاله اوماهدى

(الى جذع النخلة) وهو ما برز منها من الارض ولم يبلغ الاغصان وكان تعريفها لانه لم يكن فى تلك البلاد الباردة غيرها فكانت كالعلم لما فيها من العجب لان النخل من أقل الاشجار صبرا على البرد ولعلها ألجئت اليها دون غيرها من الاشجار على كثرتها لمناسبة حال النخلة لها لانها لا تحمل الا باللقاح من ذكر النخل فحملها بمجرد هزها أنسب شئ باتيانها بولد من غير والد فيكف اذا كان ذلك فى غير وقته وكانت يابسة مع مالها فيها من المنافع بالاستناد اليها والاعتماد عليها وكون رطبها خرسة للنفساء وغاية فى نفعها وغير ذلك والخرسة بخاء معجمة مضمومة طعام النفساء وهو مراد الجوهرى بقوله طعام الولادة قال ابن عباس الحمل والولادة فى ساعة واحدة وقيل ثلاث ساعات حملته فى ساعة وصور فى ساعة ووضعته فى ساعة حين زالت الشمس من يومها وقيل كانت مدته تسعة أشهر كحمل سائر النساء وقيل كانت مدة حملها ثمانية أشهر وذلك آية اخرى له لانه لا يعيش من ولد لثمانية أشهر وولد عيسى لهذه المدة وعاش وقيل ولدت لستة أشهر ولما كان ذلك أمرا صعبا عليها جدا كان كأنه قيل يا ليت شعرى ما كان حالها فقيل (قالت) لما حصل عندها من خوف العار (ياليتنى مت) وأشارت الى استغراق الزمان بالموت بمعنى عدم الوجود فقالت من غير جار (قبل هذا) اى الامر العظيم وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى مت بكسر الميم والباقون بالضم (وكنت نسيا) اى شيأ من شأنه أن يطرح وينسى (منسيا) اى متروكا بالفعل لا يخطر على بال (فان قيل) لم قالت ذلك مع أنها كانت تعلم ان الله تعالى بعث جبريل عليه السلام اليها ووعدها بان يجعلها وولدها آية للعالمين (أجيب) عن ذلك باجوبة الاول أنها تمنت ذلك استحياء من الناس فانساها الاستحياء بشارة الملائكة بعيسى الثانى أن عادة الصالحين اذا وقعوا فى بلاء أن يقولوا ذلك كما روى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه نظر الى طائر على شجرة فقال طوبى لك يا طائر تقع على الشجر وتاكل من الثمر وددت أنى ثمرة ينقرها الطائر وعن عمر رضى الله عنه أنه اخذ تبنة من الارض فقال ياليتنى هذه التبنة ولم اكن شيأ وعن على رضى الله عنه يوم الجمل ليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة وعن بلال ليت بلالا لم تلده امه فثبت ان هذا الكلام يذكره الصالحون عند اشتداد الامر عليهم الثالث لعلها قالت ذلك لئلا يقع فى المعصية من يتكلم فيها والا فهى راضية بما بشرت به وقرأ حفص وحمزة نسيا بفتح النون والباقون بالكسر وقوله تعالى (فناداها من تحتها) قرأه نافع وحفص وحمزة بكسر من وجر التاء من تحتها والباقون بفتح من ونصب تحتها وأمال الف ناداها حمزة والكسائى امالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وفى المنادى اوجه احدها انه عيسى عليه السلام وهو قول الحسن وسعيد بن جبير ثانيها انه جبريل عليه السلام وانه كالقابلة للولد ثالثها ان المنادى على القراءة بالفتح هو عيسى وعلى القراءة بالكسر هو جبريل وهو مروى عن ابن عيينة وعاصم قال الرازى والاول اقرب وصدر به البيضاوى واقتصر الجلال المحلى على الثانى والمعنى على الاول ان الله تعالى انطقه لها حين ولدته تطييبا لقلبها وازالة للوحشة عنها حتى تشاهد فى اول الامر ما بشرها به جبريل من علو شان ذلك الولد وعلى الثانى ان الله تعالى ارسله اليها ليناديها بهذه الكلمات كما ارسل اليها فى اول الامر تذكيرا للبشارات المتقدمة والضمير فى تحتها للسيدة مريم وعلى تقدير ان يكون المنادى هو

نفسه أو اضلهم عن الدين وما هداهم طريقا فى البحر (قوله يا بنى اسرائيل قد انجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن) ان قلت المواعدة انما كانت لموسى عليه

عيسى فهو ظاهر وان كان جبريل فقيل انه كان تحتها يقبل الولد كالقابلة وقيل تحتها اسفل من مكانها وقيل الضمير فيه للنخلة اى ناداها من تحتها (أن لا تحزنى) يجوز فى أن ان تكون مفسرة لتقدمها ما هو بمعنى القول ولا على هذا ناهية وحذف النون للجزم وأن تكون الناصبة ولا حينئذ نافية وحذف النون للنصب ومحل أن اما نصب او جر لانها على حذف حرف الجر أى فناداها بكذا (قد جعل ربك) اى المحسن اليك (تحتك) فى هذه الارض التى لا ماء جار فيها (سريا) اى جدولا من الماء تطيب به نفسك قال الرازى اتفق المفسرون الا الحسن وعبد الرحمن بن زيد أن السرى هو النهر والجدول سمى بذلك لان الماء يسرى فيه واما الحسن وابن زيد فانهما جعلا السرى هو عيسى والسرى هو النبيل الجليل يقال فلان من سروات قومه اى اشرافهم واحتج من قال هو النهر بان النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن السرى فقال هو الجدول وبقوله تعالى فكلى واشربى فدل على أنه النهر حتى يضاف الماء الى الرطب فتأكل وتشرب واحتج من قال انه عيسى بان النهر لا يكون تحتها بل الى جنبها ولا يجوز أن يجاب عنه بان المراد انه جعل النهر تحت أمرها يجرى بامرها ويقف بامرها كقول فرعون وهذه الانهار تجرى من تحتى لان هذا حمل للفظ على مجازه ولو حملناه على عيسى لم يحتج الى هذا المجاز وأيضا فانه موافق لقوله وجعلنا ابن مريم وأمه آية (وأجيب) بان المكان المستوى اذا كان فيه مبدأ معين فكل من كان أقرب منه كان فوق وكل من كان أبعد منه كان تحت * (تنبيه) * اذا قيل بان السرى هو النهر ففيه وجهان الاول قال ابن عباس ان جبريل ضرب برجله الارض وقيل عيسى فظهر عين ماء عذب وجرى وقيل كان هناك ماء جار قال ابن عادل والاول أقرب لان قوله قد جعل ربك تحتك سريا يدل على الحدوث فى ذلك الوقت ولان الله تعالى ذكره تعظيما لشأنها وقيل كان هناك نهر يابس أجرى الله فيه الماء وحييت النخلة اليابسة وأورقت وأثمرت وأرطبت قال أبو عبيدة والفراء السرى هو النهر مطلقا وقال الاخفش هو النهر الصغير (وهزى اليك) اى أوقعى الهز وهو جذب بتحريك (بجذع النخلة) اى التى انت تحتها مع يبسها وكون الوقت ليس وقت حملها (تساقط عليك) من أعلاها (رطبا جنيا) طريا آية أخرى عظيمة روى أنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر وكان الوقت شتاء فهزتها فجعل الله تعالى لها رأسا وخوصا ورطبا وقرأ حمزة بفتح التاء والسين مخففة وفتح القاف وحفص بضم التاء وفتح السين مخففة وكسر القاف والباقون بفتح التاء وتشديد السين مفتوحة وفتح القاف * (تنبيه) * الباء فى بجذع زائدة والمعنى هزى اليك جذع النخلة كما فى قوله تعالى ولا تلقوا بايديكم قال الفراء تقول العرب هزه وهز به وخذ الخطام وخذ بالخطام وزوجتك فلانة وبفلانة وقال الاخفش يجوز أن يكون على معنى هزى اليك رطبا بجذع النخلة اى على جذعها ورطبا تمييز وجنيا صفته والرطب اسم جنس لرطبة بخلاف تخم فانه جمع لتخمة والفرق أنهم التزموا تذكيره فقالوا هو الرطب وتأنيث ذلك فقالوا هى التخم فذكروا الرطب باعتبار الجنس وأنثوا التخم باعتبار الجمعية قال ابن عادل وهو فرق لطيف والرطب ما قطع قبل يبسه وجفافه وخص الرطب بالذكر قال الربيع بن خثيم ما للنفساء عندى خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل وهذه الافعال الخارقة للعادة كرامات

السلام لا لهم فكيف
اضيفت اليهم (قلت) لما
كانت لا تزال كتاب بلا بسم *
اذ فيه صلاح دنياهم
واخراهم اضيفت اليهم
لهذه الملابسة (قوله وما
أعجلك عن قومك يا موسى)

لمريم أو ارهاص لعيسى وفى ذلك تنبيه على أن من قدر أن يثمر النخلة اليابسة فى الشتاء قدر أن يحبلها من غير فحل وتطييب لنفسها فلذلك قال (فكلى) اى من الرطب (واشربى) من السرى أو كلى من الرطب واشربى من عصيره (وقرى عينا) اى وطيبى نفسك وارفضى عنها ما أحزنها وقدم الاكل على الشرب لان حاجة النفساء الى الرطب أشد من احتياجها الى شرب الماء لكثرة ما سال منها من الدم (فان قيل) ان مضرة الخوف أشد من مضرة الجوع والعطش لان الخوف ألم الروح والجوع ألم البدن وألم الروح أقوى من ألم البدن روى انه أجيعت شاة فقدم اليها العلف وعندها ذئب فبقيت الشاة مدة مديدة لا تتناول العلف مع جوعها خوفا من الذئب ثم كسر رجلها وقدم اليها العلف فتناولت العلف مع ألم البدن فدل ذلك على ان ألم الخوف أشد من ألم البدن واذا كان كذلك فلم قدم ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف (أجيب) بان هذا الخوف كان قليلا لان بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت فما كانت تحتاج الا الى التذكير مرة أخرى وقيل قرى عينا بولدك عيسى وقيل بالنوم فان المهموم لا ينام وقوله (فاما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما الزائدة (ترين) حذفت منه لام الفعل وعينه وألقيت حركتها على الراء وكسرت ياء الضمير لالتقاء الساكنين (من البشر أحدا) ينكر عليك (فقولى) يا مريم لذلك المنكر جوابا له مع التأكيد تنبيها على البراءة لان البرىء يكون ساكنا لاطمئنانه والمرتاب يكثر كلامه وحلفه (انى نذرت للرحمن) اى الذى عمت رحمته (صوما) اى اى امساكا عن الكلام فى شأنه وغيره مع الاناسى بدليل (فلن أكلم اليوم انسيا) فان كلامى يقبل الرد والمجادلة ولكن يتكلم عنى المولود الذى كلامه لا يقبل الدفع وأما أنا فانزه نفسى عن مجادلة السفهاء قالوا ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها فلا أكلم الا الملائكة أو الخالق بالتسبيح والتقديس وسائر أنواع الذكر وقيل صياما لانهم كانوا لا يتكلمون فى صيامهم فعلى هذا كان ذكر الصوم دالا على الصمت وهذا النوع من النذر كان جائزا فى شرعهم وهل يجوز مثل هذا النذر فى شرعنا قال القفال لعله يجوز لان الاحتراز عن كلام الآدميين وتجريد الفكر بذكر الله تعالى قربة ولعله لا يجوز لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام فى الشمس وروى أنه دخل أبو بكر رضى الله عنه على امرأة قد نذرت أن لا تتكلم فقال أبو بكر ان الاسلام قد هدم هذا فتكلمى ‌● (تنبيه) ● اختلفوا فى أنها هل قالت لهم انى نذرت للرحمن صوما فقال قوم انها ما تكلمت معهم بذلك لانها كانت مأمورة بأن تأتى بهذا النذر فلو تكلمت معهم بعد ذلك لوقعت فى المناقضة ولكنها سكتت وأشارت برأسها وقال آخرون انها ما نذرت فى الحال بل صبرت حتى أتاها القوم فذكرت لهم انها نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا بعد هذا الكلام (فأتت) اى فلما سمعت هذا الكلام اشتد قلبها وزال حزنها فأتت (به) أى عيسى (قومها) وان كان فيهم قوة المحاولة لكل ما يريدون لشأنه البرىء الموقن بان الله معه حالة كونها (تحمله) غير مبالية بأحد ولا مستحيية واختلفوا فى أنها كيف أتت به فقيل ولدته ثم حملته فى الحال الى قومها وقيل احتمل يوسف النجار مريم وابنها الى غار ومكثت فيه أربعين يوما حتى طهرت من نفاسها ثم حملته الى قومها فكلمها فى الطريق

الآية (ان قلت) هذا سؤال عن سبب العجلة فان موسى لما واعده الله تعالى حضور جانب الطور لاخذ التوراة اختار من قومه سبعين رجلا يصعدون الى ذلك ثم سبقهم شوقا الى ربه تعالى

فقال يا أماه أبشري فاني عبد الله ومسيحه فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين قال الرازي وليس في القرآن ما يدل على التعيين ثم كأنه قيل فلما أتت به قومها ماذا قالوا لها فقيل (قالوا يا مريم) ما هذا الولد لان حالها في اتيانها به أمر عجيب (لقد جئت شيأ فريا) اى عظيما منكرا فيكون ذلك منهم على وجه الذم فهو من أفرى الجلد يقال أفريت الاديم اذا قطعته على جهة الافساد لا من فريته يقال فريته قطعته على جهة الاصلاح ويدل على أن مرادهم الاول قولهم بعده (يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء) اى زانيا (وما كانت أمك بغيا) اى زانية فمن أين لك هذا الولد لان هذا القول ظاهره التوبيخ وفي هرون هذا اربعة أقوال أحدها أنه رجل صالح من بني اسرائيل ينسب اليه كل من عرف بالصلاح والمراد انك كنت في الزهد كهرون فكيف صرت هكذا وروى أن هرون هذا لما مات تبع جنازته أربعون ألفا كلهم يسمى هرون من بني اسرائيل تبركا باسمه سوى سائر الناس شبهوها به على معنى انا ظننا أنك مثله في الصلاح وليس المراد منه الاخوة في النسب كقوله تعالى ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وروى المغيرة بن شعبة قال لما قدمت نجران سألوني فقالوا انكم تقرؤن يا أخت هرون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال انهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم قال ابن كثير وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت موسى وهرون نسبا فان بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على من عنده أدنى علم وكأنه غره في أول التوراة ان مريم أخت موسى وهرون ضربت بالدف يوم نجى الله تعالى موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه وجنوده فاعتقد أن هذه هي تلك وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح المتقدم الثاني أنه هرون أخو موسى لانها كانت من نسله كما يقال للتميمي يا أخا تميم وللهمداني يا أخا همدان اى يا واحدا منهم الثالث انه كان فاسقا في بني اسرائيل فنسبت اليه اى شبهوها به الرابع انه كان لها أخ من أبيها يسمى هرون من صلحاء بني اسرائيل فعيرت به قال الرازي وهذا هو الاقرب لوجهين الاول ان الاصل في الكلام الحقيقة فيحمل الكلام على أخيها المسمى بهرون الثاني انها أضيفت اليه ووصف أبواها بالصلاح فحينئذ يصير التوبيخ أشد لان من كان حال أبويه وأخيه بهذا الحال يكون صدور الذنب منه أفحش (فأشارت اليه) اى لما بالغوا في توبيخها سكتت وأشارت الى عيسى عليه السلام انه هو الذي يجيبكم قال ابن مسعود لما لم يكن لها حجة أشارت اليه ليكون كلامه حجة لها وعن السدي لما أشارت اليه غضبوا وقالوا سخريتها بنا أشد من زناها ثم (قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا) لم يبلغ سن هذا الكلام الذي لا يقوله الا الاكابر العقلاء بل الانبياء والتعبير بكان يدل على انه عند الاشارة اليه لم يكن وجههم الى أن يكلموه بل حين سمع المحاورة ورأى الاشارة بدا منه قول خارق لعادة الرضعاء بل الصبيان روى انه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاعة وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابة يمينه وقيل كلمهم ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان *(تنبيه)* في كان هذه أقوال أحدها انها زائدة وهو قول أبي عبيد أي كيف نكلم من في المهد صبيا على هذا نصب

وامرهم بلداوده وتب على ذلك فكيف طابق الجواب السؤال (قلت في الآية السؤال) تضمن شيئين انكار السؤال والسؤال عن سببها العلة والاعتذار عنها فبدأ موسى بالاعتذار انكره تعالى عليه بانه لم يوجد

على الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور الواقع صلة ثانيها أنها تامة بمعنى حدث و وجد والتقدير كيف تكلم من وجد صبيا وصبيا حال من الضمير في كان قال الرازي وهذا هو الاقرب الثالث انها بمعنى صار أي كيف نكلم من صار في المهد صبيا وصبيا على هذا خبرها (فان قيل) كيف عرفت مريم من حال عيسى انه يتكلم (أجيب) بان جبريل أو عيسى عليه السلام لما ناداها من تحتها أن لا تحزني وأمرها عند رؤية الناس بالسكوت صار ذلك كالتنبيه لها على ان المجيب هو عيسى عليه السلام أو لعلها عرفت ذلك بالوحي الى زكريا أو اليها على سبيل الكرامة واختلفوا في المهد فقيل هو حجرها لما روى أنها اخذته عليه السلام في خرقة فاتت به قومها فلما رأوها قالوا لها ما قالوا فاشارت اليه وهو في حجرها ولم يكن لها منزل بعد حتى يعدلها المهد وقيل هو المهد بعينه والمعنى كيف نكلم صبيا سبيله أن ينام في المهد وقال وهب أتى زكريا مريم عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى انطق بحجتك ان كنت أمرت بها فوصف نفسه بثمان صفات ٭ الصفة الاولى (قال انى عبد الله) أي الملك الاعظم الذى له صفات الكمال لا أتعبد لغيره وفي ذلك اشارة الى أن عبد الله لا يتخذ الها من دونه ولا يستعبده شيطان ولا هوى ٭ الصفة الثانية قوله تعالى (آتانى الكتاب) واختلف في ذلك الكتاب فقال بعضهم هو التوراة لان الالف واللام في الكتاب تنصرف للمعهود والكتاب المعهود لهم هو التوراة وقال أبو مسلم هو الانجيل لان الالف واللام ههنا للجنس وقال قوم التوراة والانجيل لان الالف واللام تفيد الاستغراق (٣) واقتصر البيضاوي على الاول والبقاعي على الثالث وزاد عليه والزبور وغيرها من الصحف ٭ الصفة الثالثة قوله (وجعلني نبيا) واختلف في معنى ذلك فقيل معناه سيؤتيني الكتاب ويجعلني نبيا وأتى بلفظ الماضي بجعل المحقق وقوعه كالواقع كما في قوله تعالى أتى أمر الله فلا تستعجلوه وقيل هو اخبار عما كتب في اللوح المحفوظ كما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم متى كنت نبيا قال كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد وقال الاكثرون أوتي الانجيل وهو صغير طفل وكان يعقل عقل الرجال وقال الحسن ألهم التوراة وهو في بطن امه ٭ الصفة الرابعة قوله (وجعلني مباركا) بانواع البركات (أينما) أي في أي مكان (كنت) وذكروا في تفسير المبارك وجوها أحدها ان البركة في اللغة هي الثبات وأصله من بروك البعير ومعناه وجعلني ثابتا على دين الله تعالى مستقرا عليه ثانيها انما كان مباركا لانه كان يعلم الناس دينهم ويدعوهم الى طريق الحق فان ضلوا فمن قبل أنفسهم لا من قبله روى الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سلمت أم عيسى عيسى الى الكتاب فقالت للمعلم أدفعه اليك على ان لا تضربه فقال له المعلم اكتب فقال أي شئ اكتب فقال اكتب أبجد فرفع عيسى عليه السلام رأسه فقال هل تدرى ما أبجد فعلاه بالدرة ليضربه فقال يا مؤدب لا تضربني ان كنت لا تدري فاسأل فانى أعلمك الالف من آلاء الله والباء من بهائه والجيم من جماله والدال من أداء الحق الى الله تعالى ثالثها البركة الزيادة والعلو فكأنه قال جعلني في جميع الاحوال منجحا مفلحا لانى مادمت أبقى الله في الدنيا أكون مستعليا على الغير بالحجة فاذا جاء الوقت المعلوم أكرمني الله تعالى بالرفع الى السماء رابعها مباركا على الناس من حيث يحصل بسبب دعائه احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وعن قتادة أن امرأة رأته وهو يحيي الموتى و يبرئ الاكمه

منه الا تقدم يسير لا يعتد به عادة ثم عقبه العذر بجواب السؤال عن السبب بقوله وعجلت اليك رب لترضى (قوله ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي) اى تركه ولهذا

(٣) قوله واقتصر البيضاوي على الاول الذى في البيضاوي تفسير الكتاب بالانجيل وهو الثانى هنا فلعل مراده بالاول جعل أل للجنس اه

والابرص فقالت طوبى لبطن حملك وثدي أرضعت به فقال عيسى مجيبا لها طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع ما فيه ولم يكن جبارا شقيا * (تنبيه) * قوله أينما كنت يدل على أن حاله لم يتغير كما قيل انه عاد الى حال الصغر وزوال التكليف * الصفة الخامسة قوله (وأوصاني بالصلوة) لمطهرة للنفس (والزكوة) طهرة للمال فعلا في نفسي وأمرا لغيري (مادمت حيا) ليكون ذلك حجة على من ادعى أنه اله لانه لا شبهة في أن من يصلي الى اله ليس باله (فان قيل) كيف يؤمر بالصلاة والزكاة مع أنه كان طفلا والقلم مرفوع عن الصغير لقوله صلى الله عليه وسلم رفع القلم عن ثلاث الحديث (أجيب) بوجهين الاول أن ذلك لا يدل على أنه تعالى أوصاه بادائهما في الحال بل بعد البلوغ فيكون المعنى أوصاني بادائهما في وقت وجوبهما على وهو وقت البلوغ الثاني أن عيسى لما انفصل صيره الله بالغا عاقلا تام الخلقة ويدل عليه قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم فكما أنه تعالى خلق آدم تاما كاملا دفعة فكذا القول في عيسى عليه السلام قال الرازي وهذا أقرب الى ظاهر اللفظ لقوله مادمت حيا فهذا يفيد أن هذا التكليف متوجه عليه في جميع زمان حياته (فان قيل) لو كان الامر كذلك لكان القوم حين رأوه رأوا شخصا كامل الاعضاء تام الخلقة وصدور الكلام عن مثل هذا الشخص لا يكون عجبا فكان ينبغي أن لا يتعجبوا (أجيب) بانه تعالى جعله مع صغر جثته قوي التركيب كامل العقل بحيث كان يمكنه أداء الصلاة والزكاة والآية دالة على أن تكليفه لم يتغير حين كان في الارض وحين رفع الى السماء وحين ينزل * الصفة السادسة قوله (وبرا) أي وجعلني بارا ولما كان السياق لبراءة والدته قال (بوالدتي) أي التي أكرمها الله تعالى باحصان الفرج والحمل بي من غير ذكر وفي ذلك اشارة الى تنزيه أمه عن الزنا اذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأمورا بتعظيمها * الصفة السابعة قوله (ولم يجعلني جبارا) متعاظما (شقيا) أي عاصيا بان أفعل فعل الجبارين بغير استحقاق انما أفعل ذلك بمن يستحق وروي عن عيسى عليه السلام أنه قال قلبي لين واني ضعيف في نفسي وعن بعض العلماء لا تجد العاق الا جبارا شقيا ولا تجد سيء الملكة الا مختالا فخورا وتلا وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا * الصفة الثامنة قوله (والسلام) من الله (علي) فلا يقدر أحد على ضري (يوم ولدت) فلا يضرني شيطان (ويوم أموت) فلا يضرني أيضا ومن يولد ويموت فليس باله (ويوم أبعث حيا) يوم القيامة كما تقدم في يحيى عليه السلام وفي ذلك اشارة الى أنه في البشرية مثله سواء لم يفارقه أصلا الا في كونه من غير ذكر واذا كان جنس السلام عليه كان أتباعه كذلك ولم يبق لاعدائه الا اللعن ونظيره قول موسى عليه السلام والسلام على من اتبع الهدى بمعنى ان العذاب على من كذب وتولى (ذلك) أي الذي تقدم نعته بقوله اني عبد الله الى آخره هو (عيسى ابن مريم) لا ما يصفه النصارى بقولهم انه الله أو ابنه أو ثالث ثلاثة فهو تكذيب لهم فيما يصفونه على الوجه الابلغ والطريق البرهاني حيث جعل الموصوف باضداد ما يصفونه وفي ذلك تنصيص على انه ابن هذه المرأة وقوله تعالى (قول الحق) قرأ عاصم وابن عامر بنصب اللام على أنه مصدر مؤكد والباقون بالرفع على أنه خبر محذوف أي هو قول الحق الذي لا ريب فيه والاضافة للبيان والضمير للكلام السابق أو لتمام القصة ثم عجب تعالى من ضلالهم

قال بعد وعصى آدم ربه فغوى (قوله فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) * ان قلت الخطاب لآدم وحواء فكيف قال فتشقى دون فتشقيا (قلت) قال ذلك لان الرجل قيم امرأته

فيه بقوله تعالى (الذي فيه يمترون) أي يشكون شكا يتكلفون و يجادلون به فتقول اليهود ساحر وتقول النصارى ابن الله مع ان أمه امرأة ٣ في غاية الوضوح ليس موضع الشك أصلا ثم دل على كونه حقا في كونه ابنا لامه مريم لاغيرها بقوله ردا على من ضل (ما كان) أي ماصح ولا يتأتى ولا يتصور في العقول ولا يصح ولا يأتي لانه من المحال لكونه يلزم منه الحاجة (لله) الغني عن كل شئ (أن يتخذ من ولد) وأكد بمن لان المقام يقتضي النفي العام * ولما كان اتخاذ الولد من النقائص أشار الى ذلك بالتنزيه العام بقوله تعالى (سبحانه) أي تنزه عن كل نقص أي من احتياج الى ولد أو غيره ثم علل ذلك بقوله عز وجل (اذا قضى أمرا) أي أي أمر كان أي أراد أن يحدثه (فانما يقول له كن) أي يريده و يعلق قدرته به وقوله تعالى (فيكون) قرأه ابن عامر بنصب النون بتقدير أن أو على الجواب والباقون بالرفع بتقدير هو وقوله (وان الله ربي وربكم) اخبار عن عيسى عليه السلام انه قال ذلك وقرأ ابن عامر والكوفيون بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بفتحها بتقدير حذف حرف الجر متعلق بما بعده والتقدير ولان الله ربي و ربكم (فاعبدوه) وحده لتفرده بالاحسان كما أعبده كقوله تعالى وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا والمعنى لوحدانيته أطيعوه وقيل انه عطف على الصلاة والتقدير وأوصاني بالصلاة و بأن الله واليه ذهب الفراء (هذا) أي الذي أمرتكم به (صراط) أي طريق (مستقيم) أي يقود الى الجنة وقرأ قنبل بالسين وخلف باشمام الصاد والباقون بالصاد الخالصة واختلف في قوله تعالى (فاختلف الاحزاب من بينهم) فقيل هم النصارى واختلافهم في عيسى أهو ابن الله أو اله معه أو ثالث ثلاثة وسموا أحزابا لانهم تحزبوا ثلاث فرق في أمر عيسى النسطورية والملكانية واليعقوبية وقيل هم اليهود والنصارى فجعله بعضهم ولدا و بعضهم كذابا وقيل هم الكفار الشامل لليهود والنصارى وغيرهم من الذين كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عادل وهذا هو الظاهر لانه لاتخصيص فيه ويؤيده قوله تعالى (فويل للذين كفروا) أي شدة عذاب لهم (من مشهد يوم عظيم) أي حضور يوم القيامة وأهواله وقوله تعالى (أسمع بهم وأبصر) أي بهم صيغتا تعجب بمعنى ما أسمعهم وما أبصرهم (يوم يأتوننا) في الآخرة لان حالهم في شدة السمع والبصر جديرة بأن يتعجب منها فيندمون حيث لاينفعهم الندم و يتمنون المحال من الرجوع الى الدنيا ليتداركوا فلا يجابون الى ذلك بل يسلك بهم في كل مايؤذيهم ويهلكهم و يرديهم وقوله تعالى (لكن الظالمون) من اقامة الظاهر مقام المضمر اشعارا بانهم ظلموا أنفسهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر والاصل ولكنهم (اليوم) أي في الدنيا (في ضلال مبين) أي بين بذلك الضلال صموا عن سماع الحق وعموا عن ابصاره أي اعجب منهم يامخاطب في سمعهم وأبصارهم في الآخرة بعد ان كانوا في الدنيا صما عميا وقيل معناه التهديد بما سيسمعونه وسيبصرون مايسوءهم و يصدع قلوبهم ثم ان الله تعالى أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن ينذر قومه بقوله (وأنذرهم) أي خوفهم (يوم الحسرة) هو يوم القيامة يتحسر فيه المسيء على ترك الاحسان والمحسن على عدم الازدياد من الاحسان لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن أحد يموت الا ندم قالوا وماندمه يارسول الله قال ان كان محسنا ندم أن لايكون ازداد وان كان مسيئا ندم أن لايكون

٣ قوله مع أن أمه امرأة الخ هكذا بالاصول ولعل الظاهر مع أن أمه امرأة الخ اه مصححه

فشقاؤه يتضمن شقاءها كما ان سعادته تتضمن سعادتها أو قاله رعاية للفواصل أو لانه أراد بالشقاء الشقاء في طلب القوت واصلاح المعاش وذلك وظيفة الرجل دون

نزع وفي قوله تعالى (اذ قضي الامر) وجوه أحدها اذ قضي الامر ببيان الدلائل وشرح أمر الثواب والعقاب ثانيها اذ قضي الامر يوم الحسرة بفناء الدنيا وزوال التكليف ثالثها قضي الامر فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وذبح الموت كما روي ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى اذ قضي الامر فقال حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظران فيزداد أهل الجنة فرحا الى فرح وأهل النار غما الى غم وقوله تعالى (وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) جملتان حاليتان وفيهما قولان أحدهما انهما حالان من الضمير المستتر في قوله في ضلال مبين أي استقروا في ضلال مبين على هاتين الحالتين السيئتين والثاني انهما حالان من مفعول أنذرهم أي أنذرهم على هذه الحالة وما بعدها وعلى الاول يكون قوله وأنذرهم اعتراضا والمعنى وهم في غفلة عما يفعل بهم في الآخرة وهم لا يصدقون بذلك اليوم ولما كان الارث هو حوز الشيء بعد موت أهله وكان سبحانه وتعالى قد قضى بموت الخلائق أجمعين وانه تعالى يبقى وحده عبر عن ذلك بالارث مقررا به مضمون الكلام السابق فقال مؤكدا تكذيبا لقولهم ان الدهر لا يزال هكذا حياة لناس وموت لآخرين (انا نحن) بعظمتنا التي اقتضت ذلك (نرث الارض) فلا ندع بها شيأ من عاقل ولا غيره ولما كان العاقل أقوى من غيره صرح به بعد دخوله فقال (ومن عليها) أي من العقلاء بان نسلبهم جميع ما في أيديهم (والينا) لا الى غيرنا (يرجعون) فنجازيهم بأعمالهم القصة الثالثة قصة ابراهيم عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (واذكر في الكتاب ابراهيم) أي خبره وقرأ هشام ابراهام بألف بعد الهاء والباقون بالياء وانما أمر الله تعالى نبيه بذكر ذلك لانه صلى الله عليه وسلم ما كان هو ولا قومه ولا أهل بلده مشتغلين بالتعليم ومطالعة الكتب فاذا أخبر عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك اخبارا عن الغيب ومعجزا باهرا دالا على نبوته وانما ذكر الاعتبار بقصة ابراهيم عليه السلام لوجوه الاول ان منكري التوحيد الذين أثبتوا توحيدا ومعبودا سوى الله تعالى فريقان منهم من أثبت معبودا غير الله تعالى حيا عاقلا وهم النصارى ومنهم من أثبت معبودا غير الله تعالى جمادا ليس بحي ولا عاقل وهم عبدة الاوثان والفريقان وان اشتركا في الضلال الا أن ضلال عبدة الاوثان أعظم فلما بين الله تعالى ضلال الفريق الاول تكلم في ضلال الفريق الثاني وهم عبدة الاوثان الثاني أن ابراهيم عليه السلام كان أبا العرب وكانوا مقرين بعلو شأنه وطهارة دينه على ما قال تعالى ملة أبيكم ابراهيم وقال تعالى ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه فكأنه تعالى قال للعرب ان كنتم مقلدين لآبائكم على قولكم انا وجدنا آباءنا على أمة فاشرف آبائكم وأعلاهم قدرا هو ابراهيم عليه السلام فقلدوه في ترك عبادة الاصنام والاوثان وان كنتم مستدلين فانظروا في هذه الدلائل التي ذكرها ابراهيم عليه السلام لتعرفوا فساد عبادة الاوثان وبالجملة فاتبعوا ابراهيم اما تقليدا واما استدلالا الثالث ان كثيرا من الكفار في زمان النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون نترك دين آبائنا وأجدادنا فذكر الله تعالى قصة ابراهيم عليه السلام وهو أنه ترك دين أبيه وأبطل قوله بالدليل ورجح متابعة الدليل على متابعة أبيه ثم قال تعالى في صفة ابراهيم (انه كان) جبلة وطبعا

(صديقا)

المراغة وقوله وعصى آدم ربه فغوى) * ان قلت هل يجوز ان يقال كان آدم عاصيا غاويا أخذا من ذلك (قلت) لا اذ لا يلزم من جواز اطلاق الفعل جواز اطلاق اسم الفاعل الا ترى

(صديقا) اى بليغ الصدق فى نفسه فى أقواله وأفعاله اى كان من أول وجوده الى انتهائه موصوفا بالصدق والصيانة وسيأتى الكلام على قوله بل فعله كبيرهم هذا وانى سقيم فى محله ولما كانت مرتبة النبوة أرفع من مرتبة الصديقية قال تعالى (نبيا) أى استنبأه الله تعالى اذلا رفعة أعلى من رفعة من جعله الله واسطة بينه وبين عباده وقوله تعالى (اذ قال) بدل من ابراهيم ومابينهما اعتراض أو متعلق بكان أو بصديقا نبيا أى كان جامعا لخصائص الصديقين والانبياء حين قال (لابيه) آزر هاديا له من تيه الضلال بعبادة الاصنام مستعطفا له فى كل جملة بقوله (ياأبت) والتاء عوض عن ياء الاضافة ولا يجمع بينهما وقرأ ابن عامر بفتح التاء فى الوصل والباقون بكسرها وأما الوقف فوقف ابن كثير وابن عامر بالهاء والباقون بالتاء ثم ان الله تعالى حكى عنه أيضا أنه تكلم مع أبيه باربعة أنواع من الكلام * النوع الاول قوله (لم تعبد) مريدا بالاستفهام الجاهل والملطف والرفق واللين والادب الجميل فى نصحه له كاشفا الامر غاية الكشف قوله (مالا يسمع ولا يبصر) أى ليس عنده قابلية لشئ من هذين الوصفين ليرى ماأنت فيه من خدمته أو يجيبك اذا ناديته حالا أو مآلا (ولا يغنى عنك شيأ) فى جلب نفع ودفع ضر فوصف الاوثان بصفات ثلاث كل واحدة منها قادحة فى الالهية وبيان ذلك من وجوه أحدها أن العبادة غاية التعظيم فلا تستحق الالمن له غاية الانعام وهو الاله الذى منه أصول النعم وفروعها على ماتقرر فى تفسير قوله وان الله ربى وربكم وكانه لا يجوز الاشتغال بشكر مالم تكن منه نعمة وجب أن لا يجوز الاشتغال بعبادتها وثانيها أنها اذا لم تسمع ولا تبصر ولا تميز من يطيعها عن يعصيها فاى فائدة فى عبادتها وهذا تنبيه على ان الاله يجب أن يكون عالما بكل المعلومات وثالثها أن الدعاء مخ العبادة فاذا لم يسمع الوثن دعاء الداعى فاى منفعة فى عبادته واذا لم يبصر تقرب من يتقرب اليه فاى منفعة فى ذلك التقرب ورابعها ان السامع المبصر الضار النافع أفضل ممن كان عاريا عن كل ذلك والانسان موصوف بهذه الصفات فيكون افضل واكمل من الوثن فكيف يليق بالافضل عبودية الاخس وخامسها ان كانت لاتنفع ولا تضر فلا يرجى منها منفعة ولا يخاف من ضررها فاى فائدة فى عبادتها وسادسها اذا كانت لا تحفظ نفسها عن الكسر والافساد حين جعلها ابراهيم عليه السلام جذاذا فاى رجاء فيها للغير فكانه عليه السلام قال ليست الالهية الالرب يسمع ويبصر ويجيب دعوة الداعى اذا دعاه * النوع الثانى قوله (ياأبت انى قد جاءنى) من المعبود الحق (من العلم مالم يأتك) منه (فاتبعنى) اى تسبب من ذلك انى اقول لك وجوبا على للنهى عن المنكر ونصيحة لما لك على من الحق اجتهد فى تبعى (اهدك صراطا) اى طريقا (سويا) اى مستقيما كما انى لو كنت معك فى طريق محسوس واخبرتك ان أمامنا مهلكا لا ينجو منه احد وأمرتك ان تسلك مكانا غير ذلك لاطعتنى ولو عصيتنى فيه عذلك كل احد غاوياء * النوع الثالث قوله (ياأبت لاتعبد الشيطان) فان الاصنام ليس لها دعوة اصلا والله تعالى قد حرم عبادة غيره مطلقا على لسان كل ولى له فتعين ان يكون الآمر بذلك الشيطان فكانه هو المعبود بعبادتها فى الحقيقة ثم علل هذا النهى بقوله (ان الشيطان) البعيد من كل خير المحترق باللعنة (كان للرحمن عصيا) بالقوة من حين خلق وبالفعل من حين امر بالسجود لابيك آدم عليه السلام فابى فهو عدو لك

انه يجوز أن يقال تبارك الله دون متبارك ويجوز ان يقال تاب الله على آدم دون تائب (قوله ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا) اى حياة فى ضيق وشدة (ان قلت)

تعالى وهو المطيع للعاصي اشى عاص لذلك الشي لان صديق العدو عدو (فان قيل) هذا القول يتوقف على اثبات امور احدها اثبات الصانع وثانيها اثبات الشيطان وثالثها ان الشيطان عاص ورابعها انه لما كان عاصيا لم تجز طاعته وخامسها ان الاعتقاد الذى كان عليه آزر مستفاد من طاعة الشيطان ومن شأن الدلالة التى تورد على الشخص أن تكون مركبة من مقدمات معلومة يسلمها الخصم ولعل ابراهيم كان منازعا فى هذه المقدمات وكيف والمحكى عنه انه ما كان يثبت الها سوى نمروذ فكيف يسلم وجود الرحمن واذا لم يسلم وجوده فكيف يسلم أن الشيطان عاص للرحمن وبتقدير تسليم ذلك فكيف يسلم الخصم بمجرد هذا الكلام ان مذهبه مقتبس من الشيطان بل لعله يقلب ذلك على خصمه (واجيب) بان الحجة المعول عليها فى ابطال مذهب آزر هو قوله لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيأ وهذا الكلام جرى مجرى التخويف والتحذير الذى يحمله على النظر فى تلك الدلالة فسقط السؤال * النوع الرابع قوله (يا أبت انى أخاف) لمحبتى لك وغيرتى عليك (ان يمسك عذاب) اى كائن (من الرحمن) الذى هو مولى كل من تولاه لعصيانك اياه (فتكون) اى فتتسبب عن ذلك ان تكون (للشيطان وليا) اى ناصرا وقرينا فى النار ولما دعا ابراهيم عليه السلام اباه الى التوحيد وذكر الدلائل على فساد عبادة الاوثان واردف تلك الدلائل بالوعظ البليغ واورد كل ذلك مقرونا بالرفق واللطف قابله ابوه بجواب يضاد ذلك فقابل حجته بالتقليد فانه لم يذكر فى مقابلة حجته الا أن (قال اراغب انت عن آلهتى) باضافتها الى نفسه فقط اشارة الى مبالغته فى تعظيمها والرغبة عن الشئ تركه عمدا فاصر على ادعاء الهيتها جهلا وتقليدا وقابل قوله بالرفق يا ابت بالعنف حيث لم يقل يا بنى بل قال (يا ابراهيم) وقابل وعظه بالسفاهة حيث هدده بالضرب والشتم بقوله مقسما (لئن لم تنته) عما انت عليه (لارجمنك) اى لاقتلنك أو لارجمنك بالحجارة حتى تموت او تبعد عنى او بالكلام القبيح فاحذرنى (واهجرنى) اى ابعد عنى بالمفارقة من الدار والبلد وهى كهجرة النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين اى تباعد عنى (مليا) اى دهرا طويلا لكى لا اراك وقيل اهجرنى بالقول ولا تخاطبنى دهرا طويلا لاجل ما صدر منك من هذا الكلام وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتأسية فيما كان يلقى من الاذى ويقاسى من قومه من العناء ومن عمه ابى لهب من الشدائد باعظم آبائه وأقاربهم به شبها فلما سمع ابراهيم عليه السلام كلام أبيه اجاب بامرين احدهما أن (قال) لمقابلا لما كان منه من طيش الجهل بما يحق لمثله من رزانة العقل والعلم (سلام عليك) توديع ومتاركة اى سلمت منى لا اصيبك بمكروه ما لم أومر فيك بشئ فانه لم يؤمر بقتاله على كفره كقوله لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لانبتغى الجاهلين واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وهذا يدل على جواز متاركة المنصوح اذا ظهر منه اللجاج وعلى انه يحسن مقابلة الاساءة بالاحسان ويجوز ان يكون دعاء له بالسلامة استمالة الاترى انه وعده بالاستغفار فيكون سلام بر ولطف وهو جواب الحليم للسفيه كقوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ثم استأنف قوله (سأستغفر لك ربى) اى المحسن الى بأن اطلب لك منه غفران ذنوبك بأن يوفقك للاسلام (انه كان بى حفيا) اى مبالغا فى اكرامى مرة بعد مرة وكرة فى اثر كرة وقد وفى بوعده بقوله

بمن نرى امرضين عن الايمان فى اخصب عيشة (قال) قال ابن عباس المراد بالعيشة الضنك الحياة فى المعصية وان كان فى رخاء ونعمة وروى انها عذاب القبر أو المراد بها

المذكور في الشعراء واغفر لابي وهذا قبل ان يتبين له انه عدو لله كما ذكر في براءة وثانيهما انه قال له انقياد الامر ابيه (واعتزلكم) اى جميعا بترك بلادكم واشار الى ان من شرط المعبود ان يكون اهلا للمناداة في الشدائد بقوله (وما تدعون) اى تعبدون (من دون الله) الذى له الكمال كله فمن اقبل عليه وحده اصاب ومن اقبل على غيره ولو طرفة عين فقد خاب وخسر (وادعوا) اى اعبد (ربى) وحده لاستحقاقه ذلك مني ولم يقيد الاعتزال بزمن بل أشار الى انهم ماداموا على هذا الدين هو معتزلهم ثم دعا نفسه بما نبههم به على خسة مسعاهم فقال غير جازم باجابة دعوته وقبول عبادته اجلالا لربه وهضما لنفسه (عسى ألا اكون بدعاء ربى) المنفرد بالاحسان الى (شقيا) اى كما شقيتم بعبادة الاصنام فانها لا تجيب دعاءكم ولا تنفعكم ولا تضركم فلما رأى من ابيه ومعاشريه ما رأى عزم على غربة مشقة النوى مختارا للغربة في البلاد على غربة الاضداد فكان كما قال الامام ابو سليمان الخطابي

وما غربة الانسان في شقة النوى • ولكنها والله في عدم الشكل

واني غريب بين بست واهلها • وان كان فيها اسرتي وبها اهلي

وحقق ما عزم عليه فبين سبحانه وتعالى تحقيق رجائه واجابة دعائه فقال (فلما اعتزلهم) أى بالهجرة الى الارض المقدسة (وما يعبدون من دون الله) لم يضره ذلك دينا ولا دنيا بل نفعه وعوضه الله اولادا كما قال تعالى (وهبنا له) كما هو الشأن في كل من ترك شيأ لله (اسحق) ولدا له لصلبه من زوجته العاقر العقيم بعد تجاوزها سن اليأس واخذه هو في السن الى حد لا يولد لمثله (ويعقوب) ولد الاسحق وخصهما بالذكر للزومهما محل اقامته وقيامهما بعده بخلافته فيه وأما اسمعيل عليه السلام فكان الله سبحانه وتعالى هو المتولى لتربيته بعد نقله رضيعا الى المسجد الحرام واحيائه تلك المشاعر العظام فافرده بالذكر جاعلا له اصلا برأسه بقوله بعد واذكر في الكتاب اسمعيل فترك ذكره مع اسحق الذى هو اخوه لذلك ثم صرح بما وهب لاولاده جزاء على هجرته بقوله تعالى (وكلا) أى منهما (جعلنا نبيا) عالى المقدار ويخبر بالاخبار العظيمة كما جعلنا ابراهيم عليه السلام نبيا (ووهبنا لهم) كلهم (من رحمتنا) أى شيأ منها عظيما من النسل الطاهر والذرية الطيبة واجابة الدعاء واللطف في القضاء والبركة في المال والاولاد وغير ذلك من خيرى الدنيا والآخرة (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) وهو الثناء الحسن وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهو العطية واستجاب الله تعالى دعوته في قوله تعالى واجعل لي لسان صدق في الآخرين فصيره قدوة حتى ادعاه أهل الاديان كلهم فقال تعالى ملة أبيكم ابراهيم وقد اجتمعت فيه خصال لم تجتمع في غيره أولها انه اعتزل عن الخلق على ما قال واعتزلكم وما تدعون من الله فلا جرم بارك الله له في أولاده فقال ووهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ثانيها انه تبرأ من أبيه كما قال عز وجل فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه فلا جرم سماه الله أبا المسلمين فقال ملة أبيكم ابراهيم ثالثها تل ولده للجبين ليذبحه في الله على ما قال الله تعالى وتله للجبين لا جرم فداه الله تعالى على ما قال وفديناه بذبح عظيم رابعها أسلم نفسه فقال أسلمت لرب العالمين فجعل الله تعالى النار بردا وسلاما عليه فقال يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم خامسها أشفق على هذه الامة فقال ربنا

عيشة في جهنم (قوله ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى) الكلمة قوله تعالى سبقت رحمتي غضبي أو قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم او قوله تعالى

قال ماهي قال تقبض روحي فاوحى الله تعالى اليه ان اقبض روحه فقبض روحه وردها اليه بعد ساعة فقال له ملك الموت ما الفائدة في سؤالك قبض الروح قال لأذوق كرب الموت وغمه فأكون اشد استعدادا له ثم قال له ادريس ان لي اليك حاجة أخرى قال وماهي قال ترفعني الى السماء لأنظر اليها والى الجنة والنار فاذن الله تعالى له في ذلك فرفعه فلما قرب من النار قال لي اليك حاجة قال وما تريد قال تسأل مالكا ان يفتح أبوابها فاردها ففعل ثم قال كما أريتني النار فارني الجنة فذهب به الى الجنة فاستفتح ففتح أبوابها فادخله الجنة ثم قال له ملك الموت اخرج لتعود الى مكانك فتعلق بشجرة وقال ما أخرج منها فبعث الله تعالى ملكا حكما بينهما فقال له الملك مالك لا تخرج قال ان الله تعالى قال كل نفس ذائقة الموت وقد ذقته وقال وان منكم الا واردها وقد وردتها وقال وما هم منها بمخرجين فلست أخرج فاوحى الله تعالى الى ملك الموت باذني دخل الجنة وباذني لا يخرج فهو حي هنالك وقال آخرون بل رفع الى السماء وقبض روحه وقال كعب الاحبار ان ادريس سار ذات يوم في حاجة فاصابه وهج الشمس فقال يارب اني مشيت يوما فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها مالا يعرفه فقال يارب خففت عني حر الشمس فما الذي قضيت فيه فقال تعالى ان عبدي ادريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرها فاجبته قال يارب اجعل بيني وبينه خلة فاذن له حتى أتى ادريس فكان ادريس يسأله فكان مما سأله أن قال له اني اخبرت انك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت فاشفع لي ليؤخر أجلي فازداد شكرا وعبادة فقال الملك لا يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها وأنا مكلمه فرفعه الى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ثم أتى ملك الموت فقال له لي حاجة اليك لي صديق من بني آدم تشفع بي اليك لتؤخر أجله فقال ليس ذلك الي ولكن ان احببت أعلمته أجله فيقدم لنفسه قال نعم فنظر في ديوانه فقال انك كلمتني في انسان ما أراه يموت أبدا قال وكيف ذلك قال لا أجده يموت الا عند مطلع الشمس قال اني أتيتك وتركته هناك قال فانطلق فلا أراك تجده الا وقد مات فوالله مابقي من أجل ادريس شيء فرجع الملك فوجده ميتا ولما انقضى كشف هذه الاخبار العلية المقدار الجليلة الاسرار شرع سبحانه وتعالى ينسب أهلها باشرف نسبهم ويذكر المتقين منهم فقال عز من قائل (أولئك) اي العالو الرتبة الشرفاء النسب المذكورون في هذه السورة من لدن زكريا الى ادريس وهو مبتدأ وقوله (الذين أنعم الله عليهم) بما خصهم به من مزيد القرب اليه وعظيم المنزلة لديه صفة له وقوله تعالى (من النبيين) اي المصطفين بالنبوة الذين أنبأهم الله تعالى بدقائق الحكم ورفع محالهم بين الامم بيان لهم وهو في معنى الصفة وما بعده الى جملة الشرط صفة للنبيين فقوله (من ذرية ادم) اي ادريس اقرب منه لانه جد أبي نوح (وممن حملنا مع نوح) في السفينة اي ابراهيم ابن ابنه سام (ومن ذرية ابراهيم) اي اسمعيل واسحق ويعقوب (و) من ذرية (اسرائيل) وهو يعقوب اي موسى وهرون وزكريا ويحيى وكذا عيسى لان مريم من ذريته (وممن هدينا) الى أقوم الطرق (واجتبينا) للنبوة والكرامة اي من جملتهم وخبر أولئك (اذا تتلى عليهم) من اي تال كان (آيات الرحمن خروا سجدا) للمنعم عليهم تقربا اليه لما

الواصلون أو بالاول الذين مازالوا على الصراط المستقيم وبالثاني الذين لم يكونوا على الصراط المستقيم ثم صاروا عليه أو بالاول أهل دين الحق في الدنيا وبالثاني المهتدون الى

لهم من البصائر النيرة في ذكر نعمه عليهم واحسانه اليهم (وبكيا) خوفا منه وشوقا اليه فكونوا مثلهم * (تنبيه) * سجدا حال مقدرة قال الزجاج لانهم وقت الخرور ليسوا سجدا وهو جمع ساجد وبكيا جمع باك وليس بقياس بل قياس جمعه على فعلة كقاض وقضاة ولم يسمع فيه هذا الاصل وأصل بكيا بكويا قلبت الواو ياء والضمة كسرة واختلف في هذا السجود فقال بعضهم انه الصلاة وقال بعضهم سجود التلاوة على حسب ما تعبدوا به قال الرازي ثم يحتمل ان يكون المراد سجود القرآن ويحتمل انهم عند الخوف كانوا قد تعبدوا بسجود فيفعلون ذلك لاجل ذكر السجود في الآية انتهى وروى ابن ماجه وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وعن صالح المزني قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي يا صالح هذه القراءة فاين البكاء وعن ابن عباس اذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فان لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ما اغرورقت عين بماء الا حرم الله تعالى على النار جسدها وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ان القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فتحازنوا وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يلج النار من بكى من خشية الله وقال العلماء يدعو في سجدة التلاوة بما يليق بآيتها فان قرأ آية تنزيل السجدة قال اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك ان أكون من المتكبرين عن أمرك واذا قرأ سجدة سبحان قال اللهم اجعلني من الباكين اليك الخاشعين لك وان قرأ هذه قال اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين الباكين عند تلاوة آيات كتابك وقرأ حمزة والكسائي بكيا بكسر الباء والباقون بضمها * ولما وصف سبحانه وتعالى هؤلاء الانبياء بصفة المدح ترغيبا للناس في التأسي بهم ذكر بعدهم من هو بالضد منهم فقال (فخلف من بعدهم) اي في بعض الزمان الذي بعد هؤلاء الاصفياء سريعا (خلف) في غاية الرداءة من أولادهم يقال خلفه اذا أعقبه خلف سوء باسكان اللام والخلف بفتح اللام الصالح كما قالوا وعد في ضمان الخير ووعيد في ضمان الشر وفي الحديث في الله خلف من كل هالك وفي الشعر

ذهب الذين يعاش في أكنافهم * وبقيت في خلف كجلد الاجرب

وقال السدي أراد بهم اليهود ومن لحق بهم وقال قتادة في (أضاعوا الصلوة) تركوا الصلاة المفروضة وقال ابن مسعود وابراهيم أخروها عن وقتها وقال سعيد بن المسيب هو ان لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا يصلي العصر حتى تغرب الشمس (واتبعوا الشهوات) اي المعاصي قال ابن عباس هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمور واستحلوا نكاح الاخت من الاب وقال مجاهد هؤلاء قوم يظهرون في آخر الزمان ينزو بعضهم على بعض في الاسواق والازقة (فسوف يلقون غيا) وهو كما قال وهب وابن عباس واد في جهنم بعيد قعره تستعيذ منه أوديتها كما رواه الحاكم وصححه وقيل هو الخسران وقيل هو الشر كقول القائل

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

على الغي مستحق للاثام وقيل يلقون جزاء الغي كقوله يلق أثاما اي مجازاة الاثام * (تنبيه) * قوله تعالى يلقون ليس معناه يرون فقط بل معناه الاجتماع والملابسة مع الرؤية * ولما أخبر

طريق الجنة في العقبى فكأنه قيل ستعلمون من الناجي في الدنيا والفائز في الآخرة

(سورة الانبياء عليهم السلام)

(قوله اقترب للناس حسابهم)

تعالى من هؤلاء بالخيبة فتح لهم باب التوبة وحداهم الى غسل هذه الحوبة بقوله (الا من تاب) اى عما هو عليه من الضلال وبادر بالاعمال وحافظ على الصلوات وكف نفسه عن الشهوات (وآمن) بما أخذ عليه به العهد (وعمل) بعد ايمانه تصديقا له (صالحا) من الصلوات والزكوات وغيرها (فاولئك) العالو الهمم الطاهرو الشيم (يدخلون الجنة) التى وعد المتقون (ولا يظلمون) من ظالم ما (شيأ) من اعمالهم (فان قيل) الاستثناء دل على انه لابد من التوبة والايمان والعمل الصالح وليس الامر كذلك لان من تاب من كفره ولم يدخل وقت الصلاة أو كانت المرأة حائضا فانه لا يجب عليهم الصلاة والزكاة أيضا غير واجبة وكذلك الصوم فهذا لو مات فى ذلك الوقت كان من أهل النجاة مع انه لم يصدر منه عمل فلم يجز توقف الاجر على العمل الصالح (أجيب) بان هذه الصورة نادرة والاحكام انما تناط بالاعم الاغلب *(تنبيه)* فى هذا الاستثناء وجهان قال ابن عادل أظهرهما انه متصل وقال الزجاج هو منقطع وهذا بناء منه على ان المضيع للصلاة من الكفار ووافق الزجاج الجلال المحلى * ولما ذكر تعالى فى التائب انه يدخل الجنة وصفها بامور أحدها قوله تعالى (جنات عدن) أى اقامة لا يظعن عنها بوجه من الوجوه وصفها بالدوام على خلاف وصف الجنان فى الدنيا التى لا تدوم ثم بين تعالى انها (التى وعد الرحمن عباده) الذين هو أرحم بهم وقوله (بالغيب) فيه وجهان أحدهما ان الباء حالية وفى صاحب الحال احتمالان أحدهما ضمير الجنة وهو عائد الموصول أى وعدها وهى غائبة عنهم لا يشاهدونها والثانى عباده أى وهم غائبون عنها لا يرونها انما آمنوا بها بمجرد الاخبار منه والوجه الثانى أن الباء سببية أى بسبب تصديق الغيب وبسبب الايمان به * ولما كان من شأن الوعود الغائبة على ما يتعارفه الناس بينهم احتمال عدم الوقوع بين أن وعده ليس كذلك بقوله تعالى (انه كان) أى كونا هو سنة ماضية (وعده مأتيا) أى مقصودا بالفعل فلا بد من وقوعه فهو كقوله ان كان وعد ربنا لمفعولا ثانيها قوله تعالى (لا يسمعون فيها لغوا) وهو فضول الكلام وما لا طائل تحته وفيه تنبيه ظاهر على تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله تعالى عنه الدار الآخرة التى لا تكليف فيها وقد مدح الله تعالى أقواما بقوله واذا مروا باللغو مروا كراما واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا وقوله تعالى (الا سلاما) الاستثناء منقطع اى ولكن يسمعون قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة أو سلاما من الله أو من الملائكة أو من بعضهم على بعض ويجوز أن يراد باللغو مطلق الكلام قال فى القاموس لغا لغوا تكلم فيكون الاستثناء متصلا اى لا يسمعون فيها كلاما الا كلاما يدل على السلامة أو سلاما من الله أو من الملائكة أو من بعضهم على بعض ثالثها قوله تعالى (ولهم رزقهم فيها) اى على ما يتمنونه ويشتهونه على وجه لا بد من اتيانه ولا كلفة عليهم فيه ولا منة عليهم به (بكرة وعشيا) اى على قدرهما فى الدنيا وليس فى الجنة نهار ولا ليل بل ضوء ونور ابدا وقيل انهم يعرفون النهار برفع الحجب والليل بارخائها (فان قيل) المقصود من هذه الآيات وصف الجنة باحوال مستعظمة ووصول الرزق اليهم بكرة وعشيا ليس من الامور المستعظمة (اجيب) بوجهين الاول قال الحسن أراد الله تعالى ان يرغب كل قوم بما أحبوه

(ان قلت) كيف وصف الحساب بالقرب وقد مضى من وقت هذا الاخبار اكثر من تسعمائة عام ولم يوجد (قلت) معناه انه قريب عند الله وان كان بعيدا عندنا كقوله انهم

فى الدنيا فلذلك ذكر أساور الذهب والفضة ولبس الحرير التى كانت عادة العجم والارائك التى هى الحجال المضروبة على الاسرة وكانت عادة أشراف اليمن ولاشئ كان أحب الى العرب من الغداء والعشاء فوعدهم بذلك الثانى أن المراد دوام الرزق تقول أنا عند فلان صباحا ومساء وبكرة وعشيا تريد الدوام ولا تقصد الوقتين المعلومين وقيل المراد رفاهية العيش وسعة الرزق أى لهم رزقهم متى شاؤا ولما باينت بهذه الاوصاف دار الباطل أشار الى علو رتبتها وماهو سببها بقوله تعالى (تلك الجنة) بأداة البعد لعلو قدرها وعظم أمرها (التى نورث من عبادنا) أى نعطى عطاء الارث الذى لا كد فيه ولا استرجاع وتبقى له الجنة كما يبقى للوارث مال الموروث وقيل تنقل تلك المنازل عمن لو أطاع لكانت له الى عبادنا الذين اتقوا ربهم فجعل النقل ارثا قاله الحسن (من كان تقيا) أى المتقين من عباده (فان قيل) الفاسق المرتكب للكبائر لم يوصف بذلك الوصف فلا يدخلها (أجيب) بأن الآية تدل على أن الجنة يدخلها المتقى وليس فيها دلالة على ان غير المتقى لا يدخلها وأيضا صاحب الكبيرة متق عن الكفر ومن صدق عليه انه متق عن الكفر فقد صدق عليه أنه متق واذا كان صاحب الكبيرة يصدق عليه أنه متق وجب أن يدخل الجنة فدلالة الآية على أن صاحب الكبيرة يدخلها أولى من أن تدل على انه لا يدخلها واختلف فى سبب نزول قول جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم (وما نتنزل الا بأمر ربك) فقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت الآية وقال مجاهد أبطأ الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال له ما أبطأت قال قد فعلت قال ولم لا أفعل وأنتم لا تتسوكون ولا تقصون أظفاركم ولا تنقون براجمكم وقال وما نتنزل الا بأمر ربك فنزلت وقال قتادة والكلبى احتبس جبريل عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح وسبب سؤالهم عن ذلك ماروى ان قريشا بعثت خمسة رهط الى يهود المدينة يسألونهم عن صفة النبى صلى الله عليه وسلم وهل يجدونه فى كتابهم وسألوا النصارى فزعموا أنهم لا يعرفونه وقالت اليهود نجده فى كتابنا وهذا زمانه وقد سألنا رحمن اليمامة عن ثلاث فلم يعرف فسلوه عنهن فان أخبركم عن خصلتين فاتبعوه فسألوه عن قصة أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فلم يدر كيف يجيب فوعدهم ان يجيبهم غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحى عنه أربعين يوما وقيل خمسة عشر يوما فشق ذلك عليه مشقة عظيمة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه فلما نزل جبريل عليه السلام قال له النبى صلى الله عليه وسلم أبطأت حتى ساء ظنى واشتقت اليك قال انى اليك أشوق ولكنى عبد مأمور واذا بعثت نزلت واذا حبست احتبست فنزلت هذه الآية وأنزل قوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله وسورة الضحى (فان قيل) قوله تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا كلام الله وقوله وما نتنزل الا بأمر ربك كلام غير الله فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل (أجيب) بأنه اذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح كقوله تعالى اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وهذا كلام الله تعالى ثم عطف عليه قوله وان الله ربى وربكم فاعبدوه ثم علل جبريل قوله ذلك بقوله (له ما بين أيدينا) أى امامنا من أمور الآخرة (وما خلفنا) أى من أمور الدنيا (وما بين ذلك)

يرونه بعيدا ونراه قريبا وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون أو أنه قريب بالنسبة الى ما مضى من الزمان أو ان المراد قربه لكل واحد فى قبره ويؤيده خبر من مات

اي ما يكون من هذا الوقت الى قيام الساعة اي له علم ذلك جميعه وقيل ما بين ذلك ما بين النفختين وبينهما أربعون سنة وقيل ما بين أيدينا ما مضى من الدنيا وما خلفنا ما مضى منها وما بين ذلك مدة حياتنا وقيل ما بين أيدينا بعد أن نموت وما خلفنا قبل ان نخلق وما بين ذلك مدة الحياة وقيل ما بين أيدينا الارض اذا أردنا النزول اليها وما خلفنا السماء وما ينزل منها وما بين ذلك الهواء يريد ان ذلك كله لله فلا نقدر على شئ الا بامره (وما كان ربك) المحسن اليك (نسيا) بمعنى ناسيا اي تاركا لك بتأخير الوحي عنك لقوله تعالى ما ودعك ربك وما قلى اي وما كان امتناع النزول الا لامتناع الامر به وما كان ذلك عن ترك الله تعالى لك وتوديعه اياك ثم استدل على ذلك بقوله (رب السموات والارض وما بينهما) فلا يجوز عليه النسيان اذ لابد ان يمسكهما حالا بعد حال والا لبطل الامر فيهما وفيمن يتصرف والآية دالة على ان الله تعالى هو الرب لكل شئ حصل بينهما ففعل العبد مخلوق له تعالى لان فعل العبد حاصل بين السماء والارض

(تنبيه) يجوز في رب أن يكون بدلا من ربك وأن يكون خبر مبتدا مضمر أي هو رب وقوله تعالى (فاعبده واصطبر لعبادته) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم مرتب على ما تقدم أي لما عرفت أن ربك لا ينساك فاعبده بالمراقبة الدائمة على ما ينبغي من مثلك واصطبر عليها ولا تتشوش بابطاء الوحي وهزء الكفار بك (فان قيل) لم لم يقل واصطبر على عبادته لانها صلته فكان حقه تعديه بعلى (أجيب) بانه ضمن معنى الثبات لان العبادة ذات تكاليف قل من يثبت لها فكأنه قيل اثبت لها مصطبرا كقولك للمحارب اصطبر لقرنك ثم علل ذلك بقوله (هل تعلم له سميا) قال ابن عباس هل تعلم له مثلا أي نظيرا فيما يقتضي العبادة والذي يقتضيها كونه منعما باصول النعم وفروعها وهي خلق الاجسام والحياة والعقل وغيرها فانه لا يقدر على ذلك أحد سواه سبحانه وتعالى واذا كان قد أنعم عليك بغاية الانعام وجب أن تعظمه بغاية التعظيم وهي العبادة وقال الكلبي هل تعلم أحدا يسمى الله غيره فانهم وان كانوا يطلقون لفظ الاله على الوثن فما أطلقوا لفظ الله تعالى على شئ ولما أمر الله تعالى بالعبادة والمصابرة عليها فكأن سائلا سأل وقال هذه العبادة لا منفعة فيها في الدنيا وأما في الآخرة فقد أنكرها بعضهم فلابد من ذكر الدلالة على القول بالحشر حتى يظهر ان الاشتغال بالعبادة يفيد فلهذا حكى الله سبحانه وتعالى قول منكري الحشر فقال تعالى (ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا) قال الكلبي نزلت في أبي بن خلف حين أخذ عظاما بالية ففتها بيده ويقول زعم لكم محمد أنا نبعث بعد ما نموت وقيل نزلت في أبي جهل وقيل المراد جنس الكفار القائلين بعدم البعث ثم ان الله تعالى أقام الدليل على صحة البعث بقوله (أولا يذكر الانسان) اي المجترئ بهذا الانكار على ربه (أنا خلقناه من قبل) اي من قبل جدله (ولم يك شيأ) أصلا وأنا بمقتضى ذلك قادرون على اعادته فلا ينكر ذلك قال بعض العلماء لو اجتمع كل الخلائق على ايراد حجة في البعث على هذا الاختصار ما قدروا عليه اذ لاشك ان الاعادة ثانيا أهون من الايجاد أولا ونظيره قوله تعالى قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وقوله تعالى وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بسكون الذال وضم الكاف مخففة والباقون بفتح الذال المشددة وكذا الكاف (فان قيل) كيف أمر الله الانسان بالتذكر مع ان التذكر هو

العلم

(قوله
قامت قيامته
(قوله ما يأتيهم من ذكر من
ربهم محدث) قاله هنا
بلفظ من ربهم وفي الشعراء
بلفظ من الرحمن لان الرب
يأتي مضافا بخلاف الرحمن
لم يأت مضافا قالها

العلم بما علمه من قبل ثم تخلله سماعهو (أجيب) بان المراد أولا يتذكر فيعلم خصوصا اذا قرئ أولا يذكر مشددا أما اذا قرئ مخففا فالمراد أولا يعلم ذلك من حال نفسه لان كل أحد يعلم انه لم يكن حيا في الدنيا ثم صار حيا ثم انه تعالى لما قرر المطلوب بالدليل أردفه بالتهديد من وجوه أولها قوله تعالى (فوربك) اى المحسن اليك بالانتقام منهم (لنحشرنهم) بعد البعث (والشياطين) الذين يضلونهم بان نحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة وفائدة القسم أمران أحدهما ان العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين والثاني في اقسام الله باسمه مضافا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تفخيم لشأنه ورفع منه كما رفع من شأن السماء والارض في قوله تعالى فورب السماء والارض انه لحق والواو في والشياطين يجوز ان تكون للعطف وبمعنى مع وهو أولى ثانيها قوله تعالى (ثم لنحضرنهم) بعد طول الوقوف (حول جهنم) من خارجها ليشاهد السعداء الاحوال التي نجاهم الله تعالى منها وخلصهم فيزدادوا التذاذا وغبطة الى غبطتهم وسرورا الى سرورهم ويشمتوا باعداء الله وأعدائهم فتزداد مساءتهم وحسرتهم وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم وقوله تعالى (جثيا) حال مقدرة من مفعول لنحضرنهم وهو جمع جاث جمع على فعول نحو قاعد وقعود وجالس وجلوس وأصله جثوو بواوين أو جثوى من جثا يجثو ويجثى لغتان (فان قيل) هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى وترى كل أمة جاثية ولان العادة جارية بان الناس في مواقف مطالبات الملوك يتجاثون على ركبهم لما في ذلك من القلق أو لما يدهمهم من شدة الامر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم واذا كان هذا حاصلا للكل فكيف يدل على مزيد ذل الكفار (اجيب) بانهم يكونون من وقت الحشر الى وقت الحضور على هذه الحالة وذلك يوجب مزيد ذلهم وقرأ حفص وحمزة والكسائي جثيا وعتيا وصليا بكسر أولها والباقون بضمه ثالثها قوله تعالى (ثم لننزعن) اى لنأخذن أخذا بشدة وعنف (من كل شيعة) اى فرقة مرتبطة بمذهب واحد (أيهم أشد على الرحمن) الذي غمرهم بالاحسان (عتيا) اى تكبرا مجاوز الحد والمعنى ان الله تعالى يحضرهم أولا حول جهنم ثم يميز البعض من البعض فمن كان أشدهم تمردا في كفره خص بعذاب عظيم لان عذاب الضال المضل يجب ان يكون فوق عذاب من يضل تبعا لغيره وليس عذاب من يتمرد ويتجبر كعذاب المقلد ففائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص باصل العذاب ولذلك قال تعالى في جميعهم (ثم لنحن أعلم) من كل عالم (بالذين هم) بظواهرهم وبواطنهم (أولى بها) اى بجهنم (صليا) اى دخولا واحتراقا فنبدأ بهم ولا يقال أولى الامع اشتراكهم وأصله صلوى من صلى بكسر اللام وفتحها (تنبيه) في اعراب أيهم أشد أقوال كثيرة أظهرها عند جمهور المعربين وهو مذهب سيبويه ان أيهم موصولة بمعنى الذي وان حركتها حركة بناء بنيت عند سيبويه لخروجها عن النظائر وأشد خبر مبتدأ مضمر والجملة صلة لايهم وأيهم وصلتها في محل نصب مفعول بها ولاي أحوال أخر بعضها ذكرتها في شرح القطر ولما كلموا بهذا الاعلام المؤكد بالاقسام من ذي الجلال والاكرام جدير بن باصغاء الافهام الى ما توجه اليها من الكلام التفت الى ختام الخطاب المنبها لعموم فقال تعالى (وان) اى وما (منكم) أيها الناس أحد

ولموافقة ما هنا قوله بعده قل ربي يعلم القول وموافقة ما في الشعراء قوله بعده وان ربك لهو العزيز الرحيم اذ الرحمن والرحيم أخوان (فان قلت) كيف وصف الذكر بالحدوث مع ان

(الا واردها كان) ذلك الورود (على ربك) الموجب لك الحسن اليك (حتما مقضيا) اى حتمه وقضى به لا يتركه والورود موافاة المكان واختلفوا فى معنى الورود هنا فقال ابن عباس والاكثرون الورود ههنا هو الدخول والكناية راجعة الى النار وقالوا يدخلها البر والفاجر ثم ينجى الله المتقين فيخرجهم منها ويدل على ان الورود هو الدخول قوله تعالى يقدم قومه يوم القيامة فاوردهم النار وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار ان نافع بن الازرق مارى ابن عباس فى الورود فقال ابن عباس هو الدخول وقال نافع ليس الورود الدخول فتلا ابن عباس انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون أدخلها هؤلاء أم لا ثم قال يا نافع أما والله أنا وأنت سنردها وأنا أرجو ان يخرجنى الله منها وما أرى الله يخرجك منها بتكذيبك ويدل عليه أيضا قوله تعالى (ثم ننجى الذين اتقوا) أى الكفر منها ولا يجوز أن يقول ثم ننجى الذين اتقوا (ونذر الظالمين) بالكفر (فيها جثيا) على الركب الا والكل واردون والاخبار المروية دالة على هذا القول روى أن عبد الله بن رواحة قال أخبر الله تعالى عن الورود ولم يخبر بالصدر فقال صلى الله عليه وسلم يا ابن رواحة اقرأ ما بعدها ثم ننجى الذين اتقوا فدل على أن ابن رواحة فهم من الورود الدخول ولم ينكر عليه النبى صلى الله عليه وسلم ذلك وعن جابر أنه سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الورود الدخول ولا يبقى بر ولا فاجر الا دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما حتى ان للنار ضجيجا من بردها ولان حرارة النار ليست بطبعها فالاجزاء الملاصقة لابدان الكفار يجعلها الله تعالى محرقة مؤذية والاجزاء الملاصقة لاجزاء المؤمنين يجعلها بردا وسلاما كما فى حق ابراهيم عليه السلام وكما ان الملائكة الموكلين بها لا يجدون ألمها وكما فى الكوز الواحد من الماء كان يشرب به القبطى فيكون دما ويشرب به الاسرائيلى فيكون ماء عذبا وعن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال اذا دخل أهل الجنة الجنة وقال بعضهم لبعض أليس وعدنا ربنا أن نرد النار فيقال قد وردتموها وهى خامدة وخامدة جاحمة أى ساكنة وروى بالجيم أى باردة ولا بد من ذلك فى الملائكة الموكلين بالعذاب حتى يكونوا فى النار مع المعاقبين (فان قيل) فاذا لم يكن على المؤمنين عذاب فى دخولهم فما الفائدة فى ذلك الدخول (أجيب) بوجوه أحدها ان ذلك مما يزيدهم سرورا اذا علموا الخلاص منها ثانيها ان فيه مزيد غم على أهل النار حيث يرون المؤمنين الذين هم أعداؤهم يتخلصون منها وهم يبقون فيها ثالثها ان فيه مزيد غم على أهل النار حيث تظهر فضيحتهم عند المؤمنين رابعها انهم اذا شاهدوا ذلك العذاب صار سببا لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة وقيل المراد بالذين يردونها من تقدم ذكرهم من الكفار كنى عنهم أولا كناية الغيبة ثم خاطب خطاب المشافهة وعلى هذا القول فلا يدخل النار مؤمن واستدل له بقوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها والمبعد عنها لا يوصف بانه واردها ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها وبقوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون وروى عن مجاهد من حم من المؤمنين فقد وردها وفى الخبر الحمى كير من جهنم وهى حظ المؤمن من النار وفى رواية الحمى من فيح جهنم فابردوها بالماء وقوله من فيح جهنم اى وهجها وحرها وقال ابن مسعود وان منكم الا واردها يعنى القيامة والكناية راجعة اليها قال البغوى

والاول

الذكر الآن هو القرآن وهو قديم (قلت) المراد انه محدث انزاله أو انه ذكر غير القرآن وأضيف الى الرب لانه آمر به وهادة (قوله وأسروا النجوى) اذة ات كيف قال ذلك •

والاول أصح وعليه أهل السنة وروى انه يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير وفى رواية من ايمان وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها وآخر أهل الجنة دخولا الجنة رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله له اذهب فادخل الجنة قال فيأتيها فيخيل اليه أنها ملأى فيرجع فيقول وجدتها ملأى فيقول الله له اذهب فادخل الجنة فان لك مثل الدنيا وعشر أمثالها فيقول له أتسخر بى وأنت الملك فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه فكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة وقوله حتى بدت نواجذه اى أنيابه وأضراسه وقيل هى أعلى الاسنان وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذب ناس من أهل التوحيد فى النار حتى يكونوا حمما ثم تدركهم الرحمة قال فيخرجون فيطرحون على باب الجنة قال فيرش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما ينبت الغثاء فى حمالة السيل الحمم الفحم والغثاء كل ما جاء به السيل وقرأ الكسائى ننجى بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون الثانية وتشديد الجيم ولما أقام تعالى الحجة على مشركى قريش المنكرين للبعث قال تعالى عطفا على قوله ويقول الانسان (واذا تتلى عليهم) اى الناس من المؤمنين والكفار من اى تال كان (آياتنا) اى القرآن حال كونها (بينات) اى واضحات وقيل مرتبات الالفاظ ملخصات المعانى وقيل ظاهرات الاعجاز (قال الذين كفروا) بآيات ربهم البينة جهلا منهم ونظروا الى ظاهر الحياة الدنيا الذى هو مبلغهم من العلم (للذين آمنوا) اى لاجلهم أو مواجهة لهم اعراضا عن الاستدلال بالآيات بالاقبال على هذه الشبهة الواهية وهى المفاخرة بالمكاثرة فى الدنيا من قولهم (اى الفريقين) نحن بما لنا من الاتساع أم أنتم بما لكم من خشونة العيش ورثاثة الحال ولو كنتم أنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أحسن من حالنا لان الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين فى الذل وأعداءه المعرضين عن خدمته فى العز والراحة وانما كان الامر بالعكس فان الكفار كانوا فى النعمة والراحة والاستعلاء والمؤمنين كانوا فى ذلك الوقت فى الخوف والقلة هذا حاصل شبهتهم والقائل ذلك هو النضر بن الحرث وذووه من قريش للذين آمنوا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وكان فيهم قشافة وفى عيشهم خشونة وفى ثيابهم رثاثة وكان المشركون يرجلون شعورهم ويلبسون خير ثيابهم فقالوا للمؤمنين اى الفريقين (خير مقاما) اى موضع قيام أو اقامة على قراءة ابن كثير بضم الميم والباقون بفتحها فى كلتا القراءتين يحتمل أن يكون اسم مصدر واسم مكان اما من قام ثلاثيا أو من أقام *(تنبيه)* قالوا زيد خير من عمرو وشر من بكر ولم يقولوا أخير منه ولا أشر منه لان هاتين اللفظتين كثر استعمالهما فحذفت همزتاهما ولم يثبتا الا فى فعل التعجب فقالوا ما أخير زيدا وما أشره بعمرو وما أخير زيدا وما أشر عمرا والعلة فى اثباتهما فى فعل التعجب ان استعمال هذين اللفظين اسما أكثر من استعمالهما فعلا فحذفت الهمزة فى موضع الكثرة وبقيت على أصلها فى موضع القلة (وأحسن نديا) اى مجمعا ومتحدثا والندى المجلس يقال ندى وناد والجمع الاندية ومنه وتأتون فى ناديكم المنكر وقال تعالى فليدع ناديه ويقال

مع أن النحوى المسارة (قلت) بالغوا فى اخفاء المسارة بحيث لم يفهم احد ما بينهم ومسارتهم تم تفسيلا ولا اجمالا (قوله وما أرسلنا قبلهم) هكذا بنسخ من نسخ ما لم نذهبها

ندوت القوم أندوهم اذا جمعتهم في مجلس ومنه دار الندوة وكانت تجمع القوم بمكة فجعلوا ذلك الامتحان بالانعام والاحسان دليلا على رضا الرحمن مع التكذيب والكفران وغفلوا عن أن في ذلك مع التكذيب بالبعث تكذيبا بآيات شاهدون منها من القدرة على العقاب باحلال النقم وسلب النعم ولو شئنا لاهلكناهم وسلبناهم جميع ما يفتخرون به (وكم أهلكنا قبلهم) ثم بين ابهام كم بقوله (من قرن) شاهدوا ديارهم ورأوا آثارهم (هم) اى أهل تلك القرون (أحسن) من هؤلاء (أثاثا) اى أمتعة (ورئيا) اى ومنظرا فلو دل حصول نعم الدنيا للانسان على كونه حبيب الله لوجب أن لا يصل الى هؤلاء غم في الدنيا وقرأ قالون وابن ذكوان بابدال الهمزة ياء وادغامها في الياء وقفا ووصلا واذا وقف حمزة أبدل الهمزة ياء وله في الادغام والاظهار ٭(تنبيه)٭ كم مفعول أهلكنا مقدم واجب التقديم لان له صدر الكلام لانها اما استفهامية او خبرية وهي محمولة على الاستفهامية اى كثيرا من القرون أهلكنا من قرن تمييز لكم مبين لها وانما سمي أهل كل عصر قرنا لانهم يتقدمون من بعدهم وقول البيضاوي وهم احسن صفة لكم تبع فيه الزمخشري وغيره ورد بان كم الاستفهامية والخبرية لا توصف ولا يوصف بها فهم أحسن في محل جر صفة لقرن وجمعه نظرا للمعنى لان القرن مشتمل على أفراد كثيرة ٭ ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) لهؤلاء المعدين ردا عليهم وقطعا لمعاذيرهم وهتكا لشبههم هذا الذي افتخرتم به لا يدل على حسن الحال في الآخرة بل على عكس ذلك فقد جرت عادته تعالى انه (من كان في الضلالة) مثلكم كونا راسخا بسطه له في الدنيا وطيب عيشه في ظاهر الحال فيها ونعم بانواع الملاذ وقوله (فليمدد له الرحمن مدا) أمر بمعنى الخبر معناه فيدعه في طغيانه ويمهله في كفره بالبسط في الآثار والسعة في الديار والطول في الاعمار وانفاقها فيما يستلذ به من الاوزار ولا يزال يمد له استدراجا (حتى اذا رأوا) اى كل من كفر باعينهم (ما يوعدون) من قبل الله (اما العذاب) في الدنيا بايدي المؤمنين وغيرهم او في البرزخ (واما الساعة) أى القيامة التي هم بها مكذبون وعن الاستعداد لها معرضون ولا شئ يشبه أهوالها وخزيها ونكالها (فسيعلمون) اذا رأوا ذلك (من هو شر مكانا) اى من جهة المكان الذي يليق به المقام في قولهم خير مقاما (وأضعف جندا) اى اقل ناصرا أهم أم المؤمنون اى أضعف من جهة الجند اى الذي أشير به الى الندي في قولهم واحسن نديا لانهم في النار والمؤمنون في الجنة فهذا رد عليهم في قولهم اى الفريقين خير مقاما واحسن نديا (ويزيد الله الذين اهتدوا) الى الايمان (هدى) بما ينزل عليهم من الآيات عوض ما زوي عنهم من الدنيا اكراما لهم عكس ما بسط للضلال اهوانا لهم عليه واشار الى ان مثل ما خذل أولئك بالنوال وفق هؤلاء لمحاسن الاعمال باقلال الاموال فقال عز من قائل (والباقيات الصالحات) أى الطاعات والمعارف التي شرحت لها الصدور وأنارت بها القلوب وأوصلت الى علام الغيوب (خير عند ربك) مما متع به الكفرة والخيرية هنا في مقابلة قولهم أي الفريقين خير مقاما وقيل الباقيات الصالحات هي الصلوات وقيل التسبيح روى أبو الدرداء قال جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وأخذ عودا يابسا وأزال الورق عنه ثم قال ان قول لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله يحط الخطايا كما يحط ورق

من قوله قبل ما آمنت قبلهم من قرية وقاله بعد بذكرها جريا على الاصل (قوله فاسئلوا اهل الذكر) أمر مشركي مكة بان يسألوا اهل الذكر اي اهل الكتاب عمن مضى من الرسل هل

هذه

هذه الشجرة الربح خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن الباقيات الصالحات وهي من كنوز الجنة فكان أبو الدرداء يقول لأعملن ذلك ولأكثرن عمله حتى إذا رآني الجهال حسبوا أني مجنون قال الرازي والقول الأول أولى لأنه تعالى إنما وصفها بالباقيات الصالحات من حيث يدوم ثوابها فلا تختص ببعض العبادات فهي بأسرها باقية صالحة نظرا إلى أثرها الذي هو الهداية ثم بين تعالى خيريتها بقوله تعالى (ثوابا) أي من جهة الثواب (وخير مردا) أي من جهة العاقبة يوم الحسرة (فإن قيل) لا يجوز أن يقال هذا خير إلا والمراد أنه خير من غيره والذي عليه الكفار لا خير فيه أصلا (أجيب) بأن المراد خير مما ظنه الكفار بقولهم خير مقاما وأحسن نديا وقيل هو كقولهم الصيف أحر من الشتاء بمعنى أنه في حره أبلغ منه في برده فالكفرة يردون إلى فناء وخسارة والمؤمنون إلى ربح وبقاء ولما ذكر تعالى الدلائل أولا على صحة البعث ثم أورد شبهة المنكرين وأجاب عنها أورد عليهم الآن ما ذكروه على سبيل الاستهزاء طعنا في القول بالحشر فقال تعالى (أفرأيت الذي) أي الذي يعرض عن هذا اليوم ويزيد على ذلك بأن (كفر بآياتنا) الدالات على عظمتنا بالدلالات البينات (وقال) جراءة منه وجهلا (لأوتين) أي والله لأوتين في الساعة على تقدير قيامها (مالا وولدا) أي عظيمين فلم يكفه في جهله تعجيز القادر حتى ضم إليه اقتدار العاجز وقرأ حمزة والكسائي وولدا وكذا ولدا في جميع ما في هذه السورة بضم الواو وسكون اللام والباقون بفتح الواو واللام في الجميع يقال ولد وولد كما يقال عرب وعرب وعدم وعدم أما القراءة بفتحتين فواضحة وهو اسم مفرد قائم مقام الجمع وأما قراءة الضم والإسكان فقيل هي كالتي قبلها في المعنى وقيل بل هي جمع لولد نحو أسد وأسد وأنشدوا على ذلك

ولقد رأيت معاشرا ● قد أثمروا مالا وولدا

وأنشدوا شاهدا على أن الولد والولد مترادفان قول الآخر

فليت فلانا كان في بطن أمه ● وليت فلانا كان ولد حماره

ولما كان ما ادعاه لا علم به إلا بأحد أمرين لا علم له بواحد منهما أنكر قوله ذلك بقوله تعالى (أطلع الغيب) الذي هو غائب عن كل مخلوق فهو في بعده عن الخلق كالعالي الذي لا يمكن أحدا منهم الاطلاع إليه وتفرد به الواحد القهار (أم اتخذ) أي بغاية جهده (عند الرحمن عهدا) عاهده عليه بأن يؤتيه ما ذكر بطاعة فعلها على وجهها المتقن سبحانه وتعالى فيه عند قوله وقيل في العهد كلمة الشهادة وعن قتادة هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول وعن الكلبي هل عهد الله إليه أن يؤتيه ذلك وعن الحسن رحمه الله تعالى نزلت في الوليد بن المغيرة والمشهور أنها في العاص بن وائل قال خباب بن الأرت كان لي عليه دين فاقتضيته فقال لا والله حتى تكفر بمحمد فقلت لا والله لا أكفر بمحمد حيا ولا ميتا ولا حين تبعث قال فإني إذا مت بعثت قلت نعم قال إذا بعثت جئتني وسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك وقيل صاغ له خباب حليا فاقتضاه الأجر فقال إنكم تزعمون أنكم تبعثون وأن في الجنة ذهبا وفضة وحريرا فأنا أقضيك ثم فإني أوتى مالا وولدا فأعطيك حينئذ ثم إنه سبحانه وتعالى بين من حاله ضد ما ادعاه فقال تعالى (كلا) وهي كلمة ردع وتنبيه على الخطأ أي هو مخطئ فيما يقوله ويتمناه (سنكتب) أي نحفظ عليه (ما يقول) فنجازيه في الآخرة وقيل نأمر الملائكة حتى يكتبوا عليه ما يقول (ونمد له من العذاب مدا)

كانوا بشرا أو ملائكة (فإن قلت) كيف أمرهم بذلك مع أنهم قالوا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه (قلت) لا مانع من ذلك إذ الإخبار بعدم الإيمان بشيء لا يمنع أمره بالإتيان

اى نزيده بذلك عذابا فوق عذاب كفره وقيل نطيل مدة عذابه (ونرثه) بموته (ما يقول) اى ما عنده من المال والولد (ويأتينا) يوم القيامة (فردا) لا يصحبه مال ولا ولد كان له فى الدنيا فضلا أن يؤتى ثم زائدا قال تعالى ولقد جئتمونا فرادى وقيل فردا رافضا لهذا القول منفردا عنه ولما تكلم سبحانه وتعالى فى مسئلة الحشر والنشر تكلم الآن فى الرد على عباد الاصنام فقال (واتخذوا) اى كفار قريش (من دون الله) اى الاوثان (آلهة) يعبدونها (ليكونوا لهم عزا) اى منعة بحيث يكونون لهم شفعاء وانصارا ينقذونهم من الهلاك ثم اجاب تعالى بقوله تعالى (كلا) ردع وانكار لتعززهم بها (سيكفرون بعبادتهم) اى ستجحد الآلهة عبادتهم ويقولون ما عبدتمونا كقوله تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وفى آية اخرى ما كانوا ايانا يعبدون وقيل اراد بذلك الملائكة لانهم كانوا يكفرون بعبادتهم ويتبرؤن منهم ويخاصمونهم وهو المراد من قوله تعالى أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون وقيل ان الله تعالى يحيى الاصنام يوم القيامة حتى يوبخوا عبادهم ويتبرؤا منهم فيكون ذلك أعظم لحسرتهم ويجوز ان يراد الملائكة والاصنام (ويكونون عليهم ضدا) اى أعوانا واعداء (فان قيل) لم وحده وهو خبر عن جمع (أجيب) بانه اما مصدر فى الاصل والمصادر موحدة مذكرة واما لانه مفرد فى معنى الجمع قال الزمخشرى والضد العون وحد توحيد قوله عليه الصلاة والسلام وهم يد على من سواهم لاتفاق كلمتهم وأنهم كشىء واحد لفرط تضامهم وتوافقهم انتهى والحديث رواه أبو داود وغيره والشاهد فيه قوله يد حيث لم يقل أيد ولما ذكر تعالى مال هؤلاء الكفار مع آلهتهم فى الآخرة ذكر بعده حالهم مع الشياطين فى الدنيا وأنهم يتولونهم وينقادون اليهم فقال تعالى مخاطبا النبيه صلى الله عليه وسلم (ألم تر) اى تنظر (أنا أرسلنا) اى سلطنا (الشياطين على الكافرين تؤزهم ازا) الأز والهز والاستفزاز أخوات ومعناها التهييج وشدة الازعاج اى تغريهم على المعاصى وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات (فلا تعجل عليهم) اى تطلب عقوبتهم بان يهلكوا او يبيدوا حتى تستريح انت والمسلمون من شرورهم (انما نعد لهم عدا) اى ليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم الا أيام محصورة وانفاس معدودة ونظيره قوله تعالى ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ وعن ابن عباس كان اذا قرأها بكى وقال آخر العدد خروج نفسك آخر العدد دخول قبرك آخر العدد فراق أهلك وعن ابن السماك أنه كان عند المأمون فقرأها فقال اذا كانت الانفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد وقيل نعد أنفاسهم وأعمالهم فنجازيهم على قليلها وكثيرها وقيل نعد الاوقات الى وقت الاجل المعين لكل أحد الذى لا يتطرق اليه الزيادة والنقصان ثم بين تعالى ما سيظهر فى ذلك اليوم من الفصل بين المتقين والمجرمين فى كيفية الحشر فقال (يوم) اى واذكر يوم (نحشر المتقين) باعمالهم (الى الرحمن) اى الى محل كرامته وقوله تعالى (وفدا) حال اى وافدين عليه كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين لكرامتهم وانعامهم والوفد الجماعة الوافدون يقال وفد يفد وفدا ووفودا ووفادة اى قدم على سبيل التكرمة فهو فى الاصل مصدر ثم أطلق على الاشخاص كالصف وقال أبو البقاء وفد جمع وافد مثل ركب وراكب

وصحب

به ولو سلم فهم وان لم يؤمنوا
بكتاب اهل الكتاب لكن
النقل المتواتر من اهل
الكتاب فى أمر يفيد العلم
لمن يؤمن بكتابهم ولمن لا يؤمن
به (قوله ولا يستحسرون)
اى لا يعيون (قوله وجعلنا

وصحب وصاحب وهذا الذى قاله ليس بمذهب سيبويه لان فاعلا لا يجمع على فعل عند سيبويه واجازه الاخفش وجرى عليه الجلال المحلى فقال وفد جمع وافد بمعنى راكب انتهى وقال ابن عباس وفدا ركبانا وقال ابو هريرة على الابل وقال على رضى الله تعالى عنه والله ما يحشرون على ارجلهم ولكن فوق نوق رحالها الذهب ونجائب سروجها يواقيت ان هموا بها سارت وان هموا بها طارت (ونسوق المجرمين) بكفرهم (الى جهنم) وقوله تعالى (وردا) حال اى مشاة باهانة واستخفاف كانهم نعم عطاش تساق الى الماء وقيل عطاشا قد تقطعت اعناقهم من شدة العطش لان من يرد الماء لا يرد الا بعطش وحقيقة الورود المسير الى الماء وقوله تعالى (لا يملكون الشفاعة) الضمير فيه للعباد المدلول عليها بذكر المتقين والمجرمين وقيل للمتقين وقيل للمجرمين وقوله تعالى (الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) استثناء متصل على القولين الاولين منقطع على الثالث والمعنى أن الشافعين لا يشفعون الا لمن اتخذ عند الرحمن عهدا كقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى ويدخل فى ذلك أهل الكبائر من المسلمين اذ كل من اتخذ عند الرحمن عهدا وجب دخوله فيه وصاحب الكبيرة اتخذ عند الرحمن عهدا وهو التوحيد فوجب دخوله تحته ويؤيده ما روى عن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه ذات يوم أيعجز أحدكم ان يتخذ عند كل صباح ومساء عند الله عهدا قالوا وكيف ذلك قال يقول كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انى أعهد اليك بانى أشهد ان لا اله الا أنت وحدك لا شريك لك وان محمدا عبدك ورسولك فلا تكلنى الى نفسى فانك ان تكلنى الى نفسى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير وانى لا أثق الا برحمتك فاجعل لى عندك عهدا توفينيه يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد فاذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع ووضع تحت العرش فاذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة فظهر أن المراد من العهد كلمة الشهادة وظهر وجه الدلالة على ثبوت الشفاعة لاهل الكبائر ۞ ولما رد سبحانه وتعالى على عبدة الاوثان عاد الى الرد على من أثبت له ولدا بقوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) اى قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكة بنات الله (لقد جئتم شيأ ادّا) قال ابن عباس اى منكرا وقال قتادة اى عظيما وقال ابن خالويه الاد والادّ العجب وقيل العظيم المنكر والادة الشدة وأدنى الامر وآدنى أثقلنى وعظم علىّ وقرأ (تكاد السموات) نافع والكسائى بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وقرأ (ينفطرن منه) أبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة بعد الياء بنون ساكنة وكسر الطاء مخففا والباقون بعد الياء بتاء وفتح الطاء مشددة يقال انفطر الشئ وتفطر اى تشقق وقراءة التشديد أبلغ لان التفعل مطاوع فعل والانفعال مطاوع فعل ولان اصل التفعل التكلف (وتنشق الارض) اى تخسف بهم (وتخر الجبال هدا) اى تسقط وتنطبق عليهم (أن) اى من اجل أن (دعوا للرحمن ولدا) قال ابن عباس وكعب فزعت السموات والارض والجبال وجميع الخلائق الا الثقلين وكادت ان تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا اتخذ الله ولدا (فان قيل) كيف يؤثر القول فى انفطار السموات وانشقاق الارض وخرور الجبال

من الماء كل شئ حى) وان قلت كيف قال ذلك الشامل لقوله فى النور والله خلق كل دابة من ماء مع ان لنا اشياء أحياء لم تخلق من الماء وهم الملائكة والجن وآدم وناقة صالح اذ الملائكة خلقت من نور والجن من

(أجيب) بوجوه الاول أن الله تعالى يقول كدت افعل هذا بالسموات والارض والجبال عند
وجود هذه الكلمة غضبا مني على من تفوه بها لولا حلمي واني لا أعجل بالعقوبة الثاني ان يكون
استعظاما للكلمة وتهويلا وتصويرا لاثرها في الدين وهدمها لقواعده واركانه الثالث
ان السموات والارض والجبال تكاد ان تفعل كذلك لو كانت تعقل هذا القول ثم نفى الله
تعالى عن نفسه الولد بقوله تعالى (وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولدا) اي ما يليق به اتخاذ الولد لان
ذلك محال اما الولادة المعروفة فلا مقالة في امتناعها واما التبني فان الولد لابد وأن يكون شبيها
بالوالد ولا شبيه لله تعالى لان اتخاذ الولد انما يكون لاغراض اما من سرور واستعانة أو ذكر
جميل وكل ذلك لا يصح في حق الله تعالى (ان) اي ما (كل من في السموات والارض) اي ان كل
معبود من الملائكة في السموات والارض من الناس منهم العزير وعيسى (الا آتي الرحمن)
اي ملتجئ الى ربوبيته (عبدا) منقادا مطيعا ذليلا خاضعا كما يفعل العبيد ومن المفسرين
كالجلال المحلي من حمله على يوم القيامة خاصة والاول اولى لانه لا تخصيص في الآية (لقد
احصاهم) اي حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوزة علمه وقبضته وقدرته وكلهم
تحت تدبيره وقهره (وعدهم عدا) اي عد اشخاصهم وأيامهم وأنفاسهم وأفعالهم فان كل
شيء عنده بمقدار لا يخفى عليه شيء من أمورهم (وكلهم آتيه) اي كل واحد منهم يأتيه (يوم
القيامة فردا) اي وحيدا ليس معه من الدنيا شيء من مال او نصير يمنعه * ولما رد سبحانه
وتعالى على اصناف الكفرة وبالغ في شرح أحوالهم في الدنيا والآخرة ختم السورة بذكر
احوال المؤمنين فقال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) اي سيحدث
لهم في القلوب مودة من غير تعرض منهم لاسبابها من قرابة او صداقة او اصطناع معروف
أو غير ذلك روى الشيخان انه صلى الله عليه وسلم قال اذا أحب الله عبدا يقول لجبريل احببت
فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في أهل السماء ان الله قد أحب فلانا فاحبوه فيحبه اهل
السماء ثم توضع له المحبة في الارض واذا أبغض الله العبد قال مالك لا أحبه الا قال في البغض
مثل ذلك والسين في سيجعل اما لان السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة
فوعدهم الله تعالى ذلك اذا قوي الاسلام والمعنى سيحدث لهم في القلوب مودة واما ان يكون
ذلك يوم القيامة يحببهم الله الى خلقه بما يظهر من حسناتهم وروي عن كعب قال مكتوب
في التوراة لا محبة لاحد في الارض حتى يكون ابتداؤها من السماء من الله عز وجل ينزلها
على اهل السماء ثم على اهل الارض ومصداق ذلك في القرآن قوله سيجعل لهم الرحمن ودا وقال
ابو مسلم معناه يهب لهم ما يحبون والود والمحبة سواء * ولما ذكر سبحانه وتعالى في هذه السورة
التوحيد والنبوة والحشر والرد على فرق المبطلين بين تعالى انه يسر ذلك بلسان نبيه صلى الله
عليه وسلم بقوله (فانما يسرناه) اي القرآن (بلسانك) اي العربي اي لولا أنه تعالى نقل قصصهم
الى اللغة العربية لما تيسر ذلك لك (لتبشر به المتقين) اي المؤمنين (وتنذر) اي تخوف (به
قوما لدا) جمع ألد اي جدل بالباطل وهم كفار مكة ثم انه تعالى ختم السورة بموعظة عظيمة بليغة
فقال تعالى (وكم) اي كثيرا (اهلكنا قبلهم من قرن) اي أمة من الامم الماضية بتكذيب
الرسل لانهم اذا تأملوا وعلموا أنه لابد من زوال الدنيا وانه لابد فيها من الموت وشاهدوا سوء

فابو ادم من تراب وناقة صالح من حجر لا من ماء (قلت) المراد به البعض كما في قوله تعالى وأوتيت من كل شيء وقوله وجاءهم الموج من كل مكان او الكل مخلوق من الماء لان الله خلق قبل

العاقبة

العاقبة في الآخرة كانوا الى الحذر من المعاصي اقرب ثم أكد ذلك بقوله تعالى (هل تحس) اي ترى وقيل تجد (منهم من احد او تسمع لهم ركزا) اي صوتا خفيا الاقال الحسن بادوا جميعا فلم يبق منهم عين ولا اثر اي فكما اهلكنا اولئك نهلك هؤلاء (تنبيه) الركز الصوت الخفي دون نطق بحروف ولا فم ومنه ركز الرمح اي غيبه في الارض واخفاه ومنه الركاز وهو المال المدفون لخفائه واستتاره والحديث الذي ذكره البيضاوي تبعا للزمخشري وهو من قرأ سورة مريم أعطي عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى وعيسى ومريم وسائر الانبياء المذكورين فيها وبعدد من دعا الله في الدنيا ومن لم يدع الله تعالى حديث موضوع

سورة طه عليه الصلاة والسلام مكية

وهي مائة وخمس وثلاثون آية وعدد كلماتها الف وثمانمائة واحدى واربعون كلمة وعدد حروفها خمسة آلاف ومائتان واثنان واربعون حرفا وعن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أعطيت السورة التي ذكرت فيها البقرة من الذكر الاول واعطيت طه ويس والطواسين من الواح موسى واعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التي ذكرت فيها البقرة من تحت العرش واعطيت المفصل نافلة

(بسم الله) الملك الحق المبين (الرحمن) الذي عم نعمه على خلقه اجمعين (الرحيم) الذي خص بجنته عباده المؤمنين وقرأ (طه) شعبة وحمزة والكسائي بامالة الطاء والهاء وافقهم ورش وابو عمرو على امالة الهاء محضة ولم يعل ورش محضة الا هذه الهاء وقد تقدم الكلام في الحروف المقطعة في اول سورة البقرة وفي هذه ههنا قولان الصحيح انها من ذلك وقيل انها كلمة مفيدة اما على القول الاول فقد تقدم الكلام فيه في اول سورة البقرة والذي زادوه هنا امور احدها قال الثعلبي الطاء شجرة طوبى والهاء الهاوية فكأنه اقسم بالجنة والنار ثانيها يحكى عن جعفر الصادق الطاء طهارة اهل البيت والهاء هدايتهم ثالثها قال سعيد بن جبير هذا افتتاح اسمه الطيب الطاهر الهادي رابعها طمع الشفاعة للامة وهادي الخلق الى الله خامسها الطاء من الطهارة والهاء من الهداية فكأنه قيل يا طاهرا من الذنوب يا هاديا الى علام الغيوب سادسها الطاء طول القراء والهاء هيبتهم في قلوب الكفار قال تعالى سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب سابعها الطاء بتسعة في الحساب والهاء بخمسة تكون اربعة عشر ومعناها يا أيها البدر واما على القول الثاني فقيل معنى طه يا رجل وهو مروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبي ثم قال سعيد بن جبير بالنبطية وقال قتادة بالسريانية وقال عكرمة بالحبشية وقال الكلبي بلغة عك وهو بتشديد الكاف ابن عدنان أخو معد وحكى الكلبي انك لو قلت في عك يا رجل لم يجب حتى تقول طه وقال السدي معناه يا فلان وقيل انه صلى الله عليه وسلم كان يقوم في تهجده على احدى رجليه فامر أن يطأ الارض بقدميه معا وقال الكلبي لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي بمكة اجتهد في العبادة حتى كان يراوح بين قدميه في الصلاة لطول قيامه وكان يصلي الليل كله فانزل الله عليه هذه الآية وأمره ان يخفف على نفسه فقال تعالى (ما أنزلنا عليك القرآن

خلق الانسان جوهرة وتنظر اليها نظر هيبة فاستحالت ماء فخلق من ذلك الماء جميع المخلوقات أو خلقهم من الماء اما بواسطة او بغيرها ولهذا قيل انه تعالى خلق

لتشقى) اى لتتعب بما فعلت بعد نزوله من طول قيامك بصلاة الليل اى خفف عن نفسك فقد ورد انه صلى الله عليه وسلم صلى الليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام أبق على نفسك فان لها عليك حقا ما أنزلناه لتهلك نفسك بالصلاة وتذيقها المشقة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة وروى انه كان اذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام وقيل لما رأى المشركون اجتهاده فى العبادة قالوا انك لتشقى حيث تركت دين آبائك اى لتتعنى وتتعب وما أنزل عليك القرآن يا محمد الا لشقائك فنزلت واصل الشقاء فى اللغة العناء وقيل المعنى انك لا تلام على كفر قومك كقوله تعالى لست عليهم بمسيطر وقوله تعالى وما أنت عليهم بوكيل اى انك لا تؤاخذ بذنبهم وقيل ان هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت مقهورا تحت ذل الاعداء فكأنه تعالى قال لا تظن انك تبقى أبدا على هذه الحالة بل يعلو امرك ويظهر قدرك فانا ما أنزلنا عليك القرآن لتبقى شقيا فيما بينهم بل لتصير معظما مكرما وقرأ حمزة والكسائى بالامالة وأبو عمرو بين بين وورش بين اللفظين والفتح عنه ضعيف جدا وكذا جميع رؤس آى هذه السورة من ذوات الياء وقوله تعالى (الا تذكرة) استثناء منقطع اى لكن انزلناه تذكرة قال الزمخشرى فان قلت هل يجوز ان يكون تذكرة بدلا من محل لتشقى قلت لا لاختلاف الجنسين ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذى الا فيه بمعنى لكن (لمن يخشى) اى لمن فى قلبه خشية ورقة يتأثر بالانذار أو لمن علم الله تعالى منه أن يخشى بالتخويف منه فانه المنتفع به وقوله تعالى (تنزيلا) بدل من اللفظ بفعله الناصب له (ممن خلق الارض) اى من الله الذى خلق الارض (والسموات العلى) اى العالية الرفيعة التى لا يقدر على خلقها فى عظمها غير الله تعالى والعلى جمع عليا كقولهم كبرى وكبر وصغرى وصغر وقدم الارض على السموات لانها أقرب الى الحس واظهر عنده من السموات ثم اشار الى وجه احداث الكائنات وتدبير امرها بان قصد العرش وأجرى منه الاحكام والتقادير وانزل منه الاسباب على ترتيب ومقادير حسبما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته فقال تعالى (الرحمن على العرش) وهو سرير الملك (استوى) اى استواء يليق به فانه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان واذا خلق الخلق لا يحتاج الى مكان فهو بالصفة التى كان لم يزل عليها وتقدم الكلام على ذلك فى سورة الاعراف مستوفى فراجعه ثم استدل سبحانه وتعالى على كمال قدرته بقوله تعالى (له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى) فهو مالك لما فى السموات من ملك ونجم وغيرهما ومالك لما فى الارض من المعادن والفلوات ومالك لما بينهما من الهواء ومالك لما تحت الثرى وهو التراب الندى والمراد الارضون السبع لانها تحته وقال ابن عباس ان الارضين على ظهر النون والنون على بحر ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها وهى الصخرة التى ذكر الله تعالى فى قصة لقمان فتكن فى صخرة والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى وما تحت الثرى لا يعلمه الا الله عز وجل وذلك الثور فاتح فاه فاذا جعل الله تعالى البحار بحرا واحدا سالت فى جوف ذلك الثور فاذا وقعت فى جوفه يبست وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة وورش بين اللفظين وكذا جميع رؤس آى السورة من ذوات الراء ولما كانت القدرة تابعة للارادة وهى لا تنفك عن العلم عقب

الملائكة من ريح خلقها من الماء والجن من نار خلقهم من الماء وآدم من تراب خلقه من الماء (قوله كل نفس ذائقة الموت) الى قوله والينا ترجعون اى الى الجنة او النار

ذلك باحاطة علمه تعالى بجليات الامور وخفياتها على حد سواء فقال تعالى (وان تجهر بالقول) اى تعلن بالقول فى ذكر او دعاء فالله تعالى غنى عن الجهر به (فانه يعلم السر واخفى) قال الحسن فى السر ما أسر الرجل الى غيره وأخفى من ذلك ما أسر فى نفسه وعن ابن عباس السر ما تسر فى نفسك وأخفى من السر ما يلقيه الله تعالى فى قلبك من بعد ولا تعلم انك تحدث به نفسك لانك تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غدا والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسر غدا وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس السر ما اسر ابن آدم فى نفسه وأخفى ما خفى عليه مما هو فاعله قبل ان يعلمه وقال مجاهد السر العمل الذى يسر من الناس وأخفى الوسوسة وقيل السر هو العزيمة وأخفى ما يخطر على القلب ولم يعزم عليه وقال زيد بن أسلم يعلم أسرار العباد واخفى سره من عباده فلا يعلمه احد ولما ذكر صفاته وحد نفسه فقال تعالى (الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى) التسعة والتسعون الوارد بها الحديث والحسنى تانيث الاحسن وفضل اسماء الله تعالى على سائر الاسماء فى الحسن لدلالتها على معان هى اشرف المعانى وافضلها روى ان لله تعالى اربعة آلاف اسم ألف لا يعلمها الا هو وألف لا يعلمها الا الله والملائكة وألف لا يعلمها الا الله والملائكة والانبياء وأما الالف الرابعة فالمؤمنون يعلمونها فثلثمائة فى التوراة وثلثمائة فى الانجيل وثلثمائة فى الزبور ومائة فى القرآن تسعة وتسعون منها ظاهرة وواحد مكنون من أحصاها دخل الجنة وذكر فى لا اله الا الله فضائل كثيرة أذكر بعضها وأسأل الله تعالى ان يجعلنا ومحبينا من أهلها روى انه صلى الله عليه وسلم قال أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء أستغفر الله ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى خلق ملكا من الملائكة قبل ان يخلق السموات والارض وهو يقول أشهد ان لا اله الا الله مادا بها صوته لا يقطعها ولا يتنفس فيها ولا يتمها فاذا أتمها أمر اسرافيل بالنفخ فى الصور وقامت القيامة تعظيما لله وعن أنس قال صلى الله عليه وسلم مازلت أشفع الى ربى ويشفعنى واشفع اليه ويشفعنى حتى قلت يارب شفعنى فيمن قال لا اله الا الله فقال يا محمد ليست لك ولا لاحد وعزتى وجلالى لا أدع أحدا فى النار قال لا اله الا الله وقال سفيان الثورى سألت جعفر بن محمد عن حم عسق فقال الحاء حلمه والميم ملكه والعين عظمته والسين سناؤه والقاف قدرته يقول الله عز وجل بحلمى وملكى وعظمتى وسنائى وقدرتى لا أعذب بالنار من قال لا اله الا الله محمد رسول الله وروى عن موسى عليه السلام انه قال يارب علمنى شيأ أذكرك به قال قل لا اله الا الله قال انما أردت شيأ تخصنى به قال ياموسى لو أن السموات السبع ومن فوقهن فى كفة ولا اله الا الله فى كفة لمالت بهن لا اله الا الله وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة انها لا اله الا الله اليه يصعد الكلم الطيب لا اله الا الله وتواصوا بالحق لا اله الا الله قل انما أعظكم بواحدة لا اله الا الله وقفوهم انهم مسؤلون عن قول لا اله الا الله بل جاء بالحق وصدق المرسلين هو لا اله الا الله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة هو لا اله الا الله ويضل الله الظالمين عن قول لا اله الا الله وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال فى السوق لا اله الا الله وحده

قال ذلك هنا بالواو موافقة للتعبير بها فيما زاده هنا بقوله ونبلوكم بالشر والخير فتنة وقاله فى العنكبوت بثم لدلالتها على تراخى الرجوع المذكور وعن بلوى الدنيا ولم يقع ذكرها

لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتا في الجنة قال الرازي وفي النكت ينبغي لأهل لا إله إلا الله أن يعظموا في أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا إله إلا الله التصديق والتعظيم والحلاوة والحرمة فمن ليس له التصديق فهو منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له الحلاوة فهو مراء ومن ليس له الحرمة فهو فاجر وكذاب * وحكي أن بشرا الحافي رأى كاغدا فيه بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطيبه بالمسك فرأى في النوم كأنه نودي يا بشر طيبت اسمنا فنحن نطيب اسمك في الدنيا والآخرة * وذكر أن صيادا كان يصيد السمك وكانت ابنته تطرحها في الماء وتقول إنما وقعت في الشبكة لغفلتها عن ذكر الله الصبية كانت ترحم غفلتها وكانت تلقيها مرة أخرى في البحر ونحن قد اصطادتنا وسوسة الشيطان وأخرجنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك وخلصنا منه وألقنا في بحار رحمتك مرة أخرى وعن محمد بن كعب القرظي قال قال موسى إلهي أي خلقك أكرم عليك قال الذي لا يزال لسانه رطبا من ذكري قال فأي خلقك أعظم قال الذي يلتمس إلى علمه علم غيره قال فأي خلقك أعدل قال الذي يقضي على نفسه كما يقضي على الناس قال وأي خلقك أعظم جرما قال الذي يتهمني وهو الذي يسألني ثم لا يرضى بما قسمت له إلهنا أنا لا نتهمك فإنا نعلم أن كل ما أحسنت به فهو فضل وكل ما لا تفعله فهو عدل فلا تؤاخذنا بسوء أفعالنا وأعمالنا وعن الحسن إذا كان يوم القيامة نادى مناد سيعلم الجمع من أولى بالكرم أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون فيتخطون رقاب الناس ثم يقال أين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ثم ينادي مناد أين الحامدون الله كثيرا على كل حال ثم يكون الحساب على من بقي إلهنا نحن حمدناك وأثنينا عليك بمقدار طاقتنا ومنتهى قدرتنا فاعف عنا بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين * ولما عظم الله تعالى حال القرآن وحال رسوله صلى الله عليه وسلم بما كلفه أتبع ذلك بما يقوي قلب رسوله صلى الله عليه وسلم من ذكر أحوال الأنبياء تقوية لقلبه في الإبلاغ كقوله تعالى وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وبدأ بموسى عليه السلام لأن فتنته كانت أعظم الفتن ليتسلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ويصبر على تحمل المكاره فقال تعالى (وهل أتاك حديث موسى) وهذا يحتمل لأن يكون هذا أول ما أخبره من أمر موسى فقال وهل أتاك أي لم يأتك إلى الآن فتنبه له وهذا قول الكلبي ويحتمل أن يكون قد أتاه ذلك في الزمان المتقدم فكأنه قال أليس قد أتاك وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس وهذا وإن كان على لفظ الاستفهام الذي لا يجوز على الله تعالى لكن المقصود منه تقرير الخبر في نفسه وهذه الصورة أبلغ في ذلك كقولك لصاحبك هل بلغك عني كذا فيتطلع السامع إلى معرفة ما يومئ إليه ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل موسى لا من قبل الله تعالى وقيل إن هل بمعنى قد وجرى على ذلك الجلال المحلي تبعا للبغوي وقوله تعالى (إذ رأى) يجوز أن يكون منصوبا بالحديث وهو الظاهر ويجوز أن ينتصب باذكر مقدرا أي واذكر إذ رأى (نارا) وذلك أن موسى عليه السلام استأذن شعيبا عليه السلام في الرجوع من مدين إلى مصر لزيارة والدته وأخيه فأذن له فخرج بأهله وماله وكانت أيام شتاء وأخذ على غير الطريق مخافة

تعب بواو وحذف ثم ما زاده هنا اختصارا (قوله بل فعله كبيرهم هذا) قاله استهزاء وتهكما بمن استفهموه الا فعاله هو نفسه أو انه لما كان الحامل له على الفعل تعظيمهم

ملوك الشام وامرأته حامل في شهرها لا تدري أليلا تضع أو نهارا فسار في البرية غير عارف بطرقها فألجأه السير إلى جانب الطور الغربي الأيمن في ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد قيل كانت ليلة جمعة وأخذت امرأته في الطلق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وجعل يقدح زنده فلا يوري فأبصر نارا من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور (فقال لأهله امكثوا) أي أقيموا في مكانكم والخطاب لامرأته وولدها والخادم ويجوز أن يكون للمرأة وحدها أخرج على ظاهر لفظ الأهل فإن الأهل يقع على الجمع وأيضا قد يخاطب الواحد بلفظ الجمع تفخيما وقرأ حمزة بضم الهاء في الوصل والباقون بالكسر (إني آنست) أي أبصرت (نارا) والإيناس الإبصار البين الذي لا شبهة فيه ومنه انسان العين لأنه يتبين به الشيء والانس لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم وقيل ابصار ما يؤنس به ولما وجد منه الإيناس وكان متيقنا حققه لهم بكلمة إني ليوطن أنفسهم ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بني الأمر فيهما على الرجاء والطمع فقال (لعلي آتيكم منها بقبس) أي شعلة في رأس فتيلة أو عود ونحو ذلك وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء في إني ولعلي الآتية والباقون بالسكون إلا ابن عامر ففتح لعلي مع من ذكروهم على مراتبهم في المد (أو أجد على النار هدى) أي هاديا يدلني على الطريق ومعنى الاستعلاء في على النار أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها كما قال سيبويه في مررت بزيد أنه لصوق بمكان يقرب من زيد أو لأن المصطلين بها إذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها وقال بعضهم النار أربعة أقسام نار تأكل ولا تشرب وهي نار الدنيا ونار تشرب ولا تأكل وهي التي في الشجر الأخضر كما قال تعالى الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ونار تأكل وتشرب وهي نار المعدة ونار لا تأكل ولا تشرب وهي نار موسى عليه السلام وقيل أيضا النار أربعة أحدها نار لها نور بلا حرقة وهي نار موسى عليه السلام ثانيها لها حرقة بلا نور وهي نار جهنم أعاذنا الله تعالى منها ثالثها لها الحرقة والنور وهي نار الدنيا رابعها لا حرقة ولا نور وهي نار الأشجار (تنبيه) إن وصلت هدى بفلما فليس فيها إلا التنوين للجميع وإن وقف عليها فهم على أصولهم في الفتح والإمالة وبين اللفظين (فلما أتاها) أي النار قال ابن عباس رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها أطافت بها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون فوقف متعجبا من شدة ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة يغير ضوء النار قال ابن مسعود كانت الشجرة سمرة خضراء وقال مقاتل وقتادة والكلبي كانت من العوسج وقال وهب كانت من العليق وقيل من العناب قال أكثر المفسرين إن الذي رآه موسى لم يكن نارا بل كان من نور الرب تعالى وهو قول ابن عباس وعكرمة وغيرهما ذكر بلفظ النار لأن موسى عليه السلام حسبه نارا فلما دنا منها سمع تسبيح الملائكة ورأى نورا عظيما قال وهب ظن موسى أنها نار أوقدت فأخذ من دقاق الحطب وهو الحشيش اليابس ليقتبس من لهبها فمالت إليه كأنها تريده فتأخر عنها وهابها ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها ثم لم يكن بأسرع من خمودها كأنها لم تكن ثم رمى موسى ببصره إلى فروعها فإذا خضرتها ساطعة في السماء وإذا نور بين السماء والأرض له شعاع تكل عنه الأبصار فلما رأى موسى عليه السلام ذلك وضع يديه على عينيه وألقيت عليه السكينة (نودي يا موسى إني

للأصنام وكان كبيرها أبعث له على الفعل لمزيد تعظيمهم له أسند الفعل إليه لأنه السبب فيه (قوله يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم) • إن قلت كيف خاطب النار مع أنها

أنا ربك) قال وهب نودي من الشجرة فقيل يا موسى فأجاب سريعا ولم يدر من دعاه فقال اني أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت فقال انا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب اليك منك فعلم ان ذلك لا ينبغي الا لله تعالى فأيقن به وقيل انه سمع بكل اجزائه حتى ان كل جارحة منه كانت أذنا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الهمزة من اني على تقدير الباء اي باني لان النداء يوصل بها تقول ناديته بكذا وأنشد الفارسي قول الشاعر

ناديت باسم ربيعة بن مكدم • ان المنوه باسمه الموثوق

وجوز ابن عطية ان تكون بمعنى لاجل وليس بظاهر والباقون بالكسر اما على اضمار القول كما هو رأي البصريين اي فقيل واما لان النداء في معنى القول عند الكوفيين وقوله تعالى انا يجوز ان يكون مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر ان ويجوز أن يكون توكيدا للضمير المنصوب ويجوز أن يكون فصلا وروى ابن مسعود مرفوعا في قوله تعالى (فاخلع نعليك) انهما كانتا من جلد حمار ميت ويروى غير مدبوغ فأمر بخلعهما صيانة للوادي المقدس وقال عكرمة ومجاهد انما أمر بذلك ليباشر بقدميه تراب الارض المقدسة فيناله بركتها ويدل لذلك انه قال تعالى عقبه (انك بالوادي المقدس) اي المطهر أو المبارك فخلعهما وألقاهما من وراء الوادي هذا ما قاله أهل التفسير وذكر أهل الاشارة في ذلك وجوها أحدها ان النعل في النوم يعبر بالزوجة وقوله فاخلع نعليك اشارة الى انه لا يلتفت بخاطره الى الزوجة والولد وان لا يبقى مشغول القلب بامرهما ثانيها المراد بخلع النعلين ترك الالتفات الى الدنيا والآخرة كأنه أمره ان يصير مستغرق القلب بالكلية في معرفة الله تعالى فلا يلتفت الى المخلوقات ثالثها ان الانسان حال الاستدلال على وجود الصانع لا يمكنه ان يتوصل اليه الا بمقدمتين مثل ان يقول العالم المحسوس محدث وكل ما كان كذلك فله مؤثر ومدبر وصانع فهاتان المقدمتان شبيهتان بالنعلين لان بهما يتوصل العقل الى المقصود وينتقل من النظر في الخلق الى معرفة الخالق ثم بعد الوصول الى معرفة الخالق وجب ان لا يبقى ملتفتا الى تلك المقدمتين فكأنه قيل لا تكن مشتغل الخاطر بتلك المقدمتين فانك وصلت الى الوادي المقدس الذي هو بحر معرفة الله تعالى وقوله تعالى (طوى) بدل أو عطف بيان وقرأه هنا وفي النازعات نافع وابن كثير وأبو عمرو بغير تنوين فهو ممنوع من الصرف باعتبار البقعة مع العلمية وقيل لانه معدول عن طاو فهو مثل عمر للعدل عن عامر وقيل انه اسم أعجمي ففيه العلمية والعجمة والباقون بالتنوين فهو مصروف باعتبار المكان ففيه العلمية فقط وعند هؤلاء ليس باعجمي وقوله تعالى (وأنا اخترتك) اي اصطفيتك للرسالة من قومك قرأ حمزة بتشديد النون من أنا وقرأ اخترناك بنون بعدها ألف بلفظ الجمع والباقون بتاء مضمومة وقوله تعالى (فاستمع لما يوحى) اي اليك مني فيه نهاية الهيبة والجلالة كأنه تعالى قال لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفا اليه وفي قوله تعالى وأنا اخترتك نهاية اللطف والرحمة فيحصل له من الاول نهاية الرجاء ومن الثاني نهاية الخوف • (تنبيه) • يجوز في لام لما ان تتعلق باستمع وهو أولى وان تكون مزيدة في المفعول على حد قوله تعالى ردف لكم وجوز الزمخشري ان يكون ذلك من باب التنازع ونازعه أبو حيان بانه لو كان كذلك لاعاد الضمير مع الثاني فكان يقول فاستمع له لما يوحى وأجيب عنه بان مراده

(قلت) خطاب لا يعقل التوسيل والتكوين لا يختص بمن يعقل كما قال تعالى يا جبال أوبي معه وقال فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا وقيل يا أرض ابلعي ماءك الآية (قوله وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين)

التعلق المعنوى من حيث الصلاة وأما تقدير الصناعة فلا يعنه وقوله تعالى (انى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى) بدل على أن ما يوحى دال على أنه مقصور على تقرير التوحيد الذى هو منتهى العلم والامر بالعبادة التى هى كمال العمل وفى هذه الآية دلالة على ان علم أصول الدين مقدم على علم الفروع لان التوحيد من علم الاصول والعبادة من علم الفروع وأيضا فالفاء فى قوله تعالى فاعبدنى تدل على ان عبادته انما لزمت لالهيته وخص الصلاة بالذكر وأفردها فى قوله تعالى (وأقم الصلوة لذكرى) للعلة التى أناط بها اقامتها وهو تذكير المعبود وشغل القلب واللسان بذكره وقيل لذكرى لانى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها وقيل لاوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة أو لذكر صلاتى لما روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال من نام عن صلاة أو نسيها فليقضها اذا ذكرها ان الله يقول وأقم الصلاة لذكرى وقيل لان أذكرك بالثناء والمدح واجعل لك عليها لسان صدق عليا وقيل لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى * ولما خاطب تعالى موسى عليه السلام بقوله تعالى فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى أتبعه بقوله تعالى (ان الساعة آتية) اى كائنة (أكاد أخفيها) قال أكثر المفسرين معناه أكاد أخفيها من نفسى فكيف يعلمها غيرى من الخلق وكيف أظهرها لكم ذكر تعالى على عادة العرب اذا بالغوا فى كتمان الشئ يقول الرجل كتمت سرى من نفسى اى أخفيته غاية الاخفاء والله تعالى لا يخفى عليه شئ والمعنى فى اخفائها التهويل والتخويف لانهم اذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت وكذلك المعنى فى اخفاء وقت الموت لان الله تعالى وعد قبول التوبة فاذا عرف وقت موته وانقضاء أجله اشتغل بالمعاصى الى ان يقرب ذلك الوقت فيتوب ويصلح العمل فيتخلص من عقاب المعاصى بتعريف وقت موته فتعريف وقت الموت كالاغراء بفعل المعصية فاذا لم يعلم وقت موته لا يزال على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصى أو يتوب منها فى كل وقت خوف معاجلة الاجل وقال أبو مسلم أكاد بمعنى أريد وهو كقوله تعالى كذلك كدنا ليوسف ومن أمثالهم المتداولة لا أفعل ذلك ولا أكاد اى لا أريد ان أفعله وقال الحسن ان أكاد من الله واجب فمعنى قوله تعالى أكاد أخفيها اى أنا أخفيها عن الخلق كقوله تعالى عسى أن يكون قريبا اى هو قريب وقيل أكاد صلة فى الكلام والمعنى ان الساعة آتية أخفيها قال زيد الخيل

سريع الى الهيجاء شاك سلاحه * فما ان يكاد قرنه يتنفس

اى فما ان يتنفس قرنه وقوله تعالى (لتجزى كل نفس بما تسعى) اى تعمل من خير أو شر متعلق بآتية واختلف فى المخاطب بقوله تعالى (فلا يصدنك) اى يصرفنك (عنها من لا يؤمن بها) فقيل وهو الاقرب كما قاله الرازى انه موسى عليه السلام لان الكلام أجمع خطاب له وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم واختلف أيضا فى عود هذين الضميرين على وجهين أحدهما قال أبو مسلم لا يصدنك عنها اى عن الصلاة التى أمرتك بها من لا يؤمن بها اى بالساعة فالضمير الاول عائد الى الصلاة والثانى الى الساعة ومثل هذا جائز فى اللغة فالعرب تلف الخبرين ثم ترمى بجوابهما جملة ليرد السامع الى كل خبر حقه ثانيهما قال ابن عباس فلا يصدنك عن الساعة أى عن الايمان بها من لا يؤمن بها فالضميران عائدان الى يوم القيامة وهذا أولى لان الضمير يعود

قاله هنا بلفظ الاخسرين وفى الصافات بلفظ الاسفلين لان ما هنا تقدمه ان ابراهيم كادهم وانهم كادوه وانه غلبهم فى الكيد فخسرت تجارتهم حيث كسر اصنامهم ولم

الى أقرب المذكورات وههنا الاقرب هو الساعة وماقاله أبو مسلم انما يصار اليه عند الضرورة ولا ضرورة ههنا ٭(تنبيه)٭ المقصود من ذلك نهي موسى عليه السلام عن التكذيب بالبعث ولكن ظاهر اللفظ يقتضي نهي من لم يؤمن عن صد موسى وفيه وجهان أحدهما ان صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على حمله على المسبب الثاني ان صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين فذكر المسبب ليدل على السبب كقولهم لا أرينك ههنا المراد نهي المخاطب عن حضوره لا أن يراه هو فالرؤية مسببة عن الحضور كما أن صد الكافر مسبب عن الرخاوة والضعف في الدين فقيل لا تكن رخوا بل كن شديدا صلبا حتى لا يلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه (واتبع هواه) اي ميل نفسه الى اللذات المحبوبة المخدجة لقصر نظره عن غيرها وخالف أمر الله (فتردى) اي فتهلك ان انصددت عنها وما في قوله تعالى (وما تلك بيمينك) مبتدأ استفهامية وتلك خبره وبيمينك حال من معنى الاشارة وقوله تعالى (ياموسى) تكرير لانه ذكره قبل في قوله تعالى نودي ياموسى وبعد في مواضع كأقولها ياموسى لزيادة الاستئناس والتنبيه (فان قيل) السؤال انما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة في ذلك (أجيب) بان في ذلك فوائد الاولى توقيفه على انها عصا حتى اذا قلبها حية علم انها معجزة عظيمة وهذا على عادة العرب يقول الرجل لغيره هل تعرف هذا وهو لا يشك أنه يعرفه ويريد أن يضم اقراره بلسانه الى معرفته بقلبه الثانية ان يقرر عنده انها خشبة حتى اذا قلبها ثعبانا لا يخافها الثالثة انه تعالى لما أراه تلك الانوار المتصاعدة من الشجرة الى السماء وأسمعه كلام نفسه ثم أورد عليه التكليف الشاق وذكر له المعاد وختم ذلك بالتهديد العظيم فتحير موسى عليه السلام ودهش فقيل له وما تلك بيمينك ياموسى وتكلم معه بكلام البشر ازالة لتلك الدهشة والحيرة (فان قيل) هذا خطاب من الله تعالى لموسى بلا واسطة ولم يحصل ذلك لمحمد صلى الله عليهما وسلم (أجيب) بالمنع فقد خاطبه في قوله تعالى فأوحى الى عبده ما أوحى الا أن الذي ذكر مع موسى عليه السلام أفشاه الى الخلق والذي ذكر مع محمد صلى الله عليه وسلم كان سرا لم يؤهل له أحد من الخلق وأيضا ان كان موسى تكلم معه فأمة محمد يخاطبون الله تعالى في كل يوم خمس مرات على ما قاله صلى الله عليه وسلم المصلي يناجي ربه والرب يتكلم مع آحاد أمة محمد يوم القيامة بالتسليم والتكريم لقوله تعالى سلام قولا من رب رحيم ٭(تنبيه)٭ قوله تعالى وما تلك اشارة الى العصا وقوله تعالى بيمينك اشارة الى اليد وفي هذا نكت ذكرها الرازي رحمه الله تعالى الاولى أنه تعالى لما أشار اليهما جعل كل واحد منهما معجزة قاهرة وبرهانا ساطعا ونقلهما من حد الجمادية الى مقام الكرامة فاذا صار الجماد بالنظر الواحد حيوانا وصار الجسم الكثيف نورانيا لطيفا ثم انه تعالى ينظر كل يوم ثلثمائة وستين مرة الى قلب العبد فأي عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان الى السعادة بالطاعة ونور المعرفة ثانيها ان بالنظر الاول الواحد صار الجماد ثعبانا فابتلع سحر السحرة فأي عجب لو صار القلب ثعبانا فابتلع سحر النفس الامارة بالسوء ثالثها ان العصا كانت في يمين موسى عليه السلام فبسبب بركته انقلبت ثعبانا وبرهانا وقلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن فاذا حصلت ليد موسى

يلقوا من احراقه صراحهم فناسب ذكر الاخسرين وماقي والصافات تقدمه قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم فاججوا نارا عظيمة وبنوا بنيانا عظيما ورفعوا ابراهيم اليه ورموه منه

عليه السلام هذه المنزلة فاى عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب اصبعى الرحمن من ظلمة المعصية الى نور العبودية * ولما سأل تعالى موسى عليه السلام عن ذلك اجاب باربعة أشياء ثلاثة على التفصيل وواحد على الاجمال أولها (قال هى عصاى) وقد تم الجواب بذلك الا أنه عليه السلام ذكر الوجوه الاخر لانه كان يحب المكالمة مع ربه فجعل ذلك كالوسيلة الى تحصيل هذا الغرض ثانيها قوله (أتوكأ) أى أعتمد (عليها) اذا مشيت واذا عييت واذا وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة ثالثها قوله (وأهش) أى أخبط ورق الشجرة (بها) ليسقط (على غنمى) لتأكله فبدأ عليه السلام أولا بمصالح نفسه فى قوله أتوكأ عليها ثم بمصالح رعيته فى قوله أهش بها على غنمى وكذلك فى القيامة يقول نفسى نفسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل فى الدنيا الا باصلاح أمر الامة وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون فلا جرم يوم القيامة يبدأ أيضا بامته فيقول أمتى أمتى رابعها قوله (ولى فيها مآرب) جمع مأربة بتثليث الراء حوائج ومنافع (أخرى) كحمل الزاد والسقى وطرد الهوام وانما أجمل فى المآرب رجاء أن يسأله ربه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله تعالى مرة أخرى ويطول امر المكالمة بسبب ذلك وقيل انقطع لسانه بالهيبة فاجمل وقيل اسم العصا نبعة وقيل فى المآرب كانت ذات شعبتين ومحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا طلب كسره لواه بالشعبتين واذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها ادواته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها واذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل والزندين بفتح الزاى تثنية زند وزندة والزند العود الاعلى الذى تقدح به النار والزندة السفلى فيها ثقب فاذا اجتمعا قيل زندان ولم يقل زندتان واذا قصر رشاؤه وصله بها وكان يقاتل بها السباع عن غنمه وقيل كان فيها من المعجزات أنه كان يستقى بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا ويكونان شمعتين بالليل واذا ظهر عدو حاربت عنه واذا اشتهى ثمرة ركزها فاورقت وأثمرت وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه ويركزها فينبع الماء فاذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام وروى عن ابن عباس أنها كانت تماشيه وتحدثه ولما ذكر موسى هذه الجوابات لربه (قال) له (ألقها) اى انبذها (ياموسى فالقاها فاذا هى حية) اى ثعبان عظيم (تسعى) اى تمشى على بطنها سريعا وهنا نكت خفية احداها أنه عليه السلام لما قال ولى فيها مآرب أخرى أراد الله تعالى أن يعرفه ان فيها مآرب لا يفطن لها ولا يعرفها وانها أعظم من سائر مآربه ثانيها كان فى رجله شىء وهو النعل وفى يده شىء وهو العصا فالرجل آلة الهرب واليد آلة الطلب فقال أولا فاخلع نعليك اشارة الى ترك الهرب ثم قال القها وهو اشارة الى ترك الطلب كأنه تعالى قال انك مادمت فى مقام الهرب والطلب كنت مشتغلا بنفسك طالبا لحظك فلا تكن خالصا لمعرفتى فكن تاركا للهرب والطلب تكن خالصا لى ثالثها ان موسى عليه السلام مع علو درجته وكمال صفته لما وصل الى الحضرة ولم يكن معه الا النعلان والعصا أمره بالقائهما حتى أمكنه الوصول الى الحضرة فانت فى ألف وقر من المعاصى فكيف يمكنك الوصول الى جنابه (فان قيل) كيف قال هنا حية وفى موضع آخر جان وهى الحية الخفيفة الصغيرة وقال فى موضع آخر ثعبان وهو أكبر ما يكون من الحيات (اجيب) بان الحية اسم جنس يقع على الذكر

الى اسفل فرفعه الله وجعلهم فى النار من وجعلهم فى العقبى الاسفلين وردهم فى اسفل السافلين فناسب ذكر الاسفلين (قوله وايوب اذ نادى ربه) الآية ختم القصة هنا بقوله من

والانثى والصغير والكبير وأما الثعبان والجان فبينهما تناف لان الثعبان العظيم من الحيات كما مر والجان الدقيق وفى ذلك وجهان أحدهما انها كانت وقت انقلابها حية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جلدها حتى صارت ثعبانا فاريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها الثانى أنها كانت فى شخص الثعبان وسرعة حركة الجان لقوله تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان قال وهب لما ألقى العصا على وجه الارض نظر اليها فاذا هى حية تسعى صفراء من أعظم ما يكون من الحيات تمشى بسرعة لها عرف كعرف الفرس وكان بين لحييها أربعون ذراعا صارت شعبتاها شدقين لها والمحجن عنقا وعرفا يهتز وعيناها تتقدان كالنار تمر بالصخرة العظيمة مثل الخلفة من الابل فتلتقمها وتقصف الشجرة العظيمة بانيابها ويسمع لانيابها صرير يقعقعها فلما عاين ذلك موسى ولى مدبرا وهرب ثم نودى ياموسى ارجع حيث كنت فرجع وهو شديد الخوف (قال) تعالى له (خذها) أى بيمينك (ولا تخف) وكان على موسى مدرعة من صوف قد خلها بعيدان فلما قال تعالى له خذها لف طرف المدرعة على يده فأمره الله أن يكشف يده وذكر بعضهم أنه لما لف كم المدرعة على يده قال له الملك أرأيت ان أذن الله بما تحاذره أكانت المدرعة تغنى عنك شيأ قال لا ولكنى ضعيف ومن ضعف خلقت وكشف عن يده ثم وضعها فى فم الحية فاذا هى عصا كما كانت ويده فى شعبتيها فى الموضع الذى كان يضعها اذا توكأ عليها كما قال تعالى (سنعيدها سيرتها الاولى) وقد أظهر الله تعالى فى هذه العصا معجزات لموسى عليه السلام منها انقلاب العصا حية ومنها وضع يده فى فمها من غير ضرر ومنها انقلابها خشبة مع الامارات التى تقدمت * (تنبيه) * فى نصب سيرتها أوجه أحدها أن تكون منصوبة على الظرف أى فى سيرتها اى طريقتها ثانيها على البدل من ها سنعيدها بدل اشتمال لان السيرة الصفة اى سنعيدها صفتها وشكلها ثالثها على اسقاط الخافض اى الى سيرتها وقيل غير ذلك (فان قيل) لما نودى ياموسى وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم انه مبعوث من عند الله تعالى الى الخلق فلماذا خاف (اجيب) عن ذلك باوجه احدها ان ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لانه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط وهذا معلوم بدلائل العقول ثانيها انما خافها لانه عليه السلام عرف مالقى آدم عليه السلام منها ثالثها ان مجرد قوله ولا تخف لا يدل على حصول الخوف كقوله تعالى ولا تطع الكافرين لا يدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا يدل عليه ولكن ذلك الخوف انما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم فما اظهر الرغبة فى الجنة ولا النفرة عن النار وقوله تعالى (واضمم يدك) اى اليمنى (الى جناحك) اى جنبك الايسر تحت العضد فى الابط (تخرج بيضاء) اى نيرة مشرقة تضئ كشعاع الشمس تغشى البصر لابد فيه من حذف والتقدير واضمم يدك تنضم وأخرجها تخرج فحذف من الاول والثانى وابقى مقابليهما ليدلا على ذلك ايجازا واختصارا وانما احتيج الى هذا لانه لا يترتب على مجرد الضم الخروج وبيضاء حال من فاعل تخرج وقوله تعالى (من غير سوء) متعلق بتخرج وروى عن ابن عباس الى جناحك الى صدرك والاول اولى كما قال الرازى لانه يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحى العسكر لطرفيه وجناحا الانسان جانباه والاصل المستعار منه جناحا الطائر سميا بذلك لانه يجنحهما اى يميلهما

بقوله ص عندنا وختمها فى هذا الان ابوب بالغ وانت التضرع بقوله تعالى أرحم الراحمين فبالغ فى الاجابة فناسب ذكر من عندنا الان عندنا يدل على أنه تعالى تولى ذلك

عند الطيران وجناحا الانسان عضداه فعضداه يشبهان جناحي الطير ولانه قال تخرج بيضاء
ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله تخرج معنى والسوء الرداءة والقبح في كل شيء فكنى
به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة والبرص أبغض شيء الى العرب ولهم عنه نفرة عظيمة
واسماعهم لاسمه مجاجة فكان جديرا بان يكنى عنه ولا ترى أحسن ولا اظرف ولا أخف
للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه روى ان موسى عليه السلام كان شديد الادمة فكان
اذا أدخل يده اليمنى في جيبه فأدخلها في ابطه الايسر وأخرجها فكانت تبرق مثل البرق
وقيل مثل الشمس من غير مرض ثم اذا ردها عادت الى لونها الاول من غير نور وقوله تعالى (آية
أخرى) أي معجزة ثانية حال من ضمير تخرج كبيضاء وقوله تعالى (لنريك) متعلق بما دل عليه
آية أي دللنا بها لنريك وقوله تعالى (من آياتنا الكبرى) أي العظمى على رسالتك متعلق
بمحذوف على أنه حال من الكبرى والكبرى مفعول ثان لنريك والتقدير لنريك الكبرى
حال كونها من آياتنا أي بعض آياتنا واختلف أي الآيتين أعظم في الاعجاز فقال الحسن اليد
لانه تعالى قال لنريك من آياتنا الكبرى والذي عليه الاكثر أن العصا أعظم اذ ليس في اليد
الا تغير اللون وأما العصا ففيها تغير اللون وخلق الزيادة في الجسم وخلق الحياة والقدرة
والاعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر ثم اعادتها عصا بعد ذلك فقد وقع التغير في كل هذه
الامور فكانت العصا أعظم وأما قوله تعالى لنريك من آياتنا الكبرى فقد ثبت انه عائد الى
الكلام وانه غير مختص باليد (فان قيل) لم لم يقل تعالى من آياتنا الكبر (أجيب) بان ذلك
ذكر لرؤس الآي وقيل فيه اضمار معناه لنريك من آياتنا الآية الكبرى وهذا التقدير
يقوي قول القائل بأن اليد أعظم آية ولما أظهر سبحانه وتعالى لموسى هذه الآيات عقبها
بأمره بالذهاب الى فرعون بقوله تعالى (اذهب) أي رسولا (الى فرعون) وبين تعالى العلة في
ذلك بقوله تعالى (انه طغى) أي جاوز الحد في كفره الى أن ادعى الالهية ولهذا خصه الله تعالى
بالذكر مع انه عليه السلام مبعوث الى الكل قال وهب قال الله تعالى لموسى عليه السلام
اسمع كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي فانك بعيني وسمعي وان معك يدي ونصري واني
ألبستك جبة من سلطاني تستكمل بها القوة في أمرك أبعثك الى خلق ضعيف من خلقي بطر
نعمتي وأمن مكري وغرته الدنيا حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي أقسم بعزتي لولا الحجة التي
وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار ولكن هان علي وسقط من عيني فبلغه رسالتي
وادعه الى عبادتي وحذره نقمتي وقل له قولا لينا لا يغتر بلباس الدنيا فان ناصيته بيدي
لا يطرف ولا يتنفس الا بعلمي في كلام طويل قال فسكت موسى عليه السلام سبعة أيام
لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال أجب ربك فيما أمرك فعند ذلك (قال رب اشرح لي صدري) أي
وسعه لتحمل الرسالة قال ابن عباس يريد حتى لا أخاف غيرك والسبب في هذا السؤال ما حكى
الله تعالى عنه في موضع آخر بقوله قال رب اني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق
لساني وذلك أن موسى عليه السلام كان يخاف فرعون اللعين خوفا شديدا لشدة شوكته وكثرة
جنوده وكان يضيق صدرا بما كلف من مقاومة فرعون وحده فسأل الله تعالى أن يوسع قلبه
حتى يعلم ان أحدا لا يقدر على مضرته الا باذن الله تعالى واذا علم ذلك لم يخف فرعون وشدة

ص
بنفسه ولا مبالغة في
فناسب ذكر منا العدم
ولالته على مادل عليه
عندنا (قوله فنفخنا فيها)
أي في جيب درعها بحذف
مضافين ولهذا ذكر الضمير
في التحريم فقال فنفخنا

شوكته وكثرة جنوده وقيل اشرح لي صدري بالفهم عنك ما أنزلت على من الوحي (ويسر) أي سهل (لي أمري) أي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة الى فرعون وذلك لان كل ما يصدر من العبد من الافعال والاقوال والحركات والسكنات فالله تعالى هو الميسر له (فان قيل) قوله لي في اشرح لي صدري ويسر لي أمري ما جدواه والامر مستتب بدونه (أجيب) بانه قد أبهم الكلام اولا فقال اشرح لي ويسر لي فعلم ان ثم مشروحا وميسرا ثم بين ورفع الابهام بذكرهما فكان آكد لطلب الشرح لصدره والتيسير لامره من أن يقول اشرح صدري ويسر امري على الايضاح الساذج لانه تكرير للمعنى الواحد من طريق الاجمال والتفصيل (واحلل عقدة من لساني) قال ابن عباس كان في لسانه عليه السلام رتة وذلك ان موسى عليه السلام كان في حجر فرعون ذات يوم في صغره فلطم فرعون لطمة وأخذ بلحيته فقال فرعون لآسية امرأته ان هذا عدوي وأراد ان يقتله فقالت له آسية انه صبي لا يعقل ولا يميز وفي رواية ان أم موسى لما فطمته ردته الى فرعون فنشأ موسى في حجر فرعون وامرأته يربيانه واتخذاه ولدا فبينما هو ذات يوم يلعب بين يدي فرعون وبيده قضيب يلعب به اذ رفع القضيب فضرب به رأس فرعون فغضب فرعون وتطير بضربه وهم بقتله فقالت آسية أيها الملك انه صغير لا يعقل جربه ان شئت فجاءت بطشتين في أحدهما جمر وفي الآخر جوهر فاراد ان يأخذ الجوهر فاخذ جبريل بيد موسى عليه السلام فوضعها على النار فاخذ جمرة فوضعها في فيه فاحترق لسانه وصارت عليه عقدة وقيل قربا اليه تمرة وجمرة فأخذ الجمرة فجعلها في فيه فاحترق لسانه ويروى ان يده احترقت وان فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرأ ولما دعاه قال الى أي رب تدعوني قال الى الذي ابرأ يدي وقد عجزت عنها وعن بعضهم انها لم تبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون في قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المؤاكلة وقيل كان ذلك التعقد خلقة فسأل الله تعالى ازالته واختلفوا في انه لم طلب حل تلك العقدة فقيل لئلا يقع خلل في أداء الوحي وقيل لئلا يستخف بكلامه فينفروا عنه ولا يلتفتوا اليه وقيل لاظهار المعجزة كما أن حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزا في حقه فكذا اطلاق لسان موسى معجز في حقه واختلفوا في زوال العقدة بكمالها فقيل بقي بعضها لقوله وأخي هرون هو أفصح مني لسانا وقول فرعون ولا يكاد يبين وكان في لسان الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما رتة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثها من عمه موسى وقال الحسن زالت بالكلية لقوله تعالى قد أوتيت سؤلك يا موسى وضعف هذا الرازي بانه عليه السلام لم يقل واحلل العقد من لساني بل قال واحلل عقدة من لساني فاذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله قال والحق أنه انحل أكثر العقد وبقي منها شيء وقال الزمخشري وفي تنكير العقدة ولم يقل واحلل عقدة لساني انه طلب حل بعضها ارادة أن يفهم عنه فهما جيدا أي ولذا قال (يفقهوا) أي يفهموا (قولي) عند تبليغ الرسالة ولم يطلب الفصاحة الكاملة ومن لساني صفة للعقدة كأنه قيل عقدة من عقد لسانه (تنبيه) استدل على أن في النطق فضيلة عظيمة بوجوه أولها قوله تعالى خلق الانسان علمه البيان فماهية الانسان هي الحيوان الناطق ثانيها اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان قال زهير

(قوله فاعبدون وتقطعوا) قال ذلك هنا وقال في المؤمنين فاتقون وتقطعوا والان الخطاب هنا للكفار فامرهم بالعبادة التي هي التوحيد ثم قال وتقطعوا بالواو لا بالفاء لان

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وقالوا ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مرسلة أى لو ذهب النطق اللسانى لم يبق من الانسان
الا القدر الحاصل فى البهائم وقالوا المرء بأصغريه قلبه ولسانه وقالوا المرء مخبوء تحت لسانه
ثالثها ان فى مناظرة آدم عليه السلام مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة الا بالنطق حيث قال
يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض
* ولما رأى موسى عليه السلام أن التعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال
التهمة قربة عظيمة فى الدعاء الى الله تعالى طلب المعاونة على ذلك بقوله (واجعل لى وزيرا) اى
معينا على الرسالة ولذلك قال عيسى بن مريم عليه السلام من أنصارى الى الله قال الحواريون
نحن أنصار الله وقال محمد صلى الله عليه وسلم ان لى فى السماء وزيرين وفى الارض وزيرين
فاللذان فى السماء جبريل وميكائيل واللذان فى الارض أبو بكر وعمر وقال صلى الله عليه
وسلم اذا أراد الله تعالى بملك خيرا قيض له وزيرا صالحا ان نسى ذكره وان نوى خيرا أعانه وان
أراد شرا كفه وقال أنوشروان لا يستغنى أجود السيوف عن الصقل ولا أكرم الدواب عن
السوط ولا أعلم الملوك عن الوزير ولما كان التعاون على الدين منقبة عظيمة أراد أن لا تحصل
هذه الدرجة الا لاهله فقال (من أهلى) اى أقاربى وقوله (هرون) قال الجلال المحلى مفعول
ثان وقوله (أخى) عطف بيان وذكر غيره أعاريب غير ذلك لا حاجة لنا بذكرها *(تنبيه)*
الوزير مشتق من الوزر لانه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه أو من الوزر لان الملك يعتصم برأيه
ويلجئ اليه أموره أو من الموازرة وهى المعاونة قال الرازى وكان هرون مخصوصا بأمور
منها الفصاحة لقول موسى هو أفصح منى لسانا ومنها الرفق لقول هرون يا ابن أم لا تأخذ
بلحيتى ولا برأسى ومنها أنه كان أكبر سنا منه وقال ابن عادل كان أكبر سنا من موسى بأربع
سنين وكان أفصح لسانا منه وأجمل وأوسم أبيض اللون وكان موسى آدم اللون أقنى جعدا
* ولما طلب موسى عليه السلام من الله تعالى أن يجعل هرون وزيرا له طلب منه ان يشد ازره
بقوله (اشدد به أزرى) اى أقوى به ظهرى (وأشركه فى أمرى) اى فى النبوة والرسالة وقرأ
ابن عامر بسكون الياء من أخى وهمزة مفتوحة من أشدد وهو على مرتبته فى المد وهمزة
مضمومة من أشركه وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من أخى وهمزة وصل من اشدد وأشركه
بهمزة مفتوحة والباقون بسكون الياء من أخى وهمزة وصل من اشدد وفتح الهمزة من أشركه
ثم انه تعالى حكى عنه ما لاجله دعا بهذا الدعاء فقال (كى نسبحك) تسبيحا (كثيرا) قال
الكلبى نصلى لك كثيرا ونحمدك ونثنى عليك والتسبيح تنزيه الله تعالى فى ذاته وصفاته عما
لا يليق به (ونذكرك) ذكرا (كثيرا) أى نصفك بصفات الكمال والجلال والكبرياء وجوز
أبو البقاء أن يكون كثيرا نعتا لزمان محذوف أى زمانا كثيرا (انك كنت بنا بصيرا) أى عالما
بأنا لا نريد بهذه الطاعات الا وجهك ورضاك أو بصيرا بان الاستعانة بهذه الاشياء لاجل حاجتى
فى النبوة اليها أو بصيرا بوجوه مصالحنا فاعطنا ما هو الاصلح لنا * ولما سأل موسى عليه السلام
ربه تلك الامور المتقدمة وكان من المعلوم أن قيامه بما كلف به لا يتم الا باجابته اليها لا جرم
(قال) الله تعالى (قد أوتيت سؤلك يا موسى) أى أعطيت جميع ما التمسته منا عليك لما فيه من

مدخولها ليس مرتبا على ما قبلها بل هو واقع قبله ومن قال الخطاب مع المؤمنين فمعناه دوموا على العبادة والخطاب ثم للنبى وامته بدليل قوله قبل يا أيها الرسل كلوا من

وجوه المصالح (ولقد مننا عليك مرة أخرى) أى أنعمنا عليك فى وقت آخر وفى ذلك تنبيه على امور أحدها كأنه تعالى قال انى راعيت مصلحتك قبل سؤالك فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال ثانيها انى كنت ربيتك فلو منعتك الآن كان ذلك ردا بعد القبول واساءة بعد الاحسان فكيف يليق بكرمى ثالثها انا أعطيناك فى الازمنة السالفة كل ما احتجت اليه ورقيناك الدرجة العالية وهى منصب النبوة فكيف يليق بمثل هذه التربية المنع عن المطلوب (فان قيل) لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع أن هذه اللفظة مؤذية والمقام مقام تلطف (أجيب) بانه انما ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام أن هذه النعم التى وصل اليها ما كان مستحقا لشىء منها بل انما خصه الله تعالى بها لمحض فضله واحسانه (فان قيل) لم قال مرة أخرى مع أنه تعالى ذكر مننا كثيرة (أجيب) بانه لم يعن بمرة أخرى واحدة من المنن لان ذلك قد يقال فى القليل والكثير ثم بين تلك المنة وهى ثمانية أولها قوله تعالى (اذ أوحينا الى أمك) وحيا الاعلى وجه النبوة اذ المرأة لا تصلح للقضاء ولا للامامة ولا تلى عند أكثر العلماء تزويج نفسها فكيف تصلح للنبوة ويدل على ذلك قوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا يوحى اليهم والوحى جاء لا بمعنى النبوة فى القرآن كثيرا قال تعالى وأوحى ربك الى النحل واذ أوحيت الى الحواريين ثم اختلفوا فى المراد بهذا الوحى على وجوه أحدها انه رؤيا رأتها أم موسى وكان تأويلها وضع موسى فى التابوت وقذفه فى البحر وأن الله تعالى يرده عليها ثانيها انه عزيمة جازمة وقعت فى قلبها دفعة واحدة ثالثها المراد خطور البال وغلبته على القلب (فان قيل) هذه الوجوه الثلاثة يعترض عليها بان الالقاء فى البحر قريب من الاهلاك وهو مساو للخوف الحاصل من القتل المعتاد من فرعون فكيف يجوز الاقدام على أحدهما لاجل الصيانة عن الثانى (أجيب) بانها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها فكان الالقاء فى البحر الى السلامة أغلب على ظنها من وقوع الولد فى يد فرعون رابعها انه أوحى الى بعض الانبياء فى ذلك الزمان كشعيب عليه السلام أو غيره ثم ان ذلك النبى عرفها اما مشافهة أو مراسلة واعترض على هذا بان الامر لو كان كذلك لما لحقها الخوف (وأجيب) بان ذلك الخوف كان من لوازم البشرية كما ان موسى عليه السلام كان يخاف فرعون مع أن الله تعالى كان أمره بالذهاب اليه مرارا خامسها لعل بعض الانبياء المتقدمين كابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام أخبروا بذلك الخبر وانتهى ذلك الخبر الى امه سادسها لعل الله تعالى بعث اليها ملكا لاعلى وجه النبوة كما بعث الى مريم فى قوله فتمثل لها بشرا سويا وأما قوله تعالى (ما يوحى) فمعناه ما لا يعلم الا بالوحى أو ما ينبغى ان يوحى ولا يخل به لعظم شانه وفرط الاهتمام ويبدل منه (ان اقذفيه) اى ألقيه (فى التابوت) اى ألهمناها أن اجعليه فى التابوت (فاقذفيه) أى موسى بالتابوت (فى اليم) اى نهر النيل (فليلقه اليم بالساحل) اى شاطئه والامر بمعنى الخبر والضمائر كلها لموسى فالمقذوف فى البحر والملقى الى الساحل هو موسى فى جوف التابوت حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر النظم الذى هو أم اعجاز القرآن والقانون الذى وقع عليه التحدى ومراعاته أهم ما يجب على المفسر (تنبيه) اليم البحر والمراد به هنا نيل مصر فى قول الجميع واليم اسم يقع على النهر والبحر العظيم قال الكسائى والساحل فاعل بمعنى مفعول سمى بذلك لان

الطيبات الآية والانبياء وأممهم مأمورون بالتقوى ثم قال فتقطعوا أمرهم بالفاء أى فظهر منهم التقطع بعد هذا القول والمراد أممهم (قوله وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون)

الماء يحمله أي يحسره اذا علاه وقوله تعالى (يأخذه عدو لي وعدو له) أي فرعون جواب فليلقه وتكرير عدو للمبالغة أو لان الاول باعتبار الواقع والثاني باعتبار المتوقع أي سيصير عدوا له بعد ذلك فانه لم يكن في ذلك الوقت بحيث يعادي روي انها اتخذت تابوتا قال مقاتل ان الذي صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون وجعلت في التابوت قطنا محلوجا ووضعته فيه وجصصته وقيرته ثم ألقته في اليم وكان يشرع منه الى بستان فرعون نهر كبير فبينا هو جالس على رأس بركة مع آسية بنت مزاحم اذا بتابوت يجري به الماء فأمر فرعون الغلمان والجواري باخراجه فاخرجوه وفتحوا رأسه فاذا صبي أصبح الناس وجها فأحبه عدو الله حبا شديدا لا يتمالك أن يصبر عنه كما قال تعالى (وألقيت عليك محبة مني) وهذه هي المنة الثانية قال الزمخشري مني لا يخلو اما أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى على أني أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب واما أن يتعلق بمحذوف وهو صفة لمحبة أي محبة خالصة أو واقعة مني قد ركزتها أنا في القلوب وزرعتها فيها فلذلك احبك فرعون وآسية حتى قالت قرة عين لي ولك لا تقتلوه وروي انه كان على وجهه مسحة جمال وفي عينيه ملاحة لا يكاد يصبر عنه من رآه وهو كقوله تعالى سيجعل لهم الرحمن ودا المنة الثالثة قوله تعالى (ولتصنع على عيني) أي تربى على رعايتي وحفظي لك فانا مراعيك ومراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينه اذا اعتنى به ويقول للصانع اصنع هذا على عيني أنظر اليك لئلا تخالف به عن مرادي وبغيتي *(تنبيه)* ولتصنع معطوف على علة مضمرة مثل ليتلطف بك ولتصنع أو على الجملة السابقة باضمار فعل معلل مثل فعلت ذلك وقرأ بفتح الياء نافع وابن كثير وابو عمرو وسكنها الباقون المنة الرابعة قوله تعالى (اذ تمشي اختك) والعامل في اذ ألقيت أو تصنع ويجوز ان يكون بدلا من اذ اوحينا واستشكل بان الوقتين مختلفان متباعدان (وأجيب) بانه يصح مع اتساع الوقت كما يصح ان يقول لك الرجل لقيت فلانا سنة كذا فتقول وانا لقيته اذ ذاك وربما لقيه هو في أولها وانت في آخرها (فتقول هل أدلكم على من يكفله) يروى ان اخته واسمها مريم جاءت متعرفة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها وذلك انه كان لا يقبل ثدي امرأة فقالت لهم ذلك فقالوا نعم فجاءت بالام فقبل ثديها وذلك قوله تعالى (فرجعناك الى أمك كي تقر عينها) بلقائك ورؤيتك (ولا تحزن) أي هي بفراقك أو انت بفراقها وفقدان اشفاقها وروي أن آسية استوهبته من فرعون وتبنته وهي التي أشفقت عليه وطلبت له المراضع المنة الخامسة قوله تعالى (وقتلت نفسا) قال ابن عباس هو الرجل القبطي الذي قتله خطأ بأن وكزه حين استغاثه الاسرائيلي اليه قال الكسائي كان عمره اذ ذاك اثنتي عشرة سنة (فنجيناك من الغم) أي من غم قتله خوفا من اقتصاص فرعون كما قال تعالى في آية فأصبح في المدينة خائفا يترقب بالمهاجرة الى مدين المنة السادسة قوله تعالى (وفتناك فتونا) قال ابن عباس اختبرناك اختبارا وقيل ابتليناك ابتلاء قال ابن عباس الفتون وقوعه في محنة بعد محنة وخلصه الله تعالى منها أولها ان أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الاطفال ثم القاؤه في البحر في التابوت ثم منعه الرضاع الا من ثدي أمه ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم بقتله ثم تناوله الجمرة بدل الجوهرة ثم قتله القبطي وخروجه الى مدين خائفا (فان قيل) انه تعالى عدد أنواع منته على

أي ممتنع عليهم الرجوع (ان قلت) كيف قال ذلك مع انه لا بد من رجوعهم الى الله (قلت) معناه لا يرجعون عن الكفر الى الايمان او لا يرجعون بعد اهلاكهم الى الدنيا وقيل

موسى فى هذا المقام فكيف يليق بهذا الموضع وفتناك فتونا (أجيب) بجوابين الاول فتناك أى خلصناك تخليصا من قولهم فتنت الذهب اذا أردت تخليصه من الفضة أو غيرها الثانى ان الفتنة تشديد المحنة يقال فتن فلان عن دينه اذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه قال تعالى فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله وقال تعالى ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ولما كان التشديد فى المحنة يوجب كثرة الثواب عده الله تعالى من جملة النعم وتقدم تفسير ابن عباس وهو قريب من ذلك (فان قيل) هل يصح اطلاق الفتان على الله تعالى اشتقاقا من قوله تعالى وفتناك فتونا (أجيب) بانه لا يصح لانه صفة ذم فى العرف وأسماء الله تعالى توقيفية لا سيما فيما يوهم ما لا ينبغى المنة السابعة قوله تعالى (فلبثت سنين فى أهل مدين) والتقدير وفتناك فخرجت خائفا الى أهل مدين فلبثت سنين فيهم عند شعيب عليه السلام وتزوجت بابنته وهى اما عشرا أو ثمان لقوله على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وقال وهب لبث موسى عند شعيب عليه السلام ثمانيا وعشرين سنة منها عشر سنين مهر امرأته فانه قضى أوفى الاجلين والآية دالة على انه لبث عشر سنين وليس فيها ما ينفى الزيادة على العشر كما قاله الرازى وان قال ابن عادل يرده قوله تعالى فلما قضى موسى الاجل أى الاجل المشروط عليه فى تزويجه وسار باهله ومدين بلدة شعيب على ثمان مراحل من مصر (ثم جئت على قدر) اى على القدر الذى قدرت أنك تجىء فيه لانى أكلك وأستنبئك غير مستقدم وقته المعين ولا مستأخر وقال عبد الرحمن بن كيسان على رأس أربعين سنة وهو القدر الذى يوحى فيه للانبياء وهذا قول أكثر المفسرين أى على الموعد الذى وعده الله وقدر أنه يوحى اليه بالرسالة وهو أربعون سنة وكرره الى قوله (يا موسى) عقب ما هو غاية الحكاية للتنبيه على ذلك المنة الثامنة قوله تعالى (واصطنعتك) اى اخترتك (لنفسى) لاسرارك فى أوامرى لئلا تشتغل الا بما أمرتك به وهو اقامة حجتى وتبليغ رسالتى وأن تكون فى حركاتك وسكناتك لى لا لنفسك ولا لغيرك ثم بين تعالى ما له اصطنعه وهو الابلاغ والاداء بقوله تعالى (اذهب أنت وأخوك بآياتى) أى بمعجزاتى وقال ابن عباس الآيات التسع التى بعث بها موسى وقيل انها العصا واليد لانهما اللذان جرى ذكرهما فى هذا الموضع ولم يذكر انه عليه السلام أوتى قبل مجيئه الى فرعون ولا بعد مجيئه حتى لقى فرعون فالتمس منه آية غير هاتين الآيتين قال تعالى حكاية عن فرعون ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين وقال تعالى فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه (فان قيل) كيف أطلق لفظ الجمع على الاثنين (أجيب) بان العصا كانت آيات انقلابها حيوانا ثم انها فى أول الامر كانت صغيرة لقوله تعالى تهتز كأنها جان ثم كانت تعظم وهذه آية أخرى ثم كانت تصير ثعبانا وهذه آية أخرى ثم انه عليه السلام كان يدخل يده فى فمها فما كانت تضره فهذه آية أخرى ثم كانت تنقلب خشبة فهذه آية أخرى وكذلك اليد فان بياضها آية وشعاعها آية أخرى ثم زوالها بعد ذلك آية أخرى فدل ذلك على انها كانت آيات كثيرة وقيل الآيات العصا واليد وحل عقدة لسانه وقيل معناه أمدكما بآياتى وأظهر على أيديكما

فلا
معنى حرام واجب
حينئذ زائدة أى واجب
رجوعهم (قوله ان الذين
سبقت لهم منا الحسنى
أولئك عنها مبعدون) أى
عن جهنم (ان قلت) كيف
يكونون مبعدين عنها وقد

من

من الآيات ماتنزاح به العلل من فرعون وقومه (ولاتنيا) اى لاتفترا ولاتقصرا (فى ذكرى) اى بتسبيح وغيره فان من ذكر جلال الله استخف غيره فلا يخاف أحدا وتقوى روحه بذلك الذكر فلا تضعف فى مقصوده ومن ذكر الله لابد وأن يكون ذاكرا احسانه وذاكر احسانه لايفتر فى أداء أوامره وقيل لاتنيا فى ذكرى عند فرعون بان تذكرا لفرعون وقومه أن الله لايرضى منهم الكفر وتذكرا لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب وقيل المراد بالذكر تبليغ الرسالة (اذهبا الى فرعون انه طغى) اى بادعاء الربوبية *(تنبيه)* ذكر الله تعالى المذهوب اليه هنا وهو فرعون وحذفه فى قوله اذهب أنت وأخوك بآياتى اختصارا فى الكلام وقال القفال فيه وجهان أحدهما ان قوله اذهب أنت واخوك بآياتى يحتمل أن يكون كل واحد منهما مأمورا بالذهاب على الانفراد فقيل مرة أخرى اذهبا ليعرفا أن المراد منه أن يشتغلا بذلك جميعا لاأن ينفرد به أحدهما دون الآخر والثانى أن قوله اذهب أنت وأخوك بآياتى أمر بالذهاب الى كل الناس من بنى اسرائيل وقوم فرعون ثم ان قوله تعالى اذهبا الى فرعون أمر بالذهاب الى فرعون وحده واستبعد هذا بل الذهابان متوجهان الى واحد وقد حذف من كل من الذهابين ماأثبته فى الآخر وقيل انه حذف المذهوب اليه من الاول وأثبته فى الثانى وحذف المذهوب به وهو بآياتى من الثانى وأثبته فى الاول (فقولا له قولا لينا) اى مثل هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى فانه دعوة فى صورة عرض ومشورة (فان قيل) لم أمر الله تعالى باللين مع الكافر الجاحد (أجيب) بان من عادة الجبار اذا أغلظ عليه فى الوعظ يزداد عتوا وتكبرا فامر باللين حذرا من أن تحمله الحماقة على أن يسطو عليهما واحتراما لماله من حق التربية وقيل كنياه وكان له ثلاث كنى أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة وقيل عداه شبابا لايهرم بعده وملكا لايزول الا بالموت وأن تبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح الى حين موته واذا مات دخل الجنة فاعجبه ذلك وكان لايقطع أمرا دون هامان وكان غائبا فلما قدم أخبره بالذى دعاه اليه موسى وقال أردت ان اقبل منه فقال له هامان كنت أرى ان لك عقلا ورأيا أنت رب تريد أن تكون مربوبا وأنت تعبد تريد ان تعبد فغلبه على رأيه وقوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) متعلق باذهبا أو قولا اى باشرا الامر على رجائكما وطمعكما مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولايخيب سعيه فهو يجتهد بطوقه ويسعى باقصى وسعه قال الزمخشرى ولايستقيم أن يراد ذلك فى حق الله تعالى اذ هو عالم بعواقب الامور وعن سيبويه كل ماورد فى القرآن من لعل وعسى فهو من الله واجب بمعنى انه يستحيل بقاء معناه فى حق الله تعالى وقال الفراء ان لعل بمعنى كى فتفيد العلية كما تقول اعمل لعلك تأخذ أجرتك *(فائدة)* قرأ رجل عند يحيى بن معاذ فقولا له قولا لينا فبكى يحيى وقال الهى هذا برك بمن يقول أنا الاله فكيف برك بمن يقول أنت الاله (فان قيل) ما الفائدة فى ارسالهما والمبالغة عليهما فى الاجتهاد مع علمه تعالى بانه لايؤمن (اجيب) بان ذلك لالزام الحجة وقطع المعذرة واظهار ماحدث فى تضاعيف ذلك من الآيات والتذكر للمتحقق والخشية للمتوهم ولذلك قدم الاول أى ان لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر فلا اقل من ان يتوهمه فيخشى ويروى عن كعب انه قال والذى يحلف به كعب انه لمكتوب فى التوراة فقولا له قولا لينا وسأقسى

قال وان منكم الا واردها وورودها يقتضى القرب منها (قلت) معناه مبعدون عن ألمها وعذابها مع ورودهم لها اومعناه مبعدون عنها بعد ورودها بالانجاء المذكور بعده

قلبه فلا يؤمن واقدا تذكر فرعون وخشي حين لم تنفعه الذكرى والخشية وذلك حين ألجمه الغرق وقال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ثم ان موسى وهرون (قالا ربنا اننا نخاف أن يفرط) أي يعجل (علينا) بالعقوبة (أو أن يطغى) أي يجاوز الحد في الاساءة علينا (فان قيل) لما تكرر الامر من الله تعالى له بالذهاب فعدم الذهاب والتعلل بالخوف هل يدل على معصية (أجيب) بان الامر ليس على الفور فسقط السؤال وهذا من أقوى الدلائل على أن الامر لا يقتضي الفور (فان قيل) قوله تعالى قالا ربنا يدل على أن المتكلم موسى وهرون ولم يكن هرون هنالك حاضرا (أجيب) بان الكلام كان مع موسى الا أنه كان متبوع هرون فجعل الخطاب معه خطابا مع هرون وكلام هرون على سبيل التقدير في تلك الحالة وان كان موسى وحده الا أنه تعالى أضافه اليهما كما في قوله تعالى واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها وقوله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل روى ان القائل عبد الله ابن أبي وحده (فان قيل) ان موسى عليه السلام قال رب اشرح لي صدري فاجابه الله تعالى بقوله قد أوتيت سؤلك يا موسى وهذا يدل على انه تعالى قد شرح صدره ويسر له ذلك الامر فكيف قال بعده اننا نخاف فان حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر (اجيب) بان شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الاوامر والنواهي وحفظ تلك الشرائع على وجه لا يتطرق اليها السهو والتحريف وذلك شيء آخر غير الخوف (قال) الله تعالى لهما (لا تخافا انني معكما) حافظكما وناصركما (أسمع وأرى) اي ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل فافعل ما يوجبه حفظي ونصري وقال ابن عباس اسمع دعاءكما فاجيبه وأرى ما يراد بكما فامنع فلست بغافل عنكما فلا تهتما وقال القفال قوله تعالى أسمع وأرى يحتمل ان يكون مقابلا لقوله تعالى يفرط علينا أو أن يطغى يفرط علينا بان لا يسمع منا أو أن يطغى بان يقتلنا قال تعالى انني معكما أسمع كلامكما فاسخره للاستماع منكما وأرى أفعاله فلا أتركه حتى يفعل بكما ما تكرهانه ثم انه سبحانه وتعالى أعاد ذلك التكليف فقال (فأتياه) لانه سبحانه وتعالى قال في المرة الاولى اذهبا الى فرعون وفي الثانية قال اذهب أنت وأخوك وفي الثالثة قال اذهب الى فرعون وفي الرابعة قال ههنا فأتياه (فان قيل) انه تعالى أمرهما في الثانية بان يقولا له قولا لينا وههنا أمرهما بقوله تعالى (فقولا انا رسولا ربك فارسل معنا بني اسرائيل) اي الى الشام (ولا تعذبهم) اي خل عنهم من استعمالك اياهم في اشغالك الشاقة كالحفر والبناء وحمل الثقيل وقطع الصخور وكان فرعون يستعملهم في ذلك مع قتل الاولاد وفي هذا تغليظ من وجوه الاول قوله انا رسولا ربك وهذا يقتضي انقياده لهما والتزامه طاعتهما وذلك يعظم على الملك المتبوع الثاني قولهما فارسل معنا بني اسرائيل فيه ادخال النقص على ملكه لانه كان محتاجا اليهم فيما يريده من الاعمال أيضا الثالث قولهما ولا تعذبهم الرابع قولهما (قد جئناك بآية من ربك) فما الفائدة في التليين اولا والتغليظ ثانيا (اجيب) بان الانسان اذا ظهر لجاجه فلا بد له من التغليظ حيث لم ينفع التليين (فان قيل) أليس الاولى ان يقولا انا رسولا ربك قد جئناك بآية فارسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم لان ذكر المعجز مقرونا بالدعاء للرسالة أولى من تأخيره عنه (اجيب) بان هذا اولى لانهم ما ذكروا مجموع الدعاوى ثم استدلا

الورود (قوله وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) ان قلت كيف قال ذلك مع ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن رحمة للكافرين بل نقمة اذ لولا ارساله اليهم ما عذبوا بكفرهم لقوله تعالى وما كنا

على ذلك المجموع بالمعجز وقولهما قد جئناك بآية من ربك قال الزمخشري هذه الجملة جارية
من الجملة الاولى وهي انا رسولا ربك مجرى البيان والتفسير لان دعوى الرسالة لا تثبت الا
ببينتها التي هي مجيء الآية (فان قيل) ان الله تعالى قد اعطاهما آيتين هما العصا واليد
ثم قال تعالى اذهب أنت واخوك بآياتي وذلك يدل على ثلاث آيات وقالا ههنا قد جئناك بآية
من ربك وذلك يدل على انها كانت واحدة فكيف الجمع (اجاب) القفال بان معنى الآية
الاشارة الى جنس الآيات كأنهما قالا قد جئناك ببينات من عند الله ثم يجوز ان يكون ذلك
حجة واحدة او حججا كثيرة وتقدم الجواب عن التثنية والجمع وان في العصا واليد آيات وقوله
تعالى (والسلام على من اتبع الهدى) يحتمل ان يكون من كلام الله تعالى كأنه تعالى قال
فقولا انا رسولا ربك وقولا له والسلام على من اتبع الهدى ويحتمل ان يكون كلام الله قد تم
عند قوله قد جئناك بآية من ربك وقوله تعالى بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى وعد
من قبلهما لمن آمن وصدق بالسلامة له من عقوبات الله في الدنيا والآخرة او ان سلام
الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين وقال بعضهم ان على بمعنى اللام اي والسلام لمن اتبع
الهدى كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وقال تعالى في موضع آخر ان
احسنتم احسنتم لانفسكم وان اساتم فلها (انا قد اوحي الينا ان العذاب على من كذب)
ما جئناه به (وتولى) أعرض عنه قال البيضاوي ولعل تغيير النظم والتصريح بالوعيد
والتوكيد فيه لان التهديد في أول الامر أهم وأنجع وبالواقع أليق * ولما أتياه وقالا انا رسولا
ربك وبلغاه ما أمرا به (قال) لهما (فمن ربكما يا موسى) انما نادى موسى وحده بعد مخاطبته لهما
معا اما لان موسى هو الاصل في الرسالة وهرون تبع وردء ووزير واما لان فرعون كان لخبثه يعلم
الرتة التي كانت في لسان موسى عليه الصلاة والسلام ويعلم فصاحة أخيه بدليل قوله هو
أفصح مني لسانا فاراد أن يفحمه ويدل عليه قول فرعون ولا يكاد يبين واما لانه حذف
المعطوف للعلم به اي يا موسى وهرون قاله ابو البقاء ثم ان فرعون لم يشتغل مع موسى بالبطش
والايذاء لما دعاه الى الله تعالى مع انه كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير العسكر بل خرج
معه في المناظرة لانه لو آذاه لنسب الى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك وشرع في المناظرة
وذلك يدل على ان السفاهة من غير حجة لم يرضه فرعون مع كمال جهله و كفره فكيف يليق
ذلك بمن يدعي الاسلام والعلم * (تنبيه) * قال ههنا فمن ربكما يا موسى وقال في سورة الشعراء
وما رب العالمين وهو سؤال عن الماهية فهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة قال ابن عادل
والاقرب أن يقال سؤال من كان مقدما على سؤال ما لانه كان يقول اني انا الله والرب فقال فمن
ربكما فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف أنه لا يمكنه أن يقاومه في هذا المقام اظهورها
وجلائه عدل الى طلب الماهية لان العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر (فان قيل)
لم قال فمن ربكما ولم يقل فمن الهكما (أجيب) بانه أثبت نفسه ربا في قوله ألم نربك فينا وليدا فذكر
ذلك على سبيل التعجب كأنه قال أنا ربك فلم تدعي ربا آخر وهذا يشبه كلام نمروذ حين قال له
ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال له نمروذ أنا أحيي وأميت فلم تكن الاماتة التي ذكرها ابراهيم
هي الاماتة مع الاحياء التي عارضه نمروذ بها الا في اللفظ فكذا ههنا لما ادعى موسى ربوبية الله

(قلت) بل كان رحمة للكافرين
معذبين حتى نبعث رسولا
أيضا من حيث ان عذاب
الاستئصال اخر عنهم بسببه
او كان رحمة عامة من حيث
انه جاء بما يسعدهم ان
اتبعوه ومن لم يتبعه فهو

تعالى ذكر فرعون هذا الكلام أى انا الرب الذى ربيتك ومعلوم ان الربوبية التى ادعاها موسى عليه السلام غير الربوبية فى المعنى وأنه لا مشاركة بينهما ثم كأنه قيل فما أجاب به موسى فقيل (قال) مستدلا على اثبات الصانع بأحوال المخلوقات (ربنا الذى أعطى كل شئ) أى من الانواع (خلقه) أى صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به كما أعطى العين الهيئة التى تطابق الابصار والاذن الشكل الذى يوافق الاستماع وكذلك الانف واليد والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه أو اعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة حيث جعل الحصان والحجرة زوجين والبعير والناقة كذلك والرجل والمرأة كذلك فلم يزاوج منهما شيأ غير جنسه وما هو على خلاف خلقه (ثم هدى) أى ثم عرف الله تعالى الحيوان الكائن من المخلوق كيف يرتفق بما أعطى وكيف يتوصل اليه قال الزمخشرى ولله در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الانصاف وكان طالبا للحق * ولما خاف فرعون أن يزيد موسى فى اظهار تلك الحجة فيظهر للناس صدقه (قال) لموسى (فما بال) أى حال (القرون) أى الامم (الاولى) كقوم نوح وهود ولوط وصالح فى عبادتهم الاوثان فانها كانت تعبد الاوثان وتنكر البعث فمن شقى منهم ومن سعد أراد أن يصرفه عن ذلك الكلام ويشغله بهذه الحكايات فلم يلتفت اليه فلذلك (قال علمها عند ربى) استأثر به لا يعلمه الا هو وما أنا الا عبد مثلكم لا أعلم منه الا ما أخبرنى به علام الغيوب وعلم أحوال هذه القرون مثبت عند ربى (فى كتاب) هو اللوح المحفوظ ويجوز أن يكون ذلك تمثيلا لتمكنه فى علمه تعالى بما استحفظه العالم وقيده بالكتابة ويؤيده قوله (لا يضل ربى ولا ينسى) والضلال أن يخطئ الشئ فى مكانه فلم يهتد اليه والنسيان أن يذهب عنه بحيث لا يخطر بباله وهما محالان على علام الغيوب بخلاف العبد الذليل والبشر الضئيل أى لا يضل تعالى ولا ينسى كما تضل أنت وتنسى يا مدعى الربوبية بالجهل والوقاحة ثم عاد الى تتميم كلامه الاول وابراز الدلائل الظاهرة على الوحدانية فقال (الذى جعل لكم) فى جملة الخلق (الارض مهادا) أى فراشا (تنبيه) هذا الموصول فى محل رفع صفة لربى وخبر محذوف تقديره هو أو منصوب على المدح وقرأ عاصم وحمزة هنا وفى سورة الزخرف مهدا بفتح الميم وسكون الهاء أى مهدها مهدا أو تتمهدونها فهى لهم كالمهاد وهو ما يمهد للصبى وقرأ الباقون بكسر الميم وفتح الهاء وألف بعدها وهو اسم ما يمهد كالفراش أو جمع مهد (وسلك) أى سهل (لكم فيها سبلا) أى طرقا بين الجبال والاودية والبرارى تسلكونها من أرض الى أرض لتبلغوا منافعها (وانزل من السماء ماء) أى مطرا وعدل بقوله (فأخرجنا به) عن لفظ الغيبة الى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى تنبيها على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال قدرته والحكمة وايذانا بأنه مطاع تنقاد الاشياء المختلفة لمشيئته وعلى هذا نظائره كقوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها امن خلق السموات والارض وانزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق (أزواجا) أى أصنافا سميت بذلك لانها مزدوجة مقترنة بعضها مع بعض وقوله تعالى (من نبات) بيان وصفة لازواجا وكذلك (شتى) وهو جمع شتيت من شت الامر تفرق فهو مرضى جمع مريض وجرحى

المقصر اوالمراد بالرحمة الرحيم وهو صلى الله عليه وسلم كان رحيما الكفار ايضا الاترى انهم لما شجوه وكسروا رباعيته حتى خر مغشيا عليه قال بعد افاقته اللهم اهد قومى

جمع جريج فالفه للتأنيث أي ازواجا متفرقة ويجوز ان يكون صفة للنبات فانه من حيث انه
مصدر في الاصل يستوي فيه الواحد والجمع أي انها مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة
والشكل بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم فلذلك قال تعالى (كلوا وارعوا أنعامكم)
والانعام جمع نعم وهي الابل والبقر والغنم يقال رعت الانعام ورعيتها والامر للاباحة
وتذكير النعمة والجملة حال من ضمير أخرجنا أي مبيحين لكم الاكل ورعي الانعام أي
وبقية الحيوانات (ان في ذلك) أي فيما ذكرت من هذه النعم (لآيات) أي لعبرا (لأولي
النهى) اي أصحاب العقول جمع نهية كغرفة وغرف سمي به العقل لانه ينهى صاحبه عن
ارتكاب القبائح • ولما ذكر سبحانه وتعالى منافع الارض والسماء بين انها غير مطلوبة
لذاتها بل هي مطلوبة لكونها وسائل الى منافع الآخرة فقال (منها) اي الارض (خلقناكم)
• (فان قيل) انما خلقنا من النطفة على ما بين في سائر الآيات (اجيب) باوجه احدها انه لما
خلق اصلنا آدم عليه السلام من تراب كما قال تعالى كمثل آدم خلقه من تراب حسن اطلاق
ذلك علينا ثانيها ان تولد الانسان انما هو من النطفة ودم الطمث وهما متولدان من الاغذية
والغذاء اما حيواني او نباتي والحيواني ينتهي الى نباتي والنبات انما يحدث من امتزاج الماء
والتراب فصح انه تعالى خلقنا منها وذلك لا ينافي كوننا مخلوقين من النطفة ثالثها روى ابن
مسعود ان ملك الارحام يأتي الى الرحم حين يكتب اجل المولود ورزقه والارض التي يدفن
فيها فانه يأخذ من تراب تلك البقعة وينثره على النطفة ثم يدخلها في الرحم وأخرج ابن
المنذر عن عطاء الخرساني قال ان الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذره
على النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة (وفيها نعيدكم) اي مقبورين بعد الموت (ومنها
نخرجكم) اي عند البعث (تارة) اي مرة (اخرى) اي بتأليف اجزائكم المتفتتة المختلطة
بالتراب ونردهم كما كانوا احياء ونخرجهم الى المحشر يوم يخرجون من الاجداث سراعا
• ولما كان المقام لتعظيم القدرة عطف عليه قوله تعالى (ولقد اريناه) اي ابصرناه (آياتنا
كلها) اي التسع المختصة بموسى عليه السلام ٣ وهي العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد
والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل (فكذب) بها وزعم انها سحر (وابى) ان يسلم (فان
قيل) قوله تعالى كلها يفيد العموم والله تعالى ما اراه جميع الآيات فان من جملة الآيات
ما اظهرها على ايدي الانبياء قبل موسى عليه السلام وبعده (اجيب) بان لفظ الكل
وان كان للعموم قد يستعمل في الخصوص مع القرينة كما يقال دخلت السوق فاشتريت كل
شيء أو يقال ان موسى عليه السلام اراه آياته وعدد عليه آيات غيره من الانبياء فكذب
فرعون بالكل او يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضي تكذيب الكل فحكى سبحانه وتعالى
ذلك على الوجه الذي يلزم ثم كأنه قيل كيف صنع في تكذيبه وابائه فقيل (قال) حين علم
حقيقة ما جاء به موسى وظهوره وخاف ان يتبعه الناس ويتركوه وهن في نفسه وهنا عظيما
(اجئتنا لتخرجنا من ارضنا) اي الارض التي نحن مالكوها ويكون لك الملك فيها انصارت
فرائصه ترعد خوفا مما جاء به موسى لعلمه وايقانه أنه على الحق وان المحق لو اراد قود الجبال
لانقادت له وان مثله لا يخذل ولا يذل ناصره وانه غالبه على ملكه لا محالة ثم خيل لاتباعه ان

فانهم لا يعلمون (قوله قل
رب احكم) ان قلت ما فائدة
قوله بالحق (قلت) ليس
المراد بالحق هنا نقيض
الباطل بل المراد ما وعده
الله تعالى اياه من نصر
المؤمنين وخذلان الكافرين

٣ قوله وهي العصا الخ فيه أن
الحجر ونتق الجبل كانا بعد
غرق فرعون وعبارة الجلال
وتقدم ان ثمانية منها في
الاعراف الاولى والثانية
قوله فألقى عصاه فاذا هي
ثعبان مبين ونزع يده الخ
والثالثة قوله ولقد أخذنا
آل فرعون بالسنين ونقص
من الثمرات وخمسة في قوله
فارسلنا عليهم الطوفان
والجراد والقمل والضفادع
والدم وواحدة في سورة
يونس قوله ربنا اطمس على
أموالهم واشدد على
قلوبهم اه

ذلك سحر بقوله (بسحرك ياموسى) فكانه ذلك مع ما القوه من عادتهم في الضلال صارفا لهم
عن اتباع ما راوه من البيان ثم اظهر لهم انه يعارضه بمثل ما اتى به بقوله (فلنأتينك بسحر مثله)
اى مثل سحرك يعارضه (فاجعل بيننا وبينك موعدا) اى من الزمان والمكان (لانخلفه) اى
لانجعله خلفنا (نحن ولا أنت) اى لانجاوزه ولما كان كل من الزمان والمكان لاينفك عن
الآخر قال (مكانا) وآثر ذلك المكان لاجل وصفه بقوله (سوى) أى عدلا وقال ابن عباس
نصفا تستوى مسافة الفريقين اليه فانظر الى هذا الكلام الذى زوقه ونمقه وصنعه بما وقف
به قومه عن السعادة واستمر يقودهم بعناده حتى أوردهم البحر فاغرقهم ثم في غمرات النار
أحرقهم وقيل معنى سوى اى سوى هذا المكان وقرأ شعبة وابن عامر وحمزة والكسائي
بضم السين والباقون بكسرها وأمال شعبة وحمزة والكسائي في الوقف محضة والباقون
بالفتح وقيل المراد بالموعد الوعد لان الاخلاف لايلائم الزمان والمكان اى بل الوعد هو
الذى يصح وصفه بالخلف وعدمه والى هذا المحاجة مختار يعنى له ورد عليهم بقوله (قال
موعدكم يوم الزينة) فانه لايطابقه *(تنبيه)* يحتمل ان قوله قال موعدكم يوم الزينة
ان يكون من قول فرعون فبين الوقت وأن يكون من قول موسى عليه السلام وهذا أظهر
كما قال الرازى لوجوه الاول انه جواب لقول فرعون فاجعل بيننا وبينك موعدا الثانى وهو
ان تعيين يوم الزينة يقتضى اطلاع الكل على ما سيقع فتعيينه انما يليق بالمحق الذى يعرف
ان اليد له لا المبطل الذى يعرف انه ليس معه الا التلبيس ثالثها ان قوله موعدكم خطاب للجمع
فلو جعلناه من فرعون لموسى وهرون لزم اما أن نحمله على التعظيم أو ان أقل الجمع اثنان
فالاول لايليق بحال فرعون معهما والثانى غير جائز فاذا جعلناه من موسى عليه السلام
استقام الكلام واختلف في يوم الزينة فقال مجاهد وقتادة النيروز وقال ابن عباس وسعيد
ابن جبير هو يوم عاشوراء وقيل كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون في كل سنة وقيل يوم
كانوا يتخذون فيه سوقا ويتزينون ذلك اليوم وبني قوله (وان يحشر) للمفعول لان القصد
الجمع لا كونه من معين (الناس) اى يجتمعوا (ضحى) اى وقت الضحوة فيكون أظهر
لما يعمل وأجلى فلا يأتى الليل الا وقد قضى الامر وعرف المحق من المبطل ويكثر التحديث
بذلك في كل بدو وحضر ويشيع في جميع اهل الوبر والمدر (فتولى) اى اعرض (فرعون)
عن موسى الى تهيئة ما يريد من الكيد بعد توليه عن الانقياد لامر الله تعالى (فجمع
كيده) اى مكره وحيلته وخداعه الذى دبره على موسى عليه السلام بجمع من يعمل
يوم الكيد وهم السحرة حشرهم من كل فج وكان أهل مصر أسحر أهل الارض وأكثرهم
سحرا وكانوا في ذلك الزمان أشد اعتناء بالسحر واعمهم ما كانوا اكثر (ثم أتى) للميعاد
الذى وقع القرار عليه بمن حشره من السحرة والجنود ومن تبعهم من الناس مع توفر الدواعى
على الاتيان للعيد والنظر الى تلك المغالبة التى لم يكن مثلها ولما تشوق السامع الى
ما كان من موسى عليه السلام عند ذلك استأنف تعالى الخبر عنه بقوله تعالى (قال لهم)
اى لاهل الكيد والعناد وهم السحرة وغيرهم (موسى) حين رأى اجتماعهم ناصحا لهم
(ويلكم) يا أيها الناس الذين خلقكم الله تعالى لعبادته (لاتفتروا) اى لاتتعمدوا

(على)

و وعده لا يكون الاحقا ونظيره قوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق اوان قوله بالحق تاكيد لما في التصريح بالصفة من المبالغة وان كانت لازمة للفعل

(على الله كذبا) باشراك أحد معه (فيسحتكم) قال مقاتل يهلككم وقال قتادة يستأصلكم (بعذاب) من عنده وقرأ حفص وحمزة والكسائي بضم الياء وكسر الحاء من الاسحات وهو لغة نجد وتميم والباقون بفتحهما من السحت لغة الحجاز (وقد خاب من افترى) كما خاب فرعون فانه افترى واحتال ليبقى الملك له فلم ينفعه (فتنازعوا) أى تجاذب السحرة (أمرهم بينهم) لما سمعوا هذا الكلام علما منهم أنه لا يقدر أن يواجه فرعون بمثله فى جمع جنوده واتباعه ثم يسلم منه الا من الله تعالى معه (وأسروا النجوى) قال الكلبى قالوا سرا ان غلبنا موسى اتبعناه وقال محمد بن اسحق لما قال لهم موسى لا تفتروا على الله كذبا قال بعضهم لبعض ما هذا بقول ساحر وبالغوا فى اخفاء ذلك فان النجوى الاسرار لئلا يظهر فرعون وأتباعه على ذلك فكأنه قيل ما قالوا حين انتهى تنازعهم فقيل (قالوا) أى السحرة (ان هذان لساحران) أى موسى وهرون وقرأ ابن كثير وحفص بسكون النون من ان وشددها الباقون وقرأ أبو عمرو بالياء بعد الذال والباقون بالالف على لغة من يجعل ألف المثنى لازما فى كل حال قال أبو حيان وهى لغة لطوائف من العرب بنى الحرث بن كعب وبعض كنانة وخثعم وزبيد وبنى العنبر وبنى الهجيم ومراد وعذرة وقال شاعرهم * تزود منى بين أذناه ضربة * يريد أذنيه وقال آخر

ان أباها وأبا أباها * قد بلغا فى المجد غايتاها

وقيل تقدير الآية انه هذا فحذف الهاء وذهب جماعة الى أن حرف ان ههنا بمعنى نعم أى نعم هذان روى أن أعرابيا سأل ابن الزبير شيأ فحرمه فقال لعن الله ناقة حملتنى اليك فقال ابن الزبير ان وصاحبها أى نعم وشددا بن كثير النون فكانت نجواهم فى تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفا من غلبتهما وتثبيطا للناس عن اتباع موسى وهرون (يريدان) أى عاجلا أو آجلا (أن يخرجاكم) أيها الناس (من أرضكم) هذه التى ألفتموها وهى وطنكم خلفا عن سلف (بسحرهما) الذى أظهراه لكم وغيره * ولما كان كل حزب بما لديهم فرحين قالوا (ويذهبا بطريقتكم المثلى) مؤنث الامثل وهو الافضل أى بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب باظهار مذهبه واعلاء دينه لقوله تعالى انى أخاف أن يبدل دينكم وقيل أراد أهل طريقتكم وهم بنو اسرائيل فانهم كانوا أرباب علم فيما بينهم لقول موسى أرسل معنا بنى اسرائيل وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم من حيث انهم قدوة لغيرهم (فأجمعوا كيدكم) أى من السحر وغيره فلا تدعوا منه شيأ الا جئتم به وقرأ أبو عمرو بهمزة الوصل بين الفاء والجيم وفتح الميم والباقون بهمزة مقطوعة وكسر الميم (ثم ائتوا) أى لقاء موسى وهرون (صفا) أى مصطفين لانه أهيب فى صدور الرائين *(تنبيه)* اختلفوا فى عدد السحرة فقال الكلبى كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان من القبط وسبعون من بنى اسرائيل وقال عكرمة كانوا تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقال وهب خمسة عشر ألفا وقال السدى بضعة وثلاثون ألفا وقال القاسم بن سلام كانوا سبعين ألفا وقيل اثنى عشر ألفا مع كل منهم على كل قول حبل وعصا وأقبلوا عليه اقبالة واحدة وظاهر القرآن لا يدل على شئ من هذه الاقوال * ولما كان التقدير فأتى كذلك فقد استعلى عطف عليه قوله (وقد أفلح

ونظيره فى عكسه من صفة الذم قوله ويقتلون الانبياء بغير حق

(سورة الحج)

(قوله يوم ترونها) ان قلت كيف جمع هنا وأفرد بعد فى قوله وترى الناس سكارى

اليوم) في هذا الجمع الذي ما اجتمع مثله قط (من استعلى) أي فاز بالمطلوب من غلب فلما أتى السحرة موسى (قالوا) له متأدبين لأن لين القول مع الخصم إن لم ينفع لم يضر بل نفعهم قال بعضهم ولذلك رزقهم الله تعالى الإيمان ببركته (يا موسى إما أن تلقي) أي ما معك مما تناظرنا به أولا (وإما أن نكون نحن) (أول من ألقى) ما معه (قال) لهم موسى عليه السلام مقابلا لأدبهم بأحسن منه ولأنه فهم أن مرادهم الابتداء وليكون هو الآخر فتكون له العاقبة بتسليط معجزته على سحرهم فلا يكون بعدها شك لا ألقي أنا أولا (بل ألقوا) أنتم أولا فانتهزوا الفرصة لأن ذلك كان مرادهم عما أفهموه من تغيير السياق والتصريح بالأول فألقوا ما معهم من الحبال والعصي (فإذا حبالهم وعصيهم) أي التي ألقوها قد فاجأت أنه (يخيل إليه) تخييلا مبتدأ (من سحرهم) أي الذي قد فاقوا به أهل الأرض (أنها) لشدة اضطرابها (تسعى) ٥ (فإن قيل) كيف يجوز أن يقول موسى عليه السلام بل ألقوا فيأمرهم بما هو سحر (أجيب) بأن ذلك الأمر كان مشروطا والتقدير ألقوا إما أنتم ملقون إن كنتم محقين كما في قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله أي إن كنتم صادقين وفي القصة أنهم لما ألقوا الحبال والعصي أخذوا أعين الناس فرأى موسى والقوم كأن الأرض امتلأت حيات وكانت قد أخذت ميلا من كل جانب ورأوا أنها تسعى وقيل لطخوها بالزئبق فلما وقعت عليها الشمس اضطربت فخيل إليهم أنها تتحرك وقرأ ابن ذكوان تخيل بالتاء الفوقية على التأنيث والباقون بالياء على إسناده إلى ضمير الحبال (فأوجس) أي أحس (في نفسه خيفة موسى) عليه الصلاة والسلام (فإن قيل) كيف استشعر الخوف وقد عرض عليه المعجزات الباهرات كالعصا واليد ثم إن الله تعالى قال له بعد ذلك إنني معكما أسمع وأرى فكيف وقع الخوف في قلبه (أجيب) بأوجه أحدها أنه خاف من جهة أن سحرهم من جنس معجزته أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا به الثاني أنه خوف طبع البشرية مثل ما خاف من عصاه أول ما رآها كذلك الثالث لعله كان مأمورا أن لا يفعل شيئا إلا بالوحي فلما تأخر نزول الوحي عليه في ذلك الوقت خاف أن لا ينزل عليه الوحي في ذلك الجمع فيبقى الخجل ثم إنه أزال ذلك الخوف بقوله تعالى (قلنا لا تخف) من شيء من أمرهم ولا غيره ثم علل ذلك بقوله تعالى وأكده أنواعا من التأكيد لاقتضاء الحال إنكارا أن يغلب أحد ما أظهروا من سحرهم لعظمه (إنك أنت) خاصة (الأعلى) أي الغالب غلبة ظاهرة لا شبهة فيها (وألق ما في يمينك) أبهمه ولم يقل عصاك تحقيرا لها أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الذي في يدك أو تعظيما لها أي لا تحتفل بكثرة هذه الأجرام وعظمها فإن في يمينك ما هو أعظم منها أي العصا وهي التي قلنا لك أول ما شرفناك بالمناجاة وما تلك بيمينك يا موسى ثم أريناك منها ما أريناك (تلقف) أي تبتلع بقوة واجتهاد مع سرعة لا تكاد تدرك (ما صنعوا) أي فعلوه بعد تدريب كثير وممارسة طويلة فلما ألقاها صارت أعظم حية من حياتهم ثم أخذت تزداد عظما حتى ملأت الوادي ثم صعدت حتى علقت ذنبها بطرف القبة ثم هبطت وأكلت كل ما عملوه في الميلين والناس ينظرون إليها لا يحسبون إلا أنه سحر ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحة فاها ثمانين ذراعا فصاح بموسى فأخذها فإذا هي عصا كما كانت ونظرت السحرة فإذا هي لم تدع من حبالهم وعصيهم شيئا إلا أكلته وعرفوا أنه ليس بسحر وأصل تلقف تتلقف

(قلت) لأن الرؤية الأولى متعلقة بالزلزلة وكل الناس يرونها والثانية متعلقة بكون الناس سكارى فلا بد من جعل كل واحد رائيا بأتيهم (قوله كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم

حذفت احدى التاءين وتاء المضارعة فتحتمل التأنيث على اسناد الفعل الى العصا والخطاب على اسناد الفعل الى السبب وقرأ ابن ذكوان برفع الفاء على الحال أو الاستئناف والباقون بسكونها وحفص بسكون اللام وتخفيف القاف على أنه من لقفته بمعنى تلقفته (انما) أى الذى (صنعوا) اى زوروا وافتعلوا وهالك أمره (كيد ساحر) أى كيد سحرى لا حقيقة له ولا ثبات وقرأ حمزة والكسائى بكسر السين وسكون الحاء بمعنى ذى سحر أو بتسمية الساحر سحرا على المبالغة أو باضافة الكيد الى السحر للبيان كقولهم علم فقه والباقون بفتح السين وكسر الحاء وألف بينهما (فان قيل) لم وحد الساحر ولم يجمع (أجيب) بان القصد من هذا الكلام معنى الجنسية لا معنى العدد فلو جمع خيل ان المقصود هو العدد ألا ترى الى قوله تعالى (ولا يفلح الساحر) اى هذا الجنس (حيث أتى) اى كيفما سار وقال ابن عباس لا يسعد حيث كان وقيل معناه حيث احتال فانه انما يفعل ما لا حقيقة له (فان قيل) لم نكر أولا ثم عرف ثانيا (أجيب) بانه قال هذا الذى أتوا به قسم واحد من أقسام السحر لا فائدة فيه ولا شك ان الكلام على هذا الوجه أبلغ ثم انه امتثل ما أمره به ربه من القاء العصا فكان ما وعده به سبحانه من تلقفها ما صنعوا من غير أن يظهر عليها زيادة فى ثخن ولا فى غيره مع أن حبالهم وعصيهم كانت شيأ كثيرا فعلم كل من رأى ذلك حقيقته وبطلان ما فعل السحرة فبادر السحرة منهم الى الخضوع لامر الله تعالى ساجدين مبادرة من كأنه ألقاه ملق على وجهه ولذلك قال تعالى بعد ان ذكر مكرهم واجتهادهم فى معارضة موسى عليه السلام وحذف ذكر الالقاء وما سببه من التلقف لان مقصود السورة القدرة على تليين القلوب القاسية (فألقى السحرة) أى فالقاهم ما رأوا من أمر الله تعالى بغاية السرعة وبايسر أمر (سجدا) على وجوههم لله تعالى توبة عما صنعوا واغمالا فرعون بسجودهم وتعظيما لما رأوا وذلك لانهم كانوا فى الطبقة العليا من علم السحر فلما رأوا فعل موسى عليه السلام خارجا عن صناعتهم عرفوا انه ليس من السحر البتة ويقال قال رئيسهم كنا نغلب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا فلو كان هذا سحرا فأين الذى ألقيناه فاستدلوا بتغير أحوال الاجسام على الصانع القادر وبظهورها على يد موسى عليه السلام على كونه رسولا صادقا من عند الله لا جرم تابوا وآمنوا وأتوا بما هو النهاية فى الخضوع وهو السجود قال الاصبهانى سبحان الله ما أعظم شأنهم ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين فكأن قائلا قال هذا فعلهم فماذا قالوا فقيل (قالوا آمنا برب هرون وموسى) ولم يقولوا آمنا برب العالمين لان فرعون ادعى الربوبية فى قوله انا ربكم الاعلى والالهية فى قوله ما علمت لكم من اله غيرى فلو أنهم قالوا ذلك لكان فرعون يقول انهم آمنوا بى لا بغيرى فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة والدليل على ذلك أنهم لم يقتصروا على موسى بل قدموا هرون لان فرعون ربى موسى فى صغره فلو اقتصروا على موسى أو قدموا ذكره فربما توهم ان المراد فرعون وذكر هرون على الاستتباع وقيل قدموه لكبر سنه أو لروى الآية فسبحان الله ما أعظم أمرهم كانوا أول النهار سحرة يقرون لفرعون بالربوبية وآخره شهداء بررة روى أنهم لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها وعن عكرمة لما خر واسجدا أراهم الله تعالى

أعدوا فيها) قال ذلك هنا بذكر من ثم وفى السجدة بدونه موافقة لما قبلهما اذ ما هنا تقدمه قوله قطعت لهم ثياب من نار الآية وما هناك لم يتقدمه الا قوله فأواهم النار (قوله وذوقوا

في صدورهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة فكأنه قيل ما قال لهم فرعون حينئذ فقيل (قال) لهم (آمنتم) أي بالله (له) أي مصدقين أو متبعين لموسى (قبل أن آذن لكم) في ذلك قال ذلك إيهاماً بأنه سيأذن فيه ليقف الناس عن المبادرة إلى الاتباع بين خوف العقوبة ورجاء الإذن ثم استأنف قوله معللاً تخييلاً لأتباعه صدّاً لهم عن الاقتداء بالسحرة (إنه) أي موسى (لكبيركم) أي معلمكم (الذي علمكم السحر) أي فلم تتبعوه لظهور الحق بل لإرادتكم شيئاً من المكر وافقتموه عليه قبل حضوركم في هذا الموطن وهذا على عادته في تخييل أتباعه بما يوقفهم عن اتباع الحق ولما خيلهم شرع يزيدهم حيرة بتهديد السحرة فقال مقسماً (فلأقطعن) أي بسبب ما فعلتم (أيديكم) على سبيل التوزيع (وأرجلكم) أي من كل رجل يداً ورجلاً وقوله (من خلاف) حال يعني مختلفة أي الأيدي اليمنى والأرجل اليسرى (ولأصلبنكم) وعبر عن الاستعلاء بالظرف إشارة إلى تمكينهم في المصلوب عليه تمكين المظروف في ظرفه فقال (في جذوع النخل) تشنيعاً لقتلكم وردعاً لأمثالكم (ولتعلمن أينا) يريد نفسه لعنه الله وموسى عليه السلام بدليل قوله آمنتم له واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله كقوله يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين وفيه تبجح باقتداره وقهره وما ألفه وضري به من تعذيب الناس بأنواع العذاب وتوضيع لموسى عليه السلام واستضعاف له مع الهزء به لأن موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء وقيل يريد رب موسى الذي آمنوا به (أشد عذاباً وأبقى) أي أدوم على مخالفته (فإن قيل) إن فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية وقصدها له وآل الأمر أن استغاث بموسى من شرها وعجزه عن دفعها كيف يعقل أن يهدد السحرة ويبالغ في وعيدهم إلى هذا الحد ويستهزئ بموسى في قوله أينا أشد عذاباً وأبقى (أجيب) بأنه كان في أشد الخوف في قلبه إلا أنه يظهر الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه وترويجاً لأمره قال الرازي ومن استقرى أحوال العالم علم أن العاجز قد يفعل أمثال هذه الأشياء ومما يدل على معاندته قوله إنه لكبيركم الذي علمكم السحر لأنه كان يعلم أن موسى ما خالطهم البتة وما لقيهم وكان يعلم من سحرته أستاذ كل واحد منهم وكيف حصل ذلك العلم ثم إنه كان يقول مع ذلك هذه الأشياء ثم كأنه قيل فما قالوا له فقيل (قالوا) له (لن نؤثرك) أي نختارك (على ما جاءنا) على لسان موسى (من البينات) التي عايناها وعلمنا أنه لا يقدر أحد على مضادتها ، ولما بدؤوا بما يدل على الخالق من الفعل ترقوا إلى ذكره بعد معرفته بفعله إشارة إلى علو قدره فقالوا (والذي) أي ولا نؤثرك بالاتباع على الذي (فطرنا) أي ابتدأ خلقنا إشارة إلى شمول ربوبية الله تعالى لهم وله ولجميع الناس وتنبيهاً على عجز فرعون عند من استخفه وفي جميع أقوالهم هذه من تعظيم الله تعالى عبارة وإشارة وتحقير فرعون أمر عظيم ، (تنبيه) ، قد علم مما تقرر أن والذي معطوف على ما وإنما أخر وإن كان الباري تعالى لأنه من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى وقيل الواو قسم والموصول مقسم به وجواب القسم محذوف أي وحق الذي فطرنا لا نؤثرك على الحق ، ولما تسبب عن ذلك أنهم لا يبالون به وعلموا أن ما يفعله بهم هو بإذن الله تعالى قالوا له (فاقض) أي فاصنع في حكمك الذي تقضيه (ما أنت قاض) أي فاقض الذي أنت قاضيه ثم عللوا ذلك بقولهم (إنما تقضي) أي تصنع بنا ما تريد إن قدرك الله تعالى عليه (هذه الحيوة الدنيا) النصب على الاتساع أي إنما

عذاب الحريق) تقديره وقيل لهم ذوقوا كما في المحرقة وخص ما هنا بالحذف لطول الكلام وما في المحرقة بالذكر لقصره وموافقة لذكر القول قبله كقوله أم يقولون افتراه

حكمك

حكمك فيها على الجسد خاصة فهي ساعة تعقبها راحة ونحن لا نخاف الا من يحكم على الروح وان فني الجسد فذلك هو العذاب الشديد الدائم ثم عللوا انه عظيم الله تعالى واستهانتهم بفرعون بقولهم (انا آمنا بربنا) أي المحسن الينا طول أعمارنا مع اساءتنا بالكفر وغيره (ليغفر لنا) من غير نفع يلحقه بالفعل أو ضرر يدركه بالترك (خطايانا) التي قابلنا بها احسانه ثم خصوا بعد العموم فقالوا (وما أكرهتنا عليه) وبينوا ذلك بقولهم (من السحر) لتعارض المعجزة فانه كان الاكمل لنا عصيانك فيه لان الله تعالى أحق بان يتقى (فان قيل) كيف قالوا ذلك وقد جاؤا مختارين يحلفون بعزة فرعون ان لهم الغلبة (أجيب) بانه قد روي أن رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين اثنان من القبط والباقون من بني اسرائيل أكرههم فرعون على تعلم السحر وروي أنهم رأوا موسى عليه السلام نائما وعصاه تحرسه فقالوا لفرعون ان الساحر اذا نام بطل سحره فهذا لا نقدر على معارضته فأبى عليهم وأكرههم على المعارضة وقيل ان الملوك في ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ويكلفونه تعلم السحر فاذا شاخ بعثوا اليه أحداثا ليعلمهم ليكون في كل وقت من يحسنه * ولما كان التقدير فربنا اهل التقوى واهل المغفرة عطفوا عليه مستحضرين لكماله (والله) اي الجامع لصفات الكمال (خير) جزاء منك فيما وعد تمنيه (وأبقى) ثوابا وعقابا قال ابو حيان والظاهر ان الله تعالى سلمهم من فرعون ويؤيده قوله تعالى ومن اتبعكما الغالبون وقال الرازي ليس في القرآن ان فرعون فعل باولئك القوم المؤمنين ما اوعدهم ولم يثبت في الاخبار وقال البقاعي سيأتي في آخر الحديد ما هو صريح في نجاتهم ثم عللوا هذا الحكم بقولهم (انه) اي الامر والشان (من يأت ربه) اي الذي رباه واحسن اليه بان اوجده وجعل له جميع ما يصلحه (مجرما) بان يموت على كفره (فان له جهنم) دار الاهانة (لا يموت فيها) فيستريح من عذابها بخلاف عذابك فان آخره الموت وان طال (ولا يحيى) فيها حياة مهنأة وبها يندفع ما قيل ان الجسم الحي لا بد أن يبقى اما حيا أو ميتا فخلوه عن الوصفين محال وقال بعضهم ان لنا حالة ثالثة وهي كحالة المذبوح قبل أن يهدأ فلا هو حي لانه قد ذبح ذبحا لا تبقى الحياة معه ولا هو ميت لان الروح لم تفارقه بعد فهي حالة ثالثة (ومن يأته) أي ربه الذي قد أوجده ورباه (مؤمنا) اي مصدقا به (قد) ضم الى تصديق الايمان أنه (عمل) اي في الدنيا (الصالحات) أي التي أمر بها فكان صادق الايمان مستلزما لصالح الاعمال (فأولئك) أي العالو الرتبة (لهم الدرجات العلى) جمع عليا مؤنث أعلى التي لا نسبة لدرجاتك التي أوعدتناها اليها ثم بينوها بقولهم (جنات عدن) أي أعدت للاقامة وهيئت فيها أسبابها (تجري من تحتها الانهار) أي من تحت غرفها واسرتها وأرضها فلا يراد موضع منها الا نبع فيه نهر الاجرى وقولهم (خالدين فيها) حال والعامل فيها معنى الاشارة أو الاستقرار (وذلك جزاء) كل (من تزكى) اي تطهر من أدناس الكفر * (تنبيه) * هذه الآيات الثلاث وهي من قوله انه من يأت ربه مجرما الى هنا يحتمل أن تكون من كلام السحرة كما تقرر وأن تكون ابتداء كلام من الله تعالى وقوله تعالى (ولقد أوحينا الى موسى ان أسر بعبادي) عطف على قوله ولقد أريناه آياتنا وفيه دليل على أن موسى عليه السلام كثر مستجيبوه فاراد الله تعالى تمييزهم من طبقة فرعون وخلاصهم فأوحى اليه أن يسري بهم ليلا والسرى اسم لسير الليل والاسراء

قوله وقالوا أئذا ضللنا وقل يتوفاكم (قوله ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار) كرره لانه لما ذكر حكم أحد الخصمين وهو الذين كفروا قطعت

مثله والحكمة فى السرى بهم لئلا يشاهدهم العدو فيمنعهم عن مرادهم أو ليكون ذلك عائقا لفرعون عن طلبه وتتبعه أو ليكون اذا تقارب العسكران لا يرى عسكر موسى عليه الصلاة والسلام عسكر فرعون لعنه الله فلا يهابونهم وقرأ نافع وابن كثير بكسر النون وهمزة وصل بعدها من سرى والباقون بسكون النون وهمزة قطع بعدها من أسرى لغتان أى أسر ببنى اسرائيل من أرض مصر الى لينت قلب فرعون لهم حتى أذن لهم فى مسيرهم بعد أن كان قد أبى أن يطلقهم او يكشف عنهم العذاب فاقصد بهم ناحية بحر القلزم (فاضرب) اى اجعل (لهم) بالضرب بعصاك (طريقا فى البحر) والمراد بالطريق الجنس فانه كان لكل سبط طريق وقوله (يبسا) صفة لطريقا وصف به لما يؤول اليه لانه لم يكن يبسا الا بعد أن مرت عليه الصبا فجففته كما روى وقيل فى الاصل مصدر وصف به مبالغة وقيل جمع يابس كخادم وخدم وصف به الواحد مبالغة فلما امتثل ما أمر به وأيبس الله تعالى له الارض واراد المرور بها قال الله تعالى له (لا تخاف دركا) اى أن يدركك فرعون (ولا تخشى) غرقا وقرأ حمزة بجزم الفاء ولا ألف بينها وبين الخاء على ان يكون نهيا مستأنفا والباقون برفع الفاء والف بينها وبين الخاء على انه مستأنف فلا محل له من الاعراب أو انه فى محل نصب على الحال من فاعل اضرب اى اضرب غير خائف (فأتبعهم فرعون بجنوده) اى وهو معهم على كثرتهم وعلوهم وقوتهم وعزتهم فكانوا كالتابع الذى لا معنى له بدون متبوعه والمتبوع بنو اسرائيل وذلك ان موسى عليه الصلاة والسلام خرج بهم اول الليل فاخبر فرعون بذلك فقص اثرهم والمعنى فاتبعهم فرعون نفسه ومعه جنوده فحذف المفعول الثانى وقيل ان الباء زائدة (فغشيهم) اى فرعون وقومه (من اليم) اى البحر (ما غشيهم) اى امر لا تحتمل العقول وصفه فاهلكهم وقطع دابرهم ولم يبق منهم أحدا وما شاك أحدا من عبادنا المستضعفين شوكة (وأضل فرعون قومه) أى بدعائهم الى عبادته (وما هدى) أى ما أرشدهم وهذا تكذيب لفرعون وتهكم به فى قوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد

•(تنبيه)• لا بأس بذكر شئ من هذه القصة فنقول قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لما أمر الله تعالى موسى أن يقطع بقومه البحر وكان بنو اسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحلى والدواب لعيد يخرجون اليه فخرج بهم ليلا وكان يوسف عليه الصلاة والسلام عهد اليهم عند موته أن يخرجوا بعظامه معهم من مصر فلم يعرفوا مكانها حتى دلتهم عجوز على موضع العظم فأخذوه وقال موسى عليه الصلاة والسلام للعجوز احتكمى أى اطلبى لك شيأ اطلبه فقالت أكون معك فى الجنة فلما خرجوا اتبعهم فرعون وعلى مقدمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجنبين والقلب فلما انتهى موسى الى البحر قال هنا أمرت فأوحى الله تعالى اليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فقال لهم موسى ادخلوا فيه فقالوا كيف وهى رطبة فدعا ربه فهبت عليها الصبا فجفت فقالوا نخاف الغرق فى بعضنا فجعل بينهم كوى يرى بعضهم بعضا ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر وأقبل فرعون الى تلك الطرق فقال له قومه ان موسى قد سحر البحر كما ترى وكان على فرس حصان فاقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى فى ثلاثة وثلاثين من الملائكة فسار جبريل بين يدى فرعون فابصر الحصان الفرس فاقتحم بفرعون على اثرها فصاحت الملائكة فى الناس الحقوا حتى اذا لحق آخرهم وكاد أولهم أن يخرج التقى البحر عليهم

لهم ثياب من نار لم يكن بذكر الآخر من ذكر حكم النعيم لمقارنته له وان تقدم ذكره (قوله فكلوا منها) الآية كرره لان الاول مرتب على ذبح بهيمة الانعام الشاملة

فغرقوا

فغرقوا جميعاً فرجع بنو اسرائيل حتى ينظروا اليهم وقالوا يا موسى ادع الله تعالى يخرجهم لنا حتى ننظر اليهم فلفظهم البحر الى الساحل وأصابوا من سلاحهم وذكر ابن عباس أن جبريل قال يا محمد لو رأيتني وانا أدس في في فرعون الماء والطين مخافة أن يتوب فهذا معنى قوله تعالى فغشيهم من اليم ما غشيهم * ولما أنعم الله تعالى على قوم موسى عليه السلام بانواع النعم ذكر أولادهم تلك النعم فناداهم بقوله تعالى (يا بنى اسرائيل) والمنادى من وجد من اليهود فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وخوطبوا بما انعم به على اجدادهم زمن موسى عليه السلام ولا شك ان ازالة الضرر يجب تقديمها على ايصال المنفعة الدينية وايصال المنفعة الدينية أعظم من ايصال المنفعة الدنيوية فلهذا بدأ تعالى بازالة الضرر بقوله (قد أنجيناكم من عدوكم) فان فرعون كان ينزل بهم من أنواع الظلم كثيراً من القتل والاذلال والخراج والاعمال الشاقة ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية بقوله تعالى (وواعدناكم جانب الطور الايمن) أى الذى على أيمانكم فى توجهكم هذا الذى وجوهكم فيه الى بيت أبيكم ابراهيم عليه السلام وهو جانبه الذى يلى البحر وناحية مكة واليمن ووجه المنفعة فيه أنه أنزل فى ذلك القرب عليهم كتاباً فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية بقوله تعالى (ونزلنا عليكم) بعد انزال هذا الكتاب فى هذه المواعدة لانعاش أرواحكم (المنّ) أى الترنجبين (والسلوى) أى الطير السمانى بتخفيف الميم والقصر وقوله تعالى (كلوا من طيبات ما رزقناكم) أمر اباحة ان فسر الطيب باللذيذ لان المنّ والسلوى من لذائذ الاطعمة وان فسر بالحلال لان الله تعالى أنزله اليهم ولم تمسه يد الآدميين فهو أمر ايجاب وقرأ حمزة والكسائى قد أنجيتكم وواعدتكم ما رزقتكم بتاء مضمومة بعد الجيم من أنجيتكم وبعد الدال من وعدتكم وبعد القاف من رزقتكم ولا ألف فى الثلاثة والباقون بالنون وألف بعدها فى الثلاثة وأسقط أبو عمرو الالف قبل العين من وعدنا وأثبتها الباقون * ثم زجرهم عن العصيان بقوله تعالى (ولا تطغوا فيه) اى فيما رزقناكم بالاخلال بشكره والتعدى لما حده الله لكم فيه من السرف والبطر والمنع عن المستحقين وقرأ الكسائى (فيحل) بضم الحاء اى ينزل والباقون بكسرها اى يجب (عليكم غضبى) اى عقوبتى (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) اى هلك وقيل شقى وقيل وقع فى الهاوية وقرأ الكسائى بضم اللام الاولى وكسرها الباقون * ولما كان الانسان محل الزلل وان اجتهد رجاه واستعطفه بقوله سبحانه (وانى لغفار) اى ستار باسبال ذيل العفو (لمن تاب) اى رجع عن ذنوبه من الشرك وما يقاربه (وآمن) بكل ما يجب الايمان به (وعمل صالحاً) تصديقاً لايمانه (ثم اهتدى) باستمراره على ذلك الى موته * (فائدة) * اعلم أنه تعالى وصف نفسه بكونه غافراً وغفوراً وغفاراً وبأن له غفراناً ومغفرة وعبر عنه بلفظ الماضى والمستقبل والامر أما وصف كونه غافراً فقوله تعالى غافر الذنب وأما كونه غفوراً فقوله تعالى وربك الغفور وأما كونه غفاراً فقوله تعالى وانى لغفار لمن تاب وآمن وأما الغفران فقوله تعالى غفرانك ربنا وأما المغفرة فقوله تعالى وان ربك لذو مغفرة للناس وأما صيغة الماضى فقوله تعالى فى حق داود عليه السلام فغفرنا له وأما صيغة المستقبل فقوله تعالى ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله تعالى ان الله يغفر الذنوب جميعاً وقوله تعالى فى حق نبينا صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وأما لفظ

البدن والبقر والغنم والثانى مرتب على ذبح البدن خاصة وان وافقه فى الحكم ذبح الآخرين (قوله اذن للذين يقاتلون) اى اذن للذين يريدون ان يقاتلوا فى القتال

الاستغفار فقوله تعالى استغفروا ربكم ويستغفرون لمن في الارض ويستغفرون للذين آمنوا (وههنا نكتة لطيفة) وهي ان العبد له أسماء ثلاثة الظالم والظلوم والظلام اذا كثر منه الظلم ولله تعالى في مقابلة كل واحد من هذه الاسماء اسم فكأنه تعالى قال ان كنت ظالما فأنا غافر وان كنت ظلوما فأنا غفور وان كنت ظلاما فأنا غفار فيجب على كل من ارتكب معصية كبيرة أو صغيرة أن يتوب منها لهذه الآية ودلت على أن العمل الصالح غير داخل في الايمان لانه تعالى عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف يغاير المعطوف عليه ● ولما أمر تعالى موسى عليه السلام بحضور الميقات مع قوم مخصوصين قال المفسرون هم السبعون الذين اختارهم الله تعالى من جملة بني اسرائيل ليذهبوا معه الى الطور ليأخذوا التوراة فسار بهم موسى ثم عجل موسى عليه السلام من بينهم شوقا الى ربه وخلف السبعين وأمرهم أن يتبعوه الى الجبل فقال تعالى له (وما أعجلك عن قومك) أي لمجيء ميعاد أخذ التوراة (يا موسى قال) مجيبا لربه تعالى (هم أولاء) أي بالقرب مني يأتون (على أثري) أي ماشين على آثار مشيي قبل أن ينطمس وما تقدمتهم الا بخطا يسيرة لا يعتد بها عادة وليس بيني وبينهم الا مسافة قريبة يتقدم بها الرفقة بعضهم على بعض (وعجلت اليك رب لترضى) أي لتزداد عني رضا فان المسارعة الى امتثال أمرك والوفاء بعهدك توجب مرضاتك ● (تنبيه) ● في الآية سؤالات الاول قوله تعالى وما أعجلك استفهام وهو على الله تعالى محال وأجيب عنه بانه كان في صورة الاستفهام ولا مانع منه الثاني أن موسى عليه السلام لا يخلو اما أن يكون ممنوعا من ذلك التقدم أو لم يكن فان كان الاول كان التقدم معصية وان لم يكن فلا انكار وأجيب عنه بانه عليه السلام لعله ما وجد نصا في ذلك فاجتهد فاخطأ في اجتهاده فاستوجب العتاب الثالث قوله وعجلت والعجلة مذمومة أجيب عنه بانها ممدوحة في الدين قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم الرابع قوله لترضى يدل على أنه انما فعل ذلك ليحصل الرضا واذا لم يكن راضيا عنه وجب أن يكون ساخطا عليه وذلك لا يليق بحال الانبياء عليهم السلام أجيب عنه بان المراد تحصيل دوام الرضا أو زيادته كما مر الخامس قوله اليك يقتضي كون الله تعالى في جهة لان الى لانتهاء الغاية وأجيب عنه بانا اتفقنا على أن الله تعالى لم يكن في الجبل فالمراد مكان وعدك السادس قوله تعالى ما أعجلك عن قومك سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به أن يقول طلب زيادة رضاك او التشوق الى كلامك واما قوله هم أولاء على أثري فغير منطبق عليه كما ترى أجيب عنه بان سؤال الله تعالى يتضمن شيئين احدهما انكار نفس العجلة والثاني السؤال عن سبب التقدم فاجاب عن السؤال عن العجلة لانها اهم فقال وعجلت اليك رب لترضى (قال) تعالى (فانا) اى تسبب عن عجلتك عنهم انا (قد فتنا) اى ابتلينا (قومك من بعدك) اى بعد فراقك لهم بعبادة العجل وهم الذين خلفهم مع هرون وكانوا ستمائة الف وما نجا من عبادة العجل منهم الا اثنا عشر الفا (واضلهم السامري) باتخاذ العجل والدعاء الى عبادته فاطاعه بعضهم وامتنع بعضهم والسامري منسوب الى قبيلة من بني اسرائيل يقال لهم السامرة وقيل كان علجا من اهل كرمان وقع الى مصر وقيل كان من قوم يعبدون البقر جيران لبني اسرائيل ولم يكن منهم واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا (فرجع موسى) لما اخبره ربه بذلك (الى قومه)

(قوله الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله) الاستثناء فيه منقطع بمعنى لكن أخرجوا بقولهم ربنا الله او هو من باب تعقيب المدح

بعدما استوفى الاربعين ذا القعدة وعشر ليال من ذي الحجة واخذ التوراة (غضبان) عليهم (أسفا) اى حزينا بما فعلوا (قال) أى لقومه لما رجع اليهم مستعطفا لهم (يا قوم) وانكر عليهم بقوله (الم يعدكم ربكم) اى الذى احسن اليكم (وعدا حسنا) اى بانه ينزل عليكم كتابا حافظا ويكفر عنكم خطاياكم وينصركم على اعدائكم الى غير ذلك من اكرامه ولما جرت العادة بان طول الزمان ناقض للعزائم مغير للعهود كما قال ابو العلاء احمد بن سليمان المعرى

لا أنسينك ان طال الزمان بنا * وكم حبيب تمادى عهده فنسى

قال لهم (أفطال عليكم العهد) اى زمن لطف الله تعالى بكم فتغيرتم بمفارقتكم طبعه كما تغير أهل الرذائل والاضلال فى العزائم لضعف العقول وقلة التدبر (أم أردتم) اى بالنقض مع قرب العهد وذكر الميثاق (أن يحل) اى يجب (عليكم) بسبب عبادة العجل (غضب من ربكم) المحسن اليكم اى وكلا الامرين لم يكن أما الاول فواضح وأما الثانى فلا يظن باحد ارادته والحاصل انه يقول فعلتم ما لا يفعله عاقل (فأخلفتم) اى فتسبب عن فعلكم ذلك ان أخلفتم (موعدى) اى وعدكم اياى بالثبات على الايمان بالله والقيام على ما أمركم به ولما تشوف السامع الى جوابهم استأنف ذكره فقال (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) اى بان ملكنا أمرنا اذ لو خلينا وأمرنا ولم يسول لنا السامرى لما أخلفناه واختلف فى هذا المجيب على وجهين الاول هم الذين لم يعبدوا العجل فكانهم قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا اى بامر كنا نملكه وقد يضيف الرجل فعل قريبه الى نفسه كقوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر واذ قتلتم نفسا وان كان الفاعل لذلك آباءهم لا هم فكانهم قالوا الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه ولم نقدر أيضا على مفارقتهم لانا خفنا أن يصير ذلك سببا لوقوع النفرة وزيادة الفتنة الثانى ان هذا قول عبدة العجل والمراد أن غيرنا أوقع الشبهة فى قلوبنا وفاعل السبب فاعل المسبب فمخالف الوعد هو الذى أوقع الشبهة فانه كان كالمالك لنا (فان قيل) كيف كان رجوع قريب من ستمائة ألف انسان من العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعة واحدة الى عبادة عجل يعرف فسادها بالضرورة (أجيب) بان هذا غير ممتنع فى حق البله من الناس وقرأ عاصم ونافع بفتح الميم وحمزة والكسائى بضمها والباقون بكسرها وثلاثتها لغات فى مصدر ملكت الشئ ثم ان القوم فسروا الضرر الحامل لهم على ذلك الفعل فقالوا (ولكنا حملنا) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بضم الحاء وكسر الميم مشددة وأبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى بفتح الحاء والميم مخففة (أوزارا) اى أثقالا (من زينة القوم) اى حلى قوم فرعون استعاره منهم بنو اسرائيل بسبب عرس وقيل استعاروه للعيد كما لهم ثم لم يردوها عند الخروج مخافة أن يعلموا به وقيل هى ما ألقاه البحر على الساحل بعد غرقهم فاخذوه قال البيضاوى ولعلهم سموها أوزارا لانها آثام فان الغنائم لم تكن تحل بعد ولانهم كانوا مستأمنين وليس للمستأمن أن يأخذ من مال الحربى (فقذفناها) اى فى النار (فكذلك ألقى السامرى) اى ما كان معه من المال أو من أثر الرسول روى أن موسى عليه السلام لما وعده ربه أن يكلمه استخلف على قومه أخاه هرون وأجلهم ثلاثين يوما وذهب فصامها ليلها ونهارها ثم كره أن يكلم ربه وريح فمه متغير فمضغ شيأ من نبات الارض فقال له ربه أو ما علمت ان ريح الصائم أطيب من ريح المسك

بما يشبه الذم كقول الشاعر
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب
اى ان كان فيهم عيب فهو
هذا وهذا ليس بعيب

ارجع فصم عشرا وقيل انهم أقاموا بعده لمرقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين بايامها وقالوا قد كملت العدة فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع اليهم ساءهم ذلك وكان هرون قد خطبهم وقال انكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوار فاحفروا حفرة وألقوها فيها ثم أوقدوا عليها نارا فلا تكون لنا ولا لهم وكان السامرى قد رأى أثرا فقبض منه قبضة فمر بهرون فقال له ياسامرى ألا تلقى ما فى يدك فقال هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر ولا ألقيها على شئ الا أن تدعو الله اذا ألقيتها أن يكون ما أريد فالقاها ودعا له هرون فقال أريد أن يكون عجلا فاجتمع ما فى الحفرة وصار عجلا فهذا معنى قوله تعالى (فأخرج لهم عجلا جسدا) من ذلك الحلى المذاب لمجوف ليس فيه روح (له خوار) أى صوت يسمع قال ابن عباس لا والله ما كان له صوت قط وانما كان الريح يدخل فى دبره فيخرج من فيه فكان ذلك الصوت من ذلك وقيل انه صاغه ووضع التراب بعد صوغه فى فمه (فقالوا) أى السامرى ومن افتتن به أول ما رأوه مشيرين الى العجل (هذا الهكم واله موسى فنسى) أى فنسيه موسى وذهب يطلبه عند الطور أو فنسى السامرى اى ترك ما كان عليه من الايمان (أفلا يرون) اى قالوا ذلك فتسبب عن قولهم علمهم عن رؤية (أن) اى انه (لا يرجع اليهم قولا) والاله لا يكون ابكم (ولا يملك لهم ضرا) فيخافوه كما كانوا يخافون فرعون فيقولون ذلك خوفا من ضرره (ولا نفعا) فيقولون ذلك رجاء له (ولقد قال لهم هرون من قبل) اى قبل رجوع موسى مستعطفا لهم (ياقوم انما فتنتم) اى وقع اختباركم فاختبرتم فى صحة ايمانكم وصدقكم فيه وثباتكم عليه (به) اى بهذا العجل فى اخراجه لكم على هذه الهيئة الخارقة للعادة وأكد لاجل انكارهم فقال (وان ربكم) اى الذى أخرجكم من العدم ورباكم بالاحسان (الرحمن) وحده الذى فضله عام ونعمه شاملة فليس على بر ولا فاجر نعمة الا وهى منه تعالى قبل أن يوجد العجل وهو كذلك بعده ومن رحمته قبول التوبة فخافوا انزع نعمه بمعصيته وارجوا اسباغها بطاعته (فاتبعونى) بغاية جهدكم فى الرجوع اليه (وأطيعوا أمرى) اى فى الثبات على الدين (قالوا لن نبرح عليه) اى العجل (عاكفين) اى مقيمين (حتى يرجع الينا موسى) فداهنهم فهمر ابه وكان معظمهم قد ضل فلم يكن معه من يقوى بهم فخاف أن يجاهدهم الكفار فلا يفيد ذلك شيأ مع ان موسى لم يامره بجهاد من ضل وانما قال له واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فرأى من الاصلاح اعتزالهم الى ان يأتى ٭ (تنبيه) ٭ انما قال هرون ذلك شفقة على نفسه وعلى الخلق اما شفقته على نفسه فلانه كان مامورا من عند الله بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر وكان مامورا من عند اخيه بقوله اخلفنى فى قومى واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فلو لم يشتغل بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر لكان مخالفا لامر الله تعالى ولامر موسى وذلك لا يجوز أوحى الله تعالى الى يوشع ابن نون انى مهلك من قومك اربعين الفا من خيارهم ومائتى الف من شرارهم فقال يارب هؤلاء الاشرار فما بال الاخيار قال انهم لم يغضبوا لغضبى وقال انس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اصبح وهمه غير الله فليس من الله فى شئ ومن اصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم وعن النعمان ابن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد وعن عبد الله بن ابى اوفى قال خرجت اريد النبى

(قوله ولولا فلا عيب فيهم دفع الله الناس) الآية (ان قلت) اى منة على المؤمنين فى حفظ الصوامع والبيع والصلوات اى الكنائس من الهدم حتى امتن عليهم

صلى الله عليه وسلم فاذا ابو بكر وعمر عنده فجاء صغير يبكي فقال لعمر ضم الصبي اليك فانه ضال فاخذه عمر واذا ام الصبي تولول كاشفة عن رأسها جزعا على ابنها فقال النبي صلى الله عليه وسلم ادرك المرأة فناداها فجاءت واخذت ولدها وجعلت تبكي والصبي في حجرها فالتفتت فرأت النبي صلى الله عليه وسلم فاستحيت فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك اترون هذه رحيمة بولدها قالوا يا رسول الله كفى بهذه رحمة فقال والذي نفسي بيده ان الله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها ولقد سلك هرون في موعظته أحسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل أولا بقوله انما فتنتم به ثم دعاهم الى معرفة الله ثانيا بقوله وان ربكم الرحمن ثم دعاهم ثالثا الى النبوة بقوله فاتبعوني ثم دعاهم رابعا بقوله وأطيعوا امري وهذا هو الترتيب الجيد لانه لابد قبل كل شيء من اماطة الاذى عن الطريق وهو ازالة الشبهات ثم معرفة الله تعالى فانها هي الاصل ثم النبوة ثم الشريعة فثبت أن هذا الترتيب أحسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل أولا ولما ذكر تعالى ما قال هرون تشوفت النفس الى علم ما قال موسى فقيل (قال يا هرون) أنت نبي الله وأخي ووزيري وخليفتي فانت اولى الناس بان ألومه وأحقهم بان أعاتبه (ما منعك اذ) اي حين (رأيتهم ضلوا) عن طريق الهدى واتبعوا سبيل الردى (ألا تتبعني) في سيرتي من الاخذ على يد الظالم طوعا او كرها * (تنبيه) * لا مزيدة للتأكيد لان الداخل اذا زيد في كلام كان نافيا لضد مضمونه فيفيد اثبات المضمون ونفي الضد فيكون ذلك في غاية التأكيد وأثبت الياء بعد النون ابن كثير وقفا ووصلا وأثبتها نافع وأبو عمرو وصلا لا وقفا وحذفها الباقون وصلا ووقفا (أفعصيت) اي فتكبرت عن اتباعي فتسبب عن ذلك أنك عصيت (أمري) وأخذ بلحيته وبرأسه يجره اليه غضبا لله تعالى فكأنه قيل ما قال له فقيل (قال) مجيبا له مستعطفا بذكر أول وطن ضمهما بعد نفخ الروح مع ما له من الرقة والشفقة (يا ابن أم) فذكرها خاصة وان كان شقيقه لانها ايسر وهما ما يسوءه وهي أرق من الاب وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح الميم وكسرها ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي (لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) اي بشعرهما * ثم علل ذلك بقوله (اني خشيت أن تقول) اذا اشتددت عليهم حتى يصل الامر الى القتال (فرقت بين بني اسرائيل) بفعلك هذا الذي لم يحمد من كان معك وضعفك عن ردهم (ولم ترقب قولي) اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ولم تقل واردعهم ولو أدى الامر الى السيف * ولما فرغ من نصيحة أقرب الناس اليه وأحقهم بنصيحته وحفظه على الهدى اذ كان رأس الهداة تشوف السامع الى ما كان من غيره فاستأنف تعالى ذكره بقوله (قال) اي موسى عليه السلام لرأس أهل الضلال معرضا عن أخيه بعد قبول عذره جاعلا ما نسب اليه سببا لسؤاله عن الحامل له عليه (فما خطبك) اي أمرك هذا العجيب العظيم الذي حملك على ما صنعت وأخبرني به انك أضللتهم به (يا سامري قال) السامري مجيبا له (بصرت) من البصر والبصيرة (بما لم يبصروا به) اي رأيت ما لم ير بنو اسرائيل وعرفت ما لم يعرفوا وقال ابن عباس علمت ما لم يعلموا ومنه قولهم رجل بصير اي عالم قاله أبو عبيدة واراد أنه رأى جبريل عليه السلام فاخذ من موضع حافر دابته قبضة من تراب كما قال (فقبضت) اي فكان ذلك سببا لأن قبضت (قبضة) اي مرة من القبض أطلقها على المقبوض تسمية للمفعول بالمصدر (من أثر) فرس

المنة عليهم بذلك (قلت) فيها ان الصوامع والبيع في حرمهم وحفظهم لان أهلها محترمون او المراد ما هدمت صوامع وبيع في زمن عيسى عليه السلام

ذلك (الرسول) اى المعهود (فنبذتها) اى فى الحلى الملقى فى النار أو فى العجل (وكذلك) اى وكما سولت لى نفسى أخذ أثره (سولت) اى حسنت وزينت (لى نفسى) نبذها فى الحلى فنبذتها وكان منها ما كان ولم يدعنى الى ذلك داع ولا حملنى عليه حامل غير التسويل * (تنبيه) * كون المراد بالرسول جبريل عليه السلام هو ما عليه عامة المفسرين وأراد بأثره التراب الذى أخذه من موضع حافر دابته لما رآه يوم فلق البحر وعن على رضى الله تعالى عنه ان جبريل عليه السلام لما نزل ليذهب بموسى الى الطور أبصره السامرى من بين الناس واختلفوا فى انه كيف اختص السامرى برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين الناس فقال ابن عباس فى رواية الكلبى انما عرفه لانه رباه فى صغره وحفظه من القتل حين أمر فرعون بذبح أولاد بنى اسرائيل فكانت المرأة اذا ولدت طرحت ولدها حيث لا يشعر به آل فرعون فتأخذ الملائكة الولدان ويربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس فكان السامرى ممن أخذه جبريل عليه السلام وجعل كف نفسه فى فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل يختلف اليه حتى عرفه فلما رآه عرفه قال ابن جريج فعلى هذا قوله بصرت بما لم يبصروا به يعنى رأيت ما لم يروه ومن فسر الابصار بالعلم فهو صحيح ويكون المعنى علمت ان تراب فرس جبريل عليه السلام له خاصية الاحياء قال أبو مسلم ليس فى القرآن تصريح بهذا الذى ذكره المفسرون فههنا وجه آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام وبأثره سنته ورسمه الذى أمر به فقد يقول الرجل ان فلانا يقفو أثر فلان ويقتص أثره اذا كان يمتثل رسمه والتقدير أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامرى باللوم والمسئلة عن الامر الذى دعاه الى اضلال القوم فى العجل قال بصرت بما لم يبصروا به اى عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول اى شيأ من دينك فقذفته اى طرحته فعند ذلك أعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب فى الدنيا والآخرة وانما أورد لفظ الاخبار عن غائب كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له ما يقول الامير فى كذا او بماذا يأمر الامير وأما دعاؤه ان موسى رسول مع جحده وكفره فعلى مذهب من حكى الله فيه قوله يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون وان لم يؤمنوا بالانزال قال الرازى وهذا القول الذى ذكره ابو مسلم ليس فيه الا أنه مخالف للمفسرين ولكنه أقرب الى التحقيق لوجوه أحدها أن جبريل عليه السلام ليس معهودا باسم الرسول ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف اشارة اليه فاطلاق لفظ الرسول لارادة جبريل كانه تكليف بعلم الغيب وثانيها أنه لا بد فيه من الاضمار وهو قبضة من أثر حافر دابة الرسول والاضمار خلاف الاصل وثالثها أنه لا بد من التعسف فى بيان ان السامرى كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل ومعرفته وكيف عرف أن تراب حافر فرسه له هذا الاثر والذى ذكروه من ان جبريل هو الذى رباه فبعيد لان السامرى ان عرف انه جبريل حال كمال عقله عرف قطعا ان موسى نبى صادق فكيف يحاول الاضلال وان كان ما عرفه حال البلوغ فأى ينفعه كون جبريل مربياله حال الطفولية فى حصول تلك المعرفة * ثم ان موسى عليه السلام لما سمع من السامرى ما ذكر (قال) له (فاذهب) اى فتسبب عن فعلك أن أقول لك اذهب من بيننا وحيث ذهبت (فان لك فى الحيوة) اى ما دمت حيا (أن تقول) لكل

وكان فى زمن موسى عليه السلام وصار فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فى الامتحان على اذعان أهل الاديان الثلاثة لا على المؤمنين خاصة (قوله وكذب

من

من رأيته (لا مساس) أى لا تمسنى ولا أمسك فلا تقدر أن تنفك عن ذلك فكان يهيم فى البرية مع الوحوش والسباع واذا مس أحدا أو مسه أحد حما جميعا عاقبه الله تعالى بذلك وكان اذا اتى أحدا يقول لا مساس أى لا تقربنى ولا تمسنى وقال ابن عباس لا مساس لك ولولدك حتى ان بقاياهم اليوم يقولون ذلك واذا مس احد من غيرهم احدا منهم حما جميعا فى ذلك الوقت (وان لك) بعد الممات (موعدا) للثواب ان تبت والعقاب ان أبيت (لن تخلفه) قرأ ابن كثير وابو عمرو بكسر اللام اى لن تغيب عنه والباقون بفتحها اى بل تبعث اليه فلا انفكاك لك عنه كما انك فى الحياة لا تقدر ان تنفك عن النفرة من الناس فاختر لنفسك ما يحلو * ولما ذكر ما للاله الحق من القدرة التامة فى الدارين اتبعه عجز العجل فقال (وانظر الى الهك) أى بزعمك (الذى ظلت) اى دمت فى مدة يسيرة جدا بما اشار اليه تخفيف التضعيف فان اصله ظللت بلامين اولاهما مكسورة حذفت تخفيفا (عليه عاكفا) اى مقيما تعبده (لنحرقنه) اى بالنار وبالمبرد قال البقاعى كما سلف عن نص التوراة وكان معنى ذلك انه احماه حتى لان فهان على المبارد اه (ثم لننسفنه) اى لنذرينه اذا صار برادة (فى اليم) اى فى البحر الذى أغرق الله تعالى فيه آل فرعون ثم يجمع الله تعالى برادته التى هى من حليهم فيحميها فى نار جهنم ويكويهم بها ويجعلها من أشد العذاب عليهم وأكد الفعل اظهار العظمة الله تعالى الذى أمر بذلك وتحقيقا للصدق فى الوعد فقال (نسفا) قال الجلال المحلى وفعل موسى عليه السلام بعد ذبحه ما ذكره انتهى وعلى هذا لا يتضح أن يبرد بالمبرد قال الرازى ويمكن أن يقال صار لحما ودما وذبح ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها ولما أراهم بطلان ما هم عليه بالعيان أخبرهم بالحق على وجه الحصر فقال (انما الهكم الله) اى الجامع لصفات الكمال ثم كشف المراد من ذلك وحققه بقوله (الذى لا اله الا هو) اى لا يصلح لهذا المنصب أحد غيره لانه (وسع كل شئ) وقوله (علما) تمييز محول عن الفاعل اى أحاط علمه بكل شئ فكل شئ اليه مفتقر وهو غنى عن كل شئ وأما العجل الذى عبدوه فلا يصلح للالهية بوجه ولا فى عبادته شئ من حق * ولما شرح الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون أولا ثم مع السامرى ثانيا على هذا الاسلوب الاعظم والسبيل الاقوم كان كانه قيل هل يعاد شئ من القصص على هذا الاسلوب البديع والمنال الرفيع فقيل نعم (كذلك) اى مثل هذا القص العالى فى هذا النظم العزيز الغالى كقصة موسى ومن ذكر معه (نقص عليك من أنباء) اى أخبار (ما قد سبق) من الامم زيادة فى علمك واجلالا لمقدارك وتسلية لقلبك واذهابا لحزنك بما اتفق للرسل من قبلك وتكثيرا لبيناتك وزيادة فى معجزاتك وليعتبر السامع ويزداد المستبصر فى دينه بصيرة وتتأكد الحجة على من عاند وكابر (وقد آتيناك) اى أعطيناك تشريفا لك وتعظيما لقدرك (من لدنا) اى من عندنا (ذكرا) اى كتابا هو القرآن وفى تسمية القرآن بالذكر وجوه أحدها أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج اليه الناس من أمر دينهم ودنياهم وثانيها أنه يذكر فيه أنواع آلاء الله ونعمائه وفيه التذكير والموعظة وثالثها فيه الذكر والشرف لك ولقومك كما قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك وسمى الله تعالى كل كتاب أنزله ذكرا فقال فاسئلوا أهل الذكر والتنكير فيه للتعظيم فانه مشتمل على أسرار كتب الله تعالى المنزلة (من أعرض عنه) فلم يؤمن به (فانه يحمل يوم

موسى) العالم بقتل وبنو اسرائيل او قوم موسى عطفا على قوم نوح لان قوم موسى لم يكذبوه بل غيرهم وهم القبط او الاجرام فى بناء الفعل للمفعول للتفخيم

القيامة وزرا) اى حملا ثقيلا من الاثم (خالدين فيه) اى فى عذاب الوزر (وساء) اى وبئس
(لهم) اى ذلك الحمل (يوم القيامة) وقوله (حملا) تمييز مفسر للضمير فى ساء والمخصوص بالذم
محذوف تقديره وزرهم واللام للبيان ومن أقبل عليه كأن مذكراه بكل ما يريد من العلوم
النافعة ويبدل من يوم القيامة (يوم ينفخ فى الصور) اى القرن النفخة الثانية وقرأ أبو
عمرو بنون الاولى مفتوحة وضم الفاء على اسناد الفعل الى الآمر به تعظيما له او الى النافخ
والباقون بياء مضمومة وفتح الفاء (ونحشر المجرمين) اى الكافرين (يومئذ زرقا) اى عيونهم
مع سواد وجوههم لان زرقة العيون أبغض شئ من ألوان العيون الى العرب لان الروم
أعداؤهم وهم زرق العيون ولذلك قالوا فى صفة العدو أسود الكبد أصهب السبال أزرق
العين وقيل المراد العمى لان حدقة من يذهب نور بصره تزرق وقيل عطاشا حال كونهم
(يتخافتون) اى يخفضون أصواتهم (بينهم) لما يملأ صدورهم من الرعب والهول والخفت
خفض الصوت واخفاؤه (ان) اى يقول بعضهم لبعض ما (لبثتم) اى مكثتم (الا عشرا) اى
من الليالى بأيامها فى الدنيا وقيل فى القبور وقيل بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة قالوا
ذلك اما استقصارا لمدة الراحة فى جنب ما بدا لهم من المخاوف لان أيام السرور قصار او لانها
ذهبت عنهم وانقضت والذاهب وان طالت مدته قصيرة بالانتهاء ومنه توقيع عبد الله بن المعتز
أطال الله تعالى بقاءك كفى بالانتهاء قصرا واما لاستطالتهم الآخرة فانه يستقصر اليها عمر الدنيا
ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس الى لبثهم فى الآخرة كما قال تعالى كم لبثتم فى الارض عدد سنين
قالوا لبثنا يوما او بعض يوم فاسأل العادين واما غلطا او دهشة قال الله تعالى (نحن أعلم) اى
من كل أحد (بما يقولون) فى ذلك اليوم اى ليس كما قالوا (اذ يقول أمثلهم) اى أعدلهم
(طريقة) اى رأيا او عملا فى الدنيا فيما يحسبون (ان) اى ما (لبثتم الا يوما) اى مبدأ الآحاد
لا مبدأ العقود كما قال تعالى فى آية أخرى يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا
يؤفكون فلا يزالون فى افك وصرف عن الحق فى الدارين لان الانسان يموت على ما عاش عليه
ويبعث على ما مات عليه ولما وصف سبحانه وتعالى أمر يوم القيامة حكى سؤال من لا يؤمن
بالحشر فقال تعالى (ويسألونك) يا أشرف الخلق (عن الجبال) كيف تكون يوم القيامة قال
[illegible] نزلت فى مشركى مكة قالوا يا محمد كيف تكون الجبال يوم القيامة وكان سؤالهم على
سبيل الاستهزاء ولما كان مقصودهم من هذا السؤال الطعن فى الحشر والنشر فلا جرم أمره
الله تعالى بالجواب مقرونا بحرف التعقيب بقوله (فقل) لهم (ينسفها ربى نسفا) لان تأخير
البيان فى مثل هذه المسألة الاصولية غير جائز وأما المسائل الفروعية فجائز فلذلك ذكر هنالك فى
نحو قوله تعالى يسألونك ماذا ينفقون قل العفو وقوله تعالى ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح
لهم خير بغير حرف التعقيب والنسف التذرية وقيل القلع الذى يقلعها من أصلها ويجعلها
هباء منثورا قال الخليل ينسفها يذهبها او يطيرها وفى ضمير (فيذرها) قولان احدهما انه
ضمير الارض أضمرت للدلالة عليها كقوله تعالى ما ترك على ظهرها من دابة والثانى ضمير الجبال
وذلك على حذف مضاف اى فيذر مراكزها ومقارها ويجوز أن يكون بمعنى يجعلها
فيكون (قاعا) حالا او أن يكون بمعنى يترك التصييرية فيتعدى لاثنين فقاعا مفعولها او القاع

هو

والتعظيم اى وكذب وحى
ايضا مع وضوح آياته وعلم
معجزاته فاطلاقه بغير قوله
(اهلكناها) فكأين من قرية اهلكناها
قال ذلك ها هنا وقال بعده
وكأين من قرية أمليت

هو المكان المستوى وقيل الارض التى لا بناء فيها ولا نبات وفى قوله تعالى (صفصفا) قولان أحدهما الارض الملساء والثانى المستوية والقاع والصفصف قريبان من الترادف وجمع القاع أقوع وأقواع وقيعان (لاترى فيها) اى الارض او مواضع الجبال (عوجا) اى انخفاضا (ولا أمتا) اى ارتفاعا وجه من الوجوه وعبر هنا فى العوج بالكسر وهو للمعانى ولم يعبر بالفتح الذى يوصف به الاعيان فان الارض أو مواضع الجبال أعيان لا معان نفيا للاعوجاج على أبلغ وجه يعنى انك لو جمعت أهل الخبرة بتسوية الارض لاتفقوا على الحكم باستوائها ثم لو جمعت أهل الهندسة لحكموا بعوج يسير فيها العلمية فيه الحكم واعدل ذلك (يومئذ) اى يوم اذ نسفت الجبال (يتبعون) اى الناس بعد القيام من القبور بغاية جهدهم (الداعى) اى الى المحشر وهو اسرافيل يضع الصور على فيه ويقف على صخرة بيت المقدس ويقول أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلموا الى عرض الرحمن (لا عوج له) اى الداعى فى شئ من قصدهم اليه لانه ليس فى الارض ما يحوجهم الى التعويج ولا يمنع الصوت من النفوذ على السواء وقيل لا عوج لدعائه وهو من المقلوب اى لا عوج لهم عن دعاء الداعى لا يزيغون عنه يمينا ولا شمالا ولا يقدرون عليه بل يتبعونه سراعا (وخشعت الاصوات) اى سكنت وذلت وتطامنت لخشوع اهلها (للرحمن) الذى عمت نعمه فيرجى كرمه وتخشى نقمته (فلا) اى فتسبب عن خشوعها أنك لا (تسمع الا همسا) اخفى ما يكون من الاصوات وقيل اخفى شئ من أصوات الاقدام فى نقلها الى المحشر كصوت اخفاف الابل فى مشيها (يومئذ) اى اذ كان ما تقدم (لاتنفع الشفاعة) احدا (الا من أذن له الرحمن) ان يشفع له (ورضى له قولا) ولو الايمان المجرد قال ابن عباس يعنى قال لا اله الا الله فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن ولما نفى أن تنفع شفاعة بغير اذنه علل ذلك كما علله فى آية الكرسى بقوله (يعلم ما بين أيديهم) أى الخلائق من أمور الآخرة (وما خلفهم) من امور الدنيا وقيل ما بين أيديهم ما قدموا وما خلفهم ما خلفوا من الاعمال (ولا يحيطون به علما) أى لا يحيط علمهم بمعلوماته وقيل الضمير الى ما أى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وهم لا يعلمونه وقيل راجع الى الله تعالى أى ولا يحيطون بالله علما ولما ذكر خشوع الاصوات أتبعه خضوع ذويها فقال تعالى (وعنت الوجوه) اى ذلت وخضعت فى ذلك اليوم ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره وخص الوجوه بالذكر مع أن المراد الاشخاص لشرف الوجوه ولانها أول ما يظهر فيها الذل (للحى) الذى هو مطلع على الدقائق والجلائل (القيوم) الذى لا يغفل عن التدبير ومجازاة كل نفس بما كسبت روى أبو أمامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اطلبوا اسم الله الاعظم فى هذه السور الثلاث البقرة وآل عمران وطه قال الرازى فوجدنا المشترك فى السور الثلاث الله لا اله الا هو الحى القيوم (وقد خاب) اى خسر خسارة ظاهرة (من حمل ظلما) قال ابن عباس خسر من أشرك بالله والظلم الشرك ولما شرح الله تعالى أحوال القيامة ختم الكلام فيها بشرح أحوال المؤمنين فقال (ومن يعمل من الصالحات) اى التى أمره الله تعالى بها بحسب طاقته لانه لن يقدر الله أحد حق قدره ولن يشاد الدين أحد الا غلبه (وهو مؤمن) ليكون بناؤها على الاساس كما فى قوله تعالى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات (فلا يخاف ظلما) اى بزيادة فى سيآته (ولا هضما) اى بنقص من حسناته قاله ابن عباس وقيل لا يؤاخذ بذنب لم يعمله ولا تبطل حسنة عملها وعبر

لها موافقة لما قبلها اذ ماهنا تقدمه معنى الاهلاك بقوله فاما الذين كفروا ثم اخذتهم اى اهلكتهم وما بعد تقدمه ويستعجلونك بالعذاب وهو يدل على ان

تعالى بالقبول اشارة الى قبول الاعمال وجعلها اسباب الذلك الحال وأما غير المؤمن فلو عمل امثال الجبال لم يكن لها وزن وقوله تعالى (وكذلك) معطوف على قوله تعالى وكذلك نقص اى ومثل انزال ما ذكر (أنزلناه) اى القرآن (قرآنا) جامعا لجميع المعانى المقصودة ثم وصفه تعالى بامرين أحدهما قوله تعالى (عربيا) اى بلسان العرب ليفهموه ويقفوا على اعجازه وحسن نظمه وخروجه عن كلام البشر الثانى قوله تعالى (وصرفنا فيه من الوعيد) اى كررناه وفصلناه ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم لان الوعد بها يتعلق بشكرها ونحوه فيه يقتضى بيان الاحكام فلذلك قال تعالى (لعلهم يتقون) أى يجتنبون الشرك والمحارم وترك الواجبات فتصير التقوى لهم ملكة (او يحدث لهم ذكرا) أى عظة واعتبارا حين يسمعونها فيثبطهم عنها ولهذه النكتة أسند التقوى اليهم والاحداث الى القرآن (فتعالى الله) فى ذاته وصفاته عن مماثلة المخلوقين لا يماثل كلامه كلامهم كما لا تماثل ذاته وصفاته ذاتهم وصفاتهم (الملك) الذى لا يعجزه شئ فلا ملك فى الحقيقة غيره (الحق) اى الثابت الملك فلا زوال لكونه ملكا فى زمن ما ولعظمة ملكه وحقية ذاته وصفاته صرف خلقه على ما هم عليه من الامور المتباينة * ولما شرح الله تعالى كيفية نفع القرآن للمكلفين وبين انه سبحانه وتعالى متعال عن كل ما لا ينبغى موصوف بالاحسان والرحمة ومن كان كذلك صان رسوله عن السهو والنسيان فى أمر الوحى فلذلك قال تعالى (ولا تعجل بالقرآن) أى بقراءته (من قبل أن يقضى اليك وحيه) من الملك النازل به اليك من حضرتنا كما انا لم نعجل بانزاله عليك جملة بل رتلناه لك ترتيلا ونزلناه اليك تنزيلا مفصلا تفصيلا وموصلا توصيلا فاستمع له ملقيا جميع تأملك اليه ولا تساوقه بالقراءة فاذا فرغ فاقرأه فانا نجمعه فى قلبك ولا نكلفك المساوقة بتلاوته (وقل رب) أيها المحسن الىّ بافاضة العلوم على (زدنى علما) أى سل الله زيادة العلم بدل الاستعجال فان ما أوحى اليك تناله لا محالة روى الترمذى عن أبى هريرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ما ينفعنى وزدنى علما والحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من حال أهل النار وكان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية قال اللهم زدنى علما ويقينا ولما قال تعالى كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ذكر هذه القصة انجاز اللوعد فقال تعالى (ولقد عهدنا) بما لنا من العظمة (الى آدم) أبى البشر أى وصيناه أن لا يأكل من الشجرة وانما عطفها على قوله تعالى وصرفنا فيه من الوعيد للدلالة على أن أساس بنى آدم على العصيان وعرقهم راسخ بالنسيان (من قبل) أى فى زمن من الازمان الماضية قبل هؤلاء الذين تقدم فى هذه السورة ذكر نسيانهم واعراضهم (فنسى) عهدنا وأكل منها (ولم نجد له عزما) أى تصميم رأى وثبات على الامر اذ لو كان ذا عزيمة وتصلب لم يزله الشيطان ولم يستطع تغريره قال البيضاوى ولعل ذلك كان فى بدء أمره قبل أن يجرب الامور ويذوق اريها وشريها اه والارى العسل والشرى الحنظل قال البغوى قال أبو أمامة الباهلى لو وزن حلم آدم بحلم ولده لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزما وقال البيضاوى وعن النبى صلى الله عليه وسلم لو وزنت احلام بنى آدم بحلم آدم لرجح حلمه وقد قال تعالى ولم نجد له عزما قال ابن الاثير والحلم بالكسر الاناة والتثبت فى الامور (فان قيل) ما المراد بالنسيان (اجيب) بانه يجوز أن يراد بالنسيان الذى هو نقيض الذكر وانه لم يعن

العذاب لم يأتهم فى الوقت حسن ذكر الاهلاك فى الاول والاملاء فى الثانى (قوله ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) ان قلت فاذا تقدت ... ان القلوب

بالوصية العناية الصادقة ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس حتى تولد من ذلك النسيان ولم يكن النسيان في ذلك الوقت مرفوعا عن الانسان بل كان يؤاخذ به وانما رفع عنا وكان الحسن يقول ما عصى أحد قط الا بنسيان وان يراد الترك وانه ترك ما أوصى به من الاحتراز عن الشجرة وأكل ثمرتها وقيل نسي عقوبة الله تعالى وظن أنه نهي تنزيه * (تنبيه) * هذا هو المرة الخامسة من قصة آدم في القرآن أولها في البقرة ثم في الاعراف ثم في الحجر ثم في الكهف ثم ههنا وقوله تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس) تقدم الكلام على ذلك مفصلا في سورة البقرة وقوله تعالى (أبى) جملة مستأنفة لانها جواب سؤال مقدر أي ما منعه من السجود فاجيب بانه أبى ومفعول الاباء يجوز أن يكون مرادا وقد صرح به في الآية الاخرى في قوله تعالى أبى أن يكون مع الساجدين وحسن حذفه هنا كون العامل رأس فاصلة ويجوز أن لا يراد أصلا وان المعنى أنه من أهل الاباء والعصيان من غير نظر الى متعلق الاباء ما هو (فقلنا) بسبب امتناعه بعد أن حلمنا عليه ولم نعاجله بالعقوبة (يا آدم ان هذا) الشيطان الذي تكبر عليك (عدو لك ولزوجك) حواء بالمد لانها منك وسبب تلك العداوة وجوه الاول ان ابليس كان حسودا فلما رأى آثار نعم الله في حق آدم حسده فصار عدوا له الثاني ان آدم عليه السلام كان شابا عالما لقوله تعالى وعلم آدم الاسماء كلها وابليس كان شيخا جاهلا لانه أثبت فضيلته بفضيلة أصله وذلك جهل والشيخ الجاهل أبدا يكون عدوا للشاب العالم الثالث ان ابليس مخلوق من النار وآدم مخلوق من الماء والتراب فبين أصليهما عداوة فثبتت تلك العداوة (فان قيل) لم قال تعالى (فلا يخرجنكما من الجنة) مع أن المخرج لهما منها هو الله تعالى (أجيب) بانه لما كان هو الذي فعل بوسوسته ما ترتب عليه الخروج صح ذلك (فان قيل) لم قال تعالى (فتشقى) أي فتتعب وتنصب في الدنيا ولم يقل فتشقيا (أجيب) بوجهين أحدهما أن في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم كما أن في ضمن سعادته سعادتهم فاختص الكلام باسناده اليه دونها مع المحافظة على كونه رأس فاصلة وعن سفيان بن عيينة قال لم يقل فتشقيا لانها اذا دخلت معه فوقع المعنى عليهما جميعا وعلى أولادهما جميعا كقوله تعالى يا أيها النبي اذا طلقتم النساء ويا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم فدخلوا في المعنى معه وانما كلم النبي وحده الثاني أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة لان الرجل هو الساعي على زوجته روي أنه اهبط الى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه ويحتاج بعد الحرث الى الحصد والطحن والخبز وغير ذلك مما يحتاج اليه وعن الحسن قال عني به شقاء الدنيا فلا تلقى ابن آدم الا شقيا ناصبا أي ولو أراد شقاوة الآخرة ما دخل الجنة بعد ذلك * ولما كان الشبع والري والكسوة والكن هي الامور التي يدور عليها كفاف الناس ذكر تعالى حصول هذه الاشياء في الجنة من غير حاجة الى الكسب والطلب وذكرها بلفظ النفي لاضدادها بقوله تعالى (ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ) أي تعطش (فيها ولا تضحى) أي لا يحصل لك حر شمس الضحى لانتفاء الشمس في الجنة بل أهلها في ظل ممدود وهذه الاشياء كأنها تفسير للشقاء المذكور في قوله تعالى فتشقى (فوسوس) أي فتعقب تحذيرنا هذا من غير بعد في زمان أن

في الصدور (قلت فائدته
المبالغة في التأكيد كما
في قوله يقولون بأفواههم
او القلب هنا بمعنى العقل
كما قيل به في قوله ان في ذلك
لذكرى لمن كان له قلب اي
عقل ففائدة التقييد

وسوس (اليه الشيطان) المحترق المطرود وهو ابليس اى أنهى اليه الوسوسة وأما وسوس له فمعناه لاجله فلذلك عدى تارة باللام فى قوله تعالى فوسوس لهما وتارة بالى ثم بين تعالى تلك الوسوسة ماهى بقوله تعالى (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) أى على الشجرة التى ان أكلت منها بقيت مخلدا (وملك لا يبلى) أى لا يبيد ولا يفنى قال الرازى واقعة آدم عجيبة وذلك لان الله تعالى رغبه فى دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله تعالى فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى ورغبه ابليس أيضا فى دوام الراحة بقوله تعالى هل أدلك على شجرة الخلد وفى انتظام المعيشة بقوله وملك لا يبلى فكان الشئ الذى رغب الله تعالى فيه آدم هو الذى رغبه ابليس فيه الا أن الله تعالى وقف ذلك الامر على الاحتراس عن تلك الشجرة وابليس لعنه الله وقفه على الاقدام عليها ثم ان آدم عليه الصلاة والسلام مع كمال عقله وعلمه بان الله مولاه وناصره ومربيه وعلمه بان ابليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته كيف قبل فى الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول ابليس مع علمه بعداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بانه الناصر له والمربى ومن تأمل هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الامر ان هذه القصة كالتنبيه على انه لا دافع لقضاء الله ولا مانع له منه وان الدليل وان كان فى غاية الظهور ونهاية القوة فانه لا يحصل النفع به الا اذا قضى الله ذلك وقدره انتهى ويدل على ذلك ما ثبت فى الحديث الصحيح روى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى قال موسى أنت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك فى جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك الى الارض فقال آدم عليه السلام أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الالواح فيها بيان كل شئ وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل ان يخلقنى قال موسى باربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أفتلومنى على أن عملت عملا كتب الله على ان أعمله قبل ان يخلقنى باربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء وقال كل شئ بقدر حتى العجز والكيس ثم كان ابليس قال لآدم بلسان الحال أو المقال مشيرا الى الشجرة التى نهى عنها ما بينك وبين الملك الدائم الا أن تأكل منها (فأكلا) أى فتسبب عن قوله وتعقب ان أكل (منها) هو وزوجته متبعين لقوله ناسيين ما عهد اليهما الامر قدره الله فى الازل (فبدت لهما سوآتهما) قال ابن عباس عريا من النور الذى كان الله ألبسهما حتى بدت فروجهما وانما جمع سوآتهما كما قال صغت قلوبكما أى فظهر لكل منهما قبله وقبل الآخر ودبره وسمى كل منهما سوأة لان انكشافه يسوء صاحبه (وطفقا يخصفان) أى أخذا يلزقان (عليهما من ورق الجنة) ليستترا به قال ابن عادل وهو ورق التين (وعصى آدم) بالاكل من الشجرة وان كان انما فعل المنهى نسيانا الا ان عظم مقامه وعلو رتبته يقتضيان له مزيد الاعتناء ودوام المراقبة (ربه) المحسن اليه بما لم ينله أحد من بنيه من تصويره له بيده واسجاده ملائكته له ومعاداة من

الاحتراز عن القول الضعيف بان العقل فى الدماغ (قوله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) الرسول انسان أوحى اليه بشرع وأمر بتبليغه والنبى انسان

عاداه (فغوى) أي فعل ما لم يكن له فعله وقيل أخطأ طريق الحق وقيل حيث طلب الخلد بأكل ما نهي عنه فخاب ولم ينل مراده وصار من العز إلى الذل ومن الراحة إلى التعب قال ابن قتيبة يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال آدم عاص لأنه إنما يقال عاص لمن اعتاد فعل المعصية كالرجل يخيط ثوبه فيقال خاط ثوبه ولا يقال هو خياط حتى يعاوده ويعتاده

•(تنبيه)• تمسك بعضهم بقوله تعالى وعصى آدم ربه فغوى في صدور الكبيرة عنه من وجهين الأول أن العاصي اسم للذم فلا ينطلق إلا على صاحب الكبيرة لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها ولا معنى لصاحب الكبيرة إلا من فعل فعلا يعاقب عليه الثاني أن الغواية والضلالة اسمان مترادفان والغي ضد الرشاد ومثل هذا لا يتناول إلا الفاسق المنهمك في فسقه وأجيب بأن المعصية مخالفة الأمر والأمر قد يكون بالواجب وقد يكون بالمندوب فإنك تقول أمرته فعصاني وأمرته بشرب الدواء فعصاني وإذا كان كذلك لم يمتنع إطلاق اسم العصيان على آدم بكونه للمندوب وإن كان وصف تارك المندوب بأنه عاص مجاز وأجاب أبو مسلم الأصبهاني بأنه عصى في مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف وكذا القول في غوى قال الرازي والأولى عندي في هذا الباب أن يقال هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد تقدم شرح ذلك في البقرة وقيل بل أكل من الشجرة متأولا وهو لا يعلم أن الشجرة التي نهى الله عنها شجرة مخصوصة لا على الجنس ولهذا قيل إنما كانت التوبة من ترك التحفظ لا من المخالفة فهو كما قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين أي يرونها بالإضافة إلى علو أحوالهم كالسيئات (ثم اجتباه ربه) أي اختاره واصطفاه (فتاب عليه) أي قبل توبته وأعاد عليه بالعفو والمغفرة (وهدى) أي هداه لرشده حتى رجع إلى الندم والاستغفار • ولما كانت دار الملوك لا تحتمل مثل ذلك وإن كان قد حباه بالاجتباء لها قال على طريق الاستئناف (قال) الرب سبحانه وتعالى الذي انتهكت حرمة داره (اهبطا) أي آدم وحواء بما اشتملتما عليه من ذريتكما (منها) أي الجنة (جميعا) وقيل الخطاب لآدم ومعه ذريته ولإبليس فقوله تعالى (بعضكم لبعض عدو) يكون على التفسير الأول بعض الذرية لبعض عدو من ظلم بعضهم لبعض وعلى الثاني آدم وذريته وإبليس وذريته وقوله تعالى (فإما) فيه إدغام نون إن الشرطية في ما المزيدة (يأتينكم مني هدى) أي كتاب ورسول (فمن اتبع هداي) الذي أسعفته به من أوامر الكتاب والرسول (فلا يضل) أي بعد ذلك عن طريق السداد في الدنيا (ولا يشقى) في الآخرة قال ابن عباس من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله تعالى من الضلالة ووقاه الله تعالى يوم القيامة سوء الحساب وذلك أن الله تعالى يقول فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى • ولما وعد تعالى من اتبع الهدى أتبعه بوعيد من أعرض فقال تعالى (ومن أعرض عن ذكري) أي عن القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه (فإن له معيشة ضنكا) والضنك أصله الضيق والشدة وهو مصدر فكأنه قال له معيشة ذات ضنك واختلف في ذلك فقال أبو هريرة وأبو سعيد الخدري وابن مسعود المراد بالمعيشة الضنك عذاب القبر وروى أبو هريرة أن عذاب القبر للكافر قال قال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ليسلط عليه في قبره تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين تسعة وتسعون حية

أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه فهو أعم من الرسول (قوله وإنما يدعون من دونه هو الباطل) قاله هنا بتأكيد هو وقاله في لقمان بدونه لموافقة كل منهما ما قبله لأن ما هنا

الكل حية تسعة رؤس يخدشونه ويلسعونه وينفخون في جسمه الى يوم يبعثون وقال الحسن وقتادة والكلبي هو الضيق في الآخرة في جهنم فان طعامهم الضريع والزقوم وشرابهم الحميم والغسلين فلا يموتون فيها ولا يحيون وقال ابن عباس المعيشة الضنك هي أن يضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدي لشيء منها وعن عطاء المعيشة الضنك هي معيشة الكافر لانه غير موقن بالثواب والعقاب وروي عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر في الشدة وان لا يتوصل الى قوته الا بمعصية الله وذلك ان مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله تعالى وعلى قسمته فهو ينفق ما رزقه الله تعالى بسماح وسهولة فيعيش عيشا رافعا كما قال تعالى فلنحيينه حياة طيبة والمعرض عن الدين مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به الى الازدياد من الدنيا مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الانفاق فعيشه ضنك وحاله مظلمة قال صلى الله عليه وسلم لو كان لابن آدم واد من ذهب لابتغى اليه ثانيا ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب متفق عليه قال بعض الصوفية لا يعرض أحد عن ذكر ربه الا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه وقال تعالى استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا الآية وقال تعالى وان لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا ثم ذكر حال المعرض في الآخرة بقوله تعالى (ونحشره يوم القيامة أعمى) قال ابن عباس اذا خرج من القبر خرج بصيرا فاذا سيق الى المحشر عمي ولعله جمع بذلك بين هذا وبين قوله تعالى أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا وقال عكرمة عمي عليه كل شيء الا جهنم وفي لفظ قال لا يبصر الا النار وعن مجاهد المراد بالعمى عدم الحجة ويؤيد الاول قوله تعالى (قال رب لم حشرتني أعمى) في هذا اليوم (وقد كنت بصيرا) اي في الدنيا أو في أول هذا اليوم فكانه قيل بم أجيب فقيل (قال) له ربه (كذلك) اي مثل ذلك فعلت ثم فسره فقال (أتتك آياتنا) واضحة نيرة (فنسيتها) فعميت عنها وتركتها غير منظور اليها (وكذلك) اي ومثل تركك اياها (اليوم تنسى) أي تترك في العمى والعذاب (وكذلك) أي ومثل هذا الجزاء الشديد (نجزي من أسرف) في متابعة هواه فتكبر عن متابعة أوامرنا (ولم يؤمن) بل كذب (بآيات ربه) وخالفها (ولعذاب الآخرة أشد) مما نعذبهم به في الدنيا والقبر لعظمه (وأبقى) فانه غير منقطع ولما بين الله تعالى أن من أعرض عن ذكره كيف يحشر يوم القيامة اتبعه بما يعتبر به المكلف من الافعال الواقعة في الدنيا ممن كذب الرسل فقال (أفلم يهد) أي يبين بيانا يقود الى المقصود (لهم) أي لهؤلاء الذين أرسلت اليهم أعظم رسلي وفاعل يهد مضمون قوله (كم أهلكنا) وقال أبو البقاء الفاعل ما دل عليه أهلكنا اي اهلاكنا والجملة مفسرة له وقال الزمخشري فاعل لم يهد الجملة بعده يريد ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه ونظيره قوله تعالى وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين اي تركنا عليه هذا الكلام ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول انتهى وكم خبرية مفعول أهلكنا (قبلهم من القرون) اي بتكذيبهم لرسلنا حال كونهم (يمشون) اي هؤلاء العرب من اهل مكة وغيرهم (في مساكنهم) اي في سفرهم الى الشام ويشاهدون آثار هلاكهم (ان في ذلك) اي الاهلاك العظيم الشان

تقدمه تأكيدات بعضها بأن وبعضها باللام وبعضها بانما جلالة ثم والهذا قال هذا وان الله لهو الغني الحميد وقال ثم ان الله هو الغني الحميد (قوله وما جعل عليكم في الدين من حرج)

المتوالى فى كل أمة (لآيات) عظيمات بينات (لأولى النهى) أى لذوى العقول الناهية عن التغافل والتعامى * ولما هددهم باهلاك الماضين ذكر سبب التأخير عنهم بقوله تعالى (ولولا كلمة) أى عظيمة قاضية نافذة (سبقت) أى فى أزل الآزال (من ربك) الذى عودك بالاحسان بتأخير العذاب عنهم الى الآخرة فانه يعامل بالحلم والاناة (لكان) أى العذاب (لزاما) أى لازما أعظم لزوم لهم فى الدنيا مثل ما نزل بعاد وثمود ولكن نمدهم لتردمن شئنا منهم وتخرج من أصلاب بعضهم من يؤمن واغنافعلنا ذلك اكراما لك ورحمة لامتك فيكثر اتباعك فيعملوا الخيرات فيكون ذلك زيادة فى شرفك والى ذلك الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فارجو أن أكون أكثرهم تابعا وفى رفع قوله تعالى (وأجل مسمى) وجهان أظهرهما عطفه على كلمة أى ولولا أجل مسمى لكان العذاب لازما لهم وهذا ما صدر به البيضاوى والثانى أنه معطوف على الضمير المستتر فى كان وقام الفصل بخبرها مقام التأكيد واقتصر الجلال المحلى على هذا وجوزه الزمخشرى والبيضاوى وفى هذا الاجل المسمى قولان أحدهما ولولا أجل مسمى فى الدنيا لذلك العذاب وهو يوم بدر والثانى ولولا أجل مسمى فى الآخرة لذلك العذاب وهذا كما قال الرازى أقرب قال أهل السنة له تعالى بحكم المالكية أن يخص من شاء بفضله ومن شاء بعذابه من غير علة اذ لو كان فعله لعلة لكانت تلك العلة اما قديمة فيلزم قدم الفعل واما حادثة فيلزم افتقارها الى علة أخرى ويلزم التسلسل ثم انه تعالى لما أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بانه لا يهلك أحدا قبل استيفاء أجله أمره بالصبر فقال (فاصبر على ما يقولون) لك من الاستهزاء وغيره وهذا كله كان فى أول الامر ثم نسخ بآية القتال (وسبح) أى صل وقوله تعالى (بحمد ربك) حال أى وأنت حامد لربك على انه وفقك لذلك وأعانك عليه (قبل طلوع الشمس) صلاة الصبح (وقبل غروبها) صلاة العصر (ومن آناء الليل) أى ساعاته (فسبح) أى صل المغرب والعشاء وقوله تعالى (وأطراف النهار) معطوف على محل من آناء المنصوب أى صل الظهر لان وقتها يدخل بزوال الشمس فهو طرف النصف الاول وطرف النصف الثانى قال ابن عباس دخلت الصلوات الخمس فى ذلك وقيل المراد الصلوات الخمس والنوافل لان الزمان اما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها فالليل والنهار داخلان فى هاتين العبارتين وأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيما سبق قوله ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار للنوافل وقال أبو مسلم لا يبعد حمل التسبيح على التنزيه والاجلال والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى فى هذه الاوقات (فان قيل) النهار له طرفان فكيف قال وأطراف النهار ولم يقل طرفى النهار (أجيب) بوجهين أظهرهما انه انما جمع لانه يلزم فى كل نهار ويعود والثانى ان أقل الجمع اثنان وقرأ قوله تعالى (لعلك ترضى) أبو بكر والكسائى بضم التاء أى ترضى بما تنال من الثواب كقوله تعالى وكان عند ربه مرضيا وقرأ الباقون بفتحها أى ترضى بما تنال من الشفاعة قال تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا والمعنى على القراءتين لا يختلف لان الله تعالى اذا أرضاه فقد رضيه واذا رضيه فقد أرضاه * ولما كانت النفس ميالة الى الدنيا مرهونة بالحاضر من فانى العطايا وكان تخليها عن ذلك هو الموصل الى حريتها

(ان قلت) كيف لا حرج فيه مع ان فى قطع يد بسرقة ربع دينار ورجم محصن بزناه مرة ووجوب صوم شهرين متتابعين بافساد يوم من رمضان بوطء ونحو ذلك حرجا (قلت)

المؤذن بعلو همتها قال تعالى مؤكدا ايذانا بصعوبة ذلك (ولا تمدن) مؤكدا له بالنون الثقيلة (عينيك) اى لا تطول نظرهما بعد النظرة الاولى المعفو عنها (الى ما متعنا به) فى هذه الحياة الفانية (أزواجا) اى أصنافا (منهم) اى الكفرة استحسانا له وتمنيا أن يكون لك مثله والامتاع الالذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويسمع من الاصوات المطربة ويشم من الروائح الطيبة وغير ذلك من الملابس والمناكح وقوله تعالى (زهرة الحيوة الدنيا) أى زينتها وبهجتها منصوب بمحذوف دل عليه متعنا أو به على تضمنه معنى أعطينا فازواجا مفعول أول وزهرة هو الثانى وذكر ابن عادل غير هذين الوجهين سبعة أوجه لا حاجة لنا بذكرها ثم علل تعالى تمتيعهم بقوله تعالى (لنفتنهم فيه) أى لنفعل بهم فعل المختبر بكون سبب عذابهم فى الدنيا بالعيش الضنك الماضى وفى الآخرة بالعذاب الاليم فصورته تغر من لم يتأمل معناه حق التأمل فما أنت فيه خير مما هم فيه (ورزق ربك) فى الجنة (خير) مما أوتوه فى الدنيا (وأبقى) أى أدوم أو ما رزقته من نعمة الاسلام والنبوة أولان أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة من بعض الوجوه والحلال خير وأبقى قال الزمخشرى لان الله تعالى لا ينسب الى نفسه الا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث والحرام لا يسمى رزقا انتهى وهذا جار على مذهبه المخالف لاهل السنة من أن الحرام لا يسمى رزقا وقال أبو مسلم الذى نهى عنه بقوله ولا تمدن عينيك ليس هو النظر بل هو الاسف أى لا تأسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا وقال أبو رافع نزلت هذه الآية فى ضيق نزل بالنبى صلى الله عليه وسلم فبعثنى الى يهودى يبيع أو يسلف الى مدة فقال والله لا أفعل الا برهن فاخبرته بقوله فقال صلى الله عليه وسلم انى لامين فى السماء وانى لامين فى الارض احمل اليه درعى الحديد فنزل قوله ولا تمدن عينيك وقال صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم وقال أبو الدرداء الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعن الحسن لولا حمق الناس لخربت الدنيا وعن عيسى بن مريم عليه السلام لا تتخذوا الدنيا دارا فتتخذكم لها عبيدا ولما أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بتزكية النفس أمره بأن يأمر أهله بالصلاة بقوله عز وجل (وأمر أهلك بالصلوة) اى أمر اهل بيتك والتابعين لك من أمتك بالصلاة كما كان أبوك اسمعيل عليه السلام يدعوهم الى كل خير اذ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولا يهتموا بامر المعيشة ولا يلتفتوا لفت أرباب الثروة وكان صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يذهب الى فاطمة وعلى رضى الله عنهما كل صباح ويقول الصلاة (واصطبر) اى داوم (عليها لا نسئلك) اى نكلفك (رزقا) لنفسك ولا لغيرك (نحن نرزقك) وغيرك كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ففرغ بالك لامور الآخرة وفى معناه قول الناس من كان فى عمل الله كان الله فى عمله وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية وعن عروة بن الزبير انه كان اذا رأى ما عند السلطان قرأ ولا تمدن عينيك الآية ثم ينادى الصلاة الصلاة رحمكم الله وعن بكر بن عبد الله المزنى كان اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا فصلوا بهذا أمر الله ورسوله

المراد بالدين التوحيد ولا حرج فيه بل فيه تخفيف فانه يكفر ما قبله من الشرك وان امتثاله لا يتوقف الاتيان به على زمان أو مكان معين أو أن كل ما يقع فيه الانسان من

ثم يتلو هذه الآية (والعاقبة) اى الجميلة المحمودة (للتقوى) اى لاهل التقوى قال ابن عباس الذين صدقوك واتبعوك واتقونى ويؤيده قوله تعالى فى موضع آخر والعاقبة للمتقين ولا معونة على الرزق وغيره بشئ يوازى الصلاة فقد كان صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر أى بالباء الموحدة أى اذا أحزنه فزع الى الصلاة قال ثابت وكان الانبياء عليهم الصلاة والسلام اذا نزل بهم أمر فزعوا الى الصلاة وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى تفرغ لعبادتى املأ صدرك غنى وأسد فقرك وان لم تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله هم دنياه ومن تشعبت به هموم أحوال الدنيا لم يبال الله فى أى أوديتها هلك وعن زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ومن كانت الآخرة همه جمع الله له أمره وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة * ثم انه تعالى بعد هذه الوصية حكى عنهم شبها بقوله تعالى (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه) فكانه من لوازم قوله تعالى فاصبر على ما يقولون وهو قولهم لولا أى هلا يأتينا بآية وقال فى موضع آخر لوما تأتينا بآية كما أرسل الاولون * ثم أجاب الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله (أولم تأتهم بينة) أى بيان (ما فى الصحف الاولى) من التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية المشتمل عليه القرآن من أنباء الامم الماضية واهلاكهم بتكذيب الرسل فما يؤمنهم أن يكون حالهم فى سؤال الآيات كحال أولئك وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بالفوقية على التأنيث والباقون بالتحتية على التذكير (ولو أنا أهلكناهم) معاملة لهم فى عصيانهم (بعذاب من قبله) اى هذا القرآن المذكور فى الآية الماضية ومقار بها وفى قوله تعالى ولا تعجل بالقرآن وفى مثنى السورة فى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى أو من قبل محمد صلى الله عليه وسلم (لقالوا) اى يوم القيامة (ربنا) يا من هو متصف بالاحسان الينا (لولا) اى هلا ولم لا (أرسلت الينا رسولا) يأمرنا بطاعتك (فنتبع) اى فيتسبب عنه أن نتبع (آياتك) التى تجيئنا بها (من قبل أن نذل) بالعذاب هذا الذل (ونخزى) بالمعاصى التى عملناها على جهل فلاجل ذلك أرسلناك اليهم واقمنا بك الحجة عليهم * ولما علم بهذا أن ايمانهم كالممتنع وجدالهم لا ينقطع بل ان جاءهم الهدى طعنوا فيه وان عذبوا قبله تظلموا كان كانه قيل فما الذى نفعل معهم فقيل (قل) لهم (كل) اى كل منى ومنكم (متربص) اى منتظر ما يؤول اليه أمرى وامركم (فتربصوا) فانتم كانهم انتم ليس لكم تامل (فستعلمون) اى عما قريب بوعد لا خلف فيه وهو يوم القيامة (من أصحاب الصراط) اى الطريق (السوى) اى المستقيم (ومن اهتدى) اى من الضلال فحصل على جميع ما ينفعه واجتنب جميع ما يضره أنحن أم أنتم قال ابن عادل عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل قرأ طه و يس قبل أن يخلق آدم بالفى عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا طوبى لامة ينزل عليها هذا وطوبى لالسن تتكلم بهذا وطوبى لاجواف تحمل هذا وعن الحسن ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يقرأ أهل الجنة من القرآن الا يس وطه انتهى ولم يذكر لذلك سندا وأما ما رواه البيضاوى

يحصل مخرجا فى المعاصى بحده أو كفارة الشرع بتوبة أو رخصة أو المراد نفى الحرج الذى كان فى زمن بنى اسرائيل

* (سورة المؤمنون) *

(قوله ثم انكم بعد ذلك

تبع الزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والانصار فحديث موضوع

سورة الانبياء عليهم الصلاة والسلام مكية

قال الرازي باجماع وهي مائة واحدى أو ثنتا عشرة آية وألف ومائة وستون كلمة وأربعة آلاف وثمان وتسعون حرفا

(بسم الله) الحكم العدل الذي تمت قدرته وعم أمره (الرحمن) الذي ساوى بين خلقه في رحمة ايجاده (الرحيم) الذي نجى من شاء من عباده في معاده قال أبو جعفر بن الزبير في برهانه لما تقدم قوله تعالى ولا تمدن عينيك الى قوله فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى قال تعالى (اقترب) أي قرب (للناس حسابهم) أي في يوم القيامة أي فلا تمدن عينيك الى ذلك فانى جعلته فتنة وأشار بصيغة الافتعال الى مزيد القرب لانه لا أمة بعد هذه ينتظر أمرها وأخر الفاعل تهويلا لتذهب النفس في تعيينه كل مذهب (فان قيل) كيف وصف ذلك اليوم بالاقتراب وقد عدت دون هذا القول أكثر من تسعمائة عام (أجيب) بانه مقترب عند الله والدليل عليه قوله تعالى ويستعجلونك بالعذاب وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون ولان كل آت وان طالت أوقات استقباله وترقبه قريب وانما البعيد هو الذي وجد وانقرض قال الشاعر

فلا زال ما تهواه أقرب من غد ◉ ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

ولان ما بقي من الدنيا أقصر وأقل مما سلف منها بدليل انبعاث خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه الموعود بعثه في آخر الزمان وقال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار باصبعيه وقال صلى الله عليه وسلم ختمت النبوة بي كل ذلك لاجل ان الباقي من مدة التكليف أقل من الماضي وعن ابن عباس ان المراد بالناس المشركون وهو من اطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين وهو قوله تعالى (وهم) اى والحال انهم (في غفلة) اى عن الحساب (معرضون) عن التأهب لهذا اليوم لا يتفكرون في عاقبتهم ولا يتفطنون لما يرجع اليه خاتمة امرهم مع اقتضاء عقولهم أنه لابد من جزاء المحسن والمسيء وأيضا ان هذه الآية نزلت في كفار مكة ولما أخبر تعالى عن غفلتهم واعراضهم دل على ذلك بقوله (ما يأتيهم) واغرق في النفي بقوله (من ذكر) اى وحي ينبههم عن سنة الغفلة والجهالة وقوله تعالى (من ربهم) صفة ذكر او صلة ليأتيهم (محدث) انزاله اى ما يحدث الله تعالى من تنزيل شيء من القرآن يذكرهم ويعظهم به وبهذا سقط احتجاج المعتزلة بان القرآن حادث لهذه الآية وقيل معناه ان الله تعالى يحدث الامر بعد الامر فينزل الآية بعد الآية والسورة بعد السورة في وقت الحاجة لبيان الاحكام وغيرها من الامور والوقائع وقيل الذكر المحدث ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وبينه من السنن والمواعظ سوى ما في القرآن وأضافه اليه لان الله تعالى قال وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى (الا استمعوه) أي قصدوا استماعه وهو أجد الجد وأحق الحق (وهم) أي والحال

لمبعوثون)) فان قلت لم اكده باللام دون قوله بعده ثم انكم يوم القيامة تبعثون مع ان المذكورين ينكرون البعث دون الموت (قلت) لما كان العطف بثم المحتاج اليه

انهم (يلعبون) أى يفعلون فعل اللاعبين بالاستهزاء والسخرية لتناهى غفلتهم وفرط اعراضهم عن النظر فى الامور والتفكر فى العواقب (لاهية) أى غافلة معرضة (قلوبهم) عن ذكر الله * (تنبيه) * قوله تعالى وهم يلعبون لاهية قلوبهم حالان مترادفتان او متداخلتان * ولما ذكر تعالى ما يظهرونه فى حالة الاستماع من اللهو واللعب ذكر ما يخفونه بقوله تعالى عطفا على استمعوه (وأسروا) اى الناس المحدث عنهم (النجوى) اى بالغوا فى اسرار كلامهم وقوله تعالى (الذين ظلموا) بدل من واو وأسروا للايماء بانهم ظالمون فيما أسروا به او مبتدأ والجملة المتقدمة خبره والمعنى وهؤلاء اسروا النجوى فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بانه ظلم وقيل جاء على لغة من قال أكلونى البراغيث وقيل منصوب المحل على الذم ثم بين تعالى ما تناجوا به بقوله تعالى (هل) اى فقالوا فى تناجيهم هذا متعجبين من ادعائه النبوة مع مماثلته اياهم فى البشرية هل (هذا) الذى أتاكم بهذا الذكر (الا بشر مثلكم) اى فى خلقه واخلاقه من الاكل والشرب والحياة والممات فكيف يختص عنكم بالرسالة ما هذا الذى جاءكم به مما لا تقدرون على مثله الا سحر لا حقيقة له فحينئذ تسبب عن هذا الانكار قولهم (أفتأتون السحر وأنتم) اى والحال انكم (تبصرون) باعينكم انه بشر مثلكم فكأنهم استدلوا بكونه بشرا على كذبه فى ادعاء النبوة والرسالة لاعتقادهم ان الرسول لا يكون الا ملكا واستلزموا منه ان ما جاء به من الخوارق كالقرآن سحر فانكروا حضوره (فان قيل) لم أسروا هذا الحديث وبالغوا فى اخفائه (أجيب) بان ذلك كان يشبه التشاور فيما بينهم والتحاور فى طلب الطريق الى هدم أمره وعادة المتشاورين فى خطب ان لا يشركوا أعداءهم فى مشورتهم ويجتهدوا فى طى سرهم عنهم ما أمكن واستطيع ومنه قول الناس استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان قال البقاعى فيا لله العجب من قوم رأوا ما أعجزهم فلم يجوزوا ان يكون ذلك عن الرحمن الداعى الى الفوز بالجنان وجزموا أنه من الشيطان الداعى الى الهوان باصطلاء النيران والعجب ايضا انهم أنكروا الاختصاص بالرسالة مع مشاهدتهم ما يخص الله تعالى به بعض الناس عن بعض من الذكاء والفطنة وحسن الخلائق والاخلاق والقوة والصحة وطول العمر وسعة الرزق ونحو ذلك انتهى ولا عجب فانما عقول اضلها باريها ثم كانه قيل فماذا يقال لهؤلاء فقال (قل) لهم (ربى) المحسن الى (يعلم القول) سواء كان سرا ام جهرا كائنا (فى السماء والارض) على حد سواء لانه لا مسافة بينه وبين شئ من ذلك (وهو السميع العليم) فلا يخفى عليه ما يسرون ولا ما يضمرون (فان قيل) هلا قيل يعلم السر لقوله تعالى وأسروا النجوى (أجيب) بان القول عام يشمل السر والجهر فكان فى العلم به العلم بالسر وزيادة فكان آكد فى بيان الاطلاع على نجواهم من ان يقول يعلم السر كما ان قوله يعلم السر آكد من ان يقول يعلم سرهم (فان قيل) لم ترك هذا الآكد فى سورة الفرقان فى قوله تعالى قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض ولم يقل يعلم القول كما هنا (أجيب) بانه ليس بواجب أن يأتى بالآكد فى كل موضع ولكن يجئ بالوكيد تارة وبالآكد أخرى كما يجئ بالحسن فى موضع وبالاحسن فى غيره ليفتن الكلام افتنانا ويجمع الغاية وما دونها على أن اسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه من قبل أنه قدم ههنا انهم أسروا النجوى فكأنه

هنا يقتضى الاشتراك فى الحكم اكتفى به عن التأكيد باللام (قوله لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون) قاله هنا بالجمع وبالواو وقاله فى الزخرف لكم فيها فاكهة كثيرة

أراد ان يقول ان ربي يعلم ما أسر ووضع القول موضع ذلك للمبالغة ثم قصد وصف ذاته بانه أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض فهو كقوله تعالى علام الغيوب عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة وقرأ حفص وحمزة والكسائي قال بصيغة الماضي بالاخبار عن الرسول والباقون قل بصيغة الامر ثم انه تعالى بين أن المشركين اقتسموا القول في النبي صلى الله عليه وسلم وفيما يقوله بقوله تعالى (بل قالوا) اى قال بعضهم هذا الذي قاله لكم (أضغاث احلام) اى اخلاط احلام رآها في النوم وقال بعضهم (بل افتراه) اى اختلقه من عند نفسه ونسبه الى الله تعالى وقال بعضهم (بل هو) اى النبي صلى الله عليه وسلم (شاعر) فما جاءكم به شعر والشاعر يخيل ما لا حقيقة له لغيره أو أنهم كلهم أضربوا عن قولهم هو سحر الى أنه تخاليط احلام ثم الى انه كلام مفترى من عنده ثم الى انه قول شاعر وهكذا المبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد قال الزمخشري ويجوز أن يكون تنزيلا من الله تعالى لاقوالهم في درج الفساد وان قولهم الثاني أفسد من الاول والثالث افسد من الثاني وكذا الرابع افسد من الثالث ثم انهم لما قدحوا في اعظم المعجزات طلبوا آية غيره فقالوا (فليأتنا) دليلا على رسالته (بآية كما) اى مثل ما (أرسل الاولون) بالآيات كتسبيح الجبال وتسخير الريح وتفجير الماء واحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وصحة التشبيه من حيث ان الارسال يتضمن الاتيان بالآية قال الله تعالى مجيبا لهم (ما آمنت قبلهم) اى قبل مشركي مكة (من قرية) اى من اهل قرية اتتهم الآيات (أهلكناها) باقتراح الآيات لما جاءتهم (أفهم يؤمنون) اى لو جئتهم بها وهم أعتى منهم وفيه دليل على ان عدم الاتيان بالمقترح للابقاء عليهم اذ لو أتى به لم يؤمنوا واستوجبوا عذاب الاستئصال كمن قبلهم ● ولما بين تعالى بطلان ما اقترحوا به في رسوله صلى الله عليه وسلم بكونه بشرا قال تعالى عاطفا على آمنت مجيبا عن قولهم هل هذا الا بشر مثلكم (وما ارسلنا قبلك) اى في جميع الزمان الذي تقدم زمانك في جميع طوائف البشر (الا رجالا) اى لم نرسل الملائكة الى الاولين انما ارسلنا رجالا (نوحي اليهم) مثلك ثم انه تعالى امر المشركين أن يسألوا أهل الكتاب بقوله تعالى (فاسئلوا أهل الذكر) وانما احالهم على هؤلاء لانهم كانوا لا ينكرون ان الرسل كانوا بشرا وان أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المراد بالذكر القرآن اى فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين ولا همزة بعدها وكذا يفعل حمزة في الوقف والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ● ثم نبه تعالى على انهم غير محتاجين فيه الى السؤال بما قد كان بافهم على الاجمال من أحوال موسى وعيسى وابراهيم واسمعيل وغيرهم عليهم السلام بقوله تعالى معبرا باداة الشك محركا لهم على المعالي (ان كنتم) اى بجبلاتكم (لا تعلمون) اى لا أهلية لكم في اقتناص علم بل كنتم اهل تقليد محض وتبع صرف ● ولما بين تعالى انه صلى الله عليه وسلم على سنة من مضى من الرسل في كونه رجلا بين انه على سنتهم في جميع الاوصاف التي حكم بها على البشر في العيش والموت فنبه على الاول بقوله تعالى (وما جعلناهم) اى الذين اخترنا بعثتهم الى الناس ليأمروهم باوامرنا (جسدا) اى ذوي جسد ولحم ودم متصفين بانهم (لا يأكلون الطعام) بل جعلناهم اجسادا يأكلون ويشربون وليس ذلك بمانع من

منها تأكلون بالافراد وحذف الواو موافقة لما قبلها اذ ما هنا تقدمه جنات بالجمع وما بعد الواو معطوف على مقدر تقديره منها تدخرون ومنها تأكلون وما في الزخرف تقدمه جنة

ارسالهم * (فائدة) * قال ابن فارس فى المجمل وفى كتاب الخليل ان الجسد لا يقال لغير الانسان وتوحيد الجسد لارادة الجنس كأنه قيل ذوى ضرب من الاجساد او على حذف المضاف اى ذوى جسد كاسى أو تأويل الضمير لكل واحد وهو جسم ذو لون قال البيضاوى ولذلك اى ولكون الجسد جسما ذا لون لا يطلق على الماء والهواء وهو فى الماء مبنى على انه لا لون له وانما يتلون بلون ظرفه او مقابله لانه جسم شفاف لكن قال الامام الرازى بل له لون ويرى ومع ذلك لا يحجب عن رؤية ما وراءه * ثم نبه على الثانى بقوله تعالى (وما كانوا خالدين) اى باجسادهم بل ماتوا كما مات الناس قبلهم وبعدهم وانما امتازوا عن الناس بما أتيهم عن الله تعالى ورسولكم صلى الله عليه وسلم ليس بخالد فتربصوا كما اشار اليه ختم طه فانه متربص بكم وأنتم عاصون الملك الذى اقترب حسابه لخلقه وهو مطيع له (ثم صدقناهم الوعد) اى الذى وعدناهم باهلاكهم وهذا اصل قوله تعالى واختار موسى قومه فى حذف الجار والاصل فى الوعد من قومه ومنه صدقوهم القتال وصدقنى سن بكره والاصل فى هذا المثل ان اعرابيا عرض بعيرا للبيع فقال له المشترى ما سنه قال بكر فاتفق انه ند فقال لصاحبه هدع هدع وهذه اللفظة مما يسكن بها صغار الابل لا الكبار فقال المشترى صدقنى سن بكره واعرض فصار مثلا *(تنبيه)* اشار تعالى باداة التراخى الى أنهم طال بلاؤهم بهم وصبرهم عليهم ثم أحل بهم سطوته وأراهم عظمته (فانجيناهم) اى الرسل (ومن نشاء) وهم المؤمنون أو من فى ابقائه حكمة كمن سيؤمن هو أو واحد من ذريته ولذلك حميت به العرب من عذاب الاستئصال (وأهلكنا المسرفين) اى المشركين لان المشرك مسرف على نفسه (لقد انزلنا اليكم) يا معشر قريش (كتابا) اى القرآن (فيه ذكركم) اى شرفكم وصيتكم كما قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك أو فيه مكارم الاخلاق التى كنتم تطلبون بها الثناء وحسن الذكر كحسن الجوار والوفاء بالعهد وصدق الحديث وأداء الامانة والسخاء وما اشبه ذلك وقيل فيه ذكر ما تحتاجون اليه من امر دينكم او لانه نزل بلغتكم وقيل فيه تذكرة لكم لتحذروا فيكون الذكر بمعنى الوعد والوعيد (افلا تعقلون) فتؤمنوا به وفى ذلك حث على التدبر لان الخوف من لوازم العقل (وكم قصمنا) اى اهلكنا (من قرية) اى اهلها بغضب شديد لان القصم افظع الكسر وهو الكسر الذى يبين تلاؤم الاجزاء بخلاف الفصم وقوله تعالى (كانت ظالمة) اى كافرة صفة لاهلها وصفت بها لما أقيمت مقامهم ثم بين الغنى عنها بقوله تعالى (وانشأنا بعدها) اى بعد اهلاك اهلها (قوما آخرين) مكانهم * ثم بين حالها عند احلال البأس بها بقوله تعالى (فلما أحسوا) اى ادرك اهلها بحواسهم (بأسنا) اى عذابنا (اذا هم منها) اى القرية (يركضون) هاربين منها مسرعين راكضين دوابهم لما ادركتهم مقدمة العذاب والركض ضرب الدابة بالرجل ومنه اركض برجلك أو مشبهين بهم من فرط اسراعهم بعد تجبرهم على الرسل وقولهم لهم لنخرجنكم من ارضنا او لتعودن فى ملتنا فناداهم لسان الحال تقريعا وتشنيعا لحالهم (لا تركضوا) او المقال والقائل ملك أو من ثم من المؤمنين (وارجعوا) الى قريتكم (الى ما أترفتم) اى نعمتم (فيه) من التنعم والتلذذ والاتراف ابطار النعمة والترفه * ولما كان أعظم ما يؤسف عليه بعد العيش الناعم المسكن قال (ومساكنكم) اى التى كنتم تفتخرون بها على

بالتوحيد فى قوله وتلك الجنة وليس فى فاكهة الجنة الا الا كل فناسب الجمع والواو وهنا والافراد وحذف الواو ثم (قوله وشجرة تخرج من طور سيناء) المراد بها شجرة الزيتون

الصفة بعينها أو سمعتم من فخامتها وعلمتم من بيانها وحسنتم من مشاهدتها (لعلكم تسألون) وفي هذا تهكم بهم وتوبيخ أي ارجعوا الى نعمكم وما كنتم لعلكم تسألون غدا عما جرى عليكم ونزل باموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم وترتبوا في مراتبكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره وينفذ فيه أمركم ونهيكم فيقولوا لكم بم تأمرون وماذا ترسمون أو شيئا من دنياكم على العادة أو تسألون في الاعيان كما كنتم تسألون فتأبوا بما عندكم من الانفة والحمية والعظمة أو في المهمات كما تكون الرؤساء في مقاعدهم العلية ومراتبهم السنية فيجيبون سائلهم بما شاؤا ۞ ولما كان كأنه قيل بم أجابوا هذا القائل قيل (قالوا) حين لا ينفع اقرارهم عند نزول البأس (يا ويلنا) اشارة الى انه حل بهم لانه ينادي بالقريب ترفقا به كما يقول الشخص لمن يضربه يا سيدي كأنه يستغيث به ليكف عنه وذلك غباوة منهم وعمى عن الذي أحله بهم لانهم كالبهائم لا ينظرون الا السبب الاقرب ثم عللوا حلوله بهم تأكيدا لترفقهم بقولهم (انا كنا) جبلة وطبعا (ظالمين) حيث كذبنا الرسل وعصينا أمر ربنا فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف لفوات محله وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان هذا قرية حضور بفتح الحاء وبالضاد المعجمة وهي وسحول قريتان باليمن تنسب اليهما الثياب وفي الحديث كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوبين سحوليين وروي حضور بعث الله اليهم نبيا فقتلوه فسلط الله تعالى عليهم بختنصر كما سلطه الله على أهل بيت المقدس فاستأصلهم وروي انه لما أخذتهم السيوف نادى مناد من السماء يا لثارات الانبياء وهي بفتح اللام وبمثلثة وهمزة ساكنة أي يا أهل ثاراتهم أي الطالبة بدمهم فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فندموا وقالوا ذلك (فما) أي فتسبب عن احلالنا بهم ذلك البأس انه ما (زالت تلك) الدعوى البعيدة عن الخير والسلامة وهي قولهم يا ويلنا (دعواهم) يرددونها لا دعوى لهم غيرها لان الويل ملازم لهم غير منفك عنهم وترفقهم له غير نافعهم (حتى جعلناهم حصيدا) كالزرع المحصود بالمناجل بان قتلوا بالسيف ۞ (تنبيه) ۞ حصيد على وزن فعيل بمعنى مفعول ولذلك لم يجمع لانه يستوي فيه الجمع وغيره (خامدين) اي ميتين كخمود النار اذا طفئت وصارت رمادا (فان قيل) كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل (أجيب) بان حكم الاثنين الاخيرين حكم الواحد لان معنى قولك جعلته حلوا حامضا جعلته جامعا للطعمين وكذلك معنى ذلك جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود أو خامدين صفة لحصيدا أو حال من ضميره ثم نبههم سبحانه وتعالى على النظر في خلق السموات والارض وما بينهما ليعتبروا فقال تعالى (وما خلقنا السماء) على علوها واحكامها (والارض) على عظمها واتساعها (وما بينهما) مما دبرناه اقسام المنافع من أصناف البدائع وغرائب الصنائع (لاعبين) اي عابثين كما تسوي الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم للهو واللعب وانما خلقناها مشحونة بضروب البدائع تبصرة للنظار وتذكيرا لذوي الاعتبار وتسبيبا لما ينتظم به أمر العباد في المعاش والمعاد ولما نفى عنه اللعب أتبعه دليله فقال عز وجل (لو أردنا) اي بما لنا من العظمة (ان نتخذ لهوا) اي ما يتلهى به ويلعب وقيل هو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد الرد على النصارى (لاتخذناه

(فان قلت) لم خصها بطور سيناء مع انها تخرج من غيره ايضا (قلت) أصلها منه ثم نقلت الى غيره (قوله فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا) قال ذلك هنا بتقديم الصفة

من لدنا) اى من عندنا مما يليق ان يتخذ بحضرتنا من الحور العين والملائكة بما النا من تمام القدرة وكمال العظمة (ان كنا فاعلين) ذلك الكلام نفعله لانه لا يليق بجنابنا فلم نرده وقوله تعالى (بل نقذف) اى نرمى (بالحق) اى الايمان (على الباطل) اى الكفر اضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه لذاته عن اللعب بل شاننا ان نرمى بالحق الذى من جملة الجد على الباطل الذى من عداد اللهو (فيدمغه) اى يذهبه واستعار لدحض الباطل بالحق القذف والدمغ تصويرا لابطاله به واهلاكه ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة ووجه استعارة القذف والدمغ لما ذكر ان أصل استعمالهما فى الاجسام ثم استعيرا القذف لدحض الباطل بالحق والدمغ لاذهاب الباطل فالمستعار منه حسى والمستعار له عقلى (فاذا هو) فى الحال (زاهق) أى ذاهب والزهوق ذهاب الروح وذكره لترشيح المجاز من اطلاق القذف على دحض الباطل ثم عطف على ما أفادته اذا قوله تعالى (ولكم) أى واذا لكم أيها المبطلون (الويل) أى العذاب الشديد (مما تصفون) الله تعالى به مما هو سوى أنفسكم كالزوجة والولد * (تنبيه) * ما اما مصدرية او موصولة أو موصوفة * ولما حكى الله تعالى كلام الطاعنين فى النبوات وأجاب عنها بان أغراضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم الانقياد بين بقوله تعالى (وله من فى السموات) أى الاجرام العالية وهى ما تحت العرش وجمع السماء لاقتضاء تفخيم الملك ذلك ولما كانت عقولهم لا تدرك تعدد الارض وحدها فقال (والارض) أى له ذلك خلقا وملكا فانه منزه عن طاعتهم لانه هو المالك لجميع المحدثات والمخلوقات وعبر بمن تغليبا للعقلاء وقوله تعالى (ومن عنده) أى وهم الملائكة باجماع الامة ولان الله تعالى وصفهم بانهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهذا لا يليق بالبشر مبتدأ خبره (لا يستكبرون عن عبادته) بنوع كبر طلبا ولا ايجادا وخصهم بالذكر لكرامتهم عليه تنزيلا لهم منزلة المقربين عند الملك * (تنبيه) * هذه العندية للشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة فكانه تعالى قال الملائكة مع كمال شرفهم وعلو مراتبهم ونهاية جلالتهم لا يستكبرون عن عبادته فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد عن طاعته (و) مع ذلك أيضا (لا يستحسرون) أى لا يعيون واغا جيء بالاستحسار الذى هو أبلغ من الحسور تنبيها على أن عبادتهم من ثقلها ودوامها حقيقة بان يستحسر منها ولا يستحسرون ولا يطلبون أن ينقطعوا عنها فانتج ذلك قوله تعالى (يسبحون) أى ينزهون المستحق للتنزيه بانواع التنزيه من الاقوال والافعال (الليل والنهار) اى جميع آنائهما دائما (لا يفترون) اى عن ذلك وقتا من الاوقات فهو منهم كالنفس منا لا يشغلنا عنه شاغل * ولما كانوا عند هذا البيان جديرين بان يبادروا الى التوحيد فلم يفعلوا كانوا حقيقين بعد الاعراض عنهم بالتوبيخ والتهكم والتعنيف فقال تعالى (أم اتخذوا) اى بل اتخذوا فام بمعنى بل للانتقال والهمزة لانكار اتخاذهم (آلهة من الارض) ومعنى نسبتها الى الارض الايذان بانها الاصنام التى تعبد فى الارض لان الآلهة على ضربين أرضية وسماوية ومن ذلك حديث الامة التى قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أين ربك فاشارت الى السماء فقال انها مؤمنة لانه فهم منها ان مرادها نفى الآلهة الارضية التى هى الاصنام لا اثبات ان السماء مكان الله تعالى ويجوز ان يراد آلهة من جنس الارض لانها اما ان تنحت من بعض الحجارة أو تعمل من

على من قومه وقاله بعد بالعكس لانه اقتصر فى صلة الموصول على الفعل والفاعل وفيما بعد طالت فيه الصلة بزيادة العطف على الصلة مرة بعد أخرى فقدم عليها من قومه لان

بعض جواهر الارض (هم ينشرون) اى يحيون الموتى لا يقدرون على ذلك وهم وان لم يصرحوا بذلك لزم من ادعائهم لها آلهة أنهم يقدرون على ذلك فان من لوازمها الاقتدار على جميع الممكنات فالمراد به تجهيلهم والتهكم بهم وللمبالغة فى ذلك زيد الضمير الموهم لاختصاص الانتشار بهم ثم انه سبحانه وتعالى أقام البرهان القاطع على نفى ان غيره برهان التمانع وهو أشد برهان لاهل الكلام فقال (لو كان فيهما) اى السموات والارض اى فى تدبيرهما (آلهة الا الله) اى غير الله تعالى (لفسدتا) أى خرجتا عن نظامهما المشاهد لوجود التمانع بينهم على وفق العادة عند تعدد الحاكم وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو ابن سعيد الاشدق كان والله أعز على من دم ناظرى ولكن لا يجتمع فحلان فى شول وهذا ظاهر وأما طريقة التمانع فقال المتكلمون القول بوجود الهين مفض الى المحال لانا لو فرضنا وجود الهين فلابد أن يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه ولو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه والآخر أراد تسكينه فاما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أو لا يقع واحد منهما وهو محال لان المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا الا عند وجود مراد ذلك وبالعكس أو يقع مراد أحدهما دون الآخر وذلك أيضا محال لان الذى وقع مراده يكون قادرا والذى لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص وهو على الاله محال فثبت أن الفساد لازم على كل التقديرات واذا وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت ان جميع ما فى العالم العلوى والسفلى من المخلوقات دليل على وحدانية الله تعالى والدلائل السمعية على الوحدانية كثيرة فى القرآن ٭ ولما أفاد هذا الدليل انه لا يجوز ان يكون المدبر للسموات والارض الا واحدا وان ذلك الواحد لا يكون الا الله تعالى قال (فسبحان الله) اى فتعجب عن ذلك تنزه المتصف بصفات الكمال (رب) اى خالق (العرش) اى الكرسى المحيط بجميع الاجسام الذى هو محل التدابير ومنشأ التقادير (عما يصفون) اى الكفار الله به من الشريك له وغيره ثم بين تعالى ذلك بقوله عز وجل (لا يسئل) اى من سائل ما (عما يفعل) لعظمته وقوة سلطانه واذا كانت عادة الملوك والجبابرة ان لا يسألهم من فى مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تهيبا واجلالا مع جواز الخطا والزلل وأنواع الفساد عليهم كان ملك الملوك ورب الارباب خالقهم ورازقهم أولى بان لا يسئل عن أفعاله مع ما علم واستقر فى العقول من ان ما يفعله كله مفعول بدواعى الحكمة ولا يجوز عليه تعالى الخطا (وهم يسئلون) لانهم مملوكون مستعبدون خطاؤن فما أخلقهم بان يقال لهم لم فعلتم فى كل شئ فعلوه ٭ ولما قام الدليل ووضح السبيل واضمحل كل قال وقيل واضمحلت الاباطيل كرر تعالى (أم اتخذوا من دونه آلهة) كرره استفظاعا لشأنهم واستعظاما لكفرهم واظهارا لجهلهم ٭ ولما كان جوابهم اتخذناها ولا نرجع أمر الله تعالى نبيه بجوابهم فقال (قل هاتوا برهانكم) على ما ادعيتموه من عقل أو نقل كما أتيت أنا ببرهان النقل المؤيد بالعقل ٭ ولما كان تعالى لا يؤاخذ بمخالفة العقل ما لم ينضم اليه دليل النقل أتبعه ذلك مشيرا الى ما بعث الله تعالى به الرسل من الكتب (هذا ذكر) أى موعظة وشرف (من معى) ممن آمن بى وهو القرآن

تأخيره عن المفعول ملبس وتوسطه بينه وبين ما قبله ركيك (قوله ولو شاء الله لأنزل ملائكة) قاله هنا بلفظ الله وفى فصلت بلفظ ربنا موافقة لما قبلهما اذ ما هنا تقدمه لفظ الله

قوله اى الكرسى تبع فيه الجلال المحلى وكتب عليه الجمل قوله الكرسى لا حاجة لهذا بل الاولى ابقاء العرش على ظاهره لان التحقيق انه جسم مغاير للكرسى اه

الذى عجزتم عن معارضته (وذكر) اى وهذا ذكر (من قبلى) من الامم الماضية وهو التوراة والانجيل وغيرهما من الكتب السماوية فانظروا هل تجدون فيها الا الامر بالتوحيد والنهى عن الاشراك * ولما كانوا لا يجدون شبهة لهم فضلا عن حجة ذمهم الله تعالى على جهلهم بمواضع الحق فقال تعالى (بل أكثرهم) اى هؤلاء المدعوين (لا يعلمون الحق) فلا يميزون بينه وبين الباطل بل أكثرهم جهلة والجهل أصل الشر والفساد (فهم) اى فتسبب عن جهلهم ما اقتضاه السورة من أنهم (معرضون) عن التوحيد واتباع الرسل * ولما كان الارسال بالفعل غير مستغرق للزمان المتقدم كان الرسالة لا يقوم بها كل واحد فكذلك الارسال لا يصلح له كل زمن أثبت الجار فى قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك) وأغرق فى النفى فقال (من رسول) فى شيع الاولين (الا يوحى اليه) من عندنا (انه لا اله الا أنا فاعبدون) وهذا مقرر لما سبقه من آى التوحيد وقال تعالى الا أنا ولم يقل نحن لئلا يجعلوا ذلك وسيلة الى ما ادعوه من تعدد الآلهة ولذلك قال فاعبدون بالافراد وقرأ حفص وحمزة والكسائى بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء وفتح الحاء * ولما بين سبحانه وتعالى بالدلائل الباهرة كونه منزها عن الشريك والضد والند أردف ذلك براءته عن اتخاذ الولد بقوله (وقالوا اتخذ) اى تكلف كما يتكلف من لا يكون له ولد (الرحمن) اى الذى كل موجود من فيض نعمه (ولدا) نزل فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله وقيل نزل ذلك فى اليهود حيث قالوا انه تعالى صاهر الجن فكانت منهم الملائكة كما حكى الله تعالى عنهم قولهم وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ثم انه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله تعالى (سبحانه) اى تنزه عن ان يكون له ولد فان ذلك يقتضى المجانسة بينه وبين الولد ولا تصح مجانسة النعمة للمنعم الحقيق (بل) اى الذين جعلوهم له ولدا وهم الملائكة (عباد) من عباده أنعم عليهم بالايجاد كما أنعم على غيرهم لا أولاد فان العبودية تنافى الولدية (مكرمون) بالعصمة من الزلل ولذلك فسر الاكرام بقوله تعالى (لا يسبقونه) اى لا يسبقون اذنه (بالقول) اى لا يقولون شيأ حتى يقوله كما هو شأن العبيد المؤدبين (وهم بأمره) اذا أمرهم (يعملون) لا بغيره لانهم فى غاية المراقبة له تعالى فجمعوا فى الطاعة بين القول والفعل وذلك غاية الطاعة ثم علل اخباره بذلك بعلمه بما هذا المخبر به مندرج فيه بقوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) اى ما عملوا وما هم عاملون لا تخفى عليه تعالى خافية مما قدموا وأخروا ثم صرح تعالى بلازم الجملة الاولى فقال (ولا يشفعون) اى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة (الا لمن ارتضى) فلا تطمعوا فى شفاعتهم لكم بغير رضاه تعالى قال ابن عباس والضحاك الا لمن ارتضى اى لمن قال لا اله الا الله فسقط بذلك قول المعتزلة ان الشفاعة فى الآخرة لا تكون لاهل الكبائر ثم صرح بلازم الجملة الثانية فقال (وهم من خشيته) أى لا من غيرها (مشفقون) أى خائفون وأصل الخشية خوف مع تعظيم ولذلك خص بها العلماء والاشفاق خوف مع اعتناء فان عدى بمن فمعنى الخوف فيه أظهر وان عدى بعلى فبالعكس * ولما نفى تعالى الشريك مطلقا ثم مقيدا بالولدية أتبعه التهديد على ادعائه بتعذيب المتبوع الموجب لتعذيب التابع بقوله تعالى (ومن يقل منهم) أى من الخلائق حتى العباد المكرمين الذين وصف

دون ربنا وما فى فصلت تقدمه لفظ الرب فى رب العالمين سابقا على لفظ الله فناسب ذكر الله هنا وذكر الرب ثم (قوله فبعدا للقوم الظالمين) قاله هنا بالتعريف وقال بعد فبعدا للقوم

كرامتهم وقرب منزلتهم عنده وأثنى عليهم (انى اله من دونه) أى الله أى غيره والذى قال ذلك كما قال الجلال المحلى هو ابليس دعا الى عبادة نفسه وأمر بطاعتها (فذلك) أى الذى لا يصلح للتقريب اصلا (نجزيه جهنم) لظلمه (كذلك) اى مثل هذا الجزاء الفظيع جدا (نجزى الظالمين) اى المشركين ثم انه سبحانه وتعالى شرع الآن فى الدلائل الدالة على وجود الصانع فذكر منها ستة أنواع النوع الاول قوله تعالى (أولم ير) اى يعلم (الذين كفروا) علما هو كالمشاهدة (ان السموات والارض كانتا) ولم يقل كن لان المراد جماعة السموات وجماعة الارض (رتقا) قال ابن عباس والضحاك كانتا شيأ واحدا ملتزقتين زبدة واحدة (ففتقناهما) اى فصلنا بينهما بالهواء والرتق فى اللغة السد والفتق الشق قال كعب خلق الله السموات والارض بعضها على بعض ثم خلق ريحا توسطتهما ففتقهما بها وقال مجاهد والسدى كانت السموات رتقا طبقة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الارض كانت رتقا طبقة ففتقها فجعلها سبع أرضين وقال عكرمة وعطية كانت السموات رتقا لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات فيكون المراد بالسموات سماء الدنيا وجمعها باعتبار الآفاق او السموات بأسرها على ان لها مدخلا فى الامطار وانما قال تعالى رتقا على التوحيد وهو نعت للسموات والارض لانه مصدر والكفرة وان لم يعلموا ذلك فهم متمكنون من العلم بالنظر او باستفسار من العلماء ومطالعة الكتب وقرأ ابن كثير ألم بغير واو بين الهمزة ولم والباقون بالواو بين الهمزة واللام النوع الثانى من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا) اى خلقنا بما اقتضته عظمتنا (من الماء) الماء هو الدافق وغيره (كل شئ حى) مجازا فى النبات وحقيقة فى الحيوان (فان قيل) قد خلق الله تعالى بعض ما هو حى من غير الماء كآدم وعيسى والملائكة (أجيب) بان هذا خرج مخرج الاغلب والاكثر اى ان اكثر ما خلق الله خلق من الماء وبقاؤه بالماء وقيل المراد بالماء ما نزل من السماء او نبع من الارض (أفلا يؤمنون) مع ظهور هذه الآيات الواضحات بتوحيدى النوع الثالث من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا فى الارض رواسى) اى جبالا ثوابت كراهة (ان تميد) اى تتحرك (بهم) قيل ان الارض بسطت على الماء فكانت تتحرك كما تتحرك السفينة فى الماء فارساها الله واثبتها بالجبال النوع الرابع من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا فيها) اى فى الرواسى (فجاجا) اى مسالك واسعة سهلة ثم ابدل منها (سبلا) اى مذللة للسلوك ولولا ذلك لتعسر او تعذر الوصول الى بعض البلاد (لعلهم يهتدون) الى منافعهم من ديارهم وغيرها او الى ما فيها من دلائل الوحدانية النوع الخامس من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا السماء) وافردها مع ارادة الجنس لان أكثر الناس لا يشاهدون منها الا السماء الدنيا او لان الحفظ للشئ الواحد أتقن (سقفا) اى للارض كالسقف للبيت (محفوظا) اى عن السقوط بالقدرة وعن الفساد والانحلال الى الوقت المعلوم بالمشيئة وعن الشياطين بالشهب (وهم) اى أكثر الناس (عن آياتها) اى من الكواكب الكبار والصغار والرياح والامطار وغير ذلك من الدلائل التى تفوت الانحصار الدالة على قدرتنا على كل ما نريد من البعث وغيره وعلى عظمتنا بالتفرد بالالهية وغير ذلك من أوصاف الكمال من الجلال والجمال (معرضون) لا يتفكرون فيما فيها من السير والتدبير وغير ذلك فيعلمون ان خالقها

لاشريك

لايؤمنون بالتنكير لان الاول القوم صالح بقرينة قوله فاخذتهم الصيحة فعرفهم تعريف عهد وتنكير الثانى لخلوه عن قرينة تقتضى تعريفه وموافقة لتنكير ما قبله

لاشريك له النوع السادس من الدلائل قوله تعالى (وهو) أى لاغيره (الذى خلق الليل والنهار) ثم اتبعهما أعظم آيتهما بقوله تعالى (والشمس) التى هى أعظم آية النهار (والقمر) الذى هو أعظم آية الليل (كل) اى من الشمس والقمر وتابعه وهو النجوم (فى فلك) اى مستدير كطاحونة فى السماء (يسبحون) اى يسيرون بسرعة كالسابح فى الماء وللتشبيه به أتى بضمير جمع من يعقل والمراد بالفلك الجنس كقولك كساهم الامير حلة وقلدهم سيفا اى كل واحد منهم او كساهم وقلدهم هذين الجنسين فاكتفى بما يدل على الجنس اختصارا ولان الغرض الدلالة على الجنس * ونزل لما قال الكفار ان محمدا سيموت (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) اى البقاء فى الدنيا (أفان) اى أيتمنون موتك فان (مت فهم الخالدون) فيه الاولى ليس والخالدين فالجملة الاخيرة هى محل الاستفهام الانكارى وفى معنى ذلك قول فروة بن مسيك الصحابى

وقل للشامتين بنا أفيقوا * سيلقى الشامتون كما لقينا

وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى بكسر الميم والباقون بضمها ثم بين تعالى أن احدا لا يبقى فى هذه الدنيا بقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) اى ذائقة مرارة الموت اى مرارة مفارقة روحها جسدها فلا يفرح احد ولا يحزن لموت احد بل يشتغل بما يهمه واليه الاشارة بقوله تعالى (ونبلوكم) اى نعاملكم معاملة المبتلى المختبر ليظهر فى عالم الشهادة الشاكر والصابر والمؤمن والكافر كما هو عندنا فى عالم الغيب بان نخالطكم (بالشر) وهو المضار الدنيوية من الفقر والالم وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين (والخير) وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكن من المرادات وقوله تعالى (فتنة) مفعول له اى لننظر أتصبرون وتشكرون ام لا كما يفتن الذهب اذا اريد تصفيته بالنار عما خالطه من الغش فبين تعالى ان العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين لكى يشكر على المنح ويصبر على المحن فيعظم ثوابه اذا قام بما يلزم (والينا) بعد الموت لا الى غيرنا (ترجعون) فنجازيكم بما وقع لكم ثم عطف تعالى على قوله وأسروا النجوى قوله تعالى (واذا رآك) اى وانت أشرف الخلق (الذين كفروا ان) أى ما (يتخذونك) اى حال الرؤية (الا هزوا) اى مهزوا به يقولون انكارا واستصغارا (أهذا الذى يذكر آلهتكم) اى بسوء والذكر يكون بالخير والشر فاذا دلت القرينة على احدهما اطلق عليه وذكر العدو لا يكون الا بسوء (وهم) اى والحال انهم (بذكر الرحمن) اى اذا ذكر لهم الرحمن (هم كافرون) وذلك انهم كانوا يقولون لا نعرف الرحمن الا مسيلمة وهم الثانية للتأكيد ونزل فى استعجالهم العذاب (خلق الانسان من عجل) كأنه خلق منه لفرط استعجاله وقلة ثباته والعرب تقول للذى يكثر منه الشئ خلقت منه كقولك خلق زيد من الكرم فجعل ما طبع عليه بمنزلة المطبوع هو منه مبالغة فى لزومه له ولذلك قيل انه على القلب اى خلق العجل من الانسان ومن عجلته مبادرته الى الكفر واستعجال الوعد وقال سعيد بن جبير والسدى لما دخل الروح فى رأس آدم وعينيه نظر الى ثمار الجنة فلما دخل الروح فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل ان تبلغ الروح الى رجليه عجلا الى ثمار الجنة فوقع فقيل خلق الانسان من عجل والمراد بالانسان آدم وأورث أولاده العجلة وقال قوم معناه خلق الانسان يعنى آدم

وهو قرونا آخرين (قوله واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم) وما فى سبأ بلفظ بصير مناسب لما قبلها اذ ما هنا تقدمه ابناه الكتاب وجعل مريم وابنها آية والعلم بها انسب من

عليه السلام من العجل في خلق الله تعالى اياه لان خلقه كان بعد خلق كل شئ في آخر النهار يوم الجمعة فاسرع في خلقه قبل مغيب الشمس قال مجاهد فلما احيا الروح رأسه قال يارب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس وقيل بسرعة وتعجيل على غير ترتيب خلق سائر الآدميين من النطفة ثم العلقة ثم المضغة وغيرها وقال قوم من عجل أي من طين قال الشاعر

والنبع في الصخرة الصماء منبته * والنخل ينبت بين الماء والعجل

ثم قال تعالى مهددا للمكذبين (سأريكم آياتي) اى مواعيدي بالعذاب (فلا تستعجلون) اى تطلبون أن أوجد العجلة بالعذاب أو غيره فاني منزه عن العجلة التي هي من جملة نقائصكم لانها ارادة الشئ قبل أوانه (فان قيل) لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله خلق الانسان من عجل وقوله تعالى وكان الانسان عجولا اليس هذا من تكليف مالا يطاق (اجيب) بان هذا كما ركب فيه الشهوة وامره ان يغلبها لانه اعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة وقد أراهم بعض آياته وهو القتل ببدر (ويقولون) في استهزائهم (متى هذا الوعد) اى باتيان الآيات من الساعة ومقدماتها وغيرها (ان كنتم) فيما توعدون به (صادقين) اى عريقين في هذا الوصف يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم واصحابه وهذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء ثم بين تعالى أنهم يقولون ذلك لجهلهم بقوله تعالى (لو يعلم الذين كفروا) وذكر المفعول به بقوله تعالى (حين) اى وقت (لا يكفون) اى لا يدفعون (عن وجوههم) التي هي أشرف اعضائهم (النار) استسلاما وعجزا (ولا عن ظهورهم) التي هي اشد اجسامهم السياط (ولاهم ينصرون) اى لا يمنعون من العذاب في القيامة وجواب لو محذوف والمعنى لو علموا لما أقاموا على كفرهم ولما استعجلوا العذاب ولا قالوا متى هذا الوعد ان كنتم صادقين (بل تأتيهم) اى القيامة (بغتة) اى فجأة (فتبهتهم) اى تحيرهم يقال فلان مبهوت اى متحير (فلا يستطيعون ردها) اى لا يطلبون طوع ذلك لهم في ذلك الوقت ليأسهم منه (ولاهم ينظرون) اى يمهلون لتوبة أو معذرة * ولما كان التقدير حاق بهم هذا باستهزائهم بك أتبعه ما يدل على ان الرسل في ذلك شرع واحد تسلية له صلى الله عليه وسلم فقال عاطفا على واذا رآك (ولقد استهزئ برسل من قبلك) اى كثير من قبلك بهم اسوة وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة في الوصل بكسر الدال والباقون بالضم واذا وقف حمزة ابدل الهمزة ياء ساكنة (فحاق) اى نزل (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) وهو العذاب فكذا يحيق بمن استهزأ بك * ولما أعلم الله تعالى أن الكفار في الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم بسائر ما وصفهم به أتبعه بانهم في الدنيا أيضا لولا ان الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا في السلامة فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (قل) يا أشرف المرسلين للمستهزئين (من يكلؤكم) اى يحفظكم (بالليل والنهار من الرحمن) اى من عذابه ان نزل بكم اى لا احد يفعل ذلك (بل هم عن ذكر ربهم) اى القرآن (معرضون) لا يتفكرون فيه ولا يخطرونه ببالهم فضلا ان يخافوا بأسه (ام) فيها معنى الهمزة للانكار اى (لهم آلهة) موصوفة بانها (تمنعهم) مما يسوءهم (من دوننا) ليس لهم ذلك ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال تعالى (لا يستطيعون) اى الآلهة (نصر أنفسهم) فكيف ينصرون عابديهم (ولاهم) اى الكفار (منا) اى من عذابنا (يصحبون) اى يجارون يقال صحبك الله اى

حفظك

بصرهما وما هذه التقدمة قوله وأنزلنا الحديد والبصر بالآلة الحديد أنسب من العلم

(قوله بل جاءهم بالحق بها) وأكثرهم للحق كارهون والمراد نزل في كفار مكة والمراد بالحق التوحيد (ان قلت)

حفظك وأجارك (بل متعنا هؤلاء) اى الكفار على حقارتهم (وآباءهم) من قبلهم بالنعم استدراجا (حتى طال عليهم العمر) اى امتدت بهم ايام الدنيا بالروح والطمأنينة فحسبوا أن لا يزالوا على ذلك لا يغلبون ولا ينزع عنهم ثوب أمنتهم واستمتاعهم فاغتروا بذلك وذلك طمع فارغ وأمل كاذب وغلط ورش اللام بخلاف عنه (أفلا يرون) اى يعلمون علما هو في وضوحه مثل الرؤية بالبصر (أنا نأتى الارض) اى أرض الكفرة (ننقصها من أطرافها) بتسليط المسلمين عليها واظهارهم على اهلها بقتل بعض ورد بعض عن دينه الى الاسلام فهم في نقص وأولياؤنا في زيادة (أفهم الغالبون) اى مع مشاهدتهم لذلك ام أولياؤنا ولما كرر سبحانه وتعالى في القرآن الادلة وبالغ في التنبيه عليها على ما تقدم اتبعه بقوله تعالى (قل) يا أشرف الخلق لهؤلاء المشركين (انما أنذركم) اى أخوفكم (بالوحى) اى بالقرآن الذى هو كلام ربكم فلا تظنوا انه من قبل نفسى (ولا يسمع الصم الدعاء) اى من يدعوهم (اذا ما ينذرون) اى يخوفون فهم لتركهم العمل بما سمعوه كالصم (فان قيل) الصم لا يسمعون دعاء المبشر كما لا يسمعون دعاء المنذر فكيف قيل اذا ما ينذرون (أجيب) بانه وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم اسماعهم اذا انذروا اى هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة وعلى التصام عن آيات الانذار وقرأ ابن عامر ولا تسمع بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم ونصب ميم الصم على الخطاب النبوى والباقون بالياء التحتية وفتح الميم ورفع ميم الصم وفي الدعاء واذا همزتان مختلفتان من كلمتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية بين الهمزة والياء والباقون بتحقيق الهمزتين وهذا في حال الوصل فان وقف على الهمزة الاولى فالجميع يبتدؤن الثانية بالتحقيق ويقف حمزة وهشام بابدال الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر (ولئن مستهم) اى أصابتهم (نفحة) اى دفعة خفيفة وفي ذلك مبالغات ذكر المس وما في النفحة من معنى القلة فان أصل النفح هبوب رائحة الشئ والتاء الدالة على المرة (من عذاب ربك) المحسن اليك بنصرك عليهم من الذى ينذرون به (ليقولن) وقد أذهلهم أمرها (يا ويلنا) الذى لا نرى بحضرتنا الآن غيره (انا كنا ظالمين) دعوا على أنفسهم بالويل بعدما أقروا بالظلم ثم ذكر تعالى بعض ما يفعل في حساب الساعة من العدل فقال عاطفا على قوله تعالى بل تأتيهم بغتة (ونضع الموازين القسط) اى ذوات العدل (ليوم القيامة) اى فيه وانما جمع الموازين لكثرة من توزن أعمالهم ويجوز أن يرجع الى الموزونات وقيل وضع الموازين تمثيلا لارصاد الحساب السوى والجزاء على حسب الاعمال بالعدل والصحيح الذى عليه أئمة السلف ان الله تعالى يضع ميزانا حقيقة توزن به أعمال العباد وعن الحسن هو الميزان له كفتان ولسان ويروى ان داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فأراه كل كفة ما بين المشرق والمغرب فغشى عليه ثم أفاق فقال الهى من الذى يقدر أن يملأ كفته حسنات قال يا داود انى اذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة (فان قيل) كيف توزن الاعمال مع أنها أعراض (أجيب) بان فيه طريقين احدهما أن توزن صحائف الاعمال فتوضع صحائف الحسنات في كفة وصحائف السيآت في كفة والثانى أن توضع في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفي كفة السيآت جواهر سود مظلمة (فان قيل) هذه الآية يناقضها قوله تعالى في الكفار فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا

كيف قال ذلك مع انهم كانوا كارهين للتوحيد (قلت) كان فيهم من ترك الايمان به انفة وتكبرا من توبيخ قومهم لا لاية ولو اترك دين آبائه لا كراهة للحق كما يحكى عن ابى طالب وغيره

(أجيب) بان المراد منه انا لا نكرمهم ولا نعظمهم (فلا تظلم نفس شيأ) اى من نقص حسنة أو زيادة سيئة (وان كان) اى العمل (مثقال) اى وزن (حبة من خردل) أو أصغر منه وانما مثل به لانه غاية عندنا فى القلة وقرأ نافع برفع اللام على ان كان تامة والباقون بالنصب وكذا فى لقمان (أتينا بها) اى بوزنها ولما كان حساب الخلائق كلهم فى كل ما صدر منهم أمرا باهر اللعقل حقره عند عظمته فقال (وكفى بنا) اى بما لنا من العظمة (حاسبين) اى محصين فى كل شئ فلا يكون فى الحساب أحد مثلنا فنبه توعد من جهة ان معناه انه لا يروج عليه شئ من خداع ولا يقبل غلطا ولا يضل ولا ينسى الى غير ذلك من كل ما يلزم منه نوع لبس وشوب نقص ووعد من جهة انه مطلع على حسن قصد وان دق وخفى ❁ ولما تكلم سبحانه وتعالى فى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع فى قصص الانبياء عليهم السلام تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض وذكر منها عشرا ❁ القصة الاولى قصة موسى عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد آتينا موسى وهرون) اى أخاه الذى سأل ربه أن يشد أزره به (الفرقان) اى التوراة الفارقة بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام (وضياء) بها لاظلام معه اى ليستضاء بها فى ظلمات الحيرة والجهل وقرأ قنبل بعد الضاد بهمزة مفتوحة ممدودة والباقون بياء بعدها ألف (وذكرا) اى عظة (للمتقين) أو ذكر ما يحتاجون اليه من الشرائع وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر ويراد بالضياء على هذين التوراة ثم بين المتقين بوصفهم بقوله تعالى (الذين يخشون) اى يخافون خوفا عظيما (ربهم) اى المحسن اليهم بعد الايجاد بالتربية وأنواع الاحسان (بالغيب) عن الناس اى فى الخلاء عنهم أو بالغيب قبل ان يكشف لهم الحجاب فى الجنة (وهم من الساعة) التى توضع فيها الموازين وقد أعرض عنها الجاهلون مع كونها أعظم حامل على كل خير ومباعد عن كل ضير (مشفقون) اى خائفون لانهم لقيامها متحققون ولنصب الموازين فيها عالمون ❁ ولما ذكر تعالى فرقان موسى عليه السلام وكان العرب يشاهدون تمسك اليهود به حثهم على كتابهم الذى هو أشرف منه بقوله تعالى (وهذا) أى القرآن وأشار اليه بأداة القرب ايماء الى سهولة تناوله عليهم (ذكر) أى موعظة (مبارك) أى كثير خيره (أنزلناه) على أشرف الرسل محمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (أفأنتم له منكرون) أى جاحدون استفهام توبيخ ❁ القصة الثانية قصة ابراهيم عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد آتينا) بما لنا من العظمة (ابراهيم رشده) أى صلاحه وهداه (من قبل) أى من قبل موسى وهرون ومحمد صلى الله وسلم عليهم وقيل من قبل استنبائه أو بلوغه حيث قال انى وجهت وجهى (وكنا به) ظاهرا وباطنا (عالمين) بانه أهل لما آتيناه لانه جبلة خير جامع لمحاسن الاوصاف ومكارم الاخلاق والخصال يدوم على الرشد ويترقى فيه الى أعلى درجاته لما طبعناه عليه وفى ذلك اشارة الى أنه فعله تعالى باختيار وحكمة وانه عالم بالجزئيات وتعلق (اذ قال) أى ابراهيم (لابيه وقومه) بعالمين اشارة الى أن قوله لما كان باذن منا ورضا لنا نصرناه وهو وحده على قومه كلهم ولو لم يكن برضينا لمكناهم منه بنصر قومه عليه وتمكين النار منه ثم ذكر

(قوله لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا) اى البعث قاله هنا بتأخير هذا عما قبله وقاله فى النمل بالعكس جريا على القياس هنا من تقديم المرفوع على المنصوب وعكس ثم بيانا للجواز تقديم

مقول القول فى قوله منكرا عليهم محقرا لاصنامهم (ما هذه التماثيل) أى الصور التى صنعتموها مماثلين بها ما فيه روح الله جاعلين لها ما لا يكون الا لمن لا مثل له وهى الاصنام (التى انتم لها) أى لاجلها وحدها مع كثرة ما يشابهها وما هو أفضل منها (عاكفون) أى مقيمون على عبادتها (فان قيل) هلا قال عليها عاكفون كقوله تعالى يعكفون على أصنام لهم (أجيب) بان اللام للاختصاص لا للتعدية ولو قصد التعدية لعداه بصلته التى هى على ثم انه تعالى ذكر جوابهم له بما لزم الاستفهام عن السؤال بانهم (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) فاقتدينا بهم لا حجة لنا غير ذلك فانظر ما اقبح التقليد وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حتى استدرجهم الى ان قلدوا اباءهم فى عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم وهم معتقدون انهم على شئ وجادون فى نصرة مذهبهم ويجادلون أهل الحق عن باطلهم وكفى أهل التقليد مسبة ان عبدة الاصنام منهم والتقليد ان جاز فانما يجوز لمن علم فى الجملة انه على حق ولذا (قال) ابراهيم عليه السلام (لقد كنتم) وأكده بقوله (أنتم) لاجل صحة العطف لان الضمير المرفوع المتصل حكمه حكم جزء الفعل والعطف على ضميرهو فى حكم بعض الفعل ممتنع ونحوه اسكن أنت وزوجك الجنة (وآباؤكم) اى من قبلكم (فى ضلال مبين) فبين ان المقلدين والمقلدين جميعا منخرطون فى سلك ضلال لا يخفى على من به أدنى مسكة لاستناد الفريقين الى غير دليل بل الى هوى متبع وشيطان مطاع لاستبعادهم ان يكون ماهم عليه ضلالا بقوا متعجبين من تضليله اياهم فلذا (قالوا) ظنا منهم انه لم يقل لهم ذلك على ظاهره (أجئتنا) فى هذا الكلام (بالحق) الذى يطابقه الواقع (أم أنت من اللاعبين) اى تقوله على وجه المزاح والملاعبة لا على وجه الجد (قال) عليه السلام بانيا على ما تقديره ليس كذلك لعبا بل هو جد وهذه التماثيل ليست أربابا (بل ربكم) اى الذى يستحق منكم اختصاصه بالعبادة (رب السموات والارض) أى مدبرهن القائم بمصالحهن (الذى فطرهن) أى خلقهن على غير مثال سبق وأنتم وتماثيلكم مما فيهما من مصنوعاته أنتم تشهدون بذلك اذا رجعتم الى عقولكم مجردة عن الهوى وقيل الضمير فى فطرهن للتماثيل قال الزمخشرى وكونه للتماثيل أدخل فى تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم (وأنا على ذلكم) أى الامر البين من أنه ربكم وحده فلا تجوز عبادة غيره (من الشاهدين) أى الذين يقدرون على اقامة الدليل على ما يشهدون به لم يشهدوا الا على ما هو عندهم مثل الشمس لا كما فعلتم انتم حين اضطركم السؤال الى الضلال ولما أقام البرهان على اثبات الاله الحق أتبعه البرهان على ابطال الباطل بقوله (وتالله) وهو قسم والاصل فى القسم الباء الموحدة والواو بدل منها والتاء بدل من الواو وفيها مع كونها بدلا زيادة على التأكيد التعجب (لأكيدن أصنامكم) أى لاجتهدن فى كسرها والتأكيد وما فى التاء من التعجب من تسهيل الكيد على يده وتأتيه لان ذلك كان امرا مقنوطا منه لصعوبته وتعذره ولعمرى ان مثله صعب متعذر فى كل زمان خصوصا فى زمن نمروذ مع عتوه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على نصرة دينه ولكن اذا الله سهل حدث تيسيرا ولما كان عزمه على ايقاع الكيد فى جميع الزمان الذى يقع فيه توليهم فى اى جزء تيسر له منه اسقط

المنصوب على المرفوع وخص ما هنا بتأخير هذا جريا على الاصل بلا مقتض لخلافه وما هنا التقديم اهتماما به من منكرى البعث ولهذا قالوا بعد ان هذا الا أساطير الاولين

الجار فقال (بعد أن تولوا مدبرين) أى بعد أن تدبروا منطلقين الى عيدكم قال مجاهد وقتادة انما قال ابراهيم هذا سرا من قومه ولم يسمع ذلك الا رجل واحد فافشاه عليه وقال انا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وقال السدى كان لهم فى كل سنة مجمع عيد فكانوا اذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الاصنام فسجدوا لها ثم عادوا الى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال أبو ابراهيم له يا ابراهيم لو خرجت معنا الى عيدنا أعجبك ديننا فخرج معهم ابراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال انى سقيم أشتكى برجلى فلما مضوا نادى فى آخرهم وقد بقى ضعفاء الناس تالله لأكيدن أصنامكم فسمعوها منه ثم رجع ابراهيم الى بيت الآلهة وهى فى بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم الى جنبه أصغر منه والاصنام بعضها الى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه الى باب البهو واذا هم قد جعلوا طعاما فوضعوه بين يدى الآلهة وقالوا اذا رجعنا وقد بركت الاصنام اذ الآلهة عليه أكلنا منه فلما نظر ابراهيم اليهم والى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء ألا تأكلون فلما لم يجيبوه قال لهم ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين وجعل يكسرهن بفاس فى يده حتى لم يبق الا الصنم الاكبر علق الفاس فى عنقه ثم خرج فذلك قوله عز وجل (فجعلهم جذاذا) أى فتاتا وقرأ الكسائى بكسر الجيم والباقون بضمها (الا كبيرا لهم) فانه لم يكسره ووضع الفاس فى عنقه وقيل ربطه بيده وكانت اثنين وسبعين صنما بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد ورصاص وخشب وحجر وكان الصنم الكبير من الذهب مكللا بالجواهر فى عينيه ياقوتتان تتقدان (لعلهم) أى هؤلاء الضلال (اليه) أى ابراهيم (يرجعون) عند الزامه بالسؤال فتقوم عليهم الحجة فلما عادوا الى أصنامهم فوجدوها على تلك الحال (قالوا من فعل هذا) الفعل الفاحش (بآلهتنا انه لمن الظالمين) حيث وضع الاهانة فى غير موضعها فان الآلهة حقها الاكرام لا الاهانة والانتقام (قالوا) أى الذين سمعوا قول ابراهيم وتالله لأكيدن أصنامكم (سمعنا فتى) أى شابا من الشباب (يذكرهم) أى يعيبهم ويسبهم (يقال له ابراهيم) أى هو الذى نظن انه صنع هذا فلما بلغ ذلك نمروذ الجبار وأشراف قومه (قالوا فأتوا به) الى بيت الاصنام (على أعين الناس) أى جهرة والناس ينظرون اليه نظرا لا خفاء معه حتى كأنه ماش على أبصارهم متمكن منها تمكن الراكب على المركوب (لعلهم يشهدون) عليه بانه الذى فعل بالآلهة هذا الفعل كرهوا ان يأخذوه بغير بينة وقيل معناه لعلهم يحضرون عذابه وما يصنع به فلما أتوا به (قالوا) منكرين عليه (أأنت فعلت هذا) الفعل الفاحش (بآلهتنا يا ابراهيم) * (تنبيه) * هنا همزتان مفتوحتان من كلمة فالقراء اجمع على تحقيق الاولى وأما الثانية فسهلها نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه وأدخل بينهما الفا قالون وأبو عمرو والباقون بتحقيقهما وعدم الادخال بينهما ثم (قال) ابراهيم متهكما بهم وملزما بالحجة (بل فعله كبيرهم) غيرة أن يعبد معه من هو دونه وتقييده بقوله (هذا) اشارة الى الذى تركه من غير كسر * ولما أخبرهم ولم يكن احد رآه حتى يشهد على فعله وكانوا اقد أعلوهم بعبادتهم ووضع الطعام لهم محل من يعقل تسبب عنه أمرهم بسؤالهم فقال

(قوله سيقولون لله) قاله هنا بلفظ لله وبعد بلفظ الله مرتين لانه فى الاول وقع فى جواب مجرور باللام فى قوله قل لمن الارض فطابقه بجره باللام بخلاف ذلك فى الاخيرين فانهما

(فاسئلوهم) أى عن الفاعل ليخبروكم به وقوله (ان كانوا ينطقون) اى على زعمكم انهم آلهة يضرون وينفعون فيه تقديم جواب الشرط أى فان قدروا على النطق أمكنت عنهم القدرة والافلا فأراهم عجزهم عن النطق وفى ضمنه أنا فعلت ذلك روى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات ثنتين منهن فى ذات الله قوله انى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هذه أختى وقال فى حديث الشفاعة ويذكر كذباته أى انه لم يتكلم بكلمات صورتها صورة الكذب وان كان حقا فى الباطن الا هذه الكلمات وقيل فى قوله انى سقيم أى سأسقم وقيل سقيم القلب أى مغتم بضلالتكم وقوله لسارة هذه أختى أى فى الدين وقوله بل فعله كبيرهم هذا روى عن الكسائى أنه كان يقف عند قوله بل فعله ويقول معناه بل فعله من فعله وقوله كبيرهم هذا مبتدأ وخبر قال البغوى وهذه التأويلات لنفى الكذب والاولى هو الاول للحديث فيه ويجوز أن يكون الله تعالى قد أذن له فى ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم كما أذن ليوسف عليه السلام حتى نادى مناديه فقال أيتها العير انكم لسارقون ولم يكونوا سرقوا وقال الرازى الحديث محمول على المعاريض فان فيها مندوحة عن الكذب أى تسمية المعاريض كذبا لما أشبهت صورتها صورته وقرأ ابن كثير والكسائى بفتح السين وترك الهمزة وكذا يفعل حمزة فى الوقف والباقون بسكون السين وبعدها همزة مفتوحة وقيل الوقف على بل فعله ثم يبتدئ بقوله كبيرهم هذا ٭ ولما اضطرهم الدليل أن يحققوا أنهم على محض الباطل (فرجعوا الى أنفسهم) بالتفكر (فقالوا) أى بعضهم لبعض (انكم أنتم الظالمون) لكونكم وضعتم العبادة فى غير موضعها الا ابراهيم فانه أصاب باهانتها (ثم نكسوا على رؤسهم) أى انقلبوا غير مستحيين عما يلزمهم من الاقرار بالسفه الى المجادلة له بعدما استقاموا بالمراجعة من قولهم نكس المريض اذا عاد الى حاله الاول شبه عودهم الى الباطل بصورة جعل أسفل الشئ مستعليا على أعلاه ثم انهم قالوا فى مجادلتهم عن شركائهم والله (لقد علمت) يا ابراهيم (ما هؤلاء) لا تحميهم ولا تبريحهم (ينطقون) أى فكيف تأمرنا بسؤالهم ٭ ولما تسبب عن قولهم هذا اقرارهم بأنهم لا فائدة فيهم اتجه لابراهيم عليه السلام الحجة عليهم (قال) منكرا عليهم موبخا لهم (أفتعبدون من دون الله) أى بدله (ما لا ينفعكم شيأ) من رزق وغيره لترجوه (ولا يضركم) شيأ اذا لم تعبدوه لتخافوه (أف) أى تبا وقبحا (لكم ولما تعبدون من دون الله) اى غيره وقرأ نافع وحفص بتنوين الفاء مكسورة وابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين والباقون بكسر الفاء من غير تنوين ٭ ولما تسبب عن فعلهم هذا وضوح انه لا يقربه عاقل أنكر عليهم ووبخهم بقوله (أفلا تعقلون) قبح صنيعكم وأنتم شيوخ قد مرت بكم الدهور وحنكتكم التجارب ٭ ولما دحضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل (قالوا) عادلين الى العناد واستعمال القوة الحسية (حرقوه) بالنار لتكونوا قد فعلتم فيه فعلا أعظم مما فعل بآلهتكم (وانصروا آلهتكم) التى جعلها جذاذا (ان كنتم فاعلين) نصرتها قال ابن عمران الذى قال هذا رجل من الاكراد قيل اسمه هيزون خسف الله تعالى به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وقيل قاله نمروذ بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام وروى ان نمروذ وقومه حين هموا باحراقه

١) وقوله فى جواب قل انما (قوله ألم تكن آياتى تتلى عليكم) ذكره بعد قوله قد كانت آياتى تتلى عليكم لان ذلك فى الدنيا عند نزول العذاب وهو يوم الحرب عند بعضهم

٣ قوله فى جواب عن اللام هكذا بالاصل وهو غير مستقيم فلعله فى جواب خال عن اللام فليتامل اه مصحح

حبسوه في بيت ثم بنوا عليه بيتا كالحظيرة بقرية يقال لها كوثى ثم جمعوا له أصلاب الحطب من أصناف الخشب مدة شهر حتى كان الرجل يمرض فيقول لئن عوفيت لاجمعن حطبا لابراهيم وكانت المرأة تغزل وتشتري بغزلها الحطب احتسابا في دينها وكان الرجل يوصي بشراء الحطب والقائه فيه فلما جمعوا ما أرادوا أشعلوا في كل ناحية من الحطب نارا فاشتعلت النار واشتدت حتى كان الطير يمر بها فيحترق من شدة وهجها وحرها وأوقدوا عليه سبعة أيام فلما أرادوا أن يلقوا ابراهيم لم يعلموا كيف يلقوه فجاءهم ابليس عليه اللعنة فعلمهم عمل المنجنيق فعملوه ثم عمدوا الى ابراهيم فقيدوه ورفعوه على رأس البنيان ووضعوه في المنجنيق مقيدا مغلولا فصاحت السماء والارض ومن فيهما من الملائكة وجميع الخلق الا الثقلين صيحة واحدة ربنا خليلك يلقى في النار وليس في أرضك من يعبدك غيره فائذن لنا في نصرته فقال عز وجل انه خليلي وليس لي خليل غيره وأنا الهه ليس له اله غيري فان استغاث بأحد منكم أودعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك وان لم يدع أحدا غيري فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بيني وبينه فلما أرادوا القاءه في النار أتاه خازن المياه فقال ان أردت أخمدت النار وأتاه خازن الرياح فقال ان شئت طيرت النار في الهواء فقال ابراهيم عليه السلام لا حاجة لي اليكم حسبي الله ونعم الوكيل وروى عن كعب الاحبار ان ابراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه في النار لا اله الا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم رموا به في المنجنيق الى النار فاستقبله جبريل فقال يا ابراهيم ألك حاجة قال اما اليك فلا فقال جبريل فاسأل ربك فقال ابراهيم عليه السلام حسبي من سؤالي علمه بحالي وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل قالها ابراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وقالها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم قال كعب الاحبار جعل كل شيء يطفئ النار عنه الا الوزغ فانه كان ينفخ في النار وعن أم شريك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الاوزاغ وقال كان ينفخ على ابراهيم * ولما أراد الله تعالى الذي له القوة جميعا سلامته منها قال تعالى (قلنا يا نار كوني) بارادتنا التي لا يتخلف عنها مراد (بردا) قال ابن عباس لو لم يقل (وسلاما) لمات ابراهيم من بردها وفي الآثار انه لم يبق يومئذ نار في الارض الا طفئت فلم ينتفع في ذلك اليوم بنار في العالم ولو لم يقل تعالى (على ابراهيم) لبقيت ذات برد أبدا والمعنى كوني ذات برد وسلام على ابراهيم فبولغ في ذلك حتى كأن ذاتها برد وسلام والمراد ابردي فيسلم منك ابراهيم أو ابردي بردا غير ضار قال السدي فأخذت الملائكة بضبعي ابراهيم فأقعدوه على الارض فاذا بعين ماء عذب وورد أحمر ونرجس قال كعب ما أحرقت النار من ابراهيم الا وثاقه قالوا وكان ابراهيم في ذلك الموضع سبعة أيام قال المنهال بن عمرو قال ابراهيم ما كنت أياما قط أنعم مني في الايام التي كنت في النار وقال ابن يسار وبعث الله تعالى ملك الظل في صورة ابراهيم فقعد فيها الى جنب ابراهيم يؤنسه قال وبعث الله تعالى جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه وقال جبريل يا ابراهيم ان ربك يقول اما علمت ان النار لا تضر أحبابي ثم نظر نمروذ وأشرف على النار من صرح له فرآه جالسا في روضة

يدرعند بعضهم وهذا في الآخرة وهو في الجحيم بدليل قوله ربنا أخرجنا منها

(سورة النور)

(قوله الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهم مائة جلدة)

والملك قاعد الى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه يا ابراهيم بالهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك وبين ما أرى هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال هل تخشى ان قمت فيها أن تضرك قال لا قال قم فاخرج منها فقام ابراهيم يمشى فيها حتى خرج منها فلما خرج اليه قال له من الرجل الذى رأيته معك فى مثل صورتك قاعدا الى جنبك قال ذاك ملك الظل أرسله الى ربى ليؤنسنى فيها فقال نمروذ انى مقرب الى الهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك حين أبيت الا عبادته وتوحيده انى ذابح له أربعة آلاف بقرة قال اذا لا يقبل الله منك ما كنت على دينك حتى تفارقه الى دينى فقال لا أستطيع ترك ملكى ولكن أذبحها له فذبحها له نمروذ ثم كف عن ابراهيم ومنعه الله تعالى منه وكان ابراهيم اذ ذاك ابن ست عشرة سنة واختاروا المعاقبة بالنار لانها أهول ما يعاقب به وافظعه ولذلك جاء فى الحديث لا يعذب بالنار الا خالقها وقيل ان الله تعالى نزع عنها طبعها الذى طبعها عليه من الحر والاحراق وابقاها على الاضاءة والاشراق والاشتعال كما كانت والله على كل شئ قدير فدفع عن ابراهيم حرها كما يدفع ذلك عن خزنة جهنم (وأرادوا به كيدا) اى مكرا فى اضراره بالنار وبعد خروجه منها (فجعلناهم) اى بما لنا من الجلال (الاخسرين) اى أخسر من كل خاسر عاد سعيهم برهانا قاطعا على انهم على الباطل وابراهيم على الحق وموجبا لزيادة درجته واستحقاقهم أشد العذاب وقد ارسل الله تعالى على نمروذ وعلى قومه البعوض فاكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت فى دماغه بعوضة فاهلكته *(فائدة)* وقع مثل هذه القصة لبعض اتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو ابو مسلم الخولانى طلبه الاسود العنسى لما ادعى النبوة فقال له اتشهد أنى رسول الله قال ما أسمع قال اتشهد أن محمدا رسول الله قال نعم فامر بنار فالقى فيها ثم وجده قائما يصلى فيها وقد صارت عليه بردا وسلاما وقدم المدينة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم فاجلسه عمر بينه وبين ابى بكر رضى الله عنهم وقال عمر الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بابراهيم خليل الله (ونجيناه ولوطا) من نمروذ وقومه من أرض العراق (الى الارض التى باركنا فيها للعالمين) وهى الشام بارك الله فيها بالخصب وكثرة الاشجار والثمار والانهار ومنها بعث أكثر الانبياء قال أبى بن كعب بارك الله فيها وسماها مباركة لان ما من ماء عذب الا وينبع أصله من تحت الصخرة التى ببيت المقدس أى يهبط من السماء الى الصخرة ثم يتفرق فى الارض قاله أبو العالية وعن قتادة ان عمر رضى الله تعالى عنه قال لكعب الاحبار ألا تتحول الى المدينة فيها مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره فقال كعب انى وجدت فى كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين ان الشام كنز الله فى أرضه وبها كنزه من عباده وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس الى مهاجر ابراهيم قال محمد بن اسحق استجاب لابراهيم رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله عز وجل به من جعل النار عليه بردا وسلاما على خوف من نمروذ وملئهم وآمن به لوط وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران بن تارح وهاران هو أخو ابراهيم وكان لهما أخ ثالث يقال له ناحور بن تارح وآمنت به أيضا سارة وهى بنت عمه وهى سارة بنت هاران الاكبر عم ابراهيم فخرج من كوثى وهى بضم الكاف ومثلثة قال ابن الاثير هى كوثى العراق وهى سرة

(ان قلت) لم قدمت المرأة فى آية حد الزنا وأخرت فى آية حد السرقة (قلت) لان الزنا انما يتولد من شهوة الوقاع وهى فى المرأة أقوى وأكثر والسرقة انما تتولد من الجسارة

السواد وبها ولد ابراهيم الخليل عليه السلام وخرج مهاجرا الى ربه ومعه لوط وسارة كما قال تعالى فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى فخرج يلتمس الفرار بدينه والامان على عبادة ربه حتى نزل حران فمكث بها ماشاء الله ثم خرج منها مهاجرا حتى قدم مصر ثم خرج من مصر الى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين وهى برية الشام ونزل لوط بالمؤتفكة وهى على مسيرة يوم وليلة من السبع فبعثه الله تعالى نبيا الى أهلها وماقرب منها فذلك قوله تعالى ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين أى كما أنجيناك أنت يا أشرف الخلق و يا أفضل أولاده وصديقك أبابكر رضى الله تعالى عنه الى طيبة التى شرفناها بك و بثثنا من أنوارها فى أرجاء الارض وأقطارها مالم نبث مثله قط و باركنا فيها للعالمين بالخلفاء الراشدين وغيرهم من العلماء والصالحين الذين انبثت خيراتهم العملية والعلمية والمالية فى جميع الاقطار ولما ولد لابراهيم عليه السلام فى حال شيخوخته وعجز امرأته مع كونها عقيما وكان ذلك دالا على الاقتدار على البعث الذى السياق كله له قال تعالى (ووهبنا له) دالا على ذلك بنون العظمة (اسحق) أى من شبه العدم وترك شرح حاله لتقدمه أى فكان ذلك دليلا على اقتدارنا على مانريد لاسيما من اعادة الخلق فى يوم الحساب ثم انه قديظن أنه لتولده بين شيخ فان وعجوز عقيم كان على حالة من الضعف لايولد لمثله معها انتفى ذلك بقوله تعالى (ويعقوب نافلة) أى ولد الاسحق زيادة على مادعابه ابراهيم عليهما السلام ثم نمى سبحانه وتعالى أولاد يعقوب وهو اسرائيل وذرياتهم الى أن ساموا النجوم عدة و باروا الجبال شدة (وكلا) من هؤلاء الاربعة وهم ابراهيم ولوط واسحق ويعقوب وعظم رتبتهم بقوله تعالى (جعلنا صالحين) أى مهيئين لطاعتهم لله تعالى لكل مايرونه أو يرادون له أو يراد منهم • ثم لما ذكر انه تعالى أعطاهم رتبة الصلاح فى أنفسهم ذكر انه تعالى أعطاهم رتبة الاصلاح لغيرهم فقال تعالى معظما لامامتهم (وجعلناهم أئمة) أى أعلاما ومقاصد يقتدى بهم فى الدين لما آتيناهم من العلم والنبوة وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية المكسورة بين الهمزة والياء ويجوز ابدالها عندهم ياء خالصة ولايدخلون بينهما شيأ وقرأ هشام بتحقيق الهمزتين وادخال ألف بينهما بخلاف عنه فى الادخال وعدمه والباقون بتحقيق الهمزتين من غير ادخال بلا خلاف (يهدون) أى يدعون الناس ويقتفاه للهداية (بامرنا) أى باذننا (وأوحينا اليهم) أيضا (فعل) أى أن يفعلوا (الخيرات) ليحثوهم عليها فيتم كمالهم بانضمام العلم الى العمل قال البقاعى ولعله تعالى عبر بالفعل دلالة على انهم امتثلوا كل مايوحى اليهم وقال الزمخشرى أصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات ثم فعل الخيرات وكذلك اقام الصلاة وايتاء الزكاة انتهى وقوله تعالى (واقام الصلوة وايتاء الزكوة) من عطف الخاص على العام تعظيما لشأنهما لان الصلاة تقرب العبد الى الحق تعالى والزكاة احسان الى الخلق قال الزجاج الاضافة فى الصلاة عوض عن تاء التأنيث يعنى فيكون من الغالب لامن القليل (وكانوا لنا) دائما جبلة وطبعة (عابدين) أى موحدين مخلصين فى العبادة ولذلك قدم الصلة • القصة الثالثة قصة لوط عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولوطا) أى وآتينا لوطا أو واذكر لوطا ثم استأنف قوله تعالى (آتيناه حكما) أى نبوة وعملا محكما بالعلم وقيل فصلا بين الخصوم (وعلما) مزينا بالعمل عما ينبغى علمه

والقوة والجبراة وهى فى الرجل أقوى وأكثر (فان قلت) لم قدم الرجل فى قوله الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة (قلت) لان تلك الآية فى النكاح والمرأة هى الاصل فيه لما مر وهنا

للانبياء (ونجيناه من القرية) أى قرية سدوم (التى كانت) قبل انجائنا له منها (تعمل) أى أهلها الاعمال (الخبائث) من اللواط والرمى بالبندق واللعب بالطيور والتضارط فى أنديتهم وغير ذلك وانما وصف القرية بصفة أهلها وأسندها اليها على حذف المضاف واقامته مقامه ويدل عليه (انهم كانوا) أى بما جبلوا عليه (قوم سوء) أى ذوى قدرة على الشر بانهماكهم فى الاعمال السيئة (فاسقين) أى خارجين من كل خير (وأدخلناه) دونهم (فى رحمتنا) أى فى الاحوال السنية والاقوال العلية والافعال الزكية التى هى سبب للرحمة العظمى ومسببة عنها ثم علل ذلك بقوله تعالى (انه من الصالحين) أى الذين سبقت لهم منا الحسنى أى لما جبلناه عليه من الخير * القصة الرابعة قصة نوح عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ونوحا) أى واذكر نوحا (اذ) أى حين (نادى) أى دعا الله تعالى على قومه بالهلاك بقوله رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ونحوه من الدعاء (من قبل) أى من قبل لوط ومن تقدمه (فاستجبنا) أى أردنا الاجابة وأوجدناها بعظمتنا (له) فى ذلك النداء ثم تسبب عن ذلك قوله تعالى (فنجيناه وأهله) أى الذين دام ثباتهم على الايمان وهم من كان معه فى السفينة (من الكرب العظيم) أى من أذى قومه ومن الغرق والكرب الغم الشديد قاله السدى وقال أبو حيان الكرب أقصى الغم والاخذ بالنفس وهو هنا الغرق عبر عنه باول أحوال ماخذ الغريق (ونصرناه) أى منعناه (من القوم) أى المتصفين بالقوة (الذين كذبوا بآياتنا) من أن يصلوا اليه بسوء وقيل من بمعنى على (انهم كانوا قوم سوء) أى لا عمل لهم الا ما يسوء (فأغرقناهم أجمعين) لاجتماع الامرين تكذيب الحق والانهماك فى الشر لم يجتمعا فى قوم الا وأهلكهم الله تعالى * القصة الخامسة قصة داود وسليمان عليهما السلام المذكورة فى قوله تعالى (وداود وسليمان) ابنه أى اذكرهما واذكر شأنهما (اذ) أى حين (يحكمان فى الحرث) الذى أنبت الزرع وهو من اطلاق اسم السبب على المسبب كالسماء على المطر والنبت قال ابن عباس وأكثر المفسرين كان ذلك كرما قد تدلت عناقيده وقال قتادة كان زرعا قال ابن الخازن وهو أشبه بالعرف (اذ نفشت) أى انتشرت ليلا بغير راع (فيه غنم القوم) فرعته قال قتادة النفش فى الليل والعمل فى النهار (وكنا لحكمهم) أى الحكمين والمتحاكمين اليهما (شاهدين) أى كان ذلك بعلمنا ومرأى منا لا يخفى علينا علمه وقال الفراء جمع الاثنين فقال لحكمهم ويريد داود وسليمان لان الاثنين جمع وهو مثل قوله تعالى فان كان له اخوة فلامه السدس وهو يريد أخوين قال ابن عباس وقتادة وذلك ان رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع ان هذا انفلتت غنمه ليلا فوقعت فى حرثى فافسدته فلم تبق منه شيئا فاعطاه داود رقاب الغنم بالحرث فخرجا فمرا على سليمان عليه السلام فقال كيف قضى بينكما فاخبراه فقال سليمان وهو ابن احدى عشرة سنة لو وليت أمرهما لقضيت بغير هذا وروى أنه قال غير هذا أرفق بالفريقين فاخبر بذلك داود فدعاه فقال كيف تقضى ويروى انه قال بحق النبوة والابوة الا ما أخبرتنى بالذى هو أرفق بالفريقين قال ادفع الغنم الى صاحب الحرث فينتفع بدرها ونسلها وصوفها ويبذر صاحب

الآية فى حكم النكاح والرجل هو الاصل فيه لانه الراغب والبادئ بالطلب بخلاف الزنا فان الامر فيه بالعكس غالبا (قوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته) كرره لاختلاف

الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه فاذا صار الحرث كهيئته دفع الى أهله وأخذ صاحب الغنم غنمه فقال داود القضاء ما قضيت كما قال تعالى (ففهمناها) أى الحكومة (سليمان) أى علمناه القضية والهمناه اياها (تنبيه) يجوز أن تكون حكومتهما بوحى الا ان حكومة داود نسخت بحكومة سليمان ويجوز أن تكون باجتهاد الا أن اجتهاد سليمان أشبه بالصواب (فان قيل) ما وجه كل واحدة من الحكومتين (أجيب) بان وجه حكومة داود ان الضرر وقع بالغنم فسلمت بجنايتها الى المجنى عليه كما قال أبو حنيفة فى العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه وعند الشافعى يبيعه فى ذلك أو يفديه ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان فى الحرث ووجه حكومة سليمان انه جعل الانتفاع بالغنم بازاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن تزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث حتى يزول الضرر والنقصان مثاله ما قال أصحاب الشافعى فيمن غصب عبدا وأبق من يده انه يضمن بالقيمة فينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من منافع العبد فاذا ظهر ترادا (فان قيل) لو وقعت هذه الواقعة فى شرعنا ما حكمها (أجيب) بان أبا حنيفة وأصحابه لا يرون فيه ضمانا بالليل أو بالنهار الا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد لقوله صلى الله عليه وسلم جرح العجماء جبار أى هدر رواه الشيخان وغيرهما والشافعى وأصحابه يوجبون الضمان بالليل اذ المعتاد ضبط الدواب ليلا ولذلك قضى النبى صلى الله عليه وسلم لما دخلت ناقة البراء حائطا وأفسدته فقال على أهل الاموال حفظها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظها بالليل ولما كان ذلك ربما أوهم شيأ فى أمر داود نفاه بقوله تعالى (وكلا) أى منهما (آتينا حكما) أى نبوة وعملا مؤسسا على حكمة العلم (وعلما) مؤيدا بصالح العمل وعن الحسن لولا هذه الآية لرأيت القضاة قد هلكوا ولكنه تعالى أثنى على سليمان عليه السلام لصوابه وعلى داود باجتهاده انتهى وهذا على الرأى الثانى وعليه أكثر المفسرين وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حكم الحاكم فاجتهد فاصاب فله أجران واذا حكم فاجتهد فاخطأ فله أجر وهل كل مجتهد مصيب أو المصيب واحد لا بعينه رأيان أظهرهما الثانى وان كان مخالفا لمفهوم الآية اذ لو كان كل مجتهد مصيبا لم يكن للتقسيم فى الحديث معنى وقوله صلى الله عليه وسلم واذا حكم فاجتهد فاخطأ فله أجر لم يرد به انه يؤجر على الخطأ بل يؤجر على اجتهاده فى طلب الحق لان اجتهاده عبادة والاثم فى الخطأ عنه موضوع *(فائدة)* من أحكام داود وسليمان عليهما السلام ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن احداهما فقالت لصاحبتها انما ذهب بابنك وقالت الاخرى انما ذهب بابنك فتحاكما الى داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان فاخبرتاه فقال ائتونى بالسكين أشقه بينكما فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى أخرجاه فى الصحيحين ثم انه تعالى ذكر لداود وسليمان بعض معجزات فمن بعض معجزات الاول ما ذكره بقوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال) مع صلابتها وعظمها (يسبحن) معه أى يقدسن الله تعالى الحكم الذى شاء لا بعلمنا الحرث والغنم تكلمه بصواب الحكم وقال ابن عباس كان يفهم تسبيح الحجر والشجر وقوله تعالى

الاجوبة فيه اذ جواب الاول محذوف تقديره لفضحكم وجواب الثانى قوله لمسكم فيما افضتم الى آخره وجواب الثالث محذوف تقديره لعجل لكم العذاب وجواب الرابع

(والطير)

(والطير) عطف على الجبال أو مفعول معه وقال وهب كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذا الطير وقال قتادة يسبحن اى يصلين معه اذا صلى وقيل كان داود اذا فتر يسمعه الله تعالى تسبيح الجبال والطير لينشط فى التسبيح ويشتاق اليه وقيل يسبحن بلسان الحال وقيل يسبح من رآها تسير معه بتسيير الله تعالى فلما حملت على التسبيح وصفت به (وكنا فاعلين) أى من شأننا الفعل لامثال هذه الافاعيل ولكل شئ تريده فلا تستكثروا علينا أمرا وان كان عندكم عجبا وقد اتفق نحو هذا لغير واحد من هذه الامة كان مطرف بن عبد الله بن الشخير اذا دخل بيته سبحت معه آنيته وأما النبى صلى الله عليه وسلم فكان الطعام يسبح بحضرته والحصى وغيره (وعلمناه صنعة لبوس) أى صنعة الدروع التى تلبس فى الحرب قال قتادة أول من صنع هذه الدروع وسردها واتخذها حلقا داود وكانت من قبل صفائح وقد ألان الله تعالى لداود الحديد فكان يعمل منه بغير نار كأنه طين قال البغوى وهو أى اللبوس فى اللغة اسم لكل ما يلبس ويستعمل فى الاسلحة كلها وهو بمعنى الملبوس كالحلوب والركوب وقوله تعالى (لكم) متعلق بعلم أو صفة للبوس وقوله تعالى (لتحصنكم من بأسكم) بدل منه بدل اشتمال باعادة الجار ومرجع الضمير يختلف باختلاف القراآت فقرأ شعبة بالنون فالضمير لله تعالى وقرأ ابن عامر وحفص بالتاء على التأنيث فالضمير للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع وقرأ الباقون بالياء التحتية فالضمير لداود أو للبوس وقوله تعالى (فهل أنتم شاكرون) أى لنا على ذلك أمر أخرجه فى صورة الاستفهام للمبالغة أو التقريع ومن بعض معجزات الثانى ما ذكره بقوله (ولسليمان) أى وسخرنا لسليمان (الريح) قال البغوى وهو هواء يتحرك وهو جسم لطيف يمتنع بلطفه من القبض عليه ويظهر للحس بحركته والريح تذكر وتؤنث (عاصفة) أى شديدة الهبوب (فان قيل) قد قال تعالى فى موضع آخر تجرى بأمره رخاء والرخاء اللين (أجيب) بأنها كانت تحت أمره ان أراد أن تشتد اشتدت وان أراد أن تلين لانت وقيل كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم فاذا مرت بكرسيه أبعدت به فى مدة يسيرة على ما قال تعالى غدوها شهر ورواحها شهر وقوله تعالى (تجرى بأمره) أى بمشيئته حال ثانية أو بدل من الاول أو حال من ضميره (الى الارض التى باركنا فيها) أى الشام وذلك أنها كانت تجرى بسليمان وأصحابه الى حيث شاء سليمان ثم يعود الى منزله بالشام قال وهب بن منبه كان سليمان عليه السلام اذا خرج الى مجلسه عكفت عليه الطير وقام اليه الجن والانس حتى يجلس على سريره وكان امرأ غزاء قلما يقعد عن الغزو ولا يسمع فى ناحية من الارض بملك الا أتاه حتى يذله فكان اذا أراد الغزو أمر بعسكره فضرب له بخشب ثم نصب له على الخشب ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب فاذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته حتى اذا استقلت به أمر الرخاء فمرت به شهرا فى روحته وشهرا فى غدوته الى حيث أراد وكانت تمر بعسكره الريح الرخاء بالمزرعة فما تحركها ولا تثير ترابها ولا تؤذى طائرا وقال مقاتل نسجت الشياطين لسليمان بساطا فرسخا فى فرسخ ذهبا فى ابريسم وكان يوضع له منبر من الذهب فى وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسى من ذهب وفضة تقعد الانبياء عليهم السلام على كراسى

قوله ما زكى منكم من أحد ابدا (قوله قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم) فان قلت ما فائدة ذكر من فى غض البصر دون حفظ الفرج (قلت) فائدته

الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح الى الرواح ومن الرواح الى الغروب وقال سعيد بن جبير كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي تجلس الانس مما يليه ثم تليهم الجن ثم تظلهم الطير ثم تحملهم الريح وقال الحسن لما شغلت الخيل نبي الله سليمان حتى فاتته صلاة العصر غضب لله فعقر الخيل فابدله الله مكانها خيرا منها واسرع وهي الريح تجري بأمره كيف يشاء فكان يغدو من ايليا فيقيل باصطخر ثم يروح منها فيكون رواحها ببابل وقال ابن زيد كان له مركب من خشب وكان فيه ألف ركن في كل ركن ألف بيت تركب معه فيه الجن والانس تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك الركن فاذا ارتفعت اتت الريح الرخاء فسارت به وبهم يقيل عند قوم بينه وبينهم شهر ولا يدري القوم الا وقد اظلهم معه الجيوش (وكنا) اى ازلا وابدا بالاحاطة العظمة (بكل شئ) اى من هذا وغيره من امره وغيره (عالمين) ومن علمنا ان ذلك لا يزيدهم الا تواضعا وكما سخرنا الريح له سخرناها للنبي صلى الله عليه وسلم ليالي الاحزاب قال حذيفة رضي الله عنه حتى كانت تقذفهم بالحجارة ما تجاوز عسكرهم فهزمهم الله تعالى بها وردوا بغيظهم لم ينالوا خيرا وأعطى صلى الله عليه وسلم أعم مما أعطى جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام فقد أعطى صلى الله عليه وسلم التصرف في العالم العلوي الذي جعل الله تعالى منه الفيض على العالم السفلي بالاختراق لطباقه باسرائه تارة وبامساك المطر لما دعا بسبع كسبع يوسف عليه السلام وبارساله اخرى كما في احاديث كثيرة واتى مع ذلك بمفاتيح خزائن الارض كلها فردها صلى الله عليه وسلم (ومن) اى وسخرنا لسليمان من (الشياطين) الذين هم اكفر شئ تمردا وعتوا (من يغوصون له) اى يدخلون في البحر فيخرجون منه الجواهر وغيرها من المنافع وذلك بانا كثفنا اجسامهم مع لطافتها لتقبل الغوص في الماء معجزة في معجزة وقد خنق نبينا صلى الله عليه وسلم العفريت الذي جاء بشهاب من نار واسر جماعة من اصحابه رضي الله تعالى عنهم عفاريت اتوا الى تمر الصدقة وامكنهم الله تعالى منهم (ويعملون عملا دون ذلك) اى سوى الغوص كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة كقوله تعالى يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل الآية (وكنا لهم حافظين) اى حتى لا يخرجوا عن امره وقال الزجاج معناه حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا وكان من عادة الشياطين اذا عملوا عملا بالنهار وفرغوا منه قبل الليل أفسدوه وخربوه وفي القصة ان سليمان كان اذا بعث شيطانا مع انسان ليعمل له عملا قال له اذا فرغ من عمله قبل الليل فاشغله بعمل آخر لئلا يفسد ما عمل ويخربه * القصة السادسة قصة ايوب عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (وايوب) اى واذكر ايوب ويبدل منه (اذ نادى ربه) قال وهب بن منبه كان ايوب عليه السلام رجلا من الروم وهو ايوب بن اموص بن رزاح بن روم بن عيصو بن اسحق بن ابراهيم وكانت امه من ولد لوط بن هاران وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا وكانت له البثنية من ارض البلقاء من اعمال حوران من ارض الشام كلها سهلها وجبلها وكان له فيها من اصناف المال كله من الابل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يكون لرجل افضل منه في العدة والكثرة وكان له خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وعبد وولد

الدلالة على ان حكم النظر أخف من حكم الفرج اذ يحل النظر الى بعض اعضاء المحارم ولا يحل شئ من فروجهن (قوله ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن) الآية

ومال

ومال ويحمل آله كل فدان أتان لكل أتان من الولد اثنان او ثلاث أو أربع أو خمس وفوق ذلك
وكان الله تعالى قد أعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء وكان برا تقيا رحيما بالمساكين يطعمهم
ويكفل الايتام والارامل ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل وكان شاكرا لانعم الله مؤديا
لحق الله تعالى قد امتنع من عدو الله ابليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغرة
والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من الدنيا وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه
رجل من اليمن يقال له اليفن ورجلان من بلده يقال لاحدهما بلدد والآخر صافر وكانوا
كهولا وكان ابليس لا يحجب عن شئ من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد حتى رفع الله
تعالى عيسى عليه السلام فحجب من أربع فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حجب عن
السموات كلها الا من استرق السمع فسمع ابليس تجاوب الملائكة بالصلاة على ايوب عليه
السلام وذلك حين ذكره الله تعالى واثنى عليه فادركه البغي والحسد فصعد سريعا حتى وقف
من السماء موقفا كان يقفه فقال الهي نظرت في امر عبدك ايوب فوجدته عبدا انعمت
عليه فشكرك وعافيته فحمدك ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شكرك
وعبادتك ولخرج من طاعتك قال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض عدو الله
ابليس حتى وقع على الارض ثم جمع عفاريت الجن ومردة الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من
القوة فاني قد سلطت على مال أيوب وهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا تصبر عليها الرجال
فقال عفريت من الشياطين أعطيت من القوة ما اذا شئت تحولت اعصارا من نار واحرقت
كل شئ آتي عليه قال له ابليس فات الابل ورعاتها فاتى الابل وقد وضعت رؤسها ورعت في
مراعيها فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الارض اعصار من نار لا يدنو منها أحد الا احترق
فاحرق الابل ورعاتها حتى أتى على آخرها ثم جاء عدو الله ابليس في صورة قيمه على قعود الى
أيوب فوجده قائما يصلي فقال يا أيوب أقبلت نار حتى غشيت ابلك فاحرقتها ومن فيها غيري
قال أيوب الحمد لله الذي أعطانيها وهو أخذها وانها مال الله أعارنيها وهو أولى بها اذا شاء
تركها واذا شاء نزعها وقديما كنت وطنت نفسي ومالي على الفناء قال ابليس فان الله ربك
أرسل عليها نارا من السماء فاحترقت فتركت الناس مبهوتين يتعجبون منها منهم من يقول
ما كان أيوب يعبد شيأ وما كان أيوب الا في غرور ومنهم من يقول لو كان اله أيوب يقدر على أن
يصنع شيأ لمنع وليه ومنهم من يقول بل هو الذي فعل ليشمت به عدوه ويفجع صديقه فقال
أيوب الحمد لله حين اعطاني وحين نزع مني عريانا خرجت من بطن أمي وعريانا أعود في التراب
وعريانا أحشر الى الله عز وجل ليس ينبغي لك أن تفرح حين أعطاك الله وتجزع حين قبض الله
على عاريته الله أولى بك وبما أعطاك ولو علم الله تعالى فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك
الارواح وصرت شهيدا ولكنه علم منك شرا فاخرجك فرجع ابليس الى أصحابه خاسئا ذليلا
فقال لهم ماذا عندكم من القوة فاني لم أكلم قلبه قال عفريت عندي من القوة ما اذا شئت صحت
صيحة لا يسمعها ذو روح الا خرجت روحه قال ابليس فات الغنم ورعاتها فانطلق حتى توسطها
وصاح صيحة فتجثمت أمواتا من عند آخرها وماتت رعاتها ثم جاء ابليس متمثلا بقهرمان الرعاة
الى أيوب وهو يصلي فقال له مثل القول الاول فرد عليه أيوب مثل الرد الاول ثم رجع ابليس

(قلت) لم ترك ذكر الاعمام والاخوال مع ان حكمهما كما استلف (قلت) تركهما كما ترك محرم الرضاع او لفهمهما من بني الاخوان وبني الاخوات بالاولى او بالمساواة.

الى أصحابه فقال ماذا عندكم من القوة فانى لم أكلم قلب أيوب فقال عفريت عندى من القوة
ما اذا شئت تحولت ريحا عاصفا تنسف كل شئ تأتى عليه قال فأت الفدادين والحرث فانطلق
حين شرع الفدادون فى الحرث والزرع فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف فنسفت كل شئ من
ذلك حتى كأنه لم يكن ثم جاء ابليس متمثلا بقهرمان الحرث الى أيوب وهو قائم يصلى فقال
له مثل قوله الاول فرد عليه أيوب مثل رده الاول وجعل ابليس يهلك أمواله مالا مالا حتى
مر على آخره كلما انتهى اليه هلاك مال من أمواله حمد الله تعالى وأحسن الثناء عليه ورضى
عنه بالقضاء ووطن نفسه بالصبر على البلاء حتى لم يبق له مال فلما رأى ابليس انه قد أفنى ماله
ولم ينجح منه بشئ صعد سريعا حتى وقف فى الموقف الذى يقف فيه وقال الهى ان أيوب يرى
انك ما متعته بولده فانت تعطيه المال فهل أنت مسلطى على ولده فانها المصيبة التى لا تقوم لها
قلوب الرجال قال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ولده فانقض عدو الله ابليس حتى جاء بنى
أيوب وهم فى قصرهم فلم يزل يزلزله بهم حتى تداعى من قواعده وجعل جدره يضرب بعضها بعضا
ويرميهم بالخشب والحجارة حتى مثل بهم كل مثلة ورفع القصر فقلبه فصاروا منكبين وانطلق
الى أيوب متمثلا بالمعلم الذى كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الوجه يسيل دمه
ودماغه فاخبره وقال لو رأيت بنيك كيف عذبوا وقلبوا فكانوا منكبين على رؤسهم
تسيل دماؤهم ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت امعاؤهم لقطع قلبك فلم يزل يقول هذا
ونحوه حتى رق قلب أيوب وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال ليت أمى
لم تلدنى فاغتنم ابليس ذلك فصعد سريعا بالذى كان من جزع أيوب مسرورا به ثم لم يلبث
أيوب ان فاء وأبصر واستغفر فصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته الى الله
عز وجل وهو أعلم فوقف ابليس خاسئا ذليلا وقال الهى انما هون على أيوب المال والولد
انه يرى انك ما متعته بنفسه فانت تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطى على جسده فقال الله
عز وجل انطلق فقد سلطتك على جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه
ولا على عقله وكان الله عز وجل أعلم به لم يسلطه عليه الا رحمة لايوب ليعظم له الثواب ويجعله
عبرة للصابرين وذكرى للعالمين فى كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به فى الصبر ورجاء الثواب فانقض
عدو الله سريعا فوجد أيوب فى مصلاه ساجدا فعجل قبل أن يرفع رأسه فأتاه من قبل وجهه
فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها سائر جسده فخرج من قرنه الى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم
ووقعت فيه حكة فحك باظفاره حتى سقطت كلها ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم
حكها بالفخار والحجارة الخشنة فلم يزل يحكها حتى بقى لحمه وتقطع وتغير وأنتن وأخرجه
أهل القرية وجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته وهى
رحمة بنت افرائيم بن يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام فكانت
تختلف اليه بما يصلحه وتلزمه ولما رأى الثلاثة من أصحابه وهم اليفن وبلدد وصافر
ما ابتلاه الله تعالى به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه فلما طال به البلاء انطلقوا
اليه فبكتوه ولاموه وقالوا له تب الى الله تعالى من الذنب الذى عوقبت عليه قال وحضر
معهم فتى حديث السن قد آمن به وصدقه فقال لهم انكم تكلمتم أيها الكهول

والجواب بانه لم يفكر
من المستثنى الاصل اشترك
هو واتباعه فى المعصية لان
من لم يشارك ابنه فيها كالم
والذال قد يوصف محرمه
عند اتيه وهو ليس بمحرم لها
فيفضى الى الفتنة ينقض بان

وانتم أحق بالكلام منى لاسنانكم ولكنكم تركتم من القول أحسن من الذى قلتم ومن الرأى أصوب من الذى رأيتم ومن الامر أجمل من الذى أتيتم وقد كان لايوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذى وصفتم فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ومن الرجل الذى عبتم واتهمتم ألم تعلموا انه أيوب نبى الله وخيرته وصفوته من أهل الارض الى يومكم هذا ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله على انه قد سخط شيأ من امره منذ ما آتاه الله ما آتاه الى يومكم هذا ولا انه نزع شيأ منه من الكرامة التى أكرمه بها ولا ان أيوب قال على الله غير الحق فى طول ما صحبتموه الى يومكم هذا فان كان البلاء هو الذى ازرى به عندكم ووضعه فى انفسكم فقد علمتم أن الله تعالى يبتلى المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين وليس بلاؤه لاولئك على سخطه عليهم ولا لهوانه لهم ولكنها كرامة وخيرة لهم ولو كان ايوب ليس من الله بهذه المنزلة الا انه أخ آخيتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحكيم أن يعذل أخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ولكنه يرحمه ويبكى معه و يستغفر له ويحزن لحزنه ويدله على أرشد أمره وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا فالله الله أيها الكهول فقد كان فى عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم و يكسر قلوبكم ألم تعلموا أن لله عبادا أسكتتهم خشيته من غير عى ولا بكم وانهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الالباء العالمون بالله ولكنهم اذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم اعظاما لله واجلالا له فاذا استفاقوا من ذلك استبقوا الى الله بالاعمال الزاكية يعدون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين وانهم لابرار برآء ومع المقصرين المفرطين وانهم لاكياس أقوياء فقال أيوب ان الله سبحانه وتعالى يزرع الحكمة بالرحمة فى قلب الصغير والكبير فمتى نبتت فى القلب يظهرها الله تعالى على اللسان وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولا طول التجربة واذا جعل الله العبد حكيما فى الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون عليه من الله تعالى نور الكرامة ثم أعرض عنهم أيوب عليه السلام يعنى الثلاثة وقال أتيتمونى غضابا رهبتم قبل أن تسترهبوا وبكيتم قبل ان تضربوا فكيف بى لو قلت تصدقوا على بأموالكم لعل الله أن يخلصنى أو قربوا قربانا لعل الله أن يتقبله ويرضى عنى وانكم قد أعجبتكم أنفسكم وظننتم انكم عوفيتم باحسانكم ولو نظرتم فيما بينكم و بين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوبا قد سترها الله تعالى بالعافية التى ألبسكم وقد كنتم فيما خلا توقروننى وأنا مسموع كلامى معروف حقى منتصف من خصمى فاصبحت اليوم وليس لى رأى ولا كلام وأنتم كنتم أشد على من مصيبتى ثم أعرض عنهم أيوب وأقبل على ربه مستغيثا به مستغفرا متضرعا اليه فقال يارب لاى شئ خلقتنى ليتنى اذ كرهتنى لم تخلقنى ياليتنى عرفت الذنب الذى أذنبت والعمل الذى عملت فصرفت وجهك الكريم عنى لو كنت أمتنى فالحقتنى بآبائى فالموت كان أجمل بى ألم أكن للغريب دارا وللمسكين قرارا ولليتيم وليا وللارملة قيما الهى أنا عبد ذليل ان أحسنت فالمن لك وان أسأت فبيدك عقوبتى جعلتنى للبلاء غرضا وللفتنة نصبا وقد وقع بى بلاء لو سلطته على جبل ضعف من حمله فكيف يحمله ضعفى فان قضاءك هو الذى أذلنى وان سلطانك هو الذى

افضاء الفتنة بأيوب ابتلاه به والتهن فقد بدل كرابو

أسقمني وأنحل جسمي ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملء فمي
فأدلي بعذري وأتكلم ببراءتي وأخاصم عن نفسي لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي ولكنه
ألقاني وتعالى عني فهو يراني ولا أراه ويسمعني ولا أسمعه فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده
أظله غمام حتى ظن أصحابه انه عذاب ثم نودي يا أيوب ان الله تعالى يقول ها أنا قد دنوت منك
ولم أزل منك قريبا قم فادل بعذرك وتكلم بحجتك وخاصم عن نفسك واشدد أزرك وقم
مقام جبار يخاصم جبارا ان استطعت فانه لا ينبغي أن يخاصمني الا جبار مثلي لقد منتك
نفسك يا أيوب أمرا ما تبلغ مثله بقوتك أين انت مني يوم خلقت الارض فوضعتها على أساسها
هل كنت معي تمد باطرافها هل أنت علمت بأي مقدار قدرتها أم على أي شيء وضعت أكنافها
أبطاعتك حمل الماء الارض أم بحكمتك كانت الارض للماء غطاء أين كنت مني يوم رفعت
السماء سقفا في الهواء لا تعلق بسبب من فوقها ولا يقلها دعم من تحتها هل تبلغ من حكمتك
ان تجري نورها أو تسير نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها اين أنت مني يوم أنبعت
الانهار وسكرت البحار أبسلطانك حبست أمواج البحار على حدودها أم قدرتك فتحت
الارحام حتى بلغت مدتها اين أنت مني يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال هل
تدري على أي شيء أرسيتها أم بأي مثقال وزنتها أم هل لك من ذراع تطيق حملها ام هل تدري
أين الماء الذي أنزلت من السماء ام هل تدري من اي شيء أنشئ السحاب ام هل تدري اين
خزانة الثلج ام اين جبال البرد أم اين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل واين خزانة الريح
وباي لغة تتكلم الاشجار من جعل العقول في أجواف الرجال ومن شق الاسماع والابصار
ومن دانت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته وقسم الارزاق بحكمته في كلام كثير
يدل على كمال قدرته ذكرها لايوب فقال أيوب عليه الصلاة والسلام كل شأني وكل لساني وكل
عقلي ورأيي وضعفت قوتي عن هذا الامر الذي تعرض لي يا الهي قد علمت ان كل الذي ذكرت
صنع يدك وتدبير حكمتك وأعظم من ذلك واعجب لو شئت عملت لا يعجز عنك شيء ولا يخفى عليك
خافية أذلني البلاء يا الهي فتكلمت فكان البلاء هو الذي أنطقني فليت الارض انشقت بي
فذهبت فيها ولم أتكلم بشيء يسخط ربي وليتني مت بغمي في أشد بلائي قبل ذلك انما تكلمت
حين تكلمت لتعذرني وسكت حين سكت لترحمني كلمة زلت مني فلم أعد قد وضعت يدي على
فمي وعضضت على لساني وألصقت بالتراب خدي أعوذ بك اليوم منك واستجير بك من
جهد البلاء فأجرني واستغيث بك من عقابك فأغثني وأستعين بك على أمري فأعني وأتوكل
عليك فاكفني واعتصم بك فاعصمني واستغفرك فاغفر لي فلن أعود لشيء تكرهه مني قال
الله تعالى يا أيوب نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي فقد غفرت لك فقال أيوب (أني) قد (مسني
الضر) بتسليطك الشيطان على في بدني وأهلي ومالي وقد طمع الآن في ديني وذلك انه زين
لامرأة أيوب ان تأمره ان يذبح لصنم فانه يبرأ ثم يتوب ففطن لذلك وحلف ليضربنها ان
برأ مائة جلدة وقال وهب لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين وروى عن أنس يرفعه ان أيوب
لبث ببلائه ثمان عشرة سنة وقال كعب سبع سنين وقال الحسن مكث أيوب مطروحا
على كناسة لبني اسرائيل سبع سنين وشهرا يختلفون في الدواء ولا يقرب به أحد غير امرأته

البعل محرم عند ابنه الآخر وليس بمحرم لها

(قوله ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا)

رحمة صبرت معه فحمد الله معه اذا حمد وأيوب مع ذلك لا يفتر عن ذكر الله تعالى والصبر على بلائه فلما غلب أيوب ابليس ولم يستطع منه شيأ اعترض امرأته فى هيئة ليست كهيئة بنى آدم فى العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء وكمال فقال لها انت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى قالت نعم قال هل تعرفيني قالت لا فقال لها انا إله الارض وأنا الذى صنعت بصاحبك لانه أطاع إله السماء وتركنى فاغضبنى ولو سجد لى سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان من مال وولد وأراها اياهم ببطن الوادى الذى لقيها فيه قال وهب وقد سمعت أنه انما قال لها لو أن صاحبك أكل طعاما ولم يسم عليه لعوفى مما به من البلاء وفى بعض الكتب ان ابليس قال لها اسجدى لى سجدة حتى أرد عليك المال والاولاد وأعافى زوجك فرجعت الى أيوب فاخبرته بما قال لها وما أراها قال لقد أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك ثم أقسم ان الله عافاه ليضربنها مائة جلدة وعند ذلك قال مسنى الضر من طمع ابليس فى سجود حرمتى ودعائه اياها واياى الى الكفر (وأنت) اى والحال انت (أرحم الراحمين) فافعل بى ما يفعل الرحمن بالمضرور وهذا تعريض بسؤال الرحمة حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح فكان ذلك ألطف فى السؤال فهو أجدر بالنوال ويحكى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت يا أمير المؤمنين مشت جرذان بيتى على العصى فقال لها ألطفت فى السؤال لا جرم لاردنها تثب وثب الفهود وملأ بيتها حبا ثم ان الله تعالى رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عليها وأراد ان يبر يمين أيوب فامره ان يأخذ ضغثا يشتمل على مائة عود صغار فيضربها به ضربة واحدة كما قال تعالى فى آية أخرى وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وروى ان ابليس اتخذ تابوتا وجعل فيه أدوية وجلس على طريق امرأة أيوب يداوى الناس فمرت به امرأة أيوب فقالت له ان لى مريضا أفتداويه قال نعم ولا أريد شيأ الا ان يقول اذا شفيته انت شفيتنى فذكرت ذلك لايوب فقال هو ابليس قد خدعك وحلف ان شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة وقال وهب وغيره كانت امرأة ايوب تعمل للناس وتجيئه بقوته فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلا يستعملها أحد فالتمست له يوما من الايام ما تطعمه فما وجدت شيأ فجزت قرنا من رأسها فباعته برغيف فاتته به فقال لها أين قرنك فاخبرته فحينئذ قال مسنى الضر وقال قوم انما قال ذلك حين قصد الدود الى قلبه ولسانه فخشى ان يمتنع عن الذكر والفكر وقال حبيب بن أبى ثابت لم يدع الله تعالى بالكشف حتى ظهرت له ثلاثة أشياء أحدها قدم عليه صديقان حين بلغهما خبره فجاآ اليه ولم تبق الا عيناه ورأيا امرا عظيما فقالا لو كان عند الله لك منزلة ما أصابك هذا والثانى ان امرأته طلبت طعاما فلم تجد ما تطعمه فباعت ذؤابتها وحملت اليه طعاما والثالث قول ابليس انى أداويه على أن يقول أنت شفيتنى وقيل ان ابليس وسوس اليه ان امرأته زنت فقطعت ذؤابتها فحينئذ عيل صبره وحلف ليضربنها مائة جلدة وقيل معناه مسنى الضر من شماتة الاعداء وقيل قال ذلك حين وقعت دودة من فخذه فردها الى موضعها وقال كلى جعلنى الله تعالى طعامك فعضته عضة زاد ألمها على جميع ما قاسى من عض الديدان (فان قيل) ان الله تعالى سماه صابرا وقد

أظهر الشكوى والجزع بقوله انى مسنى الضر ومسنى الشيطان بنصب (أجيب) بان هذا ليس بشكاية انما هو دعاء بدليل قوله تعالى (فاستجبناله) والجزع انما هو الشكوى الى الخلق وأما الشكوى الى الله تعالى فلا تكون جزعا ولا ترك صبر كما قال يعقوب عليه السلام انما أشكو بثى وحزنى الى الله وقال سفيان بن عيينة من أظهر الشكوى الى الناس وهو راض بقضاء الله تعالى لا يكون ذلك جزعا كما روى ان جبريل عليه السلام دخل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال كيف تجدك قال أجدنى مغموما أجدنى مكروبا وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله تعالى عنها حين قالت وارأساه بل أنا وارأساه وروى ان امرأة أيوب قالت له يوما لو دعوت الله فقال لها كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال استحى من الله ان أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى ثم تسبب عن الاجابة قوله تعالى (فكشفنا) اى بما لنا من العظمة (ما به من ضر) بان أمرناه ان يركض برجله فتنبع له عين من ماء كما قال تعالى اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فركض برجله فانفجرت له عين ماء فدخل فيها فاغتسل فاذهب الله تعالى كل ما كان به من البلاء بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فامره ان يضرب برجله الارض مرة أخرى ففعل فنبع عين ماء بارد فأمره فشرب منها فذهب كل داء كان بباطنه فصار كاصح ما يكون من الرجال وأجملهم فاقبلت امرأته تلتمسه فى مضجعه فلم تجده فقامت كالوالهة ثم جاءت اليه وهى لا تعرفه فقالت يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذى كان ههنا قال نعم ومالى لا أعرفه فتبسم وقال أنا هو فعرفته بضحكه فاعتنقته قال ابن عباس فوالذى نفس عبد الله بيده ما فارقته من عناقه حتى رد اليهما كل ما كان لهما كما قال تعالى (وآتيناه أهله) اى أولاده الذكور والاناث بان أحيوا له وكل من الصنفين ثلاث أو سبع (ومثلهم معهم) اى من زوجته رحمة وزيد فى شبابها هذا ما دل عليه أكثر المفسرين وقيل آتاه الله تعالى المثل من نسل ماله وولده الذى رده اليه اى فولد له من ولده نوافل وقال وهب كان له سبع بنات وثلاثة بنين وروى الضحاك عن ابن عباس رد الى امرأته شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكرا وقال قوم آتى الله تعالى أيوب فى الدنيا مثل أهله الذين هلكوا فاما الذين هلكوا فانهم لم يردوا عليه فى الدنيا وقال عكرمة قيل لايوب ان أهلك لك فى الآخرة وان شئت عجلناهم لك فى الدنيا وان شئت كانوا لك فى الآخرة وآتيناك مثلهم فى الدنيا فقال يكونون لى فى الآخرة وأوتى مثلهم فى الدنيا فعلى هذا يكون معنى الآية وآتيناه أهله فى الآخرة ومثلهم معهم فى الدنيا وروى عن أنس يرفعه كان لايوب أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين فافرغت احداهما على أندر القمح الذهب وأفرغت الاخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض وروى ان الله تعالى بعث اليه ملكا فقال ان ربك يقرئك السلام بصبرك فاخرج الى أندرك فخرج اليه فارسل عليه جرادا من ذهب قيل انه لما اغتسل وخرج الدود منه جعل الله تعالى له أجنحة فطارت فجعلها الله تعالى جرادا من ذهب وأمطرت عليه فطارت واحدة فاتبعها وردها الى أندره فقال له الملك اما يكفيك ما فى أندرك فقال هذا بركة من بركات ربى ولا أشبع من بركته وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينا أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من

(ان قلت) كيف قال ذلك مع انا كرامهم عن على الزنا

ذهب يغتسل أيوب يحثي في ثوبه فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى قال بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك وقوله تعالى (رحمة) مفعول له أي نعمة عظيمة ونظمها بقوله تعالى (من عندنا) بحيث لا يشك من ينظر ذلك أنا ما فعلناه إلا رحمة منا له وإن غيرنا لا يقدر على ذلك (وذكرى) أي عظة عظيمة (للعابدين) أي كلهم ليتأسوا به فيصبروا إذا ابتلوا ولا يظنوا أن ذلك إنما نزل بهم لهوانهم ويشكروا إذا شابوا كما أثيب وقيل لرحمتنا العابدين فإنا نذكرهم بالإحسان ولا ننساهم * القصة السابعة قصة إسمعيل وإدريس وذي الكفل المذكورة في قوله تعالى (وإسمعيل) أي واذكر إسمعيل بن إبراهيم عليهما السلام الذي حفرنا له من الماء بواسطة الروح الأمين ما عاش به صغيرا بعدما كان هالكا لا محالة ثم جعلناه طعام طعم وشفاء سقم دائما وصبيناه وهو كبير من الذبح حين رأى أبوه في المنام أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء وحي وفديناه بذبح عظيم (و) اذكر (إدريس) أي ابن شيث بن آدم عليهم السلام الذي أحييناه بعد موته ورفعناه مكانا عليا وهو أول نبي بعث من بني آدم عليه السلام وتقدمت قصته في سورة مريم (و) اذكر (ذا الكفل) سمي بذلك قال عطاء إن نبيا من أنبياء بني إسرائيل أوحى الله تعالى إليه إني أريد أن أقبض روحك فاعرض ملكك على بني إسرائيل لمن تكفل لك أن يصلي بالليل لا يفتر ويصوم بالنهار لا يفطر ويقضي بين الناس ولا يغضب فادفع ملكك إليه ففعل ذلك فقام شاب فقال أنا أتكفل لك بهذا فتكفل ووفى به فشكر الله له ونبأه فسمي ذا الكفل وقال مجاهد لما كبر اليسع قال لو أني استخلفت رجلا من الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل قال فجمع الناس فقال من يتقبل مني ثلاثا أستخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب فقام رجل فقال أنا فاستخلفه فأتاه إبليس في صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام بالليل والنهار إلا تلك النومة فدق الباب فقال من هذا فقال شيخ كبير مظلوم فقام ففتح الباب فقال إن بيني وبين قومي خصومة وإنهم ظلموني وفعلوا ما فعلوا وجعل يطول حتى ذهبت القائلة فقال إذا رحت فأتني فإني آخذ حقك فانطلق وراح فكان في مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه فلم يجده فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلم يره فلما رجع إلى القائلة وأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال من أنت فقال الشيخ المظلوم ففتح له وقال ألم أقل لك إذا قعدت فأتني فقال إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك وإذا قمت جحدوني قال فانطلق فإذا جلست فأتني وفاتته القائلة فلما جلس جعل ينظر فلا يراه وشق عليه النعاس فلما كان اليوم الثالث قال لبعض أهله لا تدعوا هذا الرجل يقرب من هذا الباب حتى أنام فإنه قد شق علي النعاس فلما كانت تلك الساعة جاء فلم يأذن له الرجل فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها فإذا هو في البيت يدق عليه الباب من داخل فاستيقظ فقال يا فلان ألم آمرك قال أما من قبلي فلم تؤت فانظر من أين أتيت فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه وإذا بالرجل معه في البيت فقال أتنام والخصوم ببابك فقال أعدو الله قال نعم أعييتني ففعلت ما ترى لأغضبك فعصمك الله تعالى فسمي ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به وقيل إن إبليس جاءه وقال إن لي غريما يمطلني فأحب أن تقوم معي وتستوفي حقي منه فانطلق معه حتى

حرام وإن لم يردن التحصن
الشرط هنا
(قات)

اذا كان فى السوق خلاه وذهب وروى انه اعتذر اليه وقال صاحبى هرب وقيل انذا الكفل رجل كفل ان يصلى كل ليلة مائة ركعة الى أن يقبضه الله تعالى فوفى به واختلفوا فى انه هل كان نبيا فقال الحسن كان نبيا وعن ابن عباس انه الياس وقيل هو زكريا وقيل هو يوشع بن نون وقال أبو موسى لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا ولما قرن الله تعالى بين هؤلاء الثلاثة استأنف مدحهم بقوله تعالى (كل) اى كل واحد منهم (من الصابرين) على ما ابتليناه به فآتيناهم ثواب الصابرين (وادخلناهم فى رحمتنا) اى فعلنا بهم من الاحسان ما يفعله الراحم من يرحمه على وجه عمهم من جميع جهاتهم فكانت ظرفا لهم ثم علل ذلك بقوله تعالى (انهم من الصالحين) اى لكل ما يرضاه تعالى منهم يعنى أنهم جبلوا جبلة خير فعملوا على مقتضى ذلك فكانوا من الكاملين فى الصلاح وهم الانبياء لان صلاحهم معصوم عن كدر الفساد * القصة الثامنة قصة يونس عليه الصلاة والسلام المذكورة فى قوله تعالى (وذا النون) اى واذكر صاحب الحوت وهو يونس بن متى ويبدل منه (اذ ذهب مغاضبا) واختلفوا فى معنى ذلك فقال الضحاك مغاضبا لقومه وهو رواية العوفى وغيره عن ابن عباس قال كان قوم يونس يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف فاوحى الله تعالى ٣ الى شعيب النبى عليه السلام ان سر الى حزقيل الملك وقل له يوجه نبيا قويا الى هؤلاء فانى القى فى قلوبهم الرعب حتى يرسلوا معه بنى اسرائيل فقال له الملك فمن ترى وكان فى مملكته خمسة أنبياء فقال يونس فانه قوى أمين فدعا الملك يونس وأمره ان يخرج فقال يونس هل امرك الله باخراجى قال لا قال فهل سمانى لك قال لا قال فههنا أنبياء غيرى اقوياء فالحوا عليه فخرج من بينهم مغاضبا للنبى والملك ولقومه فاتى بحر الروم فركبه وقال عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وجماعة ذهب عن قومه مغاضبا لربه اذ كشف عن قومه العذاب بعدما وعدهم به وكره ان يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما وعدهم واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذى رفع به العذاب عنهم وكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده وان يسمى كذابا لا كراهية لحكم الله تعالى وفى بعض الاخبار انه كان من عادة قومه ان يقتلوا من جرب عليه الكذب فخشى ان يقتلوه لما لم يأتهم العذاب للميعاد فغضب والمغاضبة ههنا من المفاعلة التى تكون من واحد كالمسافرة والمعاقبة فمعنى قوله مغاضبا اى غضبانا وقال الحسن انما غاضب ربه من أجل انه امره بالمسير الى قوم لينذرهم بأسه ويدعوهم اليه فسأل ربه ان ينظره ليتأهب فقيل له ان الامر أسرع من ذلك حتى سأله ان ينظره الى ان يأخذ نعلا يلبسها فلم ينظره وكان فى خلقه ضيق فذهب مغاضبا وعن ابن عباس قال أتى جبريل يونس فقال انطلق الى أهل نينوى فانذرهم قال التمس دابة قال الامر اعجل من ذلك فغضب فانطلق الى السفينة وقال وهب ان يونس كان عبدا صالحا وكان فى خلقه ضيق فلما حمل عليه أثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل فقذفها بين يديه وخرج هاربا فلذلك أخرجه الله تعالى من أولى العزم فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل وقال ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم (فظن ان لن نقدر عليه) اى لن نقضى عليه بالعقوبة قاله مجاهد وقتادة والضحاك وقال عطاء وكثير من العلماء معناه فظن ان لن نضيق عليه الحبس من قوله تعالى الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده

لامنه قوم له لخروجه مخرج الغالب من أن اكراههن

٣ قوله شعيب هكذا بالاصول ولعله شعياء اذ هو الذى كان فى عهد حزقيل ملك اه مصححه

ويقدر

ويقدر وعن ابن عباس انه دخل على معاوية فقال لقد ضربتني امواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم اجد لنفسي خلاصا الا بك قال وما هي يا معاوية فقرأ هذه الآية فقال او يظن نبي الله ان لن يقدر عليه قال هذا من القدر الذي معناه الضيق لا من القدرة وقال ابن زيد هو استفهام معناه أفظن انه يعجز ربه فلا يقدر عليه (فنادى) اى فاقتضت حكمتنا ان عاتبناه حتى يسلم فالقى نفسه فى البحر فالتقمه الحوت فمكث فيه أربعين من بين يوم وليلة وقال عطاء سبعة ايام وقيل ان الحوت ذهب به مسيرة ستة آلاف سنة وقيل بلغ به تخوم الارض السابعة ومعناه ان يكون له طعاما فنادى (فى الظلمات) ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت وقيل فى الظلمة الشديدة المتكاثفة فى بطن الحوت كقوله تعالى ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات وقوله يخرجهم من النور الى الظلمات وقيل ابتلع حوته حوت اكبر منه فحصل فى ظلمتى بطن الحوتين وظلمة البحر (ان لا اله الا أنت) ولما نزهه عن الشريك عمم فقال تعالى (سبحانك) اى تنزهت عن كل نقص فلا يقدر على الانجاء مما انا فيه الا انت ثم افصح بطلب الخلاص بقوله ناسبا الى نفسه من النقص ما نزه الله عن مثله (انى كنت من الظالمين) اى فى خروجى من بين قومى قبل الاذن فاعف عنى كما هى سيرة القادرين روى عن ابى هريرة مرفوعا اوحى الله تعالى الى الحوت ان خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فاخذه ثم هوى به الى مسكنه فى البحر فلما انتهى به الى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال فى نفسه ما هذا فاوحى الله تعالى اليه ان هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح هو فى بطن الحوت فسمع الملائكة تسبيحه فقالوا يا ربنا انسمع صوتا ضعيفا بارض غريبة وفى رواية صوتا معروفا من مكان مجهول فقال ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فقالوا العبد الصالح الذى كان يصعد اليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا فيه عند ذلك فامر الحوت فقذفه فى الساحل كما قال تعالى فنبذناه بالعراء وهو سقيم فذلك قوله تعالى (فاستجبنا له) اى اجبناه (ونجيناه من الغم) اى من تلك الظلمات بتلك الكلمات (وكذلك) اى وكما نجيناه (ننجى المؤمنين) من كربهم اذا استغاثوا بنا داعين قال الرازى فى اللوامع وشرط كل من يلتجئ الى الله ان يبدأ بالتوحيد ثم بعده بالتسبيح والثناء ثم بالاعتراف والاستغفار والاعتذار وهذا شرط كل داع اهـ وعن النبى صلى الله عليه وسلم ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له وعن الحسن ما نجاه والله الا اقراره على نفسه بالظلم وقرأ ابن عامر وابو بكر بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم على ان اصله ننجى حذفت النون الثانية كما حذفت التاء الثانية فى تظاهرون وهى وان كانت فاء فحذفها اوقع من حذف حرف المضارعة الذى لمعنى وقيل هو ماض مجهول اسند الى ضمير المصدر وهو النجاء وقرأ الباقون بنونين الثانية مخففة عند الجيم • (تنبيه) • اختلفوا فى متى كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس كانت بعد ان أخرجه الله تعالى من بطن الحوت بدليل قوله تعالى فى سورة والصافات فنبذناه بالعراء ثم ذكر بعده وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون وقال آخرون انها كانت من قبل بدليل قوله تعالى وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون • القصة التاسعة قصة زكريا

انما يكون مع ارادتهن التعمن ولوروده على سبب

عليه الصلاة والسلام المذكورة في قوله تعالى (وزكريا) أي واذكر زكريا ويبدل منه (اذ نادى
ربه) نداء الحبيب القريب فقال (رب) باسقاط أداة البعد (لا تذرني فردا) أي وحيدا من غير
ولد يرثني ما آتيتني من الحكمة (وانت) اي والحال انك (خير الوارثين) اي الباقي بعد
فناء خلقك وكثيرا ما تمنع ارث بعض عبيدك عبيدا آخرين فات الحقيق بان تفعل في ارثي
من العلم والحكمة ما احب فتهب لي ولدا تمن علي به (فاستجبنا له) بعظمتنا وان كان في حد من
السن لا حراك به معه وزوجه في حال من العقم لا يرجى معه حبلها فكيف وقد جاوزت سن
اليأس ولذلك عبر بما يدل على العظمة فقال تعالى (ووهبنا له يحيى) ولدا وارثا نبيا حكيما اعظم ما
(واصلحنا له) خاصة من بين اهل ذلك الزمان (زوجه) اى جعلناها صالحة لكل خير خاصة له
فاصلحناها للولادة بعد عقمها واصلحناها لزكريا بعد ان كانت سيئة الغضب سيئة الخلق
فاصلحناها له ورزقناها حسن الخلق (انهم) اى الانبياء الذين سماهم الله في هذه السورة وقيل
زكريا وزوجه ويحيى (كانوا) اى جبلة وطبعا (يسارعون في الخيرات) اى الطاعات بالغون
في الاسراع بها مبالغة من يسابق آخر ودل على عظيم افعالهم بقوله تعالى (ويدعوننا)
مستحضرين لجلالنا وعظمتنا وكمالنا (رغبا) اى طمعا في رحمتنا (ورهبا) اى خوفا من عذابنا
(وكانوا) اى جبلة وطبعا (لنا) خاصة (خاشعين) اى خائفين خوفا عظيما يحملهم على الخضوع
والانكسار قال مجاهد الخشوع هو الخوف اللازم للقلب وقيل متواضعين وسئل الاعمش
عن هذه الآية فقال اما انى سألت ابراهيم فقال الا تدرى قلت افدني قال بينه وبين الله اذا
ارخى ستره عليه واغلق بابه فليرا الله منه خيرا لعلك ترى انه يأكل خشنا ويلبس خشنا ويطأطئ
رأسه * القصة العاشرة قصة مريم وابنها عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (والتي) اى
واذكر مريم التي (احصنت فرجها) اى حفظته من الحلال والحرام حفظا يحق له ان يذكر
ويتحدث به كما قال تعالى حكاية عنها ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا لان ذلك غاية في العفة
والصيانة والتخلي عن الملاذ الى الانقطاع الى الله تعالى بالعبادة فتم ما جمعت مع ذلك من الامانة
والاجتهاد في متانة الديانة والصحيح انها بنت بتية (فنفخنا فيها من روحنا) اى امرنا جبريل
حتى نفخ في جيب درعها فاحدثنا بذلك النفخ المسيح في بطنها واضاف الروح اليه تعالى
تشريفا لعيسى عليه السلام كبيت الله وناقة الله * ثم بين تعالى ما خص مريم وعيسى من
الآيات فقال تعالى (وجعلناها وابنها) اى قصتهما وحالهما ولذلك وحد قوله (آية للعالمين)
من الجن والانس والملائكة وان من تأمل حالهما تحقق كمال قدرة الله تعالى (فان قيل) هلا
قال تعالى آيتين كما قال تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين (اجيب) بما تقدم وبان الآية كانت
فيهما واحدة وهي انها اتت به من غير فحل وههنا آخر القصص * ولما دل ما مضى من قصص
هؤلاء الانبياء عليهم السلام انهم كلهم متفقون على التوحيد الذي هو اصل الدين قال تعالى
(ان هذه) اى ملة الاسلام (امتكم) اى دينكم ايها المخاطبون اى يجب ان تكونوا عليها حال
كونها (امة) قال البغوي واصل الامة الجماعة التي هي على مقصد واحد اه فجعل الشريعة
امة لاجتماع اهلها على مقصد واحد ثم أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله تعالى (واحدة)
فابطل ما سوى الاسلام من الاديان (وانا ربكم) أي المحسن اليكم لا غيري في كل زمان فاتقون

وهو ان الجاهلية كانوا

لا أذنبه على طول الدهر ولا يشغلني شأن عن شأن (فاعبدون) دون غيري فانه لا كفء لي • ثم ان بعضهم خالف الامر بالاجتماع كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله تعالى (وتقطعوا) اى بعض المخاطبين (أمرهم بينهم) اى تفرقوا أمر دينهم مختلفين فيه وهم طوائف اليهود والنصارى قال الكلبي فرقوا دينهم بينهم يلعن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض •(تنبيه)• الاصل وتقطعتم الا ان الكلام صرف الى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه الى آخرين ويقبح عليهم فعلهم عندهم ويقول لهم ألا ترون الى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله تعالى والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا كما يتوزع الجماعة الشىء ويقتسمونه بينهم فيصير لهذا نصيب ولذاك نصيب تمثيلا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقا وأحزابا شتى ثم توعدهم بقوله تعالى (كل) اى من هذه الفرق وان بالغ فى التمرد (الينا) يوم القيامة (راجعون) فنحكم بينهم فيتسبب عن ذلك أنا نجازيهم اقامة للعدل فنعطى كلا من المحق التابع لاصفيائنا والمبطل المائل الى الشياطين أعدائنا ما يستحقه وذلك هو معنى قوله تعالى فارقا بين المحسن والمسىء تحقيقا للعدل وتشويقا الى الفضل (فمن يعمل) اى منهم الآن (من الصالحات وهو) اى والحال انه (مؤمن) اى يأتى بعمله على الاساس الصحيح (فلا كفران) اى لا جحود (لسعيه) بل يشكر ويثاب عليه •(تنبيه)• قوله تعالى فلا كفران لنفى الجنس ليكون أبلغ من ان يقول فلا نكفر سعيه (وانا له) اى لسعيه (كاتبون) اى مثبتون فى صحيفة عمله وما أثبتناه فهو غير ضائع فلا يفقد منه شيأ قل أو جل ومن المعلوم ان قسيمه وهو من يعمل من السيآت وهو كافر فلا نقيم لهم وزنا ومن يعمل منها وهو مؤمن فهو تحت مشيئتنا قال البقاعى ولعله حذف هذين القسمين ترغيبا فى الايمان • ولما كان هذا غير صريح فى ان هذا الرجوع بعد الموت بينه بقوله تعالى (وحرام) اى ممنوع (على قرية) اى أهلها (أهلكناها) اى بالموت (أنهم لا يرجعون) اى الينا بان يذهبوا تحت التراب باطلا من غير احياء بل الينا رجوعهم وجمعوا فحبسناهم فى البرزخ منعمين أو معذبين نعيما أو عذابا دون النعيم والعذاب الاكبر •(تنبيه)• ما قدرناه فى الآية هو ما جرى عليه البقاعى والذى قدره الزمخشرى ان معنى أهلكناها عزمنا على اهلاكها أو قدرنا اهلاكها ومعنى الرجوع الرجوع من الكفر الى الاسلام والانابة فتكون لا مزيدة والذى قدره الجلال المحلى ان لا زائدة اى يمتنع رجوعهم الى الدنيا فيكون الاهلاك بالموت وهذا قريب مما قاله ابن عباس فانه قال وحرام على قرية أهلكناها ان يرجعوا بعد الهلاك فجعل لا زائدة قال البغوى وقال آخرون الحرام بمعنى الواجب فعلى هذا يكون لا ثابتا ومعناه واجب على أهل قرية أهلكناهم اى حكمنا بهلاكهم ان لا تتقبل أعمالهم لانهم لا يرجعون اى لا يتوبون والدليل على هذا المعنى انه تعالى قال فى الآية التى قبلها ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه أى يتقبل عمله ثم ذكر هذه الآية عقبه وبين ان الكافر لا يتقبل عمله انتهى والذى قدره البيضاوى قريب مما قدره الزمخشرى وكل هذه التقادير صحيحة لكن الاول أظهر وقرأ شعبة وحمزة والكسائى بكسر الحاء وسكون الراء والباقون بفتح الحاء والراء وألف بعد الراء قال البغوى وهما لغتان مثل حل وحلال وقوله تعالى (حتى اذا فتحت يأجوج

يكرهون اماءهم على الزنا مع ارادتهن التحصن

وماجوج) متعلق كما قال الزمخشري بحرام وحتى غاية له لان امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة وهي حتى التي يحكى بعدها الكلام أي فهي الابتدائية لا الجارة ولا العاطفة والمحكي هو الجملة الشرطية وقرأ ابن عامر بتشديد التاء بعد الفاء والباقون بالتخفيف ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان اسم قبيلتين من جنس الانس ويقدر قبله مضاف أي سدهما وذلك قرب الساعة يقال الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج وقرأهما عاصم بهمزة ساكنة والباقون بالالف ثم عبر عن كثرتهم التي لا يعلمها الا هو سبحانه وتعالى بقوله تعالى (وهم) أي والحال أنهم (من كل حدب) أي نشز عال من الارض (ينسلون) أي يسرعون من النسلان وهو تقارب الخطا مع السرعة كمشي الذئب وفي العبارة ايماء الى أن الارض كرة وقيل الضمير راجع الى الناس المسوقين الى المحشر روى عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر الساعة فقال صلى الله عليه وسلم ما تتذاكرون قلنا نتذاكر الساعة قال انها لن تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدجال والدخان والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم عليه السلام ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم (واقترب الوعد الحق) أي يوم القيامة قال حذيفة لو أن رجلا اقتنى فلوا بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة (فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) قال الكلبي شخصت أبصار الكفار فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم * (تنبيه) * فاذا هي اذا للمفاجأة وهي تقع في المجازاة سادة مسد الفاء كقوله تعالى اذا هم يقنطون فاذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل اذا هي شاخصة أو فهي شاخصة كان سديدا قال سيبويه والضمير للقصة بمعنى فاذا القصة شاخصة يعني القصة ان أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك وقال الزمخشري هي ضمير مبهم توضحه الابصار وتفسره كما فسر الذين ظلموا وأسروا النجوى وقوله (ياويلنا) اي هلاكنا متعلق بمحذوف تقديره يقولون ياويلنا ويقولون في موضع الحال من الذين كفروا والتنبيه (قد كنا) اي في الدنيا (في غفلة من هذا) اي اليوم حيث كذبنا رسلنا انه غير كائن ثم أضربوا عن الغفلة فقالوا (بل كنا ظالمين) أنفسنا بعدم اعتقاده ووضعنا الشيء في غير موضعه حيث أعرضنا عن تأمل دلائله والنظر في مخايله وكذبنا الرسل وعبدنا الاوثان وقوله تعالى (انكم) خطاب لاهل مكة وأكده لانكارهم مضمون الخبر (وما تعبدون من دون الله) اي غيره من الاوثان (حصب جهنم) اي وقودها وهو ما يرمى به اليها وتهيج به من حصبه يحصبه اذا رماه بالحصب والحصب في لغة أهل اليمن الحطب وقال عكرمة هو الحطب بالحبشية قال الضحاك يعني يرمون بهم في النار كما يرمى بالحصب وقوله تعالى (أنتم لها واردون) اي داخلون استئناف أو بدل من حصب جهنم واللام معوضة من على للاختصاص والدلالة على ان ورودهم لاجلها (لو كان هؤلاء) اي الاوثان (آلهة) اي كما زعمتم (ما وردوها) اي ما دخل الاوثان وعابدوها النار وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية ياء خالصة في الوصل بعد تحقيق الاولى والباقون

بتحقيقهما

قوله أو ان بمعنى إذ كما في قوله تعالى وذروا ما بقي من الربا

بتصفيقهما (وكل) اى من العابدين والمعبودين (فيها) اى فى جهنم (خالدون) لا انفكاك لهم عنها بل يحمى بكل منهم فيها على الآخر (فان قيل) لم قرنوا بآلهتهم (أجيب) بانهم لا يزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر الى وجه العدو باب من العذاب لانهم قدروا انهم يستشفعون بهم فى الآخرة وينتفعون بشفاعتهم فاذا صادفوا الامر على عكس ما قدروا لم يكن شئ أبغض اليهم منهم (فان قيل) اذا عنيت بما تعبدون الاوثان فما معنى قوله تعالى (لهم فيها زفير) اى تنفس عظيم على غاية من الشدة والمدة تكاد تخرج معه النفس (أجيب) بانهم اذا كانوا هم وأوثانهم فى قرن واحد جاز أن يقال لهم زفير وان لم يكن الزافرون الا هم دون الاوثان للتغليب ولعدم الالباس (وهم فيها لا يسمعون) شيأ لشدة غليانها او قال ابن مسعود فى هذه الآية اذا بقى فى النار من يخلد فيها جعلوا فى توابيت من نار ثم جعلت تلك التوابيت فى توابيت أخرى عليها مسامير من نار فلا يسمعون شيأ ولا يرى احد منهم ان أحدا يعذب فى النار غيره وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش فى الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فجلس اليهم فعرض له النضر ابن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ثم تلا عليهم انكم وما تعبدون من دون الله الآية فاقبل عبد الله بن الزبعرى السلمى فرآهم يتهامسون فقال فيم خوضكم فاخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله أما والله لو وجدته لخصمته فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن الزبعرى أأنت قلت ذلك قال نعم قال قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة فقال صلى الله عليه وسلم بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك فانزل الله تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) اى الحكم بالموعدة البالغة فى الحسن فى الازل ومنهم من ذكروا أصل باحد منهم الكفار قاماروه أم لا (أولئك) اى العالو الرتبة (عنها) اى جهنم (مبعدون) برحمة الله تعالى لانهم أحسنوا فى العبادة واتقوا وهل جزاء الاحسان الا الاحسان وفى رواية عن ابن عباس ان ابن الزبعرى لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم ذلك سكت ولم يجب فضحك القوم فنزل قوله تعالى ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ونزل فى عيسى والملائكة ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية وقد أسلم ابن الزبعرى بعد ذلك رضى الله تعالى عنه ومدح النبى صلى الله عليه وسلم وادعى جماعة ان المراد من الآية الاصنام لان الله تعالى قال وما تعبدون من دون الله ولو أراد الملائكة والناس لقال ومن تعبدون يروى ان عليا رضى الله تعالى عنه قرأ هذه الآية ثم قال أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وابن الجراح ثم اقيمت الصلاة فقام يجر رداءه وهو يقول (لا يسمعون حسيسها) اى حركتها البالغة وصوتها الشديدة كيف يعادونه لان الحس مطلق الصوت أو الصوت الخفى كما قاله البغوى فاذا زادت حروفه زاد معناه فذكر ذلك بدلا من مبعدون أو حال من ضميره للمبالغة فى ابعادهم عنها (وهم) اى الذين سبقت لهم منا الحسنى (فى ما اشتهت أنفسهم) فى الجنة كما قال تعالى وفيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين والشهوة

ان كنتم مؤمنين وقوله
وانتم الاعلون ان كنتم

طلب النفس اللذة (خالدون) اى دائماً أبداً فى غاية التنعم وتقديم الظرف للإختصاص والاهتمام به ﴿فائدة﴾ هنا مقطوعة من ما ولما كان مع ذلك أن سرورهم ليس له زوال أكده بقوله تعالى (لا يحزنهم الفزع الاكبر) قال الحسن هو حين يؤمر بالعبد الى النار وقال ابن عباس هو النفخة الاخيرة لقوله تعالى و يوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض وقال ابن جريج هو حين يذبح الموت وينادى يا أهل النار خلود بلا موت وقال سعيد بن جبير هو أن تطبق جهنم وذلك بعد أن يخرج الله تعالى منها من يريد أن يخرجه (وتتلقاهم) أى تستقبلهم (الملائكة) قال البغوى على أبواب الجنة يهنئونهم وقال الجلال المحلى عند خروجهم من القبور ولا مانع أنها تستقبلهم فى المحلين و يقولون لهم (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) أى هذا وقت ثوابكم الذى وعدكم ربكم به فى الدنيا فابشروا فيه بجميع ما يسركم ولما كانت هذه الافعال على غاية من الاهوال تتشوف بها النفس الى معرفة اليوم الذى تكون فيه قال تعالى (يوم) أى تكون هذه الاشياء يوم (نطوى السماء) طيا فتكون كأنها لم تكن ثم صور طيها بما يعرفونه فقال مشبها للمصدر الذى دل عليه الفعل (كطى السجل) واختلف فى السجل فقال بعضهم هو الكاتب الذى له الطى والقدرة على مكتوبه (للكتاب) أى القرطاس الذى يكتبه و يرسله الى أحد وقال السدى هو ملك يكتب أعمال العباد وقيل كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم والكتاب على هذه الاقوال اسم للصحيفة المكتوب فيها وقال ابن عباس ومجاهد والاكثرون السجل الصحيفة والمعنى كطى الصحيفة على مكتوبها والطى هو الدرج وهو ضد النشر وانما وقع هذا الاختلاف لان السجل يطلق على الكتاب وعلى الكاتب قاله فى القاموس وقرأ حفص وحمزة والكسائى بضم الكاف والتاء على الجمع والباقون بكسر الكاف وفتح التاء وبين الكاف والتاء ألف على الافراد فقراءة الافراد لمقابلة لفظ السماء والجمع للدلالة على ان المراد الجنس فجميع السموات تطوى روى عن ابن عباس انه قال يطوى الله تعالى السموات السبع بما فيها من الخليقة والارضين السبع بما فيها من الخليقة يطوى ذلك كله بيمينه اى بقدرته حتى يكون ذلك بمنزلة خردلة وروى عن ابن عباس انه قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس انكم محشورون الى الله حفاة عراة غرلا اى غير مختونين (كما بدأنا أول خلق نعيده) اى كما بدأناهم فى بطون أمهاتهم عراة غرلا غير مختونين نعيدهم يوم القيامة نظيره قوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة (وعدا) وأكد ذلك بقوله تعالى (علينا) و زاده بقوله تعالى (انا كنا) اى أزلا وأبدا على حالة لا تحول (فاعلين) اى شأننا ان نفعل ما نريد لا كلفة علينا فى شئ من ذلك ثم انه تعالى حقق ذلك بقوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر) قال سعيد بن جبير ومجاهد الزبور جميع كتب الله تعالى المنزلة والذكر أم الكتاب الذى عنده ومعناه من بعد ما كتب ذكره فى اللوح المحفوظ وقال ابن عباس والضحاك الزبور التوراة والذكر الكتب المنزلة من بعد التوراة ³ وقال الشعبى الزبور كتاب داود والذكر التوراة وقيل الزبور كتاب داود عليه السلام والذكر القرآن و بعد بمعنى قبل كقوله تعالى وكان وراءهم ملك أى أمامهم وقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها اى قبله وقرأ حمزة بضم

قوله ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) قاله مؤمنين (

³ قوله والذكر الخ هذا ساقط فى بعض النسخ ويحتاج فيه الى أن بعد بمعنى قبل كالى الآتى فتحرر اهـ مصححه

الزاى والباقون بفتحها (ان الارض) اى أرض الجنة (يرثها عبادى) وحقق ذلك ما أفاده اضافتهم اليه بقوله تعالى (الصالحون) اى المتحققون باخلاق أهل الذكر المقبلون على ربهم الموحدون له المشفقون من الساعة الراهبون من سطوته الراغبون فى رحمته الخاشعون له فهذا عام فى كل صالح وقال مجاهد هى أمة محمد صلى الله عليه وسلم دليله قوله تعالى وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وقال ابن عباس أراد ان أراضى الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله تعالى باظهار الدين واعزاز المسلمين وقيل أراد بالارض الارض المقدسة وقيل أراد جنس الارض الشامل لبقاع أرض الدنيا كلها ولأرض المحشر والجنة وغير ذلك مما يعلمه الله تعالى وجرى على هذا البقاعى فى تفسيره وقرأ حمزة بسكون الياء والباقون بفتحها (ان فى هذا) اى القرآن كما قاله البغوى (لبلاغا) اى وصولا الى البغية فان من اتبع القرآن وعمل به وصل الى ما يرجو من الثواب وقيل بلاغا أى كفاية يقال فى هذا الشئ بلاغ و بلغة اى كفاية والقرآن زاد الجنة كبلاغ المسافر وقال الرازى هذا اشارة الى المذكور فى هذه السورة من الاخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة (لقوم عابدين) اى عاملين به وقال ابن عباس عالمين قال الرازى والاولى انهم الجامعون بين أمرين لان العلم كالشجر والعمل كالثمر والشجر بدون الثمر غير مفيد والثمر بدون الشجر غير كائن وقال كعب الاحبار هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم أهل الصلوات الخمس وشهر رمضان ولما كان هذا مشيرا الى ارشادهم فكان التقدير فما أرسلناك الا لاسعادهم عطف عليه قوله تعالى (وما أرسلناك) اى على حالة من الاحوال (الا) على حال كونك (رحمة للعالمين) كلهم أهل السموات وأهل الارض من الجن والانس وغيرهم طائعهم بالثواب وعاصيهم بتأخير العقاب الذى كانت تستأصل الامم به فنحن نمهلهم ونترفق بهم اظهارا لشرفك واعلاء لقدرك ثم نرد كثيرا منهم الى دينك ونجعلهم من أكابر أنصارك وأعاظم أعوانك بعد طول ارتكابهم الضلال وارتباكهم فى أشراك المحال ومن أعظم ما يظهر فيه هذا الشرف فى عموم الرحمة وقت الشفاعة العظمى يوم يجمع الله تعالى الاولين والآخرين وتقوم الملائكة صفوفا والثقلان وسطهم ويموج بعضهم فى بعض من شدة ما هم فيه يطلبون من يشفع لهم فيقصدون أكابر الانبياء نبيا نبيا عليهم الصلاة والسلام فيحيل بعضهم على بعض وكل منهم يقول لست لها حتى يأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيقول أنا لها ويقوم معه لواء الحمد فيشفعه الله تعالى وهو المقام المحمود الذى يغبطه به الاولون والآخرون فهو صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق أجمعين ولما أورد تعالى على الكفار الحجج فى ان لا اله سواه وبين انه أرسل رسوله رحمة للعالمين أتبع ذلك بأمره صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد) اى ما يوحى الى فى أمر الاله الا وحدانيته وما الهكم الا اله واحد لم يوح الى فيما تدعون من الشركة غير ذلك فالاول من قصر الصفة على الموصوف والثانى من قصر الموصوف على الصفة والمخاطب بهما من يعتقد الشركة فهو قصر قلب وقال الزمخشرى انما لقصر الحكم على شئ أو لقصر الشئ على حكم كقولك انما زيد قائم وانما يقوم زيد وقد اجتمع المثالان فى هذا الآية لان انما يوحى الى مع فاعله بمنزلة انما يقوم زيد وانما

هنا بلفظ الواو واليكم وقاله بعد بحذفهما لات

الهكم الواحد بمنزلة انما زيد قائم وفائدة اجتماعهما الدلالة على ان الوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على استئثار الله تعالى بالوحدانية انتهى ولما كان الوحى الوارد على هذه السنن موجبا ان يخلصوا التوحيد لله تعالى قال صلى الله عليه وسلم (فهل أنتم مسلمون) اى منقادون لما يوحى الى من وحدانية الاله والاستفهام بمعنى الامر اى أسلموا (فان تولوا) اى لم يقبلوا ما دعوتهم اليه (فقل) اى لهم (آذنتكم) اى أعلمتكم بالحرب كرجل بينه و بين أعدائه هدنة فاحس منهم بغدرة فنبذ اليهم العهد وأشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعا بذلك وقوله (على سواء) حال من الفاعل والمفعول اى مستوين فى الاعلام به لم أطوه عن أحد منكم ولا استبدبه دونكم لتتأهبوا (وان) اى وما (أدرى أقريب) جدا بحيث يكون قربه على ما يتعارفونه (أم بعيد ما توعدون) من غلب المسلمين عليكم أو عذاب الله أو القيامة المشتملة عليه وان ذلك كائن لامحالة ولابد أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار وان كنت لا أدرى متى يكون ذلك لان الله تعالى لم يعلمنى علمه ولم يطلعنى عليه وانما يعلمه الله تعالى (انه) تعالى (يعلم الجهر من القول) اى مما يجهرون به من المطاعن وغير ذلك ونبه تعالى على ذلك فان من أحوال الجهران ترتفع الاصوات جدا بحيث تختلط ولا يميز بينها ولا يعرف كثير من حاضر بها ما قاله أكثر القائلين فاعلم سبحانه وتعالى انه لا يشغله صوت عن آخر ولا يفوته شئ من ذلك ولو كثر (ويعلم ما تكتمون) مما تضمرونه فى صدوركم من الاحقاد للمسلمين ونظير ذلك قوله تعالى فى أول السورة قل ربى يعلم القول فى السماء والارض ومن لازم ذلك المجازاة عليه بما يحق لكم من تعجيل وتأجيل فستعلمون كيف تخيب ظنونكم و يتحقق ما أقول فتنطقون حينئذ بأنى صادق ولست بساحر ولا شاعر ولا كاهن فهو من أبلغ التهديد فانه لا أبلغ من التهديد بالعلم ولما كان الامهال قد يكون نعمة وقد يكون نقمة قال (وان) أى وما (أدرى) أن يكون تأخير عذابكم نعمة لكم كما تظنون أم لا (لعله) أى تأخير العذاب (فتنة) أى اختبار (لكم) ليظهر ما يعلمه منكم من السر لغيره لان حالكم حال من يتوقع منه ذلك (ومتاع) لكم تتمتعون به (الى حين) أى بلوغ مدة آجالكم التى ضربها لكم فى الازل ثم يأخذكم بغتة وأنتم لا تشعرون ولما كان لله أن يفعل ما يشاء من عدل وفضل وكان من العدل جواز تعذيب الله تعالى الطائع وتنعيم المؤمن العاصى وكان صلى الله عليه وسلم قد بلغ الغاية فى البيان لهم وهم قد بلغوا النهاية فى أذيته وتكذيبه أمر الله تعالى أن يفوض الامر اليه تسلية له بقوله تعالى (قل رب) أيها المحسن الى (احكم) أى انجز الحكم بينى و بين قومى (بالحق) اى بالامر الذى يحق لكل منا من نصر وخذلان وقرأ حفص بفتح القاف وألف بعدها وفتح اللام بصيغة الماضى على حكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم والباقون بضم القاف وسكون اللام بصيغة الامر (فان قيل) كيف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احكم بالحق والله تعالى لا يحكم الا بالحق (أجيب) بان الحق ههنا بمعنى العذاب فكأنه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر نظيره قوله ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق وقال أهل المعانى معناه رب احكم بحكمك الحق فحذف الحكم وأقيم الحق مقامه والله تعالى يحكم بالحق طلب أم لم يطلب ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب فى حكمه الحق

(وربنا)

اتصال ماهنا بما قبله اشداد قوله بعلمو عظة

(وربنا) أي المحسن الينا أجمعين (الرحمن) أي العام الرحمة لنا ولكم بادرارها علينا ولولا عموم رحمته لاهلكنا أجمعين وان كنا نحن أطعناه لانا لا نقدره حق قدره ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة (المستعان) أي المطلوب منه العون (على ما تصفون) من كذبكم على الله تعالى في قولكم اتخذ الله ولدا وعلى في قولكم ساحر وعلى القرآن في قولكم شعر قال الرازي روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول ذلك في حروبه ولم يذكره سندا وأما ما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ اقترب حاسبه الله حسابا يسيرا وصافحه وسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن فحديث موضوع والله تعالى أعلم بالصواب

سورة الحج مكية

الا ومن الناس من يعبد الله على حرف الا يتين والا هذان خصمان الست آيات فمدنيات وهي ثمان وقيل خمس أو ست أو سبع وسبعون آية

المتقين مصروف الى الجمل السابقة من قوله

(بسم الله) أي الذي اقتضت عظمته خضوع كل شيء (الرحمن) الذي عم برحمته كل موجود (الرحيم) الذي خص بفضله من شاء من عباده * ولما ختمت السورة التي قبل هذه بالترهيب من الفزع الاكبر وطي السماء واتيان ما يوعدون وكان أعظم ذلك يوم الدين افتتحت هذه السورة بالامر بالتقوى المنجية من هول ذلك اليوم بقوله تعالى (يا أيها الناس) أي الذين تقدم أول تلك أنه اقترب لهم حسابهم ان أريد ان ذلك عام والا فهم وغيرهم (اتقوا) أي احذروا عقاب (ربكم) أي المحسن اليكم بانواع الاحسان بان تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية الطاعات * ولما أمرهم بالتقوى علل ذلك مرهبا لهم بقوله تعالى (ان زلزلة الساعة) أي حركتها الشديدة للاشياء على الاسناد المجازي فتكون الزلزلة مصدرا مضافا الى فاعله ويصح ان يكون الى المفعول فيه على طريق الاتساع في الظرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى بل مكر الليل والنهار وهي الزلزلة المذكورة في قوله تعالى اذا زلزلت الارض زلزالها واختلف في وقتها فعن الحسن انها تكون يوم القيامة وعن علقمة والشعبي عند طلوع الشمس من مغربها الذي هو أقرب الساعة (شيء عظيم) أي أمر كبير وخطب جليل وحادث هائل لا تحتمل العقول وصفه وهذه الزلزلة نفسها فكيف بجميع ما يحدث في ذلك اليوم الذي لا بد لكم من الحشر فيه الى الله تعالى ليجازيكم على ما كان منكم لا ينسى منه نقير ولا قطمير (يوم ترونها) أي الزلزلة أو الساعة أو كل مرضعة أضمرها قبل الذكر تهويلا للامر وترويعا للنفس (تذهل) بسبب ذلك (كل مرضعة) أي بالفعل أي تنسى وتغفل حائرة مدهوشة والعامل في يوم تذهل (فان قيل) لم قال تعالى مرضعة ولم يقل مرضع (أجيب) بان المرضعة هي التي في حال الارضاع ملقمة ثديها للطفل والمرضع التي شأنها أن ترضع وان لم تباشر الارضاع في حال وصفها به فقال مرضعة ليدل على أن ذلك الهول اذا فوجئت به هذه وقد ألقمت ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة (عما أرضعت) عن ارضاعها أو عن

الذي أرضعته وهو الطفل فما اسمية أو موصولة (وتضع كل ذات حمل حملها) أي تسقطه قبل التمام رعبا وفزعا * (تنبيه) * هذا ظاهر على القول الثاني وهو قول علقمة والشعبي على أن ذلك يكون عند طلوع الشمس من مغربها وأما على القول الاول وهو قول الحسن على أن ذلك يوم القيامة كيف يكون ذلك فقيل هو تصوير لهولها قاله البيضاوي وقال البقاعي في المرضعة هي من ماتت مع ابنها رضيعا وفي ذات الحمل من ماتت حاملا فان كل أحد يقوم على ما مات عليه وهذا أولى قال في حال كتابتي في هذا المحل حضر عندي سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني نفعنا الله تعالى ببركته فذكرت له هذين القولين فانشرح صدره لترجيح هذا الثاني وذلك يوم تاسوعاء من شهر الله المحرم سنة ست وخمسين وتسعمائة وعن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وتضع الحامل ما في بطنها بغير تمام ويؤيد أن هذه الزلزلة تكون بعد البعث ما روي عن أبي سعيد الخدري أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك وسعديك زاد في رواية والخير في يديك فينادي بصوت ان الله يامرك ان تخرج من ذريتك بعثا الى النار قال يارب وما بعث النار قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحوامل حملها ويشيب الوليد وساق بقية الآية وهو (وترى الناس سكارى) أي لما هم فيه من الدهشة والحيرة ثم بين الله تعالى ان ذلك ليس بسكر حقيقة بقوله تعالى (وما هم بسكارى) أي من الشراب ولما نفى ان يكونوا سكارى من الشراب أثبت ما أوجب لهم تلك الحالة بقوله (ولكن عذاب الله) ذي العزة والجبروت (شديد) فهو الذي أوجب ان يظن بهم السكر لان هوله أذهب عقولهم وطير تمييزهم ثم الحديث عند آخر الآية فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم زاد في رواية قالوا يا رسول الله أينا ذلك الواحد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في الثور الابيض أو كالشعرة البيضاء في الثور الاسود وفي رواية كالرقمة في ذراع الحمار واني أرجو ان تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا ثم قال ثلث أهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر أهل الجنة فكبرنا وفي رواية اني لارجو ان تكونوا ثلثي أهل الجنة وروى عمران بن حصين رضي الله عنه ان هاتين الآيتين نزلتا في غزوة بني المصطلق ليلا فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحثوا المطي حتى كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فلم نر أكثر باكيا من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام وقت النزول ولم يطبخوا قدرا وكانوا ما بين حزين وباك ومفكر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أي يوم ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث بعث النار وذلك نحو حديث أبي سعيد وزاد فيه ثم قال يدخل من امتي سبعون ألفا الجنة بغير حساب قال عمر سبعون ألفا قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفا وقرأ حمزة والكسائي بفتح السين وسكون الكاف فيهما والباقون بضم السين وفتح الكاف وبعد الكاف ألف وأمال الالف بعد الراء ابو عمرو وحمزة والكسائي محضة وورش بين بين والباقون بالفتح ونزل في النضر بن الحارث وكان كثير الجدل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول

الملائكة

وابن عفف الى آخره وفيه

الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين وكان ينكر البعث واحياء من صار ترابا (ومن الناس) اى المذبذبين (من) لا يسعى فى اعلاء نفسه وتم ذميم افيكذب فيو بق بسوء عمله لانه (يجادل فى الله) اى فى قدرته على ذلك اليوم وفى غير ذلك بعد ان جاءه العلم بها اجتراء على سلطانه العظيم (بغير علم) بل بالباطل الذى هو جهل صرف فيترك اتباع الهداة (ويتبع) بغاية جهده فى جداله (كل شيطان) محترق بالسوء مبعد باللعن (مريد) اى متجرد للفساد ولا شغل له غيره قال البيضاوى وأصله العرى اى عن الساتر (كتب) اى قدر وقضى على سبيل الحتم الذى لابد منه تعبيرا باللازم عن الملزوم (عليه) اى على ذلك الشيطان (انه) اى الشأن (من تولاه) اى فعل معه فعل الولى مع وليه باتباعه والاقبال على ما يزينه (فانه يضله) بما يبغض اليه من الطاعات فيخطئ سبيل الخير (ويهديه) اى بما يزين له من الشهوات الحاملة على الزلات (الى عذاب السعير) اى النار ثم ألزم الحجة منكرى البعث بقوله تعالى (يا أيها الناس) اى كافة ويجوز أن يراد به المنكر فقط (ان كنتم فى ريب) اى شك وتهمة وحاجة الى البيان (من البعث) وهو قيام الاجسام بأرواحها كما كانت قبل مماتها فتفكروا فى خلقتكم الاولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولا قادر على خلقكم ثانيا ثم انه سبحانه وتعالى ذكر مراتب الخلقة الاولى أمورا سبعة المرتبة الاولى قوله تعالى (فانا خلقناكم) بقدرتنا التى لا يتعاظمها شئ (من تراب) لم يسبق له اتصاف بالحياة وفى الخلق من تراب وجهان أحدهما انا خلقنا أصلكم وهو آدم عليه الصلاة والسلام من تراب كما قال تعالى كمثل آدم خلقه من تراب الثانى من الاغذية والاغذية اما حيوانية واما نباتية وغذاء الحيوان ينتهى الى النبات قطعا للتسلسل والنبات انما يتولد من الارض والماء فصح قوله تعالى انا خلقناكم من تراب المرتبة الثانية قوله تعالى (ثم من نطفة) وحالها أبعد شئ من حال التراب فانها بيضاء سائلة لزجة صافية كما قال تعالى من ماء دافق واصلها الماء القليل قاله البغوى وأصل النطف الصب قاله البيضاوى المرتبة الثالثة قوله تعالى (ثم من علقة) اى قطعة دم حمراء جامدة ليس فيها أهلية للسيلان ولا شك ان بين الماء وبين الدم الجامد مباينة شديدة المرتبة الرابعة قوله تعالى (ثم من مضغة) اى قطعة لحم صغيرة وهى فى الاصل قدر ما يمضغ (مخلقة) اى مسواة لا نقص فيها ولا عيب يقال خلق السواك والعود سواه وملسه من قولهم صخرة خلقاء اذا كانت ملساء (وغير مخلقة) اى وغير مسواة فكأن الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة وأملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم هذا قول قتادة والضحاك وقال مجاهد المخلقة الولد الذى يخرج حيا وغير المخلقة السقط وقال قوم المخلقة المصورة وغير المخلقة غير المصورة وهو الذى يبقى لحما من غير تخطيط وتشكيل واحتجوا بما روى علقمة عن عبد الله بن مسعود موقوفا عليه قال ان النطفة اذا استقرت فى الرحم أخذها ملك بكفه وقال اى رب مخلقة أو غير مخلقة فان قال غير مخلقة قذفها فى الرحم دما ولم تكن نسمة وان قال مخلقة قال الملك اى رب ذكر أم انثى وشقى ام سعيد ما الاجل ما العمل ما الرزق باى ارض تموت فيقال له اذهب الى أم الكتاب فانك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها فى ام

معطوفان بالواو فناسب ذكرها للعطف وذكر

الكتاب فيسبقها فلا يزال يعمه حتى يأتي على آخرها ومنها الذي أخرجاه في الصحيحين عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي او سعيد ثم ينفخ فيه الروح فو الذي لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها فكأنه تعالى يقول انما نقلناكم من حال الى حال ومن خلقة الى خلقة (لنبين لكم) بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا وان من قدر على خلق البشر من التراب والماء أولا ثم من نطفة ثانيا ولا تناسب بين التراب والماء وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاما قادر على اعادة ما أبداه بل هو أدخل في القدرة من تلك واهون في القياس وورود الفعل غير معدى الى المبين اعلام بان أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يحيط به الوصف ولا يكتنهه الذكر (ونقر في الارحام) اى من ذلك الذى خلقناه (ما نشاء) اتمامه (الى أجل مسمى) هو وقت الوضع وأدناه بعد ستة أشهر وأقصاه آخر أربع سنين بحسب قوة الارحام وضعفها وقوة المخلقات وضعفها وكثرة تغذيه من الدماء وقلته الى غير ذلك من أحوال وشؤن لا يعلمها الا بارئها جلت قدرته وتعالت عظمته وما لم نشأ اقراره مجته الارحام وأسقطته دون التمام أو تخرقه فيضمحل المرتبة الخامسة قوله تعالى (ثم نخرجكم طفلا) وهو معطوف على نبين ومعناه خلقناكم مدرجين هذا التدريج لغرضين احدهما ان نبين قدرتنا والثاني ان نقر في الارحام من نقر حتى تولدوا في حال الطفولية من صغر الجثة وضعف البدن والسمع والبصر وجميع الحواس لئلا تهلكوا أمهاتكم بكبر أجرامكم وعظم أجسامكم المرتبة السادسة قوله تعالى (ثم) اى نمد أجلكم (لتبلغوا) بهذا الانتقال في اسنان الاجسام من الرضاع الى المراهقة الى البلوغ الى الكهولة (أشدكم) اى الكمال والقوة وهو ما بين الثلاثين الى الاربعين جمع شدة كالانعم جمع نعمة كأنه شدة في الامور المرتبة السابعة قوله تعالى (ومنكم من يتوفى) اى عند بلوغ الاشد أو قبله (ومنكم من يرد) بالشيخوخة وبناه للمجهول اشارة الى هوانه عليه لاستبعاده لولا تكرار المشاهدة عند الناظر لتلك القوة والنشاط وحسن التواصل بين أعضائه والارتباط (الى أرذل) اى أخس (العمر) وهو سن الهرم فتنقص جميع قواه (لكيلا يعلم من بعد علم) كان أوتيه (شيأ) اى يعود كهيئته الاولى في أوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما علمه وينكر من عرفه حتى يسأل عنه من ساعته يقول له من هذا فتقول فلان فما يلبث لحظة الا سألك عنه (فان قيل) هذه الحالة لا تحصل للمؤمنين لقوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات (أجيب) بان معنى قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين هو دال على الذم فالمراد به ما يجري مجرى العقوبة ولذلك قال تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لكن قال عكرمة من قرأ القرآن لم يصر الى هذه الحالة وقد علم بعود الانسان في ذهاب العلم وصغر الجسم الى نحو ما كان عليه في ابتداء الخلق قطعا أن الذى أعاده الى ذلك قادر على اعادته بعد الممات ولما تم هذا الدليل على

الحكم لمفصلات الآيات المبينات نزلت في الشاطبين

الساعة بحكم المقدمات وأصح النتائج وكان أول الايجاد فيه غير مشاهد ذكر الله تعالى دليلا آخر على البعث مشاهدا بقوله (وترى الارض هامدة) أى يابسة ساكنة سكون الميت (فاذا أنزلنا) اى بما لنا من القدرة (عليها الماء اهتزت) أى تحركت وتأهلت لاخراج النبات (وربت) اى ارتفعت وذلك أول ما يظهر منها للعين وزادت ونمت بما يخرج منها من النبات الناشئ عن التراب والماء وقوله تعالى (وأنبتت) مجاز لان الله تعالى هو المنبت واضيف الى الارض توسعا اى أنبتت بتقديرنا الا أنها المنبتة (من كل زوج) اى صنف (بهيج) اى حسن نضير من اشتات النبات فى اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ومقاديرها قال الجلال المحلى من زائدة ولم أر من ذكر ذلك من المفسرين * (تنبيه) * فى الآية اشارة الى أن النبات كما يتوجه من نقص الى كمال فكذلك الانسان المؤمن يترقى من نقص الى كمال ففى المعاد يصل الى كماله الذى اعده من البقاء والغنى والعلم والصفاء والخلود فى دار السلام مبرأ عن عوارض هذا العالم * ولما قرر سبحانه هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة وذكر امورا خمسة احدها قوله تعالى (ذلك) اى المذكور من بدء الخلق الى آخر احياء الارض (بان) اى بسبب ان تعلموا ان (الله) اى الجامع لأوصاف الكمال (هو) اى وحده (الحق) اى الثابت الدائم وما سواه فان ثانيها قوله تعالى (وأنه يحيى الموتى) اى قادر على ذلك والا لما احياء النطفة والارض الميتة ثالثها قوله تعالى (وانه على كل شئ) من الخلق وغيره (قدير) انما امره اذا اراد شيأ أن يقول له كن فيكون رابعها قوله تعالى (وأن الساعة) التى تقدم ذكرها وتقدم التحذير منها وهى حشر الخلائق كلهم (آتية لا ريب) اى لا شك (فيها) اى بوجه من الوجوه يما دل عليها فما السبيل الى انكاره بقول من لامرد لقوله وهو حكيم لا يخلف ميعاده ولا يسوغ بوجه أن يترك عباده بغير حساب خامسها قوله تعالى (وأن الله يبعث) بالاحياء (من فى القبور) بمقتضى وعده الذى لا يقبل الخلف وقد وعد الساعة والبعث فلا بد ان يفى بما وعده * ونزل فى ابى جهل بن هشام كما قاله ابن عباس (ومن الناس من يجادل) اى بغاية جهده (فى الله) اى فى قدرته وما يجمعه هذا الاسم الشريف من صفاته بعد هذا البيان الذى لا مثل له ولا خفاء فيه (بغير علم) أتاه عن الله تعالى على لسان أحد من اصفيائه أعم من ان يكون كتابا أو غيره (ولا هدى) ارشده اليه أعم من كونه بضرورة أو استدلال (ولا كتاب منير) له نور منه صح لديه انه من الله تعالى ومن المعلوم انه بانتفاء هذه الثلاثة لا يكون جداله الا بالباطل وقيل قوله تعالى ومن الناس كرر كما كررت سائر الاقاصيص وقيل الاول فى المقلدين وهذا فى المقلدين وقوله تعالى (ثانى عطفه) حال اى لاوى عنقه تكبرا عن الايمان كما قال تعالى واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا والعطف فى الاصل الجانب عن يمين او شمال وقوله تعالى (ليضل عن سبيل الله) علة للجدال وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بضمها (فان قيل) على قراءة الضم ما كان غرضه فى جداله الضلال لغيره عن سبيل الله فكيف علل به وما كان على قراءة الفتح مهتديا حتى اذا جادل خرج بالجدال عن الهدى الى الضلال (أجيب) عن الاول بان جداله لما أدى الى الضلال جعل كأنه غرضه وعن الثانى بان الهدى لما كان معرضا له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال الباطل جعل كالخارج من الهدى

فى الجمل السابقة وبالذكر بعد خال عن ذلك فتناسبه

الى الضلال ﴿ ولما ذكر فعله وغرته ذكر ما أعد له عليه في الدنيا بقوله تعالى (له في الدنيا خزي)
اى اهانة وذل وان طال زمن استدراجه بتنعيمه حق على الله ان لا يرفع شيأ من الدنيا الا
وضعه وما أعد له عليه في الآخرة بقوله تعالى (ونذيقه يوم القيامة) الذى يجمع فيه الخلائق
بالاحياء بعد الموت (عذاب الحريق) اى الاحراق بالنار وعن الحسن قال بلغني ان احدهم
يحرق في اليوم سبعين ألف مرة ويقال له حقيقة او مجازا (ذلك) اى العذاب العظيم (بما
قدمت يداك) اى بعملك ولكن جرت عادة العرب ان تضيف الاعمال الى اليد لانهما آلة أكثر
العمل واضافة ما يؤدى اليهما الكل (وأن) اى وبسبب أن (الله ليس بظلام) اى بذى ظلم ما
(للعبيد) وانما هو مجازيهم على أعمالهم او ان المبالغة لكثرة العبيد ﴿ ونزل في قوم من
الاعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم اذا قدم المدينة فصح
بها جسمه ونتجت فرسه مهرا او ولدت امرأته غلاما وكثر ماله قال هذا دين حسن وقد أصبت
به خيرا واطمأن به وان كان الامر بخلافه قال ما أصبت الا شرا فينقلب عن دينه (ومن
الناس من يعبد الله) اى يعمل على سبيل الاستمرار والتجدد بما أمر الله به من طاعته (على
حرف) فهو من زلزلة من يكون على حرف شفير او جبل او غيره لا استقرار له وكالذى
على طرف من العسكر فان رأى غنيمة استقر وان توهم خوفا طار وفر وذلك معنى قوله تعالى
(فان أصابه خير) اى من الدنيا (اطمأن به) اى بسببه وثبت على ما هو عليه (وان أصابته
فتنة) اى محنة وسقم في نفسه وماله (انقلب على وجهه) اى رجع الى الكفر وعن أبي سعيد
الخدري ان رجلا من اليهود أسلم فاصابته مصائب فتشاءم بالاسلام فأتى النبي صلى الله عليه
وسلم فقال أقلني فقال ان الاسلام لا يقال فنزلت ﴿ ولما كان انقلابه هذا مفسدا لدنياه
ولآخرته قال تعالى (خسر الدنيا) بفوات ما أمله منها او يكون ذلك سبب التقتير عليه قال
تعالى ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت
أرجلهم وروى ان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه (والآخرة) بالكفر ثم عظم مصيبته
بقوله تعالى (ذلك) اى الامر العظيم (هو) اى لا غيره (الخسران المبين) اى البين اذ لا خسران
مثله ثم بين هذا الخسران الذى ورده اليها كان فيه قبل الايمان الحرفي بقوله تعالى (يدعوا) اى
يعبد حقيقة أو مجازا (من دون الله) اى غيره من الصنم (ما لا يضره) ان لم يعبده (وما لا ينفعه)
ان عبده (ذلك) اى الدعاء (هو الضلال البعيد) عن الحق والرشاد استعير الضلال البعيد
من ضلال من أبعد في التيه ضالا فطالت وبعدت مسافة ضلاله ﴿ ولما كان الاحسان جالبا
للانسان لان القلوب جبلت على حب من أحسن اليها بين ان ما قيل في جلب النفع انما هو
على سبيل الفرض فقال تعالى (يدعو لمن) اى من (ضره) بكونه معبودا لانه يوجب القتل
والخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة (أقرب من نفعه) الذى يتوقع منه بعبادته وهو
الشفاعة والتوسل بها الى الله تعالى ﴿ (تنبيه) ﴿ علم مما تقرر ان اللام في لمن مزيدة كما قال
الجلال المحلي (فان قيل) الضر والنفع منفيان عن الاصنام مثبتان لها في الآيتين وهذا
متناقض (اجيب) بأن المعنى اذا حصل ذهب هذا الوهم وذلك ان الله تعالى سفه الكافر بأنه
يعبد جمادا لا يملك ضرا ولا نفعا وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله انه ينتفع به حين يستشفع

الاستئناف والحذف
(قوله مثل نونه كسكان)

به

به ثم يوم القيامة يقوم هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالاصنام ودخوله النار بعبادتها ولا يرى أثر الشفاعة التى ادعاها لها وقيل الآية الاولى فى الاصنام والثانية فى الرؤساء وهم الذين كانوا يفزعون اليهم بدليل قوله تعالى (لبئس المولى) اى الناصر هو (ولبئس العشير) اى الصاحب هو قال الرازى وهذا الوصف بالرؤساء أليق لان ذلك لا يكاد يستعمل فى الاوثان فبين تعالى أنهم يعدلون عن عبادة الله الى عبادة الاصنام والى طاعة الرؤساء * ولما بين سبحانه وتعالى حال الكفار عقبه بحال المؤمنين بقوله تعالى (ان الله) اى الجامع لجميع صفات الكمال المنزه عن جميع شوائب النقص (يدخل الذين آمنوا) بالله ورسله (وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) من الفروض والنوافل الخالصة الشاهدة بثباتهم فى الايمان (جنات تجرى من تحتها) اى فى اى مكان من أرضها (الانهار) * ولما بين سبحانه وتعالى حال الفريقين قال تعالى (ان الله) اى المحيط بكل شىء قدرة وعلما (يفعل ما يريد) من اكرام من يطيعه واهانة من يعصيه لا دافع له ولا مانع وقوله تعالى (من كان يظن ان لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة) فيه اختصار والمعنى ان الله ناصر رسوله فى الدنيا والآخرة فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه فالضمير راجع الى النبى صلى الله عليه وسلم (فان قيل) لم يجر له ذكر فى هذه الآية (أجيب) بان فيها ما يدل عليه وهو ذكر الايمان فى قوله تعالى ان الله يدخل الذين آمنوا والايمان لا يتم الا بالله ورسوله وقيل الضمير راجع الى من فى أول الآية لانه المذكور ومن حق الكناية ان ترجع الى المذكور اذا أمكن ذلك وعلى هذا المراد بالنصر الرزق قال أبو عبيدة وقف علينا سائل من بنى بكر فقال من ينصرنى نصره الله اى من يعطى اعطاه الله فكانه قال من كان يظن أن لن يرزقه الله فى الدنيا والآخرة (فليمدد بسبب) اى بحبل (الى السماء) اى سقف بيته يشده فيه و بين عنقه (ثم ليقطع) اى ليختنق به بأن يقطع نفسه من الارض كما فى الصحاح وقيل فليمدد حبلا الى سماء الدنيا ثم ليصعد عليه فيجتهد فى دفع نصر النبى صلى الله عليه وسلم على الاول او يحصل رزقه على الثانى وقرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام والباقون بسكونها (فلينظر) ببصره و بصيرته (هل يذهبن) وان اجتهد (كيده) فى عدم نصرة النبى صلى الله عليه وسلم اوفى تحصيل رزقه (ما يغيظ) من ذلك والمعنى فليختنق غيظا فلا بد من نصره صلى الله عليه وسلم واعلاء كلمته او ان ذلك لا يغلب القسمة فان الارزاق بيد الله لا تنال الا بمشيئة الله سبحانه وتعالى وهذا كما يقال لن أدبر عنه أمر فجزع اضرب برأسك الجدار ان لم ترض هذا مت غيظا ونحو ذلك والحاصل انه ان لم يصبر طوعا صبر كرها واختلف فى سبب نزول هذه الآية على القول الاول فذكروا فيها وجوها أحدها كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم على الكفار يستبطؤن ما وعد الله رسوله من النصر فنزلت ثانيها قال مقاتل نزلت فى نفر من أسد وغطفان قالوا نخاف ان الله لا ينصر محمدا فينقطع الذى بيننا و بين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا ثالثها ان حساده واعداءه كثيرة وكانوا يتوقعون ان لا ينصره وان لا يعينه على اعدائه فى شاهدوا ان الله نصره غاظهم ذلك (وكذلك) اى ومثل ما أنزلنا هذه الآيات لبيان حكمها واظهار أسرارها (أنزلناه) اى

اى مثل صفة نوره تعالى كصفة نور مشكاة فيها

القرآن الباقي وقوله تعالى (آيات بينات) اي معجزا نظمها كما كان معجزا حكمها حال وقوله تعالى (وان الله) اي الموصوف بالاكرام كما هو موصوف بالانتقام (يهدي) اي بآياته (من يريد) اي هدايته اي يثبته على الهدى معطوف على محل انزلناه * ولما قال تعالى وان الله يهدي من يريد اتبعه ببيان من يهديه ومن لا يهديه وبدأ بالقسم الاول بقوله (ان الذين آمنوا) بالله ورسوله وعبر بالفعل ليشمل الاقرار باللسان الذي هو ادنى وجوه الايمان ثم شرع في القسم الثاني بقوله تعالى (والذين هادوا) اي انتحلوا دين اليهودية (والصابئين) وهم فرقة من النصارى سميت بذلك قيل لنسبتها الى صابئ عم نوح عليه السلام وقيل لخروجهم من دين الى دين آخر واطلاق الصابئة على هذا هو المشهور وتارة يوافقونهم في اصول دينهم فتحل مناكحتهم وتارة يخالفونهم فلا تحل مناكحتهم وتطلق ايضا على قوم اقدم من النصارى يعبدون الكواكب السبعة ويضيفون الآثار اليها وينفون الصانع المختار فهؤلاء لا تحل مناكحتهم وقد افتى الاصطخري والمحاملي بقتلهم لما استفتى القاهر الفقهاء فيهم فبذلوا له اموالا كثيرة فتركهم والبلاء قديم وقرأ نافع بالياء التحتية بعد الباء والباقون بهمزة مكسورة بعد الباء الموحدة (والنصارى) اي الذين انتحلوا دين النصرانية (والمجوس) قال قتادة هم عبدة الشمس والقمر والنيران قال (والذين اشركوا) هم عبدة الاوثان قال مقاتل الاديان كلها ستة واحد للرحمن وهو الاسلام وخمسة للشيطان وقيل خمسة اربعة للشيطان وواحد للرحمن يجعل الصابئين مع النصارى لانهم فرع منهم كما مر على المشهور وقد تقدم الكلام على هذه الآية في سورة البقرة (ان الله) الذي هو احكم الحاكمين (يفصل بينهم يوم القيامة) بادخال المؤمنين الجنة وغيرهم النار وادخلت ان على كل واحد من جزأي الجملة لزيادة التأكيد ونحوه قول جرير

ان الخليفة ان الله سربله * سربال ملك به ترجى الخواتيم

ثم علل ذلك بقوله تعالى (ان الله) اي الجامع لجميع صفات الكمال (على كل شيء) من الاشياء كلها (شهيد) اي عالم به علم مشاهدة (الم تر) اي تعلم (ان الله يسجد له) اي يخضع منقادا لامره سبحانه مسخرا لما يريد منه تسخير من هو في غاية الاجتهاد في العبادة والاخلاص فيها (من في السموات ومن في الارض) ان خصصت بذلك العاقل فهم خضوع غيره من باب اولى وان ادخلت غير العاقل فبالتغليب ثم اتبعه باشرف ما ذكر مما لا يعقل لان كلا منها عبد من دون الله او عبد شيء منه فقال تعالى (والشمس والقمر والنجوم) من الاجرام العلوية فعبد الشمس حمير والقمر كنانة والدبران تميم والشعرى لخم والثريا طيء وعطارد اسد قاله ابو حيان روي عن عمرو بن دينار قال سمعت رجلا يطوف بالبيت ويبكي فاذا هو طاوس فقال اعجبت من بكائي قلت نعم قال ورب الكعبة ان هذا القمر ليبكي من خشية الله ولا ذنب له * ثم اتبع ذلك اعلى الذوات السفلية فقال (والجبال) اي التي قد نحتت منها الاصنام (والشجر) اي التي عبد بعضها (والدواب) اي التي عبد منها البقر كل هذه الاشياء تنقاد لامر الله ولا تأبى عن تدبيره (وكثير من الناس) وهم المؤمنون بزيادة الخضوع سجود هو منه عبادة مشروعة حق له

مصباح المصباح في زجاجة
هي القنديل والمصباح

الثواب

الثواب (وكثير) اى من الناس (حق عليه العذاب) وهم الكافرون لانهم أبوا السجود المتوقف على الايمان (ومن يهن الله) اى يشقه (فماله من مكرم) اى مسعد لانه لا قدرة لغيره أصلا (ان الله) اى الملك الاعظم (يفعل مايشاء) من الاكرام والاهانة لامانع له من ذلك نقل عن على رضى الله تعالى عنه انه قيل له ان رجلا يتكلم فى المشيئة فقال له على يا عبد الله خلقك الله لما يشاء أو لما شئت قال بل لما يشاء قال فيمرضك اذا شاء أو اذا شئت قال بل اذا شاء قال فيشفيك اذا شاء أو اذا شئت قال بل اذا شاء قال فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء قال بل حيث يشاء قال والله لو قلت غير ذلك لضربت الذى فيه عيناك بالسيف * ولما بين تعالى أن الناس قسمان منهم من يسجد لله ومنهم من حق عليه العذاب ذكر كيفية اختصامهم بقوله تعالى (هذان خصمان) اى المؤمنون خصم والكفار الخمسة خصم وهو يطلق على الواحد والجماعة وقرأ ابن كثير بتشديد النون والباقون بالتخفيف (اختصموا) اى اوقعوا الخصومة بغاية الجهد (فى ربهم) اى دينه وروى عن قيس بن عباد قال سمعت اباذر يقسم قسما ان هذه الآية هذان خصمان اختصموا فى ربهم نزلت فى الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلى وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة أخرجاه فى الصحيحين وعن ابن عباس قال لما بارز على وحمزة وعبيدة عتبة وشيبة والوليد قالوا لهم تكلموا نعرفكم قال أنا على وهذا حمزة وهذا عبيدة فقالوا أكفاء كرام فقال على أدعوكم الى الله والى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال عتبة هلم للمبارزة فبارز على شيبة فلم يلبث أن قتله وبارز حمزة عتبة فقتله وبارز عبيدة الوليد فصعق عليه فأتى على فقتله فنزلت وعن قتادة نزلت الآية فى المسلمين وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم قال المسلمون كتابنا يقضى على الكتب كلها ونبينا صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء فنحن أولى بالله منكم وعن ابن عباس أنها نزلت كذلك لكن قال أهل الكتاب نحن أولى بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المسلمون نحن أحق بالله منكم آمنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وانكم تعرفون نبينا وكتابنا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا فهذه خصومتهم فى ربهم وقيل المؤمنون والكافرون من أى ملة كانوا فالمؤمنون خصم والكفار خصم وقيل الخصمان الجنة والنار لما روى عن أبى هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة فمالى لا يدخلنى الا ضعفاء الناس وسقطهم فقال الله عز وجل للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى وقال للنار انما أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى ولكل واحدة منكما ملؤها وعن عكرمة فقالت النار خلقنى الله لعقوبته وقالت الجنة خلقنى الله لرحمته وهذا القول بعيد عن السياق لان الله تعالى ذكر جزاء الخصمين بقوله تعالى (فالذين كفروا) وهو الفصل بينهم المعنى بقوله تعالى ان الله يفصل بينهم يوم القيامة (قطعت) اى قدرت (لهم) على مقادير جثثهم (ثياب من نار) اى نيران تحيط بهم احاطة الثياب سابغة عليهم كما كانوا يلبسون الثياب فى الدنيا تفاخرا وتكبرا وعن ابراهيم التيمى انه قال سبحان من قطع من النار ثيابا وعن سعيد بن جبير قال قطعت من

ا القبيلة الموقوفة والمشكاة الانبوبة فى

نحاس ولنبس من الآنية شئ اذا حمي أشد حرارة منه وقال لفقوله (يصب) أي اذا دخلوها (من فوق رؤسهم الحميم) قال ابن عباس يذاب على رؤسهم ولكن المشهور أنه الماء الحار وعن ابن عباس ٣ لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها والجملة حال من الضمير في لهم أو خبر ثان وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وقرأ حمزة والكسائي بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم هذا في الوصل فان وقف على رؤسهم فالجميع بكسر الهاء وسكون الميم وحمزة على أصله في الوقف على رؤسهم بتسهيل الهمزة (يصهر) أي يذاب (به) من شدة حرارته (ما في بطونهم) من شحم وغيره (والجلود) فيكون أثره في الباطن والظاهر سواء وقال ابن عباس يسقون ماء اذا دخل بطونهم أذابها والجلود مع البطون (ولهم مقامع) جمع مقمعة بكسر ثم فتح وهو عمود حديد وقيل سوط يضرب به الوجه والرأس ليرد المضروب عن مراده ردا عنيفا ثم نبه على المجاز بقوله تعالى (من حديد) أي يقمعون بها روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو أن مقمعا من حديد وضع في الأرض فاجتمع الثقلان ما أقلوه من الارض ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان (كلما أرادوا أن يخرجوا منها) أي من تلك الثياب أو من النار (من غم) أي كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذي يأخذ بأنفسهم (أعيدوا فيها) أي ردوا اليها بالمقامع وعن الحسن انهم يضربون بلهب النار فترفعهم حتى اذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا وعن الفضيل بن عياض قال والله ما طمعوا في الخروج لأن الأرجل مقيدة والأيدي موثقة ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها وعن الحسن قال كان عمر يقول أكثروا ذكر النار فان حرها شديد وقعرها بعيد وان مقامعها من حديد (و) قيل لهم (ذوقوا عذاب الحريق) أي البالغ نهاية الاحراق ولما ذكر تعالى ما لأحد الخصمين وهم الكافرون أتبعه ما للآخر وهم المؤمنون وغير الاسلوب فيه حيث لم يقل والذين آمنوا عطفا على الذين كفروا وأسند الادخال فيه الى الله تعالى وأكده بأن احمادا لحال المؤمنين وتعظيما لشأنهم فقال (ان الله) أي الذي له الأمر كله (يدخل الذين آمنوا) بالله ورسله (وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) من الفروض والنوافل الخالصة الشاهدة بثباتهم في الايمان (جنات تجري) أي دائما (من تحتها الأنهار) أي المياه الواسعة أينما أردت من أرضها أجريت نهرا في مقابلة ما يجري من فوق رؤس أهل النار عن معاوية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعد أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح (يحلون فيها) من حليت المرأة اذا لبست الحلي في مقابلة ما يزال من بواطن الكفرة وظواهرهم وقوله تعالى (من أساور) صفة مفعول محذوف أي حليا من أساور ومن زائدة أو تبعيضية وأساور جمع أسورة وهي جمع سوار ولما كان المقصود الحث على التقوى المعلية الى الانعام بالفضل شوق اليه بأعلى ما يعرف من الحلية فقال (من ذهب) وقوله تعالى (ولؤلؤا) معطوف على أساور لا على ذهب لأنه لم يعهد السوار منه الا أن يراد المرصعة وعن أبي موسى الاشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما

وما

٣ قوله وعن ابن عباس في بعض النسخ وعن أبي سعيد فليحرر اهـ مصححه

القنديل فيما المعنى

وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن وعن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عليهم التيجان ادنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب أخرجه الترمذى وقال حديث غريب وقرأ نافع وعاصم بنصب الهمزة الثانية مع التنوين عطفا على محل أساور وأو اضمار الناصب مثل ويؤتون والباقون بالخفض مع التنوين وابدل الهمزة الاولى الساكنة حرف مد السوسى وأبو بكر هذا حالة الوصل وأما الوقف لحمزة فيبدل الاولى واوا وكذا الثانية تبدل واوا وله أيضا فيها الروم وقوله تعالى (ولباسهم فيها حرير) وهو الابريسم المحرم لبسه على الرجال المكلفين فى الدنيا فى مقابلة ثياب الكفار كما كان لباس الكفار فى الدنيا حريرا ولباس المؤمنين دون ذلك وقد ورد فى الصحيحين عن عبد الله بن الزبير عن عمر رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا تلبسوا الحرير فان من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة قال ابن كثير قال عبد الله بن الزبير ومن لم يلبس الحرير فى الآخرة لم يدخل الجنة قال الله تعالى ولباسهم فيها حرير انتهى وفى الصحيحين ايضا عن عمر رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال انما يلبس هذا من لا خلاق له فى الآخرة قال البقاعى فيوشك المتشبه بالكفار فى لباسهم ان يلحقه الله بهم فلا يموت مسلما اه والاولى ان يحمل ذلك على أنه لا يلبسه مع السابقين فان من مات على الاسلام لا بد من دخوله الجنة او على من استحله من الرجال المكلفين (وهدوا) اى فى الدنيا (الى الطيب من القول) قال ابن عباس هو شهادة ان لا اله الا الله وقيل هو لا اله الا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله وقال السدى هو القرآن وقال عطاء هو قول أهل الجنة الحمد لله الذى صدقنا وعده (وهدوا الى صراط الحميد) اى طريق الله المحمود ودينه فكان فعلهم حسنا كما كان قولهم حسنا فدخلوا الجنة التى هى أشرف دار عند خير جار ولبسوا فيها أشرف الحلى كما تحلوا فى الدنيا بأشرف الطرائق عكس الكفار فانهم آثروا الفانى لحضوره وأعرضوا عن الباقى مع شرفه لغيابه فدخلوا نارا كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ثم ذكر تعالى بعد ما فصل بين الفريقين حرمة البيت وعظم جرم من صد عنه فقال تعالى (ان الذين كفروا) اى أوقعوا هذا الفعل الخبيث وصح عطف (ويصدون) وان كان مضارعا على الماضى لان المضارع قد لا يلاحظ منه زمان معين من حال أو استقبال بل يكون المقصود منه الدلالة على مجرد الاستمرار كما يقال فلان يحسن الى الفقراء لا يراد حال ولا استقبال وانما يراد استمرار وجود الاحسان منه فالصدود منهم مستمر دائم للناس (عن سبيل الله) اى عن طاعته باقتسامهم طرق مكة يقول بعضهم لمن يريد الخروج فينا ساحر وآخر يقول شاعر وآخر يقول كاهن فلا تسمعوا منه فانه يريد ان يردكم عن دينكم حتى قال من أسلم لم يزالوا بى حتى جعلت فى أذنى الكرسف مخافة ان أسمع شيئا من كلامهم وكانوا يؤذون من أسلم الى غير ذلك من أعمالهم (و) يصدون عن (المسجد الحرام) أن تقام شعائره من الطواف بالبيت والصلاة والحج والاعتمار ممن هو أهل ذلك من أوليائنا ثم وصفه بما يبين شديد ظلمهم فى الصد عنه بقوله تعالى (الذى جعلناه) بما لنا من العظمة (للناس) اى كلهم ثم بين جعله لهم بقوله تعالى (سواء العاكف) اى المقيم (فيه والباد) اى الطارئ من البادية وهو الجائى اليه من غربة وقال بعضهم يدخل فى العاكف الغريب اذا جاءه للتعبد وان لم يكن

كمثل نور مصباح فى مشكاة فى زجاجة (فان قلت) لم مثل

من أهله قال الزمخشري وقد استشهد بهذا أصحاب أبي حنيفة قائلين ان المراد بالمسجد الحرام مكة على امتناع جواز بيع دور مكة واجارتها انتهى وأيضا هو مذهب ابن عمر وعمر بن عبد العزيز واسحق الحنظلي المعروف بابن راهويه قال البيضاوي وهو مع ضعفه معارض بقوله تعالى الذين اخرجوا من ديارهم الآية وشرى عمر دار السجن فيها من غير نكير انتهى ووجه الرازي الضعف بقوله لان العاكف قد يراد به الملازم للمسجد المعتكف فيه على الدوام او في الاكثر فلا يلزم ما ذكر ويحتمل ان يراد بالعاكف المجاور للمسجد المتمكن في كل وقت من الاوقات من التعبد فيه فلا وجه لصرف الكلام عن ظاهره مع هذه الاحتمالات انتهى واستدل ايضا للجواز بقوله صلى الله عليه وسلم لما قال له أسامة بن زيد يا رسول الله أتنزل غدا بدارك بمكة فقال وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور وكان عقيل ورث أبا طالب دون علي وجعفر لانهما كانا مسلمين ولا يورث الا ما كان الميت مالكا له قال الروياني ويكره بيعها واجارتها للخروج من الخلاف ونازعه النووي في مجموعه وقال انه خلاف الاولى لانه لم يرد فيه نهي مقصود والاول كما قال الزركشي هو المنصوص بل اعترض على النووي فانه صرح بكراهة بيع المصحف والشطرنج ولم يرد في ذلك نهي مقصود •(تنبيه)• محل الخلاف بين العلماء في بيع نفس الارض أما البناء فهو مملوك يجوز بيعه بلا خلاف اي اذا لم يكن من أجزاء ارضها قيل ان اسحق الحنظلي ناظر الشافعي رضي الله تعالى عنه بمكة في بيع دور مكة فاستدل الشافعي بما مر واستدل هو على المنع بقوله حدثني بعض التابعين بانها لا تباع فقال له الشافعي لو قام غيرك مقامك لأمرت بفرك أذنيه اقول لك قال الله ورسوله تقول حدثني بعض التابعين وقال الرازي فقال اسحق فلما علمت ان الحجة لزمتني تركت قولي وقرأ حفص سواء بالنصب على انه ثاني مفعولي جعلناه اي جعلناه مستويا العاكف فيه والباد والباقون بالرفع على ان الجملة مفعول ثان لجعلناه ويكون للناس حالا من الهاء ويصح ان يكون حالا من المستكن في للناس بجعله مفعولا ثانيا لجعلنا وقرأ ورش وأبو عمرو البادي باثبات الياء بعد الدال وصلا لا وقفا وأثبتها ابن كثير وقفا ووصلا وحذفها الباقون وقفا ووصلا (ومن يرد فيه) اي المسجد الحرام (بالحاد بظلم) اي بميل الى الظلم والالحاد العدول عن القصد وأصله الحاد الحافر وقيل الالحاد فيه هو الشرك وعبادة غير الله وقيل هو كل شيء منهي عنه من قول أو فعل حتى شتم الخادم وقيل هو دخول الحرم بغير احرام أو ارتكاب شيء من محظورات الاحرام من قتل صيد أو قطع شجر وقال ابن عباس هو ان تقتل فيه من لا يقتلك او تظلم فيه من لا يظلمك وقال مجاهد هو تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات وقال سعيد بن جبير احتكار الطعام بمكة بدليل ما روى يعلى بن أمية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان احتكار الطعام في الحرم الحاد وعن عطاء قول الرجل في المبايعة لا والله بلى والله وعن عبد الله بن عمر انه كان له فسطاطان احدهما في الحل والآخر في الحرم فاذا أراد ان يعاتب اهله عاتبهم في الحل فقيل له فقال كنا نحدث ان من الالحاد فيه أن يقول الرجل لا والله وبلى والله •(تنبيه)• قوله بالحاد بظلم حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد ظالما (نذقه من عذاب اليم) اي مؤلم اي بعضه وخبر أن محذوف لدلالة جواب

الله نوره اي معرفته في قلب المؤمن بنور المصباح

الشرط

الشرط عليه تقديره ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم فكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك فينبغي لمن كان فيه ان يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده ولما ذكر تعالى الفريقين وجزاء كل وختمه بذكر البيت أتبعه التذكير به فقال تعالى (واذ) اى واذكر اذ (بوأنا لابراهيم مكان البيت) اى جعلنا له مكان البيت مبوأ اى مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة فان البيت رفع الى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فاعلم الله ابراهيم عليه السلام مكانه بريح ارسلها يقال لها الخجوج كشفت ما حوله فبناه على اسه القديم وقيل بعث الله تعالى له سحابة بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا ابراهيم ابن على دوري فبنى عليه وعن عطاء بن أبي رباح قال لما اهبط الله آدم عليه السلام كان رجلاه في الارض ورأسه في السماء يسمع تسبيح أهل السماء ودعاءهم وأنس اليهم فهابت الملائكة منه حتى شكت الى الله تعالى في دعائها وقيل في صلاتها فاخفضه الله تعالى الى الارض فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش وقيل أول من بنى البيت ابراهيم لما روى وورد في الصحيحين عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله اى مسجد وضع أولا قال المسجد الحرام قلت ثم اى قال بيت المقدس قلت كم بينهما قال أربعون سنة ثم فسر التبوئة بقوله تعالى (ان لا تشرك بي شيأ) فابتدأ باس العبادة ورأسها وعطف على النهي قوله تعالى (وطهر بيتي) اى عن كل ما لا يليق به من الاوثان والاقذار وطواف عريان به كما كانت العرب تفعل (للطائفين) اى الذين يطوفون بالبيت (فان قيل) كيف يكون النهي عن الشرك والامر بتطهير البيت تفسيرا للتبوئة (أجيب) بان التبوئة لما كانت مقصودة من أجل العبادة فكأنه قيل تعبدنا ابراهيم قلنا له لا تشرك بي شيأ وطهر بيتي للطائفين وقال ابن عباس للطائفين بالبيت من غير أهله (والقائمين) اى المقيمين (والركع السجود) اى المصلين من الكل وقال غيره القائمين هم المصلون لان المصلي لا بد أن يكون في صلاته جامعا بين القيام والركوع والسجود قال البيضاوي ولعله عبر عن الصلاة باركانها للدلالة على ان كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك كيف وقد اجتمعت (واذن في الناس) اى اعلمهم وناد فيهم (بالحج) وهو قصد البيت على سبيل التكرار للعبادة المخصوصة بالمشاعر المخصوصة وفي المأمور بذلك قولان أحدهما وعليه أكثر المفسرين أنه ابراهيم عليه السلام قالوا لما فرغ من بناء البيت قال الله تعالى له أذن في الناس بالحج قال يا رب وما يبلغ صوتي قال عليك الاذان وعلى البلاغ فصعد ابراهيم الصفا وفي رواية أخرى أبا قبيس وفي أخرى على المقام قال ابراهيم كيف اقول قال جبريل قل لبيك اللهم لبيك فهو أول من لبى وفي رواية أخرى صعد على الصفا فقال يا أيها الناس ان الله كتب عليكم حج هذا البيت العتيق فسمعه ما بين السماء والارض فما بقي شيء سمع صوته الا أقبل يلبي يقول لبيك اللهم لبيك وفي رواية أخرى ان الله يدعوكم الى حج بيته الحرام ليثيبكم به الجنة ويجيركم من النار فاجابه يومئذ من كان في اصلاب الرجال وأرحام النساء وكل من وصل اليه صوته من حجر أو شجر أو آكمة أو تراب قال مجاهد فما حج انسان ولا يحج احد حتى تقوم الساعة الا وقد اسمعه ذلك النداء فمن اجاب مرة حج مرة ومن اجاب مرتين او أكثر فيحج مرتين او أكثر بذلك المقدار وفي رواية فنادى على جبل أبي قبيس

دون نور والشمس مع ان نورها أتم (قلت) لان

يا أيها الناس ان ربكم بنى بيتا وأوجب الحج عليكم اليه فاجيبوا ربكم والتفت بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا فاجابه كل من كتب له ان يحج من أصلاب الرجال وارحام الامهات لبيك اللهم لبيك وعن ابن عباس قال لما امر الله ابراهيم بالاذان تواضعت له الجبال وخفضت وارتفعت له القرى القول الثانى ان المأمور بذلك هو النبى محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول الحسن واختاره أكثر المعتزلة واحتجوا عليه بان ما جاء فى القرآن وأمكن حمله على ان محمدا صلى الله عليه وسلم هو المخاطب به فهو أولى لان قوله تعالى واذ بوأنا تقديره واذكر يا محمد اذ بوأنا فهو فى حكم المذكور فاذا قال تعالى وأذن فاليه يرجع الخطاب امر أن يفعل ذلك فى حجة الوداع روى عن أبى هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا وجواب الامر (يأتوك) اى يأتوا تلك الذى بنيته لذلك مجيبين اصواتك بأذنتا سامعين طائعين مخبتين خاشعين من أقطار الارض كما يجيبون صوت الداعى من قبلنا اذا دعاهم بعد الموت بمثل ذلك (رجالا) اى مشاة على ارجلهم جمع راجل كنائم وقيام (و) ركبانا (على كل ضامر) اى بعير مهزول وهو يطلق على الذكر والانثى * (تنبيه) * على كل ضامر حال معطوف على حال كأنه قال رجالا وركبانا وقوله تعالى (يأتين) صفة لكل ضامر لانه فى معنى الجمع (من كل فج) اى طريق واسع بين جبلين (عميق) اى بعيد روى سعيد بن جبير باسناده عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الحاج الراكب له بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وللماشى سبعمائة من حسنات الحرم قيل يا رسول الله وما حسنات الحرم قال كل حسنة بمائة ألف حسنة وفى هذا دلالة على ان المشى افضل من الركوب وفى ذلك خلاف بين الائمة محله كتب الفقه * ولما كان الانسان ميالا الى الفوائد مشوقا الى جبل العوائد على الاتيان بما يرغبه فيما من فضله ما يقصده من امر المعاش بقوله تعالى (ليشهدوا) اى يحضروا حضورا تاما (منافع لهم) واختلف فى تلك المنافع فبعضهم حملها على منافع الدنيا وهى ان يتجروا فى أيام الحج وبعضهم حملها على منافع الآخرة وهى العفو والمغفرة وبعضهم حملها على الامرين جميعا وهو كما قال الرازى أولى فيأتون لتلك المنافع فينتقلون من مشعر من مشاعر الحج الى مشعر ومن مشهد الى مشهد مجموعين بالدعوة خاشعين بالهيبة خائفين من السطوة راجين للمغفرة ثم يتفرقون الى منازلهم ومواطنهم ويتوجهون الى مساكنهم كالسائرين الى مواقف الحشر يوم البعث والنشر المتفرقين الى دارى النعيم والجحيم فيا أيها المصدقون بان خليلنا ابراهيم عليه السلام نادى بالحج فاجابه بقدرتنا كرامة له من أراد الله تعالى حجه على بعد أقطارهم وتنائى دارهم ممن كان موجودا فى ذلك الزمان وممن كان فى ظهور الآباء والامهات الاقربين والابعدين صدقوا ان الداعى من قبلنا بالنفخ فى الصور يجيبه كل من كان على ظهرها ممن حفظنا له جسده أو سلطنا عليه الارض فرقناه حتى صار ترابا وما بين ذلك لان الكل علينا يسير قال الزمخشرى وعن أبى حنيفة رحمه الله انه كان يفاضل بين العبادات كلها قبل ان يحج فلما حج فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص * ولما كانت المنافع لا تطيب ولا تثمر الا بالتقوى وكان الحامل على التقوى ذكر الله تعالى قال تعالى (ويذكروا اسم الله) اى الجامع لجميع الكمالات بالتكبير وغيره عند الذبح وغيره وقيل كنى بالذكر عن الذبح لان

الله هو وتمثيل النور فى القلب والقلب فى الصدر

ذبح المسلمين لا ينفك عنه تنبيها على ان المقصود مما يتقرب به الى الله تعالى أن يذكر اسمه
واختلف في الايام المعلومات في قوله تعالى (في أيام معلومات) فالذي عليه أكثر المفسرين وهو
اختيار الشافعي وأبي حنيفة انه عشر ذي الحجة واحتجوا بانها معلومة عند الناس بحرصهم
على علمها من أجل ان وقت الحج في آخرها ثم للمنافع أوقات من العشر معروفة كيوم عرفة
والمشعر الحرام وكذلك الذبائح وقت منها وهو يوم النحر وعن ابن عباس أنها أيام التشريق
وقيل يوم عرفة الى آخر أيام التشريق وقيل يوم النحر الى آخر أيام التشريق واستدل لهذا
بقوله تعالى (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) وهي الابل والبقر والغنم من الهدايا والضحايا اي
يذكر واسم الله تعالى عند نحرها ونحر الضحايا والهدايا يكون في هذه الايام وتقدم الكلام
على الايام المعدودات في سورة البقرة عند قوله تعالى واذكروا الله في أيام معدودات وقوله
تعالى (فكلوا منها) اي من لحومها أمر اباحة وذلك أن الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم
هداياهم شيأ فامر الله تعالى بمخالفتهم واتفق العلماء على أن الهدي اذا كان تطوعا يجوز
للمهدي أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع لما روي عن جابر بن عبد الله في قصة حجة الوداع
فاتى علي ببدن من اليمن وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فنحر منها رسول الله صلى
الله عليه وسلم ثلاثا وستين بدنة ونحر علي ما غبر اي ما بقي وأشركه في بدنه ثم أمر من كل بدنة
ببضعة اي بقطعة فجعلت في قدر فطبخت فاكل من لحمها وشرب من مرقها أخرجه مسلم
واختلفوا في الهدي الواجب بالشرع مثل دم التمتع والقران والدم الواجب بافساد الحج
وفوته وجزاء الصيد هل يجوز للمهدي أن يأكل شيأ منه قال الشافعي رضي الله عنه
لا يأكل منه شيأ وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر وقال ابن عمر رضي الله عنهما لا يأكل
من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك وبه قال احمد واسحق وقال مالك يأكل من
هدي التمتع ومن كل هدي وجب عليه الا من فدية الاذى وجزاء الصيد والنذر وعن اصحاب
ابي حنيفة انه يأكل من كل من دم التمتع والقران ولا يأكل من واجب سواهما وقوله تعالى
(واطعموا البائس) اي الذي اصابه بؤس اي شدة (الفقير) اي المحتاج امر ايجاب وقد
قيل به في الاول (ثم ليقضوا تفثهم) اي يزيلوا أوساخهم وشعثهم كقص الشارب والاظفار
ونتف الابط والاستحداد عند الاحلال (وليوفوا نذورهم) من الهدايا والضحايا (وليطوفوا)
طواف الافاضة الذي به تمام التحلل (بالبيت العتيق) اي القديم لانه أول بيت وضع للناس
وقال ابن عباس سمي عتيقا لان الله تعالى أعتقه من تسلط الجبابرة فكم من جبار سار اليه
ليهدمه فمنعه الله تعالى منه (فان قيل) قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع (أجيب) بانه ما قصد التسلط
على البيت وانما تحصن به ابن الزبير فاحتال لاخراجه ثم بناه ولما قصد التسلط عليه ابرهة فعل
به ما فعل وقيل لان الله تعالى اعتقه من الغرق فانه رفع في أيام الطوفان وقال مجاهد لانه لم يملك
قط وقيل بيت كريم اي العتيق بمعنى الكريم من قولهم عتاق الخيل والطير والطواف ينقسم الى
ثلاثة هذا ويدخل وقته بعد الوقوف وهذا لا يجبر تركه بدم لانه ركن الثاني طواف الوداع ووقته
عند ارادة السفر من مكة وهو واجب يجبر تركه بدم الثالث طواف القدوم وهو مستحب للحاج
والحلال اذا قدم مكة وروت عائشة رضي الله تعالى عنها ان أول شيء بدأ به حين قدم النبي صلى

والصدر في البدن كالصبا
والمصباح في المشكاة والمشـ

الله عليه وسلم انه توضأ ثم طاف ثم لم تكن عمرة ثم حج أبو بكر وعمر مثله وقرأ ابن ذكوان وليوفوا وليطوفوا بكسر اللام فيهما والباقون باسكانها وفتح أبو بكر الواو من وليوفوا وشدد الفاء وقوله تعالى (ذلك) خبر مبتدأ مقدر اى الامر أو الشأن ذلك المذكور كما يقدم الكاتب جملة من كتابه فى بعض المعانى ثم اذا أراد الخوض فى معنى آخر قال هذا وقد كان كذا (ومن يعظم) اى بغاية جهده (حرمات الله) ذى الجلال والاكرام كلها وهى ما لا يحل انتهاكه من مناسك الحج وغيرها وقيل الحرمات هنا مناسك الحج وتعظيمها اقامتها واتمامها وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس الكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرم حتى يحل (فهو) اى التعظيم الحامل له على امتثال الامر فيها على وجهه واجتناب المنهى عنه كالذبح بذكر اسم غير الله والطواف عريانا (خير) كائن (له عند ربه) اى الذى أسدى اليه كل ما هو فيه من النعم فى الآخرة ومن انتهكها فهو شر عليه عند ربه ثم انه تعالى بين احكام الحج بقوله تعالى (واحلت لكم الانعام) اى أكلها بعد الذبح وهى الابل والبقر والغنم (الا ما يتلى) اى على سبيل التجديد مستمرا (عليكم) تحريمه فى قوله تعالى حرمت عليكم الميتة الآية فالاستثناء منقطع ويجوز أن يكون متصلا والتحريم لما عرض من الموت ونحوه فحافظوا على حدوده واياكم ان تحرموا مما احل شيأ كتحريم عبدة الاوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك وان تحلوا مما حرم الله شيأ كاحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك * ولما فهم من ذلك حل السوائب ونحوها وتحريم المذبوح للانصاب وكان سبب ذلك كله الاوثان تسبب عنه قوله تعالى (فاجتنبوا) اى بغاية الجهد اقتداء بابيكم ابراهيم عليه السلام الذى تقدم الايصاء له بمثل ذلك عند جعل البيت له مباءة (الرجس) اى القذر الذى من حقه ان يجتنب من غير أمر ثم بينه وميزه بقوله تعالى (من الاوثان) اى الذى هو الاوثان كما تجتنب الانجاس فهو بيان للرجس وتمييز له كقولك عندى عشرون من الدراهم وسمى الاوثان رجسا وكذا الخمر والميسر والازلام على طريق التشبيه يعنى انكم كما تنفرون بطباعكم من الرجس وتجتنبونه فعليكم ان تنفروا عن هذه الاشياء مثل تلك النفرة ونبه على هذا المعنى بقوله تعالى رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه جعل العلة فى اجتنابه انه رجس والرجس مجتنب وقوله تعالى (واجتنبوا قول الزور) تعميم بعد تخصيص فان عبادة الاوثان رأس الزور لان المشرك زاعم ان الوثن تحق له العبادة كأنه قال فاجتنبوا عبادة الاوثان التى هى رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا منه شيأ لتماديه فى القبح والسماجة وما ظنك بشئ من قبيله عبادة الاوثان والزور من الزور والازورار وهو الانحراف كما ان الافك من أفكه اذا صرفه فان الكذب منحرف مصروف عن الواقع وقيل قول الزور قولهم هذا حلال وهذا حرام وما أشبه ذلك من افترائهم وقيل هو قول المشركين فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك وقيل هو شهادة الزور لما روى أبو داود والترمذى انه صلى الله عليه وسلم صلى الصبح فلما سلم قام قائما واستقبل الناس بوجهه الكريم وقال عدلت شهادة الزور الاشراك بالله قالها ثلاث مرات ثم تلا هذه الآية وقوله تعالى (حنفاء لله) اى مسلمين عادلين عن كل دين سوى دينه (غير مشركين به) تأكيد لما قبله وهما حالان من الواو (ومن يشرك) اى يوقع شيأ من الشرك (بالله) الذى له العظمة كلها بشئ

في الزجاجة والزجاجة هي القنديل وهذا التمثيل

من

من الاشياء في وقت من الاوقات (فكأنما خر) اى سقط (من السماء) اعلو ما كان فيه من أوج التوحيد وسفول ما انحط اليه من حضيض الاشراك (فتخطفه الطير) اى تأخذه بسرعة وهو نازل في الهواء قبل ان يصل الى الارض (أو تهوى به الريح) اى حيث لم يجد في الهواء ما يمسكه (في مكان) من الارض (سحيق) بعيد فهو لا يرجى خلاصه ه (تنبيه) ه قال الزمخشرى يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب و المفرق فان كان تشبيها مركبا فكأنه قال من أشرك بالله تعالى فقد اهلك نفسه هلاكا ليس بعده هلاك بان صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعا في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة وان كان متفرقا فقد شبه الايمان في علوه بالسماء والذى ترك الايمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والاهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان الذى يطوح به في وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به في بعض المهاوى المتلفة اه قوله يطوح به الباء مزيدة للتأكيد قال الجوهرى طوحه اى توهه وذهب به ههنا وههنا وقرأ نافع بفتح الخاء وتشديد الطاء والباقون باسكان الخاء وتخفيف الطاء ثم عظم ما تقدم من التوحيد وما هو مسبب عنه بالاشارة بأداة البعد فقال تعالى (ذلك) اى الامر العظيم الكبير فن راعاه فاز ومن حاد عنه خاب ثم عطف عليه ما هو أعم من هذا القدر فقال تعالى (ومن يعظم شعائر الله) جمع شعيرة وهى البدن التى تهدى للحرم لانها من معالم الحج بان يختار عظام الاجرام حسانا سمانا غالية الاثمان ويترك المكاس في شرائها فقد كانوا يغالون في ثلاث و يكرهون المكاس فيهن الهدى والاضحية والرقبة وروى ابن عمر عن أبيه رضى الله عنهما أنه اهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها و يشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فيها جمل لابى جهل في أنفه برة من ذهب وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطى فيتصدق بلحومها وجلالها و يعتقد أن طاعة الله في التقرب بها واهدائها الى بيته المعظم أمر عظيم لابد أن يقام به و يسارع فيه (فانها) اى تعظيمها ناشئ (من تقوى القلوب) فمن للابتداء فان جعلت تبعيضية فلابد من حذف تقديره فان تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات ولا يستقيم المعنى الا بتقديرها لانه لابد من راجع من الجزاء الى من ليرتبط به وانما ذكرت القلوب لانها مراكز التقوى التى اذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الاعضاء وسميت تلك البدن شعائر لاشعارها بما يعرف به أنها هدى كطعن حديدة بسنامها قال البقاعى ولعله ماخوذ من الشعر لانها اذا جرحت قطع شئ من شعرها او ازيل عن محل الجرح فيكون من الازالة (لكم فيها) اى البدن (منافع) كركوبها والحمل عليها بما لا يضرها وعن ابراهيم من احتاج الى ظهرها ركب ومن احتاج الى لبنها شرب وقال أصحاب الرأى لا يركبها الا اذا اضطر اليها (الى أجل مسمى) وهو وقت نحرها (ثم محلها) اى مكان حل نحرها (الى البيت العتيق) اى عنده والمراد الحرم جميعه وقيل المراد بالشعائر المناسك ومشاهد الحج وبالمنافع الاجر والثواب في قضاء المناسك الى انقضاء آجالها وبمحلها محل الناس من احرامهم الى البيت يطوفون به طواف الزيارة (ولكل أمة) اى جماعة مؤمنة سلفت قبلكم (جعلنا منسكا) اى متعبدا

لا يستقيم الا فيما ذكراه
لان نور المعرفة آلات

وقربانا يتقربون به الى الله تعالى وقرأ حمزة والكسائى منسكا هنا وفى اخر السورة بكسر السين فى الموضعين فيكون بمعنى الوضع والباقون بفتحها مصدر بمعنى النسك (ليذكروا اسم الله) اى الملك الاعلى وحده على ذبائحهم وقرابينهم لانه الرازق لهم وحده فيقولون عند النحر الله أكبر لا اله الا الله والله أكبر اللهم منك واليك ثم علل الذكر بالنعمة تنبيها على التفكر فيها فقال تعالى (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) فوجب شكره لذلك عليهم وفيه تنبيه على ان القربان يجب ان يكون من الانعام (فالهكم) اى الذى شرع هذه المناسك كلها (اله واحد) وان اختلفت فروع شرائعه ونسخ بعضها بعضا واذا كان واحدا وجب اختصاصه بالعبادة فلذا قال تعالى (فله) وحده (اسلموا) اى انقادوا بجميع ظواهركم وبواطنكم فى كل ما أمر به أونهى عنه (وبشر المخبتين) اى المطيعين المتواضعين من الخبت وهو المطمئن من الارض وقيل هم الذين لا يظلمون واذا ظلموا لم ينتصروا ثم بين علاماتهم بقوله تعالى (الذين اذا ذكر الله) اى الذى له الجلال والجمال (وجلت) اى خافت خوفا مزعجا (قلوبهم) فيظهر عليهم الخشوع والتواضع لله تعالى (والصابرين) الذين صار الصبر عادتهم (على ما أصابهم) من الكلف والمصائب ولما كان ذلك قد يشغل عن الصلاة قال تعالى (والمقيمى الصلوة) فى أوقاتها والمحافظة عليها وان حصل لهم من المشاق بافعال الحج وغيره ما عسى ان يحصل ولذلك عبر بالوصف دون الفعل اشارة الى انه لا يقيمها على الوجه المشروع مع تلك المشاق والشواغل الا الراسخ فى حبها فهم لما تمكن حبها فى قلوبهم والخوف من الغفلة عنها كأنهم دائما فى صلاة (ومما رزقناهم ينفقون) فى وجوه الخير من الهدايا التى يغالون فى أثمانها وغير ذلك احسانا الى خلق الله تعالى * ولما قدم تعالى الحث على التقرب بالانعام كلها وكانت الابل أعظمها خلقا واجلها فى انفسهم أمر اخصها بالذكر فقال تعالى (والبدن) اى الابل المعروفة جمع بدنة كخشب وخشبة وانتصابه بفعل يفسره (جعلناها لكم من شعائر الله) اى من اعلام دينه التى شرعها الله تعالى وقيل لانها تشعر وهى ان تطعن بحديدة فى سنامها ليعلم بذلك انها هدى (لكم فيها خير) اى نفع فى الدنيا وثواب فى العقبى كما قال ابن عباس دنيا وأخرى وروى الترمذى وحسنه عن عائشة رضى الله تعالى عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما عمل ابن آدم يوم النحر عملا احب الى الله من هراقة الدم وانه ليؤتى يوم القيامة بقرونها واظلافها واشعارها وان الدم ليقع من الله بمكان قبل ان يقع الى الارض فطيبوا بها انفسا وروى الدارقطنى فى السنن عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنفقت الورق فى شئ أفضل من نحيرة فى يوم عيد وعن بعض السلف أنه لم يملك الا تسعة دنانير فاشترى بها بدنة فقيل له فى ذلك فقال سمعت ربى يقول لكم فيها خير (فاذكروا اسم الله عليها) اى على ذبحها بالتكبير حال كونها (صواف) اى قائمة على ثلاث معقولة اليد اليسرى لان البدنة تعقل احدى يديها فتقوم على ثلاث (فاذا وجبت جنوبها) اى سقطت سقوطا بردت به بزوال أرواحها فلا حركة لها أصلا من وجب الحائط وجبة سقط ووجبت الشمس وجبة غربت قال ابن كثير وقد جاء فى حديث مرفوع ولا تعجلوا النفوس أن تزهق وقوله تعالى (فكلوا منها) اى اذا كانت تطوعا أمر اباحة دفعا لما

يتوقف هو على اجتماعها كالذهن

قد يظن أنه يحرم الاكل منها لامر بتقريبها لله تعالى (واطعموا القانع) أى المتعرض للسؤال بخشوع وانكسار (والمعتر) أى السائل وقيل بالعكس وهو قول الشافعي رحمه الله تعالى قال في كتاب اختلاف الحديث القانع هو السائل والمعتر هو الزائر وقيل القانع هو الجالس فى بيته المتعفف الذى يقنع بما يعطى ولا يسأل ولا يتعرض والمعتر المتعرض وقيل القانع هو المسكين والمعتر الذى ليس بمسكين ولا تكون له ذبيحة فيجيء الى القوم فيتعرض لهم لاجل لحمهم (كذلك) أى مثل هذا التسخير العظيم الذى وصفناه من نحرها قياما (سخرناها) بعظمتنا التى لولاها ما كان ذلك (لكم) وذللناها بالا ونهارا مع عظمها وقوتها تأخذونها منقادة فتعقلونها وتحبسونها ولو شئنا لجعلناها وحشية لم تطق ولم تكن بأعجز من بعض الوحش التى هى أصغر منها جرما وأقل قوة (لعلكم تشكرون) انعامنا عليكم لتعرفوا أن ما ذللها لكم الا الله تعالى فيكون ما لكم حال من يرجو شكره فتوقعوا الشكر بان لا تحرموا منها الا ما حرم عليكم ولا تحللوا منها الا ما أحل وتهدوا منها ما حث على اهدائه وتتصرفوا بحسب ما أمركم ولما حث تعالى على التقرب بها مذكورا اسمه عليها قال تعالى (لن ينال الله) الذى له صفات الكمال (لحومها) المأكولة (ولا دماؤها) المهراقة أى لا يرفعان اليه (ولكن يناله التقوى منكم) أى يرفع اليه منكم العمل الصالح الخالص له مع الايمان كما قال تعالى والعمل الصالح يرفعه أى يقبله وقيل كان أهل الجاهلية اذا نحروا البدن نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت * ثم كرر سبحانه وتعالى التنبيه على عظيم تسخيرها منبها على ما أوجب عليهم به بقوله تعالى (كذلك) أى التسخير العظيم (سخرها لكم) بعظمته وغناه عنكم (لتكبروا الله على ما هداكم) أى أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه كأن تقولوا الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا فاختصر الكلام بان ضمن التكبير معنى الشكر وعدى تعديته * ثم وعد من امتثل الامر بقوله تعالى (وبشر المحسنين) أى المخلصين فيما يفعلونه ويذرونه كما قال تعالى من قبل وبشر المخبتين والمحسن هو الذى يفعل الحسن من الاعمال ويتمسك به فيصير محسنا الى نفسه بتوفير الثواب عليه وقال ابن عباس الموحدين وقوله تعالى (ان الله) أى الذى لا كفء له (يدفع عن الذين آمنوا) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وسكون الدال وفتح الفاء والباقون بضم الياء وفتح الدال وبعدها ألف وكسر الفاء أى يبالغ فى الدفع مبالغة من يغالب فيه ولم يذكر الله تعالى ما يدفعه عنهم حتى يكون أعظم وأفخم وأعم وان كان فى الحقيقة أنه يدفع بأس المشركين فلذلك قال تعالى بعده (ان الله) أى الذى له صفات الكمال (لا يحب) أى لا يكرم كما يفعل المحب (كل خوان) فى أمانته (كفور) لنعمته وهم المشركون قال ابن عباس خانوا الله فجعلوا معه شريكا وكفروا نعمه فنبه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذه صفته وقال مقاتل يدفع عن الذين آمنوا بمكة حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبى صلى الله عليه وسلم فى قتلهم سرا فنهاهم عن ذلك ثم أذن الله تعالى لهم فى قتالهم بقوله تعالى (أذن للذين يقاتلون) أى المشركين والمأذون لهم فيه وهو فى القتال محذوف لدلالة يقاتلون عليه (بانهم) أى بسبب أنهم (ظلموا) فكانوا يأتونه صلى الله عليه وسلم بين مضروب ومشجوج يتظلمون اليه فيقول

والفهم والعقل واليقظة وغيرها من الصفات

لهم اصبروا فانى لم أومر بالقتال حتى هاجر فانزلت وهى أول آية نزلت فى القتال بعد مانهى عنه
فى نيف وسبعين آية وقيل نزلت فى قوم بأعيانهم مهاجرين من مكة الى المدينة فاعترضهم
مشركو مكة فأذن الله لهم فى قتال الكفار الذين منعوهم من الهجرة بأنهم ظلموا واعتدوا عليهم
بالايذاء وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم بضم الهمزة والباقون بفتحها * ولما كان التقدير فان الله
أراد اظهار دينه بهم عطف عليه قوله تعالى (وان الله) أى الذى هو الملك الاعلى (على نصرهم
لقدير) وفى ذلك وعد من الله بنصر المؤمنين ثم وصفهم بقوله تعالى (الذين أخرجوا من
ديارهم) الى الشعب والحبشة والمدينة (بغير حق) أوجب ذلك ما أخرجوا (الا أن يقولوا) أى
بقولهم (ربنا الله) وهذا القول حق والاخراج به اخراج بغير حق ونظير ذلك قوله تعالى هل
تنقمون منا الا أن آمنا بالله * (تنبيه) * الذين أخرجوا مجرور نعت للذين يقاتلون أو بدل منه
أو منصوب على المدح أو مرفوع خبر مبتدأ محذوف (ولولا دفع الله) أى المحيط بكل شئ علما
(الناس بعضهم ببعض) أى بتسليط المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة لاستولى المشركون
على أهل الملل المختلفة فى أزمانهم وعلى متعبداتهم كما قال تعالى (لهدمت) أى خربت
(صوامع) وهى معابد صغار للرهبان مرتفعة (وبيع) كنائس للنصارى (وصلوات)
أى كنائس لليهود وسميت بها لانها يصلى فيها وقيل هى كلمة معربة أصلها بالعبرانية صلوتا
(ومساجد) للمسلمين (يذكر فيها) أى هذه المواضع المذكورة (اسم الله) العلى العظيم (كثيرا)
وتنقطع العبادات بخرابها وقيل الضمير يرجع للمساجد فقط تشريفا لها بان ذكر الله يحصل
فيها كثيرا (فان قيل) لم قدم الصوامع والبيع فى الذكر على المساجد (أجيب) بانها أقدم
فى الوجود وقيل أخرها فى الذكر كما فى قوله تعالى ومنهم سابق بالخيرات ولان الذكر آخر العمل
فلما كان نبينا صلى الله عليه وسلم خير الرسل وأمتنا خير الامم لاجرم كانوا آخرهم ولذلك قال صلى
الله عليه وسلم نحن الآخرون والسابقون وقيل أخرها لتكون بعيدة عن الهدم قريبة من
الذكر وقرأ نافع دفاع بكسر الدال وفتح الفاء وألف بعدها والباقون بفتح الدال وسكون الفاء
وقرأ نافع وابن كثير لهدمت بتخفيف الدال والباقون بتشديدها وأظهر التاء عند الصاد نافع
وابن كثير وعاصم وأدغمها الباقون (ولينصرن الله) أى الملك الاعظم (من ينصره) أى ينصر
دينه وأولياءه كائنا من كان منهم أو من غيرهم وقد أنجز الله تعالى وعده بان سلط المهاجرين
والانصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضهم وديارهم (ان الله)
أى الذى لا كفء له (لقوى) أى على ما يريد (عزيز) أى منيع فى سلطانه وقدرته وقوله تعالى
(الذين ان مكناهم) أى بما لنا من القدرة (فى الارض) باعلائهم على ضدهم (أقاموا الصلاة)
أى التى هى عماد الدين الدالة على المراقبة والاعراض عن تحصيل الفانى (وآتوا الزكاة)
أى المؤذنة بالزهد فى الحاصل منه المؤذن بعمل النفس للرحيل (وأمروا بالمعروف) أى الذى
أمر الله تعالى ورسوله به (ونهوا عن المنكر) أى الذى نهى الله ورسوله عنه وصف للذين
هاجروا وهو اخبار من الله تعالى بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين والانصار
رضى الله تعالى عنهم وعن عثمان رضى الله تعالى عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد ان الله تعالى أثنى
عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا * (تنبيه) * فى ذلك دليل على صحة خلافة الائمة الاربعة

الهيئة كان نور القنديل يتوقف على اجتماع

الخلفاء الراشدين اذ لم يجتمع ذلك غيرهم من المهاجرين واذا ثبت ذلك وجب أن يكونوا على
الحق ولا يجوز حمل الآية على أمير المؤمنين علي وحده لان الآية دالة على الجمع وعن الحسن هم
أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الذين منصوب بدل من قوله تعالى من ينصره (ولله) أي الملك
الأعلى (عاقبة الامور) أي آخر أمور الخلق ومصيرها اليه في الآخرة فلا يكون لاحد فيها أمر
حتى انه لا ينطق أحد الا باذن منه ولما بين سبحانه وتعالى فيما تقدم اخراج الكفار للمؤمنين
من ديارهم بغير حق وأذن في مقاتلتهم وضمن لرسوله صلى الله عليه وسلم النصرة وبين ان لله
عاقبة الامور أردفه بما يجري مجرى التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في الصبر على ما هم عليه
من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره فقال تعالى (وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم) أي
قبل قومك (قوم نوح) وتأنيث قوم باعتبار المعنى وتحقير المكذبين في قدرته وان كانوا من أشد
الناس (وعاد) أي ذوو الابدان الشداد قوم هود (وثمود) أولو الابنية الطوال في السهول
والجبال قوم صالح (وقوم ابراهيم) المتجبرون المتكبرون (وقوم لوط) الانجاس بما لم يسبقهم
اليه أحد من الناس (وأصحاب مدين) أرباب الاموال المجموعة من خزائن الضلال فانت
يا أشرف الخلق لست بأوحدي في التكذيب فان هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومك * ولما
كان موسى عليه السلام قد أتى من الآيات المرئية ثم المسموعة بما لم يأت بمثله أحد ممن تقدمه
فكان تكذيبه في غاية البعد غير سبحانه وتعالى الاسلوب تنبيها على ذلك وعلى ان الذين
أطبقوا على تكذيبه القبط وأما قومه فما كذبه منهم الا أناس يسير فقال تعالى (وكذب
موسى) وفي ذلك أيضا تعظيم للتأسية وتفخيم للتسلية (فأمليت للكافرين) اي أمهلتهم بتأخير
العقاب عنهم الى الوقت الذي ضربته لهم وعبر عن طول الاملاء باداة التراخي لزيادة التأسية
فقال تعالى (ثم أخذتهم) أخذ عزيز مقتدر ثم نبه سبحانه وتعالى بالاستفهام في قوله تعالى
(فكيف كان نكير) أي انكاري لافعالهم على أنه كان في أخذهم عبر وعجائب وأهوال
وغرائب حيث أبدلهم بالنعمة محنة وبالحياة هلاكا وبالعمارة خرابا والاستفهام لتقرير أي
وهو واقع موقعه فليحذر هؤلاء الذين أتيتهم باعظم ما أتى به رسول قومه مثل ذلك فان لم يؤمنوا
بك فعلت بهم كما فعلت بهؤلاء وان كانوا أمكن الناس فلا يحزنك أمرهم *(تنبيه)* أثبت
ورش الياء بعد الراء من نكيري في الوصل وحذفها الباقون وقفا ووصلا (وكأين) اي وكم (من
قرية) وقيل معنى كأين رب وقوله تعالى (أهلكتها) قرأه ابو عمرو بعد الكاف بتاء فوقية
مضمومة والباقون بعد الكاف بنون وبعدها ألف والمراد اهلها بدليل قوله تعالى (وهي) اي
والحال أنها (ظالمة) اي أهلها بكفرهم ويحتمل أن يكون المراد اهلاك نفس القرية فيدخل
تحت هلاكها هلاك من فيها لان العذاب النازل اذا بلغ أن يهلك القرية فتصير منهدمة حصل
هلاك من فيها وان كان الاول أقرب (فهي) أي فتسبب عن اهلاكها أنها (خاوية) أي
منهدمة ساقطة أي جدرانها (على عروشها) أي سقوفها اذ كل مرتفع أظلك من سقف بيت
أو خيمة أو ظلة أو كرم فهو عرش والخاوي الساقط من خوى النجم اذا سقط أو الخالي من
خوى المنزل اذا خلا من اهله وخوى بطن الحامل *(تنبيه)* قوله على عروشها لا يخلو من
أن يتعلق بخاوية فيكون المعنى أنها ساقطة على عروشها اي سقوفها اي تقصفت الاخشاب

القنديل والزيت والفتيلة وغيرها او لان نور الشمس

أولا من كثرة الامطار وغير ذلك من الاضرار فسقطت ثم سقط عليها الجدران فسقطت فوق السقوف أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها واما أن يكون خبرا بعد خبر كأنه قيل هي خاوية وهي على عروشها اى قائمة مظلة على عروشها على معنى أن السقوف سقطت الى الارض فصارت في قرار الحيطان مائلة فهي مشرفة على السقوف الساقطة وقوله فهي خاوية جملة معطوفة على اهلكتها الاعلى وهي ظالمة فانها حال كما قدرته والاهلاك ليس حال خرابها فلا محل لها ان نصبت كأين بمقدر يفسره أهلكتها الانها معطوفة على جملة اهلكتها كما مر وهي مفسرة لا محل لها وان رفعت كأين بالابتداء فمحلها الرفع خبرا ثانيا لكأين والخبر الاول اهلكتها (و) كم من (بئر معطلة) اى متروكة بموت اهلها (وقصر مشيد) اى رفيع خال بموت اهله * (تنبيه) * علم مما قدرته ان بئر معطوف على قرية وهو يقوى على ان عروشها بمعنى مع أوجه ٣ وروى ان هذه بئر نزل عليها صالح عليه السلام مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله تعالى من العذاب وهي بحضرموت وانما سميت بذلك لان صالحا حين حضرها مات وثم بلدة عند البئر اسمها حاضوراء بناها قوم صالح وأمروا عليهم جهلس بن جلاس وأقاموا بها زمانا ثم كفروا وعبدوا صنما فارسل الله تعالى اليهم حنظلة بن صفوان عليه السلام نبيا فقتلوه فاهلكهم الله تعالى وعطل بئرهم وخرب قصورهم وقوله تعالى (أفلم يسيروا) أى كفار مكة (في الارض) يحتمل أنهم لم يسافروا فحثوا على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله تعالى بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا وان يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا (فتكون) أى فتسبب عن سيرهم أن تكون (لهم قلوب) واعية (يعقلون بها) ما رأوه بابصارهم مما نزل بالمكذبين قبلهم (أو) أى أو يكون لهم ان كانوا عمى الابصار كما دل عليه جعل هذا قسيما (آذان يسمعون بها) أخبارهم بالاهلاك وخراب الديار فيعتبروا (فانها) أى القصة (لا تعمى الابصار) ويجوز أن يكون الضمير مبهما يفسره الابصار وفي تعمى راجع اليه والمعنى ان ابصارهم صحيحة سالمة لا عمى فيها وانما العمى لقلوبهم كما قال تعالى (ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) ولا يعتد بعمى الابصار فانه ليس بعمى بالاضافة الى عمى القلوب (فان قيل) فاي فائدة في ذكر الصدور (أجيب) بان الذي قد تعورف واعتقد أن العمى على الحقيقة للبصر وهو ان تصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب استعارة وتمثيل فلما أريد اثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى الى القلوب بحقيقة ونفيه عن الابصار احتاج هذا التصوير الى زيادة تبيين وفضل تعريف ليتقرر ان مكان العمى هو القلوب لا الابصار كما تقول ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك فقولك الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته للسانه وتثبيت لان محل المضاء هو لا غير فكأنك قلت ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة ولا سهوا مني ولكن تعمدت به اياه بعينه تعمدا قيل لما نزل قوله تعالى ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى قال ابن أم مكتوم يا رسول الله أنا في الدنيا أعمى افا كون في الآخرة اعمى فنزلت (ويستعجلونك بالعذاب) الذي توعدتهم به تكذيبا واستهزاء (و) الحال انه (لن يخلف الله) اى الذي لا كفء له (وعده) لامتناع الخلف فيه وفي خبره سبحانه وتعالى فيصيبهم

يشرق متوجها الى العالم السفلي ونور المعرفة يشرق

٣ قوله وهو يقوى الخ هكذا بالاصول التي بايدينا ولعل الظاهر وهو يقوى أن على عروشها اه مصححه

ماوعدهم به ولومن بعد حين لكنه تعالى حليم لايعجل بالعقوبة وقد انجزه يوم بدر (وان يوما عند ربك) اى المحسن اليك بتأخير العذاب عنهم اكراما لك من أيام الآخرة بالعذاب (كألف سنة مما تعدون) فى الدنيا وطول ايامه حقيقة أو من حيث ان أيام الشدائد مستطالة وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (وكأين من قرية أمليت لها) اى امهلتها كما امهلتكم (وهى ظالمة) كظلمكم بالاستعجال وغيره (ثم اخذتها) اى بالعذاب والمراد اهلها (والى المصير) اى المرجع فينقطع كل حكم دون حكمى فقيه وعيد وتهديد (فان قيل) لم قال فكأين من قرية اهلكتها بالفاء وقال هنا بالواو (أجيب) بان الاولى وقعت بدلا عن قوله تعالى فكيف كان نكير وأما هذه فحكمها حكم ماتقدم من الجملتين المعطوفتين بالواو أعنى قوله تعالى ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ٭ ولما كان الاستعجال لايطلب من الرسول وانما يطلب من المرسل أمره الله تعالى بان يديم لهم التخويف والانذار بقوله تعالى (قل) اى لهم ولا يصدنك عن دعائهم ما اخبرنالك به من عملهم (يا ايها الناس) اى جميعا من قومك وغيرهم (انما أنا لكم نذير مبين) اى بين الانذار والاقتصار على الانذار مع عموم الخطاب وذكر الفريقين لان صدر الكلام وسياقه للمشركين وانما ذكر المؤمنين وثوابهم بقوله (فالذين آمنوا) اى اقروا بالايمان (وعملوا) اى تصديقا لدعواهم ذلك (الصالحات لهم مغفرة) اى لما فرط منهم (ورزق) اى فى الدنيا بالغنائم وغيرها وفى الآخرة بما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (كريم) اى لاخسة فيه ولا دناءة بانقطاع ولا غيره زيادة فى غيظهم ٭ ولما كان فى سياق الانذار قال معبرا بالماضى زيادة فى التخويف (والذين سعوا) اى اوقعوا السعى ولو مرة واحدة (فى آياتنا) اى القرآن بابطالها (معجزين) من اتبع النبى صلى الله عليه وسلم اى ينسبونهم الى العجز ويثبطونهم عن الايمان او مقدرين عجزنا عنهم وقرأ ابن كثير وابو عمرو بتشديد الجيم بعد العين على انها حال مقدرة والباقون بالف بعد العين وتخفيف الجيم اى مسابقين مشاقين للساعين فيها بالتثبيط (أولئك) البعداء البغضاء (اصحاب الجحيم) اى النار استحقاقا بما سعوا فيكتنهم فيها ليعلموا انهم هم العاجزون ٭ ولما لاح من ذلك ان الشيطان ألقى شبها يفاخرون فيها يجادلهم فى دين الله الذى امر رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم باظهاره وتقريره واشهاره عطف عليه تسلية له صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (وما ارسلنا) اى بعظمتنا (من قبلك) ثم اكد الاستغراق بقوله تعالى (من رسول) وهو نبى أمر بالتبليغ (ولا نبى) وهو من لم يؤمر بالتبليغ وهذا هو المشهور بمعنى أرسلنا او حينا فالنبى اعم من الرسول ويدل عليه مارواه الامام احمد من أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن الانبياء فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا قيل فكم الرسل فقال ثلثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا وقيل كما هو ظاهر الآية الرسول من جمع الى المعجزة كتابا منزلا عليه والنبى غير الرسول من لا كتاب له وقيل يمكن حمل الآية عليه أيضا والرسول من يأتيه الكتاب والنبى يقال له وان يوحى اليه فى المنام (الا اذا تمنى) أى تلا على الناس ما أمره الله تعالى به أو حدثهم به واشتهى فى نفسه أن يقبلوه حرصا منه على ايمانهم شفقة عليهم (ألقى الشيطان) من التشبيه والتخييلات (فى أمنيته) اى فيما تلاه أو حدث به واشتهى أن يقبل ما يلقفه

متوجها الى العالم العلوى
كتنور المصباح والكثرة نفع

منه أولياؤه فيجادلون به أهل الطاعة ليضلوهم وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا كما يفعل هؤلاء فيما يفترون به في وجه الشريعة أصولا وفروعا من قولهم في القرآن شعر وسحر وكهانة وقولهم لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا وقولهم ان ما قتله الله تعالى بالموت حتف أنفه أولى بالاكل مما ذبح وقولهم نحن أهل الله وسكان حرمه ولا نخرج من الحرم فنقف في الحج بالمشعر الحرام وتقف الناس بعرفة ونحن نطوف في ثيابنا وكذا من ولدناه وأما غيرنا فلا يطوف الا عاريا ذكرا كان أو أنثى الا أن يعطيه أحدنا ما يلبسه ونحو ذلك مما يريدون أن يطفئوا به نور الله تعالى وكذا تأويلات الباطنية والاتحادية وانظارهم التي الحدوا فيها يضل الله تعالى بها من يشاء ثم يمحوها ممن أراد من عباده وما أراد من أمره (فينسخ) أي فيتسبب عن القائه أنه ينسخ (الله) أي المحيط بكل شيء علما وقدرة (ما يلقي الشيطان) فيبطله بايضاح أمره (ثم يحكم الله آياته) أي ثم يجعلها جلية فيما يريد منها وأدل دليل على ان هذا هو المراد من الافتتاح بالمعاجزة في الآيات الختام بقوله عطفا على ما تقديره فالله على ما يشاء قدير (والله عليم) باحوال خلقه (حكيم) فيما يفعله بهم وقيل انه صلى الله عليه وسلم حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما من المفسرين لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم اعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم لما جاءهم به تمنى في نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على ايمانهم فجلس ذات يوم في نادٍ من أندية قريش كثير أهله وأحب يومئذ أن لا يأتيه من الله تعالى شيء لينفروا عنه وتمنى ذلك فأنزل الله تعالى سورة والنجم اذا هوى فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى وسوس اليه الشيطان حتى سبق لسانه سهوا الى أن قال تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى ففرح به المشركون ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءة السورة كلها وسجد في آخرها وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد سوى الوليد بن المغيرة وابو أحيحة سعيد بن العاص فانهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها على جبهتهما وسجدا عليها لانهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا باحسن الذكر وقالوا قد عرفنا أن الله تعالى يحيي ويميت ويرزق ولكن هذه آلهتنا تشفع لنا عنده فاذا جعل لها محمد نصيبا فنحن معه فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل فقال يا محمد ماذا صنعت لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله عز وجل فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله تعالى خوفا شديدا فأنزل الله تعالى هذه الآية تعزية له وكان به رحيما وسمع بذلك من كان بارض الحبشة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبلغهم سجود قريش وقيل قد أسلمت أهل مكة فرجع أكثرهم الى عشائرهم وقالوا هم أحب الينا حتى اذا دنوا من مكة بلغهم أن الذي كانوا يتحدثون به من اسلام أهل مكة كان باطلا فلم يدخل أحد منهم الا بجوار مستخفيا فلما نزلت هذه الآية قالت قريش ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله تعالى فغير

الزيت وخلوصه مما يخالطه غالبا وقع التشبيه

ذلك

ذلك قال الرازى هذه رواية عامة المفسرين الظاهرية أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا على البطلان بالقرآن والسنة والمعقول أما القرآن فبوجوه أحدها قوله تعالى ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ثانيها قوله تعالى قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان أتبع الا ما يوحى الى ثالثها قوله تعالى وما ينطق عن الهوى وأما السنة فهى ما روى عن محمد بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال هذا من وضع الزنادقة وصنف فيه كتابا وقال البيهقى هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل فقد روى البخارى فى صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم وسجد فيها وسجد المسلمون والكفار والانس والجن وليس فيه حديث الغرانيق وأما المعقول فمن وجوه أحدها أن من جوز على النبى صلى الله عليه وسلم تعظيم الاوثان فقد كفر لان من المعلوم بالضرورة ان النبى كان معظم سعيه فى نفى الاوثان ثانيها قوله تعالى فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته وازالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول صلى الله عليه وسلم أقوى من نسخ هذه الآيات التى تبقى الشبهة معها فاذا أراد الله تعالى احكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنا فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى ثالثها وهو أقوى الوجوه لو جوزنا ذلك ارتفع الايمان عن شرعه ولجوزنا فى كل واحد من الاحكام والشرائع أن يكون كذلك فيبطل قوله تعالى بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس فانه لا فرق فى العقل بين النقصان من الوحى وبين الزيادة فيه وزاد الرازى أدلة أخرى على ذلك ثم قال وقد عرفنا ان هذه القصة موضوعة أكثر ما فى الباب ان جمعا من المفسرين ذكروها وخبر الواحد لا يعارض الدلائل العقلية والنقلية المتواترة انتهى وهذا هو الذى يطمئن اليه القلب وان أطنب ابن حجر العسقلانى فى صحتها ثم قال وحينئذ فيتعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر وهو قوله ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق الخ انتهى وعلى القول بها قد سلك العلماء فى ذلك مسالك أحسنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرتل القرآن فارتصده الشيطان فى سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمات محاكيا نغمته بحيث سمعه من دنا اليه فظنها من قوله وأشاعها وقال البيضاوى بعد أن ذكر بعض هذه القصة وهو مردود عند المحققين وان صح فابتلاء يتميز به الثابت على الايمان عن المتزلزل فيه انتهى قال ابن الاثير والغرانيق هنا الاصنام وهى فى الاصل الذكور من طير الماء واحدها غرنوق وغرنيق سمى به لبياضه قال وكانوا يزعمون أن الاصنام تقربهم من الله وتشفع لهم فشبهت بالطيور التى تعلو الى السماء وترتفع وقيل تمنى أى قرأ كقول حسان فى حق عثمان بن عفان

تمنى كتاب الله أول ليلة • تمنى داود الزبور على رسل

أى على تأن وتمهل * ولما ذكر سبحانه وتعالى ما حكم به من تمكين الشيطان من هذا الالقاء ذكر العلة فى ذلك بقوله تعالى (ليجعل ما يلقى الشيطان) أى فى المتلو أو المحدث به من تلك الشبهة فى قلوب أوليائه على التفسير الاول وعلى الثانى وغيره يؤول بما يناسبه (فتنة) اى اختبارا وامتحانا (للذين فى قلوبهم مرض) اى شك ونفاق (والقاسية) اى الجافية (قلوبهم) من قول الحق وهم المشركون (وان الظالمين) اى الواضعين لاقوالهم وافعالهم فى غير

في نوره دون نور الشمع مع انه اتم من نور المصباح

مواضعها كفعل من هو فى الظلام (لفى شقاق) اى خلاف لكونهم فى شق غير شق حزب الله بمعاجزتهم فى الآيات بتلك الشبهة التى تلقوها من الشيطان و جادلوا بها أولياء الرحمن (بعيد) عن الصواب لتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون وعلى ثبوت ذكر القصة و جرى عليه الجلال المحلى قال انهم فى خلاف طويل مع النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حيث جرى على لسانه ذكر آلهتهم بما يرضيهم ثم أبطل ذلك (وليعلم الذين أوتوا العلم) باتقان حججه واحكام براهينه وضعف شبه المعاجزين (أنه) أى النبى الذى تلوته أو تحدثت به (الحق) أى الثابت الذى لا يمكن زواله (من ربك) أى المحسن اليك بتعليمك اياه (فيؤمنوا به) لما ظهر لهم من صحته بما ظهر من ضعف تلك الشبهة (فتخبت) اى تطمئن وتخضع (له قلوبهم) وتسكن به نفوسهم (وان الله) بجلاله وعظمته (لهادى الذين آمنوا) فى جميع ما يلقيه أولياء الشيطان (الى صراط مستقيم) اى قويم وهو الاسلام يصلون به الى معرفة بطلانه حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة فيوصلهم ذلك الى سعادة الدارين (ولا يزال الذين كفروا) اى وجد منهم الكفر وطبعوا عليه (فى مرية) اى شك (منه) قال ابن جريج اى من القرآن وقيل مما ألقى الشيطان على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون ماباله ذكرها بخير ثم ارتد عنها وقيل من الدين وهو الصراط المستقيم (حتى تأتيهم الساعة) اى القيامة وقيل أشراطها وقيل الموت (بغتة) أى فجاة (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) قال عكرمة والضحاك لا ليل بعده وهو يوم القيامة والاكثرون على أنه يوم بدر وسمى عقيما لانه لم يكن فى ذلك اليوم للكفار خير كالريح العقيم التى لا تأتى بخير وقيل لانه لا مثل له فى عظم أمره لقتال الملائكة فيه و يقوى التفسير الاول قوله تعالى (الملك يومئذ) أى يوم القيامة (لله) أى المحيط بجميع صفات الكمال وحده ولما كان كانه قيل ما معنى اختصاصه به وكل الايام له قيل (يحكم بينهم) أى المؤمنين والكافرين بالامر الفصل الذى لا حكم فيه ظاهرا ولا باطنا لغيره كما ترونه الآن بل يمشى فيه الامر على أتم شئ من العدل (فالذين آمنوا وعملوا) أى وصدقوا دعواهم الايمان بان عملوا (الصالحات) وهى ما أمرهم الله به (فى جنات النعيم) فضلا منه ورحمة لهم بما رحمهم الله تعالى من توفيقهم للاعمال الصالحات (والذين كفروا) أى ستروا ما أعطيناهم من المعرفة بالادلة على وحدانيتنا (وكذبوا بآياتنا) أى ساعين بما أعطيناهم من الفهم فى تعجيزها بالمجادلة بما يوحى اليهم أولياؤهم من الشياطين من الشبه (فأولئك) أى البعداء عن أسباب الكرم (لهم عذاب مهين) أى شديد بسبب ما سعوا فى اهانة آياتنا مريدين اعزاز أنفسهم بعقائدهم والتكبر عن آياتنا (فان قيل) لم أدخل الفاء فى خبر الثانى دون الاول (أجيب) بان فى ذلك تنبيها على ان اثابة المؤمنين بالجنان تفضل من الله تعالى وان عقاب الكافرين مسبب عن أعمالهم ولذلك قال لهم عذاب ولم يقل هم فى عذاب ولما كان المؤمنون فى حصر مع الكفار رغبهم الله فى الهجرة بقوله تعالى (والذين هاجروا فى سبيل الله) أى فارقوا أوطانهم وعشائرهم فى طاعة الله وطلب مرضاته من مكة الى المدينة (ثم قتلوا) فى الجهاد بعد الهجرة وقرأ ابن عامر بتشديد التاء والباقون بالتخفيف وألحق به مطلق الموت فضلا منه بقوله تعالى (أو ماتوا) أى من غير قتل (ليرزقنهم الله) أى

(قوله رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)

الجامع لصفات الكمال (رزقا حسنا) هو رزق الجنة من حين تفارق أرواحهم أشباحهم لأنهم أحياء عند ربهم (وإن الله) أي الملك الأعلى القادر على الإحياء كالقدرة على الإماتة (لهو خير الرازقين) فإنه يرزق بغير حساب يرزق الخلائق عامة البار منهم والفاجر (فإن قيل) الرازق في الحقيقة هو الله تعالى لا رازق للخلائق غيره فكيف قال لهو خير الرازقين (أجيب) بأن غير الله يسمى رازقا على المجاز كقولهم رزق السلطان الجيش أي أعطاهم أرزاقهم وإن كان الرازق في الحقيقة هو الله تعالى هو ولما كان الرزق لا يتم إلا بحسن الدار وكان ذلك من أفضل الرزق قال تعالى دالا على ختام التي قبل (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) هو الجنة يكرمون فيه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولا ينالهم فيها مكروه وقيل هو خيمة في الجنة من درة بيضاء لها سبعون ألف مصراع وقرأ نافع بفتح الميم أي دخولا أو مكان دخول والباقون بالضم أي إدخالا أو مكان إدخال (وإن الله) أي الذي عمت رحمته وتمت عظمته (لعليم) بمقاصدهم وما عملوا مما يرضيه وغيره (حليم) عما قصروا فيه من طاعته وما فرطوا في جنبه تعالى فلا يعاجل أحدا بالعقوبة روي أن طوائف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبي الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين (ذلك) أي الأمر المقرر من صفات الله تعالى الذي قصصناه عليك (ومن عاقب) أي جازى من المؤمنين (بمثل ما عوقب به) ظلما من المشركين أي قاتلهم كما قاتلوه في الشهر الحرام (ثم بغي عليه) أي ظلم بإخراجه من منزله قال مقاتل نزلت في قوم من المشركين أتوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من محرم فقال بعضهم لبعض إن أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم فناشدهم المسلمون وكرهوا قتالهم وسألوهم أن يكفوا عن القتال لأجل الشهر الحرام فأبى المشركون فقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون لهم فنصرهم الله تعالى عليهم فذلك قوله تعالى (لينصرنه الله) أي الذي لا كفء له (إن الله) أي الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلما (لعفو) عن المؤمنين (غفور) لهم (فإن قيل) لم سمى ابتداء فعلهم عقوبة مع أن العذاب من العقب وهو منتف في الابتداء (أجيب) بأنه أطلق عليه ذلك للتعلق الذي بينه وبين الثاني كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها يخادعون الله وهو خادعهم وكما في قوله كما تدين تدان (فإن قيل) كيف طابق ذكر العفو الغفور في هذا الموضع مع أن ذلك الفعل جائز للمؤمنين لأنهم مظلومون (أجيب) بأن المنتصر لما اتبع هواه في الانتقام وأعرض عما ندب الله تعالى إليه بقوله تعالى ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور وبقوله تعالى فمن عفا وأصلح فأجره على الله وبقوله تعالى وأن تعفوا أقرب للتقوى فكان في إعراضه عما ندب إليه نوع إساءة أدب فكأنه تعالى قال عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها له فإني أنا الذي أذنت له فيها وفي ذكر العفو تنبيه على أنه تعالى قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده (ذلك) أي النصر (بأن الله) أي المتصف بجميع صفات الكمال (يولج) أي يدخل لأجل مصالح العباد المعنوي والحسي (الليل في النهار) فيمحو ظلامه بضيائه ولو شاء الله تعالى مؤاخذة الناس لجعله سرمدا فتعطلت مصالح النهار (ويولج النهار في الليل) فينسخ ضياءه بظلامه ولولا ذلك لتعطلت مصالح الليل أو بأن يدخل كلا منهما في الآخر

(إن قلت) لم عطف البيع على التجارة مع شمولها له

فيزيد به وذلك من أثر قدرته التي بها النصر (وأن الله) بجلاله وعظمته (سميع) لكل ما يقال (بصير) لكل ما يفعل دائم الاتصاف بذلك فهو غير محتاج الى سكون الليل ليسمع ولا لضياء النهار ليبصر لانه سبحانه وتعالى منزه عن الاغراض * ولما وصف تعالى نفسه بما ليس لغيره علله بقوله تعالى (ذلك) اى الاتصاف بتمام القدرة وشمول العلم (بان الله) اى القادر على كل ما أراد (هو) وحده (الحق) اى الثابت الواجب الوجود (وأن ما يدعون) اى يعبد المشركون (من دونه) وهو الاصنام (هو الباطل) الزائل وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة بالتاء على الخطاب للمشركين والباقون بالياء على الغيبة وانه همزة علوعمن ماف الرسم (وان الله) لكونه هو الحق الذي لا كفء له (هو) وحده (العلى) اى العالى على كل شئ بقدرته (الكبير) وكل ما سواه سافل حقير تحت قهره وامره * ثم انه سبحانه وتعالى استدل على كمال قدرته بامور ستة الاول قوله تعالى (ألم تر) اى أيها المخاطب (أن الله) اى المحيط قدرة وعلما (أنزل من السماء ماء) اى مطرا بان يرسل رياحا فتثير سحابا فيمطر على الارض الماء (فتصبح الارض) اى بعد أن كانت مسودة يابسة ميتة جامدة (مخضرة) حية بانها مهتزة نامية بما فيه رزق العباد وعمارة البلاد (فان قيل) لم قال تعالى فتصبح ولم يقل فاصبحت (أجيب) بان ذلك لنكتة وهي افادة بقاء المطر زمانا بعد زمان كما تقول أنعم على فلان عام كذا فاروح وأغدو شاكرا له ولو قلت فرحت وغدوت شاكرا له لم يقع ذلك الموقع (فان قيل) لم رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام (أجيب) بانه لو نصب لاعطى عكس ما هو الغرض لان معناه اثبات الاخضرار فينقلب بالنصب الى نفي الاخضرار ووجه ذلك بان النصب بتقدير أن وهو علم الاستقبال فيجعل الفعل مترقبا والرفع جزم باثباته مثاله أن تقول لصاحبك ألم ترأني أنعمت عليك فتشكر فان نصبته فانت ناف لشكره شاك في تفريطه فيه وان رفعته فانت مثبت لشكره وهذا وأمثاله مما يجب أن يتنبه له من اتسم بالعلم في علم الاعراب وتوقير أهله (ان الله) اى الذى له تمام النعم وكمال العلم (لطيف) بعباده في اخراج النبات بالماء (خبير) اى بمصالح الخلق ومنافعهم فانه مطلع على السرائر وان دقت فلا يستبعد عليه احياء من أراد بعد موته وقال ابن عباس لطيف بارزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط الامر الثاني قوله تعالى (له ما في السموات) اى التي أنزل منها الماء (وما في الارض) اى التي استقر فيها الماء ملكا وخلقا (وان الله) اى الذى له الاحاطة التامة (لهو) اى وحده (الغنى) في ذاته عن كل شئ (الحميد) اى المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله الامر الثالث قوله تعالى (ألم تر) اى أيها المخاطب (أن الله) ذا الجلال والاكرام (سخر لكم) فضلا منه (ما في الارض) كله من مسالكها وفجاجها وما فيها من حيوان وجماد وزرع وثمار ولولا تسخيره تعالى الابل والبقر مع قوتهما حتى يذللهما الضعيف من الناس لما انتفع بهما أحد منهم الامر الرابع قوله تعالى (والفلك) اى وسخر لكم الفلك اى السفن ثم بين تسخيرها بقوله (تجرى في البحر) العجاج المتلاطم بالامواج بريح طيبة للركوب والحمل (بامره) اى باذنه الامر الخامس قوله تعالى (ويمسك السماء) اى كراهة (أن تقع على الارض) التي تحتها مع علوها وعظمها وكونها بغير عمد رفعها لكونها (الا باذنه) اى بمشيئته فيقع ذلك يوم القيامة حين يريد طى هذا العالم وايجاد عالم البقاء (ان الله) اى الذى له الخلق والامر (بالناس) اى على ظلمهم (لرءوف) اى عا

(قلت) لان العبارة هي التصرف في المال لقصد

بحفظ من سرائرهم (رحيم) اى حيث هيأ لهم أسباب الاستدلال وفتح لهم ابواب المنافع
ودفع عنهم أبواب المضار (وهو) اى وحده (الذى أحياكم) اى عن الجمادية بعد أن أوجدكم
من العدم (ثم يميتكم) اى عند انقضاء آجالكم ليكون الموت واعظا لاولى البصائر منكم (ثم
يحييكم) اى يوم البعث للثواب والعقاب واظهار العدل فى الجزاء (ان الانسان) اى المشرك
(لكفور) اى لبليغ الكفر حيث لم يشكر على هذه النعم المحيطة به فيوحد الله تعالى وقال ابن
عباس هو الاسود بن عبد الاسد وأبو جهل والعاص بن وائل وأبى بن خلف قال الرازى
والاولى تعميمه فى كل المنكرين (لكل أمة) اى فى كل زمان (جعلنا منسكا) قال ابن عباس
شريعة يتعبدون بها (هم ناسكوه) اى عاملون بها وروى عنه أنه قال عيدا وقال مجاهد وقتادة
موضع قربان يذبحون فيه وقيل موضع عبادة وقرأ حمزة والكسائى منسكا بكسر السين
والباقون بفتحها (فلا ينازعنك فى الامر) اى أمر الذبائح نزلت فى بديل بن ورقاء وبشر بن
سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لاصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مالكم تاكلون مما تقتلون ولا
تاكلون مما قتله الله تعالى يعنون الميتة وقال الزجاج هو نهى له صلى الله عليه وسلم عن منازعتهم
كما تقول لا يضاربنك فلان اى فلا تضاربه وهذا جائز فى الفعل الذى لا يكون الا بين اثنين معناه
لا تنازعهم انت (وادع) اى أوقع الدعوة لجميع الخلق (الى ربك) المحسن اليك اى الى دينه
ثم علل ذلك بقوله (انك) مؤكدا له بحسب ما عندهم من الانكار (لعلى هدى) اى دين
واضح (مستقيم) هو دين الاسلام (وان جادلوك) اى فى أمر الدين بعد ان ظهر الحق ولزمت
الحجة (فقل الله) اى الملك المحيط بالعز والعلم (اعلم بما تعملون) من المجادلة الباطلة وغيرها
فيجازيكم عليه وهذا وعيد فيه رفق وكان ذلك قبل الامر بالقتال ولما امر الله تعالى
بالاعراض عنهم وكان ذلك شديدا على النفس لتشوفها الى النصرة رجاء فى ذلك بقوله تعالى
مستأنفا تحذيرا لهم (الله) اى الذى لا كفؤ له (يحكم بينكم) اى بينك مع أتباعك وبينهم (يوم
القيامة) الذى هو يوم التغابن (فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين ومن نصر ذلك اليوم
لم يبال بما حل به فهو كقوله وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون قال البغوى والاختلاف
ذهاب كل واحد من الخصمين الى خلاف ما ذهب اليه الآخر (ألم تعلم أن الله) بجلال عزه
وعظيم سلطانه (يعلم ما فى السماء والارض) فلا يخفى عليه شئ (ان ذلك) اى ما ذكر (فى كتاب)
كتب فيه كل شئ حكم بوقوعه قبل وقوعه وكتب جزاؤه وهو اللوح المحفوظ (ان ذلك) اى علم
ما ذكر (على الله) وحده (يسير) اى سهل لان علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات على
السواء (ويعبدون) اى المشركون على سبيل التجدد والاستمرار (من دون الله) اى من أدنى
رتبة من رتبه الذى قامت جميع الدلائل على احتوائه على جميع صفات الكمال وتنزيهه عن
شوائب النقص (ما لم ينزل به سلطانا) اى حجة واحدة من الحجج وهو الاصنام (وما ليس لهم به
علم) حصل لهم من ضرورة العقل واستدلاله بالحجة (وما للظالمين) اى الذين وضعوا التعبد فى
غير موضعه لارتكابهم لهذا الامر العظيم الخطر وأكد النفى واستغرق المنفى باثبات الجار
فقال تعالى (من نصير) اى ينصرهم من الله لا بما أشركوه به ولا من غيره فيدفع عنهم عذابه
او يقرر مذهبهم (واذا تتلى) اى على سبيل التحذير والمبالغة من اى تال كان (عليهم آياتنا) اى

الريح هو النسيم اسم من ذلك فعطف عليها الثلاثة بتوهم

من القرآن حال كونها (بينات) لا خفاء فيها عند من له بصيرة في شيء مما دعت اليه من الاصول والفروع (تعرف في وجوه الذين كفروا) اي تلبسوا بالكفر (المنكر) اي الانكار الذي هو منكر في نفسه فيظهر اثره في وجوههم من الكراهة والعبوس لما حصل لهم من الغيظ ثم بين مالاح في وجوههم بقوله تعالى (يكادون يسطون) اي يوقعون السطوة بالبطش والعنف (بالذين يتلون عليهم آياتنا) اي الدالة على اسمائنا الحسنى وصفاتنا العليا القاضية بوحدانيتنا مع كونها بينات في غاية الوضوح في انها كلامنا لما فيها من الحكم والبلاغة التي عجزوا عنها ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقابلهم بالوعيد بقوله تعالى (قل أفأنبئكم) اي أفأخبركم خبرا عظيما (بشر من ذلكم) بأكره اليكم من القرآن المتلو عليكم وقوله تعالى (النار) كأنه جواب سائل قال ما هو فقيل النار اي هو النار ويجوز أن تكون مبتدأ خبره (وعدها الله الذين كفروا) جزاء لهم فبئس الموعد هي (وبئس المصير) اي النار ولما بين تعالى انه لا حجة لعابد غيره اتبعه بان الحجة قائمة على ان ذلك الغير في غاية الحقارة فقال تعالى مناديا اهل العقل منبها تنبيها عاما (يا أيها الناس ضرب مثل) حاصله أن من عبدتموه من الاصنام أحقر منكم (فاستمعوا) اي أنصتوا (له) وتدبروه ثم فسره بقوله تعالى (ان الذين تدعون) اي تعبدون وتدعونهم في حوائجكم وتجعلونهم آلهة (من دون الله) اي الملك الاعلى من هذه الاصنام التي أنتم بها مفترون (لن يخلقوا ذبابا) اي لا قدرة لهم على ذلك في زمن من الازمان على حال من الاحوال مع صغره فكيف بما هو أكبر منه (ولو اجتمعوا) اي الذين زعمتموهم شركاء (له) اي الخلق لهم في هذا أمثالكم *(تنبيه)* محل ولو اجتمعوا له النصب على الحال كأنه قال تعالى يستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطا عليهم اجتماعهم لخلقه وتعاونهم عليه وهذا من أبلغ ما أنزل الله تعالى في تجهيل قريش واستركاك عقولهم والشهادة على أن الشيطان قد خدعهم بخداعه [٣] حيث وصفوا بالالهية التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها والاحاطة بالمعلومات عن آخرها صورا وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله وأصغره وأحقره ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم ان هذا الخلق الاقل الاذل لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا كما قال تعالى (وان يسلبهم الذباب) اي الذي تقدم أنهم لا قدرة لهم على خلقه وهو غاية في الحقارة (شيئا) اي من الاشياء جل أو قل (لا يستنقذوه منه) لعجزهم فكيف يجعلونهم شركاء لله هذا أمر مستغرب عبر عنه بضرب مثل *(تنبيه)* الذباب مفرد وجمعه القليل أذبة والكثير ذبان مثل غراب وأغربة وغربان وعن ابن عباس أنهم كانوا يطلون الاصنام بالزعفران ورؤسها بالعسل ويغلقون عليها الابواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله وعن ابن زيد كانوا يحلون الاصنام باليواقيت واللآلئ وأنواع الجواهر ويطيبونها بألوان الطيب فربما يسقط شيء منها فيأخذه طائر أو ذباب فلا تقدر الآلهة على استرداده منه (ضعف الطالب) قال الضحاك هو العابد (والمطلوب) المعبود وقال ابن عباس الطالب الذباب يطلب ما يسلب من الطيب الذي على الصنم والمطلوب هو الصنم وقيل على العكس الطالب الصنم والمطلوب الذباب اي لو طلب الصنم أن يخلق الذباب لعجز عنه ولما أنتج هذا جهلهم بالله عز وجل عبر عنه بقوله تعالى (ما قدروا الله

اي

القصور على بيع التجارة أو اريد بالتجارة الشراء اهـ مصد

[٣] قوله خدعهم بخداعه في نسخة خزمهم بخزائمه اهـ

اى الذى له الكمال كله (حق قدره) اى ماعظموه حق تعظيمه وماعرفوه حق معرفته ولا وصفوه حق صفته حيث اشركوا به مالا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه (ان الله) اى الجامع لصفات الكمال (لقوى) على خلق الممكنات باسرها (عزيز) اى لايغلبه شئ وآلهتهم التى يعبدونها عاجزة عن أقلها مقهورة من أذلها قال الكلبى فى هذه الآية وفى نظيرها فى سورة الاذمام انها نزلت فى جماعة من اليهود مالك بن الصيف وكعب بن الاشرف وكعب بن أسد وغيرهم حيث قالوا ان الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والارض وأجناس خلقها استلقى واستراح ووضع احدى رجليه على الاخرى فنزلت هذه الآية تكذيبا لهم ونزل قوله تعالى وما مسنا من لغوب قال الرازى واعلم ان منشأ هذه الشبهة هو القول بالتشبيه فيجب تنزيه ذات الله تعالى عن مشابهة سائر الذوات خلاف مايقوله المشبهة وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات خلاف مايقوله الكرامية وتنزيه افعاله عن مشابهة سائر الافعال أعنى عن الغرض والدواعى واستحقاق المدح والذم خلاف مايقوله المعتزلة قال ابو القاسم الانصارى رحمه الله تعالى فهو سبحانه وتعالى خبير النعت عزيز الوصف فالاوهام لاتصوره والافكار لاتقدره والعقول لاتمثله والازمنة لاتدركه والجهات لاتحويه ولاتحده صمدى الذات سرمدى الصفات * ولما ذكر سبحانه وتعالى مايتعلق بالالهيات ذكر مايتعلق بالنبوات بقوله تعالى (الله) اى الملك الاعلى (يصطفى) اى يختار ويختص (من الملائكة رسلا) كجبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل عليهم الصلاة والسلام (ومن الناس) كابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم نزلت حين قالت المشركون أأنزل عليه الذكر من بيننا فاخبر تعالى ان الاختيار اليه يختار من يشاء من خلقه (ان الله) أى الذى له الجلال والجمال (سميع) لمقالتهم (بصير) بمن يتخذه رسولا (يعلم مابين أيديهم) اى الرسل (وماخلفهم) اى علمه محيط بما هم مطلعون عليه وبما غاب عنهم فلا يفعلون شيأ الا باذنه (والى الله) أى وحده تعالى (ترجع) بغاية السهولة (الامور) يوم يتجلى لفصل القضا فيكون أمره ظاهرا لاخفاء فيه ولا يصدر شئ من الاشياء الا على وجه العدل الظاهر لكل احد ولا يكون لاحد التفات الى غيره وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح التاء وكسر الجيم والباقون بضم التاء وفتح الجيم ولما أثبت سبحانه وتعالى أن الملك والامر له وحده خاطب المقبلين على دينه وهم الخلص من الناس بقوله تعالى (يا يها الذين امنوا) أى تلبسوا بالايمان (اركعوا) تصديقا لايمانكم (واسجدوا) أى صلوا الصلاة التى شرعتها لكم فانها رأس العبادة ليكون دليلا على صدقكم فى الاقرار بالايمان * (تنبيه) * انما خص هذين الركنين فى التعبير عن الصلاة لانهما لمخالفتهما الهيآت المعتادة هما الدالان على الخضوع فحسن التعبير بهما وذكر عن ابن عباس ان الناس كانوا فى أول الاسلام يركعون ولا يسجدون وقيل كان الناس أول ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود حتى نزلت هذه الآية ولما خص أفضل العبادة عم بقوله تعالى (واعبدوا) أى بانواع العبادة (ربكم) أى المحسن اليكم بكل نعمة دينية ودنيوية * ولما ذكر عموم العبادة أتبعها ماقد يكون أعم منها مماصورته صورتها أوقد يكون بلانية فقال (وافعلوا الخير) أى كله من القرب كصلة الارحام وعيادة المريض ونحو ذلك من معالى الاخلاق بنية وبغيرنية

الرجم وبالسبع البيع
مطلقا (قوله والله خالق كل

حتى يكون لكم ذلك عادة فيخف عليكم عمله لله تعالى قال أبو حيان بدأ تعالى بخاص وهو
الصلاة ثم بعام وهو واعبدوا ربكم ثم بأعم وهو وافعلوا الخير (لعلكم تفلحون) أي
افعلوا هذا كله وأنتم راجون الفلاح وهو الفوز بالبقاء في الجنة طامعون فيه غير مستيقنين
ولا تتكلوا على أعمالكم وقال الامام أبو القاسم الانصاري لعل كلمة ترج تشعر بأن الانسان
قلما يخلو في أداء الفرائض من تقصير وليس هو على يقين من أن الذي أتى به مقبول عند الله
والعواقب مستورة وكل ميسر لما خلق له * (تنبيه) * اختلف في سجود التلاوة عند
قراءة هذه الآية فذهب قوم الى أنه يسجد عندها وهو قول عمر وعلي وابن عمر وابن مسعود
وابن عباس وبه قال ابن المبارك والشافعي وأحمد واسحق لظاهر ما فيها من الامر بالسجود
ولقول البيضاوي ولقوله صلى الله عليه وسلم فضلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجدهما فلا
يقرأهما حديث ضعيف رواه الترمذي وضعفه وذهب قوم الى أنه لا يسجد وهو قول سفيان
الثوري وقول أبي حنيفة وأصحابه لانهم يقولون قرن السجود بالركوع في ذلك فدل ذلك على
انها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة * ولما كان الجهاد أساس العبادة وهو مع كونه حقيقة في
جهاد الكفار صالح لان يعم كل أمر بمعروف ونهي عن منكر بالمال والنفس بالقول والفعل
بالسيف وغيره وكل جهاد في تهذيب النفس واخلاص العمل ختم به فقال تعالى (وجاهدوا
في الله) أي لله ومن أجله أعداء دينه الظاهرة كأهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس
ولقول البيضاوي وعنه عليه الصلاة والسلام انه رجع من غزوة تبوك فقال رجعنا من
الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر حديث رواه البيهقي وضعف اسناده وقال غيره لا أصل له
قيل أراد بالاصغر جهاد الكفار وبالاكبر جهاد النفس (حق جهاده) أي باستفراغ الطاقة
في كل ما أمر به من جهاد العدو والنفس على الوجه الذي امر به من الحج والغزو وغيرهما
(فان قيل) ما وجه هذه الاضافة وكان القياس حق الجهاد في الله أو حق جهادكم في الله
كما قال تعالى وجاهدوا في الله (أجيب) بأن الاضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص فلما
كان الجهاد مختصا بالله من حيث انه مفعول لأجله صحت اضافته اليه وعن مجاهد عن الكلبي
ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم * ولما أمر الله تعالى بهذه
الاوامر أتبعها ببعض ما يجب به شكره وهو كالتعليل لما قبله فقال تعالى (هو اجتباكم) أي
اختاركم لدينه ولنصرته وجعل الرسالة فيكم والرسول منكم وجعله أشرف الرسل
ودينه أشرف الاديان وكتابه أعظم الكتب وجعلكم لكونكم أتباعه خير الامم (وما جعل
عليكم في الدين) أي الذي اختاره لكم (من حرج) أي من ضيق وشدة وهو أن المؤمن لا يبتلى
بشيء من الذنوب الا جعل الله تعالى له منه مخرجا بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم
والقصاص وبعضها بأنواع الكفارات من الامراض والمصائب وغير ذلك ٣ فليس في دين
الاسلام ما لا يجد العبد سبيلا الى الخلاص من الذنوب ومن العقاب لمن وفقه الله تعالى وسهله
عند الضرورات كالقصر والتيمم وأكل الميتة والفطر للمريض والمسافر وغير ذلك قال صلى
الله عليه وسلم اذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم رواه البخاري وعن ابن عباس أنه قال
الحرج ما كان على بني اسرائيل من الآصار التي كانت عليهم وضعها الله تعالى عن هذه

الامة

دابة من نام * ان قلت لم خص الدابة بالذكر مع

٣ قوله فليس في دين الاسلام كذا في النسخ وهي عبارة غير مستقيمة او فيها سقط والصواب في عبارة ان يقال فليس في دين الاسلام ما لا يجد العبد سبيلا الى الخلاص منه من الذنوب والآصار بل المخرج من الذنوب بما سبق من التوبة ونحوها لمن وفقه الله ومن الآصار بالتسهيل عند الضرورات كالقصر الخ اه

الامة وقوله تعالى (ملة أبيكم) نصب بنزع الخافض وهو الكاف أو على المصدر بفعل دل عليه مضمون ما قبله بحذف المضاف أى وسع دينكم توسعة ملة أبيكم أو على الاغراء أى اتبعوا ملة أبيكم أو على الاختصاص أى أعنى بالدين ملة أبيكم كقولك الحمد لله الحميد وقوله تعالى (ابراهيم) عطف بيان (فان قيل) لم كان ابراهيم أبا للامة كلها (أجيب) بأنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أبا لامته لان أمة الرسول فى حكم أولاده واختلف فى عود ضمير (هو) على قولين أحدهما أنه يعود على ابراهيم عليه الصلاة والسلام وان لكل نبى دعوة مستجابة ودعوة ابراهيم عليه السلام ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك فاستجاب الله تعالى له فجعلها محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته والثانى أنه يعود على الله تعالى فى قوله تعالى هو اجتباكم وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال ان الله تعالى (سماكم المسلمين من قبل) أى فى كل الكتب المنزلة التى نزلت قبل انزال هذا القرآن (وفى هذا) أى وسماكم فى هذا القرآن الذى أنزل عليكم من بعد انزال تلك الكتب وهذا القول كما قال الرازى أقرب لانه تعالى قال (ليكون الرسول شهيدا عليكم) أى يوم القيامة أنه بلغكم (وتكونوا شهداء على الناس) أى ان رسلهم بلغتهم فبين أنه تعالى سماهم بذلك لهذا الغرض وهذا لا يليق الا بالله تعالى وانما كانوا شهداء على الناس لسائر الانبياء لانهم لم يفرقوا بين أحد منهم وعلموا ان أخبارهم من كتابهم على لسان نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم فلذلك صحت شهادتهم وقبلها الحكم العدل وعن كعب أعطيت هذه الامة ثلاثا لم يعطهن الا الانبياء جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم فى الدين من حرج وقال تعالى ادعونى استجب لكم وعن أبى حاتم عن ابن زيد أنه قال لم يذكر الله بالايمان والاسلام غير هذه الامة ذكرها بهما وكررهما جميعا ولم يسمع بامة ذكرت بالاسلام والايمان غيرها وعن مكحول ان النبى صلى الله عليه وسلم قال تسمى الله عز وجل باسمين سمى بهما أمتى هو السلام وسمى أمتى المسلمين وهو المؤمن وسمى أمتى المؤمنين * (تنبيه) * فى الآية دليل على أن شهادة غير المسلم ليست مقبولة * ولما ندبهم تعالى ليكونوا خير الامم تسبب عن ذلك قوله تعالى (فأقيموا الصلوة) التى هى أركان قلوبكم وصلة ما بينكم وبين ربكم أى داوموا عليها (وآتوا الزكوة) التى هى طهرة أبدانكم وصلة بينكم وبين اخوانكم (واعتصموا بالله) أى المحيط بجميع صفات الكمال فى جميع ما أمركم به من المناسك التى تقدمت وغيرها ثم علل تعالى أهليته بقوله تعالى (هو) أى وحده (مولاكم) أى المتولى لجميع أموركم فهو ينصركم على كل من يعاديكم بحيث أن تتمكنوا من اظهار هذا الدين من مناسك الحج وغيرها * ثم علل الامر بالاعتصام وتوحده بالولاية بقوله تعالى (فنعم المولى) أى هو (ونعم النصير) أى الناصر لكم لانه تعالى اذا تولى أحدا كفاه كل ما أهمه واذا نصر أحدا أعلاه عن كل من خاصمه ولا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته الحديث انه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت وهذا نتيجة التقوى وما قبله من أفعال الطاعة دليلها فقد انطبق آخر السورة على أولها ورد مقطعها على مطلعها وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحج أعطى من الاجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقى حديث موضوع

ان غيرها مثلها كما يدل له قوله فى الانبياء وجعلنا من

سورة المؤمنين مكية

وهي مائة وثمان أو تسع عشرة آية وألف وثمانمائة وأربعون كلمة وأربعة آلاف وثمانمائة حرف

(بسم الله) الذي له الامر كله (الرحمن) الذي عم انعامه (الرحيم) الذي خص من أراد بالايمان عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحي يسمع عنده وجهه دوي كدوي النحل فانزل عليه يوما فمكث ساعة حتى سرى عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا اللهم أرضنا وارض عنا ثم قال لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشر آيات قال ابن عباس قد سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا في الجنة وقيل الفلاح البقاء والنجاة روى هذا الحديث الترمذي وغيره وأنكره النسائي وغيره *(تنبيه)* قال الزمخشري قد نقيضة لما هي تثبت المتوقع ولما تنفيه ولا شك ان المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهي الاخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه (فان قيل) ما المؤمن (أجيب) بانه في اللغة هو المصدق وأما في الشريعة فقد اختلف فيه على قولين أحدهما ان كل من نطق بالشهادتين مواطئا قلبه لسانه فهو مؤمن والآخر أنه صفة مدح لا يستحقها الا البر التقي دون الفاسق * ثم انه تعالى حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمعا الصفات سبعة الصفة الاولى كونهم مؤمنين الصفة الثانية المذكورة في قوله تعالى (الذين هم) أي بضمائرهم وظواهرهم (في صلاتهم خاشعون) قال ابن عباس مخبتون أذلاء وقيل خائفون وقيل متواضعون وعن قتادة الخشوع الزام موضع السجود روى الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي رافعا بصره الى السماء فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره الى نحو مسجده أي موضع سجوده وكان الرجل اذا قام الى الصلاة هاب الرحمن أن يشد بصره الى شيء أو يحدث نفسه بشيء من شأن الدنيا وقيل هو جمع الهمة لها والاعراض عما سواها ومن الخشوع أن يستعمل الادب فيتوقى كف الثوب والعبث بجسده وثيابه والتشبيك والالتفات والتمطي والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقعة والاختصار وتقليب الحصى روى الترمذي لكن بسند ضعيف أنه صلى الله عليه وسلم ابصر رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه ونظر الحسن الى رجل يعبث بالحصى وهو يقول اللهم زوجني الحور العين فقال بئس الخاطب انت تخطب وانت تعبث وعنه انه قال كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي الى العقوبة أسرع وعن معاذ بن جبل من عرف من على يمينه وشماله وهو في الصلاة فلا صلاة له وروى انه صلى الله عليه وسلم قال انما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها وقال صلى الله عليه وسلم كم من قائم حظه من قيامه التعب والنصب وقال من لم تنهه الصلاة عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا فينبغي

المراد بكل شيء محيط (قلت)

للشخص

للشخص ان يحتاط فى صلاته ليوقعها على التمام فان بعض العلماء اختار الامامة فقيل له فى ذلك فقال أخاف ان تركت الفاتحة ان يعاتبنى الشافعى وان قرأتها ان يعاتبنى أبو حنيفة فاخترت الامامة طلبا للخلاص من هذا الخلاف (فان قيل) لم أضيفت الصلاة اليهم (أجيب) بان الصلاة وصلة بين الله وبين عباده والمصلى هو المنتفع بها وحده وهى عدته وذخيرته فهى صلاته وأما الله تعالى فهو غنى متعال عن الحاجة اليها والانتفاع بها ٭ الصفة الثالثة المذكورة فى قوله تعالى (والذين هم) اى بضمائرهم التى تتبعها ظواهرهم (عن اللغو) قال ابن عباس عن الشرك (معرضون) اى تاركون وقال الحسن عن المعاصى وقال الزجاج هو كل باطل ولهو وما لا يحمد من القول والفعل وقيل هو كل ما لا يعنى الشخص من قول أو فعل وهو ما يستحق ان يسقط ويلغى فدحهم الله تعالى بانهم معرضون عن هذا اللغو والاعراض عنه هو بان لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه كما قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما اى اذا سمعوا الكلام القبيح أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه ٭ الصفة الرابعة المذكورة فى قوله تعالى (والذين هم للزكوة فاعلون) اى مؤدون ٭ (تنبيه) ٭ الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى فالعين هو القدر الذى يخرجه المزكى من النصاب الى المستحق والمعنى فعل المزكى الذى هو التزكية وهو المراد هنا لانه ما من مصدر الا ويعبر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه فاعل تقول للضارب فاعل الضرب وللقاتل فاعل القتل وللمزكى فاعل التزكية ويجوز ان يراد بالزكاة العين ويقدر مضاف محذوف وهو الاداء وقيل الزكاة هنا هى العمل الصالح لان هذه السورة مكية وانما فرضت الزكاة بالمدينة سنة اثنتين من الهجرة قال البقاعى والظاهر ان التى فرضت بالمدينة هى ذات النصب وان أصل الزكاة كان واجبا بمكة كما قال تعالى فى سورة الانعام وآتوا حقه يوم حصاده انتهى ٭ الصفة الخامسة المذكورة فى قوله تعالى (والذين هم لفروجهم) فى الجماع ومقدماته (حافظون) اى دائما لا يتبعونها شهوتها والفرج اسم لسوأة الرجل والمرأة وحفظه التعفف عن الحرام ثم استثنى من ذلك قوله تعالى (الا على أزواجهم) اللاتى استحقوا ابضاعهن بعقد النكاح ولعلو الذكر عبر بعلى ونظيره كان زياد على البصرة اى واليا عليها ومنه قولهم فلانة تحت فلان ومن ثم سميت المرأة فراشا وقيل على بمعنى من وجرى على ذلك البغوى (أو ما ملكت ايمانهم) رقابه من الاماء (فان قيل) هلا قال تعالى أو من ملكت (أجيب) بانه انما عبر بما لقرب الاماء مما لا يعقل لنقصهن عن الحرائر الناقصات عن الذكر ولانه اجتمع فيها وصفان أحدهما الانوثة وهى مظنة نقصان العقل والاخرى كونها بحيث تباع وتشترى كسائر السلع قال البغوى والآية فى الرجال خاصة لان المرأة لا يجوز لها ان تستمتع بفرج مملوكها (فانهم غير ملومين) على ذلك اذا كان على وجه أذن فيه الشرع دون الاتيان فى غير المأتى وفى حال الحيض أو النفاس أو نحو ذلك كوطء الامة قبل الاستبراء فانه حرام ومن فعله فانه ملوم (فمن ابتغى) اى طلب متعديا (وراء ذلك) العظيم المنفعة الذى وقع استثناؤه بزنا أو لواط أو استمناء بيد أو بهيمة أو غيرها (فأولئك) المبعدون من الفلاح (هم العادون) اى المبالغون فى تعدى الحدود عن سعيد ابن جبير قال عذب الله تعالى أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم اى فى أيديهم وقيل يحشرون

لان القدرة فيها أعظم واجب منها الى غيرها (قوله)

وأيديهم حيالى ٭ الصفة الخامسة المذكورة في قوله تعالى (والذين هم لأماناتهم) أي في الفروج وغيرها سواء كانت بينهم وبين الله تعالى كالصلاة والصيام أو بينهم وبين الخلق كالودائع والبضائع أو في المعاني الباطنة كالاخلاص والصدق (وعهدهم راعون) أي حافظون بالقيام والرعاية والاصلاح والعهد ما عقده الشخص على نفسه فيما يقربه الى ربه ويقع أيضا على ما أمر الله تعالى به كقوله تعالى الذين قالوا ان الله عهد الينا ٭ (تنبيه) ٭ سمى الشئ المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهدا ومنه قوله تعالى ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها وقال تعالى وتخونوا أماناتكم وانما تؤدى العيون لا المعاني وخيانة المؤتمن عليه لا الامانة في نفسها وقرأ ابن كثير لأمانتهم بغير ألف بين النون والتاء على الافراد لأمن الالباس أو لانها في الاصل مصدر والباقون بالالف على الجمع ٭ الصفة السابعة المذكورة في قوله تعالى (والذين هم على صلواتهم) التي وصفوا بالخشوع فيها (يحافظون) أي يواظبون عليها ولا يتركون شيأ من مفروضاتها ولا مسنوناتها ويجتهدون في كمالاتها جهدهم ويؤدونها في أوقاتها (فان قيل) كيف كرر الصلاة أولا وآخرا (أجيب) بأنهما ذكران مختلفان فليس بمكرر وصفوا أولا بالخشوع في صلاتهم وآخرا بالمحافظة عليها وذلك ان لا يسهوا عنها ويؤدوها في أوقاتها ويقيموا أركانها ويوطنوا أنفسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي ان تتم به أوصافها وأيضا فقد وحدت أولا ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت وجمعت آخرا على غير قراءة حمزة والكسائي فان غيرهما قرأ بالجمع وأما هما فقرآ بالافراد لتفاد المحافظة على أعدادها وهي الصلوات الخمس والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة وصلاة الجنازة والعيدين والكسوفين والاستسقاء والوتر والضحى والتهجد وصلاة التسبيح وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل ٭ ولما ذكر تعالى مجموع هذه الصفات العظيمة ذكر جزاءهم فقال تعالى (أولئك) أي البالغون من الاحسان أعلى مكان (هم الوارثون) أي المستحقون لهذا الوصف فيرثون منازل أهل الجنة في الجنة روى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد الا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فان مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله وقال مجاهد لكل واحد منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فأما المؤمن فيبني منزله الذي له في الجنة ويهدم منزله الذي له في النار وأما الكافر فيهدم منزله الذي في الجنة ويبني منزله الذي له في النار وقال بعض المفسرين معنى الوراثة هو أن يؤول أمرهم الى الجنة وينالوها كما يؤول أمر الميراث الى الوارث (الذين يرثون الفردوس) وهو أعلى الجنة عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض والفردوس أعلاها درجة منها تفجر أنهار الجنة الاربعة ومن فوقها يكون عرش الرحمن فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس اللهم بجاه محمد صلى الله عليه وسلم أن تجعلنا ووالدينا وأحبابنا من أهله (هم فيها خالدون) أي لا يخرجون منها ولا يموتون وأنث الفردوس بقوله تعالى فيها على تأويل الجنة وهو البستان الواسع الجامع لاصناف الثمر روي أن الله تعالى بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الاذفر وفي رواية ولبنة من مسك مذرى وغرس فيها من جيد

(فمنهم من يمشي على بطنه) الآية فيه مجاز التغليب

الغنا كهة وجيد الريحان وروى أن الله تعالى خلق ثلاثة أشياء بيده خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس الفردوس بيده ثم قال وعزتي لا يدخلها مدمن خمر ولا ديوث والمراد أن الله تعالى لم يكل ذلك الى غيره من ملك من الملائكة والجنة مخلوقة الآن قال تعالى أعدت للمتقين ولما أمر سبحانه وتعالى بالعبادات في هذه الآيات والاشتغال بعبادة الله لا يصح الا بعد معرفة الله تعالى عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعا الاول الاستدلال بتقلب الانسان في أدوار الخلقة وأدوار الفطرة وهي تسع مراتب الاولى قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان) اى آدم (من سلالة) هي من سللت الشيء من الشيء اى استخرجته منه وهو خلاصته وقال ابن عباس السلالة صفوة الماء وقوله تعالى (من طين) متعلق بسلالة وقيل المراد بالانسان هذا النوع والسلالة قال مجاهد من بني آدم وقال عكرمة هو الماء يسيل من الظهر والعرب تسمي النطفة سلالة والولد سليلا وسلالة لانهما مسلولان منه المرتبة الثانية قوله تعالى (ثم جعلناه) أى نسله فحذف المضاف (نطفة) أى منيا من الصلب والترائب بأن خلقناه منها (في قرار مكين) أى مستقر حصين هو الرحم *(تنبيه)* مكين في الاصل صفة للمستقر في الرحم وصف به المحل للمبالغة كما عبر عنه بالقرار المرتبة الثالثة قوله تعالى (ثم) أى بعد تراخ في الزمان وعلو في المرتبة والعظمة (خلقنا) أى بما لنا من العظمة (النطفة) أى البيضاء جدا (علقة) حمراء دما غليظا شديد الحمرة جامدا غليظا المرتبة الرابعة قوله تعالى (فخلقنا) أى بما لنا من القوة والقدرة العظيمة (العلقة مضغة) أى قطعة لحم قدر ما يمضغ لا شكل فيها ولا تخطيط المرتبة الخامسة قوله تعالى (فخلقنا المضغة) أى بتقليبها بما شئنا لها من الحرارة والامور اللطيفة الغامضة (عظاما) من رأس ورجلين وما بينهما المرتبة السادسة قوله تعالى (فكسونا) بما لنا من قوة الاختراع تلك (العظام لحما) بما ولدنا منها ترجيعا لها الى ما قبل كونها عظاما فسترنا تلك العظام وقويناها وشددناها بالروابط والاعصاب وقرأ ابن عامر وأبو بكر عظما والعظم بفتح العين واسكان الظاء من غير ألف على التوحيد اكتفاء باسم الجنس عن الجمع والباقون بكسر العين وفتح الظاء وألف بعدها على الجمع قال الجلال المحلي وخلقنا في المواضع الثلاثة بمعنى صيرنا المرتبة السابعة قوله تعالى (ثم أنشأناه) أى هذا المحدث عنه بعظمتنا (خلقا آخر) أى خلقا مباينا للخلق الاول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيوانا وكان جمادا وناطقا وكان أبكم وسميعا وكان أصم وبصيرا وكان أكمه وأودع ظاهره وباطنه بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا تدرك بوصف الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح وثم لما بين الخلقين من التفاوت قال الزمخشري وقد احتج به أبو حنيفة رحمه الله فيمن غصب بيضة فأفرخت عنده فقال يضمن البيضة ولا يرد الفرخ لانه خلق آخر سوى البيضة اه ولما كان هذا التفصيل لتطوير الانسان سببا لتعظيم الخالق قال تعالى (فتبارك الله) اى تنزه عن كل شائبة نقص وحاز جميع صفات الكمال وأشار الى جمال الانسان بقوله تعالى (أحسن الخالقين) اى المقدرين وتمييز أحسن محذوف اى خلقا روى عن عمر رضي الله تعالى عنه انه لما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ قوله خلقا آخر

حيث استعمل من وهي لمن يعقل في غيرها لوقوعه

قال فتبارك الله أحسن الخالقين وروى ان عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنطق بذلك قبل املائه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب هكذا نزلت فقال عبد الله ان كان محمد نبيا يوحى اليه فانا نبي يوحى الى فلحق بمكة كافرا ثم أسلم يوم الفتح وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس انه قال لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا أنزلت ياعمر وكان عمر يقول وافقنى ربى فى أربع الصلاة خلف المقام وضرب الحجاب على النسوة وقولى لهن أو ليبدلنه الله خيرا منكن فنزل قوله تعالى عسى ربه ان طلقكن الآية والرابع قلت فتبارك الله أحسن الخالقين فقال هكذا انزل قال العارفون هذه الواقعة كانت سبب السعادة لعمر والشقاوة لعبد الله بن سعد بن أبى سرح فانه قيل انه مات كافرا قال الله تعالى يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا المرتبة الثامنة قوله تعالى (ثم انكم بعد ذلك) اى الامر العظيم من الوصف بالحياة والمدفى العمر فى آجال متفاوتة ما بين طفل ورضيع ومحتلم شديد وشاب نشيط وكهل عظيم وشيخ هرم الى ما بين ذلك من شؤن لا يحيط بها الا اللطيف الخبير (لميتون) اى لصائرون الى الموت لا محالة ولذلك ذكر النعت الذى للثبوت وهو ميت دون اسم الفاعل وهو مائت فانه للحدوث لا للثبوت المرتبة التاسعة قوله تعالى (ثم انكم يوم القيامة) اى الذى تجمع فيه جميع الخلائق (تبعثون) للحساب والجزاء النوع الثانى من الدلائل الاستدلال بخلق السموات وهو قوله تعالى (ولقد خلقنا فوقكم) فى جميع جهة الفوق فى ارتفاع لا تدركونه حق الادراك (سبع طرائق) أى سموات جمع طريقة لانها طرق الملائكة ومتعلقاتهم وقيل الافلاك لانها طرائق الكواكب فيها مسيرها وقيل لانها طرق بعضها فوق بعض كطارقة النعل وكل شئ فوقه مثله فهو طريقة (وما كنا) أى بما لنا من العظمة (عن الخلق) أى الذى خلقناه تحتها (غافلين) أى ان تسقط عليهم فتهلكهم بل نمسكها كآية ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه ولا مهملين أمرها بل نحفظها عن الزوال والاختلاف وتدبير أمرها حتى تبلغ منتهى أمرها وما قدر لها من الكمال حسب ما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة * النوع الثالث من الدلائل الاستدلال بنزول الامطار وكيفية تأثيرها فى النبات وهو قوله تعالى (وأنزلنا من السماء) أى من جرمها وهو ظاهر اللفظ وعليه اكثر المفسرين أو من السحاب وسماه سماء لعلوه (ماء بقدر) اى بقدر ما يكفيهم لمعاشهم فى الزرع والغرس والشرب وأنواع المنفعة ويسلمون معه من المضرة اذ لو كان فوق ذلك لاغرقت البحار الاقطار ولو كان دون ذلك لادى الى جفاف النبات والاشجار (فاسكناه) اى فجعلناه ثابتا مستقرا (فى الارض) كقوله تعالى فسلكه ينابيع فى الارض وعن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى أنزل من الجنة خمسة أنهار سيحون نهر الهند وجيحون نهر بلخ ودجلة والفرات نهرا العراق والنيل نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحى جبريل فاستودعها الجبال وأجراها فى الارض وجعل فيها منافع للناس من أصناف معايشهم فاذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله تعالى جبريل فرفع من الارض القرآن والعلم كله والحجر الاسود

تفصيلا لما يعمهما وهو كل دابة وفيه أيضا مجاز

من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الانهار الخمسة فيرفع كل ذلك الى السماء وذلك قوله تعالى (وانا على ذهاب به لقادرون) قدرة هى فى نهاية العظمة فانا كما قدرنا على ايجاده واختراعه نقدر على رفعه وازالته وزواله فاذا رفعت هذه الاشياء كلها من الارض فقد أهلها خير الدين والدنيا قال البغوى وروى هذا الحديث الامام الحسن بن سفيان عن عثمان بن سعيد عن سابق الاسكندرى عن سلمة بن على عن مقاتل بن حيان * (تنبيه) * فى تنكير ذهاب ايماء الى تكثير طرقه وفيه ايذان باقتدار المذهب وأنه لا يتعايا عليه شئ اذا أراده وهو أبلغ فى الايعاد من قوله تعالى قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين فعلى العباد أن يستعظموا النعمة فى الماء ويقيدوها بالشكر الدائم ويخافوا نفاده اذا لم تشكر ثم انه تعالى سبحانه لما نبه على عظيم نعمته بخلق الماء ذكر بعده هذه النعمة الحاصلة من الماء بقوله تعالى (فأنشأنا) أى فأخرجنا وأحيينا (لكم) خاصة لا لنا (به) اى بذلك الماء الذى جعلنا منه كل شئ حى (جنات) أى بساتين (من نخيل وأعناب) صرح بهذين الصنفين لشرفهما ولانهما أكثر ما عند العرب من الثمار وسمى الاول باسم شجرته لكثرة ما فيها من المنافع المقصودة بخلاف الثانى فانه المقصود من شجرته وأشار الى غيرهما بقوله تعالى (لكم) اى خاصة (فيها) اى الجنات (فواكه كثيرة) تتفكهون بها (ومنها) اى ومن الجنات من ثمارها وزروعها (تأكلون) رطبا او يابسا او تمرا وزبيبا وقوله تعالى (وشجرة) عطف على جنات اى وأنشأنا لكم شجرة اى زيتونة (تخرج من طور سيناء) وهو الجبل الذى كلم الله تعالى عليه موسى بن عمران عليه السلام بين مصر وايلة وقيل بفلسطين وفى رواية أخرى طور سينين ولا يخلو اما أن يضاف فيه الطور الى بقعة اسمها سيناء أو سينين واما ان يكون اسم الجبل مركبا من مضاف ومضاف اليه كامرئ القيس وبعلبك فمن أضاف فمن كسر سين سيناء وهو نافع وابن كثير وأبو عمرو فقد منع الصرف للتعريف والعجمة والتأنيث لانها بقعة وفعلاء لا تكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء ومن قرأ بفتح السين وهم الباقون لم يصرفه لان الالف للتأنيث كصحراء قال مجاهد معناه البركة أى من جبل مبارك وقال قتادة معناه الحسن أى الجبل الحسن وقال الضحاك هو بالقبطية ومعناه الحسن وقال عكرمة بالحبشية وقال مقاتل كل جبل فيه أشجار مثمرة فهو سيناء وسينين بلغة النبط وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (تنبت) بضم التاء الفوقية وكسر الباء الموحدة من الرباعى والباقون بفتح الفوقية وضم الموحدة من الثلاثى فقوله تعالى (بالدهن) تكون الباء على الاول زائدة وعلى الثانى معدية قال المفسرون وانما أضافها الله تعالى الى هذا الجبل لان منه تشعبت فى البلاد وانتشرت لان معظمها هناك قال بعض المفسرين وانما عرف الدهن لانه أجل الادهان وأكملها وهو فى الاصل مائع لزج خفيف يتقطع ولا يختلط بالماء الذى هو أصله فيسرج و يدهن به وقوله تعالى (وصبغ للآكلين) عطف على الدهن اى ادام يصبغ اللقمة بغمسها فيه وهو الزيت قيل انها أول شجرة نبتت بعد الطوفان ووصفها الله تعالى بالبركة فى قوله تعالى توقد من شجرة مباركة * النوع الرابع من الدلائل الاستدلال بأحوال الحيوانات وهو قوله تعالى (وان لكم فى الانعام) وهى الابل والبقر والغنم (لعبرة) عظيمة تعتبرون بها وتستدلون بها على البعث وغيره (نسقيكم مما فى بطونها) اى اللبن فجعله لكم شرابا نافعا للبدن موافقا للشهوة تلتذون به من

التنبيه اذا اسند الماء ذكر الى الميتة زحف لاشئ

بين الفرث والدم (ولكم فيها) أى جماعة الانعام وقدم الجار تعظيما لمنافعها حتى كأن غيرها عدم (منافع كثيرة) باستسلامها لما يراد منها مما لا يتيسر من أصغر منها وبأولادها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وغير ذلك من آثارها (ومنها تأكلون) أى وكما تنتفعون بها وهى حية تنتفعون بها بعد الذبح أيضا بسهولة من غير امتناع ما من شئ من ذلك ولو شاء لمنعها وسلطها عليكم ولو شاء لجعل لحمها لا ينضج أو جعله قذرا لا يؤكل ولكنه بقدرته وعلمه هيأها لما ذكر وذللها (وعليها) أى الانعام الصالحة للحمل وهى الابل والبقر وقيل المراد الابل خاصة لانها هى المحمول عليها فى العادة وقرنها بالفلك التى هى السفن فى قوله تعالى (وعلى الفلك تحملون) لانها سفائن البر كما يحمل على الفلك فى البحر فيحمل على هذه فى البر قال ذو الرمة فى المعنى

* سفينة بر تحت خدى زمامها * قال الزمخشرى يريد صيدحه أى ناقته لان اسمها كان صيدح قال

رأيت الناس ينتجعون غيثا * فقلت لصيدح انتجعى بلالا

يريد بلال بن أبى بردة الاشعرى والى الكوفة ولما بين سبحانه وتعالى دلائل التوحيد أردفها بذكر القصص كما هو العادة فى سائر السور مبتدئا بقصة نوح عليه السلام فقال تعالى (ولقد أرسلنا) أى بما لنا من العظمة (نوحا) وهو الاب الثانى بعد آدم عليهما الصلاة والسلام وكان اسمه يشكر وسمى نوحا لوجوه أحدها لكثرة ما ناح على نفسه حين دعا على قومه بالهلاك فاهلكهم الله تعالى بالطوفان فندم على ذلك ثانيها لمراجعته ربه فى شأن ابنه ثالثها أنه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فعوتب على ذلك (الى قومه) وهم جميع أهل الارض لتواصل ما بينهم لكونهم على لغة واحدة محصورين لا أنه أرسل الى الخلق كافة لان ذلك من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء (فقال) أى فتسبب عن ذلك ان قال (يا قوم) ترفقا بهم (اعبدوا الله) وحده لانه الهكم وحده لاستحقاقه لجميع خلال الكمال واستأنف على سبيل التعليل قوله (ما لكم من اله) أى معبود بحق (غيره) فلا تعبدوا سواه (أفلا تتقون) أى أفلا تخافون عقوبته ان عبدتم غيره وقرأ الكسائى بكسر الراء والهاء والباقون بضمهما (فقال) أى فتسبب عن ذلك أن كذبوه بأن قال (الملأ) أى الاشراف الذين تملأ رؤيتهم الصدور عظمة (الذين كفروا من قومه) لعوامهم (ما هذا) أى نوح عليه السلام (الا بشر مثلكم) أى فلا يعلم ما لا تعلمون فانكروا ان يكون بعض البشر نبيا ولم ينكروا ان يكون بعض الطين انسانا وبعض الماء علقة وبعض العلقة مضغة الى آخره فكأنه قيل ما حمله على ذلك فقالوا (يريد ان يتفضل) يتكلف الفضل بادعاء مثل هذا (عليكم) لتكونوا أتباعا له ولا خصوصية له دونكم (ولو شاء الله) أى الملك الاعلى الارسال اليكم وعدم عبادة غيره (لأنزل) كذلك (ملائكة) رسلا بابلاغ الوحى الينا قال الزمخشرى وما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للالوهية بحجر (ما سمعنا بهذا) أى الذى دعا اليه نوح من التوحيد (فى آبائنا الاولين) أى الامم الماضية (ان) أى ما (هو الا رجل به جنة) أى جنون ولاجله يقول ما يدعيه (فتربصوا به) أى فتسبب عن الحكم بجنونه انا نأمركم بالكف عنه لانه لا حرج على مجنون (حتى) أى الى (حين) لعله يفيق

لكنه يشبهه فى السفر
(قوله والذين لم يبلغوا

وأعوذته فكأنه قيل فما قال فقيل (قال) عندما يئس من فلاحهم (رب انصرني) أى أعني عليهم (بما كذبون) أى بسبب تكذيبهم لى فان تكذيب الرسول استخفاف بالمرسل (فأوحينا) اى فتسبب عن دعائه أن أوحينا (اليه أن اصنع الفلك) اى السفينة (بأعيننا) اى انه لا يغيب عنا شئ من أمرك ولا من أمرهم وان تعرف قدرتنا على كل شئ فتثق بحفظنا ولا تخف شيأ من أمرهم روى انه لما أوحى اليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر قال الجوهرى جؤجؤ الطائر والسفينة صدرهما والجمع الجآجئ ولما كان لا يعلم الصنعة قال تعالى (ووحينا) أى وأمرنا وتعليمنا كيف تصنع فان جبريل علمه عمل السفينة ووصف كيفية اتخاذها وقد تقدم الكلام عليها مستوفى فى سورة هود (فاذا جاء أمرنا) أى بالهلاك عقب فراغك منها أو بالركوب (وفار التنور) قال ابن عباس وجه الارض وفى القاموس التنور الكانون يخبز فيه ووجه الارض وعن قتادة أنه أشرف موضع فى الارض أى أعلاه وعن على طلع الفجر وعن الحسن أنه الموضع المنخفض من السفينة الذى يسيل الماء اليه وقيل هو مثل كقولهم حمى الوطيس والاقرب كما قال الرازى وعليه أكثر المفسرين هو التنور المعروف بتنور الخباز فيكون له فيه آية روى أنه قيل لنوح اذا رأيت الماء يفور فى التنور فاركب أنت ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم وكان من حجارة فصار الى نوح واختلف فى مكانه فعن الشعبى فى مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان نوح عمل السفينة وسط المسجد وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردة وقيل بالهند وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى من الهمزتين المفتوحتين من كلمتين وحقق الاولى وسهل الثانية ورش وقنبل (فاسلك) أى أدخل (فيها) أى السفينة (من كل زوجين) من الحيوانات (اثنين) ذكرا وأنثى وقرأ حفص بتنوين اللام من كل أى من كل نوع زوجين فزوجين مفعول واثنين تأكيد والباقون بغير تنوين فاثنين مفعول ومن متعلق باسلك وفى القصة ان الله تعالى حشر لنوح السباع والطير وغيرهما فجعل يضرب بيده فى كل جنس فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الانثى فيحملهما فى السفينة وروى انه لم يحمل الا ما يلد ويبيض (وأهلك) اى وأهل بيتك من زوجك وأولادك (الا من سبق عليه) لا له (القول منهم) بالهلاك وهو زوجته وولده كنعان بخلاف سام وحام ويافث فحملهم وزوجاتهم الثلاثة وفى سورة هود ومن آمن وما آمن معه الا قليل قيل كانوا ستة رجال ونساءهم وقيل جميع من كان فى السفينة ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء (ولا تخاطبنى) اى بالسؤال فى النجاة (فى الذين ظلموا) اى كفروا ثم علل ذلك بقوله تعالى (انهم مغرقون) اى قد حتم القضاء عليهم لظلمهم بالاشراك والمعاصى ومن هذا شأنه لا يشفع له فانه تعالى بعد أن أملى لهم الدهر المتطاول فلم يزيدوا الا ضلالا ولزمتهم الحجة البالغة لم يبق الا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين ونحن نكرمك عن سؤال لا يقبل ولقد بالغ سبحانه وتعالى حيث اتبع النهى عنه الامر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم بقوله تعالى (فاذا استويت) اى اعتدلت (أنت ومن معك) اى من البشر وغيرهم (على الفلك) ففرغت من امتثال الامر بالحمل (فقل الحمد لله) اى الذى لا كفء له لانه مختص بصفات الحمد (الذى نجانا) بحملنا فيه

الحلم منكم) وان قالت
كيف أمراته تعالى

[illegible]

[illegible] (منزلا) [illegible]

[illegible] وقرأ أبو بكر بفتح الميم وكسر الزاي [illegible]

والباقون بضم الميم وفتح الزاي أي مصدرا أو اسم مكان ثم اثنى الله تعالى على [illegible]

بالثناء عليه المطابق لمسألته وهو قوله تعالى (وأنت خير المنزلين) [illegible]

[illegible] أمر هو [illegible] كانت هذه القصة من أغرب القصص [illegible]

(إن في ذلك) أي الأمر العظيم من أمر نوح والسفينة وإهلاك الكفار (لآيات) أي دلالات

على قدرة الله تعالى وصدق الأنبياء في أن المؤمنين هم المفلحون وأنهم الوارثون للأرض بعد

الظالمين وإن عظمت شوكتهم واشتدت صولتهم (وإن كنا) بما لنا من العظمة والوصف الثابت

لنا العلي وتمام القدرة (لمبتلين) أي فاعلين فعل المختبر [illegible] بإرسال الرسل ليظهر

في عالم الشهادة الصالح منهم من غيره ثم نبتلي الصالحين منهم [illegible]

[illegible] ثم نجعل لهم العاقبة كما قال تعالى والعاقبة للمتقين. (تنبيه) إن

هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن واللام هي الفارقة [illegible] القصة الثانية قصة هود

وقيل صالح عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (ثم أنشأنا) أي أحدثنا وأحيينا (من

بعدهم) أي من بعد إهلاكهم (قرنا) أي قوما (آخرين) هم عاد قوم هود وقيل ثمود قوم

صالح (فأرسلنا) أي [illegible] لما أرسلنا (فيهم رسولا منهم) هو هود

وقيل صالح قال البغوي والأول أظهر وهو المروي عن ابن عباس ويشهد له حكاية الله

قول هود واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ومجيء قصة هود على إثر قصة نوح

في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء ثم بين تعالى ما أرسل به بقوله تعالى (أن اعبدوا

الله) أي وحده لأنه لا مكافئ له ثم دل على الاستغراق بقوله تعالى (ما لكم من إله غيره

أفلا تتقون) أي هذه الحالة التي أنتم عليها مخافة عقابه فتؤمنون [illegible]

[illegible] والكسائي بضم النون في الوصل والباقون بكسرها [illegible]

(وقال الملأ) أي الأشراف [illegible] الصدور (من قومه الذين كفروا) [illegible]

[illegible] أدلة التوحيد والانتقام من المشركين (وكذبوا بلقاء الآخرة) [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

يأمركم به (أنكم اذا) اى ان اطعتموه (لخاسرون) اى مغبونون لكونكم فضلتم مثلكم عليكم بما يدعيه ثم بينوا انكارهم بقولهم (أيعدكم أنكم اذا متم) ففارقت أرواحكم أجسادكم (وكنتم) اى وكانت أجسادكم (ترابا) باستيلاء التراب على مادون عظامكم (وعظاما) مجردة عن اللحوم والاعصاب (أنكم مخرجون) اى من تلك الحالة التى صرتم اليها فراجعون الى ما كنتم عليه من الحياة على ما كان لكم من الاجسام * (تنبيه) * قوله تعالى مخرجون خبر انكم الاولى وانكم الثانية تأكيد لها لما طال الفصل ثم استأنفوا التصريح بما دل عليه الكلام من استبعاد ذلك فقالوا (هيهات هيهات) اسم فعل ماض بمعنى مصدر اى بعد بعد جدا وقال ابن عباس هى كلمة بعد اى بعيد ثم كأنه قيل لاى شئ هذا الاستبعاد فقيل (لما توعدون) من الاخراج من القبور (فان قيل) ما توعدون هو المستبعد ومن حقه أن يرفع بهيهات كما ارتفع به فى قوله * فهيهات هيهات العقيق وأهله * فما هذه اللام (أجيب) بان الزجاج قال فى تفسيره البعد لما توعدون فنزل منزلة المصدر ويصح أن تكون اللام لبيان المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد كما جاءت اللام فى هيت لك لبيان المهيت به او ان اللام زائدة للبيان * (فائدة) * وقف البزى والكسائى على هيهات الاولى والثانية بالهاء والباقون بالتاء على المرسوم وقولهم (ان هى) ضمير لا يعلم ما يعنى به الا بما يتلوه من بيانه وأصله ان الحياة (الا حياتنا الدنيا) ثم وضع هى موضع الحياة لان الخبر يدل عليها ويبينها ومنه هى النفس تتحمل ما حملت والمعنى لا حياة الا هذه الحياة لان ان النافية دخلت على هى التى بمعنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت لا التى نفت ما بعدها نفى الجنس (نموت ونحيا) اى يموت منا من هو موجود وينشأ آخرون بعدهم وقيل يموت قوم ويحيا قوم وقيل تموت الآباء وتحيا الابناء وقيل فى الآية تقديم وتأخير اى نحيا ونموت لانهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت كما قالوا (وما نحن بمبعوثين) بعد الموت فكأنه قيل فما هذا الكلام الذى يقوله فقيل كذب ثم حصروا أمره فى الكذب فقالوا (ان) اى ما (هو الا رجل افترى) اى تعمد (على الله) اى الملك الاعلى (كذبا) فلا يلتفت اليه (وما نحن له بمؤمنين) اى بمصدقين فيما يخبرنا به من البعث والرسالة فكأنه قيل فما قال فقيل (قال رب) اى أيها المحسن الى بالرسالة وبارسالى اليهم وبغيره من أنواع النعم (انصرنى) اى اوقع لى النصر (بما كذبون) فاجابه ربه بان (قال عما قليل) من الزمان وما زائدة وأكدت القلة بزيادتها (ليصبحن) اى ليصيرن (نادمين) اى على كفرهم وتكذيبهم اذا عاينوا العذاب (فأخذتهم الصيحة) أى صيحة العذاب والهلاك كائنة (بالحق) أى الامر الثابت من العذاب الذى لا يمكن مدافعته لهم ولا لغيرهم غير الله تعالى فماتوا وقيل صيحة جبريل عليه السلام ويكون القوم ثمود على الخلاف السابق (فجعلناهم) بسبب الصيحة (غثاء) أى مطروحين ميتين كما يطرح الغثاء شبهوا فى دمارهم بالغثاء وهو حميل السيل مما بلى واسود من الورق والعيدان ومنه قوله فجعله غثاء أحوى اى أسود يابسا * ولما كان هلاكهم على هذا الوجه سببا لهوانهم عبر عنه بقوله تعالى (فبعدا) اى هلاكا وطردا عن الرحمة (للقوم الظالمين) الذين وضعوا قوتهم التى كان يجب عليهم بذلها فى نصر الرسل فى خذلانهم * (تنبيه) * يحتمل هذا الدعاء عليهم والاخبار عنهم ووضع الظاهر موضع ضميرهم للتعليل وبعدا وسحقا ونكرا وتحويقا ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها وهى من جملة المصادر التى قال سيبويه نصبت

الامر فى الحقيقة لاولياتهم ابو دبوهم (قوله واذا

بالأفعال لا يستعمل اظهارها القصة الثالثة المذكورة في قوله تعالى (ثم أنشأنا) أي بعظمتنا التي لا يضرها تقديم ولا تأخير (من بعدهم) أي من بعد من قدمنا ذكره من نوح والقرن الذي بعده (قرونا) أي أقواما (آخرين) فهو سبحانه وتعالى تارة يقص علينا في القرآن مفصلا كما تقدم وتارة يقص مجملا كما هنا وقيل المراد قصة لوط وشعيب وأيوب ويوسف عليهم السلام وعن ابن عباس بني اسرائيل ثم انه تعالى أخبر بأنه لم يعجل على أحد منهم قبل الاجل الذي أجل لهم بقوله تعالى (ما تسبق من امة أجلها) أي الذي قدرها بأن تموت قبله (وما يستأخرون عنه) * (تنبيه) * ذكر الضمير بعد تأنيثه رعاية للمعنى ومن زائدة (ثم أرسلنا رسلنا تترا) أي متتابعين بين كل اثنين زمان طويل وقرأ أبو عمرو رسلنا بسكون السين والباقون برفعها وقرأ تترا ابن كثير وأبو عمرو في الوصل بتنوين الراء على أنه مصدر بمعنى التواتر وقع حالا والباقون بغير تنوين * ولما كان كأنه قيل فكان ماذا قيل (كلما جاء امة رسولها) أي بما أمرناه من التوحيد (كذبوه) أي كما فعل هؤلاء بك لما أمرتهم بذلك * (تنبيه) * أضاف الرسول مع الارسال الى الرسل ومع المجيء الى المرسل اليهم لان الارسال الذي هو مبدأ الامر منه والمجيء الذي هو منتهاه اليهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية بين الهمزة والواو والباقون بتحقيقهما وهم على مراتبهم في المد (فأتبعنا) القرون بسبب تكذيبهم (بعضهم بعضا) في الاهلاك فلم يبق عند الناس منهم الا أخبارهم كما قال تعالى (وجعلناهم أحاديث) أي أخبارا يسمعونها ويتعجب منها ليكونوا عظة للمستبصرين فيعلموا أنه لا يفلح الكافرون ولا يخيب المؤمنون وما أحسن قول القائل

ولا شيء يدوم فكن حديثا * جميل الذكر فالدنيا حديث

والاحاديث تكون جمع الحديث ومنه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكون جمع الاحدوثة التي هي مثل الاعجوبة والاضحوكة وهي ما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا وهو المراد هنا * ولما تسبب عن تكذيبهم هلاكهم المقتضي لبعدهم قال تعالى (فبعدا لقوم) أي أقوياء على ما يطلب منهم (لا يؤمنون) أي لا يوجد منهم ايمان وان جرت عليهم الفصول الاربعة لانه لا مزاج لهم معتدل * القصة الرابعة قصة موسى وهرون عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (ثم أرسلنا) أي بما لنا من العظمة (موسى وأخاه هرون بآياتنا) قال ابن عباس الآيات التسع وهي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والبحر والسنين ونقص الثمرات (وسلطان مبين) أي حجة بينة وهي العصا وأفردها بالذكر لانها قد تعلق بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها وكونها حارسا وشمعة وشجرة خضراء مثمرة ودلوا ورشاء فجعلت كأنها ليست بعضا لما استبدت به من الفضائل فلذلك عطفت عليها كقوله تعالى من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ويجوز أن يراد بالآيات نفس تلك المعجزات وبالسلطان المبين كيفية دلالتها على الصدق وذلك لانها وان شاركت آيات سائر الانبياء في كونها آيات فقد فارقتها في قوة دلالتها على قول موسى عليه السلام وان يراد بالسلطان المبين المعجزات وبالآيات الحجج وان يراد بها المعجزات فانها آيات النبوة وحجة بينة على ما يدعيه النبي قال الرازي واعلم ان

الآية

بلغ الاطفال منكم الحلم) الآية خصها بقوله

الآية تدل على أن معجزات موسى كانت معجزات هرون أيضا وان النبوة كما كانت مشتركة بينهما فكذلك المعجزات (الى فرعون وملائه) أي وقومه ولكن لما كان الاطراف لايخالفون الاشراف عدهم عدما ومن الواضح ان التقدير أن اعبدوا الله مالكم من اله غيره وأشار بقوله تعالى (فاستكبروا) الى انهم أوجدوا الكبر عن الاتباع فيما دعوهم اليه عقب الابلاغ من غير تامل ولاتثبت وطلبوا أن لايكونوا تحت أمر من دعاهم وأشار بالكون الى فساد جبلتهم بقوله تعالى (وكانوا قوما) أي أقوياء (عالين) أي متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم * ولما تسبب عن استكبارهم وعلوهم انكارهم للاتباع قال تعالى (فقالوا أنؤمن) أي بالله تعالى مصدقين (لبشرين مثلنا) أي في البشرية والمأكل والمشرب وغيرهما مما يعتري البشر كما قال من تقدمهم (وقومهما) أي والحال ان قومهما أي بني اسرائيل (لنا عابدون) خضوعا وتذللا أي في غاية الذل والانقياد كالعبيد فنحن أعلى منهما بهذا أولانه كان يدعي الالهية فادعى للناس العبادة وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة (فكذبوهما) أي فرعون وملؤه موسى وهرون (فكانوا) اى فرعون وملؤه بسبب تكذيبهم (من المهلكين) أي بالغرق ببحر القلزم ولم تغن عنهم قوتهم في أنفسهم ولاقوتهم على خضوع بني اسرائيل واستعبادهم ولاضر بني اسرائيل ضعفهم عن دفاعهم ولاذلهم لهم وصغارهم في أيديهم * ولما كان ضلال بني اسرائيل بعد انقاذهم من عبودية فرعون وقومه أعجب قال تعالى تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولقد آتينا) أي بعظمتنا (موسى الكتاب) أي التوراة (لعلهم) أي قوم موسى وهرون عليهما السلام (يهتدون) من الضلالة الى المعارف والاحكام ولايصح عود الضمير الى فرعون وملئه لان التوراة انما أوتيها بنوا اسرائيل بعد اغراق فرعون وملئه بدليل قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى * القصة الخامسة قصة عيسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (وجعلنا) أي بعظمتنا وقدرتنا (ابن مريم) نسبه اليها تحقيقا لكونه لاأب له وكونه بشرا محمولا في البطن مولودا لايصلح لرتبة الالهية وزاد في تحقيق ذلك بقوله (وامه) وقال تعالى (آية) ولم يقل آيتين لان الآية فيهما واحدة ولادته من غير فحل ويحتمل ان الآية الاولى حذفت لدلالة الثانية عليها والتقدير وجعلنا ابن مريم آية وامه آية لان الله تعالى جعل مريم آية لانها حملته من غير ذكر وقال الحسن قد تكلمت في صغرها كما تكلم عيسى وهو قولها هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ولم تلتقم ثديا قط * (تنبيه) * قال بعض المفسرين ولعل في ذلك اشارة الى انه تكلمت به آية للقدرة على ايجاد الانسان بكل اعتبار من غير ذكر ولاانثى وهو آدم عليه السلام ومن ذكر بلاانثى وهي حواء عليها السلام ومن انثى بلاذكر وهو عيسى عليه السلام ومن الزوجين وهو بقية الناس (وآويناهما) أي بعظمتنا (الى ربوة) أي مكان عال من الارض * (تنبيه) * قد اختلف في هذه الربوة فقال عطاء عن ابن عباس هي بيت المقدس وهو قول قتادة وكعب قال كعب هي أقرب الارض الى السماء بثمانية عشر ميلا وقال عبد الله بن سلام هي دمشق وقال أبو هريرة هي الرملة وقال السدي هي أرض فلسطين وقال ابن زيد هي مصر وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء والباقون بضم الراء (ذات قرار) أي منبسطة مستوية واسعة يستقر عليها ساكنوها (ومعين) أي ماء جار ظاهر تراه

يبين الله لكم آياته بالاضافة اليه وختم ما قبلها وما

قوله تكلمت به آية للقدرة لعله تكلمت به آية القدرة والله العليم كذا بهامش

العيون * (تنبيه) * قد اختلف فى زيادة ميم معين واصالتها فوجه من جعلها مفعولا لأنه مدرك بالعين لظهوره من عانه اذا أدركه بعينه نحو ركبه اذا ضربه بركبته ووجه من جعله فعيلا أنه نفاع لظهوره وجريه من الماعون وهو المنفعة قيل سبب الايواء أنها امرت بابنها الى الربوة وبقيت بها اثنتى عشرة سنة ثم رجعت الى أهلها بعد ما مات ملكهم وههنا آخر القصص وقد اختلف فى المخاطب بقوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) على وجوه أحدها أنه محمد صلى الله عليه وسلم وحده على مذهب العرب فى مخاطبة الواحد بلفظ الجماعة ثانيها أنه عيسى عليه السلام لانه روى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل امه ثالثها أنه كل رسول خوطب بذلك ووصى به لانه تعالى فى الازل متكلم آمر ناه ولا يشترط فى الامر وجود المأمورين بل الخطاب ازلا على تقدير وجود المخاطبين فقول البيضاوى لا على انهم خوطبوا بذلك دفعة لانهم ارسلوا فى أزمنة مختلفة بل على معنى ان كلا منهم خوطب به فى زمانه تبع فيه الكشاف فان المعتزلة أنكروا قدم الكلام فحملوا الآية على خلاف ظاهرها وأنت خبير بأن عدم اشتراط ما ذكر انما هو فى التعلق المعنوى لا التنجيزى الذى الكلام فيه فانه مشروط فيه ذلك وانما خاطب جميع الرسل بذلك ليعتقد السامع ان أمرا خوطب به جميع الرسل ووصوا به حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه وهذا كما قال الرازى أقرب لانه روى عن ام عبد الله أخت شداد بن أوس أنها بعثت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح من لبن فى شدة الحر عند فطره وهو صائم فرده صلى الله عليه وسلم الرسول اليها وقال من أين لك هذا فقالت من شاة لى ثم رده صلى الله عليه وسلم وقال من أين هذه الشاة فقالت اشتريتها من مالى فأخذه ثم انها جاءته فقالت يا رسول الله لم رددته فقال صلى الله عليه وسلم بذلك أمرت الرسل أن لا تأكل الا طيبا ولا تعمل الا صالحا والمراد بالطيب الحلال وقيل طيبات الرزق الحلال الصافى القوام فالحلال هو الذى لا يعصى الله تعالى فيه والصافى هو الذى لا ينسى الله فيه والقوام هو الذى يمسك النفس ويحفظ العقل وقيل المراد بالطيب المستلذ أى ما تستلذه النفس من المأكل والمشرب والفواكه ويشهد له مجيئه على عقب قوله تعالى وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين واعلم أنه سبحانه وتعالى كما قال للمرسلين يا أيها الرسل كلوا من الطيبات قال للمؤمنين يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ودل سبحانه وتعالى على ان الحلال عون على الطاعة بقوله تعالى (واعملوا صالحا) فرضا ونفلا سرا وجهرا غير خائفين من أحد غير الله تعالى ثم حثهم على دوام المراقبة بقوله تعالى (انى بما) أى بكل شئ (تعملون عليم) أى بالغ العلم فاجازيكم عليه وقرأ (وان هذه) بكسر الهمزة الكوفيون على الاستئناف والباقون بفتحها على تقدير واعلموا أن هذه أى ملة الاسلام وخفف النون ساكنة ابن عامر وشددها مفتوحة الباقون (امتكم) أى دينكم أيها المخاطبون أى يجب أن تكونوا عليها حال كونها (أمة واحدة) لا شتات فيها أصلا فمادامت موحدة فهى مرضية (وأنا ربكم) أى المحسن اليكم بالخلق والرزق وحدى فمن وحدنى نجا ومن أشرك بى عبدى هلك (فاتقون) أى فاحذرون (فتقطعوا) أى الامم وانما أضمرهم لوضوح ارادتهم لان الآية التى قبلها قد صرحت بأن الانبياء ومن نجا منهم أمة واحدة لا خلاف بينهم فعلم قطعا أن الضمير للامم ومن نشأ بعدهم ولذلك كان النظر الى الامر

بعدها بقوله يبين الله لكم الآيات بالتعريف

الذى

الذى كان واحداً لهم فقد دم وقوله (أمرهم) أى دينهم بعد ان كان مجتمعاً متصلا (بينهم) وقوله
تعالى (زبراً) حال من فاعل تقطعوا أى أحزاباً متخالفين فصاروا فرقاً كاليهود والنصارى
والمجوس وغيرهم من الاديان المختلفة جمع زبور بمعنى الفرقة وقيل معنى زبراً كتباً أى تمسك
كل قوم بكتاب فآمنوا به وكفروا بما سواه من الكتب (كل حزب) أى فرقة من المتحزبين
(بما لديهم) أى عندهم من ضلال وهدى وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها (فرحون) أى
مسرورون فضلا عن أنهم راضون وقوله تعالى (فذرهم) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى
اترك كفار مكة (فى غمرتهم) أى ضلالتهم شبهها بالماء الذى يغمر القامة لانهم مغمورون فيها
(حتى حين) أى الى أن يقتلوا أو يموتوا سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ونهى عن
الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره ولما كان الموجب لغرورهم ظنهم ان حالهم فى بسط
الارزاق من الاموال والاولاد حالة رضا عنهم أنكر ذلك عليهم تنبيها لمن سبقت له السعادة
وكتبت له الحسنى وزيادة فقال تعالى (أيحسبون) اى اضعف عقولهم وقرأ ابن عامر وعاصم
وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها (أنما نمدهم) أى نعطيهم ونجعله مددا لهم (به من مال)
نيسره لهم (وبنين) نمتعهم بهم ثم أخبر عن أن بقوله تعالى (نسارع) أى نعجل (لهم) أى
به (فى الخيرات) لا نفعل ذلك (بل لا يشعرون) أنهم فى غاية البعد عن الخيرات وانما نستدرجهم
من حيث لا يعلمون وقال تعالى فى موضع آخر فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله
ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون وروى عن زيد بن ميسرة أنه قال أوحى
الله تعالى الى نبى من الانبياء أيفرح عبدى أن أبسط له الدنيا وهو أبعد له منى ويحزن أن
أقبض عنه الدنيا وهو أقرب له منى وعن الحسن انه لما أتى عمر رضى الله عنه بسوارى كسرى
فأخذهما ووضعهما فى يد سراقة بن مالك فبلغا منكبيه فقال عمر اللهم انى قد علمت ان نبيك
عليه الصلاة والسلام كان يحب أن يصيب مالا لينفقه فى سبيلك فزويت ذلك عنه ثم ان أبا بكر
كان يحب ذلك اللهم لا يكون ذلك مكرا منك ثم تلا أيحسبون الآية ولما ذكر أهل الافتراق
ذكر أهل الوفاق ووصفهم باربع صفات الاولى قوله تعالى (ان الذين هم) اى ببواطنهم (من
خشية ربهم) أى الخوف العظيم من المحسن اليهم المنعم عليهم (مشفقون) أى دائمون على الحذر
الصفة الثانية قوله تعالى (والذين هم بآيات ربهم) أى القرآن (يؤمنون) أى يصدقون الصفة
الثالثة قوله تعالى (والذين هم بربهم) أى الذى لا محسن اليهم غيره (لا يشركون) أى شيأ من
شرك فى وقت من الاوقات كما لم يشركه فى الاحسان اليهم أحد ولما أثبت لهم الايمان الخالص
نفى عنهم العجب بقوله تعالى (والذين يؤتون) أى يعطون (ما آتوا) أى ما أعطوا من الصدقة
والاعمال الصالحة وهذه الصفة الرابعة (وقلوبهم وجلة) أى شديدة الخوف أن لا يقبل منهم
ولا ينجيهم من عذاب الله ثم علل ذلك بقوله تعالى (أنهم الى ربهم) أى الذى طال احسانه اليهم
(راجعون) بالبعث فيجازيهم على النقير والقطمير ويجزيهم بكل قليل وكثير وهو الناقد
البصير ولا تنفع هنالك الندامة وليس هنالك الا الحكم العدل والحكم القاطع من جهة مالك
الملك قال الحسن البصرى المؤمن جمع احسانا وخشية والمنافق جمع اساءة وامنا ثم أثبت لهم
ما أفهم أن ضده لاضدادهم بقوله تعالى (أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) أى

بال لانهم سماها به لان علامات يمكننا الوقوف

قوله ثم أخبر عن أن الخ أى لأن ما موصولة وكان حقها أن تكتب مفصولة لكن وصلت اتباعا لرسم المصحف والعائد محذوف تقديره نسارع لهم به أو فيه افاده الجمل اه مصححه

يبادرون الى الاعمال الصالحة قبل الموت * ولما ذكر تعالى كيفية أعمال المؤمنين المخلصين ذكر أنه تعالى لا يكلف أحدا فوق طاقته بقوله تعالى (ولا نكلف نفسا الا وسعها) أى طاقتها فمن لم يستطع أن يصلى الفرض قائما فليصل قاعدا ومن لم يستطع أن يصلى قاعدا فليصل مضطجعا ومن لم يستطع أن يصوم رمضان فليفطر لان مبنى الخلائق على العجز (ولدينا) أى وعندنا (كتاب ينطق بالحق) بما عملته كل نفس وهو اللوح المحفوظ تسطر فيه الاعمال وقيل كتب الحفظة ونظيره قوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق وقوله تعالى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فشبه تعالى الكتاب بمن يصدر عنه البيان فان الكتاب لا ينطق لكنه يعرف بما فيه كما يعرف بنطق الناطق اذا كان محقا (فان قيل) ما فائدة ذلك الكتاب مع ان الله تعالى يعلم ذلك اذ لا تخفى عليه خافية (اجيب) بأن الله تعالى يفعل ما يشاء وقد يكون فى ذلك حكمة لا يطلع عليها الا هو تعالى (وهم) أى الخلق كلهم (لا يظلمون) أى لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد فى سيآتهم * ثم ذكر حال الكفار فقال تعالى (بل قلوبهم) أى الكفرة من الخلق (فى غمرة) أى جهالة قد أغرقتها (من هذا) أى القرآن أو الذى وصف به حال هؤلاء أو من كتاب الحفظة (ولهم أعمال من دون ذلك) المذكور للمؤمنين (هم) أى الكفار (لها) أى لتلك الاعمال الخبيثة (عاملون) أى لابد أن يعملوها فيعذبون عليها لما سبق لهم من الشقاوة (حتى اذا أخذنا مترفيهم) أى رؤساءهم وأغنياءهم (بالعذاب) قال ابن عباس هو السيف يوم بدر وقيل هو الجوع دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف فابتلاهم الله تعالى بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة والقذر والاولاد (اذا هم يجأرون) أى يصيحون ويستغيثون ويجزعون وأصل الجأر رفع الصوت بالتضرع قاله البغوى فكأنه قيل فهل يقبل اعتذارهم أو يرحم انكسارهم فقيل لا بل يقال لهم بلسان الحال أو المقال (لا تجأروا اليوم) فان الجأر غير نافع لكم * ثم علل ذلك بقوله تعالى (انكم منا لا تنصرون) أى بوجه من الوجوه ومن عدم نصرنا لم يجد له ناصرا ولا فائدة لجأره الا اظهار الجزع ثم علل عدم نصره لهم بقوله تعالى (قد كانت آياتى) أى من القرآن (تتلى عليكم) أى من أوليائى وهم الهداة النصحاء (فكنتم) كونا هو كالجبلة (على أعقابكم) عند تلاوتها (تنكصون) أى تعرضون مدبرين عن سماعها والعمل بها والنكوص الرجوع القهقرى (مستكبرين) عن الايمان واختلف فى عود الضمير فى (به) فقال ابن عباس بالبيت الحرام وشهرة استكبارهم وافتخارهم أنهم قوامه أغنت عن سبق ذكره وذلك أنهم يقولون نحن أهل حرم الله وجيران بيته فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحدا فيأمنون فيه وسائر الناس فى الخوف وقيل بالقرآن فلم يؤمنوا به وقوله تعالى (سامرا) نصب على الحال أى جماعة يتحدثون بالليل حول البيت وقوله تعالى (تهجرون) قرأه نافع بضم التاء وكسر الجيم من الاهجار وهو الافحاش اى تفحشون وتقولون الخنى ذكر انهم كانوا يسبون النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه والباقون بفتح التاء وضم الجيم اى تعرضون عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الايمان وعن القرآن وترفضونها وتسمون القرآن سحرا وشعرا * ثم انه تعالى لما وصف حالهم ردّ عليهم بأن بين أن اقدامهم على هذه الامور لابد أن يكون لاحد أمور أربعة أحدها

عليها وهى فى الاولى من قبل صلوة الفجر وحين

أن لا يتأملوا فى دليل نبوته وهو المراد من قوله تعالى (أفلم يدبروا القول) أى القرآن الدال على صدق النبى صلى الله عليه وسلم وأصل يدبروا يتدبروا أدغمت التاء فى الدال ثانيها أن يعتقدوا ان ما جاء به الرسول أمر على خلاف العادة وهو المراد من قوله تعالى (أم جاءهم) فى هذا القول (ما لم يأت آباءهم الاولين) الذين بعد اسمعيل وقبله ثالثها ان لا يكونوا عالمين بأمانته وحسن حاله قبل ادعائه النبوة وهو المراد من قوله تعالى (ام لم يعرفوا رسولهم) أى الذى اتاهم بهذا القول الذى لا قول مثله وهم يعرفون نسبه وصدقه وامانته وما جاءهم به من معالى الاخلاق حتى انهم لا يجدون فيه اذا تحققت الحقائق نقيصة يذكرونها ولا وصمة يستحلونها كما دلت عليه الاحاديث الصحاح منها حديث أبى سفيان بن حرب الذى فى أول البخارى فى سؤال هرقل ملك الروم له عن شأنه صلى الله عليه وسلم وقد اتفقت كلمتهم عليه بتسميته الامين (فهم) اى فتسبب عن جهلهم به أنهم (له) أى نفسه أو القول الذى أتى به (منكرون) فيكونوا ممن جهل الحق لجهل حال الآتى به وفى هذا غاية التوبيخ لهم بجهلهم وبغباوتهم بأنهم يعرفون أنه أصدق الخلق وأعلاهم فى كل معنى جميل ثم كذبوه رابعها أن يعتقدوا فيه الجنون فيقولوا انما حمله على ادعائه الرسالة جنونه وهو المراد من قوله تعالى (أم يقولون) أى بعد تدبر ما أتى به وعدم عثورهم فيه على وجه من وجوه الطعن (به) اى رسولهم (جنة) أى جنون فلا يوثق به ٭ ولما كانت هذه الاقسام منفية عنه فانهم أعرف الناس بهذا النبى الكريم وانه أكملهم خلقا وأشرفهم خلقا وأظهرهم شيما وأعظمهم هما وأرجحهم عقلا وأمتنهم رأيا وأرضاهم قولا وأصوبهم فعلا اضرب عنها وقال تعالى (بل) أى لم ينكصوا عند سماع الآيات ويستمروا ويتجروا الاعتقاد شئ مما مضى وانما فعلوا ذلك لان هذا الرسول الكريم (جاءهم بالحق) أى القرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الاسلام وقال الجلال المحلى الاستفهام فيه للتقرير بالحق من صدق النبى ومجىء الرسول للامم الماضية ومعرفة رسولهم بالصدق والامانة وان لا جنون به وبل للانتقال (وأكثرهم) أى والحال ان أكثرهم (للحق كارهون) متابعة للاهواء الردية والشهوات البهيمية عنادا وانما قيد تعالى الحكم بالاكثر لان بعضهم يتركه جهلا وتقليدا وخوفا من أن يقال صبأ أو بعضهم يتبعه توفيقا من الله تعالى وتأييدا ثم بين تعالى ان اتباع الهوى يؤدى الى الفساد العظيم بقوله تعالى (ولو اتبع الحق) أى القرآن (أهواءهم) بان جاء بما يهوونه من الشرك والولد لله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (لفسدت السموات) على علوها واحكامها (والارض) على كثافتها وانتظامها (ومن فيهن) على كثرتهم وانتشارهم وقوتهم أى خرجت عن نظامها المشاهد بسبب ادعائهم تعدد الآلهة لوجود التمانع فى الشئ عادة عند تعدد الحاكم كما سبق تقريره فى قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (بل أتيناهم) بعظمتنا (بذكرهم) اى بالقرآن الذى فيه ذكرهم وشرفهم وقيل بالذكر الذى تمنوه بقولهم لو أن عندنا ذكرا من الاولين (فهم عن ذكرهم) اى الذى هو شرفهم (معرضون) لا يلتفتون اليه ثم بين تعالى ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يطمع فيهم حتى يكون ذلك سببا لنفرتهم بقوله تعالى (أم تسألهم) أى على ما جئتهم به (خرجا) اي أجرا وقرأ حمزة والكسائى بفتح الراء وبعدها ألف والباقون بسكون الراء ولما كان الانكار معناه النفى حسن موقع فاء السببية فى قوله تعالى

تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة

(فخراج ربك) اى رزقه فى الدنيا وثوابه فى العقبى (خير) لسعته ودوامه ففيه مندوحة لك عن
عطائهم وقرأ ابن عامر بسكون الراء والباقون بفتحها وألف بعدها قال ابو عمرو بن العلاء الخرج
ما تبرعت به والخراج ما لزمك اداؤه قال الزمخشرى والوجه ان الخرج اخص من الخراج
كقولك خراج القرية وخرج الكرة اى الرقبة فزيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذلك حسنت
قراءة من قرأ خرجا فخراج ربك يعنى ام تسألهم على هدايتك لهم قليلا من عطاء الخلق فالكثير
من عطاء الخالق خير وقوله تعالى (وهو خير الرازقين) تقرير لخيرية خراجه * ولما ازيف سبحانه
وتعالى طريق القوم اتبعه بصحة ما جاء به الرسول عليه السلام بقوله تعالى (وانك لتدعوهم الى
صراط مستقيم) تشهد عقولهم السليمة على استقامته لاعوج فيه يوجب اتهامهم له كما تشهد
له به العقول الصحيحة فمن سلكه أوصله الى الغرض فحاز كل شرف * (تنبيه) * قد ألزمهم الله
تعالى الحجة فى هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم فان الذى أرسل اليهم رجل معروف أمره
وحاله مخبور سره وعلنه خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم وأنه لم يعرض له حتى
يدعى مثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ولم يجعل له سلما الى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم
ولم يدعهم الى دين الاسلام الذى هو الصراط المستقيم الامم ابراز المكنون من أدوائهم وهو
اخلالهم بالتدبر والتأمل من غير برهان (وان الذين لا يؤمنون بالآخرة) اى بالبعث والثواب
والعقاب (عن الصراط) اى الذى لا صراط غيره لانه لا موصل الى القصد غيره (لناكبون) اى
عادلون منحرفون فى سائر أحوالهم سائرون على غير منهج أصلا بل خبط عشواء (ولو رحمناهم)
اى عاملناهم معاملة المرحوم فى ازالة ضرره وهو معنى قوله تعالى (وكشفنا ما بهم من ضر) اى
جوع أصابهم بمكة سبع سنين (للجوا) اى عادوا وتمادوا (فى طغيانهم) الذى كانوا عليه قبل
هذا (يعمهون) اى يترددون (ولقد أخذناهم بالعذاب) وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا
على قريش أن يجعل عليهم سنين كسنى يوسف فأصابهم القحط فجاء أبو سفيان الى النبى صلى الله
عليه وسلم فقال أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين فقال بلى فقال قد قتلت
الآباء بالسيف والابناء بالجوع فقد أكلوا القرث والعظام والعلهز وشكا اليه الضرع فادع
الله تعالى لى يكشف عنا هذا القحط فدعا فكشف عنهم فأنزل الله تعالى هذه الآية * (تنبيه) *
العلهز وبر يخلط بدماء الحلم فيؤكل فى الجدب والعلهز أيضا القراد الضخم وشكا بعض
الاعراب الى النبى صلى الله عليه وسلم السنة فقال

ولا شيء مما يأكل الناس عندنا * سوى الحنظل العامى والعلهز الفسل
وليس لنا الا اليك فرارنا * وأين فرار الناس الا الى الرسل

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم واستسقى لرفع هذه المحن فقال الله تعالى عنهم (فما
استكانوا) اى خضعوا وخشعوا هو كالجبلة لهم وأصله طلب السكون (لربهم) اى المحسن اليهم
عقب المحنة (وما يتضرعون) اى يجددون الدعاء بالخضوع والذل والخشوع فى كل وقت
بحيث يكون لهم عادة بل هم على ما جبلوا عليه من الاستكبار والعتو (حتى اذا فتحنا عليهم
بابا ذا) اى صاحب (عذاب شديد) قال ابن عباس يعنى القتل يوم بدر وهو قول مجاهد وقيل هو
الموت وقيل هو قيام الساعة (اذا هم فيه) اى ذلك الباب مطروحون لا يقدرون منه على نوع

العشاء وفى الاخيرة من بيوتكم

وفيه تنبيه على أنهم أنكروا اشياء لا ينكرها عاقل ولما كانوا مقرين بذلك أخبر تعالى عن
جوابهم قبل جوابهم ليكون من دلائل النبوة وأعلام الرسالة بقوله تعالى استئنافا
(سيقولون) اى قطعا ذلك كله (لله) اى المختص بصفات الكمال ثم انه تعالى أمره بقوله (قل)
اى لهم اذا قالوا ذلك منكرا عليهم (أفلا تذكرون) اى فى ذلك المركوز فى طباعكم المقطوع
به عندكم ما غفلتم عنه من تمام قدرته وباهر عظمته فتصدقوا اما أخبر به من البعث الذى هو
دون ذلك وتعلموا أنه لا يصلح شئ منها وهو ملكه أن يكون شريكا له تعالى ولا ولدا وتعلموا ان
القادر على الخلق ابتداء قادر على الاحياء بعد الموت وأنه لا يصح فى الحكمة أصلا أن يترك
البعث لان أقلكم لا يرضى بترك حساب عبيده والعدل بينهم وقرأ حفص وحمزة والكسائى
بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التاء الثانية فى الذال * ثانيها قوله تعالى (قل) اى لهم
(من رب) اى خالق ومدبر (السموات السبع) كما تشاهدون من حركاتها وسيرها لا كلها
(ورب العرش) اى الكرسى (العظيم) كما قال تعالى وسع كرسيه السموات والارض
(سيقولون لله) اى الذى له كل شئ ورب ذلك لا جواب لهم غير ذلك ولما تأكد الامر وزاد
الوضوح حسن التهديد على التمادى فقال تعالى (قل) اى منكرا عليهم (أفلا تتقون) أى
تحذرون عبادة غيره * ثالثها قوله (قل) أمره الله تعالى بعد ما قررهم بالعالمين العلوى والسفلى
أن يقررهم بما هو أعم وأعظم وهو قوله تعالى (من بيده) اى من تحت قدرته ومشيئته (ملكوت
كل شئ) من انس وجن وغيرهما والملكوت الملك البليغ قال ابن الاثير كانت العرب اذا كان
السيد فيهم أجار أحدا لا يخفر جواره وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلا يفتات عليه ولو أجار
ما أفاد ولهذا قال تعالى (وهو يجير) اى يمنع ويغيث من شاء فيكون فى حرز لا يقدر أحد على
الدنو من ساحته (ولا يجار عليه) اى ولا يمكن أحدا أبدا أن يجير جوارا يكون مستعليا عليه
بان يكون على غير مراده بل يأخذ من أراد وان نصره جميع الخلائق ويعلى من أراد وان
تحاملت عليه كل المصائب فتبين كالشمس أنه لا شريك يمانعه ولا ولد يضارعه وانه السيد
العظيم الذى لا أعظم منه الذى له الخلق والامر ولا معقب لحكمه وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن
ثم ألهبهم الى المبادرة الى الاعتراف به وهيجهم بقوله تعالى (ان كنتم تعلمون) اى فى عداد من
يعلم ولذلك استأنف قوله تعالى (سيقولون لله) اى الذى بيده ذلك خاصا به * (تنبيه) *
سيقولون لله الاولى لا خلاف فيها وأما الثانية والثالثة فقرأ أبو عمرو سيقولون الله بزيادة
همزة الوصل مع التفخيم فيهما ورفع الهاء والباقون بغير همز الوصل مع الترقيق وكسر الهاء
والتقدير ذلك كله لله * ولما كان جوابهم بذلك يقتضى انكار توقفهم فى الاقرار بالبعث استأنف
قوله تعالى (قل) اى لهم منكرا عليهم (فأنى تسحرون) اى فكيف بعد اقراركم بهذا كله تخدعون
وتصرفون عن الحق وكيف يخيل لكم أنه باطل * ولما كان الانكار بمعنى النفى حسن قوله
تعالى (بل) اى ليس الامر كما يقولون بل (أتيناهم بالحق) اى بالصدق من التوحيد والوعد
بالنشور (وانهم لكاذبون) فى كل ما ادعوه من الولد والشريك وغيرهما مما بين القرآن فساده
ومن أعظم كذبهم قولهم اتخذ الرحمن ولدا قال تعالى ردا عليهم (ما اتخذ الله) اى الذى لا كفء له

الآيتين بقوله بيده الله
لكم الآيات واما بلوغ

له (من ولد) اى لامن الملائكة ولامن غيرهم لما قام من الادلة على فناه وانه لايجانس له ولما كان الولد أخص من مطلق الشريك قال تعالى (وما كان معه) اى بوجه من الوجوه (من اله) يشابهه فى الالوهية (اذا) لوكان معه اله آخر (لذهب كل اله بما خلق) بالتصرف فيه وحده ليتميز ماله مما لغيره (فان قيل) اذا لاتدخل الاعلى كلام هو جزاء وجواب فكيف وقع قوله تعالى لذهب جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولاسؤال سائل (أجيب) بان الشرط محذوف تقديره ولو كان معه آلهة وانما حذف لدلالة قوله تعالى وما كان معه من اله عليه وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين (ولعلا بعضهم) اى بعض الآلهة (على بعض) اذا تخالفت أوامرهم فلم يرض أحدهم أن يضاف ما خلقه الى غيره ولاأن يمضى فيه أمر على غير مراده كما هو مقتضى العادة فلا يكون المغلوب الها لعجزه ولا يكون مجيرا غير مجار عليه بيده وحده ملكوت كل شئ وهو لما طابق الدليل الالزامى نفى الشريك نزه نفسه الشريفة بما هو نتيجة ذلك من قوله تعالى (سبحان الله) اى المتصف بجميع صفات الكمال المنزه عن شائبة كل نقص (عما يصفون) من كل ما لايليق بجنابه المقدس من الانداد والاولاد لما سبق من الدليل على فساده ثم أقام دليلا آخر على كماله بوصفه بقوله تعالى (عالم الغيب والشهادة) اى ما غاب وما شوهد وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى برفع الميم على أنه خبر مبتدا محذوف تقديره هو والباقون بالخفض على أنه صفة لله ثم رتب على هذا الدليل قوله تعالى (فتعالى) اى تعاظم (عما يشركون) معه من الآلهة ثم ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل رب) اى أيها المحسن الى (اما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما الزائدة اى ان كان لابد أن (ترينى) لان ما والنون للتأكيد (ما يوعدون) من العذاب فى الدنيا والآخرة (رب فلا تجعلنى) باحسانك الى (فى القوم الظالمين) اى قرينا لهم فى العذاب (فان قيل) كيف يجوز أن يجعل الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم المعصوم مع الظالمين حتى يطلب أن لايجعله معهم (أجيب) بانه يجوز أن يدعو العبد ربه بما علم أنه يفعله وأن يستعيذ به مما علم أنه لايفعله اظهارا للعبودية وتواضعا لربه واخباتا له واستغفاره صلى الله عليه وسلم اذا قام من مجلسه سبعين مرة أو مائة مرة لذلك وما أحسن قول الحسن فى قول أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وليتكم ولست بخيركم كان يعلم انه خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه وانما كرر به مرتين مرة قبل الشرط ومرة قبل الجزاء مبالغة فى التضرع (وانا) اى بما لنا من العظمة (على أن نريك) اى قبل موتك (ما نعدهم) من العذاب (لقادرون) لكنا نؤخره علما بان بعضهم أو بعض أعقابهم يؤمنون وهو صادق بما قتل يوم بدر أو فتح مكة ثم كأنه قال فماذا أفعل فيما أعلم من أمرهم فقال تعالى (ادفع بالتى هى أحسن) اى من الاقوال والافعال بالصفح والمداراة (السيئة) اذاهم اياك وهذا قبل الامر بالقتال فهى منسوخة وقيل محكمة لان المداراة محثوث عليها مالم تؤد الى نقصان دين أو مروءة (نحن أعلم بما يصفون) فى حقك وحقنا فلو شئنا لمنعناهم منه أو عاجلناهم بالعذاب وليس أحد باغير منا فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل * ولما أدب سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بان يدفع بالتى هى أحسن علمه ما به يقوى على ذلك بقوله تعالى (وقل رب) اى أيها المحسن الى (أعوذ بك) اى التجئ اليك

الاطفال لم يذكره علامات يمكننا الوقوف

(من همزات الشياطين) أى أن يصلوا الى وساوسهم وأصل الهمز النخس ومنه مهماز الرائض شبه حثهم الناس على المعاصى بهمز الرائض الدواب على المشى واغيا جمع همزات لتنوع الوساوس أو لتعدد المضاف اليه (وأعوذ بك رب) أى أيها المربى لى (أن يحضرون) فى حال من الاحوال خصوصا حال الصلاة وقراءة القرآن وحلول الاجل لانها أحرى الاحوال وهم انما يحضرون بالسوء ولو لم تصل الى وساوسهم فان بعدهم بركة وعن جبير بن مطعم قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة قال عمرو لا أدرى أى صلاة هى فقال الله أكبر كبيرا ثلاثا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه قال نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة أخرجه أبو داود لان الشعر يخرج من القلب فيلفظ به اللسان وينفثه كما ينفث الريق والمتكبر ينتفخ ويتعاظم ويجمع نفسه ويحتاج الى أن ينفخ والموتة الجنون والمجنون يصير فى الدنيا كالميت ثم ان الله تعالى أخبر أن هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة الى الدنيا عند معاينة الموت بقوله تعالى (حتى) وهى هنا كما قال الجلال المحلى ابتدائية أو متعلقة بيصفون أو بكاذبون كما قال الزمخشرى وقدم المفعول ليذهب الوهم فى فاعله كل مذهب فقال (اذا جاء أحدهم الموت) فكشف له الغطاء وظهر له الحق ولاحت له بوارق العذاب ولم يبق فى شئ من ذلك ارتياب (قال) متحسرا على ما فرط فيه من الايمان والطاعة مخاطبا الملائكة المعذاب على عادة جهله ووقوفه مع المحسوس من دأب البهائم (رب ارجعون) أى ردونى الى الدنيا دار العمل ويجوز أن يكون الجمع له تعالى وللملائكة أو للتعظيم على عادة مخاطبات الاكابر سيما الملوك كقوله * ألا فارحمونى يا اله محمد * وقوله * فان شئت حرمت النساء سواكم * أو القصد تكرير الفعل للتأكيد لانه فى معنى ارجعنى كما قيل فى قفا وأطرقا فانه بمعنى قف قف وأطرق أطرق * ولما كان فى تلك الحالة مع وصوله الى الغرغرة ليس على القطع من اليأس قال (لعلى أعمل) أى لأن أكون على رجاء من أن أعمل (صالحا فيما تركت) أى ضيعت من الايمان بالله وتوابعه فيدخل فى الاعمال الاعمال البدنية والمالية وعنه صلى الله عليه وسلم اذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك الى الدنيا فيقول الى دار الهموم والاحزان بل قدوما على الله وأما الكافر فيقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت قال قتادة ما تمنى أن يرجع الى أهله ولا عشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضى الشهوات ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله فرحم الله امرأ عمل فيما تمناه الكافر اذا رأى العذاب وقال ابن كثير كان العلاء بن زياد يقول لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت واستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى * ولما كان القضاء قد قطع بانه لا يرجع ولو رجع لم يعمل بطاعة الله عز وجل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون قال الله تعالى له ردعا ورد الكلامه (كلا) أى لا يكون شئ من ذلك وكأنه قيل فما حكم ما قال فقيل (انها كلمة) والمراد بالكلمة فى اللغة الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض رب ارجعون الى آخره (هو قائلها) وقد عرف منه الخداع بالكذب فهى كما عهد منه لا حقيقة لها فلا يجاب اليها ولا تسمع منه وهو لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه وتسلط الندم (ومن ورائهم) أى أمامهم والضمير للجماعة (برزخ)

علمها بل تفرد تعالى بعلمه بذلك مخصها بقوله يسبق

اى حاجز حائل بينهم وبين الرجعة واختلف فى معناه فقال مجاهد حجاب بينهم وبين الرجوع الى الدنيا وقال قتادة بقية الدنيا وقال الضحاك البرزخ ما بين الموت الى البعث وقيل هو الموت وقيل هو القبر هم فيه (الى يوم يبعثون) وهو يوم القيامة وفى هذا اقناط كلى من الرجوع الى الدنيا لما علم أنه لا رجعة يوم البعث الى الدنيا وانما الرجوع فيه الى حياة تكون فى الآخرة (فاذا نفخ فى الصور) اى القرن روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنها النفخة الاولى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وعن ابن مسعود أنها النفخة الثانية قال يؤخذ بيد العبد والامة يوم القيامة فينصب على رؤس الاولين والآخرين ثم ينادى منادٍ هذا فلان بن فلان فمن كان له قبله حق فليأت الى حقه فيفرح المرء أن يكون له حق على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه فيأخذ منهم ثم قرأ ابن مسعود فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وفى رواية عطاء عن ابن عباس أنها النفخة الثانية فلا أنساب بينهم اى لا يتفاخرون بالانساب يومئذ كما كانوا يتفاخرون بها فى الدنيا ولا يتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون فى الدنيا من أنت ومن اى قبيل أنت ولم يرد أن الانسان ينقطع نسبه (فان قيل) قد قال تعالى هنا ولا يتساءلون وقال تعالى فى موضع آخر وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (أجيب) بان ابن عباس قال ان للقيامة أحوالا ومواطن ففى موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم عظم الامر عن التساؤل فلا يتساءلون وفى موطن يفيقون افاقة فيتساءلون وقيل التساؤل بعد دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار (فمن ثقلت موازينه) اى بالاعمال المقبولة قال البقاعى واعل الجمع لان لكل عمل ميزانا يعرف أنه لا يصلح له غيره وذلك أدل دليل على القدرة (فأولئك) اى خاصة قال أيضا ولعله جمع للبشارة بكثرة الناجى بعد أن أفرد للدلالة على كثرة الاعمال او على عموم الوزن لكل فرد (هم المفلحون) اى الفائزون بالنجاة والدرجات العلا (ومن خفت موازينه) لاعراضه عن تلك الاعمال المؤسسة على الايمان (فأولئك) خاصة (الذين خسروا أنفسهم) لاهلاكهم اياها باتباعهم شهواتهم فى دار الاعمال وشغلها باهوائها عن مراتب الكمال وقوله تعالى (فى جهنم خالدون) بدل من الصلة أو خبر ثان لاولئك وهى دار لا ينفك أسيرها ولا ينطفئ سعيرها ثم استأنف قوله تعالى (تلفح) اى تغشى بشدة حرها وسمومها ولهيبها (وجوههم النار) فتحرقها وافا ظنك بغيرها واللفح كالنفح الا أنه أشد تأثيرا (وهم فيها كالحون) اى عابسون قد شمرت شفاههم العليا والسفلى عن أسنانهم وعن ابى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته وقوله تعالى (ألم تكن آياتى) اى من القرآن على اضمار القول اى يقال لهم ألم تكن آياتى (تتلى عليكم) اى تتابع لكم قراءتها فى الدنيا شيأ فشيأ (فكنتم بها تكذبون) ثم استأنف جوابه بقوله تعالى (قالوا ربنا) اى المسبغ علينا نعمه (غلبت علينا شقوتنا) اى ملكتنا بحيث صارت أحوالنا مؤدية الى سوء العاقبة (وكنا) اى بما جبلنا عليه (قوما ضالين) فى ذلك عن

الله لكم آياته بالاضافة اليه (قوله) واقواعده من

الحق أقوياء في موجبات الشقوة فكان سببا للضلال عن طريق السعادة (ربنا) يا من عودنا بالاحسان (أخرجنا منها) أى من النار فضلا منك على عادة فضلك وردنا الى دار الدنيا لنعمل ما يرضيك (فان عدنا) الى مثل ذلك الضلال (فانا ظالمون) لانفسنا ثم استأنف جوابهم بأن (قال) لهم باسان مالك بعد قدر الدنيا مرتين كما يقال للكلاب (اخسؤا) أى انزجروا زجر الكلاب وانا مردوا اصاغرين مخاطبين ساكتين سكوت هوان (فيها) أى النار (ولا تكلمون) أصلا فانكم لستم باهل للمخاطبة لانكم لم تزالوا متصفين بالظلم فيئس القوم بعد ذلك ولا يتكلموا بكلمة الا الزفير والشهيق والعواء كعواء الكلاب وقال القرطبي اذا قيل لهم ذلك انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض فاطبقت عليهم وعن ابن عباس ان لهم ست دعوات اذا دخلوا النار قالوا ألف سنة ربنا أبصرنا وسمعنا فيجابون حق القول منى فينادون ألفا ربنا أمتنا اثنتين فيجابون ذلكم بانه اذا دعى الله وحده كفرتم فينادون ألفا يا مالك ليقض علينا ربك فيجابون انكم ماكثون فينادون ألفا ربنا أخرجنا منها فيجابون أولم تكونوا أقسمتم فينادون ألفا أخرجنا نعمل صالحا فيجابون أولم نعمركم فينادون ألفا رب ارجعون فيجابون اخسؤا فيها ولا تكلمون ثم لا يكون لهم الا الزفير والشهيق والعواء ثم علل ذلك بقوله تعالى (انه كان) أى كونا ثابتا (فريق) أى ناس قد استضعفتموهم (من عبادى) وهم المؤمنون (يقولون) مع الاستمرار (ربنا) أى أيها المحسن الينا بالخلق والرزق (آمنا) أى أوقعنا الايمان بجميع ما جاءتنا به الرسل (فاغفر لنا) أى استر ما زللنا (وارحمنا) أى افعل بنا فعل الراحم (وأنت خير الراحمين) لانك تخلص برحمتك من كل شقاء وهوان (فاتخذتموهم) أى فتسبب عن ايمانهم انكم اتخذتموهم (سخريا) أى تسخرون منهم وتستهزؤن بهم وقرأ نافع وحمزة والكسائى بضم السين والباقون بالكسر وهو مصدر سخر كالسخر الا أن فى ياء النسب زيادة قوة فى الفعل كما قيل الخصوصية فى الخصوص وعن الكسائى والفراء ان المكسور من الهزء والمضموم من السخر بمعنى العبودية اى تسخرونهم وتستعبدونهم قال الزمخشرى والاول مذهب الخليل وسيبويه انتهى وأظهر الذال عند التاء ابن كثير وحفص والباقون بالادغام (حتى أنسوكم ذكرى) أى بأن تذكرونى فتخافونى وأضاف ذلك اليهم لانهم كانوا السبب فيه لفرط اشتغالهم بالاستهزاء بهم (وكنتم منهم تضحكون) استهزاء بهم نزلت فى كفار قريش كانوا يستهزؤن بالفقراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل بلال وعمار وصهيب وخباب • ولما تشوفت النفس بعد العلم بما فعل بأعدائهم الى جزائهم قال الله تعالى (انى جزيتهم اليوم) أى بالنعيم المقيم (بما صبروا) أى على عبادتى ولم يشغلهم عنها تألمهم بأذاكم كما يشغلكم عنها التذاذكم باهانتهم ففازوا دونكم وهو معنى قوله تعالى (انهم هم الفائزون) أى بمطلوبهم الناجون من عذاب النار وقرأ حمزة والكسائى بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بفتحها على أنه مفعول ثان لجزيتهم ثم ان الله تعالى (قال) لهم على لسان الملك المأمور بسؤالهم تبكيتا وتوبيخا لانهم كانوا يظنون أن بعد الموت يدوم الفناء ولا اعادة فلما حصلوا فى النار وأيقنوا أنها دائمة وانهم فيها مخلدون سألهم (كم لبثتم فى الارض) على تلك الحال فى الدنيا التى

النداء الالهي ان قلت كيف اباح الله تعالى بذلك

كنتم تعدونها أوزا (عدد سنين) أنتم فيها ظافرون ولأعدائكم قاهرون وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي قل كم بضم القاف وسكون اللام على الامر للملك أو لبعض رؤساء أهل النار والباقون بفتح القاف واللام وألف بينهما خبرا وتقدم توجيهه وأظهر الثاء المثلثة عند التاء المثناة فوق نافع وابن كثير وعاصم وأدغمها فيها الباقون (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) يشكون في ذلك (فان قيل) كيف يصح في جوابهم ان يقولوا ذلك ولا يقع من أهل النار الكذب (أجيب) بانهم نسوا ذلك لكثرة ماهم فيه من الاهوال وقد اعترفوا بهذا النسيان حيث قالوا (فاسئل العادين) اى الملائكة المحصين أعمال الخلق وأعمارهم قال ابن عباس أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين وقيل قالوا ذلك تصغيرا للبثهم وتحقيرا لها بالاضافة الى ما وقعوا فيه من دوام العذاب قال بعضهم

ألا ان أيام الشقاء طويلة • كما ان أيام السرور قصار

وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين وترك الهمز بعدها وكذا يفعل حمزة في الوقف والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ثم (قال) الله تعالى لهم على لسان الملك (ان) اى ما (لبثتم) أي في الدنيا (الا قليلا) لان الواحد وان طال مكثه في الدنيا فانه يكون قليلا في جنب ما يلبث في الآخرة (لو أنكم كنتم تعلمون) أي في عداد من يعلم في ذلك الوقت لما آثرتم الفاني على الباقي ولا قبلتم على ما ينفعكم واتركتم أفعالكم التي لا يرضاها عاقل ولكنكم كنتم في عداد البهائم وقرأ حمزة والكسائي قل أمرا والباقون قال خبرا وابثتم تقدم مثله وتوجيهه قال وقل ثم وبخهم الله تعالى على تغافلهم بقوله تعالى (أفحسبتم انما خلقناكم) على ما لنا من العظمة وقوله تعالى (عبثا) حال أي عابثين كقوله لاعبين أو مفعول له أي ما خلقناكم للعبث ولم يدعنا الى خلقكم الا حكمة اقتضت ذلك وهي أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي (و) حسبتم (أنكم الينا لا ترجعون) في الآخرة للجزاء وروى البغوي بسنده عن أنس أن رجلا مصابا مر به على ابن مسعود فرقاه في أذنه أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون حتى ختم السورة فبرئ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء الفوقية وكسر الجيم والباقون بضم الفوقية وفتح الجيم * ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه عما يقوله ويصفه به المشركون بقوله تعالى (فتعالى الله) أي الذي له الجلال والجمال علوا كبيرا عن العبث وغيره مما لا يليق به (الملك) اى المحيط باهل مملكته علما وقدرة وسياسة وحفظا ورعاية (الحق) اى الذي لا يتطرق الباطل اليه في شئ في ذاته ولا في صفاته فلا زوال له ولا لملكه (لا اله الا هو) فلا يوجد له نظير أصلا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فهو متعال عن سمات النقص والعبث ثم زاد في التعيين والتأكيد والتفرد بوصفه بصفة لا يدعيها غيره بقوله تعالى (رب العرش) اى لسرير المحيط بجميع الكائنات الذي تنزل منه محكمات الاقضية والاحكام ولذا وصفه بالكرم فقال (الكريم) أو لنسبته الى أكرم الاكرمين * ولما بين سبحانه وتعالى انه الملك الحق لا اله الا هو أتبعه بان من ادعى الها آخر فقد ادعى باطلا بقوله تعالى (ومن يدع مع الله) اى الملك الذي لا كفء له (الها آخر) بعبده (لا برهان له به) اى بسبب دعائه

للقواعد من النساء وهن العجائز اللاتي قعدن من الشباب

بذلك اذا اجتهد فى اقامة برهان على ذلك لم يجد ثم ذكر ان من قال ذلك يجزاؤه لعقاب العظيم بقوله تعالى (فانما حسابه) اى جزاؤه الذى لا يمكن زيادته ولا نقصه (عند ربه) اى الذى رباه ولم يربه أحد سواه الذى هو أعلم بسريرته وعلانيته فلا يخفى عليه شئ من أمره * ولما افتتح السورة بقوله قد أفلح المؤمنون ختمها بقوله (انه لا يفلح الكافرون) اى لا يسعدون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة * ولما شرح الله تعالى أحوال الكفار فى جهلهم فى الدنيا وعذابهم فى الآخرة أمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام بالانقطاع اليه والالتجاء الى غفرانه ورحمته بقوله تعالى (وقل رب) اى أيها المحسن الى (اغفر وارحم) اى أكرم من هذين الوصفين (وأنت خير الراحمين) فمن رحمته أفلح بما وفقته له من امتثال ما أشرت اليه أول السورة كان من المؤمنين وكان من الوارثين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون فقد انطبق على الاول هذا الآخر بفوز كل مؤمن وخيبة كل كافر فنسأل الله تعالى ان يكون لنا ولوالدينا ولاحبابنا ارحم راحم وخير غافر انه المتولى للسرائر والمرجو لاصلاح الضمائر وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المؤمنون بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت حديث موضوع وقوله أيضا تبعا للزمخشرى روى ان أول سورة قد أفلح وآخرها من كنوز العرش من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ باربع آيات من آخرها فقد نجا وأفلح قال شيخ شيخنا ابن حجر حافظ عصره لم أجده

* ضيرة الرجل

سورة النور مدنية

(وهى ثنتان أو أربع وستون آية)

(بسم الله) الذى تمت كلمته فبهرت قدرته (الرحمن) الذى ظهرت الخلائق كلها بشمول رحمته (الرحيم) الذى شرف من اختاره بخدمته قوله تعالى (سورة) خبر لمبتدإ محذوف تقديره هذه سورة أى عظيمة أو سورة أنزلناها مبتدأ موصوف والخبر محذوف أى فيما أوحينا اليك سورة أنزلناها وقال الاخفش لا يبعد الابتداء بالنكرة فسورة مبتدأ وأنزلناها خبره ثم رغب فى امتثال ما فيها مبينا أن تنوينها للتعظيم بقوله تعالى (أنزلناها) أى بما لنا من العظمة وتمام العلم والقدرة (وفرضناها) أى قدرنا ما فيها من الحدود وقيل أوجبناها عليكم وعلى من بعدكم الى قيام الساعة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد الراء لكثرة الفروض والباقون بالتخفيف (وأنزلنا فيها آيات) من الحدود والاحكام والمواعظ والامثال وغيرها (بينات) أى واضحات الدلالة (لعلكم تذكرون) أى تتعظون وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد ثم انه تعالى ذكر فى السورة أحكاما كثيرة * الحكم الاول قوله تعالى (الزانية والزانى) اى غير المحصنين لرجمهما بالسنة وأل فيما ذكر موصولة وهو مبتدأ ولشبهه بالشرط دخلت الفاء فى خبره وهو (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) اى ضربة يقال جلده اذا ضرب جلده ويزاد على ذلك بالسنة تغريب عام والرقيق على النصف مما ذكر ولا رجم عليه لانه لا يتنصف واعلم ان الزنا من الكبائر ويدل عليه أمور أحدها ان الله تعالى قرنه

بالشرك وقتل النفس في قوله تعالى ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ثانيها قوله تعالى ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا ثالثها ان الله تعالى أوجب المائة فيه بكمالها بخلاف حد القذف وشرب الخمر وشرع فيه الرجم وروى حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يا معشر الناس اتقوا الزنا فان فيه ست خصال ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة أما اللاتي في الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر وأما اللاتي في الآخرة فسخط الله سبحانه وتعالى وسوء الحساب وعذاب النار وعن عبد الله قال قلت يا رسول الله اى الذنب أعظم عند الله قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك قلت ثم أي قال أن تزني بحليلة جارك فانزل الله تعالى تصديقه ذلك والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون والزنا ايلاج حشفة أو قدرها من مقطوعها من الذكر المتصل الاصلي من الآدمي الواضح ولو أشل وغير منتشر وكان ملفوفا في خرقة بقبل محرم في نفس الامر لعينه خال عن الشبهة المسقطة للحد مشتهى طبعا بان كان فرج آدمي حي ولا يشترط ازالة البكارة حتى لو كانت غوراء وأدخل الحشفة فيها ولم يزل بكارتها ترتب عليه حد الزنا بخلاف التحليل لا بد فيه من ازالة البكارة لقوله صلى الله عليه وسلم حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك واختلف في اللواط هل يطلق عليه اسم الزنا أو لا فقال بعضهم يطلق عليه لقوله صلى الله عليه وسلم اذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان والذي عليه الاكثر أصحابنا أنه غير داخل تحت اسم الزنا لانه لو حلف لا يزني فلاط لم يحنث والحديث محمول على الاثم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم اذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان والشافعي في حده قولان أصحهما أن الفاعل ان كان محصنا فانه يرجم والا فيجلد مائة ويغرب عاما وأما المفعول فلا يتصور فيه احصان فيجلد ويغرب والقول الثاني يقتل الفاعل والمفعول به سواء كان محصنا أم لا لما روى عن ابن عباس انه قال من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به وأما اتيان البهائم فحرام باجماع الائمة واختلف في عقوبته على أقوال أحدها حد الزنا فيرجم الفاعل المحصن ويجلد غيره ويغرب والثاني أنه يقتل محصنا كان أو غير محصن لما روى عن ابن عباس أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه والثالث وهو الاصح انه يعزر لان الحد شرع للزجر عما تميل النفس اليه وضعفوا حديث ابن عباس بضعف اسناده وهو وان ثبت فهو معارض بما روى انه صلى الله عليه وسلم نهى عن ذبح الحيوان الا لمأكله وأما السحاق من النساء واتيان المرأة الميتة والاستمناء باليد فلا يشرع فيه شئ من ذلك الا التعزير والمقيم للحد هو الامام أو نائبه وللسيد ان يقيم الحد على رقيقه ولا تجوز الشفاعة في اسقاط الحد ولا تركه ولا تخفيفه كما قال تعالى (ولا تأخذكم) اى على اى حال من الاحوال (بهما رأفة) اى رحمة ورقة فتعطلوا الحدود ولا تقيموها وقرأ ابن كثير بفتح الهمزة والباقون بسكونها والسوسي على أصله من البدل وقيل معنى الرأفة ان يخففوا الضرب (في دين الله) اى الذي شرعه لكم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها روى ان عمر رضي الله عنه جلد جارية له زنت فقال للجلاد اضرب ظهرها ورجليها فقال له ابنه ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله فقال يا بني ان الله تعالى لم يأمرنا بقتلها وقد

(قال) المراد بالثياب الزائدة على ما يستر من

ضربت فاوجعت ثم انه سبحانه وتعالى زادفى الحض على ذلك بقوله تعالى (ان كنتم تؤمنون بالله) اى الذى هو أرحم الراحمين فانه ماشرع ذلك الارحمة للناس عموما وللزانين خصوصا فلاتزيدوا فى الحد ولاتنقصوا منه شيأ وفى الحديث يؤتى بوال نقص من الحدود سوطا فيقول رحمة لعبادك فيقال له أنت أرحم منى فيؤمر به الى النار ويؤتى بمن زاد سوطا فيقول لينتهوا عن معاصيك فيؤمر به الى النار وعن أبى هريرة اقامة حد بارض خير من مطر أربعين ليلة ثم اتبع ذلك بما يرهبه بقوله تعالى (واليوم الآخر) الذى يحاسب فيه على النقير والقطمير والخفى والجلى (وليشهد) اى وليحضر (عذابهما) اى حدهما اذا أقيم عليهما (طائفة من المؤمنين) والطائفة الفرقة التى يمكن ان تكون حلقة وأقلها ثلاثة أو أربعة وهى صفة غالبة كانها الجماعة الحافة حول الشئ وعن ابن عباس فى تفسيرها أربعة الى أربعين رجلا من المصدقين بالله تعالى وعن الحسن عشرة وعن قتادة ثلاثة فصاعدا وعن عكرمة رجلان فصاعدا وعن مجاهد اقلها رجل فصاعدا وقيل رجلان وفضل قول ابن عباس لان الاربعة هى الجماعة التى يثبت بها الزنا ولا يجب على الامام حضور رجم ولا على الشهود لانه صلى الله عليه وسلم امر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما وانما خص المؤمنين بالحضور لان ذلك افضح والفاسق بين صلحاء قومه اخجل ويشهد له قول ابن عباس الى اربعين رجلا من المصدقين بالله ❊(تنبيه)❊ الضرب يكون بسوط لاحديد يجرح ولا خلق لايؤلم ويفرق بين السياط على اعضائه ولا يجمعها فى موضع واحد واتفقوا على انه يتقى المهالك كالوجه والبطن والفرج ويضرب على الراس لقول ابى بكر رضى الله عنه اضرب على الراس فان الشيطان فيه ولا يشديده وينزع الثياب التى تمنع الم الضرب كالفرو ولو فرق سياط الحد تفريقا لايحصل به التنكيل مثل ان يضرب كل يوم سوطا او سوطين فان فرق وضرب والالم موجود كفى وان وجب الحد على حامل لايقام عليها حتى تضع وترضعه حتى يستغنى ويندب ان يحفر للمراة الى صدرها ان ثبت زناها بالبينة لا باقرارها ولا يندب للرجل مطلقا وان وجب الحد على المريض نظر ان كان يرجى زواله كصداع انتظر او لايرجى كالزمانة فلا يؤخر ولا يضرب بالسياط بل بعثكال عليه مائة شمراخ فيقوم ذلك مقام جلده واما فى حال الحر والبرد الشديدين فان كان الحد رجما لم يؤخر لان النفس مستوفاة وان كان جلدا اخر الى اعتدال الهواء ويقبل رجوع الزانى عن اقراره ولو فى أثناء الحد واذا مات فى الحد يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن فى مقابر المسلمين ❊ الحكم الثانى قوله تعالى (الزانى لاينكح) اى لايتزوج (الازانية أو مشركة) اى المعلوم اتصافه بالزنا مقصور نكاحه على زانية أو مشركة (والزانية لاينكحها) اى لايتزوجها (الازان أو مشرك) اى والمعلوم اتصافها بالزنا مقصور نكاحها على زان أو مشرك اذ الغالب أن المائل الى الزنا لايرغب فى نكاح الصوالح والمسافحة لايرغب فيها الصلحاء فان المشاكلة علة الالفة والانضمام والمخالفة سبب النفرة والافتراق وقال بعضهم الجنسية علة الضم والمشاكلة سبب المواصلة والمخالفة توجب المباعدة وتحرم المؤالفة وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وعن على رضى الله تعالى عنه انه خطب أهل الكوفة

وسميت العجوز قاعدا لكثرة قعودها قاله اه

بعد

بعد ثلاثة أيام من مقدمه عليهم فقال يا أهل الكوفة قد علمنا شراركم من خياركم فقالوا كيف وما لك الا ثلاثة أيام فقال كان معنا شرار وخيار فانضم خيارنا الى خياركم وشرارنا الى شراركم وعن الشعبي انه قال ان لله ملكا موكلا يجمع الاشكال بعضها الى بعض وقال القائل

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ٭ فكل قرين بالمقارن يقتدى

فان قيل لم قدمت الزانية على الزانى أولا ثم قدم عليها ثانيا (أجيب) بان تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ما جنيا والمرأة هي المادة التى منها نشأت الجناية لانها لو لم تطمع الرجل ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن فلما كانت أصلا وأولا فى ذلك بدئ بذكرها وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لانه الراغب فيه والخاطب ومنه يبدو الطلب (وحرم ذلك) أى نكاح الزانى والزانية تحريما مشوبة فيه (على المؤمنين) واختلف العلماء فى معنى الآية وحكمها فقال قوم منهم مجاهد وعطاء وقتادة والزهرى والشعبى ورواية عن ابن عباس قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لا مال لهم ولا عشائر وبالمدينة نساء بغايا هن ومنذ أخصب أهل المدينة فرغب ناس من فقراء المسلمين فى نكاحهن لينفقن عليهم فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك فنزلت هذه الآية وحرم ذلك على المؤمنين أن يتزوجوا تلك البغايا لانهن كن مشركات وقال عكرمة نزلت فى نساء كن بمكة وبالمدينة لهن رايات يعرفن بهن منهن أم مهزول جارية السائب بن أبى السائب المخزومى وكان الرجل ينكح الزانية فى الجاهلية يتخذها ما كلة فاراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الصفة فاستأذن رجل منهم النبى صلى الله عليه وسلم فى نكاح أم مهزول فاشترطت أن تنفق عليه فنزلت هذه الآية وروى عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رجل يقال له مرثد بن أبى مرثد الغنوى وكان يحمل الاسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة وكان بمكة بغى يقال لها عناق وكانت صديقة له فى الجاهلية فلما أتى مكة دعته عناق الى نفسها فقال مرثد ان الله حرم الزنا فقالت فانكحنى فقال حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فاتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أنكح عناقا فامسك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرد على شيأ فنزل الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأها على وقال لا تنكحها أخرجه الترمذى والنسائى وأبو داود بالفاظ متقاربة المعنى فعلى قول هؤلاء كان التحريم خاصا حق أولئك دون سائر الناس وقال قوم منهم سعيد بن جبير والضحاك ورواية عن ابن عباس المراد من النكاح هو الجماع ومعنى الآية الزانى لا يزنى الا بزانية أو مشركة والزانية لا تزنى الا بزان أو مشرك وقال يزيد بن هرون ان جامعها وهو مستحل فهو مشرك وان جامعها وهو محرم فهو زان وعن عائشة رضى الله عنها ان الرجل اذا زنى بامرأة ليس له ان يتزوجها لهذه الآية واذا باشرها كان زانيا وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية ويقول اذا تزوج الزانى الزانية فهما زانيان أبدا وقال الحسن الزانى المجلود لا ينكح الا زانية مجلودة والزانية المجلودة لا ينكحها الا زان مجلود وقال سعيد بن المسيب وجماعة منهم الشافعى رحمه الله تعالى ان حكم الآية منسوخ وكان نكاح الزانية حراما بهذه الآية فنسخها الله تعالى بقوله تعالى وأنكحوا الايامى منكم وهو جمع أيم وهى من لا زوج لها فدخلت

قتيبة (قوله ولا على أنفسكم ان تأكلوا من

الزانية فى أبى المسلمين واحتج من جوز نكاح الزانية بما روى عن جابر أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان امرأتى لا تمنع يد لامس قال طلقها قال فانى أحبها وهى جميلة قال استمتع بها وفى رواية غيره أمسكها اذا وقد أجازه ابن عباس وشبهه بمن سرق ثمر شجرة ثم اشتراه وعنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن ذلك فقال أوله سفاح وآخره نكاح وعن عمر رضى الله تعالى عنه أنه ضرب رجلا وامرأة زنيا وحرص أن يجمع بينهما فأبى الغلام ولما نفر سبحانه وتعالى عن نكاح من اتصف بالزنا من رجل أو امرأة نهى عن الرمى به فقال تعالى (والذين يرمون) أى بالزنا (المحصنات) جمع محصنة وهى هنا المسلمة الحرة المكلفة العفيفة وهذا هو الحكم الثالث والذى يدل على أن المراد الرمى بالزنا أمور أحدها تقدم ذكر الزنا ثانيها أنه تعالى ذكر المحصنات وهن العفائف فدل ذلك على أن المراد بالرمى رميهن بضد ذلك ثالثها انعقاد الاجماع على انه لا يجب الجلد بالرمى بغير الزنا فوجب أن يكون المراد هو الرمى بالزنا رابعها قوله تعالى (ثم لم يأتوا) أى الى الحكام (بأربعة شهداء) أى ذكور ومعلوم ان هذا العدد من الشهود غير مشروط الا فى الزنا وشرط القاذف الذى يحد بسبب القذف التكليف والاختيار والتزام الاحكام والعلم بالتحريم وعدم اذن المقذوف وأن يكون غير أصل وألفاظ القذف تنقسم الى صريح وكناية وتعريض فمن الصريح قوله لرجل أو امرأة زنيت او زنيت او يا زانى او يا زانية ولو كسر التاء فى خطاب الرجل وفتحها فى خطاب المرأة او زنيت فى الجبل ومن الكناية زنأت وزنات فى الجبل بالهمز فان نوى بذلك القذف كان قذفا والا فلا ومن التعريض يا ابن الحلال واما انا فلست بزان فهذا ليس بقذف وان نواه (فان قيل) اذا كان ذلك القذف يشمل الذكر والانثى فلم كانت الآية الكريمة فى الاناث فقط (أجيب) بان الكلام فيه من أشنع وتنبيها على عظيم حق أم المؤمنين عائشة الصديقة رضى الله تعالى عنها وحد القاذف الحر ثمانون كما قال تعالى (فاجلدوهم) اى أيها المؤمنون من الائمة ونوابهم (ثمانين جلدة) لكل واحد منهم لكل محصنة وحد القاذف الرقيق ولو مبعضا أو مكاتبا أربعون جلدة على النصف من الحر لآية النساء فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب فهذه الآية مخصوصة بتلك اذ لا فرق بين الذكر والانثى ولا بين حد الزنا وحد القذف ويدل على ان المراد بالآية الاحرار قوله تعالى (ولا تقبلوا لهم) اى بعد قذفهم (شهادة) اى شهادة كانت (أبدا) الحكم باقترافهم لان العبد لا تقبل شهادته وان لم يقذف ولما كان التقدير انهم قد افتروا عطف عليه تحذيرا من الاقدام عليه من غير تثبت (وأولئك) اى الذين تقدم ذمهم بالقذف فنزلت رتبتهم جدا (هم الفاسقون) اى المحكوم بفسقهم الثابت لهم هذا الوصف وان كان القاذف منهم محقا فى نفس الامر وفى ذلك دليل على ان القذف من الكبائر لان اسم الفسق لا يقع الا على صاحب كبيرة واختلف العلماء فى قبول شهادة القاذف بعد التوبة وحكم هذا الاستثناء المذكور فى قوله (الا الذين تابوا) اى رجعوا عما اوقعوا فيه من القذف وغيره وندموا عليه وعزموا على ان لا يعودوا (من بعد ذلك) اى الامر الذى أوجب ابعادهم فذهب قوم الى ان القاذف ترد شهادته بنفس القذف فاذا تاب وصلح حاله كما قال تعالى (وأصلحوا)

بيوتكم) أى من بيوت أولادكم وعيالكم والا

اى بعد التوبة بمضى مدة يظن بها حسن الحال وهى سنة يعتبر بها حال التائب بالفصول الاربعة التى تكشف الطبائع (فان الله) اى الذى له صفات الكمال (غفور) اى ستور لهم ما اقدموا عليه لرجوعهم عنه (رحيم) اى يفعل بهم من الاكرام فعل الراحم بالمرحوم فى قبول الشهادة وقبلت شهادته سواء قبل الحد و بعده و زال عنه اسم الفسق وقالوا هذا الاستثناء يرجع الى رد الشهادة والى الفسق ويروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس وجمع من الصحابة و به قال مالك والشافعى وذهب قوم الى ان شهادة المحدود فى القذف لا تقبل ابدا وان تاب وقالوا الاستثناء يرجع الى قوله واولئك هم الفاسقون و يروى ذلك عن النخعى وشريح و به قال اصحاب الراى قالوا بنفس القذف لا ترد شهادته ما لم يحد قال الشافعى هو قبل ان يحد شر منه حين يحد لان الحدود كفارات فكيف يردونها فى احسن حاليه وذهب الشعبى الى ان حد القذف يسقط بالتوبة (فان قيل) اذا قلتم بالاول فما معنى قوله تعالى ابدا (اجيب) بان معنى ابدا ما دام مصرا على القذف لان ابد كل انسان مدته على ما يليق بحاله كما يقال لا تقبل شهادة الكافر ابدا يراد بذلك ما دام على كفره فاذا اسلم قبلت شهادته ٭ (تنبيهان) ٭ الاقرار بالزنا هل يثبت بشهادة رجلين او اربع كالزنا فيه قولان اصحهما انه يثبت برجلين بخلاف فعل الزنا لان الفعل يغمض الاطلاع عليه واذا شهد على فعل الزنا يجب ان يذكر الزانى ومن زنى بها لانه قد يراه على جارية لابيه فيظنه زنا ويوجب الحد وان يقول فى شهادته رايت ذكره يدخل فى فرجها وان لم يقل دخول الميل فى المكحلة لكن قوله ذلك اولى فلو شهدوا مطلقا انه زنى لم يقبلوا لانهم ربما يرون المفاخذة زنا ويشترط ايضا ان يفسر فى اقراره كالشهود ويصح رجوعه عن الاقرار ولو فى اثناء الحد كما مر ولا فرق فى قبول الشهادة بين ان يجيء الشهود متفرقين او مجتمعين كما قاله الشافعى وقال ابو حنيفة اذا شهدوا متفرقين لا يثبت وعليهم حد القذف ولو شهد على الزنا اقل من اربعة او اربعة وفيهم الزوج لم يثبت الزنا وعليهم الحد لان شهادة الزوج لا تقبل فى حق زوجته قال ابن الرفعة فى الكفاية لامرين احدهما ان الزنا تعرض لمحل حق الزوج فان الزانى يستمتع بالمنافع المستحقة له فشهادته فى حقها تتضمن اثبات جناية الغير على ما هو مستحق له فلم تسمع كما اذا شهد انه جنى على عبده والثانى ان من شهد بزنا زوجته فنفس شهادته دال على اظهار العداوة لان زناها يوغر صدره بتلطيخ فراشه وادخال العار عليه وعلى ولده وهو ابلغ من مولم الضرب وفاحش السب ولو قذف رجل وجاء باربعة فساق شهدوا على المقذوف بالزنا لم يحدوا لان شرائط الشهادة بالزنا قد وجدت عند القاضى الا انه لم تقبل شهادتهم لاجل التهمة فكما اعتبرنا التهمة فى نفى الحد عن المشهود عليه فكذلك اوجبنا اعتبارها فى نفى الحد عنهم ٭ ولما كان لفظ المحصنات عاما للزوجات وكان لهن حكم غير ما تقدم وهو الحكم الرابع افردهن بقوله (والذين يرمون) اى بالزنا (ازواجهم) اى من المؤمنات والكافرات الحرائر والاماء (ولم يكن لهم شهداء) يشهدون على صحة ما قالوه (الا انفسهم) اى غير انفسهم وهذا ربما يفهم انه اذا كان الزوج احد الاربعة كفى وهذا المفهوم معطل لكونه حكاية حال واقعة لا شهود فيها وقوله تعالى فى الآية قبلها ثم لم ياتوا باربعة شهداء فانه يقتضى كون الشهداء غير الرامى بالزنا ولعله استثناء من الشهداء لان

فانتفاء الحرج عن اكل الانسان من بيته معلوم

اما انه يكون بلفظ الشهادة ومذهب الشافعي أنه لا يقبل في ذلك كما قدمناه (فشهادة أحدهم) اى فالواجب شهادة أحدهم على من رماها أو فعليهم شهادة أحدهم (أربع شهادات) من خمس في مقابلة أربعة شهداء (بالله) اى مقرونة بهذا الاسم الكريم الاعظم الموجب لاستحضار جميع صفات الجلال والجمال (انه لمن الصادقين) أى فيما قذفها به وقرأ حفص وحمزة والكسائي برفع العين على أنه خبر شهادة والباقون بنصبها على المصدر (والخامسة ان لعنت الله) أى الملك الاعظم (عليه) أى القاذف نفسه (ان كان من الكاذبين) فيما رماها به وقرأ نافع بتخفيف ان ساكنة ورفع لعنة والباقون بتشديد النون منصوبة ونصب لعنة ورسمت لعنة بتاء مجرورة ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ووقف الباقون بالتاء واذا وقف الكسائي أمال الهاء هذا لعان الرجل وحكمه سقوط حد القذف عنه وحصول الفرقة بنفسه فرقة فسخ عندنا لقوله صلى الله عليه وسلم المتلاعنان لا يجتمعان أبدا وبتفريق الحاكم فرقة طلاق عند أبي حنيفة ونفي الولد ان تعرض له فيه وثبوت حد الزنا على المرأة بقوله تعالى (ويدرأ) أي يدفع (عنها) اى المقذوفة (العذاب) اى المعهود وهو الحد الذي اوجبه عليها كما تقدم (ان تشهد اربع شهادات) من خمس (بالله) الذي له جميع الاسماء الحسنى والصفات العليا كما تقدم في الزوج (انه لمن الكاذبين) فيما قاله عليها (والخامسة) من الشهادات (ان غضب الله) الذي له الامر كله (عليها ان كان من الصادقين) اى فيما رماها به روى البخاري في تفسيره وغيره عن ابن عباس ان هلال بن امية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال له النبي صلى الله عليه وسلم البينة او حد في ظهرك فقال يا رسول الله اذا رأى احدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول البينة او حد في ظهرك فقال هلال بن أمية والذي بعثك بالحق انى لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه والذين يرمون أزواجهم حتى بلغ ان كان من الصادقين فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فارسل اليهما فجاآ فقام هلال بن أمية فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول والله يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة أوقفوها وقالوا انها موجبة قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا انها ترجع ثم قالت لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت وقال النبي صلى الله عليه وسلم أبصروها فان جاءت به أكحل العينين سابغ الاليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء فجاءت به كذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن وقد روى البخاري أيضا عن سهل بن سعد ان سبب نزولها قصة مثل هذه لعويمر رضي الله عنه وقد تقدم انه لا يمتنع ان يكون للآية الواحدة عدة أسباب معا أو متفرقة *(تنبيه)* خصت المرأة بالغضب لانه أبلغ من اللعن الذي هو الطرد لانه قد يكون بسبب غير الغضب وسبب التغليظ عليها الحث على اعترافها بالحق لما يصدق الزوج من القرينة من انه لا يتجشم فضيحة أهله المستلزم لفضيحته الا وهو صادق ولانها مادة الفساد وخالطة الانساب ويشترط في اللعان امر القاضي وتلقينه كلماته في الجانبين فيقول قل أشهد

(قوله فاذا دخلتم بيوتا) اى سلموا على أنفسكم)

بالله الخ لان اللعان يمين واليمين لا يعتد بها قبل استحلاف القاضي وان غلب فيه معنى الشهادة فهي لا تؤدى عنده الا باذنه وان يتأخر لعانها عن لعانه لان لعانه لاسقاط الحد الذي وجب عليها بلعان الزوج كما علم مما مر ويلاعن أخرس باشارة مفهمة او كتابة ويكرر كلمة الشهادة أربعا أو يكتبها مرة ويشير اليها أربعا ويصح اللعان بالعجمية وان عرف العربية ويشترط الولاء بين الكلمات الخمس فيؤثر الفصل الطويل ولا يشترط الولاء بين لعاني الزوجين ولو أبدل لفظ شهادة بحلف ونحوه أو لفظ غضب بلعن أو عكسه أو ذكره قبل تمام الشهادة لم يصح ذلك ويصح ان يتلاعنا قائمين وان يغلظ اللعان بزمان وهو بعد عصر الجمعة فيؤخر اليه ان لم يكن طلب اكيد ولا فبعد عصر أي يوم كان وبمكان عند أشرف بلد اللعان فبمكة بين الحجر الاسود والمقام وهو المسمى بالحطيم والمدينة على المنبر وبيت المقدس عند الصخرة وغيرها على منبر الجامع وتلاعن حائض بباب المسجد وذمي في بيعة النصارى وكنيسة اليهود وبيت نار لمجوس لانهم يعظمونها لا بيت أصنام وثني لانه لا حرمة له وقرأ حفص والخامسة الاخيرة بالنصب والباقون بالرفع وقرأ نافع بتخفيف النون ساكنة وكسر الضاد ورفع الهاء من الاسم الجليل والباقون بتشديد النون منصوبة ونصب الضاد وخفض الهاء ولما حرم سبحانه وتعالى بهذه الجمل الاعراض والانساب فصان بذلك الدين والاموال علم أن التقدير فلولا أنه سبحانه خير الغافرين وخير الراحمين لما فعل بكم ذلك ولفضح المذنبين وأظهر سرائر المستخفين ففسد النظام فعطف على هذا الذي علم تقديره قوله تعالى (ولولا فضل الله) أي بما له من الكرم والاتصاف بصفات الكمال (عليكم ورحمته) أي بكم بالستر في ذلك (وان الله) أي الذي أحاط بكل شئ قدرة وعلما (تواب) بقبوله التوبة في ذلك وغيره ذلك (حكيم) بحكم الامور فيضعها من الحدود بما يعلم من عواقب الامور لفضح كل عاص ولم يوجب أربعة شهداء ستر لكم * الحكم الخامس قصة الافك المذكورة في قوله تعالى (ان الذين جاؤا بالافك) أي أسوأ الكذب سمي افكا لكونه مصروفا عن الحق من قولهم أفك الشئ اذا صرفه عن جهته وذلك ان عائشة رضي الله تعالى عنها وعن أبويها كانت تستحق الثناء لما كانت عليه من الحصانة والشرف والعفة والكرم فمن رماها بسوء فقد قلب الامر عن أحسن وجوهه الى أقبح افضائه (فان قيل) لم ترك تسميتها (أجيب) بانه تركه تنزيها لها عن هذا المقال وابعادا لصون جانبها العلي عن هذا المراد وقوله تعالى (عصبة) خبر ان أي جماعة أقلهم عشرة وأكثرهم أربعون وكذا العصابة وقوله تعالى (منكم) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعائشة وصفوان ممن يدعي منكم في عداد المسلمين يريد عبد الله بن أبي وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم وقوله تعالى (لا تحسبوه شرا لكم) مستأنف اي لا تظنوا انه فتنة ولا يصدقه أحد (بل هو خير لكم) لاكتسابكم به الثواب العظيم لانه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة وظهور كرامتكم على الله تعالى بانزال ثمان عشرة آية في براءتكم وتعظيم شأنكم وتهويل الوعيد لمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيرا كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له وتبرئة لام المؤمنين رضوان الله تعالى عليها وتطهير لاهل البيت وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به

قوله ولولا السلام اى من الله علينا وعلى عباد الله

فلم تجمه أذنا. وعدة الطائف السامعين والتابعين الى يوم القيامة وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأملها ولما كان لا شفاء لغيظ الانسان أعظم من انتصار الملك الديان له علل ذلك بقوله تعالى (لكل امرئ منهم) أى الآفكين (ما اكتسب) أى بخوضه فيه (من الاثم) الموجب لشقائه (والذى تولى كبره) أى معظمه (منهم) أى من الخائضين وهو ابن أبى فانه بدأ به وأذاعه عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو هو وحسان ومسطح فانهما تابعاه بالتصريح به والذى يعنى الذين على هذا (له عذاب عظيم) فى الآخرة أو فى الدنيا بان جلدوا وصار ابن أبى مطرودا مشهورا بالنفاق وحسان أعمى أشل اليدين ومسطح مكفوف البصر

(تنبيه) قصة الافك معروفة فى الصحيح والسنن وغيرهما شهيرة جدا ولكن نذكر منها طرفا تبركا بذكر النبى صلى الله عليه وسلم وبذكر السيدة عائشة وأبويها رضى الله تعالى عنهم فنقول عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه قالت عائشة فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما أنزل الحجاب فكنت أحمل فى هودجى وأنزل فيه فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت الى رحلى فلمست صدرى واذا عقد لى من جزع أظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه قالت وأقبل الرهط الذين يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه وهم يحسبون أنى فيه وكان النساء اذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم انما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدى بعدما سار الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب فيممت منزلى الذى كنت فيه وظننت انهم سيفقدونى فيرجعون الى فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت وكان صفوان بن معطل السلمى ثم الذكوانى رضى الله تعالى عنه قد عرس من وراء الجيش فادلج فأصبح عند منزلى فرأى سواد انسان نائم فعرفنى حين رآنى وكان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى ووالله ما كلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فقمت اليها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول فهلك من هلك وكان الذى تولى كبر الافك منهم عبد الله بن أبى ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهرا والناس يفيضون فى قول أصحاب الافك ولا أشعر بشئ من ذلك وهو يريبنى فى وجعى انى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى انما يدخل فيسلم ثم يقول كيف تيكم ثم ينصرف فذلك الذى يريبنى فيه ولا أشعر بالشر حتى نقهت فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع وكان متبرزنا وكنا لا نخرج الا ليلا وذلك قبل ان تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الاول فى البرية وكنا نتأذى بالكنف ان نتخذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم

العالمين فان الملائكة ترد عليكم هذا

مسطح حين فرغنا من شأننا نمشي فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرا فقالت يا هنتاه أولم تسمعي ما قال قالت وما قال فأخبرتني بقول أهل الافك فازددت مرضا على مرضي فلما رجعت الى بيتي دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال كيف تيكم فقلت له أتأذن لي ان آتي أبوي قالت وأنا أريد ان أستيقن الخبر من قبلهما قالت فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيت أبوي فقلت لامي يا أماه ماذا يتحدث الناس قالت يا بنية هوني عليك فوالله ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها قالت فقلت سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله قالت فأما أسامة فأشار على النبي صلى الله عليه وسلم بما يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال أسامة هم أهلك يا رسول الله ولا نعلم والله الا خيرا وأما علي فقال يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك قالت والذي بعثك بالحق ان رأيت عليها أمرا قط أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي والله ما علمت على أهلي الا خيرا وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا ولم يدخل على أهلي الا معي قالت فقام سعد أخو بني عبد الاشهل فقال أنا يا رسول الله أعذرك فان كان من الاوس ضربت عنقه وان كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج قالت وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن تقتل فقام أسيد بن حضير ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فكأنك [٣] منافق تجادل عن المنافقين قال فثار الحيان الاوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت قالت فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم قالت وأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع حتى اني لاظن أن البكاء فالق كبدي فبينما أبواي جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت علي امرأة من الانصار فأذنت لها فجلست تبكي معي قالت فبينما نحن على ذلك اذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها وقد لبث شهرا لا يوحى اليه في شأني بشيء قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال أما بعد يا عائشة انه بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه فان العبد اذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى لا أحس منه بقطرة فقلت لابي أجب رسول الله فيما قال فقال اني والله

ان لم يكن بها أحد والا فقولوا السلام علينا (قوله

[٣] قوله كأنك منافق هكذا بالاصول والذي في صحيح البخاري فانك بالفاء اه مصححه

ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لأمي أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال فقالت أمي والله ما أدري ما أقول لرسول الله فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرا والله لقد علمت ما سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم اني بريئة لا تصدقوني ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم اني منه بريئة لتصدقوني فوالله لا أجد لي ولا لكم مثلا الا ما قال العبد الصالح ابو يوسف ولم اذكر اسمه حين قال فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ثم تحولت واضطجعت على فراشي والله يعلم حينئذ اني بريئة والله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن الله ينزل في شأني وحيا يتلى لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله تعالى في بأمر ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج أحد من اهل البيت حتى انزل الله تعالى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه عند الوحي من البرحاء حتى انه ليتحدر منه العرق مثل الجمان في اليوم الشاتي من ثقل الذي انزل عليه فسجي بثوب فوالله ما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت ان نفس ابوي ستخرجان فرقا من أن يأتي الله بتحقيق ما قال الناس فلما سري عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال ابشري يا عائشة قد برأك الله فكنت أشد ما كنت غضبا فقال لي أبواي قومي اليه فقلت والله لا اقوم اليه ولا أحمده ولا احمدكما ولا احمد الا الله الذي انزل براءتي لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه وأنزل الله تعالى ان الذين جاؤوا العشر آيات كلها فقال أبو بكر والله لا انفق على مسطح بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله ولا يأتل أولو الفضل منكم الى قوله غفور رحيم فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه بلى والله اني لأحب أن يغفر الله لي فرجع النفقة الى مسطح التي كان ينفقها عليه وقال والله لا أنزعها منه أبدا قالت عائشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال لزينب ما علمت أو رأيت فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت الا خيرا قالت عائشة وهي التي تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع قالت عائشة والله ان الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت كنف أنثى قط قالت ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله تعالى قالت ولما نزل عذري قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك وتلا القرآن وضرب عبد الله بن أبي ومسطحا وحسان وحمنة الحد قال عروة وكانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان وتقول انه الذي قال

فان أبي ووالده وعرضي • لعرض محمد منكم وقاء

وقال الحافظ ابو عمر بن عبد البر في الاستيعاب وأنكر قوم أن يكون حسان خاض في الافك وجلد فيه وروي عن عائشة أنها برأته من ذلك انتهى وقال غيره والله لا أظن به ذلك اصلا وان جاءت تسميته في الصحيح فقد يخطئ الثقة لاسباب لا تحصى كما يعرف ذلك من مارس نقل الاخبار وكيف يظن به ذلك ولا شغل له الا مدح النبي صلى الله عليه وسلم والمدافعة عنه والقدح لاعدائه وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم ان جبريل معه وهو القائل يمدح عائشة ويكذب من نقل عنه ذلك

قال عذرا الذين جاءوا عن (امره) • ان قلت كيف

حصان رزان ماتزن بريبة • وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس دينا ومنصبا • نبي الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلة حي من لؤى بن غالب • كرام المساعى مجدها غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها • وطهرها من كل شين وباطل
وان كان ما بلغت عنى قلته • فلا رفعت سوطى الى اناملى
فكيف وودى ما حييت ونصرتى • لآل رسول الله زين المحافل
له رتبة عال على الناس فضلها • تقاصر عنها سورة المتطاول

وفى هذا القدر كفاية لاولى الالباب فان فى هذه القصة عبرة لمن اعتبر فان أهل الافك استمروا فى هذا اكثر من شهر والله تعالى عالم بما يقولون وان قولهم يكاد يقطع الا كباد فى احب خلقه اليه وهو قادر على تكذيبهم عند اول ما خاضوا فيه ولكنه سبحانه اراد للناس رفع الدرجات ولآخرين الهلكات ولا باس ببيان غريب هذه الالفاظ التى وقعت فى هذه القصة من كلام عائشة وغيرها قولها اذن اى اعلم بالرحيل وقولها فقدت عقدا لى من جزع أظفار هو نوع من الخرز وهو الجزع اليمانى المعروف وقولها لم يهبلن اى لم يكثر لحمهن من السمن فيثقلن وقولها انما ياكلن العلقة من الطعام وهو بضم العين أى البلغة من الطعام وهى قدر ما يمسك الرمق وقولها ليس بها منهم داع ولا مجيب أى ليس بها أحد لا من يدعو ولا من يرد جوابا وقولها فتيممت اى قصدت وقولها قد عرس من وراء الجيش فادلج التعريس نزول المسافر بالليل للراحة والادلاج بالتشديد سير آخر الليل وبالتخفيف سير الليل كله وقولها باسترجاعه هو قول القائل انا لله وانا اليه راجعون قولها خمرت اى غطيت وجهى بجلبابى اى ازارى وقولها موغرين فى نحر الظهيرة الوغر شدة الحر وكذلك نحر الظهيرة اى اولها وقولها والناس يفيضون اى يخوضون ويتحدثون وقولها وهو يريبنى يقال رابنى الشئ يريبنى اى تشككت فيه وقولها ولا ارى من النبى اللطف اى الرفق بها واللطف فى الافعال الرفق وفى الاقوال لين الكلام وقولها حين نقهت اى افقت من المرض والمناصع المواضع الخالية تقضى فيها الحاجة من غائط وبول واصله المكان الواسع الخالى والمرط كساء من صوف او خز قولها فقالت تعس مسطح اى خسر وقولها يا هنتاه اى يا بلهاء كأنها نسبتها الى البله وقلة المعرفة وقولها لا يرقأ اى لا ينقطع وقول بريرة ان رأيت بمعنى النفى اى ما رأيت منها امرا اغمصه عليها بالصاد المهملة اى أعيبه والداجن الشاة التى تألف البيت وتقيم به وقوله صلى الله عليه وسلم من يعذرنى أى ان أنا كافأته على سوء صنيعه ان عاتبت أو عاقبت فلا تلومونى على ذلك وقولها ولكن حملته الحمية اى حمله الغضب والانفة والتعصب على الجهل للقرابة وقولها فتثاور الحيان اى ثاروا ونهضوا للاقتتال والمخاصمة وقولها فلم يزل يخفضهم اى يهون عليهم ويسكت وقوله صلى الله عليه وسلم ان كنت ألممت قيل هو من اللمم وهو صغار الذنوب وقيل معناه مقاربة الذنب من غير فعل وقولها قلص دمعى اى انقطع جريانه قوله ما رام اى ما برح من مكانه والبرحاء الشدة والجمانة الدرة وجمعه جمان وقولها فسرى عنه اى كشف عنه وقول زينب احمى سمعى وبصرى اى امنعهما عن ان اخبر بما لم اسمع ولم ابصر وقولها

صدى خالف بعض معانيه
تعدى بنفسه (قلت) ضمن

وهي التي كانت تسابق من السبق وهو الماء والغلبة فعصمها الله تعالى أي منعها الله من الوقوع في الشر بالورع وقول الرجل ما كشفت كنف انثى أي ستر انثى وقول حسان في عائشة حصان بفتح الحاء امرأة حصان أي متعففة رزان أي ثابتة ما تزن أي ترمى ولا تتهم بريبة أي أمر يريب الناس وتصبح غرثى أي خائفة الموت والغرث الجوع من لحوم الغوافل جمع غافلة والمعنى انه الاغتياب احد اعماه وغافل وقرأ الا تحسبوه وتحسبونه ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها ولما أخبر سبحانه وتعالى بعقاب اهل الافك وكان في المؤمنين من سمعه وسكت وفيهم من سمعه فتحدث به متعجبا من قائله أو مستثبتا في أمره وفيهم من اكذبه اتبعه سبحانه وتعالى بعتابهم في أسلوب خطابهم مثنيا على من كذبه فقال سبحانه وتعالى مستأنفا محرضا (لولا) أي هلا ولم لا (اذ) أي حين (سمعتموه) أيها المدعون للايمان (ظن المؤمنون) أي منكم (والمؤمنات) وكان الاصل ظننتم أي أيها العصبة ولكنه التفت الى الغيبة تنبيها على التوبيخ وصرح بالنساء ونبه على الوصف المقتضي لحسن الظن تعريضا للذي ظن السوء منهم والخاءة (بأنفسهم) حقيقة (خيرا) وهم ومن من كذب عليها فقطعوا ببراءتها لان الانسان لا يظن في الناس الا ما هو متصف به أو باخوانهم لان المؤمنين كالجسد الواحد وذلك نحو ما روي ان أبا أيوب الانصاري قال لام أيوب ألا ترين ما يقال فقالت لو كنت بدل صفوان كنت تظن بحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوءا قال لا قالت ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعائشة خير مني وصفوان خير منك (وقالوا هذا افك مبين) أي كذب بين (فان قيل) هلا قيل لولا اذ سمعتموه ظننتم بانفسكم خيرا وقلتم ولم عدل عن الخطاب الى الغيبة وعن الضمير الى الظاهر (أجيب) بان ذلك مبالغة في التوبيخ على طريقة الالتفات وليصرح بلفظ الايمان دالا على ان الاشتراك فيه يقتضي أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن وفيه تنبيه على أن حق المؤمن اذا سمع قالة في أخيه أن يبني الامر فيها على الظن لا على الشك وأن يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير هذا افك مبين هكذا اللفظ المصرح ببراءة ساحته لا يقول كما يقول المتيقن المطلع على حقيقة الحال وهذا من الادب الحسن الذي قل القائم به والحافظ له وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه باخوانه ثم علل سبحانه وتعالى كذب الآفكين أن قال موبخا لمن اختلقه وأذاعه ملقنا لمن يريد به الى ظن الخير (لولا) أي هلا ولم لا (جاؤا عليه باربعة شهداء) كما تقدم أن القذف لا يباح الا بها (فاذ) أي حين (لم يأتوا بالشهداء) أي الموصوفين (فأولئك) أي البعداء من الصواب (عند الله هم الكاذبون) فقد جعل الله التفصيل بين الرمي الصادق والرمي الكاذب بثبوت شهادة الشهود الاربعة وانتفائها والذين رموا عائشة لم تكن لهم بينة على قولهم فقامت عليهم الحجة وكانوا عند الله أي في حكمه وشريعته كاذبين وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الافك فلم يجدوا في دفعه وانكاره واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة في التنكيل به اذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين فكيف بام المؤمنين الصديقة بنت الصديق حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حبيبة حبيب رب العالمين ولما بين الله سبحانه وتعالى الدليل

بخلاف محصن بعرض أو بعدل شهداء تعديه

الى كذب الخائضين فى هذا الكلام وأنهم استحقوا اللام قال عاطفا على لولا الماضية التى للتحضيض (ولولا) التى هى لامتناع الشئ لوجود غيره (فضل الله) أى المحيط بصفات الكمال (عليكم ورحمته) أى معاملته لكم بمزيد الانعام والاكرام اللازم للرحمة (فى الدنيا) بقبول التوبة والمعاملة بالحلم (والآخرة) بالعفو عمن يريد أن يعفو عنه منكم (لمسكم) أى عاجلكم (فى ما أفضتم) اى أيها العصبة أى خضتم (فيه) من حديث الافك (عذاب عظيم) أى يحتقر معه اللوم والجلد *(فائدة)* فى مقطوعة فى الرسم من ما كما ترى ثم بين تعالى وقت حلول العذاب وزمان تعجيله بقوله تعالى (اذ) أى مسكم حين (تلقونه) أى تجتهدون فى تلقى أى قبول هذا الكلام الفاحش والقائه (بالسنتكم) أى يرويه بعضكم عن بعض وذلك أن الرجل منهم كان يلقى الرجل فيقول بلغنى كذا وكذا يتلقونه تلقيا يلقيه بعضهم الى بعض وحذفت من الفعل احدى التاءين (وتقولون بافواهكم) أى كلاما مختصا بالافواه فهو كلام لا حقيقة له فلا يمكن ارتسامه فى القلب بنوع دليل وأكد هذا المعنى بقوله تعالى (ما ليس لكم به علم) أى بوجه من الوجوه وتنكيره للتحقير (فان قيل) القول لا يكون الا بالفم فما معنى قوله تعالى بافواهكم (أجيب) بان معناه أن الشئ المعلوم يكون علمه فى القلب فيترجم عنه اللسان وهذا الافك ليس الا قولا يجرى على ألسنتكم ويدور فى أفواهكم من غير ترجمة عن علم به فى القلب كقوله تعالى يقولون بافواههم ما ليس فى قلوبهم (وتحسبونه) بدليل سكوتكم عن انكاره (هينا) أى لا اثم فيه (وهو) أى والحال أنه (عند الله) أى الذى لا يبلغ أحد مقدار عظمته (عظيم) فى الوزر واستجرار العذاب فهذه ثلاثة آثام مرتبة علق بها مس العذاب العظيم تلقى الافك بالسنتهم والتحدث به من غير تحقق واستصغارهم لذلك وهو عند الله تعالى عظيم (ولولا) أى وهلا ولم لا (اذ) أى حين (سمعتموه قلتم) من غير توقف ولا تلعثم (ما يكون) أى ما ينبغى وما يصح (لنا أن نتكلم بهذا) أى القول المخصوص ويجوز أن تكون الاشارة الى نوعه فان قذف آحاد الناس محرم فكيف بمن اختارها العليم الحكيم لصحبة أكمل الخلق (فان قيل) كيف جاز الفصل بين لولا وقلتم (أجيب) بان الظروف تنزل من الشئ منزلة نفسه لوقوعه فيها وأنها لا تنفك عنه فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع فى غيرها (فان قيل) اى فائدة فى تقديم الظرف حتى أوقع فاصلا (أجيب) بان الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالافك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم (فان قيل) ما معنى يكون والكلام بدونه ملتئم لو قيل ما لنا أن نتكلم بهذا (أجيب) بان معناه ينبغى ويصح اى ما ينبغى لنا أن نتكلم بهذا وما يصح لنا كما تقدم تقريره ونحوه ما يكون لى أن اقول ما ليس لى بحق وقوله تعالى (سبحانك) تعجب من أن يخطر ذلك بالبال فى حال من الاحوال (فان قيل) ما معنى التعجب فى كلمة التسبيح (أجيب) بان الاصل فى ذلك أن يسبح الله تعالى عند رؤية المتعجب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل فى كل متعجب منه وقيل تنزيه فهو منزه عن أن يرضى بظلم هؤلاء القذفة وعن أن لا يعاقبهم وعن أن تكون حرمة نبيه صلى الله عليه وسلم فاجرة قال البيضاوى فان فجورها ينفر عنه ويخل بمقصود الزواج بخلاف كفرها فانه لا ينفر اى ولهذا كانت امرأة نوح ولوط كافرتين وهذا

أو عن متعلقه محذوف
تقديره ويعرضون

يقتضى حل نكاح الكتابية مع أنه الافضل له صلى الله عليه وسلم لانها تكره صحبته ولانه اشرف من أن يضع ماءه فى رحم كافرة بنكاح ولقوله تعالى وازواجه أمهاتهم ولا يجوز أن تكون الكافرة أم المؤمنين ولخبر سألت ربى أن لا أزوج الا من كانت معى فى الجنة فأعطانى رواه الحاكم وصحح اسناده اما التسرى بالكافرة فلا يحرم لانه صلى الله عليه وسلم تسرى بريحانة وكانت يهودية من بنى قريظة ولا يشكل تعليلهم السابق من أنه اشرف أن يضع ماءه فى رحم كافرة لان القصد بالنكاح اصالة التوالد فاحتيط له وبانه يلزم منه ان تكون الزوجة المشركة ام المؤمنين بخلاف الملك فيهما (هذا بهتان) اى كذب يبهت من يواجه به ويحيره لشدة ما يفعل فى القوى الباطنة لانه فى غاية الغفلة عنه لكونه أبعد الناس منه ثم هونه بقوله (عظيم) لعظمة المبهوت عليه فان حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاتها ٥ ولما كان هذا كله وعظا لهم واستصلاحا ترجمه بقوله (يعظكم الله) اى يرقق قلوبكم الذى له الكمال كله فيمهل بحلمه ولا يهمل بحكمته (أن) اى كراهة أن (تعودوا لمثله أبدا) أى ما دمتم أحياء مكلفين ثم عظم هذا الوعظ بقوله تعالى (ان كنتم مؤمنين) أى متصفين بالايمان راسخين فيه فانكم لا تعودون فان الايمان يمنع عنه وهذا تهييج وتقريع لا أنه يخرج عن الايمان كما تقول المعتزلة (فان قيل) هل يجوز أن يسمى الله واعظا كقوله تعالى يعظكم الله (أجيب) بانه لا يجوز كما قاله الرازى قال كما لا يجوز أن يسمى الله معلما كقوله تعالى الرحمن علم القرآن لان أسماء الله تعالى توقيفية (ويبين الله) أى بما له من صفات الكمال والاكرام (لكم الآيات) أى الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب كى تتعظوا وتتأدبوا (والله) أى المحيط بجميع الكمال (عليم) أى بما يأمر به وينهى عنه (حكيم) لا يضع شيأ الا فى أحكم مواضعه وان دق عليكم فهم ذلك فلا تتوقفوا فى أمر من أوامره ٥ ولما كان من أعظم الوعظ بيان ما يستحق على الذنب من العقاب بينه بقوله تعالى (ان الذين يحبون) أى يريدون وعبر بالحب اشارة الى أنه لا يرتكب هذا مع شناعته الا محب له ولا يحبه الا بعيد عن الاستقامة (أن تشيع) أن تنتشر بالقول أو الفعل (الفاحشة) الفعلة الكبيرة القبح (فى الذين آمنوا) اى بنسبتها اليهم وهم العصبة وقيل المنافقون (لهم عذاب أليم فى الدنيا) اى بالحد للقذف (والآخرة) اى بالنار لحق الله تعالى ان لم يتب (والله) اى المستجمع لصفات الجلال والجمال (يعلم) اى له العلم التام فهو يعلم مقادير الاشياء ما ظهر منها وما بطن وما الحكمة فى اظهاره او ستره او غير ذلك من جميع الامور (وانتم لا تعلمون) اى ليس لكم علم من انفسكم فاعملوا بما علمكم فلا تجاوزوه ولا تضلوا وقيل معناه يعلم ما فى قلب من يحب أن تشيع الفاحشة فيجازيه عليها وأنتم لا تعلمون ذلك وقيل والله يعلم انتفاء الفاحشة عنهم وانتم ايها العصبة لا تعلمون وجودها فيهم وقوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) اى بكم تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب للدلالة على عظم الجريمة ولذا عطف عليه (وان الله) اى الذى له القدرة التامة فسبقت رحمته غضبه (رؤف رحيم) على حصول فضله ورحمته وجواب لولا محذوف كأنه قال لعذبكم واستأصلكم لكنه رؤف رحيم قال ابن عباس الخطاب لحسان ومسطح وحمنة قال الرازى ويجوز أن يكون الخطاب عاما وقيل الجواب فى قوله تعالى ما زكى منكم من احد وقرأ رؤف نافع وابن كثير وابن عامر

أو وتعدلون أوهى زائدة على قول الاخفش

وحفص

وحفص بمد الهمزة والباقون بقصرها (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات) أى طرق (الشيطان) بتزيينه أى لا تسلكوا مسالكه فى اشاعة الفاحشة ولا فى غيرها (ومن يتبع خطوات الشيطان فانه) اى المتبع (يأمر بالفحشاء) اى بالقبائح من الافعال (والمنكر) اى ما أنكره الشرع وهو كل ما يكرهه الله تعالى وقرأ قنبل وابن عامر وحفص والكسائى بضم الطاء والباقون بالسكون (ولولا فضل الله) أى الذى لا اله غيره (عليكم ورحمته) أى بكم بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وتشريع الحدود المكفرة لها (ما زكى) اى ما طهر من ذنبها (منكم من أحد أبدا) آخر الدهر والآية عند بعض المفسرين على العموم قالوا أخبر الله أنه لولا فضل الله ورحمته ما صلح منكم من أحد وقال ابن عباس الخطاب للذين خاضوا فى الافك ومعناه ما طهر من هذا الذنب ولا صلح أمره بعد الذى فعل بالتوبة منه (ولكن الله) اى العليم بأحوال خلقه (يزكى) أى يطهر (من يشاء) من الذنوب بقبول التوبة منها (والله سميع) اى لأقوالهم (عليم) اى بما فى قلوبهم (ولا يأتل) أن يحلف افتعال من الالية وهو القسم (أولو الفضل) اى أصحاب الغنى (منكم والسعة أن) اى أن لا (يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا) عنهم فى ذلك (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) اى على عفوكم وصفحكم واحسانكم الى من أساء اليكم قال المفسرون نزلت هذه الآية فى أبى بكر رضى الله عنه حيث حلف أن لا ينفق على مسطح وهو ابن خالة أبى بكر رضى الله تعالى عنه وكان يتيما فى حجره وكان ينفق عليه فلما فرط منه ما فرط قال لهم أبو بكر قوموا لستم منى ولست منكم وكفى بذلك داعيا فى المنع فان الانسان اذا أحسن الى قريبه وكافأه بالاساءة كان أشد عليه مما اذا صدرت الاساءة من أجنبى قال الشاعر

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة • على المرء من وضع الحسام المهند

فقال له مسطح نشدتك الله والاسلام والقرابة لا تحوجنا الى أحد فما كان لنا أول الامر من ذنب فقال ألم تتكلم فقال قد كان بعض ذلك عجبا من قول حسان فلم يقبل عذره وقال انطلقوا أيها القوم فان الله لم يجعل لكم عذرا ولا فرجا فخرجوا لا يدرون أين يذهبون وأين يتوجهون من الارض وناس من الصحابة أقسموا أن لا يتصدقوا على من تكلم بشئ من الافك فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أبى بكر وقرأ عليه الآية فلما وصل الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم (والله غفور رحيم) أى مع كمال قدرته فتخلقوا بأخلاقه قال بلى يا رب انى أحب أن تغفر لى فذهب أبو بكر الى بيته وأرسل الى مسطح وأصحابه وقال قبلت ما أنزل الله تعالى على الرأس والعين وانما فعلت بكم ما فعلت اذ سخط الله عليكم أما اذ عفا عنكم فمرحبا بكم وجعل له مثل ما كان له وقال والله لا أنزعها أبدا وذلك من أعظم أنواع المجاهدات ولا شك أن هذا أعظم من مقاتلة الكفار لان هذا مجاهدة مع النفس وذلك مجاهدة مع الكفار ومجاهدة النفس أشد من مجاهدة الكفار ولهذا روى أنه صلى الله عليه وسلم قال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر (ان الذين يرمون المحصنات) أى العفائف (الغافلات) أى عن الفواحش وعن السليمات الصدور والنقيات القلوب بأن لا يقع فى قلوبهن فعلها اللاتى ليس

فهن دهاء ولا مكر لانهن لم يجربن الامور ولم يرزن الاحوال فلا يفطن لما تفطن له المجربات العارفات قال فى ذلك القائل متغزلا

ولقد لهوت بطفلة ميالة • بلهاء تطلعنى على أسرارها

وكذلك البله من الرجال فى قوله صلى الله عليه وسلم أكثر أهل الجنة البله وقيل البله هم الراضون بنعيم الجنة والفطناء الذين لم يرضوا الا بالنظر الى وجهه الكريم (المؤمنات) بالله ورسوله (لعنوا فى الدنيا والآخرة) اى عذبوا فى الدنيا بالحد وفى الآخرة بالنار (ولهم عذاب عظيم) لعظم ذنوبهم قال مقاتل هذا خاص فى عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق وروى انه قيل لسعيد بن جبير من قذف مؤمنة يلعنه الله فى الدنيا والآخرة فقال ذلك لعائشة رضى الله تعالى عنها خاصة قال الزمخشرى ولو فليت القرآن كله وفتشت عما اوعد به العصاة لم تر ان الله عز وجل قد غلظ فى شئ تغليظه فى افك عائشة رضوان الله عليها ولا انزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك واستفظاع ما اقدم عليه ما انزل فيه على طرق مختلفة واساليب مفتنة كل واحد منها كاف فى بابه ولو لم تنزل الا هذه الثلاث آيات لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين فى الدارين جميعا وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة وبان السنتهم وايديهم وارجلهم تشهد عليهم كما قال تعالى (يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون) اى من قول وفعل وهو يوم القيامة بما افكوا وبهتوا فانه تعالى يوفيهم جزاءهم الحق كما قال تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) اى جزاءهم الواجب الذين هم اهله (ويعلمون) عند ذلك (أن الله هو الحق المبين) حيث حقق لهم جزاءه الذى كانوا يشكون فيه فاوجز فى ذلك واشبع وفصل واجمل واكد وكرر وجاء بما لم يقع فى وعيد المشركين عبدة الاوثان الا ما هو دونه فى الفظاعة وما ذاك الا لامر عظيم وعن ابن عباس انه كان بالبصرة يوم عرفة وكان يسئل عن تفسير القرآن حتى سئل عن هذه الآيات فقال من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته الا من خاض فى أمر عائشة وهذا منه مبالغة وتعظيم لامر الافك ولقد برأ الله تعالى أربعة باربعة برأ يوسف عليه السلام بلسان الشاهد فقال تعالى وشهد شاهد من أهلها الآية وبرأ موسى عليه الصلاة والسلام من قول اليهود فيه بالحجر الذى ذهب بثوبه وبرأ مريم بانطاق ولدها عليه الصلاة والسلام حين نادى (١) من تحتها انى عبد الله الآية وبرأ عائشة رضى الله تعالى عنها بهذه الآيات العظام فى كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات فانظر كم بينها وبين تبرئة اولئك وما ذاك الا لاظهار علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنبيه على انافة محل سيد ولد آدم وخيرة الاولين والآخرين وحجة الله على العالمين ومن أراد أن يتحقق عظمة شانه وتقدم قدمه واحرازه لقصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من آيات الافك وليتأمل كيف غضب الله تعالى له فى حرمته وكيف بالغ فى نفى التهمة عن حجابه وقال قوم ليس لمن قذف عائشة وبقية أزواج النبى صلى الله عليه وسلم توبة لان الله تعالى لم يذكر فى قذفهن توبة وما ذكر من أول السورة فذاك فى قذف غيرهن (فان قيل) ان كانت عائشة هى المرادة فكيف قيل المحصنات (أجيب) بانها المحصنات أم المؤمنين جمعت ارادة لها ولبناتها من نساء الامة الموصوفات

بالاحصان

(١) قوله من تحتها كذا بالنسخ والذى فى الكشاف من جرها اه مصحح

بالاحسان والفضل والايمان ولذا قيل ان هذا حكم كل قاذف مالم يتب (فان قيل) ما معنى قوله تعالى هو الحق المبين (أجيب) بان معناه ذو الحق المبين اى العادل الظاهر العدل الذى لا ظلم فى حكمه والمحق الذى لا يوصف بباطل ومن هذه صفته كان له أن يجازى المحسن على احسانه والمسىء على اساءته فحق مثله أن يتقى ويجتنب محارمه وقرأ يشهد حمزة والكسائى بالياء التحتية والباقون بالفوقية ويوم نا صبه الاستقرار الذى تعلق به لهم وقرأ أبو عمرو يوفيهم الله بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم هذا كله فى الوصل وأما الوقف فالجميع بكسر الهاء وسكون الميم (الخبيثات) اى من النساء والكلمات (للخبيثين) من الناس (والخبيثون) اى من الناس (للخبيثات) اى مما ذكر (والطيبات) اى مما ذكر (للطيبين) اى من الناس (والطيبون) اى منهم (للطيبات) اى مما ذكر فالائق بالخبيث مثله وبالطيب مثله (أولئك) اى الطيبون والطيبات من النساء ومنهم صفوان وعائشة (مبرؤن مما يقولون) اى الخبيثون والخبيثات من النساء وقيل عائشة وصفوان ذكرهما بلفظ الجمع كقوله تعالى فان كان له اخوة أى اخوان (لهم) اى الطيبين والطيبات من النساء على الاول واصفوان وعائشة على الثانى (مغفرة) اى عفو عن الذنوب (ورزق كريم) هو الجنة وروى ان عائشة رضى الله تعالى عنها كانت تفتخر باشياء أعطيتها لم تعطها امرأة غيرها منها ان جبريل عليه السلام أتى بصورتها فى سرقة من حرير وقال للنبى صلى الله عليه وسلم هذه زوجتك وروى انه أتى بصورتها فى راحته ومنها أنه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا غيرها ومنها أنه قبض صلى الله عليه وسلم ورأسه الشريف فى حجرها ومنها انه دفن فى بيتها ومنها انه كان ينزل عليه الوحى وهو معها فى لحاف ومنها ان براءتها نزلت من السماء ومنها أنها ابنة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصديقه وخلقت طيبة ووعدت بمغفرة ورزق كريم وكان مسروق رحمه الله تعالى اذا روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قال حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من السماء الحكم السادس ما ذكره بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) اى التى تسكنونها فان المؤجر والمعير لا يدخلان الا باذن وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء الموحدة والباقون بكسرها وفى قوله تعالى (حتى تستأنسوا) وجهان أحدهما أنه من الاستئناس الظاهر الذى هو خلاف الاستيحاش لان الذى يطرق باب غيره لا يدرى أيؤذن له أم لا فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه فاذا أذن له فقد استأنس والمعنى حتى يؤذن لكم كقوله تعالى لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم وهذا من باب الكناية والارداف لان هذا النوع من الاستئناس يردف الاذن فوضع موضع الاذن والثانى أن يكون من الاستئناس بمعنى الاستعلام والاستكشاف استفعال من أنس الشئ اذا أبصره ظاهرا مكشوفا والمعنى تستعلموا وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم أم لا ومنه قولهم استأنس هل ترى أحدا واستأنست فلم أر أحدا اى تعرفت واستعلمت وقال الخليل بن أحمد الاستئناس الاستبصار من قولهم آنست نارا أى أبصرت وقيل هو أن يتكلم بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة و يتنحنح يؤذن أهل البيت وعن أبى أيوب الانصارى قال يا رسول الله ما الاستئناس

قال ان يتكلم الرجل (وتسلموا على أهلها) كان يقول الواحد السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات فان أذن له دخل والا رجع قال قتادة المرة الاولى للتسميع والثانية ليتهيأ والثالثة ان شاء أذن وان شاء رد وهذا من محاسن الآداب فان أول مرة ربما منعهم بعض الاشتغال من الاذن وفى الثانية ربما كان هناك مانع يقتضى المنع فان لم يجب فى الثالثة يستدل بعدم الاذن على مانع ولهذا كان الاولى فى الاستئذان ثلاثا أن لا تكون متصلة بل يكون بين كل واحدة والاخرى وقت ما ولا بد من اذن صريح اذا كان الداخل أجنبيا أو قريبا غير محرم سواء كان الباب مغلقا أم لا وان كان محرما فان كان ساكنا مع صاحبه فيه لم يلزمه الاستئذان ولكن عليه أن يشعره بدخوله بتنحنح أو شدة وطء أو نحو ذلك ليستتر العريان فان لم يكن ساكنا فان كان الباب مغلقا لم يدخل الا باذن وان كان مفتوحا فوجهان والاوجه الاستئذان وعن أبى موسى الاشعرى انه أتى باب عمر فقال السلام عليكم أأدخل قالها ثلاثا ثم رجع وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الاستئذان ثلاثا واستأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أألج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لامرأة يقال لها روضة قومى الى هذا فعلميه فانه لا يحسن ان يستأذن قولى له يقول السلام عليكم أأدخل فسمع الرجل فقالها فقال ادخل وكان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم اذا دخل بيتا غير بيته حييتم صباحا وحييتم مساء ثم يدخل فربما أصاب صاحب البيت مع امرأته فى لحاف واحد فصد الله عز وجل عن ذلك وعلم ما هو الاحسن الاجمل وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة قد تركوا العمل به وباب الاستئذان من ذلك قال الزمخشرى بينا أنت فى بيتك اذ رعف عليك الباب بواحد من غير استئذان ولا تحية من تحايا اسلام ولا جاهلية وهو ممن سمع ما أنزل الله فيه وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أين الاذن الواعية (ذلكم خير لكم) اى من تحية الجاهلية ومن أن تدخلوا من غير استئذان روى ان رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم أأستأذن على أمى قال نعم قال انها ليس لها خادم غيرى أأستأذن عليها كلما دخلت قال أتحب ان تراها عريانة قال الرجل لا قال فاستأذن وقوله تعالى (لعلكم تذكرون) متعلق بمحذوف اى أنزل عليكم وقيل بين لكم هذا ارادة أن تذكروا وتتعظوا وتعملوا بما أمرتم به فى باب الاستئذان وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد (فان لم تجدوا فيها) اى البيوت (أحدا) يأذن لكم فى دخولها (فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) اى حتى يأتى من يأذن لكم فان المانع من الدخول فيها ليس الاطلاع على العورات فقط وانما شرع لئلا يوقف على الاحوال التى تطويها الناس فى العادة عن غيرهم ويتحفظون من اطلاع أحد عليها ولانه تصرف فى ملك غيرك فلا بد أن يكون برضاه والا أشبه الغصب والتغلب (وان قيل لكم ارجعوا) اى بعد الاستئذان (فارجعوا) اى اذا كان فى البيت أحد وقال لكم ارجعوا فارجعوا (هو) اى الرجوع (أزكى) اى أطهر وأصلح (لكم) من الوقوف على الابواب منتظرين لان هذا مما يجلب الكراهة ويقدح فى قلوب الناس خصوصا اذا كانوا ذوى مروءة مرتاضين بالآداب الحسنة اذا ونهى عن ذلك لأدائه الى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدى اليها من قرع الباب

بعنف والتصييح بصاحب الدار وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهذب من أكثر الناس وعن أبي عبيد رحمه الله تعالى ما قرعت بابا على عالم قط وكفى بقصة بني أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون وعن قتادة رحمه الله تعالى اذا لم يؤذن له لا يقعد وراء الباب فان للناس حاجات وان حضر ولم يستأذن وقعد على الباب منتظرا جاز وكان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يأتي باب الانصاري لطلب الحديث فيقعد على الباب حتى يخرج ولا يستأذن فيخرج الرجل فيقول يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أخبرتني فيقول هكذا أمرنا ان نطلب العلم فاذا وقف فلا ينظر من شق الباب اذا كان الباب مردودا لما روى عن أبي هريرة انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اطلع في بيت قوم فقد حل لهم أن يفقؤا عينه وفي رواية للنسائي قال لو ان امرأ اطلع عليك بغير اذن فحذفته ففقأت عينه ما كان عليك جناح ولو عرض أمر في دار من حريق أو هدم أو هجوم سارق أو ظهور منكر يجب انكاره جاز الدخول بغير اذن (والله) اي الذي لا يخفى عليه شيء (بما تعملون) من الدخول باذن و بغير اذن (عليم) فيجازيكم عليه * ولما نزلت آية الاستئذان قالوا يا رسول الله كيف بالبيوت التي بين مكة والمدينة والشام على ظهر الطريق ليس فيها انسان فانزل الله تعالى (ليس عليكم جناح) اي اثم (ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة) اي بغير استئذان منكم وذلك كبيوت الخانات والربط المسبلة (فيها متاع) اي منفعة (لكم) والمنفعة فيها بالنزول وأنواع المتاع والاتقاء من الحر والبرد ونحو ذلك وقال ابن زيد هي بيوت التجار وحوانيتهم التي بالاسواق يدخلها للبيع والشراء وهو المنفعة وقال ابراهيم النخعي ليس على حوانيت الاسواق اذن وكان ابن سيرين رحمه الله تعالى اذا جاء الى حانوت السوق يقول السلام عليكم أدخل ثم يلج وقال عطاء هي البيوت الخربة والمتاع هو قضاء الحاجة فيها من البول والغائط وذلك استثناء من الحكم السابق لشموله البيوت المسكونة وغيرها (والله يعلم ما تبدون) اي تظهرون (وما تكتمون) اي تخفون في دخول غير بيوتكم من قصد صلاح أو غيره وفي ذلك وعيد من الله تعالى لمن دخل لفساد أو تطلع على عورات وسيأتي انهم اذا دخلوا بيوتهم سلموا على أنفسهم والحكم السابع حكم النظر المذكور في قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) اي عما لا يحل لهم نظره (ويحفظوا فروجهم) اي عما لا يحل لهم فعله بها *(تنبيه)* من للتبعيض والمراد غض البصر عما لا يحل كما مر والاقتصار به على ما يحل وجوز الاخفش ان تكون مزيدة وأباه سيبويه (فان قيل) لم دخلت من في غض البصر دون حفظ الفرج (أجيب) بان في ذلك دلالة على أن المراد ان أمر النظر أوسع بدليل جواز النظر للمحارم فيما عدا ما بين السرة والركبة وأما نظر الفروج فالامر فيه ضيق وكفاك فرقا ان أبيح النظر الا ما استثنى منه وحظر الجماع الا ما استثنى منه ويجوز ان يراد مع حفظها عن الافضاء الى ما لا يحل حفظها عن الابداء وعن ابن زيد كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا الا هذا فانه أراد به الاستتار (فان قيل) لم قدم غض البصر على حفظ الفرج (أجيب) بان البلوى فيه أشد وروى عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله تعالى عنه قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة فقال اصرف بصرك وعن

بريدة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى يا على لا تتبع النظرة النظرة فان لك الاولى وليست لك الثانية أخرجه أبو داود والترمذى وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الرجل الى عورة الرجل ولا المرأة الى عورة المرأة ولا يفضى الرجل الى الرجل فى ثوب واحد ولا تفضى المرأة الى المرأة فى ثوب واحد (ذلك) اى غض البصر وحفظ الفرج (أزكى) أى خير (لهم) لما فيه من البعد عن الريبة سئل الشيخ الشبلى رحمه الله تعالى عن قوله تعالى يغضوا من أبصارهم فقال أبصار الرؤس عن المحرمات وأبصار القلوب عن المحرمات ثم أخبر سبحانه وتعالى بانه خبير بأحوالهم وأفعالهم بقوله تعالى (ان الله) اى الملك الذى لا يخفى عليه شئ (خبير بما يصنعون) بسائر حواسهم وجوارحهم فعليهم اذا عرفوا ذلك ان يكونوا منه على تقوى وحذر فى كل حركة وسكون (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) عما لا يحل لهن نظره (ويحفظن فروجهن) عما لا يحل لهن فعله بها روى عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها انها قالت كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ميمونة بنت الحرث اذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعدما أمرنا بالحجاب فقال صلى الله عليه وسلم احتجبا منه فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه وقوله تعالى (ولا يبدين) أى يظهرن (زينتهن) اى لغير محرم والزينة خفية وظاهرة فالخفية مثل الخلخال والخضاب فى الرجل والسوار فى المعصم والقرط فى الاذن والقلائد فى العنق فلا يجوز للمرأة اظهارها ولا يجوز للاجنبى النظر اليها والمراد من الزينة مواضعها من البدن وذكر الزينة للمبالغة فى الامر بالصون والستر لان هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر اليها (الا ما ظهر منها) اى من الزينة الظاهرة واختلف أهل العلم فى هذه الزينة التى استثناها الله تعالى فقال سعيد بن جبير وجماعة هى الوجه والكفان وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه هى الثياب وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى الكحل والخاتم والخضاب فى الكف فما كان من الزينة الظاهرة يجوز للاجنبى النظر اليها ان لم يخف فتنة فى أحد وجهين وعليه الاكثر وانما رخص فى هذا القدر للمرأة أن تبديه من بدنها لانه ليس بعورة فى الصلاة وما سواه عورة فيها ولان سترها فيه حرج فان المرأة لا تجد بدا من مزاولة الاشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصا فى الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر الى المشى فى الطرقات وخاصة الفقيرات والوجه الثانى يحرم لانه محل الفتنة ورجحه جماعة (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) اى يسترن الرؤس والاعناق والصدور بالمقانع فان جيوبهن كانت واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة فامرن بان يسدلنها من قدامهن حتى تغطيها ويجوز أن يراد بالجيوب الصدور تسمية لها باسم ما يليها او يلابسها ومنه قولهم ناصح الجيب بالنون والصاد اى سليم الصدر وقولك ضربت بخمارها على جيبها كقولك ضربت بيدى على الحائط اذا وضعتها عليه قالت عائشة رضى الله تعالى عنها يرحم الله تعالى نساء المهاجرات لما أنزل الله وليضربن بخمرهن على جيوبهن شققن مروطهن فاختمرن بها والمرط كساء من صوف أو خز

أو كان وقيل هو الازار وقيل هو الدرع وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وعاصم بضم الجيم والباقون بكسرها وكرر قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن) لبيان من يحل له الابداء ومن لا يحل له أى الزينة الخفية التى لم يبح لهن كشفها فى الصلاة ولا للاجانب وهى ما عدا الوجه والكفين (الا لبعولتهن) أى فانهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا الى جميع بدنهن حتى الفرج ولو الدبر ولكنه يكره وقال ابن عباس لا يضعن الجلباب والخمار عنهن الا لازواجهن (أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن) فيجوز لهؤلاء أن ينظروا الى الزينة الخفية ولا ينظروا الى ما بين السرة والركبة وانما سومح فى الزينة الخفية لاولئك المذكورين فى الآية للحاجة المضطرة الى مداخلتهم ومخالطتهم ولقلة الفتنة من جهتهم ولما فى الطباع من النفرة عن مماسة القرائب وتحتاج المرأة الى صحبتهم فى الاسفار للنزول والركوب وغير ذلك (أو نسائهن) أى المؤمنات فان الكافرات لا يتحرجن عن وصفهن للرجال فلا يجوز للمسلمة أن تتجرد من ثيابها عند (1) النساء الكافرات لانهن أجنبيات عن الدين فكن كالرجال الاجانب لكن يجوز أن ترى الكافرة منها ما يبدو عند المهنة وقد كتب عمر بن الخطاب الى أبى عبيدة بن الجراح أن يمنع نساء أهل الكتاب أن يدخلن الحمامات مع المسلمات وقيل النساء كلهن وللعلماء فى ذلك خلاف

(تنبيه) العورة على أربعة أقسام عورة الرجل مع الرجل وعورة المرأة مع المرأة وعورة المرأة مع الرجل وعورة الرجل مع المرأة أما الرجل مع الرجل فيجوز له أن ينظر الى جميع بدنه ما عدا ما بين السرة والركبة وكذلك المرأة مع المرأة وأما المرأة مع الرجل أو الرجل مع المرأة فلا ينظر أحدهما من الآخر شيئا وقيل يجوز للاجنبى أن ينظر الى وجهها وكفيها اذا أمن الفتنة ولم تكن شهوة وقيل يجوز لها أن تنظر منه ما عدا ما بين السرة والركبة ويجوز لمن أراد أن يخطب حرة أن ينظر وجهها وكفيها وهى تنظر منه اذا أرادت أن تتزوج به ما عدا ما بين السرة والركبة وان أراد أن يتزوج بامة جاز أن ينظر منها ما عدا ما بين السرة والركبة ويحرم ان ينظر بشهوة و يحرم النظر بشهوة لكل منظور اليه الا لمن أراد ان يتزوج بها والا حليلته ويباح النظر من الاجنبى لمعاملة وشهادة حتى يجوز النظر الى الفرج للشهادة على الزنا والولادة والى الثدى للشهادة على الرضاع وتعليم ومداواة بقدر الحاجة وكل ما حرم نظره متصلا حرم نظره منفصلا كشعر عانة من رجل أو قلامة ظفر من أجنبية ويحرم اضطجاع رجلين أو امرأتين فى ثوب واحد اذا كانا عاريين وان كان كل منهما فى جانب من الفراش لخبر المتقدم ويجب التفريق بين ابن عشر سنين وأبويه واخوته وأخواته فى المضجع اذا كانا عاريين وتسن مصافحة الرجلين والمرأتين لخبر ما من مسلمين يلتقيان و يتصافحان الا غفر لهما قبل أن يتفرقا وتكره مصافحة من به عاهة كجذام أو برص والمعانقة والتقبيل فى الرأس للنهى عن ذلك الا القادم من سفر أو تباعد عهد ويسن تقبيل الطفل ولو لغير أبويه شفقة ولا بأس بتقبيل وجه الميت الصالح ويسن تقبيل يد الحى لصلاح أو علم أو زهد أو نحو ذلك ويكره لفسق أو وجاهة أو نحو ذلك وقوله تعالى (أو ما ملكت أيمانهن) يعم الاماء والعبيد فيحل نظر العبد العفيف غير المبعض والمشترك والمكاتب الى سيدته العفيفة لما روى أبو داود انه صلى الله عليه وسلم أتى

---

(1) قوله عند النساء الخ كذا فى نسخ وفى بعض عند الكافرة لانها أجنبية فى الدين فكانت كالرجل الاجنبى اه مصحح

قوله الا لمن أراد أن يتزوج بها عمومه يشمل الامة وقد قال فيها ويحرم أن ينظر بشهوة فليحرر اه

فاطمة رضي الله تعالى عنها بعبد وهبه لها وعليها ثوب اذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها واذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها فلما رآها النبي صلى الله عليه وسلم وما تلقى قال صلى الله عليه وسلم انه ليس عليك بأس انما هو أبوك وغلامك وعن عائشة انها قالت لعبدها ذكوان انك اذا وضعتني في القبر وخرجت فانت حر وأما الفاسق والمبعض والمشترك والمكاتب فكالاجنبي بل قيل ان المراد بالآية الاماء وعبد المرأة كالاجنبي وبه قال ابن المسيب آخرا وقال لا تغرنكم آية النور فان المراد بها الاماء (أو التابعين) اى الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم (غير أولى الاربة) اى أصحاب الحاجة الى النساء (من الرجال) اى ليس لهم همة الى ذلك ولا حاجة لهم في النساء لانهم بله لا يعرفون شيأ من أمرهن وقيل هم شيوخ صلحاء اذا كانوا معهن غضوا أبصارهم وقيل هم الممسوحون سواء كان حرا أم لا وهو ذاهب الذكر والانثيين أما ذاهب الذكر فقط أو الانثيين فقط فكالفحل وعن أبي حنيفة لا يحل امساك الخصيان واستخدامهم وبيعهم وشراؤهم قال الزمخشري فان قلت روى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم خصي فقبله قلت لا يقبل فيما تعم به البلوى الا حديث مكشوف وان صح فلعله قبله ليعتقه أو لسبب من الاسباب انتهى وعندنا يجوز جميع ذلك اذ لا مانع منه وقيل المراد بأولى الاربة هو المخنث وقرأ ابن عامر وشعبة بنصب الراء على الاستثناء والحال والباقون بكسرها على الوصفية وقوله تعالى (أو الطفل) بمعنى الاطفال وضع الواحد موضع الجمع لانه يفيد الجنس ويبينه ما بعده وهو قوله تعالى (الذين لم يظهروا) اى لم يطلعوا (على عورات النساء) للجماع فيجوز لهن أن يبدين لهم ما عدا ما بين السرة والركبة قال امام الحرمين رحمه الله تعالى اذا لم يبلغ الطفل حدا يحكي ما يراه فكالعدم أو بلغه من غير شهوة فكالمحرم أو بشهوة فكالبالغ (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) وذلك ان المرأة كانت تضرب برجلها الارض ليتقعقع خلخالها فيعلم أنها ذات خلخال وقيل كانت تضرب باحدى رجليها على الاخرى ليعلم أنها ذات خلخالين فنهين عن ذلك لان ذلك يورث ميلا في الرجال واذا وقع النهي عن اظهار صوت الحلي فمواضع الحلي أبلغ في النهي وأوامر الله ونواهيه في كل باب لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها وان ضبط نفسه واجتهد ولا يخلو من تقصير يقع منه فلذلك قال تعالى (وتوبوا الى الله) اى الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت (جميعا أيه المؤمنون) اى عما وقع لكم من النظر الممنوع منه ومن غيره ● وشروط التوبة أن يقلع الشخص عن الذنب ويندم على ما مضى منه ويعزم على ان لا يعود اليه ويرد الحقوق لاهلها وقرأ ابن عامر في الوصل أيه المؤمنون بضم الهاء لانها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الالف فلما سقطت الالف لالتقاء الساكنين اتبعت حركتها حركة ما قبلها والباقون بفتحها وأما الوقف فوقف ابو عمرو والكسائي بالالف بعد الهاء ووقف الباقون على الهاء ساكنة (لعلكم تفلحون) اى تنجون من ذلك بقبول التوبة منه وفي الآية تغليب الذكور على الاناث وعن ابن عباس توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة (فان قيل) على هذا قد صحت التوبة بالاسلام لانه يجب

ما قبله فما معنى هذه التوبة (أجيب) بان بعض العلماء قال ان من أذنب ذنبا ثم تاب منه لزمه كلما ذكره أن يجدد التوبة لانه يلزمه أن يستمر على ندمه وعزمه على عدم العود الى أن يلقى الله تعالى والذى عليه الاكثر أنه لا يلزمه تجديدها وعن أبي بردة أنه سمع الاغر يحدث ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا أيها الناس توبوا الى ربكم فانى أتوب الى ربى كل يوم مائة مرة وعن ابن عمر قال انا كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس يقول رب اغفر لى وتب علىّ انك أنت التواب الغفور مائة مرة وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يسقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة ❊ ولما نهى عما يفضى الى السفاح المخل بالنسب المقتضى للالفة وحسن التربية ومزيد الشفقة المؤدية الى بقاء النوع بعد الزجر عنه مبالغة فيه عقبه بالحكم الثامن وهو الامر بالنكاح المذكور فى قوله تعالى (وأنكحوا الايامى منكم) جمع أيم والايامى واليتامى أصلهما أيايم ويتايم فقلبا والأيم هى من ليس لها زوج بكرا كانت أو ثيبا ومن ليس له امرأة فيشمل ذلك الذكر والانثى قال الشاعر

فان تنكحى انكح وان تتأيمى ❊ وان كنت أفتى منكم أتأيم

أى أقرب الى الشباب منك وأتأيم بالرفع على أنه جواب ان تتأيمى وما بينهما جملة معترضة والمعنى أوافقك فى حالتى التزوج والتأيم وان كنت أقرب الى الشباب منك وعنه صلى الله عليه وسلم اللهم انا نعوذ بك من العيمة والغيمة والايمة والقرم والقرم العيمة شهوة اللبن والغيمة العطش والايمة شهوة النكاح مع الخلو من الزوجية والقرم البخل والقرم شهوة اللحم وهذا فى الاحرار والحرائر وأما غيرهم فهو قوله تعالى (والصالحين) أى المؤمنين (من عبادكم) وهو من جموع عبد (وامائكم) والخطاب للاولياء والسادة وهذا الامر أمر ندب فيستحب لمن تاقت نفسه للنكاح ووجد أهبته أن يتزوج ومن لم يجد أهبته استحب له أن يكسر شهوته بالصوم لما ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء أى قاطع لشهوته لان الوجاء بكسر الواو نوع من الخصاء وهو أن ترض عروق الانثيين وتترك الخصيتان كما هما فشبه الصوم فى قطعه شهوة النكاح بالوجاء الذى يقطع النسل والباءة بالمد مؤن النكاح وهى المهر وكسوة فصل التمكين ونفقة يومه فان لم تنكسر شهوته بالصوم فلا يكسرها بالكافور ونحوه بل يتزوج ويكره لغير التائق ان فقد الاهبة أو وجدها وكان به علة كهرم فان وجدها ولا علة به وهو غير تائق فالتخلى للعبادة أفضل من النكاح ان كان متعبدا فان لم يتعبد فالنكاح أفضل من تركه لقوله صلى الله عليه وسلم من أحب فطرتى فليستن بسنتى وهى النكاح وعنه صلى الله عليه وسلم من كان له مال يتزوج به فلم يتزوج فليس منا وعنه صلى الله عليه وسلم اذا تزوج أحدكم عج شيطانه يا ويله عصم ابن آدم منى ثلثى دينه والاحاديث فى ذلك كثيرة وربما كان واجب الترك اذا أدى الى معصية أو مفسدة وعنه صلى الله عليه وسلم اذا أتى على أمتى مائة وثمانون سنة فقد حلت لهم العزوبة والعزلة والترهب على رؤس

أن يكاتبه فأبى فأنزل الله هذه الآية فكاتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين فأداها وقتل يوم حنين فى الحرب وأركانها أربعة رقيق وصيغة وعوض وسيد وشرط فى السيد كونه مختارا أهل تبرع وولاء وكتابة المريض مرض الموت محسوبة من الثلث فان خلف مثلى قيمته صحت الكتابة فى كله أو مثل قيمته صحت فى ثلثيه أو لم يخلف غيره صحت فى ثلثه وشرط فى الرقيق اختيار وعدم صبا وجنون وأن لا يتعلق به حق آدمى لازم وشرط فى الصيغة لفظ يشعر بالكتابة كأن يقول السيد لعبده كاتبتك على ألفين فى شهرين كل شهر ألف فاذا أديتهما فأنت حر فيقول العبد قبلت ذلك فلا يصح عقدها الا مؤجلا منجما بنجمين فأكثر كما جرى عليه الصحابة فمن بعدهم فلا بد من بيان قدر العوض وصفته وعدد النجوم وقسط كل نجم فلا تجوز عند الشافعى رضى الله تعالى عنه بنجم واحد ولا بحال لان العبد لا يملك شيأ فعقدها بحال يمنع من حصول الغرض لانه لا يقدر على أداء البدل عاجلا وعند أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه تجوز حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم لان الله تعالى لم يذكر التنجيم وقياسا على سائر العقود وهى سنة لا واجبة وان طلبها الرقيق لئلا يتعطل أثر الملك وتتحكم المماليك على الملاك بطلب رقيق أمين قوى على الكسب وبهما فسر الشافعى الخير فى الآية واعتبرت الامانة لئلا يضيع ما يحصله فلا يعتق والطلب والقدرة على الكسب ليوثق بتحصيل النجوم روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ثلاث حق على الله عونهم المكاتب الذى يريد الاداء والناكح يريد العفاف والمجاهد فى سبيل الله فان فقدت هذه الشروط أو بعضها فهى مباحة اذ لا يقوى رجاء العتق بها ولا تكره بحال لانها عند فقد ما ذكر قد تفضى الى العتق نعم ان كان الرقيق فاسقا بسرقة أو نحوها وعلم سيده أنه لو كاتبه مع العجز عن الكسب اكتسب بطريق الفسق لم يبعد تحريمها حينئذ لتضمنها التمكين من الفساد وتصح على عوض قليل وكثير ويجب أن يحط عنه قبل عتقه شيأ متمولا من النجوم أو يدفعه اليه من جنسها أو من غيرها كما قال تعالى (وآتوهم) أمر للسادة (من مال الله الذى آتاكم) ما يستعينون به فى أداء ما التزموه لكم أيها السادة وفى معنى الايتاء حط شئ متمول مما التزموه بل الحط أولى من الدفع لان القصد بالحط الاعانة على العتق وهى محققة فيه موهومة فى الدفع اذ قد يصرف المدفوع فى جهة أخرى وكون ذلك فى النجم الاخير أولى منه فيما قبله لانه أقرب الى العتق يروى ان عمر رضى الله تعالى عنه كاتب عبدا له يكنى أبا أمية وهو أول عبد كوتب فى الاسلام فأتاه بأول نجم فدفعه اليه عمر وقال استعن به على كتابتك فقال لو أخرته الى آخر نجم فقال أخاف أن لا أدرك ذلك وكونه ربعا من النجوم أولى فان لم تسمح به نفسه فكونه سبعا أولى روى حط الربع النسائى وغيره وحط السبع مالك عن ابن عمر رضى الله تعالى عنه وعند أبى حنيفة أمر للمسلمين على جهة الوجوب باعانتهم للمكاتبين واعطائهم سهمهم الذى جعل الله لهم من بيت المال كقوله وفى الرقاب ولما بين تعالى ما يصح من تزويج العبيد والاماء أتبع ذلك بالحكم العاشر وهو الاكراه على الزنا المذكور فى قوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم) اى اماءكم (على البغاء) اى الزنا كان لعبد الله بن أبى رأس المنافقين ست جوار معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت ثنتان منهن الى رسول الله صلى

الله عليه وسلم فنزلت وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية يؤاجرون إماءهم فلما جاء الإسلام قالت مسيكة لمعاذة إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين فإن يك خيرا فقد استكثرنا منه وإن يك شرا فقد آن لنا أن ندعه فأنزل الله هذه الآية وروي أنه جاءت إحدى الجاريتين يوما ببرد وجاءت الأخرى بدينار فقال لهما ارجعا فازنيا فقالتا والله لا نفعل قد جاء الإسلام وحرم الزنا فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكيا إليه فنزلت ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والأمة وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي (إن أردن تحصنا) أي تعففا عنه وهذه الإرادة محل الإكراه فلا مفهوم للشرط لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادة التحصن فأما إذا لم ترد المرأة التحصن فإنها تبغي بالطبع طوعا وكلمة إن وإيثارها على إذا إيذان بأن الباغيات كن يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن وأن ما وجد من معاذة ومسيكة من حيز الشاذ النادر ولأن الكلام ورد على سبب وهو الذي ذكر في سبب نزول الآية فخرج النهي على صورة صفة السبب وإن لم تكن شرطا فيه وقال الحسين بن الفضل في الآية تقديم وتأخير تقديرها وأنكحوا الأيامى منكم إن أردن تحصنا ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء (لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) أي تطلبوا من أموال الدنيا بكسبهن وأولادهن (ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور) أي لهن (رحيم) بهن وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال لهن والله لهن أي لا للمكره إلا إذا تاب (فإن قيل) إن المكرهة غير آثمة فلا حاجة إلى المغفرة (أجيب) بأن الزنا لا يباح بالإكراه فهي آثمة لكن لأحد علمها للإكراه ولما ذكر تعالى في هذه السورة هذه الأحكام وصف القرآن بصفات ثلاث أحدها قوله تعالى (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) أي الآيات التي بينت في هذه السورة وأوضحت فيها الأحكام والحدود وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بكسر الياء التحتية والباقون بفتحها لأنها أوضحت تصدقها الكتب المتقدمة والعقول السليمة من بين بمعنى تبين أو لأنها بينت الأحكام والحدود ثانيها قوله تعالى (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) أي من جنس أمثالهم أي وقصة عجيبة مثل قصصهم وهي قصة عائشة رضي الله تعالى عنها فإنها كقصة يوسف ومريم عليهما السلام ثالثها قوله تعالى (وموعظة للمتقين) أي ما وعظ به في قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله وقوله تعالى لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون الخ وفي قوله تعالى لولا إذ سمعتموه قلتم الخ وفي قوله تعالى يعظكم الله أن تعودوا الخ وتخصيصها بالمتقين لأنهم هم المنتفعون بها واختلف في معنى قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) فقال ابن عباس الله هادي أهل السموات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون وبهدايته من حيرة الضلالة ينجون وقال الضحاك منور السموات والأرض فقال نور السماء بالملائكة ونور الأرض بالأنبياء وقال مجاهد مدبر الأمور في السموات والأرض وقال أبي بن كعب والحسن وأبو العالية مزين السموات والأرض زين السماء بالشمس والقمر والنجوم وزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين ويقال بالنبات والأشجار وقيل معناه الأنوار كلها منه كما يقال فلان رحمة أي منه الرحمة وقد يذكر مثل هذا اللفظ على طريق المدح كما قال القائل

إذا سار عبد الله من مرو ليلة ٭ فقد سار منها نورها وجمالها

وسبب هذا الاختلاف ان النور في الاصل كيفية تدركها الباصرة أولا وبواسطتها سائر
المبصرات كالكيفية الفائضة من النيرات على الأجرام الكثيفة المحاذية لها وهو بهذا
المعنى لا يصح اطلاقه على الله تعالى الا على ضرب من التجوز كالأمثلة المتقدمة أو على تقدير
مضاف كقولك زيد كرم وجود ثم تقول ينعش الناس بكرمه وجوده والمعنى ذو نور السموات
والارض ونور السموات والارض الحق شبهه بالنور في ظهوره وبيانه كقوله تعالى الله ولي
الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور أي من الباطل الى الحق وأضاف النور الى
السموات والارض لاحد معنيين اما للدلالة على سعة اشراقه وفشو اضاءته حتى تضيء له
السموات والارض واما أن يراد أهل السموات والارض وانهم يستضيئون به واختلف أيضا
في معنى قوله تعالى (مثل نوره) فقال ابن عباس مثل نوره الذي أعطى المؤمن أي مثل نور الله
في قلب المؤمن وهو النور الذي يهتدي به كما قال تعالى فهو على نور من ربه وقال الحسن وزيد
ابن أسلم أراد بالنور القرآن وقال سعيد بن جبير والضحاك هو محمد صلى الله عليه وسلم وقيل
أراد بالنور الطاعة سمى طاعة الله نورا وأضاف هذه الانوار الى نفسه تفضلا أي صفة نوره
العجيبة الشأن في الاضاءة (كمشكوة) أي كصفة مشكاة وهي الكوة في الجدار غير النافذة
(فيها مصباح) أي سراج ضخم ثاقب (المصباح في زجاجة) أي قنديل من زجاج شامي أزهر
وانما ذكر الزجاجة لان النور وضوء النار فيها أبين من كل شيء وضوءه يزيد في الزجاج ثم وصف
الزجاجة بقوله تعالى (الزجاجة كأنها) أي النور فيها (كوكب دري) أي مضيء شبهها في
الضوء باحدى الدراري من الكواكب الخمسة العظام وهي المشاهير المشتري والزهرة
والمريخ وزحل وعطارد (فان قيل) لم شبه بالكواكب ولم يشبه بالشمس والقمر (أجيب)
بأنهما يلحقهما الخسوف والكسوف والكواكب لا يلحقها ذلك وقرأ أبو عمرو والكسائي
بكسر الدال من الدرء بمعنى الدفع لدفعه الظلام والباقون بضمها منسوب الى الدر أي اللؤلؤ في
صفائه وحسنه وان كان الكوكب أكثر ضوءا من الدر لكن يفضل الكواكب بصفائه كما
يفضل الدر سائر الحب وهمز مع المد أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي والباقون بغير همز وكل
من أهل الهمز على مرتبته في المد (توقد من شجرة مباركة زيتونة) أي ابتداء توقده من شجرة
الزيتون المتكاثر نفعه بأن رويت فتيلة المصباح بزيت الشجرة وهي شجرة كثيرة البركة
وفيها منافع كثيرة لان الزيت يسرج به ويدهن به وهو ادام وهو أصفى الادهان وأضوأها
وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح التاء والواو وبتشديد القاف على وزن تفعل على الماضي أي
المصباح وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي بضم التاء الفوقية وتخفيف القاف أي المصباح
(لا شرقية ولا غربية) أي ليست بشرقية وحدها لا تصيبها الشمس اذا غربت ولا غربية
وحدها فلا تصيبها الشمس اذا طلعت بل هي مصاحبة للشمس طول النهار تصيبها الشمس عند
طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الامرين فيكون زيتها أضوأ
وهذا كما يقال فلان ليس أسود ولا أبيض أي ليس أسود خالصا ولا أبيض خالصا بل اجتمع فيه
كل واحد منهما وهذا الرمان ليس بحلو ولا حامض أي اجتمع فيه الحلاوة والحموضة هذا قول
ابن عباس والاكثرين وقال السدي وجماعة معناه أنها ليست في مقناة فلا تصيبها الشمس ولا

فى مضحاة لايصيبها الظل فهى لاتضرها شمس ولاظل والمقناة بقاف فنون فهمزة وهى بفتح النون وضمها المكان الذى لاتطلع عليه الشمس وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى وفى الحديث لاخير فى شجرة فى مقناة ولا فى نبات فى مقناة ولاخير فيهما فى مضحى قال ابن حجر العسقلانى لم أجده وقيل معناه انها معتدلة ليست فى شرق يصيبها الحر ولا فى غرب يضرها البرد وقيل معناه هى شامية لان الشأم وسط الارض لاشرقى ولاغربى وقيل ليست هذه الشجرة من أشجار الدنيا لانها لو كانت فى الدنيا لكانت شرقية أوغربية وانما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره (يكاد زيتها) اى من صفائه (يضىء ولو لم تمسسه نار) اى يكاد يتلألأ ويضىء بنفسه من غير نار (نور على نور) اى نور المصباح على نور الزجاجة * (تنبيه) * اختلف أهل العلم فى معنى هذا التمثيل فقال بعضهم وقع التمثيل لنور محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس لكعب الاحبار أخبرنى عن قوله تعالى مثل نوره كمشكاة قال كعب هذا مثل ضربه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة توقد من شجرة مباركة هى شجرة النبوة يكاد نور محمد صلى الله عليه وسلم وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبى كما يكاد ذلك الزيت يضىء ولو لم تمسسه نار وروى سالم عن عمر فى هذه الآية قال المشكاة جوف النبى صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح النور الذى جعله الله تعالى فيه لاشرقية ولاغربية لايهودى ولانصرانى توقد من شجرة مباركة ابراهيم نور على نور نور قلب ابراهيم ونور قلب محمد صلى الله عليهما وسلم وقال محمد بن كعب القرظى المشكاة ابراهيم والزجاجة اسمعيل عليهما السلام والمصباح محمد صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى مصباحا كما سماه سراجا فقال تعالى وسراجا منيرا توقد من شجرة مباركة وهى ابراهيم عليه السلام سماه مباركا لان أكثر الانبياء من صلبه لاشرقية ولاغربية يعنى ابراهيم لم يكن يهوديا ولانصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما لان اليهود تصلى قبل المغرب والنصارى قبل المشرق يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار تكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن يوحى اليه نور على نور نبى من نسل نبى نور محمد على نور ابراهيم عليهما السلام وقال بعضهم وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن روى أبو العالية عن أبى بن كعب قال هذا مثل المؤمن فالمشكاة نفسه والزجاجة صدره والمصباح ما جعل الله من الايمان والقرآن فى قلبه توقد من شجرة مباركة وهى الاخلاص لله وحده فمثله كمثل شجرة التف بها الشجر فهى خضراء ناعمة لاتصيبها الشمس لا اذا طلعت ولا اذا غربت فكذلك المؤمن قد احترس من أن يصيبه شىء من الفتن فهو بين أربع خلال ان أعطى شكر وان ابتلى صبر وان حكم عدل وان قال صدق يكاد زيتها يضىء اى يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له لموافقته اياه نور على نور قال أبى أى فهو يتقلب فى خمسة أنوار قوله نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره الى النور يوم القيامة قال ابن عباس هذا مثل نور الله وهداه فى قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار فاذا مسته النار ازداد ضوأ على ضوء كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فاذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ونورا على نور وقال الكلبى قوله تعالى نور على نور يعنى ايمان المؤمن وعمله وقال السدى نور الايمان ونور القرآن وقال الحسن وابن زيد هذا مثل للقرآن فالمصباح

هو القرآن فكما يستضاء بالمصباح يهتدى بالقرآن والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة فمه
ولسانه والشجرة المباركة شجرة الوحي يكاد زيتها يضيء تكاد حجة القرآن تتضح وان لم
يقرأ نور على نور يعني القرآن نور من الله لخلقه مع ما أقام لهم من الدلائل والاعلام قبل نزول
القرآن فازدادوا بذلك نورا على نور (يهدي الله لنوره) قال ابن عباس دين الاسلام وقيل
القرآن (من يشاء) فان الاسباب بدون مشيئته لاغية وقيل يوفق الله لاصابة الحق من نظر
وتدبر بعين عقله والانصاف من نفسه ولم يذهب عن الجادة الموصلة اليه يمينا وشمالا ومن لم
يتدبر فهو كالاعمى سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس (ويضرب) أي يبين
(الله الامثال للناس) تقريبا للافهام وتسهيلا للادراك (والله بكل شيء عليم) معقولا كان
أو محسوسا ظاهرا كان أو خفيا وفيه وعيد لمن تدبرها ولم يكترث بها وقوله تعالى (في بيوت)
يتعلق بما قبله أي كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد كأنه قيل مثل نوره كما ترى في
المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت أو بما بعده وهو يسبح أي يسبح رجال في
بيوت وفي قوله فيها تكرير لقوله في بيوت كقوله زيد في الدار جالس فيها أو بمحذوف كقوله
تعالى في تسع آيات أي سبحوا في بيوت والبيوت هي المساجد قال سعيد بن جبير عن ابن عباس
قال المساجد بيوت الله في الارض وهي تضيء لاهل السماء كما تضيء النجوم لاهل الارض
وقيل المراد بالبيوت المساجد الثلاثة وقيل المراد أربعة مساجد لم يبنها الا نبي الكعبة بناها
ابراهيم واسمعيل عليهما السلام فجعلاها قبلة وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما
السلام ومسجد المدينة ومسجد قباء بناهما النبي صلى الله عليه وسلم وأتى فيها بجمع الكثرة
دون جمع القلة للتعظيم (أذن الله أن ترفع) قال مجاهد تبنى نظيره قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم
القواعد من البيت وقال الحسن تعظم أي فلا يذكر فيها الفحش من القول وتطهر من
الانجاس والاقذار وقوله تعالى (ويذكر فيها اسمه) عام فيما يتضمن ذكره حتى المذاكرة في
أفعاله والمباحثة في أحكامه وقال ابن عباس يتلى فيها كتابه (يسبح) أي يصلي (له فيها بالغدو
والآصال) أي بالغداة والعشي قال أهل التفسير أراد به الصلوات المفروضة فالتي تؤدى
بالغداة صلاة الفجر والتي تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لان اسم الاصيل
يقع على هذا الوقت وقيل أراد به الصبح والعصر قال صلى الله عليه وسلم من صلى البردين دخل
الجنة أراد صلاة الصبح وصلاة العصر وقال ابن عباس التسبيح بالغدو صلاة الضحى وروى
من مشى الى صلاة مكتوبة وهو متطهر فأجره كأجر الحاج المحرم ومن مشى الى تسبيح
الضحى لا ينصبه الا اياه فأجره كأجر المعتمر وصلاة على اثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين
وقرأ ابن عامر وشعبة بفتح الباء الموحدة والباقون بكسرها (رجال لا تلهيهم تجارة) أي معاملة
رابحة وقيل المراد بالتجارة الشراء لقوله تعالى (ولا بيع عن ذكر الله) اطلاقا لاسم الجنس
على النوع كما تقول رزق فلان تجارة رابحة اذا اتجه له بيع صالح أو شراء وعلى الاول ذكر
مبالغة للتعظيم والتعميم بعد التخصيص وقيل التجارة لاهل الجلب تقول تجر فلان في كذا
أي جلب * (تنبيه) * قوله تعالى رجال فاعل يسبح بكسر الباء وعلى فتحها نائب الفاعل له

ورجال فاعل فعل مقدر جواب سؤال مقدر كأنه قيل من يسبحه وحذف من قوله تعالى (واقام الصلوة) الهاء تخفيفا اى واقامة الصلاة وأراد أداءها فى وقتها الان من أخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمى الصلاة وانما ذكر اقام الصلاة مع ان المراد من ذكر الله الصلوات الخمس لانه تعالى أراد باقامة الصلاة حفظ المواقيت روى سالم عن ابن عمر أنه كان فى السوق فاقيمت الصلاة فقام الناس وغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد قال ابن عمر فيهم نزلت هذه الآية (وايتاء الزكوة) قال ابن عباس اذا حضر وقت أداء الزكاة لم يحبسوها أى فيخرجون ما يجب اخراجه من المال للمستحقين وقيل هى الاعمال الصالحة ومع ما هم عليه (يخافون يوما) هو يوم القيامة (تتقلب) اى تضطرب (فيه القلوب) بين النجاة والهلاك (والابصار) بين ناحيتى اليمين والشمال وقيل تتقلب القلوب عما كانت عليه فى الدنيا من الشك الى اليقين وتنفتح الابصار من الاغطية وقوله تعالى (ليجزيهم الله) متعلق بيسبح أو بلا تلهيهم أو بيخافون (أحسن ما عملوا) فى الطاعات فرضها ونفلها اى ثوابه الموعود لهم من الجنة وأحسن بمعنى حسن (ويزيدهم من فضله) ما لم يستحقوه باعمالهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت وقوله تعالى (والله يرزق من يشاء بغير حساب) تقرير للزيادة وتنبيه على كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسعة الاحسان وكمال جوده فكأنه سبحانه وتعالى لما وصفهم بالجد والاجتهاد فى الطاعة ومع ذلك يكونون فى نهاية الخوف فالله سبحانه وتعالى يعطيهم الثواب العظيم على طاعتهم ويزيدهم الفضل الذى لا حد له فى مقابلة خوفهم وقوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب) أى حالهم على ضد ذلك فان أعمالهم التى يحسبونها صالحة نافعة عند الله تعالى يجدونها لاغية مخيبة فى العاقبة كسراب وهو ما يرى فى الفلاة وقت الضحى الاكبر شبيها بالماء الجارى وهو ليس بماء ولكن الذى ينظر اليه من بعيد يظنه ماء جاريا وقيل هو الشعاع الذى يرى نصف النهار فى شدة الحر فى البرارى الذى يخيل للناظر انه الماء السارب أى الجارى فاذا قرب منه انفش فلم ير شيأ وأما الآل فانما يكون أول النهار كانه ماء بين السماء والارض وقال البغوى والآل ما ارتفع عن الارض وهو شعاع يجرى بين السماء والارض بالغدوات شبه بالمرآة ترفع فيها الشخوص يرى فيها الصغير كبيرا والقصير طويلا والرقراق يكون بالعشاء وهو ما ترقرق من السراب اى جاء وذهب وقوله تعالى (بقيعة) جمع قاع وهى أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام قاله فى القاموس وقيل القيعة بمعنى القاع وهو الارض المستوية المنبسطة وفيها يكون السراب وقال الفراء جمع قاع كجار وجيرة وقال الفارسى جمعه قيعة وقيعان (يحسبه) اى يظنه (الظمآن) أى العطشان الشديد العطش من ضعف العقل (ماء) فيقصده ولا يزال سائرا (حتى اذا جاءه) اى ما قدر أنه ماء وقيل جاء الى موضع السراب (لم يجده شيأ) مما حسبه ووجه التشبيه أن الذى يأتى به الكافر ان كان من أفعال البر فهو لا يستحق عليه ثوابا مع أنه يعتقد ان له ثوابا عليه وان كان من أفعال الاثم فهو يستحق عليه العقاب مع أنه يعتقد ان له ثوابا فكيف كان فهو يعتقد أن له ثوابا عند الله تعالى فاذا وافى عرصة القيامة ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه

فيشبه حاله حال الظمآن الذي اشتدت حاجته الى الماء فاذا شاهد السراب في البر تعلق به قلبه فاذا جاءه لم يجده شيأ فكذلك حال الكافر يحسب أن عمله نافعه فاذا احتاج الى عمله لم يجده شيأ ولا ينفعه وقال مجاهد السراب عمل الكافر واتيانه اياه موته ومفارقة الدنيا (فان قيل) قوله تعالى حتى اذا جاءه يدل على كونه شيأ وقوله تعالى لم يجده شيأ مناقض له (أجيب) بان معناه لم يجده شيأ نافعا كما يقال فلان ماعمل شيأ وان كان قد اجتهد أو أنه اذا جاء موضع السراب لم يجد السراب لان السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء فاذا قرب منه رق وانتشر وصار كالهواء (ووجد الله عنده) اى ووجد عقاب الله الذى توعد به الكفار أو وجد زبانية الله أو وجده محاسبا اياه أو قدم على الله (فوفاه حسابه) اى جزاء عمله قيل نزلت في عتبة ابن ربيعة فانه قد تعبد ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية ثم كفر بالاسلام قال ابن الخازن والاصح أن الآية عامة في حق جميع الكفار (والله سريع الحساب) لانه تعالى عالم بجميع المعلومات فلا يشغله محاسبة واحد عن واحد وفي هذا رد على المشبهة قبحهم الله تعالى لانه تعالى لو كان متكلما بآلة كما يقولون لما صح ذلك وقوله تعالى (أو كظلمات) عطف على كسراب على حذف مضاف واحد تقديره أو كذى ظلمات ودل على هذا المضاف قوله تعالى اذا أخرج يده لم يكد يراها فالكناية تعود الى المضاف المحذوف وهو قول أبي على وقال غيره على حذف مضافين تقديره أو كأعمال ذى ظلمات فقدر ذى ليصح عود الضمير اليه في قوله تعالى اذا أخرج يده وقدر أعمال ليصح تشبيه أعمال الكفار باعمال صاحب الظلمة اذ لا معنى لتشبيه العمل بصاحب الظلمة وأو للتخيير فان أعمالهم لكونها لاغية لا منفعة لها كالسراب ولكونها خالية عن نور الحق كالظلمات المتراكمة من لجج البحر والامواج والسحاب أو للتنويع فان أعمالهم ان كانت حسنة فكالسراب وان كانت قبيحة فكالظلمات أو للتقسيم باعتبار وقتين فانها كالظلمات في الدنيا وكالسراب في الآخرة وقوله تعالى (في بحر لجي) صفة لظلمات فيتعلق بمحذوف واللجى منسوب الى اللج وهو معظم البحر وقيل منسوب الى اللجة بالتاء وهي أيضا معظمه فاللجى هو العميق الكثير الماء وقوله تعالى (يغشاه) اى يغطى هذا البحر ويعلوه (موج) كائن (من فوقه موج) أى أمواج مترادفة متراكمة (من فوقه) اى الموج الثاني المركوم وقوله تعالى (سحاب) اى غيم غطى النجوم وحجب أنوارها صفة أخرى لبحر وقوله تعالى (ظلمات) أى من البحر والموجين والسحاب خبر مبتدأ مضمر تقديره هذه ظلمات أو تلك ظلمات ويجوز أن يكون ظلمات مبتدأ والجملة من قوله تعالى (بعضها فوق بعض) خبره قاله الحوفي (فان قيل) لا مسوغ للابتداء بهذه النكرة (أجيب) بانها موصوفة تقديره أى ظلمات كثيرة متكاثفة وقرأ البزى سحاب بلا تنوين وجر ظلمات وقنبل بتنوين سحاب وجر ظلمات والبزى جعل الموج المتراكم بمنزلة السحاب وأما قنبل فانه جعل ظلمات بدلا من ظلمات الاولى والباقون بتنوين سحاب وظلمات بالرفع فيهما (اذا أخرج) اى الكائن في هذا البحر بدلالة المعنى وان لم يجر له ذكر (يده) وهي أقرب ما يرى اليه في هذه الظلمات (لم يكد) أى الكائن فيه (يراها) اى لم يقرب من رؤيتها فضلا عن أن يراها كقول ذي الرمة

اذا غير النأى (اى البعد وفى نسخة الهجر) المحبين لم يكد
رسيس الهوى (أى ثابته بمعنى الهوى الثابت) من حب مية يبرح

أى يزول والمعنى لم يقرب من البراح فضلا عن أن يبرح * (تنبيه) * فى كيفية هذا التشبيه وجوه أحدها قال الحسن ان الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمة ظلمة البحر وظلمة الامواج وظلمة السحاب كذا الكافر له ظلمات ثلاثة ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل ثانيها قال ابن عباس شبه قلبه وسمعه وبصره بهذه الظلمات الثلاث ثالثها أن الكافر لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى ويعتقد أنه يدرى فهذه المراتب الثلاثة تشبه تلك الظلمات الثلاث رابعها قلب مظلم فى صدر مظلم فى جسد مظلم خامسها ان هذه الظلمات متراكمة فكذا الكافر لشدة اصراره على كفره قد تراكمت عليه الضلالات حتى لو ذكر عنده أظهر الدلائل لم يفهمه * (ومن لم يجعل الله) أى الملك الاعظم (له نورا فما له من نور) قال ابن عباس من لم يجعل الله له دينا وايمانا فلا دين له وقيل من لم يهده الله فلا هادى له لانه تعالى قادر على ما يريده * ولما وصف تعالى أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد بقوله تعالى (ألم تر) أى تعلم علما يشبه المشاهدة فى اليقين والوثاقة بالوحى والاستدلال (أن الله) أى الحائز لصفات الكمال (يسبح له) أى ينزهه عن كل شائبة نقص (من فى السموات والارض) لان التسبيح لا يرى بالبصر بل يعلم بالقلب وهذا استفهام والمراد به التقرير والبيان وهذا التسبيح اما أن يكون المراد منه دلالة بخلق هذه الاشياء على كونه تعالى منزها عن النقائص موصوفا بنعوت الجلال أو يكون المراد منه فى حق البعض الدلالة على التنزيه وفى حق الباقين النطق باللسان قال الرازى والاول أقرب لان القسم الثانى متعذر لان فى الارض من لا يكون مكلفا لا يسبح بهذا المعنى والمكلفون منهم من لا يسبح أيضا بهذا المعنى كالكفار وأما القسم الثالث وهو أن يقال ان من فى السموات وهم الملائكة يسبحون باللسان وأما الذين فى الارض فمنهم من يسبح باللسان ومنهم من يسبح على لسان الدلالة فهذا يقتضى استعمال اللفظ الواحد فى الحقيقة والمجاز معا وهو غير جائز أى عند أكثر العلماء فلم يبق الا القسم الاول وهو أن هذه الاشياء مشتركة فى أن أجسامها وصفاتها دالة على تنزيه الله تعالى وقدرته والهيته وتوحيده وعدله فسمى ذلك تنزيها توسعا (فان قيل) فالتسبيح بهذا المعنى حاصل لجميع المخلوقات فما وجه تخصيصه ههنا بالعقلاء (أجيب) بان خلقة العقلاء أشد دلالة على وجود الصانع سبحانه وتعالى لان العجائب والغرائب فى خلقهم أكثر وهى العقل والنطق والفهم * ولما كان أمر الطير دلالته أعجب ولانها قد تكون بين السماء والارض فتكون خارجة عن حكم من فيهما خصها بالذكر من جملة الحيوان بقوله تعالى (والطير صافات) أى باسطات أجنحتها فى جو السماء لا شبهة فى أنه لا يمسكها الا الله تعالى وانما كانها فى الجو مع أنها أجرام ثقيلة واقدارها فيه على القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرته تعالى واختلف فى عود الضمائر فى قوله تعالى (كل) أى من المخلوقات (قد علم صلاته وتسبيحه) على قولين أحدهما أنها كلها عائدة على كل أى كل قد علم هو صلاة نفسه وتسبيحها قال ابن عادل وهذا أولى لتوافق الضمائر ثانيهما ان الضمير فى علم عائد الى الله تعالى

من العقلاء يعجزون عن أمثال تلك الحيل واذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يقال انها تسبح الله
تعالى وتثني عليه وان كانت غير عارفة بسائر الامور التي تعرفها الناس ويؤيد هذا قوله تعالى
ولكن لا تفقهون تسبيحهم وقوله صلى الله عليه وسلم ان نوحا عليه السلام أوصى بنيه عند موته
بلا اله الا الله فان السموات السبع والارضين السبع لو كن في حلقة لقصمتهن وسبحان
الله وبحمده فانها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء وقال الغزالي في الاحياء يروى أن رجلا جاء
الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال تولت عني الدنيا وقلت ذات يدي فقال له رسول الله صلى الله
عليه وسلم فاين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون قال فقلت وما هي
يا رسول الله فقال قل سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله مائة مرة ما بين طلوع
الفجر الى أن تصلي الصبح تأتيك الدنيا راغمة صاغرة ويخلق الله عز وجل من كل كلمة ملكا
يسبح الله الى يوم القيامة لك ثوابه ثم نبه سبحانه وتعالى بقوله (ولله ملك السموات والارض)
على أن الكل منه لان كل ما سواه ممكن ومحدث والممكن والمحدث لا يوجد الا عند الانتهاء
الى القديم الواجب الوجود ويدخل في هذا جميع الاجرام والاعراض وأفعال العباد
وأحوالهم وخواطرهم وفي قوله تعالى (والى الله) أي الذي له الاحاطة بكل شيء
(المصير) دليل على المعاد وأنه لا بد من مصير الكل اليه بعد الفناء والرؤية في قوله تعالى
(ألم تر) بصرية (أن الله) أي ذا الجلال والجمال (يزجي سحابا) أي يسوقه برفق بعد أن أنشأه
من العدم تارة من السفل وتارة من العلو ضعيفا رقيقا متفرقا قال أبو حيان وهو اسم
جنس واحده سحابة والمعنى يسوق سحابة الى سحابة وهو معنى قوله تعالى (ثم يؤلف بينه)
أي يجمع أجزاءه بعد أن كانت قطعا في جهات مختلفة فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة (ثم
يجعله ركاما) في غاية العظمة متراكبا بعضه على بعض بعد أن كان في غاية الرقة (فترى) أي في
تلك الحالة المستمرة (الودق) أي المطر (يخرج من خلاله) أي من فتوقه التي حدثت بالتراكم
وانعصار بعضه في بعض (فان قيل) بين انما تدخل على مثنى فما فوقه فلم دخلت هنا على
مفرد (أجيب) بان المراد بالسحاب الجنس فعاد الضمير على حكمه أو على حذف مضاف أي
بين أجزائه كما مر وبين قطعه فان كل قطعة سحابة وقرأ السوسي فترى في الوصل بالامالة بخلاف
عنه والباقون بالفتح وأما في الوقف فأبو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بالامالة
بين بين والباقون بالفتح (وينزل من السماء) أي من الغمام وكل ما علا فهو سماء (من جبال
فيها) أي في السماء وهي السحاب الذي صار بعد تراكمه كالجبال وقوله تعالى (من برد) بيان
للجبال والمفعول محذوف أي ينزل مبتدئا من السماء من جبال فيها من برد بردا فمن الاولى
لابتداء الغاية باتفاق والثانية للتبعيض والثالثة للبيان ويجوز أن تكون الثانية لابتداء الغاية
أيضا وهي ومجرورها بدل من الاولى باعادة العامل والتقدير وينزل من جبال أي من جبال فيها
فهو بدل اشتمال والاخيرة للتبعيض واقعة موقع المفعول (فان قيل) ما معنى من جبال فيها
من برد (أجيب) بان فيه معنيين أحدهما أن يخلق الله في السماء جبال برد كما خلق في الارض
جبال حجر وليس في العقل قاطع يمنعه الثاني أن يراد الكثرة بذكر الجبال كما يقال فلان يملك
جبالا من ذهب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون واخفائها عند الزاي وتخفيف الزاي

والباقون بفتح النون وتشديد الزاي ثم بين تعالى أن ذلك باختياره وإرادته بقوله تعالى (فيصيب
به) أي بكل من البرد والمطر على وجه النقمة أو الرحمة (من يشاء) أي من الناس وغيرهم
(ويصرفه عن من يشاء) صرفه عنه (فائدة) عن مقطوعة من من في الرسم ثم نبه تعالى على ما هو
غاية في العجب في ذلك بما في الماء من النور الذي ربما أرسل منه صاعقة فأحرقت ما لا تحرق النار
بقوله تعالى (يكاد) أي يقرب (سنا) أي ضوء (برقه) وهو اضطراب النور في خلاله (يذهب)
أي هو ملتبسا (بالأبصار) أي الناظرة له أي يخطفها لشدة لمعانه وتلألئه فتكون قوة البرق
دليلا على تكاثف السحاب وبشيرا بقوة المطر ونذيرا بنزول الصواعق واعلم أن البرق الذي
صفته كذلك لابد وأن يكون نارا عظيمة خالصة والنار ضد الماء والبرد فظهوره يقتضي ظهور
الضد من الضد وذلك لا يمكن إلا بقدرة قادر حكيم ثم ذكر تعالى ما هو أدل على الاختيار بقوله
تعالى مترجما لما يشمل ما مضى وزيادة (يقلب الله) أي الذي له الأمر كله بتحويل الظلام ضياء
والضياء ظلاما والنقص تارة والزيادة أخرى مع المطر تارة والصحو أخرى (الليل والنهار) فينشأ
عن ذلك التقلب من الحر والبرد والنمو والتذويب واليبس ما يبهر العقول ولهذا قال منبها على
النتيجة (إن في ذلك) الأمر العظيم الذي ذكر من جميع ما تقدم (لعبرة) أي دلالة على وجود
الصانع القديم وكمال قدرته وإحاطة علمه ونفاذ مشيئته وتنزيهه عن الحاجة وما يفضي إليها
(لأولي الأبصار) أي لأصحاب البصائر على قدرة الله تعالى وتوحيده ولما استدل تعالى أولا
بأحوال السماء والأرض وثانيا بالآثار العلوية استدل ثالثا بأحوال الحيوانات بقوله تعالى
(والله) أي الذي له العلم الكامل والقدرة الشاملة (خلق كل دابة) أي حيوان (من ماء) وقرأ
حمزة والكسائي بألف بعد الخاء وكسر اللام ورفع القاف وكسر لام كل والباقون بفتح اللام
والخاء ولا ألف بينهما ونصب لام كل (فإن قيل) كثير من الحيوانات لم يخلق من الماء كالملائكة
خلقوا من النور وهم أعظم الحيوانات عددا وكذا الجن وهم مخلوقون من النار وخلق
آدم من التراب كما قال تعالى خلقه من تراب وخلق عيسى من الريح كما قال تعالى فنفخنا
فيه من روحنا ونرى كثيرا من الحيوانات يتولد لا من نطفة (أجيب) بوجوه أحدها ما قال
القفال إن من ماء صلة كل دابة وليس هو من صلة خلق والمعنى أن كل دابة متولدة من الماء
فهي مخلوقة لله تعالى ثانيها أن أصل جميع المخلوقات من الماء على ما روي أن أول ما خلق الله
تعالى جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم قسم ذلك الماء فخلق منه النار والهواء
والنور والتراب والمقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة فكان أصل الخلقة الماء فلهذا
ذكره الله تعالى ثالثها المراد من الدابة التي تدب على وجه الأرض ومسكنهم هنالك فتخرج
الملائكة والجن رابعها لما كان الغالب من هذه الحيوانات كونها مخلوقة من الماء إما لأنها
متولدة من النطفة وإما لأنها لا تعيش إلا بالماء أطلق عليها لفظ كل تنزيلا للغالب منزلة الكل
(فإن قيل) لم نكر الماء في قوله تعالى من ماء وعرفه في قوله تعالى من الماء كل شيء حي (أجيب)
بأنه جاء هنا منكرا لأن المعنى خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بتلك الدابة وعرفه في قوله
تعالى من الماء كل شيء حي لأن المقصود هناك كونهم مخلوقين من هذا الجنس وههنا بين
أن ذلك الجنس ينقسم إلى أنواع كثيرة (فمنهم) أي الدواب (من يمشي على بطنه) كالحية

والحيتان والديدان واسم المشي للزحف على البطن كما قالوا في الامر المستمر قد مشى هذا
الامر ويقال فلان ما مشى له أمر أو هي بذلك للمشاكلة بذكر الزاحف مع الماشي (ومنهم من
يمشي على رجلين) اى فقط كالآدمي والطير (ومنهم من يمشي على أربع) اى من الايدي
والارجل كالنعم والوحش (فان قيل) لم حصر القسمة في هذه الثلاثة أنواع من المشي وقد
نجد من يمشي على أكثر من أربع كالعناكب والعقارب والحيوان الذي له أربع وأربعون
رجلا الذي يسمى دخال الاذن (أجيب) بان هذا القسم الذي لم يذكر كالنادر فكان ملحقا
بالعدم وقال النقاش انما اكتفى بذكر ما يمشي على أربع عن ذكر ما يمشي على أكثر من أربع
لان جميع الحيوان انما اعتماده على أربع وهي قوائم مشيه وكثرة الارجل لبعض الحيوان
زيادة في الخلقة لا يحتاج ذلك الحيوان في مشيه الى جميعها او بان قوله تعالى (يخلق الله ما يشاء)
كالتنبيه على سائر الاقسام (فان قيل) لم جاءت الاجناس الثلاثة على هذا الترتيب (أجيب)
بانه قدم ما هو أعرق في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم ثم الماشي
على رجلين ثم الماشي على أربع * (تنبيه) * انما أطلق من على غير العاقل لاختلاطه
بالعاقل في المفصل بمن وهو كل دابة وكان التعبير بمن أولى ليوافق اللفظ * ولما كانت هذه
الادلة ناظرة الى البعث أتم نظر وكانوا منكرين له أكد ذلك بقوله تعالى (ان الله) اى الذي
له الكمال المطلق (على كل شيء) من ذلك وغيره (قدير) لانه القادر على الكل والعالم بالكل
فهو المطلع على أحوال هذه الحيوانات فاى عقل يقف عليها وأي خاطر يصل الى ذرة من
أسرارها بل هو الذي يخلق ما يشاء كيف يشاء ولا يمنعه منه مانع * ولما اتضح بهذا ماله
تعالى من صفات الكمال والتنزه عن كل شائبة نقص وقامت أدلة الوحدانية على ساق
واتسقت براهين الالوهية اى اتساق قال تعالى مترجما لتلك الادلة (لقد أنزلنا) اى في هذه
السورة وما تقدمها بما لنا من العظمة (آيات) اى علامات من الحكم والاحكام والادلة
والامثال (مبينات) للحقائق بانواع الدلائل التي لا خفاء فيها (والله) اى الملك الاعظم (يهدي
من يشاء) من عباده (الى صراط) طريق (مستقيم) هو دين الاسلام الموصل الى دار الحق
والفوز بالجنة * ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد أتبعه بذم قوم اعترفوا بالدين بالسنتهم
ولكنهم لم يعملوا بقلوبهم فقال تعالى (ويقولون) اى الذين ذمهم الله تعالى (آمنا بالله) اى
الذي أوضح لنا جلاله وعظمته وكماله (وبالرسول) اى الذي علمنا كمال رسالته وعمومها بما أقام
عليها من الادلة (وأطعنا) اى وأوجدنا الطاعة لله ولرسوله ثم عظم المخالفة بين الفعل والقول
باداة البعد فقال تعالى (ثم يتولى) اى يرتد بانكار القلب ويعرض عن طاعة الله ورسوله ضلالا
منهم عن الحق (فريق منهم) اى ناس يقصدون الفرقة من هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة (من بعد
ذلك) اى القول السديد المؤكد مع الله الذي هو أكبر من كل شيء ومع رسوله الذي هو أشرف
الخلائق (وما أولئك) اى البعداء البغضاء الذين صاروا بتوليهم في محل البعد (بالمؤمنين)
اى المعهودين الموافقة قلوبهم السنتهم (فان قيل) انه تعالى حكى عن كلهم انهم يقولون آمنا
ثم حكى عن فريق منهم التولي فكيف يصح أن يقول في جميعهم وما أولئك بالمؤمنين مع أن

المتولي

المتولى فريق منهم (أجيب) بان قوله تعالى وما أولئك بالمؤمنين راجع الى الذين تولوا لا الى الجملة الاولى ولو رجع الى الجملة الاولى لصح و يكون معنى قوله تعالى ثم يتولى فريق منهم أى يرجع هذا الفريق الى الباقى فيظهر بعضهم لبعض الرجوع كما أظهروه بينهم ولما فضحهم بما أخفوه من نواياهم قبح عليهم ما أظهروه فقال تعالى معبرا باداة التحقيق (واذا دعوا) أى الفريق الذين ادعوا الايمان من أى داع كان (الى الله) أى الى ما نصب الملك الاعظم من أحكامه (ورسوله) وأفرد الضمير فى قوله تعالى (ليحكم) وقد تقدمه اسمان وهما الله ورسوله فهو كقوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه لان حكم رسوله هو حكمه قال الزمخشرى كقولك أعجبنى زيد وكرمه تريد كرم زيد ومنه قوله

ومنهل من الفلا فى أوسطه * غلسته قبل القطا وفرطه

أى قبل فرط القطا (بينهم) أى بما أراه الله (اذا فريق منهم) أى ناس مجبولون على الاذى (معرضون) أى فاجؤا الاعراض اذا كان الحق عليهم لعلمهم بانك لا تحكم لهم وهو شرح للتولى ومبالغة فيه (وان يكن لهم) أى على سبيل الفرض (الحق) أى بلا شبهة (يأتوا اليه) أى الرسول (مذعنين) أى منقادين لعلمهم بانه يحكم لهم لانهم يعلمون أنه دائر مع الحق لهم وعليهم فليس انقيادهم لطاعة الله ورسوله * (تنبيه) * قوله تعالى اليه يجوز تعليقه بيأتوا لان أتى وجاء قد يتعديان بالى ويجوز أن يتعلق بمذعنين لانه بمعنى مسرعين فى الطاعة وصححه الزمخشرى قال لتقدم صلته ودلالته على الاختصاص ومذعنين حال ثم قسم تعالى الامر فى عدولهم عن حكومته صلى الله عليه وسلم اذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب بقوله تعالى (أفى قلوبهم مرض) أى نوع فساد من أصل الفطرة يحملهم على الضلال أو مرتابين فى نبوته بقوله تعالى (أم ارتابوا) أى أن رأوا منك تهمة فزالت ثقتهم و يقينهم بك أو خائفين الحيف فى قضائه بقوله تعالى (أم يخافون أن يحيف) أى يجور (الله) أى الغنى عن كل شئ لان له كل شئ (عليهم ورسوله) أى الذى لا ينطق عن الهوى * ثم أضرب عن القسمين الاخيرين لتحقيق القسم الاول بقوله تعالى (بل أولئك) أى البعداء البغضاء (هم الظالمون) أى الكاملون فى الظلم ووجه التقسيم أن امتناعهم اما لخلل فيهم أو فى الحاكم والثانى اما أن يكون محققا عندهم أو متوقعا وكل منهما باطل لان منصب نبوته وفرط أمانته تمنعه فتعين الاول وظلمهم يعم خلل عقيدتهم وميل نفوسهم الى الحيف والفصل لنفى ذلك عن غيرهم (فان قيل) اذا خافوا أن يحيف الله عليهم ورسوله فقد ارتابوا فى الدين واذا ارتابوا ففى قلوبهم مرض والكل واحد فاى فائدة فى التعديد (أجيب) بان قوله تعالى فى قلوبهم مرض اشارة الى النفاق وقوله تعالى أم ارتابوا اشارة الى أنهم بلغوا فى حب الدنيا الى حيث يتركون الدين بسببه (فان قيل) هذه الثلاثة متغايرة ولكنها متلازمة فكيف أدخل عليها كلمة أم (أجيب) بانه تعالى نبههم على كل واحد من هذه الاوصاف فكان فى قلوبهم مرض وهو النفاق وكان فيهم شك وارتياب وكانوا يخافون الحيف من الرسول وكل واحد من ذلك كفر ونفاق واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل نزلت فى بشر المنافق وكان قد خاصم يهوديا فى أرض فقال اليهودى نتحاكم الى محمد صلى الله عليه وسلم وقال المنافق نتحاكم الى كعب بن الاشرف فان محمدا

يحيف علينا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقد مضت قصتها في سورة النساء وقال الضحاك نزلت
في المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي رضي الله تعالى عنه أرض فتقاسما فوقع الى علي ما لا
يصيبه الماء الا بمشقة فقال المغيرة بعني أرضك فباعه اياها وتقابضا فقيل للمغيرة أخذت سبخة
لا ينالها الماء فقال لعلي اقبض أرضك فانما اشتريتها ان رضيتها ولم أرضها فقال علي بل
اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك ودعاه الى ان يخاصمه الى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال المغيرة أما محمد فلا نأتيه ولا أحاكم اليه فانه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف
علي فنزلت الآية وقال الحسن نزلت في المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ويسرون الكفر
• ولما نفى تعالى عنهم الايمان الكامل بما وصفهم به كان كأنه سئل عن حال المؤمنين فقال تعالى
(انما كان) أي دائما (قول المؤمنين) أي العريقين في ذلك الوصف (اذا دعوا) أي من أي
داع كان (الى الله) أي الى ما أنزل الملك الذي لا كفء له من أحكامه (ورسوله) الذي لا ينطق
عن الهوى (ليحكم) أي الرسول (بينهم) بما أراه الله تعالى أي حكومة من الحكومات لهم
وعليهم (أن يقولوا سمعنا) أي الدعاء (وأطعنا) أي بالاجابة لقول رسوله صلى الله عليه وسلم
وهذا ليس على طريق الخبر ولكنه تعليم أدب الشرع بمعنى ان المؤمنين ينبغي أن يكونوا
هكذا (وأولئك) أي العالو الرتبة (هم المفلحون) الذين وصفهم الله تعالى في أول المؤمنين
وهذا يدل على عادته تعالى في اتباع ذكر المحق المبطل والتنبيه على ما ينبغي بعد انكاره
لما لا ينبغي ولما رتب تعالى الفلاح على هذا النوع الخاص أتبعه عموم الطاعة بقوله تعالى
(ومن يطع الله) أي الذي له الامر كله (ورسوله) أي في ما ساءه وسره (ويخش الله) أي فيما صدر
عنه من الذنوب في الماضي ليحمله ذلك الى كل خير (ويتقه) أي الله فيما بقي من عمره بأن يجعل
بينه وبين ما يسخطه وقاية من المباحات فيتركها ورعا (فأولئك) أي العالو الرتبة
(هم الفائزون) بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم وعن ابن
عباس في تفسير هذه الآية ومن يطع الله في فرائضه ورسوله في سننه ويخش الله على ما مضى من
ذنوبه ويتقه فيما يستقبل وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت عليه هذه الآية وقرأ
أبو عمرو وشعبة وخلاد ويتقه بسكون الهاء بخلاف عن خلاد وقالون باختلاس كسرة الهاء
وحفص بسكون القاف وقصر كسرة الهاء والباقون وخلاد في أحد وجهيه باشباع كسرة
الهاء • ولما ذكر تعالى ما رتب على الطاعة الظاهرة التي هي دليل الانقياد الباطن ذكر حال
المنافقين بقوله تعالى (وأقسموا بالله) أي الذي له الكمال المطلق وقوله تعالى (جهد أيمانهم)
جهد اليمين مستعار من جهد نفسه اذا بلغ أقصى وسعها وذلك اذا بالغ في اليمين وبلغ غاية
شدتها ووكادتها وعن ابن عباس من قال بالله فقد بالغ في اليمين وبلغ غاية شدتها (لئن أمرتهم)
أي أمر من الامور (ليخرجن) مما هم متلبسون به من خلافه كائنا ما كان وذلك ان المنافقين
كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا
ولئن أقمت أقمنا وان أمرتنا بالجهاد جاهدنا فقال الله تعالى (قل) أي لهم (لا تقسموا) أي
لا تحلفوا فان العلم بما أنتم عليه لا يحتاج الى الاقسام وههنا قد تم الكلام ولو كان قسمهم
صادقا لما نهوا عنه لان من حلف على القيام بالبر لا ينهى عنه فثبت أن قسمهم كان لنفاقهم

وكان باطنهم يخالف ظاهرهم ومن نوى الغدر لا الوفاء فقسمه قبيح قال المتنبي

وفي اليمين على ما أنت واعده ... ما دل أنك في الميعاد متهم

وفي رفع قوله تعالى (طاعة معروفة) ثلاثة أوجه أحدها أنه خبر مبتدأ مضمر تقديره أمرنا طاعة أو المطلوب طاعة ثانيها أنه مبتدأ والخبر محذوف أي أمثل أو أولى أو خير أي طاعة معروفة للنبي صلى الله عليه وسلم خير من قسمكم الذي لا تصدقون فيه ثالثها طاعة مبتدأ أي هذه الحقيقة ومعروفة هو الخبر أي معروفة منكم ومن غيركم وإرادة الحقيقة هو الذي سوغ الابتداء بها مع تنكير لفظها إلا أن العموم الذي تصلح له قد خصص بإرادة الحقيقة كما قالوه في أعرف المعارف والمعنى أن الطاعة وإن اجتهد العبد في إخفائها لا بد أن تظهر مخايلها على شمائله وكذا المعصية لأنه ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها رواه الطبراني عن عثمان وعن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال لو أن رجلا دخل بيتا في جوف بيت فأدمن هناك عملا أوشك الناس أن يتحدثوا به وما من عامل عمل عملا إلا كساه الله رداء عمله إن كان خيرا فخير وإن كان شرا فشر وعن سعيد لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائنا من كان (إن الله) أي الذي له الإحاطة بكل شيء (خبير بما تعملون) أي لا يخفى عليه شيء من سرائركم فإنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم ٭ ولما نبه تعالى على خداعهم وأشار إلى عدم الاغترار بأيمانهم أمر بترغيبهم وترهيبهم مشيرا إلى الإعراض عن عقوبتهم بقوله تعالى (قل) أي لهم (أطيعوا الله) أي الذي له الكمال المطلق (وأطيعوا الرسول) أي الذي له الرسالة المطلقة ظاهرا وباطنا وقوله تعالى (فإن تولوا) أي عن طاعته فيه حذف إحدى التاءين خطاب لهم أي فإن تتولوا فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم (فإنما عليه) أي محمد صلى الله عليه وسلم (ما حمل) أي ما حمله الله تعالى من أداء الرسالة وإذا أدى فقد خرج من عهدة التكليف (وعليكم) أي وأما أنتم فعليكم (ما حملتم) أي ما كلفتم من التلقي بالقبول والإذعان فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم أنفسكم لسخط الله وعذابه وإن أطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة إلى الهدى فالنفع والضر عائد إليكم (وإن تطيعوه) بالإقبال على كل ما يأمركم به (تهتدوا) أي إلى كل خير (وما على الرسول) أي من جهة غيره (إلا البلاغ) أي وما الرسول إلا ناصح وهاد وما عليه إلا أن يبلغ ما له نفع في قبولكم ولا عليه ضرر في توليكم والبلاغ بمعنى التبليغ كالأداء بمعنى التأدية ومعنى (المبين) كونه مقرونا بالآيات والمعجزات وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال على المنبر من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب وقال أبو أمامة الباهلي عليكم بالسواد الأعظم فقال رجل ما السواد الأعظم فنادى أبو أمامة هذه الآية في سورة النور فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وقوله تعالى (وعد الله) أي الذي له الإحاطة بكل شيء (الذين آمنوا منكم وعملوا) أي تصديقا لإيمانهم (الصالحات) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللأمة أو له ولمن معه ومن للبيان ثم أكد غاية التأكيد بلام القسم لما عند أكثر الناس من الريب في ذلك بقوله تعالى (ليستخلفنهم في الأرض) أي أرض العرب والعجم بأن يديم زمانهم وينفذ أحكامهم فيجعلهم

متصرفين في الارض تصرف الملوك في مماليكهم (كما استخلف الذين من قبلهم) أي من الامم من بني اسرائيل وغيرهم من كل من حصلت له مكنة وظفر على الاعداء بعد الضعف الشديد كما كتب في الزبور ان الارض يرثها عبادي الصالحون وكما قال موسى عليه السلام ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقرأ أبو بكر بضم التاء الفوقية وكسر اللام والباقون بفتح التاء واللام (وليمكنن لهم) أي في الباطن والظاهر (دينهم الذي ارتضى لهم) وهو دين الاسلام وتمكينه تثبيته وتوطيده واضافه اليهم اشارة الى رسوخ أقدامهم فيه وانه الذي لا ينسخ ولما بشرهم بالتمكين أشار لهم الى مقداره بقوله تعالى (وليبدلنهم من بعد خوفهم) أي الذي كانوا عليه (أمنا) وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فقال صلى الله عليه وسلم لا تصبرون الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملا العظيم محتبيا ليس فيه حديدة وأنجز الله تعالى وعده وأظفرهم على جزيرة العرب وافتتحوا بعض بلاد المشرق والمغرب ومزقوا ملك الاكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا واستعبدوا أبناء القياصرة وتمكنوا شرقا وغربا مكنة لم تحصل قبلهم لامة من الامم كما قال صلى الله عليه وسلم ان الله زوى لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها ولما قتلوا عثمان رضي الله عنه وخرجوا على علي ثم ابنه الحسن نزع الله ذلك الامر كما أشير اليه من وتنكر أمنا وجاء الخوف واستمر يتطاول ويزداد قليلا قليلا الى ان صار في زماننا هذا الى أمر عظيم وذلك تصديق لقوله عليه أفضل الصلاة والسلام الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يملك الله من يشاء فتصير ملكا ثم تصير بزيزى قطع سبيل وسفك دماء وأخذ أموال بغير حقها والثلاثون خلافة أبي بكر سنتان وخلافة عمر عشر وخلافة عثمان اثنتا عشرة وخلافة علي ستة والبزيزى بكسر الباء وتشديد الزاي الاولى والقصر السلب والتغلب وقوله قطع سبيل نصب اما عطف بيان لقوله بزيزى أو بدل منه وقرأ ابن كثير وأبو بكر بسكون الباء الموحدة وتخفيف الدال والباقون بفتح الموحدة وتشديد الدال ثم اتبع ذلك بنتيجته بقوله تعالى تعليلا للتمكين وما معه (يعبدونني) أي وحدي وقوله تعالى (لا يشركون بي شيأ) حال من الواو أي يعبدونني غير مشركين (فان قيل) فما محل يعبدونني (أجيب) بانه مستأنف لا محل له كأن قائلا قال ما لهم مستخلفين ويؤمنون فقال يعبدونني ويجوز أن يكون حالا عن وعدهم أي وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم واخلاصهم فمحله النصب ولما كان التقدير فمن ثبت على دين الاسلام وانقاد لاحكامه واستقام نال هذه البشرى عطف عليه قوله تعالى (ومن كفر) أي ارتد وكفر هذه النعمة (بعد ذلك) أي بعد الوعد أو الخلافة (فاولئك) أي البعداء من الخير (هم الفاسقون) أي الخارجون عن الدين خروجا كاملا لا يقبل معه معذرة ولا يقال لصاحبه عثرة بل تقام عليهم الاحكام بالقتل وغيره ولا يراعى منهم ملام ولا تأخذهم رأفة عند انتقام كما تقدم أول السورة فيمن لزمه الجلد وقيل المراد بالكفر كفران النعمة لا الكفر بالله وقوله تعالى فاولئك هم الفاسقون أي العاصون لله وقوله تعالى

(واقيموا

(وأقيموا الصلوة) اى فانها قوام ما بينكم وبين ربكم معطوف على أطيعوا الله وأطيعوا الرسول قال الزمخشرى وليس يبعد ان يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وان طال لان حق المعطوف ان يكون غير المعطوف عليه (وآتوا الزكوة) فانها انتظام ما بينكم وبين اخوانكم (وأطيعوا الرسول) اى فى كل حال يأمركم به وكررت طاعة الرسول تأكيدا لوجوبها (لعلكم ترحمون) اى لتكونوا على رجاء من الرحمة ممن لا راحم فى الحقيقة غيره والفاعل فى قوله تعالى (لا تحسبن) ضمير المخاطب اى لا تحسبن أيها المخاطب (الذين كفروا) اى وان ازدادت كثرتهم على العدو وتجاوزت عظمتهم الحد (معجزين) اى لاهل ودنا وقيل لنا (فى الارض) اى فانهم مأخوذون لا محالة وقرأ ابن عامر وحمزة بالياء على الغيبة قال النحاس ما علمت أحدا من أهل العربية بصريا ولا كوفيا الا وهو يلحن قراءة حمزة فنهم من يقول هى لحن لانه لم يأت الا بمفعول واحد ليحسبن وأجيب عن ذلك من وجهين أحدهما ان المفعول الاول محذوف تقديره ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين الا ان حذف أحد المفعولين ضعيف عند البصريين ومنه قول عنترة

وأقد نزلت فلا تظنى غيره • منى بمنزلة المحب المكرم

اى فلا تظنى غيره واقعا والثانى ان المفعولين هما قوله معجزين فى الارض قاله الكوفيون وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب وفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة وكسرها الباقون وقوله تعالى (ومأواهم النار) أى مسكنهم معطوف على لا يحسبن الذين كفروا معجزين كانه قيل الذين كفروا لا يفوتون أهل ودنا أولا يفوتونا ومأواهم النار والمراد بهم المقسمون عليه بالله جهد أيمانهم ولما كانت سكنى الشئ لا تكون الا بعد المصير اليه قال تعالى (ولبئس المصير) اى المرجع مصيرها فكيف اذا كان على وجه السكنى واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) الآية فقال ابن عباس وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاما من الانصار يقال له مدلج بن عمرو الى عمر رضى الله تعالى عنه وقت الظهيرة ليدعوه فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك فنزلت وقال مقاتل نزلت فى أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير فدخل عليها فى وقت فكرهته فاتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فنزلت واللام فى ليستأذنكم للامر وملك اليمين يشمل العبيد والاماء قال بعض المفسرين هذا الخطاب وان كان ظاهره للرجال فالمراد به الرجال والنساء لان التذكير يغلب على التأنيث قال الرازى والاولى عندى ان الحكم ثابت فى النساء بقياس جلى لان النساء فى باب العورة أشد حالا من الرجال فهو كتحريم الضرب بالقياس على حرمة التأفيف وقال ابن عباس هى فى الرجال والنساء اى البالغين أومن قاربوا البلوغ يستأذنون على كل حال فى الليل والنهار اذا دخول عليكم كراهة الاطلاع على عوراتكم والتطرق بذلك الى مساءتكم واختلف العلماء فى هذا الامر فقيل الندب وقيل للوجوب واستظهر (والذين) أى وليستأذنكم الذين ظهروا على عورات النساء ولكنهم (لم يبلغوا الحلم) وقيده بقوله تعالى (منكم) ليخرج الكفار والارقاء وعبر عن البلوغ بالاحتلام لانه أقوى دلائله (ثلاث مرات) فى اليوم والليلة وقيل ثلاث

الاستئذانات في كل مرة فان لم يحصل الاذن رجع المستأذن كما تقدم المرة الاولى من الاوقات الثلاث (من قبل صلاة الفجر) لانه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم (و) المرة الثانية (حين تضعون ثيابكم) أى التى للخروج بين الناس (من الظهيرة) أى شدة الحر وهو انتصاف النهار (و) المرة الثالثة (من بعد صلاة العشاء) لانه وقت الانفصال من ثياب اليقظة والاتصال بثياب النوم وخص هذه الاوقات لانها ساعات الخلوة ووضع الثياب والالتحاف باللحاف وأثبت من فى الموضعين دلالة على قرب الزمن من الوقت المذكور لضبطه واسقطها فى الاوسط دلالة على استغراقه لانه غير منضبط ثم علل ذلك بقوله تعالى (ثلاث عورات) اى اختلالات فى التستر والتحفظ (لكم) لانها ساعات وضع الثياب والخلوة قال البيضاوى وأصل العورة الخلل ومنها اعور المكان ورجل أعور اذا بدا فيه خلل انتهى وسميت هذه الاوقات عورات لان الانسان يضع فيها ثيابه فربما تبدو عورته وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى فى الوصل ثلاث بالنصب بتقدير أوقات منصوبا بدلا من محل ما قبله قام المضاف اليه مقامه والباقون بالرفع على انها خبر مبتدا مقدر بعده مضاف وقام المضاف اليه مقامه اى هى أوقات ويجوز ان يكون مبتدأ وخبره ما بعده * ثم بين سبحانه وتعالى حكم ما عدا ذلك بقوله تعالى مستأنفا (ليس عليكم) اى فى ترك الامر (ولا عليهم) اى المماليك والصبيان فى ترك الاستئذان (جناح) اى اثم وأصله الميل فى الدخول عليكم فى جميع الساعات (بعدهن) اى بعد هذه الاوقات الثلاثة اذا هجموا عليكم ثم علل الاباحة فى غيرها مخرجا لغيرهم بقوله تعالى (طوافون عليكم) أى لعمل ما تحتاجون فى الخدمة كما أنتم طوافون عليهم لعمل ما يصلحهم ويصلحكم فى الاستخدام (بعضكم) طواف (على بعض) لعمل ما يعجز عنه الآخر أو يشق عليه فلو عم الامر بالاستئذان لادى الى الحرج (فان قيل) بم رفع بعضكم على بعض (أجيب) بانه رفع بالابتداء وخبره على بعض أى طواف على بعض وحذف لان طوافون يدل عليه ويجوز أن يرتفع بيطوف مضمرا لتلك الدلالة (كذلك) أى كما بين ما ذكر (يبين الله) أى بما له من احاطة العلم والقدرة (لكم) أيتها الامة (الآيات) فى الاحكام وغيرها بعلمه وحكمته (والله) أى الذى له الاحاطة العامة بكل شئ (عليم) بكل شئ (حكيم) فيما يريده فلا يقدر أحد على نقضه وختم الآية بهذا الوصف يدل على انها محكمة لم تنسخ واختلف فى ذلك فقال الزمخشرى عن ابن عباس انه قال آية لا يؤمن بها أكثر الناس آية الاذن وانى لآمر جاريتى أى زوجتى ان تستأذن على وسأله عطاء أأستأذن على اختى قال نعم وان كانت فى حجرك تمونها وتلا هذه الآية وعنه ثلاث آيات جحدهن الناس الاذن كله وقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم فقال الناس أعظمكم بيتا وقوله واذا حضر القسمة وعن ابن مسعود عليكم ان تستأذنوا على آبائكم وامهاتكم واخوانكم وعن الشعبى ليست منسوخة فقيل له ان الناس لا يعملون بها فقال الله المستعان وعن سعيد بن جبير ان الناس يقولون هى منسوخة والله ما هى منسوخة ولكن الناس تهاونوا بها وقال قوم هى منسوخة روى البغوى عن ابن عباس انه قال لم يكن للقوم ستور ولا حجاب فكان الخدم والولائد يدخلون فربما يرونهم على ما لا يحبون فامروا بالاستئذان وقد بسط الله الرزق واتخذ الناس الستور

فلعل الرواية اختلفت عن ابن عباس ❀ ولما بين تعالى حكم الصبيان والارقاء الذين هم أطوع الامر وأقبل لكل خير أتبعه حكم البالغين من الاحرار بقوله تعالى (واذا بلغ الاطفال منكم الحلم) أى اذا بلغ أطفالكم الاحرار بلوغ السن الذى يكون فيه انزال المنى سواء رأى منيا أم لا واختلف فى ذلك السن فقال عامة العلماء هو خمس عشرة سنة أى قرينة تحديدية لا فرق فى ذلك بين الذكر وغيره وقال أبو حنيفة ثمانى عشرة سنة فى الغلام وسبع عشرة سنة فى الجارية وعن على رضى الله عنه أنه تعتبر القامة وتقدر بخمسة أشبار وبه أخذ الفرزدق فى قوله

ما زال مذ عقدت يداه ازاره ❀ وسما فأدرك خمسة الاشبار

واعتبر غيره الانبات أى للعانة وعن عثمان رضى الله تعالى عنه أنه سأل عن غلام له فقال هل اخضر ازاره أى نبت شعر عانته فأسند الاخضرار الى الازار على المجاز ولانه مما اشتمل عليه الازار ونبات العانة الخشن عندنا علامة على بلوغ ولد الكافر فقط أما اذا رأى المنى فى وقت امكانه وهو استكمال تسع سنين قرينة فالحكم ببلوغه سواء كان ذكرا أم أنثى مسلما أم كافرا وأما الخنثى فلا بد ان يمنى من فرجيه أو يحيض بالفرج ويمنى من الذكر (فليستأذنوا) اى على غيرهم فى جميع الاوقات (كما استأذن الذين من قبلهم) اى ممن الاحرار الكبار الذين جعلوا قسيما للمماليك فلا يدخل فى ذلك الارقاء فلا يستدل بذلك على أن العبد البالغ يستأذن على سيدته وقيل المراد الذين كانوا مع ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام (كذلك) أى كما بين لكم ما ذكر (يبين الله) أى الذى له الاحاطة والقدرة (لكم) أيتها الامة (آياته) أى دلالاته (والله) أى الذى يعلم السر وأخفى (عليم) اى باحوال خلقه (حكيم) أى فيما دبر لهم قال سعيد بن المسيب يستأذن الرجل على أمه فانما أنزلت هذه الآية فى ذلك وسئل حذيفة أيستأذن الرجل على والدته فقال نعم ان لم تفعل رأيت منها ما تكره وعن أنس قال لما كانت صبيحة يوم احتلمت دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته انى قد احتلمت فقال لا تدخل على النساء فما أتى على يوم كان أشد منه ❀ ولما ذكر تعالى اقبال الشباب فى تعيين حكم الحجاب أتبعه الحكم عند ادبار الشباب فى اتقاء الظاهر من الثياب بقوله تعالى (والقواعد من النساء) أى اللاتى قعدن عن الولد والحيض من الكبر فلا يلدن ولا يحضن واحدتهن قاعد بلا هاء وقيل قعدن عن الازواج وهو معنى قوله (اللاتى لا يرجون نكاحا) اى لا يردن الرجال لكبرهن قال ابن قتيبة سميت المرأة قاعدا اذا كبرت لانها تكثر القعود وقال ربيعة هن العجز اللواتى اذا رآهن الرجل استقذرهن فأما من كان فيها بقية من جمال وهى محل الشهوة فلا تدخل فى هذه الآية (فليس عليهن جناح) أى حرج فى (أن يضعن ثيابهن) أى الظاهرة فوق الثياب الساترة بحضرة الرجال كالجلباب والرداء والقناع فوق الخمار أما الخمار فلا يجوز وضعه لما فيه من كشف العورة (غير متبرجات بزينة) أى من غير أن يردن بوضع الجلباب والرداء اظهار زينتهن ثم ان الزينة الخفية فى قوله تعالى ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو غير قاصدات بالوضع التبرج والتبرج هو ان تظهر المرأة محاسن ما ينبغى لها ان تستره ❀ ولما ذكر الله تعالى الجائز عقبه بالمستحب بعثا منه على اختيار أفضل الاعمال وأحسنها بقوله تعالى (وان يستعففن) اى فلا يلقين الرداء أو الجلباب (خير لهن) من الالقاء كقوله تعالى وان تعفوا أقرب للتقوى وأن تصدقوا خير لكم

أبعد عن التهمة (والله) أي الذي جلت عظمته (سميع) لقولكم (عليم) بما في قلوبكم
واختلف في سبب نزول قوله تعالى (ليس على الأعمى حرج) أي في مؤاكلة غيره (ولا على
الأعرج حرج ولا على المريض حرج) كذلك فقال ابن عباس لما أنزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا
لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعمي والعرج
وقالوا الطعام أفضل الأموال وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل والأعمى لا يبصر
موضع الطعام الطيب والأعرج لا يتمكن من الجلوس ولا يستطيع المزاحمة على الطعام
والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفي من الطعام حقه فأنزل الله تعالى هذه الآية وعلى هذا
تكون على بمعنى في أي ليس في الأعمى أي ليس عليكم في مؤاكلة الأعمى والأعرج والمريض
حرج وقال سعيد بن جبير والضحاك وغيرهما كان العرجان والعميان والمرضى يتنزهون
عن مؤاكلة الأصحاء لأن الناس يستقذرونهم ويكرهون مؤاكلتهم وعن عكرمة كانت
الأنصار في أنفسها قزازة فكانت لا تأكل من هذه البيوت إذا استغنوا وكان هؤلاء يقولون
الأعمى ربما أكل أكثر وربما سبقت يده إلى ما سبقت عين آكليه إليه وهو لا يشعر والأعرج
ربما أخذ في مجلسه مكان اثنين فيضيق على جليسه والمريض لا يخلو من رائحة تؤذي أو جرح
يبض أو نحو ذلك فنزلت وقال مجاهد نزلت الآية ترخيصا لهؤلاء في الأكل من بيوت من سمى
الله في هذه الآية وذلك أن هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام فإذا لم يكن عنده
ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيت أبيه وبيت أمه وبعض من سمى الله تعالى في هذه الآية فكان
أهل الزمانة يتحرجون من هذا الطعام ويقولون ذهب بنا إلى بيت غيره فنزلت الآية وقال
سعيد بن المسيب كان المسلمون إذا غزوا خلفوا زمناهم ويدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم
ويقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لا ندخلها
وهم غيب فأنزل الله تعالى هذه الآية رخصة لهم وقال الحسن نزلت رخصة لهؤلاء في التخلف
عن الجهاد وقال تم الكلام عند قوله تعالى ولا على المريض حرج وقوله تعالى (ولا على أنفسكم
أن تأكلوا من بيوتكم) كلام مستأنف منقطع عما قبله (فإن قيل) أي فائدة في إباحة أكل
الإنسان طعامه في بيته (أجيب) بأن المراد من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل
فيه بيوت الأولاد لأن بيت ولده كبيته قال صلى الله عليه وسلم أنت ومالك لأبيك وقال صلى الله
عليه وسلم إن أطيب ما يأكل المؤمن كسبه وإن ولده من كسبه وقيل لما أنزل قوله تعالى
ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل قالوا لا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد فأنزل الله تعالى
ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أي لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم (أو بيوت
آبائكم) أي وإن بعدت أنسابهم قال البقاعي ولعله جمع لذلك فإنها صارت كهو حرمتها حرمتكم
(أو بيوت أمهاتكم) كذلك وقدم الأب لأنه أجل وهو حاكم بيته دائما والمال له (أو بيوت
إخوانكم) أي من الأبوين أو الأب أو الأم بالنسب أو الرضاع فإنهم من أولى من رضي بذلك
بعد الوالدين لأنهم منكم وهم أولياء بيوتهم (أو بيوت أخواتكم) فإنهن بعدهم من أولى البيت
فإن كن مزوجات فلا بد من إذن الزوج (أو بيوت أعمامكم) فإنهم شقائق آبائكم سواء كانوا
أشقاء أو لأب أم لأم ولو أفرد العم لتوهم أنه الشقيق فقط فإنه أحق بالاسم (أو بيوت عماتكم)

قلبهن بعد الاعمام لضعفهن ولانهن ربما كان أولياء بيوتهن الازواج (أو بيوت أخوالكم) لانهم شقائق أمهاتكم (أو بيوت خالاتكم) أخرهن لما ذكر في العمات (أو ماملكتم مفاتحه) قال ابن عباس عني بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته لا بأس عليه ان يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته ولا يحمل ولا يدخر وملك المفاتح كونها في يده وحفظه وقال الضحاك يعني من بيوت عبيدكم ومماليككم لان السيد يملك منزل عبده والمفاتح الخزائن لقوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويجوز ان تكون الذي يفتح به وقال عكرمة اذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن فلا بأس ان يطعم الشيء اليسير وقال السدي الرجل يولي طعام غيره ويقوم عليه فلا بأس ان يأكل منه وقيل أو ماملكتم مفاتحه ما خزنتموه عندكم وقال مجاهد وقتادة من بيوت أنفسكم مما ادخرتم وملكتم (أو صديقكم) أي أو بيوت أصدقائكم والصديق هو الذي صدق في المودة ويكون واحدا وجمعا وكذا الخليط والقطين والعدو قال ابن عباس نزلت في الحرث بن عمرو وخرج غازيا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف مالك بن زيد على أهله فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال تحرجت أن آكل طعامك بغير اذنك فأنزل الله هذه الآية ويحكى عن الحسن انه دخل داره واذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالا من تحت سريره فيها الخبيص ولطائف الاطعمة وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت أسارير وجهه سرورا وضحك وقال هكذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ما شاء فاذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها سرورا بذلك وعن جعفر بن محمد من عظم حرمة الصديق ان جعله الله تعالى في الانس والثقة والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس والاب والابن والاخ وعن ابن عباس الصديق أكبر من الوالدين ان الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والامهات بل قالوا فما لنا من شافعين ولا صديق حميم والمعنى يجوز الاكل من بيوت من ذكر وان لم يحضروا اذا علم رضا صاحب البيت باذن أو قرينة ظاهرة الحال فان ذلك يقوم مقام الاذن الصريح ولذلك خص هؤلاء فانهم يعتادون التبسط بينهم وربما سمج الاستئذان وثقل كمن قدم اليه طعام فاستأذن صاحبه في الاكل منه (فان قيل) اذا كان ذلك لابد فيه من العلم بالرضا فحينئذ لا فرق بينهم وبين غيرهم (أجيب) بان هؤلاء يكفي فيهم أدنى قرينة بل ينبغي أن يشترط فيهم أن لا يعلم عدم الرضا بخلاف غيرهم لابد فيه من صريح الاذن أو قرينة قوية هذا ما ظهر لي ولم أر من تعرض لذلك وكان الحسن وقتادة يريان دخول الرجل بيت صديقه والاكل من طعامه بغير اذنه لهذه الآية واحتج أبو حنيفة بهذه الآية على ان من سرق من ذي رحم محرم أنه لا يقطع لان الله تعالى أباح لهم الاكل من بيوتهم ودخولها بغير اذنهم (فان قيل) فيلزم ان لا يقطع اذا سرق من مال صديقه (أجيب) بان من سرق من ماله لا يكون صديقا له وقيل ان هذا كان أول الاسلام ثم نسخ فلا دليل له فيه وقرأ بيوتكم وبيوت وبيوتا ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء الموحدة والباقون بالكسر وقرأ حمزة والكسائي امهاتكم في الوصل بكسر الهمزة والباقون بالضم وكسر الميم حمزة وفتحها الباقون ولما ذكر تعالى محل الاكل ذكر حاله بقوله تعالى (ليس عليكم جناح) أي اثم (ان تأكلوا جميعا) أي مجتمعين (أو أشتاتا) أي

متفرقين واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال الاكثرون نزلت فى بنى ليث بن عمرو من كنانة وكانوا يتحرجون ان يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظرا نهاره الى الليل فان لم يجد من يؤاكله أكل ضرورة وقال عطاء عن ابن عباس كان الغنى يدخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته فيدعوه الى طعامه فيقول والله انى لاجنح اى أتحرج ان آكل معك وأنا غنى وأنت فقير فنزلت هذه الآية وقال عكرمة وأبو صالح نزلت فى قوم من الانصار كانوا لا يأكلون اذا نزل بهم ضيف الامع ضيفهم فرخص لهم فى ان يأكلوا كيف شاؤا مجتمعين أو أشتاتا متفرقين وقال الكلبى كانوا اذا اجتمعوا ليأكلوا طعاما عزلوا للاعمى طعاما وحده وكذلك الزمن والمريض فبين الله تعالى لهم ان ذلك غير واجب وقيل تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس فى الاكل وزيادة بعضهم على بعض ✱(تنبيه)✱ جميعا حال من فاعل تأكلوا وأشتاتا عطف عليه وهو جمع شت وشتى جمع شتيت وشتان تثنية شت روى ان رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم انا نأكل ولا نشبع قال فلعلكم تأكلون متفرقين اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال كلوا جميعا ولا تفرقوا واذكروا اسم الله فان البركة مع الجماعة ✱ولما بين تعالى مواطن الاكل وكيفيته ذكر الحال التى عليها الداخل الى تلك المواطن اوغيرها بقوله تعالى (فاذا دخلتم) أى بسبب ذلك أو غيره (بيوتا) أى من هذه البيوت (فسلموا على أنفسكم) أى على أهلها الذين هم منكم دينا وقرابة جعل أنفس المؤمنين كالنفس الواحدة كقوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم وقال ابن عباس اذا لم يكن فى البيت أحد فليقل السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وقال قتادة اذا دخلت بيتك فسلم على أهلك فهم أحق بالسلام ممن سلمت عليهم واذا دخلت بيتا لا أحد فيه فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين حدثنا ان الملائكة ترد عليه (تحية من عند الله) اى ثابتة بامره مشروعة من لدنه (مباركة) اى لانه يرجى بها زيادة الخير والثواب (طيبة) اى تطيب بها نفس المستمع والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله ووصفها بالبركة والطيب لانها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله تعالى زيادة الخير وطيب الرزق وعن أنس قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين وقيل تسع سنين فما قال لى لشئ فعلته لم فعلته ولا قال لى لشئ تركته لم تركته وكنت واقفا على رأسه أصب الماء على يديه فرفع رأسه فقال ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها قلت بلى بأبى أنت وأمى يارسول الله قال متى لقيت من أمتى أحدا فسلم عليه يطل عمرك واذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الابرار الاوابين ✱(تنبيه)✱ تحية منصوب على المصدر من معنى فسلموا فهو من باب قعدت جلوسا فكانه قال فحيوا تحية وقال القفال وان كان فى البيت أهل الذمة فليقل السلام على من اتبع الهدى وكرر قوله تعالى (كذلك يبين الله) أى الذى أحاط علمه بكل شئ (لكم الآيات) ثالثا لمزيد التأكيد وتفخيم الاحكام المختتمة وفصل الاولين بما هو المقتضى لذلك وهذا بما هو المقصود منه فقال تعالى (لعلكم تعقلون) اى عن الله أمره ونهيه وأدبه ✱ولما كان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل

موطن

موطن تجب الاقامة فيه ويهجر ما عداه من الاوطان قال تعالى (انما المؤمنون) أى الكاملون في الايمان (الذين آمنوا بالله) أى الملك الاعلى (ورسوله) اى ظاهرا وباطنا (واذا كانوا معه) أى الرسول صلى الله عليه وسلم (على أمر جامع) اى يجمعهم من حرب حضرت أو صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور في أمر نزل ووصف الامر بالجمع للمبالغة أو من الاسناد المجازى لانه لما كان سببا في جمعهم نسب الفعل اليه مجازا (لم يذهبوا) أى يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له لعذر لهم (حتى يستأذنوه) قال الكلبي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض في خطبته بالمنافقين ويعيبهم فينظر المنافقون يمينا وشمالا فاذا لم يرهم أحد انسلوا وخرجوا ولم يصلوا وان أبصرهم أحد لبثوا وصلوا خوفا فنزلت هذه الآية فكان المؤمن بعد نزولها لا يخرج لحاجة حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المنافقون يخرجون بغير اذن قال مجاهد اذن الامام يوم الجمعة أن يشير بيده قال أهل العلم كذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الامام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه الا باذن وهذا اذا لم يكن سبب يمنعه من المقام فان حدث سبب يمنعه عن المقام كأن يكونوا في المسجد فتحيض منهم امرأة أو يجنب الرجل أو يعرض له مرض فلا يحتاج الى الاستئذان * ولما كان اعتبار الاذن كالمصدق لصحة كمال الايمان والمميز للمخلص فيه أعاده مؤكدا على أسلوب أبلغ بقوله تعالى (ان الذين يستأذنونك) اى تعظيما لك ورعاية للادب (أولئك) أى العالو الرتبة (الذين يؤمنون بالله) اى الذى له الامر كله (ورسوله) فانه يفيد أن المستأذن مؤمن لا محالة وان الذاهب بغير اذن ليس كذلك * ولما نص على الاستئذان تسبب عن ذلك اعلامه صلى الله عليه وسلم بما يفعل اذ ذاك بقوله تعالى (فاذا استأذنوك لبعض شأنهم) وهو ما تشتد الحاجة اليه (فأذن لمن شئت منهم) بالانصراف اى ان شئت فأذن وان شئت فلا تأذن ففي ذلك تفويض الامر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستدل به على أن بعض الاحكام مفوض الى رأيه قال الضحاك ومقاتل المراد عمر بن الخطاب وذلك انه استأذن في غزوة تبوك في الرجوع الى أهله فأذن له وقال انطلق فوالله ما أنت بمنافق يريد أن يسمع المنافقون ذلك الكلام فلما سمعوا ذلك قالوا ما بال محمد اذا استأذنه أصحابه أذن لهم واذا استأذناه أبى فوالله ما نراه يعدل قال ابن عباس ان عمر استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة فأذن له ثم قال يا أبا حفص لا تنسنا من صالح دعائك ولما كان في الاستئذان ولو لعذر قصور لان فيه تقديم الامر الدنيا على أمر الدين أمره الله تعالى بان يستغفر لهم بقوله تعالى (واستغفر لهم الله) اى الذى له الامر كله بعد الاذن ليكون ذلك شاملا لمن صحت دعواه وغيره ثم علل ذلك ترغيبا في الاستغفار وتطييبا القلوب أهل الاوزار بقوله تعالى (ان الله) اى الذى لا يخفى عليه شئ (غفور) اى لفرطات العباد (رحيم) اى بالستر عليهم * ولما ظهرت هذه السورة بعمومها وهذه الآيات بخصوصها من شرف الرسول صلى الله عليه وسلم ما بهر العقول صرح بتفخيم شأنه وتعظيم مقامه بقوله تعالى (لا تجعلوا) اى يا أيها الذين آمنوا (دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) قال سعيد بن جبير وجماعة معناه لا تنادوه باسمه فتقولوا يا محمد ولا بكنيته فتقولوا يا أبا القاسم بل نادوه وخاطبوه بالتوقير فقولوا يا رسول الله يا نبي الله وعلى هذا يكون المصدر مضافا للمفعول وقال المبرد والقفال لا تجعلوا دعاءه اياكم كدعاء بعضكم لبعض

ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور أخرجه أبو عبد الله في البيع في صحيحه
وأما قول البيضاوي تبعا للكشاف من قرأ سورة النور أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد
كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي فهو حديث موضوع

سورة الفرقان مكية

إلا قوله تعالى والذين لا يدعون مع الله إلها آخر إلى رحيما فمدني وآيها سبع وسبعون
آية وثمانمائة واثنان وسبعون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وسبعمائة وثمانون حرفا

(بسم الله) الذي له الحجة البالغة (الرحمن) الذي عم الخلق بنعمه (الرحيم) الذي وسعت رحمته
كل شيء (تبارك) قال الزجاج تفاعل من البركة وهي كثرة الخير وزيادته ومنه تبارك الله وفيه
معنى أن تزايد خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله وعن ابن عباس
كان معناه جاء بكل بركة وخير وقال الضحاك تبارك تعاظم ولا يستعمل إلا لله تعالى ولا
يتصرف فيه ثم وصف ذاته لشريف صفته بما يدل على ذلك بقوله تعالى (الذي نزل الفرقان) أي
القرآن والفرقان مصدر فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما وسمي به القرآن لفصله بين الحق
والباطل ولأنه لم ينزل جملة واحدة ولكن مفروقا مفصولا بين بعضه وبعض في الإنزال ألا ترى
قوله تعالى وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث (على عبده) أي محمد صلى الله عليه وسلم
وأضافه إلى نفسه إضافة تشريف وفي عود ضمير (ليكون) ثلاثة أوجه أحدها أنه يعود على
الذي نزل أي ليكون الذي نزل الفرقان نذيرا الثاني أنه يعود على الفرقان أي ليكون الفرقان
نذيرا وأضاف الإنذار إليه كما أضاف الهداية إليه في قوله تعالى إن هذا القرآن يهدي للتي هي
أقوم قال ابن عادل وهو بعيد لأن المنذر والنذير من صفات الفاعل المخوف ووصف القرآن به
مجاز وحمل الكلام على الحقيقة أولى الثالث أنه يعود على عبده أي ليكون عبده محمد صلى الله
عليه وسلم (للعالمين نذيرا) أي وبشيرا وهذا أحسن الوجوه معنى وصناعة لقربه مما يعود عليه
والضمير يعود على أقرب مذكور وللعالمين متعلق بنذيرا وإنما قدم لأجل الفواصل ونذيرا بمعنى
منذر أي مخوف ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الإنذار كالنكير بمعنى الإنكار ومنه قوله تعالى
فكيف كان عذابي ونذر * (تنبيه) * المراد بالعالمين قال البقاعي أي المكلفين كلهم من الجن
والإنس والملائكة اهـ ولكن في إرساله للملائكة خلاف بين العلماء فقد نقل الجلال المحلي
في شرحه على جمع الجوامع الإجماع على أنه لم يرسل إليهم وغيره صرح بأنه أرسل إليهم ومن حفظ
حجة على من لم يحفظ (فإن قيل) قوله تعالى تبارك يدل على كثرة الخير والبركة فالمذكور عقبه
لا بد وأن يكون مبينا لكثرة الخير والمنافع والإنذار يوجب الغم والخوف فكيف يليق ذكره
بهذا الموضع (أجيب) بأن الإنذار يجري مجرى تأديب الوالد (1) كما أنه كلما كانت المبالغة في
تأديب الوالد أكثر كان رجوع الخلق إلى الله تعالى أكثر وكانت السعادة الأخروية أتم وأكثر
وهذا كالتنبيه على أنه لا التفات إلى المنافع العاجلة لأنه تعالى لما وصف نفسه أن يعطي الخيرات
الكثيرة لم يذكر إلا منافع الدين ولم يذكر منافع الدنيا البتة وقوله تعالى (الذي له ملك السموات
والأرض) إشارة إلى احتياج هذه المخلوقات إليه سبحانه وتعالى حال حدوثها وأنه تعالى

* (سورة الفرقان) *
(قوله تبارك) هذه كلمة لا تستعمل إلا لله بلفظ الماضي وذكرت في هذه

(1) قوله كما أنه الخ كذا في النسخ ولا يخفى ما فيه والذي يستفاد من أطرافه أن يقال فالولد كلما بالغ والده في تأديبه كان رجوعه إليه أكثر وأتم لسعادته وكذلك الخلق كلما بالغ خالقهم في إنذارهم كان رجوعهم إليه أكثر وأتم لسعادتهم الأخروية اهـ

هو المتصرف فيها كيف يشاء فلا انكار أن يرسل رسولا الى كل من فيها • (تنبيه) • يجوز في الذي الرفع نعتا للذي الاول أو بيانا أو بدلا أو خبر المبتدا المحذوف والنصب على المدح وما بعده يدل على أنه من تمام الصلة فليس أجنبيا فلا يضر الفصل به بين الموصول الاول والثاني اذا جعلنا الثاني تابعا له (ولم يتخذ ولدا) اى هو الفرد أبدا ولا يصح أن يكون غيره تعالى معبودا ووارثا للملك عنه وهذا رد على النصارى (ولم يكن له شريك في الملك) اى هو المنفرد بالالوهية واذا عرف العبد ذلك انقطع رجاؤه عن كل من سواه تعالى ولم يشتغل قلبه الا برحمته واحسانه وفيه رد على الوثنية القائلين بعبادة النجوم والاوثان • ولما نفى تعالى الشريك فكأن قائلا يقول ههنا أقوام يعترفون بنفي الشريك والشركاء والانداد ومع ذلك يقولون بخلق أفعال أنفسهم فرد الله تعالى عليهم بقوله (وخلق كل شئ) اى من شأنه أن يخلق ومنه افعال العباد والخلق هنا بمعنى الاحداث اى احدث كل شئ احداثا مراعى فيه التقدير والتسوية (فقدره تقديرا) اى هيأه لما يصلح له مثاله أنه خلق الانسان على هذا الشكل المقدر الذي تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة وسمى احداث الله خلقا لانه لا يحدث شيأ لحكمة الا على وجه التقدير من غير تفاوت فاذا قيل خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك أحدث وأوجد من غير نظر الى وجه الاشتقاق فكأنه قيل وأوجد كل شئ فقدره تقديرا في ايجاده ولم يوجده متفاوتا ولو حمل خلق كل شئ على معناه الاصلي من التقدير لصار الكلام وقدر كل شئ فقدره فلم يصر له كبير فائدة وقيل فجعل له غاية ومنتهى ومعناه فقدره للبقاء الى أمد معلوم واختلف في عود الضمير في قوله تعالى (واتخذوا من دونه) اى الله تعالى اى غيره (آلهة) على ثلاثة اوجه أحدها أنه يعود على الكفار الذين تضمنهم لفظ العالمين ثانيها أنه يعود على من ادعى لله شريكا وولدا لدلالة قوله تعالى ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ثالثها انه يعود على المنذرين لدلالة نذيرا عليهم • ولما وصف نفسه سبحانه وتعالى بصفات الجلال والعزة والعلو أردفه بتزييف مذهب من يعبد غيره من وجوه منها أنها ليست خالقة للاشياء بقوله تعالى (لا يخلقون شيأ) والاله يجب أن يكون قادرا على الخلق والايجاد ومنها أنها مخلوقة بقوله تعالى (وهم يخلقون) والمخلوق محتاج والاله يجب أن يكون غنيا وغلب العقلاء على غيرهم لان الكفار كانوا يعبدون العقلاء كعزير والمسيح والملائكة وغيرهم كالكواكب والاصنام التي ينحتونها ويصورونها ومنها أنها لا تملك لانفسها ضرا ولا نفعا بقوله تعالى (ولا يملكون) اى لا يستطيعون (لانفسهم ضرا) اى دفعه (ولا نفعا) اى جلبه ومن كان كذلك فليس باله ومنها انها لا تقدر على موت ولا حياة ولا نشور بقوله تعالى (ولا يملكون موتا ولا حياة) اى اماتة لاحد واحياء لاحد (ولا نشورا) اى بعثا للاموات فيجب أن يكون المعبود قادرا على ايصال الثواب الى المطيعين والعقاب الى العصاة فمن لا يكون كذلك يجب أن لا يصلح للالهية • (تنبيه) • احتج أهل السنة بقوله تعالى لا يخلقون شيأ على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى لانه تعالى عاب هؤلاء الكفار من حيث عبدوا ما لا يخلق شيأ وذلك يدل على أن من خلق يستحق أن

السورة في ثلاثة مواضع تعظيما لله تعالى وخصت مواضعها بذكره العظيم ثم بعدها الاول ذكر الفرقان

يعبد فلو كان العبد خالقا لكان معبودا الها ولما تكلم تعالى أولا على التوحيد وثانيا في الرد على عبدة غيره تكلم ثالثا في مسئلة النبوة وحكى شبه الكفار في انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم * الشبهة الاولى قوله تعالى (وقال الذين كفروا) اى مظهر والوصف الذي حملهم على هذا القول وهو ستر ما ظهر لهم ولغيرهم كالشمس والاجتهاد في اخفائه (ان) اى ما (هذا) اى القرآن (الا افك) اى كذب مصروف عن وجهه (افتراه) اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم (وأعانه عليه) أى القرآن (قوم آخرون) اى من غير قومه وهم اليهود فانهم يلقون اليه أخبار الامم وهو يعبر عنها بعبارته وقيل عداس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وأبو فكيهة الرومي كانوا بمكة من أهل الكتاب فزعم المشركون أن محمدا يأخذ منهم فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (فقد جاؤا) اى قائلو هذه المقالة (ظلما) وهو جعل الكلام المعجز افكا مختلقا متلقفا من اليهود وجعلوا العربي يتلقن من العجمي الرومي كلاما عربيا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب (وزورا) اى بهتوه بنسبة ما هو برىء منه اليه وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال والباقون بالادغام * (تنبيه) * جاء وأتى يستعملان في معنى فعل فيعديان تعديته وظلما مفعول به وقيل انه على اسقاط الخافض اى جاؤا بظلم * الشبهة الثانية قوله تعالى (وقالوا أساطير الاولين) أى ما سطره الاولون من أكاذيبهم جمع أسطورة بالضم كأحدوثة أو اسطار (اكتتبها) اى تطلب كتابتها له من ذلك القوم وأخذها والمعنى ان هذا القرآن ليس من الله تعالى انما هو مما سطره الاولون الاول كأحاديث رستم واسفنديار استنسخها محمد من أهل الكتاب (فهي) اى فتسبب عن تكلفه ذلك أنها (تملى عليه) اى تقرأ عليه ليحفظها (بكرة) قبل أن تنتشر الناس (وأصيلا) اى عشيا حين يأوون الى مساكنهم أو دائما لتكلف حفظها بالانتساخ لانه أمي لا يقدر أن يكرر من الكتاب أو ليكتب وهذا كما ترى لا يقوله من له مسكة في عقل أو مروأة كيف وهو يدعوهم الى المعارضة ولو بسورة من مثله وفيهم الكتاب والشعراء والبلغاء والخطباء وهم أكثر منه مالا وأعظم أعوانا ولا يقدرون على شيء منه (فان قيل) كيف قيل اكتتبها فهي تملى عليه وانما يقال أمليت عليه فهو يكتبها (اجيب) بوجهين أحدهما أراد اكتتابها وطلبه فهي تملى عليه الثاني انها كتبت له وهو أمي فهي تملى اى تلقى عليه من كتاب ليحفظها لان صورة الالقاء على الحافظ كصورة الالقاء على الكاتب وقرأ فهي قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بكسرها * ثم أمره الله تعالى بجوابهم بقوله تعالى (قل) اى دالا على بطلان ما قالوه ومهددا لهم (أنزله الذي يعلم السر) اى الغيب (في السموات والارض) لانه أعجزكم عن آخركم بفصاحته وتضمنه أخبارا عن مغيبات مستقبلة وأشياء مكنونة لا يعلمها الا عالم الاسرار فكيف تجعلونه أساطير الاولين مع علمكم أن ما تقولونه باطل وزور وكذلك باطن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته مما تبهتونه به وهو يجازيكم على ما علم منكم وعلم منه (فان قيل) كيف يطابق هذا قوله تعالى (انه كان) اى أزلا وأبدا (غفورا رحيما) أجيب بأنه لما كان ما تقدمه في معنى الوعيد عقبه بما يدل على القدرة عليه لانه لا يوصف بالرحمة والمغفرة الا القادر على العقوبة أو هو تنبيه على انهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبا

وهو القرآن المشتمل على معاني جميع كتب الله والثاني ذكر النبي صلى الله عليه وسلم رحمة اطبة

ولكن صرف ذلك عنهم لانه غفور رحيم يمهل ولا يعاجل ه الشبهة الثالثة قوله تعالى (وقالوا مالهذا الرسول) أى مالهذا الذى يزعم الرسالة وفيه استهانة وتهكم وتصغير لشأنه وتسميته بالرسول سخرية منهم كأنهم قالوا مالهذا الزاعم أنه رسول ونحوه قول فرعون ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون اى ان صح أنه رسول الله فما باله حاله مثل حالنا (يأكل الطعام) أى كما نأكل (ويمشى) أى ويتردد (فى الاسواق) لطلب المعاش كما نمشى فلا يجوز أن يمتاز عنا بالنبوة يعنون انه يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الاكل والشرب والتعيش وكذلك كانوا يقولون له انت بملك لانك تأكل الطعام والملك لا يأكل ولان الملك لا يتسوق وأنت تتسوق وما قالوه فاسد لان أكله الطعام لكونه آدميا ومشيه فى الاسواق لتواضعه وكان ذلك صفته فى التوراة ولم يكن صخابا فى الاسواق وليس شئ من ذلك ينافى النبوة ولانه لم يدع أنه ملك من الملوك ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا الى اقتراح أن يكون انسانا معه ملك حتى يسانده فى الانذار والتخويف فقالوا (لولا) أى هلا (أنزل اليه ملك) أى يصدقه ويشهد له (فيكون معه نذيرا) أى داعيا ثم نزلوا أيضا الى أنه ان لم يكن مرفودا بملك فليكن مرفودا بكنز فقالوا (أو يلقى اليه كنز) أى ينزل عليه كنز من السماء ينفقه فلا يحتاج الى المشى فى الاسواق لطلب المعاش ثم نزلوا فاقتنعوا بان يكون رجلا له بستان فقالوا (أو تكون له جنة) أى بستان (يأكل منها) أى ان لم يلق اليه كنز فلا أقل أن يكون له بستان كالمياسير فيتعيش بريعه وقرأ حمزة والكسائى بالنون أى نأكل نحن منها فيكون له مزية علينا بها والباقون بالياء وقوله تعالى (وقال الظالمون) وضع فيه الظاهر موضع المضمر اذ الاصل وقالوا تسجيلا عليهم بالظلم فيما قالوا (ان) أى ما (تتبعون الا رجلا مسحورا) أى مخدوعا مغلوبا على عقله وقيل مصروفا عن الحق ولما أنهى تعالى ماذكر من أقوالهم الناشئة عن ضلالهم التفت سبحانه وتعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم مسليا له بقوله تعالى (انظر) أى يا أفضل الخلق (كيف ضربوا لك الامثال) أى بالمسحور والمحتاج الى ما ينفقه والى ملك يقوم معك بالامر (فضلوا) أى بذلك عن جميع طرق الهدى (فلا يستطيعون) أى فى الحال ولا فى المآل بسبب الضلال (سبيلا) أى سلوك سبيل من السبل الموصلة الى ما يستحق أن يقصد بل هم فى مجاهل موحشة ومهامه مهلكة ولما أثبت لهم لاعلم لهم ولا قدرة ولا يمن ولا بركة أثبت لنفسه سبحانه وتعالى ما يستحق من الكمال الذى يفيض به على من يشاء من عباده ما يشاء بقوله تعالى (تبارك) أى ثبت ثباتا مقترنا باليمن والبركة لاثبات الاهو (الذى ان شاء) فانه لا مكره له (جعل لك) أى فى الدنيا (خيرا من ذلك) أى من الذى قالوه على طريق التهكم من الكنز والبستان وقوله تعالى (جنات) بدل من خيرا ويجوز أن يكون منصوبا باضمار أعنى ثم وصفها بقوله تعالى (تجرى من تحتها الانهار) أى تكون أرضها عيونا نابعة أى فى أى موضع أريد منه اجراء نهر جرى فهى لا تزال ريا تغنى صاحبها عن كل حاجة ولا تحوجه فى استقرارها الى سقى (ويجعل لك قصورا) أيضا وهى جمع قصر وهو المسكن الرفيع قال المفسرون القصور هى البيوت المشيدة والعرب تسمى كل بيت مشيد قصرا ويحتمل أن يكون لكل جنة قصر فيكون مسكنا ومتنزها ويجوز أن تكون القصور مجموعة والجنات مجموعة وقال مجاهد ان شاء جعل جنات فى الآخرة وقصورا فى الدنيا ولم يشأ الله سبحانه وتعالى الى ما أشار اليه فى هذه الآية الشريفة فى هذه الدنيا الفانية وأخره الى الآخرة

وروى لولاك لولاك لما خلقت الكائنات ... (handwritten margin note:) وروى لولاك لولاك لما خلقت الكائنات ... والشمس والقمر والليل

الباقية وقد عرض عليه سبحانه وتعالى ما شاء في ذلك في الدنيا فأباه روي أنه عليه الصلاة والسلام قال عرض على ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما أو قال ثلاثا أو نحو هذا فإذا جعت تضرعت اليك واذا شبعت حمدتك وشكرتك وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو شئت لسارت معي جبال مكة ذهبا جاءني ملك فقال ان ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك ان شئت نبيا عبدا وان شئت نبيا ملكا فنظرت الى جبريل عليه السلام فأشار الى أن ضع نفسك فقلت نبيا عبدا قالت وكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لا يأكل متكئا ويقول آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد وعن ابن عباس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وجبريل عليه السلام معه فقال جبريل عليه السلام هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه في زيارتك فلم يلبث الا قليلا حتى جاء الملك وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الله يخيرك أن يعطيك مفاتيح كل شيء لم يعطه أحدا قبلك ولا يعطيه أحدا بعدك من غير أن ينقصك مما أعد لك شيئا فقال صلى الله عليه وسلم بل يجمعه لي في الآخرة فنزل تبارك الذي ان شاء الآية وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة برفع اللام من يجعل وفيه وجهان أحدهما أنه مستأنف والثاني أنه معطوف على جواب الشرط لان الشرط اذا وقع ماضيا جاز في جوابه الجزم والرفع كقوله

وان أتاه خليل يوم مسئلة * يقول لا غائب مالي ولا حرم

والباقون بالجزم ويجوز في يجعل لك اذا أدغمت أن تكون اللام في تقدير الجزم والرفع * ثم أضرب سبحانه وتعالى عن كلامهم في حق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (بل) اي لا يظنوا أنهم كذبوا بما جئت به لانهم لا يعتقدون فيك كذبا بل (كذبوا بالساعة) أي القيامة فقصرت أنظارهم على الحطام الدنيوي وظنوا أن الكرامة انما هي بالمال فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فلا يتكلفون النظر والفكر ولهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل (وأعتدنا) أي والحال انا أعتدنا أي هيأنا بما لنا من العظمة (لمن كذب) من هؤلاء وغيرهم (بالساعة سعيرا) أي نارا شديدة الاتقاد بما أعظموا الحريق في قلوب من كذبوهم من الانبياء وأتباعهم وعن الحسن أن السعير اسم من أسماء جهنم *(تنبيه)* احتج أهل السنة على أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى أعدت للمتقين وعلى أن النار وهي دار العقاب مخلوقة بهذه الآية (اذا رأتهم من مكان بعيد) وهو أقصى ما تمكن رؤيتها منه وقال الكلبي والسدي من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة سنة وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال من كذب على متعمدا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا قالوا وهل لها من عينين قال نعم ألم تسمع قوله تعالى اذا رأتهم من مكان بعيد وقال البيضاوي تبعا للزمخشري اذا كانت بمرأى منهم كقوله عليه الصلاة والسلام لا تراءى ناراهما اي لا تتقاربان بحيث تكون احداهما بمرأى من الاخرى على المجاز انتهى وهذا تأويل المعتزلة بناء منهم على أن الرؤية مشروطة بالحياة بخلاف الاشاعرة فانهم يجوزون رؤيتها حقيقة كتغيظها وزفيرها في قوله تعالى (سمعوا لها تغيظا) اي غليانا كالغضبان اذا غلى صدره من الغضب (وزفيرا) اي صوتا شديدا فلا امتناع من انها تكون رائية مغتاظة زافرة واشار البيضاوي الى ذلك بعد ما ذكر بقوله هذا وان الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية

والنهار ولولاها ما وجد في الارض حيوان ولا نبات (قوله وخلق كل شيء فقدره تقديرا) * ان قلت الخلق

أمكن ان يخلق الله فيها حياة فترى وتتغيظ وتزفر وقال الجلال المحلي وسماع التغيظ رؤيته وعلمه انتهى قال عبد الله بن عمر تزفر جهنم يوم القيامة زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل الا خر لوجهه وقيل اذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبا على الكفار للانتقام منهم فنسب اليها على حذف مضاف (واذا ألقوا) أى طرحوا طرح اهانة (منها) أى النار (مكانا) ثم وصفه تعالى بقوله تعالى (ضيقا) زيادة فى نظاعتها قال ابن عباس يضيق عليهم كما يضيق الزج فى الرمح (مقرنين) اى مصفدين زيادة قد قرنت أيديهم الى أعناقهم من الاغلال وقد قيل الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذلك وصف الله تعالى الجنة بان عرضها السموات والارض وجاء فى الاحاديث ان لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ولقد جمع الله تعالى على أهل النار أنواع الضيق والارهاق حيث ألقاهم فى مكان ضيق يتراصون فيه تراصا كما مر عن ابن عباس أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج فى الرمح وهو منقول أيضا عن ابن عمر وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال والذى نفسى بيده انهم يستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون فى السلاسل قرنت أيديهم الى أعناقهم ويقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة وفى أرجلهم * (تنبيه) * مكانا منصوب على الظرف ومنها فى محل نصب على الحال من مكانا لانه فى الاصل صفة له ومقرنين حال من مفعول ألقوا وقرأ ابن كثير ضيقا بسكون الياء والباقون بكسر الياء مشددة (دعوا هنالك) اى فى ذلك المكان البغيض البعيد عن الرفق (ثبورا) قال ابن عباس ويلا وقال الضحاك هلاكا فيقولون واثبوراه هذا حينك وزمانك لانه لا منادم لهم غيره وليس يحضر أحدا منهم سواه قال البغوى وفى الحديث ان أول من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول يا ثبوراه وهم ينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار فيقال لهم (لا تدعوا اليوم) اى أيها الكفار (ثبورا واحدا) لانكم لا تموتون اذا احلت بكم أسباب العذاب والهلاك (وادعوا ثبورا كثيرا) أى هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة أو ادعوا أدعية كثيرة وقال الكلبي نزل هذا كله فى أبي جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبه * ولما وصف تعالى العقاب المعد للمكذبين بالساعة اتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة بقوله تعالى (قل) أى لهؤلاء البعداء البغضاء (أذلك) اى المذكور من الوعيد وصفة النار (خير أم جنة الخلد) أى الاقامة الدائمة (التى وعد المتقون) اى وعدها الله تعالى لهم فالراجع الى الموصول وهو هاء وعدها محذوف (فان قيل) كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد وهل يجوز أن يقول القائل السكر أحلى أم الصبر (أجيب) بأنه يحسن فى معرض التقريع كما اذا أعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فضربه ويقول له هذا خير أم ذلك قال أبو مسلم جنة الخلد هى التى لا ينقطع نعيمها والخلد والخلود سواء كالشكر والشكور قال تعالى لا نريد منكم جزاء ولا شكورا (فان قيل) الجنة اسم لدار الخلد فأى فائدة فى قوله تعالى جنة الخلد (أجيب) بأن الاضافة قد تكون للتمييز وقد تكون لبيان صفة الكمال كقوله تعالى هو الله الخالق البارئ وهذا من هذا البيان أو للتمييز عن جنات الدنيا ثم حقق تعالى أمرها تأكيدا للبشارة بقوله (كانت لهم جزاء) أى ثوابا على أعمالهم بفضل الله تعالى وكرمه (ومصيرا) أى مرجعا (فان قيل) ان الجنة

ومنه قولهم واذ هو التقدير تخلق من الطين فكيف جمع بينهما (قلت) الخلق من الله هو الايجاد فصح

ستصير للمتقين جزاء ومصيرا لكنها بعد ما صارت كذلك فلم قال تعالى كانت (أجيب) من وجهين الأول ان ما وعده الله تعالى فهو في تحققه كالواقع الثاني انه كان مكتوبا في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم الله تعالى بأزمنة متطاولة ان الجنة جزاؤهم ومصيرهم (فان قيل) لم جمع تعالى بين الجزاء والمصير (اجيب) بأن ذلك كقوله تعالى نعم الثواب وحسنت مرتفقا فمدح الثواب ومكانه كما قال تعالى بئس الشراب وساءت مرتفقا فذم العقاب ومكانه لان النعيم لا يتم للمتنعم الا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة والا تنغص وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع وضيقه وظلمته فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء • (تنبيه) • المتقي يشمل من اتقى الكفر وان لم يتق المعاصي وان كان غيره أكمل • ثم ذكر تعالى تنعمهم فيها بعد ان ذكر نعيمهم بقوله تعالى (لهم فيها) أي الجنة (ما يشاؤن) من كل ما تشتهيه أنفسهم كما قال تعالى ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم وفيها ما تشتهي الانفس (فان قيل) أهل الدرجات النازلة اذا شاهدوا الدرجات العالية لابد وأن يريدوها فاذا سألوها ربهم فان أعطاها لهم لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت في الدرجة وان لم يعطها لهم قدح ذلك في قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن (اجيب) بأن الله تعالى يزيل هذا الخاطر عن قلوب أهل الجنة ويشتغلون بما هم فيه من اللذات عن الالتفات الى حال غيرهم وقوله تعالى (خالدين) منصوب على الحال اما من فاعل يشاؤن واما من فاعل لهم لوقوعه خبرا والعائد على ما محذوف أي لهم فيها الذي يشاؤنه حال كونهم خالدين وقوله تعالى (كان على ربك) أي وعدهم ما ذكر (وعدا) يدل على أن الجنة جعلت لهم بحكم الوعد والتفضيل لا بحكم الاستحقاق وقوله تعالى (مسؤلا) أي مطلوبا باختلاف في السائل فالاكثر على ان المؤمنين سألوا ربهم في الدنيا حين قالوا ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك روي أنه صلى الله عليه وسلم قال ما منكم من يدعو بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا أعطاه بها احدى ثلاث اما ان يعجل له دعوته واما أن يدخرها له في الآخرة واما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا اذا نكثر قال الله تعالى أكثر وروي انه يدعى بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه الله تعالى بين يديه فيقول عبدي فيقول نعم يا رب فيقول اني أمرتك أن تدعوني ووعدتك أن أستجيب لك فهل كنت تدعوني اما انك لم تدعني بدعوة الا استجبت لك أليس دعوتني يوم كذا وكذا لغم نزل بك ان أفرج عنك ففرجت عنك فيقول نعم يا رب فيقول اني عجلتها لك في الدنيا ودعوتني يوم كذا وكذا لغم نزل بك ان أفرج عنك فلم تر فرجا قال نعم يا رب فيقول اني ادخرت لك بها في الجنة كذا وكذا ودعوتني في حاجة أقضيها لك في يوم كذا وكذا فقضيتها فيقول نعم يا رب فيقول اني عجلتها لك في الدنيا ودعوتني في يوم كذا وكذا في حاجة أقضيها لك فلم تر قضاءها فيقول نعم يا رب فيقول اني ادخرت لك بها في الجنة كذا وكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن الا بين له اما ان يكون عجل له في الدنيا واما أن يكون ادخر له في الآخرة فيقول المؤمن في هذا المقام يا ليته لم يكن عجل له شيء من دعائه وروي لا تعجلوا في الدعاء فانه لا يهلك مع الدعاء أحد وروي ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة وروي يستجاب لاحدكم ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي وروي لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل قيل يا رسول الله ما الاستعجال قال يقول قد دعوت فلم يستجب لي

قوله كقوله تعالى الخ الكاف للتنظير لا للتمثيل اه

الجمع بينه وبين التقدير ولو سلم انه التقدير لساغ الجمع بينهما لاختلافهما لفظا كما في قوله تعالى أولئك

فيستحسر أي يمل عند ذلك ويدع الدعاء فلا يدع الانسان وهو موقن بالاجابة وقال محمد بن كعب القرظي الطالب من الملائكة للمؤمنين سألوا ربهم للمؤمنين بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم وقيل ان المكلفين سألوه بلسان الحال لانهم لما تحملوا المشقة الشديدة في طاعة الله كان ذلك قائما مقام السؤال قال المتنبي

وفي النفس حاجات وفيك فطانة * سكوتي كلام عندها وخطاب

ولما ذكر تعالى حالهم في نفسهم أتبعه ذكر حالهم مع معبوداتهم من دونه بقوله تعالى (ويوم) أي واذكر لهم يوم (نحشرهم) أي المشركين وقرأ ابن كثير وحفص بالياء والباقون بالنون واختلف في المراد بقوله تعالى (وما يعبدون من دون الله) أي غيره فقال الاكثرون من الملائكة والجن والمسيح وعزير وغيرهم وقال عكرمة والضحاك والكلبي من الاصنام فقيل لهم كيف يخاطب الله تعالى الجماد بقوله تعالى (فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء) أي أوقعتموهم في الضلال بامركم اياهم بعبادتكم (أم هم ضلوا السبيل) أي طريق الحق بانفسهم فاجابوا بوجهين أحدهما انه تعالى يخلق الحياة فيها ويخاطبها ثانيهما أن يكون ذلك بالكلام النفساني لا بالقول اللساني بل بلسان الحال كما ذكره بعضهم في تسبيح الجماد وكلام الايدي والارجل ويجوز أن يكون السؤال عاما لهم جميعا (فان قيل) كيف صح استعمال ما في العقلاء (أجيب) على الاول بانه أريد به الوصف كانه قيل ومعبوديهم الا ترى انك تقول اذا أردت السؤال عن صفة زيد ما زيد تعني أطويل أم قصير فقيه أم طبيب وقال تعالى والسماء وما بناها ولا أنتم عابدون ما أعبد وأما على القول الثاني فواضح وأما على القول الثالث فغلب غير العاقل لغلبته عبادة أو تحقيرا (فان قيل) ما فائدة هذا السؤال مع ان الله تعالى كان عالما في الازل بحال المسؤل عنه (أجيب) بان هذا سؤال تقريع للمشركين كما قال لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله وقرأ ابن عامر فنقول بالنون والباقون بالياء وقرأ أأنتم نافع وابن كثير بتسهيل الثانية وادخال ألف بينها وبين همزة الاستفهام ورش وابن كثير بتسهيل الثانية ولا ألف بينها وبين الاولى ولورش وجه آخر وهو ابدال الثانية ألفا وهشام بتسهيل الثانية وتحقيقها مع الادخال والباقون بتحقيقهما وقرأ هؤلاء أم هم نافع وابن كثير وأبو عمرو في الوصل بابدال الهمزة من أم ياء خالصة والباقون بتحقيقها (قالوا سبحانك) أي تنزيها لك عما لا يليق بك أو تعجبا مما قيل لهم لانهم اما ملائكة أو أنبياء معصومون فما أبعدهم عن الضلال الذي هو مختص بابليس وجنوده أو جمادات وهي لا تقدر على شيء أو اشعارا بانهم الموسومون بتسبيحه وتوحيده فكيف يليق بهم اضلال عبيده (ما كان ينبغي) أي يستقيم (لنا ان نتخذ) أي نتكلف ان نأخذ باختيارنا بغير ارادة منك (من دونك) أي غيرك (من أولياء) للعصمة ولعدم القدرة فكيف يستقيم لنا ان نأمر بعبادتنا (فان قيل) ما فائدة انتم وهلا قيل أأضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل (أجيب) بان السؤال ليس عن الفعل ووجوده لانه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب وانما هو عن متوليه فلا بد من ذكره وايلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤل عنه (تنبيه) من أولياء مفعول أول ومن زائدة لتأكيد النفي وما قبله المفعول الثاني ولما تضمن كلامهم انا لم نضلهم ولم نحملهم على الضلال

عليهم صلوات من ربهم ورحمة (قوله واتخذوا من دونه آلهة) قاله هنا

حسن الاستدراك بقولهم (ولكن متعتهم وآباءهم) وهو ان ذكروا سببه أي انعمت عليهم وعلى آبائهم من قبلهم بانواع النعم والصحة وطول العمر في الدنيا فجعلوا ذلك ذريعة الى ضلالهم عكس القضية (حتى نسوا الذكر) أي تركوا الايمان بالقرآن وقيل تركوا ذكرك وغفلوا عنه (وكانوا) أي في علمك بما قضيت عليهم في الازل (قوما بورا) اى هلكى وهو مصدر يوصف به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع او جمع بائر كعائذ وعوذ وقوله (فقد كذبوكم) فيه التفات الى العبدة بالاحتجاج والالزام على حذف القول والمعنى فقد كذب المعبودون العابدين (بما) اى بسبب ما (تقولون) اى ايها العابدون من انهم يستحقون العبادة وانهم يشفعون لكم وانهم اضلوكم ولما تسبب عن تخليهم عن عبدتهم انه لا نفع في ايديهم ولا ضر قال تعالى (فما يستطيعون) اى المعبودون (صرفا) اى لشيء من الاشياء عن احد من الناس لا انتم ولا غيركم من عذاب ولا غيره بوجه حيلة ولا شفاعة ولا مفاداة (ولا نصرا) اى منعا لكم من الله تعالى ان اراد بكم سوءا وهذا الحصر وقوله تعالى لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا وقرأ حفص بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة (ومن يظلم) أي بالشرك (منكم) اى ايها المكلفون (نذقه) اى بما لنا من العظمة (عذابا كبيرا) اى شديدا في الدنيا بالقتل او الاسر او ضرب الجزية وفي الآخرة بنار جهنم * روى الضحاك عن ابن عباس انه قال لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم ما لهذا الرسول الى آخرها انزل الله تعالى (وما ارسلنا قبلك) اى يا أشرف الخلق احدا (من المرسلين الا) وحالهم (انهم ليأكلون الطعام) كما تأكل ويأكل كل غيرك من الآدميين (ويمشون في الاسواق) كما تفعل فهذه عادة مستمرة من الله تعالى في كل رسله وهم يعلمون ذلك بالسماع من أخبارهم وهذا تأكيد من الله تعالى لانهم لا يكذبونه صلى الله عليه وسلم وقيل معنى الآية وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا قد قيل لهم مثل هذا انهم يأكلون الطعام ويمشون في الاسواق كما قال تعالى في موضع آخر ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك (وجعلنا) أي بالعطاء والمنع بما لنا من العظمة (بعضكم) أي ايها الناس (لبعض فتنة) أي بلية والمعنى انه تعالى ابتلى المرسلين بالمرسل اليهم ويناصبتهم والعداوة لهم وأقاويلهم الخارجة عن حد الانصاف وجعل الغني فتنة للفقير والصحيح فتنة للمريض والشريف فتنة للوضيع يقول الثاني من كل ما لي لا أكون كالاول وقال ابن عباس جعلت بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم وترون من خلافهم فتتبعوا الهدى أم لا وقال مقاتل نزلت هذه الآية في أبي جهل والوليد بن عقبة والعاصي بن وائل والنضر بن الحرث وذلك أنهم رأوا أبا ذر وابن مسعود وعمارا وبلالا وصهيبا وعامر بن فهيرة ومن دونهم قد أسلموا قبلهم فقالوا أنسلم ونكون مثل هؤلاء وقيل جعلناك فتنة لهم لانك لو كنت غنيا صاحب كنوز وجنات لكان ميلهم اليك وطاعتهم لك للدنيا فتكون ممزوجة بالدنيا وانما بعثناك فقيرا لتكون طاعة من يطيعك خالصة لوجه الله من غير طمع دنيوي وقوله تعالى (أتصبرون) أي على ما تسمعون مما ابتليتم به استفهام بمعنى الامر أي اصبروا (وكان ربك) أي المحسن اليك احسانا لم يحسنه الى أحد سواك لا سيما بجعلك نبيا عبدا (بصيرا) أي بكل شيء فهو عالم بالانسان قبل الامتحان لم يفده ذلك علما لم يكن عنده ولكن يعلم ذلك شهادة كما يعلم علم

قوله وقاله في مسجم بالغيب وقاله في ... بالغيبة موافقة ويس بالفظ الله موافقة لما قبله في المواضع الثلاثة

قوله ويناصبتهم الخ في بعض النسخ ويناصبونهم العداوة اهـ مصحح

الغيب ولتقوم عليهم بذلك الحجة لا يضيق من صدرك ولا تستخفنك أقاويلهم فان صبرك عليها سعادتك وفوزك في الدارين روى انه صلى الله عليه وسلم قال اذا نظر أحدكم من فضل عليه في المال والجسم فلينظر الى من هو دونه في المال والجسم وروى انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم حذر أن تزدروا نعمة الله عليكم * الشبهة الرابعة لمنكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) أي لا يخافون البعث قال الفراء الرجاء في الخوف لغة تهامة ومنه قوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا أي لا تخافون لله عظمة (لولا) أي هلا ولم لا (أنزل) أي على أي وجه كان من أي منزل كان (علينا الملائكة) كما نزلت عليه فيما زعم وكانوا رسلا الينا او فتخبرنا بصدقه (أو نرى ربنا) بماله علينا من الاحسان وبما لنا نحن من العظمة بالقوة بالاموال وغيرها فيأمرنا بما يريد من غير حاجة الى واسطة قال الله ردا عليهم (لقد استكبروا) أي تعظموا (في) شأن (أنفسهم) أي أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه كما قال تعالى ان في صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه (وعتوا) أي تجاوزوا الحد في الظلم (عتوا كبيرا) أي بالغا أقصى مراتبه حيث عاينوا المعجزات الظاهرة فأعرضوا عنها واقترحوا لانفسهم الخبيثة ما سدت دونه مطامع النفوس القدسية واللام جواب قسم محذوف وفي فحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ تعجب ألا ترى أن المعنى ما أشد استكبارهم وما أكبر عتوهم * ثم بين تعالى انهم حالهم عند بعض ما طلبوا بقوله تعالى (يوم يرون الملائكة) أي يوم القيامة وقال ابن عباس عند الموت (لا بشرى) أي من البشر أصلا (يومئذ) وقوله تعالى (للمجرمين) أي الكافرين اما ظاهر في موضع ضمير واما لانه عام فقد تناولهم بعمومه بخلاف المؤمنين فلهم البشرى بالجنة * (تنبيه) * في نصب يوم أوجه أحدها أنه منصوب باضمار فعل يدل عليه قوله تعالى لا بشرى أي يمنعون البشرى يوم يرون الثاني باذكر فيكون مفعولا به الثالث يعذبون مقدرا ولا يجوز أن يعمل فيه نفس البشرى لوجهين أحدهما أنها مصدر والمصدر لا يعمل فيما قبله والثاني أنها منفية بلا وما بعد لا لا يعمل فيما قبلها وقوله (ويقولون) أي في ذلك الوقت (حجرا محجورا) عطف على المدلول ويقول الكفرة لهم حينئذ هذه الكلمة استعاذة وطلبا من الله تعالى أن يمنع لقاء الملائكة عنهم مع انهم كانوا يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه وهم اذا رأوهم عند الموت او يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم لانهم لا يلقونهم الا بما يكرهون وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو والشدة النازلة أو نحو ذلك حجرا محجورا يضعونها موضع الاستعاذة فهم يقولون ذلك اذا عاينوا الملائكة قال سيبويه يقول الرجل للرجل تفعل كذا وكذا فيقول حجرا وهي من حجره اذا منعه لان المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه عنه فلا يلحقه وكان المعنى أسأل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا وقال ابن عباس تقول الملائكة حراما محرما أن يدخل الجنة الا من قال لا اله الا الله وقيل اذا خرج الكفار من قبورهم تقول الملائكة لهم حرام محرم عليكم أن تكون لكم البشرى ولما كان المريد لابطال شيء لشدة كراهته له لا يقنع في ابطاله بغيره بل يأتيه بنفسه فيبطله عبر تعالى بقوله (وقدمنا) أي وعمدنا بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة في ذلك

(قوله ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا) قدم الضر على النفع

اليوم الذي يرون فيه الملائكة سواء كان في الدنيا أم في الآخرة (الى ما عملوا من عمل) اي من مكارم الاخلاق من الجود وصلة الرحم واغاثة الملهوف ونحو ذلك (فجعلناه) لكونه لم يؤسس على الايمان وانما هو للهوى والشيطان (هباء) وهو ما يرى في شعاع الشمس الداخل من كوة مما يشبه الغبار (منثورا) اي مفرقا اي مثله في عدم النفع اذ لا ثواب فيه لعدم شرطه ويجازون عليه في الدنيا فتكون النار مستقرهم ومقيلهم ولما بين حال اضدادهم وهم المؤمنون بقوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ) اي يوم اذ يرون الملائكة (خير مستقرا) من الكفار (وأحسن مقيلا) منهم والمستقر المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم مستقرين يتجالسون ويتحادثون والمقيل المكان الذي يأوون اليه للاسترواح الى أزواجهم والتمتع بمغازلتهن وملامستهن كما ان المترفين في الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب روي انه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار قال ابن مسعود لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وقال ابن عباس في هذه الآية الحساب في ذلك اليوم في أوله وقال يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون قدر ما بين العصر الى غروب الشمس * (تنبيه) * في أفعل هنا قولان أحدهما أنها على بابها من التفضيل والمعنى ان المؤمنين خير في الآخرة مستقرا من مستقر الكفار وأحسن مقيلا من مقيلهم ولو فرض ان يكون لهم ذلك أو على انهم خير في الآخرة منهم في الدنيا والثاني ان يكون لمجرد الوصف من غير مفاضلة ومن ذلك المعنى قوله تعالى ان أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الارائك متكئون ذكروا في تفسير الشغل افتضاض الابكار وانما سمي مكان دعتهم واسترواحهم الى الحور مقيلا مع انه لا نوم في الجنة على طريق التشبيه * ثم عطف تعالى على قوله يوم يرون قوله تعالى (ويوم تشقق السماء) اي كل سماء (بالغمام) اي كما تشقق الارض بالنبات فيخرج من خلال شقوقها وهو غيم أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن الا لبني اسرائيل في تيههم * (تنبيه) * في هذه الباء ثلاثة أوجه أحدها انها سببية اي بسبب الغمام يعني بسبب طلوعه منها ونحوه السماء منفطر به كأنه الذي تتشقق به السماء الثاني أنها للحال اي ملتبسة بالغمام الثالث انها بمعنى عن اي عن الغمام كقوله تعالى يوم تشقق الارض عنهم سراعا والباء وعن يتعاقبان تقول رميت عن القوس وبالقوس وقرأ أبو عمرو والكوفيون بتخفيف الشين والباقون بتشديدها ثم اشار تعالى الى جهل من طلب نزول الملائكة دفعة واحدة بقوله تعالى (ونزل الملائكة) اي بالتدريج بامر حتم لا يمكنهم التخلف عنه بامر من الامور وغيره من الذين طلبوا ان يروهم في حال واحد (تنزيلا) في أيديهم صحائف الاعمال قال ابن عباس تتشقق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من في الارض من الجن والانس ثم تتشقق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر من أهل سماء الدنيا وأهل الارض جنا وانسا ثم كذلك حتى تتشقق السماء السابعة وأهل كل سماء يدورون على السماء التي قبلها ثم تنزل الكروبيون ثم حملة العرش (فان قيل) ثبت ان نسبة الارض الى سماء الدنيا كحلقة في فلاة فكيف تسع الارض هؤلاء (أجاب) بعض المفسرين بان الملائكة تكون في الغمام والغمام يكون مقر الملائكة ويجوز ان الله تعالى

لمناسبة ما بعده من تقديم (قوله
الموت على الحياة
كانت لهم جزاء ومصيرا)

يوسع الارض حتى تسع الجميع وقرأ ابن كثير بنونين الاولى مضمومة والثانية ساكنة وتخفيف الزاي ورفع اللام ونصب الملائكة والباقون بنون واحدة والزاي مشددة ونصب اللام ورفع الملائكة ثم بين تعالى ان ذلك اليوم لا يقضي فيه غيره بقوله تعالى (الملك يومئذ) اي اذ تشقق السماء بالغمام ثم وصف الملك بقوله تعالى (الحق) اي الثابت ثبوتا لا يمكن زواله ثم اخبر عنه بقوله تعالى (للرحمن) اي العام الرحمة في الدارين ومن عموم رحمته وحقية ملكه أن يسر قلوب أهل وده بتعذيب أهل عداوته الذين عادوهم فيه لتضييعهم الحق باتباع الباطل ولولا اتصافه بالرحمة لم يدخل أحد الجنة (فان قيل) مثل هذا الملك لم يكن قط الا للرحمن فما الفائدة في قوله تعالى يومئذ (أجيب) بان في ذلك اليوم لا مالك له سواه لا في الصورة ولا في المعنى فتخضع له الملوك وتعنو له الوجوه وتذل له الجبابرة بخلاف سائر الايام (وكان) اي ذلك اليوم الذي تظهر فيه الملائكة الذي طلب الكفار رؤيتهم له (يوما على الكافرين عسيرا) اي شديد العسر والاستعار * (تنبيه) * هذا الخطاب يدل على انه لا يكون على المؤمنين عسيرا جاء في الحديث انه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون عليه اخف من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا وقوله تعالى (ويوم يعض الظالم) اي المشرك لفرط تأسفه لما يرى فيه من الاهوال معمول لمحذوف أو معطوف على يوم تشقق وأل في الظالم تحتمل العهد والجنس لكن قال ابن عباس أراد بالظالم عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس كان لا يقدم من سفر الا صنع طعاما ودعا اليه جيرانه وأشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم ويعجبه حديثه فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاما ودعا الناس ودعا النبي صلى الله عليه وسلم فلما قرب الطعام قال النبي صلى الله عليه وسلم ما انا بآكل طعامك حتى تشهد ان لا اله الا الله واني رسول الله فقال عقبة أشهد أن لا اله الا الله وأشهد ان محمدا رسول الله فأكل صلى الله عليه وسلم من طعامه وكان عقبة صديقا لابي بن خلف فلما أتى ابي بن خلف قال له يا عقبة صبأت فقال لا والله ما صبأت ولكن دخل علي رجل فأبى ان يأكل طعامي الا ان أشهد له فاستحييت ان يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له فطعم والشهادة ليست في نفسي فقال ما أنا بالذي أرضى منك أبدا الا ان تأتيه وتبصق في وجهه وتطأ قفاه وتلطم وجهه وعينه فوجده ساجدا في دار الندوة ففعل ذلك عقبة فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا ألقاك خارجا من مكة الا علوت رأسك بالسيف فقتل عقبة يوم بدر صبرا أمر عليا رضي الله عنه فقتله وقيل قتله عاصم بن ثابت بن أفلح الانصاري وأما أبي بن خلف فقتله النبي صلى الله عليه وسلم بيده يوم أحد طعنه في المبارزة فرجع الى مكة ومات وقال الضحاك لما بصق عقبة في وجه النبي صلى الله عليه وسلم عاد بزاقه في وجهه فاحترق خداه فكان أثر ذلك فيه حتى مات وقال الشعبي كان عقبة خليل أمية فأسلم عقبة فقال أمية وجهي من وجهك حرام ان تابعت محمدا فكفر وارتد فأنزل الله تعالى ويوم يعض الظالم اي عقبة (على يديه) قال الضحاك يأكل يديه الى المرفق ثم تنبت ولا يزال هكذا كلما أكلها نبتت وقال المحققون هذه اللفظة للتحسر والغم يقال عض أنامله وعض على يديه وهو لا يشعر حال كونه مع هذا الفعل (يقول) اي يجدد في كل لحظة قوله (يا ليتني اتخذت) اي أرغمت نفسي وكلفتها ان آخذ في الدنيا (مع الرسول) اي محمد صلى

* ان قلت كيف قال في وصف الجنة ذلك مع انها لم تكن حينئذ جزاء ومصيرا

الله عليه وسلم (سبيلا) اى طريقا الى الهدى * ولما تأسف على مجانبة الرسول ندم على مصادقة
غيره بقوله (ياويلتى) اى ياهلاكى الذى ليس لى منادم غيره لانه ليس بحضرتى سواه (ليتنى لم
أتخذ فلانا) اى أبيا (خليلا) اى صديقا أوافقه فى أعماله لما عاين من سوء عاقبتها فكنى عن
اسمه وان أريد به الجنس فكل من اتخذ من المضلين خليلا كان لخليله اسم علم عليه لا محالة
فجعله كناية عنه وقرأ أبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون وأظهر الذال عند التاء ابن
كثير وحفص وادغمها الباقون ثم استأنف قوله الذى يتوقع كل سامع أن يقوله (لقد) اى
والله لقد (أضلنى عن الذكر) اى عمى على طريق القرآن الذى لا ذكر فى الحقيقة غيره وصرفنى
عنه والجملة فى موضع العلة لما قبلها (بعد اذ جاءنى) ولم يكن لى منه مانع يردنى عن الايمان به
وقرأ نافع وابن ذكوان وعاصم باظهار الذال والباقون بالادغام وقوله تعالى (وكان الشيطان)
اشارة الى خليله سماه شيطانا لانه أضله كما يضل الشيطان أو الى كل من كان سببا للضلال من
عتاة الجن والانس (للانسان خذولا) اى شديد الخذلان يورده ثم يسلمه الى أكره ما يكون
لا ينصره ولو أراده ما استطاع بل هو فى شر من ذلك لان عليه اثمه فى نفسه ومثل اثم من أضله
(تنبيه) حكم هذه الآية عام فى كل خليلين ومتحابين اجتمعا على معصية الله تعالى قال صلى
الله عليه وسلم مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك
اما أن يحذيك واما أن تبتاع منه واما أن تجد ريحا طيبة ونافخ الكير اما أن يحرق ثيابك
واما أن تجد ريحا خبيثة وقال صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل
وقال صلى الله عليه وسلم لا تصاحب الا مؤمنا ولا يأكل طعامك الا تقى * ولما ذكر تعالى
أقوال الكفار ذكر قول رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وقال الرسول يارب) اى
أيها المحسن الى بانواع الاحسان وعبر باداة البعد هضما لنفسه ومبالغة فى التضرع (ان قومى)
اى قريشا الذين لهم قوة ومنعة (اتخذوا هذا القرآن) اى المقتضى للاجتماع عليه والمبادرة
اليه (مهجورا) اى متروكا بعيدا لم يؤمنوا به ولم يتقبلوه وأعرضوا عن استماعه *(تنبيه)*
أشار بصيغة الافتعال الى أنهم عالجوا أنفسهم فى تركه علاجا كثيرا لما يرون من حسن نظمه
ويذوقون من لذيذ معانيه ورائق أساليبه ولطيف عجائبه وبديع غرائبه وأكثر
المفسرين على أن هذا القول وقع من النبى صلى الله عليه وسلم وقال أبو مسلم بل المراد أنه
يقوله فى الآخرة كقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد الآية والاول أولى لان
قوله تعالى (وكذلك) اى كما جعلنا لك عدوا من مشركى قومك (جعلنا لكل نبى) من الانبياء
قبلك رفعة لدرجاتهم (عدوا من المجرمين) اى من المشركين تسلية له صلى الله عليه وسلم كأنه
تعالى يقول له فاصبر كما صبروا ولا يكون ذلك الا اذا وقع ذلك القول منه (وكفى بربك) اى المحسن
اليك (هاديا) اى يهدى بك من قضى بسعادته (ونصيرا) اى ينصرك على من حكم بشقاوته
(تنبيه) احتج أهل السنة بهذه الآية على أنه تعالى خلق الخير والشر لان قوله تعالى جعلنا
لكل نبى عدوا يدل على أن تلك العداوة من جعل الله تعالى وتلك العداوة كفر (فان قيل) قوله
تعالى يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا كقول نوح عليه السلام رب انى دعوت
قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى الا فرارا فكما أن المقصود من هذا انزال العذاب فكذلك

(قلت) انما قال ذلك لان
ما وعد الله به فهو فى تحققه
كأنه قد كان أو انه كان فى

ماهنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله تعالى بالرحمة فى قوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (أجيب) بأن نوحا عليه السلام انما ذكر ذلك دعا عليهم وأما النبى صلى الله عليه وسلم لما لم يذكر هذا لم يدع عليهم بل انتظر ثم لما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا كان ذلك كالامر له بالصبر على ذلك وترك الدعاء عليهم فافترقا الشبهة الخامسة لمنكرى النبوة ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى (وقال الذين كفروا) اى الذين غطوا اعداوة وحسدا ما تشهد عقولهم بصحته من أن القرآن كلام الله تعالى لاعجازه لهم مفرقا فضلا عن كونه مجتمعا (لولا) اى هلا (نزل عليه القرآن) اى نزل كتنزيل غيره من أخبره الله لا يناقض قولهم (جملة) وأكدوا بقولهم (واحدة) اى من أوله الى آخره كما أنزلت التوراة على موسى والانجيل على عيسى والزبور على داود لنتحقق أنه من عند الله تعالى ويزول عنا ما نتوهمه من أنه الذى يرتبه قليلا قليلا وهذا الاعتراض فى غاية السقوط لان الاعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو متفرقا مع أن للتفريق فوائد منها ما أشار اليه بقوله تعالى (كذلك) اى انزلناه شيأ فشيأ على هذا الوجه العظيم الذى أنكروه (لنثبت) اى نقوى (به فؤادك) اى قلبك فنفهمه وتحفظه لان المتلقن انما يقوى قلبه على حفظ العلم شيأ فشيأ وجزأ عقب جزء ولو ألقى عليه جملة واحدة لتعيا بحفظه والرسول صلى الله عليه وسلم فارقت حاله حال داود وموسى وعيسى عليهم السلام حيث كان أميا لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ فأنزله الله عليه منجما فى عشرين سنة وقيل فى ثلاث وعشرين سنة وأيضا فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين ولان بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ولا يتأتى ذلك الا فيما أنزل مفرقا (فان قيل) ذا فى كذلك يجب أن يكون اشارة الى شئ تقدمه والذى تقدم هو انزاله جملة فكيف فسر كذلك بأنزلناه مفرقا (أجيب) بأن الاشارة الى الانزال مفرقا الا الى جملة والدليل على فساد هذا الاعتراض ايضا أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه وتحدوا بسورة واحدة من أصغر السور فأبرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لاذوا بالمناصبة وفزعوا الى المحاذبة ثم قالوا هلا نزل جملة واحدة كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملته وقوله تعالى (ورتلناه ترتيلا) معطوف على الفعل الذى تعلق به كذلك كأنه قال تعالى كذلك فرقناه ورتلناه ترتيلا ومعنى ترتيله قال ابن عباس بيناه بيانا والترتيل التبيين فى تؤدة وتثبت وقال السدى فصلناه تفصيلا وقال مجاهد بعضه فى اثر بعض وقال الحسن تفريقا آية بعد آية ووقعة عقب وقعة ويجوز أن يكون المعنى وأمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا اى اقرأه بترتل وتثبت ومنه حديث عائشة رضى الله تعالى عنها فى صفة قراءته لا كسردكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها وقيل هو أن تنزله مع كونه متفرقا على تمكث وتمهل فى مدة متباعدة وهى عشرون سنة ولم تفرقه فى مدة متقاربة ولما كان التقدير قد بطل ما أتوا به من هذا الاعتراض عطف عليه (ولا يأتونك) اى يا أشرف الخلق اى المشركون (بمثل) اى باعتراض فى ابطال أمرك يخيلون به لعقول الضعفاء يجتهدون فى تحسينه وتحسينه وتدقيقه حتى يصير عندهم فى غاية الحسن والرشاقة لفظا ومعنى (الا جئناك) فى جوابه (بالحق) اى الذى لا محيد عنه نمزق ما أتوا به لبطلانه فسمى ما يوردون من الشبه

اللوح المحفوظ الى الجنة
جزأ وهم ومنه يرهم (قوله

مثلا وهي مايدفع به الشبهة (وأحسن) اى من مثلهم (تفسيرا) اى بيانا وتفصيلا ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا وكذا أولا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون هلا كانت هذه صفتك وحالك نحو أن يقرن بك ملك ينذر معك أو يلقى اليك كنز وتكون لك جنة أو ينزل عليك القرآن جملة واحدة الا أعطيناك نحن من الاحوال ما يحق لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه وما هو أحسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته * ثم بين تعالى حال هؤلاء المعاندين في الآخرة بقوله تعالى (الذين) اى هم الذين (يحشرون) اى يجمعون قهرا ماشين مقلوبين (على وجوههم) مسحوبين (الى جهنم) اى كأنهم لم ينظروا في الدنيا بعين الانصاف فان الآخرة مرآة الدنيا فمهما عمل هنا رآه هناك كما أن الدنيا مزرعة الآخرة فمهما عمل فيها جنى ثمره هناك روى البخاري ان رجلا قال يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة قال الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة وروى البيهقي يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف صنف على الدواب وصنف على الوجوه وصنف على الاقدام * ولما وصف الله تعالى المتعنتين في أمر القرآن بهذا الوصف استأنف الاخبار عنهم بقوله تعالى (أولئك) اى البعداء البغضاء (شر) اى شر الخلق (مكانا) هو جهنم (وأضل سبيلا) اى اخطأ طريقا من غيرهم وهو كفرهم * ولما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وذكر ذلك في معرض التسلية له صلى الله عليه وسلم ذكر قصص جماعة من الانبياء وعرفه تكذيب أممهم زيادة في تسليته * القصة الاولى قصة موسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد آتينا) اى بما لنا من العظمة (موسى الكتاب) اى التوراة (وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا) اى معينا (فان قيل) كونه وزيرا كالمنافي لكونه شريكا له في النبوة والرسالة (اجيب) بانه لا منافاة بين النبوة والرسالة والوزارة فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء متعددون ويؤمرون بان يؤازر بعضهم بعضا (تنبيه) هرون بدل أو بيان أو منصوب على القطع ووزيرا مفعول ثان وقيل حال والمفعول الثاني معه ويدل على رسالة هرون عليه السلام قوله تعالى (فقلنا اذهبا الى القوم) اى الذين فيهم قوة وقدرة على ما يحاولونه وهم القبط فرعون وقومه (الذين كذبوا بآياتنا) فذهبا اليهم بالرسالة فكذبوهما (فدمرناهم تدميرا) اى أهلكناهم اهلاكا اى فأنت يا محمد لست أول من كذب من الرسل فلك أسوة بمن قبلك (فان قيل) الفاء للتعقيب والاهلاك لم يحصل عقب بعثة موسى وهرون اليهم بل بعده بمدة مديدة (اجيب) بان فاء التعقيب محمولة هنا على الحكم باهلاكهم لا على الوقوع أو على أنه على ارادة اختصار القصة فاقتصر على حاشيتيها اى أولها وآخرها لانهما المقصودان من القصة بطولها أعني الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم * (تنبيه) * قوله تعالى كذبوا بآياتنا ان حملنا تكذيب الآيات على الآيات الالهية فهو ظاهر وان حملناه على تكذيب آيات النبوة فاللفظ وان كان للماضي فالمراد به المستقبل * القصة الثانية قصة نوح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (وقوم) اى ودمرنا قوم (نوح لما كذبوا الرسل) كأنهم كذبوا نوحا ومن قبله من الرسل صريحا أو كانت تكذيبهم لواحد منهم تكذيبا للجميع بالقوة لان

ارأيت من اتخذ الهه هواه * ان قالتلم آخر

المعجزات هي البرهان على صدقهم وهي متساوية الاقدام في كونها خوارق لا يقدر على معارضتها فالتكذيب بشيء منها تكذيب للجميع أولم يروا بعثة الرسل أصلا كالبراهمة وهم قوم يمنعون بعثة الرسل نسبوا الى رجل يقال له برهام قد مهد لهم ذلك وقرره في عقولهم ولانهم علاوا تكذيبهم بانه من البشر فلزمهم تكذيب كل رسول من البشر * ثم بين تعالى تدميرهم بقوله تعالى (أغرقناهم) قال الكلبي أمطرنا عليهم السماء اربعين يوما واخرج ماء الارض ايضا في تلك الاربعين فصارت الارض بحرا واحدا (وجعلناهم) اى قوم نوح في ذلك (للناس آية) اى لمن بعدهم عبرة يعتبر كل من سلك طريقهم (وأعتدنا) اى هيأنا في الآخرة (للظالمين) اى للكافرين وكان الاصل لهم ولكنه تعالى اظهر تعميما وتعليقا للحكم بالوصف (عذابا أليما) اى مؤلما سوى ما يحل بهم في الدنيا * القصة الثالثة قصة هود عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (وعادا) اى ودمرنا عادا قوم هود بالريح * القصة الرابعة قصة صالح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (وثمودا) اى ودمرنا ثمودا قوم صالح بالصيحة * القصة الخامسة المذكورة في قوله تعالى (وأصحاب الرس) اى البئر التى هي غير مطوية اى مبنية قال ابن جرير والرس في كلام العرب كل محفور مثل البئر والقبر اى ودمرناهم بالخسف واختلف في نبيهم فقيل شعيب وقيل غيره كانوا قعودا حولها فانهارت بهم وبمنازلهم فهلكوا جميعا وقال الكلبي الرس بئر بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فاهلكهم الله تعالى وفلج بفتح الفاء واللام والجيم قرية عظيمة بناحية اليمن من مساكن عاد وبسكون اللام واد قريب من البصرة وقيل الرس الاخدود وقيل بئر بانطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل أصحاب حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتخ قيل هو بفاء وقية فخاء معجمة أومهملة وياء تحتية وجيم وهي تنقض على صبيانهم فتخطفهم ان أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فاصابتها الصاعقة ثم انهم قتلوا حنظلة فاهلكوا (وقرونا) اى ودمرنا قرونا (بين ذلك) اى الامر العظيم المذكور وهو بين كل أمتين من هذه الامم وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير اليها بذلك ويحسب الحاسب أعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب أو المعدود ثم قال الله تعالى (كثيرا) وناهيك بما يقول فيه سبحانه وتعالى انه كثير وأسند البغوى في تفسير أمة وسطا في البقرة عن أبي سعيد الخدري قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بعد صلاة العصر فما ترك شيئا الى يوم القيامة الاذكره في مقامه ذلك حتى اذا كانت الشمس على رؤس النخل واطراف الحيطان قال انه لم يبق من الدنيا فيما مضى الا كما بقي من يومكم هذا الا وان هذه الامة توفي سبعين أمة هي آخرها واكرمها على الله عز وجل ثم انه تعالى قال تسلية لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وتاسية وبيانا لشريعته بالعفو عن أمته (وكلا) اى من هذه الامم (ضربنا) اى بما لنا من العظمة (له الامثال) حتى وضح له السبيل وقام من غير شبهة الدليل (وكلا تبرنا تتبيرا) اى أهلكنا اهلاكا وقال الاخفش كسرنا تكسيرا وقال الزجاج كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته (ولقد أتوا) اى هؤلاء المكذبون من قومك (على القرية التى

هو اما مع انه المفعول الاول (قال) للعناية بتقديم الاول

أمطرت) أى وقع امطارها من لا يقدر على الامطار وهو بالحجارة ولذا قال تعالى (مطر السوء) مصدر ساء وهى قرى قوم لوط قال البغوى كانت خمس قرى فأهلك الله تعالى أربعا منها بأهلها وبقيت واحدة وهى صغر وكان أهلها لا يعملون العمل الخبيث (فان قيل) لم عبر تعالى بالقرية وهى قرى (أجيب) بأنه تعالى قال ذلك تحقيرا لشأنها فى جنب قدرته تعالى واهانة لمن يريد عذابه ولانهما كهم على الفاحشة جميعهم حتى كانوا كأنهم شئ واحد وقوله تعالى (أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون) أى لا يخافون (نشورا) أى بعثا بعد الموت لأنه استقر فى أنفسهم اعتقادهم التكذيب بالآخرة واستمروا عليه قرنا بعد قرن حتى تمكن منهم ذلك تمكينا لا ينفع معه الاعتبار الا من شاء الله (واذا رأوك) أى مع ما يعلمون من صدق حديثك وكرم أفعالك ولو لم تأتهم بمعجزة فكيف وقد أتيتهم بما يبهر العقول (ان) أى ما (يتخذونك الا هزوا) أى مهزوا بك وعبر تعالى بالمصدر اشارة الى مبالغتهم فى الاستهزاء مع شدة بعده صلى الله عليه وسلم عن ذلك يقولون (أهذا الذى بعث الله رسولا) أى فى دعواه محتقرين له أن تأتيه الرسالة وقولهم (ان) مخففة من الثقيلة أى انه (كاد ليضلنا) أى يصرفنا (عن آلهتنا) أى عن عبادتها بفرط اجتهاده فى الدعاء الى التوحيد وكثرة ما يورد مما يسبق الى الذهن انها حجج ومعجزات (لولا أن صبرنا) أى بما لنا من الاجتماع والتعاضد (عليها) أى على التمسك بعبادتها قال الله تعالى (وسوف يعلمون) أى فى حال لا ينفعهم فيه العمل ولا العلم وان طالت مدة الامهال فى التمكين (حين يرون العذاب) عيانا فى الآخرة (من أضل سبيلا) أى أخطأ طريقا أهم أم المؤمنون * ولما كان صلى الله عليه وسلم حريصا على رجوعهم ولزوم ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم سلاه تعالى بقوله تعالى متعجبا من حالهم (أرأيت) أى أخبرنى (من اتخذ الهه هواه) أى أطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة ولا نظر دليلا (فان قيل) لم أخر هواه والاصل قولك اتخذ الهوى الها (أجيب) بأنه ما هو الا تقديم المفعول الثانى على الاول للعناية كما تقول علمت منطلقا زيدا لفضل عنايتك بالمنطلق * ولما كان لا يقدر على صرف الهوى الا الله تعالى تسبب عن شدة حرصه على هداهم قوله تعالى (أفأنت تكون عليه وكيلا) أى حافظا تحفظه من اتباع هواه لا قدرة لك على ذلك (أم تحسب أن أكثرهم) أى هؤلاء المدعوين (يسمعون) أى سماع من ينزجر ولو كان غير عاقل كالبهائم (أو يعقلون) أى كالبهائم ما يرون وان لم يكن لهم سمع حتى تطمع فى رجوعهم باختيارهم من غير قسر (فان قيل) انه تعالى لما نفى عنهم السمع والعقل فكيف ذمهم على الاعراض عن الدين وكيف بعث اليهم الرسول فان من شرط التكليف العقل (أجيب) بأنه ليس المراد أنهم لا يعقلون شيئا بل المراد انهم لم ينتفعوا بذلك العقل فهو كقول الرجل لغيره اذا لم يفهم انما أنت أعمى وأصم (فان قيل) لم خص الاكثر بذلك دون الكل (أجيب) بأنه كان منهم من آمن ومنهم من عقل الحق فكابر استكبارا وخوفا على الرياسة * ولما كان هذا الاستفهام مفيدا للنفى استأنف ما أفهمه بقوله تعالى (ان) أى ما (هم الا كالانعام) أى فى عدم انتفاعهم بقرع الآيات آذانهم وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات (بل هم أضل) أى منها (سبيلا) لانها تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن اليها ممن يسىء اليها وتطلب ما ينفعها

قوله وبعضه صراط كذا فى النسخ التى بايدينا والصواب وخمس واحدة منها كما يدل عليه كلام الجلال اه مصحح

قوله كقولك علمت فاضلا زيدا (قوله انتهى به بالدة ميتا ذكر الصفة مع ان الموصوف مؤنث نظرا

وتجتنب مايضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون احسانه اليهم من اساءة الشيطان الذى هو عدوهم ولا يطلبون الثواب الذى هو اعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والعذب الروى * ولما بين تعالى جهل المعرضين عن دلائل التوحيد وبين فساد طريقهم ذكر أنواعا من الدلائل على وجود الصانع أولها الاستدلال بالنظر الى حال الظل مخاطبا رأس المخلصين الناظرين هذا النظر حثا لاهل ودة على مثل ذلك بقوله تعالى (ألم تر) اى تنظر (الى ربك) اى الى صنعه وقدرته (كيف مد الظل) وهو ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس بجعله ممدودا لانه ظل لاشمس معه كما قال تعالى فى ظل الجنة وظل ممدود اذ لم يكن معه شمس وان كان بينهما فرق وهو الليل لان ظل الارض الممدود على قريب من نصف وجهها مدة تحجب نور الشمس عما قابل قرصها من الارض حتى امتد بساطه وضرب فسطاطه كما حجب ظل ضلالهم أنوار عقولهم وغفلة طباعهم نفوذ اسماعهم (ولو شاء لجعله) اى الظل (ساكنا) اى دائما ثابتا لا يزول ولا تذهبه الشمس لاصقا باصل كل مظل من جبل وبناء وشجر غير منبسط فلم ينتفع به أحد سمى انبساط الظل وامتداده تحركا منه وعدم ذلك سكونا لكنه تعالى لم يشأ بل جعله متحركا كما يسوق الشمس له وقال أبو عبيدة الظل مانسخته الشمس وهو بالغداة والفيء مانسخ الشمس وهو بعد الزوال سمى فيأ لانه فاء من جانب المشرق الى جانب المغرب (ثم جعلنا الشمس عليه) اى الظل (دليلا) اى ان الناس يستدلون بالشمس وأحوالها فى مسيرها على أحوال الظل من كونه ثابتا فى مكان أوزائلا ومتسعا أو متقلصا فلولم تكن الشمس لما عرف الظل ولولا النور لما عرفت الظلمة والاشياء تعرف باضدادها (ثم قبضناه) اى الظل (الينا) اى الى الجهة التى أردنا لا يقدر أحد غيرنا أن يحوله الى جهة غيرها والقبض جمع المنبسط من الشئ ومعناه ان الظل يعم جميع الارض قبل طلوع الشمس فاذا طلعت قبض الله الظل (قبضا يسيرا) اى على مهل وفى هذا القبض اليسير شيأ بعد شئ من المنافع ما لا يعد ولا يحصى ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا وقيل المراد من قبضها يسيرا قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض أسبابها وهى الاجرام التى تلقى الظلال وقوله تعالى يسيرا كقوله تعالى حشر علينا يسير (فان قيل) ثم فى هذين الموضعين كيف موقعها (أجيب) بان موقعها بيان تفاضل الامور الثلاثة كان الثانى أعظم من الاول والثالث أعظم منهما تشبيها لتباعد ما بينهما فى الفضل بتباعد ما بين الحوادث فى الوقت * ولما تضمنت هذه الآية الليل والنهار وهو النوع الثانى قال تعالى مصرحا بهما (وهو) اى ربك المحسن اليك وحده (الذى جعل) دليلا على الحق واظهارا للنعمة على الخلق (لكم الليل) اى الذى تكامل به مد الظل (لباسا) اى ساترا للاشياء شبه ظلامه باللباس فى ستره (والنوم سباتا) اى راحة للابدان بقطع المشاغل وهو عبارة عن كونه موتا أصغر طاويا لما كان من الاحساس قاطعا لما كان من الشعور والتقلب فيه دلائل لاهل البصائر قال البغوى وغيره وأصل السبت القطع وفى جعله تعالى لذلك من الفوائد الدينية والدنيوية ما لا يعد ولا يحصى وكذا فى قوله تعالى (وجعل) اى وحده (النهار نشورا) اى

الى معنى البلدة وهو المكان
لا الى لفظها والصرف به
تخفيف اللفظ وقدم فى

منشورا

منشورا فيه لابتغاء الرزق وغيره وفي ذلك اشارة الى أن النوم واليقظة أنموذجان للموت
والنشور ويحكى ان لقمان قال لابنه يابني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر * ثم ذكر
النوع الثالث بقوله تعالى (وهو) اى وحده (الذى أرسل الرياح) وقرأه ابن كثير بالافراد
لارادة الجنس وقرأه الباقون بالجمع لكونها تارة صبا وتارة دبورا وتارة شمالا وتارة جنوبا
وغير ذلك ويسن الدعاء عند هبوب الريح ويكره سبها لخبر الريح من روح الله تأتي بالرحمة
وتأتي بالعذاب فاذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها رواه
أبو داود وغيره باسناد حسن وقوله تعالى (نشرا) قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم النون
والشين اى ناشرات للسحاب وقرأه ابن عامر بضم النون وسكون الشين على التخفيف
وقرأه عاصم بالباء الموحدة مضمومة وسكون الشين جمع بشور ريح بمعنى مبشر وقرأه حمزة
والكسائي بفتح النون وسكون الشين على أنه مصدر وصف به (بين يدي رحمته) اى قدام
المطر ولما كان الماء سببا لما حملته الريح من السحاب أتبعه به بقوله تعالى (وأنزلنا)
اى بما لنا من العظمة (من السماء) اى من السحاب أو الجرم المعهود (ماء) ثم أبدل منه بيانا
للنعمة به فقال تعالى (طهورا) اى طاهرا في نفسه مطهرا لغيره كما قال تعالى في آية أخرى
ليطهركم به فهو اسم لما يتطهر به كالوضوء لما يتوضأ به وكالسحور اسم لما يتسحر به
والفطور اسم لما يفطر به قال صلى الله عليه وسلم في البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته أراد به
المطهر فالماء المطهر لانه يطهر الانسان من الحدث والخبث وذهب بعض الائمة الى أن
الطهور هو الطاهر حتى جوز ازالة النجاسة بالمائعات الطاهرة مثل الخل ورد بانه لو جاز ازالة
النجاسة بها لجاز ازالة الحدث بها وذهب بعضهم الى أن الطهور ما يتكرر به التطهير
كالصبور اسم لمن يتكرر منه الصبر والشكور اسم لمن يتكرر منه الشكر حتى جوز
الوضوء بالماء الذي يتوضأ به مرة بعد مرة ورد بان فعولا يأتي اسما للآلة كسحور ولما
يتسحر به كما مر فيجوز أن يكون طهور كذلك ولو سلم اقتضاؤه التكرر فالمراد جمعا بين الادلة
فان الصحابة رضي الله عنهم لم يجمعوا الماء في أسفارهم القليلة الماء بل عدلوا عنه الى التيمم
ثبوت ذلك لجنس الماء أو في المحل الذي كان يمر عليه فانه يطهر كل جزء منه (لنحيي به) اى بالماء
(بلدة ميتا) اى بالنبات وذكر ميتا باعتبار المكان (ونسقيه) اى بالماء وهو من أسقاه
من بدل سقاه وهما لغتان قال ابن القطاع سقيتك شرابا وأسقيتك والله تعالى أسقى عباده
وأرضه (مما خلقنا أنعاما) اى ابلا وبقرا وغنما (وأناسي كثيرا) جمع انسان وأصله أناسين
فابدلت النون ياء وأدغمت فيها الياء أو جمع انسي وقدم تعالى النبات لان به حياة الانعام
والانعام على الانسان لان بها كمال حياته (فان قيل) لم خص الانعام من بين ما خلق من
الحيوان (أجيب) بان الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الانعام
ولانها قنية الاناسي وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الانعام عليهم بسقي أنعامهم كالانعام
بسقيهم (فان قيل) لم نكر الانعام والاناسي ووصفها بالكثرة (أجيب) بان جل الناس
منيخون بالقرب من الاودية والانهار ومنابع الماء فبهم غنية عن سقي السماء وأعقابهم
وهم كثير منهم لا يعيشون الا بما ينزل الله من رحمته وسقيا سمائه وكذلك قوله تعالى لنحيي به

الآية احياء الارض وسقي الانعام على سقي الاناسي لان حياة الاناسي بحياة

بالمدة فيتابع بذنب بعض بلاد هؤلاء المتبعدين عن مظان الماء واختلف في عود الهاء في قوله تعالى (ولقد صرفناه بينهم) على ثلاثة أوجه أولها قال الجمهور انها ترجع الى المطر أى صرفنا نزول الماء من وابل وطل وغير ذلك مرة ببلد ومرة ببلدة أخرى قال ابن عباس ما عام بأمطر من عام آخر ولكن الله تعالى يصرفه في الارض وقرأ هذه الآية وهذا كما روى مرفوعا ما من ساعة من ليل أو نهار الا والسماء تمطر فيها فيصرفه الله تعالى حيث يشاء وروى عن ابن مسعود يرفعه قال ليس من سنة بأمطر من أخرى ولكن الله تعالى قسم هذه الارزاق فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم واذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك الى غيرهم فاذا عصوا جميعا صرف الله ذلك الى الفيافي والبحار وروى أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام لانه لا يختلف ولكن تختلف فيه البلاد ثانيها قال أبو مسلم الضمير راجع الى المطر والسحاب والظلال وسائر ما ذكره الله من الادلة ثالثها صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب والصحف التي أنزلت على الرسل عليهم الصلاة والسلام وهو ذكر انشاء السحاب وانزال المطر (ليذكروا) اى ليتفكروا ويعلموا كمال القدرة وحق النعمة ويقوموا بشكره *(تنبيه)* أصل يذكروا يتذكروا أدغمت التاء في الذال وقرأ حمزة والكسائي بسكون الذال ورفع الكاف مخففة والباقون بفتح الذال والكاف مشددتين (فأبى) اى لم يرد (أكثر الناس) اى بعبادتهم (الا كفورا) اى جحود النعمة وقلة الاكتراث بها وكفرانهم هو أنهم اذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا وهو بفتح النون وهمزة آخره وقت النجم الفلاني على عادة العرب في اضافة المطر الى الانواء فيكره أن يقول ذلك لايهامه ان النوء فاعل المطر حقيقة فان اعتقد أنه الفاعل له حقيقة كفر روى زيد بن خالد الجهني قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة قالوا الله ورسوله أعلم قال قال أصبح من عبادى مؤمن بي وكافر بي فاما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب وأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأفاد تعليق الحكم بالباء أنه لو قال مطرنا في نوء كذا لم يكره ونقل الشافعي عن بعض الصحابة أنه كان يقول عند المطر مطرنا بنوء الفتح ثم يقرأ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها (ولو شئنا لبعثنا) اى بما لنا من العظمة ونفوذ الكلمة (في كل قرية نذيرا) أى رسولا ينذرهم من البشر أو الملائكة أو غيرهم كما قسمنا المطر عليها وانما قصرنا الامر عليك وعظمناك به وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل (فلا تطع الكافرين) فيما قصدوا من التنفير عن الدعاء بما يبدونه من المقترحات أو يظهرون لك من المداهنة أو من القلق من صادع الانذار ويخيلون لك انك لو أقللت منه رجوا أن يوافقوك وقابل ذلك بالتشدد والتصميم (وجاهدهم) أى بالدعاء (به) أى القرآن الذى تقدم التحدث عنه في قوله تعالى ولقد صرفناه أو بترك طاعتهم المدلول عليه بقوله تعالى فلا تطع أو بالسيف والاقرب الاول لان السورة مكية والامر بالقتال ورد بعد الهجرة بزمان (جهادا كبيرا) أى جامعا لكل المجاهدات الظاهرة والباطنة

فقدم
أرضهم وأنعامهم
ماهو سبب حياتهم ومعاشهم
ولان سقى الارض بماء

لان في ذلك اقبال كثير من الناس اليك واجتماعهم عليك فيقوى أمرك ويعظم خطبك وتضعف شوكتهم وتنكسر سورتهم فان مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الاعداء بالسيف ثم ذكر النوع الرابع بقوله تعالى (وهو الذى مرج البحرين) أى الماءين الواسعين الكبيرين بان خلاهما متجاورين متلاصقين وهو بقدرته تعالى يفصل بينهما ويمنعهما التمازج (هذا عذب) أى حلو سائغ (فرات) أى شديد العذوبة بالغ الغاية فيها حتى يضرب الى الحلاوة ولا فرق بين ما كان منه على وجه الارض وما كان في بطنها (وهذا ملح) اى شديد الملوحة (أجاج) أى مر محرق بملوحته ومرارته لا يصلح لسقى ولا شرب *(تنبيه)* أشار تعالى باداة القرب في الموضعين تنبيها على وجود الوصفين مع شدة المقاربة لا يلتبس أحدهما بالآخر حتى انه اذا حفر على شاطئ البحر الملح بالقرب جدا منه خرج الماء عذبا (وجعل) اى الله تعالى (بينهما برزخا) اى حاجزا من قدرته مانعا من اختلاطهما ثم انه تعالى أتم تقرير النعمة في منعهما من الاختلاط بالكلمة التى جرت عادتهم بقولها عند التعوذ تشبيها لكل منهما بالمتعوذ بقوله تعالى (وحجرا محجورا) فكان كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له ذلك كما قال تعالى لا يبغيان اى لا يبغى أحدهما على صاحبه بالملوحة أو العذوبة فانتفاء البغى كالتعوذ وههنا جعل كل واحد منهما في صورة الباغى على صاحبه فهو يتعوذ منه وهو من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة (فان قيل) لا وجود للبحر العذب فكيف ذكره الله تعالى هنا (أجيب) بان المراد منه الاودية العظام كالنيل وجيحون ومن البحر الاجاج البحار الكبار ثم ذكر النوع الخامس بقوله تعالى (وهو) اى وحده (الذى خلق من الماء) اى المنى من الرجل والمرأة (بشرا) اى انسانا (فجعله) اى بعد ذلك بالتطوير فى اطوار الخلقة والتدوير فى أدوار التربية (نسبا) اى ذكرا ينسب اليه (وصهرا) أى انثى يصاهر بها فقسم هذا الماء بعد التطوير الى ذكر وأنثى كما جعل ذلك الماء قسمين عذبا وملحا ونحوه قوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى وقيل النسب ما لا يحل نكاحه والصهر ما يحل نكاحه فالنسب ما يوجب الحرمة والصهر ما لا يوجبها قال البغوى وقيل وهو الصحيح النسب من القرابة والصهر الخلطة التى تشبه القرابة وهو النسب المحرم للنكاح وقد ذكر الله تعالى أنه حرم بالنسب سبعا في قوله تعالى في النساء حرمت عليكم أمهاتكم (وكان ربك) أى المحسن اليك بارسالك وانزال هذا الذكر اليك (قديرا) حيث خلق من مادة واحدة بشرا ذا أعضاء مختلفة وطبائع متباعدة وجعله قسمين ذكرا وأنثى وربما يخلق من نطفة واحدة توءمين ذكرا وأنثى فهو يوفق من يشاء فيجعله عذب المذاق سهل الاخلاق ويخذل من يشاء فيجعله مر الاخلاق كثير الشقاق عريقا في النفاق * ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد عاد الى تهجين سيرتهم فقال تعالى (ويعبدون) أى هؤلاء الكفرة (من دون الله) أى مما يعلمون أنه في الرتبة دون الله المستجمع لصفات الكمال والعظمة بحيث انه لا ضر ولا نفع الا وهو بيده (ما لا ينفعهم) بوجه من الوجوه ان عبدوه في ازالة كربة (ولا يضرهم) في ازالة نعمة من نعم الله تعالى عليهم ان تركوه (وكان الكافر) أى مع علمه بضعفه وعجزه (على ربه) أى المحسن اليه لا غيره (ظهيرا) اى معينا للشيطان من الانس والجن على أولياء الله

الظهير المعاون فى الوجود على ... (قوله ما لا ينفعهم ولا يضرهم) قدم ... النفع على ...

تعالى روى أنها نزلت في أبي جهل و يجوز أن يراد بالظهير الجماعة كقوله تعالى والملائكة بعد
ذلك ظهير كما جاء الصديق والخليط وعلى هذا يكون المراد بالكافر الجنس فان بعضهم مظاهر
لبعض على اطفاء نور دين الله قال تعالى واخوانهم يمدونهم في الغي وهذا أولى لان خصوص
السبب لا يقدح في عموم اللفظ ولانه أوفق لظاهر قوله تعالى و يعبدون من دون الله وقيل
معناه وكان الذي يفعل هذا الفعل وهو عبادة مالا ينفع ولا يضر على ربه هينا مهينا من
قولهم ظهرت به اذا خلفته خلف ظهرك لا تلتفت اليه وهو نحو قوله تعالى أولئك لا خلاق
لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم * ولما كان التقدير تسلية له صلى الله عليه وسلم
فالزم ما نأمرك به ولا يزدهك ردهم عما هم فيه فانا ما أرسلناك عليهم وكيلا عطف عليه
قوله تعالى (وما أرسلناك) بأشرف الخلق بما لنا من العظمة (الا مبشرا) بالثواب على الايمان
والطاعة (ونذيرا) اي مخوفا بالعقاب على الكفر والمعصية * ثم كانه قيل فماذا أقول لهم
اذا طعنوا في الرسالة فقال تعالى (قل) اى لهم يا أكرم الخلق حقيقة وأعدلهم طريقة
محتجا عليهم بازالة ما يكون موضعا للتهمة (ما أسئلكم عليه) اى على تبليغ ما أرسلت به (من
أجر) فتتهموني أني أدعوكم لاجله اذ لا غرض لي الا نفعكم ثم أكد هذا المعنى بقوله تعالى
مستثنيا لان الاستثناء معيار العموم (الا من) اى الا أجر من (شاء أن يتخذ) اى يكلف نفسه
ويخالف هواه و يجعل له (الى ربه سبيلا) فانه اذا اهتدى بهدايته كان لي مثل أجره لا نفع
لي من جهتكم الا هذا فان سميتم هذا أجرا فهو مطلوبي ولا مرية في أنه لا ينقص أحدا شيأ
من دنياه فافاد فائدتين الاولى أنه لا طمع له أصلا في شئ ينقصهم والثانية اظهار الشفقة
البالغة حيث لم يقصد بنفعهم الموصل لهم الى ربهم ثوابا لنفسه وقيل الاستثناء منقطع أي
لكن من يشاء أن يتخذ الى ربه سبيلا فليفعل وجرى على هذا الجلال المحلى وقال ابن عادل في
الاول نظر لانه لم يسند السؤال المنفى في الظاهر الى الله تعالى انما أسنده الى المخاطبين فكيف
يصح هذا التقدير انتهى وقرأ قالون والبزي وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر
وسهل ورش وقنبل الثانية ولهما أيضا ابدالها ألفا والباقون بتحقيق الهمزتين * ولما بين
تعالى أن الكفار يتظاهرون على ايذائه وأمره أن لا يطلب منهم أجرا أمره أن يتوكل عليه
في دفع جميع المضار وجلب جميع المنافع بقوله تعالى (وتوكل) أي أظهر العجز والضعف
واستسلم واعتمد في أمرك كله ولا سيما في مواجهتهم بالانذار وفي ردهم عن عنادهم (على الحي
الذي لا يموت) فلا ضياع لمن توكل عليه فانه الحقيق بان يتوكل عليه دون الاحياء الذين يموتون
فانهم اذا ماتوا ضاع من توكل عليهم وعن بعض السلف انه قرأها فقال لا يصح لذي عقل أن
يثق بعدها بمخلوق (وسبح) متلبسا (بحمده) أي نزهه عن كل نقص مثبتا له كل كمال وقيل صل
له شكرا على نعمه وقيل قل سبحان الله والحمد لله وحده وعلى هذا اقتصر الجلال المحلى (وكفى
به بذنوب عباده) أي ما ظهر منها وما بطن وكل ما سواه عبيده (خبيرا) أي عالما مطلقا فلا يخفى
عليه خافية شئ منها وان دق فلا عليك ان آمنوا أو كفروا وهذه الكلمة يراد بها المبالغة يقال
كفى بالعلم كمالا وكفى بالادب مالا وهو بمعنى حسبك اى لا تحتاج معه الى غيره لانه تعالى خبير
باحوالهم قادر على مكافأتهم وهذا وعيد شديد ولما أمر الله تعالى رسوله محمدا صلى الله

عليه

النفع على الضر موافقة
لقوله قبل هذا عذب فرات
وهذا ملح اجاج (قوله قل

عليه وسلم أن يتوكل عليه وصف تعالى نفسه بأمور منها أنه حي لا يموت ومنها أنه عالم بجميع المعلومات ومنها أنه قادر على كل الممكنات وهو قوله تعالى (الذي خلق السموات والأرض) على عظمهما (وما بينهما) من الفضاء والعناصر والعباد وأعمالهم من الذنوب وغيرها الا بعلم من خلق وقوله تعالى (في ستة أيام) اي من أيام الدنيا تهذيب للغبي الجاهل وتدريب للفطن العالم في الحلم والاناة والصبر على عباد الله تعالى في دعوتهم (فان قيل) الايام عبارة عن حركة الشمس في السموات فقبل السموات لا أيام فكيف قال تعالى في ستة أيام (أجيب) بانه تعالى خلقها في مدة مقدارها هذه الايام (فان قيل) يلزم على هذا قدم الزمان وهو ممنوع (أجيب) بان الله تعالى خلق هذه المدة أولا ثم خلق السموات والارض فيها بمقدار ستة أيام فلا يلزم من ذلك قدم الزمان وقيل في ستة أيام من أيام الآخرة كل يوم مقداره ألف سنة وهو بعيد لان التعريف لابد وأن يكون بامر معلوم لا بامر مجهول (فان قيل) لم قدر الخلق والايجاد بهذا المقدار (أجيب) بانه يجب على المكلف أن يقطع الطمع عن مثل هذا فانه بحر لا ساحل له ومن ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بثمانية والشهور باثني عشر والسموات بالسبع وعدد الصلوات ومقادير النصب في الزكوات والحدود والكفارات فالاقرار بان كل ما قاله الله حق هو الدين والواجب ترك البحث عن هذه الاشياء وقد نص الله تعالى على ذلك في قوله عز وجل وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ثم قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وهذا جواب أيضا عن أنه لم يخلقها في لحظة وهو قادر على ذلك وعن سعيد بن جبير انما خلقها في ستة أيام وهو قادر أن يخلقها في لحظة واحدة تعليما لخلقه الرفق والتثبت وقيل اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عيدا للمسلمين وعن مجاهد أول الايام يوم الاحد وآخرها يوم الجمعة ۞ ولما كان تدبير هذا الملك أمرا باهرا أشار اليه باداة التراخي بقوله تعالى (ثم استوى على العرش) أي شرع في التدبير لهذا الملك الذي اخترعه وأوجده ولا يجوز أن يفسر بالاستقرار لانه يقتضي التغيير الذي هو دليل الحدوث ويقتضي التركيب وكل ذلك على الله محال (فان قيل) يلزم من ذلك أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وقد قال تعالى وكان عرشه على الماء (أجيب) بان كلمة ثم ما دخلت على خلق العرش بل على رفعه على السموات وهو في اللغة سرير الملك وفي رفع قوله تعالى (الرحمن) أوجه أحدها أنه خبر الذي خلق أو خبر مبتدا مضمر أي هو الرحمن ولهذا أجاز الزجاج وغيره الوقف على العرش ثم يبتدئ الرحمن أي هو الرحمن الذي لا ينبغي السجود والتعظيم الا له أو يكون بدلا من الضمير في استوى وعلى هذا اقتصر الجلال المحلي واختلف في معنى الفاء في قوله تعالى (فاسئل به) على قولين أحدهما أنها على بابها وهي متعلقة بالسؤال والمراد بقوله (خبيرا) أي عالما يخبرك بحقيقته هو الله تعالى ويكون من التجريد كقوله رأيت به أسدا والمعنى فاسأل الله الخبير بالاشياء قال الزمخشري أو فاسأل بسؤاله خبيرا كقولك رأيت به أسدا أي برؤيته انتهى قال الكلبي فقوله به يعود الى ما ذكر من خلق

لا أسئلكم عليه) اي على
ابلاغ ما أنزل علي من اجر
الا من شاء أن يتخذ الى ربه

السموات والارض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله تعالى لانه لا دليل في العقل على كيفية خلق السموات والارض والاستواء على العرش ولا يعلمها أحد الا الله تعالى والثاني أن تكون الباء بمعنى عن اما مطلقا واما مع السؤال خاصة كهذه الآية وكقول علقمة بن عبدة

فان تسألوني بالنساء فانني * خبير بأدواء النساء طبيب

والضمير في به لله وخبيرا من صفات الملك وهو جبريل عليه السلام فعن ابن عباس أن ذلك الخبير هو جبريل وانما قدم لرؤس الآي وحسن النظم وقال ابن جرير الباء في به صلة والمعنى فاسأله خبيرا وخبيرا نصب على الحال وقيل به يجري مجرى القسم كقوله تعالى واتقوا الله الذي تساءلون به وقيل فاسأل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب حتى تعرف من ينكره ومن ثم كانوا يقولون ما نعرف الرحمن الا الذي باليمامة يعنون مسيلمة الكذاب وكان يقال له رحمن اليمامة وقيل فاسأل بسبب سؤالك اياه خبيرا عن هذه الامور وكل أمر تريده فيخبرك بحقيقة أمره ابتداء وحالا ومآلا فلا يضيق صدرك بسبب هؤلاء المدعوين فانه ما أرسلك الا وهو عالم بهم فسيعلي كعبك عليهم ويحسن لك العاقبة وقرأ ابن كثير والكسائي بالنقل وكذا يقرأ حمزة في الوقف والباقون بسكون السين وفتح الهمزة ولما ذكرتهم لي احسانه اليهم وانعامه عليهم ذكر ما أبدوه من كفرهم في موضع شكرهم بقوله (واذا قيل لهم) أي من أي قائل كان لهؤلاء الذين يتقلبون في نعمه (اسجدوا) أي اخضعوا بالصلاة وغيرها (للرحمن) أي الذي لا نعمة لكم الا منه (قالوا وما الرحمن) متجاهلين في معرفته فضلا عن كفر نعمته معبرين باداة ما لا يعقل وقال ابن عربي انما عبروا بذلك اشارة الى جهلهم بالصفة دون الموصوف ثم عجبوا من أمره بذلك منكرين عليه بقولهم (أنسجد لما تأمرنا) فعبروا عنه بعد التجاهل في أمره والانكار على الداعي اليه أيضا باداة ما لا يعقل (وزادهم) أي هذا الامر الواضح المقتضي للاقبال والسكون شكر النعمة وطمعا في الزيادة (نفورا) أي عن الايمان والسجود

* (تنبيه) * هذه السجدة من عزائم سجود التلاوة يسن للقارئ والمستمع والسامع أن يسجد عند قراءتها أو سماعها وقرأ واذا قيل لهم هشام والكسائي بالاشمام وضم القاف مع سكون الياء والباقون بكسر القاف وقرأ لما يأمرنا حمزة والكسائي بالياء التحتية والباقون بالتاء الفوقية وأبدل ورش والسوسي الهمزة وقفا ووصلا وحمزة وقفا لا وصلا * ولما حكى تعالى عن الكفار مزيد النفرة عن السجود وذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعبادة للرحمن قال عز من قائل (تبارك) أي ثبت ثباتا لا نظير له (الذي جعل في السماء) التي تقدم أنه اخترعها واختلف في معنى قوله (بروجا) فقال الزجاج ومجاهد وقتادة هي النجوم الكبار سميت بروجا لظهورها وقال عطية العوفي هي القصور فيها الحرس كما قال تعالى ولو كنتم في بروج مشيدة وقال عطاء عن ابن عباس هي الاثنا عشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيارة وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت فالحمل والعقرب بيتا المريخ والثور والميزان بيتا الزهرة والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد والسرطان بيت القمر والاسد

بيت

...سبيلا أي فاما
أي الى ثوابه ... فهو استثناء
الدال على ذلك
منقطع وأما الاستثناء في قوله
لا أسئلكم عليه أجرا الا

بيت الشمس والقوس والحوت بيتا المشترى والجدى والدلو بيتا زحل وهذه البروج مقسومة على الطبائع الاربعة فيكون نصيب كل واحد منها ثلاثة بروج تسمى المثلثات فالحمل والاسد والقوس مثلثة نارية والثور والسنبلة والجدى مثلثة أرضية والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية (وجعل فيها) أى السماء وقيل البروج (سراجا) أى شمسا وقرأ حمزة والكسائى بضم السين والراء على الجمع للتنبيه على عظمته فى ذلك من حيث انه أعظم من ألوف من السرج فهو قائم مقام الوصف كما فى الذى بعده كما سيأتى وقيل المراد بالجمع الشمس والكواكب الكبار والباقون بكسر السين وفتح الراء وألف بعدها على التوحيد (وقمرا منيرا) أى مضيئا بالليل ولما ذكر تعالى هاتين الآيتين ذكر ما هما آيتاه بقوله تعالى (وهو الذى جعل الليل) أى الذى آيته القمر (والنهار) أى الذى آيته الشمس (خلفة) أى ذوى حالة معروفة فى الاختلاف فيأتى هذا خلف ذاك بضد ماله من الاوصاف وقال ابن عباس والحسن يعنى خلفا وعوضا يقوم أحدهما مقام صاحبه فمن فاته عمله فى أحدهما قضاه فى الآخر قال شقيق جاء رجل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال فاتتنى الصلاة الليلة قال أدرك ما فاتك من ليلتك فى نهارك فان الله عز وجل جعل الليل والنهار خلفة (لمن أراد أن يذكر) أى يتذكر آلاء الله ويتفكر فى صنعه فيعلم أنه لابد له من صانع حكيم واجب الذات رحيم على العباد وقرأ حمزة بسكون الذال وضم الكاف مخففة من ذكر بمعنى تذكر والباقون بفتح الكاف والذال مشددتين (أو أراد شكورا) أى شكر نعمة ربه عليه من الاتيان بكل منهما بعد الآخر لاجتناء ثمراته ولو جعل أحدهما دائما لفاتت مصالح الآخر ولحصلت السآمة والملل منه والتوانى فى الامور المقدرة بالاوقات وفتر العزم الذى انما يثيره لتداركها دخول وقت آخر وغير ذلك من الامور التى أحكمها العلى الكبير وعن الحسن من فاته عمله من التذكر والشكر بالنهار كان له فى الليل مستعتب ومن فاته بالليل كان له فى النهار مستعتب ولما ذكر الله تعالى عباده الذى خذلهم بتسليط الشيطان عليهم فصار واحزبا ولم يضفهم الى اسم من اسمائه ايذانا باهانتهم لهوانهم عنده أشار الى عباده الذين أخلصهم لنفسه بقوله تعالى (وعباد الرحمن) فأضافهم اليه رفعة لهم وان كان الخلق كلهم عباده وأضافهم الى وصف الرحمة الابلغ الذى أنكره أولئك تبشيرا لهم ثم وصفهم بضد ما وصف به المتكبرين عن السجود اشارة الى أنهم تخلقوا من هذه الصفة التى أضيفوا اليها بصفات كثيرة الصفة الاولى قوله تعالى (الذين يمشون) وقال تعالى (على الارض) تذكيرا بما يصيرون اليه وحثا على السعى فى معالى الاخلاق (هونا) أى هينين أو مشيا هينا مصدر وصف به مبالغة والهون الرفق واللين ومنه الحديث أحبب حبيبك هونا ما وقوله المؤمنون هينون لينون والمثل اذا عز أخوك فهن والمعنى اذا عاسر فياسر والمعنى أنهم يمشون بسكينة وتواضع ووقار لا يضربون لوقارهم باقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا ولذلك كره بعض العلماء الركوب فى الاسواق لقوله تعالى ويمشون فى الاسواق ٭(تنبيه)٭ عباد مرفوع بالابتداء وفى خبره وجهان أحدهما الجملة الاخيرة فى آخر السورة أولئك يجزون وبه بدأ الزمخشرى والذين يمشون وما بعده صفات للمبتدا والثانى أن الخبر

منسوخ المودة فى القربى بقوله تعالى قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ان أجرى الا على الله على ما روى عن

الذين يمشون * الصفة الثانية (وإذا خاطبهم الجاهلون) أي بما يكرهون (قالوا سلاما) أي نسلم منكم لا نجاهلكم ومتاركة لا خير بيننا ولا شر اي فنسلم منكم تسليما فأقيم السلام مقام التسليم وقيل قالوا سدادا من القول اي يسلمون فيه من الاثم والايذاء وليس المراد التحية لان المؤمنين لم يؤمروا بالسلام على المشركين وعن أبي العالية نسختها آية القتال ولا حاجة الى ادعاء النسخ بآية القتال ولا غيرها لان الاغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في الادب والمروأة والشريعة أسلم للعرض والورع وأطلق الخطاب اعلاما بان أكثر خصال الجاهل وهو الذي يخالف العلم والحكمة الجهل وهو السفه وقلة الادب من قوله

الا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

* ولما ذكر تعالى ما بينهم وبين الخلق ذكر ما بينهم وبينه وهي الصفة الثالثة بقوله تعالى (والذين يبيتون) من البيتوتة قال الزجاج كل من أدركه الليل قيل بات وان لم ينم كما يقال بات فلان قلقا والمعنى يبيتون (لربهم) اي المحسن اليهم (سجدا) على وجوههم في الصلاة وقدمه لانه أنهى الخضوع وأخر عنه قوله تعالى (وقياما) اي على اقدامهم وان كان تطويل القيام أفضل للروى وتخصيص البيتوتة لان العبادة بالليل أشق وأبعد من الرياء قال الزمخشري والظاهر أنه وصف لهم باحياء الليل أو أكثره وقيل من قرأ شيأ من القرآن في صلاة وان قل فقد بات ساجدا وقائما وقال ابن عباس من صلى بعد العشاء ركعتين فقد بات ساجدا وقائما وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء وعن عثمان ابن عفان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى عشاء الآخرة في جماعة كان كقيام نصف ليلة ومن صلى الصبح في جماعة كان كقيام ليلة * ولما ذكر تعالى تهذيبهم للخلق والخالق وصفهم الله تعالى أنهم مع ذلك خائفون وجلون وهي الصفة الرابعة بقوله تعالى (والذين يقولون ربنا) اي المحسن الينا (اصرف عنا عذاب جهنم) قال ابن عباس يقولون في سجودهم وقيامهم هذا القول ثم علل سؤالهم بقوله تعالى (ان عذابها كان) اي كونا جبلت عليه (غراما) اي هلاكا وخسرانا ملحا لازما لا ينفك عنه كما قال

ان يعاقب يكن غراما وان يعـ * ـط جزيلا فانه لا يبالي

ومنه الغريم لملازمته والحاحه فهم يبتهلون الى الله تعالى في صرف العذاب عنهم لعدم اعتدادهم باعمالهم ووثوقهم على استقرار أحوالهم * ولما ثبت لهم هذا الوصف أنتج قوله تعالى (انها ساءت) اي تناهت هي في كل ما يحصل منه سوء وهي في معنى بئست في جميع المذام (مستقرا) اي موضع استقرار (ومقاما) اي موضع اقامة * (تنبيه) * ساءت في حكم بئست كما مر ففيها ضمير مبهم يفسره مستقرا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هي وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم ان وجعلها خبرا لها او يجوز أن تكون ساءت بمعنى أحزنت ففيها ضمير اسم ان ومستقرا حال أو تمييز والتعليلان يصح أن يكونا متداخلين أو مترادفين وأن يكونا من كلام الله تعالى وحكاية لقولهم * ولما ذكر تعالى أفعالهم وأقوالهم اتبع ذلك بذكر انفاقهم وهو الصفة الخامسة بقوله تعالى (والذين اذا أنفقوا) اي الخلق أو الخالق في واجب أو مستحب أو مباح (لم يسرفوا) اي لم يجاوزوا الحد في النفقة بالتبذير

فيضيعوا

ابن عباس رضي الله عنهما
أو هو استثناء منقطع كما
عليه المحققون تقديره
لكن اذكركم المودة

فيضيعوا الاموال في غير حقها (ولم يقتروا) اى لم يضيقوا فيضيعوا الحقوق (وكان) اى انفاقهم (بين ذلك) اى الاسراف والاقتار (قواما) اى وسطا (تنبيه) * اسم كان ضمير يعود على الانفاق المفهوم من قوله تعالى انفقوا وخبرها قواما وبين ذلك معمول له وقيل غير ذلك وذكر المفسرون في الاسراف والتقتير وجوها أحدها قال الرازي وهو الاقوى وصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقتير وبمثله أمر صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط اذ يقال ما عال من اقتصد وسأل رجل بعض العلماء ما البناء الذي لا سرف فيه قال ما سترك من الشمس وأكنك من المطر قال فما الطعام الذي لا سرف فيه قال ما سد الجوعة قال فما اللباس الذي لا سرف فيه قال ما ستر عورتك وأدفأك من البرد ثانيها وهو قول ابن عباس الاسراف النفقة في معصية الله تعالى والاقتار منع حق الله تعالى وقال مجاهد لو أنفق أحد مثل جبل أبي قبيس ذهبا في طاعة الله تعالى لم يكن مسرفا ولو أنفق صاعا في معصية الله تعالى كان مسرفا وقال الحسن لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عما ينبغي وأنشدوا

ذهاب المال في حمد وخير * ذهاب لا يقال له ذهاب

وسمع رجل رجلا يقول لا خير في الاسراف فقال لا اسراف في الخير وعن عمر بن عبد العزيز أنه شكر عبد الملك بن مروان حين زوجه ابنته وأحسن اليه فقال وصلت الرحم وفعلت وصنعت وجاء بكلام كثير حسن فقال ابن لعبد الملك انما هو كلام أعده لهذا المقام فسكت عبد الملك فلما كان بعد أيام دخل عليه والابن حاضر فسأله عن نفقته وأحواله فقال النفقة بين الشيئين فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية فقال لابنه يا بني هذا أيضا مما أعده وثالثها السرف مجاوزة الحد في التنعم والتوسع في الدنيا وان كان من حلال لانه يؤدي الى الخيلاء وكسر قلوب الفقراء فكانت الصحابة لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم ويقيهم من الحر والبرد وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه كفى سرفا أن لا يشتهي الرجل شيأ الا اشتراه فاكله وقرأ نافع وابن عامر يقتروا بضم التحتية وكسر الفوقية من اقتر وابن كثير وأبو عمرو بفتح التحتية وكسر الفوقية والكوفيون بفتح التحتية وضم الفوقية * ولما ذكر تعالى ما تحلوا به من أصول الطاعات أتبعه بذكر ما تخلوا عنه من أمهات المعاصي التي هي الفحشاء والمنكر وهو الصفة السادسة بقوله تعالى (والذين لا يدعون) اى رحمة لانفسهم واستعمالا للعدل (مع الله) اى الذي اختص بصفات الكمال (الها آخر) اى دعاء جليا بالعبادة ولا خفيا بالرياء ولما نفى عنهم ما يوجب قتل أنفسهم بخسارتهم اياها أتبعه نفي قتل غيرهم بقوله سبحانه (ولا يقتلون النفس) رحمة للخلق وطاعة للخالق ولما كان من الانفس ما لا حرمة له بين المراد بقوله تعالى (التي حرم الله) اى منع من قتلها (الا بالحق) اى بان تعمل ما يبيح قتلها ولما ذكر القتل الجلي أتبعه الخفي بتضييع نسب الولد بقوله تعالى (ولا يزنون) اى رحمة للمزني بها ولا قاربها ان تنتهك حرماتهم مع رحمته لنفسه على أن الزنا أيضا جار الى القتل والفتن وفيه التسبب الى ايجاد نفس بالباطل كما أن القتل سبب الى

في القرب (قوله واجعلنا للمتقين اماما) لم يقل ائمة رعاية للفواصل أو تقديره واجعل كل واحد منا اماما

اعداء مهابذلك وقد روى في الصحيح عن عبد الله بن مسعود انه سأل النبي صلى الله عليه وسلم اى الذنب أعظم وفي رواية أكبر عند الله قال أن تدعو لله ندا وهو خلقك قال ثم أى قال ان تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قال ثم اى قال ان تزانى حليلة جارك فانزل الله تصديق ذلك والذين لايدعون مع الله الها آخر الآية (وقد استشكل) تصديق هذه الآية للخبر من حيث ان الذي فيه قتل خاص وزنا خاص والتقييد بكونه أكبر والذي فيها مطلق القتل والزنا من غير تعرض لعظم (وأجيب) بدفع الاشكال بانها نطقت بتعظيم ذلك من سبعة أوجه الاول الاعتراض بين المبتدا الذي هو وعباد الرحمن وما عطف عليه والخبر الذي هو أولئك يجزون الغرفة على احدى الروايتين بذكر هذه الثلاثة خاصة وذلك دال على مزيد الاهتمام الدال على الاعظام الثاني الاشارة باداة البعد في قوله تعالى (ومن يفعل ذلك) اى هذا الفعل العظيم القبيح مع قرب المذكورات فدل على ان البعد من رتبتها وهو اشارة الى جميع ما تقدم لانه بمعنى ما ذكر فلذلك وحده وأدغم لام يفعل في الذال أبو الحرث والباقون بالاظهار الثالث التعبير بلاقى مع المصدر المزيد الدال على زيادة المعنى في قوله (يلق أثاما) دون يأثم ويلق اثما اى جزاء اثمه الرابع التقييد بالمضاعفة في قوله تعالى مستأنفا (يضاعف) بأسهل أمر (له العذاب) جزاء ما أتبع نفسه هواها الخامس التهويل بقوله تعالى (يوم القيامة) الذي هو أهول من غيره بالايقاس السادس الاخبار بالخلود الذي أقل درجاته أن يكون مكثا طويلا بقوله تعالى (ويخلد فيه) وقرأ يضاعف ويخلد ابن عامر وشعبة برفع الفاء والدال والباقون بجزمهما وأسقط الالف من يضاعف مع تشديد العين ابن كثير وابن عامر فالجزم على أنهما بدلان من يلق بدل اشتمال والرفع على الاستئناف السابع التصريح بقوله تعالى (مهانا) فالما أعظم الامر من هذه الاوجه علم أن كلا من هذه الذنوب كبير واذا كان الاعم كبيرا كان الاخص المذكور أعظم من مطلق الاعم لانه زاد عليه بما صار به خاصا فثبت بهذا أنها كبائر وان قتل الولد والزنا بحليلة الجار أكبر ماذكر فوجد تصديق الآية للخبر وقرأ حفص مع ابن كثير بصلة الهاء بالياء من فيه قبل مهانا (فان قيل) ذكر أن من صفات عباد الرحمن صفات حسنة كيف يليق بعد ذلك أن يطهرهم عن الامور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنا فلو كان الترتيب بالعكس كان أولى (اجيب) بان الموصوف بتلك الصفات السابقة قد يكون متمسكا بالشرك تدينا وبقتل الموؤدة تدينا وبالزنا تدينا فبين تعالى أن المرء لايصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن حتى يجتنب تلك الكبائر وأجاب الحسن بان المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار كأنه قال تعالى وعباد الرحمن الذين لايدعون مع الله الها آخر وأنتم تدعون ولا يقتلون وأنتم تقتلون الموؤدة ولا يزنون وأنتم تزنون ٭ ولما اتم تعالى تهديد الفجار على هذه الاوزار اتبعه ترغيب الابرار الى العزيز الغفار بقوله تعالى (الا من تاب) اى رجع عن كل شئ كان فيه من هذه النقائص (وآمن) اى أوجد الاساس الذي لايثبت عمل بدونه وهو الايمان وأكد رجوعه بقوله تعالى (وعمل عملا صالحا) اى مؤسسا على اساس الايمان (فان قيل) العمل الصالح يدخل فيه التوبة والايمان فذكرهما قبل العمل الصالح يستغنى عنه (أجيب) بانهما أفردا بالذكر لعلو شأنهما (تنبيه) ٭ اختلف

(قوله ويلقون فيها تحية وسلاما) جمع بين التحية والسلام مع انهما بمعنى لقوله تعالى تحيتهم يوم

فى هذا الاستثناء على وجهين أحدهما أنه استثناء متصل وهو ما دل عليه كلام الجمهور لأنه من الجنس والثانى أنه منقطع ورجحه أبو حيان معللا بأن المستثنى منه محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب فيصير التقدير الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فلا يضاعف له العذاب ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف بخلافه فى المنقطع فان التقدير لكن من تاب الى آخره فلا يلقى عذابا البتة ووجه كلام الجمهور بان ما ذكر ليس بلازم اذ المقصود الاخبار بان من فعل كذا فانه يحل به ما ذكر الا أن يتوب وأما اصابة أصل العذاب وعدمه فلا تعرض فى الآية له ثم زاد تعالى فى الترغيب بالاتيان بالفاء ربطا للجزاء بالشرط دليلا على أنه سببه فقال تعالى (فاولئك) اى العالو المنزلة (يبدل الله) اى الذى له العظمة والكبرياء (سيآتهم حسنات) قال ابن عباس ومجاهد هذا التبديل فى الدنيا فيبدل الله تعالى قبائح أعمالهم فى الشرك بمحاسن الاعمال فى الاسلام فيبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا احصانا وعفة فكانه تعالى يبشرهم بتوفيقهم لهذه الاعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثواب وقال الزجاج ان السيئة بعينها لا تصير حسنة فالتأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب مع التوبة حسنة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيآت وقال سعيد بن المسيب ومكحول ان الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية وهذا هو ظاهر الآية ويدل له ما روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انى لأعلم آخر رجل يخرج من النار رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال له اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فيعرض عليه صغارها فيقال له عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم فلا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه ان تعرض عليه فيقال له ان لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب قد عملت أشياء لا أراها هنا قال أبو هريرة فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه (وكان الله) اى الذى له الجلال والاكرام على الاطلاق أزلا وأبدا (غفورا) اى ستورا الذنوب كل من تاب بهذا الشرط (رحيما) به بان يعامله بالاكرام كما يعامل المرحوم فيعطيه مكان كل سيئة حسنة روى البخارى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى أهل الشرك ولما نزل صدرها قال أهل مكة قد عدلنا بالله وقتلنا النفس التى حرم الله وأتينا الفواحش فانزل الله الا من تاب الى رحيما روى البخارى فى التفسير ان ناسا من أهل الشرك كانوا قتلوا فاكثروا وزنوا فاكثروا فاتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا ان الذى تقول وتدعو اليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت هذه الآية ونزل قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله (ومن تاب) اى عن ذنوبه غير ما ذكر (وعمل) تصديقا لادعائه التوبة (صالحا) ولو كان كل من نيته وعمله ضعيفا ورغب سبحانه فى ذلك بقوله تعالى معللا أنه يصل الى الله (فانه يتوب) اى يرجع واصلا (الى الله) اى الذى له صفات الكمال فهو يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت (متابا) اى مرجعا مرضيا عند الله بان يرغبه تعالى فى الاعمال الصالحة فلا يزال كل يوم فى زيادة بنيته وعمله فيخف عليه ما كان ثقيلا ويتيسر عليه ما كان عسيرا ويسهل عليه ما كان صعبا كما مر فى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ولا يزال

ونظيره تحية يلقونه سلام أهل الجنة فى الجنة السلام لان المراد هنا بالتحية سلام بعضهم على بعض أو سلام.

كذلك حتى يحبه فيكون سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها
ورجله الذى يمشى بها فان يوفقه للخير فلا يسمع الاما يرضيه وهكذا * ولما وصف سبحانه وتعالى
عباده بانهم تحلوا بأصول الفضائل وتخلوا عن أمهات الرذائل ورغب فى التوبة لان
الانسان لعجزه لا ينفك عن النقص مدحهم بصفة أخرى وهى الصفة المذكورة فى قوله
تعالى (والذين لا يشهدون) اى لا يحضرون (الزور) اى القول المنحرف عن الصدق كذبا
كان أو مقاربا له فضلا عن أن يتفوهوا به للخبر فلا يسمعوا أو يقروا عليه فى مواعظ عيسى
ابن مريم عليه السلام اياكم ومجالسة الخاطئين ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور فحذف
المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه وعن قتادة مجالس الباطل وعن ابن الحنفية اللهو
والغناء وعن مجاهد أعياد المشركين ثم عطف عليه بما هو أعم منه بقوله تعالى (واذا مروا
باللغو) اى الذى ينبغى أن يطرح من الكلام القبيح وغيره (مروا كراما) اى آمرين بالمعروف
ناهين عن المنكر ان تعلق بهم أمر أو نهى اشارة أو عبارة على حسب ما يرونه نافعا فان لم يتعلق
بهم ذلك كانوا معرضين عنه مكرمين أنفسهم من الوقوف عليه والخوض فيه لقوله تعالى
واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين
ومن ذلك الاغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به
وعن الحسن لم تسفههم المعاصى وقيل اذا سمعوا من الكفار الاذى أعرضوا عنه * ثم ذكر
الصفة الثامنة بقوله تعالى (والذين اذا ذكروا) اى ذكرهم غيرهم كائنا من كان لانهم يعرفون
الحق بنفسه لا بقائله (بآيات ربهم) اى الذى وفقهم لبذكر احسانه اليهم فى حسن تربيته لهم
بالاعتبار بالآيات المرئية والمسموعة (لم يخروا) اى لم يسقطوا (عليها صما) اى غير واعين لها
(وعميانا) اى غير متبصرين بما فيها كمن لا يسمع ولا يبصر كابى جهل والاخنس بن شريق بل
خروا سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون راعية فالمراد من النفى نفى الحال وهى صما
وعميانا دون الفعل وهو الخر ورفالمراد نفى القيد دون المقيد كما تقول لا يلقانى زيد مسلما هو
نفى للسلام لا للقاء * الصفة التاسعة المذكورة فى قوله تعالى (والذين يقولون) اى علما منهم
بعد اتصافهم بجميع ما مضى انهم اهل للامامة (ربنا هب لنا من أزواجنا) اللاتى قرنتهن بنا
كما فعلت بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم فمدحت أزواجه فى كلامك القديم وجعلت مدحهن
يتلى على تعاقب الازمان والسنين (وذرياتنا قرة أعين) اى بان نراهم مطيعين لك ولا شئ أسر
للمؤمن من أن يرى حبيبه يطيع الله تعالى وعن محمد بن كعب ليس شئ أقر لعين المؤمن من
ان يرى زوجته وأولاده يطيعون الله وعن ابن عباس هو الولد اذا رآه يكتب الفقه وخصوا
الازواج والذرية بذلك لان الاقربين أولى بالمعروف * (تنبيه) * من فى قوله تعالى من
أزواجنا يحتمل ان تكون بيانية كانه قيل هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله من
أزواجنا وذرياتنا ومعناه ان اجعلهم لهم قرة أعين وهو من قولهم رأيت منك اسدا اى
أنت اسد وان تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة واصلاح
وأتى بجمع القلة فى أعين لان المتقين الذين يعملون الطاعة ويسرون بها قليلون فى جنب
العاصين وقيل سألوا ان يلحق الله بهم أزواجهم وذرياتهم فى الجنة ليتم لهم سرورهم ووحد

القرة

المراد بالتحية اكرام الله
سلام قولا من رب رحيم أو
سلام الله عليهم لقوله تعالى
الملائكة عليهم وبالسلام

القرة لانها مصدر وأصلها من البرد لان العرب تتأذى من الحر وتفروح الى البرد وتذكر قرة العين عند السرور وسخنة العين عند الحزن و يقال دمع العين عند السرور بارد وعند الحزن حار وقال الازهرى معنى قرة العين أن يصادف قلبه من يرضاه فتقر عينه عن النظر الى غيره وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بالف بعد الياء على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد (واجعلنا للمتقين اماما) اى أئمة يقتدون بنا فى أمر الدين باضافة العلم والتوفيق للعمل فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس كقوله تعالى ثم يخرجكم طفلا أو أرادوا واجعل كل واحد منا أو أرادوا جمع آم كصائم وصيام أو أرادوا اجعلنا اماما واحدا لاتحادنا واتفاق كلمتنا وعن بعضهم فى الآية مايدل على ان الرياسة فى الدين يحسن أن تطلب ويرغب فيها وقال الحسن نقتدى بالمتقين و يقتدى المتقون بنا وقيل هذا من المقلوب اى واجعل المتقين لنا اماما واجعلنا مؤتمين مقتدين بهم وهو قول مجاهد وقيل نزلت هذه الآية فى العشرة المبشرين بالجنة * ولما بين تعالى صفات المتقين المخلصين بين بعده احسانه اليهم بقوله تعالى (أولئك) اى العالو الرتبة العظيمة العظيمو المنزلة (يجزون) اى فضلا من الله تعالى على ماوفقهم له من هذه الاعمال الزاكية والاحوال الصافية (الغرفة) اى الغرفات وهى العلالى فى الجنة فوحد اقتصارا على الواحد الدال على الجنس والدليل على ذلك قوله تعالى وهم فى الغرفات آمنون وقيل هى من أسماء الجنة * ولما كانت القرب فى غاية التعب لمنافاتها لشهوات النفس وهواها وطبع البدن رغب فيها بان جعلها سببا لهذا الجزاء بقوله تعالى (بما صبروا) اى أوقعوا الصبر على أمر ربهم ومرارة غربتهم بين الجاهلين فى أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم وغير ذلك من معانى خلالهم * ولما كان المنزل لايطيب الا بالكرامة والسلامة قال تعالى (ويلقون فيها) اى الغرفة (تحية) اى دعاء بالحياة من بعضهم لبعض ومن الملائكة الذين لايرد دعاؤهم ولا يمترى فى اخبارهم لانهم عن الله تعالى ينطقون وذلك على وجه الاعظام والاكرام مكان ما أهانهم عباد الشيطان وقيل ملكا وقيل بقاء دائما (وسلاما) اى من الله والملائكة وغيرهم وسلامة من كل آفة مكان ما أصابوهم بالمصائب * اللهم وفقنا لطاعتك واجعلنا من أهل رحمتك وارزقنا مارزقتهم فى دار رضوانك ياأرحم الراحمين وقرأ حمزة والكسائى وشعبة بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف من لقى كما قال تعالى فسوف يلقون غيا والباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف اى يجعلهم الله تعالى لاقين بايسر أمر كما قال تعالى ولقاهم نضرة وسرورا (خالدين فيها) اى الغرفة لايموتون ولايخرجون مكان ما أزعجوهم من ديارهم حتى هاجروا ودل على علو أمرها وعظيم قدرها بابراز مدحها فى مظهر التعجب بقوله تعالى (حسنت) اى ما أحسنها (مستقرا) اى موضع استقرار (ومقاما) اى موضع اقامة وهذا مقابل ساءت مستقرا فى الاعراب * ولما شرح سبحانه وتعالى صفات المتقين وأثنى عليهم من أجلها وشرح ثوابهم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل) اى لكفار مكة (مايعبأ) اى مايصنع (بكم) أيها الكافرون من عبأت الجيش اولايعتد بكم (ربى) اى المحسن الى والمكرم برحمانيته المخصص لى بالاحسان برحيميته وانما خص بالاضافة لاعترافه دونهم (لولا دعاؤكم) اى عبادتكم وما تضمنه لمعنى الاستفهام

لهم بالهدايا والتحف وبالسلام سلامه عليهم بالقول ولو سلم انهما يجمعن فساغ الجمع بينهما الا لاذهما لفظا كما مر نظيره

وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر كأنه قيل وأي عبء يعبأ بكم لولا عبادتكم وطاعتكم إياه كما قال تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (فقد كذبتم) بما أخبرتكم به حيث خالفتموه وهذا على قول ابن عباس ومجاهد وقال قوم ما يعبأ ما يبالي بمغفرتكم ربي لولا دعاؤكم معه آلهة وما يفعل بعذابكم لولا شرككم كما قال تعالى ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم لولا دعاؤكم أي تضرعكم في الشدائد كما قال تعالى فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين وقوله تعالى فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ويجوز أن تكون ما نافية وجرى على ذلك الجلال المحلي (فسوف) أي فعقب عن تكذيبكم أن يجازيكم على ذلك ولكنه مع قدرته واختياره وقته لا يعاجلكم بل (يكون) جزاء هذا التكذيب عند انقضاء ما ضرب لكم من الآجال (لزاما) أي لازما يحيق بكم لا محالة فاعتقدوا وتهيؤا لذلك اليوم فكل آت قريب وكل بعيد عندكم قريب عنده وعن مجاهد هو القتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى لزاما قتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون وعن ابن مسعود خمس قد مضين الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن من قرأ سورة
الفرقان لقي الله وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب
فيها وأدخل الجنة بغير حساب حديث
موضوع والله
أعلم

(تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث أوله سورة الشعراء)